

# قلوب مع محمد

موقع المؤلف: [/http://noursalam.free.fr](http://noursalam.free.fr)  
بريد المؤلف: [nouresalam@hotmail.com](mailto:nouresalam@hotmail.com)

## الطبعة الأولى

### حقوق الطبع محفوظة

دار الكتاب الحديث - القاهرة -  
للطباعة والنشر والتوزيع

البريد الالكتروني	الفاكس	الهاتف	العنوان	الفرع
<a href="mailto:dkh_cairo@yahoo.com">dkh_cairo@yahoo.com</a>	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٢	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٠	ص.ب ٧٥٧٩ البريدي مدينة ١١٧٦٢ نصر - ٩٤ شارع عباس العقاد	القاهرة
<a href="mailto:ktbhades@ncc.moc.kw">ktbhades@ncc.moc.kw</a>	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٢٨	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٣٤	١٣٠٨٨ شارع الهلالى برج الصدىق ص.ب ٢٢٧٥٤	الكويت
<a href="mailto:dkhadith@hotmail.com">dkhadith@hotmail.com</a>	٢١٣٥٣٠٥٥	٢١٣٥٤١٠٥	ص ب ٠٦١ درارية الجزائر عمارة ٣٤	الجزائر

## من القرآن الكريم

- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأحقاف: ١٠)
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (الإسراء: ١٠٧، ١٠٨)
- ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ (القصص: ٥٢، ٥٣)
- ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمَا كَأْتَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٥)

## تنبيه

نحب أن ينتبه قارئ هذه السلسلة لما يلي:

١ — بما أن الغرض من هذه الرسائل هو أن تكون مدرسة تعلم فنون الحوار الإيماني، والجدال والتي هي أحسن، فقد اهتمنا في أصل الرواية بما يحقق هذا الغرض، ولم ننشغل عنه بأي شاغل.. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهي مما لا يمكن إدراجه في الأصل.. فلذلك اكتفينا بإيرادها في الهوامش..

فلذلك يحتاج من يتعلم من هذه الرواية مراجعة ما ورد في الهوامش والاهتمام بها باعتبارها معلومات أساسية تيسر عليه فهم وتحصيل ما يرد في أصل الرواية من معلومات.

٢ — أنا لم تهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر ما عدا ما يتعلق بالنصوص المقدسة الإسلامية والمسيحية.. أما سائر النصوص، فتوثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التي تهدف إليها هذه الرواية..

بالإضافة إلى أن أكثر ما نورده مما توزع وجوده في الكتب الكثيرة التي اهتمت بهذه الناحية.. ولهذا نكتفي بذكر المراجع العامة التي لجأنا إليها دون التدقيق في التوثيق في كل محل.

٣ — نحب أن نعتذر هنا عن عدم ذكر الصلاة على رسول الله ﷺ أو على الأنبياء، وعدم الترضي عن الصحابة والعلماء والأولياء — كما هو شأن المؤلفات الإسلامية — في بعض المواضع، أو في كثير منها، وذلك لأن الحديث المفترض فيها بحسب الرواية بين مسيحين.. والضرورة الفنية تقتضي أن لا نذكر ذلك حتى لا يؤثر في أصل الرواية وجانبا الفني.. ولا حرج على القارئ المسلم أن يصلي على رسول الله ﷺ والأنبياء كلما ذكروا بغض النظر عن كتابة ذلك..

٤ — قد يعترض بعض أدباء الأدب الواقعي على كثير مما يرد في هذه السلسلة مما لا يمكن انسجامه مع الجانب الفني الواقعي.. كحفظ أبطال الرواية للنصوص الطويلة مع كون بعضهم من العامة البسطاء.

ونحن نقدر هذا النقد.. ولكننا ننبه إلى أن الغرض من السلسلة ليس أحداث الرواية، وإنما الجانب العلمي منها.. وإنما ذكرنا هذه الأحداث لنمزج المعلومة التي قد تكون جافة بما ييسر تحصيلها من التشويق والمتعة. ولذلك إذا تعارض التشويق مع المعلومة قدمنا المعلومة عليه بناء على اعتبارها الأصل.

## المقدمة

في الليلة السادسة من زيارة البابا لي، أصابني أرق شديد حال بيني وبين النوم، فخرجت خارج غرفتي — كعادتي في مثل هذه المواقف — لأنشغل بعد النجوم والنظر في أشكال تجمعاتها.. فلم يكن يجلب النوم لعيني مثل النجوم.

بينما أنا كذلك، إذا بي أسمع صوتاً عذبا يصدر من غرفة البابا.. وكأنه لحن من ألحان السماء.. فاقتربت أسترق السمع، فإذا بي أسمع البابا، وهو ينشد بصوت خاشع، ممتلئ بحسرة الدموع، قول الشاعر الصالح، وهو يث أشواقه لرسول الله ﷺ:

كيف لا تسكب الدموع عيوني وهي من قبل أن تراك سجام  
كيف لا تذهل العقول وتفني أنفسُ العاشقين وهي كرام  
يا رسول الإله إني محبٌ لك والله شائق مسـتتهام  
يا رسول الإله في كل حينٍ لك مني تحية وسلام  
يا رسول الإله شوقي عظيم زائد والغرام فيك غرام  
يا رسول الإله إني نزيل ونزيل الكرام ليس يُضام  
سقطت دموع حارة من عيني.. وأنا أكاد أرى ذلك الشاعر الصالح، وهو بين يدي رسول الله ﷺ يخبره بما امتلأ قلبه به من محبته والشوق إليه.

وفي تلك اللحظات خطر على قلبي أجيال من المؤمنين من الذين ملأ حب رسول الله ﷺ عليهم كيانهم، فلم يرضوا لعروش قلوبهم المقدسة شمساً غير شمسه:

منهم ذلك الصحابي الجليل الذي جاء إلى رسول الله ﷺ ممتلئاً حزناً، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان مالي أراك محزوناً؟» فقال: «يا نبي الله شيء فكرت فيه»، فقال: «ما هو؟» قال: «نحن نغدوا ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين، فلا نصل إليك»<sup>١</sup>

ومنهم ذلك الرجل العظيم الذي جاء إلى النبي ﷺ، فقال: «يا رسول الله! إنك لأحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا

---

(١) روي هذا الأثر مرسلًا عن مسروق، وعكرمة، وعامر الشَّعبي، وقادة، وعن الربيع بن أنس، قال ابن كثير: وهو من أحسنها سندًا. (تفسير ابن كثير: ٣٥٤/٢)

أراك»<sup>١</sup>

ومنهم ثوبان مولى رسول الله ﷺ.. فقد كان — كما يذكر الرواة — شديد الحب له ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه، يعرف في وجهه الحزن؛ فقال له: «يا ثوبان ما غير لونك؟» فقال: «يا رسول الله ما بي ضر ولا وجع، غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة وأحاف ألا أراك هناك؛ لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين وأني إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا»  
وقد رسم الشاعر الصالح هذه المشاعر الصادقة، فقال:

شهود طلعة طه نعمة عظمت      قدراً وشاناً وكانَتْ أفضل النعم  
وكان ثوبان ذا وجه له شغف      بحبه دمعه يجري بمنسجم  
قال الرسول له: مالي أراك كذا      فقال: شوقاً لوجه منك مبتسم  
إني ذكرتكَ في سري وفي علني      ففاض دمعي وحي غير مكتسم  
فهل أراك بجنات الخلود أحب      نعم يكون بفضل الله ذي الكرم

وعلى هؤلاء جميعاً، وعلى جميع أجيال الأمة التي أحزمتها ما أحزمتهم نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩).. فلم يفرح الصحابة ولا الأجيال الكثيرة من الأمة بشيء فرحهم بهذه البشرية<sup>٢</sup>.

ساد صمت لذيذ على ذلك الجو الذي عبقت فيه أنفاس محبة النبي ﷺ سمعت خلاله البابا، وهو ينشد بنغم حاشع قول الشاعر:

يحن الجذع من شوق إليك      ويذرف دمعه حزنأً عليك  
ويجھش بالبكاء والنحيب      لفقْد حديثكمو كذا يديك  
فمالي لا يحن إليك قلبي      و حلمي أن أقبل مقلتيك  
و أن ألقاك في يوم المعاد      و ينعم ناظري من وجنتيك  
فداك قرابتيو جميع مالي      و أبذل مهجتي دوماً فداك

(١) رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه (صفة الجنة)، من طريق الطبراني، عن أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال، عن عبد الله بن عمران العابدي، به، ثم قال: لا أرى بإسناده بأساً، ورواه الطبراني في الأوسط برقم (٣٣٠٨) وقال: غريب من حديث فضيل ومنصور تفرد به العابدي، قال الهيثمي في الجمع (٧/٧): "رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران وهو ثقة."  
(٢) روى ذلك البخاري ومسلم.

تـدوم سـعادتيونعيم رـوحي إذا بـذلت حـياتي في رـضـاك  
حـيب القلب عـذر لا تـلمني فـحـبي لا يـحـق في سـمـاك  
ذـنـوبي أـقـعدتني عـن عـلو و أطمـح أن أقـرب مـن عـلاك  
لـعل مـحـبتي تـسـمو بـروحي فـتـجـير مـا تـصدع مـن هـواك

فتذكرت الجذع كيف حن شوقاً إلى رسول الله ﷺ.. فرددت بيني وبين نفسي قول الحسن البصري: (يا معشر المسلمين الخشبة نحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقاءه، فأنتم أحق أن تشاققوا إليه) قاطعتني ألحان البابا العذبة، وهي تردد قول الشاعر:

جاءت إليك حمامة مشـتاقـة تشكو إليك بـقلب صبـ واحف  
مـن أـخـير الـورقـاء أن مـقامـكم حـرموا نـك مـتـزل للـخـائف

فتذكرت تلك الحمامة العاقلة العاشقة التي حدث حديثها عبد الله بن مسعود، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ومررنا بشجرة فيها فرخا حمرة، فأخذناهما، قال فجاءت الحمرة إلى رسول الله ﷺ وهي تصيح فقال النبي ﷺ: «من فجع هذه بفرخيهما؟» قال: فقلنا: نحن قال: «فردوهما»<sup>١</sup>

قاطعتني ألحان البابا مرددة:

لا تـلومـوا أـحـدأ لا ضـطراب إذ عـلاه فالوجـدأ  
أـحـد لا يـلام فـهو مـحـبٌ ولكم أطـرب المـحـب لـقـاء  
فتذكرت تلك المحبة المتبادلة بين رسول الله ﷺ وجبل أحد، والتي عبر عنها ﷺ في قوله: «هذا جبل يحبنا ونحبه»<sup>٢</sup>

ردد البابا بشوق قصيدة أحمد شوقي المشهورة التي استهلها بفرح الأكوان بمحمد:

ولـد الـمدى فالـكائـنات ضـياء وفـم الزمـان تبسـمـو ثناء  
الـروحـو المـلأ المـلائـك حـولـه للـدينـو الـدنـيا بـه بشـراء  
و الـوحي يـقطـر سـلسـلاً مـن سـلسـل و اللـوحـو والقـلم البـسـديع رواء  
يـوم يـتـيه عـلى الزمـان صـباحه و مـسـاءه بمـحمـد و ضـاء  
بـك بشـر الـله السـماء فزـينـت و تـضـوعت مـسـكاً بـك الغـبراء  
يـا مـن له الأـخلاق مـا تـهو العـلا مـن هـاوما يـتـعشـق الكـبراء

(١) رواه أبو داود والحاكم وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) رواه البخاري.

زانتك في الخلق العظيم شمائل يغرى بهنيولسع الكرماء  
فشعرت بذلك الفرع العظيم الذي سرى في قلوب الأمة عندما جاءها الحبيب، فراحت تحتضنه بكل  
مشاعرها حتى نسيت في حبه النفس والأهل والمال.

في ذلك الحين تذكرت زيد بن الدثنة.. وما أدراك ما زيد بن الدثنة؟!  
لقد أخرجته أعداؤه من أهل مكة من الحرم ليقتلوه، فقال له أبو سفيان: «أنشدك بالله يا زيد أتحب أن  
محمدًا الآن عندنا مكانك لضرب عنقه وإتاك في أهلك؟» فقال زيد: «والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه  
الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإتي جالس في أهلي»، فقال أبو سفيان: «ما رأيت الناس أحداً يحب أحداً كحب  
أصحاب محمد محمدًا»<sup>١</sup>

وذكرت تلك الأنصارية التي قتل أبوها وأخوها وزوجها، فأخبروها بذلك، فقالت: «ما فعل الله برسول  
الله؟» قالوا: «بحمد الله كما تحبين»، قالت: «أرونيه حتى أنظره»، فلما رأته قالت: «كل مصيبة بعدك  
جلل»<sup>٢</sup>

وذكرت ذلك الرجل الصالح الذي ادخر لآخرته أعظم زاد يمكن أن يدخره مؤمن.. فعن أنس بن مالك  
قال: «بيننا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله، متى  
الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها؟» قال: «ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله»، قال: «فأنت  
مع من أحببت»<sup>٣</sup>

وذكرت تلك الأمنية العزيزة التي كانت تتردد في نفس ربيعة بن كعب الأسلمي.. فلما واثته الفرصة  
راحة يطلبها من رسول الله ﷺ.. قال يحدث عن نفسه: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوءه وحاجته، فقال  
لي: «سل» فقلت: «يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة»، فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: «هو ذاك»،  
قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»<sup>٤</sup>

وذكرت قول أنس بن مالك.. وهو يبين الأثر العظيم الذي أحدثه غياب رسول الله ﷺ.. لقد قال: لما  
كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها  
كل شيء ولما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا<sup>٥</sup>

\*\*\*

لم يخطر على بالي أولئك الأصحاب الأجلاء فقط في تلك اللحظات اللذيذة.. فقد كانوا بعضا من

(١) رواه ابن اسحاق وابن سعد.

(٢) رواه ابن اسحاق.

(٣) رواه الطبراني في الكبير.

(٤) رواه أبو داود والترمذي.

(٥) رواه الترمذي.



آلاف.. بل من عشرات الآلاف.. بل من ملايين المسلمين عبر أجيال المسلمين الطويلة..  
كلهم كانوا على قلب رجل واحد يمتلئون محبة وتعظيماً لرسول الله.. يجتمعون به وبجبهه والشوق إليه،  
ويفترقون على ذلك.  
وكانت المعاني النبيلة التي أشرفت عليهم من شمس محمد ﷺ تملؤهم بالسعادة والسكينة.. وتحول قلوبهم إلى  
قلب رجل واحد، فهم إخوة في الله، لهم شمس واحدة يستنبرون بنورها، ويستدفنون بدفتها.  
لكن مرارة الحسرة عادت، فكدرت ذلك الشوق اللذيذ..  
لقد اختلط ذلك الشوق اللذيذ لتلك الأجيال السامية بحسرة وألم على أجيالنا التي امتلأت قلوبها بالأهواء،  
فراحت تبحث في القمامات والمزابل والمستنقعات عن حب تملأ به قلوبها، فلم تجد في المزابل إلا الجرذان  
والخنافس.

\*\*\*

التفت البابا، فرآني، فقام من مجلسه، ودعاني أن أدخل عليه.  
دخلت، وحييته معتذراً عن تنصتي عليه، فقال: لا بأس عليك.. ربما لا يصلح لحديثنا الذي وعدتك به  
أمس إلا هذا المجلس.. وفي هذا الوقت من الليل الذي يفترش فيه المحبون أقدامهم ليتنعموا بحرارة الأشواق  
الرفيعة.

قلت: لقد سمعتك تنشده أبياتاً ممتلئة حبا سامياً، وأشواقاً طاهرة.  
قال: تلك بعض نفثات قلوب المحبين التي امتلأت بحرارة الإيمان والمحبة والشوق.  
قلت: أيام جميلة هي تلك الأيام التي عاصرها أولئك الشعراء.  
قال: وتلك الأيام لن تنقضي.. إن القلوب التي عبرت لرسول الله ﷺ عن محبتها وأشواقها لا تزال حية  
تنبض بالحياة.

قلت: أين ذلك.. وقد ملأ الإعلام المنحرف قلوب الناس بالأشواق المندسة، والههم المنحطة.. لقد صار  
الحب بين الناس — في ظل هذه الحضارة المتعفنة — مرادفاً للانحراف والفساد والرذيلة.. وصارت أشواق المحبين  
الرفيعة سلعة رخيصة تباع في سوق النخاسة.. وصار الأبطال في هذا الزمان هم كل راقص ومطبل ومزمر  
وناعق.

قال: ذلك سراب سرعان ما يفطن له الناس.. وذلك ضباب سرعان ما تشرق عليه الشمس لينقشع عن  
الحقيقة.

قلت: إلى متى؟!

قال: ذلك ليس بعيداً.. بل كل شيء يقرب إليه.

نظر من كوة النافذة إلى السماء الزينة بزينة النجوم، ثم قال: لقد عرفت في حياتي الطويلة كثيراً من الناس  
لاحظت في عيوتهم ووجوههم وقلوبهم حرارة الشوق العظيم إلى محمد ﷺ.. لقد تشرفت بلقائهم والحديث

إليهم..

قاطعته قائلاً: فهل ستحدثني عنهم؟

قال: أجل.. لقد وعدتك بذلك.. فسأحدثك اليوم عن القلوب التي امتلأت بحب محمد ﷺ.. أو شعرت في لحظة من لحظات الصدق بتعظيمها لرسول الله ﷺ ولما جاء به.

قلت: في أي بقعة من بقع العالم ظفرت بهذه القلوب؟

قال: في كل بقاع العالم التي زرتها.. ليس هناك محل في الأرض إلا وفيه من يلهج لسانه بذكر محمد، ويلهج قلبه بالشوق إلى محمد.

قال ذلك، ثم قام إلى محفظته، وأخرج دفترًا هو أشبه بالسفر، وقد كتب عليه هذا العنوان (قلوب مع محمد)، ثم سلمنيه، قلت: ما هذا؟

قال: في هذا الدفتر الذي صحبني طيلة فترات حياتي لم أسجل إلا نفحات الصدق التي فاهت بها الألسن في لحظات تقديسها.

فتحت الدفتر، فرأيت فيه أسماء كثيرة.. فسألت: ما هذه الأسماء؟

قال: هذه أسماء من قدر الله لي أن ألقاهم، وأتعمم بالحديث معهم عن رسول الله ﷺ، وقد كان كل فرد منهم شعاعًا من الأشعة التي اهتديت بها إلى شمس محمد ﷺ.

رحت أقلب الكتاب فهالتني كثرة الأسماء.. فرحت أسأل: أكل هؤلاء التقيتهم؟

قال: أجل.. كلهم قبض الله أن يكونوا سببًا من أسباب هدايتي.

قلت: فهلا أذنت لي، فوضعت فهرسًا ييسر عليك الاطلاع عليهم؟

قال: لقد فعلت.. لقد صنفت من رأيتهم إلى عشرة أصناف، يشملون أكثر أنواع الناس.. ففيهم: العامة والخاصة.. وفيهم الأدباء والفنانون.. وفيهم العلماء والأولياء.. وفيهم الأحرار والمفكرون.. وفيهم الأصدقاء والأعداء.

قلت:.. والأعداء؟!!

قال: أجل.. حتى الأعداء لم يملكوا — في لحظة من لحظات الصدق، أو لحظة من لحظات عودة الوعي — إلا أن يعبروا عن تقديرهم الشديد لرسول الله ﷺ.

قلت: فستقص علي قصة كل اسم من هذه الأسماء.

قال: لا يفني العمر جميعًا ببعض ذلك.. فلي مع كل اسم قصة من القصص.

قلت: فستحدثني عن بعضها..

قال: سأحدثك عن أفراد من كل صنف.. وأنت تستدل بمن ذكرت علي من لم أذكر..

قلت: ألم تلق معلمي (معلم السلام) في بداية هذا النوع من الأشعة، كما تعودت أن تلقه؟!!

قال: بلى.. لقد لقيته.. وقد كان سببًا في أن أتخذ هذا الدفتر..

قلت: فحدثني عنه، فما أعظم شوقي إليه.

قال: كان يوما من أيام الشتاء الباردة.. وكان الثلج يتساقط.. ونحن في مقبرة نشيع جثمان بطل من أبطال ألمانيا..

قلت: من هو؟

قال: أعفني من هذا السؤال.. فلو عرف أهل عصرنا هذا من هو لاتهموني أو اهتموا أخي بما لا طاقة لنا به.

قلت: فكيف التقيت معلم السلام في ذلك الموقف.. هل كان أحد المشيعين؟

قال: لست أدري.. فجأة استدردت، فرأيت خلفي، وهو ينظر باستغراق لأفواه المتحدثين، وهم يرسلون مرآتهم تصحبها دموعهم.

كنت أحسبه متأثرا كالجمع الحاضر.. ولكن وجهه الواجم لم يبد لي أي أثر أو أي تأثير.

بعد انتهاء حفل التأبين، اقتربت منه، وقلت: لا شك أنك حزين لفقد هذا البطل العظيم الذي امتلأت قلوب الدنيا حزنا عليه.

قال: ويوشك أن تمتلئ بغضا له.

قلت: أخفض من صوتك.. ما الذي تقول؟

قال: أقول الحقيقة.. لقد كنت أطلع وجوه المتحدثين.. فلم أر فيها أي نسمة من نسمات الصدق.. وكنت أحلل تلك الدموع، فلم أرها غير دموع التماسيح.. وكنت أحلل تلك الكلمات، فلم أرها غير أكاذيب المنافقين..

قلت: فكيف عرفت بارتداد القلوب عنه؟

قال: لأن القلوب لا يمكن أن تظل على النفاق.. والأعين لا يمكن أن تظل ترسل دموع التماسيح.

قلت: كل الناس يحصل لهم هذا.. يمدحون، ثم يهجون.. ويشكرون ثم يكفرون.

قاطعني، وقال: إلا الصادقون.. فالقلوب لا تزداد لهم إلا محبة.. والأعين لا تزداد لهم إلا شوقا.. والأفواه لا تزداد لهم إلا مدحا.

قلت: فمن هؤلاء؟!

قال: أنا أبحث عنهم.. لقد اتخذت دفترا أسجل فيه منحنيات الحب والبغض..

قلت: هذه أول مرة أسمع بهذا النوع من المنحنيات.

قال: لأن البشر انشغلوا بمنحنيات العمران عن منحنيات الإنسان.

قلت: عرفت قيمة منحنيات العمران.. فما قيمة منحنيات الإنسان؟

قال: لقد جعل الله في قلوب البشر جواذب نحو الحقيقة.. قد يشردون عنها، ولكنهم سرعان ما يعودون إليها.. هي كإبرة البوصلة.. تحركها ذات اليمين، وذات الشمال، ولكنها تأتي إلا أن تعود إلى المحل الذي تنجذب إليه.

قلت: عرفت قيمة إبرة البوصلة.. فيها تميز الشمال من الجنوب.. وبها تهتدي في طريق البر والبحر.

قال: وبوصلة القلوب نعرف الصادقين من الكاذبين.. ومهتدي إلى أهل الحقائق، وأهل الدجل.

قلت: لقد ذكرتني بما قالت لي العذراء في ذلك الحلم الجميل.. لقد قالت في وصف تلك الشمس المقدسة: «امتألت القلوب حبا لها، وشوقا إليها»<sup>١</sup>

قال: لقد ذكرت لك العذراء مقياسا من مقاييس الحقيقة.. فابحث عنه.. فكل من بحث وصل.

قلت: أين؟!

قال: سر في أرض الله.. واتخذ لنفسك دفترًا.. وابحث عن نبرات الصدق الحقيقي التي تنطلق من القلوب.. ففي تلك النبرات ما يدللك على تلك الشمس المقدسة.

قلت: لكل شخص وجهة هو مولياها.

قال: ولكن الناس يفترون في كل شيء إلا عند الشمس، فإنهم يجتمعون.. يجتمع الجميع.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد كنا نشيع ذلك البطل المهام في نظرنا.. وفي نظر أهل بلدنا؟!

قلت: أجل..

قال: ولكن قلوب الآلاف.. بل عشرات الآلاف.. بل الملايين.. تلحن هذا النعش الذي كنا نسمع تأيينه.

قلت: أجل.. وهم أحرار فيما يحبون، وفيما يبغضون.

قال: بل هم مجبرون على ذلك.. فلولا ما فعل بهم ما أبغضوه.

قلت: ولكن هؤلاء الذين أحبوه فعل لهم.. فلذلك أحبوه.

قال: وهذا مقياس آخر.

قلت: لم أفهم.

قال: هذا البطل المهام أرضى هؤلاء على حساب أولئك.. فلذلك أبغضوه.. وسيبغضه هؤلاء أيضا.. لأن القلوب لا بد أن تعود إلى لحظات الصدق لترى الإجماع إجراما والعدل عدلا.

قلت: فأين الذي يجتمع عليه كل القلوب؟

قال: ذاك ما أبحث عنه.. فمن ظفر به ظفر بالإكسير الذي يجعله إنسانا.

قلت: فسلمي دفتر قلبك لأنطلق مما وصلت إليه في بحثي.

قال: لا تسلم لك الحقائق إلا بالمعاناة.. فسر، وسل القلوب، وابحث.. فما وصل إلا من سار.

قال ذلك، ثم انصرف.

في ذلك المساء اشترت دفترًا.. وصرت أبحث عن كل نفحة صدق تفوح بها الألسن في لحظة تقدسها.

وهذا هو الدفتر.. وهذه قصته.

(١) انظر الرسالة الأولى من هذه السلسلة.



## أولا — العامة

فتحت دفتر البابا على فصله الأول، فوجدت عنوانه (العامة)، فقلت: من تقصد بالعامة؟  
قال: أقصد بهم أولئك البسطاء الذين لم تسجل أسماءهم في دفاتير المؤرخين مع أنهم هم الذين صنعوا التاريخ.

قلت: لقد كان هذا الصنف من الناس أكثر من اتبع الرسل.

قال: لأنه لم يكن لديهم من السلطان ما يخافون عليه، فلذلك لم ينحجوا بما انحجب به غيرهم.  
كان أول اسم سجله البابا في هذا الفصل اسم (الراعي)، فسألته عنه، فقال: هذا (الراعي).. وهو أول من رأيت حرارة الصدق في كلماتهم.. فلذلك كان أول من سجلت اسمه في هذا الدفتر.. والذي كان في ذلك الحين خالياً من أي عنوان.

قلت: فحدثني حديثه.

قال: في ذلك اليوم من أيام الربيع.. وفي بلدي الذي ولدت فيه.. وبعد لقيائي لمعلم السلام وإقناعه لي بتخصيص دفتر للكلمات الصادقة الصادرة عن القلوب المخلصة، خرجت إلى الحقول المجاورة لأتنسم عطر الهواء الذي لم يدنس بالمداحن، ولألتقي بالبشر الذين لم تخرجهم الحضارة عن فطرتهم.

وفي ذلك الحقل، التقيت ذلك الراعي الصادق الذي كان يمتلئ شوقاً لمحمد.

لقد وجدته جالساً بجانب نعجاته من غير أن يراه أحد، أو يسمعه أحد، وهو ينشدها بصوت عذب قول

الشاعر:

يا حبيباً علم الوجد هـواه      ياتراني بعهد صبر هل أراه؟  
يا جميلاً ليس خلق في البرايا      قط مثل أو قريب من بهاء  
بان في الأفلاك بدر أو هلال      يسلب الألباب بعض من سنانه  
ليس حسن في البرايا أو جمال      أو بديع من جمال ما عدهاه  
يا حبيباً لست أدري كيف أوفي      قدره العالي وفيضاً من عطاه  
ذاك قلبي هام وجرماً يا حبيبي      والهوى في وجدكم حقاً سباه  
يا دموعاً ذارفات في الليالي      هل لقاء في تعميم منتهاه  
يا لسعدي ساعة اللقياً بحبي      يا حبيباً حق سعدي في حماه!  
كيف أسلو يا حبيباً في فؤادي      جاوز الأحباب عشقاً فاكتواه  
كيف أسلو والحنايا لم تنزل      ترقب الوصل ووصلني لا أراه!

يا ليلال ذبت فيها من هواكم والتياعى يا حبيبي من شفاه؟  
طال بعدي بت ليلي من هواكم ضج قلبي هائمًا دمعي ذراه  
مال قلبي نحو حب ليس فيه غضة للقلب رقيق نقاهة!  
كلما هممت وزاد الحب فيكم زاد سعدي بالغائب منتهاه  
كيف لا والوعد منكم يا حبيبي أن ينال محبكم حقًا مناه  
اقتربت منه، وقد هزني إنشاده، فقلت: أنت عربي.. لاشك في ذلك.

قال: لا.. بل أنا ألماني.. نبتت شجرتي في هذه البلاد.  
قلت: ولكن أشجار هذه البلاد لا تتقن العربية.  
قال: لقد شوقني في العربية حبيبي الذي همت به.. فضبطت لساني على موجات لسانه، كما ضبطت قلبي على ترددات محبته.  
قلت: عهدي بالمحبين في بلادنا يتلاقون بمحبيهم كما يشتهون.. ولا يقتنعون بما تقتنع به من ترديد الأشعار.

قال: ومن قال لك بأن حي قد غاب عني.. إنه معي.  
قلت: ولكني لا أراه.  
قال: فأنت إذن لا تبصر.  
قلت: بل أبصر.. وأنا لا أرى أمامك إلا نعجاتك.  
قال: لو نظرت إلى إنسان عيني لرأيتيه، ولو حدثت في سويداء قلبي لوجدته مستويا على عرشه.  
قلت: لا طاقة لي بفك ألغازك، فحدثني عن حقيقة أمرك.. أخبرني عن حبيبي الذي ملكته قلبك وعقلك وروحك.

قال: محمد هو حبيبي الذي ملك علي عقلي وقلبي وروحي وجميع كياني.  
قلت متعجبا: محمد؟!  
قال: أجل.. محمد..  
ثم راح ينشد بصوت عذب قصيدة البوصيري:

محمد أشرف الأعراب والعجم محمد خير من يمشي على قدم  
محمد باسط المعروف جامعته محمد صاحب الإحسان والكرم  
محمد تاج رسل الله قاطبة محمد صادق الأقوال والكلم

محمد ثابت الميثاق حافظه	محمد طيب الأخلاق والشيم
محمد رويت بالنور طيبته	محمد لم يزل نوراً من القدم
محمد حاكم بالعدل ذو شرف	محمد معدن الإنعام والحكم
محمد خير خلق الله من مضر	محمد خير رسول الله كلهم
محمد دينه حق ندين به	محمد مجملًا حقًا على علم
محمد ذكره روح لأنفسنا	محمد شكره فرض على الأمم
محمد زينة الدنيا وبهجتها	محمد كاشف الغمات والظلم
محمد سيد طابت مناقبه	محمد صاغه الرحمن بالنعم
محمد صفوة الباري وخيرته	محمد طاهر من سائر التهم
محمد ضاحك للضيف مكرمه	محمد جواره والله لم يضم
محمد طابت الدنيا ببعثته	محمد جاء بالآيات والحكم
محمد يوم بعث الناس شافعنا	محمد نوره الهادي من الظلم
محمد قائم لله ذوهمم	محمد خاتم للرسول كلهم

قلت: فكيف اهتديت إلى محمد، وأنت من هذه البلاد التي لا تعرف محمدا.

غضب، وقال: كل البلاد تعرف محمدا.. بل كل الأشجار والحجارة والتربة تعرف محمدا.

قلت: أحدثك عن البشر.. لا عن الأشجار والحجارة.. فأخبرني خبرك.

قال: قصتي طويلة..

قلت: فقصها علي.

قال: سأقص عليك منها ما تحتاجه.. وأرغب بك عما لا تحتاجه.

قلت: كلي آذان صاغية لك.

قال: لقد وقعت في عز شبابي ضحية لشباك الحب المدنس..

قلت: ما الحب المدنس؟

قال: ذلك الحب الذي يتغنى به قومنا.. فيملؤون عروش قلوبهم بالمستنقعات الأسننة.

قلت: فكيف نجوت منه.. عهدي بمن يقع فيه يلم به ما ألم بالجنون من الجنون، أو ما ألم بعروة إخوانه

من الموت.

قال: تلك قصتي مع حبيبي محمد.



قلت: لم أفهم.

قال: لقد أذاقتني محبوبتي التي أسلمتها روحي من ألوان الهوان ما امتلأت به مرارة، فبعت لأجلها كل ما أملك، وأرضيتها بكل ما أطق أن أرضيها به، فلما نفذ ما عندي من مال ومتاع هجرتني.. بل باعتني لمن يملك ما لا أملك، ويقدر على ما لا أقدر.

قلت: فكيف نجوت من خنادق الهوى الوعرة؟

قال: بمحمد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: في تلك الأيام ظهر لي أن أسافر إلى اليمن.. ولست أدري كيف لاح لي ذلك الخاطر.. وقد كانت تلك الأيام تزدهي بميلاد محمد ﷺ.. فكانت الأفراح في كل جانب، وكانت القصائد العذبة تمتلئ بها الحناجر والأسماع.. وكنت أرى الفرحة تمتلئ بها القلوب غير شاعرة بتلك الفاقة التي تصيح بها الأجساد.

لقد أثرت في تلك المشاهد مع كوني لم أكن أعرف من العربية إلا ما أحتاجه في معاملاتي الضرورية.

قلت: فكيف فهمت ما يقولون؟

قال: حرارة الصدق والإخلاص جعلتني أستوعب كل ما يذكرونه، بل أعيه وعيا تاما.

قلت: أكان ذلك وحده هو الذي أنقذك من شباك الحب المدنس؟

قال: كان ذلك هو الباب.. وكانت تلك هي البداية.. لقد كان الإخلاص والصدق هو الذي جعلني

أنضم إلى تلك المجالس، وأجلس معها، وأحاول أن أستشعر المشاعر المقدسة التي تستشعرها..

لقد كان كل هدفي أن أنسى من جرعتني السموم.. ولم أكن أعلم أن الله الرحيم الرحمن يدخر لي

كل ذلك الفضل.

قلت: لم أفهم.

قال: في مجلس من تلك المجالس لاحت أنوار عظيمة غسلت جميع أدران قلبي، ومحت جميع ظلماته.. لقد

كانت أنوارا لذيذة وجميلة لا يمكن وصفها.

قلت: أنوار من تلك؟

قال: أنوار الشمس التي لا تغيب..

قلت: لم أفهم..

قال: لم يكن دليلي إلى محمد إلا محمد.

قلت: لا زلت لا أفهم.

قال: أنا لست فيلسوفا، ولا لي قدرة على الجدل، ولا على البحث المضني.. ولكن مع ذلك لي قدرة على

تلمس الصدق والإخلاص.. وقد رأيت في محمد منهما كل ما يملأ القلب بالحببة السامية.

قلت: والمسيح؟!.. ألم تكن مسيحيا؟

قال: بلى.. ولا أرى أن حيي للمسيح يعني عن حيي لمحمد.. ذلك أي لم أصل للمسيح إلا بعد أن وصلت

لمحمد.

قلت: كيف تقول ذلك، ومحمد جاء بعد المسيح.

قال: لقد عرض للمسيح قطاع طرق كثيرون شوهوه.. ولم يعد للمسيح جماله ولا كماله غير محمد.

قلت: فكيف تعلمت العربية.. وعلى من تعلمتها؟

قال: علمتني الحجة.. لقد جعلتني تلك العيون الصادقة أتعلم من غير معلم.

قلت: لقد رأيتك تردد أشعارا بليغة.

قال: تلك الأشعار من تلك المجالس.. لقد كنت جالسا في أحد تلك المجالس الآن.

قلت: أنت هنا الآن.

قال: أنا لم أخرج من هناك.. ويستحيل على قلبي أن يفارق موطن الأحبة.

قلت: ونعجاتك؟

قال: هي لا تشغلني.. بل لو اجتمع الخلق جميعا على أن يشغلوني فلن يشغلوني.

قال ذلك، ثم انصرف إلى نعجته، وهو يشدو بقول الشاعر:

دارُ الحبيبِ أحسُّ أن تمواها  
وعلى الجفونِ إذا هممتَ بزورٍ  
فلأنتَ أنتَ إذا حللتَ بطيبةٍ  
مغنى الجمال من الخواطرِ والتي  
لا تحسبِ المسكَ الذكيَّ كترها  
طابت فان تبغي لطيبٍ يافتي  
وابشرف في الخبر الصحيح تقررا  
واختصها بالطيبين لطيبها  
لا كالمدينة منزلٌ وكفى بها  
خُصت بمجرة خيرٍ من وطئ  
كُل البلادِ إذا ذُكرنَ كأحرفٍ  
حاشا مُسمى القدسِ فهي قريبةٌ  
لا فـرقَ إلا أن تُسمَّ لطيفةً  
وتجُنُّ من طربٍ إلى ذكراها  
يا ابن الكرامِ عليك أن تغشاها  
وظللتَ ترتعُ في ظلالِ رباها  
سلبتُ قلوبَ العاشقين حلاها  
هيهات أيمن المسكُ من رباها  
فأدم على الساعات لشم تراها  
إن الإله بطيبة سماها  
واختارها ودعا إلى سـكـناها  
شرفاً حلـول محمدٍ بفناها  
الثرى وأجلهم قدراً وأعظمِ جاهها  
في إسم المدينة لا خلا معناها  
منها ومكة إنما إياها  
مهما بدت يجلو الظلام سـناها

قد حاز ذات المصطفى وحواهَا  
كالنفس حين زكّت زكاً مأواها  
فغدت وكل الفضل في معناها  
الله شرفها به وحباهَا  
حيال الإله رسوله وسقاها  
كلّف شحّي ناحل بنواها  
فيظلل قلبي مُجعاً أوأها  
إلا رثت نفسي له وشجاها  
في إثر أحرى طالبين سيواها  
جزعاً وفجر مقلتي مياها  
فالخير أجمعه لدى متواها  
بركات بُقعتها فما أزاها  
ورفاهة لم يدر ما عقباها  
يُطغّي النفوس إلى حسيس منهاها  
بيسيرها وتحصنها بجماها  
حتى تُنافي مُهجتي أخواها  
فقبلتُ دعوها فيا بشراها  
وأعز من بالقرب منه يُهاهي  
داوى القلوب من العمى فشفاها  
تدعى الوسيلة خير من يُعطاها  
تدعى الوسيلة خير من يُعطاها  
يس أكسير الخامد طاهَا  
لو أن لي عدد السورى أفواها

جَزَمَ الجميعُ بأن خير الأراضِي ما  
ونعم لقد صدقوا بساكنها عَلَتْ  
وبهذه ظهرت مزينة طيبة  
حتى لقد خُصت بحجرة حبه  
ما بين قبرٍ للنبي ومنبرٍ  
هذي محاسنها فهال من عاشقٍ  
إني لأرهبُ ممن توقع بينها  
ولقلماً أبصرتُ حال مودعٍ  
فلكم أراكم قافلين جماعةً  
قسماً لقد أكسى فؤادي بينكم  
إن كان يُزعجكم طِلابُ فضيلةٍ  
أو خفتموا ضراً بها فتأملوا  
أف لمن يبغي الكثيرَ لشهوةٍ  
فالعيشُ ما يكفي وليس الذي  
يا رب أسأل منك فضلَ قناعةٍ  
ورضاكَ عني دائماً ولزومها  
فأنا الذي أعطيتُ نفسي سُؤلها  
بجوارِ أوفى العالمين بذمةٍ  
من جاء بالآيات والنور الذي  
أولى الأنعام بخطئة الشرفِ التي  
إنسانُ عين الكونِ شرفِ التي  
إنسانُ عين الكونِ شرفِ جود  
حسبي فلسفتُ أفني ببعضِ صفاته

كثرت محاسنه فأعجز حصرها فغدت وما تلقى لها أشباها  
سالت دموع حارة من عيني البابا، وهو يحدثني عن قصة هذا الراعي، فقلت: أرى أن هذا الراعي قد أثر  
فيك أيما تأثير؟

قال: أجل.. في ذلك المساء سطرت في هذا الكراس أول اسم من أسماء الصدق.. وفي ذلك اليوم عنونت  
هذا الدفتر بهذا العنوان، وقد كنت أحسب أنني سأضع دفاتر أخرى لشخصيات أخرى.. ولكنني كلما هممت  
بذلك انصرفت إلى محمد.

قلت: أراك وضعت في هذا الفصل أسماء كثيرة؟  
قال: كل هؤلاء من العامة البسطاء الذين أتيح لي أن ألتقي بهم، وأحادثهم عن سر إقبالهم على محمد ودين  
محمد.

قلت: كيف أتيح لك ذلك؟

قال: لقد لاحظت مراكز الدراسات المختلفة — والتي تزود الفاتيكان بما يحتاجه من معلومات — الإقبال  
الشديد على الإسلام رغم التشويهات الكثيرة التي تناله من وسائل الإعلام، وقد دفع ذلك الكنيسة إلى تكليفي  
بالبحث عن هؤلاء المسلمين الجدد والتحاوور معهم لنعرف سر الإقبال الشديد على الإسلام.

قلت: لقد أتيحت لك فرصة عظيمة إذن؟

قال: أجل.. لقد كانت هذه فرصة لا تعوض.. فقد أتيح لي أن ألتقي بأكثر عدد من المسلمين الجدد،  
والذين فتحوا لي قلوبهم، وحدثوني بكل إخلاص عن رحلتهم إلى الإسلام<sup>١</sup>.

قلت: في أي بلد تمكنت من لقاءهم؟

قال: في بلاد كثيرة.. فأنت تعلم سخاء الكنيسة.

قلت: فقد استغللت سخاء الكنيسة إذن؟

قال: لا.. لقد كنت صادقاً معها.. ولكن صدقي مع الحق كان أعظم من صدقي معها، فلذلك انشغلت  
بالبحث عن أسرار الصدق عن البحث الذي طلبته مني الكنيسة، وأحسبني قد عملت بإخلاص، ولم أتقاض  
على ذلك إلا ما هو حق لي.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد أريد من تلك الأموال التي صرفت على رحلاتي أن أسمع الحقائق من أهلها، وأنقلها بكل صدق  
وموضوعية، وأحسبني لم أفعل إلا ذلك.

**الفتى عماد:**

قلت دفتر البابا في هذا الفصل، فأريت اسم (الفتى عماد)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: قصة هذا الفتى مع

---

(١) من أهم مراجعي في أخبار المسلمين الجدد كتاب: رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا، إعداد: عبدالرحمن محمود،  
وموقع: <http://www.newmuslims.tk>

(٢) نقلاً عن كتاب: قصة الفتى النصراني الذي اهتدى.. (بتصرف)

الإسلام طويلة، ولا يمكنني في هذا المجلس أن أحدثك عنها جميعاً، ولهذا سأكتفي باختصارها لك أو ذكر ما تمس إليه الحاجة فقط منها.

قلت: فمن حدثك بما؟

قال: الشاب عماد نفسه.. لقد أتيت لي فرصة قدمت له فيها — بفضل الله — بعض الخدمات، وقد ارتاح إلي، وأخبرني عن قصته بتفاصيلها.

قلت: فحدثني بما وعدتني منها.

قال: لقد بدأ هذا الشاب الطيب الذي أنار الإسلام عقله وقلبه حديثه بحمد الله على نعمة الإسلام، ثم الصلاة على النبي ﷺ الذي جعله الله واسطة لتلك النعمة، ثم أخذ يحدثني عن أسرته قبل الإسلام وبعد الإسلام، فقال: كانت أسرتي تتكون مني وأختي وأمي وأبي.. أربعة أفراد فقط وكانت أسرة نصرانية متدينة تواظب على دروس الكنيسة وتؤدي العبادات النصرانية بانتظام، وكنت أختلف إلى دروس الكنيسة مع أسرتي وكنت أواظب على أداء الصلوات، وكان والدي يعمل في تجارة الحبوب، وكنت منذ صباي أأزومه في متجر الحبوب الذي كان ملكاً للعائلة الكبيرة التي تتكون من الجد والجددة والأعمام والعمات، وكانت لي مكانة مميزة لدى الجد والجددة برغم وجود أبناء العائلة وأولاد الأعمام، وكنت الأثير لديهم، وكنت سعيداً بهذه المكانة التي ميزتني عن أفراد العائلة وأبناء العم حتى إن الجد كان يفاخر دائماً أبناء العم بذكائي ومهارتي في التجارة برغم حداثة سني حينذاك مما كان يغيظ أبناء أعمامي جداً، وحتى عمي الذي لم يرزق أولاداً كان يبدي إعجابي بي ويقول: (إنني أعتبرك مثل ابني، وأنا على يقين بأن والدك لا يعرف قيمتك مثلي)

والحمد لله رب العالمين كنت ماهراً في التجارة ماهراً في التعامل مع الناس حتى اشتهرت بالدقة في الميزان وحسن التعامل مع المشترين، الأمر الذي حبيبهم في متجرنا وكان لي أسلوب اللطيف الطيب في المعاملة مما فطرت به ونشأت عليه، والحمد لله كنت بأسلوبي ذلك متمشياً مع أدب الإسلام الذي جعل الدين المعاملة والكلمة الطيبة صدقة والابتسام في وجوه الناس صدقة، وكنت سعيداً بهذا التقدير أما سعادة..

وقد كان أول ما هداني الله به إلى الإسلام أمي.

قلت: أكانت أمه مسلمة؟

قال: لا.. ولكنها كانت سبب دخوله الإسلام.. لقد ذكر لي هذا الشاب الفاضل أنه شعر بتوجه أمه نحو الإسلام وميلها إليه، وقد اكتشف ذلك من خلال تعلقها بدرس التفسير الأسبوعي للشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - فيقول: (لاحظت أن لحديث الشيخ الشعراوي الأسبوعي أثراً أشبه بالرعد في آذان المتعصبين من النصارى، وساعة الحديث الأسبوعي ساعة نحس عندهم، وتمثل عبئاً نفسياً ومعاناة لهم، بيد أن الأمر كان مختلفاً مع أمي كل الاختلاف حيث كنت أراها تفتح التلفاز وتشاهد درس الشيخ الشعراوي الأسبوعي يوم الجمعة فأسألها دهشاً: ماذا تصنعين؟! فتجيب قائلة: أتابع هذا الشيخ لأنظر ماذا يقول؟ وأسمعه

ربما يخرف!.. ولم أكن أدري أن ردها عليّ وقتها كان من باب التمويه حتى لا أحرر أبي<sup>1</sup> !  
وهناك برنامج آخر كانت تتابعه أمي، وهو برنامج (ندوة للرأي) أراها تشاهده، فلما أنكر عليها ذلك  
مستفسراً ترد قائلة: أشاهد وأسمع لأرى ما يقوله هؤلاء العلماء عن النصرانية والنصارى! فأسمع جوابها دون  
تعليق.. وأواصل مراقبتها، وكانت أمي سمحة المعاملة لطيفة المعشر، وكادت في معاملتها تبدو أقرب للإسلام  
والمسلمين، حتى أن أحد القساوسة سبها ذات مرة، لأنها قالت أمامه: (والنبي) على طريقة العامة من المسلمين  
في مصر، فسبها القس ونهرها قائلاً لها: أي نبي ذلك الذي تقصدين؟! وعنفها حتى سألت الدموع من عينها.  
ولما فكرت أمي في الإسلام، استدعتني ذات مرة وقالت لي: تعال يا عماد أنت ابني الوحيد ولن أجد أحداً  
يستري غيرك! فقلت لها خيراً يا أمي، فقلت: أنت ابني الكبير وأنا مهمما كانت الأمور وفي كل الأحوال  
أمك.. ومن المستحيل أن تتخلى عني أو ترميني في التهلكة، فقلت لها: نعم يا أمي. فقلت: ماذا تفعل لو أن  
أهلك قالوا عني كلاماً سيئاً ورموني بتهم باطلة؟! فقلت لها: ولم يفعلون ذلك وهم جميعاً يحبونك. قالت: ماذا  
تفعل لو حاولوا قتلي والتخلص مني؟ فقلت لها: كيف ذلك؟ ولم يحاولون قتلك وهم يحبونك؟! قالت: ماذا  
تفعل لو صرت مسلمة؟ هل ستحاربي مثلما الحال مع أبيك وأعمامك وأخوالك وأقاربك؟! فكانت إجابتي لها:  
الأم هي الأم، وأنت أمي في كل الأحوال.

قلت ذلك.. ولكن نفسي كانت ممتلئة بالمخاوف عليها، وقوى ذلك لدي كثرة مشاخرتها مع أبي في شأن  
رغبتها في اعتناق الإسلام.. وكان أبي يغضب من تهديدها بترك النصرانية ويتحداها أن تعتنق الإسلام.  
و ذات يوم عدت إلى المتزل قادمًا من المدرسة، فلم أجد أمي، فأخذت أسأل عنها في كل مكان يمكن أن  
تذهب إليه... وكانت الصدمة أي وجدت أنها أعلنت إسلامها أمام الجهات المسؤولة، وأنها لن تعود إلى  
البيت أبداً..

لقد جن جنون العائلة كلها وفقدت توازنها وصارت تقول في الإسلام والمسلمين كل ما يمكن أن يقال من  
ألفاظ السباب واللعن والتهديد والوعيد وصار الجميع من أخوال وأعمام فضلاً عن الأب في حالة عصبية  
انفعالية في الكلام والسلوك فهم غاضبون من كل شيء ومن أي شيء...  
و كنت أستمع إلى الشتائم توجه إلى أمي من الأقارب والأحوال والأعمام، فمن قائل: إنها كانت تشبه  
المسلمين في كذا وكذا، وهذا الخال يوجه كلامه إلي قائلاً: «انظر كيف تركتكم، وتخلت عنك وعن أختك؟!  
انظروا من سوف يرداكم ويقوم على تربيتكم؟!».. أما العم فقد كان يقول كلاماً مشابهاً ويقول موجهاً  
كلامه لي ولأختي: «تري لو ذهبت أنت وأختك إليها وتوسلتما إليها وبكيتمما بين يديها.. هل ترجع إليكم؟!»  
«

وكان العم يذهب إليها في الجهات المختصة ليوقع الإقرار تلو الإقرار بعدم التعرض لها.. وأحياناً كان

---

(1) ورد في النصوص ما يدل على جواز اللجوء إلى الكذب في مثل هذه الأحوال من باب الضرورة، فقد جاء في حديث  
الغلام والراهب والساحر قول الراهب: «إذا خشيت الساحر فقل: حسبي أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حسبي الساحر»  
الحديث رواه مسلم.

يلقاها ويستعطفها كي تعود إلى ولديها لشدة حاجتهما إليها، ولكن أمي رفضت بشدة بعدما ذاقت حلاوة الإسلام والإيمان وأسلمت لله رب العالمين وتركنا ودیعة عند من لا تضع عنده الودائع سبحانه هو خير حافظٍ وهو أرحم الراحمين، وأيقنت أن الله سوف يجرسنا بعينه ويرعانا برعايته<sup>١</sup>.

قال البابا: ثم أخبرني هذا الفتى عن بعض البلاء الذي تعرض له بسبب إسلام أمه، ثم كيف بدأ يتلقى أنوار الإسلام، فقال: أخذت العنوان وقفلت راجعاً إلى منزلنا أفكر في الأمر، وبعد يومين أو ثلاثة عزمْتُ على زيارة أمي على عنوانها الجديد في موعد يسبق يوم الثلاثاء اللاحق لموقف القس السابق في درس الكنيسة، وبلغت مسكن الوالدة وشاء الله أن يكون ذلك مع أذان المغرب.. يا سبحان الله.. وأستمع إلى أذان المغرب وكأني أسمع لأول مرة برغم سماعي له آلاف المرات ولكن الأذان هذه المرة وقع مغاير تماماً لما ألفته من قبل.

وتستقبلي أمي أثناء الأذان مرحبةً بي، وأراها وأسمعها تردد الأذان وهي لا تكاد تنتبه لحديثي إليها، وبعد الأذان ذهبت فتطهرت وتوضأت ثم دخلت في صلاتها وجعلت تتلو القرآن في الصلاة بصوت مسموع فكنت لأول مرة أسمع القرآن من أمي، إنها تتلو سورة الإخلاص، وكان لذلك وقع لا يوصف في قلبي وأثر ساحر في نفسي.

إن مشاعري في تلك اللحظة لا أقوى على وصفها، فقد شملني نورٌ ربانيٌ وتملكني شعور غريب تمنيت معه في تلك اللحظة لو جثوت على ركبتي وقبلت قدم أمي وهي تصلي، شعرت بشيء ما يغسل قلبي، وداخلي صفاءً ونقاءً لم أشعر بهما من قبل، أجل إن شعوري في ذلك اليوم لا يمكن وصفه أو التعبير عنه.. إنه روح جديدة تسري في جسدي وعروقي، أحسست بمدى الظلم الذي وقع على أمي من ذلك القس<sup>٢</sup> في درس الثلاثاء الماضي، تمنيت لو خنقته لافترائه على أمي دون وجه حق، لماذا يشوه سيرتها؟! أهذا عدل؟ وهل المسيح أمر بذلك؟!!

ولكن الأمر كان عند القوم مختلفاً إن لديهم قاعدة تقول: (ابحث عن الحروف الضال قبل أن تبحث عن أحد الغرباء ليدخل الكنيسة) والمعنى أنه يجب أن تبحث عن النصراني الذي ابتعد عن عبادة المسيح قبل أن تبحث عن أحد تغريه بعبادة المسيح، ويواصل الفتى تساؤله: لماذا يفترى ذلك القس على أمي؟ ويشنع عليها؟ ودخلت في صراع مع نفسي، وبعد الصلاة جاءت أمي بالطعام، وعرضت علي أن أتناول الطعام معها، وقالت: هيا لتأكل معي أم أنك تخشى أن تأكل معي؟! وأنظر بعينين تفيضان بالشوق إليها والإكبار لها، وأطالع في وجهها نوراً ونضارةً لم أعهدهما من قبل، إنها أم جديدة غير التي ألفتها من قبل، إنها مختلفةٌ تماماً.. ماهذه الوضاعة التي تنور وجهها!! مالذي حدث؟!.. ماذا حدث لأمي.. لقد عشت معها عمري.. ما الذي

---

(١) هذا الموقف مع ما فيه من الصدق والإخلاص إلا أن الداخل للإسلام لا ينبغي أن يفرض في أي شيء يربط بحياته ومسؤولياته، بل إن اعتناقه للإسلام لا ينبغي أن يزيده إلا حرصاً على هذه المسؤوليات.

وفي الأحكام الفقهية من التيسير في هذا الباب ما يرفع الحرج عن الداخلة إلى الإسلام من النساء من البقاء في بيت الزوجية، ولو ظل زوجها على كفره. انظر المسألة بتفاصيلها في (الضوابط الشرعية لحماية الزواج) من سلسلة (فقه الأسرة برؤية مقاصدية) للمؤلف.

(٢) ذكر هذا الشاب في كلام حذفناه أن قسا من القسس اهتم أمه في عرضها، وأنها سجت من طرف شرطة الآداب.

جد عليها؟! ما هذا النور الذي يفيض به وجهها!؟

وبرغم مشاعري المتناقضة وقتذاك من مشاعر حب الأم وكراهيتها لأنها خانت المسيح بتركها المسيحية.. إلا أنني أرى أُمي مختلفةً تمامًا أرى في وجهها نوراً وبياضاً وجمالاً لم أعهده في وجهها من قبل.. هل هي نضارة الإسلام؟ أم هو نور الإسلام؟.. وتناولت معها الطعام وكنا وحدنا لم يشهد هذا اللقاء أحد من أهلي.. ثم ودعت أُمي متوجهة إلى البيت أعود لأستلقي على سريري وأسترجع أحداث زيارتي لأُمي كأنها حلم جميل.. لا أكاد أصدق أن هذا حدث.. ويقترب موعد درس الثلاثاء التالي وأذهب إلى الكنيسة للاستماع إلى محاضرة القس الأسبوعية في يوم الثلاثاء التالي للثلاثاء الذي تعرض فيه لأُمي بالتشهير والشتيم.

وأعود إلى الكنيسة للاستماع إلى المحاضرة الأسبوعية وفي هذه المرة وخلال المحاضرة تجاوز القس كل الحدود في الإساءة لأُمي والتعريض بها وسبها وإهانتها بأقذر الأساليب وبأشنع الافتراءات للدرجة التي زعم فيها أنه تحدث معها في السجن وقد زارها فيه<sup>1</sup>، فأعجبُ لمستوى الكذب والزور والبهتان الذي بلغه القس، وأدهش لمستوى التدني الذي انحدر إليه، وبرغم ما يتمتع به ذلك القس وأمثاله من مكانة روحية كبيرة في نفوس أتباع الكنيسة إلا أنني وجدت نفسي لا أحتمل السكوت عليه وعلى وقاحته فاندفعت أصيح في وجهه قائلاً: كفى لي هذا الحد من فضلك.

وهذا أمر جليل أن يوقف فتى في سن المراهقة مثلي القس المحاضر في الجمهور وهو الأب الروحي للكنيسة وروادها، ويقاطعه فتى بهذه الجرأة وبهذا الأسلوب الغاضب المهين، ويواصل الفتى كلامه الغاضب للقس قائلاً: انظر من فضلك.. كفى لي هذا الحد، توقف! أنت كذاب.

ثم توجهت إلى جمهور الحاضرين قائلاً: يا جماعة، أنا كنت عند أُمي (وأقسمت لهم بقسم المسيح عندهم) أنني كنت عندها وعندما سمعت أُمي الأذان قامت فتطهرت وتوضأت وصلت، منتهى النقاء، والله رأيت في وجهها نضارة..

عندما قلت ذلك لاحظت وجوههم اسودت وكشروا عن أنيابهم عندما سمعوني أتحدث عن أُمي بهذه الطريقة وواصلت الحديث قائلاً لهم: والله إن القس لكذاب وأُمي ليست في السجن كما يزعم القس، وهاكم العنوان لمن يرغب بزيارتها.. أُمي بفضل الله رب العالمين حين سمعتها تقرأ القرآن أمامي كانت تغسلني وتطهرني، فقاطعتي القس قائلاً: اسكت يا ولد وإلا سأطردك خارج الكنيسة.

ثم حدثني الفتى عن لجوئه إلى الإنجيل لبحث فيه عن السكينة والهداية والهدوء فيكتشف أنه محرف، وأن القرآن الكريم هو كتاب الله حقاً، هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال: فالإنجيل عندما طالعتُه وجدته كتاباً كأَي كتاب يؤلف في سيرة شخص أو عظيم حيث تطالعك أخبار عن المسيح الذي يأكل والمسيح الذي يشرب والمسيح الذي يموت والمسيح الذي يقوم من الذي يتحدث بهذه الأخبار؟ هل هو الله؟ أم هو المسيح!؟

(١) بالرغم من عدم وثوقنا التام بما ذكر هنا إلا أن مثل هذا النوع من الكذب الفاضح مما تملئ به المواقع التبشيرية، فهم يفترون على علماء الأمة وصالحها بل على رسولها من الأكاذيب ما لا يمكن تصوره.



إن الإنجيل كتاب كأي كتاب يحكي قصة شخص أكل وشرب ونام، وفعل كذا من المعجزات أو له كذا من المعجزات والخوارق، من المتحدث في كل هذا؟ أو من الذي كتب هذه الأخبار بعد وفاة المسيح؟ ولماذا تتعدد الروايات وتختلف وتتناقض أحياناً بتعدد الأناجيل واختلافها، حتى والمسيح على الصليب - كما يزعمون - ينادي: (إيلي إيلي لماذا؟ شبقتي!)

أي: إلهي إلهي لماذا تركتني وخذلتني؟! لماذا؟ ينادي مَنْ؟ وهو من؟ وكيف يتخلى الأب عن ابنه وهو يستصرخه ويستنصره ويستنجد به؟! أهذا منطوق؟! أسئلة كثيرة رَسَمَتْ أمامي علامات استفهام كبيرة.

وقد أصاب الفتى الملل من قراءة الإنجيل - كما يحكي - لأن قراءته الإنجيل ضاعفت من حيرته ولم تجب عن أسئلته، وبمضي الفتى قائلاً: ولكن حرصي على الوصول للحقيقة دفعني لمزيد من المراجعة ومعاودة قراءة الإنجيل مرة أخرى حتى انتهيتُ من قراءته لأصل إلى الاطمئنان النفسي والعقلي والروحي فما وجدت إلا المزيد من الإبهام والغموض، فاشتدت حيرتي حتى طالعت في الإنجيل قول السيد المسيح: (الحق الحق أقول لكم: إن من يتبع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية)

الله أكبر. الله أكبر إذا جاءت صريحة وعلى لسان المسيح عبارته تلك التي تؤكد أنه رسول من عند الله، فقولته: (الحق. الحق) قسم وقوله: (إن من يتبع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني) تأكيد على أنه رسول من عند الله وقوله: (فله حياة أبدية) أي له الجنة والحياة الخالدة في الجنة.

قلت للبابا: فقد أسلم الفتى بعد هذا إذن؟

قال: أجل.. لقد أسلم.. وأسلمت بعد ذلك عائلته بعد عناء شديد تعرض له، ولكن الله أنقذه بفضله وكرمه كما ينقذ كل صادق ومخلص.

### الفتاة سناء:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سناء)<sup>1</sup>، فسألت البابا عنها، فقال: هذه فتاة هداها الله للإسلام، وقد التقيت بها في مصر، وكان مما ذكرته لي قولها: نشأت كأني فتاة نصرانية مصرية على التعصب للدين النصراني، وحرص والداي على اصطحابي معهما إلى الكنيسة صباح كل يوم أحد لأقبل يد القس، وأتلو خلفه التراتيل الكنسية، وأستمع إليه وهو يخاطب الجمع ملقنا إياهم عقيدة التثليث، ومؤكدا عليهم بأغلظ الأيمان أن غير المسيحيين مهما فعلوا من خير فهم مغضوب عليهم من الرب، لأنهم - حسب زعمه - كفرة ملاحظة.

كنت أستمع إلى أقوال القس دون أن أستوعبها، شأني شأن غيري من الأطفال، وحينما أخرج من الكنيسة أهرع إلى صديقتي المسلمة لألعب معها، فالطفولة لا تعرف الحقد الذي يزرعه القسيس في قلوب الناس.

كبرت قليلاً، ودخلت المدرسة، وبدأت بتكوين صداقات مع زميلاتي في مدرستي الكائنة بمحافظة

(١) انظر: كتاب (العائدون إلى الله) للشيخ محمد بن عبد العزيز المسند.

السويس.. وفي المدرسة بدأت عيناى تتفتحان على الخصال الطيبة التي تتحلى بها زميلاتي المسلمات، فهن يعاملنني معاملة الأخت، ولا ينظرن إلى اختلاف ديني عن دينهن — وقد فهمت فيما بعد أن القرآن الكريم حث على معاملة الكفار غير المحاربين معاملة طيبة طمعا في إسلامهم وإنقاذهم من الكفر، كما قال ﷻ: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة: ٨)

إحدى زميلاتي المسلمات ربطتني بما على وجه الخصوص صداقة متينة، فكنت لا أفارقها إلا في حصص التربية الدينية، إذ كنت — كما جرى النظام أدرس مع طالبات المدرسة النصرانيات مبادئ الدين النصراني على يد معلمة نصرانية — كنت أريد أن أسأل معلمتي كيف يمكن أن يكون المسلمون — حسب افتراضات المسيحيين — غير مؤمنين، وهم على مثل هذا الخلق الكريم وطيب المعشر؟ لكنني لم أجرؤ على السؤال خشية إغضاب المعلمة حتى تجرأت يوما وسألت، فجاء سؤالي مفاجأة للمعلمة التي حاولت كظم غيظها، وافتعلت ابتسامة صفراء رسمتها على شفيتها وخاطبتني قائلة: «إنك ما زلت صغيرة ولم تفهمي الدنيا بعد، فلا تجعلي هذه المظاهر البسيطة تخدعك عن حقيقة المسلمين كما نعرفها نحن الكبار»

صمت على مفض على الرغم من رفضي لإجابتها غير الموضوعية، وغير المنطقية. وتنتقل أسرة أعز صديقاتي إلى القاهرة، ويومها بكينا لألم الفراق، وتبادلنا الهدايا والتذكريات، ولم تجد صديقتي المسلمة هدية تعبر بها عن عمق وقوة صداقتها لي سوى مصحف شريف في علبة قטיפية أنيقة صغيرة، قدمتها لي قائلة: «لقد فكرت في هدية غالية لأعطيك إياها ذكرى صداقة وعمر عشانه سويا فلم أجد إلا هذا المصحف الشريف الذي يحتوي على كلام الله...».. تقبلت هدية صديقتي المسلمة شاكرة فرحة، وحرصت على إخفائها عن أعين أسرتي التي ما كانت لتقبل أن تحمل ابنتهم المصحف الشريف.

وبعد أن رحلت صديقتي المسلمة، كنت كلما تنأى إلى صوت المؤذن، مناديا للصلاة، وداعيا المسلمين إلى المساجد، أعمد إلى إخراج هدية صديقتي وأقبلها وأنا أنظر حولي متوجسة أن يفاجأني أحد أفراد الأسرة، فيحدث لي مالا محمد عقباه.

ومرت الأيام وتزوجت من شماس كنيسة العذراء مريم، ومع متعلقاتي الشخصية، حملت هدية صديقتي المسلمة (المصحف الشريف)، وأخفيته بعيدا عن عيني زوجي، الذي عشت معه كأى امرأة شرقية وفيه ومخلصة وأنجبت منه ثلاثة أطفال، وتوظفت في ديوان عام المحافظة، وهناك التقيت بزميلات مسلمات متحجبات، ذكرني بصديقتي الأثيرة، وكنت كلما علا صوت الأذان من المسجد المجاور، يتملكني إحساس خفي يخفق له قلبي، دون أن أدري لذلك سببا محددًا، إذ كنت لا أزال غير مسلمة، ومتزوجة من شخص ينتمي إلى الكنيسة بوظيفة يقتات منها، ومن مالها يطعم أسرته.

وبمرور الوقت، وبمحاورة زميلات وجارات مسلمات على دين وخلق بدأت أفكر في حقيقة الإسلام والمسيحية، وأوازن بين ما أسمع في الكنيسة عن الإسلام والمسلمين، وبين ما أراه وألمسه بنفسي، وهو ما يتناقض مع أقوال القسس والمتعصبين النصارى.

بدأت أحاول التعرف على حقيقة الإسلام، وأنتهز فرصة غياب زوجي لأستمع إلى أحاديث المشايخ عبر الإذاعة والتلفاز، لعلي أحد الجواب الشافي لما يعتمل في صدري من تساؤلات حيرى، وجذبتني تلاوة الشيخ محمد رفعت، والشيخ عبد الباسط عبد الصمد للقرآن الكريم، وأحسست وأنا أستمع إلى تسجيلاتهم عبر المذياع أن ما يرتلانه لا يمكن أن يكون كلام بشر، بل هو وحي إلهي.

وعمدت يوماً أثناء وجود زوجي في الكنيسة إلى دولابي، وبيد مرتعشة أخرجت كرتي العالي (المصحف الشريف) وفتحته وأنا مرتبكة، فوقعت عيناى على قوله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩) ارتعشت يدي أكثر وصببت وجهي عرقاً، وسرت في جسمي قشعريرة، وتعجبت لأني سبق أن استمعت إلى القرآن كثيراً في الشارع والتلفاز والإذاعة، وعند صديقات المسلمات، لكنني لم أشعر بمثل هذه القشعريرة التي شعرت بها وأنا أقرأ من المصحف الشريف مباشرة بنفسى. هممت أن أواصل القراءة إلا أن صوت أزيز مفاتيح زوجى، وهو يفتح باب الشقة حال دون ذلك، فأسرعت وأخفيت المصحف الشريف في مكانه الأمين، وهرعت لأستقبل زوجى.

وفي اليوم التالي لهذه الحادثة ذهبت إلى عملى، وفي رأسى ألف سؤال حائر، إذ كانت الآية الكريمة التي قرأتها قد وضعت الحد الفاصل لما كان يؤرقنى حول طبيعة عيسى عليه السلام، أهو ابن الله كما يزعم القسيس — تعالى الله عما يقولون — أم أنه نبي كريم كما يقول القرآن؟ فجاءت الآية لتقطع الشك باليقين، معلنة أن عيسى، عليه السلام، من صلب آدم، فهو إذن ليس ابن الله، فالله تعالى ﷻ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ (الإخلاص)

تساءلت في نفسى عن الحل وقد عرفت الحقيقة الخالدة، حقيقة أن (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) يمكن أن أشهر إسلامى؟ وما موقف أهلى منى، بل ما موقف زوجى ومصير أبنائى؟ طافت بي كل هذه التساؤلات وغيرها وأنا جالسة على مكنتى أحاول أن أؤدى عملى لكنى لم أستطع، فالتفكير كاد يقتلنى، واتخاذ الخطوة الأولى أرى أنها ستعرضنى لأخطار جمة أقلها قتلى بواسطة الأهل أو الزوج والكنيسة. ولأسابيع ظللت مع نفسى بين دهشة زميلاتى اللاتى لم يصارحنى بشىء، إذ تعودننى عاملة نشيطة، لكننى من ذلك اليوم لم أعد أستطيع أن أنجز عملاً إلا بشق الأنفس.

وجاء اليوم الموعود، اليوم الذى تخلصت فيه من كل شك وخوف وانتقلت فيه من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، فبينما كنت جالسة ساهمة الفكر، شاردة الذهن، أفكر فيما عقدت العزم عليه، تناهى إلى سمعى صوت الأذان من المسجد القريب داعياً المسلمين إلى لقاء ربهم وأداء صلاة الظهر، تغلغل صوت الأذان داخل نفسى، فشعرت بالراحة النفسية التى أبحث عنها، وأحسست بضخامة ذنبى لبقائى على الكفر على الرغم من عظمة نداء الإيمان الذى كان يسرى فى كل جوانحى، فوقفبت بلا مقدمات لأهتف بصوت عال بين ذهول زميلاتى: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله)، فاقبل على زميلاتى وقد تحيرن من ذهولهن، مهنتات باكيات بكاء الفرح، وانخرطت أنا أيضاً معهن فى البكاء، سائلة الله أن يغفر لى ما مضى من حياتى، وأن يرضى عني فى حياتى الجديدة.

كان طبيعياً أن ينتشر خبر إسلامي في ديوان المحافظة، وأن يصل إلى أسماع زملائي وزميلاتي النصارى، اللواتي تكفلن — بسبب سخطهن — بسرعة إيصاله إلى أسرتي وزوجي، وبدأن يرددن عني مدعين أن وراء القرار أسباب لا تخفى.

لم آبه لأقوالهن الحاقدة، فالأمر الأكثر أهمية عندي من تلك التخربات: أن أشهر إسلامي بصورة رسمية، كي يصبح إسلامي علناً، وبالفعل توجهت إلى مديرية الأمن حيث أنهيت الإجراءات اللازمة لإشهار إسلامي. وعدت إلى بيتي لأكتشف أن زوجي ما إن علم بالخبر حتى جاء بأقاربه وأحرق جميع ملابسني، واستولى على ما كان لدي من مجوهرات ومال وأثاث، فلم يؤلمني ذلك، وإنما تأملت لخطف أطفالي من قبل زوجي ليتخذ منهم وسيلة للضغط علي للعودة إلى ظلام الكفر.. آلمي مصير أولادي، وخفت عليهم أن يتربوا بين جدران الكنائس على عقيدة التثليث، ويكون مصيرهم كأبيهم في سقر.. رفعت ما اعتمل في نفسي بالدعاء إلى الله أن يعيد إلي أبنائي لتربيتهم تربية إسلامية، فاستجاب الله دعائي، إذ تطوع عدد من المسلمين بإرشادي للحصول على حكم قضائي بحضانة الأطفال باعتبارهم مسلمين، فذهبت إلى المحكمة ومعني شهادة إشهار إسلامي، فوقفت المحكمة مع الحق، فخبرت زوجي بين الدخول في الإسلام أو التفريق بينه وبينني، فقد أصبحت بدخولي في الإسلام لا أحل لغير مسلم، فأبى واستكبر أن يدخل في دين الحق، فحكمت المحكمة بالتفريق بيني وبينه، وقضت بحقي في حضانة أطفالي باعتبارهم مسلمين، لكنهم لم يبلغوا الحلم، ومن ثم يلحقون بالمسلم من الوالدين.

حسبتُ أن مشكلاتي قد انتهت عند هذا الحد، لكنني فوجئت بمطاردة زوجي وأهلي أيضاً، بالإشاعات والأقاويل بهدف تحطيم معنويات ونفسي، وقاطعتني الأسر النصرانية التي كنت أعرفها، وزادت على ذلك بأن سعت هذه الأسر إلى بث الإشاعات حولي بهدف تلوين سمعتي، وتخويف الأسر المسلمة من مساعدتي لقطع صلتهم بي.

وبالرغم من كل المضايقات ظللت قوية متماسكة، مستمسكة بإيماني، رافضة كل المحاولات الرامية إلى ردي عن دين الحق، ورفعت يدي بالدعاء إلى مالك الأرض والسماء، أن يمنحني القوة لأصمد في وجه كل ما يشاع حولي، وأن يفرج كربني، فاستجاب الله دعائي وهو القريب المجيب، وجاءني الفرج من خلال أرملة مسلمة، فقيرة المال، غنية النفس، لها أربع بنات يتامى وابن وحيد بعد وفاة زوجها، تأثرت هذه الأرملة المسلمة للظروف النفسية التي أحياها، وتملكها الإعجاب والإكبار لسمودي، فعرضت علي أن تزوجني بابنها الوحيد (محمد) لأعيش وأطفالي معها ومع بناتها الأربع، وبعد تفكير لم يدم طويلاً وافقت، وتزوجت محمداً ابن الأرملة المسلمة الطيبة.

وأنا الآن أعيش مع زوجي المسلم (محمد) وأولادي، وأهل الزوج في سعادة ورضا وراحة بال، على الرغم مما نعانينه من شظف العيش، وما نلاقينه من حقد زوجي السابق، ومعاملة أسرتي المسيحية، ولا أزال بالرغم مما فعلته عائلي معي أدعو الله أن يهديهم إلى دين الحق ويشملهم برحمته مثلما هداني وشملني برحمته، وما ذلك علي الله — سبحانه وتعالى — بعزير.

## سوسن هندي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سوسن هندي)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد التقيتها مع سناء.. وقد حدثني عن قصة إسلامها، فقالت: نشأت في أسرة مسيحية وكنت الابنة الوحيدة بين أربعة أشقاء من الذكور، ولذا كنت مدللة للغاية، وتعلقت بالإسلام منذ الصغر قبل أن أصل لمرحلة التفكير، ففي المرحلة الابتدائية كنت المسيحية الوحيدة في الفصل إلى جانب مسيحي آخر، وكنت أحرص على حضور درس الدين الإسلامي مع زميلاتي، وكان مدرس اللغة العربية بأسلوبه المحبب إلينا وشرحه المبسط يأسرني بما يرويه عن الإسلام.

وفي المرحلة الإعدادية كنت أحرص على استعارة كتاب الدين الإسلامي المقرر، وبني شغف شديد لاستيعاب كل ما فيه، كذلك كان حالي في المرحلة الثانوية، وكان كتاب (عبقرية عمر) للأستاذ محمود العقاد الذي كان مقرراً علينا في المرحلة الثانوية، نقطة تحول في تفكيري.

سكنت قليلاً، ثم قالت: رغم تشبث أبي بمسيحيته وتردده على الكنيسة إلا أن مكتبته الخاصة بمزنا بنا عدد كبير من الكتب الإسلامية، وكنت أتسلل إلى المكتبة في غيبته لأشبع نهمي للاطلاع المجرد بلا هدف، وبالتدريج تكونت لدي الرغبة في المزيد من البحث عن الجهول بالنسبة لي من أجل العلم والمعرفة.

في هذه المرحلة كنت مسيحية شديدة التعصب مواظبة على التردد على الكنيسة، وكنت أشعر بالغيرة على عقيدتي، وهي تتضاءل أمام الإسلام، وكنت أتمنى أن أرى — وقتها — في عقيدتي المسيحية من القيم والمبادئ القويمة في العقيدة والشريعة والسلوك ما هو موجود في الإسلام، وكان كل همي أن أستوعب (عبقرية عمر) المقرر علينا رغبة في الحصول على درجة كبيرة في اللغة العربية التي أعشقها، وحتى يتسنى لي الالتحاق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، ولم أكن أدري أن هذا القسم لا يلتحق به إلا المسلم أو المسلمة، وشخصية عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أذهلتني، وقد كان عليّ — رضي الله عنه — محقاً عندما قال: «عقمت الأمهات أن يلدن مثل عمر»

لقد أرسى أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — الدولة المسلمة سياسياً لكن عمر أرساها سياسياً وفكرياً معاً.

لم تكن أسرتي تشعر بشيء، بل كان والدي لا يرى مانعاً من مطالعتي للكتب الإسلامية لزيادة المعلومات لا أكثر، وكان هناك إنسان واحد يحس بي وبجيرتي، قس شاب متفتح حر التفكير، كان يقول لي: (أنت ملزمة بما ترين، ولست بملزمة بنصوص الإنجيل التي تقلقك، إني أراك باحثة عن الحقيقة)

وعندما علم مجزني لعدم التحاقني بقسم اللغة العربية، أشار علي بقسم التاريخ، وقال لي: (ستجدين في التاريخ ما تبحثين عنه)، وكان هذا القس يحمل ليسانس آداب قسم تاريخ.

توفي القس، وكم حزنت على وفاته، فلم أشك لحظة واحدة في أنه مؤمن يكتنم لإيمانه، وزاد حزني أن القس الذي حل محله، كان على عكسه تماماً، وكان يضيق بمحاورتي له، وما أكثر ما قال لي: إنك تفسدين زميلاتك الشابات في الكنيسة.

فقدت الثقة في الإنجيل وعندما التحقت بالجامعة.. حملت معي فكراً قلقاً بالنسبة لمسيحيي وفقدت الثقة في الأناجيل وشروحاتها الكثيرة، ولكنها على طرفي نقيض، ولكن لا أكتمك سرّاً حين أقول: إن الإنجيل كان عاملاً مساعداً لي على إشهار إسلامي وطالما وضعته أمام القرآن الكريم في إطار المقارنة فأحسست بأن لا وجه للمقارنة.

كان الحوار بيني وبين الشباب المسلم داخل الجامعة على أشده ولكن بروح سمحة، وما أن ينتهي الحوار حتى نعود أصدقاء، وفي السنة الأخيرة قررت أن يكون حوار مع أستاذ بالكلية، هذا الأستاذ كان على بينة من دينه في غير تعصب.

وقبل امتحان السنة النهائية، فاجأت الأستاذ بعزمي على الدخول في الإسلام عن اقتناع تام، ودهشت عندما طلب مني أن أتريث حتى أنتهي من الامتحان، لكنني أصررت على موقعي.

وغادرت منزلي لأعيش في ضيافة أسرة إحدى زميلاتي حتى استطعت إشهار إسلامي، حينها جن جنون أسرتي التي فقدت كل أمل في أن أعود إليها، وأبلغوا عني أنني مخطوفة، ولكنني ذهبت إلى الأجهزة المختصة وكتبت إقراراً بأنني لست محتطفة.

بعدها تزوجت شاباً مسلماً ملتزماً من الذين كنت أحاورهم في الجامعة ولم تتعد أو تتجاوز علاقتي به حدود الحوار، ولكن ما إن علم بإعلان إسلامي حتى بادر بالتقدم لخطبتي وقبلت على الفور، وكنت أعرف فيه دماثة الخلق وهدوء الطبع بالإضافة إلى استقامته والتزامه بدينه، قد رحبت أسرتي بي ترحيباً شديداً وأحسست بأنني في أمان بين هذه الأسرة المؤمنة، وحاولت وكنت أود أن تكون هناك صلة بيني وبين أسرتي.. فإله سبحانه وتعالى يقول في محكم التنزيل: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (لقمان: ١٥) حاولت أن أكون على هذا المثال ولكن بلا جدوى، وقد رأى زوجي أن أبدأها بالزيارة، وبالفعل قمت بزيارة أبي إلا أنه رفض هذه الزيارة، ونصحتني بعدم زيارة أمني وأخوتي.

وأخيراً أقول: الحمد لله.. أنا الآن ربة بيت أبحث عن عمل يليق بي حيث أعيش مع زوجي وابنتي أسماء وإسراء، وأكتب في بعض المجالات والصحف الدينية، وشغلي الشاغل حالياً أن يظهر أول كتاب لي وهو (قصتي مع الإسلام)

### إيفا ماريا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إيفا ماريا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذه سيدة ألمانية، وقد التقيت بها في بلدي ألمانيا، وقد حدثتني عن قصة دخولها الإسلام، فقالت: لقد وجدت بادية الأمر أن صورة المعبود عند النصراني قريبة جداً منا معشر البشر، وقد أضيفت عليها صفات الإنسان لدرجة لا تجعلها تنطبق على خالق كل شيء، كما أن صورة السيد المسيح عليه السلام التي يجمع فيها بين الإنسان وصفة الخالق، هذه الصورة لا يمكن تصديقها أبداً.

إلى جانب ذلك، فقد ورد بخاطري أن المسيحية ليست إلا علاقة بين الإنسان وربّه، ولا شأن لها بأى حال

من الأحوال بشعون الناس الاعتيادية كالثقون المالية مثلاً أو العمالة أو أى نوع من أنواع التقنين لحياة الناس، أضف إلى ذلك التوجيهات العامة، التي وجدت أنها عسيرة التطبيق، ومن ذلك مبدأ المحبة، محبة الإنسان لأخيه الإنسان، هذا المبدأ لا يمكن أن تطبقه جماهير الناس في ظل العقيدة النصرانية.

هذه الأفكار التي كانت بخاطري وقعت إبان الفترة التي تسمى فترة تمرد الطلاب على الرأسمالية، فعندما بحثت هذه القضايا مع زميل مسلم — أصبح فيما بعد زوجاً لي — وجدت أن الإسلام قد وضع في اعتباره كل هذه المشكلات، واهتم بها أعظم الاهتمام كمشكلة الاستغلال أو القوانين العامة الديمقراطية وغير الديمقراطية ومشكلة المال والإقتصاد وغيرها.. فقد أوجد الإسلام الحلول المناسبة لكافة هذه المشكلات الدنيوية.

وكم كان تأثرى عظيماً حينما علمت أن الإسلام يعترف بالإنسان باعتباره مخلوقاً له روح وحسد في آن واحد، كما أحببت مبدأ الاتصال المباشر بين الإنسان وخالقه دون أية وساطة من أى نوع بينهما، فقد شعرت أن من اللائق جداً للإنسان أن يخضع لخالقه فقط لا لأى أحد من خلقه.

كذلك شرح لي زميلي المسلم بأنه لا يوجد في الإسلام أى فصل بين الدين والدولة، فاقتنعت بذلك تماماً، حيث وجدت من الضروري أن لا يقتصر الإيمان والاعتقاد الديني على الشؤون الشخصية فحسب، بل لا بد أن يشمل كافة جوانب الحياة الإنسانية.. وهذه صفة مميزة وخاصة فريدة للدين الإسلامى الخفيف، فهو لا يرفع شعار (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، بل على العكس من ذلك تماماً إذ أن العبادة في الإسلام لا تقتصر على المساجد، بل تمتد لتشمل الحياة البشرية بأسرها.

سكنت قليلاً تسترجع ذكرياتها، ثم قالت: عندما كنت أمر في هذه المرحلة من تجميع المعلومات والقيام بدراسات دينية صادفت بعض المصاعب والعقبات، وكان عسيراً على نفسى أن أتقبل القيود التي يفرضها الإسلام على المرأة، والتي ظننت خطأ حينذاك أنها تحد من حريتها الشخصية، وهذه على كل حال هي نفس الحرية والتسيب الذى أعتدت أن انتقده في ديانتى السابقة، وهي حرية يساء فهمها واستخدامها فقد اكتشفت أن الفهم النظرى شىء والتطبيق العلمى شىء آخر تماماً، وأذكر هنا اللباس الإسلامى للمرأة، فقد كان في البداية مشكلة كبرى بالنسبة لي، وأظن أن هذا ينطبق على معظم السيدات الألمانيات المسلمات، فيلى جانب الإحساس بعدم الارتياح والشعور بالحر الشديد والمرأة في لباس كامل في الصيف، فقد كان من العسير على أن أصمد أمام اسئلة التهكم والاحتقار التي كانت توجه لي، وقد استمر ذلك حتى وفقني الله إلى الرد بإجابات كريمة وردت لي اعتبارى أمام نفسى وأمام الناس، دون أن أحس بأننى قد أوذيت أو أخدش حيائى.

ثم تعرفت على مجموعة من الشابات المسلمات، فكم كان تأثرى عظيماً لما لمستته بين أفرادها من حب وجو أخوى يسود بين الجميع، وهو جو يختلف تماماً عما هو سائد بين أى جماعة عرفتها من قبل، فقد منحنى الانضمام إلى هذه الجماعة الإسلامية إحساساً بالسعادة واليقظة، وهكذا اقتنعت أنني اتخذت القرار الصحيح حين أصبحت مسلمة، وقد كان ذلك الإحساس بمثابة تعويض مناسب لكل ما لقيته من عقبات نتيجة لهذا القرار، ولدينا الآن اجتماع أسبوعى للمرأة المسلمة مع أطفالنا حيث نتعلم المزيد عن ديننا الإسلامى الجديد.

**كايي ستاربيك:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كايسي ستارك)، فسألت البابا عنه، فقال: هذه سيدة أمريكية، وقد حدثني عن نفسها، فقالت: إدراكي الأوتوي حول فكرة الخلاص المسيحية جاء بعد تعميدي وأنا في سن مبكر في إحدى الكنائس المعمدانية الجنوبية، فقد علمت في مدرسة الأحد: (إذا لم تكوني موعمة، فإنك ستذهبن إلى جهنم)

حصل تعميدي لأنني كنت أريد إرضاء الناس، فقد سألت أمي عن التعميد — حين جاءت إلى غرفتي في إحدى الأمسيات — فشجعتني لكي أفعل ذلك، وهكذا قررت في يوم الأحد التالي أن أذهب إلى مقدمة القاعة الكنسية، وخلال التراتيل النهائية للموعظة، توجهت سائرة إلى الأمام لأقابل الراهب الشاب.. كانت هناك ابتسامة على وجهه، فحياني، وقعد بجانبني على المقعد الطويل. سألتني: لماذا تريدان أن تفعلني هذا؟.. انتظرت برهة ثم قلت: لأنني أحب المسيح، وأنا أعرف أنه يحييني. وبعد انتهاء هذا التصريح، جاء إلي أعضاء الكنيسة وعانقوني.. على أن تكون مراسم الغمر في الماء بعد بضعة أسابيع.

خلال سني عمري المبكرة في الكنيسة — وحتى في صف الروضة — أذكر أنني كنت مشاركة في الإيقاع الصوتي أثناء دروس مدرسة الأحد. فيما بعد — أثناء سني مراهقتي الأولى — كنت عضواً في مجموعة البنات الفتيات، والتي التقت في الكنيسة من أجل النشاطات الأسبوعية، وقامت بالتنظيم سنوياً من أجل الرياضة الروحية. وفي صباي حضرت مخيماً مع أعضاء أكبر مني سنّاً من المجموعة الشبابية. وعلى الرغم من أنني لم أفض الكثير من الوقت معهم في السابق، إلا أنهم كانوا يعرفوني كابنة المنسق للشبيبة، أو الفتاة التي تعزف البيانو في المناسبات الكنسية الخاصة.

وفي إحدى أمسيات هذا المخيم كان هناك رجل يتحدث عن زواجه. تحدثت عن قصة لقاءه بزوجه. لقد ترعرع في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تُعتبر المواعدة أمراً طبيعياً، ولكن — في تقاليد تلك الفتاة — كان بإمكانه فقط أن يلتقي بها برفقة حارس معهما، وبما أنه كان مُعجباً بما فقد قرر أن يستمر في لقاءها. وكان هناك شرط آخر، وهو أنهم لم يكن بإمكانهما أن يلمس أحدهما الآخر حتى يعقدا الخطبة. وبعد أن تقدّم لطلب يدها، سُمح لهما بإمسك الأيدي. كان هذا ممّا حيرني، وما زال يُشعرن بالرهبة. فقد كان من الجميل أن أفكر بأن مثل هذا الاكتشاف عن شخص آخر كان يمكن أن يظلّ سرّاً حتى تمّ هذا الاعتراف. ومع أنّ القصة أمتعتني، إلا أنني لم أكن أظنّ أبداً أنها يمكن أن تتكرّر.

بعد بضع سنوات، تطلّق والداي، وتغيّر دور الدين في حياتي. فقد كنت دائماً أنظر إلى عائلتي من خلال عيون طفلة، فكانوا بذلك مثاليين. فقد كان والدي شماساً في الكنيسة وذو احترام كبير، وكان معروفاً من الجميع. وكانت والدي نشطة في مجموعات الشبيبة.

عندما غادرت أمي البيت، أخذت دور العناية بأبي وأخوي الاثنين. واستمرّ زهابنا إلى الكنيسة، ولكن بسبب زيارتنا لأمي في عطلة نهاية الأسبوع، أصبحت زيارتنا للكنيسة أقل. عندما كنّا في بيت والدي، كنّا نتجمع ليلاً — وفي كل ليلة — لقراءة الرسالة الأولى إلى مؤمني كورونثوس (١-١٣) والتي تتحدث عن المحبة

(١) المراد هنا عقد الزواج لا مجرد الخطبة كما هو معلوم.



والإحسان. وقد كرّرت القراءة معهم مرّاتٍ كثيرةً جدًّا حتى حفظتها عن ظهر قلب. فقد كانت تمثل نوعاً من الدّعْم المعنويّ لأبي، على الرغم من أنّي لم أكن أفهم لماذا.

وفي فترة ثلاث سنواتٍ متتاليةٍ انتقل أخي الأكبر، ثمّ أخي الأصغر، ثمّ أنا إلى بيت والدي. وفي ذلك الوقت لم تعد أُمّي تذهب إلى الكنيسة، وهكذا وجد أخواي أنّ الذهاب إلى الكنيسة ليس ضروريّاً. وانتقالي إلى بيت أُمّي — خلال السنّة قبل الأخيرة من مرحلة الدّراسة الثّانويّة — أنشأت صداقاتٍ جديدةً، واكتشفت طريقةً مختلفةً في الحياة. ففي يومي الدّراسيّ الأوّل تعرّفت إلى فتاةٍ كانت غايةً في اللطف. وفي اليوم الدّراسيّ التّالي دعّنتي لزيارتها في بيتها خلال عطلةٍ نهاية الأسبوع، لأقابل عائلتها وأزور كنيستها. تقبّلتني عائلتها على الفور كفتاةٍ طيِّبةٍ وقُدوةٍ حسنةٍ لها. وأيضاً صدمتني المفاجأة من جماعة المصلين الذين حضروا إلى كنيستها، فعلى الرغم من أنّي كنت غريبةً عنهم إلّا أنّ كلّ النّساء والرّجال حيّويّين بالعناق والقَبْل وجعلوني أشعر بأنّي في موضعٍ ترحيب.

بعد قضائي المستمرّ للوقت مع هذه العائلة، وذهابي إلى كنيستهم في عُطَل نهاية الأسبوع، بدأوا يحدّثونني عن معتقداتهم الخاصّة في كنيستهم — كنيسة المسيح — فهذه الطّائفة تسير على العهد الجديد (أو التطبيق الحرفيّ لكتابات بولس). فلم يكن لديهم آلاتٌ موسيقيّةٌ في الكنيسة أثناء الصّلاة، بل الغناء الصّوتيّ فقط؛ ولم يكن هناك وُعَاظٌ مدفوعي الأجر، بل كان بعض كبار السنّ يقودون الصّلاة. ولم يكن يُسمح للنّساء بالحديث في الكنيسة. ولا يحتفلون بعيد الميлад، والفصح، وباقي الأعياد. وكان النيذ والخبز غير المخمّر يُقدّمان بالمشاركة كلّ يوم أحد. وكان التعميد يتمّ فوراً، وفي اللحظة التي يقرّر فيها الآثم بأن يصحّ مؤمناً. وعلى الرغم من أنّي كنت أعتبر مسيحيّةً، إلّا أنّ أعضاء كنيسة المسيح كانوا يعتقدون بأنّي سأذهب إلى جهنّم إذا لم أتعهد مُجددًا في كنيستهم وعلى طريقتهم. فكان هذا أوّل انفجار رئيسيّ في نظامي العقائديّ. فهل أنا ترعرت في كنيسةٍ كان كلّ ما فيها يُعمل بطريقةٍ خاطئة؟! وهل كان يتوجّب عليّ حقًّا أن أتعهد مرّةً أخرى!؟

عند هذه النقطة كان لي نقاشٌ مع أُمّي حول العقيدة. حدّثتها عن ارتباكي، وأنّي فقط أحتاج إلى من يوضح لي الأمور. وأصبحت ناقدةً للطّقوس الدّينيّة في كلّ الكنائس، لأنّ الوُعَاظ يحكون لنا القصص فقط، ولا يُركزون على الإنجيل. ولم يكن باستطاعتي أن أفهم: إذا كان الإنجيل مهمًّا جدًّا، فلماذا لا يُقرأ لوحده في الصّلاة الكنسيّة؟

ومع أنّي فكّرت بالتعميد كلّ يوم أحد، ولفترةٍ تُقارب السنتين، إلّا أنّي لم أستطع أن أتقدّم للتعميد. كنت أُصلّي لله تعالى ليدفعني للأمام إن كان فعل ذلك صائباً، ولكنّ هذا لم يحدث أبداً.

في السنّة التالية، ذهبت إلى الكليّة وأصبحت منفصلةً عن كلّ الكنائس، كإنسانٍ يبدأ من جديد. في بعض أيّام الأحاد كنت أزور بعض الكنائس مع الأصدقاء، فقط لأشعر بلحظات نقدٍ للطّقوس الدّينيّة. حاولت الانضمام إلى الجمعيّة الطّلاييّة المعمدانيّة، ولكنّي شعرت بأنّ الأشياء خاطئة هناك أيضاً. فقد جئت إلى الكليّة مُعتقدةً بأنّي سأجد شيئاً يشبه كنيسة المسيح، ولكنّ مثل ذلك لم يوجد. وعندما كان يصادف وأعود إلى منزل والدي أيّام العُطَل الأسبوعيّة، كنت أزور الكنيسة لكي أحصل على شعورٍ فوريٍّ بالمشاركة الاجتماعيّة

والترحيب.

في سنتي الثانية في الكلية أمضيت أيام الأحاد بالغناء في الجوقة الموسيقية لكنيسة (ويك فوريسست)، لأنني كنت أكسب مبلغاً جيداً من المال. ومع أنني لم أكن أؤمن بمعتقدات الكنيسة، إلا أنني كنت أحتمل الطقوس الدينية لأجني المال.

وفي شهر تشرين الأول من هذه السنة قابلت مسلماً كان يسكن في سكن الطلاب الذي كنت أسكن فيه. كان شخصاً لطيفاً، وكان دائماً يبدو مُتأملاً أو غارقاً في تفكير عميق.

وفي إحدى الأمسيات قضيت كل الأمسية سائلة إياه بعض الأسئلة الفلسفية حول الإيمان والدين. فتحدثت عن إيمانه كمسلم شيعي إمامي إسماعيلي، وعلى الرغم من أن أفكاره لم تمثل تماماً طائفته الإسلامية (حيث أنه كان أيضاً مُرتبكاً وباحثاً عن بعض الإجابات)، إلا أن تصريحاته الأساسية جعلتني أتساءل عن معتقداتي الخاصة: فهل نحن لأننا وُلدنا في هذا الدين، فإن ذلك يتضمن بأنه هو الدين الصحيح؟ ويوماً بعد يوم كنت ألقاه وأسأله الكثير من الأسئلة -راغبة في نفس المستوى من التعامل معه، كما حصل حين التقينا لأول مرة- ولكنه لم يعد يجيب على أسئلتني، أو يوافق الاحتجاجات الروحية التي كانت لدي.

في الصيف التالي، عملت في إحدى المكتبات، وكنت ألتهم أي كتاب استطعت إيجادها عن الإسلام. ثم قدّمت نفسي لمسلم آخر في الحرم الجامعي، وبدأت أسأله عن الإسلام. وبدل أن يجيبني على أسئلتني وجهني لقراءة القرآن الكريم. وفي أي وقت كان لدي أسئلة عامة عن الإسلام، كان يجيبني عليها. ذهبت إلى المسجد المحلي مرتين خلال تلك السنة، وكنت سعيدة لشعوري بنوع من المشاركة الاجتماعية مُجدداً.

وبعد قراءتي عن الإسلام خلال الصيف، أصبحت أكثر حساسية تجاه التصريحات التي تُدلى عن المسلمين. وعندما كنت آخذ مادةً تمهيديةً عن الإسلام في منتصف الفصل الدراسي، كنت أشعر بالإحباط حين يقوم الأستاذ بإلقاء تعليقات خاطئة، ولكنني لم أكن أعرف كيف أصحّحه. وفي نشاطٍ خارج عن دراستي الجامعية، أصبحت عاملةً نشطة وداعمةً لمنظمةٍ حديثة النشأة في حرمنا الجامعي هي منظمة الوعي الإسلامي وحيث إنني كنت العضو الأنثوي الوحيد، كنت أقدم للآخرين على أنني مسيحيةٌ المجموعة. وفي كل مرة كان فيها أحد المسلمين يقول ذلك كنت أنظر إليه بحيرة، لأنني كنت أظن أنني كنت أفعل كل ما كانوا يفعلون، وأنني بذلك كنت مسلمةً أيضاً. فقد امتنعت عن أكل لحم الخنزير وأصبحت نباتية، ولم أكن أبداً أحبُّ الخمر، وبدأت الصوم في شهر رمضان المبارك، ولكن كان لا يزال هناك اختلافٌ ما.

في نهاية تلك السنة قبل النهائية حصلت بعض التغييرات، فقد قرّرت أن أعطي شعري، لأخفيه عن أعين الناس. ومرةً أخرى فكرت بذلك كشيء جميل، وكانت لدي فكرة بأن زوجي فقط سيكون بإمكانه أن يرى شعري. حتى أنه لم يحدّثني أحدٌ عن الحجاب.. حيث إن الكثير من الأخوات في المسجد لم يكنن يلبسنه.

في ذلك الصيف، كنت أجلس في المدرسة أتصفح الإنترنت، باحثة عن مواقع عن الإسلام. كنت أريد العثور على عناوين إلكترونية لأناس مسلمين، ولكنني لم أوفق. وأخيراً غامرت بالدخول إلى صفحة كانت رابطةً للزواج. قرأت بعض الإعلانات، وحاولت أن أجد أناساً في مثل سني لأكتب لهم عن الإسلام. وقدّمت

لرسائلي بعبارة: (إني لا أبحث عن الزَّواج، أنا فقط أريد أن أتعلَّم عن الإسلام) بعد بضعة أيامٍ وصلتني ثلاثة ردودٍ من ثلاثةٍ من المسلمين: رسالةٌ من باكستانيٍّ كان يدرس في الولايات المتحدة، وأخرى من مسلمٍ هنديٍّ كان يدرس في إنجلترا، والأخيرة من مسلمٍ يعيش في دولة الإمارات العربيَّة. قدَّم لي كلُّ أخٍ منهم المساعدة بطريقةٍ فريدة، ولكنِّي بدأت المراسلة مع المسلم الباكستاني الَّذي يعيش في الولايات المتحدة، لتواجده في نفس النطاق الزمني لمنطقتي. كنت أرسل إليه الأسئلة، وكان هو بدوره يقوم بإرسال إجاباتٍ شاملةٍ ومنطقيَّة. وعند هذه النقطة عرفت بأنَّ الإسلام هو دين الحقِّ، فكلُّ النَّاس سواسيةٌ بغضِّ النَّظر عن اللون أو العمر أو الجنس أو العرق، وبالرُّجوع إلى القرآن الكريم تلقَّيت إجاباتٍ على أسئلةٍ مُعقَّدة. فأصبحت أشعر بالرباط الاجتماعيِّ النوعيِّ مع المسلمين، فأصبحت لديَّ حاجةٌ قويَّةٌ غامرةٌ لإعلاني الشهادتين في المسجد. ولم يعد لديَّ الخوف المسيحيُّ من إنكار المسيح كإله، فقد أمنت بأنَّ هناك إلهاً واحداً فقط، وأنَّه لا يمكن أن يكون له شريك. وفي مساء أحد أيَّام الخميس من شهر تموز لعام ١٩٩٧ تحدَّت هاتفيّاً مع الأخ الباكستاني، وسألته المزيد من الأسئلة، وتلقَّيت المزيد من الإجابات الموثوقة والمنطقيَّة، فقرَّرت الذهاب إلى المسجد في اليوم التالي.

ذهبت إلى المسجد مع أخٍ مسلمٍ من (ويك فوريسٽ) وأخته غير المسلمة، ولكنِّي لم أخبره بيَّتي. ذكرت فقط بأنِّي أريد أن أتحدَّث مع الإمام بعد خطبة الجمعة. وبعد أن أنهى الإمام خطبته، وصلى بالمسلمين، جاء للحديث معي. فسألته عمَّا هو ضروريٌّ لكي أصبح مسلمة. فأجابني بأنَّ هناك أركاناً رئيسيَّة للإسلام بالإضافة إلى الشهادتين. فقلت له بأنِّي درست الإسلام لأكثر من عام، وأنِّي جاهزةٌ لأصبح مسلمة. فردَّدت أمامه بأنِّي أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله.

وهكذا أصبحت مسلمةً في الثاني عشر من شهر تموز لعام ١٩٩٧، والحمد لله.. كانت هذه هي الخطوة الأولى والكبرى، ثمَّ فُتحت بعد ذلك أمامي الكثير من الأبواب، وما زالت تُفتح بنعمةٍ من الله سبحانه وتعالى. بدأت أولاً بتعلُّم الصلَاة، ثمَّ زرت مسجداً آخرًا في وينستون-سالم، وبدأت بلبس الحجاب بعد ذلك بأسبوعين...

أثناء عملي في الصَّيف تكون لديَّ مشكلةٌ بخصوص الحجاب. فمدراء العمل لا يحبونه، ويدعونني أذهب مبكرًا. فهم يعتقدون بأنِّي لا يمكنني أن أقوم بعملٍ في بيع الحقائق المدرسيَّة بطريقةٍ حسنة، لأنَّ ملابسني تُعيق حركتي. ولكنِّي وجدت أن في لبس الحجاب عمليَّةٌ تحرُّرٌ كبيرة. وأنا أقابل المسلمين وهم يتسوقون.. كلُّ يوم ألتقي بأناس جُدُّد، والحمد لله.

في السَّنة الدَّرَاسيَّة النَّهائيَّة، أخذت زمام القيادة في منظمَّة الوعي الإسلاميِّ الجامعيَّة، لأنِّي وجدت بأنَّ إخواني لم يكونوا نشطاء كما ينبغي. وحيث إنِّي كنت دومًا أَدفعهم للقيام ببعض الأمور، وأقوم بتذكيرهم ببعض الأحداث، أطلقوا عليَّ لقب الأم كايسي.

وخلال الفصل الثاني من السَّنة النَّهائيَّة أخذت مباحثَ دراسيَّةٍ اختياريَّةٍ عن الإسلام والمسيحيَّة واليهوديَّة. وكانت كلُّها جيِّدة، لأنِّي كنت أمثل الأقلِّيَّة (المسلمة) في كلِّ منها. ما شاء الله، كم كان جميلاً أن أمثل الإسلام، وأن أقول للنَّاس الحقيقة عن المسلمين، وعن الله سبحانه وتعالى.

## ايريس صفوت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إيريس صفوت)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لسيدة ألمانية أسلمت، وقد التقيت بها وحدثتني عن قصة إسلامها، ومما ذكرته لي قولها: نشأت في أسرة مسيحية علمانية ابتعدت عن الكنيسة، وعندما كنت في سن العاشرة شعرت بأن شيئا ينقصني في حياتي، وفطرتي دائما تشتهد نحو الدين وأخذت أبحث لي عن دين، وكنت في ذلك الوقت أقرأ في الكتب عن الإسلام.. ووقتها شعرت بشيء يشدني بقوة إلى الإسلام كدين سماوي يرفع من كيان الانسان ويحمل جميع الفضائل والاخلاق الفاضلة وأخذت اهتم بهذا الدين وتحدثت الى زميلاتي في المدرسة وعن الإسلام وأني أحب هذا الدين، وحينئذ كنت بلغت الثانية عشرة من عمري، وبالفعل أسلمت وكتمت إسلامي لأن زميلاتي وصفني بالجنون.

قلت: أسلمت في ذلك السن.. فما كان موقف أسرتك؟

قالت: في البداية اعتبرت أسرتي أنني أمر بمرحلة اضطراب وتقلب في المزاج.. لكن عندنا في الغرب حرية، واذا بلغ الابناء سن الثالثة عشرة فمن حقهم أن يتصرفوا كيفما شاءوا، ومن حقهم أيضا أن يتركوا أهلهم، ولهذا تركوا لي حرية الديانة.

وعندما وصلت للثانوية العامة، وكان عمري حينئذ ثلاثة عشرة سنة، وذلك عام ١٩٦٧ وكنت في رحلة الى لندن، ذهبت الى المركز الإسلامي هناك والتقيت بالشيخ محمد الجيوشي (عميد كلية الدعوة السابق بجامعة الأزهر) وكان اماما للمركز، وقلت له: إنني اريد ان اعلن إسلامي، وأذهب إلى الأزهر وأدرس الدين الإسلامي واللغة العربية، كما التقيت بالشيخ أحمد حسن الباقوري (وزير الاوقاف المصري السابق) في ذلك الحين، ووعدي بالدراسة في الأزهر، واعلنت اسلامي أمام الشيخين ونطقت بكلمة التوحيد، وفي عام ١٩٦٩ سافرت الى مصر، وتعلمت اللغة العربية، ثم عدت الى المانيا لدراسة الماجستير في جامعة كيسين، وفي اثناء دراستي للماجستير تعرفت على شاب مصري كان يدرس في مرحلة الدكتوراه، وتزوجنا وسافرنا عام ١٩٧٥ إلى مصر وواصلت دراستي للغة العربية، وزادت معرفتي بالإسلام.

قلت لها: لقد مر أكثر من ثلاثين عاما منذ اعتناقك الإسلام.. فهل استطعت إيصال الإسلام إلى أهلك؟

قالت: منذ اللحظة الاولى لاسلامي، وأنا انتمي لهذا الدين وادعو اليه والحمد لله استطعت ان اقنع اثنين من اقاربي بأن يسلموا هم جدتي ورجل آخر من أقاربي، والذين لم يسلموا كنت أعطي لهم فكرة عن الإسلام، وهم عندما يسمعونني كانوا يحترمون الإسلام.

قلت: فعلاقتك بأسرتك جيدة إذن؟

قالت: علاقتي بأسرتي في ألمانيا جيدة منذ أعلنت إسلامي، لأن في المانيا تسامح واحترام لحرية العقيدة، ويعتبرون الدين مسألة شخصية.

(١) انظر: صحيفة الشرق الأوسط ٤-١٠-٢٠٠٢.

سألتها عن أكبر ما جذبها للإسلام، فقالت: قبل ان أعلن إسلامي كنت أقرأ عن شخصية الرسول ﷺ وسيرته فأحببت هذه الشخصية كثيراً لما تتميز به من خصال لا توجد في بشر على وجه الأرض.

### ليلي أوغان رمزي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ليلي أوغان رمزي)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذه امرأة أمريكية الجنسية، وقد أعلنت إسلامها في مصر وقد حدثتني عن طريقها إلى الإسلام، فقالت: أنا محبة للاطلاع والاستزادة من العلم والمعرفة، فبعد أن حصلت على شهادتي الجامعية في الإعلام من أميركا، ومع شغفي الشديد في استمرارية طلب العلم، وجدت لدي رغبة ملحة في التعلم في الشرق الأوسط، رغم ظروف المادية الصعبة، وفقري الشديد، ولكن فضل الله واسع حيث أنعم علي بمنحة قدرها عشرة آلاف دولار.

جئت إلى مصر لأدرس العلوم السياسية، وفي مكتبة الجامعة وقع بصري على مصحف شريف مترجم المعاني إلى اللغة الإنجليزية.. عندما فتحته شعرت بقوة خفية تهزني من الأعماق.. قرأت وقرأت.. وكلما تعمقت عرفت شيئاً وأدركت أشياء.

أمضيت ستة أشهر أفكر في الأمر خاصة، وأني عضو في الكنيسة الكاثوليكية، ووالدي رجل دين، ثم بدأت أسأل نفسي كيف أعتنق الإسلام؟ وما هي الجهة المسؤولة عن هذه الأمور، لا سيما وأنا غريبة هنا.. وبغير تفكير وحدثني أذهب إلى أحد المساجد، وهناك التقيت بشيخ المسجد، فقلت له: أريد أن اشهر إسلامي فماذا أفعل؟ فدلني على الطريق، وتم المراد، ودخلت في الدين الحنيف.

وفي مصر التقيت بالداعية الإسلامية الكبيرة بعلمها وسلوكها الدكتورة زهيرة عابدين أستاذة ورئيسة قسم الأطفال بكلية طب القاهرة سابقاً، وعميدة كلية دبي الطبية للبنات حالياً، حيث نصحتني بالذهاب إلى مصر للدراسة في الأزهر الشريف، فاستجبت لنصيحتها.

وأما الشخصية الثانية التي التقيتها، وتأثرت بها، فهو الشيخ أحمد فرحات إمام مسجد الحسين، الذي غمرني بعطفه وحنوه حتى كنت أنادي به بالوالد، فقد ساعدني في معرفة أصول الدين الإسلامي وفرائضه، كما شجعني على أداء فريضة الحج عام ١٩٨٢م.

بعد إشهار إسلامي مكثت أتردد على بيوت الله كثيراً، وفي أحد المساجد التقيت بزوجي الدكتور يس (من المحلة الكبرى — إحدى مدن مصر)، فتقدم إلي ليخطبني، ولكنني اشترطت عليه موافقة أهلي أولاً على الاقتران به، ومن ثم كتب إليهم ليخطبني منهم، فوافقوا، وتم الزواج عام ١٩٨٤، وفي عام ١٩٨٦ التحقت بهيئة التدريس في المعهد الأزهرى للفتيات بالمحلة الكبرى، بعد أن أصبحت أجد اللغة العربية تماماً.

وقد ختمت حديثها لي برغبتها في أن تصبح داعية إلى الله، فقالت: منذ أن هداني الله إلى طريق الحق والرشاد، وفتح بصري على ما في كتاب الله من آيات بينات، وكشف عن بصيرتي لأعرف قيساً من نور اليقين، وأنا عازمة على المضي قدماً في مجال الدعوة إلى الدين الإسلامي، وأملني كبير في أن يساعدني الأزهر

الشريف لاستكمال دراستي العليا في العلوم الإسلامية حتى يتسنى لي أن أعمل في سبيل خدمة الإسلام، وإعلاء كلمة الحق تحت راية التوحيد في كل مكان.

وقد حدثتني عن الأخطاء التي يقع فيها بعض الدعاة حين يتركون الأسلوب المتبصر الذي دعا إليه الإسلام، فقالت: إن الدعاة المسلمين لا يزال أغلبهم بعيدين عن روح الإسلام الحقيقية التي فهمتها من خلال دراستي للدين الإسلامي والسيرة العطرة، ولأساليب السلف الصالح، فالدين يسر لا عسر، وسماحة لا غلظة أو فظاظة أو تنفير.

ومن ثم يجب على الداعية إلى الله أن يكون على بصيرة بأمر الأمانة التي يحملها سواء كان مبشراً أو منذراً، وأن يتحلى بكل مكارم الدين الإسلامي من سماحة ويسر ورحمة.

### إحسان جيم تشوا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إحسان جيم تشوا)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من سنغافورة، وهو من عائلة تتبع الديانة الطاوية، وقد أخبرني أنه آمن بالمسيحية حين كان في التاسعة من عمره، وبعد ذلك، وفي سنيّ مراهقته المبكرة أتبع تعاليم بوذا، ثم وجد طريقه لدخول الإسلام. وقد تشرفت بالالتقاء به والحديث معه عن قصة إسلامه، فقال: أنت تعلم أن والديّ طاويّان، وهكذا أنشئت على الديانة الطاوية منذ ولادتي، وخلال سنيّ طفولتي، آمنت وقبلت الطاوية، حتى ولو لم أكن أعرف شيئاً عنها، فقط وفي سنيّ مراهقتي اكتشفت بأنّ الطاوية هي دين عبادة السلف، حتى أنّ والديّ — كغيرهما من الكثير من الطاويين — لم يكلّفا نفسيهما معرفة تاريخ هذه الديانة، فأنا لم أعلم تاريخ التعاليم الطاوية، بل مارست هذه الديانة فقط تبعاً لما قدّم لي دون أدنى شك.

حين كنت في التاسعة من عمري، حدثتني وبعض زملائي معلّم المدرسة بأننا كلنا يجب أن نصبح مسيحيين، وأخبرنا بأننا إن لم نصبح مسيحيين، فإنّه بالضرورة سيصيبنا الموت كعقوبة لنا على عدم كوننا كذلك.. بتّ حائفاً جداً من هذا التهديد، ومنذئذٍ أصبحت مؤمناً بديانتين، الطاوية (بسبب عائلي) والمسيحية (بسبب التهديد)، وحين كبرت، لم أستطع أن أقرّ بأيّ دين عليّ الالتزام.

خلال سنيّ الثالثة والرابعة في المدرسة الثانوية، اخترت دراسة البوذية كموضوع في العلوم الدينية، لأنّها كانت معروفةً على أنّها الموضوع الأسهل للدراسة.

تأثرت بالعقيدة البوذية لأنّها منطقيّة جداً وعمليّة، ومفهوم الصدقة في البوذية أصاب وتراً في قلبي، فأتبعت التعاليم البوذية قدر ما استطعت، لكنّي لم أصبح بوذيّاً، فقد وجدت أنّ البوذية وعلى الرغم من أنّها تقوم على مبادئ وتطبيقات جيّدة إلّا أنّها مع ذلك ينقصها وجود القوّة العليا (الله سبحانه وتعالى)

حين انضمت إلى كليّة سانت أندروز يونيور، وهي مدرسة تبشيرية، كان إلزامياً على كلّ الطلاب — عدا المسلمين منهم — حضور صلاة الأحد المدرسيّة.

(١) نُشرت قصّة إحسان في مجلة (القارئ المسلم) عدد تشرين أول-كانون أول، والتي تصدر عن جمعيّة مُعتنقي الإسلام في سنغافورة.

خلال الصلاة كنّا ننشد ونستمع إلى الطقوس. في نهاية بعض الصلوات، كنّا نُسأل إن كان أحدٌ منّا يرغب في دخول المسيحية، وقد كنت متأثراً بأحد الرهبان على وجه الخصوص، لأنّي اعتبرته قوياً في وعظه. فقد كان يستخدم النبوءات من الإنجيل ليثبت بشكلٍ فعّالٍ الحقيقة الموجودة في العهد القديم وعلاقتها مع تلك الموجودة في العهد الجديد.

وتأثرت بشكلٍ خاصٍّ حين كان يتكلّم عن النبوءات الّتي كانت في العهد القديم وتحقّقت في العهد الجديد، وزاد اهتمامي حين تكلم عن اليوم الآخر، وقد قام أيضاً بربط تجارب متنوّعة مرّاً خلالها بعض المسيحيّين.

أحد الأمثلة كان عن سيّدةٍ مسيحيةٍ كانت قد أعلن موتها. وفي موتها مرّت خلال محنةٍ جرّ لها من رجليها إلى جهنّم؛ وبطريقةٍ ما تحرّرت وعادت إلى الحياة. وبعد عودتها من الموت أكّدت على وجود الله، والحياة بعد الموت، ووجود جهنّم كما هو مذكورٌ في الإنجيل، وهكذا بدأ انجذابي نحو الديانة الأرثوذكسية الأنجليكانية. حينئذ كنت في السابعة عشرة من عمري.

لكنني مع ذلك لم أستطع أن أستقرّ في طائفةٍ واحدةٍ من الطوائف المسيحية، فقد كنت دائم التنقل من كنيسةٍ إلى أخرى، كنت ما أزال أبحث عن السكينة الداخليّة، ولم أستطع اتّخاذ قرارٍ إلى أيّ كنيسةٍ كان عليّ الذهاب.

حين كنت في السنّة الأخيرة في الجيش، قابلت صديقاً قادي إلى كنيسة (سانت جون سانت مارجریت)، فشعرت أخيراً بأنّي في بيتي في هذه الكنيسة. وأصبحت فاعلاً في النّشاطات الكنسيّة. كنت المسؤول في مهمّتين تبشيريّتين، إحداهما كانت تتعلّق بالعمل مع الأولاد، في حين كانت الأخرى تتعلّق بنشاطٍ رياضيّ. وكنت مُشاركاً في التخطيط التعليميّ للأولاد. قدّم من خلال هذا النشاط التعليم المجانيّ لأولاد المدارس، في نفس الوقت الّذي كانت فيه رسالة المسيحية تُنشر ببطء وبشكلٍ مهذب. كان الأولاد من مستوى ابتدائيّ، وأوكل إليّ الاهتمام باثنين منهم، وقبل أيّ تعليمٍ كانت هناك جلسةٌ للعبادة؛ كنّا ننشد الأناشيد، وكانت لدينا جلسات سردٍ للقصص، حيث كنت أحكيّ للأولاد قصصاً من الإنجيل.

وعملت أيضاً باجتهادٍ مع المجموعة الرياضيّة للكنيسة، فكنا نقوم بالعمل التبشيريّ بسؤال الناس الانضمام إلينا في اللعب، وكنت المسؤول عن فريق كرة السّلة، وفي كلّ أسبوعٍ كنّا نستأجر قاعةً نمارس فيها اللعبة. وكنا ندعو الدُخلاء ونحاول قيادتهم للمسيحية بأن نكون مثلاً لهم، فكنا نقوم بالتركيز على روح التعاون والاهتمام، فحاولنا التعبير عن هذه الفضائل قدر ما استطعنا. وخلال ذلك، وبعد التمارين، كنّا نحاول تلقين المسيحية لأولئك الشباب، والّذين كانت غالبيتهم من المراهقين اليافعين.

مفهوم النشاط الرياضيّ عمليٌّ إلى درجةٍ كبيرة، ليس فقط في سنغافورة بل وفي بلدانٍ أخرى أيضاً. كانت كنيسةٍ هي الأولى في سنغافورة الّتي تُقدّم مفهوم الرعاية والاهتمام.

عندما كنت لا أزال نشيطاً في الكنيسة، تعرّفت إلى مسلمةٍ فحاولت أن أُحدّثها عن المسيحية، ولكنّها

---

(١) انظر ما يستدل به المسيحيون من هذا الباب في (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

كانت على درجة عالية من اليقين حول الحق في دينها، مع أنّها لم تكن تعرف كيف تشرح لي هذه الحقيقة. ولم تكن هناك أي وسيلة أستطيع بها إقناعها بالمسيحية. والذي كان يدهشي دوماً هو أنّ الكثير من المسلمين، حتى أولئك الذين يُدمنون المخدرات، كلهم متأكدون حتى الموت بأنّ الإسلام هو الدين الحق. فقررت سؤال صديقتي المسلمة عمّا هو حقّ جدّاً بخصوص دينها ممّا يدفع مُعتنقيه إلى التمسك به وعدم تركه. لكنّها لم تكن تعرف كيف تشرح لي هذا الأمر، وبدلاً من ذلك أخبرتني بأنّ أحصل على ما أريد من المعلومات عن الإسلام من دار الأرقم، وهي جمعية مُعتنقي الإسلام في سنغافورة. وافقت على اقتراحها على الرغم من أنّي كنت أعتبر الإسلام دين الإرهاب، وعلى أنّه دين لا منطقيّة فيه. فقد كان فهمي يملئني عجباً بأنّه إذا كان الدين صالحاً فإنّ مُعتنقيه سيكونوا صالحين. وفي حالة المسلمين، الذين كنت أعرف القليل منهم، كان أولئك الذين كنت أعرفهم مسلمين غير صالحين.

أذكر أنّي كنت أعرف مسلمة واحدةً صالحةً فقط، وذلك خلال سنيّ دراستي في الكلية ولكنّها لم تقم ولا بأيّ محاولة لنقل رسالة الإسلام لي. في ذلك الوقت، كان هناك بعض المسلمين الذين كانوا يحاولون نشر الرسالة الإسلاميّة لي. وكانت عائلتي ضدّ الإسلام بسبب ما كان دائم الحدوث في الشرق الأوسط؛ كما حدث أيضاً أن كان كلّ العمّال الملاويين الذين وظّفهم والدي من الكسالي وسيئي السلوك.

وحيث إنّني وافقت على زيارة دار الأرقم، ذهبت من فوري إلى تلك الجمعية. في زيارتي الأولى حضرت درس التوجيه، وقُدّمت إلى الأخ ريماي. وقد صُدّمت وأثير اهتمامي بأمرين حدّثني بهما، أوّلهما: أنّه أشار لي بأنّ الإسلام لا يقوم على الهوى، عكس المسيحية. تأملت في هذه الكلمات وكنت مندهشاً من ردّة فعلي عليها. وثانيهما: أنّه قال: لا تتحوّل إلى الإسلام بطريقة عاجلة، حتى تسأل قدر ما تستطيع من الأسئلة، وعندما لا يتبقّى لديك ما تسأل، فقط عندها تتحوّل إلى الإسلام.

ففي المسيحية أنت لا تستطيع طرح الأسئلة، لأنك إن سألت أكثر أصبحت مُشوَّشاً أكثر. وبعد أن أوضح هاتين النقطين، أوصى الأخ ريماي الصفّ التوجيهيّ بقراءة كتاب (الإسلام في بؤرة التركيز) صُدّمت بما وجدته في هذا الكتاب، فبعض المواضيع التي كنت أعتقدّها غير منطقيّة في المسيحية، ولم تكن هناك طريقة لفهمها، وجدت الإجابة عليها في هذا الكتاب. وصُدّمت أيضاً بأنّني وجدت في الكتاب ما كنت أؤمن به، وكما وجدت أنّ بعض المعتقدات البوذية هي في الحقيقة مفاهيم إسلاميّة، فهناك العديد من المبادئ البوذية المشابهة لبعض المفاهيم الإسلاميّة.

في الأسبوع التالي عدت إلى دار الأرقم لحضور صفّ المبتدئين، وكان الصفّ قد قطع نصف الطريق خلال أركان الإسلام. فوجدت الدرس مملاً، فحضرت حصّة أو حصّتين فقط ثم تركت الصفّ. بعدئذٍ اشتريت كتابين آخرين عن الإسلام — (الخيار، الإسلام والمسيحية) للشيخ أحمد ديدات (أساس عقيدة المسلم) لجاري ميللر. وقد تأثرت بهما حقّاً.

قابلت الأخ ريماي مرّة أخرى فقدّمني للأستاذ ذو الكفل، والذي ناقش معي الإسلام لبضعة أسابيع. أيّ أسئلة كانت تُشكّل مُعضلةً بالنسبة لي عن المسيحية، والتي لم يكن باستطاعتي التعامل معها، كنت أضعها في



قائمة وأعرضها على كنيسي وعلى الكلية الإنجيلية في سنغافورة. وقد جعلني ذلك في وضع صعب للغاية، لأنني لم أستطع قبول ردودهم على تلك الأسئلة، لا من الكنيسة ولا من الكلية الإنجيلية. فقد كنت أعتبر بأن قبولي منطوق ردودهم وكأنه تلوين لله (سبحانه وتعالى). فعلى سبيل المثال، عندما حاولت نقاش التناقضات في الإنجيل كان كل ما استطاعوا قوله لي بأن هذه تناقضات صغيرة، أو أخطاء صغيرة، أو خطأ طباعي، فكان عليّ أن أقوم ببحثي الخاص للرد على تلك الأسئلة التي وُجّهت إليّ في دار الأرقم.

الجزء الأكثر تدميراً في بحثي كان تاريخ الكنيسة، فتاريخ الكنيسة نفسه يُلقي الضوء على حقيقة أن مفهوم الثالوث قدّم في سنة ٣٢٥ بعد الميلاد، أي بعد ٣٢٥ من موت المسيح (عليه الصلاة والسلام). وقبل ذلك كانت هناك تعاليم كلها مختلفة عن بعضها بعضاً.

وحيث إنني حصلت على الكثير من المعلومات عن المسيحية من مصادر إسلامية، فلم أكن مقتنعاً، فما وجدته حول المسيحية من المصادر الإسلامية حاولت التثبت منه من موسوعات متنوعة ومن مصادر أخرى، فوجدت بأن كل المعلومات التي حصلت عليها من المصادر الإسلامية كانت حقائق دامغة. وحين نظرت عن قرب — أقرب من أي وقت مضى — إلى النبوة التي تقول: (سيأتي روح الحق وسيقود الناس إلى كل الحق) استطعت أن أرى بوضوح بأن تلك النبوة كانت تشير إلى النبي محمد ﷺ وإلى رسالته. فهذه النبوة لم تُشر إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، لأن المسيحيين الأوائل لم يستطيعوا التقرير بخصوص شخصيته. وحتى هذا اليوم ما يزالون يتجادلون بخصوص ذلك.

خلال دراستي للإسلام، حاولت أيضاً أن أتعلّم شيئاً عنه من الكتب المسيحية فوجدتها خبيثة، فمع المعرفة التي كانت لدي عن الإسلام كنت أستطيع دحض كل الادعاءات الزائفة التي لفقها المسيحيون.

أحد الأمثلة هو الادعاء الذي لفقوه عن الله (سبحانه وتعالى) في الإسلام — بأنه يبدو بعيداً جداً، وأنه لا يمكنه التواصل مع مخلوقاته (سبحانه وتعالى عمّا يصفون). كنت أعرف أن هذا ليس صحيحاً لأن الله تعالى في الإسلام أقرب إلى مخلوقاته من جبل الوريد: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا نُؤَسُّسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦)

وإدعى المسيحيون أيضاً بأن الله تعالى تنقصه معاني الحب. لا أدري كيف يمكن للمسيحيين ادعاء مثل ذلك في حين أن قول (بسم الله الرحمن الرحيم) هو روتين يومي عند المسلم. بالإضافة إلى ذلك فإن هناك ٩٩ اسماً لله تعالى تُلقَى الضوء على أسمى معاني الحب والرعاية الإلهية في الإسلام. فكان يتوجّب عليّ رفض كل الادعاءات التي صنعها المسيحيون عن الإسلام، لأنه كان يتوجّب عليّ أن أكون عادلاً مع نفسي. فكلها كانت من وجهة النظر الكنسية، وكان يتوجّب عليّ أن أعتبرها كذباً.

بعدئذ قرأت كتاب (محمد في الإنجيل) وكتاب (إنجيل توما) حتى الآن كنت قد تلقّيت الكثير من الصدمات. أمّا (مخطوطات البحر الميت) فقد كانت هي الصدمة الأخيرة التي حطمت عقيدتي المسيحية. لقد حاولت ولكنني لم أجد سبباً للبقاء على المسيحية. فقد رأيت كل الزيف الذي لم أكن أتوقع رؤيته فيها. لقد تفحصت بعناية وبكل الطرق لأتأكد، فلعلني كنت مخطئاً، حتى لم يتبق لي ما أتأكد منه.

واصلت تعلّمي عن الإسلام، من القرآن الكريم ومن كتبٍ أُخرى، ومن معلّمين مسلمين كافحوا لإرشادي إلى طريق الحق.

وفي أحد الأيام سألتني الأستاذ ذو الكفل: أما آن لك أن تدخل الإسلام؟ فلم أستطع أن أتفوهً بنت شفة. فكّرت في ذلك مراراً وتكراراً، لكنني لم أجد سبباً واحداً يمنعني من دخول الإسلام، وعندها قرّرت إعلان الإسلام، دين الحق.

في البداية لم تأخذ عائلتي تحوُّلي هذا على محملٍ من الجِدِّ، فقد ظنُّوا أنّي أعلنت إسلامي اسمياً فقط وأنّي سأواصل حياتي كغير مسلم وأكل لحم الخنزير. فيما بعد، عندما وجدّت عائلتي أنّي أصبحت مسلماً ملتزماً حدثت فوضى عارمة. وأصبحت الأمور أكثر فوضويّة حين بدأتُ صيام شهر رمضان. لقد كنت على وشك أن أُطرد من البيت. واستمرّت هذه الحال من التوتر لبضعة شهور تلت. لم أكن خلالها أتناول طعامي في بيتي. وأنّهت بأني لم أعد أحبُّ عائلتي. وكانت هناك مشاحناتٌ مستمرةٌ بيني وبين أفراد عائلتي. حاولت أن أشرح لهم الإسلام ولكنهم لم يفهموه.

وتشكّل لديّ خوفٌ من العودة إلى البيت، فكنّت أبقى حتى وقت متأخّر من الليل خارجة. وفي أحد الأيام جاءت إليّ أمّي ورجحتني بألاً أتأخّر ليلاً. وقالت بأنّ أبي قد عبّر عن قلقه حيال ذلك. واقتَرحتُ بأن أشتري طعامي الخاص وأنّها ستُعِدُّه لي بشكلٍ مستقلّ. أمّا الآن فإنّ معظم أفراد عائلتي يأكلون الطعام الحلال في البيت، لأنّ من المناسب أكثر لأُمّي أن تُعدّ الأطباق التي يمكن أن يأكلها ليس فقط معظم أفراد العائلة بل وابنها المسلم كذلك. تحسّنت الأوضاع في بيتي، إلّا من بعض الإزعاج العرضي وغير المؤذي من عائلتي.

### عبدالرحمن محمود داود:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عبدالرحمن محمود داود)<sup>١</sup>، فسألّت البابا عنه، فقال: هذا رجل ينحدر من أسرة هندية برهمية، تنصرت على أيدي المبشرين الذين قاموا مع طلائع الاستعمار، وكان كثير القراءة للكتب الدينية، ولما أتيت له أن يطلع على القرآن الكريم كان جوابه هو انتماءه للإسلام، وقد ذكر ذلك في بعض تصريحاته لمن سألوه، فقال: ( تناولت نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية، لأنني عرفت أن هذا هو الكتاب المقدس عند المسلمين، فشرعت في قراءته وتدبّر معانيه، لقد استقطب جل اهتمامي، وكم كانت دهشتي عظيمة حين وجدت الإجابة المقنعة عن سؤالي المحيّر: (الهدف من الخلق) في الصفحات الأولى من القرآن الكريم.. لقد قرأت الآيات (٣٠—٣٩) من سورة البقرة.. وهي آيات توضح الحقيقة بجلاء لكل دارس منصف، إن هذه الآيات تجربنا بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة عن قصة الخلق)

وقال: (إن دراستي للقرآن الكريم وضحت أمام ناظري العديد من الإشكالات الفكرية وصححت الكثير من التناقضات التي طالعته في الكتب السماوية السابقة)

(١) رجال ونساء أسلموا، ٧ / ١١٦ - ١١٨.

وقال: ( بفضل دراستي الحرّة البعيدة عن كل تعصّب مقيت إيماني بهذا الدين [الإسلام] قوياً راسخاً، لقد آمنت برسالة القرآن، وأحسست أن الإسلام هو دين الفطرة والكمال، أنزله الله على قلب آخر الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ.. لقد اكتشفت أن الإسلام يخاطب الناس مباشرة ودون أية واسطة من أي نوع. من أجل ذلك كان هذا الدين متمشياً مع الفطرة البشرية)

وقال: ( إن الإسلام يخاطب الإنسان الكامل. وهكذا أيقنت أن هذا الدين هو خير الأديان جميعاً. لقد شرعت في التحدث عن معتقداتي الجديدة، حول الإسلام والنصرانية وصارحت بما العديد من العلماء المرموقين والقسس المعروفين، وكنت صريحاً وصادقاً في مناقشاتي معهم. لقد سألت القسس لماذا يمدعون الناس بإخفاء الحقيقة ولا يخبرونهم بوضوح وصدق أن محمداً ﷺ هو رسول الله؟ ولما سمعوا مني ذلك غضبوا ولكنهم لم يستطيعوا أن يجيروا جواباً)

## ثانياً — الخاصة

فتحت دفتر البابا على فصله الثاني، فوجدت عنوانه (الخاصة)، فقلت: من تقصد بالخاصة؟ قال: أولئك الذين تعلقوا من الدنيا بجبلها المتين، فراحت الأبصار تخنو عليهم، وراحت القلوب تخن إلى كراسيهم.

قلت: ما أصعب أن يبصر هؤلاء الحق.

قال: أجل.. لقد خالطت بعض هؤلاء، فوجدتهم صنفان، بعضهم ائتم بالنجاشي، والآخر اهتم بهرقل.

قلت: لم أفهم قصدك.

قال: أما النجاشي، فقد عرف الحق وآمن به، ولم بمنعه منصبه الرفيع من ذلك الإيمان.. وأما هرقل، فقد عرف الحق، ولكنه حجب عنه، وكان منصبه هو الحجاب الأكبر بينه وبينه.

قلت: فحدثني حديثهما قبل أن تحدثني عن أصحابك.

قال: أما النجاشي، فقد حدثنا بحديثه أم سلمة بنت أبي أمية — رضي الله عنها — فقد قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا، ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدلين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة.

وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم، فجمعوا له أدماً كثيرة، ولم يتركوا من بطارقتة بطريقاً إلا أهدوا له هدية. ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم. ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا فقدمنا على النجاشي فنحن عنده بخير دار، وعند خير جار، فلم يبق من بطارقتة بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمنا النجاشي، ثم قالوا لكل بطريق منهم: إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم. فإن قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم. ثم إلهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم، من آبائهم، وأعمامهم، وعشائريهم، لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقتة حوله: صدقوا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهم فليردهم إلى بلادهم وقومهم قال: فغضب النجاشي ثم قال: لاها الله أيم الله إذن لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوما

جاوروني نزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أذعوهم فأسألمهم ماذا يقول هذان في أمرهم فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهم ورددهم إلى قومهم إن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسن جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فجاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا حثموه قال: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن. فلما جاؤوه، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله سألمهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم. قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فعدد عليه أمور الإسلام.

ثم قال: وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، وهأنا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، فصدقناه وآمنا واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى: فعبدنا الله تعالى وحده ولم نشرك به شيئا وحرمتنا ما حرم الله علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردوننا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورجبنا في جوارك ورجونا إلا نظل عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به من شيء، فقال له جعفر: نعم؟

فقال له النجاشي: فاقراء علي، فقرأ عليه صدرا من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والله، والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا ولا أكاد. قالت أم سلمة: فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لأنبينهم غدا عيبيهم عندهم، ثم أستاصل به حضراءهم.

قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا، لا تفعل فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد قالت: ثم غدا عليه الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم فأسألمهم عما يقولون فيه؟ قالت: فأرسل إليهم يسألمهم عنه. قالت: ولم يتزل بنا مثله، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه ما قال الله، وما جاء به نبينا كائنا في ذلك ما هو كائن. فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عودا ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم، ما قلت هذا العود فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال فقال: وإن نخرتم والله اذهبوا فأنتم سيوم

بأرضي - والسيوم: الآمنون - من سبكم غرم، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دبرا ذهبيا وإني آذيت رجلا منكم - والدبر بلسان الحبشة الجبل - ردوا عليهم هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فأخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردودا عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

وفي رواية: أن النجاشي قال للمسلمين: أيؤذيكم أحد؟ قالوا: نعم.

فأمر مناديا ينادي: من أذى أحدا منهم فأغرموه أربعة دراهم.

ثم قال: أيكيفيكم؟ قلنا: لا.

قال: فأضعفوها.

وعند موسى بن عقبة: من نظر إلى هؤلاء نظرة تؤذيهم فقد غرم.

ثم قال: ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه، فخرجا من عنده مقبوحين مردود عليهما ما جاء به.

ثم إن الحبشة اجتمعت فقالت للنجاشي: إنك فارقت ديننا - وخرجوا عليه - فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهياً لهم سفنا وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا حيث شئتم، وإن ظفرت فائبتوا.

ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن وخرج إلى الحبشة وصفوا له صفين فقال: يا معشر الحبشة ألسن أحق الناس بكم؟ قالوا: بلي.

قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة؟ قال: فما لكم؟ قالوا: فارقت ديننا وزعمت أن عيسى

عبد، هو ابن الله.

فقال النجاشي - ووضع يده على صدره على قبائه -: هو يشهد أن عيسى ابن مريم لم يزد على هذا،

وإنما يعني ما كتب، فرضوا عنه وانصرفوا.

قالت أم سلمة: فوالله إنا على ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، فوالله ما حزننا قط حزننا كان أشد من حزن حزننا عند ذلك تخوفا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه.

وسار إليه وبينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل ينطلق حتى يحضر وقعة القوم ثم

يأتينا بالخبر؟ فقال الزبير بن العوام: أنا.

قالوا: فأنت.

وكان من أحدث القوم سنا.

فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليهم حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها يلتقي القوم، ثم انطلق

حتى حضرهم.

وقالت: ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده.  
قالت: فو الله إنا على ذلك متوقعون لما هو كائن إذ طلع الزبير بن العوام يسعى فلمع بثوبه وهو يقول:  
أبشروا فقد ظهر النجاشي وأهلك الله عدوه.  
قالت: فو الله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها.  
ورجع النجاشي وقد أهلك الله عدوه ومكن له في بلاده واستوسق عليه أمر الحبشة، وكنا عنده في خير منزل<sup>١</sup>.

قلت: هذا النجاشي، وهو إمام المهتدين من الخاصة، وقد علمت أن رسول الله ﷺ صلى عليه الجنابة لما مات.. فحدثني خير هرقل.

قال: أما هرقل، فقد حجب المسكين بملكه عن الإسلام، وقد حدث بحبره أبو سفيان بن حرب — الذي كان زعيم أعداء رسول الله ﷺ — فذكر أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارا بالشأم، في المدة التي كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسبا، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل عن هذا الرجل، فإن كذبت فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأتروا علي كذبا لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا.

قال: فهل كان من آباءه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها

شيئا غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا

وننال منه<sup>٢</sup>.

قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا

---

(١) روى القصة ابن إسحق وابن سعد وغيرهما.

(٢) وقد كذب في هذه أيضا، فقد انتصر رسول الله ﷺ في كل الحروب التي خاضها مع المشركين أو غيرهم حتى غزوة أحد.. هي نصر عظيم للمسلمين لا يقل عن أي نصر آخر.. لأن قصد المشركين كان القضاء على الإسلام وعلى الأعمدة التي يقوم عليها الإسلام، ولم يتحقق لهم ذلك، وسرى تفاصيل أوفى عن هذا في الأجزاء التالية.

بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتي بقول قيل قبله.. وسألتك هل كان من آباءه من ملك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آباءه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه.. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.. وسألتك أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.. وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.. وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.. وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أي أعلم أي أحلص إليه، لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه، فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، وَإِلَىٰ أَهْلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ (آل عمران: من الآية ٦٤)

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام.

وكان ابن الناطور، صاحب إيلياء وهرقل، أسقفا على نصارى الشام، يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء، أصبح يوماً خبيث النفس، فقال بعض بطارقه: قد استنكرنا هيئتك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟

قالوا: ليس يختتن إلا اليهود، فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مداين ملكك، فيقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم، أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يجرب عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: أذهبوا فانظروا أمختن هو أم لا؟ فنظروا إليه، فحدثوه أنه مختن، وسأله عن العرب، فقال: هم يختنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر.

ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى



أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي ﷺ، وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بجمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصه حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي أنفا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل<sup>١</sup>.

قلت: لقد عرفت خبر هؤلاء.. فهل ستحدثني عن أصحاب هرقل أم عن أصحاب النجاشي؟

قال: بل سأكتفي بالحديث عن أصحاب النجاشي.

قلت: وأصحاب هرقل.. ألم تلتق بهم؟

قال: بلى.. وما أكثرهم.. ولكني لو كتبت أخبارهم، فسيملؤون الدنيا ضجيجا، ويصادرون كل ما تكتبه

حرصا على مصالحهم.

### اللورد جلال الدين برانتون:

من أول الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (اللورد جلال الدين برانتون)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل أشهر من نار على علم.. وقد كان بارونا إنجليزيا، ورجلا ذا شعبية كبيرة وسمعة عريضة.. وقد أتم دراسته في جامعة أكسفورد.. وقد حدثني حديثه الثقة الفاضل محمد كامل عبدالصمد<sup>٢</sup>، فقال: ولد ونشأ بين أبوين مسيحيين.. وولع بدراسة اللاهوت وهو في سن مبكرة، وارتبط بالكنيسة الإنجليزية، وأعطى أعمال التبشير كل اهتمامه.

وحدث ذات يوم أن زاره صديق هندي مسلم تحدث معه في موضوع العقائد المسيحية ومقارنتها بالعقيدة الإسلامية، وانتهت الزيارة، إلا أنها لم تنته في نفسه، فقد أثارت إنفعالا شديدا في ضميره وعقله، وصار يتدبر كل ما قيل فيها من جدال، مما دفعه إلى إعادة النظر في العقائد المسيحية.

وقد عبر عن ذلك، فقال: عندئذ قررت أن أبحث بنفسي، متجاهلا عقائد الناس، بعد أن أيقنت بضرورة البحث عن الحقيقة مهما طال المدى في هذا السبيل، ومهما كان الجهد، حتى أصل لمزيد من المعرفة بعد أن قيل إن الإنجيل وتعاليم المسيح قد أصابها التحريف..

فعدت ثانيا إلى الإنجيل أوليه دراسة دقيقة، فشعرت أن هناك نقصا لم أستطع تحديده.. عندئذ ملك علي نفسي رغبة أن أفرغ كل وقتي لدراسة الإسلام.. وبالفعل كرست كل وقتي وجهدي له، ومن ذلك دراسة سيرة النبي محمد ﷺ، ولم أكن أعلم إلا القليل النادر عنه، برغم أن المسيحيين أجمعوا على إنكار هذا النبي العظيم الذي ظهر في الجزيرة العربية.

ولم يمض بي وقت طويل حتى أدركت أنه من المستحيل أن يتطرق الشك إلى جدية وصدق دعوته إلى الحق وإلى الله.

(١) رواه البخاري.

(٢) انظر: كتاب (الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء) لمحمد كامل عبد الصمد.

ثم أخذ يكرر هذا المعنى، وهو يقول: «نعم شعرت أنه لا خطيئة أكبر من إنكار هذا الرجل الرباني بعد أن درست ما قدمه للإنسانية، وجعل من المسلمين أقوى مجتمع رفيع يعاف الدنيا.. إني غير مستطيع أن أحصي ما قدمه هذا الرسول من جليل الأعمال»

بعدها تساءل في ألم ووجوم قائلاً: «أمام كل هذا الفضل وهذا الصفاء.. أليس من المحزن الأليم حقاً أن يقدح في شأنه المسيحيون وغيرهم؟!»

وقد حانت لي فرصة للاستماع إليه في جمع كان قد دعى إليه، وكان من أقواله في ذلك الجمع: أشعر بعميق الامتنان على إتاحة هذه الفرصة لي لأعبر فيها ببعض الكلمات عمماً دفعني لإعلان إسلامي، لقد تربيت تحت تأثير أبوين مسيحيين. وأصبحت في سنوات عمري المبكرة مهتماً بعلم اللاهوت. فشاركت بنفسي في الكنيسة الإنجليزىة، واهتمت بالعمل التبشيريّ دون أن يكون لي فيه مشاركة فعلية.

وقبل بضع سنوات مضت انصبّ اهتمامي على عقيدة (العذاب الأبدي) لكل البشرية عدا بعض المختارين، وأصبح الأمر بالنسبة لي مقبلاً جداً بحيث صار يغلب عليّ الشكُّ، فقد فكّرت منطقياً بأنّ ذاك الإله الذي يمكن أن يستخدم قدرته لخلق الكائنات البشرية التي يجب أن تكون — في سابق علمه وتقديره — مُعدّبةً للأبد، لا بدّ أنّه ليس حكيماً، أو مُحبباً — سبحانه وتعالى عمماً يصفون علواً كبيراً — فمستواه لا بدّ وأن يكون أقلّ من الكثير من البشر، ومع ذلك واصلت الاعتقاد بوجود الله تعالى، ولكنني لم أكن راغباً بقبول الفهم السائد للتعاليم التي تقول بالوحي الإلهي للرجال، فحوّلت اهتمامي للتحقيق في الأديان الأخرى، ممّا أشعري بالحيرة فقط.

وكبرت في داخلي رغبةً جديّةً للخضوع للإله الحق وعبادته، ومع أنّ المذاهب المسيحية تدّعي أنّها أسست على الإنجيل إلّا أنّني وجدتها متناقضة، فهل من الممكن أنّ الإنجيل وتعليم السيّد المسيح — عليه الصلوة والسلام — كانا مُحرفين؟! —

لذلك صببت اهتمامي — وللمرّة الثانية — على الإنجيل، وصمّمت أن تكون الدّراسة عميقة، وشعرت بأنّه كان هناك شيء ناقص وصمّمت على فعل ذلك لنفسي، بغضّ النظر عن مذاهب البشر، فبدأت أتعلّم بأنّ النَّاس يمتلكون الرُّوح، وقوّة ما غير مرئيّة، وهي خالدة، وأنّ الآثام سيُعاقب عليها في هذا العالم وفي العالم الآخر، وأنّ الله تعالى برحمته وإحسانه يمكنه دوماً أن يغفر ذنوبنا إذا ما تبنا إليه حقّاً.

ولإدراكي أهميّة البحث العميق والعيش على مستوى الحق، ولكي أجد الجوهرة الثمينة، كرّست وقتي مرّة أخرى لدراسة الإسلام. كان هناك شيءٌ في الإسلام شدّني في ذلك الوقت.

وفي زاويةٍ مغمورة — بالكاد معروفة — من قرية (إتسرا) كنت مكرّساً وقتي وعبادتي لله العظيم بين أدنى طبقات المجتمع مع رغبة صادقة لرفعهم إلى مستوى معرفة الإله الحقّ والواحد، ولغرس الشعور بالأخوة والطّهارة.

---

(١) في رسالة (أسرار الأقدار) من (رسائل السلام) للمؤلف توضيحات كثيرة حول هذه الناحية، وهي كافية — بفضل الله — في رد جميع الشبهات المثارة حول هذا الموضوع.

ليس في نبيّ أن أحدثكم كيف عملت بين هؤلاء الناس، ولا ما هي التضحيات التي قدّمتها، ولا المصاعب الجمة التي مررت بها، فقد واصلت العمل ببساطةٍ من أجل هدفٍ واحدٍ، وهو أن أخدم هذه الطبقات مادياً ومعنوياً.

وأخيراً بدأت بدراسة حياة النبيّ محمد ﷺ كنت أعرف القليل عمّا فعله، ولكنني كنت أعرف وأشعر بأنّ المسيحيّين — وبصوتٍ واحدٍ — أدانوا مجد النبيّ العربيّ ﷺ وأردت حينها أن أنظر في المسألة دون تعصّب وحقد، وبعد القليل من الوقت وجدت أنّه من غير الممكن وجود شكٍّ في جديةّ بحثه ﷺ عن الحقّ وعن الله تعالى.

فأدركت بأنّه من الخطأ — في نهاية الأمر — إدانة هذا الرجل المقدّس بعد قراءتي عن الإنجازات التي حقّقها للبشريّة.

فالناس الذين كانوا في الجاهليّة يعبدون الأصنام، ويعيشون على الجريمة، وفي القذارة والعُري، علمهم ﷺ كيف يلبسون، واستبدلت القذارة بالطهارة، واكتسبوا كرامةً شخصيّةً واحتراماً ذاتياً، وأصبح كرم الضيافة واجباً دينياً، وحطّمت أصنامهم، وبدأوا يعبدون الله تعالى الإله الحق، وأصبحت الأمة الإسلاميّة هي المجتمع الشامل القويّ والأكثر منعةً في العالم. وأنجرت الكثير من الأعمال الخيرة والتي هي من الكثرة بحيث لا يمكننا ذكرها هنا، فكم من المخزن — أمام كلّ هذا، وأمام صفاء عقله ﷺ حين نفكر كيف استطاع المسيحيّون أن يخطوا من شخصه الكريم، واستحوذني تفكيرٌ عميق.

وخلال لحظات تأمّلاتي زارني سيّد هنديّ اسمه (معن أمير الدّين)، وكان من الغريب حقّاً أنّه هو الذي أعطى النار التي في حياتي الهواء لتزداد اشتعالاً، فتأمّلت في المسألة بشكل عميق؛ وقدّمت الحجّة تلو الأخرى متحاملاً على الدّين المسيحيّ المعاصر، ومستنتجاً كلّ شيءٍ لصالح الإسلام، وشاعراً بالافتناع أنّه دين الحقّ، واليسر، والتسامح، والإخلاص، والأخوة.

وقد ختم كلماته العذبة الصادقة بقوله: «لم يعد لي الآن سوى القليل من الزّمن لأعيش على هذه الأرض، وأريد أن أكرّس كلّ ما بقي لي في خدمة الإسلام»

### الدكتور روبرت كرين:

من الأسماء التي رأيته في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الدكتور روبرت كرين)، فسألته البابا عنه، فقال: هو أحد كبار الخبراء السياسيين في أمريكا، وهو المؤسس والمنشئ لمركز الحضارة والتجديد في أمريكا، وبعد حصوله على شهادة الماجستير في الأنظمة القانونيّة المقارنة من جامعة هارفارد، وبعد تأسيسه لصحيفة (هارفارد) للقانون الدوليّ وتسلمه منصب الرئيس الأوّل لجمعية هارفارد للقانون الدوليّ عمل لمُدّة عقد من الزمن فيما يسمّى بـ (المراكز الاستشاريّة لصنّاع السياسة في واشنطن)

وفي عام ١٩٦٢م شارك في تأسيس مركز الدراسات الاستراتيجية الدوليّة، وفي عام ١٩٦٣م وحتى عام

١٩٦٨م كان أكبر مستشاري الرئيس السابق ريتشارد نيكسون في السياسة الخارجية.. وفي عام ١٩٦٩م عينه نيكسون نائباً لمدير مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض.. وفي عام ١٩٨١م عينه رونالد ريغان سفيراً للولايات المتحدة في الامارات العربية.

وقد اعتنق الإسلام عام ١٩٨٠م، وصار اسمه بعد إسلامه (فاروق عبد الحق)، وبعد إسلامه، عمل كمدير للقسم القانوني للمجلس الإسلامي الأمريكي، وهو الرئيس المؤسس لرابطة المحامين الأمريكيين المسلمين، وهو حاصل على دكتوراه في القانون عام ١٩٥٩م.

وقد نشر عشرة كتب وخمسين مقالة اختصاصية حول الأنظمة القانونية المقارنة والاستراتيجية العالمية وإدارة المعلومات.

وقد تشرفت باللقاء به، فسألته عن سر إسلامه، فكان مما أجابني قوله: في عام ١٩٨٠م، وعلى أثر انتصار الثورة الإسلامية في إيران، ازداد اهتمام الناس في الغرب بالإسلام، ولم يكن اهتمامهم اعجاباً به، وإنما اعتبروه تهديداً لهم، لذلك نادى العديد من صنّاع الفكر الى عقد الندوات والمؤتمرات، حول هذا الموضوع.

وقد حضرت أحد المؤتمرات كي أرى ماهية هذه الدراسات والاطروحات المقدمة، (في خريف ١٩٨٠م)، وكان مشاركاً في المؤتمر الكثير من قادة الفكر الإسلامي، ومنهم الدكتور حسن الترابي الذي تكلم عدّة مرّات، وشرح الإسلام تماماً، كما كنتُ أبحث عنه، فادركتُ أنه متقدّم في أفكاره، ثم رأيتُه وهو يصلي ويسجد، وكنتُ ضدّ مسألة السجود، لأنّ الانسان في نظري لا يجب أن يسجد لأحد، ففي هذا إهانة له ولانسانيته.

ولكنني أدركتُ أنّ الشيخ حسن الترابي ينحني لله ويسجد له، فالأولى أن أنحني وأسجد أيضاً، وهكذا فعلتُ ودخلتُ الإسلام، من يومها، على يد الدكتور حسن الترابي.

وقد حدثني عن الهواجس التي كانت تملأ عليه نفسه، ولم يجد إجابة لها إلا في الإسلام، فقال: كان والدي يعمل استاذاً في جامعة هارفارد، وقد علّمني أن أهتم وادافع عمّا هو صواب، وأن احاول تجنّب الخطأ، وقد قضيتُ معظم وقتي في التحرّي عن العدل والعدالة قبل أن أصبح مسلماً.

وفي الندوة التي جمعتني مع البروفسور (روجيه غارودي) في دمشق سمعته يتحدث ويهاجم الرأسمالية منذ كان شيوخاً، وكلانا كان لديه نفس الهدف، وهو أن يدعم العدالة، وكلانا كان ضدّ التركيز على الثروة، لأنّ الاهتمام بجمع الثروة ليس بعدل.

لقد أتبع غارودي المبدأ الماركسي الذي يسعى لتحطيم الملكية، في حين أنّي كنتُ أعتبر الملكية مفتاحاً للحريّة، لكن كلانا كان يرى أن الملكية تؤدّي في النهاية الى الظلم وعدم انتشار العدل، وكلانا كان يدعو الى نظام يدعو الى إنتاج واعطاء العدالة للجميع.. لذلك وجدنا أنّ الإسلام هو الحلّ الوحيد، فهو الذي يحمل العدالة في مقاصد الشريعة وفي الكليات والجزئيات والضروريّات، وأنا كمحام كنتُ أسعى الى مبادئ ليست من وضع البشر.

انطلاقاً من هذه القناعات بدأتُ أسعى وأفتش عن العدالة، والمفارقة أنّني عندما ذهبتُ إلى جامعة هارفارد

(١) وقد أسلم بعد ذلك، وستحدث عنه في فصل (مفكرون)

وحصلتُ على شهادتي في القانون، مكثتُ هناك ثلاث سنوات لم أسمع خلالها كلمة العدل ولا مرّة واحدة.

قلت: كيف اختاروك لذلك المنصب الخطير؟

قال: تقصد (مستشاراً للشؤون الخارجية الأميركية) (

قلت: أجل.. وغيرها من المناصب الخطيرة.

قال: لقد كان ذلك في عام ١٩٦٣م، وذلك بعد أن كتبتُ مقالة طويلة عن الصّراع بين روسيا وأميركا،

وقد قرأ الرئيس نيكسون هذه المقالة وهو في الطائرة.

واستدعاني بعدها، وكلفني بوضع كتاب حول السياسة الخارجية الأمريكية، وحول الشيوعية، ثمّ عملت

مستشاراً للشؤون الخارجية منذ عام ١٩٦٨م.

و كنتيجة لهذا الكتاب عُينتُ نائباً للرئيس نيكسون للأمن القوميّ في البيت الأبيض، وكان هناك أربعة

نواب للرئيس كنتُ أحدهم.

وفي عام ١٩٦٩م عندما استلم هنري كيسنجر وزارة الخارجية أنهى عملي بسبب ٢٥ ورقة كانت في

كتابي تضمّنت موضوع فلسطين، وقد اقترحتُ يومها تشكيل دولتين: يهوديّة وفلسطينية، وقد بُجِثَ هذا

الموضوع لسنوات عديدة على أعلى المستويات في دوائر الولايات المتحدة وفي البيت الأبيض. ولكنّ كيسنجر

كان ضدّ كل إنسان يبحث في هذا الموضوع.

ووقف كيسنجر ضدّي في كلّ مجال دخلتُ أو عملتُ فيه، ثمّ عينني نيكسون نائباً لإدارة شؤون احدى

الولايات في البيت الأبيض، كما عملتُ في مسألة (ووترغيت).

بعد فضيحة (ووترغيت) وجدتُ أنني لا أستطيع أن أوثّر على سياسة الولايات المتحدة بشكل فعّال من

داخل الدولة، ورأيتُ أنّ الحلّ الوحيد لإزالة الظلم هو إنشاء حركة فكرية تعود للمثاليّات في أمريكا، وتنادي

باستعادة التراث الأمريكي الذي كاد أن يضيع.

وهذا التراث الذي ضاع، وتلك المثل العليا لم تعد موجودة في أمريكا، لكنّي وجدتها في الإسلام، لذلك

أرى أنّ الطريق إلى إنعاش التراث الأمريكي سيكون عن طريق الإسلام، وهذا ما أقوم بالعمل عليه منذ إسلامي

عام ١٩٨٠م.

وقد أخبرني بأنّ الحاجة قائمة الى صناع فكر إسلامي لكي يشرحوا للأمريكيين كيف يجب على أمريكا

أن تدير سياستها الخارجية، وأن يبيّنوا أنّ العدل هو الطريق الطويل الذي يجب أن تسلكه أمريكا.

وفي الوقت الذي لا يبدي فيه د. فاروق قلقاً على بقاء الإسلام في أمريكا، غير أنّه يحب التركيز على بناء

فكر عال للمفهوم الإسلامي بين الشباب بشكل خاص، وقد قال في ذلك: « يجب أن يفهموا العالم الحديث،

ويجدوا ردوداً إسلامية لكل المشاكل المطروحة في المجتمع، ومن جانب آخر يجب أن ننمّي ونطوّر قيادة فكرية

بين المسلمين وفي كلّ حقول المعرفة، ويكون الهدف من كلا الأمرين هو تدعيم العدل والعدالة في العالم.. وهذا

يجعل الإسلام قوّة إيجابية من أجل الخير في العالم، وهذه الأولويات تنطبق على الغرب كما تنطبق على العالم

الإسلامي»

وقد قرأت عليه بعد ذلك آراء وتصوّرات عميقة في أمّهات القضايا والتحدّيات التي تواجه المسلمين في عالم اليوم، وهو حين يوجّه النقد الى الغرب لنظرفته المنحازة والقاصرة تجاه الإسلام، فأنه لا ينسى توجيه اللوم الى بعض المسلمين في الشّرق أو الغرب ممّن لا يفهمون التعاليم الإسلامية، ومن الصّعب — كما يقول — أن تفهم الغربيين حقيقة الإسلام لأنّ الكثير من المسلمين الذين يعيشون في الغرب لا يمارسون ولا يعيشون حسب تعاليم الإسلام.

### ديفيد كيربا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ديفيد كيربا)، فسألته البابا عنه، فقال: هذا الرجل تيوأ أعظم منصب يمكن أن يتبوأه امرؤ في بلده.. هذا الرجل كان رئيساً لجمهورية جامبيا. قلت متعجباً: رئيس جمهورية؟! قال: أجل.. ولا تكمن الغرابة في كونه رئيساً لجمهورية، وإنما لأن هذا الرئيس ولد مسلماً ثم أبحر للغرب،

وتشرب من فكره وقيمه وعقيدته، ودخل عالم السياسة، فدانته له، واستهوته شهوة المناصب التي وصل إلى أقصاها، ولكن حين اقترب من القصر السياسي أكتشف أنه قد نسي شيئاً مهماً.. نسي فطرته، فعاد إليها مسرعاً، وقد عبر عن ذلك بقوله: (كنت أشعر دائماً أن لي قلبين في جوفي.. قلب لي وقلب علي.. أما القلب الذي لي، فكان يدفعني إلى الدراسة والسياسة وخوض معركة الحياة.. وأما القلب الذي علي، فكان ما يفتأ يلقي علي عقلي وقلبي سؤالاً لم يبرحه قط، هو: من أنت؟... وما بين القلبين مضت بي الرحلة الطويلة استطعت معها ومن خلالها أن أحقق كل ما أصبو إليه، تحرير وطن أفريقي أسود، ووضعه على خريطة الدنيا كدولة ذات سيادة)

واستطرد قائلاً: (وكان هذا نصراً منتزِعاً من فم الأسد، يكفي لأن يدير الرؤوس، ويصيب الشبان الحالمين من أمثالنا في هذا الوقت بدوار السلطة.. كانت تلك معركة كبرى سلخت من أعمارنا نصف قرن من الزمان مع الحرب والنضال، والمفاوضات وتكوين الأحزاب، وخسارة المعارك والفوز بها أيضاً، وما كان أسعدنا حينئذ ونحن ننشل وطننا من هذه الاحتمال والتخلف والضياع الفكري والاقتصادي.. ولم يكن هذا الفوز سوى لإرضاء النفس وغرورها، أما فطرة النفس فأخذت تحضني على خوض المعركة الكبرى.. لقد كسبت معركتك مع الحياة فاكسب معركتك مع نفسك، عد إلى ذاتك، اكتشف المعدن الثمين الذي بداخلك.. أرح ما عليه من هذا الركام من التغريب والعلمانية والدراسة في مدارس اللاهوت.

كان الصوت يخرج من داخلي يقول لي: عد إلى الطفل البريء الذي كان يجلس بين أيدي شيوخه ومعلميه يتلو القرآن ويسعى للصلاة.. وهنا أحسست أن قلبي يصدقني وأن لا شيء في الدنيا يعادل أن يجسر الإنسان نفسه، أن أعود لإسلامي الذي ضاع مني وأنا في حضم في الحياة ومشاغها ومباهجها، أستشعر الآن أي قد كسبت نفسي وتعلمت درساً لا يتعلمه إلا من كان في قلبه حس نابض، وعقل واع)

لقد عاد هذا الرئيس إلى فطرته الصحيحة وأعاد اسمه إلى (داود جاوارا) بعد أن كان اسمه (ديفيد كيربا)

### مستر ولیم:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مستر وليم)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل كان مدير دريم بارك الأمريكي في مصر، وقد التقيت به في بعض رحلاتي إلى مصر، وقد سألته عن علاقته بالإسلام، فقال: عندما جئت إلى مصر لم أكن متعوداً كما هو الحال في الغرب أن أرى الناس عندما يسمعون الأذان يتجمعون ويصلون، فكان هذا غريباً عليّ في بداية الأمر، كما أن هناك مهندسين وزملاء آخرين مصريين بدأوا يكلموني عن الإسلام، وبدأت أحس أن بداخلهم طمأنينة وراحة نفسية معينة لم أحسها من قبل هي سبب تمسكهم بهذا الدين، مما جعلني أبدأ في التفكير في الإسلام وأقرأ عنه وأقارنه بالمسيحية، ومن خلال قراءاتي والخبرة الواقعية حوли عن طريق زملائي المسلمين اعتنقت هذا الدين، ومن أهم الكتب التي قرأتها عن الإسلام [تفسير معاني القرآن الكريم] باللغة الإنجليزية.. وكتاب دين الحق، الزواج في القانون الإسلامي وكتب أخرى كثيرة تشرح ما يجويه الإسلام، كما أنني أحمل مصحفاً معي دائماً، وأحاول تعلم اللغة العربية حتى أستطيع قراءة القرآن الكريم.

قلت: ما هي المعاني الإسلامية التي جذبتك إلى الإسلام؟

قال: لا يمكنني أن أحصر لك تلك المعاني في هذا المجلس، ولكني أقول لك بأني في البداية سمعت عن الإسلام قبل أن أعتنقه لكن ليس بالقدر الكافي، وبدأت بالفعل في القراءة عنه، وأخبرني زملائي المسلمون أن أهم شيء في معرفة الإسلام معناه البسيط بداية، وليس شرطاً أن أعرف قواعده وقوانينه في بداية الأمر، فقد تكون صعبة ومعقدة بعض الشيء بالنسبة إلى وسأستطيع معرفتها بعد ذلك، وقد أشهرت إسلامي، ولم أغير اسمي، ولكن أضفت إليه اسم [يوسف] فأنا معجب بشخصية سيدنا يوسف عليه السلام فقد قرأت عنه قبل وبعد اعتناق الإسلام فاحترمته وأحببت اسمه، ولكن في نفس الوقت لم أغير اسمي لأنه لقب والدي وعموماً فأنا أعتز بالإسمين معاً.

قلت: ألم تعترض أسرتك على إسلامك؟

قال: والدي ووالدي متمسكان بدينهما وملتزمان بتعاليم المسيحية، وكانا يجبانني، ولذلك عندما أخبرتهما أنني سأعتنق الإسلام سألاً عن هذا الدين وذهبا إلى القسيس في الكنيسة وطرحا عليه عدداً من الأسئلة حول الإسلام فهما لم يكونا يعرفان عنه شيئاً، وقالوا لي طالما ستظل كما أنت أبيض القلب وطيب النفس، وأن هذا الدين لن يغير فيك ذلك، فليس هناك مانع.

أما أصحابي فربما لم يفهموا موقفي، ولكنهم يعرفونني جيداً، وهم متأكدون أنني لن أتحول عن ديني إلى دين آخر إلا إذا كان هذا الدين سيحسن من نفسي وسيزيد إيماني وسيجعلني أحس بشعور أفضل، ولذلك تقبلوا الموقف ولكن لم يفهموه بالضبط.

قلت: هل واجهتك ضغوط للحيلولة دون اعتناقك للإسلام؟

قال: لم تواجهني أي ضغوط عندما قررت اعتناق الإسلام، بل إن من حوли تقبلوا الأمر، ولكن لم يكونوا قد تفهموه بعد، خاصة أن الغرب لا يرانا مثلاً ونحن نصلي بل يرون جانب التعصب في المسلمين، فوسائل الإعلام تنقل إليهم صورة غير حقيقية، ولا تنقل إليهم صورة الإسلام الحقيقية، فالتعصب ليس من الإسلام في

شيء، ولكن الغرب للأسف لا يرى سوى ذلك، وبالنسبة إلي لم أحد مشاكل في أمريكا بسبب إسلامي ولكن أقابل أناساً لا يفهمون موقفي.

قلت: فكيف تعلمت إقامة شعائر الدين الجديد مع أنك لا تتقن العربية؟

قال: للأسف لم أتعلم اللغة العربية بعد، ولكن قالوا لي ليس هناك مشكلة الآن طالما أنك تصلي وتقف أمام الله بقلب سليم وتعرف كيف تصح صلاتك وعندما أقول (الله أكبر) أحس أنني قريب من الله وصلاتي ستقبل كما أخبرني بذلك علماء من الأزهر، وأن الأمر يأتي خطوة خطوة، وزملائي المسلمون يصلون بي دائماً، والفرصة المتاحة لي هي أن أتعلم العربية ممن حولي، فليس عندي وقت كثير فأنا أعمل من ١٢ إلى ١٦ ساعة يومياً، وبالنسبة لصيام شهر رمضان فلم تكن عندي مشكلة في الامتناع عن الطعام فأنا متعود على ذلك في العمل، ولكن عانيت بعض الشيء أولاً، ثم اعتدت — بحمد الله — على ذلك، وأنا أنوي الحج إلى بيت الله برفقة زوجتي [منى] التي ارتبطت بها بعد اعتناقي الإسلام.

قلت: هل ترى أي فروق بين الإسلام والمسيحية؟

قال: الإسلام منحني الأمان والسلام، وهو دين لم يتغير ولم يتبدل ولم يطرأ عليه أي تغيير، أما المسيحية، فقد حدث فيها تغيير وتحريف من قبل القساوسة والكهنة، فمنهم من يؤمن بأن عيسى عليه السلام هو الله، وهذا خطأ فليس هو عبد الله ورسوله، ونحن — المسلمين — نؤمن بجميع الرسالات، وأن المسيح هو رسول من رسل الله، ونؤمن بالدين الذي جاء به، وهنا يقف المسيحيون عند الإيمان بالمسيحية فقط، فلم يؤمنوا بأي شيء بعدها أما نحن فقد آمننا بمحمد ﷺ ودينه، وهذا هو الفرق.

قلت: ما الجديد في حياتكم إثر تحولكم إلى الإسلام؟

قال: منحني الإسلام شيئاً جديداً وقوة وجعلني لا أخشى أحداً إلا الله، بل أنا لا أهتم بأي مشكلة مهما كانت طالما أنها مشكلة دنيوية، ولا تتعلق بالآخرة، ولا تمس حياتنا بعد الموت، وهذا ما لاحظته في تعاملي مع بعض الزملاء، فمثلاً توفيت أختي الصغيرة بعد إسلامي بفترة، فتقبلت الأمر لأنه من الله، وعليّ أن أؤمن بالقضاء والقدر، ولو حدث ذلك قبل إسلامي لكان من الممكن أن أعترض وأتساءل لماذا يحدث ذلك.

قلت: هل طرأ تغير على تعامل المحيطين بك بعد اعتناقك الإسلام؟

قال: إن زملائي المسلمين سعدوا جداً بإسلامي لدرجة الانبهار، وقالوا لي: (مبارك)، وهم يعاملونني جيداً حتى قبل أن أسلم أو أخبرهم أنني أفكر في الإسلام، ومعاملتهم لي لم تجعلني أشهر إسلامي، ولكن جعلتني أفكر بإيجابية في اعتناق هذا الدين، وأعتقد أنه لو كانت سيئة ربما لم أعتنق الإسلام، لأنه طالما أن هؤلاء المسلمين معاملتهم سيئة وتصرفاتهم خاطئة، فلماذا أكون على دينهم؟

قلت: هل حاولت أن تدعو أحداً من الشعب الأمريكي إلى الإسلام؟

قال: لقد تحدثت مع أصدقائي عن الإسلام والجديد فيه، ولكنني أعتقد أن المهم هو تصرفاتي وأفعالي، فهي أفضل دعوة صريحة للتأثير في الآخرين، وحثهم على تقليدي واعتناقهم الإسلام.

(١) قد ذكرنا عدم اشتراط تعلم العربية لمن يريد الإسلام، بل يمكنه أداء شعائر الإسلام جميعا بلغته الأصلية.



وللأسف هناك كثير من الناس، لا يعرفون أي شيء عن الإسلام ومعلوماتهم بشأنه تكاد تكن منعدمة حتى أن أصدقائي لم يستطيعوا أن يسألوني سؤالاً محدداً، فكانت استفساراتهم ما هو الإسلام؟ فهم لا يعرفون أن الإسلام دين يدعو للتسامح مع كل الأديان وأن سيدنا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، والمشكلة تكمن في أن الغرب لا يعرف الكثير عن الإسلام، فالصلة التي تربطه بالشرق تتركز في النواحي السياسية.

قلت: من وجهة نظرك ما هي رؤية الأمريكيين للإسلام؟

قال: الناس في الولايات المتحدة يتقبلون الأديان، ولذلك تجد مزيجاً من الأديان في دول الغرب، وليس هناك مشكلة أن تكون مسلماً، ولكن للأسف هناك من يسيئون لصورة الإسلام.

### د. مراد هوفمان:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مراد هوفمان)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل أشهر من نار على علم، وقد كان سفير ألمانيا في المغرب وفي مصر، وقد نال شهادة دكتوراه في القانون من جامعة هارفرد.

وبعد إسلامه ابتداءً د. هوفمان مسيرة التأليف، ومن مؤلفاته: كتاب (يوميات مسلم ألماني)، و(الإسلام عام ألفين) و(الطريق إلى مكة) وكتاب (الإسلام كبديل) الذي أحدث ضجة كبيرة في ألمانيا. ولما أشهر إسلامه حاربه الصحافة الألمانية محاربة ضارية، وحتى أمه لما أرسل إليها رسالة أشاحت عنها، وقالت: « لبيق عند العرب »

ولكن هوفمان لم يكتفِ بذلك هذا، بل قال: « عندما تعرضت لحملة طعن وتجريح شرسة في وسائل الإعلام بسبب إسلامي، لم يستطع بعض أصدقائي أن يفهموا عدم اكتراثي بهذه الحملة، وكان يمكن لهم العثور على التفسير في هذه الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاحة: ٥) وقد التقيته مرات عديدة حدثني خلالها عن سر إسلامه.. وسأعرض لك بعض ما دار بيننا لتعلم سر انجذاب مثله إلى الإسلام<sup>١</sup>.

لقد ذكر لي في أول لقاء لي به أن الله ﷻ بكرمه وفضله من عليه بأن يعيش ثلاثة أحداث كبرى كان لها تأثيرها الكبير في توجيهه للإسلام، وهي ذات طبيعة انسانية، وجمالية فنية، وفلسفية. أما الحدث الأول فيرتبط بالجزائر، قال: في أثناء عملي بالجزائر في عامي ١٩٦٢/٦١، عايشت فترة من حرب استمرت ثماني سنوات بين قوات الاحتلال الفرنسي وجبهة التحرير الوطني الجزائرية، وانضم أثناء فترة وجودي هناك طرف ثالث هو (منظمة الجيش السري)، وهي منظمة إرهابية فرنسية، تضم مستوطنين وجنوداً متمردين، ولم يكن يوم يمر دون أن يسقط عدد غير قليل من القتلى في شوارع الجزائر. وغالباً ما كانوا يقتلون رمياً بالرصاص على مؤخرة الرأس من مسافة قريبة، ولم يكن لذلك من سبب، إلا

(١) انظر كتابه (الطريق إلى مكة)

كوفهم عربا، أو لأهم مع استقلال الجزائر<sup>١</sup>، وكنت عند سماعي صوت سلاح آلي، أتصل تليفونيا بزوجتي الاميركية لتسرع إلى شراء ما تحتاج اليه، لان الهجوم التالي في المنطقة نفسها لا يتوقع حدوثه قبل عشرين دقيقة.

وكانت أنبل مهماتي هي إعادة أفراد الفرقة الأجنبية من الالمان الفارين الى الوطن بمعاونة من السلطات الفرنسية، وكان عدد هؤلاء الرومانسيين المساكين غير قليل، منذ فر قائد قوات المظلات في العام السابق. وكم كان الموت يجذبهم! وكانت منظمة الجيش السري قد جندت عددا منهم ضمن قوات خاصة (كوماندوز). ومن ثم وجدوا انفسهم بين نارين. كما أن فرص نجاحهم من الموت كانت ضئيلة جدا. وكنت، بصفتي ممثلا للقنصلية العامة الالمانية، أضع الزهور على قبور الكثير منهم.

كنت، وأنا أبحث عن ألمان بين الجرحى في المستشفيات، أحمل سلاحي معدا للاستخدام. وكنت أدقق النظر في وجه من يقابلني، بل وفي يديه. وعندما كانت القامات تتقابل، كان كل شخص يتعد عن الآخر عائدا الى الخلف، طلبا للامان، وفي بعض الأحيان كانت زوجتي المذعورة تصر على حماية ظهري، فكانت تسير خلفي على مسافة عدة خطوات حاملة في كم ثوبها سكيننا حادة.

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قال: ما تزال بعض ذكريات تلك الايام تثير كآبة في نفسي حتى الآن، فعندما كنت في طريقي إلى مقر إذاعة فرنسا ٥، حيث كان من المقرر أن ألقى، تنفيذا لتكليف من القنصل العام، محاضرة عن (وضع الرقص المسرحي) في ألمانيا، تعطلت مضخة البترين في سيارتي في شارع ايزلي الضيق، كثير المنحنيات، وسرعان ما اصطفت السيارات خلف سيارتي، مطلقة اصوات النغير، وفي تلك الاثناء، كان امامي رجل يعبر الشارع، واطلق عليه شخص الرصاص من الرصيف المقابل، فسقط جريحا أمام رفرف سيارتي الايسر، واذا بالمهاجم يشير لي بسلاحه أما ان اوصل سيري، كي اخلي ساحة اطلاق الرصاص.

ولم اكن ارغب في ذلك، بل ولم اكن استطيعه ايضا، وأخيرا، تقدم الشخص الذي يحمل السلاح من الرجل المصاب وأطلق عليه رصاصة اخرى أردته قتيلا، ثم احتفى في زحام البشر في تودة وعلى مهل، ولقد استأت كثيرا ايضا، عندما رأيت مضطرا اعضاء منظمة الجيش السري، وهم يشعلون النار في سيارات شحنوها سلفا ببراميل من الوقود، ويدفعونها من فوق منحدر الى حي يسكنه العرب، ولا بد للمرء من ان يتوقع ان يكون على قائمة القتلى، اذا ما اصبح شاهدا غير مرغوب فيه.

وكان حلاقي في الايبار يدرك ذلك جيدا، فحين هاجمت قوات (منظمة الجيش السري) مكتب التلغراف المقابل لمحله في شارع جاليني، ادار مقعده حتى لا يكون شاهدا على ما يجري. ولم يكن تصرفه اقل غرابة من تصرف احد افراد الشرطة الذي عرض عليّ في مايو (ايار) عام ١٩٦٢ ان يحرس سيارتي، بينما كانت النيران مشتعلة خلف ظهره في مكتبه بالايبار.

عندما توصل الرئيس الفرنسي شارل ديغول، في ايفيان في مارس (اذار) عام ١٩٦٢، الى اتفاق مع

---

(١) اهتمنا بسياق هذا الكلام هنا بحروفه لنبين من هو الأسبق للإرهاب، أو من علم الإرهابين ما يمارسونه من أساليب الإرهاب التي يبرأ منها الإسلام.

الحكومة المؤقتة لجهة التحرير الوطني الجزائري على وقف اطلاق النار في يوليو (تموز) التالي، صعدت منظمة الجيش السري من اعمالها الارهابية، بهدف استفزاز الجزائريين لخرق الاتفاق، فبدأ أفرادها في تصفية النشء والاكاديمي الجزائري، وراحوا يقتلون، رميا بالرصاص، النساء اللاتي يرتدين الحجاب.

وقبل تحقيق الاستقلال بأيام قلائل، اطلقوا الرصاص على آخر بائع جزائري حائل في الايبار، فأردوه قتيلا أمام مكنتي مباشرة، وكان هذا البائع قد عاش ينادي على أسماكه منذ عقود طويلة، دون أن يلحق أذى بأي إنسان كائنا من كان، وفي الشارع الذي كنت اقطنه، كان حيراني من الفرنسيين يلقون من النوافذ على المنتصرين بكل ما لا يخلون به.

قلت: فقد عرفت المسلمين إذن انطلاقا من هذه المشاهد المأساوية؟

قال: أجل.. لقد شكلت هذه الوقائع الحزينة خلفية أول احتكاك لي عن قرب بالاسلام المعيش، وقد لاحظت مدى تحمل الجزائريين لآلامهم، والتزامهم الشديد في رمضان، ويقينهم بأنهم سينتصرون، وسلوكهم الانساني، وسط ما يعانون من آلام. وكنت ادرك ان لديهم دورا في كل هذا.

ولقد أدركت إنسانيتهم في أصدق صورها، حينما تعرضت زوجتي للاجهاض تحت تأثير الاحداث الحاربه آنذاك، فقد بدأت تتزرف عند منتصف الليل، ولم يكن باستطاعة سيارة الاسعاف أن تحضر إلينا قبل الساعة السادسة صباحا، بسبب فرض حظر التجول، وبسبب شعار (القتل دون سابق انذار) المرفوع آنذاك. وحينما حانت الساعة السادسة، ادركت وانا اطل من نافذة مسكني في الطابق الرابع، ان سيارة الاسعاف لا تستطيع العثور علينا، لان منظمة الجيش السري كانت قد غيرت في تلك الليلة اسماء كل شوارع الحي الذي اقطنه، بحيث أصبحت كلها تحمل أسماء مثل شارع (سالان) وشارع (يهود) وشارع (منظمة الجيش السري)

بعد تأخير طال كثيرا، كنا في طريقنا متجهين الى عيادة الدكتور شمعون (قبل ان تنسفها منظمة الجيش السري بوقت قصير)، حيث صادفنا حاجزا أقامته الجمعية الجمهورية للامن، وعلى الرغم من صغر البوق الذي كان السائق يطلقه، فانه لم يكن باستطاعته ان يشق طريقه الا ببطء شديد، وكانت زوجتي تعتقد، في تلك الاثناء، انها ستفقد وعيها. ولذا، وتحسبا للطوارئ، راحت تخبرني ان فصيلة دمها هي O ذات RH سالب. وكان السائق الجزائري يسمع حديثها، فعرض أن يتبرع لها ببعض من دمه الذي هو من نفس فصيلة دمها. ها هو ذا العربي المسلم يتبرع بدمه، في أتون الحرب، لينقذ أجنبية على غير دينه.

ولكي أعرف كيف يفكر ويتصرف هؤلاء السكان الاصليون المثيرون للدهشة، بدأت أقرأ كتابهم (القرآن) في ترجمته الفرنسية لـ Pesle/Tidjani. ولم أتوقف عن قراءته منذ ذلك الحين، حتى الآن، وحتى تلك اللحظة، لم أكن قد تعرفت على القرآن الا من خلال النوافذ المفتوحة لكتاتيب تحفيظ القرآن في ميزاب جنوب الجزائر، حيث يحفظه اطفال البربر، ويتلونه في لغة غريبة عنهم، وهو ما دهشت له كثيرا. وفيما بعد ادركت ان حفظ وتلاوة القرآن، باعتباره رسالة الله المباشرة، فرض تحت الظروف كافة.

وقد أزعجني رد الفعل الغاضب من جانب أحد الجزائريين، عندما حدثته في بار فندق ترانس ميدترانيان في غرداية، عن قراءتي للقرآن، اذ استنكر في صراحة لا ينقصها الوضوح، وجود ترجمات له، واعتبر محاولة

ترجمة كلام الله الى لغة اخرى بمثابة تجديد.

ولم استغرق وقتا طويلا قبل ان استوعب رد فعله. فاللغة العربية تشتمل على مفردات لا تدل على وقت محدد بعينه. فالمفردات التي تشير الى مستقبل مؤكد يمكن أن تدل على امر حدث في الماضي ايضا. ناهيك عن ان اللغة العربية تتضمن بعض ما يمكن للعربي ان يفهمه تلميحا. وبغض النظر عن ذلك، فهناك المشكلة المعتادة التي تكمن في أن الكلمات التي تعبر عن ذات المعنى في لغتين لا تتطابق في ما يختص بتداعي الخواطر الا نادرا. ومن ثم، فان كل ترجمة للقرآن ان هي الا تفسير يفقر المعنى ويجرده من مضمونه. وهكذا كان الرجل في البار على حق.

لم تنشأ هذه الجزائر، التي أدين لها بالكثير، أن تتركني لحالي، وانما تبعني كالقدر، فعندما أصبحت سويسرا ترعى مصالحنا في الجزائر، في عام ١٩٦٦، كان عليّ أن أعمل من السفارة الالمانية في برن على استمرار الاتصال مع من تبقى من بعثتنا الدبلوماسية في الجزائر، من خلال القسم السياسي في السفارة السويسرية. وكان البريد المرسل من بون الى الجزائر، يمر من خلال اسبوعيا.

وبعد ٢٥ عاما من عملي بالجزائر لأول مرة، عدت اليها سفيرا في عام ١٩٨٧، ومنذ اعتمدت سفيرا في المغرب، المجاور للجزائر، في عام ١٩٩٠، يندر أن تفارق مخيلتي صورة الجزائر التي ما تزال تعاني آلاما مأساوية، فهل يمكن ان يكون ذلك كله محض مصادفة!؟

قلت: فحدثني عن الجانب الثاني الذي تعرفت من خلاله على الإسلام، وهو الجانب الجمالي الفني.

قال: لذلك قصة.. وهي تتلخص في أنني كنت منذ صباي معجبا بالجانب الشكلي للجمال، وأرغب في الغوص في أعماقه حتى عندما كانت حماتي الاميركية تقول — استنادا الى المنهج البيوريتاني — إن الجمال مجرد أمر سطحي، وانه ليس الا خداعا على السطح.

وعندما تلقيت في عام ١٩٥١ الدفعة الاولى من منحة التفوق، التي تمنحها وزارة الثقافة في بافاريا للموهبين جدا، دفعتها بأكملها ثمنا لشراء نسخة مطبوعة على قطعة من الجوت من لوحة بول جوجان (الفتاة وثمار المانجو)، وبما أنني لم اكن ممن يقطنون حي Maximilianeum الواقع على اليمين من نهر ايزار، وانما كنت اقيم في المستوطنات السكنية للثوريين الديمقراطيين، عند ميدان ماسمان، حيث يتقاسم العمال والطلبة غرفها، فقد نقلت لوحة جوجان التي اشتريتها الى مسكني هناك، ورحت أحللها، ولم ألبث أن اقتنعت بأن الفن الساكن — الرسم والنحت والعمارة والخط والاعمال الفنية الصغيرة — مدين بالفضل في تأثيره الجمالي للحركة المحمّدة، ومن ثم، فانه مشتق من الرقص. ولذلك، يزداد احساسنا بجمال الفن التشكيلي كلما ازدادت قدرته على الاجزاء بالحركة. وهذا ما يفسر انبهارني الشديد بالرقص الذي دفعني الى مشاهدة عروض الباليه كافة في مسرح بريترجننتن في ميونخ، ومنذ ذلك الحين ازداد اهتمامي بالرقص، واتسع ليشمل كل ما يتصل به. وكنت اقضي كل ساعة فراغ بين مواعيد المحكمة في صالات عروض الباليه، بالقرب من قصر العدل، وحصلت على تمارين لباليه، لكي أتعلم — ولو على نحو متخلف — رقص الباليه الكلاسيكي، حتى أعرف ماهية ما أكتب عنه.

وكعاشق للباليه، ذلك الفن المجرد الذي يجسد الموسيقى، كنت في الواقع أبحث عن الأسباب التي ترغمننا على الإحساس بجمال أشياء أو حركات بعينها. ولهذا السبب، كنت أقبع لأسابيع طويلة في إحدى الغابات البافارية باحثاً في أسس علم جمال الحركة.

وهناك تبين لي أننا كبشر لا نملك إلا أن نحس جمال الجسد البشري الصحيح وما يتطابق مع مقاييسه. وهو ما ينطبق أيضاً علينا كمحللين بصريين لما تفرزه الطبيعة من صور وأنواع.

يضاف إلى ذلك أننا نقرأ الصور في ذات الاتجاه الذي نكتب فيه، وتبين لي أخيراً أن الحركات تستحوذ على انتباهنا بسبب ما يمكن أن تنطوي عليه من مخاطر. وتبين لي أخيراً أننا نعجب بحركات الطرد المركزي، لأننا نستطيع أن نتخيلها ممتدة في ما لا نهاية.

عبر هذا الطريق، صار الفن الإسلامي بالنسبة لي تجربة مهمة ذات قيمة عالية ومثيرة، ألا يماثل في سكونه تماماً ما أسعدني في حركات الباليه، التجريدية: القدرة الانسانية، والحركة الداخلية، والامتداد في ما لا نهاية؟ وذلك كله في إطار الروحانية التي يتسم بها الإسلام.

وأهمني أعمال معمارية، مثل الحمراء في غرناطة والمسجد الكبير في قرطبة، اليقين بأنها إفراز حضارة راقية رفيعة. واستوعبت جيداً ما كتبه راينر ماريا ريلكا بعد زيارته لكاتدرائية قرطبة، إذ كتب: (تملكني منذ زيارة قرطبة عداء وحشي للمسيحية، إنني أقرأ القرآن وهو يتجسد لي صوتاً يستوعبني بقوة طاغية، واندفع بداخله كما تندفع الريح في الأركان).

وصار الفن الإسلامي لي وطناً جمالياً، مثلما كان الباليه الكلاسيكي من قبل، وأصبحت أرى الأعمال الفنية للعصور: الإغريقية والرومانية والقوطية، ولعصر النهضة والروكوكو مثيرة، وعريقة، واصيلة، بل وعبقرية، ولكنها لا تنفذ إلى داخلي، ولا تحرك عواطفني ولا مشاعري.

سكت قليلاً، ثم قال: إنني أدرك قوة جاذبية فن هذا الدين الآن أفضل من ذي قبل، حيث أنني محاط في المنزل الآن بفن تجريدي، ومن ثم بفن إسلامي فقط. وأدركها أيضاً عندما يستمر تاريخ الفن الغربي عاجزاً عن مجرد تعريف الفن الإسلامي. ويبدو أن سره يكمن في حضور الإسلام في حميمية شديدة في كل مظاهر هذا الفن، كما في الخط، والأرابيسك، ونقوش السجاد، وعمارة المساجد والمنازل والمدن. إنني أفكر كثيراً في أسرار إضاءة المساجد وفي بنائها الديمقراطي، وفي بناء القصور الإسلامية، الذي يوحي بحركة متجهة إلى الداخل، بجذائقتها الموحية بالجنة بظلالها الوارفة وينابيعها ومجاريها المائية، وفي الهيكل الاجتماعي — الوظيفي المبهر للمدن الإسلامية القديمة (المدينة) الذي يهتم بالمعيشة المتجاوزة تماماً كما يهتم بابرز موقع السوق وبالمواءمة أو التكيف لدرجات الحرارة وللرياح، وبدمج المسجد والتكية والمدرسة والسبيل في منطقة السوق ومنطقة السكن. وإن من يعرف واحداً من هذه الأسواق — وليكن في دمشق، أو إسطنبول أو القاهرة أو تونس أو فاس — يعرف الجميع، فهي جميعاً، كبرت أم صغرت، منظمات إسلامية من ذات الطراز الوظيفي. فما أكثر ما تجولت في سوق مدينة سالي المؤاخية للرباط لكي استعيد حيويتي، إنه ذروة مجتمعية حيوية يجد فيها كل إنسان مكاناً له، شيخاً كان أم شاباً، صحيحاً كان أم مريضاً، فقيراً أم غنياً، أبيض أم أسود، ولا يوجد به عجلة، ولا أزمة ضيق

وقت، ولا مبالغة في تقييم الذات، ولا خمور ولا وسائل نقل ثقيل، ولا سياج ولا ابتزاز، وحيث الجميع سواسية، وكل عملية شراء ترتبط بـ (دردشة)، وحيث تغلق الحوانيت ابوابها وقت الصلاة.

كان ما احسست منذ البداية أنه إسلامي وباعث على السعادة هو في واقع الأمر التأثير الناضج للتناغم الإسلامي، وللإحساس بالحياة والمكان الإسلاميين على العقل والروح. وهذا ما احسست به في متحف جولبينكيان الإسلامي في لشبونة، مثلما أحسست به في المسجد الاموي بدمشق، وفي مسجد ابن طولون بالقاهرة، وفي مسجد القيروان القديم أو المسجد السليمي في درنة.

وقبل أن يقودني الدرب الفلسفي إلى الإسلام، الذي قادني بدوره الى تجربة اساسية ثالثة في حياتي، كنت قد حصلت، وانا بعد في سن المراهقة في مدينة اشفنبيرج، على قسط وافر من التعليم الجيزويي، من خلال عضويتي لجمعية Congregatio Mariana وهي المقابل لحركة (المانيا الجديدة) المتمركزة في الشمال.

ويعود ارتباطنا، بل تعلقنا الرومانسي، بهذه المنظمة إلى فترة حكم النازي، وذلك لان الجستابو لم يتمكن من الكشف عنها عندما كانت تقاوم هذا الحكم سرا. ولم يكن حتى ابي المشتت الفكر يعلم بعضويتي لهذه المنظمة. وكنا نجتمع أسبوعيا مع أحد القساوسة الجيزوييت في احدى المقابر، في ظل اجراءات أمنية مشددة. فكان كل فرد منا لا يعرف سوى أفراد مجموعته فحسب. ولكننا تمكنا بمرور الوقت من استقطاب أفضل عناصر تلاميذ المدارس الثانوية. وقطعنا بذلك الطريق على منظمة (شبيبة هتلر)، أي أننا منعنا هذه العناصر الجيدة من أن تنضم إلى منظمات الشباب التابعة للحكم النازي، ولقد أدهشنا أن عدد أفراد المنظمة بلغ عند انتهاء الحرب ٨٠ فردا، بعد أن انقضت الحرب، عدنا الى الاستمتاع بحياة واساليب منظمات الشباب التي كانت سائدة في عشرينات هذا القرن.

ونظرا لما سبق ذكره، فقد كنت على دراية تامة بالديانة الكاثوليكية، وبأدق شؤونها من الداخل، ولكنني في الوقت ذاته، كنت قد بدأت اضع هذه الديانة محل تساؤلات وشكوك. كنت أنا و Carl Jacob Burckherdt نتساءل دوما عما اذا كان من الصواب أن يكون عالم اللاهوت ودارس الاديان مسيحيي الديانة.

وبالرغم من اعجابي بفلسفة Ludwig Wittgenstein فياني كنت على يقين تام من عدم وجود دليل ينفي وجود الله، وكنت شديد التمسك بالرأي القائل بأن عدم وجود الله غير مؤكد بشكل قاطع، وأن الاعتقاد بوجود الله أو نفي وجوده يظل مسألة تحسمها العقيدة ويقين الفرد، وقد حسمت هذا باعتقادي في وجود الله. وبعد ذلك، ثار سؤال عن ماهية الاتصال بين الله الانسان، وقد كنت شديد الاقتناع بإمكانية، بل قل بضرورة، تدخل الله وتسييره لمجريات الامور.

ويرتكز اقتناعي هذا على دراستي ودرائتي بتاريخ الانسانية والعلوم والحق، التي استنتجت من خلالها أن مجرد مراقبة الطبيعة وتبعتها فقط لن يقودنا إلى إدراك حقيقة علاقتنا ببيئتنا وباللّه. ألا يشهد تاريخ العلوم على حقيقة مفادها ان الحقائق العلمية يغير بعضها بعضا بسرعة شديدة؟! كنت بهذه الخطوة قد حسمت يقيني بإمكانية، بل بضرورة، الوحي والدين، ولكن اي دين؟ واي عقيدة؟ هل هي اليهودية، او المسيحية او الاسلام

وهنا تداركني الله بلطفه، فجاءتني الإجابة من خلال تجربتي الثالثة التي تتلخص في قراءتي المتكررة للآية ٣٨ من سورة النجم: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (النجم: ٣٨)، ولا بد من أن تصيب هذه الآية بصدمة شديدة كل من يأخذ مبدأ حب الآخر الوارد في المسيحية مأخذ الجد، لانه يدعو في ظاهر الامر إلى النقيض. ولكن هذه الآية لا تعبر عن مبدأ اخلاقي، وانما تتضمن مقولتين دينيتين تمثلان أساسا وجوها لفكر ديني، هما:

١ — انما تنفي وتنكر وراثه الخطيئة.

٢ — انما تستبعد، بل وتلغي تماما، إمكانية تدخل فرد بين الانسان وربّه، وتحمل الوزر عنه. وهذه المقولة الثانية تهدد، بل وتنسف مكانة القساوسة وتحرمهم من نفوذهم وسلطانهم الذي يرتكز على وساطتهم بين الانسان وربّه وتطهيرهم الناس من ذنوبهم. والمسلم بذلك هو المؤمن المتحرر من جميع قيود وأشكال السلطة الدينية.

أما نفي وراثه الخطيئة وذنوب البشر، فقد شكل لي أهمية قصوى، لانه يفرغ التعاليم المسيحية من عدة عناصر جوهرية، مثل: ضرورة الخلاص، التجسيد، الثالوث، والموت على سبيل التضحية. وبدا لي ان تصور فشل الله في خلقه، وعدم قدرته على تغيير ذلك الا بانجاب ابن والتضحية به — أي أن الله يتعذب من أجل الإنسانية — أمر فظيع ومروع، بل وتجديف وإهانة بالغة.

وبدت لي المسيحية وكأنها تعود لترتكز في أصولها على أساطير متنوعة ومتعددة، وتبين لي جليا الدور الخطير والشري الذي لعبه بولس الرسول.. لقد قام بولس، والذي لم يعرف المسيح ابدا ولم يصاحبه في حياته، بتغيير بل وبتزوير التعاليم اليهودية — المسيحية والتي ترى في المسيح أحد رسل الله وأنبيائه. وتيقنت ان المجلس الملي، الذي انعقد في نيقيا (عام ٣٢٥)، قد ضل طريقه تماما، وحاد عن الصواب وتعليمات المسيحية الاصلية، عندما اعلن ان المسيح هو الله، واليوم، اي بعد مرور ما يزيد على ستة عشر قرنا، يحاول تصحيح هذا الخطأ بعض علماء اللاهوت الذين يتمتعون بجرأة شديدة.

ومجمل القول اني بدأت انظر الى الاسلام كما هو، بوصفه العقيدة الاساسية الحقّة التي لم تتعرض لأي تشويه او تزوير.. عقيدة تؤمن بالله الواحد الاحد الذي: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ (الاحلاص)

رأيت في الإسلام عقيدة التوحيد الاولى، التي لم تتعرض لما في اليهودية والمسيحية من انحراف، بل ومن اختلاف عن هذه العقيدة الاولى، عقيدة لا ترى أن معتنقيها هم شعب الله المختار، كما انما لا تؤله أحد انبياء اليهود.

لقد وجدت في الاسلام أصفى وأبسط تصور لله، تصور تقدمي، ولقد بدت لي مقولات القرآن الجوهريه ومبادئه ودعوته الاخلاقية منطقية جدا حتى أنه لم تعد تساوري أدنى شكوك في نبوة محمد. ولقد سمعت مرارا قبل اعتناقي الاسلام مقولة أن التحول من دين الى دين آخر ليس له أي أهمية، حيث أن الاديان كلها تؤمن في آخر الامر بياله واحد، وتدعو الى الاخلاقيات والقيم ذاتها، وأن السلوكيات والاخلاق

الحميدة، بالإضافة الى الايمان بالله في قلب الانسان، وان يتوجه الانسان الى الله سرا، لأهم من الصلاة خمسا، ومن صوم رمضان وأداء فريضة الحج، كم من مرة اضطرت الى الاستماع الى هذه المقولات من مسلمين أترك تخلوا عن عقيدتهم دون أن يدركوا ذلك.

إن لها خاصا سريا ليس بإله، وكل هذه الحجج والمقولات تبدو واهية، اذا ما تيقنت ان الله يتحدث الينا في قرآنه. ومن يدرك هذه الحقيقة لا يجد مفرا من ان يكون مسلما بأعمق معاني هذه الكلمة.

سكت قليلا يسترجع أفكاره التي ربطته بالإسلام.. ثم قال: لقد كنت قريبا من الاسلام بأفكاري قبل أن اشهر إسلامي في عام ١٩٨٠، بنطق الشهادتين متطهرا كما ينبغي، وإن لم اكن مهتما حتى ذلك الحين بواجباته ونواهيه فيما يختص بالحياة العملية.

لقد كنت مسلما من الناحية الفكرية او الذهنية، ولكني لم اكن كذلك بعد من الناحية العملية، وهذا على وجه اليقين ما يتحتم ان يتغير الآن جذريا. فلا ينبغي ان اكون مسلما في تفكيري فقط، وانما لا بد أن اصير مسلما أيضا في سلوكياتي.

اذا كان الدين يعني رباطا يربط الانسان بربه، واذا كان الاسلام يعني أن يهب المسلم نفسه لله، فقد كانت أهم واجباتي، كمسلم حديث عهد بالاسلام، في الخمسينات من العمر، أن أتعلم صلاة الاسلام. وليس من الضروري ان يكون المرء خبيرا في الحاسب الآلي ليدرك أن الامر هنا يتعلق بمسألة اتصال.. ما أصلح فنون الاتصال للاتصال به؟

ومن المؤكد، على اي حال، انه لا شيء يعرض إسلام المرء للخطر اكثر من انقطاع صلته بربه، من ثم يصبح التسييح بحمد الله هو العنصر المحوري في حياة كل من يعي ويدرك معنى ما يقوله، عندما يقول انه يؤمن بالله.

وبناء على ذلك، فإن من لا يصلي ليس بمؤمن من وجهة نظري<sup>١</sup>، فمن يؤكد لامرأة غائبة حبه لها، دون ان تكون لديه رغبة في التحدث اليها تليفونيا أو في الكتابة اليها، ودون ان يلقي نظرة واحدة على صورتها طوال اليوم، ليس محبا لها في حقيقة الامر.

وهذا ما ينطبق تماما على الصلاة، فمن يعي ويدرك حقا المعنى الحقيقي لوجود الله، ستكون لديه بالضرورة رغبة في التأمل وفي التوجه الى الله كثيرا. وبذلك فقط، يصير ما يردده المسلم كثيرا وهو يقرأ سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) حقيقة واقعة.

وكنت حتى تلك اللحظات أجهل ما يجب فعله واتباعه في الصلاة. ناهيك عن قدرتي على الحفظ والتلاوة باللغة العربية، ومن ثم كانت أولى أولوياتي آنذاك هي التغلب على هذا النقص. وقبل أن اتمعن في دراسة مقدمة مصورة باللغة الالمانية للصلاة الاسلامية، تحظى بأكبر قدر من الثقة، طلبت من صديق تركي أن يعلمني الوضوء وكيفية الوقوف في الصلاة، والركوع والسجود، والجلوس على الأرض مستندا على القدم اليسرى، ورفع

---

(١) بل هو كذلك من حيث الأدلة الشرعية، فالكثير منها يعتبر الصلاة مظهرا لا يستغنى عنه لإثبات الإيمان، وقد ورد في الحديث الصحيح (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها، فقد كفر)



الذراعين، واتجاه النظر، ومتى يقرأ المرء جهرا، ومتى يقرأ سرا مع تحريك الشفتين في القراءة، وكيف يقف المرء موقفا صحيحا خلف الامام، وكيف يتصرف المرء عندما يأتي متأخرا الى المسجد، وكيف يتحرك داخل المسجد، إنه علم كامل! وفي الحقيقة، فإنه من الخطر أن يتصرف المسلم كمسلم دون أن يكون كذلك.

وتبدأ الصلاة الاسلامية، وإن بدا ذلك امرا غريبا، في الحمام أو عند مصدر المياه في الفناء الامامي للمسجد بالوضوء، وينبغي تعلم ذلك بحسب تتابعه وتسلسله، وكيف يغسل المرء اليدين، وكيف يمسح الرأس، وكيف يتأكد من غسل الكعبين، كل شيء وضع وحدد على نحو دقيق تماما. وحينما ينوي المرء الصلاة ويرفع اليدين الى الرأس مكبرا مفتتحا الصلاة، فانه ينفصل تماما عن مشاغل حياته اليومية، مما يؤكد قدسية الصلاة بالنسبة له.

وينبغي أن يتعلم المرء ايضا عدد الركعات في كل من الصلوات الخمس: الصبح، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وان يعرف مواقيتها، وما ينبغي على المسافر ان يراعيه من احكام الصلاة.

وتعلمت أخيرا كيفية الوقوف في صلاة الجماعة، حيث ينبغي ان يصطف المسلمون في صف مستقيم تتلاصق فيه الاقدام وتسد الفرج، وهذا التلاصق يرمز بالنسبة لي اكثر من مجرد ضم صفوف. انه يرمز الى التضامن على نحو يؤثر في مجدا كل مرة. ويتجدد هذا التضامن في نهاية كل صلاة مع تحية (السلام عليكم) التي ينطقها المصلي وهو يلتفت يمينا ثم يسارا، وبعد ذلك يمسح وجهه بكلتا يديه اعلانا عن انتهاء الصلاة، وبعدها يمد يديه الى جاره في الصلاة مصافحا ومتمنيا أن يتقبل الله صلاته (تقبل الله صلاتك)

وروى لي عبد الوهاب عبادة، السكرتير العام لوزارة الخارجية الجزائرية، انه غير هذه التحية مرة عندما كان طفلا، فقد بدا له انه من الاقرب الى المنطق ان يقول (السلام عليك)، وكانت نتيجة ذلك انه تلقى تأنيبا من والده الذي علمه أن المسلم يقول دائما: (السلام عليكم)، لأن تحيته تشمل جميع المخلوقات المرئية وغير المرئية، تشمل الملائكة وتشمل الصراصير.

قلت: لقد كنت أسمع بحبك للخمر، وهو شيء طبيعي بين قومنا وأهل بلدنا، فكيف استطعت أن تتخلص منها، أو كيف لم تقف الخمر حجابا بينك وبين الإسلام؟

قال: لقد ظننت في بادئ الأمر اني لن استطيع النوم جيدا دون جرعة من الخمر في دمي، ولكن ما حدث بالفعل كان عكس ما ظننت تماما، فنظرا لأن جسمي لم يعد بحاجة الى التخلص من الكحول، أصبح نبضي أثناء نومي اهدأ من ذي قبل.

سكت قليلا، يسترجع ذكرياته، ثم قال: كنت في جاهليتي الشخصية قبل اعتناقي الاسلام خبيرا بالخمور حتى إنني كنت أحدد أنواع الأنبذة الحمراء المدهشة بمجرد تذوقها بطرف لساني.

لقد وجدت مع ذلك ان التحريم القرآني للخمر والمخدرات ليس ضرورة اجتماعية فحسب، وانما هو ايضا منفعة شخصية للفرد، اذ يمكنه ان يكون متيقظا صافي الذهن دائما، ومن ثم، أهيمت هذه المرحلة من حياتي مرة واحدة، وإلى الابد، فان الانسان، بفضل قدرته على التفكير وإعمال عقله، يفاخر بأنه اعظم المخلوقات. فنحن البشر نستطيع ان نمنع التفكير في العالم من حولنا وفي احوالنا، وان نتصرف بحكمة، وهذه الصفات التي ترقى

بناء، هي ذات الصفات التي ندمرها على نحو منتظم بتعاطي الخمر والمخدرات، ونحن بذلك نمتنن انفسنا ونحط من قدرتنا داخل المنظومة الكونية، ونحدر بالتالي الى مكانة ادنى من مكانة الحيوانات، التي لا يغيب عنها وعيها ابدا. فادمان تعاطي الخمر والمخدرات نوع من التشويه الذهني الذاتي. وكانت مديرة متزلي الصربية في بلغراد مثلا منذرا لي، اذ كانت تعود دائما الى ادمان الخمر، حتى بعد علاج لفترات طويلة.

إن مشهد مدمني تعاطي الخمر مشهد مهين، يبعث على الاكتئاب، ويثير الشفقة، وكثيرا ما يقدم هؤلاء على الانتحار، وهم يعلمون حقيقة حالهم، ولكنهم لا يستطيعون الرجوع عما هم فيه، لان الخمر سلبتهم العزيمة والارادة والقدرة على اتخاذ القرار. من النادر ان تجد عدد مدمني الخمر في المجتمع الاحداث في المدن التركية الكبيرة أقل من عددهم في المانيا. فهم يمسون — من وقت الظهيرة — بكأس الراكيا في يد، وبالسيجارة في اليد الاخرى، مبرهنين بذلك على اهمهم لم يعودوا سادة انفسهم، وهم من الناحية الدينية، يمارسون بذلك نوعا من الشرك بالله، لأن الخمر ونيكوتين الدخان اهم عندهم من كل ما عداهما في العالم. بم في ذلك رهم الذي خلقهم. فهم يستطيعون — في ظنهم — ان يعيشوا بدونها، ولكن ليس بدون الراكيا.

يهدف القرآن من وراء التحريم المطلق للخمر الى منع البدء في تعاطيها، حيث لا يبدو ضارا في حالة احتساء كأس واحدة. فالكأس الواحدة لا تبدو خطيرة في الظاهر يمكن في يوم ما ان تصبح ككوسا عديدة، ومن المعتاد الا يرى المدمن انه معرض للخطر، وان يقدم ما لا حصر له من الاعذار والحجج لتبرير اعتياده التدخين او احتساء الخمر، في هذا الوقت بصفة خاصة، ومن ذلك كون المدمنين سعداء او تعساء، يعانون من ضغط العمل او في اجازة منه، جماعة او فرادى، مرضى او اصحاء، جوعى او شبعى.

لقد واجهت كرئيس مسؤول هذه المشكلة، فكنت، عندما انه احد العاملين معي حتى قبل احتسائه الخمر بيوم واحد، كنت اعد معتديا على حقه في ان يعبر عن شخصيته بجرية (واواجه بذلك مشكلة مع مستشار شؤون العاملين). ومع ذلك، كان مستشار شؤون العاملين نفسه يستطيع ان يتأكد في اليوم التالي ان الموظف المعني صار في واقع الامر مدمنا للخمر. ومن ثم، فانه يعد رسميا من هذه اللحظة مريضا بادمان الخمر.

قلت: ألا ترى تحريم الخمر سببا حائلا بين قومنا، وبين الإسلام؟

قال: هذا صحيح.. فالألماني قد ينادي بحق المرء في تعدد الزوجات إذا أراد، ولكنه من الصعب أن يتنازل عن الخمر.

قلت: ألا ترى الإسلام قاسيا بهذا النوع من التشريع؟.. أو أنه لم يلاحظ في هذا التشريع خصوصيات المناطق المختلفة التي قد تستدعي القول بإباحة الخمر؟

قال: إن ما تطرحه خطير جدا.. فالخمر هي الخمر.. فما يزال النساء والاطفال يتعرضون اليوم للضرب تحت تأثير الخمر.. بل تسقط الطائرات اليوم تحت تأثيره، وقد تسبب قائد احدى الناقلات البحرية تحت تأثير الخمر في وقوع اسوأ كارثة بيئية حتى الآن.

وعلى الرغم من توفر احصاءات عن حوادث الطرق وحوادث المصانع، فانه لا يمكن تقدير الخسائر البشرية والمادية التي تصيب المجتمع الغربي بسبب ادمان الخمر والمخدرات. وفي بعض المستشفيات التركية،

تتجاوز أقسام علاج الادمان واقسام علاج الامراض العقلية، لما ينطوي عليه ذلك من انذار، ان عاجلا او اجلا، هذا اذا ما دمر العقل قبل ان يتوقف الكبد عن أداء وظائفه.

لقد كنت واحدا من ضحايا حوادث المرور التي تقع تحت تأثير الخمر، ففي نهاية عام دراسي في كلية الاتحاد بشينيكنادي بولاية نيويورك، قمت بجولة في الولايات المتحدة الاميركية بطريقة الاوتوستوب (اي ايقاف السيارات والانتقال بها مجانا من موقع الى آخر). وفي اثناء هذه الجولة، تعرضت يوم ٢٨ من يوليو (تموز) عام ١٩٥١ لحادث سيئ بالقرب من هول سبرنجز بولاية مسيسيبي، فبينما كنا في طريقنا على الطريق السريع من اتلاندا بولاية جورجيا الى ممفيس في ولاية مسيسيبي، ظهر امامنا ونحن على مقربة من غابتنا شبح، ولا اذكر شيئا عما حدث بعد ذلك. ولكني علمت في ما بعد ان هذا الشبح لم يكن سوى سيارة اصطدمت بنا، كان سائقها ومرافقه قد احتسبا كميات كبيرة من الخمر في تينيسي، التي تسمح باحتسائه اثناء القيادة، قبل ان يتوجها الى مسيسيبي التي تمنع احتسائه اثناءها.

وقد تبين لي بوضوح أن ذراعي المصابة الآن، والتي كنت اضعها على وسادة المقعد الخلفية، قد وقتني مما هو أكثر، ومع ذلك، كانت خسارتي في هذا الحادث تسع عشرة من أسناني. وبعد انتهاء الجراح من خياطة ذقني وشفتي السفلى، سألني قائلاً: إنه من الممكن إصلاح وجهي بعد سنوات عن طريق إجراء عملية تجميل، وأضاف قائلاً: «إن مثل هذا الحادث لا ينجو منه في الواقع أحد، وإن الله يدخر لك يا عزيزي شيئا خاصا جدا»

وقد كنت أفكر في هذا الامر، وانا اتحول في هول سبرنجز بذارع مربوطة وضمانة تحيط بالذقن وفم مخيط، وكنت أفكر في ما أرفه به عن نفسي في يوم عيد ميلادي العشرين، ولكن كل شيء كان يؤلمني.. تناول الطعام او الشراب، او التزه، او الاجابة عن الاسئلة، وأخيرا ذهبت لأقص شعري، فهذا على الاقل لا يؤلم، ولم أدرك المغزي الحقيقي لنجاتي وبقائي على قيد الحياة الا بعد ثلاثين سنة، عندما اشهرت اعتناقني للإسلام.

### مالكولم إكس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مالكولم إكس)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد كان هذا الرجل زعيم الملونين الأمريكيين، وكان يُلقَّب قبل إسلامه بالشيطان (أحمر دويترويت) إذ كان زعيما عنصريا متطرفا في عداوته للبيض، ولكنه عدل عن هذا النهج بعد إسلامه.

قلت: فهل التقيته؟

قال: لا.. لم أتشرف بلقائه، ولكنني — عندما كنت في أمريكا — قرأت رسالة له كانت أهم عندي وأعظم أثرا من أي لقاء.

قلت: فما كتب في تلك الرسالة؟

قال: بعد رحلته للحج أرسل إلى أتباعه من مكة رسالة يقول فيها: (ما رأيت قط كراماً أصيلاً، ولا روحاً غامرة من الأخوة كهذه التي تسود هنا بين الناس من كل لون وجنس، في هذه الأرض المقدسة، وطن إبراهيم ومحمد... فيها هنا عشرات الألوف من الحجاج قدموا من كل أنحاء العالم، ليؤدوا المناسك نفسها بروح من

الوحدة والأخوة، ما كنت أظن - بحكم خبراتي في أمريكا - أنها يمكن أن تنشأ بين البيض والسود ... وإن أمريكا في حاجة إلى أن تفهم الإسلام، لأنه هو الدين الوحيد الذي يمكن أن يحو المشكلة العنصرية في مجتمعها ... لقد تقابلت مع مسلمين بيض وتحذث معهم، بل تناولت الطعام معهم! ولكن التزعة العنصرية محاهما من أذهانهم دين الإسلام..

إننا هنا نصلي لإله واحد، مع أخوة مسلمين لهم أعين زرقاء كأصفي ما تكون الزرقه، ولهم بشرة بيضاء كأصنع ما يكون البياض)

### اللورد هدلي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (اللورد هدلي)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل سليل الأسرة المالكة في بريطانيا، وهو من أغنى البريطانيين، ومن أرفعهم حسبا، درس الهندسة في كامبردج، وقد أسلم وأصدر مجلة (The Islamic Renew)، وأصدر كتاب (إيقاظ العرب للإسلام) وكتاب (رجل غربي يصحو فيعتنق الإسلام)، وقد تسمى بعد إسلامه باسم (رحمة الله فاروق) قلت: فحدثني عنه.

قال: سأحدثك بما حدثني به بعض من لقيه وعرفه خير معرفة، فقد ذكر لي أنه رغم مولده في بيت مسيحي عريق، لم يشعر يوماً في قرارة نفسه بإيمان صادق نحو المسيحية، بل طالما راودته الشكوك في صحة التعاليم التي تروج لها الكنيسة، والطقوس التي يمارسها آباء الكنيسة في صلواتهم وأقداسهم، وطالما توقف بفكره عن أسرار الكنيسة السبعة.

إذ لم يستطع - وهو المثقف الواعي - أن يهضم فكرة أكل جسد المسيح أو شرب دمه، ولم يقتنع بفكرة الفداء التي هي من أسس عقيدة الكنيسة...

وشاء قدرُ الله أن يسافر إلى منطقة كشمير التي يدين أهلها بالإسلام، وذلك من أجل مشروعات هندسية، حيث كان يعمل ضابطاً في الجيش البريطاني ومهندساً...

وهناك أهدى إليه صديق ضابط بالجيش نسخة من المصحف الشريف حين لمس انبهاره بسلوكيات المسلمين، وكان هذا الإهداء بداية تعرفه الحقيقي على الإسلام، إذ وجد في كتاب الله ما يوافق طبيعة نفسه ويلائم روحه...

لقد وجد أن مفهوم الألوهية - كما جاء في القرآن الكريم - يتوافق مع المنطق والفطرة، ويتميز ببساطة شديدة، كما لمس في الدين الإسلامي سمة التسامح، وهي السمة التي لم ير لها وجوداً بين أهله من النصراري الذين عرّفوا بتعصبهم ضد الديانات الأخرى، بل ضد بعضهم بعضاً، فالكاثوليك يتعصبون ضد البروتستانت، وهؤلاء بدورهم يتعصبون ضد الأرثوذكس، الذين لا يقلون عن الطائفتين السابقتين تعصباً ضدّهما، فكل فريق يزعم أن مذهبه هو الحق وما عداه باطل، ويسوق في سبيل ذلك من الحجج أسفاً يناقض بعضها بعضاً.

ولم يكن بوسع اللورد هدلي إلا أن يميل للإسلام بعد اطلاعه على ترجمة معاني القرآن الكريم، وما قرأه عن العقيدة الإسلامية، وأبطال الإسلام الأوائل الذين استطاعوا أن يصيروا أعظم قواد العالم، وبقوة عقيدتهم أسسوا

حضارة عظيمة ازدهرت لقرون طويلة، في وقت كانت أورباً ترزح تحت وطأة الجهل وطُغيان البابوات والكرادلة.

كما وجد اللورد هدلي في الشريعة الإسلامية وسيرة الرسول محمد ﷺ وصحابته ومن تلاهم من التابعين القدوة الحسنة التي تروى روحه العطشى للحق.

وبرغم اقتناع اللورد هدلي بالإسلام فقد ظل قرابة عشرين عاماً يكتنم إسلامه لأسباب عائلية، حتى كتب له الله أن يعلنه على الملأ في حفل للجمعية الإسلامية في لندن..

ففي ذلك المحل صاح بصوت مرتفع قائلاً: إنني بإعلاني إسلامي الآن لم أجد مطلقاً عملاً اعتقدته منذ عشرين سنة، ولما دعيتي الجمعية الإسلامية لوليمتها سررتُ جداً، لأتمكن من الذهاب إليهم وإخبارهم بالتصاقي الشديد بدينهم، وأنا لم أهتم بعمل أي شيء لإظهار نبذي لعلاقتي بالكنيسة الإنجليزية التي نشأت في حجرها، كما أنني لم أحفل بالرسميات في إعلان إسلامي، وإن كان هو الدين الذي أتمسك به الآن.

سكت قليلاً، ثم قال: إن عدم تسامح المتمسكين بالمسيحية كان أكبر سبب في خروجي عن جامعتهم، فإنك لا تسمع أحداً من المسلمين يذم أحداً من أتباع الأديان الأخرى، كما نسمع ذلك من النصارى بعضهم في بعض.

نظر إلى الجمع الملتف به، والمشدوه لذلك الإعلان الخطير، ثم قال: إن طهارة الإسلام وسهولته وبُعدته عن الأهواء والمذاهب الكهنوتية ووضوح حجته — كانت كل هذه الأمور أكبر من أنثر في نفسي، وقد رأيت في المسلمين من الاهتمام بدينهم والإخلاص له ما لم أر مثله بين النصارى، فإن المسيحي يحترم دينه — عادة — يوم الأحد، حتى إذا ما مضى يوم الأحد نسي دينه طول الأسبوع... وأما المسلم فبعبكس ذلك، يجب دينه دائماً، سواء عنده أكان هو الجمعة أو غيره، ولا يفتر لحظة عن التفكير في كل عمل يكون فيه عبادة الله.

قلت: إن رجلاً بهذا المحل من أهل بلده لا بد أن يكون لإسلامه تأثيراً كبيراً.

قال: أجل.. لقد كان لإسلامه أكبر الأثر في تقوية نشاط المسلمين في بريطانيا، إذ لم تكد تمر أشهر قليلة على إعلان إسلامه حتى اقتفى أثره أكثر من أربعمئة بريطاني وبريطانية، بعد ما استرعى انتباههم ما تحدت به عن محاسن الإسلام، فأقبلوا على قراءة الكتب الإسلامية، ودخلوا في دين الله أفواجاً.

قلت: ألم يصبه ما يصيب المسلمين الجدد من الأذى؟

قال: بلى.. لقد كان لإشهار إسلامه صدئاً واسعاً في بريطانيا للقب الكبير الذي يحمله، ولكونه سياسياً بارزاً، وعضواً قيادياً في مجلس اللوردات، فقد انتقدته الصحف البريطانية، واهتمته في صدق دينه مُحاولَةً تفسير موضوع إشهار إسلامه بأنه لتحقيق مكسب رخيص، وهو أن يصبح ممثل المسلمين في مجالس اللوردات وزعيماً لهم.

وقد دفعته هذه التهمة إلى الرد عليها بمقال عنوانه (لماذا أسلمت؟) قال فيه: نحن — البريطانيون — تعودنا أن نفخر بحبنا للإنصاف والعدل، ولكن أي ظلم أعظم من أن نحكم — كما يفعل أكثرنا — بفساد الإسلام قبل أن نلم بشيء من عقائده، بل قبل أن نفهم معنى كلمة إسلام!؟

وقال فيه: ( من المحتمل أن بعض أصدقائي يتوهم أن المسلمين هم الذين أثروا في، ولكن هذا الوهم لا حقيقة له، فإن اعتقاداتي الحاضرة ليست إلا نتيجة تفكير قضيتُ فيه عدة سنين... ولا حاجة بي إلى القول بأني مُلِئتُ سروراً حينما وجدتُ نظرياتي ونتائجي متفقة تمام الاتفاق مع الدين الإسلامي )  
ومن ردوده على هؤلاء ما نشرته مجلة (إسلاميك ريفيو) حيث قال: (إن كل هذه المحاولات العقيمة والوسائل الدنيئة التي يقوم بها المُنصِّرونَ لتحقير شريعة النبي العظيم ﷺ، بالبذاءة وبالسفاسف لا تمسه بأذى، ولا تعيّر عقيدة تابعيه فيدُ أُملة )

ورد على المبشرين قائلًا: ( لا عَجَبَ أن يكذب المنصرون وقد افتروا على الله كذباً، فكم تظاهر اللص بالأمانة والداعر بالاستقامة والزنديق بالتدين، ولكن لا عَجَبَ، فقد غاض من وجههم ماء الحياء، وقد قال نبي الإسلام ﷺ: « إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ ».. فلو كانوا يستحيون من أنفسهم — أو على الأقل من الناس — لما أقدموا على هذا الادعاء الباطل، والافتراء الواضح )  
سكت البابا قليلاً، ثم قال: لقد حفظت من كلامه جواهر من الحكم سأعرضها عليك لتكتشف من خلالها سر اعتناقه للإسلام، وإخلاصه له:

لقد قال معبراً عن ساعة اعتناقه الإسلام: (لا ريب إن أسعد أيام حياتي هو اليوم الذي جاهرت فيه على رؤوس الأشهاد بأبني اتخذت الإسلام ديناً.. فإذا كنت قد ولدت مسيحياً، فهذا لا يحتم عليّ أن أبقى كذلك طوال حياتي، فقد كنت لا أعرف كيف أستطيع أن أؤمن بالمبدأ القائل: إذا لم تأكل جسد المسيح، وتشرب دمه، فلن تنجو من عذاب جهنم الأبدي!)  
ويقول: (إنني بإسلامي أعتبر نفسي أقرب إلى المسيحية الحقّة مما كنت من قبل، ومن يعادي المسيحية الحقّة فلا أمل فيه ... )

ويقول: (لم أولد في الخطيئة، ولست مولود سخط وغضب، ولا أحب أن أكون مع الخاطئين )  
ويقول: (لقد تملك الإسلام لي حقاً، وأقنعني نقاؤه، فأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي، إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتها قط من قبل)  
ويقول: (بما أننا نحتاج إلى نموذج كامل ليفي بحاجتنا في خطوات الحياة، فحياة النبي تسد تلك الحاجة، فهي كمرآة نقية تعكس علينا الأخلاق التي تكون الإنسانية، ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة..  
خذ أي وجه من وجوه الآداب، تتأكد بأنك تجده موضحاً في إحدى حوادث حياة الرسول ﷺ )  
ويقول: (الإسلام هو الدين الذي يجعل الإنسان يعبد الله حقيقة مدى الحياة! لا في أيام الآحاد فقط... أصبحت كرجل فر من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تنيره شمس النهار، وأخذ يستنشق هواء البحر النقي الخالص )

### اللاادي ايفلين كوبولد:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (اللاادي ايفلين كوبولد)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم نبيلة إنكليزية، اعتنقت الإسلام، وزارت الحجاز، وحجت إلى بيت الله، وقد كتبت مذكراتها عن

رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان: (الحج إلى مكة)، والذي ترجم إلى العربية بعنوان (البحث عن الله)

قلت: فهل التقيت بما لتسألها عن سر إسلامها؟

قال: لا.. لم أتشرف بذلك.. ولكني قرأت كتابها الذي ذكرت فيه رحلتها إلى الله، وتعرفها على

الإسلام، وفيه يتجلى سر إسلامها.

قلت: فما الذي جذبها إلى الإسلام؟

قال: أول ما جذبها إليه القرآن الكريم.. فقد قالت في بيان تأثيره في الحضارة الإسلامية: (إن أثر القرآن في

كل هذا التقدم الحضاري الإسلامي لا ينكر، فالقرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكّنهم من إنشاء

إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير، والإمبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمراً وحضارة)<sup>١</sup>

وذكرت موقف القرآن من العلم، وما في القرآن من سبق علمي، فقالت: (وذكرتُ أيضاً ما جاء في

القرآن عن خلق العالم وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد خلق من كل نوع زوجين، وكيف أن العلم الحديث

قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات امتدت أجيالاً عديدة)<sup>٢</sup>

وذكرت تأثرها بأسلوب القرآن في مواضيع عديدة، فقالت: (الواقع أن جمل القرآن، وبديع أسلوبه أمر لا

يستطيع له القلم وصفاً ولا تعريفاً، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بحماله وروعته وما ينعم به من موسيقى لفظية

لست تجدها في غيره من الكتب. ولعل ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن رأي

مثقفي الفرنجة وكبار مفكريهم قال: (إذا لم يكن شعراً، وهو أمر مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه

من الشعر أو غيره، فإنه في الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخياً ولا وصفاً، ثم هو ليس موعظة

كموعظة الجبل ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شيء قليل أو كثير، ولا خطباً فلسفية كمحاورات أفلاطون،

ولكنه صوت النبوة يخرج من القلوب السامية، وإن كان عالمياً في جملته، بعيد المعنى في مختلف سوره وآياته،

حتى إنه يرد في كل الأصقاع، ويرتل في كل بلد تشرق عليه الشمس)<sup>٣</sup>

وقالت: (أشار الدكتور مارديل المستشرق الفرنسي الذي كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور

القرآن، إلى ما للقرآن الكريم من مزايا ليست توجد في كتاب غيره وسواه فقال: (أما أسلوب القرآن فإنه

أسلوب الخالق عز وجل وعلا، ذلك أن الأسلوب الذي ينطوي عليه كنه الكائن الذي يصدر عنه هذا

الأسلوب لا يكون إلا إلهياً. والحق والواقع أن أكثر الكتاب ارتياباً وشكاً قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره،

وأن سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحد الذي جعل أجانِب المشرّين يعترفون

بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن. ذلك أن هذا

الأسلوب.. الذي يفيض جزالة في اتساق منسق متجانس. كان له الأثر العميق في نفس كل سامع يفقه اللغة

العربية، لذلك كان من الجهد الضائع الذي لا يثمر أن يحاول المرء نقل تأثير هذا النثر البديع الذي لم يسمع بمثله

(١) البحث عن الله، ص ٥١.

(٢) البحث عن الله، ص ٤٥.

(٣) البحث عن الله، ص ١١١.

بلغة أخرى<sup>١</sup>

وقالت: (الواقع أن للقرآن أسلوباً عجيباً يخالف ما كانت تنهجه العرب من نظم ونثر، فحُسن تأليفه، والتتام كلماته، ووجوه إيجازه، وجوده مقاطعه، وحسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله، كل هذا وغيره جعله في أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة، لا يمل قارئه ولا يخلق بترديده.. قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قلَّ أن تجد فيها غريباً، وهي مع سهولتها حذرة عذبة، وألفاظه بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة لا تُحسُّ فيها لفظاً نائياً عن أخيه، فإذا أضفت إلى ذلك سمو معانيه أدركت بلاغته وإعجازه)<sup>٢</sup>

بالإضافة إلى هذا، فقد ذكرت الثمرات العظيمة التي أنجزها محمد ﷺ والتي ترهن على صدق الإسلام، وكونه من عند الله، فقالت: (كان العرب قبل محمد أمة لا شأن لها ولا أهمية لقبائلها ولا لجماعتها، فلما جاء محمد بعث هذه الأمة بعثاً جديداً يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات فغلبت العالم وحكمت فيه آجالاً وآجالاً)<sup>٣</sup>

وقالت: (هذه هي مدينة الرسول.. تعيد إلى نفسي ذكرى جهوده في سبيل لا إله إلا الله، وتلقي في روعي صبره على المكاره واحتماله للأذى في سبيل الوجدانية الإلهية)<sup>٤</sup>

وقالت: (العمرى، ليجدن المرء في نفسه، ما تقدم إلى قبر الرسول روعة ما يستطيع لها تفسيراً، وهي روعة تملأ النفس اضطراباً وذهولاً ورجاء وخوفاً وأملاً، ذلك أنه أمام نبي مرسل وعبقري عظيم لم تلد مثله البطون حتى اليوم.. إن العظمة والعبقرية يهزان القلوب ويثيران الأفئدة فما بالك بالعظمة إذا انتظمت مع النبوة، وما بالك بما وقد راحت تضحي بكل شيء في الحياة في سبيل الإنسانية وخير البشرية)<sup>٥</sup>

وقالت: (لقد استطاع النبي القيام بالمعجزات والعجائب، كما تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبد الأصنام وقبول الوجدانية الإلهية.. لقد وفق إلى خلق العرب خلقاً جديداً ونقلهم من الظلمات إلى النور)<sup>٦</sup>

وقالت: (مع أن محمداً كان سيد الجزيرة العربية.. فإنه لم يفكر في الألقاب، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل على حاله مكتفياً بأنه رسول الله، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه ويصلح حذاءه بيده، كريماً باراً كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وما لديه كان في أكثر الأحيان قليلاً لا يكاد يكفيه)<sup>٧</sup>

(١) البحث عن الله، ص ١١٢.

(٢) البحث عن الله، ص ١١٣.

(٣) البحث عن الله، ص ٥١.

(٤) البحث عن الله، ص ٣٩.

(٥) البحث عن الله، ص ٥٢.

(٦) البحث عن الله، ص ٦٦.

(٧) البحث عن الله، ص ٦٧.



بالإضافة إلى هذا ذكرت إعجابها الشديد بالمنهج الإسلامي في العقيدة والشريعة والسلوك، واعتبرته من الأسباب الأولى لإسلامها، فقالت: (سألني كثيرون كيف ومتى أسلمت؟ وجوابي على ذلك أنه يصعب عليّ تعيين الوقت الذي سطعت فيه حقيقة الإسلام أمامي فارتضيت الإسلام دينًا. ويغلب على ظني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى. وليس هذا غريبًا إذا ما راح المرء يفكر بأن الإسلام هو الدين الطبيعي الذي يتقبله المرء فيما لو ترك لنفسه ولم يفرض عليه أبواه الدين الذي يعتنقانه فرضًا. ألم يصف أحد مشاهير النقاد في أوروبا: (بأنه دين العقل والإنسانية)<sup>١</sup>

وقالت: (الإسلام كلمة تعني التسليم لله، وهي تعني السلام أيضًا، ويعرف المسلم بأنه الرجل الذي يسير في حياته ووفقًا لمشيئة خالقه وأوامره والذي يعيش بسلام مع الله وعباده. ولعل أجمل ما في الإسلام ما يضرب فيه من وحدانية إلهية، وأخوة إنسانية، وخلوه عن التقاليد والبدع والتصاقه للصوق كله بما في الحياة من أمور عملية.. والإيمان في القرآن إنما يقوم على العمل الصالح وليس هناك في الإسلام إيمان دون ما عمل صالح أبدًا)<sup>٢</sup> وقالت: (من فوائد الحج أنه يوطد الوحدة الإسلامية ويغذي الأخوة التي أنشأها محمد وهو يدعو المسلمين في كل عام مرة واحدة إلى التعارف والتقارب والتحدث فيما بينهم.. فالحج والحالة هذه ليس فرضًا دينيًا فحسب، وإنما هو إلى ذلك كله، جمعية أمم عظمى. ولقد أشار إلى هذه الظاهرة الخطيرة الأستاذ سنوك هيروغرنجه المستشرق الهولندي فقال: (لقد سبق الإسلام الحكومات الأوروبية في التوحيد بين الأمم والتقارب بين الشعوب بما أقره من وجوب الحج على كل مسلم يستطيع إلى الحج سبيلًا، وعمري إن هذه الديمقراطية والأخوة التي أقرها الإسلام وجعلها عامة بين أتباعه لما يحجل الجماعات الأخرى التي لم تفتن لها ولا دعت إليها)<sup>٣</sup>

وقالت: (من المعلوم أنه لا كهنوت في الإسلام، وليس هناك واسطة بين المسلم وربّه)<sup>٤</sup> وقالت: (إذا لم يكن في الإسلام إلا هذه الأخوة التي قتلت التفرقة وجعلت من الإنسانية شخصًا واحدًا لا يعلو واحدها على رفيقه إلا بالتقوى والعمل الصالح، لكفى ولكان الإسلام خير الأديان وأقرها إلى الله وأرفعها درجات. ولقد أشار المستر بيكتول الكاتب الإنكليزي، إلى هذه الظاهرة الغريبة الفذة في تاريخ الإنسانية، وراح يضرب الأمثال بهذا الاختلاف العظيم يعمّ الغرب من أقصاه إلى أقصاه ويفصل بين المرء وولده وشقيقه ونسيبه وجاره، وكيف أن الإسلام يقف وحيدًا في هذه الظاهرة حيث تقوم الأخوة الإسلامية فيه مقام العصبية والجوار وغيرها من الصلات)<sup>٥</sup>

وقالت: (إن الإسلام دين حي، حي في قلوب أتباعه ومريديه، وهو دين كلما تقدمت به الأيام زادت حيويته وقوي أمره وتبسط سلطانه وفشت دعوته ولولا ذلك لما أمكنه أن يعيش وأن يظل محتفظًا بقوته وتأثيره

(١) البحث عن الله، ص ٩.

(٢) البحث عن الله، ص ١٢.

(٣) البحث عن الله، ص ١٣.

(٤) البحث عن الله، ص ١٣.

(٥) البحث عن الله، ص ١٣.

وحب أتباعه له) <sup>١</sup>

وقالت: (إن روحانية الإسلام قوية شديدة، فهي أبداً تدفع المسلمين بعضهم إلى بعض وتجعل منهم قوة إنسانية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مما لا يوجد مثله في العالم الحاضر) <sup>٢</sup>

وقالت: (الحق أقول: إن الحب عندنا وكما يفهمه الغربيون ما يزال قريباً من الغريزة الجنسية، مقصورة دائرته أو تكاد، على ما تلهمه هذه الغريزة.. فأما المناطق العليا التي يرتفع الحب المهذب إليها، أما الحب بمعناه الإنساني السامي.. الحب على أنه عاطفة إنسانية سامية أساسها إنكار الذات والرقى النفسي إلى عالم الخير والجمال والحق فهذا ما لا يفكر به أحد أو يتصور وجوده إنسان، وهو إلى ذلك كله موجود في الإسلام، منطوق في هذه الأحوة الإسلامية التي تجعل من الفرد عبداً يعمل لخير المجموع وفرداً قصارى همه أن يعمل للإحسان والإحسان أبداً) <sup>٣</sup>

وذكرت إعجابها بالتسامح الإسلامي، فقالت: (إن الإسلام لا يعرض لمعتنقي الأديان الأخرى بسوء وهو لا يحملهم على قبول دينه والتزول تحت شرعته.. كما أنه لم يحارب الذين لم يعتنقوا دينه، ولا عمل على قتلهم وحرقتهم وتعذيبهم كما فعل غيره وسواه، وآية القرآن الكريم ظاهرة بينة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: من الآية ٢٥٦) <sup>٤</sup>

وقالت: (هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل بيت المقدس فاتحاً ظافراً.. أدرسته الصلاة وكان في داخل كنيسة القيامة، فخرج منها وصلى خارجها. ولما سأله البطريك عن سبب ذلك قال له: أخشى أن يتخذ المسلمون بعدي من صلاتي هذه في الكنيسة حجة لقلبها إلى مسجد فيحرقون المعاهدة بذلك.. وبذلك حفظ الفاروق للمسيحية كنيستهم الأولى) <sup>٥</sup>

وقالت: (لما استرجع السلطان صلاح الدين بيت المقدس بعد معارك عديدة، وطرد الصليبيين من البلاد أظهر في حروبه ومعاركه كل ألوان الرفق والرحمة والعطف والعفو عند المقدرة، وقد حفظ له كثير من كتاب الغرب هذه الصفات، ولم يتأخروا من المجاهرة بها والإقرار بأنه كان أشرف الأعداء وأطهر الفاتحين) <sup>٦</sup>

وقالت: (مما يجدر ذكره أن صلاح الدين لما افتتح القدس وكانت أفعال الصليبيين الدامية بأهلها لا تزال ملء السمع والبصر، وأبى أن يعامل المغلوبين إلا بالحسنى والرفق، ورفض الانتقام من الذين أساءوا وأحرقوا ودمروا وزاد ندى فسمح لجميع المسيحيين بمغادرة المدينة تحت رعاية رجاله ومحافظه قواده) <sup>٧</sup>

وذكرت إعجابها الشديد بالحضارة الإسلامية المبنية على القيم التي نشرها الإسلام بمصادره الأصلية،

(١) البحث عن الله، ص ١٣.

(٢) البحث عن الله، ص ١٣.

(٣) البحث عن الله، ص ٢٨.

(٤) البحث عن الله، ص ٩٣.

(٥) البحث عن الله، ص ٩٤.

(٦) البحث عن الله، ص ٩٥.

(٧) البحث عن الله، ص ٩٦.

فقلت: (ليس من يجهل خدمات العرب للعلم والمعرفة في أيام حضارتهم وعزّهم وكيف أنهم أنشأوا المدارس وعنوا بالمستشفيات، وعززوا المعارف وأجازوا أهل العلم والعرفان، وعملوا على نشر الكتب وترجمة المؤلفات في كل الأقطار التي امتدت حضارتهم إليها واستقام حكمهم فيها حتى أصبحت بغداد في عصرها الزاهر مدينة العلم والفلسفة، وأوروبا لا تزال حتى يومنا هذا مدينة للإسلام بهذه الشعلة العلمية التي حملها العرب في أيام حضارتهم وحافظوا عليها كل المحافظة حتى أخذتها أوروبا منهم)<sup>١</sup>

وقالت: (جاء العرب إلى أوروبا ومعهم شعلة العلم في ذلك الزمان الماضي، وهو ما يحملنا أن نبكي مصرع الأندلس لأن مصرعها كان ضربة على الحضارة الحديثة والعمران القديم)<sup>٢</sup>

وقالت: (أصيب العالم والحضارة من سقوط العرب وانهيار سلطاتهم بخراب لا تعوض)<sup>٣</sup>  
وقالت: (اطلبوا العلم ولو في الصين) هذه كلمة النبي العربي إلى المؤمنين، أوجب عليهم فيها طلب العلم من أقصى الأرض إلى أقصاها وهي كلمة ألقاها وأمر بها منذ مئات السنين.. ولكن العلم الأوروبي لم يتفهم خطورتها ولا اتبعها حتى القرن الثالث عشر وبعد سبعة قرون من صدورها)<sup>٤</sup>

وقالت: (إن الإسلام كان يقف شعلة للمعرفة والعلوم.. ولقد عرف كلومبوس في جامعات إسبانيا الإسلامية أن الأرض مدورة.. وكانت هذه الجامعات ترحب بطلاب المعرفة من اليهود والنصارى.. الذين انتظموا فيها ونالوا شهادتها وتلقوا معارفها)<sup>٥</sup>

قلت: ألم يصرفها عن الإسلام تلك الشبهات الكثيرة التي تثار حول موقف الإسلام من المرأة؟  
قال: لقد كانت هذه المرأة الفاضلة صادقة في بحثها عن الله، فلذلك هداها الله إلى التعرف عن كتب على حقيقة موقف الإسلام والمسلمين من المرأة، ومما ذكرته في هذا قولها: (لم تكن النساء المسلمات متأخرات عن الرجال في ميدان العلوم والمعارف فقد نشأ منهن عالما في الفلسفة والتاريخ والأدب والشعر وكل ألوان الحياة)<sup>٦</sup>

وقالت: (لما جاء الإسلام ردّ للمرأة حرّياتها، فإذا هي قسيمة الرجل لها من الحق ما له وعليها ما عليه ولا فضل له عليها إلا بما يقوم به من قوة الجلد وبسطة اليد، واتساع الخيلة، فيلي رياستها فهو لذلك وليها يحوطها بقوّته ويذود عنها بدمه وينفق عليها من كسب يده، فأما فيما سوى ذلك فهما في السراء والبأساء على السواء. ذلك ما أجمله الله بقوله ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، وهذه الدرجة هي الرعاية والحياطة لا يتجاوزها إلى قهر النفس وجحود الحق، وكما قرن الله سبحانه بينهما في شؤون الحياة، قرن بينهما في حسن التوبة وادخار الأجر وارتقاء الدرجات العليا في الدنيا والآخرة. وإذا احتمل الرجل

(١) البحث عن الله، ص ٥٠.

(٢) البحث عن الله، ص ٥١.

(٣) البحث عن الله، ص ٥١.

(٤) البحث عن الله، ص ٩١.

(٥) البحث عن الله، ص ٩٢.

(٦) البحث عن الله، ص ٥١.

مشقات الحياة، ومتاعب العمل وتناثرت أوصاله، وتهدّم جسمه في سبيل معاشه ومعاش زوجته فليس ذلك بزائد  
مثقال حبة عن المرأة إذا وفّت لبيتها وأخلصت لزوجها وأحسنت القيام في شأن دارها)<sup>١</sup>

وقالت: (كتبت اللادى ماري مونتكاد، زوجة السفير الإنكليزي في تركيا إلى شقيقته تقول: (يزعمون  
أن المرأة المسلمة في استعباد وحجر معيب، وهو ما أودّ تكذيبه فإن مؤلفي الروايات في أوروبا لا يحاولون  
الحقيقة ولا يسعون للبحث عنها، ولولا أنني في تركيا، وأني اجتمعت إلى النساء المسلمات ما كان إلى ذلك  
سبيل، وإني أستمع إلى أخبارهم وحوادثهم وطرق معيشتهم من سبل شتى، لذهبت أصدق ما يكتب هؤلاء  
الكتاب، ولكن ما رأيته يكذب كل التكذيب أخبارهم، ولا أبالغ إذا قررت لك أن المرأة المسلمة وكما رأيتهما  
في الأستانة أكثر حرية من زميلاتها في أوروبا ولعلها المرأة الوحيدة التي لا تعنى بغير حياتها البيتية، ثم إنهن يعشن  
في مقصورات جميلات ويستقبلن من يرد من الناس)<sup>٢</sup>

وقالت: (إن جهل النساء في الإسلام أمرٌ لا يتفق وأوامر الرسول الكريم، فقد أمر رسول الله النساء  
بطلب العلم وحظر الإسلام الجهل على المؤمنين به وشدد في ذلك بما لا يدعو مجالاً للشبهة والتأويل)<sup>٣</sup>

---

(١) البحث عن الله، ص ٨١.

(٢) البحث عن الله، ص ٨٥.

(٣) البحث عن الله، ص ٨٦.

## ثالثا — الأدباء

فتحت دفتر البابا على فصله الثالث، فوجدت عنوانه (الأدباء)، فقلت: من تقصد بالأدباء؟  
قال: أولئك الذين فتحت لهم خزائن الكلام، ونبعت لهم من منابع المشاعر عيون عبروا بها عما لم يطق  
غيرهم التعبير عنه.

قلت: فما الفرق بين هؤلاء وبين غيرهم؟

قال: هؤلاء هم لسان البشر الذي يعبر عنهم.

قلت: ولكنهم قد يتيهون في أودية الأمان، كما قال ﷺ: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ  
وَادٍ يَهيمُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٥)، وقد روي في الحديث عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله  
ﷺ بالعرج، إذ عرض شاعر يُششد، فقال النبي ﷺ: «خذوا الشيطان - أو امسكوا الشيطان - لأن يمتلي جوف  
أحدكم قيثا خيرا له من أن يمتلي شعرا»<sup>١</sup>

قال: وقد يصدقون، فيمتلي غيرهم صدقا، وقد استثنى الله تعالى المؤمنين، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(١) رواه أحمد.. فهم البعض هذه النصوص فهما خاطئا، فراحوا يذمون الشعر ذما مطلقا، حتى حكي عن بعض الزهاد أنه  
كان لا يتمثل بيت شعر، ولما سئل عن ذلك قال: لا أحب أن أرى في صحيفتي يوم القيامة بيت شعرا!  
وهم يستدلون لهذا بأحاديث مكدوبة على رسول الله ﷺ منها (من قرض بيت شعر بعد العشاء لم تُقبل له صلاة تلك الليلة)،  
وقد قال ابن كثير في تحريجه: وهذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة.  
أما الحديث الذي جاء عن النبي ﷺ في ذم الشعراء: (لأن يمتلي جوف أحدكم قيثا يريه خيرا له من أن يمتلي شعرا) رواه  
البخاري في باب الأدب، ومسلم في باب الشعر.

فقد حمل على الشعر المشتمل على الفحش، أو على الوعيد على ما إذا غلب عليه الشعر، وملك نفسه؛ حتى اشتغل به عن  
القرآن والفقهاء في الدين ونحوهما؛ ولذلك ذكر الامتلاء.

ويدل لهذا ما ذكره من لفظ (الامتلاء) الذي يعني أن يشغل المالى بشيء جميع أجزائه؛ حتى لا يكون فيها فضل لغيره.  
وأورد مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - في كتابه (إعجاز القرآن) قولاً نسبته للرسول ﷺ وهو: لما نشأت.. بُعِثْتُ إِلَيَّ  
الأوثان، وبُعِثْتُ إِلَيَّ الشعراء..

وهو قول لا أصل له، ولا سند بدليل ماورد من سماع النبي ﷺ للشعر ومحبه له في مواضع كثيرة، فقد أخرج البخاري في  
(الأدب المفرد) عن عمر بن الشريد عن أبيه أنه قال: استنشدني رسول الله ﷺ من شعر أمية بن أبي الصلت، فأنشدته؛ حتى أنشدته  
مائة قافية.

وذكر ابن كثير في تفسيره أن بعض الصحابة أنشد النبي ﷺ مائة بيت، فكان ﷺ يقول عقب كل بيت: «هيه» يستزيده،  
فيزيده.

وقد قالت عائشة - رضي الله عنها - «الشعر كلام.. فحسنه حسن، ورديته رديء، فخذ الحسن، واترك الرديء»

وقد ذكر الشيخ عبد القاهر الجرجاني ثلاثة وجوه لذم الشعر؛ وهي:

الأول: أن يُذمَّ الشعر من حيث المضمون. أي: من حيث ما يتضمنه من فحش وُبوٍّ عما تقتضيه الأخلاق.

الثاني: أن يُذمَّ من حيث الوزن والقافية. وهذه ناحية صناعية.

الثالث: أن يُذمَّ لاعتبارات تتصل بالشاعر.

ونحن في هذا الفصل كما في سائر الرسائل لا نعتبر إلا الأول، باعتبار الثاني يرجع إلى الصناعة، والثاني يرجع إلى شخصية  
الشاعر، لا إلى ما قاله، والمؤمن يستفيد الحكمة ولا يهجم من أي وعاء خرجت.

الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَلِمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿الشعراء: ٢٢٧﴾، وقد ورد في الحديث أنه لما نزلت: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾، جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ، وهم ييكون فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء. فثلا النبي ﷺ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ثم قال: «أنتم» ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: «أنتم» ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ قال: «أنتم»<sup>١</sup>

وقد روي عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: إن الله، عز وجل، قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكان ما ترموهم به نضح النبل»<sup>٢</sup> قلت: أما إن قلت هذا، فقد كان في الإسلام شعراء كثيرون يمتلئون صدقا، وقد قدموا للإسلام أعظم ما يقدمه مسلم ناصح.

قال: ولذلك تراني قد بدأت بهم في هذا الدفتر.

### ١ — شعراء من الصحابة:

قلت: قد رأيت ذلك، وتعجبت منه، فكيف التقيت بآبن رواحة، أو بحسان. قال: لقد التقيت بشعرهم، وأعجبت به، ولاحظت فيه من الصدق ما لم ألاحظه في جميع أشعار الدنيا، فليس هناك من هو أحق بالمدح من رسول الله ﷺ.

### عبد الله بن رواحة:

قلت: فلنبداً بعبد الله بن رواحة، فإني أراه يستهل قائمة الشعراء في دفترك هذا.

قال: أجل.. فلي محبة خاصة لهذا الشاعر المحب الصادق.

قلت: وكيف لا تحبه، وهو صحابي جليل حضر بيعتي العقبة الأولى والثانية، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق.

قال: وفوق ذلك كان أحد شعراء النبي الثلاثة، وكان بين يدي النبي ﷺ في عمرة القضاء، وكان يقول:

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ  
ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

فنادى عليه عمر وقال له: في حرم الله وبين يدي رسول الله تقول هذا الشعر؟ فقال له النبي ﷺ: «خَلَّ عَنْهُ

يا عمر، فوالذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وَقَعِ النَّبْلُ»<sup>٣</sup>

وقد أنشد ذات يوم من شعره بين يدي النبي ﷺ قوله:

إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفُهُ وَاللَّهُ يَعْرِفُ أَنْ مَا خَا بَنِي الْخَبَرِ

(١) رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، من رواية ابن إسحاق، وقد شكك في صحة هذه الرواية باعتبار السورة مكية، وهؤلاء كانوا في المدينة، ومنهم من تأخر إسلامه، ولكن هذا ومثله لا يحمل على سبب التزول وإنما يحمل على التفسير، فهؤلاء الصحابة الشعراء طبقوا على أنفسهم المعنى السليبي للآيات، فصحح لهم رسول الله ﷺ ذلك.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه أبو يعلى.

أَنْتَ النَّبِيُّ وَمَنْ يُحَرِّمَ شَفَاعَتَهُ يَوْمَ الْحِسَابِ لَقَدْ أَرَزَى بِهِ الْقَدْرُ  
فَثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حُسْنٍ تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نَصَرُوا  
فدعا له الرسول ﷺ قائلا: «وإياك فثبتك الله»<sup>١</sup>

وكما نصر عبد الله الإسلام في ميدان الكلمة، فقد نصره باقتدار في ميدان الحرب والجهاد بشجاعته وفروسيته.

وفي شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، علم الرسول ﷺ أن الروم قد حشدوا جيوشهم استعداداً للهجوم على المسلمين، فأرسل النبي ﷺ جيشاً إلى حدود الشام عدده ثلاثة آلاف مقاتل؛ ليؤمن الحدود الإسلامية من أطماع الروم، وجعل زيد بن حارثة أميراً على الجيش، وقال لهم: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»

فلما وصل جيش المسلمين إلى حدود الشام، علموا أن عدد جيش الروم مائتا ألف فارس، فقالوا: نكتب إلى النبي ليرسل إلينا مدداً من الرجال، أو يأمرنا أن نرجع أو أي أمر آخر، فقال لهم ابن رواحة: «يا قوم، والله إن التي تكرهون هي التي خرجتم تطلبون، إنها الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسينين، إما ظهور وإما شهادة»

فكبر المسلمون وواصلوا مسيرتهم حتى نزلوا قرية بالشام تسمى مؤتة، وفيها دارت الحرب، وقاتل المسلمون أعداءهم قتالاً شديداً، وأخذ زيد بن حارثة يقاتل ومعه راية المسلمين، فاستشهد زيد، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وراح يقاتل في شجاعة حتى استشهد، فأخذ عبد الله الراية، فأحس في نفسه بعض التردد، ولكنه سرعان ما تشجع، وراح يقاتل في شجاعة ويقول:

أَفْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّه طَائِعَةً أَوْ لَتَكْرَهِنَّه  
فَطَالَ مَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّه مَالِي أَرَاكَ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ  
يَا نَفْسُ إِلَّا تُقْتَلِي تُمُوتِي وَمَا تَمَّتِي فَقَدْ أُعْطِيَتْ  
إِنْ تَفْعَلِي فَعَلَهُمْ هَاهُ دَيْتِ وَإِنْ تَأَخَّرْتِ فَقَدْ شُقِيَتْ

ونال عبد الله الشهادة، ولحق بصاحبيه زيد وجعفر.

وقد كان فوق هذا مثال المسلم الصادق، وقد أرسله النبي ﷺ إلى يهود خيبر؛ ليأخذ الخراج والجزية مما في أراضيهم، فحاولوا إعطائه رشوة؛ ليخفف عنهم الخراج، فقال لهم: يا أعداء الله، تطعموني السحت؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير، ولا يحملي بغضي إياكم وحي إياه علي أن لا أعدل عليكم.

**حسان بن ثابت:**

كان الاسم الثاني في دفتر البابا في هذا الفصل هو اسم الشاعر المشهور (حسان بن ثابت) فطلبت من البابا أن يحدثني عنه، فقال:

هو شاعر الرسول بلا منازع، وقد أحررت عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ كان يضع لحسان المنبر في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله ﷺ»<sup>١</sup>

وقد روي عن سعيد بن المسيب قال: مر عمر بحسان في المسجد وهو ينشد فلحظ إليه فقال: كنت أنشد وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعته النبي ﷺ يقول: «أجب عني اللهم أيده بروح القدس»<sup>٢</sup>

ومن قصائده التي رثى بها رسول الله ﷺ<sup>٣</sup>:

بطيبة رسم للرسول ومعهد  
ولا تمتحي الآيات من دار حرمة  
وواضح آثار وبقاقي معالم  
بها حجرات كان يترل وسطها  
معارف لم تطمس على العهد آيها  
عرفت بها رسم الرسول وعهده  
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت  
يذكرن آلاء الرسول وما أرى  
مفجعة قد شفها فقد أحمد  
وما بلغت من كل أمر عشيره  
أطالت وقوفاً تذرف العين جهدها  
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت  
وبورك لحده منك ضمن طيبا  
تهيل عليه التراب أيدي وأعين

منبر وقد تعفو الرسوم وتهمد  
بها منبر الهادي الذي كان يصعد  
وربع له فيه مصلى ومسجد  
من الله نور يستضاء ويوقد  
أتاها البلى فالآي منها تجدد  
وقبرا بها واره في التراب ملحد  
عيون ومثلاها من الجفن تسعد  
لها محصيا نفسي فنفسى تلبد  
فظللت لآلاء الرسول تعدد  
ولكن لنفسي بعد ما قد توجد  
على طلل القبر الذي فيه أحمد  
بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد  
عليه بناء من صفيح منضد  
عليه وقد غارت بذلك أسعد

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) هذه القصيدة والقصائد التالية من رواية ابن إسحق في سيرة ابن هشام.



لقد غيبوا حلما وعلماء ورحمة  
وراحوا بحزن ليس فيهم نبينهم  
يكون من تبكي السموات يومه  
وهل عدلت يوما رزية هالك  
تقطع فيه منزل الوحي عنهم  
يدل على الرحمن من يقتدي به  
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا  
عفو عن الزلات يقبل عذرهم  
وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله  
فبيناهم في نعمة الله بينهم  
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى  
عطوف عليهم لا يثنى جناحه  
فبيناهم في ذلك النور إذ غدا  
فأصبح محمودا إلى الله راجعا  
وأمسيت بلاد الحرم وحشا بقاعها  
قفارا سوى معمورة اللحد ضافها  
ومسجده فالوحشات لفقده  
وبالجمرة الكبرى له ثم أوحشت  
فبكي رسول الله يا عين عبدة  
ومالك لا تبكين ذا النعمة التي  
فجودي عليه بالدموع وأعوي  
وما فقد الماضون مثل محمد  
أعف وأوفى ذممة بعد ذممة

عشية علوه الثرى لا يوسد  
وقد وهنت منهم ظهور وأعضد  
ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد  
رزية يوم مات فيه محمد؟  
وقد كان ذا نور يغور وينجد  
وينقذ من هول الخزايا ويرشد  
معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا  
وإن يحسنوا فالله بالخير أحمود  
فمن عنده تيسير ما يتشدد  
دليل به نهج الطريقة يقصد  
حريص على أن يستقيموا ويهدوا  
إلى كنف يحنو عليهم ويمهد  
إلى نورهم سهم من الموت مقصد  
يكيه حق المرسلات ويمجد  
لغيبه ما كانت من الوحي تعهد  
فقيده يكيه بلاط وغرقه  
خلاء له فيه مقام ومقعد  
ديار وعرضات وربيع ومولد  
ولا أعرفك الدهر دمعك يجمد  
على الناس منها سايب يتغمد  
لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد  
ولا مثله حتى القيامة يفقد  
وأقرب منه نائلا لا ينكد

وأبذل منه للطريف وتالسد  
وأكرم صيتا في البيوت إذا انتمى  
وأمنع ذروات وأثبتت في العلالا  
وأثبتت فرعاً في الفروع ومنبتنا  
رباه وليدا فاستتم تمامه  
تناهت وصاة المسلمين بكفه  
أقول ولا يلقي لقلوب عائب  
وليس هوأي نازعا عن ثنائه  
مع المصطفى أرجو بذاك حواره  
ومن مرثياته في رسول الله ﷺ:

ما بال عينك لا تنام كأنما  
جزعا على المهدي أصبح ثاويها  
وجهي يقينك الترب لهفي ليتني  
بأبي وأمي من شهدت وفاته  
فظللت بعد وفاته متبليدا  
أقميم بعدك بالمدينة بينهم  
أو حل أمر الله فينا عاجلا  
محضاً ضارائه كـريم المحتد

يا بكر أمنة المبارك بكرها  
نورا أضاء على البرية كلها  
يا رب فاجمعنا معنا ونيننا  
في جنة الفردوس فاكتبها لنا  
والله أسمع ما بقيت بهالك  
ولدته محصنة بسعد الأسعد  
من يهد للنور المبارك يهدي  
في جنة تثنى عيون الحسد  
يا ذا الجلال وذا العلال والسودد  
إلا بكيبت على النبي محمد

يا ويح أنصار النبي ورهطه  
ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا  
ولقد ولدناه وفينا قبره  
والله أكرمنا به وهدي به  
صلى الإله ومن يحف بعرشه  
ومن مراثيه في رسول الله ﷺ:

ناب المساكين أن الخير فارقهم  
من ذا الذي عنده رحلي وراحلي  
أم من نعاتب لا نخشى جناده  
كان الضياء وكان النور تتبعه  
فليتينا يوم واروه بملحده  
لم يترك الله منا بعده أحدا  
ذلت رقاب بني النجار كلهم  
واققسم الفيء دون الناس كلهم  
ومن مراثيه في رسول الله ﷺ:

آليت ما في جميع الناس مجتهدا  
تالله ما حملت أنثى ولا وضعت  
ولا برا الله خلقا من بريته  
من الذي كان فينا يستضاء به  
أمسى نساؤك عطلن البيوت فما  
مثل الرواهب يلبسن الماذل قد  
يا أفضل الناس إني كنت في نهر

### كعب بن زهير:

من أسماء الصحابة الشعراء التي رأيتها في دفتر البابا اسم (كعب بن زهير)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا

كعب بن زهير، كان شاعراً فحلاً مجيداً، وهو صاحب البردة المعروفة، والتي يقول فيها:

بَأَنْتَ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ      مُتَمِّمٌ إِنْ رَهَهَا لَمْ يُجَازَ مَكْبُولُ  
 وَمَا سَعَادَ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ عَرَضَتْ      إِلَّا أَغْنَى غَضْرِيضَ الطَّرْفِ مَكْحُولُ  
 وَمَا تَدُومُ عَلَى الْعَهْدِ الَّذِي زَعَمْتَ      كَمَا تَلَوْنَ فِي أَثْوَابِهَا الْعُجُولُ  
 وَلَا تَمَسُّكَ بِالْوُدِّ الَّذِي زَعَمْتَ      إِلَّا كَمَا تُمَسِّكُ الْمَاءَ الْعَرَايِلُ  
 كَأَنْتَ مَوَاعِيذُ عَرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا      وَمَا مَوَاعِيذُهُ إِلَّا الْأَبَاطِيلُ  
 تَبَّعْتَ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي      وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَبْدُولُ  
 مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْ      قُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَمَقْصِيلُ  
 لَا تَأْخُذَنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَّاقَةِ وَلَمْ      أَذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلُ

فلما بلغ قوله:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنْوَرٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ      وَصَارُمْ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ  
 فِي عُضْبَةٍ مِنْ قَرِيشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ      بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا  
 زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ      يَوْمَ اللَّقَاءِ وَلَا سُودٌ مَعَازِيلُ

نظر رسول الله ﷺ إلى من عنده من قريش، كأنه يومي إليهم أن يسمعوا، حتى قال:

يَمِشُّونَ مَشَى الْجَمَالِ الْبُهْمِ يَعْصِمُهُمْ      ضَرْبُ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَائِيلُ

يعرض بالأنصار، لغلظتهم عليه، فأنكرت قريش عليه وقالوا: لم تمدحنا إذ هجوتهم، فقال:

مَنْ سَرَّهُ شَرَفُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ      فِي مِقْنَبِ مَنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ  
 الْبَازِلِينَ نَفُوسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ      يَوْمَ الْهِيَاجِ وَسَطُورَةِ الْجَبَّارِ  
 يَنْتَهَهُ رُونَ كَأَنَّهُ نُسُكٌ لَهُمْ      بِدِمَائِهِ مَنْ عَلَقُوا مِنَ الْكُفَّارِ

فكساه النبي ﷺ بردة..

## ٢ — شعراء البردة:

قلت: لقد ذكرتني بالبردة..

قال: بردة البوصيري؟!

قلت: أجل.. فالصبيان عندنا لا يزالون يحفظونها ويرددونها.

قال: بوركك تلك البردة، وبورك قائلها.. لقد فتحت في سماء الشعر الحب لرسول الله ﷺ فتوحا عظيمة.  
قلت: ما تقصد؟

قال: لقد سن البوصيري في الشعر سنة حميدة لا زلنا نحيا آثارها إلى اليوم، فقد وجه الشعر الذي تاه فيه الكثير في أودية الأمان نحو قبلة رسول الله ﷺ.  
قلت: صدقت.. فلا زال للبردة ومن نَحَج نَحَجها آثار طيبة إلى اليوم.

### البوصيري:

قال: فلذلك تراني وضعت البوصيري في قمة المادحين للنبي ﷺ.  
قلت: لقد كان شاعرا فحلا.

قال: لم يكن شاعرا فقط، بل كان أمير شعراء المديح النبوي بلا منازع.. فقد وقف شعره على مدح النبي ﷺ، وكان من ثمار مدائحه النبوية (بأثباته الثلاث)، التي بدأ إحداها بلمحات تفيض عذوبة ورقة استهلها بقوله:

وفاك بالذنب العظيم المذنبُ حجاجا يُعنفُ نفسَه ويُؤنَّبُ  
ويستهل الثانية بقوله:

بمدح المصطفى تحيا القلوبُ وتُغفرُ الخطايا والذنوبُ  
أما الثالثة، وهي أجودها جميعاً، فيبدوها بقوله:

أزْمَعُوا السِّبِينَ وشَدُوا الرِّكَابَا فاطلَب الصَّبْرَ وخَلَّ العَتَابَا  
وله عدد آخر من المدائح النبوية الجيدة، من أروعها قصيدته (الحائية)، التي يقول فيها مناجيا الله عز وجل:  
يا من خزائن ملكه مملوءة كرمًا وبابُ عطائه مفتوح  
ندعوك عن فقر إليك وحاجة ومجال فضلك للعباد فسويح  
فاصفح عن العبد المسيء تكرُّمًا إن الكريم عن المسيء صافح  
وقصيدته الدالية التي يبدوها بقوله:

---

(١) ترك البوصيري عددًا كبيرًا من القصائد والأشعار ضمَّها ديوانه الشعري الذي حققه محمد سيد كيلاني، وطبع بالقاهرة سنة (١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥م)، وقصيدته الشهيرة البردة (الكواكب الدرية في مدح خير البرية)، والقصيدة (المضرية في مدح خير البرية)، والقصيدة (الخميرية)، وقصيدته (ذخر المعاد)، ولامية في الرد على اليهود والنصارى بعنوان: (المخرج والمردود على النصارى واليهود)، وقد نشرها الشيخ أحمد فهمي محمد بالقاهرة سنة (١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣م)، وله أيضا (تهذيب الألفاظ العامية)، وقد طبع كذلك بالقاهرة.  
وقد تُوفي البوصيري بالإسكندرية سنة (٦٩٥ هـ = ١٢٩٥م) عن عمر بلغ ٨٧ عامًا.

إلهي على كل الأمور لك الحمد      فليس لما أوليت من نعمٍ حدٌ  
لك الأمر من قبل الزمان وبعده      وما لك قبل كالزمان ولا بعدُ  
وحكمك ماضٍ في الخلائق نافذ      إذا شئتَ أمراً ليس من كونه بُدُ

وله قصيدة أخرى على وزن (بانت سعاد)، ومطلعها:

إلى متى أنت باللذات مشغولٌ      وأنت عن كل ما قدمت مسئولٌ!  
قلت: ولكن تظل قصيدته التي يقول فيها:

أمن تذكر جيرانٍ بذني سلم      مزجتَ دمعاً جرى من مقلعة بدمٍ؟  
أم هبت الريح من تلقاء كاظمةٍ      وأومضَ السرقُ في الظلماء من إضَمِّ؟  
فما لعينيك إن قلت اكفها همتاً؟      وما لقلبك إن قلت استفق يهَمِّ؟

والتي سماها (الكواكب الدرية في مدح خير البرية)، والمعروفة باسم (البردة) تظل من عيون شعره، بل من عيون الشعر العربي، ومن أروع قصائد المدائح النبوية.

وقد زاد في جمالها أنها قصيدة طويلة تقع في ١٦٠ بيتاً، كل بيت منها يمتلئ بحبة وشوقاً لرسول الله ﷺ، ويدل على الصدق العظيم الذي كانت تمتلئ به نفس صاحبها.

قال: ومن دلائل هذا الصدق أنه لم تلق قصيدة في الدنيا ذلك الاهتمام الذي لقيته البردة حيث ولدت شعراً كثيراً في مدح النبي ﷺ لا يزال مادة هامة للفن الإسلامي الرفيع.. فقد شطرت وخمست وسدست وسبعت:

فمن شطرها الإمام أحمد بن شرقاوى، كما في قوله:

( أكرم بخلق نبي زانه خلق )      مولاه عظمه في أفصح الكلم  
وخصنا بنبي طاب محتده      ( بالحسن مشتمل بالبشر متسم )

ومن خمسها الإمام شمس الدين الفيومي، كما في قوله:

كأنه البدر باد وسط هالته      كأنه الغيث يرجى حسن حالته  
كأنه الليث يخشى من بسالته      ( كأنه هو فرد من جلالته )

( في عسكر حين تلقاه وفي حشم )

ومن سدسها الأستاذ عباس الديب، كما في قوله:

يا رب بالمصطفى عشنا نصائح      كيما يطهر رذو شوق جوارحه

مذ جئت للساح صبا كى أصلحه ( ومنذ ألزمت أفكارى مدائحـه  
أصبحت في الحيوالأجباب صادحه وجدته لخلاصى خير ملتزم )

ومن سبعا الإمام القاضى البيضاوى صاحب التفسير، كما في قوله:

الله منه إلينا الخير مستبـق على لسان نبي وجهه طلق  
فالشمس من نوره والبدر والفلق والمسك من ريحه في الأفق يعتبق  
والجود من كفه في الخلق مندفق (أكرم بخلق نبي زانه خلق)  
(بالحسن مشتمل بالبشر متمسم )

قلت: أفلا نتبرك بروايتها والاستماع إليها؟

قال: لا ينبغي أن نقصر في ذلك.. وقد وفقني الله فحفظتها عن ظهر قلب.

قلت: لقد بدأها بذكر حبه..

قال: أجل.. فقد قال في بدايتها:

أَمِنْ تَذَكَّرِ حَيْرَانٍ بَدِي سَلَمٍ  
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاظِمَةٍ  
فَمَا لِعَيْنَيْكَ إِنْ قُلْتَ أَكْفَفَا هَمَّتَا  
أَيَحْسَبُ الصَّابُ أَنْ الْحَبَّ مِنْكُمْ تِمٌّ  
لَوْلَا الْهَوَى لَمْ تُرِقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ  
فَكَيْفَ تُنْكَرُ حَبَا بَعْدَمَا شَهِدْتَ  
وَأَثَبْتَ الْوَجْدُ خَطِّي عَبْرَةَ وَضَيْتِي  
نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مِنْ أَهْوَى فَأَرْقِي  
يَا لَأَيْمِي فِي الْهَوَى الْعُذْرِيَّ مَعْدَرَةً  
عَدْتُكَ حَالِي لَا سِرِّي مُسْتَتِيرٍ  
مَحْضُنِّي التُّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ  
قلت: لطالما سمعت هذه الأبيات وتعجبت منها.

قال: تتعجب من حديثه عن الحب في بداية قصيدة يريد منها مدح نبيه ﷺ.

قلت: أجل.. وقد فعل مثل ذلك كعب بن زهير.. وقد قرأت تبريرات لذلك لم أستسغها.

قال: أما أنا.. فقد فتح الله علي من الفهم في ذلك ما عرفت به سر ذلك.

قلت: فبشرني به.

قال: لقد رأيت — من خلال صحبتي الطويلة للمسلمين — أنهم صنفان:

أما أولهما.. فيمتثلون رقة وعذوبة.. وتمتلئ قلوبهم من المشاعر والمواجيد ما لا طاقة لهم بحبسه.

وأما ثانيهما.. فقد يمتثلون عقلا وحكمة.. ولكن عيونهم جامدة، وقلوبهم لا يكاد يجرها شيء.

قلت: لا أرى هذا خاصا بالمسلمين وحدهم.. فجميع البشر يدخلون ضمن هذين الصنفين.

قال: ولذلك ترى هؤلاء الشعراء يبدأون بذكر الحجة ليغلقوا الأبواب أمام الجامدين، وكأنهم يقولون لهم:

هذه الكلمات لا يمكنكم أن تفهموها.. لأنكم لم تدوقوا ما ذقنا.. فدعونا وشأننا.

ابتسمت، وقلت: لقد تنبأ البوصيري بما لاقت برده من الإنكار إذن؟

قال: ألا تعلم أن الشاعر لم يسم شاعرا إلا بعد أن نال من الحس المرهف ما جعله يرى ما لا يرى غيره؟

قلت: صدقت في هذا.. ولكنني لم أزل حائرا في هذا المحبوب الذي بدأ البوصيري يتغنى به.

قال: وهل هناك إلا محمد.. البوصيري لا يتحدث إلا عن رسول الله ﷺ؟

قلت: البعض اعتبرها غزلا لا يختلف عن غزل الجنون.

قال: ولكن البوصيري عاقل وليس مجنونا.. وما كان للعاقل أن يقع في شبك الحب المدنس.

قلت: إن هؤلاء يدافعون على أنها من الغزل المرتبط بالنساء..

قال: فلفهوا ما يشاءون.. ولكن أخبرني أيهما أقوم قِيلا: من سمع هذه الأبيات فحركت قلبه شوقا

لرسول الله ﷺ.. أو من سمع هذه الأبيات، فراح يتصور الشاعر يناجي معشوقته ويشكو آلامه لها.

قلت: لاشك أن الفريق الأول أعقل بكثير من الفريق الثاني.

قال: فلا ترغب عن العقلاء إلى غيرهم.

قلت: بعد ذكر البوصيري لمواجيده راح يتحدث عن النفس..

قاطعني البابا، وقال: لأن النفس هي الحجاب الأعظم بين الأنا ومحمد.. اسمع ما يقول في هذا:

أَنْتَ أَنْهَمْتَ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلِي      وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نُصْحِ عَنِ الشُّهُمِ  
فَإِنَّ أُمَّارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظْتُ      مِنْ جَهْلِهِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ  
وَلَا أَعَدَّتْ مِنْ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى      ضَعِيفِ أَلَمِّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ  
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنْتَى مَا أُوقِرُهُ      كَتَمْتُ سِرًّا بَدَأَ لِي مِنْهُ بِالْكُتْمِ



مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحِ مِنْ غَوَايَتِهَا  
فَلَا تُرْمُ بِالْمَعَاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا  
وَالنَّفْسُ كَالطَّفْلِ إِنْ تُهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى  
فَاصْرَفِ هَوَاهَا وَحَاذِرْ أَنْ تُؤَلِّيَهُ  
وَرَاعِهَا وَهِيَ فِي الْأَعْمَالِ سَائِمَةٌ  
كَمْ حَسَّنْتَ لَذَّةَ لِلْمَرْءِ قَاتِلَةً  
وَإِخْشَ الدَّسَائِسِ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعٍ  
وَاسْتَفْرِغِ الدَّمَاعَ مِنْ عَيْنِ قَدِ امْتَلَأَتْ  
وَخَالِفِ النَّفْسَ وَالشَّيْطَانَ وَاعَصِمَا  
وَلَا تُطِغْ مِنْهُمَا خِصَمًا وَلَا حَكَمًا

كما يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّحْمِ  
إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّي شَهْوَةَ النَّهْمِ  
حُبُّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَفَطَّمَهُ يَنْفَطِمِ  
إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُضْمِمُ أَوْ يَصْمِمُ  
وَإِنْ هِيَ اسْتَحَلَّتِ الْمَرْعى فَلَا تُسِمِ  
مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ  
فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرُّ مِنْ التُّخْمِ  
مِنَ الْمَحَارِمِ وَالزَّمَّ حِمِيَةَ النَّدَمِ  
وَإِنْ هَمَّا مَحَضَّكَ النَّصْحَ فَاتَّهَمِ  
فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخِصَمِ وَالْحَكَمِ

قلت: إن هذه الابيات تمتلئ توجيهات تربوية راقية؟

قال: أجل.. فالنفس التي تحب محمدا ﷺ ينبغي أن يكون لها من الطهارة ما تنال به شرف هذه الصحبة.

قلت: لست أدري لم عقب الشاعر ذكره لمحبه بذكر النفس..

قال: لأن الحب هو أعظم الدوافع السلوكية.

قلت: لم أفهم..

قال: من امتلأ قلبه بمحمد ﷺ سيمتلئ قلبه بحب الطهارة.. فإذا أحب الطهار اندفع للسلوك إليها.

قلت: الحب يفعل هذا.

قال: يفعل أكثر من هذا.. فالحب لا يكل عن طاعة محبه.

قلت: بعد ذلك دخل الشاعر حضرة الحبيب..

قال: أجل.. بعد أن طهر أرض القلب بالحب.. وطهر أرض النفس بالدموع دخل على الحبيب..

قلت: لم كل هذا؟

قال: لأنه لا يمكن أن تدخل حضرة الحبيب.. وفي قلبك الأهواء المدنسة، وفي نفسك المستنقعات والمزابل.

قلت: وعيت هذا.. ووعيت من خلال الواقع خطره.

قال: وما خطره؟

قلت: رأيت أفواما من الناس.. عقولهم جامدة.. وقلوبهم حامدة.. ونفوسهم تمتلئ بالأوباء.. ثم يدخلون

إلى سنة رسول الله ﷺ.. فلا يرون منها إلا ما يشوه جمال من استنوا بسنته.

قال: فأرشد هؤلاء إلى البوصيري وأحفاد البوصيري.

قلت: كيف أرشدهم إليه.. وهم يحملون سيوفهم عليه.

قال: فأنبئهم أن سنة رسول الله ﷺ تبدأ من الداخل.. فمن لم يزين باطنه بسنة الرحمة واللطف والمودة لم

يظهر على ظاهره إلا الخراب.

قلت: صدقت.. وقد بلينا بالخراب الذي نتحدث عنه.. عد بنا إلى البردة.. وعد بنا إلى أجمل أبياتها.

قال: أجمل أبياتها هي الأبيات التي مدح فيها الحبيب ﷺ.. لقد قال في ذلك:

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّالِمَ إِلَى أَنْ اشْتَكَّتْ قَدَمَاهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمٍ  
وَشَدَّ مِنْ سَعْبٍ أَحْشَاءَهُ وَطَوَى تَحْتَ الحِجَارَةِ كَشْحًا مُتَرْفَ الأَدَمِ  
وَرَاوَدْتُهُ الجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ ذَهَبٍ عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمِ  
وَأَكَّدَتْ زُهْدَهُ فِيهَا ضَرُورَتُهُ إِنَّ الضَّرُورَةَ لَا تَعْدُو عَلَى العِصَمِ  
مَحْمَدٌ سَيِّدُ الكَوْنِينَ وَالثَّقَلَيْنِ وَالفَرِيقِينَ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ  
نَبِيِّنَا الأَمِيرُ النَّاهِي فَلَا أَحَدٌ أَبْرُ فِي قَوْلٍ لَا مِنْهُ وَلَا نَعَمِ  
هُوَ الحَيِّبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لِكُلِّ هَوَلٍ مِنَ الأَهْوَالِ مُقْتَحَمِ  
دَعَا إِلَى اللَّهِ فَالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بِجَبَلٍ غَيْرِ مُنْقَصِمِ  
فَاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ وَلَمْ يُدْأِئُوهُ فِي عِلْمٍ وَلَا كَرَمِ  
وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ غَرَفًا مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدَّيَمِ  
وَواقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمْ مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الحِكْمِ  
فَهُوَ الَّذِي تَمَّ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ ثَمَّ اصْطَفَاهُ حَبِيبًا بَارِيءَ النَّسَمِ  
مُنَزَّهَةً عَنِ شَرِيكِ فِي مَحاسِنِهِ فَجَوْهَرَ الحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ  
دَعَا مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَاحْكُمِ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتِكُمِ  
وَانْسُبْ إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ وَانْسُبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفِ  
فَإِنَّ فَضْلَ رَسولِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فَيَعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ  
لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَمًا أحيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِسَ الرَّمَمِ

حِرْصاً عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهْم  
 فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُنْفَجِمٍ  
 صَغِيرَةٌ وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمٍ  
 قَوْمٌ نِيَامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالْحُلْمِ  
 وَأَنَّهُ خَيْرٌ خَلَقَ اللهُ كُلَّهُمْ  
 فَأَمَّا اتَّصَلَتْ مِنْ نَوْرِهِ بِهِمْ  
 يُظهِرْنَ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ  
 بِالْحُسْنِ مَشْتَمِلٌ بِالْبِشْرِ مُتَّسِمٍ  
 وَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالنَّهْرِ فِي هَمَمٍ  
 فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمٍ  
 مِنْ مَعْلَدَيْ مَنْطِقٍ مِنْهُ وَمِبْتَسَمٍ  
 طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمِلَّةٍ تَمِ  
 يَا طَيْبَ مُبْتَدَأٍ مِنْهُ وَمُخْتَلَمٍ  
 قَدْ أَنْذِرُوا بِحُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنَّقَمِ  
 كَشَمَلِ أَصْحَابِ كِسْرَى غَيْرِ مُتَّعِمِ  
 عَلَيْهِ وَالنَّهْرُ سَاهِي الْعَيْنِ مِنْ سَدَمٍ  
 وَرُدَّ وَارِدُهُمَا بِالْعَيْظِ حِينَ ظَمِي  
 حُزْنًا وَبِالْمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمٍ  
 وَالْحَقُّ يُظْهِرُ مِنْ مَعْنَى وَمِنْ كَلِمِ  
 تُسْمَعُ وَبَارِقَةُ الْإِنْذَارِ لَمْ تُشَمِ  
 بِأَنَّ دِيْنَهُمُ الْمُعْجُجَ لَمْ يَقْمِ  
 مُنْقَضَةً وَفَقَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَنْمِ  
 مِنَ الشَّيَاطِينِ يَقْفُو أَنْرَ مُنْهَزِمِ

لَمْ يَمْتَحِنْنَا بِمَا نَعِيَ الْعَقُولُ بِهِ  
 أَعْيَا الْوَرَى فَهَمُّ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى  
 كَالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعْدِ  
 وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ  
 فَمُبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ  
 وَكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسُلَ الْكِرَامَ بِهَا  
 فَإِنَّهُ شَمْسٌ فَضْلٌ هُمْ كَوَاكِبُهَا  
 أَكْرَمٌ بِخَلْقِ نَبِيِّ زَانَهُ خُلُقُ  
 كَالزَّهْرِ فِي تَرْفٍ وَالبَدْرِ فِي شَرْفٍ  
 كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ جَلَالَتِهِ  
 كَأَنَّ مَا اللُّوْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدْفِ  
 لَا طَيْبَ يَعْدِلُ تُرْبًا ضَمَّ أَعْظَمَهُ  
 أَبَانَ مَوْلِدُهُ عَنْ طَيْبِ عِنَصْرِهِ  
 يَوْمٌ تَفَرَّسَ فِيهِ الْفُرسُ أَنَّهُمْ  
 وَبَاتَ إِيوَانُ كِسْرَى وَهُوَ مُنْصَدِعٌ  
 وَالنَّارُ حَامِدَةُ الْأَنْفَاسِ مِنْ أَسْفِ  
 وَسَاءَ سَاوَةٌ أَنْ غَاضَتْ بِحَبْرُثَهَا  
 كَأَنَّ بِالنَّارِ مَا بِالمَاءِ مِنْ بَلَلِ  
 وَالجِنُّ نَهْتَفُ وَالْأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ  
 عَمُوا وَصَمُوا فإِعْلَانُ الْبِشَائِرِ لَمْ  
 مِنْ بَعْدِ مَا أَخْبَرَ الْأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ  
 وَبَعْدَ مَا عَابَتُوا فِي الْأَفْقِ مِنْ شُهْبِ  
 حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ مُنْهَزِمٌ

أَوْ عَسَكَرٌ بِالْحَصَى مِنْ رَاحِيَتِهِ رُمِي  
 تَبْذًا الْمَسْبُوحِ مِنْ أَحْشَاءِ مَلْتَقِمِ  
 تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلَا قَدَمِ  
 فُرُوعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ فِي اللَّقَمِ  
 تَقِيهِ حَرٌّ وَطَيْسٌ لِلْهَجِيرِ حَمِي  
 وَكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الْكِفَارِ عَنْهُ عَمِي  
 وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرَمِ  
 خَيْرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تُخْجَمِ  
 مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأُطَمِ  
 إِلَّا وَنَلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضْمِ  
 إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ  
 قَلْبًا إِذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ لَمْ يَنْمِ  
 فَلَيْسَ يُنْكَرُ فِيهِ حَالٌ مُحْتَلَمِ  
 وَلَا نَبِيٌّ عَلَيَّ غَيْبٌ يُمْتَلَمِ  
 وَأَطْلَقْتُ أَرْبَاءَ مِنْ رِبْقَةِ اللَّمَمِ  
 حَتَّى حَكَّتْ غُرَّةً فِي الْأَعْصَرِ الدُّهْمِ  
 سَيْبٌ مِنَ الْيَمِّ أَوْ سَيْلٌ مِنَ الْعَرَمِ  
 ظُهُورٌ نَارِ الْقَرَى لَيْلًا عَلَى عَلَمِ  
 وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظَمِ  
 مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَحْلَاقِ وَالشُّمَمِ  
 قَدِيمَةٌ صِيفَةٌ الْمُوصُوفِ بِالْقَدَمِ  
 عَنِ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمِ  
 مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدْمِ

كَأَنَّهُمْ هَرَبًا أَبْطَالُ أَيْرَهَةِ  
 تَبْذًا بِهِ بَعْدَ تَسْبِيحِ بَيْطِنِهِمَا  
 جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةٌ  
 كَأَنَّهَا سَطَرَتْ سَطْرًا لِمَا كَتَبَتْ  
 مِثْلَ الْغَمَامَةِ أَنْتَى سَارَ سَائِرَةٌ  
 وَمَا حَوَى الْغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمِ  
 فَالْصَدَقُ فِي الْغَارِ وَالصَّدِيقُ لَمْ يَرَمَا  
 ظَنُّوا الْحَمَامَةَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى  
 وَقَايَةِ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مَضَاعِفَةٍ  
 مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ  
 وَلَا التَّمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ  
 لَا تُنْكَرِ الْوَحْيَ مِنْ رُؤْيَاهُ إِنْ لَكُهُ  
 وَذَاكَ حِينَ بُلُوعِ مِنْ بُؤْتِهِ  
 تَبَارَكَ اللَّهُ مَا وَحْيِي مُمَكَّنَسَبِ  
 كَمْ أَبْرَأْتُ وَصَبًّا بِاللَّمْسِ رَاحَتُهُ  
 وَأَحْيَيْتِ السَّنَةَ الشَّهْبَاءَ دَعْوَتُهُ  
 بَعَارِضٍ جَادَ أَوْ خَلَّتِ الْبِطَاحُ بِهَا  
 دَعْنِي وَوَصَفِي آيَاتٍ لَهُ ظَهَرَتْ  
 فَالْدُرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظَمُ  
 فَمَا تَطَّأُولُ أَمَالِ الْمَدِيحِ إِلَى  
 آيَاتٍ حَقٌّ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثَةٌ  
 لَمْ تَقْتَرِنِ بَزْمَانٍ وَهَيَّ تُخْبِرُنَا  
 دَامَتْ لَدِينَا ففَاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ

لذِي شِقَاقٍ وَمَا تَبِغِينَ مِنْ حِكْمٍ  
أَعَدَى الْأَعَادِي إِلَيْهَا مُلْقِي السَّلَامِ  
رَدَّ الْعِيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحُرْمِ  
وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِي الْحُسْنِ وَالْقِيمِ  
وَلَا تُسَامُ عَلَيِ الْإِكْتِنَارِ بِالسَّامِ  
لَقَدْ ظَفِرْتَ بِجَبَلِ اللَّهِ فَاعْتَصِمِ  
مِنَ الْعَصَاةِ وَقَدْ جَاؤُوه كَالْحُمَمِ  
فَالْقِسْطُ مِنْ غَيْرِهَا فِي النَّاسِ لَمْ يَقُمْ  
تَجَاهُلًا وَهَوَ عَيْنُ الْحَاذِقِ الْفَهْمِ  
وَيُنَكِّرُ الْفَمَ طَعَمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ  
سَعِيًا وَفَوْقَ مُتُونِ الْأَيْتِقِ الرُّسْمِ  
وَمَنْ هُوَ التَّعَمُّةُ الْعُظْمَى لِمُعْتَنِمِ  
كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجِ مِنَ الظُّلَمِ  
مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرِكْ وَلَمْ تُرَمِ  
وَالرُّسُلِ تَقَدَّمَ مَخْدُومٌ عَلَي خَدَمِ  
فِي مَوَكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعَلَمِ  
مِنَ السُّدُوتِ وَلَا مَرْقَى لِمُسْتَتِمِ  
نُودِيَتْ بِالرَّفْعِ مِثْلَ الْمَفْرَدِ الْعَلَمِ  
عَنِ الْعِيُونِ وَسِرٌّ أَيْ مُكْتَتِمِ  
وَجُزَتْ كُلُّ مَقَامٍ غَيْرَ مُزْدَحَمِ  
وَعَزَّ إِدْرَاكُ مَا أُولِيَتْ مِنْ نَعَمِ  
مِنَ الْعِنَايَةِ رُكْنًا غَيْرَ مِنْهَا لِمِ  
بِأَكْرَمِ الرُّسُلِ كُنَّا أَكْرَمَ الْأُمَمِ

مُحَكَّمَاتٍ فَمَا تُبْقِينَ مِنْ شُوبِهِ  
مَا حُورِيَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرَبٍ  
رَدَّتْ بِلَاغَتِهَا دَعَاوَى مُعَارِضِهَا  
لَهَا مَعَانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِي مَدَدِ  
فَمَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى عَجَائِبُهَا  
قَرَّتْ بِهَا عَيْنٌ قَارِيهَا ففُلْتُ لَهُ  
كَأَنَّهَا الْحَوْضُ تَبْيِضُ الْوُجُوهَ بِهِ  
وَكَالصِّرَاطِ وَكَالْمِيزَانِ مَعْدَلُةً  
لَا تَعَجَّبِينَ لِحَسْبِ رَاحِ يُنَكِّرُهَا  
قَدْ تُنَكِّرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدِ  
يَا خَيْرَ مَنْ يَمَّمُ الْعَافُونَ سَاحَتَهُ  
وَمَنْ هُوَ الْآيَةُ الْكُبْرَى لِمُعْتَبِرِ  
سَرِيَتْ مِنْ حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمِ  
وَبِتَّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نَلَيْتَ مَتْرَلَةَ  
وَقَدْ مَتَّكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا  
وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ بِهِمْ  
حَتَّى إِذَا لَمْ تَدْعُ شَأْؤًا وَلَا مُسْتَبِقِ  
خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالْإِضَافَةِ إِذِ  
كَيْمًا تُفُوزَ بِوَصْلِ أَيْ مُسْتَبِيرِ  
فَحُزَتْ كُلُّ فَخَارٍ غَيْرَ مُشْتَرِكِ  
وَجَلَّ مِقْدَارُ مَا وُلِّيَتْ مِنْ رُتَبِ  
بُشْرَى لَنَا مَعَشَرَ الْإِسْلَامِ إِنَّ لَنَا  
لَمَّا دَعَى اللَّهُ دَاعِينَا لِطَاعَتِهِ

رَاعَتْ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاءَ بَعْتِيهِ  
 مَا زَالَ يَلْقَاهُمْ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ  
 وَدُوا الْفِرَارَ فَكَادُوا يَغْبُطُونَ بِهِ  
 تَمْضِي اللَّيَالِي وَلَا يَدْرُونَ عِدَّتَهَا  
 كَأَنَّما الدِّينُ ضَئِيفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمُ  
 يَجْرُ بِحَرِّ خَمِيسٍ فَوَقَّ سَابِحَةً  
 مِنْ كُلِّ مَنْتَدِبٍ لِلَّهِ مُحْتَسِبٍ  
 حَتَّى غَدَتْ مِلَّةَ الْإِسْلَامِ وَهِيَ بِهِمْ  
 مَكْفُولَةٌ أَبَدًا مِنْهُمْ بِخَيْرِ أَبِي  
 هُمْ الْجِبَالُ فَسَلَّ عَنْهُمْ مُصَادِمَهُمْ  
 وَسَلَّ حُنَيْنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحَدًا  
 الْمُصَدِرِي الْبَيْضِ حُمْرًا بَعْدَ مَا وَرَدَتْ  
 وَالكَاتِبِينَ بِسُومِ الْخَطِّ مَا تَرَكَتْ  
 شَاكِي السَّلَاحِ لَهُمْ سَيْمَى تَمِيَّزَهُمْ  
 تُهْدِي إِلَيْكَ رِيَّاحُ النَّصْرِ نَشْرَهُمْ  
 كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبَتْ رُبَاً  
 طَارَتْ قُلُوبَ الْعِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقَاً  
 وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ  
 وَلَنْ تَرَى مِنْ وَلِيِّ غَيْرٍ مُنْتَصِرٍ  
 أَحَلَّ أُمَّتَهُ فِي حِرْزِ مِلَّتِهِ  
 كَمْ جَدَلَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ مِنْ جَدَلٍ  
 كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجَزَةً

قلت: إن هذه الأبيات تختزن محبة عظيمة لرسول الله ﷺ.

قال: لقد رأى صاحبها الناس يتهافتون على حفظ المتون التي تملؤهم فقها ونحوا وبلاغة.. فوضع لهم متنا يملؤهم محبة وتقديرا وأشواقا.

قلت: ولكن هناك من يجادل في كثير مما ذكرت.. فيعتبر هذا الثناء العطر على رسول الله ﷺ شركا..  
قال: أين الشرك؟

قلت: إن البوصيري يقول — مثلا —:

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم  
فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بقم  
لو ناسبت قدره آياته عظما أحياسمه حين يدعى دارس الرمم  
قال: هذه أبيات رقيقة، تمتلى تقديرا لرسول الله ﷺ.

قلت: لقد ذكروا أن الله ﷻ هو المحيي المميت.. واعتبار اسم محمد محييا — ولو من باب الافتراض —  
شرك.

قال: ألم يقرأ هؤلاء ما قاله ﷻ في حق رسول الله ﷺ.. فقد قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ  
وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (لأنفال: من الآية ٢٤)

قلت: لكأني أسمع هذه الآية أول مرة.. لقد اعتبر رسول الله ﷺ محييا.. كيف غربت عنهم هذه الآية.

قال: لأنهم مهووسون بالشرك.. هم يتصورون الله كما يتصور ملوكهم رعيتهم.. فالملك يقبح صورة  
كل من مدحه الناس، أو توجهت له القلوب، خشية على كرسيه أن يسلب منه.

قلت: صدقت.. بل إنهم يرسمون لله صورة لا تختلف عن صورة الملوك والأمراء.

قال: لا تذكر لي أحاديث هؤلاء.. ودعنا في حضرة محمد ﷺ.. فلا ينبغي لمن أنعم الله عليه بالدخول إلى  
حضرته أن يزيغ بصره أو أن يطغى.

قلت: فأكمل لي ذكر ما بقي من أبيات البردة.

قال: في باقي أبيات البردة جلس الشاعر أمام الحبيب، وراح يشكو إليه همومه وآلامه.. وحينها راحت

تتنازعه حاجات شتى عبر عنها بقوله:

خدْمْتُهُ بِمَدِيحِ أَسْتَقِيلُ بِهِ ذُنُوبَ عُمْرِ مَضَى فِي الشَّعْرِ وَالْخِدْمِ  
إِذْ قَلَّدَانِي مَا تُخَشَى عَوَائِبُهُ كَأَنِّي بِهِمَا هَدَيْتُ مِنَ النَّعْمِ  
أَطَعْتُ غِيَّ الصَّبَا فِي الْحَالَتَيْنِ وَمَا حَصَلْتُ إِلَّا عَلَى الْآثَامِ وَالنَّدَمِ  
فِيَا خَسَارَةَ نَفْسٍ فِي تَجَارَتِهَا لَمْ تَشْتَرِ الدُّنْيَا وَلَمْ تُسْمِ

وَمَنْ يَبِيعْ أَجِلاً مِنْهُ بِعَاجِلِهِ  
 إِنَّ آتَ دُخْباً فَمَا عَهْدِي بِمُنْتَقِضٍ  
 فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي  
 إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي أَحِذاً بِيَدِي  
 حَاشَاهُ أَنْ يَحْرِمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ  
 وَمُنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ  
 وَلَنْ يُفُوتَ الْعِنَى مِنْهُ يَدًا تَرَبَّتْ  
 وَلَمْ أُرِدْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا الَّتِي اقْتَطَفْتُ  
 يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مِنْ أَلُوذٍ بِهِ  
 وَلَنْ يَضْرِبَ رَسُولَ اللَّهِ جَاهُكَ بِي  
 يَا نَفْسُ لَا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ  
 لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا  
 يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مُنْعَكِسٍ  
 وَالطُّفْءَ بَعْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنْ لَكُهُ  
 وَائِذْنُ لِسُحْبِ صَلَاةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ  
 مَا رَتَّحْتَ عَذَابَاتِ الْبَانَ رِيحُ صَبَا  
 ثُمَّ الرُّضَاعَ عَنِ أَبِي بَكْرٍ وَعَنِ عُمَرَ  
 وَالْأَلِ وَالصَّحْبَ ثُمَّ التَّابِعِينَ فَهُمْ

قلت: هذه أبيات تنم عن حب عظيم لرسول الله ﷺ وتقدير عظيم له.

قال: ذلك لا يستغرب من الصالحين.. فلن يصير الصالح صالحاً حتى يملأ عليه رسول الله ﷺ شغاف قلبه.

قلت: ولكن المجادلين يجادلون في أبيات كثيرة مما ذكرت.. فهم — مثلاً — يجادلون في قوله:

إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي أَحِذاً بِيَدِي فَضُّلاً وَالْأَفْقُلُ يَا زَلَّةَ الْقَدَمِ

ابتسم، وقال: ويعتبرون ذلك شركاً!؟

قلت: أجل.. أليس ذلك شركاً؟



قال: ما يقول هؤلاء في منكر الشفاعة؟

قلت: هم يبدعونه.. بل قد يكفرونه.

قال: ففي الشفاعة لا يأخذ رسول الله ﷺ بيد الشاعر فقط.. بل يأخذ بيد البشر جميعاً، فيسأل الله ﷻ في

الموقف الذي يقف فيه الكل.. وهو يأخذ بعد ذلك بيد كل محب لينال من بركات محبته ما لم يكن يحلم به<sup>٢</sup>.

### ابن جابر الأندلسي:

سكت البابا قليلاً، فقلت: لقد تحدثنا عن صاحب البردة الشريفة.. فلنتحدث عن من نرحب بها.

قال: كثيرون هم..

قلت: سمعت أن من بينهم ابن جابر الأندلسي المتوفى سنة ٧٨٠هـ.

قال: أجل.. فله قصيدة رائعة يقول فيها:

بَطِيئَةً أَنْزَلَ وَيَمِّمُ سَيِّدَ الْأُمَمِ  
وَأَبْذُلُ دُمُوعَكَ وَأَعْذُلُ كُلَّ مُصْطَبِرٍ  
سَمْنَا نَسِيَّ أَبِي أَنْ يُضَيِّعَنَا  
جَمِيلٍ خَلَقَ عَلَيَّ حَقَّ جَزِيلِ نَدَى  
كَفَّ الْعُدَاةَ وَكَوَدَّ الْحَادِثَاتِ كَفَى  
وَكَمَّ حَبَا وَعَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ حَنَا  
مَا فَاهَ فِي فَضْرِهِ مَنْ فَاءَ لَيْسَ سِوَى  
حَانٍ عَلَيَّ كُلِّ حَانٍ حَابٍ إِنْ قَصَدُوا  
لَيْثُ الشُّرَى إِذْ سَرَى مَوْلَاهُ صَارَ لَهُ  
كَأَنَّ الْأَرَامِلَ وَالْأَيْتَامَ كَأَفْلَهُمْ  
أَجَارَ مِنْ كُلِّ مَنْ قَدْ جَارَ حِينَ أَتَى  
وَعَامَ بَدْرٍ أَعَامَ الْخَيْلَ فِي دَمِهِمْ  
وَحَاقَ إِذْ جَحَدُوا حَقَّ الرَّسُولِ بِهِمْ

وَأَنْشُرَ لَهُ الْمَدْحَ وَأَنْثُرَ أَطْيَبَ الْكَلِمِ  
وَالْحَقَّ بِمَنْ سَارَ وَالْحَظَّ مَا عَلَى الْعَلَمِ  
سَلِيلِ مَجْدِ سَلِيمِ الْعِرْضِ مُحْتَرَمِ  
هَدَى وَفَاضَ نَدَى كَفَيْهِ كَالْعَدِيمِ  
فَكَمْ جَرَى مِنْ جَدَا كَفَيْهِ مِنْ نَعَمِ  
وَكَمَّ صَافَا وَصَافَا جُوداً لِجَبْرِهِمْ  
عَازِلٍ يَعْدِلُ وَنُصْحٍ غَيْرِ مُتَّهِمِ  
حَامٍ شَفَى مِنْ شَقَا جَهْلٍ وَمِنْ عَدَمِ  
جَاراً فَجَارَ وَتَوَيْلاً مِنْهُ لَمْ يَرْمِ  
وَإِنِّي النَّدَى لِمُتَوَا فِي ذَلِكَ الْحَرَمِ  
حَتَّى أُنَاحَ لَنَا عِزّاً فَلَمْ نُضَمِّ  
حَتَّى أَبَاتَ أَبَا جَهْلٍ عَلَيَّ نَدَمِ  
كَبِيرُ هَمِّ أَرَاهُمْ نَزَعَ هَامِهِمْ

(١) هذا في الشفاعة العظمى.

(٢) ذكرنا أسرار الشفاعة، وعلاقتها بالتوحيد والعدالة والحكمة في رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (رسائل السلام)

فَهَدَّ أَطَامَ مَنْ قَد هَادَ إِذ طَبِعُوا  
وَجَلَّ عَنْ فَضْحٍ مَنْ أَخْفَى فَجَامَلَهُمْ  
مَنْ زَارَهُ يَقْبَهُ أَوْزَارُهُ وَتَوَى  
كَالْعَيْثِ فَاضَ إِذِ الْمَحَلُّ اسْتَفَاضَ تَلَا  
سَلَّ مِنْهُمْ صِرْلَةً لِلصَّبِّ وَاصِرْلَةً  
أَقْسَمَ إِلَى قَصْدِهِمْ سَوْقَ السُّورَى  
عُجَّ بِي عَلَيَّهِمْ فَعُجِّي مِنْ جَفَاءِ فَتَى  
دَعَّ عَنْكَ سَلْمَى وَسَلَّ مَا بِالْعَقِيقِ جَرَى  
مَنْ لِي بِيَدَارِ كِرَامٍ فِي الْبِيَدَارِ لَهَا  
بَانُوا فَهَانَ دَمِي وَجَدًّا فَهَانَ تَدْمِي  
يُولُونَ مَا لَهُمْ مَنْ قَد لَجَّ لَهُمْ  
يَا بَرْدَ قَلْبِي إِذَا بُرِدَ الْوِصَالِ ضَفَا  
مَا كَانَ مَنَعُ دَمِي بَخَالًا بِهِ لَهُمْ  
أَهْلًا بِهَا مِنْ دِمَاءٍ فِيهِمْ بُذِلَتْ  
مَنْ نَالَهُ جَاهُهُمْ مَنَالَهُ تَقَّةُ  
بِدَارٍ وَالْحَقُّ بِيَدَارِ الْهَاشِمِيِّ بِنَا  
جَزَمِي لَكِنَّ سَارَ رَكْبٌ لَا أُرَافِقُهُ  
فَأَيُّ كَرْبٍ لِرَكْبٍ يُبْصِرُونَ سَنَا  
مَتَى أَحُلُّ جِمَى قَوْمٍ يُجِبُّهُمْ  
جَارَ الزَّمَانِ فَكَفَّوْا جَوْرَهُ وَكَفَّوْا  
وَحَقَّهُمْ مَا نَسِينَا عَهْدَ حُجْبِهِمْ  
لَا يَنْقُضِي أَلْمِي حَتَّى أَرَى بَلَدًا  
وَقَد تَشَمَّرَ تَوْبُ النَّقْعِ عَنْ أُمِّم

فِي شَشْتِهِ فَرَمَاهُمْ فِي شَشَاتِهِمْ  
مَا رَدَّ رَائِدَ رِفَادٍ مِنْ جُنَاتِهِمْ  
لَهُ نَوَافِلَ بَدَلٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ  
أَنْفَالَ جَوْدٍ تَلَا فِي تَالِفِ النَّسَمِ  
وَالشَّمَّ أَنَامِلَ أَقْوَامٍ أَنَا بِهِمْ  
وَأَقْسَمَ بِيَدَارِ عِزٍّ وَسَوْقِ الْأَيْتِقِ التَّشْمِ  
جَازَ الْبِيَدَارِ وَلَمْ يُلْمِمْ بِرَبْعِهِمْ  
وَأَمَّ سَالِعًا وَسَلَّ عَنْ أَهْلِهِ الْقَدْمِ  
عِزٌّ فَمَنْ قَد لَهَا عَنْ ذَاكَ يُهْتَضَمِ  
فَقَدَّ أَرَاقَ دَمِي فِيمَا أَرَى قَدَمِي  
فَاشْتَدُّ يَدًّا بِهِمْ وَانزَلَ بِيَابِهِمْ  
وَيَا لَهَيْبِ فَوَادِي بَعْدَ بَعْدِهِمْ  
لَكِنَّ تَخَوَّفْتُ قَبْلَ الْقُرْبِ مِنْ عَدَمِ  
وَحَبَّذَا وَرُدُّ مَاءٍ مِنْ مِيَاهِهِمْ  
أَنْ لَا يُصَابَ بِضَمِيمٍ تَحْتَ جَاهِهِمْ  
قَبْلَ الْمَمَاتِ وَمَهْمَا اسْطَعْتَ فَاغْتَمِ  
فَلَا أَفَارِقُ مَرْجِي أَدْمَعِي بِدَمِي  
بَرْقٍ لِقَابِ مَتَى تَبْلُغُهُ تُحْتَرَمِ  
قَلْبِي وَكَمَ هَائِمٍ قَبْلِي بِحُجْبِهِمْ  
وَهَلْ أُضَامُ لَدَى غُرْبٍ عَلَى إِضْمِ  
وَلَا طَلَبْنَا سِيَوَاهُمْ لَا وَحَقَّهُمْ  
فِيهِ الَّذِي رَيْقُهُ يَشْفِي مِنَ الْأَلَمِ  
شَتَّى يَوْمُونَ طُرًّا سَيِّدَ الْأُمَمِ

مَتَى أَرَى جَارَ قَوْمٍ عَزَّ جَارُهُمْ  
صَبُّ الدُّمُوعِ كَأَمْثَالِ العَقِيقِ عَلَيَّ  
أَبَحْتُ فِيهِمْ دَمِي لِلشُّوقِ يَمزُجُهُ  
وَلَيْسَ يَكْثُرُ إِنْ أَثَرْتُ نَضِخَ دَمِي  
مِنْ سَائِلِ الدَّمْعِ سَالٍ عَنِ مَعَاهِدِهِ  
لِلسَّيْرِ مُبْتَدِرٍ كَالسَّيْلِ مُحْتَفِرٍ  
قَصِداً لِمُرْتَقِبٍ لِلَّهِ مُتَصِرٍ  
مَنْ لِي بِمُسْتَسْلِمٍ لِلْيَبِيدِ مُعْتَصِمٍ  
لِلْبَرِّ مُقْتَحِمٍ لِلْبَرِّ مُلْتَزِمٍ  
يَسْرِي إِلَى بَلَدٍ مَا ضَاقَ عَنِ أَحَدٍ  
دَارٌ شَفِيعُ السُّورَى فِيهَا لِمُعْتَصِمٍ  
فَهَجَرُ رَبْعِي لِذَلِكَ الرَّبْعِ مُعْتَمِي  
وَمَيْلُ سَمْعِي لِئَيْلِ القُرْبِ مِنْ شَيْمِي  
يَقُولُ صَاحِي وَسُفْنُ العَيْسِ خَائِضَةٌ  
يَمَّمُ بِنَا البَحْرِ إِنْ الرِّكْبَ فِي ظَمَأٍ  
وَإِ كَرِيمٌ رَحِيمٌ قَدِ وُفِيَ وَوَقِيَ  
فَقُمُ بِنَا فَلَكُمْ فَقَرٍ كَفَى كَرَمًا  
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى حَتَّى دَنَا فَرَأَى  
وَكَانَ آدَمُ إِذْ كَانَتْ نُبُوتُهُ  
صَافِحُ ثَرَاهُ وَقُلَّ إِنْ جِئْتَ مُسْتَلِمًا  
قَدْ أَقْسَمَ اللّٰهُ فِي الذِّكْرِ الحَكِيمِ بِهِ  
مَا بَيْنَ مَنبَرِهِ السَّامِي وَحَجَرَتِهِ  
مُهَيَّئِدٌ مِنْ سُيُوفِ اللّٰهِ سُلَّ عَلَيَّ

عَهْدٌ عَلَيَّ السُّرَى حِفْظًا لِعَهْدِهِمْ  
وَإِ العَقِيقِ اشْتِاقًا حَقُّ صَبِّهِمْ  
بِمَاءِ دَمْعِي عَلَيَّ خَدِّي وَقُلْتُ دُمِ  
حَيْثُ المُلُوكُ تُعَضُّ الطَّرْفَ كَالخَلْمِ  
نَعِيمُهُ أَنْ يُسْرِي يَسْرِي مَعَ النَّعْمِ  
كَالطَّيْرِ مُشْتَمِلٍ بِاللَّيْلِ مُلْتَمِّمٍ  
فِي الحَقِّ مُجْتَهِدٍ لِلرُّسُلِ مُخْتَمِّمٍ  
بِالعَيْسِ لَا مُسْتَمِّمٍ يَوْمًا وَلَا سَمِّمٍ  
لِلقُرْبِ مُغْتَنِمٍ لِلتُّرْبِ مُلْتَمِّمٍ  
كَمْ حَلٌّ مِنْ كَرَمٍ فِي ذَلِكَ الحَرَمِ  
جَارٌ رَفِيعُ الذَّرَا نَاهٍ لِمُجْتَرِمِ  
وَتَثْرُ جَمْعِي لِذَلِكَ الجَمْعِ مُعْتَصَمِي  
وَسَيْلُ دَمْعِي بِذَيْلِ التُّرْبِ كَالسَّيْمِ  
بَحْرَ السَّرَابِ وَعَيْنُ القَيْظِ لَمْ تَنْمِ  
فَقُلْتُ سَيَرُوا فَهَذَا البَحْرُ مِنْ أَمَمِ  
وَعَمَّ نَفْعًا فَكَمْ ضُرٌّ شَفَى وَكَمْ  
وَجُودٌ تَلَكَ الأَبَادِي قَدْ ضَنَفَا فُقَمِ  
وَقِيلَ سَلَّ تُعْطَى قَدْ خُيِّرْتَ فَاحْتَكِمِ  
مَا بَيْنَ مَاءٍ وَطَيْنٍ غَيْرِ مُلْتَمِّمِ  
إِنَّمَا مُحَيِّوُكَ مِنْ رَبِّعٍ لِمُسْتَلِمِ  
فَقَالَ وَالتَّحَمِ هَذَا أَوْ فَرُّ القَسَمِ  
رَوْضٌ مِنْ الخُلْدِ نَقْلٌ غَيْرُ مُتَّهَمِ  
عِدَاهُ نَوْرٌ بِهِ إِرْشَادٌ كُلُّ عَمِّ

إِنَّ الَّذِي قَالَ يُسْتَسْقَى الْعَمَامُ بِهِ  
 تَلْوَحُ تَحْتِ رِدَائِ النَّقْعِ غُرَّتُهُ  
 وَتَقْرَعُ السَّمْعَ عَن حَقِّ زَوَاجِرِهِ  
 قَالَتْ عِدَاهُ لَنَا ذِكْرٌ فَقُلْتُ عَلَيَّ  
 إِنِّي لِأَرْجُو بِنَظْمِي فِي مَدَائِحِهِ  
 وفيها يقول:

فَلَمَّا بَدَأَ رَحِيمٌ بِالْبَرِّيَّةِ إِنَّ  
 يُرَوَى حَدِيثُ النَّدَى وَالْبِشْرِ عَن يَدِيهِ  
 تَبْكِي ظُبَاهُ دَمَاءً وَالسَّيْفُ مُبْتَسِمٌ  
 دَمْعٌ بِبَلَا مُقَلِّ ضِرْحَكٌ بِغَيْرِ فَمٍ  
 جَاوِرُهُ يَمْنَعُ وَكُلُّهُ يَشْفَعُ وَسَأَلُهُ يَهَبُ  
 لَمْ يَخْشَ قِرْنَأً وَيَخْشَى الْقِرْنَ صَوْلَتُهُ  
 وَالشَّمْسُ رُدَّتْ وَبَدَرُ الْأُفُقِ شَقَّ لَهُ  
 سَقَاهُمُ الْغَيْثُ مَاءً إِذْ سَقَى ذَهَبًا  
 قَدْ أَفْصَحَ الضَّيْبُ تَصَدِيقًا لِبَعْتِيهِ  
 الْهَاشِيْمُ الْأَسَدُ هَشِيْمَ الزَّادِ تَبَدَّلَتْهُ  
 كَأَنَّ مَا الشَّمْسُ تَحْتِ الْعَيْمِ غُرَّتُهُ  
 إِذَا تَبَسَّسَ فِي حَرْبٍ وَصَاحَ بِهِمْ  
 قَلَّوْا بِبَدْرِ فَفَلَّوْا غَرَبَ شَانِيهِمْ بِهِ  
 فَبَايَضَ بَعْدَ سَوَادِ قَلْبِ مُنْتَصِرٍ  
 فَاتَّبَعَ رِجَالَ السُّرَى فِي الْبَيْدِ وَاسْرَ لَهُ  
 خَيْرُ اللَّيَالِي لِيَالِي الْخَيْرِ فِي إِضْمِ  
 بَعَزْمِهِمْ بَلَّغُوا خَيْرَ الْأَنْبَامِ فَقَد

لَوْ عَاشَ أَبْصَرَ مَا قَدَّ عَدَّ مِنْ شَيْمِ  
 كَأَنَّ يُوشَعُ رَدَّ الشَّمْسِ فِي الظُّلْمِ  
 قَرَعَ الرَّمَاحَ بِيَدِ ظَهْرٍ مُنْهَزِمِ  
 لِسَانَ دَاوُدَ ذِكْرٌ غَيْرُ مُنْصَرِمِ  
 رَجَاءَ كَعْبٍ وَمَنْ يَمْدَحُهُ لَمْ يُضْمِ

عَقَّتْكَ شَيْدَةٌ دَهْرٍ عَاقٍ وَاعْتَصَمِ  
 وَوَجْهُهُ بَيْنَ مُنْهَلٍ وَمُبْتَسِمِ  
 يَخُطُّ كَالنَّوْنِ بَيْنَ الْإِلَامِ وَاللَّمِ  
 كَتَبَ بِغَيْرِ يَدٍ خَطُّ بِلَا قَلَمِ  
 وَعُدَّ يُعَدُّ وَاسْتَزِدَّ يَفْعَلُ وَدُمَّ يَدُمُ  
 فَهُوَ الْمُنْبِيعُ الْمُبِيحُ الْأَسَدُ لِلرَّحِمِ  
 وَالنَّجْمُ أَيْنَعُ مِنْهُ كُلُّ مُنْحَطِمِ  
 فَعَيْرُ كَفَيْهِ إِنْ أَحْلَسَتْ لَا تَشِيْمِ  
 إِفْصَاحُ قُسٍّ وَسَمْعُ الْقَوْمِ لَمْ يَهِيْمِ  
 بَنَانُ هَاشِيْمِ الْوَهَّابِ لِلطُّعْمِ  
 فِي النَّقْعِ حَيْثُ وَجْهُ الْأَسَدِ كَالْحُمِ  
 يُبْكِي الْأَسْوَدَ وَيَرْمِي اللُّسْنَ بِالْبِكْمِ  
 وَمَا قَلَّ جَمْعُ بِالرَّسُولِ حَمِي  
 وَاسْوَدَّ بَعْدَ بِيَاضٍ وَجْهُ مُنْهَزِمِ  
 سُرَى الرَّجَالِ ذَوِي الْأَلْبَابِ وَالْهَمِ  
 وَالْقَوْمُ قَدْ بَلَّغُوا أَقْصَى مُرَادِهِمْ  
 فَازُوا وَمَا بَلَّغُوا إِلَّا بِعَزْمِهِمْ

يَقُومُ بِالْأَلْفِ صَاعٍ حِينَ يُطْعِمُهُمْ  
مَنْ الْعَرَالَةَ قَدْ رُدَّتْ لِطَاعَتِهِ  
دَانِي الْقُطُوفِ حَمِيْلُ الْعَفْوِ مُقْتَدِرٌ  
لَا يَرْفَعُ الْعَيْنَ لِلرَّاجِحِينَ يَمْنَحُهُمْ  
يَا قَاطِعَ الْبِيَدِ يَسْرِ بِهَا عَلَيَّ قَدَمٌ  
قَدْ اِعْتَصَمَتْ بِأَقْوَامٍ جُفُوْنُهُمْ  
جَوَازِمُ الصَّبْرِ عَنِ فِعْلِ الْجَوَى مُنِعَتْ  
فِي الْقَلْبِ وَالطَّرْفِ مِنْ أَهْلِ الْحِمَى قَمَرٌ  
يَا مُتَهِمِينَ عَسَى أَنْ تُنْجِدُوا رَجُلًا  
أَغَارَ دَهْرٌ رَمَى بِالْبُعْدِ نَازِحَنَا  
إِنَّ الْعَضَى لَسَتْ أَنْسَى أَهْلَهُ فَهَمْ  
جَرَى الْعَقِيْقُ بِقَلْبِي بَعْدَمَا رَحَلُوا  
حَيْثُ الَّذِي إِنْ بَدَا فِي قَوْمِهِ وَحَبَا  
فَالْبَدْرُ فِي شُهْبِهِ وَالْعَيْثُ جَادَ لِذِي  
وَإِنْ عَلا النَّقْعُ فِي يَوْمِ الْوَعَى فَادْعَا  
تَرَى الثُّرَيَّا تَقْوُدُ الشُّهْبَ يُرْسِلُهَا لَيْثُ  
أَخْفُوا فِي الْإِنْجِيلِ وَالْتَوْرَةِ بَعَثْتَهُ  
قَدْ أَحْرَزَ الْبَأْسَ وَالْإِحْسَانَ فِي نَسَقِ  
لَا يَسْتَوِي الْعَيْثُ مَعَ كَفَيْهِ نَائِلُ ذَا  
غَيْثَانَ أَمَا الَّذِي مِنْ فَيْضِ أُمْلِيهِ  
جَلا قُلُوبًا وَأَحْيَا أَنْفُسًا وَهَدَى  
يُرِيكَ بِالْيَوْمِ مِثْلَ الْأَمْسِ مِنْ كَرَمِ  
فَلَنْذِ بَمَنْ كَفُّهُ وَالْبَحْرُ مَا اِفْتَرَقَا

وَالصَّاعُ مِنْ غَيْرِهِ بِاثْنَيْنِ لَمْ يُقْمِ  
لَوْ رَامَ أَنْ لَا تَزُورَ الْجَدِي لَمْ تَرْمِ  
مَا ضَاقَ مِنْهُ لِجَانٍ وَاسِعِ الْكَرَمِ  
بَلْ يَخْفِضُ الرَّاسَ قَوْلًا هَاكَ فَاحْتَكِمِ  
شَوْقًا إِلَيْهِ لَقَدْ أَصْبَحْتَ ذَا قَدَمِ  
لَا تَعْرِفُ السَّيْفَ خَلَوْا مِنْ خِضَابِ دَمِ  
وَرَفَعَهُ حَالًا إِلَّا حَالُ قُرْبِهِمْ  
مَنْ يَعْتَصِمُ بِحِمَاهُ الرَّحْبُ يُحْتَرَمِ  
لَمْ يَسْأَلْ عَنْكُمْ وَلَمْ يُصَبِّحْ بِمُتَّهَمِ  
فَأَنْجِدُوا يَا كِرَامَ الذَّاتِ وَالشَّيْمِ  
شَبُوهُ بَيْنَ ضُلُوعِي يَوْمَ بَيْنِهِمْ  
وَلَوْ جَرَى مِنْ دُمُوعِ الْعَيْنِ لَمْ أَلَمِ  
عَفَاتَهُ وَرَمَى الْأَعْدَاءَ بِالنَّقَمِ  
مَحَلِّ وَلَيْثُ الشُّرَى قَدْ صَالَ فِي الْعَنَمِ  
أَنْصَارُهُ وَأَجَالَ الْخَيْلَ فِي اللَّجَمِ  
هَدَى الْأَسَدَ خَوْضَ الْبَحْرِ فِي الظُّلَمِ  
فَأَظْهَرَ اللَّهُ مَا أَخْفُوا بِرَغْبِهِمْ  
وَالْعِلْمَ وَالْحِلْمَ قَبْلَ الدَّرِكِ لِلْحُلْمِ  
مَاءٌ وَنَائِلُ ذَا مَالٍ فَلَا تَهْمِ  
فَدَائِمٌ وَالَّذِي لِلْمُزْنِ لَمْ يَدْمِ  
عُمِيًّا وَأَسْمَعَ آذَانًا ذَوِي صَمَمِ  
وَلَيْسَ فِي غَدِيهِ هَذَا بِمُنْعَدِمِ  
إِلَّا بِكَفِّ وَبَحْرِ فِي كَلَامِهِمْ

وَالْمَالُ وَالْمَاءُ مِنْ كَفَيْهِ قَدْ جَرِيَا  
فَازَ الْمَجِيدَانِ دَانٍ أَوْ مُدِيمٍ سُورِيٍّ  
مِنْ وَجْهِ أَحْمَدٍ لِي بَدْرٌ وَمِنْ يَدِهِ  
كَمْ قُلْتُ يَا نَفْسَ مَا أَنْصَفْتَ أَنْ رَحَلُوا  
يَمَّيْنِمْ نَبِيَّاً تُبَارِي الرِّيحَ أُمَّلُهُ  
لَوْ قَابَلَ الشُّهْبَ لَيْلًا فِي مَطَالِعِهَا  
تَكَادُ تَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ  
لَوْ عَامَتِ الْفَلَكَ فِيمَا فَاضَ مِنْ يَدِهِ  
تُحِيطُ كَفَاهُ بِالْبَحْرِ الْمُحِيطِ فَلَنْدِ بِهِ  
لَوْ لَمْ تُحِطْ كَفَاهُ بِالْبَحْرِ مَا شَمِلَتْ  
لَمْ تَبْرِقِ السُّحُبُ إِلَّا أَنَّهُمَا فَرِحَتْ  
وَالْمَاءُ لَوْ لَمْ يَفِضَ مِنْ بَيْنِ أُمَّلِهِ  
يَسْتَحْسِنُ الْفَقْرَ ذُو الدُّنْيَا لَيْسَ أَلَّهُ  
وَالْبَدْرُ أَبْقَى بِمَرَاهُ لِيُعْلِمَنَا  
أَزَالَ ضُرَّ الْبَعِيرِ الْمُسْتَجِيرِ كَمَا

هَذَا لِرَاجٍ وَذَا لِلْحَيْشِ حِينَ ظَمِي  
فَذَاكَ نَاجٍ وَذَا رَاجٍ لِحُودِهِمْ  
بَحْرٌ وَمِنْ فَمِيهِ ذُرٌّ لِمُنْتَضِمِ  
وَمَا رَحَلَتْ وَقَامُوا ثُمَّ لَمْ تُقَمِ  
وَالْمُزْنَ مِنْ كُلِّ هَامِي الْوَدْقِ مُرْتَكِمِ  
خَرَّتْ حَيَاءً وَأَبَدَتْ بِرَّ مُحْتَرِمِ  
إِلَى الْوَرَى نُطِفَ الْأَبْنَاءِ فِي الرَّحِمِ  
لَمْ تَلْقَ أَعْظَمَ بَحْرًا مِنْهُ إِنْ تُعَمِ  
وَدَعَ كُلَّ طَامِي الْمَوْجِ مُلْتَضِمِ  
كُلَّ الْأَنْبَامِ وَأُرْوَتْ قَلْبَ كُلِّ ظَمِي  
إِذْ ظَلَلْتَهُ فَأَبَدَتْ وَجْهَهُ مُبْتَسِمِ  
مَا كَانَ رِيَّ الظُّمَاءِ فِي وَرْدِهِ الشَّيْمِ  
فِيَأْمَنُ الْفَقْرَ مِمَّا نَالَ مِنْ نَعَمِ  
بِالْأَنْشِقَاقِ لَهُ أَثَارٌ مُنْثَلِمِ  
بِهِ الْعَرَالَةُ قَدْ لَادَتْ فَلَمْ تُضَمِّ

### صفي الدين الحلبي:

قلت: وسمعت أن من بين هؤلاء رجل يقال (صفي الدين الحلبي )

قال: أجل.. هذا الرجل من أكبر الشعراء المهتمين بالبديع.. حتى أنه لقب بأبي البديع، حيث كان علم

البديع مهجورا قبله..

قلت: لا يستغرب حب بديع اللغة ممن أحب بديع البشر.

قال: وميزة هذا الشاعر أنه جمع في هذه القصيدة بين علم البديع ومدح الحبيب.

قلت: تقصد أن القصيدة متن في البديع؟

قال: أجل.. وهي من أشهر المتون العلمية، حيث جمعت بين مديح المصطفى ﷺ، وبين ذكر جميع شواهد

علم البلاغة، وهي (الكافية البديعية)

قلت: لقد شوقتني إليها.. فاروها لي.

قال: يقول هذا الشاعر الفاضل في هذه القصيدة:

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم  
فقد ضمنت وجود الدمع من عدم  
أبيت والدمع هام هامل سرب  
من شأنه حمل أعباء الهوى كمدا  
من لي بكل غرير من طباءهم  
بكل قد نضير لا نظير له  
وكل لحظ أتى باسم ابن ذي يزن  
قد طال ليلي وأجفاني به قصرت  
كأن آناء ليلي في تطاولها  
هم أرضعوني ثدي الوصل حافلة  
كان الرضا بدنوي من خواطرم  
وجدي حنيني أنيني فكرتي ولهي  
لله لذت عيش بالحبيب مضت  
وعاذل رام بالتعنيف يرشدي  
أقصر أطل أعزر أعذل سل حل أعن  
أشبع نفسك من ذمي فهاضك ما  
أنا المفرط أطلعت العدو على  
فمي يحدث عن سري فما ظهرت  
لأنت عندي أخص الناس منزلة  
محضتني النصيح إحسانا إلي بلا  
ليت المنية حالة دون نصحك لي

واقرا السلام على عرب بذي سلم  
لهم ولم أستطع مع ذاك منع دمي  
والجسم في إضم لحم على وضم  
إذا همى شأنه بالدمع لم يلهم  
عزيز حسن يداوي الكلم بالكلم  
ما ينقضي ألمي منه ولا ألمي  
في فتكه بالمعنى أو أبي هـرم  
عن الرقاد فلم أصبح ولم أتم  
تسويف كاذب آمالي بقـرهم  
فكيف يحسن منها حال منظم  
فصار سخطي لبعدي عن جوارهم  
منهم عليهم إليهم فيهم بهم  
فلم تدم لي وغير الله لم يدم  
عدمت رشك هل أسمعك ذا صمم  
خن هن عن ترفق لج كف لم  
تلقى وأكثر موت الناس بالتخم  
سري وأودعت نفسي كل مخترم  
سرائر القلب إلا من حديث فمي  
إذ كنت أقدرهم عندي على السلم  
غش وقلدتني الإنعام فاحتكم  
فيسـتريح كلانا من أذى التهم

فيما نطقت فلا تنقص ولا تذم  
وهبه كان فما نفعي بنصحه  
فما حصلت على شيء سوى الندم  
سلوت عن صحي والبرء من سقمي  
سيفا أراق دممي إلا على قدمي  
قالوا اسلهم قلت ودي غير منصرم  
روحي وأحييت بعد الموت والعدم  
عذلي فقد فروجي كربي بذكرهم  
سلب الخواطر والألباب قلت لم  
أن الظباء تحل الصيد في الحرم  
عند العتاب ولكن عن وفي ذمم  
إلا الدموع عصاني بعد بعدهم  
رثيت لي من عذابي يوم بينهم  
والغصن يزوي لفقده الوابل الردم  
أزال عقلي أم ضربا من اللمم  
لضعف رشدي واستسمنت ذا ورم  
طوعا وأرضيت عنكم كل مختصم  
فلا يخاف للددغ النحل من ألم  
بالابتداء فكانت أحرف القسم  
يوم الفخار ولا برت تقى قسمي  
من القوافي تؤم الجحد عن أمم  
من لجة الفكر تمدي جوهر الكلم  
يزينها مدح خير العرب والعجم

حسبي بذكرك لي ذما ومنقصه  
سالت في الحب عذالي فما نصحو  
عدمت صحة جسمي مذ وثقت بهم  
قالوا سلوت لبعده الإلف قلت لهم  
ما كنت قبل الظبا الألفاظ قط أرى  
قالوا اصطبر قلت صبري غير متسع  
وإنني سوف أسلوهم إذا عدمت  
فأالله يكألاً عذالي ويلهمهم  
قالوا ألم تدر أن الحب غايته  
لم أدر قبل هواهم والهوى حرم  
رجوت أن يرجعوا يوما وقد رجعوا  
فكل ما سر قلبي واستراح به  
فلوا رأيت مصابي عندما رحلوا  
يا غائبين لقد أضى الهوى جسدي  
يا ليت شعري أسحرا كان حبكم  
رجوتكم نصحاء في الشدائد لي  
وكم بذلت تليدي والطريف لكم  
من كان يعلم أن الشهد مطلبه  
خلت الفضائل بين الناس ترفعي  
لا لقبتي المعالي بابن بجدتها  
إن لم أحدث مطايا العزم مثقلة  
تجار لفظ إلى سوق القبول بما  
من كل معربة الألفاظ معجمة



ثم مدح النبي ﷺ بقوله:

محمد المصطفى الهادي النبي أجل  
الطاهر الشيم بن الطاهر الشيم بن  
خير النبيين والبرهman متضح  
كم بين من أقسم الله العلي به  
أمي خط أبان الله معجزه  
مؤيد العزم والأبطال في قلق  
نفس مؤيدة بالحق تعضدها  
أبدى العجائب فالأعمى بنفتته  
له السلام من الله السلام وفي  
كم قد جلت جنح نقع الليل طلعته  
في معرك لا تثير الخيل عثيره  
عزيز جار لو الليل استجار به  
كأن مرآه بدر غير مستتر  
لا يهدم المن منه عمر مكرمة  
يولي الموالي من جدوى شفاعته  
كأنما قلب معن ملء فيه فلم  
إن حل أرض أناس شد أزهرهم  
آراءه وعطاياها ونقمتها  
فجود كفيه لم تقلع سحائبه  
أفنى جيوش العدا غزوا فلسست ترى  
سنه كالنور يجلوا كل مظلمة  
أبادهم فليبت المال ما جمعوا

المرسلين بن عبد الله ذي الكرم  
الطاهر الشيم بن الطاهر الشيم  
في الحجر نقلا وعقلا واضح اللقم  
وبين من جاء بسم الله في القسم  
بطاعة الماضيين السيف والقلم  
مؤمل الصفح والهيحاء في ضرم  
عناية صدرت عن بارئ النسم  
غدا بصيرا وفي الحرب البصير عمي  
دار السلام تره شافع الأمم  
والشهب أحلك ألونا من الدهم  
مما تروي المواضي تربيه بدمي  
من الصباح لعاش الناس في الظلم  
وطيب رياه مسك غير مكتتم  
ولا يسوء أذاه نفس متهم  
ملكا كبيرا عدا ما في نفوسهم  
يقبل لسائله يوما سوى نعم  
مما أتاح لهم من حظ وزهرهم  
وعفوه رحمة للناس كلهم  
عن العباد وجود السحب لم يقيم  
سوى قتييل ومأسور ومنهم  
والبأس كالنار يفني كل مجترم  
والروح للسيف والأجساد للرحم

ومن زوجه بسنان الريح منظم  
بعزم معتنم في زي معتنم  
ولم يكن عاديًا منهم على إرم  
على الثرى بين منفض ومنصم  
جاءت بما يدغم غير معتنم  
ضد اسمه عند هد الحصن والأطم  
على الجسوم دروع من قلوبهم  
وكل معتنم للحق ملتزم  
أو سافر بغير الحرب ملتئم  
مستأصل صائل مستفحل خصم  
أو سابق عزم في شاهق علم  
أهوال ملتزم بالله معتنم  
جم عجائبه في الحكم والحكم  
والكفر في فرق والدين في حرم  
في ظل مرتكم في ظل مرتكم  
من المكاة مقر الضغن والأضم  
وقع الصوارم كالأوتار والنغم  
في مأزق بغير الحرب ملتئم  
حديدها كان أغلالا من القدم  
أسد العرين إذا حر الوطيس حمي  
بيارق في سوى الميجاء لم يشم  
روى ثرى مائه أرضى الوغى بدمي  
حتى إذا ضمه بررد المقيبل ظمي

من مفرد بغير السيف منتشر  
واسخدم الموت ينهاه ويأمره  
يجزي إساءة باغيهم بسبيته  
كأنما حلق السعدي منتشرًا  
حروف خط على طرس مقطعة  
لم يلق مرحب منه مرحبا ورأي  
لاقاهم بكماة عند كرمهم  
بكل منتصر للفتح منتظر  
من حاسر بغير العضب ملتحف  
مستقتل قاتل مسترسل عجل  
بيارق خدم في مارق أمم  
فعال منتظم الأهواء مقتحم ال  
سهل خلائقه صعب عرائكه  
فالحق في أفق والشرك في نفق  
فالجيش والنقع تحت الجون مرتكم  
بفتية أسكنوا أطراف سمهم  
كل طويل بنجاد السيف يطربه  
من كل مبتدر للموت مقتحم  
تهوى الرقاب مواضيه فتحسبها  
شوس ترى منهم في كل معترك  
صالوا فنالوا الأمان من عداهم  
كالنار منه رياح الموت إن عصفت  
حران ينقع حر الكر غلته

قَادُوا الشَّوَاذِبَ كَالْأَجْبَالَ حَامِلَةً  
 مِنْ سَبِقِ لَا يَرَى سَوْطَ لَهَا ثَمَلًا  
 كَادَتْ حَوَافِرُهَا تَدْمِي جِحَافِلَهَا  
 خَاضُوا عَبَابَ الْوَعْغَى وَالخَيْلِ سَابِجَةً  
 حَتَّى إِذَا صَدَرُوا وَالخَيْلِ صَائِمَةً  
 تَلَاعَبُوا تَحْتَ ظِلِّ السَّمَرِ مِنْ مَرِحٍ  
 فِي ظِلِّ مَنْصُورِ اللَّسْوَاءِ لَه  
 سَهْلَ الْخَلَائِقِ سَمَّحَ الْكُفِّ بِأَسْطِهَا  
 أَغْرَ لَا يَمْنَعُ الرَّاجِحِينَ مَا طَلَبُوا  
 شَخْصٌ هُوَ الْعَالَمِ الْكَلْبِيِّ فِي شَرَفٍ  
 وَمَنْ لَهُ حَاوِرَ الْجَزَعِ الْيَيْسِ وَمَنْ  
 وَالْعَاقِبِ الْحَبْرِ فِي نَجْرَانِ لَاحَ لَهُ  
 وَالذُّبِّ سَلَمَ وَالْحَبِيِّ أَسْلَمَ وَالْثِ  
 وَمَنْ أَتَى سَاجِدًا لِلَّهِ سَاعَتَهُ  
 وَمَنْ غَدَا اسْمَ أُمِّهِ نَعْتًا لِأُمَّتِهِ  
 مِنْ مِثْلِهِ وَذِرَاعَ الشَّيْءِ حَدْثَهُ  
 هَلْ مِنْ يَنْمُ بِحَبِّ مَنْ يَنْمُ لَهُ  
 هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي آيَاتُهُ ظَهَرَتْ  
 مُحَمَّدَ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارَ مَنْ خَتَمَتْ  
 فَذَكَرَهُ قَدْ أَتَى فِي هَلْ أَتَى وَسَبَا  
 إِذَا رَأَى الْأَعْيَادِي قَالِ حَاوِرَ مَهْمُ

### محمود سامي البارودي:

سكت البابا، فقلت: عد بنا إلى عصرنا.. فقد سمعت أن شعراء كثيرين عارضوا البردة.

قال: أجل.. فحب رسول الله ﷺ لا يخلو منه عصر من العصور.. ولا مكان من الأماكن.. ألا تعلم أن رسول الله ﷺ أمان لأمته.

قلت: لقد ذكر الله ﷻ ذلك، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (أنفال: ٣٣).. ولكن رسول الله ﷺ فلم يبق لنا إلا الاستغفار.

قال: الاستغفار لا ينفع وحده ما لم يمتلئ القلب بحبة سيد المستغفرين.. فلذلك إن ذهب جسد رسول الله ﷺ.. فإن روحه لا زالت تعمر القلوب والأرواح.

قلت: لقد سمعت بأن الوزير محمود سامي البارودي عارضها في قصيدة عصماء من ٤٥٠ بيتا.

قال: أجل.. وقد سماها (كشف الغمة في مدح سيد الأمة)

قلت: فاروها لي.

قال: سأقتصر لك منه ما يتعلق بالحبيب<sup>١</sup>.. اسمع:

مُحَمَّدٌ خَاتَمُ الرُّسُلِ الَّذِي خَضَعَتْ  
سَمِيرٌ وَحَسِيٌّ وَمَجْنِي حِكْمَةٍ وَتَدَى  
قَدْ أْبْلَغَ الْوَحْيُ عَنْهُ قَبْلَ بَعْتِهِ  
فَإِذْكَ دَعَا دَعْوَةَ إِبْرَاهِيمَ خَالِقَهُ  
أَكْرَمَ بِهِ وَبِأَبَاءٍ مُحَجَّلَةٍ  
قَدْ كَانَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ مُدْخِرًا  
نُورٌ تَنْقُلُ فِي الْأَكْوَانِ سَاطِعُهُ  
حَتَّى اسْتَقَرَّ بِعَبْدِ اللَّهِ فَإِنْبَلَجَتْ  
وَإِخْتَارَ أَمِنَةَ الْعِذْرَاءِ صَاحِبَةً  
كِلَاهُمَا فِي الْعُلَا كُفَى لِصَاحِبِهِ  
فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ فِي بَيْتِ مَكْرُمَةٍ  
وَإِخْتَارَ أَمِنَةَ الْعِذْرَاءِ صَاحِبَةً  
وَإِخْتَارَ أَمِنَةَ الْعِذْرَاءِ صَاحِبَةً  
وَلَا حَ مِنْ جِسْمِهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهَا

لَهُ الْبَرِّيَّةُ مِنْ غُرْبٍ وَمِنْ عَجَمٍ  
سَمَاحَةً وَقَرَى عَافٍ وَرِيٌّ ظَمِ  
مَسَامِعِ الرُّسُلِ قَوْلًا غَيْرَ مُنْكَتَمِ  
وَسِرٌّ مَا قَالَهُ عِيسَى مِنْ الْقَدَمِ  
جَاءَتْ بِهِ غُرَّةً فِي الْأَعْصُرِ الدُّهُمِ  
لِدَعْوَةٍ كَانَ فِيهَا صَاحِبَ الْعَلَمِ  
تَنْقُلُ الْبَدْرِ مِنْ صُلْبِ إِلَى رَحِمِ  
أَنْوَارُ غُرَّتِهِ كَالْبَدْرِ فِي السُّبُهِمِ  
لِفَضْلِهَا بَيْنَ أَهْلِ الْحِلِّ وَالْحَرَمِ  
وَالْكَفَى فِي الْمَجْدِ لَا يُسْتَأْمُ بِالْقِيَمِ  
شَيْدَتِ دَعَائِمُهُ فِي مَنْصِبِ سِنَمِ  
يَدُ الْمَشِيئَةِ عَنْهَا كُفَلَةُ الْوَجَمِ  
قُصُورَ بُصْرَى بِأَرْضِ الشَّامِ مِنْ أَمَمِ

(١) نقل القصيدة هنا بتصرف.

وَمُنْذَأْنِ الْوَضْعُ وَهُوَ الرَّفْعُ مَتْرَلَةٌ  
ضَاءَتْ بِهٖ غُرَّةُ الْإِثْنَيْنِ وَابْتَسَمَتْ  
وَأَرْضَ عَتَهُ وَلَمْ تِيَأْسْ حَلِيمَةً مِنْ  
فَفَاضَ بِالْبَدْرِ ثُنْدِيهَا وَقَدْ غَنِيَتْ  
وَأَهْلًا بَعْدَ انْقِطَاعِ رِسَالِ شَارِفِهَا  
فِيَمَّمَّتْ أَهْلَهَا مَمْلُوءَةً فَرِحَاءً  
وَقَلَّصَ الْجَدْبُ عَنْهَا فَهِيَ طَاعِمَةٌ  
وَكَيْفَ تَمَحَّلُ أَرْضٌ حَلَّ سَاحَتِهَا  
فَلَمْ يَزَلْ عِنْدَهَا يَنْمُو وَتَكَلَّفُوهُ  
حَتَّى إِذَا تَمَّ مِيقَاتُ الرِّضَاعِ لَهُ  
وَجَاءَ كَالْعُصْبِ مَجْدُولًا تَرَفُّ عَلَى  
قَدْ تَمَّ عَقْلًا وَمَا تَمَّتْ رِضَاعَتُهُ  
فَبَيْنَمَا هُوَ يَرَعَى الْبِهِمَ طَافَ بِهِ  
فَاضُ جَعَاهُ وَشَقًّا صَدْرَهُ يَبِيدُ  
وَبَعْدَ مَا قَضَى مِنْ قَلْبِهِ وَطَرًّا  
مَا عَالَجَا قَلْبَهُ إِلَّا لِيُخْلَصَ مِنْ  
فِيهَا لَهَا نِعْمَةٌ لِلَّهِ خَاصٌّ بِهَا  
وَقَالَ عَنْهُ بُحَيْرَا حِينَ أَبْصَرَهُ  
إِذْ ظَلَلْتَهُ الْعَمَامُ الْعُرُّ وَأَهْضَبَرَتْ  
بِأَنَّهُ خَاتَمُ الرُّسُلِ الْكِرَامِ وَمَنْ  
هَذَا وَكَمْ آيَةٌ سَارَتْ لَهُ فَمَحَتْ  
مَا مَرَّ يَوْمٌ لَهُ إِلَّا وَقَلَّدَهُ  
حَتَّى إِسْتَمَّ وَلَا تُقْصَانُ يَلْحَقُهُ

جَاءَتْ بِرُوحِ بُسُورِ اللَّهِّ مُتَّسِمِ  
عَنْ حُسْنِهِ فِي رَبِيعِ رَوْضَةِ الْحَرَمِ  
قَوْلِ الْمَرَضِعِ إِنَّ الْبُؤْسَ فِي الْيَتَمِ  
لِيَالِيًا وَهِيَ لَمْ تَطْعَمَ وَلَمْ تَنْمِ  
حَتَّى غَدَّتْ مِنْ رَفِيهِ الْعَيْشِ فِي طَعْمِ  
بِمَا أُتِيحَ لَهَا مِنْ أَوْفَرِ النَّعْمِ  
مِنْ خَيْرِ مَا رَفَدَتْهَا ثَلَاثَةُ الْعَنَمِ  
مُحَمَّدٌ وَهُوَ غَيْثُ الْجُودِ وَالْكَرَمِ  
رِعَايَةُ اللَّهِ مِنْ سُوءٍ وَمِنْ وَصَمِ  
حَوْلَيْنِ أَصْبَحَ ذَا أَيْدٍ عَلَى الْفُطْمِ  
حَبِيبِنِهِ لِمَحَبَاتِ الْمَجْدِ وَالْفَهْمِ  
وَفَاضَ حِلْمًا وَلَمْ يَبْلُغْ مَدَى الْحُلْمِ  
شَخْصَانِ مِنْ مَلَكَوَتِ اللَّهِ ذِي الْعِظَمِ  
رَفِيقَةٍ لَمْ يَبْتَ مِنْهَا عَلَى أَلَمِ  
تَوَلَّى غَسْلَهُ بِالسَّلْسَلِ الشَّيْبِ  
شَوْبِ الْهَوَى وَيَعِي قُدْسِيَّةَ الْحِكْمِ  
حَبِيبُهُ وَهُوَ طِفْلٌ غَيْرٌ مُحْتَلِمِ  
بِأَرْضِ بُصْرَى مَقَالًا غَيْرَ مُتَّهَمِ  
عَظْفًا عَلَيْهِ فُرُوعُ الضَّالِّ وَالسَّلَمِ  
بِهِ تَزُولُ صُرُوفُ الْبُؤْسِ وَالنَّقَمِ  
بُورِهِا ظُلْمَةٌ الْأَهْوَالِ وَالْقُحْمِ  
صَنَائِعًا لَمْ تَزَلْ فِي الدَّهْرِ كَالْعَلَمِ  
خَمْسًا وَعِشْرِينَ سِنًّا الْبَارِعِ الْفَهْمِ

وَلَقَّبْتَهُ قُرَيْشُ بِالْأَمِينِ عَلَيَّ  
وَدَدْتُ خَدِيجَةَ أَنْ يَرَعَى تِجَارَتَهَا  
فَشَدَّ عَزَمَتَهَا مِنْهُ بِمُقْتَدِرٍ  
وَسَارَ مُعْتَزِمًا لِلشَّامِ يَصْحَبُهُ  
فَمَا أَنْاخَ بِهَا حَتَّى قَضَى وَطَرًا  
وَكَيْفَ يَخْسَرُ مَنْ لَوْلَاهُ مَا رِيحَتْ  
فَقَصَّ مَيْسُورَةَ الْمَأْمُونُ قِصَّتَهُ  
وَمَا رَوَاهُ لَهُ كَهْلٌ بِصَوْمَعَةٍ  
فِي دَوْحَةٍ عَاجَ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ بِهَا  
هَذَا نَبِيٌّ وَلَمْ يَنْزِلْ بِسَاحَتِهَا  
وَسِيْرَةَ الْمَلَكَيْنِ الْحَائِمِينَ عَلَيَّ  
فَكَانَ مَا قَصَّه أَصْلًا لِمَا وَصَلَتْ  
أَحْسَنَ بِهَا وَصَلَةٌ فِي اللَّهِ قَدْ أَحَدَتْ  
فَأَصْبَحَا فِي صَفَاءٍ غَيْرِ مُنْقَطِعِ  
وَحِينَمَا أَجْمَعْتَ أَمْرًا قُرَيْشُ عَلَيَّ  
تَجَمَّعَتْ فِرْقُ الْأَحْلَافِ وَاقْتَسَمَتْ  
حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْبَيْبَانَ غَايَتَهُ  
تَسَابَقُوا طَلَبًا لِلْأَجْرِ وَاخْتَصَمُوا  
وَأَقْسَمَ الْقَوْمُ أَنْ لَا صَلَاحَ يَعْصِمُهُمْ  
وَأَدْخَلُوا حِينَ جَدَّ الْأَمْرُ أَيْدِيَهُمْ  
فَقَالَ ذُو رَأْيِهِمْ لَا تَعْجَلُوا وَخُذُوا  
لِيَرْضَ كُلُّ امْرِيٍّ مِنْهَا بِأَوَّلِ مَنْ  
فَكَانَ أَوَّلَ آتٍ بَعْدَمَا اتَّفَقُوا

صِدْقِ الْأَمَانَةِ وَالْإِيْفَاءِ بِالذِّمَمِ  
وِدَادَ مُتَتَهِّزٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَمِنِ  
مَاضِي الْجِنَانِ إِذَا مَا هَمَّ لَمْ يَحْمِ  
فِي السَّيْرِ مَيْسُورَةَ الْمَرْضِيِّ فِي الْحَشَمِ  
مِنْ كُلِّ مَا رَامَهُ فِي الْبَيْعِ وَالسَّلَمِ  
تِجَارَةُ الدِّينِ فِي سَهْلٍ وَفِي عِلْمِ  
عَلَى خَدِيجَةَ سَرْدًا غَيْرَ مُنْعَجِمِ  
مِنَ الرَّهَائِينَ عَنِ أَسْلَافِهِ الْقُدَمِ  
مِنْ قَبْلِ بَعْتِهِ لِلْعَرَبِ وَالْعَجَمِ  
إِلَّا نَبِيٌّ كَرِيمُ النَّفْسِ وَالشَّيْمِ  
جَبِينِهِ لِيُظَلِّلَهُ مِنَ السُّتَمِ  
بِهِ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ قَصْدٍ وَمُعْتَزِمِ  
بِهَا عَلَيَّ الدَّهْرُ عَقْدًا غَيْرَ مُنْقَضِمِ  
عَلَى الزَّمَانِ وَوَدَّ غَيْرَ مُنْقَضِمِ  
بِنَايَةِ الْبَيْتِ ذِي الْحُجَابِ وَالْحَدَمِ  
بِنَاءَهُ عَنِ تَرَاضٍ خَيْرٍ مُفْتَسِمِ  
مِنْ مَوْضِعِ الرُّكْنِ بَعْدَ الْكَدِّ وَالْحَشَمِ  
فِيْمَنْ يَشُدُّ بِنَاهُ كُلُّ مُخْتَصِمِ  
مِنْ اقْتِحَامِ الْمَنَايَا أَيَّمَا قَسَمِ  
لِلشَّرِّ فِي جَفْنَةٍ مَمْلُوءَةٍ بِدَمِ  
بِالْحَزْمِ فَهُوَ الَّذِي يَشْفِي مِنَ الْحَزْمِ  
يَأْتِي فَيَقْسِطُ فِينَا قِسْطَ مُحْتَكِمِ  
مُحَمَّدٌ وَهُوَ فِي الْخَيْرَاتِ ذُو قَدَمِ

فَقَالَ كُلُّ رَضِينَا بِالْأَمِينِ عَلَيَّ  
فَأَعْلَمُوهُ بِمَا قَدْ كَانَ وَاحْتَكُمُوا  
فَمَدَّ تَوْباً وَحَطَّ الرُّكْنَ فِي وَسْطِ  
فَنَالَ كُلُّ امْرِئٍ حَظًّا بِمَا حَمَلَتْ  
حَتَّى إِذَا اقْتَرَبُوا تَلْقَاءَ مَوْضِعِهِ  
مَدَّ الرَّسُولُ يَدًا مِنْهُ مُبَارَكَةً  
فَلِيَزِدَّ الرُّكْنَ تَيْهًا حَيْثُ نَالَ بِهِ  
لَوْ لَمْ تَكُن يَدُهُ مَسَّتْهُ حِينَ بَنَى  
يَا لَيْتَنِي وَالْأَمَانِي رُبَّمَا صَدَقَتْ  
يَا حَبِذَا صِبْغَةً مِنْ حُسْنِهِ أَخَذَتْ  
كَالْخَالِ فِي وَجْهِ زَيْدَتْ مَحَاسِنُهَا  
وَكَيْفَ لَا يَفْخَرُ الْبَيْتُ الْعَتِيقُ بِهِ  
أَكْرَمَ بِهِ وَازِعَاءً لَوْلَا هِدَايَتُهُ  
هَذَا الَّذِي عَصَمَ اللَّهُ الْأَنَامَ بِهِ  
وَحِينَ أَدْرَكَ سِنَّ الْأَرْبَعِينَ وَمَا  
حَبَاهُ ذُو الْعَرْشِ بُرْهَانًا أَرَاهُ بِهِ  
فَكَانَ يَمْضِي لِيَرَعَى أَنْسَ وَحَشِيَّتِهِ  
فَمَا يُمَرُّ عَلَيَّ صَخْرٍ وَلَا شَجَرٍ  
حَتَّى إِذَا حَانَ أَمْرُ الْغَيْبِ وَانْحَسَرَتْ  
نَادَى بِدَعْوَتِهِ جَهْرًا فَأَسْمَعَهَا  
فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ فِي السُّدَيْنِ تَابَعَهُ  
ثُمَّ اسْتَجَابَتْ رِجَالٌ دُونَ أُسْرَرَتِهِ  
وَمَنْ أَرَادَ بِهِ الرَّحْمَنُ مَكْرَمَةً

عَلِمَ فَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ عَادِلٍ حَكَمَ  
إِلَيْهِ فِي حَالِ هَذَا الْمَشْكِلِ الْعَمَمِ  
مِنْهُ وَقَالَ إِرْفَعُوهُ جَانِبَ الرِّضَمِ  
يَدَاهُ مِنْهُ وَلَمْ يَعْتَبِ عَلَيَّ الْقِسْمِ  
مِنْ جَانِبِ الْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ وَالِدَعْمِ  
بَنَتْهُ فِي صَدْفٍ مِنْ بَادِخِ سَنِمِ  
فَفَخْرًا أَقَامَ لَهُ الدُّنْيَا عَلَيَّ قَدَمِ  
مَا كَانَ أَصْبَحَ مَلْتُومًا بِكُلِّ فَمِ  
أَحْظَى بِمُعْتَنَقِي مِنْهُ وَمُلْتَزَمِ  
مِنْهَا الشَّيْبَةَ لَوْنَ الْعُذْرِ وَاللَّمَمِ  
بِنِقْطَةٍ مِنْهُ أَضْعَافًا مِنَ الْقِيمِ  
وَقَدْ بَنَتْهُ يَدٌ قِيَاضَةَ النَّعْمِ  
لَمْ يَظْهَرَ الْعَدْلُ فِي أَرْضٍ وَلَمْ يَقُمْ  
مِنْ كُلِّ هَوْلٍ مِنَ الْأَهْوَالِ مُخْتَرِمِ  
مِنْ قَبْلِهِ مَبْلُغٌ لِلْعِلْمِ وَالْحِكْمِ  
آيَاتِ حِكْمَتِهِ فِي عَالَمِ الْحُلْمِ  
فِي شَاسِعِ مَا بِهِ لِلْخَلْقِ مِنْ أَرَمِ  
إِلَّا وَحْيَاهُ بِالتَّسْلِيمِ مِنْ أَمَمِ  
أَسْتَارُهُ عَنِ ضَمِيرِ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ  
فِي كُلِّ نَاجِيَةٍ مَنْ كَانَ ذَا صَمَمِ  
خَدِيدِيَّةً وَعَلَيَّ ثَابِتُ الْقَدَمِ  
وَفِي الْأَبَاعِدِ مَا يُغْنِي عَنِ الرَّحِمِ  
هَدَاهُ لِلرُّشْدِ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ

ثُمَّ اسْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ مُعْتَرِمًا  
وَالنَّاسُ مِنْهُمْ رَشِيدٌ يَسْتَجِيبُ لَهُ  
حَتَّى اسْتَرَابَتْ قُرَيْشٌ وَاسْتَبَدَّ بِهَا  
وَعَذَّبُوا أَهْلَ دِينِ اللَّهِ وَانْتَهَكُوا  
وَقَامَ يَدْعُو أَبُو جَهْلٍ عَشِيرَتَهُ  
يُؤَدِّي خِدَاعًا وَيُخْفِي مَا تَضَمَّنَتْهُ  
لَا يَسْلَمُ الْقَلْبُ مِنْ غِلٍّ أَلَمَّ بِهِ  
وَالْحِقْدُ كَالْتَّارِ إِنْ أَحْفَيْتَهُ ظَهَرَتْ  
لَا يُبْصِرُ الْحَقُّ مَنْ جَهَلَ أَحَاطَ بِهِ  
كُلُّ امْرِئٍ وَأَجِدُ مَا قَدَّمَتْ يَدُهُ  
وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ فِي الدُّنْيَا مُكَافَأَةٌ  
فَلَا يَنْتَمِ ظَالِمٌ عَمَّا جَنَّتْ يَدُهُ  
وَلَمْ يَنْزَلْ أَهْلُ دِينِ اللَّهِ فِي نَصَبٍ  
حَتَّى إِذَا لَمْ يَعُدْ فِي الْأَمْرِ مَتْرَعَةٌ  
سَارُوا إِلَى الْهِجْرَةِ الْأُولَى وَمَا قَصَدُوا  
فَأَصَابُوا عِنْدَهُ فِي ظِلِّ مَمْلَكَةٍ  
مَنْ أَنْكَرَ الضَّمِيمَ لَمْ يَأْسِ بِصُحْبَتِهِ  
وَمَنْ رَأَى الْمُشْرِكِينَ الدِّينَ قَدْ وَضَحَتْ  
تَأَلَّبُوا رَغْبَةً فِي الشَّرِّ وَاتَّمَرُوا  
صَاحِبَةً وَسَمَتْ بِالْعَدْرِ أَوْجُهُهُمْ  
فَكَشَفَ اللَّهُ مِنْهَا غُمَّةً نَزَلَتْ  
مَنْ أَضْمَرَ السُّوءَ جَازَاهُ الْإِلَهُ بِهِ  
كَفَى الطُّفَيْلَ بَنَ عَمْرٍو لَمَعَةٌ ظَهَرَتْ

يَدْعُو إِلَى رَبِّهِ فِي كُلِّ مُلْتَأَمٍ  
طَوْعًا وَمِنْهُمْ غَوِيٌّ غَيْرٌ مُحْتَشِمٍ  
جَهْلٌ تَرَدَّتْ بِهِ فِي مَارِجِ ضَرْمٍ  
مَحَارِمًا أَعْقَبَتْهُمْ لَهْفَةَ النَّادِمِ  
إِلَى الضَّلَالِ وَلَمْ يَجْتَنِحْ إِلَى سَلَمٍ  
ضَمِيرُهُ مِنْ غَرَاةِ الْحِقْدِ وَالسَّدَمِ  
يَنْقَى الْأَدِيمُ وَيَقِي مَوْضِعَ الْحَلَمِ  
مِنْهُ عَلَائِمٌ فَوْقَ الْوَجْهِ كَالْحَمَمِ  
وَكَيْفَ يُبْصِرُ نُورَ الْحَقِّ وَهُوَ عَمٍ  
إِذَا اسْتَوَى قَائِمًا مِنْ هُوَّةِ الْأَدَمِ  
وَالنَّفْسُ مَسْؤُولَةٌ عَنِ كُلِّ مُحْتَرَمٍ  
عَلَى الْعِبَادِ فَعَيْنُ اللَّهِ لَمْ تَنْمِ  
مِمَّا يُلَاقُونَ مِنْ كَرَبٍ وَمِنْ زَأَمٍ  
وَأَصْبَحَ الشَّرُّ جَهْرًا غَيْرَ مُنْكَتَمِ  
غَيْرِ التَّجَاشِيِّ مَلِكًا صَادِقَ الدَّمِ  
حَصْرِيْنَةٌ وَذِمَامٌ غَيْرِ مُنْجَازِمِ  
وَمَنْ أَحَاطَ بِهِ الْأَهْوَالُ لَمْ يُقِمِ  
سَمَاؤُهُ وَانْجَلَّتْ عَنِ صِمَّةِ الصَّمَمِ  
عَلَى الصَّحِيفَةِ مِنْ غَيْظٍ وَمِنْ وَغَمِ  
وَالْعَدْرُ يَعْلقُ بِالْأَعْرَاضِ كَالدَّسَمِ  
بِالْمُؤْمِنِينَ وَرَبِّي كَاشِفُ الْعُمَمِ  
وَمَنْ رَعَى الْبَغْيَ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ النَّقَمِ  
فِي سَوِطِهِ فَأَنْارَتْ سُدْفَةَ الْقَتَمِ



هَدَى بِهَا اللَّهُ دَوْسًا مِنْ ضَالَّاتِهَا  
وَفِي الْإِرَاشِيِّ لِلْأَقْوَامِ مُعْتَبَرٌ  
فَبَاعَهَا مِنْ أَبِي جَهْلٍ فَمَا طَلَّه  
فَجَاءَ مُنْتَصِرًا يَشْكُو ظِلَامَتَهُ  
فَقَامَ مُبْتَدِرًا يَسْعَى لِنُصْرَتِهِ  
فَدَقَّ بَابَ أَبِي جَهْلٍ فَجَاءَ لَهُ  
فَجِئْنَا لَأَقْبَى رَسُولِ اللَّهِ لَاحَ لَهُ  
فَهَالِكُهُ مَا رَأَى فَارْتَدَّ مُتَزَعِّجًا  
أَتَيْتُكَ أَمْ حِينَ نَادَى سَرَحَةً فَأَتَيْتُ  
حَنَنْتُ عَلَيْهِ حُنُوًّا أُمًّا مِنْ شَفَقٍ  
جَاءَتْهُ طَوْعًا وَعَادَتْ حِينَ قَالَ لَهَا  
وَحَبَّذَا لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ حِينَ سَرَى  
رَأَى بِهِ مِنْ كِرَامِ الرُّسُلِ طَائِفَةً  
بَلَّ حَبَّذَا نَهَضَةُ الْمِعْرَاجِ حِينَ سَمَا  
سَمَا إِلَى الْفَلَكَ الْأَعْلَى فَنَالَ بِهِ  
وَسَارَ فِي سُبُحَاتِ النُّجُومِ مُرْتَقِيًا  
وَفَازَ بِالْجَوْهَرِ الْمَكْنُونِ مِنْ كَلِمِ  
سِرِّ تَحَارُّ بِه الْأَبَابُ قَاصِرَةً  
هَيْهَاتَ يَبْلُغُ فَهَمْ كُنْهَ مَا بَلَّغَتْ  
فِيهَا لَهَا وَصَلَةٌ نَالَ الْحَيْبُ بِهَا  
فَاقَتْ جَمِيعَ اللَّيَالِي فَهِيَ زَاهِرَةٌ  
هَذَا وَقَدْ فَارَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ عَلَى  
فَسَارَعُوا نَحْوَ دِينِ اللَّهِ وَانْتَصَبُوا

فَتَابَعَتْ أَمْرَ دَاعِيهَا وَلَمْ تَهْمِ  
إِذْ جَاءَ مَكَّةَ فِي ذُودِ مِنَ التَّعَمِّ  
بِحَقِّهِ وَتَمَادَى غَيْرَ مُحْتَشِرِمِ  
إِلَى النَّبِيِّ وَنِعِمَ الْعَوْنُ فِي الْإِزْمِ  
وَنُصْرَةُ الْحَقِّ شَأْنُ الْمَرْءِ ذِي الْهِمَمِ  
طَوْعًا يَجُرُّ عِنَانِ الْخَائِفِ الزَّرْمِ  
فَحَلَّ يَحُدُّ إِلَيْهِ النَّابِ مِنْ أَطْمِ  
وَعَادَ بِالتَّقْدِ بَعْدَ الْمَطْلِ عَنِ رَغَمِ  
إِلَيْهِ مَنْشُورَةَ الْأَغْصَانِ كَالْجُمِّ  
وَرَفَرَفَتْ فَوْقَ ذَلِكَ الْحُسْنِ مِنْ رَحْمِ  
عُودِي وَلَوْ خُلِّيتَ لِلشُّوقِ لَمْ تَرِمِ  
لَيْلًا إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى بِلا أْتَمِ  
فَأَمَّهُمْ ثُمَّ صَلَّى خَاشِعًا بِهِمْ  
بِهِ إِلَى مَشْهَدٍ فِي الْعِزِّ لَمْ يُرَمِ  
قَدْرًا يَجِلُّ عَنِ التَّشْبِيهِ فِي الْعِظَمِ  
إِلَى مَادَارِجِ أَعْيَتْ كُلُّ مُعْتَزِمِ  
لَيْسَتْ إِذَا قُرِنَتْ بِالْوَصْفِ كَالْكَلِمِ  
وَنِعْمَةٌ لَمْ تَكُنْ فِي الدَّهْرِ كَالنَّعْمِ  
قُرْبَاهُ مِنْهُ وَقَدْ نَاجَاهُ مِنْ أَمِّ  
مَا لَمْ يَنْلَهُ مِنَ التَّكْرِيمِ ذُو نَسَمِ  
بِحُسْنِهَا كَرُّهُورِ التَّارِ فِي الْعَلَمِ  
عِيَادِهِ وَهَدَاهُمْ وَاضِحَ اللَّقَمِ  
إِلَى الْعِبَادَةِ لَا يَأْلُونَ مِنْ سَأَمِ

وَأَلَمْ يَنْزِلْ سَيِّدُ الْكَوَابِ مُتَّصِباً  
يَسْتَقْبِلُ النَّاسَ فِي بَدْوٍ وَفِي حَضْرٍ  
حَتَّى اسْتَجَابَتْ لَهُ الْأَنْصَارُ وَاعْتَصَمُوا  
فَاسْتَكَمَلَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا نَضَارَتَهَا  
قَوْمٌ أَقْرَبُوا عِمَادَ الْحَقِّ وَأَصْطَلَمُوا  
فَكَرِمَ بِهِمُ أَشْرَقَتْ أَسْتَارُ دَاجِيَةٍ  
فَحَيْنَ وَاقِي قُرَيْشاً ذِكْرُ بِيَعَتِهِمْ  
وَبَادَهُوا أَهْلَ دِينِ اللَّهِ وَاهْتَضَمُوا  
فَكَرِمَ تَرَى مِنْ أَسِيرٍ لَا حِرَاكَ بِهِ  
فَهَاجَرَ الصَّحْبُ إِذْ قَالَ الرَّسُولُ لَهُمْ  
وَوَظَلَّ فِي مَكَّةَ الْمُخْتَارُ مُنْتَظِراً  
فَأَوْحَسَتْ خَيْفَةً مِنْهُ قُرَيْشٌ وَأَلَمْ  
فَاسْتَجْمَعَتْ عُصَباً فِي دَارِ نَدْوَتِهَا  
وَأَلَمْ دَرَتْ أَنَّهَا فِيمَا تُحَاوَلُهُ  
أُولَى لَهَا نُمُ أُولَى أَنْ يَحْيِقَ بِهَا  
إِنِّي لَأَعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ أُولَى فِطْنٍ  
يَعْصُونَ خَالَقَهُمْ جَهْلًا بِقُدْرَتِهِ  
فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ أَنْ يَبْعَثُوهُ إِذَا  
وَأَقْبَلُوا مَوْهِناً فِي عُصْبَةِ غُدْرٍ  
فَجَاءَ حَبْرِيئِيلٌ لِلْهَادِي فَأَنْبَأَهُ  
فَمَذَرَهُمْ قِيَاماً حَوْلَ مَأْمِنِهِ  
نَادَى عَلَيْهِمْ فَأَوْصَاهُ وَقَالَ لَهُ  
وَمَرَّ بِالْقَوْمِ يَتَلَوُّ وَهُوَ مُنْصَرِفٌ

لِدَعْوَةِ الدِّينِ لَمْ يَفْتَرِ وَأَلَمْ يَجِمِ  
وَيَنْشُرُ الدِّينَ فِي سَهْلٍ وَفِي عَلَمِ  
بِحَبْلِهِ عَنِ تَرَاضٍ خَيْرَ مُعْتَصِمِ  
وَأَصْبَحَ الدِّينُ فِي جَمْعٍ بِهِمْ تَمَمِ  
يَبْأَسِيهِمْ كُلَّ جَبَّارٍ وَمُصْطَلِمِ  
وَكَرِمَ بِهِمْ خَمَدَتْ أَنْفَاسُ مُخْتَصِمِ  
ثَارُوا إِلَى الشَّرِّ فِعْلَ الْجَاهِلِ الْعَرِمِ  
حُقُوقَهُمْ بِالْتِمَادِي شَرٌّ مُهْتَضَمِ  
وَشَارِدٍ سَارٍ مِنْ فَجٍّ إِلَى أَكْمِ  
سَبَرُوا إِلَى طَيِّبَةِ الْمَرْعِيَّةِ الْحُرْمِ  
إِذْنًا مِنَ اللَّهِ فِي سَيْرٍ وَمُعْتَزَمِ  
تَقَبَّلَ نَصِيحاً وَأَلَمْ تَرْجِعْ إِلَى فَهْمِ  
تَبْعِي بِهِ الشَّرَّ مِنْ حَقْدٍ وَمِنْ أَضْمِ  
مَخْذُولَةً لَمْ تُسْمِ فِي مَرْتَعٍ وَخِمِ  
مَا أَضْمَرْتَهُ مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالشَّجَمِ  
بَاعُوا التُّهَى بِالْعَمَى وَالسَّمْعَ بِالصَّمَمِ  
وَيَعْكُفُونَ عَلَى الطَّاغُوتِ وَالصَّنَمِ  
جَنَّ الظَّلَامُ وَخَفَّتْ وَطْأَةُ الْقَدَمِ  
مِنْ الْقَبَائِلِ بَاعُوا النَّفْسَ بِالزَّعَمِ  
بِمَا أَسْرُوهُ بَعْدَ الْعَهْدِ وَالْقَسَمِ  
يَعْبُونَ سَاحَتَهُ بِالشَّرِّ وَالْفَقَمِ  
لَا تَخَشَّ وَالْوَيْسَ رِدَائِي آمِناً وَنَمِ  
يَسَّ وَهِيَ شِفَاءُ النَّفْسِ مِنْ وَصَمِ

وَهَل تَرَى الشَّمْسَ جَهْرًا أَعْيُنُ الحَنَمِ  
فَيَمَّمُ الغَارَ بِالصِّدْقِ فِي العَسَمِ  
مِنَ الحَمَائِمِ زَوْجُ بَارِعِ الرَّرَمِ  
يَأْوِي إِلَيْهِ غَدَاةَ الرِّيحِ وَالرَّهَمِ  
إِلَّا لِسِرِّ بَصَدْرِ الغَارِ مُكْتَتَمِ  
يُرَعَى المَسَالِكِ مِنْ بُعْدٍ وَلَمْ يَنْمِ  
بِاسْمِ المَهْدِيلِ أَحَابِتِ تِلْكَ بِالتَّعْمِ  
فِي وَكْرِهَاتِ كُرَّةِ مَلْسَاءَ مِنْ أَدَمِ  
رَوَتْ غَلِيلَ الصِّدْيِ مِنْ حَائِرِ شَبَمِ  
مَخْضُوبَةُ السَّاقِ وَالْكَفَّيْنِ بِالعَنَمِ  
مِنَ أَدْمُعِي فَعَدَّتْ مُحَمَّرَةَ القَدَمِ  
بِخَيْمَةِ حَاكِهَاتِ مِنْ أَبْدَعِ الخَيْمِ  
بِالأَرْضِ لَكِنَّهَا قَامَتْ بِبِلَا دَعَمِ  
بِأَرْضِ سَابُورَ فِي مَجْوَحَةِ العَجَمِ  
فَصَارَ يَحْكِي خَفَاءَ وَجْهَ مُلْتَمِمْ  
يَجْلُو البَصَائِرَ مِنْ ظَلَمٍ وَمِنْ ظَلَمِ  
كَالدُّرِّ فِي البَحْرِ أَوْ كَالشَّمْسِ فِي العُسَمِ  
أَكْبَادُ قَوْمِ بِنَارِ اليَاسِ وَالوَعَمِ  
مَنْ عِنْدَهُ السَّرُّ مِنْ خِلٍّ وَمِنْ حَشَمِ  
يَوْمُ طَيْبَةَ مَأْوَى كُلِّ مُعْتَصِمِ  
بِأُمَّ مَعْبَدَاتِ الشَّيْءِ وَالْعَنَمِ  
قَدِ اقْشَعَرَّتْ مَرَاعِيهَا فَلَمْ تُسَمِ  
حَتَّى اسْتَهَلَّتْ بِذِي شَخْبِينِ كَالدَّيَمِ

فَلَمْ يَرَوْهُ وَزَاغَتْ عَنْهُ أَعْيُنُهُمْ  
وَجَاءَهُ الوَاحِيُ إِيْدَانًا بِهَجْرَتِهِ  
فَمَا اسْتَفَرَّ بِهِ حَتَّى تَبَوَّأَهُ  
بَنِي بِهِ عَشَّتهُ وَاحْتَلَّهُ سَكْنًا  
إِلْفَانِ مَا جَمَعَ المِقْدَارُ بَيْنَهُمَا  
كَإِلَهُمَا دَيْدَبَانُ فَوَقَّ مَرْبَأَةً  
إِنْ حَنَّ هَذَا غَرَامًا أَوْ دَعَا طَرْبًا  
يَخَالُهَا مَنْ يَرَاهَا وَهِيَ جَائِمَةٌ  
إِنْ رَفَرَفَتْ سَكَنْتَ ظِلًّا وَإِنْ هَبَّطَتْ  
مَرْقُومَةٌ الجَيْدِ مِنْ مِسْكِ وَغَالِيَةٍ  
كَأَنَّمَا شَرَعَتْ فِي قَانِيَةٍ سَرْبِ  
وَسَجَفَ العَنْكَبُوتُ الغَارَ مُحْتَفِيًا  
قَدِ شَدَّ أَطْنَابَهَا فَاسْتَحْكَمَتْ وَرَسَتْ  
كَأَنَّهَا سَابِرِيٌّ حَاكَهُ لِبِقُ  
وَارَتْ فَمَ الغَارِ عَنِ عَيْنِ ثُلُمٍ بِهِ  
فِيأَلُهُ مِنْ سِتَارِ دُونَهُ قَمَرُ  
فَظَلَّ فِيهِ رَسُولُ اللّهِ مُعْتَكِفًا  
حَتَّى إِذَا سَكَنَ الإِرْجَافَ وَاحْتَرَقَتْ  
أَوْحَى الرَّسُولُ بِإِعْدَادِ الرِّحِيلِ إِلَى  
وَسَارَ بَعْدَ ثَلَاثِ مِنْ مَبَاءَتِهِ  
فَجَبِينِ وَافِي قُدَيْدًا حَلَّ مَوْكِبُهُ  
فَلَمْ تَجِدْ لِقِرَاهُ غَيْرَ ضَائِنَةٍ  
فَمَا أَمَرَ عَلَيْهَا دَاعِيًا يَدُهُ

ثُمَّ اسْتَقَلَّ وَأَبْقَى فِي الزَّمَانِ لَهَا  
 فَبَيْنَمَا هُوَ يَطْوِي الْبَيْدَ أَدْرَكَهُ  
 حَتَّى إِذَا مَا دَنَا سَاخَ الْجَوَادُ بِهِ  
 فَصَاحَ مُبْتَهَلًا يَرْجُو الْأَمَانَ وَلَوْ  
 وَكَيْفَ يَبْلُغُ أَمْرًا دُونََهُ وَزُرُّ  
 فَكَفَّ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ بِهِ  
 وَلَمْ يَزَلْ سَائِرًا حَتَّى أَنْفَ عَلَى  
 أَعْظَمَ بِمَقْدَمِهِ فَخَرًّا وَمَنْقَبَةً  
 فَخَرُّ يَدُومُ لَهُمْ فَضْلٌ بِذِكْرَتِهِ  
 يَوْمٌ بِهِ أَرَخَ الْإِسْلَامُ عُرَّتَهُ  
 ثُمَّ ابْتَنَى سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ مَسْجِدَهُ  
 وَاحْتَصَّ فِيهِ بِإِلَاحٍ بِالْأَذَانِ وَمَا  
 حَتَّى إِذَا تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ وَاجْتَمَعَت  
 قَامَ النَّبِيُّ حَاطِبًا فِيهِمْ فَأَرَى  
 وَعَمَّهُمْ بِكِتَابٍ حَاضٍ فِيهِ عَلَى  
 فَأَصَابَحُوا فِي إِحْيَاءِ غَيْرِ مَنْصَدِ  
 وَحِينَ أَحَى رَسُولُ اللَّهِ نَيْتَهُمْ  
 هُوَ الَّذِي هَزَمَ اللَّهُ الطُّغَاةَ بِهِ  
 فَاسْتَحْكَمَ الْبُيُوتَ وَأَشْتَدَّتْ دَعَائِمُهُ  
 وَأَصْبَحَ النَّاسُ إِخْوَانًا وَعَمَّهُمْ

سكت البابا قليلا، ثم قال: ثم عد الشاعر مفصلا مغازي رسول الله ﷺ .. ثم قال بعدها:

(١) ستحدث بتفصيل عن مغازي رسول الله ﷺ وعلاقتها بالسلام والشبهات المثارة حولها في رسالة (الني المعصوم) من هذه السلسلة.

فَهَذِهِ الْعَزَوَاتُ الْعُرُ شَامِلَةٌ  
نَظَّمْتُهَا رَاجِحًا نَيْلَ الشَّفَاعَةِ مِنْ  
هُوَ النَّبِيُّ الَّذِي لَوْلَاهُ مَا قُبِلَتْ  
حَسْبِي بِطَلَعَتِهِ الْعَرَاءِ مَفْخَرَةٌ  
وَقَدْ حَبَانِي عَصَاهُ فَاِعْتَصَمْتُ بِهَا  
فَهِيَ الَّتِي كَانَ يَحْبُو مِثْلَهَا كَرَمًا  
لَمْ أَحْشَ مِنْ بَعْدِهَا مَا كُنْتُ أُحْذِرُهُ  
كَفَى بِهَا نِعْمَةً تَعْلَمُو بِقِيَمَتِهَا  
وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي وَهِيَ أَمِيرَةٌ  
فَيَا نَدَامَةَ نَفْسِي فِي الْمَعَادِ إِذَا  
لَكِنِّي وَاتَّقِ بِالْعَفْوِ مِنْ مَلِكٍ  
وَسَوْفَ أَبْلُغُ أَمْوَالِي وَإِنْ عَظُمَتْ  
هُوَ الَّذِي يَنْعَشُ الْمَكْرُوبَ إِذْ عَلَقَتْ  
هَيْهَاتَ يَخْذُلُ مَوْلَاهُ وَشَاعِرُهُ  
فَمَدَحُهُ رَأْسُ مَالِي يَوْمَ مُفْتَقِرِي  
وَهَبْتُ نَفْسِي لَهُ حُبًّا وَتَكَرَّمَةً  
إِنِّي وَإِنْ مَالٌ بِي دَهْرِي وَبَرَّحَ بِي  
لثَابِتُ الْعَهْدِ لَمْ يَحُلْ قُوَى أَمَلِي  
لَمْ يَتْرِكِ الدَّهْرُ لِي مَا أَسْتَعِينُ بِهِ  
هَذَا يُحِبُّرُ مَدْحِي فِي الرَّسُولِ وَذَا  
يَا سَيِّدَ الْكَوْنِ عَفْوًا إِنْ أَثِمْتُ فَلِي  
كَفَى بِسَلْمَانَ لِي فَخَرًا إِذَا انْتَسَبَتْ  
وَحَسَنُ ظَنِّي بِكُمْ إِنْ مُتُّ يَكْلَأُونِي

جَمَعَ الْبُعُوثَ كَدْرًا لَاحَ فِي نَظْمِ  
خَيْرِ الْبَرِيَا وَمَوْلَى الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ  
رَجَاءُ آدَمَ لَمَّا زَلَّ فِي الْقِدَمِ  
لَمَّا اتَّقَيْتُ بِهِ فِي عَالَمِ الْحُلْمِ  
فِي كُلِّ هَوْلٍ فَلَمْ أَفْزَعْ وَلَمْ أَهْمِ  
لِمَنْ يَوُدُّ وَحَسْبِي نَسَبَةٌ بِهِمْ  
وَكَيْفَ وَهِيَ الَّتِي تُنْجِي مِنَ الْعَمَمِ  
نَفْسِي وَإِنْ كُنْتُ مَسْلُوبًا مِنَ الْقِيَمِ  
بِالسُّوءِ مَا لَمْ تَعْقُهَا خِيفَةُ التَّدَمِ  
تَعَوَّذَ الْمَرْءُ خَوْفَ النُّطْقِ بِالْبِكْمِ  
يَعْفُو بِرَحْمَتِهِ عَنْ كُلِّ مُجْتَرِمِ  
جَرَائِمِي يَوْمَ أَلْقَى صَاحِبَ الْعَلَمِ  
بِهِ الرِّزَايَا وَيُغْنِي كُلَّ ذِي عَدَمِ  
فِي الْحَشْرِ وَهُوَ كَرِيمُ النَّفْسِ وَالشُّمِ  
وَحُبُّهُ عِزُّ نَفْسِي عِنْدَ مُهْتَضَمِي  
فَهَلْ تَرَانِي بَلَغَتْ السُّؤْلَ مِنْ سَلْمِي  
ضَمِيمٌ أَشَاطَ عَلَى جَمْرِ النَّوَى أَدْمِي  
يَأْسٌ وَلَمْ تَخْطُ بِي فِي سَلْوَةٍ قَدَمِي  
عَلَى التَّجْمُلِ إِلَّا سَاعِدِي وَقَمِي  
يَتَلَوُ عَلَى النَّاسِ مَا أَوْحِيَهُ مِنْ كَلِمِي  
بِحُبِّكُمْ صِلَةٌ تُغْنِي عَنِ الرَّحْمِ  
نَفْسِي لَكُمْ مِثْلَهُ فِي زُمَرَةِ الْحَشْمِ  
مِنْ هَوْلٍ مَا أَتَّقِي فِي ظُلْمَةِ الرَّجْمِ

تَاللَّهِ مَا عَاقَبَنِي عَن حَايِكُمْ شَجَنٌ  
فَهَلْ إِلَى زُورَةٍ يَحْيَا الْفُؤَادُ بِهَا  
شَكُوتٌ بَنِي إِلَى رَبِّي لِيُنصِرَنِي  
وَكَيْفَ أَرَهَبُ حَيْفًا وَهُوَ مُنْتَقِمٌ  
لَا غَرَوَانَ نِلْتُ مَا أَمَلْتُ مِنْهُ فَقَدْ  
يَا مَالِكَ الْمَلِكِ هَبْ لِي مِنْكَ مَغْفِرَةً  
وَأَمُنْ عَلَيَّ بِلُطْفٍ مِنْكَ يَعْصُمُنِي  
لَمْ أَدْعُ غَيْرَكَ فِيمَا نَابَنِي فَقِنِي  
حَاشَا لِرَاجِيكَ أَنْ يَخْشَى الْعِثَارَ وَمَا  
وَكَيْفَ أَحْشَى ضَالًّا بَعْدَمَا سَلَكَتُ  
وَلِي بِحُبِّ رَسُولِ اللَّهِ مَتْرَلَةٌ  
لَا أَدْعِي عِصْمَةً لَكِن يَدِي عَلَقْتَ  
خَدْمَتُهُ بِمَدِيحِي فَاعْتَلَوْتُ عَلَى  
وَكَيْفَ أَرَهَبُ ضَمِيمًا بَعْدَ خِدْمَتِهِ  
أَمْ كَيْفَ يَحْدُلُنِي مِنْ بَعْدِ تَسْمِيَّتِي  
أَبْكَانِي الدَّهْرُ حَتَّى إِذْ لَجِئْتُ بِهِ  
فَهُوَ الَّذِي يَمْنَحُ الْعَافِينَ مَا سَأَلُوا  
نُورٌ لِمُقْتَسِبِ دُخْرٍ لِمُلْتَمِسِ  
بَثُّ الرَّدَى وَالنَّدَى شَطْرَيْنِ فَاذْبَعْنَا  
فَالْكَفْرُ مِنْ بَاسِهِ الْمَشْهُورِ فِي حَرْبِ  
هَذَا ثَنَائِي وَإِنْ قَصَّرتُ فِيهِ فَلِي  
هَيْهَاتَ أَبْلُغُ بِالْأَشْعَارِ مَدَحَتَهُ  
مَاذَا عَسَى أَنْ يَقُولَ الْمَادِحُونَ وَقَدْ

لَكِنِّي مُوثِقٌ فِي رِبْقَةِ السَّلَامِ  
ذَرِيْعَةٌ أَبْتغِيهَا قَبْلَ مُحْتَرَمِي  
مِنْ كُلِّ بَاغٍ عَتِيْدِ الْجَوْرِ أَوْهَكَمِ  
يَهَابُهُ كُلُّ جَبَّارٍ وَمُنْتَقِمِ  
أَنْزَلْتُ مُعْظَمَ آمَالِي بِذِي كَرَمِ  
تَمْحُو ذُنُوبِي غَدَاةَ الْخَوْفِ وَالْتَدَمِ  
زَيْغِ الثُّهَى يَوْمَ أَحْذِي الْمَوْتَ بِالْكَظْمِ  
شَرَّ الْعَوَاقِبِ وَأَحْفَظُنِي مِنَ التُّهْمِ  
بَعْدَ الرَّجَاءِ سِوَى التَّوْفِيقِ لِلسَّلَامِ  
نَفْسِي بِنُورِ الْهُدَى فِي مَسَلِّكَ قِيَمِ  
أَرْجُو بِهَا الصَّفْحَ يَوْمَ الدِّينِ عَن جُرْمِي  
بِسَيِّدٍ مَنْ يَرِدُ مَرَعَاتَهُ يَسْمُ  
هَامِ السَّمَاكِ وَصَارَ السَّعْدُ مِنْ خَدْمِي  
وَخَادِمِ السَّادَةِ الْأَجْوَادِ لَمْ يُضْمِ  
بِاسْمِ لَهُ فِي سَمَاءِ الْعَرْشِ مُحْتَرَمِ  
حَنَا عَلَيَّ وَأَبْدَى ثَغْرَ مُبْتَسِمِ  
فَضَالًّا وَيَشْفَعُ يَوْمَ الدِّينِ فِي الْأُمَمِ  
حِرْزٌ لِمُبْتَسِمِ كَهْفٌ لِمُعْتَصِمِ  
فِي مَن غَوَى وَهَدَى بِالْبُؤْسِ وَالنُّعْمِ  
وَالدِّينِ مِنْ عَدْلِهِ الْمَأْتُورِ فِي حَرَمِ  
عُذْرٌ وَأَيْنَ السُّهَامِ مِنْ كَفِّ مُسْتَلِمِ  
وَإِنْ سَلَكَتُ سَبِيلَ الْقَالَةِ الْقُدَمِ  
أَتُنِي عَلَيْهِ بِفَضْلِ مُتْرَلِ الْكَلِمِ

فَهَاكُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ زَاهِرَةً  
وَسَمْتُهَا بِاسْمِكَ الْعَالِي فَأَلْبَسْنَهَا  
غَرِيبَةً فِي إِسَارِ الْبَيْنِ لَوْ أَنْسَتَ  
لَمْ أَلْتَزِمِ نَظْمَ حَبَّاتِ الْبَدِيعِ بِهَا  
وَأِنَّمَا هِيَ آيَاتُ رَجَوْتُ بِهَا  
تَنَثَرْتُ فِيهَا فَرِيدَ الْمَدْحِ فَاتَنَظَّمَتِ  
صَدْرُتُهَا بِنَسِيبِ شَفِّ بَاطِنُهُ  
لَمْ أَتَّخِذْهُ جُرَافاً بَلْ سَلَكَتُ بِهِ  
تَابَعْتُ كَعْباً وَحَسَّاناً وَلِي بِهِمَا  
وَالشَّعْرُ مَعْرُضُ أَلْبَابٍ يُرُوجُ بِهِ  
فَلَا يَلْمِنِي عَلَى التَّشْبِيهِ دُو عَنَتِ  
وَلَيْسَ لِي رَوْضَةٌ أَلْهُو بِزَهْرَتِهَا  
فَهِيَ الَّتِي تَيَمَّتْ قَلْبِي وَهَمَّتْ بِهَا  
مَعَاهِدٌ نَقَشَتْ فِي وَجْهَتِي لَهَا  
يَا حَادِي الْعَيْسِ إِنْ بَلَّغْتَنِي أَمَلِي  
سِرِّ بِالْمَطَايَا وَلَا تَرَفَّقْ فَلَيْسَ فَنِي  
وَلَا تَخَفْ ضَلَّةً وَأَنْظُرْ فَسَوْفَ تَرَى  
وَكَيْفَ يَخْشَى ضَلَالاً مَنْ يَأْتِي جَمِي  
هَذَا مِنْ أَيْ وَحَسْبِي أَنْ أَفُوزَ بِهَا  
وَمَنْ يَكُنْ رَاجِياً مَوْلَاهُ نَالَ بِهِ  
فَاسْجُدْ لَهُ وَاقْتَرِبْ تَبْلُغْ بِطَاعَتِهِ  
هُوَ الْمَلِيكُ الَّذِي ذَلَّتْ لِعِزَّتِهِ  
يُحْيِي الْبَرَايَا إِذَا حَانَ الْمَعَادُ كَمَا

تُهْدِي إِلَى النَّفْسِ رِيَا الْأَسْرِ وَالْبِرَمِ  
ثُوباً مِنَ الْفَخْرِ لَا يَبْلَى عَلَى الْقَدَمِ  
بِنَظْرَةٍ مِنْكَ لَا اسْتَعْنَتْ عَنِ النَّسَمِ  
إِذْ كَانَ صَوغُ الْمَعَانِي الْعُرِّ مُلْتَزِمِي  
نَيْلَ الْمُنَى يَوْمَ تَحْيَا بَدَّةَ الرَّمَمِ  
أَحْسِنِ بِمُنْتَشِرٍ مِنْهَا وَمُنْتَظَمِ  
عَنْ عِفَّةٍ لَمْ يَشِينَهَا قَوْلُ مُتَّبِعِ  
فِي الْقَوْلِ مَسَلِّكَ أَقْوَامِ ذَوِي قَدَمِ  
فِي الْقَوْلِ أُسْوَةٌ بِرَّ غَيْرِ مُتَّبِعِ  
مَا نَمَّقْتَهُ يَدُ الْأَدَابِ وَالْحِكْمِ  
فَقَبْلُ الرُّوضِ مَطْبُوعٌ عَلَى النَّعْمِ  
فِي مَعْرَضِ الْقَوْلِ إِلَّا رَوْضَةُ الْحَرَمِ  
وَجَدّاً وَإِنْ كُنْتُ عَفَّ النَّفْسِ لَمْ أَهْمِ  
أَيْدِي الْمَهْوَى أَسْطُراً مِنْ عِبْرَتِي بِدَمِ  
مِنْ قَصْدِهِ فَاقْتَرِحْ مَا شِئْتَ وَاحْتَكِمِ  
أُولَى بِهَذَا السُّرَى مِنْ سَائِقِي حُطَمِ  
ثُوراً يُرِيكَ مَدَبَّ الذَّرِّ فِي الْأَكَمِ  
مُحَمَّدٍ وَهُوَ مِشْكَاةٌ عَلَى عَلَمِ  
بِنِعْمَةِ اللَّهِ قَبْلَ الشَّيْبِ وَالْمَهْرَمِ  
مَا لَمْ يَنْلَهُ بِفَضْلِ الْجِدِّ وَالْهَمَمِ  
مَا شِئْتَ فِي الدَّهْرِ مِنْ جَاهٍ وَمِنْ عِظَمِ  
أَهْلِ الْمَصَانِعِ مِنْ عَادٍ وَمِنْ إِرَمِ  
يُحْيِي النَّبَاتَ بِشَوْبٍ مِنَ الدِّيمِ

يا غافِرَ الذَّنْبِ وَالْأَلْبَابِ حَائِرَةٌ  
 حاشا لِفَضْلِكَ وَهُوَ الْمُسْتَعَاذُ بِهِ  
 إِنِّي لِمُسْتَشْفِعٍ بِالْمُصْطَفَى وَكَفَى  
 فَأَقْبَلْ رَجَائِي فَمَالِي مَنِ الْوَدُوبِ بِهِ  
 فِي الْحَشْرِ وَالنَّارِ تُرْمِي الْجَوَّ بِالضَّرَمِ  
 أَنْ لَا تُمَنَّ عَلَيَّ ذِي خَلْقَةٍ عَدِيمِ  
 بِهِ شَفِيعاً لَدَى الْأَهْوَالِ وَالْقُحَمِ  
 سِوَاكَ فِي كُلِّ مَا أَحْشَاهُ مِنْ فَقَمِ  
 شَمْسُ النَّهَارِ وَلَا حَتَّ أَنْجُمِ الظُّلَمِ  
 هُدَاهُ وَأَعْتَرَفُوا بِالْعَهْدِ وَالذَّمِّ  
 وَآمَنُوا عَلَى عَبْدِكَ الْعَانِي بِمَغْفِرَةٍ  
 تَمْحُو خَطَايَاهُ فِي بَدْءٍ وَمُخْتَلَمِ

قلت: بورك في هذا الشاعر الفاضل.. لقد تألم المسكين كثيرا في حياته.

قال: من قال مثل هذه الأبيات لا يتألم.. فالحب إكسير أحمر يحول الألم لذة.. والتعب راحة.. والحزن

سرورا.

قلت: صدقت.. ومذ هجر الناس هذا الحب الشريف وقعوا ضحية للمخدرات والخمور والليالي الماحنة..

قال: وفوق ذلك صرتم تسمعون بالانتحار الذي لم يسمع به أسلافكم.

قلت: فهل ترى نشر مثل هذا الحب الشريف يقي الأمة مثل هذه الأوباء؟

قال: لا يقبها فقط.. بل يرفعها لتعتلي عرش الحضارة الذي نزلت منه بعد هجرها لحبيبتها.

### أحمد شوقي:

قلت: لاشك أن من أكبر المعارضين للردة أحمد شوقي.

قال: أجل.. فله في ذلك قصيدته العصماء ( نهج البردة ) والتي صاغها على نسق البردة للإمام البوصيري.

قلت: لقد كان شوقي ذا ذوق رفيع وأدب عال جعله يعترف بأفضلية الإمام البوصيري، وسبقه عليه،

فقال:

يا أحمد الخير، لى جاه بتسميتى  
 المادحون أو رباب الهوى تبوع  
 وكيف لا يتسامى بالنبي سمى؟  
 لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم  
 ومدحجه فيك حب خالص وهى  
 ومن ذا يعارض صوب المعارض العمم  
 ويغبط وليك لا يذمولا يلمم  
 والله يشهد أنى لا أعارضه  
 وإنما أنا بعض الغابطينوم

قال: أجل.. ومما ورد فيها من مدح النبي ﷺ:



لرمتُ بابَ أميرِ الأنبياءِ، ومَنْ  
فكلُّ فضلٍ، وإحسانٍ، وعارفةٍ  
علقتُ من مدحه حبلًا أعزُّ به  
يُزري قريضي زهيرًا حين أمدحُه  
محمدٌ صفةُ الباري، ورحمته  
وصاحبُ الحوضِ يومَ الرُّسُلِ سائلةٌ  
سناؤه وسناه الشمسُ طالعةٌ  
قد أخطأ النجمَ ما نالت أبوته  
نُموا إليه، فزادوا في الورى شرفًا  
حواه في سُبحاتِ الطَّهرِ قبلهم  
لما رآه بحيرا قال: نعرفُه  
سائلُ جِراءَ، وروحَ القدس: هل علما  
كم جيئةٍ وذهابٍ شُرِّفتَ بهما  
ووحشةٍ لابنِ عبدِ الله بينهما  
يسامرُ الوحيَ فيها قبل مهبطه  
لما دعا الصَّحْبُ يستسقونَ من ظمإٍ  
وظلَّته، فصارت تستظلُّ به  
محبَّةٌ لرسولِ اللهِ أشدَّ ربهَا  
إنَّ الشَّمائلَ إن رقتْ يكاد بها  
ونودي: اقرأ. تعالى اللهُ قائلها  
هناك أذن للرحمن، فامتلات  
فلا تسلُ عن قريش كيف حيرتُها؟  
تساءلوا عن عظيمٍ قد ألمَّ بهم

يُمسِكُ بِمِفْتَاحِ بَابِ اللهِ يَغْتَنِمِ  
مَا بَيْنَ مَسْتَلِمٍ مِنْهُ وَمُتَلَمِّمِ  
فِي يَوْمٍ لَا عِزَّ بِالْأَنْسَابِ وَاللَّحْمِ  
وَلَا يِقَاسُ إِلَى جُودِي لَدَى هَرَمِ  
وَبِغِيَّةِ اللهِ مَنْ خَلَقِي وَمَنْ نَسَمِ  
مَتَى الْوَرُودُ؟ وَجَبْرِيلُ الْأَمِينِ ظَمِي  
فَالْجِرْمُ فِي فَلَاحِي، وَالضُّوْءُ فِي عَلَمِ  
مَنْ سَوَّدِدِ بِإِذْخِ فِي مَظْهَرِ سَنَمِ  
وَرُبَّ أَصْلِ لِفَرْعٍ فِي الْفَخَارِ نُمِي  
نُورَانِ قَامَا مَقَامَ الصُّلْبِ وَالرَّحِمِ  
بِمَا حَفَظْنَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالسَّيْمِ  
مَصُونٍ سِرًّا عَنِ الْإِدْرَاكِ مُنْكَتِمِ؟  
بَطْحَاءُ مَكَّةَ فِي الْإِصْبَاحِ وَالْعَسَمِ  
أَشْهَى مِنَ الْأَنْسِ بِالْأَحْبَابِ وَالْحَشَمِ  
وَمَنْ يَبْشُرُ بِسَيْمِي الْخَيْرِ يَتَّسِمِ  
فَاضَتْ يَدَاهُ مِنَ التَّسْنِيمِ بِالسَّيْمِ  
غَمَامَةٌ جَذَبَتْهَا جِرَّةُ الْبَدِيمِ  
قَعَائِدُ الْبَدْيِ، وَالرُّهْبَانُ فِي الْقِمَمِ  
يُعْرَى الْجَمَادُ، وَيُعْرَى كُلُّ ذِي نَسَمِ  
لَمْ تَتَّصِلْ قَبْلَ مَنْ قِيلَتْ لَهُ بِفَمِ  
أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قُدْسِيَّةِ التَّنْغَمِ  
وَكَيفَ نُفَرَّتْهَا فِي السَّهْلِ وَالْعَلَمِ؟  
رَمَى الْمَشَايخَ وَالْوَلَدَانَ بِاللَّمَمِ

يا جاهلين على الهادي ودعوتيه  
لَقَبْتُمُوهُ أَمِينَ الْقَوْمِ فِي صِرْغِهِ  
فَاقَ الْبَدْرَ، وَفَاقَ الْأَنْبِيَاءَ، فَكَمْ  
جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ، فَاَنْصَرَمَتْ  
آيَاتُهُ كَلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُدُ  
يَكَادُ فِي لَفْظَةٍ مِنْهُ مَشْرَفَةٌ  
يَا أَفْصَحَ النَّاطِقِينَ الضَّادَ قَاطِبَةً  
حَلَيْتَ مِنْ عَطَلٍ جِيدَ الْبَيَانِ بِهِ  
بِكُلِّ قَوْلٍ كَرِيمٍ أَنْتَ قَائِلُهُ  
سَرَتْ بِشَائِرُ بِالْهَادِي وَمَوْلَاهُ  
تَخَطَّفَتْ مُهَجَ الطَّاعِينَ مِنْ عَرَبٍ  
رِيَعَتْ لَهَا شُرْفُ الْإِيوَانِ، فَاَنْصَدَعَتْ  
أَتَيْتَ وَالنَّاسُ فَوْضَى لَا تَمُرُّ بِهِمْ  
وَالْأَرْضُ مَمْلُوءَةٌ جَوْرًا، مُسَخَّرَةٌ  
مُسَيِّطِرُ الْفَرَسِ يَبْغَى فِي رَعِيَّتِهِ  
يُعَذِّبَانِ عِبَادَ اللَّهِ فِي شُكْبِهِ  
وَالْخَلْقُ يُفْتِكُ أَقْوَاهُمْ بِأَضْعَفِهِمْ  
أَسْرَى بِكَ اللَّهُ لَيْلًا، إِذْ مَلَأْتُكَهُ  
لَمَّا خَطَرَتْ بِهِ التَّفْؤَا بِسَيْدِهِمْ  
صَلَى وَرَاءَكَ مِنْهُمْ كُلُّ ذِي خَطَرٍ  
جُبَّتِ السَّمَوَاتُ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِمْ  
رَكُوبَةٌ لَكَ مِنْ عَزٍّ وَمِنْ شَرَفٍ  
مَشِيئَةُ الْخَالِقِ الْبَارِي، وَصَنَعْتُهُ

هل تجهلون مكان الصادق العليم؟  
وما الأمين على قولهم  
بالخلق والخلق من حسن ومن عظم  
وجئتنا بحكيم غير منصرم  
يزينهن جلال العتق والقدم  
يوصيك بالحق، والتقوى، وبالرحم  
حديثك الشهد عند الذائق الفهم  
في كل منتهى في حسن منتهى  
تحيي القلوب، وتحيي ميت الهيم  
في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم  
وطيئت أنفس الباغين من عجم  
من صدمة الحق، لا من صدمة القدم  
إلا على صنم، قد هام في صنم  
لكل طاغية في الخلق محتكم  
وقيصر الروم من كبر أصم عم  
ويذبحان كما ضحيت بالغنم  
كالليث بالبهم، أو كالحوت بالبلم  
والرسل في المسجد الأقصى على قدم  
كالشهب بالبدر، أو كالجنود بالعلم  
ومن يفز بجيب الله ياتم  
على منورة درية اللجم  
لا في الجياد، ولا في الأئنيق الرستم  
وقدرة الله فوق الشك والستهم

حتى بلغت سماءً لا يطأها  
وقيل: كلُّ نبيٍّ عند رتبته  
خططت للدين والدنيا علومهما  
أخطت بينهما بالسرِّ، وانكشفت  
وضاعف القرب ماقلدت من مَن  
سلَّ عصبة الشُّرك حول الغارِ سائمةً  
هل أبصروا الأثر الوضَّاء، أم سمعوا  
وهل تمثِّل نسجُ العنكبوتِ لهم  
فأدبروا، ووجوهُ الأرضِ تلعنهم  
لولا يدُ اللهِ بالجارِّينِ ما سلِّما  
تواريا بجناحِ الله، واسسترا

على جناحٍ، ولا يُسعى على قدمٍ  
ويا محمدُ، هذا العرشُ فاستلم  
يا قارئَ اللوح، بل يا لامِسَ القلمِ  
لك الخزائنُ من علمٍ، ومن حكيمٍ  
بلا عدادٍ، وما طوّقت من نعمٍ  
لولا مطاردةُ المختارِ لم تُسمِ  
همسَ التسايحِ والقرآنِ من أممٍ؟  
كالغابِ، والحائِماتِ الرُّغبُ كالرحمِ؟  
كباطلٍ من جلالِ الحقِ منهزمٍ  
وعينه حولَ ركنِ الدينِ؛ لم يقمِ  
ومن يضُّمُّ جناحُ الله لا يضَمُّ

ومما ورد فيها من وصف النبي ﷺ ورد الشبهات المثارة حول رسالته:

البدْرُ دونك في حُسنٍ وفي شرفٍ  
شُمُّ الجبالِ إذا طاولتها انخفضت  
والليثُ دونك بأسًا عند وثيته  
تقفو إليك - وإن أدميت حبتها  
محبَّةُ الله ألقاهَا، وهيبته  
كأن وجهك تحت النَّقعِ بدرٌ دجى  
بدرٌ تطلَّعَ في بدرٍ، فغرَّته  
ذُكُرتُ باليُثمِ في القرآنِ تكرمَةً  
اللهُ قسَّمَ بيمينِ الناسِ رزقهُمُ  
إن قلتَ في الأمرِ: "لا"، أو قلتَ فيه: "نعم"  
أخوك عيسى دَعَا ميَّنا، فقام له

والبحرُ دونك في خيرٍ وفي كرمٍ  
والأنجُمُ الزُّهرُ ما واسمتها تسيم  
إذا مشيت إلى شاكي السلاحِ كمي  
في الحربِ - أفدَّةُ الأبطالِ والبُهَمِ  
على ابنِ آمنَةٍ في كلِّ مُصطدِمِ  
يضِيءُ مُلْتَمَّما، أو غيرَ مُلتئمِ  
كعُرةِ النصرِ، تجلو داجيَ الظلمِ  
وقيمةُ اللؤلؤِ المكنونِ في اليُثمِ  
وأنت خيَّرتَ في الأرزاقِ والقِسَمِ  
فخيرةُ اللهِ في "لا" منك أو "نعم"  
وأنت أحييتَ أجيالاً من الرَّممِ

والجهل موت، فإن أوتيت مُعْجِزَةً  
قالوا: غَزَوْتَ، وَرَسَلُ اللهُ مَا بُعِثُوا  
جهل، وتضليل أحلام، وسفسطة  
لما أتى لك عفواً كل ذي حسب  
والشر إن تلقه بالخير ضيقت به  
سأل المسيحية الغراء: كم شربت  
طريدة الشرك، يؤذيها، ويوسعها  
لولا حياة لها هبوا لنصرتها  
لولا مكان لعيسى عند مرسله  
لسمّر البدن الطهر الشريف على  
حلّ المسيح، وذاق الصّلب شانته  
أخو النبي، وروح الله في نُزُل  
علمتّهم كل شيء يجهلون به  
دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم  
لولا لم نر للدولت في زمن  
تلك الشواهد تُتْرَى كل أونة  
بالأمس مالت عروش، واعتلت سُرُرُ  
أشياغ عيسى أَعْدُوا كل قاصمة  
مهما دُعيت إلى الهيجاء فُمِت لها  
على لوائك منهم كل مُنتقم  
مُسَبِّح للقاء الله، مُضْطَرِم  
لو صادف الدهر يبغي نقلة، فرمى  
بيض، مفايل من فعل الحروب بهم

فابعث منالجهل، أو فابعث من الرّحم  
لقتل نفس، ولا جأءوا لسفك دم  
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم  
تكفل السيف بالجهال والعَمَم  
ذرعاً، وإن تلقه بالشر ينحسهم  
بالصّاب من شهوات الظالم العليم  
في كل حين قتالاً ساطع الحدم  
بالسيف؛ ما انتفعت بالرفق والرّحم  
وحُرمة وجبت للروح في القدم  
لوحين، لم يخش مؤذيه، ولم يحس  
إن العقاب بقدر الذنب والجُرم  
فوق السماء ودون العرش مُحترم  
حتى القتال وما فيه من الذم  
والحرب أس نظام الكون والأمم  
ما طال من عمد، أو قرّ من دهم  
في الأعصر العُمر، لا في الأعصر الدُّهم  
لولا القذائف لم تنلّم، ولم تصم  
ولم تُعدّ سوى حالات مُنقصرم  
ترمي بأسد، ويرمي الله بالرّحم  
لله، مُسْتَقْتَل في الله، مُعتزم  
شوقاً، على سابح كالبرق مضطرم  
بعزمه في رحال الدهر لم يرم  
من أسيف الله، لا الهنديّة الخدم

كَم فِي التَّرَابِ إِذَا فَتَّشْتَ عَنْ رَجُلٍ  
 لَوْلَا مَوَاهِبُ فِي بَعْضِ الْأَنْبَاءِ لَمَّا  
 شَرِيعَةٌ لَكَ فَجَرَّتِ الْعُقُولَ بِهَا  
 يَلْبُوخُ حَوْلَ سَنَا التَّوْحِيدِ جَوْهَرُهَا  
 غُرَاءُ، حَامَتِ عَلَيْهَا أَنْفُسٌ، وَنَهَى  
 نَوْرُ السَّبِيلِ يَسَّاسَ الْعَالَمُونَ بِهَا  
 يَجْرِي الزَّمَانُ وَأَحْكَامُ الزَّمَانِ عَلَى  
 لَمَّا اعْتَلَّتْ دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ وَاتَّسَعَتْ  
 وَعَلِمَتْ أُمَّةٌ بِالْقَفْرِ نَازِلَةٌ  
 كَم شَيْدِ الْمَصْلُوحُونَ الْعَامِلُونَ بِهَا  
 لِلْعِلْمِ، وَالْعَدْلِ، وَالتَّمْدِينِ مَا عَزَمُوا  
 سَرَعَانَ مَا فَتَحُوا الدُّنْيَا لِمَلَّتِهِمْ  
 سَارُوا عَلَيْهَا هُدَاةَ النَّاسِ، فَهِيَ بِهِمْ  
 لَا يَهْدِيهِمُ الدَّهْرُ رُكْنَا شَادَ عَدْلُهُمْ  
 نَالُوا السَّعَادَةَ فِي الدَّارَيْنِ، وَاجْتَمَعُوا  
 دَعَّ عَنْكَ رُومًا، وَأَثِينًا، وَمَا حَوَّتَا  
 وَحَلَّ كَيْسَرِي، وَإِيوَانًا يَدِلُّ بِهِ  
 وَائِرُكُ رَعْمَسِيْسَ، إِنْ الْمَلِكُ مَظْهَرُهُ  
 دَارُ الشَّرَائِعِ رُومًا كَلَّمَا ذُكِرَتْ  
 مَا ضَارَعَتْهَا بِيَانًا عِنْدَ مُلْتَمَامٍ  
 وَلَا احْتِمَاتٍ فِي طِرَازٍ مِنْ قِيَاصِ رَهَا  
 مِنَ الَّذِينَ إِذَا سَارَتْ كَتَابَتْهُمْ  
 وَيَجْلِسُونَ إِلَى عِلْمِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِ

مِنْ مَاتَ بِالْعَهْدِ، أَوْ مِنْ مَاتَ بِالْقَسَمِ  
 تَفَاوَتِ النَّاسُ فِي الْأَقْدَارِ وَالْقِيَمِ  
 عَنْ زَاخِرٍ بِصَنُوفِ الْعِلْمِ مَلْتَطِمِ  
 كَالْحَلِيِّ لِلسَّيْفِ أَوْ كَالوَشْيِ لِلْعَلَمِ  
 وَمَنْ يَجِدُ سَلَسَلًا مِنْ حِكْمَةٍ يَحُمِ  
 تَكْفَلَتْ بِشَبَابِ الدَّهْرِ وَالْهَرَمِ  
 حُكْمَ لَهَا، نَافِذٍ فِي الْخَلْقِ، مُرْتَسِمِ  
 مَشَتْ مَمَالِكُهُ فِي نَوْرِهَا السَّيْمِ  
 رَغِي الْقِيَاصِ بَعْدَ الشَّيْءِ وَالنَّعَمِ  
 فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ مُلْكًا بِإِذْخِ الْعِظَمِ  
 مِنَ الْأُمُورِ، وَمَا شَدُّوا مِنَ الْحُزْمِ  
 وَأَهْلُوا النَّاسَ مِنْ سَلَسَالِهَا الشَّيْمِ  
 إِلَى الْفَلَاحِ طَرِيقٌ وَاضِحُ الْعِظَمِ  
 وَحَائِطِ الْبَغْيِ إِنْ تَلَمَّسَهُ يَنْهَدِمِ  
 عَلَى عَمِيمِ مِنَ الرِّضْوَانِ مَقْتَسِمِ  
 كَلُّ الْيَوَاقِيْتِ فِي بَغْدَادَ وَالشُّومِ  
 هَوَى عَلَى أَثَرِ السَّنِيرَانِ وَالْأَيْمِ  
 فِي نَهْضَةِ الْعَدْلِ، لَا فِي نَهْضَةِ الْهَرَمِ  
 دَارُ السَّلَامِ لَهَا أَلْقَتْ يَدَ السَّلَامِ  
 وَلَا حَكَّتْهَا قِضَاءً عِنْدَ مُخْتَصِمِ  
 عَلَى رَشِيدٍ، وَمَأْمُونٍ، وَمُعْتَصِمِ  
 تَصَرَّفُوا بِحُدُودِ الْأَرْضِ وَالسَّتْخِمِ  
 فَلَا يُدَانُونَ فِي عَقْلِ وَلَا فَهْمِ

يُطَاطِئُ الْعِلْمَاءَ الْهَامَاءَ إِنْ تَبَسُّوْا  
وَيُمِطُّوْنَ، فَمَا بِالْأَرْضِ مِنْ مَحَلٍّ  
خَلَّاهُ اللهُ جَلُّوا عَنْ مَوَازِنَةِ  
مَنْ فِي الْبَرِيَّةِ كَالْفَارُوقِ مَعْدَلَةً؟  
وَكَالْإِمَامِ إِذَا مَا فَضَّ مَزْدَحِمًا  
الزَّاحِرَ الْعَذْبَ فِي عِلْمِهِ وَفِي أَدَبِهِ  
أَوْ كَابْنِ عَفَّانَ وَالْقُرَّانُ فِي يَدِهِ  
وَيَجْمَعُ الْآيَ تَرْتِيبًا وَيَنْظُمُهَا  
جُرْحَانًا فِي كِتَابِ الْإِسْلَامِ مَا التَّامَا  
وَمَا بِلَاءِ أَبِي بَكْرٍ عَمَّتْهُمْ  
بِالْحِزْمِ وَالْعِزْمِ حَاطَ الْبِدِينِ فِي مَحْنٍ  
وَجِدْنَ بِالرَّاشِدِ الْفَارُوقِ عَنْ رَشْدٍ  
يَجَادِلُ الْقَوْمَ مُسْتَتَلًا مَهْتَدَةً  
لَا تَعْدِلُوهُ إِذَا طَافَ الْذَهُولُ بِهِ  
يَا رَبِّ صَلِّ وَسَلِّمْ مَا أَرَدْتَ عَلَيَّ  
مُحِيْبِي اللَّيْلِي صَلَاةً، لَا يَقْطَعُهَا  
مَسْبَحًا لَكَ جُنْحَ اللَّيْلِ، مُحْتَمَلًا  
رِضِيَّةَ نَفْسِهِ، لَا تَشْتَكِي سَأَمًا  
وَصَلِّ رَبِّي عَلَيَّ آلٍ لَهُ نُحْبِ  
بِضُ الْوَجْوهِ، وَوَجْهَهُ الدَّهْرُ ذُو حَلَكٍ  
وَأَهْدُ خَيْرَ صَلَاةٍ مِنْكَ أَرْبَعَةً  
الرَّاكِبِينَ إِذَا نَادَى النَّبِيُّ بِهِمْ  
الصَّابِرِينَ وَنَفْسُ الْأَرْضِ وَاجْفَاةً

من هِيئةِ الْعِلْمِ، لَا مِنْ هِيئةِ الْحُكْمِ  
وَلَا بِمَنْ بَاتَ فَوْقَ الْأَرْضِ مِنْ عُلْمٍ  
فَلَا تَقْيِسَنَّ أَمْثَالَكَ الْوَرَى بِهِمْ  
وَكَابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخَاشِعِ الْحَشْمِ؟  
عَمْدَمِ فِي مَآقِي الْقَوْمِ مَزْدَحِمِ  
وَالنَّاصِرِ التَّدْبِ فِي حَرْبٍ وَفِي سَلْمِ؟  
يَخْنُو عَلَيْهِ كَمَا تَخْنُو عَلَى الْفُطَمِ  
عَقْدًا بِجَيْدِ اللَّيَالِي غَيْرِ مَنْفَصِمِ؟  
جُرْحُ الشَّهِيدِ، وَجُرْحُ الْكِتَابِ دَمِي  
بَعْدَ الْجَلَاتِلِ فِي الْأَفْعَالِ وَالْخُدَمِ  
أَضَلَّتْ الْحَلْمِ مِنْ كَهْلٍ وَمَحْتَلِمِ  
فِي الْمَوْتِ، وَهُوَ يَقِينٌ غَيْرِ مَنْبَهَمِ  
فِي أَعْظَمِ الرِّسَالِ قَدْرًا، كَيْفَ لَمْ يَدَمِ؟  
مَاتَ الْحَبِيبُ، فَضَلَّ الصَّبُّ عَنْ رَغَمِ  
نَزِيلِ عَرْشِكَ خَيْرِ الرِّسَالِ كُلِّهِمْ  
إِلَّا بِدَمِ مِنَ الْإِشْفَاقِ مُنْسَجِمِ  
ضُرًّا مِنَ الشُّهْدِ، أَوْ ضُرًّا مِنَ الْوَرَمِ  
وَمَا مَعَ الْحَبِّ إِنْ أَخْلَصْتَ مِنْ سَأَمِ  
جَعَلْتَ فِيهِمْ لَوَاءَ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ  
شُمُّ الْأَنْوَفِ، وَأَنْفُ الْحَادِثَاتِ حَمِي  
فِي الصَّحْبِ، صُحْبَتُهُمْ مَرَعِيَّةُ الْحُرَمِ  
مَا هَالِ مَنْ جَلَلِ، وَاشْتَدَّ مِنْ عَمَمِ  
الضَّاحِكِينَ إِلَى الْأَخْطَارِ وَالْفُحَمِ

يا رب، هبت شعوبٌ من منيتها  
سعدٌ، ونحسٌ، ومُلكٌ أنت مالِكُه  
واسْتَيْقَظتْ أُمَّمٌ من رُقْدَة العدم  
رأى قضـاؤك فينا رأيَ حَكْمَتِه  
تُدِيلُ مِنْ نَعَمٍ فِيه، وَمِنْ نِقَمٍ  
أَكْرَمٌ بوجْهك من قاضٍ ومنْتَقِمٍ  
فَالطُّفُ لِأَجْلِ رَسولِ العالَمين بنا  
ولا تَزِدْ قَوْمَه حَسَفًا، ولا تُسَمِّ  
يا رب، أَحْسَنْتَ بَدءَ المُسْلِمين به  
فَتَمَّمَ الفِضْلَ، وَاْمَنْحَ حُسْنَ مُخْتَلَمٍ

### السيد عبدالله بن أحمد الهدار الحضرمي:

قلت: ومن الصالحين الذين سمعت أُمهم ساروا على أقدام البردة الشريفة السيد عبدالله بن أحمد الهدار الحضرمي.

قال: أجل.. ذلك الشاعر الصالح المحب..

قلت: فارو لي من قصيدته ما يذكرنا بالحبيب..

قال: لا بأس.. يقول في قصيدته العصماء في مدح حبيبه ﷺ:

أبيت أرعى بنحوم الليل في الظلم  
لم تغمض العين من وجدي ولم تنم  
أبيت ليلي أناجي الشهب مرتقباً  
ضوء الصباح كملسوع من الصمم  
والقلب ما زال خفّاقاً ومضطرباً  
مما احتوى من عظيم الشوق والألم  
والعين تذرف بالدمع الغزير أسى  
من لوعة الوجد يحكي فائض السدم  
يا قلب مالك طول الدهر مضطرباً  
لم تستفق وإذا قيل استفق همم  
رميتني عامداً قصداً بلا سبب  
هل ينبغي الرمي للأحباب بالحمم  
رفقاً على دنف رفقاً على كلف  
من الصبابة والأشواق في سقم  
سقم الصبابة في قلبي له ضررم  
ليت الحرارة من قلبي قد انطفأت  
أبيت ليلي من الأشواق في قلق  
وجدد الوجد والأشواق منذ نظرت  
تذكر القلب والذكرى مهيجحة  
وبات ليلاً يعاني حر لوعته

فالعين شكرى وقد فاضت بمنسجم  
هيهات ليس بمخفي ومكتهم  
كأنه غير ذي عدل ومتهم  
عن حبه فانكف عنه ولا تلم  
عدلته فدع الأسرار للفهم  
وما بلغت لعمرى حلم محتلم  
فلا ترم كبح حب النفس باللجم  
وإن يكن يصم الإنسان أو يصم  
رمتك في حمأة أو مأزق وخم  
هوناً وإن أهملت بالغير تصطم

محمد خير معصوم ومعتصم  
ومصدر الفضل والعرفان والكرم  
زين الشماميل والآداب والشيم  
من عابدي وثن من عابدي صنم  
خير البرية من عرب ومن عجم  
إلى مدينته الغراء والحرم  
أرقى الخليفة في قدس وفي العظم  
طهراً جرى سابقاً من سالف القدم  
عليه الله صلى عظيم الشان والهمم  
وسن أعظم ماقد سن من نظم  
يهدي إلى الرشده كم يجلو بكل فم  
على الوجود من كان ذا سمع وذا صمم

وحالة الصب لا تخفى على أحد  
وكيف يستر حياً غير مستتر  
يا عاذلاً جاء باسم النصح يعذلني  
رويدك العدل لا يثني الفتي أبداً  
لو كنت تعرف أسرار المحبة ما  
والحب سر به نفسي لقد علقت  
والنفس إن أصبحت في الحب مولعة  
لا تترك النفس مألوفاً لها أبداً  
والنفس أمارة بالسوء إن جمحت  
كالخيل إن روضت سارت بصاحبها  
ثم يقول:

بسيد الخلق شمس الحق معتصمي  
له فررت حبيب الله حخته  
أصل الوجود وروح الكون بمخته  
مطهر الأرض من رجس ومن درن  
لله من منقذ الإنسان من سقر  
لولاه ما سارت الركبان عن طرب  
أسمى الورى فطرة أعلاهم نسباً  
أصوله طهر المولى عقائدهم  
كرامة وامتيازاً للحبيب  
من أسعد الكون إسعاداً وطهره  
أتى لنا بكتاب الله معجزة  
وجاء يقروه باسم الرشاد



لا يستطيع لعمري وصفها قلمي  
والبيان والعلم والآداب والحكم  
وهديته خير هدي للناس كلهم  
في سابق العلم قد والاه بالنعم  
ماشئت في فضل رب التاج والشمم  
بنوره في نواحي الأرض كالنجم  
مقامه الفند لم يدرك ولم يرم  
في سورة النون في الفرقان والقلم  
لله ما جاء في القرآن من قسم  
لا فخر أرفع من هذا لدى الأمم  
وكان ذلك بعد الرعي للغنم  
رتل شمائله الحسناء بالنعم  
قصداً وأوفاهم بالعهد والذمم  
يحنو على الناس من صحب ومن حشم  
حول الملذات والزينات لم يحم  
وساده حشوه ليف من الأدم  
على المقلين من ذي الجوع والعدم  
من يخذ حذو حياة الطهر يتسم  
أبان مولده الأسمى عن العظم  
كسرى رأى ما انجلي من أكبر الجسم  
وقد مضى وانقضى في الوقت كالحلم  
دكته دكاً وهدت شامخ الأطم  
الرحمن لما عدت مشتدة الحدم

سبت عقول بني الإنسان لهجته  
تفجرت منه أنهار الفصاحة  
كلامه معجز الله ميمزه  
قد خصه الله بالتقدير قدره  
فكل فضل فمن فضل النبي وقل  
تعاطمت أشرقت أرجاء ساحته  
لله ماناله المختار من شرف  
أثنى الإله على أخلاقه وأتى  
يكفي القرآن ثناء في شمائله  
لله من قسم ماناله أحد  
وقد دعا أمم الدنيا بأجمعها  
أخلاقه قط لم يظفر بها بشر  
أزكى البرية أخلاقاً وأنباهم  
يسدي النوال بلا من يكدره  
وأزهد الخلق في الدنيا وزهرتها  
لم يمتلىء جوفه والله من شيع  
والمال وافاه لكن كان ينفقه  
قد ارتضى بحياة الكد عن رغب  
فكان ميلاده للناس مفخرة  
فكم غرائب كم من حادث عمم  
وكيف يرتج إيوان له عمد  
وقدرة الله إن حلت على شرف  
وأطفئت نار أهل الشرك أطفأها

فارتاعت الفرس من ذا الخارق العمم  
عنها فباتت تحيل الفكر في غمم  
قد عمه الله بالآلاء والعصم  
نحو السماء صعود ليس بالكنم  
من ثاقب الشهب حاصوا حيصه النعم  
هذي البشارات كانت مبدأ النعم  
خوف وأظهره المولى على الخصم  
الكبير لله من ذي دعوة قدم  
حتى ربي قاع كل الأرض والقمم  
جبريل يخدمه من جملة الخدم  
النور المبين الذي يهدي إلى اللقم  
بحكمة فحالا ترددها بفهم  
والحمد لله ربي ببارئ النسم  
عن التزام ولم توفوا بملتزم  
وأصبح الشمل منكم غير ملتئم  
ولم يكن أحد منكم بمنتم  
زوج البتول "علي" بذ كل كمي  
وغار ثور بنسج العنكبوت حمي  
ويعما بلد الأنصار عن رغم  
من معشر بصنوف الخير مزدحم  
أوطانهم رغبة في فضل رهم  
بكل جزء سرى في لحمه ودم  
في كل مبتدء منه ومحتتم

وساء ساوة قد سدت منابعه  
وأيقنت أن أمر الملك منصرم  
وكان ذلك إرهاباً لدعوة من  
وانقضت الشهب في الجن الذين لهم  
طاحت مقاعدهم للسمع فارتعدوا  
كرامة لرسول الله قد ظهرت  
دعا إلى الله وسط العداة بلا  
لله من دعوة عظمى لها الأثر  
قد أسمع كل ذي سمع وذي صمم  
والله يعصمه الله يجرسه  
فأخرج الناس من ليل الظلام إلى  
وفاز بالنجح إذ كانت دعايته  
وقد رعته عنايات مقدره  
سألهم لماذا اجتمعتم حول منزلته  
حاولتم الفتك لكن خاب سعيكم  
وسار "طه" وما أغنى تجهركم  
ونام في الفرش فرش المصطفى بطل  
وطاردوه فلم يلفوا له أثراً  
في الغار أحمد والصدیق قد مكثا  
فقوبلا بحفاوات وتكرمة  
أكرم بهم وبمن قد فارقوا قدماً  
حب الرسول بقلب الصب ممتزج  
وقوله كله دين ومنفعة

صوب الغمام فيزهو النبات في الأكم  
سبحانه منشيء الإنسان من عدم  
تفجر العلم من آذيه العرم  
يجري بموج من العرفان ملتطم  
آياته وغدت مرعية الحرم  
قد ألفت آي مولانا بفضلهم  
لاريب فيه يقى من زلة القدم  
به ويذهب كل الضيق والسأم  
بالعجز من غير تحكيم ولا حكم  
يأتون بالمثل-قلب القادحين عمى  
إلى الجنان مع الهادي نبهم  
يجلو صدها كلام الله رهم  
غداً تنال يقود الناس بالخطم  
أشد آي لديه قوله "استقم"  
في الذكر سبحان مبدي الخلق من عدم  
فاقصد إليه بصدق العقيد واستلم  
القدس المبارك في وقت من الغسم  
للقدس بشرى ل"طه" خير مغتنم  
فجنتهم قادمأ في مظهر فخهم  
صوفوفهم مثل در بيان منتظم  
لأن نورهم من نورك التتم  
المعراج أكرم سريع الخط والرسم  
تكليم ربك ذي الإفضال والكرم

يا أجود الخلق من يسقي بطلعته  
أتيتنا بكتاب جل منزلته  
يقنى الزمان ولا تقنى عجائبه  
فيه الهدى ولأصناف العلوم حوى  
بفضل أصحابك الأبطال قد جمعت  
أرضاهم الله مولانا برحمته  
الله أنزله للناس تبصرة  
يشفي الصدور وينجي كل معتصم  
وقد أقر العدا إقرار معترف  
والإنس والجن لم يقدر مصافعهم  
يشوق الناس تشويقاً ويندهم  
وتطمئن قلوب المؤمنين به  
وهو الشفيع لقاريه شفاعته  
والمصطفى ترك القرآن واعظنا  
ما فرط الله شيئاً جل خالقنا  
هو الأمان هو الحرز المكين لنا  
لقد سررت من البيت الحرام إلى  
على البراق وقد تم المسير به  
هناك ألفت رسول الله واقفة  
وقد تقدمت للمحراب فانتظمت  
صلوا وراءك والأفراح تغمرهم  
قد ارتقيت إلى السبع الطباق على  
ما زاغ قلبك يا ثبت الجنان لدى

رأيت آياته الكبرى التي همرت  
 وقد حباك تعالى بالصلاة فطرب  
 رسمت للناس دستوراً تكفل ب  
 يسائر العصور في أدوار نهضته  
 أيدت بالرعب من رب الورى كرمأ  
 عصاة الشرك قد حارت من ال  
 وكم رأيت مدهشات منه واضحة  
 لكنها نفرت عن دينه حسداً  
 أدى الرسالة روح الكون كاملة  
 ضحى بما عزم من نفس ومن نشب  
 وخصه الله بالأصحاب خير فدا  
 بهم أقام رسول الله ملتته  
 من كل معتزم بالخزم متم  
 ينقض كالباز في الهجاء محتطفاً  
 أسد كماء مغاوير ذوو فطن  
 يسترخصون المنايا لا يهولهم  
 وكيف لا ورسول الله يقدمهم  
 لا بدع في ذلك إن جادوا بأنفسهم  
 إن الوطيس إذا صار مشتعلأ  
 فزاد إيمان أصحاب الرسول به

### يحيى توفيق:

سكت البابا، فقلت: لقد قرأت قبل أيام قصيدة جميلة لشاعر سعودي يسمى (يحيى توفيق) وهي تنهج نهج  
 هذا النوع من الشعر الشريف.

قال: أعرفها.. وهي قصيدة تمتلى رقة وعذوبة ومحبة.. فيورك في قائلها.. اروها لي إن كنت تحفظها.

قلت: لقد قال هذا الشاعر الفاضل في مدح النبي ﷺ والشكوى لما حصل للأمة بغيابه:

عز الورد.. وطال فيك أوام  
وأرقت وحدي.. والأنام نيام  
ورد الجميع ومن سناك تزودوا  
وطردت عن نبع السنن وأقاموا  
ومنعحت حتى أن أحوم.. ولم أكد  
وتقطعت نفسي عليك.. وحاموا  
قصدوك وامتدحوادوني اغلقت  
أبواب مدحك.. فالحروف عقام  
أدنوا فأذكر ما جئيت فأنثني  
حجلا.. تضيق بجملتي الأقدام  
أمن الحضيض أريد لمسا للندرى  
جل المقام.. فلا يطال مقام  
وزري يكبلني.. ويخرسني الأسى  
فيموت في طرف اللسان.. كلام  
بممت نحوك يا حبيب الله في  
شوق.. تقض مضاجعي الآثام  
أرجو الوصول فليل عمري غابة  
أشواكها.. الأوزار.. والآلام  
يامن ولدت فأشرق بربوعنا  
نفحات نورك.. وانجلي الإظلام  
أعود ظمئنا وغيري يرتوي  
أيرد عن حوض النبي.. هيام  
كيف الدخول إلى رحاب المصطفى  
والنفس حيرى والذنوب جسام  
أو كلما حاولت إلمام به  
مذا أقول وألف ألف قصيدة  
مدحوك ما بلغوا برغم ولاتهم  
ودنوت مذهبولا.. أسيرا لأرى  
وتمزقت نفسي كطفل حائر  
حتى وقفت أمام قبرك باكيا  
وتوالى الصور المضيئة كالرؤى  
قد عاقه عم من يجب.. زحام  
فتدفق الإحساس.. والإلهام  
وطوى الفؤاد سكينه وسلام

(١) نبيه أن هذه القصيدة نسبت خطأ في بعض المواقع لترار قباني، انظر تصحيح الخطأ في: جريدة الشرق الأوسط، الاحد ١٣ ذو القعدة ١٤٢٧ هـ ٣ ديسمبر ٢٠٠٦ العدد ١٠٢٣٢.

يا ملء روعي.. وهج حبك في دمي  
 أنت الحبيب وأنت من أروى لنا  
 حوربت لم تخضع ولم تخشى العدى  
 ومألت هذا الكون نورا فأحتفت  
 والذل حيم فالنفوس كتيبة  
 الحزن.. أصبح خبزنا فمساؤنا  
 واليأس ألقى ظله بنفوسنا  
 أن اتجهت ففي العيون غشاوة  
 الكرب أرقنا وسهد ليلنا  
 يا طيبة الخيرات ذل المسلمون  
 باتوا أسارى حيرة.. وتمزقا  
 ناموا فنام النذل فوق جفونهم  
 يا هادي الثقيلين هل من دعوة  
 قبس يضئ سـريري.. وزمام  
 حتى أضاء قلوبنا.. الإسلام  
 من يحمه الرحمن كيف يضام  
 صور الظلام.. وقوضت أصنام  
 وعلى الكبار تطاول الأقدام  
 شجن.. وطعم صباحنا أسقام  
 فكأن وجه النيرين.. ظلام  
 وعلى القلوب من الظلام ركام  
 من مهده الأشواك كيف ينام  
 ولا مجير وضيعت.. أحلام  
 فكأهم بين السورى.. أغنام  
 لاغرو.. ضاع الحزم والإقدام  
 تدعى.. بها يستيقظ النوام

### ٣ - شعراء مسيحيون:

ما انتهيت من رواية القصيدة حتى قال لي البابا: لم يقتصر مدح النبي ﷺ على المسلمين وحدهم.. حتى  
 المسيحيون لهم نصيب من هذا.  
 قلت: المسيحيون؟!  
 قال: أجل.. ألم تعلم أن مسيحيي العرب أقرب إلى الإسلام من قريهم للمسيحية نفسها، حتى أنني سمعت  
 بعضهم يدافع على انتمائه للحضارة الإسلامية، ويفخر بذلك.. ويعتبر الحضارة الغربية حضارة شذوذ<sup>١</sup>.  
 قلت: فسم لي بعض هؤلاء الشعراء الأفاضل.

### وصفي قرنfli:

قال: منهم وصفي قرنfli (١٩١١ - ١٩٧٨)، الذي كان في طليعة رابطة الكتاب السوريين، وصدر  
 له ديوان وحيد بعنوان (وراء السراب)

(١) انظر رسالة (ثمار من شجرة النبوة) فصل (حضارة)

وقد خاف قرنفلّي أن يوصف بمعاملة المسلمين أو مدهانتهم لحاجات في نفسه، فبدأ بالدفاع عن نفسه، وتبرير مدحه رسول الله ﷺ، فأعلن أن طائف الحب طاف به، فأترع كؤوس الهوى، والإعجاب بالنبي اليعربي فقال:

قد يقولون: شاعرٌ نصراني يرسل الحب في كذابِ البيان  
 يتغنى هوى الرسول.. ويهذي بانثاق الهدى من القرآن  
 ينتحي الجبهة القوية يحدها ريباءً والشعر ( لا وجداني )  
 كذبوا - والرسول - لم يجز يوماً ما بخلاف الذي أكن لساني  
 ما تراءيتُ بالهوى بل سقاني طائفٌ من الحب والهوى ما سقاني  
 أو عازٌ على فتيّ يعربي أن تغنى بالسيد العبداني؟!  
 أوليس الرسول منقذٌ هذا الشرق من ظلمة الهوى والهوان؟  
 أفكُننا لولا الرسول سوى العبدان بثست معيشة العبدان؟!  
 أو ليس الوفاء أن تخلص المنقذ حبّاً إن كنت ذا وجدان؟!  
 فالتحيات والسلام أبداً القاسم تُهدى إليك في كل آن !

### جورج صيدح:

ومنهم جورج صيدح الكاتب المهجري الذي كتب قصيدة رائعة في مدح النبي ﷺ باسم (حراء يثرب) يستنهض فيه الأمة، مذكراً إياها بما بعث النبي ﷺ من الحمية والهمة والأنفة، مشيراً إلى تدنيس القدس الشريف ؛ حتى إنه ليقتبس آية من القرآن - من سورة الرحمن - يضمنها القصيدة، فيقول:

يا من سرريت على البراق وجُزت أشواط العنان  
 آن الأوان لأن تجدد ليللة المعراج.. آن  
 عرّج على القدس الشريف ففيه أقداسٌ تهمنان  
 ماذا دهاهم؟ هل عصوكم فأصبح الغمازي جبان؟  
 أننت الذي علمتهم دفع المهاننة بالسنان  
 ونذرت للشهداء جنات وخريرات حسنان  
 يا صاحبي: بأي آلاء النبي تكذبان؟!

## جورج سلسني:

ومنهم الشاعر المهجري جورج سلسني الذي كتب قصيدة بعنوان (نجوى الرسول الأعظم) وهي قصيدة مليئة بالعاطفة الصادقة، وكأنما كتبها مسلم:

أقبلت كالحق وضّاح الأسرارير يفيض وجهك بالنعماء والنور  
على جبينك فجر الحق منبلج وفي يديك جرت مقاليد الأمور  
فرحت فينا، وليل الكفر معتكر تفري بهديك أسداف الـدياجير  
ومتطر البيد آلاءً وثمر عها يمتنا يـدوم إلى دهر الـدهارير  
أبيت إلا سمو الحق حين أبي سواك إلا سمو البطل والزور!

وقال يصف الصحراء العربية التي أطلعت شمس المصطفى ﷺ:

ما أنت بالمصطفى يا بيد مجدبة كـلا ولا أنت يا صحراء بالبور  
أطلعت من تاهت الدنيا بطلعته ونافست فيه حتى مؤئل الحور  
بوركت أرضاً تبث الطهر تربتها كالطيب.. بثته أفواه القوارير  
الدين ما زال يزكو في مرابعها والنبل ما انفك فيها جد موفور  
والفضل والحلم والأخلاق ما فتئت تحظى هناك بإجلال وتوقير

ويعتذر للنبي ﷺ عن تقصير شعره في الوفاء بحقه، فيقول:

يا سيدي يا رسول الله معذرة إذا كبا فيك تيباني وتعبيري  
ماذا أوفيك من حق وتكرمة وأنت تعلقو على ظني وتقديري؟!  
وأنت رب الأداء الفذ في لغة تشأ واللغى حسن تنميق وتصوير  
على لسانك ما جن البيان به فذلك الشعر يرنو شبه مسحور!  
آي من الله.. ما ينفك معجزها يعيي على الدهر أعلام التحارير  
تلوتها فسرت كالنور مؤتلقا يطوي الدنا بين مأهول ومهجور!

## محبوب الخوري الشرتوني:

ومنهم محبوب الخوري الشرتوني، وهو من شعراء المهجر الشمالي، الذين كتبوا في رسول الله ﷺ رافعاً إياه إلى مستوى النموذج البشري الأتم، أو مثال البطولة الأوحـد، وقد كتب قصيدة بعنوان (قالوا تحب العرب؟)



يقول فيها:

قالوا تحب العُرب؟ قلت: أحبهم  
يقضي الجوار عليّ والأرحامُ  
قالوا: لقد بخلوا عليك، أحببتهم  
أهلي وإن بخلوا عليّ كرام  
قالوا الديانة؟ قلت: جيل زائل  
وتزول معه حزازةٌ وخصامُ  
ومحمد.. بطل البرية كلها  
هو للأعراب أجمعين إمام

### الشاعر القروي:

ومن أشهر شعراء المهجر الجنوبي رشيد سليم الخوري الذي اشتهر بالشاعر القروي، وقد كتب قصيدة بعنوان (عيد البرية) يستحث فيها المسلمين لاستعادة مجدهم القديم منها، ويقرئ رسول الله ﷺ سلاماته وحبه، داعياً إلى التحاب والتآخي بين المسلمين والنصارى، فيقول:

يا فاتح الأرض ميداناً لدولته  
صارت بلادك ميداناً لكل قوي  
يا قوم هذا مسيحيٌ يذكركم  
لا يُنهض الشرق إلا حيننا الأخوي  
فإن ذكرتم رسول الله تكرمة  
فبلغوه سلام الشاعر القروي

ويذكر الأندلس وبغداد ويحن إلى ما كان فيها من حضارة الإسلام، فيقول:  
يا حينذا عهد بغداد وأنـدلس  
عهد بروحى أفـدي عـوده وذوي  
من كان في رية من ضخم دولته  
فليتـل ما في تواريخ الشعوب روي

### خليل مطران:

ومنهم خليل مطران الذي كتب قصيدة تسمى (رأس السنة الهجرية) يقول فيها:  
عاني محمد ما عاني بهجرته  
لمأرب في سبيل الله محمدود  
وكم غزاةٍ وكم حربٍ تجشمها  
حتى يعود بتمكين وتأيد  
صعبان راضهما: توحيدٌ معشرهم  
وأخذهم بعد إشراك بتوحيد  
وبدؤه الحكم بالثوري يتم به  
ما شاءه الله من عدلٍ ومن جود

وله قصيدة احتفالية أخرى شارك فيها المسلمين، عنوانها: (عظة العيد الهجري)، يمدح فيها ويكبر الهلال  
رمز الإسلام، أو هو الرسول ﷺ نفسه فيقول:  
سلام علي هذا الهلال من امرئ  
صريح الهوى، والحر لا يتكتم

سلام وتكريم.. بحق كلاهما وأشرف من أحببته من تكريم  
هويتك إكباراً لمن أنت رمزه من المأرب العلوي لو كان يفهم

### مارون عبود:

ومنهم مارون عبود الشاعر اللبناني الذي كتب قصيدة مطولة في مدح النبي ﷺ يقول فيها:  
لولا كتابك ما رأينا معجزاً في أمةٍ مرصوصة البنيان  
حملت إلى الأقطار من صحرائها قيسَ الهدى ومطارفَ العمران  
هادٍ يُصوِّر لي كأن قوامه متجسِّدٌ من عنصر الإيمان

### إلياس فرحات:

ومنهم الشاعر الشهير إلياس فرحات الذي يقول في قصيدته (يا رسول الله):  
عَمَّرَ الْأَرْضَ بِأَنْوَارِ التُّبُوَّةِ كَوَكَبٍ لَمْ تُدْرِكِ الشَّمْسُ عُلوَّه  
لَمْ يَكُذِّ يَلْمَعُ حَتَّى أَصْبَحَتْ تَرُقُبُ الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا دُنُوَّة  
يَيْتَمَ الْكَوْنُ ظِلَامَ دَامِسٍ فُتِحَتْ فِي مَكَّةَ لِلنُّورِ كُوءُ  
وَطَمَى الْإِسْلَامَ بَحْرًا زَاخِرًا بِأَوَاذِي الْمَعَالِي وَالْفُتُوَّة  
مَنْ رَأَى الْأَعْرَابَ فِي وَبْتِيهِمْ عَرَفَ الْبَحْرَ وَلَمْ يَجْهَلْ طُمُوَّة  
إِنَّ فِي الْإِسْلَامِ لِلْعُرْبِ عُلاَءَ إِنْ فِي الْإِسْلَامِ لِلنَّاسِ أُخُوَّة  
فَادْرُسِ الْإِسْلَامَ يَا جَاهِلَهُ تَلَقَّ بَطُشَ اللَّهِ فِيهِ وَحُوءُ  
يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّنَا أُمَّةٌ زَجَّهَا التَّضَلُّيلُ فِي أَعْمَقِ هُوَّة  
ذَلِكَ الْجَهْلُ الَّذِي حَارَبْتَهُ لَمْ يَزَلْ يُظْهِرُ لِلشَّرِّ عُوَّة  
قُلْ لِأَتْبَاعِكَ صَلُّوا وَاذْرُسُوا إِنَّمَا الدِّينُ هُدًى وَالْعِلْمُ قُوَّة

### عبد الله يوركي حلاق:

ومنهم الشاعر السوري عبد الله يوركي حلاق مؤسس مجلة الضاد في حلب، فله قصيدة بعنوان (قبس من  
الصحراء)، يشيد فيها بالرسول ﷺ.. يقول فيها:  
بعث الشريعة من غياهب رمسها فرعى الحقوق وفتح الأذهانا

أحمدٌ.. والمجدُ نسجَ يمينه  
ولأنه داس الجهالة وانتضى  
فلقد ربيننا في ظلال عروبة  
ما نحنن إلا إخوةٌ نسعى إلى  
مجدت في تعليمك الأديانا  
سيف الجهاد، وحطّم الأوثانا  
عرباء.. تشرق عزة وأماننا  
إسعاد أمتنا.. وصون حماننا

### جاك صبري شماس:

ومنهم الشاعر السوري جاك صبري شماس الذي تشهد معظم دواوينه الشعرية، ومقالاته على محبته وولائه للعروبة وإشادته بالدين الإسلامي، وافتخاره بالرسول ﷺ.. يقول في قصيدة له بعنوان (أوراق اعتمادي) إني مسيحيُّ أجملُ محمدًا وأجملُ الضادًا.. مهذه الإسلام حيث الصحابة صفة ومقام كحلت شعري بالعروبة والهوى أودعت روعي في هيام محمد

### إلياس قنصل:

ومنهم الشاعر إلياس قنصل الذي ثم يخاطب رسول الله ﷺ معترًا، مشيدًا بالقرآن ومن جاء به، فيقول: رسول الله: عفوك؛ إن عذلي لتنبهه النفوس الغافلات كتابك زينة الأجيال تزهو ودينك نعمة في الكون ضياء تكرم يا إله العرش واجعل

### شبلي الملاط:

ومنهم الشاعر اللبناني شبلي الملاط، وهو أحد أبرز الشعراء العرب في النصف الأول من القرن العشرين الذي ينفي عن الإسلام والقرآن دعوى تفريق للأمة، فيقول: لمن البلاد؟ أليس من أصحابها حتى متى لا نستفيق؟! وكلنا نحيا حتى متى التفريق يلعب دوره

ويظلم مَنْ بثّ المفاصد سيّداً والصالح الأعمال مغلولَ اليد  
ويبيت مَنْ تدعو البلاد أئمة متشاكلين بيعةً وممسّجداً  
والله ما قال المسيح تباغضوا حتى تكونوا ولا كتاب محمد  
لكنما أيدي الجهالة بدلت أبناء هذا القطر شر مبدد  
ثم يطالب بإهاء التعصب الذي يوقع الأمة في الهوان والمذلة، فيقول:

وتسأهلوا عند الأمور وأعرضوا عمّن يقول بعيسوي ومحمدي  
ودعوا التعصب إنه الداء الذي يقضي عليكم بالهوان السرمدى  
ولتشعلوا هذي العواطف وليكن كل من الأعياد عيد المولد

#### ٤ — أدباء أسلموا:

قلت دفتر البابا.. فأريت أسماء غير عربية، فتعجبت من ذلك، فقلت: أرى في الدفتر أسماء أخرى غير  
عربية.. من أين لها أن تتعلم العربية، وتكتب بها مدح النبي ﷺ؟!  
قال: أصحاب تلك الأسماء أدباء من سائر الأمم جذبتهم أشعة شمس محمد ﷺ إلى الإسلام، فلذلك  
سجلتهم في هذا الفصل.

قلت: فهل تعلم هؤلاء العربية؟

قال: الشعر موجود في كل لغات العالم.. والحب موجود في كل الكلمات نثرها وشعرها.. والحب  
الصادق يعبر بكل الألسنة.

#### ويليام بيكارد:

كان من تلك الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ويليام بيكارد)، فسألت البابا عنه،  
فقال: هذا هو المؤلف الروائي والشاعر البريطاني ويليام بيكارد، وهو حاصل على شهادة البكالوريوس في  
الفنون والآداب (كاتب)، والدكتوراه في الأدب (لندن)، وهو مؤلفٌ واسع الشهرة، من أعماله: ليلي  
والجنون، ومغامرات القاسم، والعالم الجديد، ومؤلفاتٌ أخرى.

قلت: هل التقيت به؟

قال: لا.. ولكني قرأت رساله له يتحدث فيها عن رحلته للإسلام، ومما ورد فيها: (لم أدرك حقيقة أنّي  
وُلدت على فطرة الإسلام إلّا بعد مضيّ العديد من السنين. ففي المدرسة والجامعة كنت مشغولاً — وربما بقوةً  
— بقضايا اللحظة الآنيّة وشؤونها.. لم أكن أعتبر مهنيّ في تلك الأيام مهنةً لامعة، ولكنّها كانت في تطوّر،

ووسط محيطٍ مسيحيٍّ تعلّمت عن الحياة الطيّبة، وكان الإيمان بالله تعالى والعبادة والحق من الأمور التي تسرّني، وإن كنت أقدس أيّ شيءٍ فإنّ ذلك كان هو الثّبل والشّجاعة)

وفيها يقول: (أنا القادم من كامبريدج، ذهبت إلى أواسط أفريقيا، حيث حصلت على تعيين في إدارة الوصاية على أوغندا. كان وجودي هناك ممتعاً ومثيراً أكثر مما كنت أحلم به في بريطانيا، وكنت مجرباً — تبعاً للظروف المحيطة — أن أعيش وسط الأخوة السوداء من الإنسانيّة، ويمكنني القول بأنّي تعلّقت بهم بحبّة بسبب بساطة نظرهم السعيدة للحياة. لقد شدّني الشّرق دائماً. ففي كامبريدج قرأت (الليالي العربيّة)؛ ووحيداً في أفريقيا قرأت (الليالي العربيّة)؛ ووجودي في تجوالٍ موحش في أوغندا لم يقلل من عزة الشرق في نفسي.

ثم — وبعد تحطّم حياتي المهادنة في الحرب العالميّة الأولى — عدت أدراجي مسرعاً تجاه الوطن في أوروبا؛ وساءت صحّتي. ومع استعادة صحّتي تطوّعت للجيش، لكنّ طربي رُفض على أسسٍ صحيّة. لذلك عملت على تقليل الخسائر وسجّلت في (الجنדרمة) — بعد أن عملت بطريقةٍ ما على اجتياز الفحص الطّبي — وشعرت بالرّاحة حين تسلّمت بدليّ العسكريّة كجنديٍّ في فرقةٍ للمشاة. خدمت حينئذٍ في الجهة الغربيّة في فرنسا، واشتركت في معركة السوم سنة ١٩١٧، حيث جُرحت وأُسرت. نُقلت عبر بلجيكا إلى ألمانيا حيث كنت في المشفى. وفي ألمانيا رأيت الكثير من المعاناة الإنسانيّة، وخاصّةً الرّوس المصابين بالديزنتاريا. ووصلت إلى حافة الموت جوعاً. جُرحتي — وهو كسرٌ في ساعدي الأيمن — لم يُشف بسرعة، فكانت عديم التّفّع للألمان، فأرسلت إلى سويسرا من أجل عمليّة جراحيّة.

أذكر جيّداً كم كان عزيزاً عليّ حتى في تلك الأيام حين كنت أفكّر بالقرآن الكريم، في ألمانيا كنت قد كتبت رسالةً للأهل ليرسلوا لي نسخةً من القرآن الكريم. وعلمت في السنوات اللاحقة أنّهم أرسلوا لي نسخةً ولكنّها لم تصلني أبداً.

في سويسرا — وبعد عمليّةٍ في ساعدي ورجلي — تحسّنت صحّتي، فكان بإمكانني الخروج بين الحين والآخر، فاشترت نسخةً من الترجمة الفرنسيّة لمعاني القرآن الكريم — وهي اليوم من أعز ممتلكاتي — وعندئذٍ شعرت بسعادةٍ عظيمة. كان ذلك وكأنّ شعاعاً من الحقيقة الخالدة قد أشرق عليّ بالبركة. كانت يدي اليمنى ما تزال غير ذات نفع، فتمرنّت على كتابة القرآن الكريم بيدي اليسرى. وارتباطي بالقرآن الكريم يظهر بوضوح أكبر عندما أقول بأنّ واحدةً من أشدّ الذكريات وضوحاً وعزّةً لديّ من كتاب (الليالي العربيّة) كانت عن فتىٍّ وُجد وحيداً في المدينة البائدة، جالساً يقرأ القرآن الكريم، غافلاً عمّا يحيط به.

في تلك الأيام في سويسرا، أعدت تسجيل نفسي رسمياً كمسلم. وبعد توقيع الهدنة عدت إلى لندن، وذلك في شهر كانون الأول من سنة ١٩١٨، وبعد ذلك — في عام ١٩٢١ — سجّلت لدراسة الأدب في جامعة لندن. وكان أحد المواضيع التي اخترتها هي اللغة العربيّة، وكنت أحضر محاضراتها في الكلية الملكيّة. وكان في

يوم أن ذكر أستاذي في اللغة العربيّة — السيّد بلشا من العراق رحمه الله تعالى — القرآن الكريم وقال: إن كنت تؤمن به أم لا، فإنك ستجد أنه أكثر الكتب إثارةً وأنه يستحقُّ الدّراسة. فأجبت: أوه، ولكني أومن به. فاجأ هذا الجواب أستاذي بشدّة وأثار اهتمامه، وبعد حديثٍ قصيرٍ دعاني لأرافقه إلى مسجد لندن في نوتينغ هيل حيث. وبعد ذلك كنت أحضر للصلاة باستمرار في هذا المسجد لكي أتعلّم أكثر عن تطبيق الإسلام، إلى أن أعلنت ارتباطي بالأمة الإسلاميّة في رأس السنة الجديدة لعام ١٩٢٢.

كان هذا قبل ما يقارب الربع قرن، ومنذئذٍ وأنا أعيش حياةً إسلاميّةً قولاً وعملاً بكلِّ ما في استطاعتي، فقوّة الله تعالى وحكمته ورحمته ليس لها حدود. وحقول المعرفة تمتدُّ أمامنا إلى ما وراء الأفق. وفي حجّنا خلال هذه الحياة أشعر بيقينٍ أقوى بأنّ اللباس الوحيد المناسب الذي نستطيع لبسه هو الخضوع لله تعالى، وأن نعتمر على رؤوسنا عمامةً من الحمد، وأن نملأ قلوبنا حباً للخالق الواحد سبحانه وتعالى. والحمد لله ربّ العالمين

### فانسان مونتييه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فانسان مونتييه)<sup>١</sup>، فسألته البابا عنه، فقال: هذا أديب فرنسي كان يشغل منصب أستاذ اللغة العربية والتاريخ الإسلامي بجامعة باريس، وشغل منصب رئيس مؤسسة الدراسات الإسلامية في داكار... وله عدة مؤلفات منها: كتاب (الإرهاب الصهيوني)، و(المسلمون في الاتحاد السوفيتي)، و(الإسلام في إفريقيا السوداء)، و(مفاتيح الفكر العربي)، كما قد قام بترجمة ابن خلدون إلى الفرنسية، وقد أسلم وتسمى — (المنصور بالله الشافعي)

وقد تشرفت بالالتقاء به والحديث معه عن سبب اختياره الإسلام، فقال: لقد اخترت الإسلام ديناً، ألقى به وجه ربي لأسباب شتى، منها الأسباب الدنيوية، والأسباب الأخلاقية، والاجتماعية، والثقافية والعاطفية. ثم استطرّد في تفصيل ما أجمله قائلاً: لقد اخترتُ دين الفطرة، وهو الإسلام، وكنت فيما مضى كاثوليكيّاً.. وفي الكاثوليكية أمور كثيرة لم أقتنع بها، ولم أفهمها، مثل كرسي الاعتراف، والوسيط لدى الإله، فضلاً عن اعتمادها على أسرار، وقربان، وغير ذلك من أمور لم أستطع الإيمان بها.. في حين أن دين الإسلام برئ من هذا كله، فيكفي المسلم أن يتوجه إلى ربه مباشرة بدون وسيط، وبدون كرسي اعتراف، فيستجيب الله دعاءه.

لقد كانوا يُعلموني كما يُعلمون غيري أن عيسى إله ابن إله، وكانوا يزعمون أن محمداً ليس نبياً، وبالتالي ينكرون الإسلام.. ثم حدث أن وقع بين يدي — لأول مرة في حياتي — ترجمة لمعاني القرآن الكريم، واستوقفتني

---

(١) انظر: صحيفة الاتحاد التي تصدر في الإمارات العربية المتحدة، الصادرة في العاشر من نوفمبر ١٩٨٩ (بتصرف)، والجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبدالصمد.

معاني كلماته، مثل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص) واستوفقني قول الله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: من الآية ٣٠)

كما أذكر أبي قرأت حديثاً لرسول الله ﷺ، شعرت تجاهه بأن الإسلام دين الفطرة بحق، وهو قول رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه» ولذلك كله آمنت برسالة محمد ﷺ ومصداقيتها، مثلما آمنتُ تماماً بوحدانية الله.. إن محمداً رسول الله حقاً.. والقرآن الكريم موحىً به من عند الله وليس من إنشاء محمد أو صنعه... ورسالته السماوية السمحاء ليست مقصورة على العرب.. وإنما هي للناس كافة.

لقد رأيت في الإسلام تسامحاً مدهشاً، والأخلاق الرفيعة هدف كل مسلم.. كما رأيت رفضاً للرهينة التي تخافي طبيعة الإنسان البشرية، فالإسلام يحفظ للإنسان إنسانيته، فيمنع عليه الرهينة، ويدفعه إلى التمتع بالحياة وطيباتها، ما لم تتعارض المتعة مع تعاليم الله تعالى، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: من الآية ٧٨)

سكت قليلاً، وقد بدت على وجهه قسماات ألم لم يستطع كتمها، ثم قال: أعداء الإسلام يدعون أن المسلمين لا يرضون من غيرهم إلا أن يكونوا مسلمين، فإذا لم يكونوا مسلمين أشهروا عليهم سيف الجهاد.. في حين أنهم لو عقلوا ذلك جيداً لعلموا أن الجهاد الإسلامي مفروض، ولكن من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

إنهم يتهمون الإسلام بالقسوة المفرطة، مع أن الإسلام دين السلام، والتسامح، والعفو، والمغفرة... لقد تناسى هؤلاء كل العقوبات النصرانية فيما مضى، والتي أفرطت في القسوة، والتعذيب الذي وصل إلى حد الإحراق، وفصل أجزاء الجسد، فضلاً عن كثرة حالات الإعدام، وهو ما لم يشهده الإسلام في تاريخه. كما أنهم يتهمون الإسلام بظاهرة الرقّ التي وُجدت قبل الإسلام وليس بعده، بل حين انتشر الإسلام وطبقت تعاليمه كان يسعى لإلغاء الرقّ، بل إن كثيراً من الكفارات للذنوب التي يقدم عليها المرء هو تحرير الرقاب الذي عدّه الإسلام تقرباً و طاعة لله.

ثم يحاولون الإساءة إلى الإسلام من زاوية تعدد الزوجات، ولو عقلوا لوجَدُوا أنه وأن سمح حقاً بذلك، فإنه في الوقت ذاته وضع شروطاً دقيقة أساسها العدل المطلق، والمعاملة الطيبة، كما نظر إلى النساء التي حالت ظروفهن دون الزواج، أو لمرض الزوجة، أو لأسباب أخرى.

إن الإسلام بعظمته وعمقه، وبنقائه ورقّيه، وبتسامحه ودعوته لكرامة الإنسان في كل زمان ومكان لن يستطيع أحدٌ أن ينال منه.. لأن الإسلام في ذاته قوي.. وتعاليمه تدعو إلى القوة بعدم ارتكاب المعاصي

والذنوب التي تضعف القوة، مثل الزنى، وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير، وغير ذلك مما يجرمه الدين الحنيف. ثم انفرجت أساريه عن ابتسامة عذبة، وقال: لهذا اخترت الإسلام.. من أجل أن أشعر بالراحة في رحابه وظلاله.. نعم، اعتنقت الإسلام لأشعر وأدرك أنني اعتنقت ديناً لا يفصل بين البدن والروح، بين النفس والجسد.. يكفيني أن الإسلام دين نقي، يدفع إلى الأخلاق والتحلي بها، وإلى الكرامة الإنسانية والتمسك بها، من أجل ذلك شهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.. وعلى ذلك ألقى ربي.



## رابعا — الفنانون

فتحت دفتر البابا على فصله الرابع، فوجدت عنوانه (الفنانون)، فقلت: من تقصد بالفنانين؟  
قال: أولئك الذين تذوقوا الجمال وعاشوه وراحوا بما أوتوا من مواهب يحاولون تصويره وإمتاع الخلق به.  
قلت: فما علاقة هؤلاء بأشعة محمد ﷺ؟  
قال: أقرب الناس إلى النبي ﷺ هم الفنانون..  
قلت: ما تقول؟

قال: إن المعاني النبيلة التي يوجهنا إليها الإسلام، والتي تتناسب مع الجمال الذي يمتلئ به الكون لا يتذوقه إلا صاحب حس مرهف، وذوق رفيع.

قلت: ولكني أرى الفنانين أعظم الناس غفلة، فهم يجرون في أودية الغواية أكثر من الشعراء.  
قال: أولئك أحد ثلاثة: إما لا حظ لهم في الفن، وإنما هم أديعاء فيه، وإما أن الإسلام عرض لهم بصورة مشوهة جعلتهم ينفرون منه، وإما أن الإسلام لم يعرض لهم أصلا.  
قلت: أرايت لو أن الإسلام عرض لهم بصورته سيقبلونه؟  
قال: لا يقبلونه فقط.. بل يقبلون عليه بكل كيانه، ويسخرون كل طاقاتهم في سبيل خدمته.  
قلت: ولكن البعض يأمرهم بتطبيق الفن قبل اعتناق الإسلام.  
قال: أولئك حجب بين الله وبين عباده.. الإسلام يطلق الطاقات ولا يعطلها.. والفنان المسلم هو الذي يعبد الله في محراب فنه.. فيجعل فنه مرقى من مراقي الهداية ومعراجا من معارج الروح.  
قلت: أراك وضعت أسماء كثيرة في هذا الفصل.. فهل التقيت بهم جميعا؟  
قال: هناك من التقيت به.. وهناك من حدثني بحديثه الثقة.. وهناك من قرأت له، أو قرأت عنه.

### الفونس إيتان دينيه:

كان من أول الأسماء التي وضعت في هذا الفصل اسم (الفونس إيتان دينيه)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل من كبار الفنانين والرسامين العالميين، وقد دُوِّنت أعماله في معجم (لاروس)، ولا تزال جدران المعارض الفنية في فرنسا تزين بلوحاته الثمينة، وفيها لوحته الشهيرة (غادة رمضان)  
وقد أسلم، وألّف بعد إسلامه العديد من الكتب القيمة، منها كتابه الفذ (أشعة خاصة بنور الإسلام)، و(ربيع القلوب)، و(الشرق كما يراه الغرب)، و(محمد رسول الله)، و(الحج إلى بيت الله الحرام).. وغيرها.  
وقد ذكر في هذه الكتب أسرار انجذابه للإسلام، ومن أقواله في ذلك:  
(لقد أكد الإسلام من الساعة الأولى لظهوره أنه دينٌ صالحٌ لكل زمان ومكان، إذ هو دين الفطرة،

(١) إيتان دينيه (١٨٦١ - ١٩٢٩) Et. Dinet تعلم في فرنسا، وقصد الجزائر، فكان يقضي في بلدة بوسعادة نصف السنة من كل عام، وأشهر إسلامه وتسمى بناصر الدين (١٩٢٧)، وحج إلى بيت الله الحرام (١٩٢٨).

والفطرة لا تختلف في إنسان عن آخر، وهو لهذا صالح لكل درجة من درجة الحضارة<sup>١</sup> (لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم الجامعات العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكن للغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله ﷺ إلينا اليوم لكان ميسوراً له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد. وذلك عكس ما يجده مثلاً أحد معاصري (رايبليه) من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن، من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيي اليوم)<sup>٢</sup>

(أحسنّ المشركون، في دخيلة نفوسهم، أن قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم وكلهم كثيراً ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الألفاظ الأحاذة التي ألهمها إيمان سماوي، ولم يمنعهم عن الإسلام إلا قوة حبيهم لأعراض الدنيا)<sup>٣</sup>

(إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا محمداً كانت في الواقع معجزات وقتية وبالتالي معرضة للنسيان السريع. بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية: (المعجزة الخالدة) وذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة في كتاب الله، وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوروبيون لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلاً عن أنها غير دقيقة)<sup>٤</sup>

(إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه، يحدث مثل هذا التأثير في [نفوس علماء] لا يمتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة، فماذا ترى أن يكون من قوة الحماسة التي تستهوي عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة؟.. لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغته، فيظنون في مكائهم وكأهمهم قد سَمروا فيه. أهذه الآيات الخارقة تأتي من محمد ذلك الأمي الذي لم ينل حظاً من المعرفة؟.. كلا إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وأنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات)<sup>٥</sup>

(لا عجب أن نرى النبي الأمي يتحدى الشعراء، ويعترف لهم بحق نعمتهم له بالكذب، أن اتنوا بعشر سور من مثله، فقد آمن بعجزهم عن ذلك)<sup>٦</sup>

وتحدث عن تأثير دراسته لشخصية محمد ﷺ في إنجذابه للإسلام، ومن أقواله في هذا قوله: (إن الشخصية التي حملها محمد بين برديه كانت خارقة للعادة وكانت ذات أثر عظيم جداً حتى إنها طبعت شريعته بطابع قوي

(١) محمد رسول الله، ناصر الدين دينيه، ص (٣٤٥)

(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٥.

(٣) محمد رسول الله، ص ١٠٦.

(٤) محمد رسول الله، ص ١١٨.

(٥) محمد رسول الله، ص ١١٩.

(٦) محمد رسول الله، ص ١٢١.

جعل لها روح الإبداع وأعطها صفة الشيء الجديد<sup>١</sup>  
وقوله: (إن نبي الإسلام هو الوحيد من بين أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات وليست عمدته الكبرى إلا بلاغة التتزيل الحكيم)<sup>٢</sup>  
(إن سنة الرسول الغراء باقية إلى يومنا هذا، يجلوها أعظم إخلاص ديني تفيض به نفوس [مئات الملايين] من أتباع سنته منتشرين على سطح الكرة)<sup>٣</sup>  
(كان النبي يعني بنفسه عناية تامة، إلى حد أن عرف له نمط من التألق على غاية من البساطة، ولكن على جانب كبير من الذوق والجمال، وكان ينظر نفسه في المرآة.. ليتمشط أو ليسوي طيات عمامته.. وهو في كل ذلك يريد من حسن منظره البشري أن يروق الخالق سبحانه وتعالى)<sup>٤</sup>  
(لقد (دعا) عيسى إلى المساواة والأخوة، أما محمد فوفق إلى (تحقيق) المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته)<sup>٥</sup>  
وتحدث عن تأثير المناهج الإسلامية في انجذابه للإسلام، فقال: (إن الأمم الإسلامية على اختلاف جنسياتها وبلدانها قد طبعها الإسلام بطابعه الواضح المحسوس. بل إن آثاره لا تزال باقية في أهل أسبانيا وإن كانوا قد ارتدوا عنه منذ خمسة قرون)<sup>٦</sup>  
(إن الإسلام [هو] عقيدة التوحيد الإلهية العليا، وله تلك المبادئ السامية التي تقوم عليها تلك العقيدة..  
[ونحن نطلب] من خصومنا أن يدلونا عليها في الإنجيل أو في كتاب مقدس آخر إن كانوا صادقين)<sup>٧</sup>  
(إن الإسلام منذ البداية في أيامه الأولى قد أخذ في محاربة الخرافات والبدع، وهو نفس العمل الذي يقوم به العلم إلى يومنا هذا)<sup>٨</sup>  
(كما أن الإسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات.. وبينما تجد الإسلام يهيج من نفسه الرجل العملي في أسواق لندن حيث مبدأ القوم (الوقت من ذهب) إذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الروحاني، وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقي ذو التأملات.. إذ يهواه ذلك الغربي الذي أفناه الفن وتملكه الشعر)<sup>٩</sup>  
(عندما رفع الله إليه مؤسس الإسلام كان هذا الدين القويم قد تمّ تنظيمه نهائياً، وبكل دقة، حتى في أقل

- 
- (١) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٥.
  - (٢) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٦.
  - (٣) محمد رسول الله، ص ٥١.
  - (٤) محمد رسول الله، ص ٣١٢.
  - (٥) محمد رسول الله، ص ٣٢٣.
  - (٦) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٥.
  - (٧) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٥.
  - (٨) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٨.
  - (٩) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٨.

تفاصيله شأنًا<sup>١</sup>

وتحدث عن إعجابه الشديد بسماحة الإسلام والمسلمين، فقال: (من الحقائق التاريخية أن النبي أعطى أهل نجران) المسيحيين نصف مسجده ليقوموا فيه شعائرهم الدينية. وها نحن أولاً نرى المسلمين إذا بشروا بدينهم فإنهم لا يفعلون مثل ما يفعل المسيحيين في الدعوى إلى دينهم، ولا يتبعون تلك الطرق المستغربة التي لا تتحملها النفس والتي يجربها الذوق السليم. وقد أنصف القس ميثون الحقيقة في كتابه (سياحة دينية في الشرق) حيث يقول: إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدم قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم)<sup>٢</sup>

(ليس من فخار المسيحية أن تضم في تعدادها أولئك الذين يباعون لها من ولدان العبيد ولا أولئك اليتامى الذين ينشأون في مهادها نشأة دينية مسيحية. أما الذين يعتنقون الإسلام في وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم فإنما هم الخاصة سواء كانوا من الهيئات الاجتماعية الأوروبية أو الأمريكية، كما أن إخلاصهم في ذلك لا شك فيه لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية)<sup>٣</sup>

(إن الإسلام بلغ من تماسك بنائه، ومن حرارة إيمان أهله، ما جعله يهيء العالم بوثبته الهائلة التي لا نظن أن لها في سجلات التاريخ مثيلاً، ففي أقل من مائة عام، ورغم قلة عددهم، استطاع العرب الأجداد وقد اندفعوا لأول مرة في تاريخهم، خارج حدود جزيرتهم.. أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم: من الهند إلى الأندلس)<sup>٤</sup>

(المسلمون، على عكس ما يعتقد الكثيرون، لم يستخدموا القوة أبداً خارج حدود الحجاز.. لإكراه غيرهم على الإسلام. وإن وجود المسيحيين في إسبانيا للدليل واضح على ذلك، فقد ظلوا آمنين على دينهم طوال القرون الثمانية التي ملك فيها المسلمون بلادهم وكان لبعضهم مناصب رفيعة في بلاط قرطبة. ثم إذا بمؤلاء المسيحيين أنفسهم يصبحون أصحاب السطان في هذه البلاد فكان أول هم لهم أن يقضوا قضاء تاماً على المسلمين)<sup>٥</sup>

(إن القدوة الحسنة التي لا تقترن بمحاولة التبشير المتعصبة، هي أقوى أثراً في النفوس التقية من مضايقات القسس المبشرين. ولقد اضطر العالم (دوزي) - رغم تعصبه ضد الإسلام - إلى الاعتراف بأن الكثير من المسيحيين الذين كانوا في إسبانيا (اعتنقوا الإسلام عن عقيدة)<sup>٦</sup>

( وكيف لا يكون المسلم متسامحاً وهو يجلب الأنبياء الذين يجلبهم اليهود والنصارى فموسى بالنسبة إليه (كليم الله) وعيسى (روح الله) يجب تبجيله كما يجلب محمد (حبیب الله): ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣١٥.

(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ١٨.

(٣) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٩.

(٤) محمد رسول الله، ص ٣١٥.

(٥) محمد رسول الله، ص ٣٣٢.

(٦) محمد رسول الله، ص ٣٣٣.

وتحدث عن المنجزات العظيمة التي أنجزها الإسلام مقارنة بغيره من الديانات والمذاهب والأفكار، فقال: (إن الفروسية ونبالة قصدها لم يكن يعرفها الأقدمون من اليونان والرومان ولكنها كانت معروفة عند العرب أيام جاهليتهم ثم هذبها الإسلام وطهرها تطهيراً. وعلى يده دخلت أوروبا ووصلت إلينا نحن الغربيين. ولم يبق أحد اليوم ينكر نسبتها إلى العرب)<sup>٢</sup>

(نستطيع أن نبرهن على أن المحاولات الأولى في السعي إلى تحرير الفكر كانت أثرًا منطقيًا للمبادئ التي جاء بها محمد فيلى الفيلسوف المسلم ابن رشد يرجع الفضل في إدخال حرية الرأي (التي يجب أن لا نخلط بينها وبين الإلحاد) في أوروبا. وقد عارض ابن رشد وحدة الوجود القديمة والتجسيم المسيحي بعقيدة الإيمان بالله وحده في الإسلام، وتحمس أحرار الفكر في العصر الوسيط الأوروبي لشروحه لأرسطو، وإن كان هذه الشروح مصبوغة بصيغة إسلامية قوية. ويمكن أن نعتبر - بحق - أن التيار الفكري الذي نشأ عن هذا التحمس لابن رشد كان أصل التفكير المنطقي الحديث فضلاً عن كونه من أصول الإصلاح الديني)<sup>٣</sup>

(لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التي لا تغلب، وإنما هو يساير قوانينها ويزامل أزمانها، بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شؤون الحياة مثل ذلك الغرض الذي تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهينة، فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون غرباء. على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة وأن لا يتمرد عليها وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعل أكثر قبولاً وأسهل تطبيقاً في إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور حتى لقد سمي القرآن لذلك (بالهدى) لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة والأمثلة العديدة لا تعوزنا، ولكننا نأخذ بأشهرها وهو التساهل في سبيل تعداد الزوجات.. فمما لا شك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق بل هو الحال الذي يستحيل تنفيذه. لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع، وهو دين اليسر، إلا أن يستين أقرب أنواع العلاج فلا يحكم فيه حكماً قاطعاً ولا يأمر به أمراً بآناً)<sup>٤</sup>

(هل حقيقي أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبري لفردية الزوجة وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه؟ وإلا فهؤلاء مثلاً ملوك فرنسا - دع عنك الأفراد - الذين كانت لهم الزوجات المتعددة والنساء الكثيرات وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام. وإن تعدد الزوجات قانون طبيعي وسيمقى ما بقي العالم، ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذي أرادته فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه.. إن نظرية التوحيد في الزوجة [التي] تأخذ بها المسيحية ظاهراً تنطوي تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث

(١) محمد رسول الله، ص ٣٣٣.

(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٢٨.

(٣) محمد رسول الله، ص ٣٢٤.

(٤) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣١.

نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء، تلك هي الدعارة، والعوانس من النساء، والأبناء غير الشرعيين. إن هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق وإنما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدينة الغربية)<sup>١</sup>

(جاء في كتاب (الإسلام) تأليف (شمتز دوملان)(٣) أنه (ندما غادر الدكتور مافروكو ردا تو الأستانة سنة ١٨٢٧ إلى برلين لدراسة الطب لم يكن في العاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة. كما لم يعرف فيها داء الزهري - وهو السفلس المعروف بالشرق بالمرض الإفرنكي - فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين تبدل الحال غير الحال. وفي ذلك يقول الصدر الأعظم الكبير رشيد باشا في حسرة موجعة: إننا نرسل أبناءنا إلى أوروبا ليتعلموا المدينة الإفرنكية فيعودون إلينا مرضى بالداء الإفرنكي)<sup>٢</sup>

(إننا نخشى أن تخرج المرأة الشرقية إلى الحياة العصرية.. فينتابها الرعب لما تشهده لدى أخواتها الغربيات، اللائي يسعين للعيش وينافس في ذلك الرجال، ومن أمثلة الشقاء والبؤس الكثيرة)<sup>٣</sup>  
(إن تعاليم المرأة يسائر كل المسائرة جميع تعاليم الدين، وقد كان في عصر ازدهار الإسلام يفاض يفاضاً على المسلمات، وكانت ثقافتهن حينذاك ارفع من ثقافة الأوربيات دون جدال)<sup>٤</sup>

(ليس من الجرأة أن يظن أنه إذا هدأت الزوبعة المروعة القائمة ضد الإسلام، وضمن هو الاحترام لكل الشعوب والديانات، أنه سيري مستقبلاً حافلاً بأعظم الآمال وأعلاها شأنًا. فإذا ما دخل في الحضارة الأوروبية بفضل اشتراكه العظيم في الحوادث.. سيتضح سناه الحقيقي، وستعرف الأمم المختلفة حقيقته التي حجبت عنهم زمنًا، وسيمد الكل أيديهم لمخالفته متنافسين في ذلك، لأن قيمته قد خبروها وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التي لا حد لها ولا نفاذ. ولو نهض أتباع محمد عليه السلام وأفاقوا من سباتهم العميق لرجع لهم عزهم السالف وتاريخهم المجيد وصاروا أمة لا تعرف الجور في معاملتها لكل رعاياها.. وتبوأوا مكاهم الذي يليق بمجدهم إن شاء الله)<sup>٥</sup>

### كات ستيفنس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كات ستيفنس)<sup>٦</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو الاسم القديم للمغني الإنجليزي (يوسف إسلام)

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٢.

(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٣.

(٣) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٤٠.

(٤) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص ٣٤١.

(٥) محمد رسول الله، ص ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٦) ولد يوسف إسلام تحت اسم ستيفن ديمتري جورجيو في شهر يوليو/ تموز ١٩٤٧ لأم سويدية وأب من القبارصة اليونانيين. وترى ستيفن في حي ويست إند بلندن في شقة تقع فوق المطعم المملوك لوالديه. ونظرًا لأن والده كان من القبارصة اليونانيين، فإنه كان يعتنق مذهب الأورثوذكس اليونان لكنه تلقى تعليمه في مدرسة كاثوليكية. وحصل ستيفن على ٨ ألبومات ذهبية متتالية، وحازت أغانيه على شهرة واسعة في بريطانيا والولايات المتحدة.

قلت: أعرفه.. ويعلم الله شدة محبتي له.. فهل التقيته؟

قال: أجل.. لقد تشرفت بذلك، وقد جمعي معه — ومعنا بعض الناس — مجلس من المجالس، وقد سأله بعضهم عن قصة إيمانها، فقال: أود أن أبدأ قصتي بما تعرفونه جميعاً، وهو أن الله قد أستخلفنا في الأرض وأرسل لنا الرسل وآخرهم رسولنا محمد ﷺ ليهدينا إلى الطريق القويم، وعلى الإنسان أن يلاحظ واجبه نحو هذا الإستخلاف وأن يسعى لتحضير نفسه للحياة الخالدة القادمة فمن تفوته الفرصة الآن لن تأتيه أخرى فلن نعود ثانية حيث يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذُ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٢-١٤)، وقال: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (فاطر: ٣٧)

وقد نشأت في بيئة مرفهة تملؤها أضواء العمل الفني الإستعراضي المبهرة.. وكانت أسرتي تدين بالمسيحية، وكانت تلك الديانة التي تعلمتها، وقد تعلمت من خلالها أن الله موجود، ولكن لا يمكننا الإتصال المباشر به، فلا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق عيسى فهو الباب للوصول إلى الله، وبالرغم من اقتناعي الجزئي بهذه الفكرة إلا أن عقلي لم يتقبلها بالكلية.

وكنت أنظر إلى تماثيل النبي عيسى فأراها حجارة لا تعرف الحياة، وكانت فكرة التثليث أو ثلاثية الإله تقلقني وتحيرني، ولكني لم أكن أناقش أو أحادل احتراماً للمعتقدات والدي الدينية. ثم بدأت أنصرف عن الدين شيئاً فشيئاً.. لأنشغل بالموسيقى والغناء، فقد كنت أرغب في أن أكون مغنيا مشهوراً.

وقد أخذتني تلك الحياة البراقة بمباهجها ومفاتها فأصبحت هي إلهي، وأصبح الثراء المطلق هو هديتي تأسياً بأحد أحوالي الذي كان واسع الثراء، وبالطبع كان للمجتمع من حولي تأثير بالغ في ترسيخ هذه الفكرة داخلي حيث أن الدنيا كانت تعني لهم كل شيء وكانت هي إلههم.

ومن ثم اخترت طريقي وعزمت أن يكون المال هو هديتي الأوحده، وأن تكون هذه الحياة هي مبلغ المني ونهاية المطاف بالنسبة لي، وكان قدوتي في هذه المرحلة كبار مطربي البوب العالميين، وانغمست في هذه الحياة الدنيوية بكل طاقتي، وقدمت الكثير من الأغاني ولكن داخلي وفي أعماق نفسي كان هناك نداء إنساني ورغبة في مساعدة الفقراء عند تحقيقي للثراء المنشود.

ولكن النفس البشرية — كما يجربنا القرآن الكريم — لا تفي بكل ما تعد به، بل تزداد طمعاً كلما منحت المزيد، وقد حققت نجاحاً واسعاً، وأنا لم أتعد سنواتي التسعة عشرة بعد، واحتاحت صوري وأخباري وسائل الإعلام المختلفة، فجعلوا مني أسطورة أكبر من الزمن وأكبر من الحياة نفسها، وكانت وسيلتي لتعدي حدود الزمن والوصول إلى القدرات الفائقة هي الانغماس في عالم الخمور والمخدرات. بعد مضي عام تقريباً من النجاح المادي والحياة الراقية وتحقيق الشهرة أصبت بالسل ودخلت المستشفى،

وأثناء وجودي بالمستشفى أخذت أفكر في حالي وفي حياتي: هل أنا جسد فقط، وكل ما عليّ فعله هو أن أسعد هذا الجسد؟ ومن ثم فقد كانت هذه الأزمة نعمة من الله حتى أفكر في حالي، وكانت فرصة من الله حتى أفتح عيني على الحقيقة وأعود إلى صوابي.. لماذا أنا هنا راقداً في هذا الفراش؟

وأسئلة أخرى كثيرة بدأت أبحث لها عن إجابة، وكان اعتناق عقائد شرق آسيا سائداً في ذلك الوقت، فبدأت أقرأ في هذه المعتقدات، وبدأت لأول مرة أفكر في الموت وأدركت أن الأرواح تنتقل حياة أخرى، ولن تقتصر على هذه الحياة، وشعرت آنذاك أنني على بداية طريق الهداية، فبدأت أكتسب عادات روحانية مثل التفكير والتأمل وأصبحت نباتياً كي تسمو نفسي وأساعدها على الصفاء الروحي، وأصبحت أؤمن بقوة السلام النفسي وأتأمل الزهور.. ولكن أهم ما توصلت إليه في هذه المرحلة هو إدراكي أنني لست جسداً فقط. وفي أحد الأيام بينما كنت ماشياً إذا بالمطر يهطل، وأجديني أجري لأحتمي من المطر، فتذكرت مقولة كنت قد سمعتها قبل ذلك، وهي أن الجسد مثل الحمار الذي يجب تدريبه حتى يأخذ صاحبه أينما يريد، وإلا فإن الحمار سيأخذ صاحبه إلى المكان الذي يريده هو.

إذاً فأنا إنسان ذو إرادة، ولست مجرد جسد كما بدأت أفهم من خلال قراءتي للمعتقدات الشرقية، ولكني سمعت المسيحية بالكلية، وبعد شفائي عدت لعالم الغناء والموسيقى ثانياً، ولكن موسيقي بدأت تعكس أفكارني الجديدة، وأتذكر إحدى أغنياتي التي قلت فيها:

ليتبني أعلم

ليتبني أعلم من خلق الجنة والنار

ترى هل سأعرف هذه الحقيقة وأنا في فراشي

أم في حجرة متربة

بينما يكون الآخريين في حجرات الفنادق الفاخرة.

وعندها عرفت أنني على الطريق السليم.

وفي ذلك الوقت كتبت أيضاً أغنية أخرى (الطريق إلى معرفة الله)

وقد ازدادت شهرتي في عالم الموسيقى، وعانيت من أوقات عصيبة لأن شهرتي وغناي كانتا تزدادان بينما

كنت من داخلي أبحث عن الحقيقة.

وفي تلك المرحلة أصبحت مقتنعاً أن البوذية قد تكون عقيدة نبيلة وراقية ولكني لم أكن مستعداً لترك العالم والتفرغ للعبادة، فقد كنت ملتصقاً بالدنيا ومتعلقاً بها، ولم أكن مستعداً لأن أكون راهباً في محراب البوذية وأعزل نفسي عن العالم.

وبعدها حاولت أن أجد ضالتي التي أبحث عنها في علم الأبراج أو الأرقام ومعتقدات أخرى لكنني لم أكن مقتنعاً بأي منها.

ولم أكن أعرف أي شيء عن الإسلام في ذلك الوقت وتعرفت عليه بطريقة اعتبرها من المعجزات، فقد سافر أخي إلى القدس وعاد مبهوراً بالمسجد الأقصى وبالحركة والحيوية التي تعج بين جنباته على خلاف



الكنائس والمعابد اليهودية التي دائماً ما تكون حاوية.

وقد أحضر لي أخي من القدس نسخة مترجمة من القرآن، وعلى الرغم من عدم إعتناقه الإسلام إلا أنه أحس بشيء غريب تجاه هذا الكتاب وتوقع أن يعجبني وأن أجد فيه ضالتي.

وعندما قرأت الكتاب وجدت فيه الهداية، فقد أخبرني عن حقيقة وجودي والهدف من الحياة وحقيقة خلقي ومن أين أتيت، وعندما أيقنت أن هذا هو الدين الحق، وأن حقيقة هذا الدين تختلف عن فكرة الغرب عنه وأنها ديانة عملية وليست معتقدات تستعملها عندما يكبر سنك وتقل رغبتك في الحياة مثل المعتقدات الأخرى.

ويصم المجتمع الغربي كل من يرغب في تطبيق الدين على حياته والإلتزام به بالتطرف، ولكني لم أكن متطرفاً فقد كنت حائراً في العلاقة بين الروح والجسد فعرفت أنهما لا ينفصلان وأنه بالإمكان أن تكون متديناً دون أن تهجر الحياة وتسكن الجبال، وعرفت أيضاً أن علينا أن نخضع لإرادة الله وأن ذلك هو سبيلنا الوحيد للسمو والرفي الذي قد يرفعنا إلى مرتبة الملائكة، وعندما قويت رغبتي في اعتناق الإسلام.

وبدأت أدرك أن كل شيء من خلق الله ومن صنعه وأنه لا تأخذه سنة ولا نوم، وعندما بدأت أتنازل عن تكبري لأني عرفت خالقي وعرفت أيضاً السبب الحقيقي وراء وجودي وهو الخضوع التام لتعاليم الله والانقياد له وهو ما يعرف بالإسلام.

وعندها اكتشفت أني مسلم في أعماقي، وعند قراءتي للقرآن علمت أن الله قد أرسل بكافة الرسل برسالة واحدة، إذاً فلماذا يختلف المسيحيين واليهود؟ نعم، لم يتقبل اليهود المسيح لأنهم غيروا كلامه، وحتى المسيحيون أنفسهم لم يفهموا رسالة المسيح وقالوا أنه ابن الله، كل ما قرأته في القرآن من الأسباب والمبررات بدا معقولاً ومنطقياً.

وهنا يكمن جمال القرآن فهو يدعوك أن تتأمل وأن تتفكر وأن لا تعبد الشمس أو القمر، بل تعبد الخالق الذي خلق كل شيء، فالقرآن أمر الإنسان أن يتأمل في الشمس والقمر وفي كافة مخلوقات الله. فهل لاحظت إلى أي مدى تختلف الشمس عن القمر؟ فبالرغم من إختلاف بعدهما عن الأرض إلا أن كل منهما يبدو وكأنه على نفس البعد من الأرض! وفي بعض الأحيان يبدو وكأن أحدهما يغطي الآخر! سبحان الله.

وعندما صعد رواد الفضاء إلى الفضاء الخارجي ولاحظوا صغر حجم الأرض مقارنة بالفضاء الخارجي أصبحوا مؤمنين بالله لأنهم شاهدوا آيات قدرته.

وكلما قرأت المزيد من القرآن عرفت الكثير عن الصلاة والزكاة وحسن المعاملة.. ولم أكن قد اعتنقت الإسلام بعد، ولكني أدركت أن القرآن هو ضالتي المنشودة، وأن الله قد أرسله إلي، ولكني أبقيت ما بداخلي سرا لم أبح به إلى أحد.

وبما أن فهمي يزداد لمعانيه عندما قرأت أنه لا يحل للمؤمنين أن يتخذوا أولياء من الكفار تمنيت أن ألقى إخواني في الإيمان.

وفي ذلك الوقت فكرت في الذهاب إلى القدس مثلما فعل أخي، وهناك بينما أنا جالس في المسجد سألني

رجل: ماذا تريد؟ فأخبرته بأني مسلم، وبعدها سألني عن اسمي فقلت له: «ستيفنس»، فتحير الرجل، وانضمت إلى صفوف المصلين، وحاولت أن أقوم بالحركات قدر المستطاع.

بعد عودتي إلى لندن قابلت أختا مسلمة اسمها نفيسة، وأخبرتها برغبتني في إعتناق الإسلام، فدلّني على مسجد نيو ريجنت، وكان ذلك في عام ١٩٧٧ بعد عام ونصف تقريبا من قراءتي للقرآن، وكنت قد أيقنت عند ذلك الوقت أنه عليّ أن أتخلص من كبريائي وأتخلص من الشيطان وأتجه إلى اتجاه واحد.

وفي يوم الجمعة بعد الصلاة اقتربت من الإمام وأعلنت الشهادة بين يديه.

سكت قليلا، ثم قال: رغم تحقيقي للثراء والشهرة إلا أنني لم أصل إلى الهداية إلا عن طريق القرآن، والآن أصبح بإمكانني تحقيق الاتصال المباشر مع الله بخلاف الحال في المسيحية والديانات الأخرى.

لقد أخبرتني سيدة هندوسية ذات مرة قائلة: «أنت لا تفهم الهندوسية، فنحن نؤمن بإله واحد، ولكننا نستخدم هذه التماثيل للتركيز».. ومعنى كلامها أنه يجب أن تكون هناك وسائل لتصلك بالله، ولكن الإسلام أزال كل هذه الحواجز، والنشء الوحيد الذي يفصل بين المؤمنين وغيرهم هو الصلاة، فهي السبيل إلى الطهارة الروحية.

وأخيرا أود أن أقول: إن كل أعمالي أبتغي بها وجه الله، وأدعو الله أن يكون في قصتي عبرة لمن يقرؤها.. وأود أن أقرر أنني لم أقابل أي مسلم قبل اقتناعي بالإسلام، ولم أتأثر بأي شخص، فقد قرأت القرآن ولاحظت أنه لا يوجد إنسان كامل، ولكن الإسلام كامل، وإذا قمنا بتطبيق القرآن وتعاليم الرسول ﷺ، فسوف ننجح في هذه الحياة. أدعو الله أن يوفقنا في إتباع سبيل الرسول عليه الصلاة والسلام. آمين.

### ويل سميث:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ويل سميث)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا ممثل أمريكي وفقه الله، فأسلم بعد أثار فضوله للبحث في الإسلام تمثيله لفيلم (علي)، الذي يحكي قصة حياة لاعب الملاكمة الأمريكي المسلم (محمد علي كلاي)، فعندما قرأ قصة حياة محمد علي، بدأ يتساءل حول ماهية هذه الديانة العظيمة، وبدأ يبحث في أسرارها وكيف تزداد قوة يوما بعد يوم وكيف يزداد كذلك عدد معتنقيها يوما بعد يوم، وخاصة في الولايات المتحدة أكثر منها في أي بلد آخر.

واكتشف ويل سميث، بعد قراءة الكثير عن الإسلام، الحقيقة، التي تؤكد أن الإسلام هو الطريق الذي يجب اتباعه في هذه الحياة، وكان قد اتصل ببعض الإتحادات والمراكز الإسلامية بالولايات المتحدة، وقرر اعتناق الإسلام.

وقد ذكر هذا الممثل العالمي أنه سوف يواصل الدراسة والبحث حول الإسلام لكي يستطيع أن يطبقه كما ينبغي أن يطبق.

وقد ذكر السيد سفيان زاكوت.. وهو مدير رابطة مسلمي أمريكا الشمالية.. أن محمد علي هو مثل جيد للمسلمين، وكذلك هو متحدث جيد عن الإسلام في الولايات المتحدة في كافة المجالات، وإذا استطاع ويل سميث أن يقوم بنفس الدور فسوف يكون ذلك مفيدا جدا للمسلمين في أمريكا.

وكان ويل سميث قد ظهر في برنامج في التلفزيون الأمريكي لجمع التبرعات لحادث سبتمبر إلى حوار محمد علي، وقد دافعا عن الإسلام، وقالوا عنه: إنه دين السلام والمحبة.

### جينو لو كابوتو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جينو لو كابوتو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا فنان إيطالي، وقد كان يرأس مهرجان البحر الأبيض المتوسط في مدينة بيشيله الإيطالية منذ عام ١٩٩٦ وله اهتمامات عدة في المسرح والسينما والشعر وكذلك في ثقافة الأطفال وفنونهم بالإضافة الي كونه رائد المهرجان الدولي شعر — موسيقي — مسرح الذي يقام في مدينة كونفر سانو بجنوب إيطاليا.

وقد قدر الله أن ألتقي به بعد إعلان إسلامه في عمان، وقد سألته عن سر اعتناقه للإسلام، فأجاب: منذ أكثر من عشرين سنة، وأنا أطوف في بلدان عربية وإسلامية وأعيد مخزوني الثقافي متوغلاً في تفاصيل الإسلام حيث تعلمت أركانه والآذان والصلاة فضلاً عن اقترابه الشديد من الدين المسيحي وعرفت أن الإسلام هو إلى الأبد، مدعوماً بنصائح ودروس كنت أتلقيها من صديقي الدكتور سلطان العويضة الملحق الثقافي السعودي إذ تفرغ لي كثيراً وأعطاني الكثير من المعلومات والقصص وسير المسلمين وأهمية القرآن الكريم وأحاديث خاتم الأنبياء محمد ﷺ لدرجة أنني شعرت بانتصار روحي فور دخولي الدين الإسلامي، هذا وقررت تعلم اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم والمواظبة علي حفظ حدود الله بالإضافة الي دراسة تاريخ الصحابة من المسلمين الأوائل.

وأضاف: لقد وجدت أن كل الحضارات الإنسانية تستلهم قيمها من الدين الإسلامي نفسه، وأن ابن خلدون وابن رشد هما عربيان وللأسف ان الغرب ينظر الي الإسلام نظرة خاطئة.

وقال: أرى أن الإسلام يحمل المعاني السامية والنييلة ويهذب الذات ويعطي للإنسان أملاً وحياة تنبض بالخير والعطاء والإيمان والسلام، وأدركت أن الإنسان لا يمكن أن يعيش لوحده من دون الله.

### جيرمان جاكسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جيرمان جاكسون)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مغن أمريكي.. وهو شقيق المغني المعروف (مايكل جاكسون)، وقد قدر الله أن ألتقي به لأسأله عن سر إسلامه، فكان من جوابه لي: عند زيارتي إلى عدد من دول منطقة الشرق الاوسط في عام ١٩٨٩ بصحبة أختي الكبرى، حيث زرنا خلال هذه المرحلة البحرين ورحب بنا الكثيرون.

وكنت مرة أبتادل الحديث مع الاطفال في النامة خلال تلك الرحلة، فمن جملة أسئلتهم البريئة سؤال كان عن ديني، فأجبتهم بأنني مسيحي، وسألتهم بدوري عن دينهم، فأجابوني بصوت واحد أن دينهم الإسلام، وكانوا فخورين جدا بالانتماء لهذا الدين، وانطلقوا في الحديث عنه، وسألتهم أكثر عنه، وصار كل واحد منهم يحدثني عن الإسلام بطريقة أدهشتني، فهؤلاء الاطفال الذين أحببتهم كانوا فخورين جدا بدينهم ويتحدثون عنه بسعادة غامرة.

(١) انظر قصة غسلامه في حوار أجرته معه مجلة (المجلة) في العدد ٩٦٦.

بعد عودتي من البحرين والحديث مع أولئك الاطفال عن الإسلام تيقنت من أنني سأصبح مسلماً.. وتحدثت مع صديق لي اسمه علي قنبر عن هذا الشعور الذي بدأ ينتابني منذ فترة، وأفصحت له عن رغبتني في تعلم المزيد عن الإسلام، وسافرت معه الى المملكة العربية السعودية لأتعرّف على الإسلام أكثر فأكثر، وهناك أعلنت اسلامي.

سكت قليلاً، ثم قال: سافرت مع صديقي علي قنبر الى مدينة الرياض لمعرفة المزيد عن الإسلام، ومن هناك سافرت الى جدة واصطحبتي اسرة سعودية كريمة بعد اعتناقي للإسلام الى مكة المكرمة لاداء العمرة. وقد وصف جاكسون أنه بعد إسلامه شعر بأنه ولد من جديد، يقول: كانت لدي العديد من الاسئلة الحائرة التي ابحث لها عن اجابات، خاصة الاسئلة المتعلقة بالمسيحية وعيسى عليه السلام، فوجدت إجابات جاهزة ومقنعة لكل هذه الاسئلة لحظة اعتناقي الإسلام.

وقد كنت في حيرة من امري كمسيحي نشأ في أسرة متدينة، اذ كان يجيرني دائماً أن الانجيل مكتوب على ايدي اشخاص عاديين، وكان دائماً يخاطر ببالي أن هؤلاء بشر فكل واحد منهم سيراعي نفسه ومجموعته في ما يكتب، بينما القرآن كتاب الله حفظه الله على مر السنين والاحيال: ﴿إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)

وفي السعودية وجدت اشرفة جميلة جدا للمغني البريطاني السابق والداعية الإسلامي يوسف اسلام، وفيها مناظرة حول الإسلام والمسيحية ومنها تعلمت الشيء الكثير.

وقد حدثني في لقائني معه عن الحملة الإعلامية الحائرة التي يعترض لها الإسلام، وقد ذكر لي عجب من أن الناس العاديين في اميركا يصدقون هذه الحملة الاعلامية الحائرة لجهلهم بحقيقة الإسلام وسماحة هذا الدين. قال جاكسون: ان الحملة الاعلامية الحائرة في اميركا ضد الإسلام والمسلمين لم تقتصر على اجهزة الاعلام المختلفة، بل ان هوليوود عاصمة صناعة السينما الاميركية تحاول فيما تنتجه من أفلام أن تصور للناس ان المسلمين ارهابيون وقتلة واشرار. ولقد عرفت من خلال تجربتي قبل اعتناقي الإسلام وبعده ان الناس عليهم الا يصدقوا ما تنتجه هوليوود من افلام تسيء الى الإسلام والمسلمين. وان هذا التشويه يؤم كل مسلم ويجعله يتمنى لو انه يستطيع تغيير هذه الصورة بصورة الإسلام الحقيقية اسلام الحضارة والنور، اسلام التسامح والاخاء.

وقد ذكر لي تأثير الإسلام فيه، فقال: لقد قدم لي الإسلام حلاً لكل مشكلاتي، فأصبحت إنساناً بلا أي مشاكل، وكنت من داخلي أغير بشكل رائع، حيث امتنعت عن شرب الخمر تماماً وغيرها من الاشياء المحرمة امثالاً لأوامر ديني الجديد.

### برايين هوايت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (برايين هوايت)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا

(١) انظر: المسلمون الجدد - إعداد: إمام محمد إمام.

اسم موسيقي بريطاني هداه الله للإسلام، وقد اختار أن يسمى بعد إسلامه (إبراهيم هويت) وقد تشرفت بالالتقاء به والحديث معه عن سر إسلامه، ولست أدري لم اختار أن يبدأ حديثه بقوله: من المحتمل أن أكون عنصريا متطرفا في عنصريتي قبل اعتناقي للدين الإسلامي، الدين الذي علمني معنى التسامح والتراحم بين الناس ونزع عني شرور التطرف والكراهية والقسوة.

ثم أضاف: اعتقد أنه من فرط عنصريتي وتطرفي أنني لم اتحدث مع شخص غير أبيض لمدة ٢١ عاما من حياتي، فكنت شخصا معتدا بنفسه وبلون بشرته أكثر من اللازم، وأعيش حياة نظيفة وراقية، وأجتهد في عملي كسائر أبناء الشمال البريطاني. وكنت أحسب أن العالم ينتهي عند مدينة ميدلسير البريطانية، حيث تنشئت وتربيته هناك.

ثم حدثني عن كون هذا هو سر إسلامه فيما بعد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد ذكر لي أنه ذهب إلى أحد المساجد في مدينة جوهانسبرج بجنوب إفريقيا، وشاهد مصليين من مختلف الاجناس والألوان يصلون مع بعضهم بعضا، فاندھش لذلك اندھاشا كان مقدمة لإسلامه، قال لي: عندما رأيت ذلك المشهد الرهيب قلت لنفسني: ما هي حقيقة الإسلام؟ هذا الدين الذي يستطيع أن يجمع الناس في جنوب افريقيا من كل الاماكن ومن مختلف الاجناس والألوان؟ وعندما عدت الى بريطانيا حرصت على البدء في القراءة عن الدين الإسلامي.

ثم قررت اشهار اسلامي بعد دراسة عميقة للدين الإسلامي، وشعرت بارتياح وسعادة بالعتين، لان الله سبحانه وتعالى هداني الى هذا القرار الخاص باعتناقي للإسلام. وسارعت الى تعليق آلاي الموسيقى وهجرت شرب الخمر والذهاب الى الحانات والليالي الصاخبة.

### كريستيان باكر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كريستيان باكر)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم مغنية من قناة إم تي في (MTV) الأوروبية، وقد ولدت في عائلة بروتستانتية وعاشت في هامبورج، بألمانيا، وقد حدثني عن نفسها قبل إسلامها، والألم يعتصرها، فقالت: عندما كنت في سن الواحدة والعشرين اشتركت في راديو هامبورج كمذيعة في الراديو.. وعشت في نوتينج هيل، وكنت البنت الجديدة في المدينة، لقد دعيت إلى كل مكان، وصورني المصورون وتابعتني الصحافة.. التقيت بالكثير من المشاهير، واستمتعت بوقتي.. لقد أنفقت معظم مالي في الملابس، وسافرت إلى كل أوروبا، وإلى أفضل الأماكن.

لقد كنت الفتاة الأولى في قناة إم تي في، وظهرت في شاشة التلفاز طوال الوقت، وعرفني الناس في أوروبا كلها، وفي وقت من الأوقات وقفت على المنصة أمام سبعين ألف شخص.. لسبع سنوات قدمت برامج كثيرة، وقابلت الكثيرين من نجوم الغناء.

قلت: فكيف تحولت عن هذه الحياة إلى حياة الإيمان؟

قلت: لقد كنت — في كل ذلك الضحيج — منجذبة نحو الحياة الروحية، ولكن لم أفعل أي خطوات

عملية نحو تلك الحياة إلى أن التقيت في عام ١٩٩٢م بعمران خان، وهو من فريق لعبة الكريكت الباكستاني، وكانت تلك أول مرة ألتقي فيها بمسلم.

وقد كان عمران في ذلك الوقت يبحث عن حقيقة الإيمان، وقد دارت بيننا الكثير من النقاشات عن الإسلام، وقد أعطاني بعض الكتب عن الإسلام، وبدأت أقرأ عن دين الله. وفي ذلك الحين بدأت في تحدي انحيازاتي، وبدأت أنظر بين السطور، وقرأت القرآن وبدأ كل شيء يكون له معنى.

قلت: إن قومنا يشوهون موقف الإسلام من المرأة، ألم يؤثر ذلك فيك؟

قالت: كامرأة غربية عصرية وذات درجة علمية، احتجت لأن أنظر إلى رؤية الإسلام للمرأة، لا يمكن أن أقبل بأن أظلم، فاكتشفت أن رسالة الإسلام مؤيدة للمرأة ومؤيدة للرجل، في الإسلام كان للمرأة حق التصويت في عام ٦٠٠، الرجال يلبسون ملابس محتشمة، والنساء يلبسون ملابس محتشمة، لا أحد من الجنسين يطلق العنان لنظره... بل كلا الجنسين يغض بصره، لا أظن أنهما ظاهرة صحية بأن يطلق الناس العنان لشهواتهم الجنسية.. إن ذلك يثير الشهوة الخاطئة مرة أخرى.

قلت: فبم اشتغلت بعد إسلامك؟

قالت: لقد فتحت الإسلام لي نوافذ كثيرة كانت مغلقة في وجهي.. أنا الآن أصلي الصلوات الخمس، وأصوم شهر رمضان.. وكنت أشرب الخمر في باريس.. ولكن الآن لا ألسها.. وفي عام ٢٠٠١ ذهبت إلى مكة.. وكانت تجربة رائعة.. لقد عدت بالسعادة والطمأنينة.. وعندما عدت بدأت بالدراسة الجامعية في جامعة ويست مينيستر، حيث درست الطب الطبيعي، والأعشاب، والطب الصيني.. لقد فتحت أمامي أبواب أخرى لعالم عجيب، النظرة الأخرى للإنسان والطبيعة، والصحة والمرض.

هذا ما حدثني به، وقد كان آخر ما ذكرته لي قولها، والبشر يعلو وجهها: الإسلام هو أكبر هدية حصلت عليها.

## خامسا — العلماء

فتحت دفتر البابا على فصله الخامس، فوجدت عنوانه (العلماء)، فقلت: من تقصد بالعلماء.. علماء الدين، أم علماء الدنيا.. أم كلاهما؟

قال: عندما وضعت هذا العنوان كنت لا أزال على دين قومي، ولهذا كنت أعتقد المفاصلة بين الدين والعلم.. فلماذا أطلقت اسم (الأحبار) على علماء الدين، وأطلقت هذا الاسم على علماء الدنيا.

قلت: فكيف أتبح لك أن تلقى من علماء الدنيا من يبتك نفحات صدقه.. وأنا لا أراهم إلا مشغولين بمخابريهم وبحوثهم وشهاداتهم وتنافسهم في كل ذلك.

قال: ما تقوله صحيح.. ولكن من هؤلاء العلماء من كان يتيح المجال لعقله ليجتهد في أسرار الكون.. وهؤلاء عادة لا يجدون ديناً يملؤهم بالقناعة غير الإسلام.

لقد ذكر القرآن الكريم تأثير الإيمان في العلماء، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: من

الآية ٢٨)

وقد أبحر القرآن الكريم أن الذين أوتوا العلم أقرب الناس إدراكاً للحق، فقال: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سبأ: ٦)

لقد حصل الكثير مما ذكر القرآن الكريم.. بل أنا أجزم أن المسلمين لو استطاعوا أن ينشروا تلك العجائب التي امتلأ بها القرآن لتحول جميع علماء الدنيا إلى مسلمين..

لقد سمعت مرة الدكتور زغلول النجار، وهو يتحدث عن تأثير نواحي الإعجاز العلمي في النصوص المقدسة.. فقال: دعيت مرة لحضور مؤتمر عقد للإعجاز في موسكو، فكرهت في بادئ الأمر أن أحضره، لأنه يعتقد في بلد كانت هي عاصمة الكفر والإلحاد لأكثر من سبعين سنة، وقلت في نفسي: ماذا يعلم هؤلاء الناس عن الله حتى ندعوهم إلي ما نادي به القرآن الكريم؟!

فقبل لي: لا بد من الذهاب، فإن الدعوة قد وجهت إلينا من قبل الأكاديمية الطبية الروسية.. فذهبتنا إلي موسكو، وفي أثناء استعراض بعض الآيات الكونية، وبالتحديد عند قول الله ﷻ: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٥) وقف أحد العلماء المسلمين وقال: إذا كانت ألف سنة تساوي قدران من الزمان غير متكافئين دل ذلك علي اختلاف السرعة. ثم بدأ بحسب هذه السرعة فقال: ألف سنة.. لا بد أن تكون ألف سنة قمرية، لأن العرب لم يكونوا يعرفون السنة الشمسية، والسنة القمرية اثنا عشر شهراً قمرياً، ومدة الشهر القمري هي مدار القمر حول الأرض، وهذا المدار محسوب بدقة بالغة، وهو ٢,٤ بليون كم.. و٢,٤ بليون مضروب في ١٢، وهو عدد شهور السنة، ثم في ألف سنة، ثم يقسم هذا الناتج علي أربع وعشرين، وهو عدد ساعات اليوم، ثم علي ستين — الدقائق — ثم علي

ستين — الثواني — فتوصل هذا الرجل إلي سرعة أعلي من سرعة الضوء.

فوقف أستاذ في الفيزياء — وهو عضو في الأكاديمية الروسية — وهو يقول: لقد كنت أظني — قبل هذا المؤتمر — من المبرزين في علم الفيزياء، وفي علم الضوء بالذات، فإذا بعلم أكبر من علمي بكثير، ولا أستطيع أن أعتذر عن تقصيري في معرفة هذا العلم إلا أن أعلن أمامكم جميعاً أنني (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)

ثم تبعه في ذلك أربعة من المترجمين،الذين ماتحدثنا معهم علي الإطلاق، وإنما كانوا قابعين في غرفهم الزجاجية يترجمون الحديث من العربية إلي الروسية والعكس، فجاءونا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ليس هذا فحسب وإنما علمنا بعد ذلك أن التلفاز الروسي قد سجل هذه الحلقات وأذاعها كاملة، فبلغنا أن أكثر من ٣٧ عالماً من أشهر العلماء الروس قد أسلموا. بمجرد مشاهدتهم هذه الحلقات. التفت البابا إلي، وقال: هذه ثمرات مؤتمر أكاديمي واحد، فكيف لو اجتهد المسلمون للوصول إلى مخابر هؤلاء العلماء ومحدثهم وجهها لوجه؟!

### موريس بوكاي:

كان أول اسم سجل في هذا الفصل اسم (موريس بوكاي)، فقلت: من هذا الرجل.. وكيف أتيت لك أن تلقي به.. وماذا قال لك.. وما؟!

قاطعني البابا قائلاً: هذا رجل عظيم، وهو من أكثر الشخصيات التي أحترمها.. وهو يمثل العالم المنصف، والباحث الواصل.

قلت: لم؟

قال: هو — أولاً — طبيب فرنسي، بل هو رئيس قسم الجراحة في جامعة باريس، وقد منحته الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٨٨م جائزة في التاريخ.. ويُعتبر كتابه (التوراة والقرآن والعلم) من أهم الكتب التي درست الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، وله — بالإضافة إليه — كتاب (القرآن الكريم والعلم العصري) قلت: فكيف كان رحلته إلى الإسلام؟

قال: لقد ذكر ذلك في كتبه.. وقد تشرفت بلقائه، فسمعت ذلك منه مشافهة، ومما ذكره لي قوله: (لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظواهر الطبيعية ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأنجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا. وأما بالنسبة للأنجيل.. فإننا نجد نصّ إنجيل متى



يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرًا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض<sup>١</sup>

قلت: فقد اهتدى إلى الإسلام بسبب مقارنته بين القرآن الكريم والكتاب المقدس في النواحي العلمية؟  
قال: أجل.. لقد كان شديد الإعجاب بما في القرآن الكريم من نواحي الإعجاز العلمي، وقد قال لي — في لقائي معه —: (لقد أثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقته تمامًا للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نصّ كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا.. في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام.. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وموضوعية تامة)<sup>٢</sup>  
لقد (تناولتُ القرآن منتبهًا بشكل خاص إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظواهر الطبيعية.. لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظواهر وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي، أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرة والتي لم يكن ممكنًا لأي إنسان في عصر محمد أن يكون عنها أدنى فكرة)<sup>٣</sup>

لقد كنت أقول لنفسي: (كيف يمكن لإنسان — كان في بداية أمره أميًا — أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريجه عن أقل خطأ من هذه الوجهة؟)<sup>٤</sup>

ليس ذلك فقط هو الذي جعل موريس بوكاي يمتلئ فناعة بالإسلام، هناك شيء آخر له أهميته الكبرى.

قلت: تقصد موقف الإسلام من العلم؟

قال: أجل.. فهو موقف مختلف كثيرًا، بل مناقض لموقف الكنيسة، لقد قال لي — وهو الباحث المنصف — (إن الإسلام قد اعتبر دائمًا أن الدين والعلم توأمان متلازمان. فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءًا لا يتجزأ من الواجبات التي أمر بها الإسلام. وأن تطبيق هذا الأمر هو الذي أدى إلى ذلك الازدهار العظيم للعلوم في عصر الحضارة الإسلامية، تلك التي اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة في أوروبا)<sup>٥</sup>  
وقال لي: (في الإسلام كان الموقف إزاء العلم مختلفًا [عن المسيحية] إذ ليس هناك أوضح من ذلك الحديث الشهير للنبي ﷺ الذي يقول: «اطلب العلم من المهد إلى اللحد» أو ذلك الحديث الآخر الذي يقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» هناك أمر رئيسي: القرآن، إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم، فإنه يحتوي أيضًا على تأملات عديدة خاصة بالظواهر الطبيعية وتفاصيل توضيحية تتفق

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلوم، ص ١٥٠.

(٢) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلوم، ص ١٤٥.

(٣) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلوم، ص ١٤٥.

(٤) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلوم، ص ١٥٠.

(٥) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ١٤.

تماماً مع معطيات العلم الحديث)<sup>١</sup>

وقد ذكر لي أن تلك المقارنات التي كان يجريها بين موقف المسلمين من العلم طيلة تاريخهم الطويل مقارنة بموقف الكنيسة كانت سبباً من أسباب إسلامه، فهو يقول: (علينا أن نتذكر أنه في عصر عظمة الإسلام، أي بين القرن الثامن والقرن الثاني عشر من العصر المسيحي، وعلى حين كانت تفرض القيود على التطور العلمي في بلداننا المسيحية، أبحرت كمية عظيمة من الأبحاث والاكتشافات بالجامعات الإسلامية.. في ذلك العصر كان الباحث بهذه الجامعات يجد وسائل ثقافية عظيمة، ففي قرطبة كانت مكتبة الخليفة تحتوي على أربعمئة ألف مجلد.. [وكان] الكثيرون يسافرون من مختلف بلاد أوروبا للدراسة فيها، ولكن كم هي كثيرة تلك المخطوطات القديمة التي وصلت إلينا بواسطة الأدباء العرب ناقلة بذلك الثقافة إلى البلاد المفتوحة، ولكم نحن مدينون للثقافة العربية في الرياضيات (فالجبر عربي) وعلم الفلك والفيزياء (البصريات) والجيولوجيا وعلم النباتات والطب إلى غير ذلك. لقد اتخذ العلم لأول مرة صفة عالمية في جامعات العصر الوسيط الإسلامية. في ذلك العصر كان الناس أكثر تأثراً بالروح الدينية مما هم عليه في عصرنا، ولكن ذلك لم يمنعهم من أن يكونوا في آن واحد مؤمنين وعلماء. كان العلم الأخ التوأم للدين. لكم كان ينبغي على العلم ألا يكف عن أن يكون كذلك)<sup>٢</sup>

قلت: أحسبني.. بل أحسب كل من قرأ كتب موريس يعلم هذا.. ولكني أبحث عن الشعاع الأول الذي اهتدى به إلى شمس محمد.

قال: لقد ذكر لي قصة ذلك<sup>٣</sup>.. بل أخبرني عن حياته الشخصية فذكر لي أنه ولد من أبوين فرنسيين، وترعرع كما ترعرع أهلهم في الديانة النصرانية، ولما أنهى تعليمه الثانوي انخرط طالباً في كلية الطب في جامعة فرنسا، فكان من الأوائل حتى نال شهادة الطب، وارتقى به الحال حتى أصبح أشهر وأمهر جراح عرفته فرنسا الحديثة.

فكان من مهارته في الجراحة قصة عجيبة قلبت له حياته وغيرت له كيانه.  
التفت البابا إلي، وقال: أنت تعلم أن فرنسا من أكثر الدول اهتماماً بالآثار والتراث، ولهذا عندما تسلم الرئيس الفرنسي (فرانسوا ميتران) زمام الحكم في البلاد عام ١٩٨١ طلبت فرنسا من دولة (مصر) في نهاية الثمانينات استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة..  
فتم نقل جثمان فرعون من مصر.. وهناك وعلى أرض المطار اصطفت الرئيس الفرنسي منحنيًا هو ووزراؤه وكبار المسؤولين في البلد عند سلم الطائرة ليستقبلوا فرعون مصر استقبال الملوك وكأنه مازال حياً.  
وعندما انتهت مراسم الاستقبال الملكي لفرعون مصر على أرض فرنسا حملت مومياء فرعون بموكب لا يقل حفاوة عن استقباله، وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي، ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ١٤٠.

(٢) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٣) انظر في هذا مقالا لد. محمد يوسف المليفي في كتاب (لماذا أسلموا)

فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها، وكان رئيس الجراحين والمسؤول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية هو البروفيسور موريس بوكاي.

لقد كان المعالجون — في ذلك الموقف — مهتمين بترميم المومياء، بينما كان اهتمام رئيسهم (موريس بوكاي) مختلفاً عنهم غاية الاختلاف.. فقد كان يحاول أن يكتشف كيف مات هذا الملك الفرعوني.

وفي ساعة متأخرة من الليل ظهرت نتائج تحليله النهائية ..

لقد كانت بقايا الملح العالق في جسده أكبر دليل على أنه مات غريقاً، وأن جثته استخرجت من البحر بعد غرقه فوراً، ثم أُسرِعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه.

لكن ثمة أمراً غريباً مازال يحيره، وهو كيف بقيت هذه الجثة دون باقي الجثث الفرعونية المخبأة أكثر سلامة من غيرها رغم أنها استخرجت من البحر..!

كان موريس بوكاي يعد تقريراً نهائيّاً عما كان يعتقد اكتشافاً جديداً في انتشار جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة ، حتى همس أحدهم في أذنه قائلاً: لا تتعجل، فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء.

لكنه استنكر بشدة هذا الخبر ، واستغربه ، فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة ، فقال له أحدهم: إن قرآهم الذي يؤمنون به يروي قصة عن غرقه وعن سلامة جثته بعد الغرق.

فازداد ذهولاً وأخذ يتساءل: كيف يكون هذا وهذه المومياء لم تكتشف أصلاً إلا في عام ١٨٩٨ ميلادية أي قبل مائتي عام تقريباً ، بينما قرآهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمئة عام.

وكيف يستقيم في العقل هذا ، والبشرية جمعاء وليس العرب فقط لم يكونوا يعلمون شيئاً عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط.

جلس (موريس بوكاي) ليلته محققاً بجثمان فرعون ، يفكر بإمعان عما همس به صاحبه له من أن قرآن المسلمين يتحدث عن نجاة هذه الجثة بعد الغرق.. بينما الكتاب المقدس يتحدث عن غرق فرعون أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتة.. وأخذ يقول في نفسه: هل يعقل أن يكون هذا الخنط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسى؟!

وهل يعقل ان يعرف محمدهم هذا قبل أكثر من ألف عام وأنا للتو أعرفه؟!

لم يستطع (موريس) أن ينام ، وطلب أن يأتوا له بالتوراة، فأخذ يقرأ في (سفر الخروج) من التوراة قوله (فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر لم يبق منهم ولا واحد).. وبقي موريس بوكاي حائراً.

حتى الكتاب المقدس لم يتحدث عن نجاة هذه الجثة وبقائها سليمة بعد أن تمت معالجة جثمان فرعون وترميمه.

أعدت فرنسا لمصر المومياء بتابوت زجاجي فاخر يليق بمقام فرعون.. ولكن (موريس) لم يهنأ له قرار ولم

يهدأ له بال منذ أن هزه الخبر الذي يتناقله المسلمون عن سلامة هذه الجنة.  
فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلى المملكة السعودية لحضور مؤتمر طبي يتواجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين.

وهناك كان أول حديث تحدّثه معهم عما اكتشفه من نجاة جنة فرعون بعد الغرق.. فقام أحدهم وفتح له المصحف وأخذ يقرأ له قوله ﷻ: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (يونس: ٩٢)

لقد كان وقع الآية عليه شديدا.. بل رجحت له نفسه رجة جعلته يقف أمام الحضور ويصرخ بأعلى صوته: (لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن)

رجع (موريس بوكاي) إلى فرنسا بغير الوجه الذي ذهب به.. وهناك مكث عشر سنوات ليس لديه شغل يشغله سوى دراسة مدى تطابق الحقائق العلمية والمكتشفة حديثا مع القرآن الكريم ، والبحث عن تناقض علمي واحد مما يتحدث به القرآن ليخرج بعدها بنتيجة نص عليها قوله ﷻ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢)

كان من ثمرة هذه السنوات التي قضاهها موريس أن خرج بتأليف كتاب عن القرآن الكريم هز الدول الغربية قاطبة ورج علماءها رجا ، لقد كان عنوان الكتاب (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم.. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)

قلت: كيف كان تأثير هذا الكتاب على الأوروبيين؟

قال: لقد كان تأثيرا خطيرا.. فهو من أول طبعة له نفذ من جميع المكتبات.. ثم أعيدت طباعته بمئات الآلاف بعد أن ترجم من لغته الأصلية (الفرنسية) إلى العربية والإنكليزية والأندونيسية والفارسية والصبكرواوية والتركية والأوردوية والكجوراثية والألمانية، لينتشر بعدها في كل مكتبات الشرق والغرب.

قلت: ألم يلق هذا الكتاب ردا من الدوائر الرسمية التي تعودت على بث الشبهات عن الإسلام؟

قال: بلى.. لقد بذلوا كل جهودهم للرد عليه.. ولكنهم لم يكتبوا غير تهريج جدلي، ومحاولات يائسة أملتها عليهم وساوس الشيطان.. وقد كان آخرهم الدكتور (وليم كامبل) في كتابه المسمى (القرآن والكتاب المقدس في نور التاريخ والعلم) فقد شرق وغرب ولم يستطع في النهاية أن يجرز شيئا.

بل الأعجب من هذا أن بعض العلماء في الغرب بدأ يجهز رداً على الكتاب ، فلما انغمس بقراءته أكثر وتمعن فيه زيادة.. أسلم ونطق بالشهادتين على الملأ.

### كيث مور:

رأيت اسم (كيث مور)، فسألته البابا عنه، فقال: تعرفت على هذا الرجل في بعض الجامعات حيث تقدم ليلقي محاضرة بعنوان (مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة)، وقد قدمه مدير الجامعة بقوله: محاضرنا اليوم

(١) المقدم هو الدكتور عبدالله نصيف مدير جامعة الملك عبدالعزيز في ذلك الحين، وقد تولى منصب أمين العام لرابطة العالم الإسلامي بعد ذلك.

هو الأستاذ كيث مور.. وهو أستاذ علم التشريح والأجنة في جامعة تورنتو بكندا، وقد تدرج فيها حتى وصل إلى هذه المرتبة في جامعات عديدة، منها جامعة توينابك في الغرب الكندي حيث كان هناك لمدة ١١ سنة، ورأس العديد من الجمعيات الدولية، منها على سبيل المثال جمعية علماء التشريح والأجنة في كندا وأمريكا، ومجلس اتحاد العلوم الحيوية الأخرى، كما انتخب عضواً بالجمعية الطبية الملكية بكندا، والأكاديمية الدولية لعلوم الخلايا، والاتحاد الأمريكي لأطباء التشريح، وعضواً في إتحاد الأمريكتين في التشريح أيضاً، وقد ألف العديد من الكتب، بعض هذه الكتب في مجال التشريح الأكلينيكي وعلم الأجنة، وله ثمانية كتب تعتبر مرجعاً لطلاب كليات الطب، وقد ترجمت إلى ست لغات: الإيطالية، والألمانية، والبرتغالية، والإسبانية، واليونانية، والصينية « بعد هذا التقديم تقدم الدكتور مور لإلقاء محاضرتة، فقال: (لقد أسعدني جداً أن أشرك في توضيح هذه الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الخلق في القرآن الكريم والحديث الشريف، ويتضح لي أن هذه الأدلة حتماً جاءت لمحمد من عند الله لأن كل هذه المعلومات لم تكتشف إلا حديثاً، وبعد قرون عدة وهذا يثبت لي أن محمداً رسول الله<sup>١</sup>)

ثم قال: (إني أشهد بإعجاز الله في خلق كل طور من أطوار القرآن الكريم، ولست أعتقد أن محمداً أو أي شخص آخر يستطيع معرفة ما يحدث في تطور الجنين، لأن هذه التطورات لم تكتشف إلا في الجزء الأخير من القرن العشرين، وأريد أن أؤكد على أن كل شيء قرأته في القرآن عن نشأة الجنين وتطوره في داخل الرحم ينطبق على كل ما أعرفه كعالم من علماء الأجنة البارزين)

لاحظت في وجوه الجمع الحاضر سرورا عظيما، واهتماما كبيرا بما يقوله هذا الدكتور الباحث المنصف، ولاحظت فوق ذلك نفحات الصدق التي ذكرها لي معلم السلام.

حاولت أن أقرب منه لأستوضح أسرار ذلك التصريح الخطير، لكنني لم أتمكن، ولكنني مع ذلك رأيت الدكتور زغلول النجار الذي ذكر لي أنه قال في مؤتمر موسكو للإعجاز العلمي ( إن التعبيرات القرآنية عن مراحل تكون الجنين في الإنسان لتبلغ من الدقة والشمول ما لم يبلغه العلم الحديث، وهذا إن دل علي شيء فإنما يدل علي أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا كلام الله، وأن محمداً رسول الله)

فقبل له بعد انتهاء محاضرتة: هل أنت مسلم؟.. فقال: لا.. ولكنني أشهد أن القرآن كلام الله.. وأن محمداً مرسل من عند الله، فقبل له: إذًا.. فأنت مسلم، قال: أنا تحت ضغوط اجتماعية تحول دون إعلان إسلامي الآن، ولكن لاتتعجبوا إذا سمعتم يوماً أن كيث مور قد دخل الإسلام.

(١) انظر شهادة كيث مور المصورة على الإعجاز العلمي في القرآن الكريم على الروابط التالية:

الجزء الأول: [http://alhakekah.com/audiomooore-١-٥٦k\[١\].ram](http://alhakekah.com/audiomooore-١-٥٦k[١].ram)

الجزء الثاني: [http://alhakekah.com/audiomooore-٢-٥٦k\[١\].ram](http://alhakekah.com/audiomooore-٢-٥٦k[١].ram)

(٢) قد ذكرنا في مناسبات مختلفة عدم اشتراط الإعلان بالطرق المعمول بها، بل قد يكون من الحكمة عدم هذا الإعلان، خاصة إذا ترتبت عليه مفسدات تتعلق بالمعلن عن إسلامه أو من يرتبطون به، وقد ذكر القرآن مؤمنين آل فرعون الذين لم يعلن إيمانه إلا بعد أن رأى المناسبة الداعية لذلك، فقال ﷻ: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ

قال زغلول النجار: ولقد وصلنا في العام الماضي أنه قد أعلن إسلامه فعلاً، فله الحمد والمنة. حاولت أن أقرب منه في مناسبة أخرى، لكني لم أتمكن، وقد أخبرني الشيخ الفاضل عبد المجيد الزندان عن سر ذلك التوجه فقال: لقد كان النور الذي أطل منه هذا العالم الفاضل على الإسلام هو مراحل خلق الإنسان السبعة التي ذكرها القرآن في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون ١٢-١٤)

فجد هذا العالم أن علم الأجنة بأجهزته المتطورة ثبتت هذه المراحل وتطابقها مع المراحل المذكورة في القرآن.

ثم قال لي الشيخ الزندان: تأمل ما قاله هذا الأستاذ الكبير من مشاهير علماء العالم في الأجنة عندما درس الآيات المتعلقة بمجال اختصاصه في هذا الكتاب تأمل ماذا قال ( إنه لا بد أن يكون محمد رسولاً من عند الله، وعندما شاهد البروفيسور كيث مور العلقه التي توجد في البرك، وقارن بينها وبين الجنين في مرحلة العلقه وجد تشابهاً كبيراً بين الاثنين، ثم قال بعد ذلك: إن الجنين في مرحلة العلقه يشبه هذه العلقه تماماً. وتبنى هذه القضية وجاء بعد ذلك بصورة لهذه العلقه التي تعيش في البرك ووضعها بجوار صورة أخرى للجنين وجمع بينهما في شكل توضيحي وعرضه على الأطباء في عدد من المؤتمرات.

وبين البروفيسور كيث مور أيضاً أن الجنين في مرحلة العلقه يكون معلقاً في رحم أمه.. وكذلك فإن العلقه في لغة العرب تعني الدم المتجدد.

وقد ذكر البروفيسور كيث مور أن الجنين في مرحلة العلقه تكون الدماء فيه محبوسة في العروق الدموية قبل أن تتم الدورة بين الجنين وبين المشيمة فيظهر شكل الجنين كشكل الدم المتجدد.

وهكذا تشمل كلمة (العلقه) جميع أوصاف الجنين فمن أخبر محمداً ﷺ بهذا؟ ثم تحدث البروفيسور كيث مور عن المضغه، وجاء بقطعة من الطين الصلصال ومضغها بفمه، ثم جاء بصورة من جنين وقارن بين الاثنين وقال: إن الجنين يشبه المضغه.

وقد نشرت بعض الصحف الكندية كثيراً من تصريحات البروفيسور كيث مور، وأخيراً قدم كيث مور ثلاث حلقات في التلفزيون الكندي عن التوافق بين ما ذكره القرآن قبل ١٤٠٠ عام وما كشف عنه العلم في هذا الزمان، وعلى أثر ذلك وجه له هذا السؤال: يا أستاذ مور معنى ذلك أنك تؤمن بأن القرآن كلام الله؟ فأجاب: لم أجد صعوبة في قبول هذا، فقبل له: كيف تؤمن بمحمد وأنت تؤمن بالمسيح؟ فأجاب: أعتقد أنهما من مدرسة واحدة.

وقد قال الشيخ الزندان معقبا على هذا: (وهكذا يمكن لعلماء العالم في عصرنا أن يعلموا أن هذا الكتاب قد نزل بعلم الله، كما قال تعالى ﷻ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَنْشَهُدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيداً) (النساء: ١٦٦) فيعلمون إذاً أن محمداً رسول الله ﷺ )

قال الشيخ الزندائي ذلك، ثم أخرج لي كتاباً من محفظته، وقال: هذا كتاب The Developing Human أو أطوار خلق الإنسان.. وهو من أهم الكتب التي ألفها هذا العالم الفاضل.. وهو مرجع علمي عالمي، وعندما كونت لجنة في أمريكا لاختيار أحسن كتاب في العالم ألفه مؤلف واحد كان هذا الكتاب هو الفائز عند تلك اللجنة.

سكت قليلاً، ثم قال: لي مع صاحب هذا الكتاب قصة أحب أن أعرضها عليك.. لقد التقيت بصاحب هذا الكتاب وعرضت عليه كثيراً من الآيات والأحاديث المتعلقة بمجال تخصصه في علم الأجنة، فافتتح بما عرضت عليه، وقلت له: إنك ذكرت في كتابك القرون الوسطى، وقلت إن هذه القرون لم يكن فيها تقدم لعلم الأجنة، بل لم يعلم فيها إلا الشيء القليل، وفي هذه العصور عندكم كان القرآن يتزل عندنا، وكان محمد ﷺ يعلم الناس الهدى الذي جاء من عند الله سبحانه وتعالى، وفيه الوصف الدقيق لخلق الإنسان ولأطوار خلق الإنسان، وأنت رجل علمي فلماذا لم تنصف وتضع في كتابك هذه الحقائق؟ فقال: الحجّة عندكم، وليست عندي، قدموها لنا.

قال الشيخ: ففعلنا، فكان هو كذلك عالماً شجاعاً.. فوضع إضافة في الطبعة الثالثة، وهي الآن منتشرة في العالم بثمان لغات يقرؤها أكابر العلماء في العالم الذين ينطقون باللغة الإنجليزية والروسية والصينية واليابانية والألمانية والإيطالية واليوغوسلافية والبرتغالية.

أكابر العلماء في العالم الناطقون بهذه اللغات يقرؤون ما أضافه البروفيسور كيث مور في هذا الباب. فتح الشيخ الكتاب، ثم قال: اسمع ما يقول البروفيسور كيث مور في هذا الكتاب تحت عنوان (العصور الوسطى).. لقد قال: (كان تقدم العلوم في العصور الوسطى بطيئاً، ولم نعلم عن علم الأجنة إلا الشيء القليل، وفي القرآن الكريم الكتاب المقدس لدى المسلمين ورد أن الإنسان يخلق من مزيج من الإفرازات من الذكر والأنثى، وقد وردت عدة إشارات بأن الإنسان يخلق من نطفة من المني، وبين أيضاً أن النطفة الناتجة تستقر في المرأة كبذرة بعد ستة أيام، والمعروف أن البيضة الملقحة بعد أن تكون قد بدأت في الانقسام تبدأ في النمو بعد ستة أيام من الإخصاب، ويقول القرآن الكريم أيضاً: إن النطفة (المني) تتطور لتصبح قطعة من دم جامد (علقة) وأن البيضة الملقحة بعد أن تكون قد بدأت في الانقسام، أو أن البيضة الملقحة التي بدأت بالانقسام أو الحمل المجهض تلقائياً يمكن أن تشبه العلقة، ويمكن رؤية مظهر الجنين في تلك المرحلة يشبه العلقة كما هو موضح (الشكل): فإن الرسم لا يختلف عن شكل العلقة أو ماص الدماء. ويكون مظهر الجنين في هذه المرحلة يشبه شيئاً ممضوغاً كاللبان أو الخشب ويظهر في (الشكل): وكان فيها آثار الأسنان التي مضغتها، ولقد اعتبر الجنين في الشكل الإنساني بعد مضي أربعين أو اثنين وأربعين يوماً ولا يشبه بعدها جنين الحيوان. لأن الجنين البشري يبدأ باكتساب مميزات الإنسان في هذه المرحلة، كما هو مبين في (الشكل): قال تعالى: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾ (الزمر: ٦) إن الجنين يتطور داخل ثلاثة حجب مظلمة. وهذا قد يشير إلى ( جدار البطن الخارجي للمرأة، وجدار الرحم، والغشاء الداخلي الذي يحيط بالجنين مباشرة)، ولا يتسع

المجال لمناقشة موضوعات هامة أخرى مشوقة وردت في القرآن الكريم، وتتعلق بتطور الإنسان في مرحلة ما قبل ولادته)

أغلق الشيخ الكتاب، ثم قال: هذا الذي كتبه د. كيث مور، وأصبح منتشرًا في العالم اليوم والله الحمد هذا ما أملاه عليه البحث العلمي.

لقد اقتنع الأستاذ كيث مور أيضاً بأن التقسيم الذي تقسم إليه أطوار الجنين في بطن أمه الآن في العالم كله تقسيم صعب غير مفهوم ولا ينفع في فهم مراحل تطور الجنين، ذلك لأنه يقسم المراحل تقسيماً رقمياً أي المرحلة ١، ٢، ٣، ٤، أو المرحلة رقم ٥ وهكذا بينما التقسيم الذي جاء بالقرآن لا يعتمد على الأرقام بل يعتمد على الأشكال المتميزة الجلية، فكانت التقسيمات في كتاب الله (نطفة — علقة — مضغة — عظام — كساء العظام باللحم — النشأة خلقاً آخر)، وهناك تفاصيل متفاوتة في كل منها.

عن هذه التقسيمات القرآنية التي تعتمد على الشكل المحدد المتميز عن الشكل الآخر قال البروفيسور كيث مور: هي تقسيمات علمية دقيقة، وتقسيمات سهلة ومفهومة ونافعة.

وقد وقف في أحد المؤتمرات يعلن هذا فقال: (يحمي الجنين في رحم الأم ثلاثة أحجبه أو طبقات موضحة في الشريحة التالية (الجدار البطني.. الجدار الرحمي.. الغشاء).. لأن مراحل تطور الجنين البشري معقدة، وذلك بسبب التغيرات المستمرة التي تطرأ عليه فإنه يصبح بالإمكان تبين نظام جديد في التصنيف باستخدام الاصطلاحات والمفاهيم التي ورد ذكرها في القرآن والسنة، ويتميز النظام الجديد بالبساطة والشمولية إضافة إلى انسجام مع علم الأجنة الحالي.. لقد كشفت الدراسات المكثفة للقرآن والحديث خلال السنوات الأربعة الأخيرة جهاز تصنيف الأجنة البشرية الذي يعتبر مدهشاً حيث إنه سجل في القرن السابع بعد الميلاد فيما يتعلق بما هو معلوم من تاريخ علم الأجنة لم يكن يعرف شيء عن تطور وتصنيف الأجنة البشرية حتى حلول القرن العشرين، ولهذا السبب فإن أوصاف الأجنة البشرية في القرآن الكريم لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع، الاستنتاج الوحيد المعقول هو أن هذه الأوصاف قد أوحيت إلى محمد من الله، إذ ما كان له أن يعرف مثل هذه التفاصيل لأنه كان أمياً، ولهذا لم يكن قد نال تدريباً علمياً.

سكت الشيخ الزنداني قليلاً، ثم قال: قلت للدكتور مور: إن هذا الذي قلته صحيح، ولكنه أقل مما عرض عليك من حقائق الكتاب والسنة في مجال علم الأجنة، فلم لا تكون منصفاً وتفسح المجال لبيان جميع الآيات والأحاديث التي وردت في القرآن المتعلقة بمجال اختصاصك، فقال: لقد كتبت القدر المناسب في المكان المناسب في كتاب علمي متخصص، ولكنني أسمح لك أن تضيف إلى كتابي إضافات إسلامية تجمع فيها جميع الآيات والأحاديث التي تحدثنا عنها وناقشناها وتضعها في مواضعها المناسبة من كتابي هذا، وبعد ذلك تقدم وتبين أوجه الإعجاز في هذا الكتاب ففعلت ذلك.

ثم بعد ذلك وضع الدكتور كيث مور مقدمة هذه الإضافات الإسلامية.

أخرج الشيخ الزنداني نسخة أخرى من الكتاب، وقال: هذا الكتاب هو الذي اقترحه البروفيسور كيث مور مع الإضافات الإسلامية كما تراه.



ثم قال: لقد رجعنا إلى كل صفحة من الصفحات التي فيها حقائق من علم الأجنة فوضعنا في مقابلها الآيات والأحاديث النبوية التي تبين وجه الإعجاز، إننا اليوم بإذن الله تعالى على موعد مع الإسلام في فتح جديد للعقول البشرية المنصفة.

### تيجانات تاجسن:

رأيت اسم (تيجانات تاجسن)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا البروفيسور (تيجانات تاجسون).. وهو رئيس قسم علم التشريح في جامعة شيانك مي، وهو من تايلند. وقد حدثني حديثه الشيخ عبد المجيد الزنداني<sup>١</sup>، فقد قال لي: بدأت صليتي بالبروفيسور تاجات تاجسون عندما عرضنا عليه بعض الآيات والأحاديث النبوية المتعلقة بمجال تخصصه في مجال علم التشريح. وعندما أجاب عليها قال لي: ونحن كذلك يوجد لدينا في كتبنا المقدسة البوذية أوصاف دقيقة لأطوار الجنين.

فقلت له: أنا بشوق لكي أعرف هذه الأوصاف، وأريد أن أطلع على ما كتب في هذه الكتب. وعندما جاء ممتحناً خارجياً لطلاب الطب في جامعة الملك عبدالعزيز بعد عام سأنته، فاعتذر لي، وقال: كنت قد أجبته دون أن أثبت لهذا الأمر، ولما بحثت عنه وجدت أنه لا توجد النصوص التي ذكرتها لك. عندئذٍ قدمت له محاضرة مكتوبة للدكتور (كيث مور)، وكان عنوان المحاضرة (مطابقة علم الأجنة لما في القرآن والسنة)، وسألته عن الأستاذ كيث مور: هل تعرفه؟ فقال: إنه رجل من كبار علماء العالم المشهورين في هذا المجال.

وبعد أن اطلع على هذه المحاضرة اندهش، وسألناه عدداً من الأسئلة في مجال تخصصه كان منها ما يتعلق بالجلد، قلت له: هل هناك مرحلة ينعدم عندها الإحساس بألم الحرق؟ قال: نعم إذا كان الحرق عميقاً ودمر عضو الإحساس بالألم.

قلت: حسناً ما رأيك إذن أن القرآن الكريم الذي عند تاريخ نزوله على محمد ﷺ لأكثر من ألف وأربعمائة عام قد أشار إلى تلك الحقيقة العلمية عندما ذكر الطريقة التي سيعاقب الله به الكافرين يوم القيامة حيث يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا تَضَجَّتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ٥٦)

فالقرآن هنا يقرر أنه عندما ينضج الجلد يخلق الله للكفار جلدًا جديدًا كي يتجدد إحساسهم بالألم وذلك تأكيد من جانب القرآن على أن الأطراف العصبية التي تجعل الإنسان يشعر بالألم موجودة في الجلد. قال: هذا أمر يدعو للدهشة والغرابة حقيقة، فتلك معرفة مبكرة جداً عن مراكز الإحساس والأعصاب في الجلد ولا أدري كيف ذكر قرآنكم هذا؟

(١) انظر: إنه الحق، للشيخ الزنداني، ببعض التصرف، وانظر شهادته المصورة في [http://alhakekah.com/audiio/tejasen-١-٥٦k\[١\].ram](http://alhakekah.com/audiio/tejasen-١-٥٦k[١].ram)

قلت: ترى أيمكن أن تكون هذه المعلومات قد استقاها محمد نبي الإسلام من مصدر بشري؟

قال: بالطبع لا.. ففي ذلك الوقت لم تكن هناك معارف بشرية حول هذا الموضوع.

قلت: من أين إذن وكيف عرف ذلك؟

قال: المؤكد عندي هو استحالة المصدر البشري، ولكني أسألكم أنتم من أين تلقى محمد هذه المعلومات

الديقية؟

قلت: من عند الله.

قال: الله!! ومن هو الله؟

قلت: إنه الخالق لهذا الوجود. إذا رأيت الحكمة، الحكمة تدل على الحكيم، وإذا رأيت العلم في هذا الوجود ذلك على أنه من صنع العليم، وإذا رأيت الخبرة في تكوين هذه المخلوقات دلتك على أنها من صنع الخبير. وإذا رأيت الرحمة شهدت لك على أنها من صنع الرحيم، وهكذا إذا رأيت النظام الواحد في هذا الوجود والترابط المحكم ذلك ذلك على أنه من صنع الخالق الواحد سبحانه وتعالى.

بعد أن شرحت له المفهوم الإسلامى للفظ الجلالة الأعظم راقته تلك الرؤية، وعاد إلى بلاده ليحاضر عن هذه الظاهرة القرآنية التي عايشها، وتأثر بها حتى جاء موعد المؤتمر الطبى السعودى الثامن، واستمع في الصالة الكبرى التي خصصت للإعجاز على مدى أربعة أيام لكثير من العلماء، ولا سيما غير المسلمين يحاضرون عن ظاهرة الإعجاز العلمى.

وفي ختام جلسات المؤتمر وقف البروفيسور (تاجاتات تاجاسون) يعلن: بعد هذه الرحلة الممتعة والمثيرة، فإنى أؤمن أن كل ما ذكر في القرآن الكريم يمكن التذليل على صحته بالوسائل العلمية، وحيث أن محمداً نبي الإسلام كان أمياً إذن لا بد أنه قد تلقى معلومات عن طريق وحى من خالق عليم بكل شئ.. وإننى أعتقد أنه حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

**ألفريد كرونير:**

رأيت اسم (البروفيسور ألفريد كرونير)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا من بلدي.. هو من ألمانيا.. وهو أحد أكبر جيولوجيي العالم المشاهير، وهو أستاذ علم طبقات الأرض، ورئيس قسم علم طبقات الأرض في معهد جوسينسيس، وجامعة يوهانز جوتنبيرج، ميتر، بألمانيا.

وقد حدثني حديثه من اتفق الجميع على توثيقه عبد المجيد الزندان<sup>١</sup>، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابي، وعرضنا عليه عدداً من الآيات وأحاديث رسول الله ﷺ المرتبطة بمجال تخصصه، فأجاب عليها، وناقشنا فيها فقال: إن التفكير في كثير من مسائل الجيولوجيا، ونشأة الأجرام يحتاج إلى علم كثيرة وأجهزة حديثة، فمن أين جاء بكل ذلك محمد.. فقد كان بدوياً على أية حال يجعلنا نعتقد أنه من المستحيل أن يكون قد عرفها بنفسه أو

(١) انظر: إنه الحق، وشهادته المصورة على هذا الرابط:

http://alhakekah.com/auduo/kroner-١-٥٦k[١].ram الجزء الأول:

http://alhakekah.com/auduo/kroner-٢-٥٦k[١].ram الجزء الثاني:

بمعارف عصره لأن العلماء اكتشفوا ذلك فقط خلال السنوات القليلة الماضية بوسائل معقدة جداً ومتقدمة جداً تكنولوجياً.

قال الشيخ عبدالمجيد الزنداني: وقد اختار مثلاً للتدليل على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون قد جاء من عند محمد النبي الأمي، وهو المتعلق بوصف القرآن للبداية الواحدة لهذا الكون والمتعلقة بقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الانبيا: ٣٠)، فـ ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما أي أنهما كانتا ملتزقتين، ففصلتا<sup>١</sup>.

وقد ضرب البروفيسور كرونر مثلاً بهذه الآية لبيان أن هذا لا يمكن أن يكون من عند محمد، ولا يمكن أن يكون من المعلومات البشرية في عصره، فقال: وشخص لا يعرف عن الفيزياء النووية منذ ١٤٠٠ سنة ما كان له في رأيي أن يكون في وضع يكشف فيه بعقله هو مثلاً أن الأرض والسماوات كانت لهما نفس الأصول أو كثيراً من المسائل الأخرى التي ناقشناها هنا.

قال الشيخ الزنداني: لقد كان البروفيسور كرونر لا يترك لنا فرصة يمكنه أن يفر منها إلا فر، سأذكر مثلاً على ذلك.

فعندما كنا نتناقش معه كيف كانت بلاد العرب سألناه: هل كانت بلاد العرب بساتين وأثماراً؟ فأجاب: نعم، فقلنا: متى كان هذا؟ قال: في العصر الجليدي الذي مر بالأرض.. فالجليد يتراكم في القطب المتجمد الشمالي، ثم يرحف نحو الجنوب، فإذا اقترب من جزيرة العرب قرباً نسبياً طبعاً تغير الطقس وتكون بلاد العرب من أكثر بلاد العالم بساتين وأثماراً، قلنا له: وهل ستعود بلاد العرب بساتين وأثماراً؟ قال: نعم، هذه حقيقة علمية، فعجبنا كيف يقول هذه حقيقة علمية وهي مسألة تتعلق بالمستقبل. فسألناه: لماذا؟

فقال: لأن العصر الجليدي قد بدأ، فهذه الثلوج تزحف من القطب المتجمد الشمالي مرة ثانية نحو الجنوب وهي في طريقها لتقترب من المناطق القريبة من بلاد العرب.

ثم قال: إن من أدلتنا على ذلك ما تسمعون عنه من العواصف الثلجية التي تضرب في كل شتاء المدن الشمالية في أوروبا وأمريكا. هذه من أدلة العلماء على ذلك، لهم أدلة كثيرة لها حقيقة علمية.

فقلنا له: إن هذا الذي تذكره أنت لم يصل إليه العلماء إلا بعد حشد طويل من الاكتشافات، وبعد آلات دقيقة يسرت لهم مثل هذه الدراسات، لكننا قد وجدنا هذا مذكوراً على لسان محمد النبي الأمي قبل ١٤٠٠ عام، فقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم<sup>٢</sup>: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأثماراً»، أي بساتين وأثماراً فقلنا له: من قال لمحمد ﷺ أن بلاد العرب كانت بساتين وأثماراً؟ فأجاب على الفور قائلاً: الرومان.

فذكرت قدرته على التخلص من المآزق، فقلنا: إذاً نوجه له سؤالاً آخر، فقلنا له: ومن أخبره بأنها ستعود

(١) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذه الآية في (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

(٢) صحيح مسلم في الزكاة باب ١٨ حديث ٦٠.

مروجاً وأهراً؟.. لقد كان يفر إذا أخرج وإذا وجد فرصة، ولكنه إذا وجد الحقيقة يكون شجاعاً، ويعلن رأيه بصراحة، فقال: إن هذا لا يمكن أن يكون إلا بوحى من أعلى.

وبعد مناقشتنا معه علق على هذه المناقشة بكلمته هذه: (أعتقد أنك لو جمعت كل هذه الأشياء، وجمعت كل هذه القضايا التي بسطت في القرآن الكريم والتي تتعلق بالأرض وتكوين الأرض والعلم عامة، يمكنك جوهرياً أن تقول: إن القضايا المعروضة هناك صحيحة بطرق عديدة، ويمكن الآن تأكيدها بوسائل علمية، ويمكن إلى حد ما أن نقول: إن القرآن هو كتاب العلم المبسط للرجل البسيط وإن كثيراً من القضايا المعروضة فيه في ذلك الوقت لم يكن من الممكن إثباتها. ولكنك بالوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع فيه أن تثبت ما قاله محمد منذ ١٤٠٠ سنة)

### علي سليمان:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (علي سليمان)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا دكتور في الطب.. وهو ينتمي إلى أسرة فرنسية كاثوليكية.. وقد التقيت به في فرنسا، وسألته عن سر إسلامه، فقال لي: كان لاختياري لهذه المهنة أثره في انطباعي بطباع الثقافة العلمية البحتة، وهي لا تؤهلني كثيراً للناحية الروحية.. وهذا لا يعني أنني لم أكن أعتقد في وجوده، إلا أنني أقصد أن الطقوس الدينية النصرانية عموماً والكاثوليكية بصفة خاصة، لم تكن لتبعث في نفسي الإحساس بوجوده، وعلى ذلك فقد كان شعوري الفطري بوحدانية الله يحول بيني وبين الإيمان بعقيدة التثليث، وبالتالي بعقيدة تأليه عيسى المسيح.

ولهذا كنت قبل أن أعرف الإسلام مؤمناً بالقسم الأول من الشهادتين (لا اله إلا الله).. ومؤمناً معها بهذه الآيات من القرآن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(١) اللَّهُ الصَّمَدُ(٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(٤)﴾ (الإخلاص)

لهذا فإنني أعتبر أن الإيمان بعالم الغيب وما وراء المادة هو الذي جعلني أدين بالإسلام، على أن هناك أسباباً أخرى حفزتني لذلك أيضاً، منها مثلاً، أنني لا أستسيغ دعوى الكاثوليك أن من سلطاهم مغفرة ذنوب البشر نيابة عن الله، ومنها أنني لا أصدق مطلقاً ذلك الطقس الكاثوليكي عن العشاء الرباني والخبز المقدس، الذي يمثل جسد المسيح عيسى، ذلك الطقس الطوطمي الذي بمائل ما كانت تؤمن به العصور الأولى البدائية، حيث كانوا يتخذون لهم شعاراً مقدساً، يحرم عليهم الاقتراب منه، ثم يلتهمون جسد هذا المقدس بعد موته حتى تسري فيهم روحه.

ومما كان يباعد بيني وبين النصرانية، أنها لا تحوي في تعاليمها شيئاً يتعلق بنظافة وطهارة البدن، لا سيما قبل الصلاة، فكان يخيل لي أن في ذلك انتهاكاً لحرمة الرب، لأنه كما خلق لنا الروح فقد خلق لنا الجسد كذلك، وكان حقاً علينا ألا نهمل أجسادنا.

ونلاحظ كذلك أن النصرانية التزمت الصمت فيما يتعلق بغرائز الإنسان الفسيولوجية، بينما نرى أن

(١) انظر: كتاب لماذا أسلمنا؟ تأليف: عبد الحميد بن عبد الرحمن السحبياني.

الإسلام هو الدين الوحيد الذي ينفرد بمراعاة الطبيعة البشرية.  
أما مركز الثقل والعامل الرئيسي في اعتناقي للإسلام، فهو القرآن.. فقد بدأت قبل أن أسلم في دراسته..  
وأنا مدين بالكثير للكتاب العظيم الذي ألفه مستر مالك بن نبي واسمه (الظاهرة القرآنية)، فاقننت بآن القرآن  
كتاب وحي منزل من عند الله.  
إن من بين آيات هذا القرآن الذي أوحى الله به منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ما يحمل نفس النظريات  
التي كشفت عنها أحدث الأبحاث العلمية.  
لقد كان هذا كله كافياً لإقناعي وإيماني بالقسم الثاني من الشهادتين (محمد رسول الله)  
وهكذا تقدمت يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩٥٣ م إلى المسجد في باريس، وأعلنت إيماني بالإسلام، وسجلني  
مفتي مسجد باريس في سجلات المسلمين، وحملت الاسم الجديد (علي سلمان)  
قال ذلك.. ثم اتبسم قائلاً: إنني أشعر بالغبطة الكاملة في ظل عقيدتي الجديدة وأعلنها مرة أخرى (أشهد  
أن لا اله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله)

### مارشال جونسون:

من الأسماء التي رأيته في دفتر البابا اسم (مارشال جونسون)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو  
البروفيسور (مارشال جونسون)، وهو رئيس قسم التشريح، ومدير معهد دانيال بجامعة توماس جيفرسون  
بفلاذلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية.  
وقد حدثني حديثه الشيخ الثقة (عبد المجيد الزندان)، فقال: لقد التقيت به مع نفر من أصحابنا في المؤتمر  
الطبي السعودي الثامن، وقد خصصت لنا لجنة تبحث في موضوع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فالتقينا به  
أول ما التقينا في هذه اللجنة، وقد بدأنا بالسؤال التالي: ما هو موضوع لجنتنا هذه؟  
فقلنا له: موضوعنا هو دراسة العلاقة بين ما ذكر في القرآن والسنة قبل ١٤٠٠ عام وما ذكرته العلوم  
الحديثة.

فقال: مثل ماذا؟

قلنا: مثلاً ذكر العلم أن الإنسان يخلق في أطوار وذكر القرآن الكريم هذه الأطوار قبل ١٤٠٠ عام.

كان جالساً فوقف يصيح: لا. لا. لا.

فقلنا: اجلس يا دكتور.

فقال: أجلس.. ما هذا الكلام الذي تقوله؟

قال الشيخ: لقد كنا ندرِك أثر هذا عليه، وهو أحد العلماء المشهورين في أمريكا، وهو يعلم أن البشرية  
بعد اكتشاف الميكروسكوب في القرن السادس عشر كان الأطباء طوال القرن السابع عشر يعتقدون أن  
الإنسان يخلق خلقاً كاملاً في الحيوان المنوي أي في نطفة الرجل أي في السلالة التي تخرج من الرجل، واستمر

---

(١) انظر: إنه الحق، للشيخ عبد المجيد الزندان.

هذا الاعتقاد إلى القرن الثامن عشر، وبعد اكتشاف البيضة في القرن ١٨ غير العلماء جميعاً آراءهم، فقالوا: إن الإنسان يخلق خلقاً كاملاً في بيضة المرأة لأنها أكبر، وأهمل دور الرجل بعد أن أهمل القرن السابع عشر دور المرأة، وفي منتصف القرن ١٩ فقط بدأ الإنسان، وبدأ العلماء يكتشفون أن الإنسان يخلق في أطوار.

لذلك لما قيل للبروفيسور (مارشال جونسون) هذا مذكور في القرآن قبل ١٤٠٠ عام وقف يصرخ لا لا، فقمنا إليه، وقدمنا له المصحف، وقلنا له: تفضل اقرأ وقرأنا عليه قوله ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ (نوح: ١٣-١٤)، وقرأ ترجمة معناها باللغة الإنجليزية. ثم قرأنا عليه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (الزمر: من الآية ٦)

فجلس، وقال: لكن هذا يمكن أن يكون له ثلاثة تفسيرات، الأول: أن يكون صدفة، فجمعنا له أكثر من خمسة وعشرين نصاً، ووضعناها بين يديه، وقلنا: كل هذه النصوص قد تكون صدفة؟ ثم إن القرآن الكريم قد أعطى لهذه الأطوار أسماء هذا نطفة والذي بعده علقة والذي بعده مضغة والذي بعده العظام والذي بعده كساء العظام باللحم. إنه سمي هذه الأطوار بأسماء أيكون هذا صدفة؟ فقال: لا. قلنا: فماذا بقي؟

قال: يمكن أن يقال: إن محمداً عنده ميكروسكوبات ضخمة.

قلنا: أنت تعلم أن مثل هذه الأطوار والدقائق والتفاصيل وما عرفه العلم من تفاصيل هذه الأطوار وذكره القرآن كذلك هذا لا يتيسر إلا بميكروسكوبات ضخمة جداً والذي عنده هذه الميكروسكوبات الضخمة لا بد أن يكون له تقنية عالية جداً وتنعكس على طعامه وشرابه وحره وسلمه ولا بد أن يتلقى هذا من الجيل الذي قبله، ويسلمه للجيل الذي بعده.

فضحك بعد ذلك، وقال: لقد رأيت في معرض من المعارض أول ميكروسكوب اخترع في العالم، إنه لا يكبر أكثر من عشر مرات، ولا يستطيع أن يظهر الصورة واضحة.. لا.. لم يكن عند محمد أجهزة ولا ميكروسكوبات، فما بقي إلا أن نقول هو رسول من عند الله.

ثم بعد ذلك تبين هذه الأبحاث المتعلقة بالإعجاز العلمي، وركز في بعض أبحاثه على أطوار الجنين، فبينما كان الدكتور كيث مور وغيره من الدكاترة يتكلمون عن الشكل الظاهري أخذ يقدم بحثه هو عن وصف القرآن الدقيق لشكل الجنين الخارجي ولتركيبات الجنين الداخلية.

فقد قال: القرآن في الواقع شرح المراحل الخارجية، ولكنه يؤكد أيضاً المراحل التي داخل الجنين أثناء خلقه وتطوره مؤكداً على أحداث رئيسية تعرف عليها العلماء المعاصرون.

فالمضغة مثلاً تعطينا الشكل الخارجي للجنين الذي يكون مقوساً كما ويكون في نهاية هذا القوس آثار وكأها طبع الأسنان ليوحي بشكل المضغة ونرى انتفاخات وأحاديد ونرى سطحاً منفرجاً يعطي انطباع المضغة.

ولو أننا وضعنا قطاعاً منها، وحيثما نشرح الأجزاء الداخلية سنجد معظم الأجهزة قد تخلقت وسنرى في هذا أن جزءاً من الخلايا قد تخلق، وجزءاً آخر لم يتخلق بعد.

فإذا أردنا أن نصف هذه المضغة ماذا نقول؟.. هل نقول هي مخلقة؟ هذا ينطبق على الجزء الذي تخلق.. أو نقول غير مخلقة؟.. وهذا سيصدق على الجزء الذي لم يخلق فقط.

قال جونسون: فلا بد لنا أن نصف المضغة في تركيبها الداخلي بالوصف الذي وصفت به في القرآن فنقول كما قال القرآن: ﴿ثُمَّ مِنْ مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ﴾ (الحج: من الآية ٥) مخلقة وغير مخلقة. ثم جاء بملخص لبعثه هذا فقال: (إنني كعالم أستطيع فقط أن أتعامل مع أشياء أستطيع أن أراها بالتحديد أستطيع أن أفهم علم الأجنة وتطور علم الأحياء أستطيع أن أفهم الكلمات التي تترجم لي من القرآن كما ضربت لكم أمثلة من قبل.

إنني لا أرى شيئاً لا أرى سبباً لا أرى دليلاً على حقيقة تفند مفهوم هذا الفرد محمد الذي لا بد وأنه يتلقى هذه المعلومات من مكان ما، ولذلك إنني لا أرى شيئاً يتضارب مع مفهوم أن التدخل الإلهي كان مشمولاً فيما كان باستطاعته أن يبلغه.

قال الشيخ الزندان: هذا هو البروفيسور مارشال جونسون الذي بدأ رافضاً لما قلناه من أول وهلة وانتهى به الأمر متبنيّاً لهذه الأبحاث في عديد من المؤتمرات. وعندما سئل عن رأيه في تفسير هذه الظاهرة — ظاهرة ما كشفه العلم من تصديق لما جاء في القرآن والسنة — أجاب بقوله: نعم، إنه الوحي.

### يوشيو دي كوزان:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور يوشيو دي كوزان)، فسألت البابا عنه، فقال: إنه البروفيسور يوشيو دي كوزان مدير مرصد طوكيو، وقد حدثني حديثه الشيخ الثقة عبد المجيد الزندان، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابي، فعرضنا عليه عدداً من الآيات المتعلقة بوصف بداية الخلق ويوصف السماء وبعلاقة الأرض بالسماء، فلما قرأ معاني هذه الآيات، وسألنا عن القرآن، وعن زمن نزوله، فأخبرنا أنه نزل منذ ١٤٠٠ عام، وسألناه نحن عن هذه الحقائق التي تعرضت لها هذه الآيات، فأجاب، وكان بعد كل إجابة يجيب بما نعرض عليه النص القرآني.

لقد عبر عن دهشته فقال: إن هذا القرآن يصف الكون من أعلى نقطة في الوجود، فكل شيء أمامه مكشوف.. إن الذي قال هذا القرآن، يرى كل شيء في هذا الكون، فليس هناك شيء قد خفي عليه. سألناه عن الفترة الزمنية التي مرت بها السماء يوم أن كانت في صورة أخرى فأجاب: لقد تظافرت الأدلة وحشدت وأصبحت الآن شيئاً مرئياً مشاهداً نرى الآن نجوماً في السماء تتكون من هذا الدخان الذي هو أصل الكون.

ثم أخرج لنا صورة، وقال: هذه الصورة حصل عليها العلماء أخيراً بعد أن أطلقوا سفن الفضاء.. إنها تصور نجماً من النجوم وهو يتكون من الدخان.. انظروا إلى الأطراف الحمراء للدخان الذي في بداية الالتهاب والتجمع وإلى الوسط الذي اشتدت به المادة وتكدست فأصبح شيئاً مضيئاً.. وهكذا النجوم المضيئة كانت قبل ذلك دخاناً وكان الكون كله دخاناً.

وعرضنا عليه الآية وهي قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١)، فقال: إن بعض العلماء يتكلمون عن هذا الدخان، فيقولون إنه ضباب.. ولكن لفظ الضباب لا يتناسب مع وصف هذا الدخان، لأن الضباب يكون بارداً، وأما هذا الدخان الكوني فإن فيه شيئاً من الحرارة. نعم، الدخان عبارة عن غازات تعلق فيها مواد صلبة. ويكون معتماً وهذا وصف الدخان الذي بدأ منه الكون. قبل أن تتكون النجوم كان عبارة عن غازات تعلق فيها مواد صلبة وكان معتماً.. وكذلك كان حاراً، فلا يصدق عليه وصف الضباب، بل إن أدق وصف هو أن نقول: هو دخان.

وهكذا أخذ يفصل فيما عرض عليه من آيات، وأخيراً سألتناه: ما رأيك في هذه الظاهرة التي رأيتها بنفسك، العلم يكشف بتقدمه أسرار الكون، فإذا بكثير من هذه الأسرار قد ذكرت في القرآن، أو ذكرت في السنة.. هل تظن أن هذا القرآن جاء إلى محمد ﷺ من مصدر بشري؟

قال: قبلنا كان الفلكيون المعاصرون يدرسون تلك القطع الصغيرة في السماء. لقد ركزنا مجهودنا لفهم هذه الأجزاء الصغيرة لأننا نستطيع باستخدام التلسكوب أن نرى كل الأجزاء الرئيسية في السماء، ولذلك أعتقد أنه بقراءة القرآن وبإجابة الأسئلة أنني أستطيع أن أجد طريقاً في المستقبل للبحث في الكون. وقال: إننا نحن العلماء نركز على جزء صغير في دراستنا، أما من يقرأ القرآن فإنه يرى صورة واسعة لهذا الكون.

وقال: إنني عرفت منهجاً جديداً في دراسة الكون لا بد أن ننظر إليه نظرة شاملة لا أن ننظر إليه من هذه النقطة الضيقة الجزئية المحدودة.

وقال: إنني سأهجم هذا المنهج وقد عرفت بعد أن قرأت القرآن وهذه الآيات المتعلقة بالكون عرفت مستقبلي، أي إنني سأخطط أبحاثي على هذه النظرة الشاملة التي استفدتها من كتاب الله.

### جولي سمسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور جولي سمسون)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ أمراض النساء والولادة في جامعة نورث وستون في شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد حدثني حديثه الشيخ الثقة عبد المجيد الزندان، فقال: قصده مع نفر من أصحابنا، وحدثناه عن مجال اختصاصه، وما ورد عنه في القرآن الكريم.. فكان في شك أول الأمر.. فقد كان يريد أن يتأكد هل هذه نصوص القرآن؟.. هل هذه نصوص السنة؟.. فلما اطمأنت نفسه، ورأى النصوص المتعلقة بالوراثة، والتي تحدث في المراحل الأولى في الجنين عندما يكون نطفة، وعرف دقة الأوصاف، وكيف أن القرآن يقرر أن الإنسان يخلق بعد أن تجمع النطفتان، فيتقرر خلق الإنسان، وبعد ذلك يقرر البرنامج الوراثي في هذه الكروموزومات التي نشاهدها الآن.

هذه الكروموزومات فيها تفاصيل الإنسان الذي يولد لون العينين، لون الجلد، لون الشعر، كثير من

(١) انظر: إنه الحق، للشيخ عبد المجيد الزندان.



تفاصيل الإنسان مقررة هنا، فالإنسان في هذه الكروموزومات مقدر، وهذه الكروموزومات في مرحلة النطفة، إذاً فهذا الإنسان يقدر وهو في مرحلة النطفة، كما قال ﷺ: ﴿قَبِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩)﴾ (عبس)، والجنين قبل أربعين يوماً — خلال الأربعين يوماً الأولى — تجمع جميع أجهزته، فتكون جميع الأجهزة قد ظهرت، وإن كانت تظهر تباعاً، بدأت الأجهزة تتخلق وتجمع، والجنين يكون منحنيًا على نفسه، والرسول ﷺ يقول: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً»

تعرض البروفيسور حولي سمسون لهذا الحديث والحديث الآخر: «إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها»، وأخذ يقارن بين الحديثين والحد الفاصل بينهما، وبعد أن رأى هذه الدقائق والتفاصيل وقف في أحد المؤتمرات يعلن رأيه حول هذا الموضوع، فقال: من هذين الحديثين يمكننا استخلاص جدول محدود حول التطور الرئيسي للجنين قبل أربعين يوماً.

ولم يكتف بهذه الشهادة، بل إنه قال: إن بإمكان الدين أن يقود العلم قيادة ناجحة. وقال: وعليه أعتقد أنه لا يوجد خلاف بين المعرفة العلمية وبين الوحي بل إن الوحي ليدعم أساليب الكشف العلمية التقليدية المعروفة حينئذٍ. وجاء القرآن قبل عدة قرون مؤيداً لما تطرقنا إليه مما يدل على أن القرآن هو كلام الله.

### البروفيسور هاي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور هاي)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا البروفيسور من أشهر علماء البحار في أمريكا، وقد حدثني حديثه الشيخ الثقة عبد المجيد الزندان، فقال: ذهبت إليه مع نفر من أصحابنا، وسألناه عن كثير من الظواهر البحرية التي تتعلق بسطح البحر، والتي تتعلق بالحد الفاصل بين البحر السطحي وبين البحر العميق، والتي قد تتعلق أيضاً بقاع البحار وجيولوجيا البحار.. سألناه عن هذا كله، وسألناه عن الحواجز المائية بين البحار المختلفة، وعن الحواجز المائية بين مياه البحار والأنهار.

وقد كان يجيبنا عن هذا كله، وبتفصيل، وعندما تعرضنا لشرح الحواجز بين البحار المالحة وضح لنا أن البحار المالحة ليست كما تشاهدها العين بجرأً واحداً، إنما بحار مختلفة، تختلف في درجة الحرارة، والملوحة والكثافة، حيث نرى فيها خطوطاً بيضاء تمثل الحواجز بين الكتل البحرية، وكل حاجز يفصل بين كتلتين بحريتين مختلفتين فيما بينهما، في الحرارة والملوحة والكثافة، والأحياء المائية وقابلية ذوبان الأوكسجين.

وقد أخرج لنا من محفظته صورة توضح ذلك، ثم قال: هذه الصورة أول ما عرفت في عام ١٩٤٢ بهذا الشكل بعد أن أقام العلماء مئات المحطات المائية في البحار لدراسة خصائص البحار.. وهي توضح حداً فاصلاً بين البحر الأبيض المتوسط وبين المحيط الأطلنطي.. في الوسط الذي في الصورة مثلث هو عتبة جبل طارق أسفل.. وهذه منطقة جبل طارق نرى فيها كيف يوجد الحد الفاصل، وهو مبين باللون بين الكتلتين المائيتين يفصل بينهما.

(١) انظر الجوانب العلمية المرتبطة بهذا، وما ورد في القرآن مما يقررهما في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

ثم التفت إلينا، وقال: هذا أمر لا تشاهده الأبصار، ولكنه أصبح الآن حقيقة واضحة، ويتطور الأقمار الصناعية ودراستها واستشعارها من بعد تمكنت هذه الأقمار الصناعية أن تصور هذه المناطق البحرية، الحدود البحرية بين الكتل المختلفة.. كما نرى في هذا الشكل الذي التقط بالأقمار الصناعية بالخاصية الحرارية فظهرت البحار بألوان مختلفة، كما نرى بعضها بلون أزرق فاتح وبعضها بلون أزرق قاتم وبعضها بلون أسود وبعضها بلون يميل إلى الأخضر.. هذه الألوان المختلفة السبب فيها اختلاف درجات الحرارة على سطح البحار، ولكنك لو وقفت على سطح البحر لا ترى.. لا ترى إلا ماءً أزرق في كل هذه البحار والمحيطات.. إنها حواجز لا ترى إلا بالدراسة وبالتقنية الحديثة.

عندما عرض لنا ذلك، وشرحه لنا بالتفصيل قرأنا عليه من القرآن الكريم ما يدل عليه دلالة واضحة، وذلك في قوله ﷻ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن: ١٩-٢٠)، ثم سألناه: ما رأيك في هذه الظاهرة؟.. نصوص نزلت قبل ١٤٠٠ عام تصف دقائق لا يمكن لبشر أن يعرفها في ذلك الزمان، وجاء العلم اليوم شاهداً بما مبيناً لدقائقها فما هو رأيك؟

فقال البروفيسور هاي: إنني أحد من المثير جداً أن هذا النوع من المعلومات موجود في آيات القرآن الكريم، وليست لدي طريقة أعرف بها من أين جاءت، ولكنني أعتقد أنه من المثير للغاية أنها موجودة فيه، وأن العمل مستمر لكشف معاني بعض الفقرات.

فقلنا: إذن فقد أنكرت تماماً أنها من مصدر بشري.. فممن إذن يأتي في اعتقادك أصل أو مصدر هذه المعلومات؟

فقال: أعتقد أنه ولا بد أن يكون من الله.

### البروفيسور فان برسود:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور فان برسود)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا البروفيسور فان برسود، وهو رئيس قسم التشريح بكلية الطب بمينوتوبا بكندا، وقد حدثني حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزنادي، فذكر أن الدكتور (كيث مور) الذي سبق الحديث عنه ذكر له أن هناك علماء أحراراً يهتمهم البحث عن الحقيقة، ومنهم البروفيسور فان برسود.. وهو مؤلف مشهور له عدد من الكتب ألفها في علم أمراض النساء، وهو ممن أضاف — بعد ذلك — إلى كتبه بعض ما جاء في القرآن والسنة، وأشار إلى هذه الآيات والأحاديث في كتبه، وقدم عدداً من البحوث في عدد من المؤتمرات، وكان من ضمن أبحاثه ما قدمه حول حديث رسول الله ﷺ الذي رواه مسلم وهو قول رسول الله ﷺ: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء»

وقدم البروفيسور برسود أبحاثاً كثيرة حول علاقة القرآن والسنة بالعلوم الحديثة، وكان من ضمن أبحاثه ما قدمه في معنى حديث رسول الله ﷺ الذي رواه ابن ماجه والحاكم وهو قول رسول الله ﷺ: «ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم»

ومما قاله في بحثه هذا: من المعترف به الآن على نطاق واسع أن هذه التغيرات الخبيثة في عنق الرحم لها صلة بعمر النساء، وعدد مرات الجماع، وعدد مرات الولادة، فعدد من دراسات علم الأوبئة قد أظهرت بوضوح علاقة متبادلة هامة بين التعرض للعلاقات الجنسية المتعددة، والسرطان العرضي المحتمل الحدوث بدرجة عالية.

وقال: إن نتائج ومخاطر العلاقات الجنسية غير الشرعية، والممارسات الجنسية المنحرفة، قد ذكرت في هذا الحديث منذ ١٤٠٠ سنة وأرجو أن أكون مصيباً — مشيراً إلى مرض الإيدز —: « ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم»، والفاحشة هي الخيانة والشذوذ الجنسي غير المعلن والبوهيمية، وكل العلاقات الجنسية الأخرى، وليس من اتساع الخيال أن نعتبر الهرز والإيدز كأمثلة واضحة لأضرار جديدة في الوقت الحاضر ليس لدينا العلاج لها.

وقد قال الشيخ الزندان معلقاً على هذا مخاطباً الحاضرين: انظروا إلى هذا الربط بين قول الرسول ﷺ: « ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم»، فلما أعلنت أوروبا وأمريكا إباحة الشذوذ وإباحة الزنا والفجور بأشكاله ما إن أعلنوا هذا وأذاعوا به حتى ظهرت بعد ذلك بأعوام هذه الأمراض التي تمز كيانهم هزاً.

وصدق رسول الله ﷺ، ففي أمراض جديدة، طاعون فشا، وأمراض تفشو وتسري بين الناس وهم يخافونها.

وقد ذكر الشيخ أن البروفيسور برسود عندما سئل عن رأيه في هذه الظاهرة التي اطلع بنفسه عليها وشارك بأبحاثه فيها قال: الطريقة التي شرح لي بها هو أن محمداً ﷺ كان رجلاً عادياً جداً، ولم يكن يقرأ ولم يكن يكتب، بل كان في الواقع أمياً، ونحن نتحدث عنه أنه كان منذ ١٤٠٠ سنة رجلاً أمياً يدلي بتصريحات عميقة ودقيقة بصورة مذهشة، وذات طبيعة علمية، وأنا شخصياً لا أستطيع أن أرى كيف يكون هذا مجرد مصادفة، هناك أشياء كثيرة دقيقة مثل دكتور كيث مور لا أحد صعوبة في أن أوافق في عقلي أن هذا إلهام إلهي أو وحي قاده إلى هذه البيانات.

### البروفيسور بالمار:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور بالمار)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من أشهر علماء الجيولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد كان رئيس اللجنة التي أشرفت على الاحتفال المؤي للجمعية الجيولوجية الأمريكية.

وقد حدثني حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزندان، فقال: عندما التقينا معه وعرضنا عليه أوجه الإعجاز العلمي للقرآن والسنة كان يندهش، وأذكر قصة لطيفة بدأت معه عندما قلنا له: إن القرآن يذكر أخفض منطقة في الأرض وبين ألها قرب بيت المقدس، حيث دارت المعركة بين الفرس والروم، كما جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣)﴾ (الروم)، وأدنى تأتي بمعنى أقرب، وتأتي بمعنى أخفض.

وذكرنا له أنه عندما درسنا أخفض منطقة في الأرض وجدنا أنها هي نفس المنطقة التي دارت فيها المعارك.. فلما قلنا هذا للبروفيسور بالمر، قال: لا... هناك مناطق كثيرة أخفض من هذه المنطقة. قال ذلك، ثم أخذ يذكر لنا مناطق في أوروبا ومناطق في أمريكا، فقلنا له: يا دكتور نحن قد تأكدنا من ذلك.

كان معه مصور جغرافي مجسم فيه الارتفاعات والانخفاضات، فقال: إذا الأمر بسيط، هذا هو المجسم يبين لنا أخفض منطقة، فأدار الكرة الأرضية بيده — وهي كرة مجسمة — ووجه نظره على المنطقة المحددة، وهي قرب بيت المقدس، فإذا به يرى سهماً قد خرج من تلك الخريطة مكتوباً عليه (أخفض منطقة على وجه الأرض)

ثم بعد ذلك تحول بسرعة، وقال: هذا كلام صحيح.

وقد رغبه هذا السبق القرآني في المزيد.. وقد ازداد اندهاشه عندما وجد القرآن يصف الماضي كيف بدأ، وخلق الأرض كيف بدأ، وخلق السماء، وكيف خرجت المياه من باطن الأرض، وكيف أرسيت الجبال، وكيف خرجت النباتات.. وغيرها كثير.

واندهش عندما رأى القرآن يصف هذه الأحداث، ثم كيف يصف سطح الأرض اليوم ويصف الجبال ويصف ما عليها من ظواهر، ثم يصف الأحوال التي تمر بها الأرض، كما حدث بالنسبة لجزيرة العرب، بل ويصف ما سيكون عليه حال بلاد العرب، وما سيكون عليه حال الأرض. فقال: (هذا الكتاب عجيب يصف لنا الماضي، ويصف لنا الحاضر، ويصف لنا المستقبل)

وقد قدم بحثاً في القاهرة حول الإعجاز في مجال علم الجيولوجيا، ثم ختم بحثه هذا بقوله: (أنا لا أعلم المستوى الثقافي الذي كان عليه الناس في زمن محمد.. ولا أدري في أي مستوى علمي كانوا، فإذا كان الأمر كما نعرف عن أحوال الأولين والمستوى العلمي المتواضع والذي ليس فيه هذه الإمكانيات، فلا شك أن هذا العلم الذي نقرؤه الآن في القرآن هو نور من العلم الإلهي قد أوحى به إلى محمد)

وقد أتمى بحثه بالتصريح التالي: (لقد قمت ببحث في تاريخ الحضارة المبكر للشرق الأوسط لأعرف إذا كان في الواقع قد وردت أنباء جادة كهذه، إذا لم يكن هناك سجل كهذا فإن هذا يقوي الاعتقاد بأن الله قد أرسل من خلال محمد مقادير ضئيلة من علمه اكتشفناها فقط في الأزمنة الحديثة، إننا نتطلع إلى حوار مستمر في موضوع العلم في القرآن في سياق الجيولوجيا)

وقد علق الشيخ الزنداني على تصريحه هذا تعليقا هاما، فقال: نعم، هذا علم من أعلام الجيولوجيا في عالمنا المعاصر في الولايات المتحدة الأمريكية لا يتردد في أن يعترف ويقدم ويبين ولكنه بحاجة إلى من يوضح له الحقيقة، لقد عاش الغربيون وكذلك الشرقيون معركة بين الدين والعلم، وكان لا بد أن تحدث هذه المعركة، لأن كل الأديان قد حرفت وما بعث الله محمداً ﷺ إلا للإسلام إلا لتصحيح ما أفسده هؤلاء.

وأذكر أن بعض الناس سأله حينها: كيف سيقبل منا هؤلاء الناس ونحن في تخلف ونحن في بعد عن ديننا؟ فأجاب: إن العلم يفتح بصائر أهله، إنهم ينظرون إلى الحقائق ولا ينظرون إلى الصور، إن رصيد الإسلام

اليوم هو هذا العلم والتقدم العلمي. فإن هذا العالم يحني رأسه إجلالاً لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ثم إن الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تطمئن إلا مع الإيمان.. إن الناس بدون إيمان في قلق وضياح، ثم إن هذه الحرية التي يتمتع بها أهل الغرب تعين علماءهم على أن يقولوا الكلمة التي يعتقدونها، وهم لا يباليون ولا يحسبون أي حساب، وما هم كما سمعناهم في كثير من هذه الحلقات، يقرون ويعترفون بالمعجزة القرآنية الحية المتجددة إلى قيام الساعة.

### البروفيسور سياويدا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور سياويدا)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد حدثني حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزنداني، فذكر أنه من أشهر علماء جيولوجيا البحار في اليابان، بل هو من العلماء المشاهير في العالم في هذا المجال.

وقد ذكر لي أنه ممن حججوا عن الإسلام بسبب الشبهات الكثيرة التي يسوقها أعداؤه عنه كل حين.. بل ملئ رأسه بتشويشات وشبهات عن كل الأديان.

وقد ذكر لي حواراه معه الذي حاول من خلاله تخليصه من تلك الشبهات، فقال: عندما التقينا معه أول مرة — أنا ونفر من أصحابنا — قال لنا: لا يصح أن نتحدثوا أتم أهل الدين أبداً.. يجب أن تسكتوا في الدنيا كلها.

قال الشيخ: فقلت له: لماذا يا بروفيسور؟.. لماذا؟

قال: لأنكم إن تكلمتم أشعلتم الحرب بين الناس في العالم كله.

فقلت له: وحلف وارسو.. وحلف الأطلسي.. لماذا يحشدون هذه الترسانات الهائلة من الأسلحة النووية في الفضاء وفي البحار وعلى الأرض وتحت الأرض؟.. لماذا هذا؟.. أسبب ديني؟ فلم يجد ما يجيب به، فقلنا له: على أي حال نحن نعلم أنك تتخذ موقفاً من الدين كله، ولكن نريد منك، وطالما أنت لا تعرف ما هو الإسلام أن تسمع أولاً، وأن نرى ما عندك.

قال الشيخ: فوجهننا له عدداً من الأسئلة في مجال تخصصه، وعن الآيات والأحاديث التي تصف تلك الظواهر التي يتحدث عنها، وكان منها ما طلبنا منه أن يبينه في موضوع الجبال، فقد سألناه: ما هو شكل الجبل؟.. هل هو في شكل وتد؟

فأجاب: الجبال القارية والجبال المحيطية تتكون من مواد مناسبة، فالجبال القارية مكونة جوهرياً من مواد راسبة، بينما الجبال المحيطية مكونة من صخور بركانية، والجبال القارية تكونت بواسطة قوى ضاغطة، بينما الجبال المحيطية تكونت بواسطة قوى تمديدية، ولكن النقاط المشتركة بين النوعين من الجبال هي: أن لها جذوراً لتدعم الجبال.

في حالة الجبال القارية فإن المادة الخفيفة القليلة الكثافة التي تكون الجبل تمتد تحت الأرض كجذر.. وفي حالة الجبال المحيطية هناك أيضاً مادة خفيفة تدعم الجبل كجذور ولكن في حالة الجبال المحيطية فإن مادتها الخفيفة مناسبة للتركيب الخفيف ولكنه ساخن ولذلك، فإنها ممتدة بطريقة رقيقة، ولكن من وجهة نظر الكثافة،

فإنهما تؤديان نفس المهمة، وهو دعم الجبل، ولذلك فإن مهمة الجذور هي دعم الجبال وفق قانون أرشميدس عن الطفو.

قال الشيخ: ثم شرح لنا البروفيسور سياويدا شكل كل جبل سواء كان على اليابسة في القارات أو في قاع المحيطات، وذكر في كل ذلك على شكل وتد، وهو يوافق تماما ما ذكره القرآن من وصف الجبال بكونها أوتادا.

قال الشيخ: وعندما سألنا البروفيسور سياويدا عن وظيفة الجبال: ألهذا دور في تثبيت القشرة الارضية؟ فقال: إلى الآن لم يكتشف العلم هذا.

فأخذنا نبحت، ونسأل فوجدنا كثيراً من علماء الجيولوجيا يجيبون علينا بنفس الجواب إلا القليل — ومن هؤلاء أصحاب كتاب (الأرض) وهو مرجع علمي في كثير من الجامعات في العالم.. ومن الذين كتبوه فرانك برس، وقد كان رئيس أكاديمية العلوم في أمريكا فقد ذكر في صفحة ٤٣٥ عن وظيفة الجبال يقول: إن للجبال دوراً كبيراً في تثبيت قشرة الأرض.

فذكرنا ذلك لهذا البروفيسور وعرضنا عليه تفسيرات القرآن المرتبطة بهذا، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ (النازعات: ٣٢)، وقوله ﷻ: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ (النبأ: ٧)، وقوله ﷻ: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥)

وقلنا له: يا أستاذ.. ما رأيك في هذا الذي رأيته من ظاهرة حديث القرآن والسنة عما في هذا الكون من أسرار، الأمر الذي لم يكتشفه العلم إلا في هذا الزمان.

فأجاب على سؤالنا بقوله: أعتقد أنه يبدو لي غامضاً جداً جداً غير معقول تقريباً، إنني أعتقد حقيقة إن كان ما قلته صحيحاً، فإن هذا الكتاب حدير جداً بالملاحظة، إنني أوافقك.

قال الشيخ: ماذا يستطيع العلماء أن يقولوا، لا يمكنهم أن ينسبوا هذا العلم الذي أنزله الله على محمد ﷺ في هذا الكتاب، لا يمكنهم أن ينسبوا هذا العلم في هذا الكتاب إلى مصدر بشري، أو إلى جهة علمية في ذلك العصر، فإن جميع العلماء ما كانوا يعلمون شيئاً عن هذه الأسرار.. إن البشرية كلها لم تعلم شيئاً عن ذلك، إهم لا يملكون أن يجدوا تفسيراً إلا أن يقولوا هذا من جهة أخرى هي وراء هذا الكون.. نعم، إنه وحي من الله سبحانه وتعالى، أوحى به إلى عبده النبي الأمي محمد ﷺ، وجعله معجزة باقية دائمة تستمر مع البشرية إلى قيام الساعة.

### البروفيسور آرمسترونج:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور آرمسترونج)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا البروفيسور آرمسترونج، وهو أحد مشاهير علماء الفلك في أمريكا، ويعمل في وكالة الفضاء الأمريكية ناسا، وهو من مشاهير علمائها.

وقد حدثني بخبره الشيخ عبد الحميد الزنداني، فقال: قصدته مع نفر من أصحابنا لنسأله عن عدد من الآيات الكونية المتعلقة بمجال تخصصه في الفلك.

وكان من جوابه لنا قوله: سأحدثكم كيف تكونت كل العناصر على الأرض، لقد اكتشفناها.. بل لقد أقمت عدداً من التجارب لإثبات ما أقول لكم.

إن العناصر المختلفة تجتمع فيها الجسيمات المختلفة من الكترونات وبروتونات وغيرها لكي تتحد هذه الجسيمات في ذرة كل عنصر يحتاج إلى طاقة.

وعند حسابنا للطاقة اللازمة لتكوين ذرة الحديد وجدنا أن الطاقة اللازمة يجب أن تكون كطاقة المجموعة الشمسية أربع مرات، ليست طاقة الأرض ولا الشمس ولا القمر ولا عطارد ولا زحل ولا المشتري كل هذه المجموعة الشمسية بأكملها لا تكفي طاقتها لتكوين ذرة حديد، بل تحتاج إلى طاقة مثل طاقة المجموعة الشمسية أربع مرات.

ثم قال هو من نفسه بدون سؤال منا: ولذلك يعتقد العلماء أن الحديد عنصر غريب وفد إلى الأرض ولم يتكون فيها.

وهنا ذكرنا قول الله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد: من الآية ٢٥)، ثم سأله: هل في هذه السماء فروع وشقوق؟

فقال: لا، إنكم تتكلمون عن فرع من فروع علم الفضاء اسمه الكون التام، وهذا الكون التام ما عرفه العلماء إلا أحياناً، لو أخذت نقطة في الفضاء وتحركت مسافة معينة إلى اتجاه وتحركت بنفس المسافة في اتجاه آخر لوجدت أن وزن الكتلة في كل الاتجاهات متساو لأن هذه النقطة متزنة فيجب أن تكون الضغوط عليها من كل جانب متساوية. والكتلة يجب أن تكون كذلك. ولو لم يكن هذا الاتزان لتحرك الكون وحدث فيه تصدع وشقوق.

قال الشيخ: فذكرت قول الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق: ٦٦)

ثم تحدثنا معه عن جهود العلماء في محاولاتهم الوصول إلى حافة الكون، وقلنا له: هل وصل العلم إلى معرفة حافة الكون؟

فقال: نحن في معركة للوصول إلى حافة الكون.. إننا نكبر أجهزة، ثم ننظر من خلالها، فنكتشف نجوماً ونكتشف أننا ما زلنا بداخل هذه النجوم ما وصلنا إلى الحافة؟

قال الشيخ: وأنا أعلم من قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ (الملك: من الآية ٥) أن كل هذه النجوم هي زينة للسماء الدنيا.

قال البروفيسور: ولذلك نحن نفكر في إقامة التلسكوبات في الفضاء حتى لا يكون هذا الغبار والأشياء من الظواهر الجوية الموجودة على الأرض من العوائق التي تحول بيننا وبين هذه الرؤيا.. إن التلسكوبات البصرية التي تستعمل الضوء أو البصر عجزت ولم تستطع أن تتجاوز بنا مسافات كبيرة، فعوضنا عن هذه التلسكوبات البصرية بتلسكوبات لا سلكية فوجدنا مسافات جديدة، ولكن لا زلنا داخل الحدود.

قال الشيخ: فذكرت قول الله ﷻ: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ

إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ (الملك)

قال الشيخ: وهكذا بقي يذكر الحقائق العلمية، ونحن نذكر له الآيات المرتبطة بها، وهو يوافق على ذلك، ثم قلنا له: ها أنت ذا قد رأيت بنفسك حقائق علم الفلك الحديث بعد أن استخدم الإنسان هذه الأجهزة والصواريخ وسفن الفضاء واكتشفت هذه المعلومات، ها أنت ذا قد رأيتها ثم رأيت كيف جاءت في نصوص القرآن الكريم قبل ١٤٠٠ عام فما رأيك في هذا؟

فأجاب: هذا سؤال صعب.. ظلت أفكر فيه منذ أن تناقشنا هنا.. وإنني متأثر جداً كيف أن بعض الكتابات القديمة تبدو متطابقة مع علم الفلك الحديث بصورة ملفتة للأنظار، لست عالماً وافياً في تاريخ البشرية، وفي صورة يعتمد عليها بحيث ألقى بنفسي تماماً في ظروف قديمة كانت سائدة منذ ١٤٠٠ سنة، ولكني بالتأكيد أود ألا أزيد على أن ما رأيناه جدير بالملاحظة، ومع ذلك قد لا يترك مجالاً للتفسير العلمي، قد يكون هناك شيء فيما وراء فهمنا كخبرة بشرية عادية ليشرح الكتابات التي رأيناها، ولكن ليس في نيتي أو وضعي عند هذه النقطة أن أقدم إجابة على ذلك، لقد قلت كلمات كثيرة على ما أظن دون أن أعبر بالضبط عما أردتني أن أعبر عنه.

إنه من واجبي كعالم أن أظل مستقلاً عن مسائل معينة، وأعتقد أن هذا عندما توقفت على أفضل وجه عند نقطة أقل قليلاً من إعطائك الإجابة التي قد ترغب فيها؟

قلت: ألا ترى في إجابة هذا البروفيسور نوعاً من الهروب؟

قال: نعم.. فهؤلاء العلماء — مع ما رزقوا من ذكاء حاد في جميع علوم الدنيا — إلا أن لهم بلاهة عجيبة فيما يتعلق بحقائق الأزل.

سكت قليلاً، ثم قال: ولكن مع ذلك.. هذه البداية.. والعقل سيبقى محاصراً لهؤلاء.. والحقائق تظل محاصرة لهم إلى أن يعرفوا الحق، ويشهدوا له.

**البروفيسور ج. س. جورنجر:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور ج. س. جورنجر)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ في كلية الطب قسم التشريح في جامعة جورج تاون في واشنطن، وقد حدثني حديثه الشيخ عبد المجيد الزنداني، فقال: التقيت بهذا الأستاذ مع نفر من أصحابنا، وسألناه: هل ذكر في تاريخ علم الأجنة أن الجنين يخلق في أطوار؟ وهل هناك من الكتب المتعلقة بعلم الأجنة ما قد أشار إلى هذه الأطوار في زمن الرسول ﷺ أو بعده بقرون، أم أن هذا التقسيم إلى أطوار لم يعرف إلا في منتصف القرن التاسع عشر؟ فأجابنا بقوله: لقد كانت هناك عناية من اليونانيين بدراسة الجنين، وقد حاول عدد منهم أن يصف ما يدور للجنين وما يحدث فيه.

فقلنا له: نعم، نعلم هذا، إن هناك نظريات لبعض العلماء منهم أرسطو وغيره، ولكن هل هناك من ذكر أن هناك أطواراً؟ لأننا نعلم أن الأطوار لم تعرف إلا في منتصف القرن التاسع عشر، ولم تثبت إلا في أوائل القرن العشرين.



وبعد نقاش طويل، قال: لا.

قلنا: هل هناك مصطلحات أطلقت على هذه الأطوار، كالمصطلحات التي وردت في القرآن الكريم؟  
قال: لا.

قلنا: فما رأيك في هذه المصطلحات التي تغطي أطوار الجنين؟

وبعد مناقشة طويلة معه قدم بحثاً، وألقاه في المؤتمر الطبي السعودي الثامن عن هذه الأطوار التي وردت في القرآن الكريم، وعن جهل البشرية بها، وعن شمول ودقة هذه المصطلحات التي أطلقها القرآن الكريم على هذه الأطوار لأحوال الجنين بعبارات موجزة وألفاظ مختصرة شملت حقائق واسعة.

وقد قال مصرحاً بعد بحثه ذلك: إنه وصف للتطور البشري منذ تكوين الأمشاج إلى أن أصبحت كتلاً عضوية، عن هذا الوصف والإيضاحات الجلية والشاملة لكل مرحلة من مراحل تطور الجنين في معظم الحالات إن لم يكن في جميعها يعود هذا الوصف في قدمه إلى قرون عديدة قبل تسجيل المراحل المختلفة للتطور الجنيني البشري التي وردت في العلوم التقليدية العلمية.

قال الشيخ: وتطرق البحث مع البروفيسور جورنجر حول الظاهرة التي كشفت علمياً، وكشفت حديثاً لتزليل الإشكال الذي كان يثيره النصارى الذين يقولون: ها هو ذا عيسى عليه السلام قد خلق من أم فمن هو أبوه؟.. يثرون هذا الإشكال لا يتصورون أن يكون هناك خلق بدون أب.

ولكن العلم يكشف أن كثيراً من الحيوانات الدنيا وكثيراً من الكائنات الآن تتوالد وتنجب بدون تلقيح الذكور، فهذا النحل: جميع ذكوره عبارة عن بيض لم يلحق بماء الذكور والبيضة التي تلقح بماء الذكور تكون شغالة أنثى، أما الذكور فهي مخلوقة من بيض الملكة بدون ماء الذكور.. وغير ذلك من الحيوانات. بل لقد حدث في التقدم العلمي أن تمكن الإنسان أن ينه بعض البيض لبعض الكائنات فتتم هذه البيضة بدون حاجة إلى تلقيح الذكر.

وقد حدثنا البروفيسور جورنجر عن هذا الأمر، فقال: في نوع آخر لتناول الموضوع فإن البيض غير المخصب لكثير من الحيوانات اللاقارية والبرمائية والثديية السفلي يمكن تنشيطه بوسائل ميكانيكية، كالوخز بالإبرة، أو بوسائل مادية كالصدمة الحرارية، أو بوسائل كيميائية بأي عدد من المواد الكيميائية المختلفة، ويستمر البيض إلى مراحل تطور متقدمة، في بعض الأجناس يعتبر هذا النوع من التطور الجيني طبيعياً.

### البروفيسور درجا برساد راو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور درجا برساد راو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ في علم جيولوجيا البحار، وقد حدثني حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد الحميد الزنادي، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابنا، وعرضنا عليه عدداً من الآيات المتعلقة بالإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فاندش لما سمع ولما رأى وهو يقرأ معاني آيات القرآن في بعض الكتب المخصصة لذلك.

وكان مما تعرض لشرحه قول الله ﷻ: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾

﴿النور: ٤٠﴾

وقد قال في تفسيرها: نعم، هذه الظلمات عرفها العلماء الآن بعد أن استعملوا الغوصات، وتمكنوا من الغوص في أعماق البحار، لا يستطيع الإنسان أن يغوص بدون آلة أكثر من عشرين إلى ثلاثين متراً، فالذين يغوصون من أجل اللؤلؤ في مناطق الخليج يغوصون في مناطق قريبة لا تزيد على هذا العمق، فإذا غاص الإنسان إلى أعماق شديدة حيث يوجد الظلام على عمق ٢٠٠ متر لا يمكن أبداً أن يبقى حياً.

وهذه الآية تتحدث عن ظاهرة توجد في البحار العميقة، ولذلك قال ﷺ: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾.. ليس في أي بحر وصفت هذه الظلمات بأنها متراكمة بعضها فوق بعض، والظلمات المترامية والتي تتراكم في البحار العميقة تنشأ بسببين، وكلا السببين يكونان نتيجة اختفاء الألوان في طبقة بعد طبقة.

فالشعاع الضوئي مكون من سبعة ألوان، فإذا نزل الشعاع الضوئي إلى الماء توزع إلى الألوان السبعة. أخرج لنا صورة طبقات مقسمة من مقطع عرضي لقاع البحر، وقال: نرى في هذا الشكل الذي أمامنا الشعاع في الماء، فالجزء الأعلى قد امتص اللون الأحمر في العشرة الأمتار السطحية العليا، فلو أن غواصاً يغوص على عمق ثلاثين متراً وجرح جسمه وخرج الدم وأراد أن يراه فلا يرى اللون الأحمر لأن الأشعة الحمراء غير موجودة، وبعده يمتص اللون البرتقالي، وكما نرى في هذا الشكل الشعاع الضوئي وهو يتزل في أعماق الماء على مسافة ٥٠ متراً يبدأ امتصاص اللون الأصفر، وعلى عمق ١٠٠ متر يكون امتصاص اللون الأخضر وهكذا. ونرى تحت مائتي متر يكون الامتصاص للون الأزرق، فإذا ظلمة اللون الأخضر عند عمق ١٠٠ متر وظلمة الأصفر تكون على عمق ٥٠ متراً، وقبلها ظلمة اللون البرتقالي وظلمة اللون الأحمر، فهي ظلمات بعضها فوق بعض.

وأما السبب الثاني فيكون بسبب الحواجز التي تحجب الضوء، فالشعاع الضوئي الذي نراه هنا يتزل من الشمس فتمتص السحب بعضه وتشتت بعضه فتنشأ ظلمة تحت السحب، وهذه الظلمة الأولى، فإذا نزل الشعاع الضوئي إلى سطح البحر المتموج انعكس على سطح الموج فأعطى لمعاناً، ولذلك نرى أنه إذا حدث موج في البحر كان اللامعان شديداً على حسب ميل سطح الموج.

فالموج إذاً يسبب عكساً للأشعة أي يسبب ظلمة ثم يتزل الشعاع الضوئي إلى أسفل، ونجد البحر هنا ينقسم قسمين، قسم سطحي وقسم عميق، أما السطحي فهو الذي يوجد فيه الظلام والبرودة.

ويختلف البحران في خصائصهما وصفاتهما ولكن يوجد موج فاصل بين البحر السطحي والبحر العميق، وهذا الموج الداخلي لم يكتشف إلا عام ١٩٠٠م تحت الموج العميق الذي يفصل بين البحرين يوجد البحر العميق، ويبدأ الظلام حتى إن الأسماك في هذه المناطق لا ترى بأعينها بل لها مصدر للضوء يصدر من جسمها في هذه الظلمات التي تراكمت بعضها فوق بعض، وقد جاء ذكر هذا في قوله ﷺ: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ﴾ وإذا نظرنا أسفل الشكل نرى الظلام ونرى فوق الموج الأول الذي يفصل بين البحر السطحي والبحر العميق ﴿يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أي من فوق هذا الموج موج آخر، هو الذي يكون على سطح البحر: ﴿مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ فوقهم: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمات هذه الحواجز وظلمات الألوان

في طبقات بعضها فوق بعض ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ في هذه المناطق ظلام شديد، والغواصات تنزل إلى هذه المسافات فلا ترى شيئاً، وتستخدم مصادر للضوء والإضاءة حتى ترى طريقها. فمن أخبر محمداً ﷺ عن هذه الآيات؟

قال الشيخ: فكان هذا مما حدثنا عنه البروفيسور راو، ثم استعرضنا معه كثيراً من الآيات المتعلقة بالبحار وفي مجال تخصصه، ثم قلنا له: ما هو تفسيرك يا أستاذ راو لهذه الظاهرة؟.. ظاهرة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، أو بعبارة أخرى كيف أخبر محمد ﷺ بهذه الحقائق منذ ١٤٠٠ عام؟ فقال: من الصعب أن نفترض أن هذا النوع من المعرفة كان موجوداً في ذلك الوقت منذ ١٤٠٠ سنة هجرية، ولكن بعض الأشياء تتناول فكرة عامة، ولكن وصف هذه الأشياء بتفصيل كبير أمر صعب جداً، ولذلك فمن المؤكد أن هذا ليس علماً بشرياً بسيطاً، لا يستطيع الإنسان العادي أن يشرح هذه الظواهر بذلك القدر من التفصيل، ولذلك فقد فكرت في قوة خارقة للطبيعة خارج الإنسان، لقد جاءت المعلومات من مصدر خارق للطبيعة.

### البروفيسور شرويدر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور شرويدر)، فسألت البابا عنه، فقال: هو من علماء البحار في ألمانيا الغربية، وقد حدثنا حديثه الشيخ الصالح الثقة عبد المجيد الزنداني، فقال: التقيت به مع نفر من أصحابنا في ندوة لعلماء البحار نظمتها جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وقد طلب مني حينها أن ألقى محاضرة عن الظواهر البحرية بين الكشوف العلمية والآيات القرآنية، وبعد أن أُلقيت المحاضرة وقف البروفيسور شرويدر في اليوم الثاني يعقب على هذه المحاضرة فكان مما قاله: أود أن أعلق على المحاضرة التي ألقاها علينا الشيخ الزنداني بالأمس، وأود أن أقول: إنني أقدر هذه المحاضرة، في إطار اجتماع علمي كهذا لا يحتاج المرء أن يكون مسلماً، حتى بالنسبة لي كمسيحي من المهم أن أرى العلم ليس فقط كما هو عليه، ولكن أيضاً أن أراه بصورة أوسع وأقبله بالدين أي أن أراه في إطار الدين.

قال الشيخ: ثم أخذ البروفيسور شرويدر يبين العلاقة بين الأديان والعلم، إنه يتحدث عن تلك الفجوة الهائلة بين الأديان كلها وبين العلم، فهناك تنافر واضح بين قادة العلوم الدينية وقادة العلوم الكونية، ولكنه اندهش عندما سمع آيات القرآن الكريم وسمع الحقائق التي ذكرها هذا الكتاب الكريم قبل ١٤٠٠ عام، فعلق على ذلك وقال: في أديان كثيرة نجد أن القادة يظنون أن العلم يستطيع أن يأخذ شيئاً من الدين، إذا كان العلم يتقدم فإن على الدين أن يتقهقر، هنا لدينا تناول مختلف تماماً، لقد أراني الشيخ الزنداني أن العلم في الحقيقة يؤكد ما يقوله القرآن، وما ورد بالفعل منذ عديد من السنين في القرآن هو حقيقة ما يكتشفه العلماء اليوم، أعتقد أنه من المهم بالنسبة لندوة كهذه أن تبلغ إلى العلماء من جميع الأمم، وإنني واثق أننا جميعاً سنعود إلى أوطاننا ونحن نفكر أكثر في العلاقة بين الدين وعلوم البحار، ليس هناك علم في جانب ودين في جانب آخر.

### آرثر أليسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آرثر أليسون)، فسألت البابا عنه، فقال: هو

رئيس قسم الهندسة الكهربائية والإلكترونية بجامعة لندن، ورئيس جمعية الدراسات النفسية والروحية البريطانية.. وقد سمعت حديثه عن بعض الثقة، فقد ذكر لي بأن هذا الاستاذ الفاضل زار القاهرة عام ١٩٨٥ ليشارك في أعمال المؤتمر الطبي الإسلامي الدولي حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، كان يحمل معه بحته الذي ألقاه، وتناول فيه أساليب العلاج النفسي والروحاني في ضوء القرآن الكريم، بالإضافة الى بحث آخر حول النوم والموت والعلاقة بينهما في ضوء الآية القرآنية الكريمة: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢)

ولم يكن حينها قد اعتنق الإسلام، وإنما كانت مشاعره تجاهه لا تتعدى الإعجاب به كدين من الأديان. ولكنه ما إن جلس يشارك في أعمال المؤتمر، ويستمع إلى باقي البحوث التي تناولت الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، حتى تملكه الانبهار، وازداد يقينه بأن هذا هو الدين الحق.. فكل ما يسمعه عن الإسلام يدلل بأنه دين العلم ودين العقل.

لقد رأى ذلك الحشد الهائل من الحقائق القرآنية والنبوية، والتي تتكلم عن المخلوقات والكائنات، والتي جاء العلم، فأيدها، فأدرك أن هذا لا يمكن أن يكون من عند بشر.. وما جاء به محمد من أربعة عشر قرناً يؤكد أنه رسول الله حقاً.

وأخذ أليسون يستفسر من كل من جلس معه عن كل ما يهمه أن يعرفه عن الإسلام كعقيدة ومنهج للحياة في الدنيا..

وفي الليلة الختامية للمؤتمر، وأمام مراسلي وكالات الأنباء العالمية، وعلى شاشات التلفزيون، وقف البروفيسور (آرثر أليسون) ليعلن أمام الجميع أن الإسلام هو دين الحق، ودين الفطرة التي فطر الناس عليها، ثم نطق بالشهادتين أمام الجميع بصوت قوي مؤمن.

وفي تلك اللحظات كانت تكبيرات المسلمين من حوله ترتفع، ودموع البعض قد انهمرت خشوعاً ورهبة أمام هذا الموقف الجليل.

ثم أعلن البروفيسور البريطاني عن اسمه الجديد (عبد الله أليسون)، وأخذ يحدث الحضور عن قصته مع الإسلام فقال: (إنه من خلال اهتماماتي بعلم النفس، وعلم ما وراء النفس، حيث كنت رئيساً لجمعية الدراسات النفسية والروحية البريطانية لسنوات طويلة، أردت أن أعرف على الأديان، فدرستها كعقائد، ومن تلك العقائد عقيدة الإسلام، الذي وجدته أكثر العقائد تمثيلاً مع الفطرة التي ينشأ عليها الإنسان، وأكثر العقائد تمثيلاً مع العقل، من أن هناك إلهاً واحداً مهيمناً ومسيطرأ على هذا الوجود، ثم إن الحقائق العلمية التي جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية من قبل أربعة عشر قرناً قد أثبتتها العلم الحديث الآن، وبالتالي نؤكد أن ذلك لم يكن من عند بشر على الإطلاق، وأن النبي محمد ﷺ هو رسول الله)

ثم تناول (عبد الله أليسون) جزئية من بحثه الذي شارك به في أعمال المؤتمر، والتي دارت حول حالة النوم والموت من خلال الآية السابقة، فأثبت (أليسون) أن الآية الكريمة تذكر أن الوفاة تعني الموت، وتعني النوم، وأن

الموت وفاة غير راجعة في حين أن النوم وفاة راجعة.. وقد ثبت ذلك من خلال الدراسات الباراسيكولوجية والفحوص الإكلينيكية من خلال رسم المخ، ورسم القلب، فضلاً عن توقف التنفس الذي يجعل الطبيب يعلن عن موت هذا الشخص، أم عدم موته في حالة غيبوبته أو نومه. وبذلك أثبت العلم أن النوم والموت عملية متشابهة، تخرج فيها النفس وتعود في حالة النوم، ولا تعود في حالة الموت.

ثم قرر هذا العالم المسلم البروفيسور (عبد الله أليسون) أن الحقائق العلمية في الإسلام هي أمثل وأفضل أسلوب للدعوة الإسلامية، ولا سيما للذين يحتجون بالعلم والعقل. وقد أعلن البروفيسور أنه سيقوم بإنشاء معهد للدراسات النفسية الإسلامية في لندن على ضوء القرآن المجيد والسنة النبوية.

وأعلن أنه سيزل مهتما بدراسات الإعجاز الطبي في الإسلام، وذلك لكي يوصل تلك الحقائق إلى العالم الغربي الذي لا يعرف شيئاً عن الإسلام. كما وعد بإنشاء مكتبة إسلامية ضخمة باللغتين العربية والإنجليزية للمساعدة في إجراء البحوث العلمية على ضوء الإسلام.

### جفري لانج:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور جفري لانج)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ الرياضيات في الجامعات الأميركية، وهو مؤلف كتاب بعنوان (حتى الملائكة تسأل)، وقد سطر في هذا الكتاب قصة إسلامه.

وقد تشرفت باللقاء معه، والاستماع لتلك القصة منه مشافهة، ومما ذكره لي من ذلك قوله: (لقد كانت غرفة صغيرة، ليس فيها أثاث ما عدا سجادة حمراء، ولم يكن ثمة زينة على جدرانها الرمادية، وكانت هناك نافذة صغيرة يتسلل منها النور... كنا جميعاً في صفوف، وأنا في الصف الثالث، لم أكن أعرف أحداً منهم، كنا نحني على نحو منتظم فتلامس جباهنا الأرض، وكان الجو هادئاً، وخيم السكون على المكان، نظرت إلى الأمام فإذا شخص يؤمنا واقفاً تحت النافذة، كان يرتدي عباءة بيضاء... استيقظت من نومي! رأيت هذا الحلم عدة مرات خلال الأعوام العشرة الماضية، وكنت أصحو على أثره مرتاحاً.

في جامعة (سان فرانسيسكو) تعرفت على طالب عربي كنت أدرّسه، فتوثقت علاقتي به، وأهداني نسخة من القرآن، فلما قرأته لأول مرة شعرت كأن القرآن هو الذي (يقرأني)

وفي يوم عزمت على زيارة هذا الطالب في مسجد الجامعة، هبطت الدرج ووقفت أمام الباب متهيّباً الدخول، فصعدت وأخذت نفساً طويلاً، وهبطت ثانية لم تكن رجلاي قادرين على حملي!مددت يدي إلى قبضة الباب فبدأت ترتجف، ثم هرعت إلى أعلى الدرج ثانية... شعرت بالهزيمة، وفكرت بالعودة إلى مكنتي.. مرت عدة ثوانٍ كانت هائلة ومليئة بالأسرار اضطرتني أن أنظر خلالها إلى السماء، لقد مرت عليّ عشر سنوات وأنا أقاوم الدعاء والنظر إلى السماء!أما الآن فقد اتمرت المقاومة وارتفع الدعاء: (اللهم إن كنت تريد لي

دخول المسجد فامنحني القوة)، نزلت الدرج، دفعت الباب، كان في الداخل شابان يتحدathan. ردا التحية، وسألني أحدهما: هل تريد أن تعرف شيئاً عن الإسلام؟ أجبت: نعم، نعم .. وبعد حوار طويل أبدت رغبتني باعتراف الإسلام فقال لي الإمام: قل أشهد، قلت: أشهد، قال: أن لا إله، قلت: أن لا إله — لقد كنت أؤمن بهذه العبارة طوال حياتي قبل اللحظة — قال: إلا الله، رددتها، قال: وأشهد أن محمداً رسول الله، نطقتها خلفه. لقد كانت هذه الكلمات كقطرات الماء الصافي تنحدر في الحلق المحترق لرجل قارب الموت من الظمأ ... لن أنسى أبداً اللحظة التي نطقت بها بالشهادة لأول مرة، لقد كانت بالنسبة إليّ اللحظة الأصعب في حياتي، ولكنها الأكثر قوة وتحراً.

بعد يومين تعلمت أول صلاة جمعة، كنا في الركعة الثانية، والإمام يتلو القرآن، ونحن خلفه مصطفون، الكنف على الكنف، كنا نتحرك وكأننا جسد واحد، كنت أنا في الصف الثالث، وجهاً ملامسة للسجادة الحمراء، وكان الجو هادئاً والسكون مخيماً على المكان!! والإمام تحت النافذة التي يتسلل منها النور يرتدي عباءة بيضاء! صرخت في نفسي: إنه الحلم! إنه الحلم ذاته ... تساءلت: هل أنا الآن في حلم حقاً فاضت عيناى بالدموع، السلام عليكم ورحمة الله، انفتلت من الصلاة، ورحت أتأمل الجدران الرمادية! تملكني الخوف والرهبنة عندما شعرت لأول مرة بالحب، الذي لا يُنال إلا بأن نعود إلى الله<sup>١</sup>

وقد أهملت الأسئلة على الدكتور جيفري لانغ باحثة عن سر إسلامه فكان يجيب: (في لحظة من اللحظات الخاصة في حياتي، من الله بواسع علمه ورحمته عليّ، بعد أن وجد فيّ ما أكابد من العذاب والألم، وبعد أن وجد لدي الاستعداد الكبير إلى ملء الخواء الروحي في نفسي، فأصبحت مسلماً ... قبل الإسلام لم أكن أعرف في حياتي معنى للحب، ولكنني عندما قرأت القرآن شعرت بفيض واسع من الرحمة والعطف يغمرني، وبدأت أشعر بدمومة الحب في قلبي، فالذي قادني إلى الإسلام هو محبة الله التي لا تقاوم<sup>٢</sup>)

وكان من إجاباته قوله: (الإسلام هو الخضوع لإرادة الله، وطريق يقود إلى ارتقاء لا حدود له، وإلى درجات لا حدود لها من السلام والطمأنينة.. إنه المحرك للقدرات الإنسانية جميعها، إنه التزام طوعي للجسد والعقل والقلب والروح)<sup>٣</sup>

وكان يجيب بقوله: (القرآن هذا الكتاب الكريم قد أسرني بقوة، وتملك قلبي، وجعلني أستسلم لله، والقرآن يدفع قارئه إلى اللحظة القصوى، حيث يتبدى للقارئ أنه يقف بمفرده أمام خالقه، وإذا ما اتخذ القرآن بجديّة فإنه لا يمكنك قراءته ببساطة، فهو يحمل عليك، وكأن له حقوقاً عليك! وهو يجادلك، وينتقدك ويُحجلك ويتحدك ... لقد كنت على الطرف الآخر، وبدا واضحاً أن مُزّل القرآن كان يعرفني أكثر مما أعرف نفسي ... لقد كان القرآن يسبقني دوماً في تفكيري، وكان يخاطب تساؤلاتي ... وفي كل ليلة كنت أضع أسئلتي واعتراضاتي، ولكنني كنت أكتشف الإجابة في اليوم التالي ... لقد قابلت نفسي وجهاً لوجه في

(١) باختصار عن كتابيه (الصراع من أجل الإيمان) و(حتى الملائكة تسأل)

(٢) حتى الملائكة تسأل، د. جيفري لانغ: ٢١١.

(٣) حتى الملائكة تسأل، د. جيفري لانغ: ٧٥.

صفحات القرآن..<sup>١</sup>

وكان يقول: (بعد أن أسلمت كنت أجهد نفسي في حضور الصلوات كي أسمع صوت القراءة، على الرغم من أني كنت أجهل العربية، ولما سُئلت عن ذلك أجبت: لماذا يسكن الطفل الرضيع ويرتاح لصوت أمه؟ أتمنى أن أعيش تحت حماية ذلك الصوت إلى الأبد)<sup>٢</sup>

وكان يقول: (الصلوة هي المقياس الرئيس اليومي لدرجة خضوع المؤمن لربه، ويا لها من مشاعر رائعة الجمال، فعندما تسجد بثبات على الأرض تشعر فجأة كأنك رُفعت إلى الجنة، تتنفس من هوائها، وتشتتمُ تربتها، وتتنشق شذا عيبرها، وتشعر وكأنك توشك أن ترفع عن الأرض، وتوضع بين ذراعي الحب الأسمى والأعظم)<sup>٣</sup>

وكان يقول: (وإن صلاة الفجر هي من أكثر العبادات إثارة، فثمة دافع ما في النهوض فجراً - بينما الجميع نائمون - لتسمع موسيقا القرآن تملأ سكون الليل، فتشعر وكأنك تغادر هذا العالم وتساfer مع الملائكة لتمجّد الله عند الفجر)<sup>٤</sup>

قلت: أراه شديد التعظيم للصلوة مدركاً لقيمتها.

قال: أجل.. وقد حدثني عن أول صلاة صلاها، والصراع الذي حصل بينه وبين نوازع نفسه، فقال: في اليوم الذي اعتنقت فيه الإسلام، قدم لي إمام المسجد كتيباً يشرح كيفية أداء الصلاة، غير أني فوجئت بما رأيته من قلق الطلاب المسلمين، فقد ألحوا عليّ بعبارات مثل: (خذ راحتك) (لا تضغط على نفسك كثيراً) (من الأفضل أن تأخذ وقتك) (بطيء.. شيئاً، فشيئاً)

وتساءلت في نفسي (هل الصلاة صعبة إلى هذا الحد؟). لكنني تجاهلت نصائح الطلاب، فقررت أن أبدأ فوراً بأداء الصلوات الخمس في أوقاتها.

وفي تلك الليلة، أمضيت وقتاً طويلاً جالساً على الأريكة في غرفتي الصغيرة بإضاءتها الخافتة، حيث كنت أدرس حركات الصلاة وأكررها، وكذلك الآيات القرآنية التي سأتلوها، والأدعية الواجب قراءتها في الصلاة. وبما أن معظم ما كنت سأتلوه كان باللغة العربية، فقد لزمني حفظ النصوص بلفظها العربي، ومعانيها باللغة الإنجليزية، وتفحصت الكتيب ساعات عدة، قبل أن أجد في نفسي الثقة الكافية لتجربة الصلاة الأولى، وكان الوقت قد قارب منتصف الليل، لذلك قررت أن أصلي صلاة العشاء.

ودخلت الحمام ووضعت الكتيب على طرف المغسلة مفتوحاً على الصفحة التي تشرح الوضوء، وتتبع

(١) حتى الملائكة تسأل،: ٢٠٩.

(٢) الصراع من أجل الإيمان: ٣٤.

(٣) حتى الملائكة تسأل: ٣٦٦.

(٤) الصراع من أجل الإيمان: ١١١.

(٥) ذكرنا في المسائل الفقهية المرتبطة بهذا الجانب أنه لا ينبغي التشدد في هذا الباب، فيمكن للمصلي أن يصلي باللغة التي يعرفها، وفي الفقه الإسلامي الأدلة الكثيرة المبينة لجواز هذا، ولعل أفواها قوله ﷺ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: من الآية ١٤)، فالغرض من الصلاة هو ذكر الله، وهو يتحقق بأي لغة من اللغات.

التعليمات الواردة فيه خطوة خطوة، بتأن ودقة، مثل طاهٍ يجرب وصفة لأول مرة في المطبخ. وعندما انتهيت من الوضوء، أغلقت الصنبور وعدت إلى الغرفة والماء يقطر من أطرافي، ووقفت في منتصف الغرفة، متوجهاً إلى ما كنت أحسبه اتجاه القبلة.

نظرت إلى الخلف لأتأكد من أنني أغلقت باب شقتي، ثم توجهت إلى الأمام، واعتدلت في وفتي، وأخذت نفساً عميقاً، ثم رفعت يدي، وبراحتين مفتوحتين ملامساً شحمتي الأذنين بإبهامي، ثم بعد ذلك، قلت بصوت خافت (الله أكبر).

كنت أمل ألا يسمعي أحد. فقد كنت أشعر بشيء من الانفعال. إذ لم أستطع التخلص من قلقي من كون أحد يتجسس علي.

وفجأة أدركت أنني تركت الستائر مفتوحة، وتساءلت: ماذا لو رأني أحد الجيران؟ تركت ما كنت فيه، وتوجهت إلى النافذة، ثم جلست بنظري في الخارج لأتأكد من عدم وجود أحد.

وعندما رأيت الباحة الخلفية خالية، أحسست بالارتياح. فأغلقت الستائر، وعدت إلى منتصف الغرفة. ومرة أخرى، توجهت إلى القبلة، واعتدلت في وفتي، ورفعت يدي إلى أن لامس الإبهامان شحمتي أذني، ثم همست (الله أكبر)... وبصوت خافت لا يكاد يسمع، قرأت فاتحة الكتاب ببطء وتلثم، ثم أتبعتها بسورة قصيرة باللغة العربية، وإن كنت أظن أن أي عربي لم يكن ليفهم شيئاً لو سمع تلاوتي تلك الليلة.

ثم بعد ذلك تلفظت بالتكبير مرة أخرى بصوت خافت وانحيت راعكاً حتى صار ظهري متعامداً مع ساقي واضعاً كفي على ركبتي وشعرت بالإحراج، إذ لم أنحن لأحد في حياتي، ولذلك فقد سررت لأنني وحدي في الغرفة.

وبينما كنت ما أزال راعكاً، كررت عبارة (سبحان ربي العظيم) عدة مرات، ثم اعتدلت واقفاً وأنا أقرأ (سمع الله لمن حمده) ثم (ربنا ولك الحمد)... أحسست بقلبي يخفق بشدة، وتزايد انفعالي عندما كبرت مرة أخرى بخضوع فقد حان وقت السجود.. وتجمدت في مكاني، بينما كنت أهدق في البقعة التي أمامي، حيث كان علي أن أهوي إليها على أطرافي الأربعة وأضع وجهي على الأرض.

لم أستطع أن أفعل ذلك، لم أستطع أن أنزل بنفسي إلى الأرض، لم أستطع أن أذل نفسي بوضع أنفي على الأرض، شأن العبد الذي يتذلل أمام سيده.. لقد خيل لي أن ساقي مقيدتان لا تقدران على الانثناء... لقد أحسست بكثير من العار والخزي، وتخيلت ضحكات أصدقائي ومعارفي وقهقهاتهم، وهم يراقبونني وأنا أجعل من نفسي مغفلاً أمامهم، وتخيلت كم سأكون مثيراً للشفقة والسخرية بينهم، وكدت أسمعهم يقولون: (مسكين جفري فقد أصابه العرب بمس في سان فرانسيسكو)

وأخذت أدعو: (أرجوك، أرجوك، أعني على هذا). أخذت نفساً عميقاً، وأرغمت نفسي على التزول.. الآن صرت على أربعتي، ثم ترددت لحظات قليلة، وبعد ذلك ضغطت وجهي على السجادة.. أفرغت ذهني من كل الأفكار، وتلفظت ثلاث مرات بعبارة (سبحان ربي الأعلى)، (الله أكبر) قلتها ورفعت من السجود جالساً على عقي وأقيت ذهني فارغاً رافضاً السماح لأي شيء أن يصرف انتباهي. (الله أكبر) ووضعت وجهي على



الأرض مرة أخرى. وبينما كان أنفي يلامس الأرض، رحت أكرر عبارة (سيحان ربي الأعلى) بصورة آلية. فقد كنت مصمماً على إنهاء هذا الأمر مهما كلفني ذلك. (الله أكبر) وانتصبت واقفاً، فيما قلت لنفسني: لا تزال هناك ثلاث جولات أمامي. وصارعت عواطفي وكبريائي في ما تبقى لي من الصلاة.

لكن الأمر صار أهون في كل شوط، حتى إنني كنت في سكينه شبه كاملة في آخر سجدة، ثم قرأت التشهد في الجلوس الأخير، وأخيراً سلمت عن يميني وشمالي...

وبينما بلغ بي الإعياء مبلغه، بقيت جالسا على الأرض، وأخذت أراجع المعركة التي مرت بها، لقد أحسست بالإحراج لأنني عاركت نفسي كل ذلك العراك في سبيل أداء الصلاة إلى آخرها، ودعوت برأس منخفض خجلاً: (اغفر لي تكبري وغبائي، فقد أتيت من مكان بعيد ولا يزال أمامي سبيل طويل لأقطعه) وفي تلك اللحظة، شعرت بشيء لم أجربه من قبل، ولذلك يصعب عليّ وصفه بالكلمات، فقد اجتاحتني موجة لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها كالبرودة، وبدا لي أنها تشع من نقطة ما في صدري، وكانت موجة عارمة فوجئت بها في البداية حتى إنني أذكر أنني كنت أرتعش، غير أنها كانت أكثر من مجرد شعور جسدي، فقد أثرت في عواطفي بطريقة غريبة أيضاً.

لقد بدا كأن الرحمة قد تجسدت في صورة محسوسة، وأخذت تغلفني وتتغلغل في.. ثم بدأت بالبكاء من غير أن أعرف السبب، فقد أخذت الدموع تنهمر على وجهي، ووجدت نفسي أنتحب بشدة... وكلما ازداد بكائي، ازداد إحساسي بأن قوة خارقة من اللطف والرحمة تحتضني. ولم أكن أبكي بدافع من الشعور بالذنب، رغم أنه يجدر بي ذلك، ولا بدافع من الحزي أو السرور.. لقد بدا كأن سداً قد انفتح مطلقاً عنان مخزون عظيم من الخوف والغضب بداخلي.

ظللت لبعض الوقت جالسا على ركبتي، منحنيًا إلى الأرض، منتحبًا ورأسِي بين كفي. وعندما توقفت عن البكاء أخيراً، كنت قد بلغت الغاية في الإرهاق، فقد كانت تلك التجربة جارفة وغير مألوفة إلى حد لم يسمح لي حينئذ أن أبحث عن تفسيرات عقلانية لها.. وقد رأيت حينها أن هذه التجربة أغرب من أن أستطيع إخبار أحد بها.

أما أهم ما أدركته في ذلك الوقت فهو أنني في حاجة ماسة إلى الله وإلى الصلاة، وقبل أن أقوم من مكاني، دعوت بهذا الدعاء الأخير: « اللهم، إذا تجرأت على الكفر بك مرة أخرى، فاقتلني قبل ذلك، خلصني من هذه الحياة.. ومن الصعب جداً أن أحيا بكل ما عندي من النواقص والعيوب لكنني لا أستطيع أن أعيش يوماً واحداً آخر وأنا أنكر وجودك »<sup>1</sup>

### محمد أكويبا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (محمد أكويبا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أستاذ بإحدى الجامعات الأمريكية، وقد ذكر لي قصة إسلامه، فقال: قبل أربع سنوات، ثارت عندنا بالجامعة زوبعة

(١) حتى الملائكة تسأل: ٢٣٤.

كبيرة، حيث التحقت للدراسة طالبة أميركية مسلمة، وكانت محجبة، وقد كان من بين مدرسيها رجل متعصب يبغيض الإسلام ويتصدى لكل لا يهاجمه، فكيف بمن يعتنقها يظهر شعائره للعيان؟  
وقد كان هذا الأستاذ يحاول استئثارها كلما وجد فرصة سانحة للنيل من الإسلام، وشن حربا شعواء عليها، ولما قابلت هي الموضوع بحدوء ازداد غيظه منها، فبدأ يحارها عبر طريق آخر، حيث الترصدها بالدرجات، وإلقاء المهام الصعبة في الأبحاث، والتشديد عليها بالنتائج، ولما عجزت المسكينة أن تجد لها مخرجا تقدمت بشكوى لمدير الجامعة مطالبة فيها النظر إلى موضوعها.  
وكان قرار الإدارة أن يتم عقد لقاء بين الطرفين المذكورين الدكتور والطالبة لسماع وجهتي نظرها والبت في الشكوى.

ولما جاء الموعد المحدد، حضر أغلب أعضاء هيئة التدريس، وكنا متحمسين جدا لحضور هذه الجولة التي تعتبر الأولى من نوعها عندنا بالجامعة.

بدأت الجلسة التي ذكرت فيها الطالبة أن المدرس يبغيض ديانتها، ولأجل هذا يهضم حقوقها العلمية، وذكرت أمثلة عديدة لهذا، وطلبت الاستماع لرأي بعض الطلبة الذين يدرسون معها، وكان من بينهم من تعاطف معها وشهد لها، ولم يمنعهم اختلاف الديانة أن يدلوا بشهادة طيبة بحقتها.  
حاول الدكتور على إثر هذا أن يدافع عن نفسه، واستمر بالحديث، فخاض بسبب دينها، فقامت تدافع عن الإسلام، وأدلت بمعلومات كثيرة عنه، وكان لحديثها قدرة على جذبنا، حتى أننا كنا نقاطعها، فنسألها عما يعترضنا من استفسارات، فتجيب، فلما رأنا الدكتور المعني مشغولين بالاستماع والنقاش خرج من القاعة، فقد تضايق من اهتمامنا وتفاعنا.

فذهب هو ومن لا يرون أهمية للموضوع، وبقينا نحن مجموعة من المهتمين نتجادب أطراف الحديث، وفي نهايته قامت الطالبة بتوزيع ورقتين علينا كتب فيها تحت عنوان ( ماذا يعني لي الإسلام؟ )، وفيها ذكرت الدوافع التي دعته لاعتناق هذا الدين العظيم، ثم بينت ما للحجاب من أهمية وأثر، وشرحت مشاعرها الفياضة صوب هذا الجلباب وغطاء الرأس الذي ترتديه، والذي تسبب بكل هذه الزوبعة.

لقد كان موقفها عظيما.. ولأن الجلسة لم تنته بقرار لأي طرف، فقد قالت إنها تدافع عن حقها، وتناضل من أجله، ووعدت أنها إن لم تظفر بنتيجة لصالحها أن تبذل المزيد حتى لو اضطرت لمتابعة القضية وتأخير الدراسة نوعا ما، لقد كان موقفا قويا، ولم نكن أعضاء هيئة التدريس نتوقع أن تكون الطالبة بهذا المستوى من الثبات، ومن أجل المحافظة على مبدئها.

وكم أذهلنا صمودها أمام هذا العدد من المدرسين والطلبة، وبقيت هذه القضية يدور حولها النقاش داخل أروقة الجامعة، أما أنا فقد بدأ الصراع يدور في نفسي من أجل تغيير الديانة، فما عرفته عن الإسلام حبيبي فيه كثيرا، ورغبني في اعتناقه، وبعد عدة أشهر أعلنت إسلامي، وتبعني دكتور ثانوالت في نفس العام، كما أن هناك أربعة طلاب أسلموا.

وهكذا في غضون فترة بسيطة أصبحنا مجموعة لنا جهود دعوية في التعريف بالإسلام والدعوة إليه، وهناك

الآن عدد من الأشخاص في طور التفكير الجاد، وعمما قريب إن شاء الله ينشر خبر إسلامهم داخل أروقة الجامعة. والحمد لله وحده.

### آلا أولينيكوفا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آلا أولينيكوفا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذه أستاذة بالجامعة الروسية، وقد درست الطب في ثلاث جامعات، قد أخبرتني عن قصة اعتناقها للإسلام، فقالت: أنا روسية، ولدت في مدينة ( لينين غراد ).. وهي مدينة تنتسب إلى لينين ذلك الشيوعي الذي قتل آلاف المسلمين في الجمهوريات المسلمة في الاتحاد السوفييتي السابق.

وقد تعلمت وواصلت الدراسة في أسرة فقيرة لم يكن لها من زاد سوى صيد الأسماك التي عمل بها والدي من قديم.

وقد درست الطب في موسكو وتخرجت، ثم حصلت على الماجستير فالدكتوراه، ودرست بعدها في جامعات موسكو وكييف ولينين غراد.

حياتي في ظل الشيوعية كانت سيئة جدا، لا تتفق وفطرة الإنسان في العيش بحرية وأمان ورفاه. كنت في داخلي نائرة على الوضع، لكنني لم أكن أستطيع الكلام، مثل سائر الناس، وإلا كان المصير هو القتل، أو النفي لسيبيريا، أو السجن أو التعذيب.

كانت حياتنا جحيما مستعرا، ظلما واستعبادا وقهرا، وإجبارا على حياة لا توافق فطرة البشر، ومنعا من العبادة، وإجبارا على الكفر والإلحاد.

نحن نعلم عن الإسلام أكثر مما يعرفه الغربيون لأسباب أهمها قربنا من المجتمعات المسلمة، ولأن الاتحاد السوفييتي كان يضم قرابة ٦٠ مليون مسلم، وهؤلاء يعملون معنا في مختلف مراكز الدولة.

عرفت الإسلام من بعض المسلمين العاملين معنا، ولاحظته في تصرفات الطلبة الوافدين من الدول الإسلامية مثل: سورية والكويت وليبيا واليمن والعراق.

وتعرفت على الإسلام أكثر من خلال طالب سوري من حمص كان يدرس الطب في جامعة كييف، إذ لم يكن يشرب الخمر، ولا يأكل لحم الخنزير، ولا يقيم علاقات مع النساء، وكانت أخلاقه عالية جدا، فقد كان أميناً وصادقاً، وكان يسكن منزلا متواضعا يقول عنه: هذا منزلي ومسجدي.

شدني هذا الطالب المسلم بأخلاقه، وتعامله المهذب، ليؤكد أن هذه هي أخلاق الإسلام، ولقد أهداني كتبنا عن الإسلام قرأتهما جيدا فزادت معرفتي به.

وفي عام ١٩٩٢ م تركت العمل مؤقتا، وسافرت إلى سورية حيث التحقت بكلية الدعوة، ودرست الإسلام فيها، وتخرجت عام ١٩٩٥ لأعلن إسلامي.

وقد ذكرت لي فضائل الإسلام ومزاياه.. وهي التي جعلته تقتنع به وتعتنقه، فقالت: الإسلام دين عظيم، وهو في بلادنا من قبل ألف عام، بينما لم تعش الشيوعية أكثر من سبعين عاما.. لاحظت الأخوة والمحبة بين المسلمين وتبادل النصح.. يزداد تجلي الإسلام في رمضان حيث النظام والصبر والمودة التي تفتقدتها المجتمعات

غير المسلمة على إطلاقها .. الإسلام يراعي الدنيا والآخرة، وهذا يلائم الطبيعة البشرية .. بعد ارتدائي الحجاب أحاول عدم الاختلاط بالرجال قدر المستطاع.

ولو عرف مجتمعنا الإسلام جيداً وطبقه لأنقذه من الجريمة والفساد والمافيا والمخدرات والدعارة والبطالة.. لأن الإسلام يحرم ويحارب كل ما يضر بالنفس وبالآخرين.

الإسلام هو الخلاص للبشرية، والشافي لها من أمراض العصر، وفيه الحل لمشكلات المجتمعات المختلفة.

لقد سقطت الشيوعية في مزبلة التاريخ على الرغم من كل ما أحاطوها به من دعايات.

بقي الإسلام الذي حاول الشيوعيون طمس، بل تعاضم دوره واتسعت رقعته اليوم في روسيا وغير روسيا، وفي هذا درس وعبرة لمن أراد أن يعتبر.

وقد قالت لي في آخر حديثي معها: أنا الآن بصدد وضع كتاب عن الإسلام بالروسية، وسوف أحاول تعريف الجميع بهذا الدين العظيم، الذي رأيت من خلاله النور.

### صوفي بوافير:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (صوفي بوافير)<sup>1</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذه عالمة كندية تحمل درجة الماجستير في تعليم الفرنسية والرياضيات، وقد حدثني حديث إسلامها، فقالت: ولدت في مونتريال بكندا عام ١٩٧١ في عائلة كاثوليكية متدينة، فلذلك اعتدت الذهاب إلى الكنيسة، إلى أن بلغت الرابعة عشرة من عمري، حيث بدأت تراودني تساؤلات كثيرة حول الخالق وحول الأديان، وكانت هذه التساؤلات منطقية، ولكنها سهلة، ولكنني تعجبت من صعوبتها على الذين كنت أسألهم.

ومن هذه الأسئلة: إذا كان الله هو الذي يضر وينفع، وهو الذي يعطي ويمنع، فلماذا لا نسأله مباشرة؟! .. ولماذا يتحتم علينا الذهاب إلى الكاهن كي يتوسط بيننا وبين من خلقنا؟! .. أليس القادر على كل شيء هو الأول بالسؤال؟!

أسئلة كثيرة كهذه كانت تُلحُّ علي، فلما لم أتلق الأجوبة المقنعة عنها توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة، ولم أعد للاستماع لقصص الرهبان غير المقنعة، والتي لا طائل منها.

لقد كنت أؤمن بالله وبعظمته وبقدرته، لذلك رحلت أدرس أدياناً أخرى، دون أن أجد فيها أجوبة تشفي تساؤلاتي في الحياة، وبقيت أعيش الحيرة الفكرية حتى بدأت دراستي الجامعية، فتعرفت على شاب مسلم تعرفت من خلاله على الإسلام، فأدهشني ما وجدت فيه من أجوبة مقنعة عن تساؤلاتي الكبرى.

وبقيت سنة كاملة وأنا غارقة في دراسة هذا الدين الفذ، حتى استولى حبه على قلبي، والمنظر الأجل الذي جذبني إلى الإسلام هو منظر خشوع المسلم بين يدي الله في الصلاة، كانت تبهرني تلك الحركات المعبرة عن السكينة والأدب وكمال العبودية لله تعالى، فبدأت أرتاد المسجد، فوجدت بعض الأخوات الكنديات اللواتي سبقني إلى الإسلام، وهو ما شجعتني على المضي في الطريق إلى الإسلام، فارتديت الحجاب أولاً لأختبر إرادتي،

(١) انظر: كتاب (رحمت محمد) ولم أحسر المسيح، د. عبد المعطي الدلاقي.

وبقيت أسبوعين حتى كانت لحظة الانعطاف الكبير في حياتي، حين شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

إن الإسلام الذي جمعني مع هذا الصديق المسلم، هو نفسه الذي جمعنا من بعد لتكون زوجين مسلمين، لقد شاء الله أن يكون رفيقي في رحلة الإيمان هو رفيقي في رحلة الحياة.

### اسير ابراهيم شاهين:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (اسير إبراهيم شاهين)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هو الدكتور اسير ابراهيم شاهين.. وهو اسم معروف في الولايات المتحدة الاميركية التي يحمل جنسيتها وتربطه علاقة صداقة حميمة مع رؤسائها، بل يعتبر أحد الشخصيات ذوي الانجازات في دول الغرب. وقد عرف بمؤلفاته ومقالاته التي حققت رواجاً بين أوساط القراء، بل إن بعضها ادرج ضمن الكتب الاكثر رواجاً وخصوصاً تلك التي لها علاقة بالتكنولوجيا.

وهو بالإضافة إلى هذا خطيب بارع، ومتحدث لبق يجيد فن الحديث، وقد نال جائزة قيمة في مجال تطوير المهارات المتخصصة، وهو مصنف ضمن رجال العلم الأميركيين، وضمن أحد الشخصيات ذوي الإنجازات في دول الغرب. كما أنه مواطن فخري لمدينة تكساس، وأحد الأساتذة البارزين في أميركا. وقد نال جائزة رواد الخطابة العالمية للباقة في الحديث، كما حصل على شهادة تقدير وسجل اسمه في سجل الشرف التذكاري الرئاسي.

وقد التقيت به في أميركا، وحدثني عن قصة إسلامه، فقال: ولدت في لبنان عام ١٩٣٧، وأنا — في أصلي — مسيحي أرثوذكسي، درست في لبنان واكملت دراسة الثانوية فيها، ومن خلال حي لروح المغامرة ككتاب في مستقبل العمر وطموحي وتعطشي للمعرفة هاجرت الى الولايات المتحدة الاميركية عام ١٩٥٧ طلباً للعمل والبحث عن فرص وظيفية، وكنت اعمل اثناء الدراسة لأنفق على نفسي، وقد درست بجامعة تكساس في أوستن لمدة سنتين، وحصلت على درجة البكالوريوس في العلوم من قسم الهندسة الكيميائية من جامعة ولاية اوكلاهوما ثم درست بعد ذلك بجامعة اريزونا في توسون، وحصلت على درجة الماجستير في العلوم، كما حصلت على شهادة الدكتوراة من جامعة تينيسي في نوكسفيل.

وأثناء دراستي هناك كنت ناشطاً في شرح القضايا العربية والدفاع عنها، ففي جامعة اوكلاهوما انتخبت رئيساً لمنظمة الطلبة العرب.

قلت: فكيف أقبلت على الإسلام، واقتنعت به، واعتنقته؟

قال: أصارحك القول.. أنا منذ صغري أشعر بميل شديد إلى الإسلام.. وفي مراحل التعليم المختلفة، ومن خلال ما اطلعت عليه في صغري عن الحضارة العربية والإسلامية والتاريخ العربي اتضح لي أن الإسلام دين عظيم، وقد انبعث من الجزيرة العربية لينتشر في جميع أنحاء المعمورة، ومن خلال صداقاتي مع كثير من المسلمين

(١) أجرى معه الحوار في مجلة (الشرق الاوسط)، أجرى الحوار في الرياض: بدر الخريف.

التي امتدت إلى عدة عقود لمست فيهم سلوكيات في غاية الكمال وممارسات تحريك على احترامهم، فمثلاً أنا مسيحي لم أجد من أصدقائي المسلمين أي شيء يشعري بالبعد عنهم، بل إن الاحترام هو ديدن هذه الصداقة. إن المعاملة والوعي لب روح الإسلام تحريك على احترام هذا الدين، كما أن صداقاتي للدكتور ناصر بن ابراهيم الرشيد التي امتدت لأكثر من ٣٣ عاماً كان لها تأثير إيجابي على حياتي، فالإسلام دين واقعي ودين يدعو للعدالة والرحمة وتقدير الإنسان وتكريمه.

قلت: هذا السبب العام، فما السبب الخاص الذي أجبرك على إعلان إسلامك؟

قال: لقد قلت لنفسي (العمر يمشي ونحن نمشي، ولم يبق من الزمن مثل ما مضى).. وإضافة الى ما كانت ذاكرتي تحتزنه من حب للإسلام، فقد مررت بظروف صعبة جداً منذ سنتين ونصف حيث خضعت لعملية استئصال ورم سرطاني حول البنكرياس، وذلك في إحدى المستشفيات الاميركية، واتضح لي أن العملية ونتائجها خطيرة وأن نسبة نجاحها تعد من النادر.

وفي ليلة العملية تلقيت اتصالات من اصدقاء ومحبين كلهم يدعون لي بنجاح العملية، بل إن البعض منهم أشار إلى أهم دعوا لي في الحرم بخروجي سالماً معافى من هذا الظرف، ولأنني مولع بالقرآن الكريم بصوت المقرئ الراحل عبد الباسط عبد الصمد الذي كنت أتلذذ بالاستماع اليه، وينتابني عند سماعه شعور غريب أشعر بعده بالطمأنينة، فقد استمعت ليلة إجراء العملية إلى آيات من القرآن الكريم، وبعد العملية شعرت بطمأنينة عميقة وروح هادئة، وحينها قررت أن أعلن إسلامي، وبالفعل حصل ذلك بحمد الله.

كانت الظروف السياسية التي أعلن فيها إسلامه صعبة جداً، فقلت: ألا ترى أن تزامن إسلامك مع هذه الظروف الصعبة وأنت ضمن الشخصيات الأميركية البارزة وتربطك علاقة بصناع القرار السياسي في أميركا، إضافة إلى أنك استشاري دولي ورئيس المعهد تكنولوجي دولي، هل ترى ان توقيت إسلامك فيه نوع من التحدي؟

قال: نعم، اعلان اسلامي في ظل هذه الظروف هو نوع من التحدي، ولكنني لا أحشى أحداً، فقد اتخذت قرار الدخول في الدين الإسلامي عن قناعة تامة.

قلت: ألا تخاف أن توجه لك انتقادات بسبب إسلامك؟

قال: بالتأكيد سأواجه انتقادات.. ولكن كما قلت لا أعبأ بذلك.

قلت: فهل ستعرض الإسلام على أسرتك؟

قال: نعم، ولكن بأسلوب الإقناع، ودخول أفراد أسرتي للإسلام وخصوصاً زوجتي الاميركية يعتمد على القناعة، وأنا أرى أنني قدوة لأسرتي سابقاً، والآن سأكون أفضل بعد إسلامي.

قلت: أنت ترى ما يفعل قومي وقومك من التشهير بالإسلام والمسلمين والعرب في الغرب؟

قال: ليس هناك ما يرر مثل هذا الهجوم، وقد تابعت ذلك ووجدت أن ما طرح لا يعدو أن يكون حقداً وكرامية ولا يصور الواقع، واقع الدين الإسلامي المشهور بالعدل والحق وواقع المسلمين والعرب، والغريب أن هذه الحملة تأتي من اشخاص في مراكز قوى تؤثر على الملايين من المواطنين.

والاعلام الاميركي وخصوصاً بعد أحداث ١١ سبتمبر أصبح طوفانا من الدعاية السيئة، ومن المستحيل أن يقف أمامه من يسعون إلى إيضاح الحقيقة بسبب سيطرة الصهاينة عليه، وهذا يتطلب آلية من العرب والمسلمين لايضاح الصورة وتصحيح المفاهيم الخاطئة عن دينهم وعن واقعهم.

قلت: من خلال دراستك للإسلام ومخاطبتك للمسلمين، هل لمست أن صراعاً ظهر بين الإسلام والمسيحية؟

قال: المسيحية — في أصلها وحقيقتها — لا تعادي الإسلام، والعكس كذلك، لكن ظهرت مؤخراً أصوات من مبشرين تتناول إعلان الحرب على الإسلام مثل ما ذهب إليه فرانك جراهام — وهو نجل المبشر الكبير بل جراهام — حيث قال: يجب أن يعلن الحرب على الإسلام، فإنه الإسلام ليس بإلھنا، والإسلام هو دين عنف وكرهية لأقصى درجات.

تصور، هل مثل هذا الكلام يطرح، وتتناقله بعض وسائل الاعلام، وهل مثل هذا الشخص يمكن أن يقال إنه يدين بالمسيحية، لا اعتقد ذلك، فالمسيحية تقول: (من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر).. إنه بذلك يجرس العالم على الحرب وهذا شيء مؤلم، فكيف تنتقد ديناً أو تبدي رأياً فيه دون أن تعرف حقيقته أو ان تقرأ عنه.

المشكلة أن البعض في الغرب يقارن الإسلام النبيل بالمتطرفين من المسلمين، ومن قبل متطرفين مسيحيين، رغم أن الإسلام والمسيحية براء من هذه النماذج.

قلت: ما هي الآلية التي تراها مناسبة لتصحيح المفاهيم الخاطئة عن الإسلام؟

قال: من خلال إيضاح حقيقة الإسلام، من خلال الحوار مع الآخر، من خلال المراكز الاعلامية بأساليب نبيلة ومحترمة توضح الحقيقة وتراعي شعور الآخرين.

### موري ديفيد كيل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (موري ديفيد كيل)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا باحث كندي شاب، وقد التقيت به في بعض رحلاتي إلى كندا، وقد سألته أن يحدثني عن سر اختياره الإسلام دينا دون سائر الأديان، فقال: كنت أنتمي الي عائلة مسيحية، وأتردد علي الكنيسة حتي الثانية عشر من عمري، وكنت أغني مزامير وتراتيل الكنيسة، ولكن تردد علي الكنيسة بدأ يقل كثيرا أو شعرت بأن وجودي هناك لا يعالج حالة الفراغ الروحي التي أشعر بها، وكانت مشكلة الدين تثير إهتمامي بشكل كبير في ذلك الوقت.

ورغم أني كنت أعرف شيئا قليلا عن الإسلام من خلال ما تذكره وسائل الإعلام، إلا أني لم أكن أعلم أن الإسلام دين توحيدى، بل لم أكن أعلم أن الإسلام تربطه أي علاقة بدين ابراهيم أو غيره من الاديان.. لكني بدأت ألتفت إلى الإسلام بقوة عندما علمت أن أحد علماء الإسلام في سويسرا وصف الإسلام بأنه نقطة تلاقي بين الله كما هو وبين الانسان كما هو.

بعدها بدأت رحلة البحث والدراسة والتفكير، وبدأ يتكشف أمامي الكثير من تعاليم الدين الإسلامي،

وكانت كل مشكلتي تتمثل في عدم وجود من يشجعني علي دخول الإسلام، خاصة وأن المجتمع الغربي ككل يتخذ موقفاً معادياً للإسلام.

ولكني لم أترجع عن الإسلام.. لقد وجدت في الإسلام التوازن الذي كنت أنشده، وهو الذي هدايني إلى الغاية الحقيقية من الحياة، وقد وجدت فيه علاجاً وحلاً لمشكلة الروح في هذا الزمان والتي بحثت كثيراً عنها في مختلف الأديان، لكنني لم أجد ديناً يعالج هذه القضية بشكل شامل وواسع سوى الإسلام.

لقد أعلنت إسلامي رغم علمي بالصعوبات التي سوف تواجهني.. وسميت نفسي عبد الصمد.

قلت: ما هي الصعوبات التي واجهتك بعد إسلامك؟

قال: عندما أعلنت إسلامي لم ألق معارضة من قبل أصدقائي، ولكن بمرور الوقت اكتشفت أنني فقدتهم جميعاً، أما بالنسبة لعائلي، فقد أخفيت إسلامي عنهم طويلاً، وعندما اكتشفوا ذلك توترت علاقتي بهم، واصيبوا بحالة من خيبة الأمل والحزن، ولمدة عام كامل، وهم يتعاملون معي بحساسية شديدة.

ورغم أن موقفهم من إسلامي كان يعذبني إلا أنني اقتديت بالصحابي الجليل مصعب بن عمير الذي فضل الإيمان علي أمه والتي كان باراً بها..

لكن بمرور الوقت تحسنت علاقتي بالأسرة، ولكنهم ما يزالوا حتي اليوم يحرصون علي إخفاء نبأ إسلامي، ويعتبرون ذلك فضيحة.

**أحمد نسيم سوسه:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (أحمد نسيم سوسه)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا باحث مهندس من العراق، وهو عضو في الجمع العلمي العراقي، وواحد من أبرز المختصين بتاريخ الري في العراق، كان يهودياً فاعتنق الإسلام متأثراً بالقرآن الكريم، وقد توفي قبل سنوات تاركاً الكثير من الدراسات في مختلف المجالات، وخاصة في تاريخ الري، وقد فند في عدد منها ادعاءات الصهيونية العالمية من الناحية التاريخية، ومن مؤلفاته الشهيرة (مفصل العرب واليهود في التاريخ)، و(في طريقي إلى الإسلام) الذي تحدث فيه عن سيرة حياته.

وقد تشرفت بالالتقاء به، فحدثني عن رحلته إلى الإسلام، وعن إعجابه الشديد بالإسلام، وسأنتقل لك من كلامه ما تستطيع أن تكتشف به سر الجذابه إلى الإسلام، فمن أقواله:

(يرجع ميلي إلى الإسلام.. حينما شرعت في مطالعة القرآن الكريم للمرة الأولى.. فولعت به ولعاً شديداً.. وكنت أطرب لتلاوة آياته)<sup>١</sup>

(الواقع أن تحوير وتبديل مصاحف اليهود أثر أجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي نتيجة الدرس والتنقيب وقد جاء ذلك تأييداً علمياً للأقوال الربانية التي أوحيت قبل نيف وثلاثة عشر قرناً على لسان النبي العربي الكريم. أما الفرقان المجيد.. فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة فهو حقاً الكتاب المقدس



الفريد الذي أجمع الكل على سلامته وطهارته من التلاعب والتحوير، وما على القارئ إلا أن يطالع ما كتبه المستشرقون في هذا الباب.. الذين وصفوا كيفية جمعه وتدوينه، وهؤلاء أجانب غرباء كثيراً ما يصوّبون أسهمهم الناقدة السامة نحو الإسلام. والواقع أن الدلائل التاريخية واضحة بأجلى وضوح مما لا يترك أي شك في أن الفرقان الكريم لم يطرأ عليه أي تحريف أو تحوير وقد جاء كلام الله بكامله على لسان نبيه دون أن يتغير فيه حرف واحد<sup>١</sup>

(ورد في القرآن أنه جاء مهيمناً على ما بين يديه من الكتاب، ويستدل من ذلك أن التعاليم الإلهية المقدسة الأصلية قد ضمن القرآن المحافظة عليها بما أوضحه من الحقيقة بإظهار الصحيح والدخيل في الكتب الراجعة في زمان نزوله، وعليه فيكون بهذا البيان والإيضاح قد جاء خير مهيمن على كتب الله الحقيقية وخير حافظ إياها من التلاعب)<sup>٢</sup>

(الواقع أنه يتعذر على المرء الذي لم يتقن اللغة العربية ولم يظطلع بآدائها أن يدرك مكانة هذا الفرقان الإلهي وسموه وما يتضمنه من المعجزات المبهرة، ولما كان القرآن الكريم قد تناول كل أنواع التفكير والتشريع فقد يكون من العسير على إنسان واحد أن يحكم في هذه المواضع كلها. وهل من مناص للمراء من الانجذاب إلى معجزة القرآن بعد تمعنه في أمية نبي الإسلام ووقوفه على أسرار حياة الرسول.. فقد جعل الله تعالى معجزة القرآن وأمّية محمد برهاناً على صدق النبوة وصحة انتساب القرآن له)<sup>٣</sup>

(إن معجزة القرآن الكريم هي أكثر بروزاً في عصرنا الحالي، عصر النور والعلم، مما كانت عليه في الأزمنة التي سادها الجهل والحمول)<sup>٤</sup>

(يستحسن بأتباع موسى وعيسى عليهما السلام أن يراجعوا التاريخ الإسلامي ليقفوا على ما يأمر به الإسلام بشأن الرفق بالأطفال والنساء والشيوخ وغير المقاتلين بصورة عامة. ويثبت لنا التاريخ عدا ذلك أن المسلمين ساروا وفق شريعتهم القاضية بوجوب عدم مس الأطفال والنساء والشيوخ بكل أمانة وحرص حتى في الظروف التي كان فيها العدو المقابل يقتل الأطفال والنساء وغير المحاربين من المسلمين)<sup>٥</sup>

(وجد اليهود تحت راية الإسلام أمنًا وعدلاً اتقوا به شر الاضطهاد والاعتداء، وقد مضت عليهم قرون عديدة وهم في خير وثناء)<sup>٦</sup>

(من جملة ما حمله الصليبيون إلى بلادهم تلك الخلعة الإسلامية الشريفة، خلعة احترام الأديان وإطلاق الحرية لأهل الدين في تأدية فرائضهم مع احترام ما يجلبونه من العادات والتعاليم الروحية)<sup>٧</sup>

(١) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٨٦.

(٢) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٨٧.

(٣) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٨٢ - ١٨٣.

(٤) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٨٥.

(٥) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٩٤.

(٦) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٣٠.

(٧) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٣٣.

(إن الإسلام شريعة العدل والإنسانية وأنه ينطوي على مبادئ تفوق السيف في قوتها واستقامتها، وأن منهج اللطف في دعوته إلى حقيقة التوحيد يجتذب القلوب ويسحر العقول ويأسر الناس بلا سيف ولا قتال)<sup>١</sup>

(يجب ألا يغرب عن البال أن المرأة لم تكن قد حازت حقوقاً تتمتع بها إلا بعد ظهور الإسلام لأن الإسلام هو أول من رفع قدر المرأة وأعطها حقها في الحياة كحق الرجل)<sup>٢</sup>

(لقد حرمت المسيحية الطلاق ولكن في الوقت نفسه نجد أنظمة البلاد المسيحية وقوانينها الرسمية تنصّ على إباحته. إن المسيحيين أنفسهم قد ضربوا بتعاليم ديانتهم عرض الحائط ووضعوا القوانين التي تنقضها من الأساس، وما كان ذلك كرهاً لديانتهم ولكن رغبة في وضع ما تتطلبه نفسية المجتمع البشري من نظام يضمن الاطمئنان في علاقات الجنتين ويكفل السعادة البشرية. ولو صحا المسيحيون من غفلتهم وتأملوا في الأمر لاتضح لهم بأن الإسلام قد سبقهم في هذا المضمار من قبل ثلاثة عشر قرناً)<sup>٣</sup>

(من الغريب أن يصبح الطلاق اليوم عند المسلمين إلى جانب القلة ويكثر عند الغربيين الذين كانوا ينكرونه أشد الإنكار، وما فتئ يزداد مع الزمن انتشاراً مطرداً، فإنه يحصل بالولايات المتحدة الأمريكية كل سنة ما ينيف على المائتي ألف طلاق، وفي أوروبا بيت في عشرات الألوف من قضايا الطلاق وعلى الأخص في فرنسا. ولا يغيب عن الذهن أن الإسلام مع إباحته الطلاق للضرورة فإنه يعد أبغض الحلال عند الله، كما أنه ورد في القرآن الكريم ما يحتم الرفق بالمرأة ويفرض المحافظة على حقوقها ويقصي الرجل عن الإقدام على الطلاق ما أمكن)<sup>٤</sup>

(كانت المرأة في ديار العرب قديماً محض متاع، مجرد ذكرها أمرٌ ممتهن. هكذا كان الوضع حينما جاء محمد فرفع مقام المرأة في آسيا من وضع المتاع الحقير إلى مرتبة الشخص المحترم الذي له الحق في الحياة حياة محترمة، كما أن له الحق في أن يملك ويرث المال)<sup>٥</sup>

(مما يدل على أن الإسلام هو دين أبدي قد انزل لكل وقت ومكان نجد أن عادة تعدد الزوجات لم تعد تتبع في كثير من الأنحاء الإسلامية إلا ما ندر وقل، وذلك لسبب التطور الذي طرأ في حياة معظم الجماعات بحيث جعل العسر الاقتصادي والظروف الحالية تعدد الزوجات متعذراً تطبيقه.. هذا وإذا دققنا كم هي النسبة المتوية من المؤمنين بالدين الإسلامي الذين يطبقون عادة تعدد الزوجات في الوقت الحاضر نجد فعلاً أنها نسبة جدّ قليلة)<sup>٦</sup>

(إني أعتقد بأنه لو كان للإسلام في أمريكا بعض ما كان للمسيحية من الدعاية والتبشير، لكان علمه يخفق اليوم في معظم أصقاع هذه البلاد الواسعة وكان لقي فيها من التشجيع بخلاف ما هو معروف من فشل

(١) في طريقي إلى الإسلام: ٢ / ٣٨.

(٢) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٨٧.

(٣) في طريقي إلى الإسلام: ٢ / ٣٠ - ٣١.

(٤) في طريقي إلى الإسلام: ٢ / ٣١ - ٣٢.

(٥) في طريقي إلى الإسلام: ٢ / ٤٢.

(٦) في طريقي إلى الإسلام: ٢ / ١٤٤ - ١٤٥.

التبشير النصراني<sup>١</sup>

(إن البلاد العربية تحتاز اليوم دوراً عصيباً هو دور الانتقال والتطور، وهذا الانتقال السريع مخيف ومرعب، فقد تضيق فيه الوجهة والمبدأ إن لم نندارك الأمر بالتحلي بالصفات الإسلامية السامية التي تمدنا بالإيمان والقوة قبل أن تتغلب علينا مادة الغرب فتفرقنا وتنتزع من أبناء يعرب يقينهم وأمانهم)<sup>٢</sup>

(لابد للشباب المتعلمين أن يضعوا نصب أعينهم الحقيقة التاريخية، ألا وهي أن حرب الغرب ضد الإسلام لم تنته، تلکم الحرب التي أضرهما الغربيون المسيحيون بقصد قطع دابر المسلمين، ومحو شوكة الإسلام من البسيطة. وقد وجد الغربيون في نظرياتهم الإلحادية التي يثوثها في علومهم ويشجعونها بين المسلمين بوسائل مختلفة غير العلم خير دسياسة بل أنجع وسيلة لمحو الإيمان بالدين الإسلامي، ونعني بذلك قوة الإسلام التي يترصب لها الغرب باغياً إخمادها واضمحلالها. وبإليت الشباب المسلمين يتروون في مسلكهم ويدرسون الحقائق الدينية التاريخية قبل أن يبيعوا عواطفهم الدينية رخيصة للعدو المترصد)<sup>٣</sup>

(إنه يجب ألا ننسى أن العالم الغربي يخشى بأس الإسلام إذا اتحد أنصاره.. إذ يرى الغربيون في اتحاد المسلمين خطراً على كيانهم ومدنيتهم ولا يخفون شعورهم في هذا الصدد بل هم يسعون بكل الوسائل لوضع العراقيل في سبيل التفاهم والاتحاد بين البلاد الإسلامية)<sup>٤</sup>

(لابد من القول إن المناوأة التي أحدثتها البابوية ضد الإسلام وأضرمت بها نيران الحروب الصليبية لا تزال متأصلة في نفوس الغربيين)<sup>٥</sup>

(أي غاية أسمى وأقرب إلى الإنسانية ودين الله من تلکم الغاية التي كان يرمي إليها الرسول في توحيد القلوب وإظهار الحقيقة؟ لتصور محمداً وهو يملي على أهل الكتاب وحي الله قائلًا: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤)<sup>٦</sup>

(إن نبي الإسلام شخصية تاريخية مبحلة. ما حياة الرسول سوى سلسلة وقائع تاريخية عظيمة الشأن نبيلة المرمى يتجلى فيها مقامه السامي من الحلقة الإنسانية)<sup>٧</sup>

(كان محمد أنموذجاً للحياة الإنسانية بسيرته وصدق إيمانه ورسوخ عقيدته القويمة. بل مثلاً كاملاً للأمانة والاستقامة وإن توضحياته في سبيل بث رسالته الإلهية خير دليل على سمو ذاته ونبيل مقصده وعظمة شخصيته

(١) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٥٣.

(٢) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٦٢.

(٣) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٦٢ - ٦٣.

(٤) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٣٣ - ١٣٤.

(٥) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٣٤ - ١٣٥.

(٦) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٧٢ - ٧٣.

(٧) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٧٤.

وقدسية نبوته)<sup>١</sup>

(إن التاريخ بيننا أن محمداً ضحى بكل شيء من أجل رسالته إذ أتاحت له مرات فرصة الاختيار بين أمرين أولهما حياة راحة وهناء وغنى على أن ينبذ دعوته وثانيهما حياة عسر واضطهاد مقرونة بنشر رسالته، وقد فضل الأمر الثاني لأن إيمانه برسالته كان قوياً وكان قد أوحى إليه بأنه قد اختاره ربه لبث هذه الرسالة على الإنسانية جمعاء فكان ما أراد الله له)<sup>٢</sup>

(على المرء الذي وقف على حقيقة الإسلام أن يعترف بأن الإسلام هو في الحقيقة دين الحرية والفترة بعيداً عن قيود الكنيسة واستبدادها في المسيحية وغريباً عن العصبية وتقاليد الثقيلة في اليهودية)<sup>٣</sup>

(إن المرء الذي تغلغل في أعماق الحضارة الغربية وأدرك منظوماتها ومحضها تحميصاً دقيقاً نظرياً وعملياً لا بد له من الانقياد بقوة نفسية كمينية إلى منهج العقيدة الإسلامية لبروي غليله منها)<sup>٤</sup>

(ما أعظم سروري الآن حين جاء الاستدلال العلمي الصحيح مؤيداً للميل الفطري فانتقلت إلى الدين الإسلامي بدافع طبيعي غريزي وبتأييد علمي تمحيصي فأصبحت بذلك مسلمة شعوراً وموطناً ودينياً)<sup>٥</sup>

(جاء الإسلام بعد الديانتين التوحيديتين منقحاً موضحاً للحقيقة، معترفاً بجوهر الديانتين السابقتين، مشيراً إلى التحوير والأخطاء التي طرأت عليهما.. مضيفاً كثيراً من الإرشادات والتعاليم الروحية التي أرادها الله لعباده المؤمنين.. واضعاً شريعة تحتوي على كل ما يتعلق بالمجتمع من أمور اجتماعية دينية اقتصادية سياسية. ومن ذلك يتضح أن الإسلام لم يظهر لهداية القبائل الوثنية فحسب وإنما جاء أيضاً لتوحيد الأديان ورفع الشكوك والارتباكات التي انطوت عليها الديانتان اليهودية والمسيحية وإرشاد أتباعهما إلى الدين الجديد. ولكن تأصل جذور الديانتين ونفوذ الأحبار والساسة والعصبية اليهودية بصورة خاصة كل هذه كانت من العوامل التي حالت دون تحقيق التوحيد المنشود. ولو أن هؤلاء كانوا من المهتمين إلى الإسلام دين الحقيقة لكان انقشع ضباب الضلال والكرامية والارتباط وانبتق نور السعادة على البشرية جمعاء في حو مشبع بالصفاء والولاء)<sup>٦</sup>

(الواقع أنه ليس من دين من أديان العالم البشري حافظ على جوهره وقاعدة تعاليمه كالدين الإسلامي، وهذا ما يمتاز به الإسلام عن الديانتين اليهودية والمسيحية)<sup>٧</sup>

(إذا كان يصح ما يقال بأن خير الأمور أوسطها، فإن الديانة الإسلامية هي التي تستحق أن تحتل المكانة السامية بين الديانات العالمية لأنها جاءت مشبعة بروح الطبيعة والفترة معتدلة في طقوسها.. متوسطة في

(١) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٧٤ - ١٧٥.

(٢) في طريقي إلى الإسلام: ٢ / ١٣٠.

(٣) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٥٢.

(٤) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٥٢ - ٥٣.

(٥) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٥٥.

(٦) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٧١ - ٧٢.

(٧) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٧٤ - ٧٥.

مسلكها.. فهي الشريعة الوسط التي تدعو إلى العمل للدنيا والآخرة في آن واحد)<sup>١</sup>  
(إن الإسلام هو الدين الصافي الذي أراده الله للإنسانية، صفي بمصفاة وحيه الإلهي ليكون دينًا صالحًا لكل إنسان ولكل زمان ومكان)<sup>٢</sup>

(لو أدرك هذا العالم التائه جوهر المبادئ الإسلامية لوجد فيها خير كفيل لحلّ معظم الأدواء البشرية الحالية ولما احتاج إلى عصبة أمم أو نظائرها من الاتجاهات لنشر مبادئ السلم والتعاون لأن الإسلام يضم بين تعاليمه أنبل مبدأ وأمتن أساس لتوطيد عرى العلاقات السلمية بين الأمم)<sup>٣</sup>  
(لإسلام فضل كبير على التاريخ نفسه من غير الوجهة الدينية. ذلك أنه جاء موضحةً بعض الحوادث التاريخية الغامضة بحيث فتح بابًا واسعًا للتدقيق والبحث بل جاء حافزًا للعلماء للتنقيب وسير أغوار البحوث التاريخية لاستنباط الحقائق التي أوردتها القرآن الكريم. ومن ثم فإن خدمة الإسلام للتاريخ والعلم بل خدمته للإنسانية بصورة عامة بتشجيعه العلم الصحيح ونبذ التقليد الأعمى مما يسجلها له التاريخ ما دام تاريخ في الوجود)<sup>٤</sup>

(إن الزعة العامة للكنيسة المسيحية تجاه الفلسفة والعلم هي نزعة عدائية.. ويرجع الفضل للإسلام في محافظته على الروح العلمية الفلسفية وإرجاعها إلى المجتمع الأوروبي، إذ كان الإسلام حاميًا للكثير من المعلمين والفلاسفة الذين هجروا أوطانهم بنتيجة اضطهاد المسيحية إياهم. والواقع أن العلم لم يرجع إلى أوروبا إلا بواسطة الإسلام الذي امتد سلطانه إلى الأندلس.. وأن هذا العلم الذي انتشر في أوروبا عن طريق الإسلام أخذ يعمل في عقول المفكرين شيئًا فشيئًا حتى كانت النتيجة أن أحدث صراعًا عنيفًا بين الكنيسة وساسة الشعوب المفكرين فكان نصيب الكنيسة التسليم. معظم ما كانت تتمتع به من سلطان)<sup>٥</sup>

(لا يخفى أن الحضارة الإسلامية أنتجت ضحى التبصير والتيقظ نابذة التقليد ومتحبة الظن فكانت التجربة والبرهان قاعدة البحث فيها وبذلك تمّ للمسلمين وضع الأسس الثابتة للعلوم الصحيحة فجعلوا التجربة والملاحظة أساس المباحث العلمية ودعامة التنقيب الأمر الذي لم يكن قد اهتدى إليه اليونان مدى اشتغالهم بالبحث والفلسفة، فكوّن المسلمون بذلك ثقافة خاصة بهم وفلسفة إسلامية مستقلة بعد أن اقتبسوا محسنات ما في الفلسفة اليونانية ونبذوا الآراء الوثنية منها كما أنهم وضعوا الأسس للعلوم الطبيعية والرياضية بأنواعها المختلفة ومن طريقهم وصلت هذه العلوم إلى أوروبا)<sup>٦</sup>

(تمتاز الحضارة الإسلامية في كونها تخضع في معظم إنتاجها إلى التعاليم الإسلامية فالقيام بالصناعات والأخذ بالعلوم متصل بروح الأمة وعقيدتها، لأن العمل بذلك في نظر الإسلام فرض على الأمة وهذا نظام

(١) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٧٧.

(٢) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٨٠.

(٣) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ٦٩.

(٤) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٠٢.

(٥) في طريقي إلى الإسلام: ١ / ١٨٨ - ١٨٩.

(٦) في طريقي إلى الإسلام: ٢ / ١١٢.

يربط الإنتاج البشري بالدين.. وذلك بخلاف المدينة الغربية فإنها جعلت القيام بشؤون الحياة من اختصاص الاقتصاد المادي وحده، فأمست مدينة مادية محضة لا يعين الفرد فيها صاحبه ولا ينصر أحد رفيقه<sup>١</sup> (يجب أن لا يغرب عن البال أن المدينة الغربية الحديثة خابت في إرضاء النفوس وأخفقت في إيجاد السعادة البشرية فهبطت بالناس في هاوية الشقاء والارتباك لأن جهود العلم الحديث موجهة إلى التدمير والإفناء.. فهو بعيد والحالة هذه من أن يتصف بالكمال أو أن يكون واسطة لخدمة الإنسانية كما كان في عهد الإسلام)<sup>٢</sup>

---

(١) في طريقي إلى الإسلام: ١١٢ / ٢ - ١١٣.

(٢) في طريقي إلى الإسلام: ١١٤ / ٢.

## سادسا — الأولياء

فتحت دفتر البابا على فصله السادس، فوجدت عنوانه (الأولياء)، فقلت: من تقصد بالأولياء؟  
قال: أولئك الذين فتحت لهم أبواب السماء، وانكشفت لهم الحجب، واتسع لهم من الحقائق ما ضاق  
على غيرهم، ورأوا من ملكوت الله ما راحوا يبشرون به عباد الله.  
قلت: فما علاقة هؤلاء بشمس محمد ﷺ؟  
قال: هؤلاء هم المستقبل الأعظم لأشعة شمس محمد ﷺ.. ولهذا فإنهم أقرب الخلق إليه، وأعرف الخلق به،  
وأكثر الخلق أدبا معه.

قلت: بم استفادوا ذلك القرب، وذلك الأدب؟  
قال: بالسير على قدمه.. فمن سار على قدم رسول الله ﷺ.. ومن وحد وجهته إليه ظفر بالأنوار التي لا  
ينعم بها إلا المخلصون المخلصون من شوائب الأنا.  
قلت: لا أرى أسماء في هذا الفصل.. بل أرى كلمات.  
قال: الأولياء كلمات وليسوا أسماء.. وحقائق وليسوا حروفا.  
قلت: لم أفهم..

قال: الولي الذي يعيش الحقائق تتبناه الحقائق، وتصبح هي المعبرة عنه، فالولي الحبي يعبر عنه الحياء..  
والولي المحب يعبر عنه الحب.. والولي المتوكل يعبر عنه التوكل.. وهكذا.  
قلت: أعلم بعض هذا.. فقد ذكروا لطريق الله معارج ومقامات ومنازل.. ولكل حظه منها.  
قال: الأولياء هم الذين ظفروا بكل ذلك.. ولهذا كانت الكلمات هي المعبر عنهم لا الأسماء.  
قلت: أرى كلمات كثيرة.  
قال: سأكتفي لك في هذا المقام بأربعة منها.. فإني أرى الجدل في عصرنا شديدا.. ولن أذكر لك إلا ما  
يطبقون.

### الحبة:

قلت: فما الكلمة الأولى؟  
قال: الكلمة التي توله القلوب، وتملؤها بالأشواق اللذيذة التي لا تعرف الحزن.  
قلت: تقصد محبة الله والشوق إليه؟!  
قال: وأقصد محبة رسوله والشوق إليه.. فيستحيل على من أحب الله أن لا يحب رسوله.  
قلت: فكيف بدا لك أن تسجل هذه الكلمة؟  
قال: لذلك قصة.. كنت في بلاد من بلاد الله.. وكنت مشيت الفؤاد ممتلئا بالأكدار إلى أن سمعت غناء  
عذبا من أحد البيوت يردد قول محمد إقبال:

قد كان هذا الكون قبل وجودنا  
والورد في الأكمام مجهول الشذى  
بل كانت الأيام قبل وجودنا  
لما أطل محمد زكت الربا  
و أذاعت الفردوس مكنون الشذى  
فاقتربت من الباب، فوجدته مفتوحا، فدخلت من غير استئذان، فلم أجد نفسي إلا في حلقة كهالة الشمس تمتلئ بالأنوار.. كانوا سبعة نفر، وكان كل فرد منهم شمسا لا تختلف عن الشمس.  
لم يروني وأنا أدخل، ولم يسمعونني وأنا أسلم، بل ظلوا على حالهم غارقين في تأملاتهم، فجأة نطق أحدهم يقول:

عبد بنار الشوق فيك معذب  
جودوا بوصل منكم وبعطفة  
لي فيكم عشق وفرط صباية  
يا سعد من خصصتموه بوجدكم  
ولقد نأيت عن المني بخطيئي  
فتمام قصدي من ندائكم نفحة  
التفت إليه، وقلت: أي محبوب هذا الذي ملأ عليك  
جبههم؟

لم يلتفت إلي، ولم يجيني، بل نطق ثانيهم، وقال:  
من مثل أحمد في الكونين نمواه  
من مثله وإله العرش شرفه  
الشمس تجل من أنوار طلعته  
تبارك الله ما أحلى شمائله  
يا ربع وادي النقا يا أهل كاظمة  
صلى عليه إله العرش ما طلعت  
قلت: أنتم تتغنون بحب محمد إذن.. لا بحب ليلي وليني!؟

قال ثالثهم:



إذا مدح الشعراء أرباب عصرهم      مدحت الذي من نوره الكون أهج  
وإذا ذكروا ليلى ولبنى فإني      بذكر الحبيب الطيب الذكر أهج  
أما ومحل الهدي تدمي نحرها      ومن ضمّ البيت العتيق المدجج  
لقد شاقني زوّار قبر محمد      فشوقي مع الزوّار يسري ويدلج  
تظلل الهوادي بالهوادج ترتمي      ومالي في ركب المحبين هودج  
وتسمي بروق الأبرقين ضواحا      فتغري غرامي بالكفا وتميِّج  
وأرتاح من أرواح أطيب طيبة      إذا المسك في أرجائها يتأرجج  
بلادها جبريل يسحب ريشه      ويترل من جو السماء ويعرج  
نبي تغار الشمس من نور وجهه      هيّ نقيّ الثغر أحور أدعج  
تزيد به الأيام حسنا ويزدهي      به الدين والدنيا به تبرّج  
مكارم أخلاق وحسن شمائل      وشيمة جود بحره متموّج  
غيث للمهوف وغوث لرائد      وليث إذا صال الكمي المدجج

قلت: بالله عليكم إلا حدثوني كما يحدث الناس بعضهم، فإني غريب في هذا البلاد، ولا أفهم من الشعر ما أفهمه من النثر، فانتروا نثر الله عنكم الآلام والأحزان.

قال أحدهم: إن أردت أن ينثر الله عنك الهموم والأحزان، فتعلق بحبل النبي ﷺ.. فلا يحزن من حل بساحته، ولا يعطش من شرب من يده.

قلت: فبأي حبل أتعلق؟

قالوا جميعا: بحبل الحب.

قلت: وما حبل الحب؟

قال أحدهم: ليس هناك حبل في الدنيا غير حبل الحب.

قلت: أنا لم أسأل عن غير حبال الحب، ولكنني سألت عن حقيقة هذا الحبل، وعن مدى جدواه.

قال أحدهم: حب محمد ﷺ هو الذي يربطك بمنبع النور والجمال.

قلت: وحب الله؟

قال: لا يكمل حب الله حتى تمتلئ النفس بحب المعرفة بالله والدال عليه والهادي إليه والمعرف بمراضيه.

قلت: من هذا الذي اكتمل له هذا؟

قال: لم يكتمل هذا في أحد كما اكتمل في رسول الله ﷺ، فيه عرفنا الله، وبه عبدناه، وبه أشرقت شمس

الحقائق على هذا الكون، وبه انبلجت أنوار الحكم على العقل البشري.  
قال آخر: هو الخلاصة التي اجتمعت فيها جميع الخيرات، والشمس التي صدرت منها جميع الأشعة،  
والبذرة التي أنبتت شجرة الجمال في الكون.

قال آخر: كما ان الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحان من الحياة،  
فهما خلاصتهما، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي  
للحياة، فهي ذاتها الثابتة المستقلة. كذلك الحياة المحمدية - المادية والمعنوية - مترشحة من الحياة ومن روح  
الكون، فهي خلاصة خلاصتها والرسالة المحمدية مترشحة من حس الكون وشعوره وعقله، فهي اصفى  
خلاصته<sup>١</sup>.

قال آخر: إن جمال الكائنات وحياتها ونورانيتها التي يعيش المؤمن في أكنافها لم تكن لتتحقق لولا رسالة  
رسول الله ﷺ والمعاني الجميلة التي تحملها.

قال آخر: إن حياة محمد ﷺ - المادية والمعنوية - بشهادة آثارها حياة حياة الكون، والرسالة المحمدية  
شعور لشعور الكون ونور له. والوحي القرآني بشهادة حقائقه الحيوية روح حياة الكون وعقل لشعوره.. فاذا  
ما فارق نور الرسالة المحمدية الكون وغادره، مات الكون وتوفيت الكائنات، واذا ما غاب القرآن وفارق  
الكون، جن جنونه وفقدت الكرة الأرضية صوابها، وزلزل عقلها، وظلت بلا شعور، وأصطدمت باحدى  
سيارات الفضاء، وقامت القيامة<sup>٢</sup>.

قال آخر: لتتصور الأرض والكون والبشر لولا التعاليم التي جاءنا به رسول الله ﷺ، ولنتأمل قيمة الحياة لو  
خلت من الحياة التي بثها رسول الله ﷺ.

قال آخر: إن رسول الله ﷺ هو النافذة التي نتطلع بها إلى الحقائق، وهو العين التي نبصر بها أسرار الكون  
والحياة، وقد قال بعض السلف: «رأيت الجنة والنار حقيقة»، ف قيل له: «وكيف رأيتهما وأنت في الدنيا؟»،  
فقال: «رأهما رسول الله ﷺ فرأيتهما بعينيه، ورؤيتي لهما بعيني رسول الله ﷺ آثر عندي من رؤيتهما بعيني،  
فإن بصري قد يزيغ عند رؤيتهما أو يطغى، أما بصر الرسول ﷺ فما زاغ وما طغى»  
قلت: إنكم تذكرون أوصافا كثيرة يعتبرها بعض قومهم من المبالغات في حق نبيكم.

قال أحدهم: لو ظللنا طول دهرنا نصف أفضال نبينا علينا ما انتهينا.

قال آخر: كيف يقولون هذا.. ونحن لم نخرج عن قوله ﷺ في وصفه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا  
وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب: ٤٥ - ٤٦)، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ  
النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ  
لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ  
وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (أعراف: ١٥٧)، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي

(١) هذا القول لبديع الزمان النورسي في بيان حقيقة الجمال المحمدي.

(٢) هذا القول لبديع الزمان النورسي..

رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ  
الْأَمِيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (الأعراف: ١٥٨)

قال آخر: إن تعمقك في معاني هذه الكلمات يهديك إلى بحور من العلم بحقيقة محمد ﷺ لا يطبقها  
الجامدون.

قلت: لم أفهم.

قال: لقد وصف القرآن محمدًا ﷺ بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ورحمة للعالمين، واعتبره مبشرا ونذيراً  
وداعياً إلى الله بإذنه، وابتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم، فأبي  
إحسان أجل قدراً وأعظم خطراً من إحسانه إلى جميع المؤمنين، وأي إفضال أعمّ منفعة وأكثر فائدة من إنعامه  
على كافة المسلمين، إذ كان ذريعتهم إلى الهداية، ومنقذهم من العماية، وداعبهم إلى الفلاح والكرامة،  
ووسيلتهم إلى ربهم وشفيعهم والمتكلم عنهم والشاهد لهم والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السرمدي.

قال آخر: فإذا كان الإنسان يجب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفاً أو استنقذه من هلكة أو مضرة  
مدة التأذي بما قليل منقطع، فمن منحه ما لا يبديد من النعيم ووقاه ما لا يفنى من عذاب الجحيم أولى بالحب،  
وإذا كان يجب بالطبع ملكاً لحسن سيرته أو حاكماً لما يؤثر من قوام طريقته أو قاص بعيد الدار لما يشاد من  
علمه أو كرم شيمته فمن جمع هذه الخصال كلها على غاية مراتب الكمال أحق بالحب وأولى بالميل.

قلت: وعيت هذا.. ولكن الحريصين على صفاء التوحيد من قومكم يخافون على التوحيد في أقل من هذا.  
قال أحدهم: فخطبهم بقوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ  
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي سَبِيلِهِ  
فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (التوبة: ٢٤)

قلت: فما في هذه الآية؟

قال: هذه الآية الكريمة جمعت أصناف ما يحبه الناس ويؤثرونه وتتوجه به حياتهم على أساسه، ووضعت في  
كفة ووضعت حب الله ورسوله في كفة أخرى، ثم أُنذرت من قدم أهواءه ومحابه على الله، واعتبرته من  
الفاستقين.

قال آخر: أما من خالف ذلك وقدم الله ورسوله على من سواه، فقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً  
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ  
أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادلة: ٢٢)

ففي الآية الكريمة من أصناف الثواب والجزاء لمن ضحى بكل محبة وهوى أمام محبة الله ورسوله ما يقصر  
عنه الوصف.

قلت: هم يذكرون السنة أكثر من ذكركم للكتاب.

قال: فاذا ذكر لهم منها قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده

وولده والناس أجمعين»<sup>١</sup>، فقد جمع ﷺ في هذا الحديث أصناف المحبة، وأمر بتقديم محبة رسول الله ﷺ عليها.

قال آخر: وعندما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: «والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي»، قال له رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»، فقال عمر رضي الله عنه: «فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي»، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر»<sup>٢</sup>

قال آخر: وأخبر ﷺ أن حلاوة الإيمان لا تتحقق إلا لمن قدم محبة الله ورسوله على من سواهما، قال ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَبْعُدَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ»<sup>٣</sup>

قال آخر: هذا الحديث أصل من أصول الإسلام، وكله حديث عن الحب، وإخبار بأن الحب وما ينتج عنه من مشاعر هو أعمق أعماق الإسلام.

قلت: ابتعدوا عن النصوص.. وحدثوا عقلي ببراهين العقول<sup>٤</sup>.

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) حاول العلماء — كما فعلوا مع محبة الله — أن يبحثوا في الأسباب الدافعة لحب رسول الله ﷺ، وهي كما نرى لا يمكن حدها بأسباب معينة، فكل شخص دوافعه الخاصة، والتي تختلف باختلاف درجة حبه لرسول الله ﷺ ودرجة قربه منه ودرجة تعرفه عليه ودرجة ترقيه في مقامات الإيمان.

وأقل هذه الدرجات ما يبالغ فيه البعض من وصف الصورة الخلقية لرسول الله ﷺ في مدحه والثناء عليه بذلك والمبالغة فيه إلى درجة لا نرى أن رسول الله ﷺ يرضى عنها.

فرسول الله ﷺ مع ما أوتي من حسن الخلق، والذي ذكره واصفوه، وأثنوا عليه به ليس هو الأصل الدافع للحب، فالحب المؤسس على الجسد قد يليق بالغواني ولا يليق برسول الله ﷺ.

فالترويج الحقيقي في رسول الله ﷺ لا يكون بذكر صورته وشكله، وإنما بذكر خلقه وكمالاته، ومع ذلك لا نرى مانعا من ذكر صورته الخلقية لتكون مكتملا لصورته الحقيقية لا أصلا لها.

وانطلاقا من هذا نرى بعض التشويه في شخص رسول الله ﷺ، والذي يمارسه البعض باسم إحياء السنة، فيتصور أن السنة هي طول اللحية وقصر القميص مع تجهم الوجه والتشدد في محله وغير محله.

وعلاج هذه الظاهرة بالوصف الشامل لرسول الله ﷺ، انطلاقا من قربه من ربه، وانتهاء بعلاقته التي شملت كل ما يمكن أن يؤسس الإنسان من علاقات.

وهذا الوصف وحده — والذي يعتمد القرآن الكريم والسنة الصحيحة — كاف وحده لملا القلوب بمحبة رسول الله ﷺ، والتفاني في حبه.

وبمثل هذه المبالغة في وصف الهيئة الشكلية لرسول الله ﷺ نرى في المقابل بعض المبالغة في وصف مقاماته رضي الله عنه الروحية وقربه من ربه وعلاقته بالخلق، حتى تحول رسول الله ﷺ بذلك إلى سر غامض، وتحولت رسالته إلى مجموعة ألغاز لا يفهمها إلا خاصة الخاصة، وكأن رسالة رسول الله ﷺ العامة الشاملة خاصة بهذه الثلة القليلة التي تفردت بالتعمق في حقيقتها.

وإلى هذين المعنيين، وإلى هذين الفريقين أشار ﷺ بقوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم وقولوا: عبد الله ورسوله»

وهذا نهي صريح منه ﷺ عن وصفه بما ليس في من الصفات التماسا لمدحه، كما وصفت النصارى عيسى عليه السلام بما لم يكن فيه، فنبسوه إلى أنه ابن الله فكفروا بذلك وضلوا.

قال أحدهم: فاسمع ما يقول ابن حجر..

قلت: فما قال؟

قال: لقد قال: «إن محبوب الإنسان إما نفسه وإما غيرها، أما نفسه فهو أن يريد دوام بقائها سالمة من الافات، وهذا هو حقيقة المطلوب وأما غيرها فإذا حقق الأمر فيه فإنما هو بسبب تحصيل نفع ما على وجوهه المختلفه حالا ومالا فإذا تأمل النفع الحاصل له من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان إما بالمباشرة وإما بالسبب علم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته اوفر من غيره لأن النفع الذي يثير المحبة حاصل منه أكثر من غيره ولكن الناس يتفاوتون في ذلك بحسب استحضار ذلك والغفلة عنه»<sup>١</sup>

قلت: عرفت دلالة العقل على هذا الحب.. فما ثمراته؟

قال أحدهم: هذا الحب هو المحرك لكل خير، الدافع لكل كمال.

قال آخر: ولهذا كان الاتباع الحقيقي لسنة رسول الله ﷺ هو الاتباع الصادر عن المحبة.

قال آخر: ويدل على هذا قوله ﷺ لأنس بن مالك: «يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غشٌّ لأحدٍ فافعل»، ثم قال له: «يا بُنَيَّ وذلك من سنِّي، ومن أحيا سنِّي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في

---

وبدخل فيه أيضا وصفه ببعض ما هو فيه مما ينتج خلا في التعرف عليه ﷺ، كمن يقتصر على وصف خلقتة الجسدية، أو مقاماته الروحية، أو حياته في بيته، أو حياته مع صحابته، أو غزواته. ولهذا استغل المستشرقون ما ورد في غزواته ﷺ لتصويره بصورة المحارب الذي لا يهدأ، والذي لا يكون له الوقت الكافي للتوجيه والتربية.

بل وقع في ذلك بعض المسلمين حين تصور الدين سيفا مرفوعا على كل هامة، وتصور الدعوة إلى الله وفتح القلوب على دينه حروبا وغزوات لا تنتهي.

وقد غفل هؤلاء عن الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في القرآن الكريم، أو التي تناقلها أهل الكتاب في كتبهم، وكلها ترجع إلى الرحمة والطف وحسن المعاملة مع جميع الخلق.

فهذه هي أوصاف رسول الله ﷺ في القرآن الكريم، قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)

فإن الله ﷻ في هذه الآية الكريمة ذكر له اسمين من أسمائه الحسنين، قال الحسين بن الفضل: «لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي محمد ﷺ؛ فإنه قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: من الآية ١٢٨)، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحج: من الآية ٦٥)

وفي آية أخرى بين عليه بالرحمة التي ملأ بها قلبه، قال ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ۚ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّصْنَا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

فالرحمة هي خلق رسول الله ﷺ الذي تتبع منه كل أخلاقه، كما قال الحسن البصري ﷺ: «هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به»، بل كما قال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»، بل كما قال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الانباء: ١٠٧)

ولهذا عندما قيل له ﷺ: «يا رسول الله ادع على المشركين»، قال: «إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة»

(١) فتح الباري: ٦٠/١.

الجنة»، فقد أخبر ﷺ أن علامة حبه له ﷺ إحياء سنته. فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله. قال آخر: ويدل على هذا كذلك كل الأحاديث التي تبين مواصفات القريب من رسول الله ﷺ، وهي في مجموعها تدل على الخصال الكبرى التي كان يتصف بها رسول الله ﷺ من الأخلاق الفاضلة التي مدحه بها ربه، فقال ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)

قال آخر: الخلق العظيم هو السنة التي كان عليها رسول الله ﷺ، وهي التي أخبر بالأجر الجزيل لمن أحياها، ودليل ذلك الأحاديث التي تبين مواصفات القريب منه ﷺ، ومن ذلك قوله ﷺ في هذا الحديث الصحيح الصريح: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفهبون قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفهبون قال المتكبرون»

قال آخر: وفي أحاديث أخرى يجعل القريب منه هو القريب من المستضعفين من الناس، كقوله ﷺ ترغيبا في الاهتمام بتربية البنات: «من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه»، وقوله ﷺ في كفالة الأيتام: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه يعني السبابة والوسطى» قال آخر: وفي حديث آخر يذكر فضل المرأة التي تحبس نفسها على أيتامها، قال ﷺ: «أنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة وأوما يزيد بالوسطى والسبابة امرأة آمت من زوجها ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا»

قلت: أرى قوما يقصرون المحبة على ما يتصورونه إحياء السنة.

قال أحدهم: علامة إحياء السنة الحقيقي هو أن يعيش حياة رسول الله ﷺ بقيمتها ومبادئها وسموها، وهو يستحضر رسول الله ﷺ في كل حركة من حركاته، حتى كأنه يشاهده عيانا، وبذلك يكون رسول الله ﷺ هو دليله الأعظم على الله، وعلى الأدب مع الله.

قال آخر: وهذا ما كان يعيشه الربانيون ويستشعرونه، وهو المراد من إخبارهم عن اجتماعهم برسول الله ﷺ، يقول الشيخ عبد الوهاب الشعرائي: «سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول: لا يكمل عبد في مقام العرفان حتى يصير يجتمع برسول الله ﷺ أي وقت شاء» قال آخر: لقد ذكر الشيخ جلال الدين السيوطي ذلك ثم قال: «رأيت النبي ﷺ واجتمعت به نيفا وسبعين مرة»

قال آخر: ويذكر عن الشيخ إبراهيم المتبولي أنه كان لا يحصى اجتماعه به ﷺ لأنه كان يراه في أحواله كلها ويقول: «ليس لي شيخ إلا رسول الله ﷺ» قال آخر: ويذكر عن الشيخ أبي العباس المرسي أنه كان يقول: «لو احتجب عني رسول الله ﷺ ساعة ما عددت نفسي من جملة المؤمنين»

قلت: كيف هذا؟

قال أحدهم: هذا الاجتماع — الذي لا ينكره إلا معاند — دليل على الحب المتغلغل في الصدر لرسول الله

ﷺ لأن عين القلب والروح لا ترى إلا ما تحبه، وقد كان خيال ليلي يرتسم في عين قلب الجنون في كل محل.

لم أجد ما أقول، فراح أحدهم ينشد بصوت عذب قصيدة البرعي التي يقول فيها:

هم الأجابة إن جـارواوإن عدلوا  
والمالكون لقلبي كيفما فعلوا  
فليعلموا أن ودي ما يغيرهم  
وكل شيء سواهم لي به بدل  
إني وإن فئتوا في حبهم كبردي  
شربت كأس الهوى العذري من ظمأ  
فليت شعري والندنيا مفرقة  
هل ترجع الدار بعد البعد أنسة  
يا ظاعنين بقلبي أين ما ظعنوا  
ترفقوا بفؤادي في هـواؤادجكم  
فوالذي حجّت الزوار كعبته  
لقد جرى حُبكم مجرى دمي فدمي  
لم أنس ليلة فارقت الفریق وقد  
لما تراءت لهم نار بذي سلم  
لا درّ درّ المطايا أينما ذهبّت  
في روضة من رياض الجنة ابتهجت  
حيث النبوة مضروب سـرادقها  
وحيث من شرف الله الوجود به  
محمد سيد السادات من مضر  
شوارد الجمد في مغناه عاكفة  
تثنى عليه المثاني كلما تليت

فليس لي معادل عنهموإن عدلوا  
والمالكون لقلبي كيفما فعلوا  
تغير من سـجايهم ولا ملل  
عنهموما لي بهم من غيرهم بدل  
باق على ودهم راض بما فعلوا  
ولذي في الغرام العلوانهـل  
بين الرفاق وأيام السورى دؤل  
وهل تعود لنا أيامنا الأول  
ونازلين بقلبي أين ما نزلوا  
راحت به يوم راحت بالهوى الإبل  
ومن ألم بما يدعو بيتـهـل  
بعد التفريق في أطلالكم طلل  
عانوا الحبيب عن التوديع وأرتحلوا  
ساروا فمقطـع عنها ومتصل  
إن لم تُنخ حيث لا تثنى لها العقل  
حسننا وطاب بما للنازل التزل  
وطالع النور في الآفاق يشتمل  
فأستغرق الفضل فرداً ماله مثل  
سر السرارة شمس ماله طفـل  
وريف رأفته غصن الجنى الخضر  
كما أستنارت به الأقطار والسبل

بِحُرِّ طَوَارِقِهِ بِحُرِّ وَمَكْرَمَةٍ  
 مَا زَالَ بِالنُّورِ مِنْ صَلْبِ إِلَى رَحِمٍ  
 حَتَّى انْتَهَى فِي الدُّرَى مِنْ هَاشِمٍ وَسَمًا  
 فَكَانَ فِي الْكُونَ لَا شَكْلٌ يُقَاسُ بِهِ  
 بِهِ الْخَنِيْفَةُ مُرْسَاةٌ قَوَاعِدُهَا  
 وَمِنْهُ ظِلٌّ لِنِوَاءِ الْحَمْدِ يَشْمَلُنَا  
 وَإِنَّهُ الْحَكْمُ الْعَدْلُ الَّذِي تُسِيخَتْ  
 يَا خَيْرٍ مِنْ دَفْنَتْ فِي التُّرْبِ أَعْظَمَهُ  
 نَفْسِي الْفِدَاءَ لِقَبْرِ أَنْتِ سَاكِنَهُ  
 أَنْتِ الْحَبِيبُ الَّذِي نَرْجُو عَوَاطِفَهُ  
 نَرْجُو شِفَاعَتَكَ الْعَظْمَى لِمُذْنِبِنَا  
 يَا سَيِّدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ خُذْ بِيَدِي  
 قَالُوا نَزِيلُكَ لَا يُوْذِي وَهَذَا أَنَا ذَا  
 وَذَا الْمَسْمَى بِكَ أَشْتَدَّ الْبِلَاءُ بِهِ  
 وَحُلٌّ عَقْدَةٌ هَمٌّ عَنْهُ مَا بَرَحْتَ  
 وَصَلُّ بِمَرْحَمَةِ عَبْدِ الرَّحِيمِ وَمَنْ  
 صَلَّى وَسَلَّمَ رِبِّي دَائِمًا أَبَدًا  
 وَالْآلَ وَالصَّحْبَ مَا غَنَّتْ مَطْوِقَةٌ  
 وَأَنْشُدْ آخِرَ يَقُولِ:

لَطِيْبَةٌ عَرَجَ إِنْ بَيْنَ قَبَائِمَا  
 حَبِيبٌ لِدَوَاءِ الْقَلْبِ طِيْبٌ  
 إِذَا لَمْ تَطِيبْ فِي طِيْبَةٍ عِنْدَ طِيْبٍ  
 بِهِ طَابَتْ الدُّنْيَا فَأَيْنَ طِيْبٍ؟

تركتهم على تلك الحال، وانصرفت، لأسجل هذه الكلمة في هذا الخل.

قلت: ألا تعرف أسماءهم؟

قال: لو عرفتها لسجلتها، ولكني كلما قلبت هذا الدفتر على هذا الخل رأيتهم وسمعتهم كعهدي بهم أول



مرة.

## التعظيم:

قلت: حدثني عن الكلمة الأولى، فحدثني عن الثانية.

قال: الكلمة الثانية هي التعظيم.. انظر في الدفتر إنها تلي كلمة الحب مباشرة.

قلت: لم كانت كذلك؟

قال: لأنه لا يعظم في عين الحبيب إلا محبوبه.

قلت: فهل تروي قصة عن هذه الكلمة؟

قال: أروي في ذلك قصصاً، لكنني سأقتصر لك على واحدة منها.

قلت: فحدثني عنها.

قال: في بلد من بلاد الله رأيت رجلاً عليه سيما الوقار، وعلى جبينه نور يملأ النفس هيبة وجمالاً، وكان في طريقة يسير كما يسير سائر الناس، ولكنه فجأة انحني على ورقة مرمية على الأرض، فمسح عنها الأذى، ثم قبلها، ثم وضعها على جبينه، فحدثت نفسي بأن أتبعه لأرى سر تلك الورقة.

في طريقي خلفه رأيت يده يدخل حانوت عطار، ويشترى بعض المسك، ثم يخرج تلك الورقة، ويعطرها بذلك المسك، فلم أجد نفسي إلا بجانبه، ولم أجد لساني إلا وهو يقول له: ما شأن هذه الورقة التي لقيت منك كل هذا التعظيم.

لم يحتج إلى وقت يفكر فيه، بل أحاب مباشرة: هذه ورقة فيها اسم الحبيب غال، واسم الحبيب لا ينبغي أن يهان.. بل ينبغي أن يعظم ويقُدس، ويعطر بكل مسك.

قلت: من حبيبك هذا الذي ملأته تعظيماً ورفعة.

فأجابني على الفور: محمد..

قلت: تقصد نبي المسلمين؟

قال: أجل.. وهل هناك من حمدته السماء والأرض غيره، فصار محمود الكل.

قلت: لقد ذكرتني بقول الشاعر:

المصطفى ما زال يعلو قدره حتى غدا في الكون مسكاً عاطراً

ما قلت هذا حتى شعرت بجميع أعضائه ترتعد هيبة، ثم راح يقول بصوت امتزج فيه الحب بالتعظيم

بالأشواق:

(المصطفى ما زال يعلو قدره) فسما الزمان أوائلاً وأواجرأ

طهر فؤادك من شوائب غيره حتى تقابله فؤاداً طاهراً

يا سيدي ولقد غدت مناجياً عمري وبت مع الجلال مسامراً

أضحى يسودُ من الرجال أكابرا  
الا وأذكُرُهُ فأصبحُ ظافراً  
وإذا سكرتُ سكرتُ علماً ذاخراً  
وإذا أفقتُ رأيتُهُ لى ناظراً  
كان النبيُّ هو الملاذ الناصراً  
منك الوصولَ ولا ترد الزائراً  
رُوحى من النجوى تفيضُ سريراً  
وتزفُ باسمِكُم السلامَ العاطراً  
أمسى يُساجلُ فى الملوكِ القياصراً  
قدراً فأصبحُ بالمدلة قاهراً  
فروى المعارفَ نائراً أو شاعراً  
أرجو بمدحك أن أسودَ مظاهراً  
أجد الغرامَ علىَّ مُدَّ منابراً  
قلبي يظنُّونى بحبِّك فاتيراً  
كالريحِ قد أزجى السحابَ الماطراً  
حكماً نُقلبها القلوبُ مزاهراً  
الارسولُ اللهُ سيِّراً ظاهراً  
ووقفتُ نفسى للنبيِّ مثابراً  
حال يبدومُ الى القيامة حاضراً  
فى رسمِكُم قلبى على الشعرى سارى  
كنتَ المؤمنَ لى كنتَ الظافراً  
يُضفى علىَّ من اليقين سريراً  
فى حبِّه حتى نُسبتُ الطاهراً

كم من صغير جاء حبيك تائباً  
والله ما طرأ العناء وسامياً  
فاذا هملتُ هملتُ من نور الهدى  
وإذا غفوتُ غفوتُ صباً مغماً  
وإذا خشيتُ من العدو وكيدهِ  
عودتنا منك الجميلَ فهب لنا  
أنا ان أكن جسماً بعيداً أنما  
أرسلتها بفم النسيم شهيدةً  
فلكم فقير عزَّ باسمك جاهه  
ولكم ذليلٌ ناله من جاهكم  
ولكم عيىٌ قد نظرت لروجه  
قولى هو الحق الصريح فلم أكن  
لم أنس حبيك ما حيت وان أمت  
ان كنت صباً اكنتم الوجدان فى  
أنا هائمٌ ومن المحبة هائجٌ  
فأصَّبُ فى الاحساس من مهج الورى  
يا هذه الأيام أنى لى  
أنا كل شئ فى الحياة تركته  
والوقف لا يُشبرى وليس يُباع فى  
أنا باسمِكُم والى اسمِكُم ولوسمِكُم  
لم أنس أيام الطفولة حيثما  
ما زال حبُّك باقياً فى مهجتي  
ولقد غسلتُ بواطنى وظواهرى

نُورُ النَّبِيِّ إِذَا تَمَكَّنَ مِنْ فِتْنٍ      لَمْ يُبْقِ فِيهِ صَغَائِرًا وَكِبَائِرًا  
 نُورُ النَّبِيِّ إِذَا تَمَكَّنَ مِنْ فِتْنٍ      أَلْفَيْتَهُ بَيْنَ الْبَرِيَّةِ ظَاهِرًا  
 فَإِذَا رُزِقَتْ مُحِبَّةً فَبِضْطَلِهِ      وَإِذَا كَسَبَتْ فَقَدْ كَسَبَتْ جَوَاهِرًا  
 قُلْ لِي عَلَيْكَ صَلَاتُنَا وَسَلَامُنَا      حَتَّى أَعُودَ عَلَى الْمَحَبَّةِ شَاكِرًا  
 أَرْضَيْتَنِي كَرَمًا وَصَاحِبِنِي الرِّضَا      حَتَّى وَصَلْتُ فَلَسْتُ أَسْأَلُكَ حَائِرًا  
 مَا زَالَ فَضْلُكَ فِي الْبَرِيَّةِ سَائِرًا      يَسْمُو وَيَرْكُو بِالنَّفُوسِ ضَمَائِرًا  
 وَلَكُمْ أَرَاهُ فِي الْعَوْلَمِ صَاعِدًا      حَتَّى غَدَا فِي الْكُونِ مِسْكًَا عَاطِرًا

تعجبت من حضور بديهيته، وانصياح الشعر له، فسألته: من أنت؟

قال: عل عقل.

قلت: ذلك القطب الرباني، صاحب الفيوضات الصمدانية، والعلوم اللدنية ذلك الملمه الذي ينساب

الشعر من فمه كما ينساب المال الزلال.

قال: هم يقولون هذا.

قلت: بأي بركة نلت هذا؟

قال: ببركة الحبيب..

قلت: وبأي بركات الحبيب نلت ذلك؟

قال: ببركة التعظيم..

قلت: لا يعظم إلا الله.. فكيف رحمت تشرك بالله؟

قال: رأيت لو أن فنانا مبدعا أراك لوحة من لوحاته في منتهى الجمال، فرحت تهينها وتحتقرها، فإذا

سألك عن ذلك قلت له: أنا أهينها حتى لا يبقى عظيما في عيني غيرك.. أترى هذا عين العقل؟

قلت: بل أراه عين الحمق.. ولن أنال من هذا الفنان إلا الازدراء.

قال: لم؟

قلت: لأني احتقرت صنعته.. ولا يمكن أن أشعره بتعظيمي له إلا من خلال تعظيمي لصنعتة.

قال: وهكذا الأمر مع محمد ﷺ.. فهو عصارة الجمال التي أمرنا الله بعبوديته من خلال التأمل فيها

وتعظيمها وامتلاء قلوبنا بحببتها.. فلو أهانها لأهنا الله.

قلت: ولكن الحريصين على صفاء التوحيد يخالفونك في هذا.. ويعتبرون كل هذا شركا.

قال: فاقرا عليهم قوله ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ

نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ مَا عَاهَدَ لَنَا بِالنَّحْلِ﴾ (١٠)

قلت: فما في هذه الآيات؟

قال: في هذه الآيات يأمر الله الأمة بتعظيم محمد، ويربط الفلاح بذلك.

قلت: فما الفرق بين المسلمين والمسيحيين في هذا .. ما دام المسيحيون يعظمون المسيح، والمحمديون يعظمون محمداً.

قال: الفرق بينهما عظيم.. فالمحمديون يعظمون محمداً عبودية لله، وتحقيقاً لأمر الله، وفيضا من فيوضات تعظيم الله.. بينما المسيحيون يعظمون المسيح لذات المسيح.. فيجعلون للمسيح شركة في الألوهية.

قلت: وتعظيم المسلمين؟

قال: رأيت لو أنك أرسلت رسولا برسالة لقوم من الناس، فأهانوا رسولك، واحتقروه مع علمهم بأنه رسولك؟

قلت: هم يحتقرونني بذلك ويهينونني.

قال: فلذلك ربط الله ﷻ طاعته بطاعة رسوله، وتعظيمه بتعظيم رسوله، ومحبته بمحبة رسوله.

لقد قال الله ﷻ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (النساء: ٨٠)

قلت: فرق عظيم بين الطاعة والتعظيم.

قال: فقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢) لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور)

قلت: فما في هذه الآية مما نحن فيه؟

قال: فيها كل ما نحن فيه.. فالله ﷻ في هذه الآيات يأمر بتعظيم النبي ﷺ، وعدم التعامل معه كما يتعامل الناس بعضهم مع بعض.

لقد قال ابن عباس في تفسير الآيات: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله عز وجل، عن ذلك، إعظاماً لنبية، صلوات الله وسلامه عليه قال: فقالوا: يا رسول الله، يا نبي الله.

وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ، وأن يُجَلَّ وأن يعظَّم وأن يسود.

بل إن الله ﷻ نهى المؤمنين عن كل سلوك لا ينسجم مع الأدب مع رسوله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ (البقرة: ١٠٤).. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ

(١) هذا هو المعنى الأول في تفسير قوله ﷻ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ (النور: من الآية ٦٣)، والمعنى الثاني: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا. حكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عباس، والحسن البصري، وعطية العوفي. وهذا المعنى أيضا من التعظيم، وهو من أقوى الأدلة على جواز التوسل بالنبي ﷺ بل استحبابه، باعتبار التوسل نوعا من طلب الدعاء من المتوسل إليه.

وَرَسُولِهِ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴿الحجرات﴾

بل إن الله ﷻ شرع لمناجاة النبي ﷺ من باب التعظيم له تقدم صدقة على ذلك، فقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المجادلة: ١٢)

قلت: وعيت كل ما ذكرته من القرآن.. ولكن هؤلاء الحريصين على صفاء التوحيد لا يرجعون للقرآن بل يرجعون لهدي السلف.

قال: ومن السلف؟

قلت: الصحابة.. ومن بعدهم من القرون الأولى.. فهم يعتبرون فهمهم هو الفهم.. وتفسيرهم هو التفسير.

قال: فأخبرهم عن قول ذلك الصحابي في حديثه الطويل: «وما كان أحدٌ أحب إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيقُ أن أملاً عيني منه إجلالاً له، ولو سئلتُ أن أصفه ما أطق، لأني لم أكن أملاً عيني منه»

وأخبرهم عن قول أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار، وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر، فلا يرفع أحدٌ منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر، فإنهما كانا ينظران إليه، وينظر إليهما، ويبتسمان إليه، ويبتسم لهما.

وأخبرهم عما حصل لما أذنت قريش لعثمان في الطواف بالبيت حين وجهه النبي ﷺ إليهم في القضية، فأبى وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

وقد وصف حال الصحابة ﷺ في جلوسهم أمام رسول الله ﷺ بأنهم «وكأنهم على رؤوسهم الطير»، وفي روايات أخرى: «إذا تكلم أطرق جلساؤه وكأنما على رؤوسهم الطير» وهو كناية على «السكون والوقار وأنهم لم يكن فيهم طيش ولا خفة لأن الطير لا تكاد تقع إلا على شيء ساكن»<sup>٢</sup>

وقد كانوا ﷺ — لحبهم الشديد له — يتبركون بآثاره وكل ما يرتبط به، فكان ﷺ لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، وكادوا يقتتلون عليه، ولا ييصق بصاقاً إلا تلقوها بأكفهم، فدلکوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُجدون

(١) وقد رويت في ذلك أحاديث كثيرة، انظر: البخاري: ١٠٤٥/٣، ابن حبان: ١٨٥/١٦، الحاكم: ٢٠٨/١، أبو داود: ٣/٤ وغيرها.

(٢) عون المعبود: ٢٣٩/١٠.

إليه النظر تعظيماً له.

وعندما رأى بعض المشركين ذلك منهم قال لقومه « يا معشر قريش، إني جئتُ كسرى في ملكه، وقبصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، وقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً»

وعن أنس قال رأيت النبي ﷺ والحلاق يلحقه، وقد أطاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل<sup>١</sup>.

وعنه قال لما كان يوم أحد اهزم الناس عن رسول الله ﷺ وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ محبوب عليه بحجة له، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد الترع لقد كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، قال: وكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة، قال: فأشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فقال له أبو طلحة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم نخري دون نحر<sup>٢</sup>.

سكت قليلاً يستجمع أنفاسه، ثم قال: أخبرهم بمديث أبي جحيفة عندما قال: خرج رسول الله ﷺ بالهاجرة فأتى بوضوء فتوضأ، فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسحون به<sup>٣</sup>.

وأخبرهم بمديث أنس عندما قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم أهل المدينة بأنيتهم فيها الماء فلم يؤت بآاء الا غمس يده فيه فرمما في الغداة جاؤوا الباردة فيغمس يده فيها.

وأخبرهم بما روي أن أبا محذورة كانت له قصة في مقدم رأسه يرسلها فتبلغ الارض إذا جلس فقلنا له: ألا تحلقها؟ فقال: ان رسول الله ﷺ مسح عليها بيده، فلم أكن لاحلقها حتى أموت، فما حلقها حتى مات<sup>٤</sup>.

وأخبرهم بما حدث به أبو سعيد الخدري عندما قال: كنت يوماً عند رسول الله ﷺ فأتى بتمر يفرقه علينا وكنا ندنيه منه ليمسه لما نرجو من بركة يده، فإذا رآه قد اجتمع فرقه بيننا<sup>٥</sup>.

وروى البخاري عن عروة عن السائب بن يزيد — رضي الله عنه — قال: ذهبت بي خالتي الى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، ان ابن أخي وقع فمسح رأسي، ودعا لي بالبركة ثم توضأ فشربت من وضوئه.. الحديث.

وأخبرهم بما حدث به خالد بن الوليد عندما قال: أعتمرنا مع رسول الله ﷺ فعلق شعره فاستبق الناس الى شعره، فسبقت الى الناصية فأخذتها فاتخذت قلنسوة فجعلتها في مقدمة القلنسوة فما وجهت في وجه الا فتح لي<sup>٦</sup>.

وأخبرهم بما فعله مالك بن سنان لما أصيب رسول الله ﷺ في وجهه يوم أحد.. حيث مص دم رسول الله

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه أبو القاسم البغوي.

(٥) رواه أبو سعيد بن الاعرابي.

(٦) رواه أبو الحسن بن الضحاک وأبو يعلى بسند صحيح.

ﷺ وازدرده فقال له: (أشرب الدم؟) قال: أشرب دم رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ: (من خالط دمي دمه لا يضره الله)<sup>١</sup>

قلت: هم لا يكتفون بالصحابة.. بل يشترطون أن يوافقهم على ذلك التابعون.

قال: فحدثهم عن أخبار مالك بن أنس.. لقد قال عنه مصعب بن عبد الله: «كان مالك إذا ذكر النبي يتغير لونه انحنى حتى يصعب ذلك على جلسائه، فليل له يوماً في ذلك فقال: لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم على ما ترون لقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيد القراء لا تكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه.

ولقد كنت أرى جعفر بن محمد، وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر لونه وما رأيته يحدث عن رسول الله إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صامتاً، وإما يقرأ القرآن ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله. ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ، فينظر إلى لونه كأنه نرف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ.

ولقد كنت أتى عامر بن عبد الله بن الزبير، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع. ولقد رأيت الزهري، وكان لمن أهنأ الناس وأقربهم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته. ولقد كنت أتى صفوان بن سليم، وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

لم أجد ما أقول، فقلت له: هم لا يبألون إلا بالمحدثين.

قال: فأخبرهم عن تعظيم المحدثين لرسول الله ﷺ.. لقد حدث عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود فكان مما قال: وما سمعته قط يقول: قال رسول الله ﷺ إلا مرة، فنظرت إليه وقد حل إزاره وانتفخت أوداجه، واغرورقت عيناه، فقال: «أو نحو ذلك أو دون، أو قريباً من ذلك، أو شبه ذلك» وقال ضرار بن مرة: «كانوا يكرهون أن يحدثوا عن رسول الله ﷺ وهم على غير وضوء»، قال إسحاق: فرأيت الأعمش إذا أراد أن يتحدث وهو على غير وضوء تيمم.

وكان مالك يلبس أحسن ثيابه، ويتطيب، ويأخذ زينته للتحديث بحديث رسول الله ﷺ.

وقال ابن أبي الزناد: كان سعيد بن المسيب، وهو مريض، يقول: «أقعديني؛ فإني أكره أن أحدث حديث رسول الله ﷺ وأنا مضطجع»

ومرّ مالك بن أنس على أبي خازم — وهو يحدث — فجاره، وقال: «إني لم أجد موضعاً أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم»

وكان محمد بن سيرين يتحدث فيضحك، فإذا جاء الحديث خشع.

وقال سعيد بن عامر: «كنا عند هشام الدستوائي فضحك رجل منا، فقال له هشام الدستوائي: تضحك

(١) رواه أبو علي بن السكن.

وأنت تطلب الحديث !؟

بينما نحن كذلك إذا بنا نرى رجلين يتشاجران، وأخذ أحدهما يسب الآخر، وكان اسمه محمدا.. فتغير صاحبي تغيرا شديدا، واحمر وجهه، وسقطت دموع حارة من عينيه، ثم اندفع إليهما ينهرهما، ويحذرهما من سب النبي ﷺ، فقال الساب: أنا لم أسب نبينا.. ولكني سببت هذا الرجل الذي لم يحفظ حرمة اسمه.

فتوجه إلى المشتوم، وقال: إن لم تترك ما أنت فيه فدع عنك هذا الاسم العظيم.

قال: هو اسم سماي به أبي، وما كنت لأدعه لقولك، أو لقول أحد من الناس، فمن سبني بآء ياأمي.

قال صاحبي: ألم تعلم ما روي من نبي عمر عن التسمي باسم محمد؟

قال الرجل: لا أعلم إلا أنه يستحب التسمية بأسماء الأنبياء والصالحين.

قال: لمن حفظ حرمتهم.. لقد ذكر أن عمر ﷺ سمع رجلاً يقول لمحمد بن زيد بن الخطاب: «فعل الله بك

يا محمد» فدعاه فقال: «أرى رسول الله ﷺ يسب بك والله لا تدعى محمداً ما بقيت» وسماه عبد الرحمن.

وقد ورد في هذا المعنى حديث جاء فيه: «يسمونهم محمداً ويلعنونهم»<sup>١</sup>

قال ذلك، ثم انصرف، وهو يقول: عذرك يا رسول الله.. عذرك يا حبيب الله.. لا تؤاخذنا بفعل

السفهاء.

ندم الرجلان، وأخذوا يعتذران إليه.. تركتهما كذلك، وانصرفت وفي نفسي ألم عظيم.. فالمسيح بين قومنا

يهان ويحتقر وتمثل الأفلام التي تسمى إليه، ولا أحد من أذعياء حب المسيح يتحرك أو تأخذه الغيرة.

### الإلتجاء:

قلت: فما الكلمة الثالثة؟

قال: الإلتجاء.

قلت: ما تقصد بالإلتجاء؟

قال: المحب الشغوف بحبيبه لا يصبر على فراقه، ولهذا تراه يحن إليه كل حين، ويلتجئ إليه في كل مناسبة.

قلت: ذاك قد يصح مع حبيب حي.. ولكنه لن يصح أبداً مع حبيب ميت.

قال: إن المحبوب يموت عند جميع الناس إلا عند من يحب.. فإنه يظل حيا، ولذلك لا حرج عليه أن يلتجئ

إليه.

قلت: ولكن الناس يضحكون عليه حينذاك، وقد يرمونه بالجنون.

قال: المحب الصادق يستلذ جنونه في محبوبه.

قلت: عد بنا إلى هذه الكلمة وعلاقتها برسول الله ﷺ.. وعلاقتها بعد ذلك بالأولياء.

قال: لقد لاحظت من خلال معاشيتي لبعض هؤلاء أولياء، أو كتاباتهم، أنهم لا يتعاملون في علاقتهم

برسول الله ﷺ إلا كما يتعامل الأحياء مع الأحياء.

(١) قال الطبري: وهو ضعيف لأنه من رواية الحكم بن عطية عن ثابت عنه.



قلت: ألا يعتقدون موته؟!.. فإن كان كذلك، فاقرأ عليهم قول الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠)

قال: قد قرأت عليهم قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩)

قلت: ما علاقة هذا بذاك؟

قال: ألم يخبر الله ﷻ عن موت الشهداء؟

قلت: بلى.. فقد قال ﷻ: ﴿وَلَكِنَّ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٧)، وقال ﷻ: ﴿وَلَكِنَّ مَتُّم أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٨)

قال: ألا ترى أن الله ﷻ الذي أخبر بموتهم هو الذي أخبر بحياتهم؟

قلت: بلى..

قال: فكذلك الأمر مع رسول الله ﷺ..

التفت إلي، وقال: ثم ألا تعجب أن نقول بحياة الشهداء، ثم لا نقول بحياة سيد الشهداء.

قلت: فنلغز أبي وعيت ما ذكرت، فما ينتج عنه؟

قال: ألم تقرأ قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء: من الآية ٦٤)؟!

قلت: بلى.. فما فيها من العلم المرتبط بهذا؟

قال: سأقص عليك قصة تعلق بها أولياء الله، فراحوا يعيشونها.

قلت: حدثني عنها.

قال: ذكر الحفاظ السمعاني عن علي — رضي الله عنه — قال: قَدِمَ عَلَيْنَا أَعْرَابِي بَعْدَمَا دَفَنَّا الرَّسُولَ ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر النبي ﷺ، وحثا من تراه على رأسه، وقال: يا رسول الله، قُلْتَ فَسَمِعْنَا قَوْلَكَ، وَوَعَيْتَ عَنِ اللَّهِ مَا وَعَيْنَا عَنْكَ، وَكَانَ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء: من الآية ٦٤)، وقد ظلمت نفسي، وحثتكَ تستغفر لي، فنودي من القبر: أنه قد غُفِرَ لَكَ.

وفي رواية أخرى عن أبي شبل محمد بن النعمان بن شبل الباهلي قال: دخلتُ المدينة فأنتهيتُ إلى قبر النبي ﷺ، فإذا أعْرَابِي يُوضِعُ عَلَى بَعِيرِهِ، فَأَنَاحَهُ وَعَقَلَهُ، ثُمَّ دَخَلَ إِلَى الْقَبْرِ الشَّرِيفِ، فَسَلَّمَ سَلَامًا حَسَنًا، وَدَعَا دَعَاءَ جَمِيلًا ثُمَّ قَالَ: «بَأبي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ حَصَبَكَ بُوْحِيهِ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ كِتَابًا جَمَعَ لَكَ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَقَالَ فِي كِتَابِهِ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ

(١) ورواها بنحو لفظها: الإمام البيهقي في شعب الإيمان ٤٩٥/٣، وانظر: سبل الهدى والرشاد ٣٨٠/١٢، وفاء الوفا ٤/١٣٦١، وأبو اليمن ابن عساكر في إتحاف الزائر ص ٦٨/٦٩، وابن النجار في الدررة الثمينة، ص ٢٢٤، وابن حجر الهيتمي في تحفة الزوار ص ٥٥.

الرَّسُولُ لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَابًا رَحِيمًا ﴿النساء: من الآية ٦٤﴾، وقد أتيتك مقرراً بالذنوب، مستشفعاً بك إلى ربك، فهو ما وعد.

ثم التفت إلى القبر، وقال:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم  
أنت النبي الذي تُرجى شفاعته عند الصّراط إذا ما زلت القدم  
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم ركب راحلته فما أشك — إن شاء الله — إلا أنه راح بالمغفرة، ولم يُسمع بأبلغ من هذا قط.

وذكر محمد بن عبد الله العتيبي هذا، وزاد في آخره: فغلبتني عيناى، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي: « يا عتيبي، الحق الأعرابي وبشره أن الله قد غفر له »<sup>١</sup>

قلت: إن الفقهاء ينكرون مثل هذا.

قال: إن سيد الفقهاء مالك.. وكان يشعر هذه المشاعر في مدينة رسول الله ﷺ وأمام قبره ﷺ.. وقد روي بالأسانيد الصحيحة أنه لما ناظر الخليفة أبو جعفر المنصور مالكا في مسجد رسول الله ﷺ، قال له الإمام مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله عز وجل أدب قوماً، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات: ٢)، ومدح قوماً فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحجرات: ٣)، وذم آخرين، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحجرات: ٤)، وإن حرّمته ميتاً كحرّمته حياً.

فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله، استقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟

فقال الإمام مالك: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة، بل استقبله واستشفع به، فيشفّعك الله<sup>٢</sup>.

قلت: أحسبني وعيت ما ذكرته من هذا.. فما لازمه؟

قال: لازمه كل ما سمعته من مخاطبات الأولياء لرسول الله ﷺ وشكواهم إليه، فهم لا يشكون لميت.

(١) رواها الإمام النووي في (الإيضاح) ص ٤٥٤، وابن بشكوال في (القربة إلى رب العالمين بالصلاة على محمد سيد المرسلين ﷺ) الورقة (١٦/أ)

(٢) ذكر هذه القصة: القاضي عياض بسنده في الشفا: ٤١/٢، والقسطلاني في المواهب اللدنية، وأبو اليمن ابن عساكر في إتحاف الزائر، ص ١٥٣، والعز بن جماعة في هداية السالك: ١٣٨/٣ وقال الإمام الزرقاني في شرحه على المواهب اللدنية: ٥٨٠/٤ رداً على من أنكرها: هذا تهوّر عجيب، فإن الحكاية رواها أبو الحسن علي بن فهر في كتابه (فضائل مالك) بإسناد حسن، وأخرجها القاضي عياض في الشفا من طريقه عن شيوخ عدة من ثقات مشايخه. فمن أين أنها كذب؟! وليس في إسنادها وضاح ولا كذاب.

قلت: إن من قومي من يعتبر ذلك شركا، وقد قال بعضهم<sup>١</sup> عن قول البوصيري:  
يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم  
« هذا الشاعر يستغيث بالرسول ﷺ، ويقول له: لا أحد من ألتجئ إليه عند نزول الشدائد العامة إلا أنت، وهذا من الشرك الأكبر الذي يُخلد صاحبه في النار إن لم يتب منه، لقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس: ١٠٦)، أي المشركين، لأن الشرك ظلم عظيم، وقوله ﷻ: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار»<sup>٢</sup>  
ابتسم، وقال: ما أعجب هؤلاء.. وما أسرعهم في اتهام المؤمنين، بل الأولياء من المؤمنين بالكفر والشرك، ألم يسمعوا ما ورد في التحذير من ذلك.

قلت: بلى.. سمعوا.. ولكنهم يعتقدون أن ما يذكرونه هو الحق الذي لا حق غيره.  
قال: أفتراهم إذا جثوا بين يدي الطبيب يشكون حالهم إليه مشركون بذلك؟  
قلت: لم يقل بهذا أحد من الناس.  
قال: فكيف يزعمون إذن بأن من شكى لحبيبه وطيبه حاله، يكون مشركا.  
سكت قليلا، ثم قال: الشرك معروف، وهو ما يعتقده قومي حين يعتبرون المسيح إله أو أقنوما من إله.  
قلت: ولكنهم يتصورون مخاطبة رسول الله ﷺ ودعائه شركا، لأنه لا يدعى إلا الله.  
قال: ولم أر المسلمين يدعون غير الله عوامهم وخواصهم، فلا أحد منهم يعتقد إله غير الله..  
قلت: وهذا الخطاب الذي يتوجهون به لرسول الله ﷺ، وكأنهم يستغيثون به؟!  
قال: هم يفعلون ذلك كما يفعل كل البشر مع الأطباء حين يستلقون أمامهم كما يستلقي الميت بين يدي الغسال ينتظرون منهم أن يكونوا واسطة للشفاء الذي ينزله الله، فالله هو الشافي، والطبيب واسطة.  
ومثل ذلك محمد.. فالله هو الرحيم الرحمن.. وقد جعل من خلقه وسائط لرحمته.. ومنهم محمد.  
قلت: هم يعتبرون ما تقوله شركا.  
قال: ألا يؤمن هؤلاء بالشفاعة العظمى؟  
قلت: بلى.. هم يؤمنون.. بل إني أراهم يدعون منكرها.  
قال: فهي واسطة من الوسائط ووسيلة من الوسائل.  
سكت، فقال: ألم يقرأوا حديث الأعمى؟  
قلت: ابن أم مكتوم؟!  
قال: لا.. الأعمى الذي حدث حديثه عثمان بن حنيف، حيث ذكر أن رجلا ضريرا أتى النبي ﷺ،

فقال: «ادع الله أن يعافني»، فقال: «إن شئت أحرث ذلك وهو خير، وإن شئت دعوت»، قال: «فادعه»  
قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن، ثم يصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء، فيقول: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك

(١) انظر: كتاب (معلومات مهمة من الدين) للشيخ محمد جميل زينوا (ص ١٦٠ — ١٦٦).

(٢) رواه البخاري.

بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم شفعه في وشفعي فيه»<sup>١</sup>

قلت: بلى.. قرأوه.. ولكنهم قيده بصنوف من التأويلات جعلته خاصا بهذا الأعمى.  
قال: ولكن ظاهره لا يحتمل أي تقييد.

قلت: لقد أول ابن تيمية هذا الحديث بصنوف من التأويلات وصرفه عن ظاهره، فقال: «وهذا الأعمى شفح له النبي ﷺ فلماذا قال في دعائه: «اللهم فشفعه في»، فعلم أنه شفيع فيه»  
واستشهد بقوله ﷺ: «إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك» فقال: «ادع لي»، بأنه طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، فأمره النبي ﷺ أن يصلى ويدعو هو أيضا لنفسه، ويقول في دعائه: «اللهم فشفعه في»، فدل ذلك على أن معنى قوله: «أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد»، أي بدعائه وشفاعته.  
واستشهد بقول عمر رضي الله عنه: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا»، وقال: «فالحديثان معناهما واحد فهو علم رجلا أن يتوسل به في حياته، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا، ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره بدلا عنه»

ومن استشهاده بحديث عمر رضي الله عنه قوله: «فلو كان التوسل به حيا وميتا سواء والمتوسل به الذي دعا له الرسول كمن لم يدع له الرسول لم يعدلوا عن التوسل به وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه وأقربهم إليه وسيلة إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله»  
ابتسم، وقال: لا أرى أي تناف بين الجمع بين دعاء رسول الله ﷺ ودعاء غيره، فإن الدعاء كلما كثر، واشتد الإلحاح فيه، كلما ازداد اليقين بتحقيق إجابته.

أما إخبار عمر رضي الله عنه بأنهم كانوا يستشفعون في حياته ﷺ به ﷺ في ذلك الموقف، فلأنه كان يريد الاستشفاع بالعباس رضي الله عنه، وهو حي أمامه، وهو لا يتنافى مع التوسل، فالاستشفاع أو طلب الدعاء قد يحتاج إلى اشتراط الحياة بخلاف التوسل الذي لا يحتاج إلى هذا الشرط.

قلت: ومما أول به ابن تيمية الحديث قوله: «وكذلك لو كان كل أعمى توسل به، ولم يدع له الرسول ﷺ بمترلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدوهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وينفع وما لم يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره وهم في وقت ضرورة ومخمصة وجذب يطلبون تفريج الكربات وتيسير العسير وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه»

ابتسم، وقال: سأحبيك على هذا من من جهتين:

الأولى هي أن من الصحابة رضي الله عنهم من رضي بحاله، ولم يسأل الله تغييره رضي بقسمة الله، بل في حديث الأعمى دليل على استحباب ذلك، وقد ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ، وبها

(١) هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

طيف، فقالت: « يا رسول الله إني أصرع، وأتكشف، فادع الله أن يشفيني »، فقال: « إن شئت دعوت لك أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة »، فقالت: « بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع الله لي أن لا أتكشف »، فدعا لها فكانت لا تتكشف<sup>١</sup>.

والثانية: أن اشتراط تأييد كل ما ورد من الأحاديث القولية أو الفعلية لرسول الله ﷺ بالأثار الدالة على الفعل به من الصحابة ﷺ يكلفنا شططا، بل يلغي أكثر السنن. فلذلك يكتفي العلماء كلهم — بما فيهم ابن تيمية — بما ورد من الأحاديث، بل يرون أن في خلاف الصحابة ﷺ للأحاديث دليل على عدم بلوغ الحديث للصحابة، لا دليلا على ضعف الحديث أو صرفه عن حقيقة معناه.

وقد جعل ابن تيمية نفسه — هذا المعنى — من أسباب الخلاف الفقهي في كتابه ( رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، بل اعتبره أول الأسباب، فقال: « السبب الأول أن لا يكون الحديث قد بلغه، ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالما بموجبه، وإذا لم يكن قد بلغه وقد قال في تلك القضية بموجب ظاهر آية أو حديث آخر أو بموجب قياس أو موجب استصحاب فقد يوافق ذلك الحديث تارة ويخالفه أخرى وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوال السلف مخالفا لبعض الأحاديث فان الاحاطة بحديث رسول الله ﷺ لم تكن لأحد من الأمة »

ثم ذكر أن النبي ﷺ كان يحدث أو يفتى أو يقضى أو يفعل الشيء، فيسمعه أو يراه من يكون حاضرا ويبلغه أولئك أو بعضهم لمن يبلغونه، فينتهي علم ذلك إلى من يشاء الله من العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ثم في مجلس آخر قد يحدث أو يفتى أو يقضى أو يفعل شيئا ويشهده بعض من كان غائبا عن ذلك المجلس ويبلغونه لمن أمكنهم، فيكون عند هؤلاء من العلم ما ليس عند هؤلاء، وعند هؤلاء ما ليس عند هؤلاء. ثم ذكر أن تفاضل العلماء من الصحابة ﷺ ومن بعدهم بكثرة العلم أو جودته لا بالإحاطة بجميع حديث رسول الله ﷺ فهذا لا يمكن ادعاؤه.

ثم ذكر نموذجا على هذا بالخلفاء الراشدين الذين هم أعلم الأمة بأمر رسول الله ﷺ وسنته وأحواله، فإن عمر ﷺ — والذي استدل ابن تيمية بحديثه على إنكار التوسل برسول الله ﷺ بعد موته — لم يكن يعلم سنة الاستئذان حتى أخبره بها أبو موسى، واستشهد بالأنصار، ولم يكن يعلم أن المرأة ترث من دية زوجها، بل يرى أن الدية للعاقلة حتى كتب إليه الضحاك بن سفيان وهو أمير لرسول الله ﷺ على بعض البوادي يخبره أن رسول الله ﷺ ورث امرأة اشيم الضبابي من دية زوجها، فترك رأيه لذلك وقال: « لو لم نسمع بهذا لقضينا بخلافه »، ولم يكن يعلم حكم الجوس في الجزية حتى أخبره عبد الرحمن بن عوف ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « سنوا بهم سنة أهل الكتاب »

ولما قدم سرغ وبلغه أن الطاعون بالشام استشار المهاجرين الأولين الذين معه ثم الأنصار ثم مسلمة الفتح فإشار كل عليه بما رأى ولم يخبره أحد بسنة حتى قدم عبد الرحمن بن عوف ﷺ فإخبره بسنة رسول الله ﷺ في

(١) رواه ابن مردويه وغير واحد من أهل السنن وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

الطاعون وأنه قال: « إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وإذا سمعتم به بارض فلا تقدموا عليه »  
فهذه الأحاديث وغيرها تدل على احتمال أن ما ذكره عمر رضي الله عنه ناتج عن عدم سماعه لحديث الأعمى.  
قلت: فلم لم ينكر عليه.. ولم لم يخبر بالحديث كما خبر في الآثار السالفة؟  
قال: لأن ما قاله عمر لا يريد به التوسل بمعناه الاصطلاحي، وإنما يريد به طلب الدعاء من الحي، أما عدم  
إخباره بما ورد في حديث الأعمى، فقد لا يكون الراوي حاضرا، حتى يبلغه.  
قلت: مما استدل به ابن تيمية في التفريق بين حياته وموته رضي الله عنه أنه ليس في طلب الدعاء منه ودعائه هو  
والتوسل بدعائه ضرر، بل هو خير بلا شر، وليس في ذلك محذور ولا مفسدة، فإن أحدا من الأنبياء — عليهم  
السلام — لم يعبد في حياته بحضوره، فإنه ينهي من يعبده ويشرك به، ولو كان شركا أصغر كما نهي النبي صلى الله عليه وسلم  
من سجد له عن السجود له، أما بعد موته، فيخاف الفتنة والإشراك به كما أشرك بالمسيح والعزير وغيرهما.  
قال: إن هذا يختلف باختلاف المتوسل واعتقاده، فإن كان يعتقد الوساطة الشركية، فهو حرام، بل قد  
يكون كفرا، أما إن أراد به التوسل الإيماني الذي هو استشعار محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشفقته على أمته والتوسل  
بهما إلى الله، فإن في ذلك من المصالح الإيمانية والتربوية ما لا يصح طرحه من أجل هذه المفسدة المشكوك.  
ثم لو طرحت أحكام الشريعة بهذا الأسلوب، فإن الكثير من الأحكام قد تتعرض للإلغاء خوفا من المفسد  
التي قد تنجر عنها.

قلت: وعيت كل هذا.. ولكن لم لم يكن هذا النوع من الوساطة شركا.  
قال: إن ذلك ينبع من معين اسم عظيم من أسماء الله الحسنى هو اسم الشكور.  
قلت: الشكور؟!.. أجل هو اسم من أسماء الله الحسنى.  
قال: فما يفعله الأولياء في هذا الباب من التعامل مع النبي صلى الله عليه وسلم ينبع من معين هذا الاسم.  
قلت: لم أفهم.. كيف ذلك؟  
قال: إن اسم الله الشكور يقتضي مجازاة الله عباده على أعمالهم الصغيرة بالعباد الكبار المحانس لأعمالهم  
ورغبتهم<sup>١</sup>.

ومن هذه النافذة تفهم النصوص المحيزة للتوسل بأنواعه: التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين والأعمال  
الصالحة وغيرها مما ورد النصوص بجوازه.

فالتوسل بالعمل الصالح — مثلا — إن اعتقد أنه واسطة صحيحة، وأن الله يجب أن يجازي المكلفين، كان  
سوء أدب مع الله، فالله عز وجل: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (الانبياء: ٢٣)، والله غني عن أعمال عباده.  
لكن إن نظر إليه من باب اسم الله الشكور، فذكر العمل، وطلب الجزاء كما تطلب المن لم يكن في ذلك  
حرج على الداعي، بل قد ورد في النصوص الكثيرة ما يدل عليه.

ولعل أشهر ما ورد من ذلك حديث الثلاثة الذين أووا إلى غار، فسأل كل واحد منهم بعمل عظيم  
أخلص فيه لله، فهذا سأل بیره لوالديه، وهذا سأل بعفته التامة، وهذا سأل بأمانته وإحسانه، وكل ذلك مما يحبه

(١) انظر التفاصيل المرتبطة بهذا في رسالة (أسرار الأقدار) من (رسائل السلام) للمؤلف.

الله ويرضاه، ومحبة الله لذلك العمل تقتضي إجابة صاحبه.

وقد كان ابن مسعود رضي الله عنه يقول وقت السحر: «اللهم أمرتني فأطعتك، ودعوتني فأجبتك، وهذا سحر فاغفر لي» وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول على الصفا: «اللهم إنك قلت وقولك الحق: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: من الآية ٦٠)، وإنك لا تخلف الميعاد، ثم ذكر الدعاء المعروف.

ومن هذا الباب شرعت الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن من لم يشكر الناس لم يشكر الله. بل إن الله صلى الله عليه وسلم وصانا بالشكر للوالدين، وهما سبب حياتنا الطينية المجازية، فقال صلى الله عليه وسلم: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان: ١٤) فكيف لا يستحق رسول الله صلى الله عليه وسلم منا الشكر، وهو سبب حياتنا الروحية الحقيقية.

ولهذا اعتبر صلى الله عليه وسلم من لم يصل عليه بخيلا، فقال صلى الله عليه وسلم: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي» ومن هذا الباب ما ورد من الآثار في ربط الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشياء، لولا الوساطة الشرعية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تتحقق، مثل قول القائل عند الدخول إلى المسجد: «أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم، الحمد لله، اللهم صل وسلم على محمد وعلى آل محمد؛ اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»

قلت: فما علاقة التوسل والشكوى والاستغاثة باسم الله الشكور؟

قال: إن الله برحمته وفضله وشكره لعباده جعل من جزاء الرسول صلى الله عليه وسلم الذي امتأ قلبه بالرحمة لأمته بل للخلق جميعا، الشفاعة العظمى يوم القيامة، والتوسل باب من أبوابها، كلاهما يطل من نافذة هذا الاسم. زيادة على أن المتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم يستحضره ويشعر بمنة الله به عليه، وفي ذلك الشعور توسل لاستجابة الدعاء، فللدعاء شروطه التي إن توفرت لا يخطئ أبدا.

وانطلاقا من هذا، فإن التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم هو نوع من الحضور معه، والشعور بمعينته، وله تأثير كبير في ربط القلب بمحبتته، وهو السبيل الصحيح لسلوك سنته.

فالتوسل بذلك، والذي يستحضر فيه قلب السائل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يستشفع به إلى الله، مع الخلو من اعتقاد الوساطة الشركية، والامتلاء بالشعور بالمنة، بما لأ القلب شعورا برسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما اعتقاد أن هذا خاص بحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا دليل صريح عليه من النصوص، بل قد يكون فهما من عمر رضي الله عنه، مع أن قوله صلى الله عليه وسلم لا يدل على حرمة الاستشفاع به صلى الله عليه وسلم بعد موته.

والقول بذلك يحرم الأمة جميعا من هذا الخير الجزيل، فلا يتمتع به على مقتضى هذا القول إلا المصاحبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

زيادة على ذلك، فإننا نتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم في كل الأحكام الشرعية، فنرجع إليه لنعلم أحكام الله، بل إن الله هو الذي أمرنا بالرجوع إليه مطلقا حيا أو ميتا، كما قال صلى الله عليه وسلم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩)، وليس هناك من يقول بأن هذا خاص بحياته صلى الله عليه وسلم.

ثم من قال بأن موت رسول الله ﷺ يغير حياته، فإن كان الشهداء، وهم أدين بآلاف آلاف الدرجات من رسول الله ﷺ قد نفى الله موتهم، ونهى عن اعتقاد ذلك، فقال ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩)، فكيف برسول الله ﷺ وهو سيد الشهداء والعارفين والنبیین؟

ثم، إن رسول الله ﷺ أخبر بأن أعمال أمته تعرض عليه، وأنه يدعو لهم، فقال ﷺ: «حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم، فإذا أنا مت كانت وفاتي خيرا لكم، تعرض علي أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت الله تعالى وإن رأيت شرا استغفرت لكم»

فإن شك في هذا الحديث، فقد قال ﷺ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥)  
قلت: قد يقال بأن هذه رؤية وليست دعاء أو شفاعة؟

قال: إن كان الله ﷻ أخبر بدعوة الملائكة — عليهم السلام — للمؤمنين، كما قال ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر: ٧)، فإن كان هذا مع حملة العرش، فكيف برسول الله ﷺ، ومع أمته التي كلف بها، وهو أحرص الخلق عليها؟

وقد أخبر ﷺ أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، فقال ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيرا استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»<sup>١</sup>

فإن جاز هذا للعشائر والأقارب، وهم أفراد من الأمة، فكيف لا يجوز لرسول الله ﷺ، وهو أحن على أمته من آبائهم، وأمهاتهم، وقد قال ﷺ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب: من الآية ٦)

### الألم:

قلت: فما الكلمة الرابعة؟

قال: الألم.

قلت: الألم؟!

قال: أجل..

قلت: عهدي بأولياء الله أسعد الخلق حياة، وأهناهم نفسا، حتى وكأن الجنة عجلت لهم.

قال: لكن بعض الآلام تعتر بهم.

قلت: القلب الذي يعرف الله لا يعرف الألم.

(١) رواه أحمد والطبرسي.



قال: هو ألم أشبه بألم يعقوب لفقد يوسف.. فمقام يعقوب العظيم عند الله، ومقام يعقوب العظيم في درجات السلوك إلى الله لم يمنعه من ذلك الحزن الذي عبر عنه الله ﷻ بقوله: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٨٤)

ومقام رسول الله ﷺ في سلم الولاية لم يمنعه من قوله عندما توفي ابنه إبراهيم: «قلت: فما الحزن الذي يعترى الأولياء.. فيشعرهم بالألم. قال: فقد رسول الله ﷺ..»

قلت: ألم تخبرني قبل الحين أنهم يستشعرون حياته؟

قال: الحياة مراتب.. فقد يكون شخصا حيا، ولكنك تستشعر ألما لبعده عنك.

قلت: ولكن الأولياء كما ذكرت لي لا يغيبون عن رسول الله.. ولا يغيب رسول الله عنهم..

قال: ذلك لقاء الأرواح.. والأولياء يتلهفون على لقاء الأشباح..

التفت إلي، وقال: ألم تسمع حديث ثوبان وغيره من الصحابة وشكواهم لرسول الله ﷺ ألم الفراق؟ قلت: بلى..

قال: ولهذا كانت أعظم المصائب التي حلت بالمؤمنين فقداهم لرسول الله ﷺ.. قالت عائشة — رضي الله عنها: «لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس — حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبه — فاحتلفوا فكذب بعضهم بموته وأحرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد، وخلط آخرون فاثوا الكلام بغير بيان، وبقي آخرون معهم عقولهم، وأقعد آخرون.. فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته.. وعلي فيمن أقعد.. وعثمان فيمن أحرس.

فخرج عمر على الناس وقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت، وليرجعنه الله تعالى، وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله ﷺ الموت، إنما واعد الله ﷻ كما واعد موسى وهو آتكمم» وذكر مكى عن عبد الله أنه لما مات النبي ﷺ قال: «اللهم أعمني حتى لا أرى شيئا بعده؛ فعمي مكانه»، وروي أنه قال: «اللهم أعمني فلا أرى شيئا بعد حبيبي حتى ألقى حبيبي؛ فعمي مكانه»

ولم يكن قويا في هذا الموقف الشديد إلا أبا بكر ﷺ الذي ربط الله على قلبه ليواسي المسلمين في نبههم ﷺ، ولكنه مع ذلك ظل باطنه يحترق فلا يكاد يمسك نفسه، فقد روي أنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله ﷺ، وهو يصلي على النبي ﷺ وعيناه تملان وغصصه ترتفع كقصع الجرّة، وهو في ذلك جلد الفعل والمقال، فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول: «بأبي وأنت وأمي ونفسي وأهلي، طبت حيا وميتا، انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لحزنك بالنفوس، ولولا أنك نهيتم عن البكاء لأنفذنا عليك ماء العيون، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمدوا وادكار محالفان لا يرحان، اللهم فأبلغه عنا، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك، ولكن من بالك، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نبينا عنا

واحفظه فينا »

وقد استمر هذا الحزن بالصحابة رضي الله عنهم أمدا طويلا، عن أنس قال: قال أبو بكر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نرورها، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: « ما يبكيك فما عند الله خير لرسوله » قالت: « إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله، ولكنني أبكي لكون الوحي انقطع من السماء » قال: فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها <sup>١</sup>

وقد كانت حرقه حب رسول الله صلى الله عليه وسلم هي سبب وفاته رضي الله عنه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: « كان سبب موت أبي بكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كمد، فما زال جسمه يجري حتى مات »

ولهذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي عزاء المؤمن عن كل مصيبة، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا أصيب أحدكم بمصيبة، فليذكر مصيبته بي ليعزه ذلك عن مصيبته » <sup>٢</sup>

سكت قليلا، ثم قال: ألا ترى شغف الأولياء بالقبور الشريف.. فهم يعتبرونه أشرف بقعة في الأرض. قلت: بلى.. وقد أنكر عليهم البعض ذلك.

قال: لا ينبغي أن ينكر عليهم.. فأحب تراب الله لأهل الله التراب الذي ضم رسول الله.. إنه عطرهم الذي يستنشقون أريجهم، ودواؤهم الذي يحميهم من العلل وملوهم بالصحة.

قلت: فهل لك قصة مع القبر الشريف؟

قال: أجل.. وهي قصة لن أنساها ما حييت.

قلت: كيف أذن لك في دخول الحرم، والحرم لا يدخله إلا مسلم؟

قال: أتخسني زرتك قبل أن أزور حبيبي صلى الله عليه وسلم.. لقد كان أول ما فعلته بعد إسلامي أن زرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وفي الطريق إليه رأيت وليا من أولياء الله يردد:

أَتَيْتُكَ رَاحِجًا رَاحِجًا وَوَدِدْتُ أَنِي  
مَلَكَتُ سَوَادَ عَيْنِي أَمْتِطِيهِ  
وَمَا لِي لَا أَسِيرُ عَلَى الْمَأَقِي إِلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ فِيهِ

فأسرعت إليه، وقلت له: رويدك.. احذر أن يسمعك بعض المتشددين، فيرميك بالشرك.

قال: فليفعلوا بي ما يشاءون.. فأنا لم أخرج عن هدي السلف، ولا عن أدب الخلف.

قلت: ما تقول؟

قال: لقد كان حسان بن ثابت من سلف الأمة، ومن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال مخاطبا قبره صلى الله عليه وسلم:

فبوركك يا قبر الرسول وبوركك  
وبوركك لحمد منك ضمن طيبا  
ببلاد ثوى فيها الرشيد المسدد  
عليه بناء من صفيح متصد

(١) رواه مسلم.

(٢) مصنف عبد الرزاق: ٥٦٤/٣، المعجم الأوسط: ٣٦٥/٤.

تهيل عليه التراب أيدي وأعين عليه وقد غارت بذلك أسعد  
لقد غيبيوا حلما وعلمما ورحمة عشية علوه الثرى لا يوسد  
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم وقد وهنت منهم ظهور وأعضد  
يكون من تبكي السموات يومه ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد  
وهل عدلت يوما رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد؟

وقد روي عن ابن المنكدر رضي الله عنه أنه كان يجلس مع أصحابه فكان يصيبه صمات، فكان يقوم كما هو حتى يضع خده على قبر النبي صلى الله عليه وسلم ثم يرجع، فعوتب في ذلك، فقال: إنه يصيبني خطر، فإذا وجدت ذلك استعنت بقبر النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان يأتي موضعا من المسجد يتمرغ فيه، ويضطجع، ف قيل له في ذلك فقال: إني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الموضع<sup>١</sup>.

قلت: هذا السلف.. فما فعل الخلف؟

قال: لقد ورث السلف حسان وغيره أمة من الصالحين أنتجوا تراثا عريضا من معاني الحب ولدت أمام قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهذا أحدهم يقول:

قف عند قبر التهامي والشم الجدثا وانشق عبير الهدى ممن به مكثا  
واجثُ احتراماً بداع الوجد مدكراً فجر النبوة وامدح خير من بُعثا  
محمدُ سيد الأكوان قاطبة إذ مجده كابرأ عن كابر ورثا  
ما أنجب الدهر ذا خلق وذا خلقٍ في الفضل يشبهه مذ جاءنا حدثا

---

(١) ابن المنكدر ليس من الصحابة، ولهذا تحمل الرؤية على الرؤية المنامية، أو على رؤى اليقظة التي أجمع عليها الأولياء.

## سابعاً — الأحبار

فتحت دفتر البابا على فصله السابع، فوجدت عنوانه (الأحبار)، فقلت: أليس الأحبار هم رجال الدين؟  
قال: أجل.. هم رجال الدين من اليهود والمسيحيين.. وقد يقصد به غيرهم.

قلت: من الصعب أن يسلم مثل هؤلاء الرجال لمحمد ﷺ.

قال: أجل.. فما هم فيه من السلطان والجاه والتعصب يقف حائلاً بينهم وبين الإسلام.. ولكن مع ذلك هناك من هؤلاء من تغلب على هواه، وطلق جاهه، وجميع الدنيا العريضة التي أتاحت له، ليطمئن بجمال شمس محمد ﷺ.

قلت: لقد ذكر الله ﷻ هؤلاء، وأثنى عليهم ثناء حسناً في القرآن الكريم، فقال ﷻ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأْسٌ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)﴾ (المائدة)

وقال فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٩)  
وقال فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّعْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص: ٥٢-٥٥)

قال: ولهذا تراني اهتمت في هذا الدفتر بالبحث عن هؤلاء.. فهم — بالنسبة لنا معشر رجال الدين — من أعظم الشهود على صدق النبي ﷺ..

### ١ — أحبار من عصر النبوة:

قلت: أراك وضعت أسماء كثيرة من غير عصرنا.. بل هي من عصر النبوة، فكيف التقيت بها؟  
قال: لقد التقيت بها في أسانيد الثقة.. فهذه الجموع الكثيرة التي امتلأت قلوبها تعظيماً لرسول الله ﷺ وحياً للإسلام يستحيل أن تجتمع على الكذب.

قلت: فهل ترى نبدأ هؤلاء.. أم نخرج إلى المعاصرين؟

قال: ليس من الأدب أن نتخطى رقاب الصديقين.. فلنبدأ هؤلاء.

سلمان الفارسي:

كان من أول الأسماء التي وصعت في هذا الفصل اسم (سلمان الفارسي)، فسألت البابا عن سر اختياره لسلمان، فقال: سلمان ليس فردا.. بل هو معنى.. ومعنى عظيم يشير إلى الصادقين من رجال الدين.

قلت: ما تعني؟

قال: لقد أمضى سلمان شطرا من عمره ليس له من هم غير البحث عن الحقيقة.. فلذلك صار رمزا للباحث عن الحقيقة.

قلت: صدقت في هذا.. وقد ألف بعضهم رواية بهذا الاسم، وكان موضوعها سلمان.

قال: لقد كان أول سلمان أول من وضع رواية الباحث عن الحقيقة.. أو مذكرات الباحث عن الحقيقة..

فهلم نسمع له..

قلت: وكيف نسمع له، وقد رمم.

قال: آذان الروح يمكن أن تسمع كل شيء..

ثم التفت إلي، وقال: حاول أن تتخلص من جلباب جسدك.. ولترحل إلى ذلك الزمن الجميل الذي جلس

فيه سلمان يحدث عن نفسه.

أصابني نوع من الغيبة اللذيذة، رحمت خلالها أسمع البابا، وهو يتحدثني بلسان سلمان، وكأني كنت جالسا

في تلك اللحظة مع سلمان نفسه.

قال سلمان: كنت رجلا من أهل فارس من أصبهان، من جي، ابن رجل من دهاقينها، وكان أبي دهقان

أرضه، وكنت أحب الخلق إليه، فأجلستني في البيت كالجواري، فاجتهدت في الجوسية — فكنيت في النار التي

توقد فلا تخبو، وكان أبي صاحب ضيعة، وكان له بناء يعالجه في داره، فقال لي يوما: يا بني، قد شغلني ما ترى

فانطلق الى الضيعة، ولا تحبس فتشغلني عن كل ضيعة بهمى بك، فخرجت لذلك، فمررت بكنيسة النصرارى

وهم يصلون، فملت إليهم وأعجبني أمرهم، وقلت: هذا والله خير من ديننا، فأقمت عندهم حتى غابت

الشمس، لا أنا أتيت الضيعة، ولا رجعت إليه، فاستبطنني وبعث رسلا في طلبي، وقد قلت للنصارى حين

أعجبني أمرهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام.

فرجعت الى والدي، فقال: يا بني، قد بعثت اليك رسلا، فقلت: مررت بقوم يصلون في كنيسة، فأعجبني

ما رأيت من أمرهم، وعلمت أن دينهم خير من ديننا.

فقال: يا بني، دينك ودين آبائك خير من دينهم، فقلت: كلا والله.

فخافني وقيدني.

فبعثت الى النصرارى وأعلمتهم ما وافقني من أمرهم، وسألتهم إعلامي من يريد الشام، ففعلوا فألقيت

الحديد من رجلي، وخرجت معهم، حتى أتيت الشام، فسألتهم عن عالمهم، فقالوا: الأسقف، فأخبرته،

وقلت، أكون معك أحدمك وأصلي معك؟ قال: أقم.

فمكثت مع رجل سوء في دينه، كان يأمرهم بالصدقة، فإذا أعطوه شيئا أمسكه لنفسه، حتى جمع سبع

قلال مملوءة ذهباً وورقا، فتوفي، فأخبرتهم بخبره، فزبروني، فدللتهم على ماله فصلبوه، ولم يغيبوه ورحموه،

وأحلوا مكانه رجلا فاضلا في دينه زهد ورغبة في الآخرة وصلاحا، فألقى الله حبه في قلبي، حتى حضرته الوفاة، فقلت: أوصي، فذكر رجلا بالموصل، وكنا على أمر واحد حتى هلك.

فأتيت الموصل، فلقيت الرجل، فأخبرته بخبري، وأن فلانا أمرني باتيانك، فقال: أقم، فوجدته على سبيله وأمره حتى حضرته الوفاة، فقلت له: أوصي، قال: ما أعرف أحدا على ما نحن عليه الا رجلا بعمورية.

فأتيت بعمورية، فأخبرته بخبري، فأمرني بالمقام وثاب لي شيئا، واتخذت غنيمة وبقيرات، فحضرته الوفاة، فقلت: إلى من توصي بي؟ فقال: لا أعلم أحدا اليوم على مثل ما كنا عليه، ولكن قد أظلك نبي يبعث بدين إبراهيم الخنيفية، مهاجره بأرض ذات نخل، وبه آيات وعلامات لا تخفى، بين منكبيه خاتم النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت فتخلص إليه، فتوفي.

فمر بي ركب من العرب، من كلب، فقلت: أصبحكم وأعطيكم بقراتي وغنمي هذه، وتحملوني الى بلادكم؟ فحملوني الى وادي القرى، فباعوني من رجل من اليهود، فرأيت النخل، فعلمت أنه البلد الذي وصف لي، فأقمت عند الذي اشترايني، وقدم عليه رجل من بني قريظة فاشتراني منه، وقدم بي المدينة، فعرفتها بصفقتها، فأقمت معه أعمل في نخله، وبعث الله نبيه ﷺ، وغفلت عن ذلك حتى قدم المدينة، فنزل في بني عمرو بن عوف، فاني لفي رأس نخلة إذ أقبل ابن عمر لصاحبي، فقال: أي فلان، قاتل الله بني قيلة، مررت بهم أنفا وهم مجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة، يزعم أنه نبي، فوالذي ما هو الا أن سمعتها، فأخذني القر ورجفت بي النخلة، حتى كدت أن أسقط، ونزلت سريعا، فقلت: ما هذا الخبر؟ فلكنني صاحبي لكمة، وقال: وما أنت وذاك؟ أقبل على شأنك، فأقبلت على عملي حتى أمسيت، فجمعت شيئا فأتيته به، وهو بقاء عند أصحابه، فقلت: اجتمع عندي، أردت أن أتصدق به، فبلغني أنك رجل صالح، ومعك رجال من أصحابك ذوو حاجة، فرأيتكم أحق به، فوضعت بين يديه، فكف يديه، وقال لأصحابه: كلوا.

فأكلوا، فقلت: هذه واحدة، ورجعت.

وتحول الى المدينة، فجمعت شيئا فأتيته به، فقلت: أحببت كرامتك فأهديت لك هدية، وليست بصدقة، فمد يده فأكل، وأكل أصحابه، فقلت: هاتان اثنتان، ورجعت.

فأتيت، وقد تبع جنازة في بقيع الغرقد، وحوله أصحابه، فسلمت، وتحولت أنظر الى الخاتم في ظهره، فعلم ما أردت، فألقى رداءه، فرأيت الخاتم، فقبلته، وبكيت، فأجلسني بين يديه، فحدثته بشأني كله كما حدثتك يا ابن عباس، فأعجبه ذلك، وأحب أن يسمعه أصحابه، ففاتني معه بدر وأحد بالرق، فقال لي: كاتب يا سلمان عن نفسك، فلم أزل بصاحبي حتى كاتبته، على أن أغرس له ثلثمائة ودية وعلى أربعين أوقية من ذهب، فقال النبي ﷺ: (أعينوا أحاكم بالنخل)، فأعانوني بالخمس والعشر، حتى اجتمع لي، فقال لي: (فقر لها ولا تضع منها شيئا حتى أضعه بيدي)، ففعلت، فأعاني أصحابي حتى فرغت، فأتيته، فكنت آتية بالنخلة فيضعها، ويسوي عليها ترابا، فانصرف، والذي بعثه بالحق فما ماتت منها واحدة، وبقي الذهب، فبينما هو قاعد إذ أتاه رجل من أصحابه يمثل البيضة، من ذهب أصابه من بعض المعادن، فقال: (ادع سلمان المسكين الفارسي المكاتب)، فقال: (أد هذه) فقلت: يا رسول الله، واين تقع هذه مما علي؟ وروى أبو الطفيل، عن سلمان، قال: أعاني

رسول الله ﷺ بيضة من ذهب، فلو وزنت بأحد لكانت أثقل منه<sup>١</sup>.  
**عبد الله بن سلام:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عبد الله بن سلام)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل من كبار أحبار اليهود، وهو من ذرية يوسف الصديق عليه السلام، وكان اسمه الحصين، فغيره النبي ﷺ، وكان عالم أهل الكتاب، وكان إسلامه في اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ دار أبي أيوب أول ما قدم<sup>٢</sup>. وقد حدث عن نفسه بخر إسلامه، فقال: لما سمعت برسول الله ﷺ وعرفت صفته واسمه وهيبته وزمانه الذي كنا نتوكف له<sup>٣</sup>، فكنت مسرا بذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما قدم نزل بقاء في بني عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدمه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة.

فلما سمعت الخبر بقدم رسول الله ﷺ كبرت، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري: «لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت»، فقلت لها: «أي عمه وهو، الله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بعث بما بعث به»

ثم قالت: «يا ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟»، فقلت لها: «نعم»، قالت: «قذاك إذا»

قال: فخرجت إلى رسول الله ﷺ فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «افشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»<sup>٤</sup> وقد أخبر أنس عن السر الذي جعله يقبل على الإسلام، فقال: سمع عبد الله بن سلام بقدم النبي ﷺ فأتى النبي ﷺ فقال: إني سألك عن خلال لا يعملهن إلا نبي: ما أول أشرط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة؟ وما بال الولد يترع إلى أبيه أو إلى أمه؟ وما هذا السواد الذي في القمر؟ فقال ﷺ: أخبرني بمن جبريل أنفا.

فقال عبد الله: جبريل؟ قال ﷺ: نعم، فقال عبد الله: عدو اليهود من الملائكة، ثم قرأ أنس: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩٧) قال ﷺ: أما أول أشرط الساعة: فناد تخرج على الناس من المشرق (تسوقهم) إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد، وأما السواد الذي في القمر: فإنهما كانا شمسين<sup>٥</sup>، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

(١) رواه ابن إسحق وغيره.

(٢) كما في رواية عبد العزيز بن صهيب عند البيهقي.

(٣) توكف الخبر: إذا انتظر، انظر: النهاية: ٥ / ٢٢١.

(٤) رواه البخاري والبيهقي عن أنس، وابن إسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سلام، وأحمد، ويعقوب بن سفيان عن عبد الله بن سلام، والبيهقي عن موسى بن عقبة وعن ابن شهاب.

(٥) أشرنا إلى الحقيقة المرادة في هذا في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴿١٢﴾ (الاسراء: من الآية ١٢) فالسواد الذي رأيت هو المحو.  
فقال عبد الله: أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله.

ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا وكنتم إسلامه.

ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن اليهود قد علمت أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، وأنهم قوم بهت، وأنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني، وقالوا في ما ليس في، فأحب أن تدخلني بعض بيوتك.

فأدخله رسول الله ﷺ بعض بيوته، وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه، فقال: «يا معشر يهود يا ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله قد جئتكم بالحق فأسلموا» فقالوا: ما نعلمه.

فقال: أي رجل فيكم الحصين بن سلام؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا.

فقال: أرأيتم إن أسلم.

قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فقال ﷺ: «يا ابن سلام اخرج إليهم»

فخرج عبد الله فقال: «أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمد رسول الله، يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقا، تجدونہ مكتوبا عندكم في التوراة: اسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه»

قالوا: كذبت أنت شرنا وابن شرنا، وانتقصوه.

قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟

قال عبد الله: وأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها<sup>١</sup>.

## ٢ — أحبار من عصرنا:

قلبت بعض الصفحات، بحثا عن أسماء لأحبار من عصرنا، أو قرييين من عصرنا.

## القس إسحق هلال مسيحه:

وكان من الأسماء التي وجدتها (القس إسحق هلال مسيحه)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تشرفت بالالتقاء به بعد ما سمعت بإسلامه في إطار الوظيفة التي أحييتك عنها، وكان من تصريحاته لي قوله: حين بدأت أدرس حياة الأنبياء بدأ الصراع الفكري في داخلي وكانت أسئلتني تثير المشاكل في أوساط الطلبة مما جعل البابا (..؟! )<sup>٣</sup> يصدر قراراً بتعييني قسيساً قبل موعد التنصيب بعامين كاملين، لإغرائي وإسكاتي فقد كانوا يشعرون

(١) رواه البيهقي.

(٢) هو القس المصري السابق اسحق هلال مسيحه، رئيس لجان التنصير بأفريقيا، وهو راعي كنيسة المثل المسيحي، ورئيس فخري لجمعيات خلاص النفوس المصرية بإفريقيا وغرب آسيا.

(٣) كما تعودنا في هذه السلسلة، فلن نذكر هنا جميع الأسماء المرتبطة بالمعاصرين إلا ما لا بد منه.



بمناصرتي للإسلام — مع أنه كان مقرراً ألا يتم التنصيب إلا بعد مرور ٩ سنوات من بداية الدراسة اللاهوتية. ثم عيّنت رئيساً لكنيسة المثل المسيحي بسوهاج ورئيساً فخرياً لجمعية خلاص النفوس المصرية — وهي جمعية تنصيرية قوية جداً ولها جذور في كثير من البلدان العربية وبالأخص دول الخليج — وكان البابا يغدق عليّ الأموال حتى لا أعود لمناقشة مثل تلك الأفكار لكنّي مع هذا كنت حريصاً على معرفة حقيقة الإسلام، ولم يجبو النور الإسلامي الذي أثار قلبي فرحاً بمنصبي الجديد بل زاد.

قلت: فكيف بدأت علاقتك بالمسلمين؟

قال: بدأت علاقتي مع بعض المسلمين سراً، حيث بدأت أدرس وأقرأ عن الإسلام، وقد طُلب منّي إعداد رسالة الماجستير حول مقارنة الأديان، وأشرف على الرسالة أسقف البحث العلمي في مصر سنة ١٩٧٥، واستغرقت في إعدادها أربع سنوات، وكان المشرف يعترض على ما جاء في الرسالة حول صدق نبوة الرسول محمد ﷺ وأميته وتبشير المسيح بمجيئه.

وأخيراً تمت مناقشة الرسالة في الكنيسة الإنكليكية بالقاهرة، واستغرقت المناقشة تسع ساعات وتركرت حول قضية النبوة والتبني ﷺ علماً بأن الآيات صريحة في الإشارة إلى نبوته وختم النبوة به.

قلت: فهل منحوك هذه الرسالة مع هذا؟

قال: نعم منحوني الرسالة بيد، وأخذوها مني باليد الأخرى.. لقد صدر قرار البابا بسحب الرسالة منّي وعدم الاعتراف بها.

قلت: فماذا فعلت؟

قال: أخذت أفكر في أمر الإسلام تفكيراً عميقاً حتى تكون هدايتي عن يقين تام، ولكن لم أكن أستطيع الحصول على الكتب الإسلامية، فقد شدّد (..؟! ) الحراسة عليّ وعلى مكتبي الخاصة.

قلت: فكيف وصلت إلى أشعة محمد مع هذا التصييق؟

ابتسم، وقال: أصدقك القول.. إنهم كلما ضيقوا على الإسلام، كلما اتسع وازداد انتشاره..

في يوم من أيام عام ١٩٧٨م كنت ذاهباً لإحياء مولد العذراء بالإسكندرية، وأثناء ركوبي في الحافلة بملابسي الكهنوتية، وبصليب زين ربع كيلو من الذهب الخالص وعصاي الكرير صعد صبي صغير يبيع كتيبات صغيرة، فوزعها على كل الركاب ماعداً أنا.

عندما انتهى من التوزيع والجمع، فباع ما باع وجمع الباقي، قلت له: «يا بني لماذا أعطيت الجميع بالحافلة إلا أنا»، فقال: «لا يا أبونا أنت قسيس»

وهنا شعرت، وكأني لست أهلاً لحمل هذه الكتيبات مع صغر حجمها.. فألححت عليه ليبيعي منها، فقال: «لا هذه كتب إسلامية» ثم نزل.

وبزول هذا الصبي من الحافلة شعرت وكأني جوعان، وفي هذه الكتب شعبي، وكأني عطشان وفيها

شربي.. نزلت خلفه، فحري خائفاً منّي، فنسيت من أنا وجريت وراءه حتى حصلت على كتابين.

عندما وصلت إلى الكنيسة الكبرى بالعباسية (الكاتدرائية المرقسية) ودخلت إلى غرفة التوم المخصصة

بالمدعوين رسمياً كنت مرهقاً من السفر، ولكن عندما أخرجت أحد الكتباين، وهو (جزء عم) وفتحته وقع بصري على سورة الإخلاص، فأيقظت عقلي وهزت كياني..

لقد بدأت أرددها حتى حفظتها، وكنت أجد في قراءتها راحة نفسية واطمئناناً قلبياً وسعادة روحية، وبيننا أنا كذلك إذ دخل عليّ أحد القساوسة و ناداني: «أبونا إسحاق»، فخرجت وأنا أصيح في وجهه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ دون شعور منّي.

بعد ذلك ذهبت إلى الإسكندرية لإحياء أسبوع مولد العذراء يوم الأحد.. وأثناء صلاة القداس المعتاد، وفي فترة الراحة ذهبت إلى كرسي الاعتراف لكي أسمع اعترافات الشعب الجاهل الذي يؤمن بأن القسيس بيده غفران الخطايا.

ومن ضمن من جاء امرأة تعض أصابع الندم، وهي تقول: «إني انخرت ثلاث مرات، وأنا أمام قداسك الآن أعترف لك رجاء أن تغفر لي، وأعاهدك ألا أعود لذلك أبداً».. ومن العادة المتبعة أن يقوم الكاهن برفع الصليب في وجه المعترف ويغفر له خطاياهم.

وما كدت أرفع الصليب لأغفر لها حتى وقع ذهني على العبارة القرآنية الجميلة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فعجز لساني عن النطق، وبكيت بكاءً حاراً، وقلت: «هذه جاءت لتنال غفران خطاياها منّي فمن يغفر لي خطاياي يوم الحساب والعقاب»

هنا أدركت أن هناك كبير أكبر من كل كبير، إله واحد لا معبود سواه.

ذهبت على الفور للقاء الأسقف وقلت له: «أنا أغفر الخطايا لعامة الناس، فمن يغفر لي خطاياي»، فأجاب دون اكتراث: «البابا»، فسألته: «ومن يغفر للبابا»، فانتفض جسمه ووقف صارخاً وقال: «أنت قسيس مجنون، والذي أمر بتنصيبك مجنون حتى وإن كان البابا، لأننا قلنا له لا تنصبه لئلا يفسد الشعب بإسلامياته وفكره المنحل» بعد ذلك صدر قرار البابا بحبسي في دير (ماري مينا) بوادي النطرون.

قلت: أحصل هذا!؟

قال: حصل ما هو فوق هذا.. لقد أخذوني معصوب العينين، وهناك استقبلني الرهبان استقبالاً عجيبياً كالوا لي فيه صنوف العذاب علماً بأنني حتى تلك اللحظة لم أسلم، كل منهم يحمل عصا يضربني بها وهو يقول: «هذا ما يصنع ببائع دينه وكنيستته»

استعملوا معي كل أساليب التعذيب الذي لا تزال آثاره موجودة على جسدي، وهي خير شاهد على صحة كلامي حتى أنه وصلت بهم أخلاقهم اللاإنسانية أنهم كانوا يدخلون عصا المقتشة في دبري يومياً سبع مرّات في مواقيت صلاة الرهبان لمدة سبعة وتسعين يوماً، وأمروني بأن أرعى الخنازير.

وبعد ثلاثة أشهر أخذوني إلى كبير الرهبان لتأديبي دينياً وتقديم النصيحة لي، فقال: «يا بني.. إن الله لا يضع أجر من أحسن عملاً، اصبر واحتسب. ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب»، قلت في نفسي ليس هذا الكلام من الكتاب المقدس ولا من أقوال القديسين.

وما زلت في ذهولي بسبب هذا الكلام حتى رأيته يزيدي ذهولاً على ذهول بقوله: «يا بني نصيحتي لك

السر والكتمان إلى أن يعلن الحق مهما طال الزمان»

لقد احترت في المعنى الذي يشير إليه هذا الرجل، وهو كبير الرهبان، ولم يطل بي الوقت حتى فهمت تفسير هذا الكلام الخيّر.

لقد دخلت عليه ذات صباح لأوقفه فتأخر في فتح الباب، فدفعته ودخلت، وكانت المفاجأة الكبرى التي كانت نوراً لهديتي لهذا الدين الحق دين الوحداية عندما شاهدت رجلاً كبيراً في السن ذا لحية بيضاء، وكان في عامة الخامس والستين، وإذا به قائماً يصلي صلاة المسلمين (صلاة الفجر).

تسمرتُ في مكاني أمام هذا المشهد الذي أراه، ولكنني انتبهت بسرعة عندما خشيت أن يراه أحد من الرهبان، فأغلقت الباب.

جاءني بعد ذلك وهو يقول: «يا بئى استر عليّ ربنا يستر عليك»، ثم أضاف: «أنا منذ ٢٣ سنة على هذا الحال.. غذائي القرآن.. وأنيس وحدتي توحيد الرحمن.. ومؤنس وحشتي عبادة الواحد القهار.. الحق أحق أن يتبع يا بئى»

بعد أيام صدر أمر البابا برجوعي لكنيسة بعد نقلي من سوهاج إلى أسيوط، لكن الأشياء التي حدثت مع سورة الإخلاص وكرسي الاعتراف والراهب المتمسك بإسلامه جعلت في نفسي أثراً كبيراً، لكنني كنت مختاراً ماذا أفعل، وأنا محاصر من الأهل والأقارب وممنوع من الخروج من الكنيسة بأمر (..؟! )

بعد مرور عام، جاءني خطاب يأمرني بالذهاب كرئيس للجنة المغادرة إلى السودان في رحلة تنصيرية، فذهبنا إلى السودان في الأول من سبتمبر ١٩٧٩م وبقينا به ثلاثة شهور، وحسب التعليمات البابوية بأن كل من تقوم اللجنة بتنصيره يسلم مبلغ ٣٥ ألف جنيه مصريّ بخلاف المساعدات العينية، فكانت حصيلة الذين غررت بهم اللجنة تحت ضغط الحاجة والحرمان خمسة وثلاثين سودانياً من منطقة واو في جنوب السودان.

وبعد أن سلّمتهم أموال المنحة البابوية اتصلت بالبابا من مطرانية أم درمان فقال: «خذوهم ليروا المقدسات المسيحية بمصر (الأديرة)»، وتم خروجهم من السودان على أساس أنهم عمال يعقود للعمل بالأديرة لرعي الإبل والغنم والخنازير وتم عمل عقود صورية حتى تتمكن لجنة التنصير من إخراجهم إلى مصر. بعد نهاية الرحلة، وأثناء رجوعنا بالباخرة في النيل، قمت أتفقد المنتصرين الجدد وعندما فتحت بعض الأبواب على الباخرة، فوجئت بأن المنتصر الجديد الذي أطلقنا عليه عبد المسيح (وكان اسمه محمد آدم) يصلي صلاة المسلمين.

تحدثت إليه فوجدته متمسكاً بعقيدته الإسلامية، فلم يغره المال، ولم يؤثر فيه بريق الدنيا الزائل.. ومما أذكره أني قلت له: «يا عبد المسيح لماذا تصلي صلاة المسلمين بعد تنصرك؟!»، فقال: «بعث لكم جسدي بأموالكم، أما قلبي وروحي وعقلي فملك الله الواحد القهار لا أبيعهم بكنوز الدنيا وأنا أشهد أمامك بأن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله»

بعد هذه الأحداث التي أنارت لي طريق الإيمان، وهدتني لأعتنق الإسلام وجدت صعوبات كثيرة في إشهار إسلامي نظراً لأنني قس كبير ورئيس لجنة التنصير في إفريقيا، وقد حاولوا منع ذلك بكل الطرق لأنه بالنسبة لهم

فضيحة كبيرة.

ذهبت لأكثر من مديرية أمن لأشهر إسلامي، وخوفاً على الوحدة الوطنية أحضرت لي مديرية الشرقية فريقاً من القساوسة والمطارنة للجلوس معي، وهو المتبع بمصر لكل من يريد اعتناق الإسلام. هدّدتني اللجنة المكلفة من ٤ قساوسة و٣ مطارنة بأنها ستأخذ كل أموالي وممتلكاتي المنقولة والمحمولة الموجودة في البنك الأهلي المصري — فرع سوهاج وأسيوط والتي كانت تقدر بحوالي ٤ مليون جنيه مصري، وثلاثة محلات ذهب، وورشة لتصنيع الذهب بحارة اليهود وعمارة مكوّنة من أحد عشر طابق بالقاهرة — فتنازلت لهم عنها كلّها، فلا شئ يعدل لحظة الندم التي شعرت بها، وأنا على كرسي الاعتراف. بعدها كادت لي الكنيسة العداء، وأهدرت دمي فتعرضت لثلاث محاولات اغتيال من أخي وأولاد عمّي، فقاما بإطلاق التار عليّ في القاهرة، وأصابوني في كليتي اليسرى والتي تم استئصالها في مستشفى القصر العيني والحادث قيّد بالمحضر رقم ١٩٨٦/١٧٦٢ بقسم قصر التيل مديرية أمن القاهرة بتاريخ ١١/١١/١٩٨٦م. ليس هذا فقط.. بل إن أبوي لما علما بإسلامي أقدموا على الانتحار، فأحرقا نفسيهما، والله المستعان.

### إبراهيم خليل فلوبوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إبراهيم خليل فلوبوس)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا أشهر من نار على علم.. كان أستاذا بكلية اللاهوت الإنجيلية.. وقد نشأ في الكنيسة.. وترقى في مدارس اللاهوت.. وتبوأ مكانة مرموقة في سلم التنصير.. قلت: فحدثني عن لقاءك به، وحديثك معه.

قال: لقد تشرفت بالالتقاء به، والحديث معه عن سر إسلامه، وكان مما ذكره لي قوله: ولدت في الإسكندرية عام ١٩١٩.. ونشأت فيها نشأة نصرانية ملتزمة وتهدبت في مدارس الإرسالية الأمريكية، وتصادف وصولي مرحلة (الثقافة) المدرسية مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتعرض مدينة الإسكندرية لأهوال قصف الطائرات.. فاضطررنا للهجرة إلى أسيوط حيث استأنفت في كليتها، وقد دفعتني أخبار الحرب والنكبات لأن أنظر إلى العالم نظرة أعمق قادتي للاتجاه إلى دعوة السلام وإلى الكنيسة.. التي كانت ترصد رغباتي وتوجج توجهاتي.. فالتحقت بكلية اللاهوت سنة ١٩٤٥م وأمضيت فيها ثلاث سنين.

قلت: الأصل في مثل هذه الكلية أن تعمق فيك التوجه للمسيحية..

قال: أجل.. ذلك صحيح.. لقد درسنا مقدمات العهد القديم والجديد، والتفاسير والشروحات وتاريخ

---

(١) إبراهيم خليل أحمد قس مبشر من مواليد الإسكندرية عام ١٩١٩، يحمل شهادات عالية في علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الأمريكية. عمل أستاذا بكلية اللاهوت بأسيوط. كما أرسل عام ١٩٥٤ إلى أسوان سكرتيراً عاماً للإرسالية الألمانية السويسرية. وكانت مهمته الحقيقية التنصير والعمل ضد الإسلام. لكن تعمقه في دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان بهذا الدين وأشهر إسلامه رسمياً عام ١٩٥٩. كتب العديد من المؤلفات، أبرزها ولا ريب (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن)، (المستشرقون والمبشرون في العالم العربي والإسلامي)، (تاريخ بني إسرائيل)، (والمسيح إنسان لا إله) و(الإسلام في الكتب السماوية) و(اعرف عدوك إسرائيل) و(الاستشراق والتشهير وصلتهما بالإمبريالية العالمية) و(الغفران بين المسيحية والإسلام)

الكنيسة.. ولكننا لم نكتف بذلك، فنظام الكلية يدرس تاريخ الحركة التنصيرية وعلاقتها بالمسلمين، ولهذا درسنا القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وتركزت دراستنا على بعض الفرق التي انحرفت عن الإسلام أمثال الإسماعيلية، والعلوية، والقاديانية، والبهائية...

قلت: أكانت هذه الدراسة مجرد الاطلاع العلمي؟

قال: لا.. لا يمكن أن تهدف كلية مثل تلك الكلية لهذا الهدف النبيل.. لقد كانوا يهيئوننا للحوار المستقبلي مع المسلمين، لنستخدم معرفتنا لنحارب القرآن بالقرآن، والإسلام بالنقاط السوداء في تاريخ المسلمين.

لقد كنا نحاور الأزهريين وأبناء الإسلام بالقرآن لنفتنهم، فنستخدم الآيات مبتورة عن سياقها، لنخدم أهدافنا.. لقد كان لدينا في هذا كتب نهل منها..

قلت: منها..؟!

قال: هي كثيرة.. لعل أهمها كتاب ( الهداية ) وهو في ٤ أجزاء، (و مصدر الإسلام ).. إضافة إلى استعانتنا واستفادنا من كتابات عملاء الاستشراق أمثال طه حسين الذي استفادت الكنيسة من كتابه (الشعر الجاهلي) مائة في المائة، وكان طلاب كلية اللاهوت يعتبرونه من الكتب الأساسية لتدريس مادة الإسلام. وعلى هذا المنهج كانت رسالتي في الماجستير تحت عنوان (كيف ندمر الإسلام بالمسلمين) سنة ٥٢ والتي أمضيت ٤ سنوات في إعدادها من خلال الممارسة العملية للوعظ والتنصير بين المسلمين من بعد تخرجي عام ٤٨.

قلت: أنا أعجب لك.. كيف يمكن لرجل يكتب مثل هذه الرسالة، ويتوجه هذا التوجه ينقلب ذلك الانقلاب الذي انقلبت به.

قال: لا تعجب.. فالهداية من الله وبالله.. لقد من الله علي، فتعرضت لشمس النبوة التي نسخت تلك الأحقاد التي ملأتنا بها الكنيسة.

قلت: فحدثني كيف أشرفت عليك أنوار الهداية.

قال: في مؤتمر تبشيري دعيت للكلام، فأطلت الكلام في ترديد كل المطاعن المحفوظة ضد الإسلام، وبعد أن انتهيت من حديثي بدأت أسأل نفسي: لماذا أقول هذا وأنا أعلم أنني كاذب؟! واستأذنت قبل انتهاء المؤتمر، خرجت وحدي متجهاً إلى بيتي، كنت مهزوزاً من أعماقي، متأزماً للغاية، وفي البيت قضيت الليل كله وحدي في المكتبة أقرأ القرآن، ووقفت طويلاً عند الآية الكريمة: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١)

في تلك الليلة اتخذت قرار حياتي فأسلمت، ثم انضم إلي جميع أولادي، وكان أكثرهم حماساً ابني الأكبر (أسامة) وهو دكتور في الفلسفة، ويعمل أستاذاً لعلم النفس في جامعة السوربون.. وإسلامهم زادت بيوت الإسلام بيتاً.

قلت: تلك النهاية التي انتهيت إليها، وأنا أسألك عن البداية.

قال: في شهر يونيو تقريباً عام ١٩٥٥م استمعت إلى قول الله سبحانه: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)﴾ (سورة الجن).. هذه الآية الكريمة من الغريب أما رسخت في القلب، ولما رجعت إلى البيت سارعت إلى المصحف وأمسكته وأنا في دهشة من هذه السورة..

قلت: لقد كنت تقرأ القرآن من قبل، بل تستخدمه لحرب القرآن والإسلام، فكيف أثرت فيك هذه الآيات خصوصاً.

قال: لست أدري.. ربما كنت حينها في لحظة من لحظات الصدق.. أو ربما أشرقت علي حينها شمس الهداية..

في ذلك الحين تحولت إلى إنسان آخر.. لقد عدت لأقرأ القرآن بغير النية التي كنت أقرؤه بها.. فاستوقفي قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).. وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الصف: ٦).

هذه النصوص جعلتني أرجع للكتاب المقدس لأتأكد مما يذكره القرآن..

قلت: فماذا وجدت؟

قال: لقد ظللت لعدة سنوات أدرس هذه التنبؤات إلى أن وجدتها حقيقة لم بمسها التبديل والتغيير، لأن بني إسرائيل ظنوا أن النبوة لن تخرج عن دائرتهم..

على سبيل المثال جاء في ( سفر التثنية ) وهو الكتاب الخامس من كتب التوراة (أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمهم فيكلمهم بكل ما أوصيه به)¹ توقفت أولاً عند كلمة ( إخوتهم ) وتساءلت: هل المقصود هنا من بني إسرائيل؟ لو كان كذلك لقال ( من أنفسهم ) أما وقد قال (من وسط إخوتهم) فالمراد بها أبناء العمومة، ففي سفر التثنية (إصحاح ٢ عدد ٤) يقول الله لسيدنا موسى عليه السلام: (أنتم مارون بنحيم إخوتكم بني عيسو ...) و( عيسو ) هذا الذي نقول عنه في الإسلام ( العيس ) هو شقيق يعقوب عليه السلام، فأبناؤه أبناء عمومة لبني إسرائيل، ومع ذلك قال ( إخوتكم ) وكذلك أبناء ( إسحق ) وأبناء ( إسماعيل ) هم أبناء عمومة، لأن (إسحق) شقيق ( إسماعيل ) عليهما السلام ومن ( إسحق ) سلالة بني إسرائيل، ومن ( إسماعيل ) كان ( قيدار ) ومن سلالته كان سيدنا محمد ﷺ، وهذا الفرع الذي أراد بنو إسرائيل إسقاطه وهو الذي أكدته التوراة حين قالت ( من وسط إخوتهم ) أي من أبناء عمومتهم.

وتوقفت بعد ذلك عند لفظة ( مثلك ) ووضعت الأنبياء الثلاثة: موسى، وعيسى، ومحمد — عليهم الصلاة والسلام — للمقابلة فوجدت أن عيسى عليه السلام مختلف تمام الاختلاف عن موسى وعن محمد —

(١) انظر تفاصيل الاستدلال بهذه النبوة في رسالة (أنبياء يبشرون بمحمد) من هذه السلسلة.

عليهما الصلاة والسلام — وفقاً للعقيدة النصرانية ذاتها والتي نرفضها بالطبع، فهو الإله المتجسد، وهو ابن الله حقيقة، وهو الأبنوم الثاني في الثالوث، وهو الذي مات على الصليب.. أما موسى عليه السلام فكان عبدالله، وموسى كان رجلاً، وكان نبياً، ومات ميتة طبيعية ودفن في قبر كباقي الناس وكذلك سيدنا رسول الله محمد ﷺ، وإذا فالتماثل إنما ينطبق على محمد ﷺ، بينما تتأكد المغايرة بين المسيح وموسى — عليهما السلام — ووفقاً للعقيدة النصرانية ذاتها! فإذا مضينا إلى بقية العبارة: (وأجعل كلامي في فمه..). ثم بحثنا في حياة محمد ﷺ فوجدناه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ثم لم يلبث أن نطق بالقرآن الكريم المعجزة فجأة يوم أن بلغ الأربعين.. وإذا عدنا إلى نبوءة أخرى في التوراة سفر أشعيا إصحاح ٧٩ تقول: (أو يرفع الكتاب لمن لا يعرف القراءة ولا الكتابة ويقول له اقرأ، يقول ما أنا بقاريء..). لوجدنا تطابقاً كاملاً بين هاتين النبوءتين وبين حادثة نزول جبريل بالوحي على رسول الله ﷺ في غار حراء، ونزول الآيات الخمس الأولى من سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ (العلق)

قلت: هذا عن التوراة، فماذا عن الإنجيل؟

قال: إذا استثنينا نبوءات برنابا الواضحة والصريحة ببعثة محمد ﷺ بالاسم، وذلك لعدم اعتراف الكنيسة بهذا الإنجيل أصلاً، فإن المسيح عليه السلام تنبأ في إنجيل يوحنا تسع نبوءات، و(البرقليط) الذي بشر به يوحنا مرات عديدة... هذه الكلمة لها خمسة معاني: المعزي، والشفيع، والحامي، والحمد، والمحمود، وكل هذه المعاني ينطبق على سيدنا رسول الله ﷺ تمام الانطباق فهو المعزي المواسي للجماعة التي على الإيمان وعلى الحق من بعد الضياع والهبوط، وهو الحامي والمدافع عن عيسى ابن مريم عليه السلام وعن كل الأنبياء والرسل بعدما شوه اليهود والنصارى صورتهم وحرفوا ما أتوا به وهو الإسلام.. ولهذا جاء في إنجيل يوحنا [١٤/ ١٦ و ١٧] (أنا أصلي إلى الله ليعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد روح الحق).. وقال في نبوءة أخرى [١٦/ ١٣ — ١٤] (وأما متى جاء ذلك الروح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به. ويخبركم بأمر آتية، ذلك يجعديني)

لقد وجدت أن هذه النبوءة تنطبق تماماً على قوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠)

قلت: فقد كانت البشارات التي وردت في الكتاب المقدس هي دليلك إلى الإسلام.

قال: لقد كانت بعض أدلتي.. وإن شئت قل: لقد كانت هي منبهي الأول الذي جعلني أبحث عن الحقيقة.. فقد انطلقت منها إلى مقارنات جادة بين الإسلام والمسيحية.. وقد كات تلك المقارنات هي الأساس الذي بني عليه إسلامي.

قلت: فحدثني عن بعض مقارناتك.

استجمع ذهنه قليلاً، ثم قال: لقد قرأت بتأمل قوله ﷺ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).. ثم قارنت بينها وبين ما

ورد في الإنجيل عن الغفران: (بدون سفك دم لا تحصل مغفرة) وبالقول: (هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الحبيب لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية).

قارنت بين العقيدتين.. فعرفت أن المغفرة في عقيدتنا مقيدة بقيود: من جانب الله ببذل ابنه الحبيب، ومن جانب المرء بضرورة الإيمان بهذا الابن.

ومن هذه العقيدة نشأت فريضة كنيسية تعرف بسرّ الشكر، وفيها يؤمن المسيحي باستحالة الخبز إلى جسد المسيح واستحالة الخمر إلى دم المسيح حقيقة، وبتناولهما تصير فيه حياة أبدية، ومن هذه العقيدة نشأت صكوك الغفران.. إنها بدعة وخروج عن الحق الإلهي الذي ندّد به زعماء الإصلاح في القرن الخامس عشر.. فحمدت الله على رحمته الواسعة ومغفرته اليقينية بدون قيد ولا شرط مادي، بل بتوبة صادقة وعزم على الحياة الطاهرة<sup>١</sup>.

قلت: هل هناك مقارنة غيرها جعلتك تؤثر الإسلام؟

قال: كثيرة هي مقارناتي.. منها أني قرأت قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)، ثم قارنته بما جاء بالإنجيل: (إذن لسنا أولاد جارية، بل أولاد حرة)

لقد زال عني بتلك المقارنة العجب عن التفرقة العنصرية عند الأمريكيين في أيامنا هذه بين البيض والسود، وزاد إعجابي وإجلالي للمسلمين.. فسيد القوم عندهم يقف بجانب المواطن العامل والمزارع والتاجر والموظف كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، راعين ساجدين، يخشون ربهم ويرجونه الرضا والعفو، فأيقنت أن مجد الإسلام والمسلمين في هذا التساند الجميل والتآخي الحبيب<sup>٢</sup>.

بالإضافة إلى هذا، فقد استوقفتني كثيراً نظام التوحيد في الإسلام، وهو من أبرز معالم الإسلام.. إن التوحيد يجعلني عبداً لله وحده لست عبداً لأي إنسان، التوحيد في الإسلام يجرّد الإنسان ويجعله غير خاضع لأي إنسان، وتلك هي الحرية الحقيقية، فلا عبودية إلا لله وحده.

بالإضافة إلى هذا، فإن الإسلام دين المنطق والعقل، لم يجعل وساطة بين الله والإنسان، ولم يترك مقادير الناس تحت رحمة نفر منهم يلوحون لهم بسلطان الكنيسة.

قلت: ألا تزال تذكر اللحظة التي أعلنت فيها عن إسلامك؟

قال: لن أنسى ذلك ما حييت..

قلت: فحدثني عنها..

قال: بعد أن وصلت إلى اليقين وتلمست الحقائق بيدي كان عليّ أن أتحدث مع أقرب الناس إلي.. وكان أفرهم إلي زوجتي.. لكن الحديث تسرب عن طريقها إلى الإرسالية للأسف، وسرعان ما تلقفوني ونقلوني إلى المستشفى وتحت مراقبة صارمة مدعين أنني محتل العقل.. ولأربعة شهور تلت عشت معاناة شديدة جداً، ففرقوا

(١) انظر: محمد في التوراة، ص ١٠ - ١١، بتصرف.

(٢) محمد في التوراة، ص ١١.



بيبي وبين زوجتي وأولادي، وصادروا مكتبي وكانت تضم أمهات الكتب والموسوعات ... حتى اسمي كعضو في مجمع أسيوط، وفي مؤتمر (سنودس) شُطب، وضاع ملفي كحامل ماجستير من كلية اللاهوت ... ومن المفارقات العجيبة أن الإنجليز في هذه الآونة كانوا قد خلعوا الملك طلال من عرش الأردن بتهمة الجنون ... فخشيت أن يحدث معي الأمر ذاته.. لذلك التزمت الهدوء والمصابرة وصمدت حتى أطلق سراحي، فقدمت استقالي من الخدمة الدينية، واتجهت للعمل في شركة أمريكية للأدوات المكتبية، لكن الرقابة هناك كانت عنيفة جداً، فالكنيسة لا تترك أحداً من أبنائها يخرج عليها ويسلم، إما أن يقتلوه أو يدسوا عليه الدسائس ليحطموا حياته.. وفي المقابل لم يكن المجتمع المسلم حينذاك يقدر على مساعدتي ... ففي حقبة الخمسينات والستينات كان الانتماء للإسلام والدفاع عنه لا يعني إلا الضياع!

لذلك كان عليّ أن أكافح قدر استطاعتي، فبدأت العمل التجاري، وأنشأت مكتباً تجارياً هرعت بمجرد اكتماله للإبراق إلى (د. جون تومسون) رئيس الإرسالية الأمريكية حينذاك، وكان التاريخ هو الخامس والعشرين من ديسمبر ١٩٥٩ والذي يوافق الكريسماس، وكان نص البرقية: ( آمنت بالله الواحد الأحد، ومحمد نبياً ورسولاً ) لكن إشهار اعتناقي الرسمي للإسلام كان يفترض عليّ وفق الإجراءات القانونية أن ألتقي بلجنة من الجنسية التي أنا منها لمراجعتي ومناقشتي.

وفي الوقت الذي رفضت جميع الشركات الأوروبية والأمريكية التعامل معي تشكلت اللجنة المعنية من سبعة فساوسة بدرجة الدكتوراه.. خاطبوني بالتهديد والوعيد أكثر من مناقشتي! وبالفعل تعرضت للطرد من شقتي لأنني تأخرت شهرين أو ثلاثة عن دفع الإيجار، واستمرت الكنيسة تدس علي الدسائس أينما اتجهت.. وانقطعت أسباب تجارتي.. لكنني مضيت على الحق الذي اعتنقته ... إلى أن قدر الله أن تبلغ أخباري وزير الأوقاف حينذاك عبدالله طعيمة، والذي استدعاني لمقابلته وطلب مني بحضور الأستاذ الغزالي المساهمة في العمل الإسلامي بوظيفة سكرتير لجنة الخبراء في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

ولما بلغت الستين، بدأت عملي كداعية إسلامي متفرغ، وكان أول ما نصرني الله به أن ألتقيت مع الدكتور جميل غازي — رحمه الله — بـ ١٣ قسيساً بالسودان في مناظرة مفتوحة انتهت باعترافهم بالإسلام جميعاً، وهؤلاء كانوا سبب خير وهداية لغرب السودان حيث دخل الألوفا من الوثنيين وغيرهم دين الله على أيديهم.

### يوسف استس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (يوسف استس)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لقد التقيت به في رحلاتي التي وصفتها لك، وقد دار بيني وبينه هذا الحوار:  
قلت له: من أنت؟

(١) انظر: عنوان موقعه: [www.todayislam.com](http://www.todayislam.com) لقاء صوتي معه: الجزء الأول:  
<http://www.alhakekah.com/converts/yousef1.mpr> الجزء الثاني:  
<http://www.alhakekah.com/converts/yousef2.mpr>

قال: كنت جوزيف إدوارد إستس، وأنا اليوم يوسف استس..

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: عظيم.. عظيم جدا.. إنه كالفرق بين القرآن والكتاب المقدس.. وكالفرق بين المسجد والكنيسة..

وكالفرق بين الحق والباطل.

قلت: أنا لم أنطق إلا باسمك الذي سماك به أبوك وأمك.

قال: ذلك في ولادتي الأولى.

قلت: فهل ولدت ولادة ثانية؟

قال: لا يدخل الملكوت من لم يولد ولادة ثانية تخرجه من ربة التقليد لتدخل في حضرة الله..

قلت: كيف ولدت الولادة الثانية.. وما مخاضها؟

قال: تلك قصة طويلة سأختصرها لك اختصارا.

أصحت بسمعي، فراح يحدثني بجملة مشوية بيمان عظيم قائلا: أنا من الغرب الأوسط لأمريكا.. ولدت لعائلة نصرانية شديدة الالتزام بالنصرانية.. فأبأنا وأجدادنا لم يبنوا الكنائس والمدارس فحسب، بل وهبوا أنفسهم لخدمة النصرانية.

بدأت بالدراسة الكنسية عندما اكتشفت أنني لا أعلم كثيراً عن ديني، وبدأت أسأل أسئلة دون أن أجد أجوبة مناسبة لها، فدرست النصرانية حتى صرت قسيساً وداعياً من دعاة النصرانية، ومثل ذلك والدي.. وقد كنا بالإضافة إلى ذلك نعمل بالتجارة في الأنظمة الموسيقية، وبيعها للكنائس، وعلى مدى ٣٠ سنة لاحقة، عملت أنا وأبي معاً في مشاريع تجارية كثيرة، وكان لدينا برامج ترفيه وعروض كثيرة جذابة، وقد عزفنا البيانو والأورج في تكساس وواشنطن وفلوريدا، وجمعت العديد من ملايين الدولارات في تلك السنوات.

قلت: فهل اقتصرتم دراستكم على النصرانية؟

قال: لا.. لقد درست الهندوسية واليهودية والبوذية..

قلت: والإسلام؟!

قال: لقد كنت أبغض الإسلام والمسلمين بغضا شديدا.. فالصورة المشوهة التي وصلتني، وارتسمت في ذهني عن المسلمين من أنهم أناس وثنيون لا يؤمنون بالله وأهم يعبدون صندوقاً أسوداً في الصحراء وأهم همجيون وإرهابيون يقتلون من يخالف معتقدتهم.. كل ذلك مألوفي بغضا للإسلام والمسلمين.

قلت: فكيف تمكن الإسلام من قلبك وقد صدت دون هدايته قلبك بحجب البغض؟

قال: مفاتيح القلوب بيد الله.. وقد شاء الله أن يفتح قلبي للإسلام، ويخلصني من تلك الأحقاد التي كانت

تملاً قلبي.

قلت: كيف كان ذلك؟

قال: كان ذلك في عام ١٩٩١، عندما بدأ والدي عملاً تجارياً مع رجل من مصر وطلب مني أن أقابله، طرأت لي هذه الفكرة ونحيت الأهرامات وأبو الهول ونهر النيل وكل ذلك، وفرحت في نفسي وقلت: سوف

نتوسع في تجارتنا، وتصبح تجارة دولية تمتد إلى أرض أبي الهول.. ذلك الضخم الجاثي على أرض مصر، ليملاً  
القلوب منها بالمهابة.

لكن والدي — وهو يعلم بغضبي للإسلام — صارحني بأنه من الضروري أن نلتقي مع رجل أعمال  
مصري مسلم.. فقلت مترعجاً: مسلم !! لا.. لن أقابله.

فقال والدي: لا بد أن تقابله.

قلت: لا.. أبداً.

لم يكن من الممكن أن أصدق أو أقبل أن أحاور مسلماً.. ولهذا ذكرت أبي بما سمعنا عن هؤلاء المسلمين،  
وأهم يعبدون صندوقاً أسود في صحراء مكة.

لكن والدي أصر على أن أقابله، وأخبرني أنه شخص لطيف جداً، لذا استسلمت ووافقت على لقائه،  
ومع ذلك لما حضر موعد اللقاء أردت أن أعيظه، فلبست قبعة عليها صليب، ولبست عقداً فيه صليب، وعلقت  
صليباً كبيراً في حزامي، وأمسكت بنسخة من الإنجيل في يدي، وحضرت إلى طاولة اللقاء بهذه الصورة.

لكني عندما رأيته ارتبكت.. فلم تكن هيئته هيئة ذلك المسلم الذي كان يخطر على بالي.. لقد بدأ مرحباً  
بنا وصافحنا، ولكن ذلك لم يعن لي شيئاً، فما زالت صورة المسلم الإرهابي تطغى على موقفي.

تطرقنا في الحديث عن ديانتنا، وتمجمت على الإسلام والمسلمين حسب الصورة المشوهة التي كانت لدي،  
وكان هو هادئاً جداً وامتص حماسي واندفاعي بيروده.. وقد كان ذلك السلوك هو البداية لإسلامي.

بادرت إلى سؤاله: هل تؤمن بالله؟

قال: أجل..

قلت: ماذا عن إبراهيم.. هل تؤمن به؟.. وهل تؤمن بمحاولته التضحية بابنه لله؟

قال: نعم..

قلت في نفسي: هذا جيد سيكون الأمر أسهل مما اعتقدت..

ثم ذهبنا لتناول الشاي في محل صغير، والتحدث عن المعتقدات.. فهي موضوعي المفضل.. وبقينا نتحدث  
لساعات.. وقد كان معظم الكلام لي، وقد وجدته لطيفاً جداً، وهادئاً وحجولاً، استمع بانتباه لكل كلمة، ولم  
يقاطعني أبداً.

وفي يوم من الأيام كان هذا الرجل، واسمه محمد عبد الرحمن على وشك أن يترك المنزل الذي كان يتقاسمه  
مع صديق له، وكان يرغب أن يعيش في المسجد لبعض الوقت.

حدثت أبي إن كان بالإمكان أن ندعو محمداً للذهاب إلى بيتنا الكبير في البلدة ويبقى هناك معنا.. ثم دعاه  
والدي للإقامة عندنا في المنزل، وكان بالمنزل أنا وزوجتي ووالدي، ثم جاء هذا المسلم المصري، واستضفنا  
كذلك قسيساً آخر لكنه يتبع المذهب الكاثوليكي، فصرنا خمسة.. أربعة من علماء ودعاة النصراني، ومسلم  
مصري عامي.

أما أنا ووالدي، فكنا من المذهب البروتستاني.. والقسيس الآخر كان كاثوليكيًا.. أما زوجتي، فكانت

من مذهب البورنجين، وهو مذهب متعصب له ميول صهيونية.

وكان لكل منا ثقافته الكنسية القوية.. فوالدي قرأ الإنجيل منذ صغره، وصار داعية وقسيساً معترفاً به في الكنيسة، والقسيس الكاثوليكي له خبرة ١٢ عاماً في دعوته في القارتين الأمريكيتين، وأنا نفسي درست الإنجيل والمذاهب النصرانية واخترت بعضاً منها أثناء حياتي وانتهيت من حصولي على شهادة الدكتوراة في العلوم اللاهوتية.

وهكذا انتقل للعيش معنا، وكان لدي الكثير من المنصرين في ولاية تكساس، وكنت أعرف أحدهم، كان مريضاً في المستشفى، وبعد أن تعافى دعوته للمكوث في منزلنا أيضاً، وأثناء الرحلة إلى البيت تحدثت مع هذا القسيس عن بعض المفاهيم والمعتقدات في الإسلام، وأدهشني عندما أخبرني أن القساوسة الكاثوليك يدرسون الإسلام، وينالون درجة الدكتوراه أحياناً في هذا الموضوع.

بعد الاستقرار في المنزل بدأنا نتجمع حول المائدة بعد العشاء كل ليلة لمناقشة الديانة، وكان بيد كل منا نسخة إنجيل تختلف عن الأخرى، وكان لدى زوجتي إنجيل من نسخة جيمي سواجارت للرجل المتدين الحديث، وكان لدى القسيس بالطبع الكتاب المقدس الكاثوليكي، كما كان عنده ٧ كتب أخرى من الإنجيل البروتستانتي. وقد كان مع والدي في تلك الفترة نسخة الملك جيمس وكانت معي نسخة الريفازد إيديشن ( المراجع والمكتوب من جديد ) التي تقول: إن في نسخة الملك جيمس الكثير من الأغلط.. حيث أن قومنا لما رأوا كثرة الأخطاء في نسخة الملك جيمس اضطروا إلى كتابته من جديد وتصحيح ما رأوه من أغلط كبيرة، لذا قضينا معظم الوقت في تحديد النسخة الأكثر صحة من هذه الأنجيل المختلفة، وركزنا جهودنا لاقتناع محمد ليصبح نصرانياً.

وكنّا — نحن النصرارى في البيت — يحمل كل منا نسخة مختلفة من الإنجيل ونتناقش عن الاختلافات في العقيدة النصرانية وفي الأنجيل المختلفة على مائدة مستديرة، والمسلم يجلس معنا ويتعجب من اختلاف أناجيلنا.

من جانب آخر كان القسيس الكاثوليكي لديه ردة فعل من كنيسته واعتراضات وتناقضات مع عقيدته ومذهبه الكاثوليكي، فمع أنه كان يدعو لهذا الدين والمذهب مدة ١٢ سنة، لكنه لم يكن يعتقد جازماً أنه عقيدة صحيحة ويخالف في أمور العقيدة المهمة.

ووالدي كان يعتقد أن هذا الإنجيل كتبه الناس وليس وحياً من عند الله، ولكنهم كتبوه وظنوه وحياً.

وزوجتي تعتقد أن في إنجيلها أخطاء كثيرة، لكنها كانت ترى أن الأصل فيه أنه من عند الرب.

أما أنا فكانت هناك أمور في الإنجيل لم أصدقها لأني كنت أرى التناقضات الكثيرة فيه، فمن تلك الأمور أي كنت أسأل نفسي وغيري: كيف يكون الرب واحداً وثلاثة في نفس الوقت، وقد سألت القسس المشهورين عالمياً عن ذلك وأجابوني بأجوبة سخيفة جداً لا يمكن للعاقل أن يصدقها، وقلت لهم: كيف يمكنني أن أكون داعية للنصرانية وأعلم الناس أن الرب شخص واحد وثلاثة أشخاص في نفس الوقت، وأنا غير مقتنع بذلك فكيف أقنع غيري به.

بعضهم قال لي: لا تبين هذا الأمر ولا توضحه، قل للناس: هذا أمر غامض ويجب الإيمان به.. وبعضهم قال لي: يمكنك أن توضحه بأنه مثل التفاحة تحتوي على قشرة من الخارج ولب من الداخل وكذلك النوى في داخلها، فقلت لهم: لا يمكن أن يضرب هذا مثلاً للرب، التفاحة فيها أكثر من حبة نوى فستتعدد الآلهة بذلك ويمكن أن يكون فيها دود فتتعدد الآلهة، وقد تكون ننتة وأنا لا أريد رباً ننتاً.

وبعضهم قال: مثل البيضة فيها قشر وصفار وبياض، فقلت: لا يصح أن يكون هذا مثلاً للرب، فالبيضة قد يكون فيها أكثر من صفار فتتعدد الآلهة، وقد تكون ننتة، وأنا لا أريد أن أعبد رباً ننتاً.

وبعضهم قال: مثل رجل وامرأة وابن لهما، فقلت له: قد تحمل المرأة وتتعدد الآلهة، وقد يحصل طلاق فتتفرق الآلهة وقد يموت أحدها، وأنا لا أريد رباً هكذا.

وأنا منذ أن كنت نصرانياً وقسيساً وداعية للنصرانية لم أستطع أن اقتنع بمسألة التثليث ولم أجد من يمكنه إقناع الإنسان العاقل بها.

أتذكر أنني في ذلك الحين سألت محمداً: كم نسخة من القرآن ظهرت طوال السنوات ١٤٠٠ سنة الماضية؟

فأجابني أنه ليس هناك الا مصحف واحد، وأنه لم يتغير أبداً، وأكد لي أن القرآن قد حفظ في صدور مئات الآلاف من الناس، ولو بحثت على مدى قرون لوجدت أن الملايين قد حفظوه تماماً وعلموه لمن بعدهم. وهذا لم يبد ممكناً بالنسبة لي.. كيف يمكن أن يحفظ هذا الكتاب المقدس ويسهل على الجميع قراءته ومعرفة معانيه.

كان بيننا حوار متجرد واتفقنا على أن ما نقتنع به سنيين به ونعتنقه فيما بعد، وهكذا بدأنا الحوار معه، ولعل ما أثار إعجابي أثناء الحوار أن محمداً لم يتعرض للتجريح أو التهجم على معتقداتنا أو انجيلنا وأشخاصنا، وظل الجميع مرتاحين لحديثه.

وعلى العموم.. لما كنا نجلس في بيتنا — نحن النصرارى الأربعة المتدينين — مع المسلم المصري (محمد) وناقش مسائل الاعتقاد حرصنا أن ندعو هذا المسلم إلى النصرانية بعدة طرق.. فكان جوابه محمداً بقوله: أنا مستعد أن أتبع دينكم إذا كان عندكم في دينكم شيء أفضل من الذي عندي في ديني.

قلنا: بالطبع يوجد عندنا.

فقال المسلم: أنا مستعد إذا أثبتتم لي ذلك بالبرهان والدليل.

فقلت له: الدين عندنا لم يرتبط بالبرهان والاستدلال والعقلانية.. إنه عندنا شيء مسلم وهو مجرد اعتقاد

محض! فكيف نشبه لك بالبرهان والدليل!؟

فقال المسلم: لكن الإسلام دين عقيدة وبرهان ودليل وعقل ووحى من السماء.

فقلت له: إذا كان عندكم الاعتماد على جانب البرهان والاستدلال، فإني أحب أن أستفيد منك وأن

أتعلم منك هذا وأعرفه.

بعدها تطرقنا لمسألة التثليث، وكل منا قرأ ما في نسخته ولم نجد شيئاً واضحاً، سألنا محمد: ما هو اعتقادكم في الرب في الإسلام؟

فقرأ سورة الإخلاص، تلاها بالعربية ثم ترجم لنا معانيها.. وكأن صوته حين تلاها بالعربية دخل في قلبي.. بل إن صوته لا زال يرن صداه في أذني، ولا زال أذكره.. أما معناها فلا يوجد أوضح ولا أفضل ولا أقوى ولا أوجز ولا أشمل منه إطلاقاً. لقد كان هذا الأمر مثل المفاجأة القوية لنا.. مع ما كنا نعيش فيه من ضلالات وتناقضات في هذا الشأن وغيره.

ولما أردت دعوته للنصرانية قال لي بكل هدوء ورجاحة عقل: إذا أثبت لي بأن النصرانية أحق من الإسلام سأتبعتك على دينك الذي تدعو إليه. فقلت له: متفقين.

فقال: أين الأدلة التي تثبت أفضلية دينكم وأحقيته؟

قلت: نحن لا نؤمن بالأدلة، ولكن بالإحساس والمشاعر، ولنتمس ديننا وما تحدثت عنه الاناجيل. قال محمد: ليس كافياً أن يكون الإيمان بالإحساس والمشاعر والاعتماد على علمنا، ولكن الإسلام فيه الدلائل والأحاسيس والمعجزات، التي تثبت أن الدين عند الله الإسلام.

طلبت هذه الدلائل من محمد، والتي تثبت أحقية الدين الإسلامي، فقال: إن أول هذه الأدلة هو كتاب الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم الذي لم يطرأ عليه تغيير أو تحريف منذ نزوله على سيدنا محمد ﷺ قبل ما يقرب من ١٤٠٠ سنة، وهذا القرآن يحفظه كثير من الناس، إذ ما يقرب من ١٢ مليون مسلم يحفظون هذا الكتاب، ولا يوجد أي كتاب في العالم على وجه الأرض يحفظه الناس كما يحفظ المسلمون القرآن الكريم من أوله لآخره.. وهذا مصدق لقوله ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، وهذا الدليل كاف لإثبات أن الدين عند الله الإسلام.

من ذلك الحين بدأت البحث عن الأدلة الكافية، التي تثبت أن الإسلام هو الدين الصحيح، وذلك لمدة ثلاثة شهور بحثاً مستمراً.. بعد هذه الفترة وجدت في الكتاب المقدس أن العقيدة الصحيحة التي ينتمي إليها سيدنا عيسى عليه السلام هي التوحيد وأناي لم احد فيه أن الاله ثلاثة كما يدعون، ووجدت أن عيسى عبد الله ورسوله وليس إلهاً، مثله كمثل الأنبياء جميعاً جاء يدعو إلى توحيد الله عز وجل، وأن الأديان السماوية لم تختلف حول ذات الله سبحانه وتعالى، وكلها تدعو إلى العقيدة الثابتة بأنه لا اله الا الله بما فيها الدين المسيحي قبل أن يفترى عليه بهتاناً، ولقد علمت ان الإسلام جاء ليختم الرسالات السماوية ويكملها ويخرج الناس من حياة الشرك إلى التوحيد والإيمان بالله تعالى، وأن دخولي في الإسلام سوف يكون إكمالاً لإيماني بأن الدين المسيحي كان يدعو إلى الإيمان بالله وحده، وأن عيسى هو عبد الله ورسوله، ومن لا يؤمن بذلك فهو ليس من المسلمين.

(١) سنرى في رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة عدم وجود أي نص في الكتاب المقدس عن التثليث أو ألوهية المسيح.

ثم وجدت ان الله سبحانه وتعالى تحدى الكفار بالقرآن الكريم أن يأتوا بمثله أو يأتون بثلاث آيات مثل سورة الكوثر فعجزوا عن ذلك.

ومن المعجزات التي رأيتها والتي تثبت ان الدين عند الله الإسلام التنبؤات المستقبلية التي تنبأ بها القرآن الكريم مثل: ﴿الم (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣)﴾ (الروم)، وهذا ما تحقق بالفعل فيما بعد.. وأشياء أخرى ذكرت في القرآن الكريم مثل وصول الإنسان إلى الفضاء بالعلم، وهذا تفسير لمعنى الآية التي تقول: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: ٣٣)، وهذا السلطان هو العلم الذي خرق به الإنسان الفضاء، فهذه رؤية صادقة للقرآن الكريم.

ومن المعجزات التي تركت أثراً في نفسي (العلاقة)، التي ذكرها الله في القرآن الكريم، والذي وضحها العالم الكندي (كوسمر)، وقال: إن العلاقة هي التي تتعلق برحم الأم، وذلك بعدما تتحول الحيوانات المنوية في الرحم إلى لون دموي معلق. وهذا بالفعل ما ذكره القرآن الكريم من قبل أن يكتشفه علماء الأجنة في العصر الحديث، وهذا بيان للكفار والملحدين.

وبعد كل هذا البحث الذي استمر ثلاثة شهور، قضاها معنا محمد تحت سقف واحد، بسبب ذلك اكتسب ود الكثيرين، وعندما كنت أراه يسجد لله ويضع جبهته على الأرض، أعلم أن ذلك الأمر غير عادي.

قلت: أراك قد تأثرت كثيراً بشخص محمد.

قال: أجل.. لقد كان باب هدايتي بسلوكه الرفيع، وخلقته العظيم..

وفي يوم من الأيام طلب صديقي القسيس من محمد أن نذهب معه إلى المسجد، لنتعرف أكثر عن عبادة المسلمين وصلاتهم، فرأينا المصلين يأتون إلى المسجد يصلون ثم يغادرون دون أي خطب أو غناء.

مضت أيام وسأل القسيس محمداً، أن يرافقه إلى المسجد مرة ثانية، ولكنهم تأخروا هذه المرة حتى حل الظلام.. قلقنا بعض الشيء.. وأخيراً وصلوا، وعندما فتحت الباب.. عرفت محمداً على الفور لكني لم أعرف من معه، وكان شخصاً يلبس ثوباً أبيض وقلنسوة.

لقد كان ذلك الشخص هو صاحبي القسيس.. فقلت له: هل أصبحت مسلماً؟

قال: نعم أصبحت من اليوم مسلماً!

ذهلت.. كيف سبقتني هذا إلى الإسلام.. ثم ذهبت إلى أعلى للتفكير في الأمور قليلاً، وبدأت أتحدث مع زوجتي عن الموضوع، فقالت لي: أظن أبي لن أستمع بعلاقتي معك طويلاً.

فقلت لها: لماذا؟.. هل تظنين أنني سأسلم؟

قالت: لا.. بل لأبي أنا التي سوف تسلم!

فقلت لها: وأنا أيضاً في الحقيقة أريد أن أسلم.

قال: فخرجت من باب البيت، وخررت على الأرض ساجداً تجاه القبلة وقلت: يا رب.. اهديني.

ذهبت إلى أسفل، وأيقظت محمداً، وطلبت منه أن يأتي لمناقشة الأمر معي.. مشينا وتكلمنا طوال تلك

الليلة، وحن وقت صلاة الفجر.. وعندها أيقنت أن الحقيقة قد ملأت قلبي، وأصبحت الفرصة مهيئة أمامي.. أذن الفجر، ثم استلقيت على لوح خشبي ووضعت رأسي على الأرض، وسألت إلهي أن يرشدني.. وبعد فترة رفعت رأسي إلى أعلى فلم ألحظ شيئاً، ولم أر طيوراً أو ملائكة تنزل من السماء، ولم أسمع أصواتاً أو موسيقى، ولم أر أضواء.

أدرت أن الأمر أصبح مواتياً والتوقيت مناسباً، لكي أتوقف عن خداع نفسي، وأنه ينبغي أن أصبح مستقيماً مسلماً.. عرفت ما يجب علي فعله.

وفي الحادية عشرة صباحاً وقفت بين شاهدين: القسيس السابق، والذي كان يعرف سابقاً بـ (الآب بيتر جاكوب)، ومحمد عبدالرحمن، وأعلنت شهادتي، وبعد لحظات قليلة أعلنت زواجي إسلامها بعد ما سمعت بإسلامي.

وكان أبي أكثر تحفظاً على الموضوع، وانتظر شهوراً قبل أن ينطق بالشهادتين.

قلت: أرى أن محمداً ذلك الرجل المسلم قد أثر فيكم كثيراً.

قال: أجل.. فإسلامنا جميعاً كان بفضل الله، ثم بالقدوة الحسنة في ذلك المسلم الذي كان حسن الدعوة،

وكان قبل ذلك حسن التعامل.. لقد نفذ بحرفية ما يقال عندنا: لا تقل لي.. ولكن أربي.

لقد دخلنا — نحن الثلاثة المثقفين ثقافة دينية واسعة.. ومن ثلاث طوائف مختلفة — الإسلام دفعة واحدة،

وسلكنا طريقاً معاكساً جداً لما كنا نعتقد.. ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل في السنة نفسها دخل طالب معهد

لاهوتي معمد من (تينسي) يدعى (جو) في الإسلام بعد أن قرأ القرآن، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل

رأيت كثيراً من الأساقفة والقساوسة، وأرباب الديانات الأخرى يدخلون الإسلام ويتركون معتقداتهم السابقة.

قلت: فماذا تعمل الآن؟

قال: لقد تعلق قلبي بحب الإسلام وحب الوحدةانية والإيمان بالله تعالى، وأصبحت أغار على الإسلام أشد

من غيرتي قبله على النصرانية.

ولم أكتف بهذا التعلق، بل بدأت رحلة الدعوة إلى الإسلام وتقديم الصورة النقية، التي عرفتها عن الدين

الإسلامي، الذي هو دين السماحة والخلق، ودين العطف والرحمة.

### الدكتور وديع أحمد:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الدكتور وديع أحمد)، فسألت البابا عنه، فقال:

لقد كان شماساً، وقد التقيت به في مصر.. وقد حدثني عن رحلته إلى الإسلام، وكيفية تخلصه من الشبهات

الكثيرة التي وضعت في طريقه، فقال: لقد مررت برحلة طويلة قاربت ٤٠ عاماً إلى أن هداني الله للإسلام..

في البداية.. كنت من عائلة متدينة، وقد أصر أبي — وقد كان واعظاً في جمعية أصدقاء الكتاب المقدس،

وكانت مهنته التبشير في القرى المحيطة والمناطق الفقيرة لمحاولة جذب فقراء المسلمين إلى المسيحية — أن انضم

إلى الشمامسة منذ أن كان عمري ست سنوات، وأن أنتظم في دروس مدارس الأحد.

وفيها تلقيت أخطر الشبهات عن الإسلام والمسلمين، ومنها أن المسلمين اغتصبوا مصر من المسيحيين



وعذبوا المسيحين.. ومنها أن المسلمين يضطهدون النصارى لكي يتركوا مصر ويهاجروا.. ومنها أن المسلم أشد كفرا من البوذي وعابد البقر.. ومنها أن القرآن ليس كتاب الله ولكن محمد اخترعه.. وغير ذلك من الشبهات التي تزرع الحقد الأسود ضد المسلمين في القلوب.

لكن الله شاء أن يقيض لنا في هذه الفترة من يقف في وجه هذه الشبهات.. وقد كان أبي هو ذلك النور المبدد لظلمات الشبهات.. لقد كان في هذه الفترة المخرجة يتكلم معنا سرا عن انحراف الكنائس عن المسيحية الحقيقية التي تحرم الصور والتماثيل والسجود للبطرك والاعتراف للقساوسة.

قلت: كيف يكون ذلك، وقد ذكرت لي أنه هو الذي أصر على أن تكون من الشاماسة؟  
قال: لست أدري.. ولكني لا أزال محتارا في شأنه.. لقد كان يمارس في حياته أشياء كثيرة لا تدل إلا على أنه مسلم يكتنم لإسلامه.. وقد كان ذلك من أهم أسباب هدايتي.

فقد هجر الكنائس والوعظ والجمعيات التبشيرية تماما.. وكان يرفض تقبيل أيدي الكهنة ( وهذا أمر عظيم عند النصارى ).. وكان لا يؤمن بالجسد والدم ( الخبز والخمر ) أي لا يؤمن بتجسيد الإله.. وبدلاً من نزوله صباح يوم الجمعة للصلاة أصبح ينام ثم يغتسل ويتزل وقت الظهر.. وكان يتحلل الأعدار للزول وقت العصر والعودة متأخرا وقت العشاء.

ومما قوى هذا الموقف عندي أنه صار ينطق بألفاظ جديدة لم يكن يقولها مثل ( أعوذ بالله من الشيطان ) ( لا حول ولا قوة الا بالله )..

وقد وجدت بعد موته عام ١٩٨٨ بالإنجيل الخاص به قصاصات ورق صغيرة يوضح فيها أخطاء موجودة بالإنجيل وتصحيحها.. بل عثرت علي إنجيل جدي ( والد أبي ) طبعة ١٩٣٠ وفيها توضيح كامل عن التغيرات التي أحدثتها النصارى فيه منها تحويل كلمة (يا معلم) و(يا سيد) إلى (يا رب) ليوهمو القارئ أن عبادة المسيح كانت منذ ولادته.

قلت: إن كل ما ذكرته أدلة قوية تشير إلى إسلامه.. ولكن لم كان يكتنمه؟

قال: ألم تسمع بقول اللورد هدي؟

قلت: تقصد قوله: « إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً، مسلمون قلباً، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير، تأمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم »  
قال: أجل.. ولو أن هذه الحواجز النفسية رفعت لرأيت غير ما ترى، وسمعت غير ما تسمع.

قلت: فكيف أزلت أنت هذه الحواجز النفسية؟

قال: ذلك فضل الله.. وتلك هدايته التي ملأ بها قلبي، مع أبي تعرضت لحواجز كثيرة اجتمعت على أن تحول بين قلبي وبين الإيمان.. لكن الله بفضله وكرمه رفعها عني.

لقد صرت أستاذاً في مدارس الأحد ومعلماً للشمامسة، وكان عمري ١٨ سنة وكان علي أن أحضر دروس الوعظ بالكنيسة والزيارة الدورية للأديرة (خاصة في الصيف) حيث يتم استدعاء متخصصين في مهاجمة الإسلام والنقد اللاذع للقرآن ولمحمد ﷺ.

لقد كانوا في تلك الاجتماعات يذكرون لنا أن القرآن مليء بالمتناقضات، ثم يذكروا نصف آية مثل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ (النساء: من الآية ٤٣) ويقطعوها لتوهم أن القرآن ينهى عن الصلاة. بل كانوا — أكثر من ذلك — يذكرون أن القرآن مليء بالألفاظ الجنسية ويفسرون كلمة (نكاح) علي أنها الزنا أو اللواط.

وكانوا يذكرون لنا يقولون أن النبي محمد ﷺ قد أخذ تعاليم النصرانية من (بحيرا) الراهب، ثم حورها واخترع بها دين الإسلام، ثم قتل بحيرا حتي لا يفتضح أمره' ..  
وقد كنت في تلك الفترة أسمع أسئلة محيرة من الشباب الحاضر كانت — هي الأخرى — من أهم أسباب هدايتي.

من ذلك أن شابا سأل أحد القساوسة قائلا: ما رأيك بمحمد؟

فقال القسيس: هو إنسان عبقر يوذكي.

فقال الشاب: هناك الكثير من العباقرة مثل ( أفلاطون، سقراط ، هامورابي....) ولكن لم نجد لهم

أتباعا ودينا ينتشر بهذه السرعة الي يومنا هذا؟ لماذا؟

فيتهرب القسيس من الإجابة.. أو يغالطه بطريقة ذكية تصرفه عن سؤاله.

ومنها أن شابا سأل قسيسا: ما رأيك في القرآن؟

فأجاب القسيس: كتاب يحتوي علي قصص للأنبياء ويحض الناس علي الفضائل ولكنه مليء بالأخطاء.

فقال الشاب: لماذا تخافون أن نقرأه، وتكفرون من يلمسه أو يقرأه؟

فيصر القسيس أن من يقرأه كافر دون توضيح السبب.

ومنها أن آخر سأل: إذا كان محمد كاذبا فلماذا تركه الله ينشر دعوته ٢٣ سنة؟ بل وما زال دينه ينتشر

الي الآن مع انه مكتوب في كتاب موسي (كتاب ارميا) ان الله وعد يهلك كل إنسان يدعي النبوة هو وأسرته

في خلال عام؟

فبيحيب القسيس: لعل الله يريد أن يختبر المسيحيين به.

بالإضافة إلى هذا.. فقد مررت في حياتي بمواقف كثيرة محيرة.. كلها كانت أشعة اهتديت بها إلى شمس

محمد.

منها أن البطرك (.. ؟!) أصدر في عام ١٩٧١ قرارا بجرمان الراهب (.. ؟!) — وهو راهب بدير مينا —

من الصلاة لأنه لم يذكر اسمه في الصلاة، وقد حاول إقناعه الراهب (.. ؟!) بالصلاة فانه يصلي لله، وليس

للبطرك ولكنه خاف من البطرك أن يجرمه من الجنه أيضا.

وقد تسائل هذا الراهب: هل يجزؤ شيخ الأزهر أن يجرم مسلما من الصلاة؟

لقد كان أشد ما يجيرني هو معرفتي بتكفير كل طائفة مسيحية للأخرى، فلماذا سألت القمص (.. ؟!)،

وهو أب اعترافي، فأكد هذا وأن هذا التكفير نافذ في الأرض والسماء.

(١) ذكرنا الجدلبيات الكثيرة التي يثنها المبشرون، والمرتبطة بهذا في الرسالة السابقة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (صمود)

فسألته متعجبا: هل معني هذا أننا كفار لتكفير بابا روما لنا؟

أجاب: للأسف.. نعم.

سألته: وباقي الطوائف كفار بسبب تكفير بطرك الإسكندرية لهم؟

أجاب: للأسف.. نعم.

سألته: وما موقفنا إذا يوم القيامة؟

أجاب: الله يرحمنا !!!

وفوق هذا كنت كلما دخلت الكنيسة، ووجدت صورة المسيح وثمانه يعلو هيكلها سألت نفسي: كيف يكون هذا الضعيف المهان الذي استهزأ به اليهود وعذوبه رباً وإلهاً؟!

المفروض أن أعبد رب هذا الضعيف الهارب من بطش اليهود، وتعجبت حين علمت أن التوراة قد لعنت

الصليب والمصلوب عليه وأنه نجس وينجس الأرض التي يصلب عليها، كما في (تثنية ٢١: ٢٢ - ٢٣)

وفوق هذا كله فقد كان لي جار مسلم وكنت كثير الجدل معه، وذات يوم كلمني عن العدل في الإسلام (في الميراث، في الطلاق، القصاص...). ثم سألتني هل عندكم مثل ذلك؟ فأجبت لا.. لا يوجد..

وبدأت أسأل نفسي: كيف أتى رجل واحد بكل هذه التشريعات المحكمة والكاملة في العبادات والمعاملات بدون اختلافات؟.. وكيف عجزت مليارات اليهود والنصارى عن إثبات أنه مخترع؟

بالإضافة إلى هذا كله كنت أسمع أحاديث الدكتور محمد الشاطبي - وقد كنت حينها طبيباً في مستشفى (صدر كوم الشقافة) - وقد كان دائم التحدث مع الزملاء عن أحاديث محمد ﷺ، وكنت في بداية الأمر أشعر بنار الغيرة، ولكن بعد مرور الوقت أحببت سماع هذه الأحاديث التي كانت قليلة في ألفاظها كثيرة في معانيها، جميلة الألفاظ والسياق.. وقد شعرت وقتها أن محمداً نبي عظيم.

وكان بالقرب من عيادتي مسجد.. اقترب منه، وأخذت أنظر بداخله، فوجدته لا يشبه الكنيسة مطلقاً (لا مقاعد - لا رسومات - لا ثريات ضخمة - لا سجاد فخم - لا أدوات موسيقى وإيقاع - لا غناء لا تصفيق) ووجدت أن العبادة في هذه المساجد هي الركوع والسجود لله فقط، لا فرق بين غني وفقير يقفون جميعاً في صفوف منتظمة وقارنت بين ذلك وعكسه الذي يحدث في الكنائس فكانت المقارنة دائماً لصالح المساجد.

ثم حبب الله إلى القرآن.. فاشتريت مصحفاً، وتذكرت أن صديقي أحمد الدمرداش ذكر أن القرآن: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٩)، فاغتسلت<sup>١</sup> ولم أجد غير ماء بارد وقتها، ثم قرأت القرآن، وكنت أخشى أن أجد فيه اختلافات (بعد ما ضاعت ثقتي في التوراة والانجيل)، وقرأت القرآن في يومين ولكني لم أجد ما كانوا يعلموننا إياه في الكنيسة عن القرآن.

(١) ذكرنا في مناسبات كثيرة أن هذا ليس شرطاً في قراءة القرآن، ومن اشترطه فقد بعد كثيراً عن الصواب، ذلك أن الاغتسال يتطلب نية بالصفة الشرعية، والنية المرادة هي التقرب إلى الله، وذلك لا يكون إلا بالإسلام. وقد فصلنا المسألة بتفاصيلها في السلاسل الفقهية خاصة (الأبعاد الشرعية لتربية الأولاد)

بل رأيت أن من يكلم محمدا ﷺ يخبره أنه سوف يموت.. ولا يجرو أن يتكلم هكذا الا الله..  
بعد كل هذا دعوت الله أن يهدين ويرشدني..

وذات يوم غلبني النوم، فوضعت المصحف بجوارى.. وقرب الفجر رأيت نورا في جدار الحجرة، وظهر رجل وجهه مضيء اقترب مني، وأشار الى المصحف، فمددت يدي لأسلم عليه لكنه اختفى.. وقد وقع في قلبي أن هذا الرجل هو النبي محمد ﷺ يشير الى أن القرآن هو طريق النور والهداية.

وقد كان ذلك من الأسباب الكبرى لإسلامي.

قلت: لم تكتف بما يفعل الكثير من التكنم على إسلامهم.

قال: أجل.. لقد سألت أحد المحامين عن كيفية دخول الإسلام، فدلني علي قسم الشؤون الدينية لمديرية الأمن.. ولم أتم تلك الليلة التي امتلأت فيها بوساوس الشياطين.

لكني لم أهتم لها.. خرجت في السادسة صباحا ودخلت كنيسة (..؟! ) وكانت الصلاة قائمة، وكانت الصلاة مليئة بالصور والتمائيل للمسيح ومرموالحواريين وآخرين إلي البطرك السابق (..؟! ) فكلمتهم: «لو أنكم علي حق وتفعلون المعجزات كما كانوا يعلمونا فافعلوا أي شيء.. أي علامة أو إشارة لأعلم أنني أسير في الطريق الخطأ».. وبالطبع لم أجد أي إجابة.

لقد بكيت — حينها — كثيرا علي عمر طويل ضاع في عبادة هذه الصور والتمائيل.. وبعد البكاء شعرت أنني تطهرت من الوثنية، وأني أسير في الطريق الصحيح طريق عبادة الله حقا.

ذهبت الي المديرية وبدأت رحلة طويلة شاقة مع الروتين، ومع معاناة مع البيروقراطية وظنون الناس، وبعد عشرة شهور تم اشهار اسلامي من الشهر العقاري في أغسطس ١٩٩٢.

### أبو بكر موايبو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (أبو بكر موايبو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مارتن جون موايبو.. اسمه الأصلي (مارتن جون موايبو)، وقد أصبح بعد إعلانه الإسلام معروفاً باسم (الحاج أبو بكر جون موايبو)، وهو رئيس الأساقفة اللوثرى التتراني.

قلت: فهل التقيت به؟

قال: أجل..

قلت: كيف تم ذلك؟.. وماذا قال لك؟

قال: كنت في ذلك اليوم الذي أعلن فيه هذا الرجل إسلامه في تترانيا.. لقد كان ذلك في الثالث والعشرين من شهر كانون الأول لعام ١٩٨٦.. أي قبل يومين من أعياد الميلاد..

لقد كنت في الكنيسة مع حشد من المصلين نستمع إليه، وهو يعزف آلاته الموسيقية بطريقة تثير مشاعر الجميع.. ولم نكن نعرف ذلك الحين ما يجول في خاطر الأسقف.

فجأة فمض، وأعلن إسلامه بقوة لا نظير لها، وكأنه يتحدثنا، أو كأنه يتحدث نفسه التي كانت تحول بينه وبين ذلك الإعلان.. أو كأنه يتذكر يوم الزينة الذي فاجأ فيه السحرة فرعون والناس جميعا بإعلان إسلامهم

لله.

ما إن فعل ذلك حتى وقع حشد المصلين في حالة شلل تام للصدمة التي أصابتهم لسماع هذا الخبر، إلى درجة أن مساعد الأسقف قام من مقعده فأغلق الباب والنوافذ، وصرح لأعضاء الكنيسة بأن رئيس الأساقفة قد جنّ.

وفورا اتصلوا بقوات الأمن لأخذ الرجل المجنون.. فجاءوا، وتحفظوا عليه في الزنزانة حتى منتصف الليل، إلى أن جاء الشيخ أحمد شيخ — وهو الرجل الذي حثه على دخول الإسلام — وكفله لإطلاق سراحه. ولم يكن ذلك إلى بداية للآلام الكثيرة التي تعرض لها..

لقد تعرفت هناك على صحفي اسمه (سيمفيوي سيسانتي)، وهو صحفي من صحيفة القلم، وقد أخبرني بلقائه به، وقد ذكر لي أن هذا الأسقف لم يكن رجلاً عادياً، ولا رجل دين بسيط.. فهو لم يحصل فقط على شهادتي البكالوريوس والماجستير في اللاهوت، بل لديه شهادة الدكتوراه في اللاهوت والتي حصل عليها من الإدارة الكنسية من إنجلترا، بالإضافة إلى باقي الدرجات العلمية التي حصل عليها من برلين في ألمانيا.

ولهذا المستوى العلمي نصب أميناً عاماً لمجلس الكنائس العالمي لشؤون إفريقيا — والتي تشمل تزانيا وكينيا وأوغندا وبوروندي وأجزاء من إثيوبيا والصومال — وكان منصبه في مجلس الكنائس يفوق الرئيس الحالي للجنة حقوق الإنسان الجنوب إفريقية باري بيتيانا، ورئيس لجنة المصالحة الوطنية الأسقف ديسموند توتو. وذكر لي أن الرجل وُلد قبل ٦١ عاماً في بوكابو، وهي منطقة على الحدود مع أوغندا من عائلة اهتمت بتنشئته تنشئة دينية، فبعد سنتين من ولادته قامت عائلته بتعميده؛ وبعد خمس سنوات كانت تراقبه بفخر وهو يصبح خادماً المذبح في القُدّاس.

وقد أخبر أبو بكر عن رغبة والده في انضمامه للكنيسة، وقد حصل هذا في الخامسة والعشرين من عمره، حيث استسلم لرغبة والده الذي كان يقول له: «يا بني، قبل أن أغمض عيني (أموت)، سأكون مسروراً إن أصبحت راهباً»

وهذا القرار هو الذي قاده إلى إنجلترا عام ١٩٦٤ للحصول على الدبلوم في إدارة الكنائس؛ وبعد ذلك بسنة سار إلى ألمانيا للحصول على البكالوريوس، وبعودته بعد عام أصبح أسقفاً عاملاً، وفيما بعد رجع ليحصل على الماجستير.

وقد كان إلى هذا الوقت مقلداً محضاً، ولكنه في أثناء تحضيره للدكتوراه بدأ يخرج من ربة التقليد، وقد ذكر لي أنه قال له: «بدأت أتساءل باندهاش، فهناك المسيحية والإسلام واليهودية والبوذية، وكل دينٍ منها يدعي أنه الحق؛ فما هي الحقيقة؟ كنت أريد الحقيقة»

وهكذا بدأ بحثه حتى اختزله إلى الأديان الرئيسية الأربعة.. ثم حصل على نسخة من القرآن الكريم.. وقد ذكر مواييبو ذلك قائلاً: «حين فتحت القرآن الكريم، كانت الآيات الأولى التي أقرأها هي سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾

وقد كانت هذه الآيات هي البذور التي نبتت بها بعد ذلك شجرة إسلامه.. وفي ذلك الوقت اكتشف بأن القرآن الكريم هو الكتاب المقدس الوحيد الذي لم يحصل له أي تشويه.

قال: « وهذا ما قلته كخاتمة في رسالتي للدكتوراه. ولم يكن يهمني إن كانوا سيمنحوني الدكتوراه أم لا، لأن هذه هي الحقيقة؛ وأنا كنت أبحث عن الحقيقة »

وفي حالته الذهنية هذه، ذهب إلى أستاذه المحبوب فان بيرغر، وقد أخبر عن نص الحوار الذي جرى بينهما، فقال: « أغلقت الباب، ثم نظرت إليه في عينيه، وسألته: من كل الأديان التي في الدنيا، أيها هو الدين الحق؟ فأجابني: «الإسلام» ، فسألته: « فلماذا أنت إذا لست مسلماً؟ » فقال لي: « أولاً: أنا أكره العرب؛ وثانياً: هل أنت ترى كل هذا الترف الذي أنعم فيه؟ فهل تعتقد بأنني سأتحلى عن كل ذلك من أجل الإسلام؟ » وعندما تفكرت بجوابه، بدأت أتفكر بحالتي الخاصة أيضاً »

فمنصب مواييبو، وسيارته، كل ذلك خطر على باله.. ولذلك لم يستطع إعلان إسلامه.. وهكذا ظل لسنة كاملة ممتلئاً بهذه المخاوف إلى أن استطاع أن يقف في وجهها في تلك اللحظة الحرجة.

وقد ذكر لهذا الصحفي عن فضل الله الذي تداركه برؤى بدأت تلاحقه، وآيات من القرآن الكريم دوامت على الظهور أمامه، وأناس موشحون بالبياض يأتون إليه، خاصة في أيام الجمع، حتى لم يستطع أن يقاوم أكثر.

قلت للصحفي: ألم تكن تلك الرؤى.. ومخاوفه منها ترجع للطبيعة الخرافية للأفارقة؟

قال لي الصحفي: لقد سألت مواييبو هذا السؤال، فأجابني: لا؛ لا أظن بأن كل الرؤى سيئة.. فإن هناك تلك الرؤى التي تهديك للاتجاه الصحيح، وتلك التي لا تفعل ذلك.. أما هذه -على وجه الخصوص- فقد قادني إلى الطريق الصحيح، إلى الإسلام»

بعد فترة سمعت بما حصل لهذا الأسقف نتيجة إشهار إسلامه، فقد علمت بأن الكنيسة قامت بتجريدته من بيته وسيارته، ولم تستطع زوجه تحمّل ذلك، فحزمت حقائبها وأخذت أولادها وتركته، وذلك على الرغم من تأكيد مواييبو لها بأنها ليست ملزمة بدخول الإسلام. وعندما ذهب إلى والديه، اللذين كانا أيضاً قد سمعا بقصته، وقد طلب منه أبوه انتقاد الإسلام علانية، ومثل ذلك أمه، ولكنه ظل ثابتاً على موقفه.

بعد أن أصبح وحيداً اضطر إلى الرحيل حيث تنتمي عائلته أصلاً على الحدود بين تنزانيا ومالاوي.. وخلال رحلته جتح إلى بروسيل حيث التقى بزوجته، وهي راهبة كاثوليكية اسمها الأخت (جيرترود كيبويا)، وهي تُعرف الآن باسم الأخت زينت، ومعها سافر إلى كاييلا، حيث أخبره العجوز الذي منحه المأوى في الليلة السابقة بأنه هناك سيجد مسلمين آخرين، ولكن قبل ذلك، وفي صباح ذلك اليوم رفع الأذان للصلاة، وهو الشيء الذي جعل القرويين يخرجون من منازلهم سائلين المضيف كيف يؤوي رجلاً مجنوناً.

لكن الراهبة - التي تزوج بها بعد ذلك - هي التي صرفت عنهم هذه النظرة، وقد كانت هي التي ساعدته فيما بعد على دفع التفتقات العلاجية لمشفى الإرسالية الأنجليكانية حين كان مريضاً جداً.

وأخبرني أنه سأها: لماذا ترتدي الصليب في سلسلة على صدرها، فكان أن أجابت بأن ذلك لأن المسيح

قد صُلب عليه، وقد رد عليها بأنه (لنقل أن أحدهم قتل أبك ببندقية، فهل كنت ستتحولين حامله البندقية على صدرك؟)

لقد جعل ذلك الراهبة تفكر.. وحين عرض عليها الأسقف الزواج لاحقاً، كان جوابها بالإيجاب، فتزوجا سرّاً، وبعد أربعة أسابيع كتبت إلى مسؤوليها لتعلمهم بأنّها تركت الرهبنة.

وقد سمع الشيخ الذي قدّم لهما المأوى — وهو خال الراهبة — بهذا الزواج؛ وفي لحظة وصولهما إلى بيته نُصحا بالهرب، لأن الشيخ كان يُعبىء ببندقيته، وكان والد الراهبة غاضباً ومتوحّشاً كالأسد.

انتقل موايبيو من رفاهية منزل رئيس الأساقفة ليعيش في بيت مبيّ من الطين، وبدلاً من راتبه الكبير كعضو في المجلس الكنسي العالميّ كأمين عامّ لشرق إفريقيا، بدأ بكسب قوته كخطاب، وحرّاث لأراضي الآخرين.

وفي الأوقات التي لم يكن يعمل فيها كان يدعو إلى الإسلام علانية، ممّا قاده إلى سلسلة من الأحكام القصيرة بالسجن لعدم احترام المسيحية.

وحين كان يؤدّي فريضة الحجّ في عام ١٩٨٨، حدث بلاء آخر، حيث فُجر بيته، وترتب على ذلك قتل أطفاله التوائم الثلاثة.

وقد ذكر أن من المتسبين في ذلك الأسقف — الذي هو ابن خالته — ويذكر أنّه بدلاً من أن يحبطه ذلك فقد فعل العكس، لأنّ عدد الذين كانوا يعلنون إسلامهم كان يزداد، وهذا يشمل حماه أيضاً.

وفي عام ١٩٩٢ اعتُقل لمدة عشرة أشهر مع سبعين من أتباعه، اتُهموا بالخيانة، وكان ذلك بعد تفجير بعض محلات بيع لحم الخنزير التي كان قد تحدّث ضدها، وبعد ذلك مباشرة هاجر إلى زامبيا منقياً؛ وذلك بعد أن نُصح بأنّ هناك مؤامرة لقتله.

وذكر بأنّه في كلّ يوم كان يُطلق فيه سراحه، كانت الشرطة تأتي لتعتقله مُجدداً، يقول موايبيو: «لقد قالت النّساء بأنهنّ لن يسمحن بذلك! وبأنّهم سيقاومون اعتقالي من قبل قوات الأمن بأجسادهن، وكانت النّساء أيضاً هنّ اللواتي ساعدني على الهرب عبر الحدود مُتخفياً؛ فقد ألبسني ملابس النّساء!»

وهذا هو أحد الأسباب التي جعلته يُقدّر دور النّساء: «يجب أن تُعطى النّساء مكانةً رفيعةً، وأن يُمنحن تعليماً إسلامياً جيّداً، وإلا فكيف يمكن للمرأة أن تتفهّم لماذا يتزوج الرّجل أكثر من امرأة واحدة.. لقد كانت زوجي زينب هي من اقترحت عليّ بأنّي يجب أن أتزوج بزوجي الثانية — صديقتها شيلا — حين كان يتوجّب عليها السّفر إلى الخارج من أجل الدّراسات الإسلاميّة»

وقد صادف أن لقيته مرة بعد هذا، وهو يخطب في جمع من المسلمين، وهو يقول لهم ناصحاً: «إنّ هناك

---

(١) لا نرى من النصح للإسلام أن يتحدث المسلم في الأرض التي فيها غير مسلمين عن مثل هذه المواضيع، فذلك يشوه صورة الإسلام من جهة، ويعرض المسلمين الذين قد يشكلون أقلية للأذى من جهة أخرى. وقد نصح ﷺ معاذاً عن مواضع الدعوة وتدرجها.. وذلك هو الأسلوب النبوي الأمثل، انظر في هذا رسالة (النبي الهادي) من هذه السلسلة.

حرباً على الإسلام.. وقد أغرقوا العالم بالمطبوعات.. والآن بالتحديد يعملون على جعل المسلمين يشعرون بالعار بوصفهم لهم بالأصوليين، فيجب على المسلمين ألا يقفوا عند طموحاتهم الشخصية، ويجب عليهم أن يتحدوا، فعليك أن تدافع عن جارك إن كنت تريد أن تكون أنت في أمان»  
سمعتة يقول ذلك، وهو يحضُّ المسلمين على أن يكونوا شجعاناً، مُستشهداً بالمركز الإسلامي العالمي للدعوة وبدور الشَّيخ أحمد ديدات الذي كان شديد الإعجاب به، وقد سمعته يقول عنه يخاطب المسلمين: «  
ذلك الرَّجُل ليس مُتعلماً، لكن انظر إلى الطَّريقة الَّتِي ينشر بها الإسلام»

### الراهب ماركو كوريس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الراهب ماركو كوريس)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من الفلبين، وقد صادفته في رحلة من رحلاتي، فأرأته شديد الحماس للإسلام، متألماً لما مضى من عمره بعيداً عنه، وقد لاحظت في حديثه نفحة الصدق التي حدثني عنها معلم السلام، فرحت أسأله عنه، وعن سر ذلك الجرح على الدعوة للإسلام، فقال:  
كنت من طائفة وثنية.. وكان جدي وعمي مُعالجين روحانيين يعبدان الأصنام والأرواح، وقد شهدت الكثير من المرضى الذين جاءوا إليهما من أجل العلاج، وكيف كانوا يبرأون، ولذلك فقد تسبباً في اتباعي ما يؤمنان به.

وعندما وصلت السابعة عشرة من عمري، لاحظت بأن هناك الكثير من الأديان، والتي تحوي أنواعاً مختلفة من التعاليم، وكلُّ منها يدَّعي بأنه الدين الحقّ.  
عندها تساءلت: «هل يتوجَّب عليَّ أن أبقى على دين عائلتي، أم أنّي يجب أن أُجرب الاستماع إلى الأديان الأخرى؟»

وفي أحد الأيام دعاني ابن عمي لحضور عيد الخميس في الكنيسة، وكان دافعي هو مشاهدة ما يفعلونه داخل الكنيسة، فشاهدتهم يغنون، ويصفقون، ويرقصون، ويكون رافعين أيديهم في دعائهم ليسوع.. ثم قام الراهب بالوعظ بخصوص الإنجيل.. ثم ذكر الفقرات الأكثر شبيوعاً، والتي يقتبسها كلُّ المبشرين، وهي تلك التي تتعلّق بألوهية المسيح مثل ما في (يوحنا ١: ١٢، ويوحنا ٣: ١٦، ويوحنا ٨: ٣١-٣٢)، وفي ذلك الوقت، ولدت من جديد كمسيحي، وقبِلت يسوع المسيح لها ومُخلّصاً.

كان أصدقائي يزوروني كلَّ يومٍ للذهاب إلى الكنيسة، وبعد شهرين تمَّ تعميدي، فأصبحت عضواً منتظماً في صلاتهم، وبعد مرور خمسة أعوام، أقنعني راهبنا بالعمل في الكهنوت كعامل متطوِّع، ثم أصبحت المنشد الرئيسي، ثم القائد في الصلوة، ثم معلماً في مدرسة الأحد، ثم أصبحت أحياناً راهباً رسمياً في الكنيسة.  
وكان عملي خاضعاً لبعثة التبشير الإنجيلية القروية الحرّة (..؟! ) وهي بعثة تبشيرية مثل بعثة (يسوع هو الله)، و(الناصرية)، و(خبز الحياة).. وغيرها من الجمعيات.

بدأت تعليم الناس الإنجيل وتعاليمه، وأجبرت نفسي على حفظ أجزاء وآياتٍ منه عن ظهر قلبٍ من أجل الدِّفاع عن الدين الذي كنت أؤمن به.



وقد أصبحت فخوراً بنفسى لهذا المنصب الذي حظيت به، وكنت غالباً ما أرى أنني لا أحتاج إلى أيّ تعليم أو نصوص أخرى عدا الإنجيل، ولكن مع ذلك، كان هناك فراغٌ روحيٌّ في داخلي.  
صلّيت، وصُمت، واجتهدت لإرضاء مشيئة الإله الذي كنت أعبد، ولم أكن أجد السعادة إلّا عندما كنت أتواجد في الكنيسة.. لكن هذا الشعور بالسعادة لم يكن مستمراً، وحتى عندما كنت أتواجد مع عائلتي. وما زاد في آلامي هذه أنّ بعض أصدقائي من الرهبان ماديون، فهم يغمسون أنفسهم في الشهوة الجسديّة والفساد، والتعطّش للشهرة.

وعلى الرغم من كلِّ ذلك فقد واصلت مقلداً اعتناقي الدّين بقوّة، وذلك لأنني كنت أعرف — حسب ما تقوله التعاليم — بـ (أنَّ الكثيرين يُدعَوْنَ، ولكنَّ القليل منهم يُختارون)  
كنت دوماً أصليّ ليسوع المسيح ليغفر لي ذنوبي، وكذلك ذنوبهم، فقد كنت أظنُّ بأنّه هو الحلُّ لكلِّ مشكلاتي، ولذلك فإنّه يستطيع الاستجابة لكلِّ دعائي.

مع ذلك — وبالنظر إلى حياة زملائي من الرهبان — لا تستطيع أن تجد بينهم أمثلةً جيّدةً مُقارنةً بالرعيّة التي يعظونها، وهكذا بدأ إيماني يخفت، وناضلت بصعوبة بالغة على العمل في خدمة الصلّاة الجماعيّة. في أحد الأيام، فكرت في السفر إلى الخارج، وليس ذلك من أجل العمل فقط، بل — وأهم من ذلك — من أجل نشر اسم يسوع كإله — بناء على قناعتي في ذلك الوقت — وكان في خطتي الذهاب إمّا إلى تايوان أو كوريا، إلّا أنّ مشيئة الله تعالى كانت في حصولي على تأشيرة عملٍ في بلد مسلم، ووقّعت في الحال عقداً لمُدّة ثلاثة أعوام للعمل فيه.

بعد أسبوعٍ من وصولي لاحظت أسلوب الحياة المختلف، كاللغة، والعادات والتقاليد، حتى الطعام الذي يأكلونه، فقد كنت جاهلاً تماماً بتقافات الآخرين.

والحمد لله، فقد حدث أن كان لديّ زميلٌ فلبينيٌّ في المصنع، وهو مسلمٌ يتكلّم العربيّة، لذلك -مع أنّي كنت متوتراً، إلّا أنّي حاولت سؤاله عن المسلمين، وعن دينهم ومعتقداتهم. فقد كنت أعتقد بأنّ المسلمين من عُنَاة الفتنّة، وأنّهم يعبدون الشيطان والفراغة ومحمّداً كإلهٍ لهم — وحدثته عن إيماني بالمسيح، وكرّد فعل على ذلك أحرّبي أنّ دينه يختلف تماماً عن ديني، واقتبس لي آيتين من القرآن الكريم كاهتما المفتاح الأول لإسلامي:  
أما الأولى، فمن سورة المائدة، وهي الآية التي جاء فيها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: من الآية ٣)

وأما الثانية، فمن سورة يوسف: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ لَمَّا أَمَرَ آلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٤٠)

لقد أصابني هاتان الآيتان بصدمة قويّة.. كانت هي البداية لإسلامي.  
بعد ذلك بدأت بملاحظة حياة صاحبي المسلم.. وكلِّ يومٍ كنّا نتحدث.. كلُّ منا يتحدث عن دينه، حتى أصبحنا في النّهاية صديقين حميمين.

وفي إحدى المناسبات ذهبنا إلى البلد لإرسال بعض الرسائل. وهناك حدث أن رأيت جمهرةً من أناسٍ كثيرين يشاهدون فيلمًا لمناظرةٍ لأحد أفضل المبشّرين لديّ. وقد أخبرني صديقي المسلم بأن هذا الذي أدعوه بأفضل مبشّرٍ لديّ كان الشيخ أحمد ديدات، وهو داعيةٌ إسلاميٌّ مشهور، فأخبرته بأنّ رهباننا في الوطن جعلونا نعتقد بأنّه مبشّرٌ عظيمٌ فقط؛ وأخفوا عنّا شخصيّته الحقيقية بأنّه داعيةٌ مسلم، ومهما كانت نيتهم، فإنّها بالتأكيد كانت لإبعادنا عن معرفة الحقيقة. على الرغم ممّا عرفته، فقد اشتريت أشرطة الفيديو، وبعض الكتب أيضاً لأقرأ عن الإسلام. وفي مكان إقامتنا، حدّثني صديقي عن قصص الأنبياء، وكنت حقيقةً مُفْتَعاً، لكنّ كبريائي أبقاني بعيداً عن الإسلام.

وبعد مُضيّ سبعة أشهر، حضر إليّ في غرفتي صديقٌ آخر، وهو مسلمٌ من الهند، وأعطاني نسخةً من ترجمة معاني القرآن الكريم بالإنجليزية. وفيما بعد قادي إلى البلد، ثم اصطحبني إلى المركز الإسلاميّ. هناك قابلت أحد الإخوة الفلبينيّين؛ ودار بيننا نقاشٌ حول بعض المسائل الدنيّة، وقام بربط ذلك بمقارنةٍ لحياته قبل الإسلام — حين كان مسيحيّاً — وبعده؛ ثم شرح لي بعض تعاليم الإسلام. وفي تلك الليلة المباركة، دخلت الإسلام، وأعلنت دخولي الإسلام بترديد الشهادتين» سرد لي قصته، ثم قال: كنت سابقاً أتبع ديناً أعمى، أمّا الآن فيأتي أرى الحقيقة المطلقة، وهي أنّ الإسلام هو الطريقة الأفضل والكاملة للحياة المصمّمة لكلّ البشريّة.

### الدكتور جاري ميلر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الدكتور جاري ميلر)<sup>١</sup>، فسألته البابا عنه، فقال: قال: هذا (جاري ميلر).. أو كما يجب أن يسمى (عبد الأحد عمر).. وهو كندي الأصل.. وقد كان قسيساً نشيطاً يدعو للمسيحية، بالإضافة إلى اهتمامه بالرياضيات.. بل كونه عالماً فيها. وقد كان أول لقاء لي معه أي كنت في ساحة (.. ؟!) أستمع إليه، وهو يتوجه بخشوع للملتفين حوله يقول لهم: أيها المسلمون، لو أدركتم فضل ما عندكم علي ما عند غيركم لحمدتم الله أن أنبتكم من أصلاب مسلمة ورباكم في محاضن المسلمين وأنشأكم علي هذا الدين العظيم. ثم أضاف: إن معنى النبوة، ومعنى الألوهية، ومعنى الوحي، ومعنى الرسالة، ومعنى البعث، ومعنى الحساب.. كل تلك المعاني ليست إلا عندكم.. والفرق بين ما عندكم فيها، وما عند غيركم، كالفرق ما بين السماء

(١) هو الدكتور جاري ميلر (عبد الأحد عمر) عالمٌ في الرياضيات واللاهوت المسيحيّ ومُبشّرٌ سابق، وقد كان الدكتور ميلر في إحدى فترات حياته نشطاً في التبشير المسيحيّ، ولكنّه بدأ مبكراً باكتشاف تناقضات كثيرة في الإنجيل. وفي سنة ١٩٧٨، حصل أن قرأ القرآن الكريم متوقفاً بأنّه أيضاً سيحوي خليطاً من الحقيقة والرّيف. لكنّه ذهل باكتشافه أنّ رسالة القرآن الكريم كانت مطابقة لنفس جوهر الحقيقة التي استخلصها من الإنجيل. فدخل الإسلام، ومنذئذ أصبح نشطاً بتقديمه للناس، بما في ذلك استخدام المذيع والبرامج التلفازيّة. وهو أيضاً مؤلّفٌ للعديد من المقالات والنشرات الإسلاميّة، نذكر منها: «ردٌّ موجزٌ على المسيحيّة — وجهة نظر المسلم»، و«القرآن العظيم»، و«خواطر حول (براهين) ألوهيّة المسيح»، و«أسس عقيدة المسلم»، و«الفرق بين الإنجيل والقرآن»، و«المسيحيّة التبشيريّة — تحليل لمسلم».

والأرض.

بعدما انتهى من خطابه الذي يفيض من قلب ممتلئ بالخشوع الصادق اقتربت منه لآتنسم سر رائحة الصدق التي نبعث من كلامه.

قال لي: لقد جذبني لهذا الدين وضوح العقيدة، ذلك الوضوح الذي لا أجده في عقيدة سواها.  
قلت: هذه الجملة.. فما التفاصيل؟

قال: لقد كنت أحب الرياضيات حبا شديدا.. وقد كان سر حبي لها هو حب المنطق أو التسلسل المنطقي للأموار..

قلت: فهل قادتك الرياضيات للإسلام؟

قال: تستطيع أن تقول ذلك.. في يوم من الأيام أردت أن أطبق المنهج المنطقي مع القرآن.. لقد قرأته بحثا عن بعض الأخطاء التي تعزز موقفي عند دعوتي للمسلمين للمسيحية... وكنت أتوقع أن أجد القرآن كأبي كتاب بشري تلوح عليه آثار المؤلف، وآثار البيئة التي أبدع فيها.  
قلت: فما وجدت؟

قال: وجدت ما بهرني.. لقد وجدت أن القرآن ذلك الكتاب القديم الذي كتب منذ ١٤ قرنا لا يتكلم عن الصحراء ولا عن البيئة العربية.. بل ولا عن محمد وحياته محمد كشأن الكتاب المقدس عندنا.. بل هو كتاب يحتوي على أشياء لا توجد في أي كتاب آخر في هذا العالم.

كنت أتوقع أن أجد بعض الأحداث العصبية التي مرت على النبي محمد ﷺ مثل وفاة زوجته خديجة رضي الله عنها أو وفاة بناته وأولاده.. لكنني لم أجد شيئا من ذلك.

بل وجدت فوق ذلك.. وهو ما أوقعني في حيرة عظيمة.. أن هناك سورة كاملة في القرآن تسمى سورة مريم، وفيها تشریف لمريم — عليها السلام — ولا يوجد مثل لها في كتب المسيحيين ولا في أناجيلهم.. وفي نفس الوقت لم أجد سورة باسم عائشة أو فاطمة رضي الله عنهن.

ومثل ذلك وجدت أن عيسى عليه السلام ذكر بالاسم ٢٥ مرة في القرآن في حين أن النبي محمد ﷺ لم يذكر إلا ٤ مرات فقط.

ثم أخذت أقرأ القرآن بتمعن أكثر لعلني أجد مأخذا عليه.. لكنني لم أجد إلا ما يبهرني:

لقد قرأت مرة قوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)، فملاّنتني بالحيرة.. فمن المبادئ العلمية المعروفة في الوقت الحاضر مبدأ إيجاد الأخطاء أو تقصي الأخطاء في النظريات إلى أن تثبت صحتها Falsification test.. والعجيب أن القرآن الكريم يدعوا المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه ولن يجدوا.

ومع كثرة بحوثي ومطالعاتي لم أجد مؤلفا في العالم يمتلك الجرأة، ليؤلف كتابا، ثم يقول عنه (هذا الكتاب خالي من الأخطاء).. ولكن القرآن على العكس تماما لا يقول لك (لا يوجد أخطاء) فقط، بل يعرض عليك أن تجد فيه أخطاء، ولن تجد.

ومن الآيات التي استوقفتني، وبهرتني: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الانبيا: ٣٠)

لقد وجدت أن هذه الآية هي بالضبط موضوع البحث العلمي الذي حصل على جائزة نوبل في عام ١٩٧٣، وكان عن نظرية الانفجار الكبير، وهي تنص أن الكون الموجود هو نتيجة انفجار ضخم حدث منه الكون بما فيه من سماوات وكواكب.. فالرتق هو الشيء المتماسك في حين أن الفتق هو الشيء المتفكك<sup>١</sup> ..  
ومن الآيات التي استوقفتني قوله ﷻ: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١)﴾ (الشعراء)، وقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل: ٩٨)

التفت إلي، وقال: أرايت.. هل هذه طريقة الشيطان في كتابة أي كتاب.. يؤلف كتابا، ثم يقول قبل أن تقرأ هذا الكتاب يجب عليك أن تتعوذ مني.

إن هذه الآيات من الأمور الإعجازية في هذا الكتاب المعجز.. وفيها رد منطقي لكل من قال بهذه الشبهة. ومن السور التي استوقفتني سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَأَمْرُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)﴾ (المسد)  
لقد علمت أن هذا الرجل أبا لهب كان يكره الإسلام كرها شديدا، لدرجة أنه كان يتبع محمدا ﷺ أينما ذهب ليقفل من قيمة ما يقوله الرسول ﷺ.. فإذا رأى الرسول ﷺ يتكلم إلى أناس غرباء، فإنه ينتظر حتى ينتهي الرسول من كلامه ليذهب إليهم ثم يسأهم ماذا قال لكم محمد؟.. لو قال لكم أبيض، فهو أسود، ولو قال لكم ليل فهو نهار.

وقبل ١٠ سنوات من وفاة أبي لهب نزلت هذه السورة، وهي تقرر أن أبا لهب سوف يذهب إلى النار، أي بمعنى آخر أنه لن يدخل الإسلام.

وخلال عشر سنوات كاملة كل ما كان على أبي لهب أن يفعله هو أن يأتي أمام الناس ويقول: «محمد يقول أبي لن أسلمو سوف أدخل النار، ولكني أعلن الآن أبي أريد أن أدخل في الإسلام وأصبح مسلما.. الآن مارأيكم هل محمد صادق فيما يقول أم لا؟ هل الوحي الذي يأتيه وحي إلهي؟»

لكن أبا لهب لم يفعل ذلك، مع أن كل أفعاله كانت هي مخالفة الرسول ﷺ لكنه لم يخالفه في هذا الأمر. لقد كانت لدية عشر سنوات ليهدم الإسلام بدقيقة واحدة، ولكن لأن هذا الكلام ليس كلام محمد ﷺ ولكنه وحي ممن يعلم الغيب ويعلم أن أبا لهب لن يسلم فإن أبا لهب لم يسلم.

كيف لمحمد ﷺ أن يعلم أن أبا لهب سوف يثبت ما في السورة إن لم يكن هذا وحيا من الله؟.. بل كيف يكون واثقا خلال عشر سنوات كاملة أن ما لديه حق لو لم يكن يعلم أنه وحيا من الله؟  
لكي يضع شخص هذا التحدي الخطير ليس له إلا معنى واحد هذا وحي من الله<sup>٢</sup>.

(١) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذه الآية في (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

(٢) انظر المزيد من النبوءات الغيبية وتفاصيلها في رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

وقد ذكر لي هذا الدكتور الفاضل أن من المعجزات الغيبية التي استوقفته، وجعلته يراجع نفسه التحدي القرآني للمستقبل بأشياء لا يمكن أن يتنبأ بها الإنسان وهي خاضعة لنفس الاختبار السابق ألا وهو Falsification tests أو مبدأ إيجاد الأخطاء حتى تتبين صحة الشيء المراد اختباره.

فالقرآن — مثلا — يذكر أن اليهود هم أشد الناس عداوة للمسلمين، وهذا مستمر الى وقتنا الحاضر، فأشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود.

وهذا يعتبر تحديا عظيما، ذلك أن اليهود لديهم الفرصة لهدم الإسلام بأمر بسيط ألا وهو أن يعاملوا المسلمين معاملة طيبة لبضع سنين، ويقولون عندها: «ها نحن نعاملكم معاملة طيبة، والقرآن يقول إننا أشد الناس عداوة لكم، إذن القرآن خطأ!، ولكن هذا لم يحدث خلال ١٤٠٠ سنة!! ولن يحدث، لأن هذا الكلام نزل من الذي يعلم الغيب وليس كلام إنسان»

التفت إلي، وقال: هل رأيت أن الآية التي تتكلم عن عداوة اليهود للمسلمين تعتبر تحديا للعقول، فالله ﷻ يقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: ٨٢)

ومن الآيات التي ذكر لي هذا الدكتور الفاضل أنها استوقفته تلك الآيات التي تنبئ عن وحي الله لرسول الله ﷺ بما في القرآن من الغيوب.. فالله ﷻ يقول: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران: ٤٤)، ويقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: ٤٩)، ويقول: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢)

لقد قال لي الدكتور ميلر بعد أن قرأ علي هذه الآيات: «لا يوجد كتاب مما يسمى بالكتب الدينية المقدسة يتكلم بهذا الأسلوب، كل الكتب الأخرى عبارة عن مجموعة من المعلومات التي تخبرك من أين أتت هذه المعلومات، على سبيل المثال الكتاب المقدس عندما يناقش قصص القدماء فهو يقول لك الملك فلان عاش هنا وهذا القائد قاتل هنا معركة معينة وشخص آخر كان له عدد كذا من الأبناء وأسماءهم فلان وفلان.. والكتاب المقدس دائما يخبرك إذا كنت تريد المزيد من المعلومات يمكنك أن تقرأ الكتاب الفلاني أو الكتاب الفلاني لأن هذه المعلومات أتت منه.

وهذا كله بعكس القرآن الذي يمد القارئ بالمعلومة، ثم يقول: لك هذه معلومة جديدة.. بل ويطلب منك أن تتأكد منها إن كنت مترددا في صحة القرآن بطريقة لا يمكن أن تكون من عقل بشر.. والمذهل في الأمر هو أهل مكة في ذلك الوقت — أي وقت نزول هذه الآيات — ومرة بعد مرة كانوا يسمعونها ويسمعون التحدي بأن هذه معلومات جديدة لم يكن يعلمها محمد ﷺ ولا قومه، بالرغم من ذلك لم يقولوا: هذا ليس جديدا بل نحن نعرفه، أبدا لم يحدث أن قالوا مثل ذلك ولم يقولوا: نحن نعلم من أين جاء محمد بهذه المعلومات، أيضا لم يحدث مثل هذا، ولكن الذي حدث أن أحدا لم يجرؤ على تكذيبه أو الرد عليه لأنها فعلا معلومات جديدة كليا، وليست من عقل بشر، ولكنها من الله الذي يعلم الغيب في الماضي والحاضر والمستقبل»

قلت: أرى أن النبوءات التي ملأتك بالانبهار في القرآن؟

قال: ليست وحدها.. بل كل القرآن بهرني.. كل آية من آياته، بل كل كلمة من كلماته..  
أذكر أنه قبل بضع سنوات، وصلتنا قصةٌ إلى تورونتو بكندا عن رجل كان بحاراً في الأسطول التجاري،  
ويكسب رزقه من عمله في البحر، وقد أعطاه أحد المسلمين ترجمةً لمعاني القرآن الكريم ليقراها، ولم يكن هذا  
البحار يعرف شيئاً عن تاريخ الإسلام، لكنّه كان مهتماً بقراءة القرآن الكريم. وعندما أنهى قراءته، حمّله وعاد  
به إلى المسلم الذي أعطاه إياه، وسأله: «مُحمَّدٌ هذا.. أكان بحاراً؟»، فقد كان الرجل مندهشاً من تلك الدقّة  
التي يصف بها القرآن العاصفة على سطح البحر. وعندما جاءه الردُّ: «لا، في الحقيقة لم يكن. فمحمَّدٌ عاش في  
الصَّحراء»

لقد كان هذا كافياً له ليعلن إسلامه على الفور، لقد كان متأثراً جداً بالوصف القرآني للعاصفة البحريّة،  
لأنّه بنفسه كان مرّةً في خِصَمِّها، وكان لذلك يعلم أنّه أيّاً من كان الذي كتب هذا الوصف، فإنّه لا بُدَّ وقد  
عاش هذه العاصفة بنفسه، فالوصف الذي جاء في القرآن عن العاصفة لم يكن شيئاً يستطيع أن يكتبه أيُّ كاتب  
من محض خياله، والموج الذي من فوقه موجٌ من فوقه سبحانه لم يكن شيئاً يمكن لأحدهم تخيُّله والكتابة عنه،  
بل إنّهُ وصفٌ كتبه من يعرف حقاً كيف تبدو العاصفة البحريّة.

التفت إلي، وقال: هذا مثلٌ واحدٌ على أن القرآن ليس مرتبطاً بزمان أو مكان، ومن المؤكد أن الإشارات  
العلميّة التي يُعبّر عنها لا يمكن أن يكون أصلها من الصَّحراء قبل أربعة عشر قرناً مضت.  
لقرونٍ عدّةٍ قبل ظهور رسالة محمدٍ ﷺ، كانت هناك نظريّةٌ معروفةٌ عن الذرّة وضعها الفيلسوف اليوناني  
ديموقريطوس، فهذا الفيلسوف والذين جاءوا من بعده افترضوا أن المادّة تتكوّن من دقائق صغيرةٍ غير مرئيّةٍ وغير  
قابليّةٍ للانقسام تسمى الذرّات. وكان العرب أيضاً قد أَلْفَوْا هذا المفهوم، فكانت في الواقع كلمة (ذرّة) في  
العربيّة تعني أصغر جزءٍ كان معروفاً للإنسان.

أمّا الآن فإنّ العِلْمَ الحديث قد اكتشف بأنّ هذه الوحدة الأصغر للمادّة — وهي الذرّة التي تحمل نفس  
خصائص المادّة التي تنتمي إليها — يمكن تقسيمها إلى مُكوّناتها.

وهذه حقيقةٌ جديدةٌ تُعدُّ نتاجاً للتطوُّر في القرن الماضي، فمن المثير جدّاً للاهتمام أن هذه المعلومة كانت  
قد وُثِّقت فعلاً في القرآن الكريم قبل ذلك بأربعة عشر قرناً، والذي يقول الله تعالى فيه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ  
وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ  
مُنْقَلَبٍ ذُرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس: ٦١)  
فبلا أدنى شك أن مثل هذا التصريح لم يكن شيئاً مألوفاً حتّى للعربيّ في ذلك الوقت، فبالنسبة له كانت  
الذرّة هي أصغر شيءٍ موجود، وهذا دليل على أن القرآن لم يعف عليه الزمّن.

قلت: أرى لك اهتماماً آخر بالإعجاز العلمي الذي يذكر المسلمون بأنه موجود في القرآن؟

قال: أجل.. إنّ فهم القرآن الكريم بطريقةٍ علميّةٍ حقيقيّةٍ ممكنٌ للغاية، وذلك لأنّ القرآن الكريم يقدّم شيئاً  
لا تقدّمه الكتب السماويّة الأخرى خاصّةً أو الأدیان الأخرى عامّة. إنّ في القرآن ما يطلبه العلماء. هناك الكثير

في هذه الأيام ممن لديهم نظرياتٍ عن طريقة عمل الكون، إنهم في كلِّ مكانٍ من حولنا، لكنَّ مجتمع أهل العلم لا يكلف نفسه حتى بالاستماع إليهم. وذلك لأنَّ المجتمع العلميّ -وخلال القرن الماضي- وضع شرطاً لقبول مناقشة النظريات الجديدة، وهو ما يُسمَّى (اختبار الزَّيف) فهم يقولون: «إن كانت لديك نظرية، فلا تزعجنا بما حتى تحضر لنا مع هذه النظرية طريقةً ما تُثبت إن كنت على صواب أم على خطأ»

مثل هذا الاختبار كان بالتأكيد هو السبب الذي جعل العلماء يستمعون لإينشتاين في مطلع هذا القرن. لقد جاء بنظرية جديدة، وقال: «أنا أعتقد بأن الكون يعمل بهذه الطريقة، وها هي ثلاث طرق لتثبت إن كنت مخطئاً! « بعدئذٍ وضع العلماء نظريته تحت الاختبار لمدة ست سنوات، فنجحت في احتياز الاختبارات، وبالطرق الثلاث كلها.

طبعاً، هذا لم يثبت أنه كان عظيماً، بل أثبت فقط أنه يستحقُّ أن يُستمع له، لأنه قال: «هذه هي نظريتي، وإن أردتم إثبات أنني مخطئٌ فافعلوا هذا أو جرّبوا ذلك»

وهذا هو بالضبط ما يقدمه القرآن الكريم.. بعض هذه الاختبارات أصبحت مفروغاً منها حيث إنَّها أثبتت صحتها، والبعض الآخر ما زال قائماً إلى يومنا هذا. إنَّ القرآن يشير أساساً إلى أنه إذا لم يكن هذا الكتاب هو ما يدعيه، فما عليكم إلا أن تفعلوا هذا أو ذاك لتثبتوا أنه مُزيّف، وخلال ألفٍ وأربعمئة سنة مرّت لم يستطع أحد بالطبع أن يفعل هذا أو ذاك فيثبت ذلك، لذلك ما زال يعتبر صحيحاً وأصيلاً.

ولهذا أنا أقترح على من يريد أن يدخل في مناظرةٍ حول الإسلام مع أحد من غير المسلمين — الذين يدعون أن لديهم الحقيقة وأن المسلمين على الباطل — أن يضع بدايةً كلَّ الحجج الأخرى جانباً وأن يسأله ما يلي: «هل يوجد أيُّ اختبار للزَّيف في دينك؟ هل يوجد في دينك ما يمكن أن يُبين أنكم على خطأ إن استطعت أنا أن أثبت ذلك؟ هل يوجد أيُّ شيء؟!

التفت إلي، وقال: أستطيع أن أعدك منذ الآن أنه لن يكون لدى أيٍّ منهم أيُّ اختبار أو إثبات؛ لا شيء! وذلك لأنهم ليس لديهم أدنى فكرة أنه يتوجَّب عليهم حين عرضهم ما يؤمنون به على الناس أن يقدموا لهم الفرصة لإثبات أنهم مخطئون إن استطاعوا.

ومع هذا، فإنَّ الإسلام يقدم لهم ذلك. ومثالٌ رائعٌ على كيفية تزويد القرآن الكريم الإنسان بفرصةٍ ليثبت من أصلته، وأن (يثبت زيفه) جاء في السورة الرابعة. وأقول بصدق أنني كنت مندهشاً حين اكتشفت هذا التحديّ لأول مرة: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء ٨٢) فهذا يمثل تحدياً واضحاً لغير المسلمين، لأنه (وبطريقةٍ غير مباشرة) يدعوهم لإيجاد أيِّ خطأ. وحقاً -إن وضعنا الجدلية أو الصعوبة في هذا التحديّ جانباً- فإنَّ تقديم مثل هذا التحديّ -في المقام الأوّل- ليس حتى من طبيعة البشر، فهو يتعارض مع تكوين الشخصية البشرية. فالإنسان لا يتقدّم لاختبار في المدرسة، ثم بعد إنهاء الاختبار يكتب ملحوظةً للمصحِّح يقول فيها: «هذه الإجابات متألّية، ولا يوجد فيها أيُّ خطأ. فجد خطأً واحداً إن استطعت! « فالإنسان ببساطةٍ لا يفعل ذلك. فذاك المعلّم ما كان ليذوق طعم التّوم حتى يجد خطأً ما! ومع ذلك فإنَّ هذه هي الطريقة التي يصل بها القرآن إلى الناس.

سكت قليلاً، ثم قال: موقفٌ آخرٌ مثيرٌ للدهشة يتكرر في القرآن كثيراً، ويتعامل مع نُصح القارئ، فالقرآن يُعلِّمُ القارئ عن حقائقٍ مختلفةٍ ثمَّ يُعطيهِ النَّصيحةَ بأنَّه إن كان يريد أن يعرف أكثر عن هذا أو ذاك، أو إن كان يشكُّ فيما قيل، فما عليه عندئذٍ إلَّا أن يسأل أولئك الذين يملكون العلم والمعرفة. وهذا موقفٌ مدهش، فمن غير المعتاد أن يُؤلَّفَ كتابٌ من قِبَلِ إنسانٍ لا يملك أيَّ حَلْفِيَّةٍ جغرافيَّةٍ، أو نباتيَّةٍ، أو أحيائيَّةٍ، ويبحث فيه مثل هذه الموضوعات، وبعدئذٍ ينصح القارئ بأن يسأل أهل العلم إن كان في ريبٍ من شيء. يقول الله تعالى في القرآن العظيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء ٧) في كل عصر من العصور السابقة — وحتى الآن — كان هناك علماء مسلمون يتتبعون إرشادات القرآن، وقد توصَّلوا إلى اكتشافاتٍ مذهلة، فإذا نظر أحدنا إلى أعمال العلماء المسلمين لعصورٍ عديدةٍ مضت، فسيجد أنَّهم كانوا ممثلين بالاستشهادات القرآنيَّة، فأعمالهم تُبين أنَّهم قاموا بالبحث في مكانٍ ما عن شيءٍ ما، وقد أكدوا أن سبب بحثهم في مثل هذا المكان أو ذاك بالذات لأن القرآن أرشدهم في ذلك الاتجاه.

مثلاً يشير القرآن إلى خلق الإنسان، ثمَّ يبحثُ القارئ على البحث في ذلك، فهو يعطي القارئ لمحةً أين يبحث، ويخبره بأنَّه سيجد معلوماتٍ أكثر عن ذلك، وهذه هي نوعيَّة الأشياء التي يبدو أن المسلمين اليوم يبحثونها بتوسُّع.

سأضرب لك مثلاً على ذلك.. قبل عدَّة سنوات، قام بعض المسلمين بجمع كلِّ الآيات القرآنيَّة التي تتحدَّث عن علم الأجنَّة، وهو العلم الذي يدرس مراحل نموِّ الجنين في الرَّحم؛ ثمَّ قالوا: «هذا ما يقوله القرآن الكريم. فهل هو حقٌّ؟»

في الحقيقة، لقد أخذوا في هذا بنصيحة القرآن الكريم: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: من الآية ٤٣).. وحصل أن اختاروا أستاذاً جامعياً في علم الأجنَّة من جامعة تورونتو في كندا، ولم يكن مسلماً. هذا الأستاذ يُدعى (كيث موور)، وهو مؤلِّف للعديد من الكتب في علم الأجنَّة، ويُعدُّ من الخبراء العالميين المُبرزين في هذا المجال، وجَّهوا له الدَّعوة، ثمَّ قالوا له: «هذا ما يقوله القرآن الكريم فيما يخصُّ تخصُّصكم. فهل هو صحيحٌ؟.. ماذا تستطيع أن تخبرنا عن ذلك؟».. وأثناء إقامته في بلاد المسلمين، قدَّموا له كلَّ المساعدة التي احتاجها في الترجمة وكلِّ العون الذي كان يطلبه.

لقد كان مذهولاً جداً بما وجد بحيث أنَّه غيَّر بعض النُّصوص في كتبه، فقد قام في الطبعة الثانية من (تاريخ علم الأجنَّة) بإضافة بعض المواد التي لم تكن موجودة في الطبعة الأولى، وذلك لما وجده في القرآن الكريم، وحقاً فإنَّ هذا يُصوِّر بوضوح أن القرآن الكريم سابقٌ لزمانه، وأنَّ أولئك الذين يؤمنون به يعرفون ما لا يعرفه الآخرون<sup>١</sup>.

ابتسم، ثمَّ قال: لقد كان من دواعي سروري أنني أجريت لقاءً تلفازياً مع الدكتور كيث موور، وتحدَّثنا مُطوَّلاً حول هذا الموضوع، وكان ذلك بالاستعانة بالصور التوضيحيَّة وغيرها، وقد ذكر بأنَّ بعض الأشياء التي ذكرها القرآن الكريم عن نموِّ الإنسان لم تكن معروفةً إلى ما قبل ثلاثين عاماً، لقد ذكر في الواقع موضوعاً مُعيَّناً

(١) انظر التفاصيل العلمية المرتبطة بهذا، وبأقوال هذا الدكتور في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.



بشكل خاص، وهو وصف القرآن الكريم للإنسان بالعلقة في إحدى مراحل نموه، وأن هذا الوصف كان جديداً بالنسبة إليه، ولكنّه عندما تفحص الأمر وجدته حقيقة، وهكذا أضافه إلى كتابه. لقد قال: «لم يخطر ببالي ذلك أبداً من قبل»، ولهذا فقد ذهب إلى قسم علم الحيوان وطلب صورةً للعلقة، وعندما وجد أنّها تشبه الجنين تماماً في هذه المرحلة من النمو، قرّر أن يضع الصورتين في أحد كتبه (صورة الجنين وصورة العلقه). بعد ذلك قام الدكتور موور أيضاً بتأليف كتاب عن علم الأجنة السريري، وعندما نشر هذه المعلومات في تورونتو سببت ضجةً كبيرةً في كل أنحاء كندا.

لقد كانت في بعض الصفحات الأولى وفي جميع أنحاء كندا، وبعض العناوين الرئيسيّة كانت شديدة الطرافة. فمثلاً، كان أحد العناوين الرئيسيّة يقول: «شيء مدهشٌ وجد في كتاب قديم!» ويبدو واضحاً من هذا المثل أن الناس لم يفهموا بوضوح حول ماذا كانت كل تلك الضجة، وأحد الأمور التي حدثت حقاً أن أحد الصحفيين سأل الدكتور موور: «ألا تعتقد أن العرب ربّما كانوا يعرفون هذه المعلومات عن هذه الأشياء، أي عن وصف الجنين، وعن شكله وكيف يتغيّر وينمو؟ ربّما لم يكن هناك علماء، ولكنهم ربّما قاموا بشيءٍ من التشريح الوحشيّ على طريقتهم – أي قاموا بتقطيع الناس وتفحص هذه الأشياء»

فأشار له الدكتور علي الفور بأنّه نسي شيئاً في غاية الأهميّة، وهو أن كل صور الجنين التي عرضت في الفيلم قد جاءت من صور أخذت عن طريق المجهر؛ وأضاف قائلاً: «ليست المسألة هي إن كان أحد الناس قد حاول اكتشاف علم الأجنة قبل أربعة عشر قرناً مضت، ولكنّها في أنّه لو حاول ذلك فإنّه لم يكن باستطاعته رؤية شيءٍ على الإطلاق!»

فكل ما يصفه القرآن الكريم عن شكل الجنين هو عندما يكون صغيراً جداً ولا يُرى بالعين المجردة، لذا فالمرء بحاجة إلى مجهر ليرى ذلك، إلّا أن مثل هذه الآلة لم تُكتشف إلّا قبل أكثر من مائتي عام بقليل. وأضاف الدكتور موور ساخراً: «ربّما كان لدى أحدهم – قبل أربعة عشر قرناً مضت – مجهرًا سرّيًا، فقام بعمل هذه الأبحاث، ولم يرتكب أثناء ذلك أيّ خطأ يُذكر، ثمّ علّم محمّداً ذلك بطريقةٍ ما، وأقنعه بأن يضع هذه المعلومات في كتابه؛ وبعدئذٍ حطّم مجهره، واحتفظ بسرّه للأبد.. فهل أنت تصدّق ذلك؟! يجب عليك حقاً ألا تفعل، حتّى تحضر دليلاً للإثبات، لأنّ مثل هذه النظرية ما هي إلّا سخافة!»

وعندما سُئل الدكتور موور: «كيف تفسّر إذاً وجود مثل هذه المعلومات في القرآن؟» كان ردّه: «لم يكن هذا ممكناً إلّا بوحى من الله»

ومع أنّ هذا المثل عن بحث الإنسان عن معلوماتٍ مُحتويةٍ في القرآن الكريم قام به عالمٌ غير مسلم، إلّا أنّه يعتبر صحيحاً، وذلك لأنّ هذا الرّجل واحدٌ من أهل الذّكر في هذا المجال، فلو ادّعى شخصٌ عاديٌّ بأنّ ما يقوله القرآن حول علم الأجنة صحيح، لما كان لزاماً علينا قبول كلامه.

على أيّة حال فإنّ المركز المرموق والاحترام والتقدير الذي يكتنّه المرء للعلماء تجعل الإنسان يفترض تلقائياً صحّة النتائج التي يتوصّلون إليها نتيجة البحث في موضوع ما.

وهذا ما دفع أحد زملاء الدكتور موور — يُدعى مارشال جونسون، ويعمل بشكل مُكثفٍ في مجال علم الجيولوجيا (علم طبقات الأرض) في جامعة تورونتو — لكي يصبح مُهتماً جداً بالقرآن الكريم، لأنَّ الحقائق التي ذكرها عن علم الأجنة كانت دقيقة، ولذلك سأل المسلمين أن يجمعوا له كلَّ شيءٍ في القرآن الكريم ممَّا له علاقة بتخصُّصه، ومرةً أخرى كان النَّاس مندهشين جداً من النتائج.

التفت إلي، وقال: إنَّ عدداً كبيراً من الموضوعات مذكوراً في القرآن الكريم، ممَّا يتطلَّب بالتأكيد وقتاً طويلاً لتفصيل كلِّ موضوعٍ على حدة، فيكفي من أجل الهدف من هذا التَّقاش أن أقول بأنَّ القرآن الكريم يضع تصريحاتٍ واضحةٍ ودقيقةٍ حول موضوعاتٍ متنوِّعةٍ، وأثناء ذلك ينصح القارئ بالتَّثبت من صحَّتها بالبحث عند العلماء، وكلُّ ما صوِّر في القرآن أثبت صحَّته بوضوح.

سكت قليلاً، ثم قال: هناك أمرٌ في القرآن الكريم لا نجدُه في أيِّ كتابٍ آخر!

قلت: ما هو؟

قال: من المثير للاهتمام أنَّ القرآن الكريم حين يزوِّد القارئ بالمعلومات، فإنَّه كثيراً ما يخبره بأنَّه لم يكن يعلم ذلك من قبل.

اسمع قوله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِفُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٣).. واسمع قوله ﷻ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٥١)

وطبعاً لا يوجد أيُّ كتاب مقدَّس يقوم بتقديم مثل هذا الرَّعم، فكلُّ الكتب المقدَّسة والمخطوطات القديمة التي يملكها النَّاس تحوي بالفعل معلوماتٍ كثيرة، ولكنَّها تذكر دوماً من أين جاءت تلك المعلومات. فمثلاً، عندما يناقش الإنجيل التاريخ القديم، فإنَّه يذكر بأنَّ هذا الملك عاش في المنطقة الفلانيَّة، وأنَّ ذاك خاض المعركة الفلانيَّة، وأنَّ الآخر كان له أبناء كثيرون.

وهو دائماً ينجسُّ على أنَّك إنَّ أردت الحصول على المزيد من المعلومات، فما عليك إلا أن تقرأ الكتاب الفلاني أو العلَّاني، لأنَّه من هناك جاءت المعلومات. وباختلافٍ كبير عن هذا الأسلوب، فإنَّ القرآن الكريم يزوِّد القارئ بالمعلومات، ثم يقول له إنَّ هذه المعلومات شيءٌ جديدٌ لم يكن يعرفه أحدٌ حين نزوله.

وطبعاً كان هناك دائماً دعوة للبحث في هذه المعلومات، للتأكُّد من صحَّتها وأصالتها (إنَّها وحيٌّ من الله تعالى).

ومن المثير للدَّهشة أنَّ مثل هذا الطَّرح لم يستطع أبداً أن يتحدَّاه أحدٌ من غير المسلمين قبل أربعة عشر قرناً مضت، فالواقع أنَّ أهل مكَّة الذين كانوا يكرهون المسلمين كرهاً شديداً، وكانوا يستمعون لهذا الوحي المرَّة تلو المرَّة وهو يدَّعي بأنَّ ما يسمعونه شيءٌ جديدٌ لم يعرفوه من قبل، لم يستطع أحدٌ منهم أن يرفع صوته قائلًا: «لا، ليس هذا بجديد. فنحن نعلم من أين جاء محمَّدٌ بهذه المعلومات، فقد تعلَّمتها في المدرسة» إنَّهم لم يستطيعوا أبداً تحدِّي أصالة القرآن الكريم، لأنَّه فعلاً كان شيئاً جديداً.

سكت قليلاً، وكأنه يسترجع ذكرياته، ثم قال: في إحدى المرّات جاءني رجلٌ بعد أن أهدت محاضرةً ألقيتها في جنوب إفريقيا، لقد كان غاضباً جداً لما قلته، ولذلك ادّعى قائلاً: «سأذهب إلى بيتي الليلة ولا بُدَّ أن أجد خطأ ما في القرآن»، فأجبت طبعاً: «أهنتك. فهذا هو الشيء الأكثر ذكاءً فيما قلته»

بالتأكيد، هذا هو الموقف الذي يجب أن يتّخذه المسلمون مع أولئك الذين يشكّون في أصالة القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم نفسه يُقدّم هذا التحدي، فحتماً بعد القبول بهذا التحدي، والاكتشاف بأن القرآن حق، فإنهم سيؤمنون به لأنهم لم يستطيعوا أن يجردوه من صحته؛ بل سيكتسب احترامهم لأنهم تأكّدوا من أصالته بأنفسهم.

والحقيقة الأساسية التي يجب أن تُكرّر كثيراً بخصوص التنبّث من أصالة القرآن الكريم، هي أن عدم قدرة أحدهم على توضيح أي ظاهرة بنفسه لا يلزمه بقبول وجود هذه الظاهرة، أو قبول تفسير شخص آخر لها. وهذا يعني أن عدم قدرة الإنسان على تفسير شيء ما لا يعني أنه يجب بالضرورة أن يقبل بتفسير الآخرين. ومع ذلك فإن رفض الإنسان لتفسير الآخرين يعود بالعبء عليه نفسه ليجد جواباً مُقنعاً. هذه النظرية العامة تنطبق على العديد من المفاهيم في الحياة، ولكنها تتناسب بشكل كبير مع التحدي القرآني، لأنها تشكل صعوبة كبيرة لمن يقول: «أنا لا أومن بالقرآن»، ففي اللحظة التي يرفضه فيها، يجد الإنسان نفسه ملزماً بأن يجد التفسير لذلك بنفسه، لأنه يشعر بأن تفسيرات الآخرين ليست صحيحة.

في الحقيقة، وخاصة في إحدى الآيات القرآنية التي اعتدت أن أرى أنها تُرجمت خطأ إلى الإنجليزية، يذكر الله تعالى رجلاً كان يسمع آيات الله تلى عليه، إلا أنه كان يغادر دون أن يتفحص حقيقة ما سمع، أي أن الإنسان — بطريقة أو بأخرى — مذنبٌ إذا سمع شيئاً ولم يحدّثه أو يتفحصه ليرى إن كان صحيحاً. وهذا جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنِيَ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَ آيَاتِنَا لِيَلْمِيَ﴾ (لقمان: ٧)

فإنسان يُفترض منه أن يُعْمِل عقله بكل المعلومات التي ترده، وأن يقرّر ما هو المرء منها ليُلقيه بعيداً، وما هو المفيد ليحتفظ به ويستفيد منه فيما بعد. فلا يستطيع المرء أن يترك الأمور على اختلاف أنواعها تزدهم في ذهنه هكذا فقط. بل يجب أن توضع الأمور في فئاتها المناسبة وأن تُفهم حسب ذلك.

فمثلاً، إذا كانت المعلومات ما تزال في حاجة إلى تأمل، فعندئذٍ يجب أن يُميّز المرء إن كانت أقرب إلى الصواب، أم هي إلى الخطأ أقرب. ولكن إذا كانت كل الحقائق قد عُرضت، فإنه عندئذٍ يجب عليه أن يقرّر تماماً بين هذين الأمرين. وحتى عندما لا يكون المرء إيجابياً بخصوص أصالة المعلومة، إلا أنه ما زال مطلوباً منه أن يُعْمِل عقله في كل المعلومات ليعترف بأنه فقط لا يعرف ذلك على وجه الدقة.

ومع أن هذه النقطة الأخيرة تبدو وكأنها غير ذات قيمة واقعية، إلا أنها مفيدة للوصول إلى نتيجة إيجابية فيما بعد، وذلك لأنها تُرغم المرء على الأقل بأن يتعرّف ويبحث ويعيد النظر في الحقائق. وهذا التآلف مع المعلومات سيروّد الإنسان بالحد الفاصل عندما تتم الاكتشافات المستقبلية وتُعرض معلومات إضافية، فالشيء المهم هو أن يتعامل المرء مع الحقائق، لا أن يبندها — هكذا وبساطة — وراء ظهره بدافع العاطفة أو اللامبالاة.

سكت قليلاً، ثم قال: اليقين الحقيقي بخصوص صحة القرآن الكريم واضح من خلال الثقة التي تُهَيِّمُ خلال آياته، وهي الثقة التي تأتي بطريقة مختلفة، ألا وهي (استتراف البدائل)، فالقرآن الكريم أساساً يؤكد أنه وحيٌ يوحي، فإن كان هناك من لا يصدّق ذلك، فليثبت له مصدراً آخر! وهذا هو التحدي.

لدينا هنا كتابٌ مصنوعٌ من الورق والحبر، فمن أين أتى؟ وهو يقول أنه وحيٌ إلهي؛ فإن لم يكن كذلك، فما هو مصدره؟ والحقيقة المثيرة هي أنه لا يوجد أحدٌ على الإطلاق لديه تفسيرٌ يصلح ليناقض ما جاء في القرآن الكريم.

في الواقع، لقد تمَّ استتراف كلِّ البدائل، وحيث أن هذا الفكر قد أُسِّس من قِبَل غير المسلمين فقد احتزلت هذه البدائل لتصبح مقصورةً على مدرستين فكريّتين تبادلياً، مُصرِّين في ذلك على إحداها أو على الأخرى. فمن ناحيةٍ توجد مجموعةٌ كبيرةٌ من الذين بحثوا في القرآن الكريم لمئات السنين والذين يدعون قائلين: «نحن متأكدون من شيء واحد، وهو أن ذلك الرَّجُلَ مُحَمَّدًا كان يتوهَّم أنه نبي.. فقد كان مجنوناً»، فهم مقتنعون بأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كان مخدوعاً بطريقةٍ ما.

ومن ناحيةٍ أخرى فإنَّ هناك مجموعةٌ أخرى تدّعي: «بوجود هذا الدليل (الجنون)، فإننا يقيناً نعرف شيئاً واحداً، وهو أن ذلك الرَّجُلَ مُحَمَّدًا كان كاذباً»

وما هو مدعاةٌ للسخرية أن هاتين المجموعتين لا يبدو أبداً أنهما يجتمعان دون تناقض، وفي الواقع، فإنَّ العديد من المراجع التي كتبت عن الإسلام عادةً تدّعي النظريتين معاً. فهم يبدوون بالقول بأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كان مجنوناً، وينتهون بأنَّه كان كاذباً.

ويبدو أنَّهم لا يدركون أبداً بأنَّه ﷺ لم يكن بالإمكان أن يكون الاثنان معاً! لكنَّ الكثير من المراجع في العادة تذكر هذين الأمرين معاً.

فمثلاً، إذا جنَّ أحد النَّاسِ وطنَّ حقاً أنه نبيٌّ، فإنَّه لن يقضي الليل بطوله مُحَطَّطاً: «كيف سأخدع النَّاسَ غداً ليظنُّوا أنني نبيٌّ؟»، فلاَّته يؤمن فعلاً بأنَّه نبيٌّ، هو واثقٌ بأنَّ الإجابة على أيِّ تساؤلٍ ستأتيه عن طريق الوحي.

وفي واقع الأمر، فإنَّ جزءاً كبيراً من القرآن الكريم نزل على شكل ردود على تساؤلات، فكان أحدهم يسأل رسول الله مُحَمَّدًا ﷺ سؤالاً، فيترل الوحي بالإجابة. ومؤكدٌ أن أحد النَّاسِ إن كان مجنوناً ويعتقد بأنَّ ملاكاً سوف يلقي الإجابة في أذنه، فإنَّه عندئذ حين يسأله أحد النَّاسِ سؤالاً سيظنُّ بأنَّ ملاكاً سيأتيه بالإجابة. فلاَّته مجنون، هو حقاً سيظنُّ ذلك. ولن يطلب من السائل الانتظار بُرْهةً، ثم يذهب إلى أصحابه ليسألهم: «هل يعرف أيُّ منكم الإجابة؟» فهذا النوع من السلوك هو ميزةٌ لغير المؤمن بأنَّه نبي.

ما يرفض قبوله غير المسلمين هو أن الإنسان لا يستطيع أن يكون الاثنان معاً، فهو إمَّا أن يكون متوهِّماً وإمَّا كاذباً. وبطريقةٍ أخرى، فهو إمَّا أن يكون واحداً منهما أو لا يكون كلاهما؛ وقطعاً لا يمكنه أن يكون الاثنان معاً! ويجب التأكيد هنا على حقيقة أن هاتين الصفتين — بديهياً — هما سمتان شخصيتان تبادليتان.. أي حيث توجد إحداها فلا وجود للأخرى.

التفت إلي، وقال: سأذكر لك حواراً يمثل هذه الحلقة المفرغة التي يدور فيها غير المسلمين بشكل دائم. فإذا سألت أحدهم: «ما هو مصدر القرآن الكريم؟»، فإنه سيحييك بأن مصدره هو عقل رجل كان مصاباً بالجنون، وعندئذ تسأله: «إن كان قد جاء به من رأسه، فمن أين حصل على المعلومات الختواة فيه؟ فمن المؤكد أن القرآن الكريم يذكر أشياء كثيرة لم يكن العرب يعرفونها»، ولكي يستطيع أن يفسر الحقيقة التي قدمتها له فإنه سيغير موقفه ويقول: «حسناً، ربّما لم يكن مجنوناً، بل ربّما كان بعض الأعاجم يعطونه تلك المعلومات، وهكذا كذب على الناس وأخبرهم بأنه كان نبياً»

وعند هذه النقطة يجب أن تسأله: «إذا كان محمد كاذباً، فمن أين حصل على ثقته بنفسه؟ ولماذا كان يتصرف وكأنه كان نبياً فعلاً؟»

وفي النهاية — وعندما يكون قد حُشر في الزاوية — فإنه كالقطة سيندفع فجأةً وبسرعة بأول ردٍ يخطر على باله — ومتناسياً أنه قبل ذلك استثنى ذلك الاحتمال — ليدعي: «حسناً، ربّما لم يكن كاذباً. ربّما كان مجنوناً وحقاً كان يعتقد أنه نبي»، وهكذا يبدأ دورانه في الحلقة المفرغة من جديد.

لقد ذكر القرآن الكريم هذا، واعتبره من أساليب الكفار في جحد الحقائق، فالله ﷻ يقول: ﴿أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤)﴾ (الدخان)

سكت قليلاً، وكأنه يسترجع ذكرياته مع أمثال هؤلاء الجاحدين الذين ملأوا الدنيا بالشبهات الجوفاء، ثم قال: قبل سبع سنوات تقريباً، زارني أحد الرهبان في بيتي، وفي تلك الحجرة التي كنا نجلس فيها كان هناك قرآن على الطاولة ووجهه إلى الأسفل، فلم يعرف الرّاهب أيّ كتاب هو.

وفي منتصف نقاشنا، أشرت إلى الكتاب قائلاً: «أنا لديّ الثقة بهذا الكتاب»، فأجاب ناظراً إلى القرآن الكريم من غير أن يعرف ما هو: «حسناً، وأنا أقول لك بأنه إن كان ذلك الكتاب ليس الإنجيل، فقد أُلّف من قِبَل الإنسان»، فكان ردّي عليه: «دعني أحدثك شيئاً عمماً جاء في هذا الكتاب»، وخلال ثلاث أو أربع دقائق فقط ذكرت له ما يتعلق ببعض الأمور الموجودة في القرآن الكريم.

وبعد تلك الثلاث أو الأربع دقائق فقط غير موقفه تماماً وقال: «أنت على حقّ، فالإنسان لم يؤلّف هذا الكتاب، بل الشيطان هو الذي ألّفه!»

طبعاً، اتّخاذ مثل هذا الموقف هو غاية في سوء الطالع، وذلك لأسباب عدّة، منها أنه عُذْرٌ مُتسرّعٌ ورخيصٌ كمخرَجٍ فوريٍّ من ذلك الوضع المزعج.

وفيما يتعلّق بهذا الأمر، هناك قصّة مشهورة في الإنجيل تذكر كيف أنّ بعض اليهود في أحد الأيام كانوا شهوداً حين أقام يسوع رجلاً من الموت، كان ذلك الرجل ميتاً لأربعة أيّام، وعندما وصل يسوع، قال ببساطة: «انفض»، فقام الرجل ومشى في طريقه. وحين رأوا هذا المشهد، قال بعض الشهود من اليهود مُنكرين: «هذا هو الشيطان. الشيطان هو الذي ساعده»

وهذه القصّة تُكرّر الآن كثيراً في الكنائس في جميع أنحاء العالم، والناس يذرفون دموعاً غزيرةً لسماعها قائلين: «آه، لو كنت هناك، فما كنت لأكون غيباً مثل اليهود!»، ويا للسخرية، فمع هذا فإن هؤلاء الناس

يفعلون ما فعله اليهود تماماً حين تعرض عليهم — في ثلاث أو أربع دقائق — جزءاً صغيراً فقط من القرآن الكريم؛ وكلُّ ما يستطيعون قوله هو: «آه، الشيطان فعل ذلك.. الشيطان هو الَّذي أَلَفَ هذا الكتاب! » لأنَّهم حقاً يكونون قد حُشِرُوا في الرَّأوية؛ وحين لا يملكون أيَّ إجابةٍ مقبولة، فإنَّهم يلتجئون إلى أسرع وأرخص حُجَّةٍ مُتاحةٍ لهم.

ومثلُ آخرٍ على استخدام النَّاس لهذا الموقف الضَّعيف يمكن إيجاده في تفسير كَفَّار مَكَّة لمصدر رسالة مُحَمَّدٍ ﷺ فقد اعتادوا القول بأنَّ الشيطان هو الَّذي يُملِي عليه القرآن! لكنَّ القرآن — كعادته مع أيِّ حُجَّةٍ لهم — يقدِّم الإجابة على ذلك: فيقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) ﴾ (التكوير)

وهكذا فإنَّ القرآن يعطي ردّاً جليلاً على هذا الادِّعاء، في الواقع، هناك العديد من البراهين في القرآن الكريم جاءت كردِّ على الادِّعاء بأنَّ الشيطان هو الَّذي أملى على مُحَمَّدٍ ﷺ رسالته، فمثلاً في سورة الشعراء: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) ﴾ (الشعراء) وفي مكانٍ آخر في القرآن الكريم يعلمنا الله ﷻ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾ (النحل)

فهل بهذه الطريقة يكتب الشيطان كتاباً؟.. وهل يقول للإنسان: « قبل أن تقرأ كتابي، اسأل الله أن يحفظك مني؟ » فما هذا إلا افتراءٌ كبير، كبيرٌ جداً.

سكت قليلاً، ثم واصل حديثه عن الأساليب التي يمارسها أعداء الإسلام في عرض شبهاتهم، فقال: بالإضافة إلى الحجج التي يقدِّمها غير المسلمين في محاولاتهم النافهة لتبرير وجود الآيات التي لا يفهمونها في القرآن الكريم، فإنَّ هناك هجوماً آخر غالباً ما يظهر كمزيجٍ من النظريتين معاً، وهو أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كان مجنوناً وكاذباً، فأولئك النَّاس يقترحون أساساً بأنَّه ﷺ كان مجنوناً، وكنسيجةً لتوهُّمه فقد كذب وضلَّ النَّاس.

ولهذا اسمٌ في علم النَّفس، وهو الميثومانيا Mythomania أو المسُّ الأساطيري، وهو نزوعٌ مفرطٌ أو غير سويٍّ إلى الكذب والمبالغة، وهو يعني ببساطة أنَّ الإنسان يكذب، ثمَّ يصدِّق ما كذب.

وهذا هو ما يدَّعيه غير المسلمين عمَّاً كان يعاني منه مُحَمَّدٌ ﷺ إلا أنَّ المشكل الوحيد الَّذي يواجهونه بخصوص هذه الحُجَّة هو أنَّ الإنسان الَّذي يعاني من الميثومانيا لا يمكنه التعامل مع الحقائق مطلقاً، مع أنَّ القرآن الكريم كلُّه قائمٌ تماماً على الحقائق، فكلُّ ما فيه يمكن بحثه والتثبت من صحَّته، في حين أنَّ الحقائق تعتبر مشكلاً كبيراً للمصاب بالميثومانيا.

فعندما يحاول الطبيب النفسيُّ علاج أحد الَّذين يعانون من هذا المرض، فإنَّه باستمرارٍ يواجهه بالحقائق، فمثلاً، إذا كان أحدهم مريضاً نفسياً ويدَّعي قائلاً: « أنا ملكٌ إنجلترا! »، فإنَّ الطبيب النفسيُّ لا يقول له: « لا، أنت لست كذلك، بل أنت مجنون! » فالطبيب لا يفعل ذلك، بل بدلاً من ذلك يواجهه ببعض الحقائق قائلاً: « حسناً، أنت تقول بأنَّك ملكٌ إنجلترا، لذا قل لي أين هي الملكة اليوم؟ وأين رئيس وزراءك؟ وأين هم حراسك؟

«

وعندما يكون لدى هذا المريض مشكل في محاولته التعامل مع هذه الأسئلة، سيحاول إيجاد الأعذار: «آه... الملكة... ذهبت إلى بيت أمها.. آه... رئيس الوزراء... حسناً، لقد مات»

وفي النهاية سيشفى من مرضه تماماً لأنه لم يستطع التعامل مع الحقائق، فإذا استمرَّ الطبيب النفسي بمواجهته بحقائق كافية، فإنه بالنَّهاية سيواجه الواقع قائلاً: «أظنُّ بأنِّي لست ملك إنجلترا»

والقرآن يصل إلى كلِّ إنسانٍ يقرأه بنفس الطريقة التي يعالج بها الطبيب النفسي مريضه بالمشومانيا. يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧)

للوهلة الأولى قد يبدو هذا التصريح غامضاً، ولكنَّ المعنى لهذه الآية يتَّضح عندما يُنظر إليها على ضوء المثل السابق، فالإنسان يُشفى أساساً من أوهامه بقراءة القرآن الكريم. فهو في جوهره علاجٌ يشفي الضَّالِّين تماماً وذلك بمواجهتهم بالحقائق.

سكت قليلاً، ثم قال: في الواقع، يوجد مرجعٌ مثيرٌ للاهتمام بخصوص هذا الموضوع في الموسوعة الكاثوليكيَّة الجديدة. ففي فقرةٍ بخصوص موضوع القرآن الكريم تُصرِّح الكنيسة الكاثوليكيَّة: «عبر القرون الماضية قُدِّمت نظريات كثيرةٌ عن أصل القرآن.. واليوم لا يوجد إنسانٌ عاقل يقبل بأيِّ منها»  
فها هي الكنيسة الكاثوليكيَّة المُعمرَّة، والمائلة هنا وهناك لقرونٍ عديدة، تنكر تلك المواقف التافهة لدحض أصل القرآن الكريم.

القرآن الكريم بالطبع يمثِّل مشكلاً للكنيسة الكاثوليكيَّة، فهو يصرِّح بأنَّه وحيٌّ من الله تعالى، ولذلك هم يدرسونه، ومن المؤكَّد أنَّهم يؤدُّون إيجاد برهانٍ على أنه ليس كذلك، ولكنَّهم لا يستطيعون، فهم لا يستطيعون إيجاد تفسير مقبول، لكنَّهم على الأقلِّ شرفاء في بحثهم، ولا يقبلون بأوَّل تفسيرٍ غير مدعومٍ بدليل يأتي إليهم. فالكنيسة تصرِّح بأنَّه — وخلال أربعة عشر قرناً — لم يُقدِّم بعد تفسيرٌ معقول. فهي بذلك على الأقلِّ تعترف بأنَّ القرآن الكريم ليس موضوعاً سهلاً الإنكار.

لكن هناك بالتأكيد آخرون ممن هم أقلُّ شرفاً حين يقولون على عَجَلٍ: «آه، لقد جاء القرآن من هنا، أو من هناك»

وهم حتَّى لا يتفحَّصون مصداقية ما يصرِّحون به في معظم الأحيان. وطبعاً، فإنَّ مثل هذا التصريح من الكنيسة الكاثوليكيَّة يسبِّب للمسيحيِّ العاديِّ شيئاً من الصُّعوبة، وذلك لأنه ربَّما يكون لديه أفكاره الخاصَّة عن أصل القرآن، ولكنَّه كعضوٍ في الكنيسة لا يستطيع التصرُّف حقاً حسب نظريته. فمثل هذا التصرُّف قد يكون مناقضاً للخضوع والإخلاص والولاء الذي تطلبه الكنيسة. فموجب عضويته في الكنيسة، يتوجَّب عليه قبول ما تعلنه الكنيسة الكاثوليكيَّة دون سؤال، وأن يجعل تعاليمها كجزءٍ من روتينه اليوميِّ. لذا، فجوهرياً إذا كانت الكنيسة الكاثوليكيَّة في عمومها تقول: «لا تستمعوا لتلك التقارير غير المؤكَّدة حول القرآن»، فما يمكن أن يقال حول وجهة النَّظر الإسلاميَّة؟ حتَّى غير المسلمين يعترفون بأنَّ هناك شيئاً في القرآن — شيئاً كان يجب أن يكون معترفاً به — إذا فلماذا يكون النَّاس عنيدين، وهجوميين، وعدائيين، حين يقدِّم المسلمون نفس

النظرية؟ هذا بالتأكيد شيء لأولي الألباب ليتأملوا فيه.. شيء للتأمل لأولئك الذين يعقلون!  
قام حديثاً واحداً من المفكرين القبايين في الكنيسة الكاثوليكية — يدعى هانز — بدراسة القرآن الكريم،  
وأدلى برأيه فيما قرأ. هذا الرجل أثبت حضوره القوي على الساحة ولزمن طويل، وهو ذو منزلة رفيعة في  
الكنيسة الكاثوليكية، وبعد تفحص دقيق نشر ما وجدته مستنتجاً: «إن الله قد كلم الإنسان من خلال الإنسان،  
محمد»

ومرة أخرى يأتي هذا الاستنتاج من مصدر غير مسلم — وهو مفكر قيادي كبير في الكنيسة الكاثوليكية  
نفسها! أنا لا أظنُّ بأن البابا يتفق معه، ولكن على الرغم من ذلك فإن رأي مثل هذه الشخصية العامة ذائعة  
الصيت وذات السمعة الحسنة يجب أن يكون له وزنه في الدفاع عن الموقف الإسلامي. ويتوجب التصفيق له  
لمواجهته الواقع بأن القرآن الكريم ليس شيئاً يمكن أن يلقي بعيداً بسهولة، وبأن الله تعالى حقاً هو مصدر  
كلماته.

التفت إلي، وقال: يتضح من كل ما تقدّم سابقاً بأن كل البدائل قد استنزفت، ولذا فالفرصة لإيجاد  
إمكانية أخرى لإنكار القرآن الكريم لا وجود لها، لأن هذا الكتاب إن لم يكن وحياً، فإنه عندئذٍ خداع؛ وإن  
كان خداعاً، فإن على الإنسان أن يتساءل: «فما هو مصدره؟ وفي أي جزء منه يقوم بخداعنا؟»  
وطبعاً فإن الإجابات الصحيحة على هذه التساؤلات تُلقى الضوء على أصالة القرآن الكريم، وتُسكت  
ادعاءات الكفار اللاذعة وغير القائمة على دليل.

ومن المؤكد أنه إذا استمر أولئك الناس بالإصرار على أن القرآن الكريم ما هو إلا خداع، فإنه يتوجب  
عليهم تقديم البرهان الذي يدعم ادعاءهم. فعبء إيجاد البرهان يقع على عاتقهم، وليس على عاتقنا! فلا يُفترض  
من أحدهم أبداً أن يقدم نظرية بدون حقائق كافية تعززها؛ لذا فأنا أقول لهم: «أروني خداعاً واحداً! أروني أين  
يخدعني القرآن الكريم! أروني ذلك، وإن لم تفعلوا، فلا تقولوا لي بأنه خداع!»

### فوزي صبحي سمعان:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فوزي صبحي سمعان) <sup>١</sup>، فسألت البابا عنه،  
فقال: التقيت به في مصر، وقد ذكر لي أن سبب إسلامه هو تلك الألباز الكثيرة التي تمتلئ بها الكنيسة، ولا  
يطبق العقل أن يجد لها أي تفسير.

لقد ذكر لي أن هذه الحواطر المملوءة بالشبهات بدأت منذ صغره.. حيث كان يخدم كاتدرائية كنيسة  
(ماري جرجس) في مدينة الزقازيق المصرية.

فخلف أسوار تلك الكاتدرائية كان يجلس فوزي الشاب — وهو يحمل بأن يحصل على رتبة (القس) —  
يستمتع إلى القس الأكبر.

ولكنه لم يكن منفعلًا لما يسمع.. بل كان شارداً تتنازعه أفكار ثقيلة كلما انتبه لصوت قسيس الكنيسة

(١) انظر: مجلة الفيصل في عددها الصادر في أكتوبر ١٩٩٢.



مناجياً المسيح: (يا ابن الله يا مخلصنا وإلهنا)

وقد ذكر لي أنه كان ينتفض طارداً الفكرة، لكنها تلح عليه مرة أخرى.

لقد كان يقول لنفسه، أو كانت نفسه تقول له: «لقد قالوا لنا إن المسيح صلب وعذب ولم يكن قادراً

على تخليص نفسه من الصلب والتعذيب المبرح.. فكيف يتأتى له أن يخلصنا؟!»

ولم تتوقف مثل هذه الخواطر عند ذلك العمر وعند ذلك الحد..

لقد امتدت خواطره أو وساوسه إلى الأسرار السبعة متعجبا منها:

السر الأول، وهو (التعميد) بيئر داخل الكنيسة.. صلي عليها فحل بها الروح القدس.. الطفل يغمس فيها

فيصبح مسيحياً بكل بساطة..

السر الثاني: وهو (الاعتراف) إذ يجلس النصراني المذنب أمام نصراني أكبر منه رتبة (قس - مطران -

بطريك - بابا) ليعترف أمامه بكل شيء ويضع الأخير عصاه على رأسه ويتمم ببعض الكلمات مانحاً إياه

صك الغفران..

وقد أخبرني عن حوار دار بين بعض القسس، وبين طبيب نصراني، يقول الطبيب: القس يغفر لي، فمن

يغفر للقس؟.. قال: البابا... قال: ومن يغفر للبابا؟ قال: الله.. قال: فلماذا لا نعترف لله مباشرة ليغفر لنا؟!..

لماذا نفضح أنفسنا أمام الناس وقد سترنا الله؟!!

السر الثالث: هو الشرب من دم المسيح هكذا.. حيث يأتي النصراني بالنيبذ ليصلي عليه القس فيتحول إلى

دم مبارك هو دم المسيح ليشربه النصراني بولّه وخشوع.

وتساءل صاحبنا: إذا كان المسيح مخلصنا، فلماذا نشرب من دمه؟ فنحن نشرب من دم عدونا فقط.

السر الرابع: هو أكل لحم المسيح، قرابين تصنع من الدقيق ليرتل عليها القس فتتحول إلى جزء من جسد

المسيح يأكلونه، وتساءلت النفس المتمردة.. لماذا نأكل لحم المسيح وهو إلهنا وأبونا؟!!

والأسرار الثلاثة الأخيرة هي الأب والابن والروح القدس.. ويقولون تثليث في توحيد.. وكل ذلك لا

يمكن أن يقبله عقل.

وأخبرني أن نفسه كانت تتألم، وهو يسمع صوت القس ومعه جموع المخدوعين بقانون الإيمان.. وهم

يقولون (بالحقيقة نؤمن).. - (إله واحد).. الأب.. ضابط الكل.. خالق السماء والأرض.. ما يرى وما لا

يرى.. نؤمن برب واحد يسوع المسيح.. ابن الله الوحيد.. المولود من الأب قبل كل الدهور.. نور من نور..

إله حق.. إله حق.. مولود غير مخلوق.. تساوى الأب في الجوهر.. هذا الذي كان به كل شيء.. هذا الذي

كان من أجلنا - نحن البشر - نزل من السماء فتحسد من الروح القدس ومن مريم العذراء.. وصلب وقبر

عنا.. وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتاب.. و.. و..

لقد كان يتعجب من ذلك التناقض، فهم يقولون: إله واحد، ثم يقولون المسيح ابن الله الوحيد؟!.. كيف

وكل مولود مخلوق!!

ويقولون: صلب وقبر من أجلنا.. فكيف يليق بالرب خالق الكون أن يصلبه ويعذبه أحد خلقه؟!!

وأخبرني عن كيفية دخوله الإسلام، فذكر أنه مضى إلى الهيكل مباشرة حيث لا يرى من بداخله.. وسجد مثلما يسجد المسلم.. وبكى بحرقة، وابتهل إلى رب الخلق أجمعين الواحد الأحد، وقال: ربي.. أنت تعلم أنني في حيرة شديدة، فإن كانت النصرانية هي الحق فاجعل روح القدس تحل عليّ الآن.. وإن كان الإسلام هو الحق فأدخله في قلبي.

وقد أخبرني أنه ما إن قال حتى انشرح صدره للإسلام.  
وقبل أن يخرج من الكنيسة عرج على القس وألقى عليه بعض التساؤلات.. لم يجبه ولكن سأل: هل تقرأ القرآن؟ فقال: نعم.. اكفهر وجه القس وصرخ: نحن فقط الذين نقرأ القرآن أما أنت والعامّة فلا.. وخرج ولم يعد للكنيسة.

وأخبرني بالبلاء الذي تعرض له بعد إسلامه، وبأنواع الفضل التي وهبها الله له هدية لإسلامه:  
فقد اجتمع إخوته وتشاؤروا واتخذوا القرار ووضعوا طريقة التنفيذ.. لا بد أن يقتل لقد عصى الرب وأهان الكنيسة.. وجاء من يخبره ويشير عليه.. وهرب الفتى من قريته، وقلبه على إخوته.. يدعو لهم بالهداية واستجاب الله دعاءه.. فأسلمت أخته.. ولم يمض وقت طويل حتى أشهر أبوه إسلامه ليموت على الإسلام بعد عام ونصف.

### رحمة بورنومو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (رحمة بورنومو)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لقد كان قبل إسلامه قسا وورئيساً للتبشير في كنيسة (بيتل إنجيل سبينوا)<sup>٢</sup>.. وهو من عائلة دينية<sup>٣</sup>، فقد كان جده قسيساً ينتمي إلى مذهب البروتستانت، وكان أبوه قسيساً على مذهب بانتي كوستا، وكانت والدته معلمة الإنجيل للنساء.

وقد كان حديثه — في بحثه عن الحق — يشبه حديث سلمان الفارسي، وسأورده عليك كما ذكره لي:  
لقد ذكر لي أنه في البدء أنه كان قد امتلاً بما يمتلئ به الكثير من رواد الكنيسة والقائمين عليها من حقد على الإسلام.. قال: لم يخطر ببالي ولو للحظة واحدة أن أكون من المسلمين، إذ أنني منذ نعومة أظفاري تلقيت التعليم من والدي الذي كان يقول لي دائماً: «إن محمداً رجل بدوي صحراوي ليس له علم ولا دراية، ولا يقرأ وأنه أمي»، هكذا علمني أبي، بل أكثر من ذلك فقد قرأت للدكتور ريكولدي النصراني الفرنسي قوله في كتاب له بأن محمداً رجل دجال يسكن في الدرك التاسع من النار، وهكذا كانت تساق المفتريات الكثيرة لتشويه شخصية الرسول ﷺ، ومنذ ذلك الحين تكونت لدي فكرة مغلوطة راسخة تدفعني إلى رفض الإسلام، وعدم اتخاذه ديناً.

(١) انظر: مجلة الفيصل في عددها الصادر في أكتوبر ١٩٩٢.

(٢) انظر: كتاب (علو الهمة) للشيخ محمد بن إسماعيل ص (٢٣٩-٢٥٤) بتصرف.

(٣) ينسب إلى أب هولندي وأم إندونيسية من مدينة (أمبون) الواقعة في جزيرة صغيرة في أقصى الشرق من جزر إندونيسيا، والمسيحية هي الدين الموروث لأسرته أباً عن جد.

وقد كانت هذه الشبهات هي السبب في تأخر إسلامه.. فهو لم يكتشف الإسلام إلا بعد أن مر على مذاهب مختلفة، وديانات مختلفة.

قلت: ما الذي جعله يفكر في تغيير دينه؟

قال: لقد ذكر لي قصة ذلك، فقال: «في يوم من الأيام أرسلتني قيادة الكنيسة للقيام بأعمال تبشيرية لمدة ثلاثة أيام ولياليها في منطقة (دايري) التي تبعد عن عاصمة (ميدان) الواقعة في شمال جزيرة (سومطرة) بضع مئات من الكيلومترات، ولما انتهيت من أعمال التبشير والدعوة أويت إلى دار مسئول الكنيسة في تلك المنطقة، وكنت في انتظار وصول سيارة تقلني إلى موقع عملي، وإذا برجل يطلع علينا فجأة، لقد كان معلماً للقرآن، وهو ما يسمى في إندونيسيا مطوع في الكتاب، وهو المدرسة البسيطة التي تعلم القرآن، لقد كان الرجل ملفتاً للأنظار، كان نحيف الجسم، دقيق العود يرتدي كوفية بيضاء بالية حلقة، ولباساً قد تبدل لونه من كثرة الاستعمال، حتى أن نعله كان مربوطاً بأسلاك لشدة قدمه، اقترب الرجل مني، وبعد أن بادلني التحية بادرنى بالسؤال التالي، وكان سؤالاً غريباً من نوعه، قال: (لقد ذكرت في حديثك أن عيسى المسيح إله، فأين دليلك على ألوهيته؟)، فقلت له: (سواء أكان هناك دليل أم لا فالأمر لا يهكم: إن شئت فلتؤمن، وإن شئت فلتكفر) وهنا أدار الرجل ظهره لي، وانصرف، ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد أخذت أفكر في قرارة نفسي، وأقول: هيهات هيهات أن يدخل هذا الرجل الجنة، لأنها مخصصة فقط لمن يؤمن بألوهية المسيح فحسب، هكذا كنت أعتقد جازماً آنذاك.

ولكن عندما عدت إلى بيتي وجدت أن صوت الرجل يجلجل في روحي، ويدق بقوة في أسماعي، مما دفعني إلى الرجوع إلى كتب الإنجيل بحثاً عن الجواب الصحيح على سؤاله «

ثم ذكر لي أنه أخذ يدرس الأناجيل الأربعة لبحث فيها عن الدليل.. قال: «فماذا وجدت؟ هذا إنجيل متى ماذا يقول عن المسيح عيسى عليه السلام؟ إننا نقرأ فيه ما يلي: (إن عيسى المسيح ينتسب إلى إبراهيم وإلى داود.. إلخ) (١-١) إذن من هو عيسى؟ أليس من بني البشر؟ نعم إذن فهو إنسان، وهذا إنجيل لوقا يقول: (ويملك علي بيت يعقوب إلى الأبد، ولا يكون لملكه نهاية) (١-٣٣)، وهذا إنجيل مرقس يقول: (هذه سلسلة من نسب عيسى المسيح ابن الله) (١). وأخيراً ماذا يقول إنجيل يوحنا عن عيسى المسيح عليه السلام؟ إنه يقول: (في البدء كان الكلمة، وكان الكلمة عند الله، وكان الكلمة الله) (١:١)، ومعنى هذا النص هو في البدء كان المسيح، والمسيح عند الله، والمسيح هو الله.

قلت لنفسي: إذن هناك خلافاً بارزاً بين هذه الكتب الأربعة حول ذات المسيح عيسى عليه السلام أهو إنسان أم ابن الله أم ملك أم هو الله؟ لقد أشكل علي ذلك، ولم أعثر على جواب.

ثم واصلت البحث، فوجدت في إنجيل يوحنا نصوصاً تشير إلى دعاء المسيح عليه السلام وتضرعه إلى الله سبحانه وتعالى. فقلت في نفسي: لو كان عيسى هو الله القادر على كل شيء فهل يحتاج إلى هذا التضرع والدعاء الذي ورد في إنجيل يوحنا، هذا هو نص الدعاء: (هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته، أنا مجدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته) (١٧-

٣-٤) وهو دعاء طويل يقول في نهايته: (أيها الرب البار، إن العالم لم يعرفك، أما أنا فعرفتك وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني وعرفتهم اسمك، وسأعرفهم ليكون فيهم الحب الذي أحببتي به) (١٧-٢٥-٢٦).

هذا الدعاء يمثل اعترافاً من عيسى عليه السلام بأن الله هو الواحد الأحد، وأن عيسى هو رسول الله المبعوث إلى قوم معينين، وليس إلى جميع الناس، فأى قوم هم هؤلاء يا ترى؟ نقرأ جواب ذلك في إنجيل متى (١٥-٢٤) حيث يقول: (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)، إذن لو ضممنا هذه الاعترافات إلى بعضها لأمكننا أن نقول: (إن الله الواحد الأحد، وإن عيسى عليه السلام هو رسول الله إلى بني إسرائيل).

ثم واصلت البحث، فتذكرت أنني حين أكون في صلاتي أقرأ دائماً العبارات التالية: (الله الأب، الله الابن، الله الروح القدس، ثلاثة في أقنوم واحد)، قلت لنفسي: أمر غريب حقاً، فلو سألتنا طالباً في الصف الأول الابتدائي (١+١+١=٣؟)، لقال: (نعم)، ثم إذا قلنا له: (ولكن أيضاً ٣=١)، لما وافق على ذلك، إذ إن هناك تناقضاً صريحاً فيما نقول، لأن عيسى عليه السلام يقول في الإنجيل كما رأينا بأن الله واحد، لا شريك له.

لقد حدث تناقض صريح بين العقيدة التي كانت راسخة في نفسي منذ أن كنت طفلاً صغيراً، وهي: ثلاثة في واحد، وبين ما يعترف به المسيح عيسى نفسه في كتب الإنجيل الموجودة الآن بين أيدينا وهي أن الله واحد أحد لا شريك له، فأيهما هو أحق؟

لم يكن بوسعي أن أقرر آنذاك، والحق يقال، بأن الله واحد أحد، فأخذت أبحث في الإنجيل من جديد لعلني أقع على ما أريد، لقد وجدت في سفر أشعياء النص التالي: (اذكروا الأوليات منذ القدم، لأني أنا الله وليس آخر الإله، وليس مثلي) (٩:٤٦). ولشد ما كانت دهشتي عظيمة حين اعتنقت الإسلام فوجدت نفس هذا المعنى مطروقا في سورة الإخلاص.. نعم، مادام الكلام كلام الله فهو لا يختلف حيثما وجد، هذا هو التعليم الأول أو البديهية الأولى في ديانة المسيحية السابقة، إذن (ثلاثة في واحد) لم يعد لها وجود في نفسي « هذا هو السبب الأول الذي جعله يعيد نظره في ديانته..

أما السبب الثاني، فهو البديهية الثانية في المسيحية، والتي تنص على أن هناك ما يسمى بالذنب الوراثي أو الخطيئة الأولى، ويُقصد بها أن الذنب الذي اقترفه آدم عليه السلام عندما أكل الثمرة المحرمة عليه من الشجرة في الجنة، هذا الذنب سوف يرثه جميع بني البشر حتى الجنين في رحم أمه يتحمل هذا الإثم يولد أثماً.

قال: «لقد أخذت أبحث عن حقيقة ذلك، فلجأت إلى العهد القديم فوجدت في سفر حزقيال ما يلي: (الابن لا يحمل من إثم الأب، والأب لا يحمل من إثم الابن، بر البار عليه يكون، وشر الشرير عليه يكون، فإذا رجع الشرير عن جميع خطاياها التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقاً وعدلاً، فحياة يحيا ولا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه) (حزقيال ٢٠: ١٨-٢١).

وهذا المعنى يتفق تماماً مع ما ورد في القرآن الكريم الذي ينص على هذا في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر: ١٨)، وقوله ﷻ: «يُولد ابن آدم على الفطرة، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»

هذه هي القاعدة في الإسلام، ويوافقها ما جاء في الإنجيل، فكيف يقال: (إن خطيئة آدم تنتقل من جيل إلى جيل، وأن الإنسان يولد آثماً؟)»

أما السبب الثالث الذي دعاه إلى مراجعة معتقداته فهي البديهة الثالثة في التعاليم المسيحية، والتي تقول: إن ذنوب بني البشر لا تغفر حتى يصلب عيسى عليه السلام، يقول: «لقد أخذت أفكر في هذه البديهة، وأتساءل: (هل هذا صحيح؟) وكان الجواب الذي لا مفر منه: بالطبع لا، لأن النص الأنف الذكر من العهد القديم ينفي مثل هذا الاعتقاد بقوله: (فيذا رجع الشرير عن جميع خطاياها التي فعلها، وحفظ كل فرائضي، وفعل حقاً وعدلاً، فحياة يحيا ولا يموت، كل معاصيه التي فعلها لا تذكر عليه)، أي أن الله يغفر ذنوبه دون حاجة إلى أية وساطة من أحد.

بالإضافة إلى هذا، فقد راوده — بناء على هذا — شك عظيم في المعنى الذي يفهمه المسيحيون من الخلاص المسيحي، قال: «من التعاليم البديهة في الديانة المسيحية أن عيسى عليه السلام هو المنقذ المخلص للعالم، أي أنك إذا آمنت بألوهية عيسى فسوف تنجو، وهذا يعني أنك يمكنك أن تفعل ما تشاء غير آية بالذنوب والمعاصي ما دمت تؤمن بعيسى كمنقذ لك، شريطة أن تكون علي يقين بأنك من التابعين، قلت لنفسي: لا بد أن أبحث في الإنجيل وأعرف الحق من الباطل في ذلك، في سفر أعمال الرسل رسالة بولس الأولى إلى أهل كورينثوس يقول: الله قد أقام الرب وسيقيمنا نحن أيضاً بقوته (٦:١٤)، والقصة كما وردت في التعاليم المسيحية فيه كالاتي: أنه لما قبضوا على السيد المسيح عرضوه أمام العدالة فحكم عليه بالصلب، ثم دُفن فهنا تأتي الآية مناسبة لتلك القصة.

لقد علق (رحمة بورنومو) على هذا بقوله: «لقد تأملت هذه الآية طويلاً ثم قلت: إذا لم يتدخل الله في إقامة المسيح من القبر لبقني مدفوناً تحت التراب إلى يوم القيامة، إذن ما دام المسيح لم يستطع إنقاذ نفسه فكيف يكون بوسعه إنقاذ الآخرين؟ هل يلبق بياله — كما يزعمون — أن يكون عاجزاً عن ذلك؟»

قلت: كل ما ذكرته أسباب قوية يمكنها أن تزحزح أي مسيحي عن دينه.. فهل انتقل نتيجة لهذا إلا الإسلام؟

قال: لقد ذكرت لك ما امتلأ به الرجل من الشبهات.. ولهذا جعل الإسلام آخر تطوافه الباحث عن الحق.

لقد قال لي: «عند ذلك عزمت على الخروج من الكنيسة وعدم الذهاب إليها، كان ذلك في عام ١٩٦٩ حيث خرجت فعلاً ولم أعد أتردد على الكنيسة، وليس معنى ذلك أنني خرجت ذلك الحين من الديانة النصرانية نفسها، لأنه كما هو معلوم هناك كنائس ومذاهب شتى في الديانة النصرانية، فهناك الكاثوليك، والبروتستانت، والميثوديسنت، والبلابي كسلامتن، واليونيتاريان، وغيرها كثير، حتى أنني أستطيع أن أقول بأن هناك أكثر من ٣٦٠ مذهباً في الديانة النصرانية.

و ذات يوم لقيت صديقاً لي فدعاني إلى الكاثوليكية، وأخذ يعدد مميزات لهذا المذهب لم أجد مثلها في مذهبي البروتستانت، قال صديقي: (في هذا المذهب توجد حجرة الغفران، وهي عبارة عن غرفة في الكنيسة

يجلس فيها قس ذو لحية كثيفة يرتدي لباساً أسود، ويقعد على كرسي عال، ومن طلب العفو والغفران ذهب إليه، ورددَ بعض الألفاظ الغير المفهومة، وما أن يكاد يفرغُ من قراءتها حتى يقال له بأنه برئ من ذنوبه، ويرجع كيوم ولدته أمه، وهكذا قال لي صديقي، وأضاف قائلاً: كل ما تقترب يدك من الذنوب خلال أيام الأسبوع كفيل بأن يُغفر لك عند ذهابك إلى الكنيسة يوم الأحد، وحصولك على الغفران. فأنت لا تحتاج إلى الصلاة، ولا إلى العبادة، ولكن إذا تركت ذلك كله وذهبت إلى القس، واعترفت أمامه، عُفرت ذنوبك)

قال رحمة بورنومو: «لقد تذكرت ما يقرره الإسلام في ذلك، وهو أن البشر مهما علت رتبة أحدهم لا يمكن أن يُوكَل إليه غفران ذنوب العباد، كما أن التوبة والمغفرة لا تُسقط التكليف والفرائض، بل لا بد للتائب من أن يؤدي الصلوات الخمس اليومية في أوقاتها، فإذا تركها فلا قيمة لتوبته وعليه إثم كبير لا يمكن أن يتحملة عنه غيره من الناس.

ثم يقول: لقد رأيت الداخلين إلى حجرة الغفران في الكنيسة عليهم أمارات الحزن والكآبة لثقل الذنوب، بينما رأيت من يخرج منها وقد علت وجهه ابتسامة الفرح لاعتقاده بأن ذنوبه قد غفرت له، أما أنا فحين جربت تلك الغرفة دخلتها حزناً وخرجت منها حزناً، لأنني كنت أفكر وأتساءل: (هذه ذنوبنا يتحملها القس، ولكن من يتحمل ذنوبه هو؟) وهكذا لم أقتنع بالكاثوليكية فتركتها، وبحثت عن دين آخر.

بعد ذلك تعرفت على طائفة مسيحية أخرى تسمى (شهود يهوه) وهي مذهب آخر من مذاهب المسيحية، لقيت رئيسهم، وسألته عن تعاليم مذهبه، وقلت له: (من تعبدون؟)، قال: (الله)، قلت: (ومن هو المسيح؟) فقال: (عيسى هو رسول الله)، فصادف ذلك موافقة لما كنت أؤمن به، وأميل إليه، ودخلت كنيسةهم فلم أجد فيها صليباً واحداً، فسألته عن سر ذلك، فقال: (الصليب علامة الكفر، لذلك لا نعلقه في كنائسنا)

لقد وصف هذه الفترة من حياته، فقال: لقد أمضيت ثلاثة أشهر كاملة أتلقى تعاليم ذلك المذهب، وفي نهايتها كان لي الحوار التالي مع رئيس الكنيسة، وكان هولندياً، قلت له: (يا سيدي، إذا توفيت على هذا المذهب، فإلى أين مصيري؟) قال: (كالدخان الذي يزول في الهواء)، فقلت متعجباً: (ولكني لست سيجارة، بل أنا إنسان ذو عقل وضمير)، ثم سألته: (وأي اتجاه بعد الممات؟)، فقال: (توضع في ميدان واسع)، قلت له: (وأي ذلك الميدان؟) قال: (لا أعلم)، قلت: (سيدي إذا كنت عبداً مطيعاً ملتزماً بهذا المذهب، فهل أدخل الجنة؟) قال: (لا)، قلت: (فإلى أين إذن؟) قال: (الذين يدخلون الجنة عددهم ١٤٤ ألف شخص فقط، أما أنت فسوف تسكن الأرض مرة أخرى)، وهنا قاطعته قائلاً: (ولكن يا سيدي قد وقعت الواقعة، فالدنيا خربت)، قال: (أنت لا تفهم حقيقة القيامة، لو كان لديك كرسي وفوقه حشرات مؤذية، هل تحرق الكرسي لتخلص من الحشرات؟) قلت: (لا)، قال: (بل تقتل الحشرات ويبقى الكرسي سليماً، وهكذا تبقى الأرض سليمة بعد تطهيرها من الدنس والخطايا، وعندها ينتقل إليها الناس من ذلك الميدان، فليس هناك ما يسمى بالنار).

وهنا عملت فكري جيداً، ودرست الأمر وقلبته، حتى اتخذت القرار الأخير بترك المسيحية بجميع مذاهبها رسمياً، كان ذلك في عام ١٩٧٠، وفي أحد الأيام بينما كنت أسير في طريقي بحثاً عن الحق، رأيت معبداً بوذيّاً جميلاً ضخماً فاقتربت منه فوجدت فيه عدة تماثيل وصور وفي السقف تماثيل لتنين، وعلى الجدران مثل ذلك،

كما شاهدت أمام البوابة تمثالين على شكل أسد صامت، وما أن دخلت من البوابة حتى جاءني رجل فأوقفني، وسأل: (إلى أين؟) قلت: (أريد أن أدخل)، قال: (اخلع نعليك قبل أن تدخل، هذا معبد لنا فاحترم مكان عبادتنا)

ثم يقول: (لقد حربت الديانة البوذية فترة من الزمن، ولكن سرعان ما تركتها لإحساسي بأنني لم أجد الحق الذي أنشده، ثم اتصلت بالديانة الهندوسية التي بدأت ونشأت في الهند، والتي انتشرت تعاليمها حتى وصلت إلى بعض الجزر الإندونيسية، فأخذت أتقل بين تلك الجزر التي يوجد فيها نشاط لأتباع هذا الدين، ومكنت معهم فترة من الزمن تعلمت فيها الكثير، وقد نجحت في المرحلة الأولى إلى درجة أنني أخذت أجرى الخوارق كالعبور في النار، والمشي على المسامير الحادة، وإدخال المسامير في أعضاء الجسم إلى غير ذلك، ولكن أيضاً ليس هذا هو ما كنت أبحث عنه)

ثم يضيف: وذات يوم سألت رئيس المعبد الهندوسي: (ماذا تعبدون؟)، قال: نعبد (برهما، ويشنو، وشيوا)، برهما: إله الخلق، ويشنو: إله الخير، وشيوا: إله الشر، ثلاثة آلهة تجلت في جسد إنسان واحد اسمه كريشنا الذي يعتبر المنقذ للعالم عند الهندوس، قلت لنفسى: (إذن فلا فرق في أمر الألوهية بين الهندوسية والنصرانية، ولو اختلفت الأسماء فهما يناديان ثلاثة في واحد).

قلت للكاهن الهندوسي: (اشرح لي نشأة كريشنا)، فقال: كان في الهند سنة ألفين قبل الميلاد ملك جبار ظالم لا يرحم حتى أبناءه، فيقتل مولده الذكر خوفاً من أن يحتل عرشه غضباً، وفي إحدى الليالي الظلماء كان الملك جالساً أمام قصره، وإذا بكوكب مضئ يطلع في السماء فوق رأسه، وكان يسير بسرعة مذهلة، ثم توقف في الفضاء وأرسل نوره الباهر على حظيرة الأبقار، فلما سأل الملك رجال العلم والدين، راجعوا كتبهم المقدسة، فقالوا: إن ذلك دليل على تجلي الآلهة في جسم إنسان اسمه سري كريشنا، فقلت في نفسي: هذه القصة بخدافيرها مع تغيير الأشخاص موجودة في الديانة المسيحية، وكنت أحدث بما الناس وأنا قس، والفرق أن القرية المشار إليها هي بيت لحم، والإنسان عندنا هو المسيح، فلا فرق إذن بين القصتين ولا بين العقيدتين في قضية أساسية هي قضية الألوهية، وقضية هوية المنقذ للعالم.

لقد واصلت حوارى مع الكاهن الهندوسي فقلت له: (يا سيدي إذا توفيت وأنا على دينكم، فإلى أين مصري؟) قال: (لا أعلم، ولكن عليك أن تمتنع عن قتل الحشرات من أمثال النمل والبعوض وغيرها)، وقال: (قد تكون هذه الحشرات آباءك وأجدادك الموتى)

ثم يقول: (وفي النهاية قررت أن أترك كل تلك الديانات، ولم يكن أمامي إلا الإسلام الذي لم أكن أريد اعتناقه لما عُرس في نفسي منذ طفولتي من نفور وكرهية لهذا الدين الذي لم أكن أعرف عنه إلا الشبهات، كنت أريد البحث عن الحق المجهول وهذا البحث يلزم الجهد والصبر، وذات يوم قلت لزوجتي: اعتباراً من هذه الليلة لا أريد أن يزعجني أحد، أريد أن أصلي وأتضرع إلى الله، وهكذا أقفلت باب حجرتي ورفعت يدي إلى الله حاشعاً متضرعاً قائلاً: (يا رب.. إذا كنت موجوداً حقاً فخذ بناصيتي إلى الهدى والنور، واهدني إلى دينك الحق الذي ارتضيته للناس)

لقد ذكر لي أنه استمر على ذلك زمناً طويلاً، حوالي ثمانية أشهر، قال: وفي ليلة الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر عام ١٩٧١م الموافقة للعاشر من رمضان من نفس العام، وبعد أن فرغت من دعائي المعتاد رحت في نوم عميق، وعندها جاءني نور الهدى من الله عز وجل، إذ رأيت العالم حولي في ظلام دامس، ولم يكن بوسعي أن أرى شيئاً، وإذا بجسم شخص يظهر أمامي، فأمنعت النظر فيه، فإذا بنور حبيب يشع منه يبدد الظلمة من حولي، لقد تقدم الرجل المبارك نحوي، فرأيتته يلبس ثوباً أبيض وعمامة بيضاء، له لحية جعدة الشعر، ووجه باسّم لم أر قط مثله من قبل جمالاً وإشراقاً، لقد خاطبني الرجل بصوت حبيب قائلاً: (ردد الشهادتين)، وما كنت حينئذ أعلم شيئاً اسمه الشهادتين، فقلت مستفسراً: (وما الشهادتان؟) فقال: (قل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله) فكررتهما وراءه ثلاث مرات، ثم ذهب الرجل عني.

ولما استيقظت من نومي وجدت جسّمي مبللاً بالعرق، وسألت أول مسلم قابلته: (ما هي الشهادتين، وما قيمتهما في الإسلام؟)، فقال: (الشهادتان هما الركن الأول في الإسلام، ما أن ينطقهما الرجل حتى يصبح مسلماً)، فاستفسرت منه عن معناهما فشرح لي المعنى.

وبعد عشرين يوماً من ذلك الحادث وكانت ليلة عيد الفطر سمعت صيحات التكبير يرددّها المسلمون من المساجد القريبة من دارنا، فاقشعر بدني واهتز قلبي، ودمعت عيني لا حزناً على شيء، بل شكراً لله على هذه النعمة، فالحمد لله الذي هداني أخيراً إلى ما كنت أبحث عنه منذ سنين، لقد تم ذلك في عام ١٩٧١م وقد خيّرتُ زوجتي بين الإسلام والمسيحية، فاختارت الإسلام، والجدير بالذكر أنّها كانت في طفولتها مسلمة ومن عائلة مسلمة تنصرت بسبب إغراءات المبشرين، وتبعاً لجهلها بأمور دينها الحنيف، كما تبعنا أبناءنا فاعتنقوا الإسلام، ومنذ الثاني من شهر فبراير عام ١٩٧٢م ونحن مسلمون والحمد لله.

### عزت اسحاق معوض:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عزت اسحاق معوض)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: وقد التقيت به في مصر.. وقد لاحظت في كلامه نفحات الصدق التي أحرّبتني عنها معلم السلام، فسألته عنه، فقال لي: كنت عزت اسحاق معوض.. وأنا الآن محمد أحمد الرفاعي.. وكنت قُصصاً مسيحياً لا أهدأ ولا أسكن عن الدعوة إلى المسيحية.. وأنا الآن بحمد الله مسلم لا أمارس إلا حرفة واحدة هي الدعوة إلى الله، وإلى الإسلام العظيم الذي شرفني الله به.

قلت: فما قصة إسلامك؟

سكت قليلاً، يسترجع ذكرياته، ثم قال: نشأت في أسرة مسيحية مترابطة والتحققت بقداس الأحد وقد كان عمري حينها أربع سنوات.. وفي سن الثامنة كنت أحد شمامسة الكنيسة، وتميزت عن أقراني بإلمامي بالقبطية وقدرتي على القراءة من الكتاب المقدس على الجماهير.

ثم تمت إجراءات إعدادي للالتحاق بالكلية الأكليريكية، لأصبح بعدها كاهناً، ثم قُصصاً، ولكنني عندما

(١) انظر: صحيفة (المسلمون) — الصادرة في ٤ / ١٠ / ١٩٩١ (بتصرف)



بلغت سن الشباب بدأت أرى ما يحدث من مهازل بين الشباب والشابات داخل الكنيسة وبعلم القساوسة، وبدأت أشعر بسخط داخلي على الكنيسة، وتلفت حولي، فوجدت النساء يدخلن الكنيسة متبرجات ويجاورن الرجال، والجميع يصلي بلا طهارة وهم يرددون ما يقوله القس بدون أن يفهموا شيئاً على الإطلاق، وإنما هو مجرد تعود على سماع ذلك الكلام.

وعندما بدأت أقرأ أكثر عن المسيحية وجدت أن ما يسمى (القداس الإلهي) — الذي يتردد في الصلوات — ليس له دليل من الكتاب المقدس.

بالإضافة إلى هذا الخلافات الكثيرة بين الطوائف المختلفة، بل ودخل كل طائفة على حدة، وذلك حول تفسير (الثالوث) وغيره.. وكنت أشعر بنفور شديد من مسألة تناول النيذ وقطعة القربان من يد القسيس والتي ترمز إلى دم المسيح وجسده.

قلت: فكيف انجذبت إلى الإسلام؟

قال: بينما كان الشك يراودني في المسيحية بسبب طقوسها وعقائدها وانحرافاتها كان يجذبني شكل المسلمين في الصلاة والخشوع والسكينة التي تحيط بالمكان برغم أنني كنت لا أفهم ما يرددون.. وكنت عندما أقرأ القرآن يلفت انتباهي لسماعه وأحس بشئ غريب داخلي برغم أنني نشأت على كراهية المسلمين.. وكنت معجباً بصيام شهر رمضان وأجده أفضل من صيام الزيت الذي لم يرد ذكره في الكتاب المقدس، وبالفعل صمت أياماً من شهر رمضان قبل إسلامي.

ثم بعد ذلك.. بدأت الشعور بأن المسيحية دين غير كامل ومشوه يشدد علي، غير أنني ظللت متأرجحاً بين المسيحية والإسلام ثلاث سنوات انقطعت خلالها عن الكنيسة تماماً، وبدأت أقرأ كثيراً وأقارن بين الأديان، وكانت لي حوارات مع إخوة مسلمين كان لها الدور الكبير في إحداث حركة فكرية لدي.. وكنت أرى أن المسلم غير المتبحر في دينه يحمل من العلم والثقة بصدق دينه ما يفوق ما لدى أي مسيحي، حيث إن زاد الإسلام من القرآن والسنة النبوية في متناول الجميع رجالاً ونساءً وأطفالاً، في حين أن هناك بعض الأسفار بالكتاب المقدس ممنوع أن يقرأها المسيحي قبل بلوغ سن الخامسة والثلاثين، ويفضل أن يكون متزوجاً حين قراءتها.

قلت: فكيف بدأت نقطة التحول في حياتك؟.. أو كيف استطعت أن تقهر تلك السدود والحجب التي كانت تحول بينك وبين الإسلام؟

قال: كانت نقطة التحول في حياتي في أول شهر سبتمبر عام ١٩٨٨ عندما جلست إلى شيخيو أستاذي (رفاعي سرور) لأول مرة وناقشني وحاوري لأكثر من ساعة، وطلبت منه في آخر الجلسة أن يقرني بالشهادتين ويعلمني الصلاة، فطلب مني الاغتسال، فاغتسلت ونطقت بالشهادتين وأشهرت إسلامي وتسميت باسم (محمد

(١) انظر بعض الشهادات المرتبطة بهذا في الرسالة السابقة.

(٢) انظر فصل (الأدب) من رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

أحمد الرفاعي) بعد أن تيرأت من اسمي القديم (عزت إسحاق معوض)<sup>١</sup> وألغيته من جميع الوثائق الرسمية.. كما أزلت الصليب المرسوم على يدي بعملية جراحية<sup>٢</sup>..

قلت: فهل ابتليت في دينك كما ابتلي الكثير ممن أعلنوا إسلامهم؟

قال: لقد كان أول بلاء لي في الإسلام هو مقاطعة أهلي لي.. ورفض أبي أن أحصل على حقوقي المادية وعن نصيبي في شركة كانت بيننا، ولكنني لم أكرث، ودخلت الإسلام صفر اليدين، ولكن الله عوضني عن ذلك بأخوة الإسلام، وبعمل يدر عليّ دخلاً طيباً.

قلت: فما الذي ترجو؟

قال: كل ما أمله من حياتي ألا أكون مسلماً إسلاماً يعود بالنفع عليّ وحدي فقط، ولكن أن أكون نافعاً لغيري وأسأهم بما لدي من علم بالمسيحية والإسلام في الدعوة لدين الله تعالى.

قال ذلك بروحانية أحسست تأثيرها في قلبي.. ثم انصرف بعد أن منحني أشعة جديدة من شمس محمد.

### القس عيسي بياجو:

من الأسماء التي رأيته في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (القس عيسي بياجو)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تشرفت بالالتقاء به في رحلة لي إلى الفلبين في مهمة تبشيرية، وقد تعجبت من كثرة من يدخل الإسلام من الفلبينيين، وقد جرى لي معه هذا الحديث:

قلت: لقد سمعت أنك كنت قساً كاثوليكياً.

قال: أجل.. أنا كريسانتو بياجو.. هذا هو اسمي الأصلي.. وقد درست في المعهد اللاهوتي، وحصلت على درجة الليسانس في اللاهوت، وعملت كقس كاثوليكي.

قلت: إن الإسلام يتعرض في هذه البلاد لتشويهات كثيرة، فما الذي جعلك تنصرف عن تلك الشبهات؟.. أو ما الذي جعل الشبهات يضعف تأثيرها فيك؟

قال: صدقت.. وقد أثرت في تلك الشبهات تأثيراً كبيراً جعلت إسلامي يتأخر كثيراً.. لقد كنت أسمع عن المسلمين كمجموعة من الناس، ولم تكن عندي فكرة عما يدينون به.. وفي ذلك الحين كنت لا أطيق حتى مجرد سماع اسمهم نظراً للدعاية العالمية التي توجه ضدهم.. وحتى المسلمون المتمون إلى (..؟! ) في الفلبين كان يُعطى الإيحاء بأنهم قراصنة وهمجيون، يسهل عليهم العدوان وسفك الدماء.

ولم يكن هذا الشعور خاصاً بي.. بل كان يشاركني فيه معظم مسيحيي الفلبين الذين يمثلون ٩٠% من السكان.

وذات يوم حضرت محاضرة ألقاها منصرّ أمريكي اسمه (بيتر جوينج) عن الإسلام، فأخذتني الرغبة في

---

(١) لقد ذكرنا أنه ليس ضروريا تغيير المنتمي للإسلام اسمه، فالتبني ﷺ لم يغير أسماء الكثير من الصحابة، والذين غير أسماءهم لم يغيرها إلا بإذنتهم، بل هناك من الصحابة من لم يرض بتغيير اسمه.. فلا ينبغي على المسلمين التشدد في هذا، لأنه قد يكون حجاً من الحجب عن الإسلام.

(٢) وهذا أيضا ليس شرطاً.. بل إنه يجرم إذا أدى ذلك إلى ضرر في بدنه.

التعرف على هذا الدين، وانطلقت لأقرأ بعض الرسائل عن أركان الإيمان، وأركان الإسلام، وعن قصص الأنبياء، فدهشت من أن الإسلام يؤمن بالإنبياء الذين من أهمهم المسيح عليه السلام.. وقد كانت تلك المحاضرة هي بداية الشوق الذي وضعه الله في قلبي للبحث عن الإسلام.

وقد كانت مشكلتي نقص الكتب التي تتكلم عن الإسلام وعن القرآن ولكني لم أياس، لأنني كنت أستحضر من كلام المبشر الأمريكي قوله (إن التوراة فيها أخطاء)، مما أدخل الشك في نفسي، فبدأت أكون فكري عن الدين الحق الذي أؤمن به.

ولم أجد الإجابات عن الأسئلة التي جالت آتند في صدري حول الإنجيل، وكلما حللت مشكلة أو أجبت عن سؤال، ظهرت مشاكل كثيرة وأسئلة أكثر.. فلجأت إلى تفريغ ذهني من كل فكرة مسبقة، ودعوت الله أن يهديني إلى الحق.

وكان من المفارقات العجيبة أنني كقسيس كنت أعلم الناس ما لا أعتقد، فمثلاً لم أكن على الإطلاق مقتنعاً بفكرة الخطيئة الأصلية، والصلب، إذ كيف يحمّل الله إنساناً ذنوب الآخرين؟ هذا ظلم، ولماذا لا يغفرها الله ابتداءً؟ وكيف يفعل الأب هذا بابنه؟ أليس هذا إيذاءً للأنباء بغير حق؟ وما الفرق بين هذا وبين ما يفعله الناس من إساءة معاملة الأطفال؟

بدأت أبحث عن الوحي الحقيقي، فتأملت نص التوراة فلم أجد إلا كلاماً مليئاً بالأخطاء والتناقضات لا ندري من كتبه ولا من جمعه، فأصل التوراة مفقود، وهناك أكثر من تورا.

اهتزت عقيدتي تماماً، ولكني كنت أمارس عملي، لئلا أفقد مصدر دخلي وكل امتيازاتي.. ومرت سنتان وأنا على هذا الحال حتى جاء يوم لقيت فيه جماعة من المسلمين يوزعون كتيبات عن الإسلام، فأخذت منهم واحداً قرأته بشغف، ثم سعت إلى مناقشة تلك الجماعة التي كانت توزع تلك الكتيبات، فقد كنت أحب الجدال والمناظرة، وهذا ليس غريباً، ففي الفلبين جماعات مسيحية متصارعة يقارب عددها ٢٠ ألف جماعة وكثيراً ما كنت أمارس الجدال والمناظرة مع بعض تلك الجماعات.

فلما جلست مع ذلك الفريق المسلم في إحدى الحدائق فوجئت بأن الذي يجاورني كان قسيساً كبيراً دخل الإسلام، فأخذت أنصت لكلامه عن النظام السياسي في الإسلام، فأعجبني لأنني كنت أحب المساواة التي لم أجدتها في النظم البشرية، ولكني حينئذٍ وجدتها في دين مبني على كلام الله ووحيه إلى خلقه.

سألت المتحدث عن سبب اعتناقه للإسلام، ثم عن الفرق بين القرآن والإنجيل فأعطاني كتاباً لرجل اسمه أحمد ديدات.. قرأت الكتاب فوجدت فيه الإجابة عن كل تساؤلاتي حول الإنجيل واقتنعت تماماً، ثم أخذت أقابل ذلك الرجل كل يوم جمعة بعد الظهر لأسأله عن كل شيء، وكان من فضولي أن سأله عن محمد ﷺ، وهل هو من نسل إسماعيل؟ فذكر لي أن في التوراة الموجودة حالياً ذكر محمد ﷺ، وأعطاني مقاطع كثيرة من التوراة في هذا الصدد.

أخذت أبحث لأقتنع، وكان من دواعي اطمئاني أن إيماني بعبسى عليه السلام يجعلني أقبل الإيمان بمحمد ﷺ، واستمر بحثي شهرين، شعرت بهما ببعض التردد، لحوفي على مستقبلي لأنني أعلم يقيناً أنني لو أسلمت

فسأخسر كل شيء: المال، ودرجتي العلمية، والكنيسة، وسأخسر والدي وإخوتي، وكان الشيء الذي هزني هو عجزني عن تدريس الناس العقيدة المسيحية إذ أصبحت بارداً جداً وغير مقتنع بما أقول.

تركت قراءة التوراة حتى لاحظ والداي ذلك، ثم لقيت صديقي المسلم، وسألته عن الصلاة، فقال لي: الشهادة أولاً، فرفعت أصبعي بتلقائية وقلت خلفه: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ولم أكن أعرف معنى هذا القول حتى شرحه هو لي بعد ذلك، وقلت: وأشهد أن عيسى رسول الله.

كان في المجلس مسلمون كثيرون من جنسيات مختلفة فقام الجميع وعانقوني وهنأوني، فقلت في نفسي: كل هؤلاء مسلمون رغم اختلاف جنسياتهم وألوانهم، لقد جمعهم الإسلام بلا تمييز، فلماذا التمييز في المسيحية حتى تجد جماعات مسيحية للبيض وجماعات مسيحية للسلود؟

فرجعت إلى بيتي ونظقت بالشهادة باللغة الإنجليزية بيني وبين الله تعالى فليس يهمني الناس، بقيت على إسلامي من غير أن يعلم أحد من معارفي، وكنت أدخل الكنيسة لمدة ستة أسابيع، لأنزع بعد ذلك فتيل القنبلة وأعلن إسلامي، فغضب والداي أشد الغضب.

وجاء الكاهن الأكبر إلى المنزل ليناقشني، فعرضت عليه ما عندي من تناقضات الإنجيل، فكلمني عن بعض الشبهات التي تثار حول الإسلام فقلت له: أقتني أولاً أن محمداً ليس رسولاً من عند الله، فوعدني ولكن لم يرجع، وسمعت بعد ذلك أن الكنيسة كلها تصلي من أجلي لأرجع إلى عقلي، وكأنني صرت مجنوناً.

بدأت بعد ذلك أثبت قدمي في الإسلام — دراسة وتعلماً — وكنت ألقى بعد ذلك برامج إسلامية في التلفزيون والإذاعة المحلية التي تمولها الجهات الإسلامية.

واعتنق الإسلام بعد ذلك أبي وأمي وأختي وزوجها وابن أخي وبنات أختي .. وأحمد الله على أن كنت سبب هدايتهم إلى الصراط المستقيم.

سألته عن المدى الذي ينتشر فيه الإسلام في الفلبين، فقال لي: يدخل في الإسلام كل شهر أكثر من أربعمئة من مسيحيي الفلبين حسب السجلات الرسمية، أما العدد الحقيقي فالمرجح أنه أكثر من ذلك.. ومعظم أهل الفلبين مسيحيون بالاسم فقط ولا يجدون من يدعوهم إلى الإسلام، ومنهم من يقتنع بالإسلام، ولكن يعوقه عن اعتناقه عامل الخوف من المستقبل لأنه سيفقد الأسرة سيفقد العمل، فالناس هناك لا تقبل توظيف من ترك المسيحية.

سألته عن السر في هذا الإقبال الشديد على الإسلام في هذه البلاد، فقال: إنها المعاملة الطيبة.. إنها أخلاق الإسلام.. فكثير ممن أسلموا كان دافعهم إلى الاقتراب من عقيدة التوحيد معاملة المسلمين الحسنة لهم، كأن يكون صاحب العمل مسلماً حسن المعاملة، أو زميلاً لمسلم حسن الصحبة ودمت الأخلاق.. وكثير ممن أسلموا في الفلبين لم يسلموا إلا بعد أن عادوا إلى بلادهم بعد العمل في بلد إسلامي، إذ أحسوا بالفرق عندما فقدوا المناخ الإسلامي، فتبخرت كل أوامهم وشكوكهم حول الإسلام، فأعلنوا إسلامهم بعيداً عن كل ضغط أو تأثير.

وقد ذكر لي أن من أسباب ذلك الإقبال الشديد على الإسلام هو تأثير الناس برؤية منظر المسلمين وهم

يصلون.

وقد سألته عن سر انتشار الإسلام بين المثقفين ثقافة دينية، فقال: من السهل دعوة هؤلاء.. فيكفي مثل هذا أن نأخذ بيده، وندعوه إلى مقارنة أسفار الكتاب المقدس، ودراسة مقارنة الأديان، فتلك أفضل الوسائل لإقناعه.

وقد سألته عن العقبات التي تحول دون دخول الناس في الإسلام، فقال: أول ما يصد الناس هو الفكرة الخاطئة التي تعشش في أذهانهم عن الإسلام.. بالإضافة إلى سلوكيات كثير من المسلمين، الذين يعطون صورة سيئة عن الإسلام، ثم الفتاوى الجاهلة التي تصدر من بعض المسلمين من غير علم.. وأخيراً الشبهات التي تثار حول الإسلام من كونه يدعو إلى الإرهاب، ويسيء معاملة المرأة، فيدعو الرجل إلى طلاقها، وإلى الزواج بغيرها، وأنه يجرمها من حقوقها ويقهرها ولا يعطيها حريتها.

### ماري واتسون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ماري واتسون)، فسألت البابا عنه، فقال: هذه اسم امرأة أمريكية المولد، عاشت معظم شبابها بين لوس أنجلوس والفلبين، وقد التقيت بها — هي الأخرى — في الفلبين، وقد لاحظت في كلامها نفحات الصدق التي حدثني عنها معلم السلام، فسألتها عنها، فأجابت: لقد كنت ماري واتسون.. وأنا الآن خديجة.. إن السيدة خديجة — رضي الله عنها — كانت أرملة، وكذلك أنا كنت أرملة، وكان لديها أولاد، وأنا كذلك، وكانت تبلغ من العمر ٤٠ عاماً عندما تزوجت من النبي ﷺ، وآمنت بما أنزل عليه، وكذلك أنا كنت في الأربعينيات، عندما اعتنقت الإسلام، كما أنني معجبة جداً بشخصيتها، لأنها عندما نزل الوحي على محمد ﷺ آزرته وشجعته دون تردد، لذلك فأنا أحب شخصيتها.

قلت: فكيف رحلت من ماري إلى خديجة؟

قالت: لقد كانت رحلة قصيرة جداً.. تكاد في قصرها تشبه رحلة السحرة الذين أرادوا أن يتحدوا موسى ورب موسى، فلم يملكوا إلا أن يسجدوا لله.

قلت: فقد أسلمت تقليداً إذن.

قالت: لا.. بل لم أسلم إلا عن قناعة تامة.. لقد ابتدأت هذه القناعة من دراستي المعمقة للمسيحية.. فقد كان لدي ثلاث درجات علمية: درجة من كلية ثلاث سنوات في أمريكا، وبكالوريوس في علم اللاهوت بالفلبين، ومعلمة اللاهوت في كليتين.. فقد كنت لاهوتية وأستاذة محاضرة وقسيصة ومنصرة، كذلك عملت في الإذاعة بمحطة الدين المسيحي لإذاعة الوعظ المسيحي، وكذلك ضيفة على برامج أخرى في التلفاز، وكتبت مقالات ضد وماذا عن أولادك؟

قلت: فكيف بدأ ذلك التحول المفاجئ من مختصة في المسيحية إلى مؤمنة بالإسلام؟

قالت: كنت في إحدى الحملات التنصيرية إلى الفلبين لإلقاء بعض المحاضرات، فإذا بأستاذ محاضر فلبيني جاء من إحدى الدول العربية، لاحظت عليه أموراً غريبة، فأخذت أسأله وألح عليه حتى عرفت أنه أسلم هناك، ولا أحد يعرف بإسلامه وقتئذ.

بعدها سمعت عن الإسلام من هذا الدكتور الفلبيني مقالته، راودتني أسئلة كثيرة: لماذا أسلم؟ ولماذا بدل دينه؟ لا بد من أن هناك شيئاً في هذا الدين وفيما تقوله المسيحية عنه.. ففكرت في صديقة قديمة فلبينية أسلمت، وكانت تعمل بالجزيرة، فذهبت إليها، وبدأت أسألها عن الإسلام، وأول شيء سألتها عنه معاملة النساء، لأن المسيحية تعتقد أن النساء المسلمات وحقوقهن في المستوى الأدنى في دينهن، وهذا غير صحيح طبعاً، كما كنت أعتقد أن الإسلام يسمح للأزواج بضرب زوجاتهم، لذلك هن محتبتات وكائنات في منازلهن دائماً.

بعد ذلك ذهبت إلى المركز الإسلامي، فاندعشوا جداً من معلوماتي الغزيرة عن المسيحية ومعتقداتي الخاطئة عن الإسلام، وصححو ذلك لي، وأعطوني كتيبات أخذت أقرأ فيها كل يوم، وأتحدث إليهم ثلاث ساعات يومياً لمدة أسبوع، كنت قد قرأت بنهايته ١٢ كتاباً، وكانت تلك المرة الأولى التي أقرأ فيها كتباً لمؤلفين مسلمين، والنتيجة أنني اكتشفت أن الكتب التي قد كنت قرأتها من قبل لمؤلفين نصارى ممتلئة بسوء الفهم والمغالطات عن الإسلام والمسلمين، لذلك عاودت السؤال مرة أخرى عن حقيقة القرآن الكريم، وهذه الكلمات التي تُقال في الصلاة.

وفي نهاية الأسبوع عرفت أنه دين الحق، وأن الله وحده لا شريك له، وأنه هو الذي يغفر الذنوب والخطايا، وينقذنا من عذاب الآخرة، لكن لم يكن الإسلام قد استقر في قلبي بعد، لأن الشيطان دائماً يشعل فتيل الخوف والقلق في النفس، فكثفت لي مركز التوعية الإسلامي المحاضرات، وابتهلت إلى الله أن يهديني.

وفي خلال الشهر الثاني شعرت في ليلة — وأنا مستلقية على فراشي وكاد النوم يقارب جفوني — بشيء غريب استقر في قلبي، فاعتدلت من فوري وقلت: يا رب أنا مؤمنة لك وحدك، ونطقت بالشهادة، وشعرت بعدها باطمئنان وراحة تعم كل بدني، والحمد لله على الإسلام، ولم أندم أبداً على هذا اليوم الذي يعتبر يوم ميلادي.

قلت: ألم تلاقي أي ضغوط بعد إسلامك؟

قلت: بعد إسلامي تركت عملي كأستاذة في كليتي، وبعد شهور عدة طلب مني أن أنظم جلسات أو ندوات نسوية للدراسات الإسلامية في مركز إسلامي بالفلبين حيث موطن إقامتي، وظلت أعمل به تقريباً لمدة سنة ونصف، ثم عملت بمركز توعية الجاليات بالقصيم في القسم النسائي كداعية إسلامية خاصة متحدثة باللغة الفلبينية بجانب لغتي الأصلية.

قلت: وأهلك؟

قلت: لدي سبعة أبناء من زوج فلبيني.. وقد استعملت كل الوسائل لدعوتهم إلى الله.. فعندما كنت أعمل بالمركز الإسلامي بالفلبين كنت أحضر للبيت بعض الكتيبات والمجلات وأتركها بالمتزل على الطاولة متعمدة عسى أن يهدي الله ابني كريستوفر إلى الإسلام، إذ أنه الوحيد الذي يعيش معي، وبالفعل بدأ هو وصديقه يقرأها ويتركاها كما هي تماماً، كذلك كان لدي منبه أذان فأخذ يستمع إليه مراراً وتكراراً وأنا

بالخارج، ثم أحريني بعد ذلك برغبته في الإسلام، ففرحت جداً وشجعت، ثم جاء إخوة عدة من المركز الإسلامي لمناقشته في الإسلام وعلى أثرها أعلن الشهادة.

قلت: وسائر أهلك؟

قلت: بناتي جميعهن متزوجات في أمريكا، وعندما أسلمت كان رد ثلاث من بناتي عنيفاً إزاء اعتناقي الإسلام، والباقيات اعتبرنه حرية شخصية، كما أن بيبي وتليفوني روقبا، فقررت الاستقرار في الفلبين، لكن تنكر لي أهل زوجي، لأني من قبل كنت مرتبطة بهم لكون أبي وأمي ميتين، لذلك بكيت ثلاثة أيام، وعندما كنت أظهر في الشارع بهذا الزي كان الأطفال ينادون عليّ بالشيخة أو الخيمة، فكنت أعتبر هذا بمثابة دعوة إلى الإسلام، كما تحبني كل من يعرفني تماماً.

قلت: فلم يسلم من أهلك إلا ابنك؟

قلت: أجل.. ذلك هو ابني الوحيد الذي اعتنق الإسلام في الوقت الحالي، وسمى نفسه عمر، وأدعو الله أن يمن علي باقي أولادي بنعمة الإسلام.

قلت: ذكرت لي سرعة انجذابك للإسلام.. فما الذي جذبك إليه؟

قلت: لقد رأيت أن الإسلام هو الطريق الأكمل والأمثل للحياة.. بل رأيت أنه البوصلة التي توجه كل مظاهر الحياة في الاقتصاد والاجتماع وغيرها حتى الأسرة وكيفية التعامل بين أفرادها.

قلت: عهدي بكل داخل إلى الإسلام ينجذب إلى آيات معينة، فما الآيات القرآنية التي جذبتك؟

قلت: كل القرآن جذبي.. ولكن آية خاصة امتلكتني، وهي تعني لي الكثير، وقد ساعدتني وقت الشدة.

قلت: ما هي؟

قلت: قوله ﷻ: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٣)

قلت: هل حاولت استخدام قناعتك لنشر الدعوة إلى الإسلام؟

قلت: لقد من الله علي، فألقيت العديد من المحاضرات عن الإسلام في الجامعات والكليات بالفلبين، وقد دعيت من قبل رؤساء بعض الدول لإجراء محاورات بين مسلمة ومسيحية لكن لا أحب هذه المحاورات لأن أسلوبها عنيف في النقاش، وأنا لا أحب هذه الطريقة في الدعوة، بل أفضل الأسلوب الهادئ لا سيما اهتمامنا بالشخص نفسه، أولاً ثم دعوته ثانياً.

قلت: لقد سمعت عن خطة عمرها ربع القرن المقبل لتنصير المسلمين؟

ابتسمت، وقالت: بعد قراءتي عن الإسلام علمت سر اضطهاد الإسلام من جميع الديانات..

قلت: ما ذاك؟

قلت: لأنه أكثر الديانات انتشاراً على مستوى العالم، وأن المسلمين أقوى ناس لأنهم لا يبذلون دينهم ولا يرضون غيره بديلاً، ذلك أن دين الإسلام هو دين الحق وأي دين آخر لن يعطيهم ما يعطيه لهم الإسلام.

قلت: فجهودهم إذن ستخيب في تنصير المسلمين؟

قلت: كما خابت جهود كل من سبقهم.

قلت: لم؟

قالت: ألم يحدثك ( جابرييلي فرانثيسكو)<sup>١</sup> عن صمود الإسلام؟

قلت: بلى.. وكيف عرفت ذلك؟

قالت: لقد أجابك.. وحسبك بإجابته.

قلت: قد سألتك كيف عرفت ذلك.

قالت: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: من الآية ٢٨٢)

قالت ذلك، ثم انصرفت، لتنتزل علي بعد انصرافها أشعة جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد.

### كرست راجا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كرست راجا)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هو رجل قرأ القرآن ليجعله وسيلة لبث الشبه عن الإسلام، ولكن الله هداه بتلك القراءة، فتحول إلى الإسلام. وقد التقيت به في ولاية (تملنادو) بأقصى جنوب الهند — وذلك في فترة تواجدي بالهند، والتي حكيت لك بعض أخبارها — وقد وجدته عميق المعرفة بالكتاب المقدس، ومما ذكره لي من قصة إسلامه قوله: كنت في ولادتي الأولى أحمل اسم (كرست راجا).. وقد ولدت في عائلة مسيحية في قرية من ولاية تلمنادور، ولغتي التاميلية وأعرف عدداً من اللغات، منذ صغر سني كنت أحب المسيحية.. وأمثلهما أحب المسيح حباً شديداً.. وقد كنت أدعو الله دائماً أن يحول المسلمين جميعاً إلى المسيحية.

وفي أحد الأيام التقيت بعالم مسلم، فاعتبرتها فرصة عظيمة، لكي أناقشه في بعض الأمور المتعلقة بالإسلام والمسيحية، لكنه سرعان ما تحدى قائلاً: لن تجد شيئاً في القرآن يخالف العقل، أو يخالف الفطرة. لقد كان هذا التحدي سبباً لأقرأ القرآن الكريم، فقرأت ترجمة المعاني في اللغة التاميلية مرتين، فعرفت أن الإسلام هو الدين الصحيح، وأن المسيحية محرفة، فقبلت الإسلام ديناً.

قلت: بهذه السهولة؟!!

قال: أجل.. القرآن الكريم هو كتاب الدعوة الأكبر.. لقد قال ﷻ فيه: ﴿فَلَا تُطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ

جِهَاداً كَبِيراً﴾ (الفرقان: ٥٢)

قلت: فهل تعرضت للبلاء كما تعرض الكثير من إخوانك ممن أسلموا؟

قال: البلاء سنة الله لتمحيص الصادقين.. وقد تعرضت بفضل الله لبعض البلاء الذي تجاوزته بحول الله وقوته.. فالتناس كانوا ينظرون إلى نظرة السخرية، وكانوا يقولون لي: إنك صرت مجنوناً، وقد ضحكوا على

---

(١) هو في الأصل (١٩٠٤). (abrieli Francesco — ١٩٩٧) مستشرق إيطالي، وقد اشتهر بمواقفه المعتدلة من التاريخ الإسلامي حتى إنه كتب عن صلاح الدين الأيوبي بوصفه بطلاً وشخصية عظيمة بالرغم مما تعرضت له هذه الشخصية من تشويه في الكتابات الغربية.

(٢) انظر الرسالة السابقة فصل (صمود)

(٣) انظر: المجلة الخيرية، العدد: ٧٤، محرم ١٤١٧ هـ.



لأنني أطلقت اللحية بعد أن كنت متعوداً على حلقها، وتحملت جميع هذه المشاكل من قومي، وصبرت عليها لأنني كنت أقرأ في القرآن قصص الدعاة والمصلحين من الأنبياء والرسل وتحملهم الأذى والمصائب في سبيل التبليغ الدعوة إلى الله.

قلت: وأهلك.. أقرب الناس إليك!؟

قال: لقد من الله عليهم، فأسلموا.. لقد أسلمت زوجتي، وثلاثة من أولادي، وقد أسلم على يدي بالإضافة إليهم بعض الأخوة الآخرين.

قلت: فما الحرفة التي اتخذتها بعد إسلامك؟

قال: أنت تعلم جيداً أن أبحار النصارى وعلماءهم ودعاتهم يتمتعون بكل نعيم في الدنيا، ويعيشون عيشة رضية بما يحصلون عليه من المعونات الهائلة من الدول المسيحية.

وقد تركت كل ذلك طمعا بما أعد الله لي في الآخرة من نعيم في الجنة، والآن أتجول في القرى والمدن ماشياً، وألتقي بالناس أفراداً وجماعات وأوجه الدعوة إليهم، وأدعوهم إلى الإسلام، وأبين لهم أباطل دينهم، وأبذل جهدي لإيصال ترجمة معاني القرآن الكريم إلى كل شخص من غير المسلمين، لأنني على يقين أنهم إذا قرأوا القرآن مرة واحدة من أوله إلى آخره فسيدخلون في دين الله.

قلت: فأنت تابع لبعض المراكز الإسلامية إذن؟

قال: أجل.. فأنا أشتغل — بحمد الله — كداعية في مركز الدعوة للمسلمين الجدد التابع لجمعية أهل القرآن والحديث في ولاية تملنادوا جنوب الهند، والتي تبذل جهدها في نشر الدعوة إلى الله بين المسلمين وغيرهم.

قلت: هل ترضيك جهود المسلمين الدعوية؟

نظر إلي بحزن، ثم قال: إن آلاف القلوب في هذه المنطقة تنتظر الفرصة للدخول في الإسلام، وعلى المسلمين مسئولية كبرى، يجب عليهم أن يتمثلوا صورة الإسلام الصحيحة أولاً، ثم يقوموا بالدعوة المستمرة، ويبدلوا جهدهم في تعريف الإسلام لغير المسلمين من النصارى والهندوس وغيرهم، وعلى المؤسسات والهيئات الإسلامية في داخل البلاد وخارجها التي تهتم بالشئون الدينية أن تقوم بتوزيع ترجمة معاني القرآن بكية كبيرة. وأعتقد أن المسلمين هم المسئولون أمام الله لتأخر دخولي في الإسلام، فقد كنت جاهلاً به أكثر من ثلاثين سنة، وذلك بسبب تقصير المسلمين في دعوتهم للإسلام وبيان معانيه، وإنني أخشى أن يقول الناس جميعاً يوم القيامة أمام الله تعالى مثل قولي هذا.

**سيف الإسلام التهامي:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سيف الإسلام التهامي)، فسألت البابا عنه، فقال: وقد التقيت به في القاهرة.. وهو شاب مسيحي كان أبوه من أرمن كاثوليك وكانت أمه إنجليزية، وقد

(١) لقد ذكرنا أنه لا ينبغي التشدد مع من أسلم في هذه الأمور، حتى لا تكون سبباً في حجاب الناس عن الإسلام.

سألته عنه، فقال: نشأت نشأة مسيحية بحتة، فمنذ نعومة أظفري، وأنا أذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد، وفي الأعياد، وفي كل وقت أشاء حيث لم يكن علي رقيبٌ فيما يخص ذهابي للكنيسة، فقد أحببت الذهاب إليها، والاستمتاع بكل ما فيها من شعائر وصلوات وألعاب ومعسكرات ورحلات.

ثم التحقت بمدرسة (نوباريان) الأرمنية وهي مدرسة لا تقبل إلا النصارى الأرمن، فقد كان عدد طلاب المدرسة من حضانة إلى ثانوي ما يقرب من ١٢٥ طالباً فقط في جميع مراحل التعليم بها. وكان أول ما نفعله صباحاً في طابور المدرسة هو الصلاة، ونحن واقفون في صفنا، وكانت بالمدرسة كنيسة، وكان أكثر المدرسين في المدرسة نصارى.

ولم يكن لدي أي إحتلاط بالمسلمين إلا القليل من أصدقائي في الحي أو جيران، بل كانت معظم أوقاتي أفضيها بالكنيسة، وكنت أخدم كشماس في الكنيسة أساعد القسيس في مراسم القداس والصلاة. استمر بي الحال على ذلك حتى وصلت المرحلة الثانوية، وفي هذه المرحلة بدأت أرتبط بالكنيسة والقساوسة أكثر من ذي قبل، وكنت سعيداً جداً بهذه العلاقة لأنني كنت من المقرين لديهم، وأصبحت أقوم بمعظم شعائر القداس من قراءة للإنجيل ورد على القسيس عندما يتلو أي شيء منه، بالإضافة إلى تحضير القربان والخمر للقداس.

وفي يوم من الأيام كنت جالسا مع أحد أصدقائي المسلمين، وكان من العوام البسطاء، فقال لي: أألم تسلم؟

فقلت له: ولم أسلم؟.. ولم لا تتنصر أنت؟

فقال لي عبارة كانت هي أشد ما سمعت، وكانت — مع شدتها — هي سبب إسلامي بعد ذلك.. لقد قال لي: (أنتم كلكم في النار)

لقد نزلت علي هذه الكلمة كالصاعقة..

قلت: لماذا أدخل أنا والنصارى جميعاً النار، وأنتم المسلمون تدخلون الجنة؟

فقال: لأنكم تقولون ثالث ثلاثة، وأن المسيح ابن الله وغيرها من الافتراءات على المسيح!

فقلت له: وكيف عرفت كل هذه الأشياء.. هل قرأت الإنجيل؟

قال: لا.. بل قرأها عندنا في القرآن.

كان هذا من الأشياء العجيبة التي سمعتها أيضاً، فكيف يعرف القرآن ما هو في ديننا (سابقاً) وكيف يقر

بأن هذه الأشياء التي نقولها على المسيح كلها كفر وتؤدي إلى النار؟

عندئذ احترت في أمري، وبدأت أفكر ملياً في هذا الأمر، ثم بدأت أقرأ الإنجيل، ولأول مرة أقرؤه على

بصيرة، فقد كان على قلبي عمى، وبدأت أجد الاختلافات الشديدة في ذكر نسب المسيح، وادعاء ألوهيته تارة ونبوته تارة أخرى.

وقد جعلني كل ذلك أتساءل من هو المسيح إذن.. أهو نبي، أم ابن الله، أم هو الله؟

وبدأت أضع بعض الأسئلة، ثم أذهب بها إلى القسيس، لكي أحصل على الإجابة الشافية، ولكني لم أجد

ما يثلج صدري في أي إجابة.

أتذكر أي ذات مرة سألت القسيس: لماذا الكتاب المقدس يذكر أن المسيح جالس على جبل الزيتون، وهو يدعو الله.. فإن كان هو الله حقاً فلن يدعو.. ولمن يسجد؟

فأجابني إجابات لم أفهم منها شيئاً.

ثم بدأت أفكر فيما كنا نفعله في الكنيسة من اعتراف بالخطايا والذنوب للقسيس، وأخذت أفكر في المناولة.. ذلك الجلاش الطري الذي يوضع في الخمر، ليذكر القسيس أن هذين الشيعين صاروا دم وجسد المسيح، ومن يأخذها يغفر له ويظهر من الداخل!

وقد تساءلت — حينها — كيف يغفر ذنوبي بشراً مثله مثلي.. وهو لمن يعترف.. ومن يغفر له.. وكيف يجل دم وجسد المسيح في هذه الكأس.. وهل هذه خرافة أم حقيقة.. وكيف يطهر ما في داخلي ويغفر ذنوبي؟!

بدأت الأسئلة تكثر داخلي، ولم أجد لها إجابة، فبدأت آخذ قراراتي من نفسي: مثل عدم الاعتراف للقسيس لأنه بشر مثلي، وأيضاً عدم أخذ المناولة، وآمنت أن المسيح عليه السلام نبياً لأنه بشر.. والإله له صفات الكمال الخاصة التي تتنافى مع صفات البشر وبدأت أقرأ الإنجيل بدون أن أقول (ربنا يسوع المسيح)، ولكن أقول يسوع المسيح (فقط)، ولكن مع هذا لم أشعر بالراحة التي أريدها، ولم أشعر أن هذا هو الحل في هذا الدين الذي أعتنقه.

وأثناء ذلك، وفي تلك الحقبة من حياتي، كنت ذات يوم أراجع دروسي في غرفتي داخل منزل الأسرة الذي يقع خلفه تماماً مسجد، وكنا في شهر رمضان، وكانت مكبرات الصوت تعمل من بعد صلاة العشاء خلال صلاة التراويح، وكان صوت الإمام الذي يقرأ القرآن يصل إلى غرفتي.. لقد كان صوتنا خافتاً جميلاً.. وكنت أشعر فيه بجلاوة تمس قلبي، ولم أكن قد علمت بعد أن هذه التلاوة هي القرآن الكريم.

ثم جاءت اللحظة التي شرح الله فيها صدري للإسلام، وكان ذلك يوم الأحد بالقداس داخل الكنيسة عندما كنت أقرأ الإنجيل، قبل القداس استعداداً لقراءته على الناس خلال الصلاة. وأثناء استعدادي سألت نفسي: هل سأقول ربنا يسوع المسيح.. أم يسوع المسيح فقط لأنه نبي وليس بإله، ولكن إذا قلت ذلك سوف يدرك الحاضرون أنني تجاوزت عن تلك الكلمة، ولكن كيف سأخالف ضميري..

وفي النهاية قررت أني سأقرأ الإنجيل كما هو دون تغيير مادمت أمام الناس، وأن أجعل هذا التغيير عندما أقرأه بمفردي.

وجاء ميعاد قراءتي للإنجيل خلال القداس.. وبدأت أقرأ بثبات كما هو مكتوب تماماً حتى وقفت عند كلمة: (ربنا يسوع المسيح).. فأبى لساني أن ينطق بها، ولم أشعر بنفسني إلا وأنا أتجاوز كلمة (ربنا) خلال

(١) انظر ما يتعلق بهذه الطقوس وانصرافها عن المسيحية الحقيقية في الرسالة السابقة من هذه السلسلة.

القراءة بالكلية، وتعجب القسيس من ذلك الموقف، فأشار إلي بالجلوس، فتوقفت عن القراءة، ثم جلست، ولكننا أكملنا الصلاة بشكل طبيعي، حتى إذا انتهت الصلاة توجهت للغرفة الخاصة بنا..

وهناك سألني القسيس: لم فعلت ذلك؟.. لماذا لم تقرأ الإنجيل كما هو؟

فلم أجبه، وقلت له: إني أريد أن أذهب إلى البيت لأستريح!

وذهبت إلى غرفتي وأنا في غاية الدهشة لما فعلت.

منذ ذلك اليوم، صرت أنام قبل إتمام قراءة الإنجيل يومياً، كما كنت معتاداً من قبل، وأصبحت لا أشعر

بالراحة لا في صلاة، ولا قراءة، ولا حتى الذهاب إلى الكنيسة..

وظللت أفكر في حالي.. وظلت ( كلكم في النار.. ) تلك الكلمة القاسية التي قالها لي صديقي المسلم

تخترق أذني.

بعدها.. أقبلت على القراءة الجادة في كتب المقارنات والكتب الإسلامية التي تتناول حياة المسيح، فعرفت

من هو المسيح في الإسلام، وعلمت أيضاً ما لم أكن أعلم، وهو ذكر النبي ﷺ في العهدين القديم والحديث..

واكتشفت أن المسيح وأمه مريم (عليهما السلام)، مكرمان غاية التكريم في القرآن، وأن المسيح (نبي)، قال

الله له كن، فكان، وهو (روح منه)، فتأكدت حينئذ أن الإنجيل الذي بين يديّ محرف، ويكثر فيه اللغظ.

ثم علمت أن (الإسلام) هو دين الحق، وأن الله لا يرضى غير الإسلام ديناً، وأنه هو الطريق إلى الجنة

والنجاه من النار.

فذهبت بعدها إلى إحدى المكتبات واشتريت مصحفاً، وعندما قرأته لم أكن — حينها — أفهم منه شيئاً،

ولكنني أحسست براحة غريبة في صدري.

لقد انشرح صدري لهذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده وكرمهم به، وأرشدهم إليه، فالحمد لله أولاً،

والحمد لله آخراً، والحمد لله أبداً أبداً، الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

قلت: وأهلك.. ألم يقاطعوك بسبب إسلامك؟

قال: من المدهش أني عندما أخبرت أحواتي بالإسلام وجدتهن قد سبقاني إليه، ولم يعارضني منهن أحد،

فالحمد لله الذي منّ علينا جميعاً بالإسلام..

فاليوم الذي نطقت فيه بالشهادتين ولدت من جديد.. فما أجمله من دين، وما أعظمه من إله واحد أحد،

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

فلك الحمد يا إلهي، أنت عزي وأنت جاهي، فمن يستعين بسؤالك وأنت لا تخيب من رجلك.

### جي ميشيل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جي ميشيل)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل

من أهل بلدي، وهو طبيب التقيت به في الصومال، ولاحظت في كلامه نفحات الصدق، فسألته: من أنت؟

قال: كنت جي ميشيل.. وأنا اليوم عبد الجبار.

قلت: فحدثني عن رحلة جي ميشيل إلى عبد الجبار.

قال: تبدأ قصتي عندما احتارني منظمة تنصيرية بألمانيا الغربية لكي أكون رئيساً للبعثة التنصيرية في الصومال، بجانب عملي كطبيب لأمراض العيون..

وقد كانت هذه البعثة اتخذت في خطتها مشروع تنصير القرن الإفريقي، على أن تكون الصومال هي نقطة الانطلاق لعمليات التنصير.. وقد اتخذت هذه البعثة مشروعاً خبيراً كستار تخفي من ورائه نشاطها التنصيري.. وكان هذا المشروع هو علاج أمراض العيون كي تنفذ من خلاله إلى المواطنين، والتأثير عليهم بترغيبهم في المسيحية.

وبعد خمسة أشهر تلقت المنظمة تقارير تفيد بتفاني في عملي كطبيب، وإهمالي للشق الآخر من مهمتي، وهو التنصير.. ونتيجة لذلك تلقيت برقية من رئاسة المنظمة تطلب مني ضرورة ذهابي إلى إنجلترا لقضاء فترة تدريبية لمدة شهر، ثم السفر منها إلى تروانيا.

وفي إنجلترا تعرّفت على صديق مسلم من الصومال يدعى (محمد باهور) الذي وطد صداقته معي، وحدث أن دعاني ذات يوم لزيارة منزله.. فلبيت دعوته، وكان الترحيب من أسرته.. وأثناء الزيارة فوجئت برجل يتكلم الإنجليزية بطلاقة مدهشة.. وعلمت أنه والد صديقي محمد، وفرحت به، وتمتيت أن أحذبه إلى الدين المسيحي حتى تتحقق عملية التنصير.. وبدأت مع هذا الرجل عملية جذبه للمسيحية بالحديث عنها معه.. وهو ينصت إليّ بإصغاء تام، توقعت اقتناعه بما أقول، وبالتالي سيكون مفتاح التنصير في المنطقة كلها.

وبعد أن أسهبت في الكلام عن المسيحية كدين لا يرقى في مكانته أية ديانة أخرى، وأنا أعرض لعظمة الإنجيل والمسيح عيسى ابن الله.. فوجئت بوالد صديقي ممسكاً بنسخة من القرآن في يديه، وسألني: أعرف هذا الكتاب؟.. فابتسمت ولم أحب، خشية إثارته أو التلميح له بمهمتي، ولكنني أحسست أن هذا الرجل يدرك ما يدور بعقلي، فمنحني فرصة الخروج من المأزق.. وبدأ هو يتحدث عن الإنجيل وعن المسيح.. ومن خلال حديثه أدركت تماماً أن المسلمين جميعاً يجوبونه ويعترفون به، وخصوصاً أن الإسلام ذاته يدعو إلى الإيمان به وبغيره من الرسل والأنبياء، بل جعل ذلك من دعائم الإيمان بالإسلام.

ثم طلب مني والد صديقي أن أوجه له أي سؤال في الإنجيل أو في القرآن.. فقلت له: كيف؟! قال: في القرآن كل شيء.

صمت برهة يستعيد ذكرياته، ثم قال: وتعددت زياراتي لوالد صديقي.. وكنت مُراقباً من أفراد البعثة الذين طلبوا مني عدم الذهاب إلى هذا المنزل، وفوجئت بعد ذلك بقرار نقل صديقي، ثم اعتقاله بدون سبب.. أما بالنسبة لي فقد طلبوا مني الانتقال إلى كينيا لقضاء اجازة ممتعة على حد تعبير منظمة التنصير.. ووصلتني رسالة ساخنة من والدي يطالبني فيها بالعودة إلى ألمانيا بأسرع ما يمكن.

ولكنني — وأنا رئيس بعثة التنصير — رفضت الاستجابة لتعليمات رئاستي في ألمانيا.. كما رفضت الاستجابة لطلب والدي.. بل كتبت برقية إلى كل منهما أقول فيها (اطمنونا تماماً.. كل شيء على ما يرام، وسأعتنق الإسلام)

بعدها عكفت على دراسة الإسلام وتفهم تعاليمه وأركانها التي حث عليها.. ثم أعلنت اعتناقي للإسلام.

قلت: فهل عدت لبلدنا؟

قال: لا.. لقد صممت أن أبقى في الصومال أؤدي رسالتي كطبيب مسلم يعرف حق الله وحق مرضاه.

### آرثر ميلاستنوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آرثر ميلاستنوس) <sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: وهو دكتور في اللاهوت، وكان الرجل الثالث في مجمع كنائس قارة آسيا، وقد التقيت به في بعض رحلاتي، فلاحظت في كلامه نفحات الصدق، فسألته عن سرها، فقال: في أثناء عملي بالتنصير عام ١٩٨٣ خطر على بالي خاطر يقول لي: أي ضرر في قراءة القرآن من أجل الرد على المسلمين؟ وتلبية لهذا الخاطر توجهت إلى أحد المسلمين سائلاً إياه أن يعبرني كتابهم المقدس، فوافق المسلم مشروطاً علي أن أتوضأ قبل كل قراءة <sup>٢</sup>.

وعندما قرأت القرآن أول مرة، شعرت بصراع عنيف في أعماقي، فثمة صوت يناديني ويحثني على اعتناق هذا الدين، الذي يجعل علاقة الإنسان بربه علاقة مباشرة، لا تحتاج إلى وساطات القسس، ولا تباع فيها صكوك الغفران.

وفي يوم تروضت، ثم أمسكت بالقرآن فقرأت: ﴿أَفَلَا يَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ (محمد: ٢٤)، فأحسستُ بقشعريرة، ثم قرأت: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: من الآية ٣)، فحلَّت السكينة في روحي الحيري، وشعرت أني قد خلقت من جديد. في تلك الليلة لم أصبر حتى تطلع الشمس، بل اتجهت حالاً إلى منزل صديقي المسلم لأسأله عن كيفية الدخول في الإسلام، وبين حيرة الصديق ودهشته نطقت بالشهادتين.

### عبدالأحد داود:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عبدالأحد داود)، فسألت البابا عنه، فقال: لم ألتق به، ولكنني التقيت بعض أحفاده، وقد حدثني عنه، فذكر أن اسمه قبل إسلامه كان (دافيد بنجامين الكلداني) <sup>٣</sup>.. وكان أستاذاً في علم اللاهوت، وكان قسيس الروم الكاثوليك لطائفة الكلدانيين الموحدة، وكان يتكلم عدة لغات.

وقد ولد عام ١٨٦٨م، في أروميا من بلاد فارس، وتلقى تعليمه الابتدائي في تلك المدينة، وبين عامي ١٨٨٦ - ١٨٨٩م كان أحد موظفي التعليم في إرسالية أساقفة (كانتر بوري) المبعوثة إلى النصراني النسطوريين في بلده.. وفي عام ١٨٩٢م أرسل إلى روما حيث تلقى تدريباً منتظماً في الدراسات الفلسفية واللاهوتية في كلية (بريوغاندافيد).. وفي عام ١٨٩٥م تم ترسيمه كاهناً، وفي هذه الفترة شارك في كتابة

(١) انظر: ربحت محمداً ولم أخسر المسيح، د. عبدالمعطي الدالقي.

(٢) ذكرنا في المباحث الفقهية المرتبطة بهذا أنه لا ينبغي التشدد مع غير المسلمين في مثل هذا إلا إذا رأينا ذلك في مصلحة الدعوة الإسلامية كتعريفهم بحرص الإسلام على الطهارة.

(٣) انظر: (محمد في الكتاب المقدس) عبدالأحد داود ص (١٦٢) - (عظماء ومفكرون يعتنقون الإسلام) محمد طماشي.

سلسلة من المقالات التي تم نشرها في بعض الصحف المتخصصة، وبعد عودته من روما توقف في إستانبول عام ١٨٩٥م، وأسهم في كتابة ونشر بعض المقالات عن الكنائس الشرقية في الصحف اليومية الإنجليزية والفرنسية. لم يمكث طويلاً في إستانبول، بل عاد في نفس العام إلى بلده، وانضم إلى إرسالية (لازارست) الفرنسية، ونشر لأول مرة في تأريخ الإرسالية منشورات فصلية دورية باللغة السريانية.

وبعد ذلك بعامين انتدب من قبل اثنين من رؤساء أساقفة الطائفة الكلدانية في بلده لتمثيل الكاثوليك الشرقيين في مؤتمر (القربان المقدس) الذي عقد في مدينة (باري لو مونيال) في فرنسا، وفي عام ١٨٩٨م عاد إلى قريته ديجالا وافتتح مدرسة بالمجان.

وفي عام ١٨٩٩م أرسلته السلطات الكنسية إلى سالماس، لتحمل المسؤولية، حيث يوجد نزاعات بين بعض القيايين النصارى هناك، وفي عام ١٩٠٠م ألقى موعظة بليغة شهيرة، حضرها جمع غفير من طائفته وغيرها، وكان موضوعها (عصر جديد ورجال جدد) انتقد فيها تواني بني قومه عن واجبه الدعوي.

وقد أخبرني حفيده هذا، بأنه كتب رسالة يجيب فيها من سأله عن دوافع إسلامه، وقد رأيت تلك الرسالة، ومما ورد فيها قوله: إن اهتدائي للإسلام لا يمكن أن يعزى لأي سبب سوى عناية الله عز وجل بي، وبدون هداية الله فإن كل القراءات والأبحاث، ومختلف الجهود التي تبذل للوصول إلى الحقيقة لن تكون مجدية، واللحظة التي آمنت بها بوحدانية الله، وبنبيه الكريم صلوات الله عليه، أصبحت نقطة تحولي نحو السلوك النموذجي المؤمن.

ومن الأسباب التي ذكرها في تلك الرسالة، والتي جعلته يعلن عصيانه على الكنيسة، ما تطلبه ممن يؤمن بها من الشفاعة بين الله وبين خلقه في عدد من الأمور، كالشفاعة للخلاص من الجحيم، وكافتقار البشر إلى الشفيع المطلق بصورة مطلقة، وأن هذا الشفيع إله تام وإنسان تام، وأن رهبان الكنيسة أيضاً شفعاء مطلقون، كما تأمره الكنيسة بالتوسل إلى شفعاء لا يمكن حصرهم.

وقد ذكر فيها أنه من واقع دراسته لعقيدة الصلب وجد أن القرآن ينكرها والإنجيل المتداول يشبها، وكلاهما في الأصل من مصدر واحد، فمن الطبيعي ألا يكون بينهما اختلاف، ولكن وقع بينهما الاختلاف والتضاد، فلا بد من الحكم على أحدهما بالتحريف، فاستمر في بحثه وتحقيقه لهذه المسألة حتى توصل إلى الحقيقة، حيث يقول: «ولقد كانت نتيجة تتبعاتي وتحقيقي أن اقتنعت وأيقنت أن قصة قتل المسيح عليه السلام وصلبه ثم قيامه من بين الأموات قصة خرافية»

ومن الأسباب التي ذكرها اعتقاد النصارى بالتثليث، وادعاؤهم أن الصفة تسبق الموصوف.. بالإضافة إلى هذا كله فقد ذكر أنه التقى بعدد من العلماء المسلمين، وبعد مواجهات عديدة معهم اقتنع بالإسلام واعتنقه.

وقد ذكر أنه نتيجة لذلك اعتزل الدنيا في منزله شهراً كاملاً، يعيد قراءة الكتب المقدسة بلغاتها القديمة وبنصوصها الأصلية مرة بعد مرة، ويدرسها دراسة متعمقة مقارنة ضمن بعضها في كتابه الفذ (محمد في الكتاب المقدس)

وقد أدته تلك العزلة الباحثة إلى اعتناق الإسلام في مدينة استانبول.. وقد ذكر في ختام رسالته قوله (في اللحظة التي آمنت فيها بوحداية الله، وبنبيه الكريم صلوات الله عليه، بدأت نقطة تحولي نحو السلوك النموذجي المؤمن.. ف (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هذه العقيدة سوف تظل عقيدة كل مؤمن حقيقي بالله حتى يوم الدين... وأنا مقتنع بأن السبيل الوحيد لفهم معنى الكتاب المقدس وروحه، هو دراسته من وجهة النظر الإسلامية)

### محمد فؤاد الهاشمي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (محمد فؤاد الهاشمي) <sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: وهو صاحب كتاب (الأديان في كفة الميزان).. وقد ذكر لي سبب إسلامه، فقال: «لقد كان قصدي من البحث في الإسلام استخراج العيوب التي أوحى إلي بها أساتذتي، لكن وجدت أن ما زعموه في الإسلام عيوباً هو في الحقيقة مزايا، فأخذ الإسلام بلي، فأنقذت إليه، وآمنت به عن تفكّر ودراسة وتمحيص، وبها كلها رجحت كفة الإسلام، وشالت كفة سواه»

### فردريك دولامارك:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فردريك دولامارك)، فسألت البابا عنه، فقال: لقد كان هذا الرجل كبير أساقفة جوهانسبرج، وقد اهتزت دوائر التبشير العالمية بعد إسلامه، فقد أعلن في صحن المركز الإسلامي الكبير بجنيف عن إسلامه، مؤكداً إستعداده للبدء فوراً في قيامه بالتعريف بحقيقة الإسلام، والعمل على نشر تعاليمه في أنحاء القارة الإفريقية. وسادت الدهشة والذهول أركان الكنيسة الكاثوليكية، بعد أن أعلن أنه عندما درس الإسلام وجد صورة أخرى مختلفة للمسيح عليه السلام مما أحدث في نفسه أعمق الأثر.. وقد خشيت الكنيسة من تأثر عدد كبير من قادة العمل التبشيري بتلك المفاجأة، حيث اشتهر (فردريك) برجاحة عقله وإنصافه للحقيقة.

والمثير للانتباه أن (فردريك) قد وصلت غيرته على الإسلام إلى حد التأكيد على ضرورة تطوير أساليب الدعوة والاهتمام بدعمها، حيث أن هناك قصوراً في هذا الصدد ينبغي معالجته.. وقد صرح بهذا المعنى في قوله: «من المؤسف حقاً أن الجهود التنصيرية لا تشكو من أي نقص تنظيمي أو حركي أو مالي أو معنوي، وهذا ما نفتقده عند دعاء الإسلام، فضلاً عن المصاعب السياسية والاقتصادية والاجتماعية»

### مصطفى مولاني:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مصطفى مولاني) <sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال:

---

(١) عن (الإسلام) الدكتور أحمد شلبي ص (٢٨٨)  
(٢) انظر: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، محمد كامل عبد الصمد.



لقيت هذا القس الأيرلندي في مصر، ولم يذكر لي اسمه الحقيقي، أو لست أذكر اسمه الحقيقي، ولكنه كان عالماً من علماء المسيحية، وقد وفد إلى مصر بعد أن استقال من منصبه كأسقف في إحدى الولايات الأمريكية، ليدرس الإسلام على يد شيوخ الأزهر وعلمائه.

وقد جمعني وإياه مجلس طويل حدثني فيه عن رحلته للإسلام، والتي بدأها بقوله: «أنا إيرلندي الأصل، نشأتُ في بيعة كاثوليكية متمسكة بعقيدتها.. وكل الآباء هناك يتمنون أن يكون من أبنائهم قسيس يخدم الدين المسيحي، لأن هذا شرف كبير للعائلة، لذلك درست في مدرسة ثانوية دينية، ثم التحقت بكلية خاصة بالقسس بجامعة (سانت باتريك) لدراسة الفلسفة واللاهوت لمدة ست سنوات.. وخلال فترة دراستي لم أسمع كلمة واحدة عن الإسلام.

وبعد تخرجي بشهرين فقط.. أي عام ١٩٧١.. ذهبت إلى أمريكا للتبشير، حيث تُخرج الكلية مائتي قسيس كل عام.. ويأتي الأساقفة الأمريكيون فيأخذون أغلبهم إلى أمريكا للعمل بالتبشير في مناطق مختلفة.. وقد أتيح لي أن أعمل أسقفاً بولاية (نيو جيرسي).. وأصبحت مسئولاً عن إعداد برامج التوجيه الديني لكل المستويات وتدريب القائمين بهذا العمل، وإلى جانب ذلك عملت مدرساً للمواد الدينية بالمدرسة الثانوية الكاثوليكية.. وكنت مشغولاً بالبحث والدراسة حتى أستطيع أن أؤدي واجبي تجاه إرشاد الناس.

ولكنني كنت كلما تعمقت في البحث والدراسة اتباني شعور غريب بالشك في عقيدتي.. ولم أستطع أن أكنم شكوكي، فقررت مفاتحة رئيس الأساقفة، وقلت له: لدي شك في عملي، بل وفي إيماني بالله حسب عقيدتنا، فنصحتني بالتريث والتفكير، وأعطاني مهلة لمدة عام ريثما أفكر في الموضوع بهدوء.

وخلال هذا العام عكفتُ على البحث والدراسة، وتوجت بحثي بالحصول على درجتين للماجستير، إحداهما في التربية الدينية، والأخرى في اللاهوت والكتاب.. ولكن هذه الدراسات والبحوث لم تزديني إلا شكاً في عقيدتي وعملي.. وعدت إلى رئيس الأساقفة ومعني استقالتي من عملي فوافق.

قلت: هل معرفتك بالإسلام هي السر في هذا الشك الذي عرض لك نحو المسيحية؟

قال: لا.. فلم أكن إلى تلك اللحظة قد عرفت أي شيء عن الإسلام.

قلت: فما أسباب ذلك الشك إذن؟

قال: هناك أسباب كثيرة، فقد كان انتقالي من (إيرلندا) حيث المجتمع الريفي المتناسك، إلى أمريكا حيث المجتمع الصناعي المادي، وما يتميز به من أمور غريبة، من ذلك مثلاً عدد المذاهب المسيحية الذي يربو على ثلثمائة مذهب.. كل واحد منها يزعم أنه على الحق دون غيره، مما جعلني أشك في صدق هؤلاء.

كما أن هناك أشياء أخرى لم أكن مقتنعاً بها، مثل السلطة البابوية المطلقة على الناس، والتعسف في معالجة الأمور، مثلما حدث من جدال طويل قد ثار حول موقف البابا من تنظيم النسل.. فهم يرفضون التنظيم مع أنه لا يوجد في الأناجيل ما يمنع ذلك.

كما أنني لم أكن مقتنعاً بفكرة الرهبنة، حيث كثير من رجال الدين في المسيحية ممنوعون من الزواج بأمر البابا.. وهذا شيء ضد طبيعة الإنسان وفطرته.

هذه هي بعض الأسباب التي ضاعفت شكوكي، وجعلتني أعيش في حيرة.. كيف أعظ الناس وأنا غير مقتنع بما أقول.. لذلك قررتُ الإستقالة دون أن أعرف شيئاً عن الإسلام.

وبعد أن استقلت من عملي قررت أن أستأنف دراستي للحصول على الدكتوراه من جامعة هارفارد، وذلك بعد أن اشتغلت في الكنيسة تسع سنوات.

وفي فترة دراستي تلك كانت توافيني معلومات وبيانات عن الإسلام، فأردت أن أعرف المزيد منها، فدرست تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية.. كما حرصت على حضور بعض المحاضرات لعدد من علماء المسلمين الذين يحاضرون في القرآن والحديث وأركان الإسلام، وكل ما يتصل به. وذلك من باب حب الاستطلاع.

سكت قليلاً، يسترجع ذكرياته، ثم قال: أذكر في ذلك الوقت أنني قد سمعتُ عن مصر والأزهر ودوره الإسلامي الكبير.. والغريب الذي أعجب منه كلما استرجعه أن بداية معرفتي بالأزهر جاءت بعد رؤيتي لعرض تقدمه شيخان من الأزهر بزيهما الديني المميز إعتراضاً وتقديراً لدور الأزهر كأقدم جامعة في العالم، وذلك في أثناء الإحتفال بمرور ثلاثمائة عام على إنشاء جامعة هارفارد، حضره مندوبون من جامعات العالم العريقة.

وهذه الصورة محفوظة في سجل الجامعة هناك.. ولذلك قررت أن يكون موضوع رسالتي للدكتوراه عن (علماء الدين الإسلامي: ودورهم في المجتمع المصري من أيام الشيخ عبد المجيد سليم وحتى الآن)

وحتى ذلك الوقت لم أكن قد قررت اعتناق الإسلام، وإنما كان اهتمامي منصبا على الدراسة فقط، والتي كانت تستدعي منه مجيئي إلى مصر لأقوم بدراسة الإسلام من كليات الأزهر المتخصصة، مثل كلية أصول الدين، والتفائي بأساتذتها، وعلماء الإسلام، فضلاً عن قراءاتي المستفيضة لعدد كبير من الكتب الإسلامية.

وعندما حضرت إلى مصر وشاء قَدَرُ الله أن يكون ذلك في شهر رمضان، استرعى انتباهي ظاهرة غريبة بالنسبة لي كأجنبي.. حيث شاهدت المجتمع المصري منتظماً في أسلوب حياته القائم على أساس من الدين.. فالناس يذهبون إلى المسجد عند سماع الأذان، ويتطهرون بماء الوضوء، ثم يقفون في صفوف منتظمة.. وعند الإفطار تخلو الشوارع من المارة.

ابتسم قليلاً، ثم قال: ظننت في بداية الأمر أن هناك قانوناً يقضي بحظر التجوال بعد الغروب.. ولكنني عرفت السبب بعد ذلك.

ومما شد انتباهي رؤيتي للمسلمين، وهم يُصلُّون العشاء والتراويح.. ويذهب بعضهم إلى أعمالهم ومتاجرهم حتى ساعة متأخرة، يقال عنها (السحور).. ثم يصلون الفجر وينامون.

قلت: ما الذي شدك في كل هذا؟

قال: لقد رأيت المجتمع المصري مجتمعاً منظماً على أساس من الدين.. يكفي أنه قد شد انتباهي أن الأمن والأمان سائدان في شوارع القاهرة بشكل لم أرهما من قبل في أي مكان.. فالناس يسيرون في الشوارع ليلاً في أمنٍ واطمئنان بدون أن يتعرضوا للاعتداء عليهم بالقتل أو غيره.. في حين أن عندنا في نيويورك مثلاً يوجد كل يوم ثمانية قتلى في الشوارع، مع أن الأمريكيين لا يسيرون في الشوارع والطرق ليلاً خوفاً على حياتهم ليس

ذلك في نيويورك وحدها، بل في باقي الولايات الأمريكية.. فبرغم القوانين والعقوبات تنتشر الجرائم والانحرافات انتشاراً مخيفاً، ولكن الأمر يختلف في المجتمع المسلم، كما هو الحال في مصر، فإيمان الناس بدينهم يجعلهم يطبقون تعاليمه بدون خوف من عقوبة أو قانون، بل احتراماً لمبادئهم وعقيدتهم، وهذا هو الفرق بين المجتمع هنا والمجتمع في الغرب حيث لا أمن ولا أمان.

سكت قليلاً، ثم قال: ولكنني برغم اقتناعي بالإسلام كمنهج حياة ينظم للبشر أسلوب معيشتهم وسلوكياتهم، وبرغم قراءاتي في الكتب الإسلامية المترجمة، ولا سيما ترجمة معاني القرآن الكريم وغيرها من كتب، وبرغم مقابلاتي مع شيوخ وعلماء الأزهر.. برغم ذلك كله لم أعلن إسلامه على الفور.. وليس ذلك عن عناد فكر وغشاوة قلب.. وإنما لسبب آخر..

قلت: ما هو؟

قال: برغم اقتناعي الكامل بالإسلام كدين خاتم يجب أن يؤمن به الناس جميعاً، فإني ترددت أربعة أشهر قبل أن أعلن إسلامي، لأدرس القرار في تأنٍّ من جميع جوانبه.. لأنه من الصعب على الإنسان أن يغير دينه.. بعدها شرح الله صدري للإسلام، فدخلت في دين الله الحق.. وسميت نفسي مصطفى مولاني تيمناً باسم الرسول محمد ﷺ.

قلت: فكيف شعرت عندما دخلت للإسلام؟

قال: في لحظة اعتناقي للإسلام شعرت أنني أدخل عالماً نورانياً يسمو بالروح والنفوس.. وذلك حينما تسلمت شهادة إشهاري للإسلام.. قد شعرت بأنني حصلت على أعلى شهادة في الدنيا.. وأحسست في الوقت ذاته أنني ألقيتُ عن كاهلي عبئاً ثقيلاً من الموموم والقلق والشكوك والشقاء.. نعم شعرت بسعادة غامرة لم أشعر بها من قبل.

قلت: ومحمد.. لقد سمعت بأنك كلت له بعض المهجوم عندما كنت قسيساً؟!

قال: لقد اقتنعتُ تماماً بأن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين.. واقتنعت بسنته وتشريعاته التي اتخذها الغرب مدخلاً للظعن في رسالته مثل تعدد الزوجات التي اقتنعت تماماً بحكمتها<sup>١</sup>. سكت قليلاً، ثم قال: لقد قمت بأداء عمرة، وزرت البيت الحرام، والروضة الشريفة، وفاضت عيناوي بالدموع أمام قبر المصطفى ﷺ، وقلت ل نفسي حينئذ: من أنا حتى أقف أمام قبر أعظم إنسان عرفته البشرية.. وشكرت الله تعالى أن هداني للإسلام.

**أشوك كولن يانج:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (أشوك كولن يانج)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو الكاردينال أشوك كولن يانج.. وقد كان أمين عام مجلس الكنائس العالمي لوسط وشرق إفريقيا، وقد احتفظ باسمه، وذكر لي أن سبب ذلك يعود إلى ما ذكره الفقهاء من أنه لا حرج في احتفاظ المسلم باسمه القديم

(١) سنى التفاصيل المرتبطة برد هذا النوع من الشبهات في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

(٢) انظر: مجلة المجتمع العدد ١٦٤٤.

ما لم يحو على دلائل الكفر.. والثاني، هو تحقيق أهداف دعوية، تجعل المسيحيين يثقون فيه، ويقبلون قوله. وقد التقيت به بعد اعتناقه الإسلام، وسألته عن رحلته للإسلام، فقلت: تغيير الإنسان عقيدته ليس أمراً سهلاً، خاصة إذا كان هذا الإنسان يحتل قمة الهرم الذي يدعو إلى هذه العقيدة.. فما الذي قادك إلى التغيير، ومن ثم اعتناق الإسلام؟

تأمل قليلاً فيما ذكرته له، ثم قال: الإنسان — مهما علا شأنه — إذا كان صادقاً وجاداً في البحث عن الحقيقة، فإنه حتماً سيصل إليها يوماً ما، وهذه الحقيقة التي سيصل إليها إما أنها تعزز ما يؤمن به، أو تهديه إلى سبيل آخر..

قلت: أعلم تأثير الصدق ودوره الخطير في الوصول إلى النتائج العظيمة.. وقد قال الصالحون ( من صدق وجد).. ولكني أسألك عن طريق ذلك الصدق.

قال: تلك قصة طويلة..

قلت: من أين تبدأ؟

قال: من الأناجيل.. فمن صدق في قراءة الإنجيل.. فستهديه لا محالة إلى القرآن.

قلت: هذه الأناجيل التي بين أيدينا؟!

قال: أجل.. هذه الأناجيل التي بين أيدينا.. فقد كانت هي النور الأول الذي وصلت به إلى شمس محمد.

قلت: كيف تم ذلك؟

قال: من خلال أقوال المسيح التي وردت في الأناجيل، فقد جاء في إنجيل يوحنا في الإصحاح الثامن فقرة ٤٠ عندما هم اليهود بقتله: «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعته من الله..» لقد لاحظت أن المسيح في هذا النص يخبر أنه إنسان اختاره الله وحمله رسالة وجعله نبياً، ولذلك يقول — كما جاء في الإصحاح الثامن فقرة ٤٢ —: «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني، لأني خرجت من قبل الله وأتيت، لأني لم آت من نفسي بل ذلك أرسلني، لماذا لا تفهمون كلامي؟»

بل صرحت بعض الأناجيل بنبوته عيسى كما جاء في لوقا — الإصحاح السابع فقرة ١٦ —: « فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم»، وجاء في متى — الإصحاح الحادي والعشرين فقرة (٩، ١٠، ١١) —: « ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة: من هذا؟ فقالت الجموع: هذا النبي الذي من ناصرة الجليل<sup>١</sup>»

وهذه النصوص تتفق مع قوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّانِ الطَّعَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ نَنْظُرُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (المائدة: ٧٥)

قلت: فأنت ترى أن هذه النصوص التي وردت في الأناجيل كفيلة بتغيير عقيدة المسيحيين من المسيحية إلى الإسلام؟

قال: ذلك صحيح لمن صدق في البحث.. ولم يتوقف عند هذا..

(١) سئى النصوص الكثيرة المثبتة لبشرية المسيح ونبوته في رسالة (الله جل جلاله) من هذه السلسلة.

قلت: لم أفهم ما تقصد.

قال: الإيمان برسالة سيدنا عيسى عليه السلام يكون بتصديقه فيما أخبر، فلا نرد خبره ولا نكذب قوله ولا نخالفه.

قلت: كل المسيحيين يزعمون أنهم يعتقدون هذا.

قال: لقد جاء المسيح عليه السلام لأمرين مهمين.. كلاهما غفل عنه إخواننا المسيحيون.

قلت: ما هما؟

قال: أما أولهما، فهو تعلم الأمة التي بعث إليها كيف تتقرب إلى الله وتعبده، أما معرفة الله فيذكر المسيح عليه السلام أن الله واحد لا شريك له ولا نظير له ولا شبهه له، فقد جاء في إنجيل (مرقص: ١٢/ ٣٠) لما سأله الكتبة: أي وصية هي أول الكل؟ فأجابه يسوع: «إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل.. الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك هذه هي الوصية الأولى، وثانية مثلها هي أن تحب قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين فقال له الكاتب: صحيح يا معلم حسب الحق تكلمت فإن الله واحد لا آخر سواه»، وتتأكد هذه الحقيقة عن ذات الله بما جاء في إنجيل (متى: ٢٣/ ٨) حيث يقول المسيح عليه السلام: «وأما أنتم فلا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماء».. وجاء في يوحنا في (٢٠/ ١٨) قال المسيح: «إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»، وكلمة الأب (أبي وأبيكم) تعني في لغة الإنجيل الرب أي ربي وربكم.

التفت إلي، وقال: ولهذا تجدي مخاطب دائماً محيي المسيح قائلاً لهم: ألم تتضمن وصايا المسيح عليه السلام تعريفاً واضحاً لذات الله العلي الكبير المتفرد، وهو يوافق تماماً ما جاء في القرآن، فالله ﷻ يقول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ (الإخلاص)، كما جاء في القرآن الكريم أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الانبياء: ٢٥)

قلت: علمت المهمة الأولى.. فما المهمة الثانية؟

قال: المهمة الثانية للمسيح عيسى عليه السلام هي أن يهدي الأمة التي بعث إليها إلى عبادة الله، وهي أمة بني إسرائيل، أما غيرهم من الأمم فلا تعنيهم شريعة عيسى، وهذا ما تقرره الأناجيل المسيحية، فقد جاء في إنجيل متى (١٥/ ٥) قول يسوع: «لم أرسل إلا لخراف بني إسرائيل الضالة»، وجاء في متى (١٥/ ٥): «هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: «إلى طرق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بني إسرائيل الضالة»

قلت: فما تفيد هذه المعرفة؟

قال: هذه المعرفة تجعل كل مسيحي يبحث عن الرسول الخاتم الذي أرسل للبشر جميعاً.. وكل من بحث عن هذا الرسول.. فلن يجد غير محمد، فهو الوحيد الذي جاء في كتابه المقدس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨)، وجاء فيه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الانبياء: ١٠٧)

قلت: حدثني عن تلك اللحظة الخطيرة التي اتخذت فيها أخطر قرار يمكن أن يتخذه إنسان.  
سكت قليلاً يسترجع ذكرياته، ثم قال: حينما قررت اعتناق الإسلام، ذهبت إلى الكنيسة وتقدمت بطلب  
إجازة لكي أقضيها مع أسرتي، فطلب مني أن أنتظر حتى تعتمد لي الكنيسة من ٥٠ إلى ١٠٠ ألف دولار، لكي  
أنفقها على أولادي، فقلت لهم أنا لا أريد مالكم، وكانت عندي للكنيسة عمارتان وأموال تبلغ مليونين و ٤٠٠  
ألف دولار أمريكي، و ٣٢٠ مليون جنيه سوداني، فمتمت بتسليمها إلى راعي ميزانية التنصير، فكانت مفاجأة  
كبيرة للكنيسة.

وبعد ذلك قضيت يومين مع أسرتي نفكر في هذا الأمر وناقشه، وقد كانت أسرتي المكونة من زوجتي  
وأربعة أبناء تدرك أنني أفكر في اعتناق الإسلام، وحينما أبلغتهم أن الوقت قد حان، كان ردهم أنت أعلم منا  
ونحن نشق بك وقرارك قرارنا، وبالفعل ذهبنا إلى أحد المساجد المجاورة.. وهو مسجد النور.. وأشهرنا الإسلام.

قلت: فهل خسرت جميع تلك الثروة؟

قال: صحيح أنني خسرت أموالاً كثيرة غير أنني كسبت الإيمان والراحة النفسية بعد ٤٠ سنة قضيتها في  
الباطل.

قلت: فما فعلت الكنيسة بعد علمها بإسلامك؟

قال: لقد فعلت ما تعودت أن تفعله مع أمثالي.

قلت: ألم تكتف بما أخذته منك من مال؟

قال: لقد رميتي بالجنون.. وهذه سنة قديمة أخبر القرآن أنها ديدن جميع الغافلين.

قلت: أنت إلى الآن لم تحدثني عن الطريق الذي سلكته للتعرف على الإسلام.. أم أنك تتهرب من ذكر  
ذلك.

ابتسم، وقال: أنا لا أتهرب.. ولكن تلك الذكريات المريرة التي كنت فيها بعيداً عن الإسلام من الصعب  
اجترارها.

قلت: فحدثني عنها.

قال: لقد شاء الله أن أدرس مقارنة الأديان، وكان الهدف منها أن أتعرف على الأديان السماوية وغير  
السماوية من أجل ممارسة التنصير بعلم وخبرة ومنهجية، لكن الله أراد شيئاً آخر، فقد درست الأديان السماوية  
وهي معروفة، كما درست غير السماوية وهي البوذية والهندوسية وعبادة النار والشمس والشيطان والأصنام.  
وخلال مرحلة الدراسة كانت تتكشف أمامي الحقائق عن الإسلام أولاً بأول، وبدأ تكويني الديني يتشكل  
وأفكاري تتغير وتتداخل.

وفي إحدى مراحل الدراسة أيقنت أن الإسلام هو الدين الصحيح، فكنت حينما أسمع الأذان أتوقف عن  
إلقاء المحاضرة احتراماً للنداء الإلهي، وحينئذ أصبحت شخصاً بوجهين، وجه يرى أن الإسلام الدين الحق، وأن  
الله واحد لا شريك له، ووجه يغالط نفسه ويواصل انحراطه في الأعمال الكنسية والتمتع بأموالها الطائلة.  
ولما بدا تعاطفي مع الإسلام اجتمع مجالس القساوسة والرهبان والكاردينالات، واجتمع رأيهم على أنني

أميل للإسلام.. وهنا مارس مجلس الكنائس ضغوطاً كثيرة عليّ، ولما فشل قرر إيقافي عن العمل بالكنيسة، وصدر قرار من الكنائس بأن الجنون قد أصابني، قلت لهم: إنني لست مجنوناً، فأنا أخاف الله الواحد ربي وربكم ورب محمد وعيسى، إنني أخاف من عذاب الله، إنني أخاف من الله، وعلمت بعد ذلك أن تقرير الأطباء أثبت أنني لست مجنوناً، ولكنني أتطلع إلى اعتناق الإسلام.

قلت: لقد وصلت في الكنيسة إلى درجة كاردينال، كما احتل والدكم هذا المنصب.. فماذا يعني هذا المنصب.. وما وظيفته في الكنيسة؟

قال: لقد تقلدت مناصب كبيرة في الكنيسة، ومن بين ذلك أي كنت كاردينالاً كما كان والدي كذلك، وهذا المنصب في الكنيسة الكاثوليكية يوازي وظيفة المفتي في الإسلام.

قلت: هذا منصب رفيع..

قال: ولهذا.. فأنا أتحدى أيّاً كان من كبار القساوسة الشرقيين أو الغربيين أن يحاججني، بل أنا على استعداد لمناظرة صاحب أي درجة عالية في الكنيسة لإثبات صحة الإسلام وأحقيته بالاتباع، فأنا لم أسلم عاطفياً أو عبثاً، وإنما أسلمت بعد دراسة معمقة للأديان، وصلت في نهاية الدراسة إلى أن الإسلام هو الدين السماوي الذي ختم الله به الرسالات السماوية، وأن النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن عيسى عليه السلام إنسان من البشر وهو نبي ورسول وليس أكثر من ذلك، قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ﴾ (المائدة: ٧٥)

وأنا لست أول من يسلم من القساوسة، فقد سبقني إلى الإسلام عدد كبير من القساوسة والمبشرين، وعلى رأسهم الأمين العام لمجلس مؤتمر المطارنة في الكنيسة الكاثوليكية، ورئيس القساوسة في الولاية الشرقية.

قلت: ما الفرق بين وظيفتك الجديدة كداعية للإسلام.. وبين وظيفتك السابقة كداعية للمسيحية؟

قال: في السابق كان كل همي تنصير المسلمين أو إبعادهم عن دينهم حتى لو فسدوا وارتكبوا كل الموبقات، فلم يكن مهماً أن يكون المسلم إنساناً صالحاً أو سويّاً في المجتمع حتى بعد تحوله عن الإسلام، والكنيسة لا تهتم بدعوة النصارى إلى الالتزام، فجل اهتمامها أن يحمل الإنسان كلمة مسيحي، وليس شرطاً أن يكون متديناً أو ملتزماً، أما الآن فالمرء في الإسلام محاسب على كل صغيرة وكبيرة، وكل من يعتنق الإسلام عليه أن يكون صاحب عقيدة سليمة وعبادة صحيحة.

قلت: ألا ترى ازدوجية في معايير المسلمين الذين ينتقدون أعمال المبشرين، بينما هم يمارسون الدعوة الإسلامية بين غير المسلمين؟

قال: هناك فرق كبير بين الدعوة للإسلام والدعوة للمسيحية، فدعاة الإسلام يوضحون مبادئه وتعاليمه ويعكسون الصورة الصحيحة للإسلام، ولا يجيرون أحداً على الدخول فيه، لأن الإنسان إذا لم يعبد الله عن قناعة واعتقاد لا ريب فيهما فلا قيمة لإسلامه.

أما المبشرون، فهم للأسف ينتهزون حاجة الفقراء والمعوزين ويقدمون لهم الغذاء والدواء أو فرص التعليم

مقابل اعتناق المسيحية، فهؤلاء المنصرون لا يقنعون أحداً بعقيدة لأنه لا توجد تعاليم مسيحية مقنعة، وكل ما هنالك أن هؤلاء لديهم ميزانيات كبيرة، راحوا يستغلونها في هذه المهمة.

قلت: ما دورك الآن في مجال الدعوة الإسلامية؟

قال: نحن نرعى عشرات الآلاف من الذين اعتنقوا الإسلام من خلال نشاطاتنا في (..؟! ) ومن بينهم مثقفون وضباط ومسؤولون في قطاعات مختلفة حيث نقيم لهم المدارس والخلأوي القرآنية، فهناك أكثر من ١٢ ألفاً من المسلمين الجدد من النساء والرجال ينتظمون في خلأوي تحفيظ القرآن الكريم، وتضم كل واحدة منها من ٣٠٠ ٤٠٠ رجل وامرأة يحفظون القرآن ويدرسون السيرة والحديث الشريف والفقهاء الإسلامي.

ونحن نهتم بقيادات القبائل والسلاطين، فهؤلاء يتمتعون باحترام أتباعهم وأنصارهم فإذا أسلموا، أسلم من خلفهم، وقد لاحظنا أن الكثير من النصارى في الجنوب ينحدرون من أسر مسلمة، وكان الإنجليز أثناء احتلالهم للسودان قد نصرورهم، ومن ثم فنحن نعمل على إعادتهم إلى أصولهم الإسلامية.

### ثاني أكبر قسيس في غانا:

شد انتباهي في هذا الفصل عنوان يحمل اسم (ثاني أكبر قسيس في غانا)، فسألت البابا عنه، فقال: لا أذكر اسم هذا الرجل، ولكنني أذكر جيداً الوظيفة الخطيرة التي كان يتولاها.. وقد التقيت به في غانا، ولم أعلم منه، أو من الجمع الذين كانوا يتحدثون عنه إلا أنه كان ثاني أكبر قسيس في غانا كلها، وقد حدثني عن قصته مع الكنيسة والإسلام، فقال: في صغري كنت طفلاً فقيراً معدماً ألبس الرث من الثياب، وبالكد أجد لقمة يومي، وقد أخذني بعض المبشرين، وربوني في ملاجئهم، ودرسوني في مدارسهم، وما إن لحظوا مني نباهة حتى جعلوني من أولويات اهتماماتهم.

تعلمت في مدارسهم حتى نلت أكبر الشهادات.. وكان ذلك مقابل ديني الذي أعرف انتمائي له، لكنني تلفت بمنة ويسرة في وقت العوز والحاجة، فما وجدت أحداً إلا المبشرين..

بعد مدة أصبحت قسيساً لامعاً في بلدي، لي — كما يقولون — لسان ساحر وأسلوب جذاب ومظهر لامع، وبريق عيني يقود من رأني لا محالة إلى المسيحية.

وفي ذلك اليوم الذي أراد الله فيه هدايتي أخذت أتساءل بيني وبين نفسي، وأقول: أنا لم أترك ديني لقناعة في الديانة المسيحية، وإنما الجوع هو الذي قادني، والحاجة هي التي دفعتني، والعوز هو الذي ساقني، وعلى الرغم من رغد العيش الذي أنا فيه، والرفاهية التي أتمتع بها إلا أنني لم أجد الانشراح ولم أشعر وأنعم بالراحة والسعادة والطمأنينة إذ ما فتئت أقلق من المصير بعد الموت، ولم أرس على بر أمان أو قاعدة صلبة تريح الضمير حول ما في الآخرة من مصير.

لماذا لا أتعرف على الإسلام أكثر؟.. لماذا لا أقرأ القرآن مباشرة، بدلا من الاكتفاء بمعلوماتي عن الإسلام من المصادر المسيحية التي ربما لم تعرض الإسلام بصورته الحقيقية.

وهنا شرعت أقرأ القرآن، وأتأمل وأقارن، فوجدت فيه الإنشراح والإطمئنان، وانفجرت أساري و عرفت طريق الحق وسبيل النور: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ



الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ (المائدة)

وهنا اتخذت قرارى الحاسم، وعزمت على التصدي لكل عقبة تحول دون إسلامى.. لقد ذهبت إلى الكنيسة، وقابلت الرجل الأول فيها القسيس الأوروبى الكبير، وأخبرته بقرارى، فظن أنى أمرح.. لكنى عندما أكدت له أنى جاد فى رغبتى هذه، جن جنونه وأخذ يزيد ويرعد ويهدد.. ثم لما هدأ، أخذ يذكرنى بما كنت عليه، وما صرت إليه، وما فيه أنا الآن من نعمة ويسر، وحاول إغرائى بالمال، وأنه سيزيد راتى، ويعطينى منحة حالا، ويزيد من المنحة السنوية، ويزيد من صلاحياتى، وغيرها كثير.

ولكن دون جدوى.. فجدوة الإيمان قد تغلغت فى شغاف القلب، واستقرت فى سويداء الضمير، وكذلك بشاشة الإيمان إذا خالطت القلب استقرت.

لم يجد كبير القسس إلا أن قال لى: إذن ترجع لنا كل ما أعطيناك وتتجرد من كل ما تملك. فقلت: أما ما فات فليس لى سبيل إرجاعه، وأما ما لدى الآن فخذوه كله، وكان تحت يدي أربع سيارات لخدمتى، وفيلا كبيرة وغيرها، فوقع تنازلا عن كل ما أملك، لقد كنت أفتدى فى هذا بصهيب الرومى الذى قال له الرسول الكريم ﷺ: «ربح البيع أبا يحيى»، وذلك عندما استوقفه مشركو قريش فى طريق هجرته، وقالوا له: جئتنا معدما فقيرا، ثم استغنيت فوالله لا ندعك حتى تخرج من مالك، فاشترى نفسه منهم بأن دهم على ماله على أن يدعوهم.. وقد أنزل الله فيه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١)

اغتاظ القسيس الكبير وجردنى حتى من ملابسى، وطردنى من الكنيسة شر طردة، وظن أنهى سأكابد الفقر يومين، ثم أعود مستسححا، كيف لا يظن ذلك وهم الماديون حتى الثمالة.

لكنى خرجت من الكنيسة، وأنا لا ألبس سوى ما يستر عورتى، ولا أملك سوى هذا الدين العظيم الإسلام، وشعرت حينئذ أنى أسعد مخلوق على هذه البسيطة.

سرت ماشيا باتجاه المسجد الكبير وسط البلد، وفى الطريق أخذ الناس يمشون بجاني مستغربين، ويقول بعضهم: لقد جن القسيس، وأنا لا يرد على أحد حتى وصلت المسجد، فلما هممت بالدخول حاولوا منعى متسائلين: إلى أين؟ وإذا بالجواب الصاعقة: جئت أعلن إسلامى.

فتعجب الجميع قائلين (القسيس الأشهر فى البلاد الذى تنصر على يديه المئات، الذى يظهر فى شاشة التلفاز مرتين أسبوعيا، الذى يمثل المسيحية فى البلد، يأتي اليوم ليعلن إسلامه.. إنها سعادة لا توصف، وفرحة لا تعبر عنها الكلمات، ولا تقدر على تصويرها الجمل والعبارات، إنه أنس غامر، وإشراق منيرة)

لقد فرح المسلمون فرحا شديدا بإسلامى، ثم أعطونى من الألبسة ما دخلت به المسجد، وأقيت بالمسلمين المتواجدين خطبة أعلنت فيها إسلامى، وقد انطلقت على إثرها صيحات التكبير، وارتفعت خلالها أصوات التهليل والتسبيح، استبشارا وفرحا بإسلام من طالما دعاهم إلى الضلال، إذا به اليوم يدعوهم إلى الهداية

والإسلام.

وخلال يومين رجع الكثير الكثير ممن تنصروا إلى واحة دينهم الإسلام الوارفة الظلال، حيث ينعمون في ظله وكنفه بأثار الهداية وطمأنينة سلوك السبيل القويم وراحة البال والضمير والخير العميم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)

بعد يومين من إعلان إسلامي بدأ الحاقدون من المسيحيين يبحثون عني ليقتلوني وتهددوا وتوعدوا، فقام المسلمون بتهريبي إلى سيراليون سرا، حيث أُعلن عبر الإذاعة التي تملكها لجنة مسلمي أفريقيا الكويتية أنني سألقي خطابا للأمة بمناسبة إسلامي، وأخذ الجميع يترقب هذا الخطاب والكنيسة كانت ضمن المترقبين، وقد توقعت أن أقوم بمهاجمتها أشد المهاجمة وإخراج كثير من أسرارها أمام الملأ والتجني عليها، هذا ما كانت تتوقعه، وقد أعدت قبل خطابي مسودة لبيان سوف تنشره، وكان يتركز على أنها وجدتني معدما فقيرا، وقامت بمساعدتي وتربيتي، وتكفلت بتعليمي حتى بلغت أعلى المستويات العلمية، ثم ها أنا أقوم بنكران الجميل وخيانة الأمانة ورد المعروف بالإساءة.

لكن الله حبيب فألهم وأغلق عليهم الطرق، حيث قمت بإلقاء خطاب خلاف توقعهم بدأ فيه بشكرهم على كل ما قدموا له، وذكرت ما قدموا لي من رعاية ومأوى وتعليم وغيرها بالتفصيل، وذنت لهم بعد الله بالفضل، إلا أنني أشرت بطريقة لبقة إلى أن العقيدة وحرية الدين لا تسير وفق العواطف وفضل الله تعالى فوق كل فضل، ونعمة الله تعالى فوق كل نعمة، وذلك بصياغة تجعل كل من خدمته الكنيسة يُعيد النظر في هذه الخدمة والرعاية وأنها ليست مقياسا لصحة العقيدة، وليست العامل المرجح لاختيار الدين.

بعد الخطاب بيومين كان هناك حفل افتتاح مسجد الجامعة، حيث حضر هذا الحفل في باحة الجامعة رئيس جمهورية سيراليون وجمع من المسؤولين وبعض رجال الكنيسة الذين دعتهم الجامعة لتكريس التسامح الديني ولتلطيف الجو بعد الخطاب الذي ألقاه القس الذي أسلم.

وفي الحفل بعد تلاوة القرآن الكريم قام الشيخ طائس الجميلي ممثل لجنة مسلمي إفريقيا التي تكفلت ببناء المسجد بإلقاء كلمة أشار فيها إلى إسلامي وضمنها قوله ﷺ: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: من الآية ٨٢)

وعندما شرع في شرح هذه الآية ووصل بشرحه عند الآية ترى أعينهم تفيض من الدمع المترجم يترجم على الفور، رأيت القساوسة الذين حضروا أخرجوا مناديلهم بمسحون دموعهم.

وقد قال أحد القساوسة لزميله الذي بجانبه: أقسم أن هذا هو من أرشد ذلك القسيس ليجعل خطابه بالصورة التي ظهر عليها وأخرجنا.

## ثامنا — المفكرون

فتحت دفتر البابا على فصله الثامن، فوجدت عنوانه (المفكرون)، فقلت: أليس المفكرون هم العلماء؟  
قال: لا يكون العالم عالماً حتى يكون مفكراً.

قلت: فقد تحدثنا عن العلماء.

قال: أولئك هم الذين انصرف تفكيرهم إلى العمران.

قلت: والمفكرون؟

قال: من انصرف تفكيرهم إلى الإنسان.

قلت: تقصد العلماء بالعلوم الإنسانية.

قلت: يمكنك أن تقول ذلك، ويمكن أن يمزج هؤلاء بين علوم العمران وعلوم الإنسان.

قلت: فكيف يهتدي هؤلاء إلى الإسلام؟

قال: يهديهم الله بواسطة عقولهم التي لم يضيعوها.

قلت: أعلم أن الفكر يحتل في الإسلام منزلة رفيعة، فلا يعبد الله بأفضل من الفكر، بل إن الله ﷻ حث

العقول على استعمال الفكر للتعرف على حقيقة ما جاء به رسول الله ﷺ، فقال ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي

خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَتَّيْعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿﴾ (الأنعام: ٥٠)، وقال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

(لأعراف: ١٨٤)، وقال ﷻ: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(النحل: ٤٤)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خِزْفٍ فَذَرِكُوا مَا بِهِم بِصَابِرٌ مِنْ

جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٤٦)، وقال ﷻ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ

لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١)

قال: العبرة بالفكر الصادق.. لا بأي فكر.

قلت: ماذا تعني؟

قال: هناك من يفكر كما يفكر الشياطين.

قلت: تقصد أنه يستعمل عقله في الغواية والإضلال؟

قال: ويستعمله في الخداع والتمويه وتزييف الحقائق.

قلت: وهل يمكن للعقل أن يؤدي هذا الدور الرذيل؟

قال: العقل آلة مطيعة لصاحبها.. وهي تتحرك بتحريكه، وتسكن بسكونه.

قلت: لقد ذكرتني بقوله ﷻ إخباراً عن هذا النوع من المفكرين: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١)

وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ

كَانَ لِيَائِتًا غَنِيْدًا (١٦) سَأَرَّهُمْ صُعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَفَعَّلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ

(٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ (المدثر)

قال: هذه الآيات نزلت في ماركس وفرويد ودوركايم..

قاطعته قائلاً: بل نزلت في الوليد بن المغيرة.

قال: لم يكن الوليد إلا وليداً مع هؤلاء.. أما هؤلاء، فهم الذين فكروا ودبروا، ثم راحوا يتلاعبون بإنسانية

الإنسانية ويجولونها إلى أسفل سافلين.

قلت: عرفنا خبر هؤلاء في الرحلة الماضية.. فهل بنا إلى خبر الذين قال فيهم الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١)

### عبدالكريم جرمانوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عبدالكريم جرمانوس)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه،

فقال: هذا عالم من علماء المجر الكبار، وصفه العقاد بأنه (عشرة علماء في واحد)

وقد وُلِدَ في بودابست، وتعلّم اللغات الغربية: اليونانية، والألمانية، والإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والمجرية، ومن اللغات الشرقية: الفارسية والأوردية، وأتقن العربية والتركية على أستاذه: فاميري، وغولد زيهر اللذين ورث عنهما ولعهما بالشرق الإسلامي، ثمّ تابع دراستهما بعد عام ١٩٠٥م في جامعتي استانبول وفيينا. وصنّف كتاباً بالألمانية عن الأدب العثماني (١٩٠٦)، وآخر عن تاريخ أصناف الأتراك في القرن السابع عشر، فنال عليه جائزة مكنته من قضاء فترة مديدة في لندن، حيث استكمل دراسته في المتحف البريطاني.

وفي عام ١٩١٢م عاد إلى بودابست، فعين أستاذاً للغات العربية والتركية والفارسية، وتاريخ الإسلام وثقافته في المدرسة العليا الشرقية. ثمّ في القسم الشرقي من الجامعة الاقتصادية، ثمّ أستاذاً ورئيساً للقسم العربي في جامعة بودابست (١٩٤٨)، وظلّ يقوم فيه بتدريس اللغة العربية، وتاريخ الحضارة الإسلامية، والأدب العربي قديمه وحديثه، محاولاً إيجاد حلقات اتصال بين نهضات الأمم الإسلامية الاجتماعية والسيكولوجية، حتى أُحيل على التقاعد (١٩٦٥).

وقد دعاه طاغور إلى الهند أستاذاً للتاريخ الإسلامي، فعلمه في جامعات دلهي، ولاهور، وحيدرآباد (١٩٢٩—١٩٣٢)، وهناك أشهر إسلامه في مسجد دلهي الأكبر، وألقى خطبة الجمعة، وتسمّى ب (عبدالكريم)، وقدم القاهرة وتعمّق في دراسة الإسلام على شيوخ الأزهر، ثمّ قصد مكة حاجاً وزار قبر الرسول ﷺ، وصنّف في حجّته كتابه: الله أكبر، وقد نُشر في عدّة لغات (١٩٤٠)، وقام بتحريّات علمية (١٩٣٩—١٩٤١) في القاهرة والسعودية نشر نتائجها في مجلدين: شوامخ الأدب العربي (١٩٥٢)، ودراسات في التركيبات اللغوية العربية (١٩٥٤)

(١) انظر: مقالة عنه من كتاب الإسلام والغرب، الوجه الآخر - حسن السعيد.

وربيع عام ١٩٥٥ عاد ليقضي بضعة أشهر في القاهرة والإسكندرية ودمشق بدعوة من الحكومة ليحاضر بالعربية عن الفكر العربي المعاصر، وعن صور من الأدب المغربي، ثم رجع إلى الشرق العربي في شتاء ١٩٥٨، لاستكمال مصادر كتابه الجديد عن أدبائه المعاصرين. والذي صدرت بعض فصوله، وفيها قصص الكتاب المعاصرين. وقد انتخب عضواً في الجمع الإيطالي (١٩٥٢)، ومراسلاً للمجمع اللغوي بالقاهرة (١٩٥٦)، وفي المجمع العلمي العراقي (١٩٦٢).

وقد ترك تراثاً علمياً زاخراً بالعمق والتنوع، منه: قواعد اللغة التركية (١٩٢٥)، والثورة التركية، والقومية العربية (١٩٢٨)، والأدب التركي الحديث (١٩٣١)، والتيارات الحديثة في الإسلام (١٩٣٢)، واكتشاف الجزيرة العربية وسوريا والعراق وغزوها (١٩٤٠)، ونهضة الثقافة العربية (١٩٤٤)، ودراسات في التركيبات اللغوية العربية (١٩٥٤)، وابن الرومي (١٩٥٦)، وبين المفكرين (١٩٥٨)، ونحو أنوار الشرق، ومنتخب الشعراء العرب (١٩٦١)، وفي الثقافة الإسلامية، وأدب المغرب (١٩٦٤)، وكان يعدّ ثلاثة كتب عن: أدب المهجرة، والرحالة العرب وابن بطوطة، وتاريخ الأدب العربي.

وقد شرفني الله بالالتقاء به والحديث معه عن سر إسلامه، ومما ذكره لي قوله: «كان ذلك في عصر يوم مطير، وكنت ما أزال في سنّ المراهقة، عندما كنتُ أقلبُ صحائف مجلّة مصوّرة قديمة، تختلط فيها الأحداث الجارية مع قصص الخيال، مع وصف لبعض البلاد النائية؛ بقيت بعض الوقت أقلبُ الصحائف في غير اكتراث إلى أن وقعت عيني فجأة على صورة لوحة خشبية محفورة استرعت انتباهي، كانت الصورة لبيوت ذات سقوف مستوية تتخللها هنا وهناك قباب مستديرة ترتفع برفق إلى السماء المظلمة التي شقّ الهلال ظلمتها..

ملكتم الصورة عليّ خيالي.. وأحسستُ بشوق غلاب لا يقاوم إلى معرفة ذلك النور الذي كان يُغالب الظلام في اللوحة.. بدأتُ أدرس اللغة التركية، ومن ثمّ الفارسية فالعربية، وحاولتُ أن أتمكّن من هذه اللغات الثلاث حتّى أستطيع خوض هذا العالم الروحيّ الذي نشر هذا الضوء الباهر على أرجاء البشرية.

وفي إحازة صيف قدر الله أن أسافر إلى البوسنة وهي أقرب بلد شرقيّ إلى بلادي. وما كدت أنزل أحد الفنادق حتّى سارعت إلى الخروج لمشاهدة المسلمين في واقع حياتهم.. وقد خرجت بانطباع مُخالف لما يُقال حول المسلمين.. وكان هذا هو أوّل لقاء لي مع المسلمين. ثمّ مرّت سنوات وسنوات في حياة حافلة بالأسفار والدراسات، وكان مع مرور الزمن تتفتّح عيوني على آفاق عجيبة وجديدة.

ورغم تطواري الواسع في دنيا الله، واستمتاعي بمشاهدة روائع الآثار في آسيا الصغرى وسوريا، وتعلّمي اللغات العديدة وقراءتي لآلاف الصفحات من كتب العلماء، رغم كلّ ذلك فقد ظلّت روحي ظمأى.

سكت قليلاً يسترجع ذكرياته، ثمّ قال: أثناء وجودي في الهند، وفي ذات ليلة رأيت — فيما يرى النائم — كأنّ محمداً رسول الله ﷺ يخاطبني بصوت عطوف: لماذا الحيرة؟ إنّ الطريق المستقيم أمامك مأمون ممهد مثل سطح الأرض، سرّ بخطي ثابتة وبقوة الإيمان.. وفي يوم الجمعة التالية، وقع الحدث العظيم في مسجد الجمعة في دهلي.. حينما أشهرت إسلامي على رؤوس الأشهاد..

ابتسم، وقال: كان التأثر والحماص يعمان المكان، ولا أستطيع أن أتذكّر ماذا كان في ذلك الحين.. وقف

الناس أمامي يتلقفوني بالأحضان، كم من مسكين مجهد نظر إليّ في ضراعة، يسألني الدعوات، ويريد تقبيل رأسي، فابتهلتُ إلى الله أن لا يدع هذه النفوس البريئة تنظر إليّ وكأني أرفع منها قدراً، فما أنا إلا حشرة من بين حشرات الأرض، أو تائه جادّ في البحث عن النور، لا حول لي ولا قوة، مثل غيري من المخلوقات التعيسة.. لقد خجلتُ أمام آثات وآمال هؤلاء الناس الطيبين.. وفي اليوم التالي وما يليه كان الناس يفدون عليّ في جماعات لتهنئتي، ونالني من محبتهم وعواطفهم ما يكفيني زاداً مدى حياتي.

ومن أقواله التي قد تدلك على سر اعتناقه للإسلام قوله: (حبّ لي الإسلام أنه دين الطهر والنظافة: نظافة الجسم والسلوك الاجتماعي والشعور الإنساني، ولا تستهن بالنظافة الجسمية فهي رمز ولها دلالتها)<sup>١</sup> ومنها: (كم ألفت في قلوب المسلمين كنوزاً تفوق في قيمتها الذهب، فقد منحوني إحساس الحب والتآخي، ولقنوني عمل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وعلى المسلمين أن يعصّوا بالنواخذ على القيم الخلقية التي يمتازون بها، ولا يبنهروا ببريق الغرب، لأنه ليس أكثر من بريق حاو زائف)<sup>٢</sup> ومنها: (لا يوجد في تعاليم الإسلام كلمة واحدة تعوق تقدم المسلم، أو تمنع زيادة حظه من الثروة أو القوة أو المعرفة.. وليس في تعاليم الإسلام ما لا يمكن تحقيقه عملياً، وهي معجزة عظيمة يتميز بها عن سواه، فالإسلام دين الذهن المستنير، وسيكون الإسلام معتقد الأحرار) ومنها: (لقد تمتعت أن أعيش مائة عام، لأحقق كل ما أرجوه لخدمة لغة القرآن الكريم، فدراسة لغة الضاد تحتاج إلى قرن كامل من الترحال في دروب جمالها وثقافتها)<sup>٣</sup>

## مارتن لنجز:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مارتن لنجز)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لمفكر إنجليزي أشهر إسلامه على يد شيخ جزائري اسمه الشيخ أحمد العلوي، التقى به في سويسرا التي كان يعمل بها مدرساً، بعدها قام بتغيير اسمه من (مارتن لنجز) إلى اسم (أي بكر سراج الدين) وقد التقيت به في رحلة لي إلى سويسرا، وقد كان أول سؤال سألته: كيف رحلة من (مارتن لنجز) إلى (أي بكر سراج الدين)

نظر إلي متعجباً من هذا السؤال، ثم قال: كنت أدين بالمسيحية، كما تدين بها أسرتي التي لا تعرف عن الدين شيئاً إلا أنها مسيحية بالوراثة.. وهكذا نشأت خالي النفس من أي عقيدة يؤمن بها حق الإيمان.. لكن.. وبعد حصولي على شهادة الـ (A-B) في الآداب الإنجليزية حيث كنت أدرس الأدب الإنجليزي في جامعة أكسفورد إنجلترا.. أخذت أنقب في كتب التراث عن الديانات المنتشرة في العالم لأقرأ عنها جميعاً. وكان من أهم ما استوقفتي دين الإسلام كشرعية لها منهاج يتفق مع المنطق والعقل، وآداب تستسيغها النفس والوجدان.

(١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومي، ٢ / ٤٢١.

(٢) هؤلاء المثقفون اختاروا الإسلام، محمد عثمان ص ٣٥.

(٣) هؤلاء المثقفون اختاروا الإسلام، محمد عثمان ص ٣٦.

سكت قليلاً، ثم قال: (لقد وجدتُ في الإسلام ذاتي التي افتقدتها طوال حياتي، وأحسست وقتها أنني إنسان لأول مرة، فهو دين يرجع بالإنسان إلى طبيعته حيث يتفق مع فطرة الإنسان) ثم أردف قائلاً وقد امتلأت أساريه بابتسامة عذبة: (شاء الله لي أن أكون مسلماً، وعندما يشاء الله فلا راداً لقضائه.. وهذا هو سبب إسلامي أولاً وقبل كل شيء) قلت: هل هناك من العقول من ملأ عقلك بالفكر الذي هداك إلى الإسلام؟ قال: لا بد من ذلك..

قلت: من هو؟

قال: إن ما أثر عليّ، وجعلني أهتم بالإسلام هو كتب مؤلف كبير كان مثلي اعتنق الإسلام وأصبح من قسم المتصوفة، إنه الشيخ عبد الواحد يجي.. لقد تأثرت بكتبه التي صنفها عن الإسلام، حتى أنني لم أقرأ كتاباً من قبل في مثل عظمة كتبه، مما دفعني لأن أسعى لمقابلة من كان سبباً في إسلامي، فجئت إلى مصر حيث كان يعيش فيها وقتئذ.

لقد استفدت منه كثيراً.. فقد كان بحق عالماً عاملاً بعلمه.. وأكثر ما تعلمته منه الزهد في الدنيا، وهو ما تسمونه أنتم (التصوف)

قلت: هل أنت متصوف؟

قال: نعم.. ولكن مفهومي للتصوف أنه ليس انعزلاً عن الدنيا، ولكنه أخذٌ بأسباب الحياة في الظاهر، والإعراض عنها بالقلب.

إن الرسول محمد ﷺ لخص معنى التصوف كله في حديثه الشريف: (كُن في الدنيا كأنك غريبٌ أو كعابر سبيل).. أو ما قاله في حديث شريف آخر: (إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها).. هذا هو مفهوم التصوف الذي تعلمته من الشيخ عبد الواحد يجي.

قلت: إلى أي شيء قادتك التصوف؟

نظر إلى الأفق البعيد بعمق، ثم قال بكل هدوء: إلى العبودية الخالصة لله.

### الدكتور حامد ماركوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الدكتور حامد ماركوس)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لعالم وصحفي ومؤلف ألماني.. وقد التقيت به في بلدي ألمانيا، وكان من حديثه لي عن سر إسلامه قوله: منذ طفولتي، وأنا أشعر بدافع في داخل نفسي لدراسة الإسلام ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، وعانيت بقراءة نسخة مترجمة للقرآن في مكتبة المدينة التي نشأت فيها، وكانت هي الطبعة التي حصل منها جوته على معلوماته عن الإسلام.

أخذ مني الإعجاب كل ما أخذ لما رأيته في هذا القرآن من أسلوب عقلي رائع، في نفس الوقت الذي يفرض فيه التعاليم الإسلامية، كما أدهشني تلك الروح الثابرة الوثابة العظيمة التي أثارها وأذكتها هذه التعاليم في قلوب المسلمين الأوائل.

ثم أتيت لي في برلين فرصة العمل مع المسلمين والاستمتاع الى الأحاديث الحماسية المثيرة التي كان يقدمها مؤسس أول جمعية اسلامية في برلين ومنشئ مسجد برلين، عن القرآن الكريم، وبعد سنوات من التعاون العملي مع هذه الشخصية الفذة لمست فيها ما يبذله من ذات نفسه وروحه، آمنت بالإسلام، اذ رأيت في مبادئه السامية والتي تعتبر القمة في تاريخ الفكر البشري، ما يكمل آرائي شخصياً.

قلت: ما المبادئ التي أثارت اهتمامك، أو رأيت أنها تتوافق مع طريقة تفكيرك؟

قال: أولها الايمان بالله.. فهو عقيدة أصيلة في الإسلام، ولكن الإسلام في سبيل تقريرها لا يدعو الى مبادئ أو عقائد تتناقى مع العلم الحديث، وعلى هذا فليس ثمة تناقض ما بين العقيدة من جانب وبين العلم من الجانب الآخر، وهذه ولا شك ميزة عظيمة فريدة في نظر رجل أسهم بكل طاقته في البحث العلمي.

وميزة أخرى يمتاز بها الإسلام، تلك أنه ليس مجرد تعاليم نظرية صماء تسير على غير بصيرة وعلى هامش الحياة، انما هو يدعو الى نظام تطبيقي يصوغ حياة البشر، وقوانين الإسلام ليست بالتعاليم الجبرية التي تحتجز الحريات الشخصية، ولكنها توجيهات وارشادات تؤدي الى حرية فردية منظمة.

ومع توالي السنين كنت أزداد اقتناعاً بما يتبين لي من الأدلة على أن الإسلام يسلك أقوم سبيل في الملائمة بين شخصية الفرد وشخصية الجماعة، ويربط بينهما برابط قوي متين.

إنه دين الاستقامة والتسامح، إنه دائم الدعوة الى الخير، يحض عليه ويرفع من شأنه في جميع الأحوال والمناسبات.

### روحيه دوباكبيه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (روحيه دوباكبيه)<sup>1</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لمفكر سويسري اعتنق الإسلام، التقيت به في سويسرا، وقد سألته عن رحلته إلى الإسلام، فقال: نشأت في بيئة مسيحية بروتستانتية، غير أنني لم أكن مهتماً بها.. بل كنت متأثراً بالفلسفة الحديثة، ولا سيما الفلسفة الوجودية، ولهذا فقد كنت أعتقد أن الأديان مجرد معتقدات خرافية.

وعندما اشتغلت بالصحافة بدأت أسافر إلى أكثر من بلد.. فسافرت إلى السويد، وعملت بها مراسلاً صحفياً في نهاية الحرب العالمية الثانية لأكثر من خمس سنوات، لكنني اكتشفت أن الناس تعساء، برغم التقدم والرخاء الذي يعيشون فيه، على حين اكتشفت عكس ذلك عندما سافرت إلى بعض الدول الإسلامية في الشرق، فقد وجدت المسلمين — رغم فقرهم الشديد — يشعرون بسعادة أكثر، وأن حياتهم لها معنى.. وهذه الملاحظة جعلتني أفكر ملياً في معنى الحياة، وأتأملها من خلال هذين النموذجين.

لقد كنت أسأل نفسي: لماذا يشعر المسلمون بسعادة تغمر حياتهم برغم فقرهم وتخلفهم؟!.. ولماذا يشعر السويديون بالتعاسة والضيق برغم سعة العيش والرفاهية والتقدم الذي يعيشون فيه؟! حتى بلدي (سويسرا) كنت أشعر فيه بنفس ما شعرت به في السويد، برغم أنه بلد ذو رخاء، ومستوى المعيشة فيه مرتفع!

(١) انظر: اللواء الإسلامي: من حديث أجراه محمد صيره ورضا عكاشه في إحدى أعدادها الأسبوعية.



وأمام هذا كله وجدت نفسي في حاجة لأن أدرس ديانات الشرق.. وبدأت بدراسة الديانة الهندوكية فلم أفتنع كثيراً بها، حتى بدأت أدرس الدين الإسلامي فشديني إليه أنه لا يتعارض مع الديانات الأخرى، بل إنه يتسع لها جميعاً.. فهو خاتم الأديان..

وهذه حقيقة كانت تزداد يقيناً عندي باتساع قراءاتي، حتى رسخت في ذهني تماماً بعد ما اطلعت على مؤلفات الفيلسوف الفرنسي المعاصر رينيه جينو الذي اعتنق الإسلام.

لقد اكتشفت كما اكتشف الكثيرون ممن تأثروا بكتابات الفيلسوف الفرنسي الذي أسلم وتحولوا إلى الإسلام.. اكتشفت أن الإسلام يعطي معنى للحياة، على عكس الحضارة الغربية التي تسيطر عليها المادية، ولا تؤمن بالآخرة، وإنما تؤمن بهذه الدنيا فقط.

قلت: لقد كان فكر الفيلسوف الفرنسي رينيه جينو الذي أسلم، هو حاديك إلى الإسلام.  
قال: يمكنك أن تقول ذلك.. بالإضافة إلى أي — كما ذكرت لك — تأثرت بزياراتي للدول الإسلامية، فبرغم الظروف المادية السيئة في تلك الدول فإن أهلها يتمتعون بقدر كبير من الإيمان الراسخ في نفوسهم، ولا توجد عندهم أزمات أخلاقية كالتي توجد بالغرب، وجعلت كثيراً من الشباب ينتحر أو يهرب من الحياة بتعاطي المخدرات، مما يعني في نظرهم أن الحياة ليس لها معنى أو قيمة.

قلت: فهل رأيت أن الإسلام هو الذي يقف خلف تلك السكينة النفسية التي يعيشها المسلمون؟  
قال: أجل.. لقد تبينت أن الإسلام بمبادئه ييسط السكينة في النفس.. أما الحضارة المادية فتقود أصحابها إلى اليأس، لأنهم لا يؤمنون بأي شيء.. كما تبينت أن الأوربيين لم يدركوا حقيقة الإسلام، لأنهم يحكمون عليه بمقاييسهم المادية.

قلت: أهذا ما جذبك إلى الإسلام؟

قال: أول ما جذبني إلى الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.. فقد اكتشفت أن الإسلام دين متكامل، وكل شيء فيه مرتبط بالقرآن والسنة.. وفي اعتقادي أن الإنسان يمكن أن يتأمل في هذه الشهادة طيلة الحياة.

الشهادة تقول لا إله إلا الله.. وهذا يعني أنه ليس هناك حقيقة نهائية ودائمة سوى الله.. أما الفلسفة الحديثة فتقول إنه ليس هناك حقيقة سوى هذه الدنيا، ذلك ما تقوله الفلسفة الوجودية وغيرها..

وقد دهشت لأن الإسلام يعبر عن الحقيقة التي تناساها العلم والفلسفة الحديثة.

سكت قليلاً، ثم قال: لقد تأثرت بالقرآن الكريم كثيراً عندما بدأت أدرسه، وتعلمت وحفظت بعض آياته.. والحمد لله فأنا أستطيع أن أقرأ فيه، وتستوقفني كثيراً الآية الكرمة التي يقول فيها الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)، وقوله ﷻ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: من الآية ٢٥٦)

سكت قليلاً، ثم قال: والسنة النبوية الشريفة قرأتها أيضاً، وتأثرت بما فيها من حِكَم وبيان دقيق.

قلت: فكيف واجهت قومك وتحديث أعرافك ورحمت تعلن إسلامك؟

قال: لما عدتُ إلى سويسرا لم يكن هناك مبرر لأن أخفي إسلامي، لذلك فقد نشرتُ مقالات كثيرة عن الإسلام في (جورنال دى جنيف)، وصحيفة (جازيت دي لوزان)، وهي صحف غير إسلامية.. كما ترجمت بعض الكتب التي تتناول موضوعات إسلامية.. ودفعتُ في كتاباتي كلها عن قضايا الإسلام كمسلم وَّجَدَ طريقه في دين الإسلام.

وأنا أحاول — الآن — أن أكتف كتاباتي عن الإسلام، وأشرح للقراء الغربيين ما يدور في العالم الإسلامي.. وأنا أركز على مسألة أن الإسلام يُقدم حُلُوماً لمشاكل كثيرة وصلوا معها إلى طريق مسدود، في حين فتح الإسلام لها أبواباً كثيرة.

قلت: إن الكثير من قومنا يعتبرون الإسلام قومية لا أيديولوجية.. ويحكمون عليه على أساس ذلك.. و قاطعي قائلًا: أنا أختلف مع بعض الأشخاص الذين ينظرون إلى الإسلام باعتباره قومية — وهذا اعتقاد خاطيء لدى كثير من المسلمين.. إنهم يعتبرون الإسلام أيديولوجية وهو خطأ.. إنَّما الإسلام طريق إلى الله، وأفضل طريقة للوصول إلى معرفة الله والتصالح والوثام بين الخالق والخلق.

قلت: إن البعض يذكر أن الإسلام دين تخلف لا يقود إلى التقدم. ابتسم، وقال: الحمد لله.. إن الإسلام ليس متقدماً بمعنى التقدم الذي يعيشون فيه ويقودهم إلى الهاوية.. والحمد لله.. إن الإسلام لم يتجه إلى هذا التقدم المادي الذي يقصدونه.. ولو كان كذلك لما أثار انتباهي ولا انتباه هؤلاء المفكرين الذين وجدوا فيه الخير والسعادة للبشرية، أمثال (رجاء غارودي) وغيره.

إن الإسلام يعبر عن شيء خالد، ومن السخف أن نقول إنه متخلف، ولذلك يجب تغييره أو استبداله.. إن التقدم الذي ينادون به قادم إلى اليأس والضياع.. الحضارة والمدنية الحديثة تعبر عن صراع الإنسان مع المادة والحياة.. في حين يعبر الإسلام عن الحقيقة، ولذلك فلا داعي لأن يتجه الإسلام نحو التقدم بالمعنى الذي يريدونه، وهو الفوضى والدمار واليأس.

قلت: هناك من يفرق بين الإسلام كدين، والمسلمين كأشخاص.. فهل ذلك صحيح.. أم.. قاطعي قائلًا، والابتسام تملأه فمه: هناك قصة فيها رد على ذلك.. فأنا أعرف صديقاً منذ فترة اعتنق الإسلام في السادسة والعشرين من عمره اسمه محمد أسد<sup>١</sup>، كان يهودياً واعتنق الإسلام عام ١٩٢٦، وألف كتاباً بعنوان (الطريق إلى مكة)، وأصبح من علماء الإسلام، وله مؤلفات أخرى كثيرة.. قابلته منذ فترة في باكستان حيث يعيش هناك.. وسألته نفس هذا السؤال: هل هناك فرق بين الإسلام كدين والمسلمين كأشخاص؟

فقال لي: إذا كنا قد اعتنقنا الإسلام فليس هذا بسبب المسلمين.. ولكن السبب أن الإسلام حقيقة لا ينكرها أحد.

ثم نظر إلي، وقال: صحيح أن هناك تدهورا في حال المسلمين.. ولكني أصارحك القول بأن التدهور في حال أصحاب الأديان الأخرى أكثر مما هو في المسلمين.. إن الإسلام آخر تعبير عن الرحمة الإلهية.. وما زال

(١) سنتحدث عنه في هذا الفصل.

قادراً على العطاء.. عطاء كل ما يُخلِّص الإنسان من شقاء الحياة وآلامها ومتاعبها.. إن الإسلام يجدد الصلة بين المرء وربه التي قطعها إنسان اليوم.

حتى إذا كان المسلمون في حالة تدهور أو انهيار، فإن دينهم قادر على منحهم الحياة السعيدة المطمئنة التي تعينهم على التغلب على تلك الأزمات الأخلاقية التي يعيشها الغرب.

قلت: كيف تفسر ظاهرة الإقبال على اعتناق الإسلام من جانب الأوربيين؟

قال: السبب — كما قلت — الأزمة التي قادهم إليها الحضارة والمدنية الحديثة.. لقد أصبح الأوروبيون يعيشون في حالة يأس لأنهم لا يؤمنون بشيء، ولذلك فهم يبحثون عن معنى لحياتهم، وقد وجدوا هذا المعنى في الإسلام فأقبلوا عليه.

### الكولونيل دونالدس روكويل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الكولونيل دونالدس روكويل)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لكاتب أمريكي اعتنق الإسلام، وقد التقيت به في بعض المؤتمرات، وقد بادرنى بالحديث عن الدوافع التي جعلته يختار الإسلام، فقال يعددها: ثمانية أمور في الإسلام دفعتني إليه دفعا لم أتمكن من التفات منه.

قلت: فما أولها؟

قال: البساطة.. إن بساطة الإسلام، ومساجد المسلمين بجاذبيتها، وبما في أجوائها من روعة وجلال ووقار، وما يتميز به المسلمون المؤمنون من ثقة باعثة على اليقين تجعلهم يستجيبون لنداء الصلاة خمس مرات في اليوم، كل هذه الأمور ملكت عليّ مشاعري منذ البداية...

قلت: فما الثاني؟

قال: ذلك الإدراك الناضج للحياة، والذي هو من ثمار السنة المحمدية التي تجمع بين الرأي السديد، والقُدوة العملية، في أسلوب من التوجيه الحكيم في أمور كثيرة تدلل على واقعية هذا الدين، وحكمة أخاذة سديدة في أقوال محمد ﷺ.. خُذْ مثلاً قوله ﷺ: «إعقلها وتوكل».. لقد قرر في هاتين الكلمتين نظاماً دينياً في أعمالنا المعتادة، فلم يطلب إلينا التصديق الأعمى بوجود قوى غيبية تحفظنا برغم تقصيرنا وإهمالنا، بل يدعونا إلى الثقة في الله، والرضا بإرادته في عاقبة أمرنا، إذا نحن طرقتنا الأمور من أبوابها الصحيحة، وبذلنا في ذلك قصارى جهدنا.

قلت: فما الثالث؟

قال: سماحة الإسلام مع الأديان الأخرى — والذي هو نابع من اتساع الأفق الفكري — تجعله قريباً إلى قلوب أولئك الذين يتعشقون الحرية، فقد دعا محمد ﷺ أتباعه إلى أن يحسنوا معاملة المؤمنين بالتوراة والإنجيل، وإلى الإيمان بأن إبراهيم وموسى وعيسى عليهم رُسُلٌ من عند الله الواحد الأحد.. هذه سماحة يمتاز بها الإسلام عن الأديان الأخرى.

قلت: فما الرابع؟

قال: التحرر الكامل من عبادة الأوثان، وهو دليل على سلامة دعائم العقيدة الإسلامية، وعلى نقائها، فالتعاليم الأصلية التي جاء بها محمد ﷺ لم يغيرها المشرعون بتعديلات أو إضافات، فهذا هو ذا القرآن الكريم على الحالة التي أنزل بها على محمد ﷺ هداية المشركين والكفار في بداية دعوته ظل ثابتاً راسخاً حتى الآن.

قلت: فما الخامس؟

قال: الاعتدال والتوسط في كل شيء.. فهما دعامتان أساسيتان في الإسلام، قد استحوذتا على كل

إعجابي وتقديري.

لقد آمنت أن الرسول محمد ﷺ كان حريصاً على صحة قومه، فأمرهم بالتزام النظافة إلى أبعد الحدود، كما أمرهم بالصوم والسيطرة على الشهوات الجنسية.. وأذكر أنني كنت — عندما أقف في مساجد أسطنبول ودمشق وبيت المقدس والقاهرة وغيرها من المدن — أحس شعوراً عميقاً بقدرة الإسلام في بساطته، على الارتفاع بروح البشر إلى الآفاق العليا، بدون حاجة إلى زخارف أنيقة، أو تماثيل، أو صور، أو موسيقى، أو طقوس رسمية.. فالمسجد مكان للتأمل الهادئ، ونسيان الذات وفنائها، واندماجها في الحقيقة الكبرى، في ذكر الله الأحد:

قلت: فما السادس؟

قال: ديمقراطية الإسلام.. فقد أثار إعجابي تساوي الحقوق بين الملك صاحب السلطان، وبين الفقير المتسول داخل جدران المسجد، فهم يسجدون جميعاً لله، ليست هناك مقاعد تستأجر، ولا أماكن تحجز لفتة دون أخرى.

قلت: فما السابع؟

قال: لا يؤمن المسلم بوسيط بينه وبين ربه، بل يتجه رأساً إلى الله، خالق الخلق، وواهب الحياة، وهو لا يراه دون التجاء إلى صكوك غفران، أو إلى أحد لمنحه منحة الخلاص.

قلت: فما الثامن؟

قال: الأخوة العالمية الشاملة في الإسلام، بغض النظر عن اختلاف العنصر أو المذهب السياسي أو اللون أو الإقليم فقد ثبت ذلك عندي بكل يقين واقتناع مرات ومرات..

**رينيه جينو:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (رينيه جينو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الاسم الأصلي للعالم والفيلسوف والحكيم عبدالواحد مجيبي، الذي درس الأديان عامة، ثم اعتنق الإسلام، فأحدث إسلامه ضجة كبرى في أوروبا وأمريكا، وكان سبباً في دخول الكثيرين إلى الإسلام.

وقد ألف الكثير من الكتب التي ساهمت مساهمة كبيرة في نشر الإسلام، منها (أزمة العالم الحديث) (والشرق والغرب) و(الثقافة الإسلامية وأثرها في الغرب)، كما أصدر مجلة سماها (المعرفة)، وقد ترجمت كتبه إلى كثير من اللغات الحية.

وبسبب قدرة أفكاره على الاكتساح فقد حرمت الكنيسة قراءة كتبه.. ولكن ذلك لم يمنع من انتشار

كتبه في جميع أرجاء العالم.  
ومن تأثر بكتابات الكاتب الفرنسي المشهور أندريه جيد الذي كتب يقول: «لقد علمتني كتب جينو الكثير، وإن آراءه لا تُنقَضُ»  
قلت: أعرفه جيدا.. وأعرف احترام شيخ الأزهر عبد الحليم محمود له، فهل التقيت به؟  
قال: أجل.. ولكن على عجل.. فلم يكن له من الوقت ما يحدثني فيه.  
قلت: فما قال لك؟

قال: لقد قال لي عن سؤالي عن سبب إسلامه: (أردت أن أعتصم بنص لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلم أجد بعد دراسة عميقة، سوى القرآن).. وقال لي: (لقد ابتعدت أوروبية عن طريق الله فغرقت في الانحلال والدمار الخلقي والإلحاد، ولولا علماء الإسلام لظل الغربيون يتخبطون في دباحير الجهل والظلام)  
**حمزة يوسف:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (حمزة يوسف)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل أمريكي ولد في واشنطن لأسرة أرثوذكسية عام ١٩٦٠، وهو من عائلة مثقفة؛ فولده أستاذ مادة الإنسانيات في جامعة هارفارد، وأمّه خريجة جامعة بيركلي العريقة، أما جده فكان عمدة لإحدى مدن كاليفورنيا.

فجأة قرر في السابعة عشرة من عمره أن يسلم، فترك دراسته الجامعية التي كان قد أوشك على الانتهاء منها ليذهب في جولة لعشر سنوات في المنطقة العربية.. تعلم الفقه في الإمارات.. وحفظ القرآن الكريم في المدينة المنورة.. ودرس اللغة والشعر العربي في المغرب والجزائر، وعاش التصوف مع مرابطي موريتانيا.  
أمضى عشر سنوات كاملة في التعلم قبل أن يعود لوطنه أمريكا، ليحصل على البكالوريوس في التمريض من Imperial Valley College ودرجة علمية أخرى في الدراسات الدينية من جامعة San Jose State.  
في بدايات ١٩٩٠ بدأ التدريس لبعض التجمعات الإسلامية في سان فرانسيسكو، وفي ١٩٩٦ أسس معهد الزيتونة الذي يقول عنه إن من رسالته إحياء العلوم الإسلامية وكذلك طريقة التعليم القديمة (الشيخ والتلميذ).. يصدر معهد الزيتونة الكتب والمواد الصوتية التي تتحدث في القضايا المعاصرة التي تواجه الأمريكيين.

يدرس بما ألف طالب، ولها فروع في ٦ مدن أمريكية، منها نيويورك وفيلادلفيا هي مجموعة ثمار زيتونة يوسف.. كما أن لدروسه ومواعظه الدينية تأثيرا كبيرا على مستمعيه؛ فقد وزع آلاف النسخ من دروسه التي ألقاها حول سيرة الرسول ﷺ التي شرحها في ٢٤ ساعة، بالإضافة لذلك فهو يسافر إلى عواصم كثيرة في دول مختلفة في أمريكا الشمالية وأوروبا ليخاطب المسلمين وغير المسلمين معا.  
وقد سألته عن سبب اختياره لاسم الزيتونة، فأجابني: إنها شجرة غريبة جدا، فليس لها سحر معين في

(١) انظر: مقال لأحمد زين، بعنوان (حمزة يوسف.. الداعية الأمريكي المزدوج)، ولتفاصيل أكثر انظر موقع:

مظهرها، فهي ليست سامقة ولا وارفة الظلال ولا تتميز بوفرة الخشب، ولها مظهر ذابل مما يعطي إحساسا بالشيخوخة.. لكن على الرغم من كل ذلك.. تمتد جذورها تمتد عشرين قدما تحت الأرض، وفي الوقت الذي تموت فيه الأشجار الأخرى تبقى الزيتون حية نابضة، أما الثمار فإنها مفيدة جدا للإنسان، كما أن هذه الشجرة بتفرد تظل تثمر مئات السنين.

قلت: لقد التقيت به إذن؟

قال: أجل.. لقد شرفني الله بذلك، وفور لقائي به سألته عن سر استعجاله باعتراف الإسلام.. فقد أسلم كما ذكرت لك صغيرا، فقال لي: أنا لا أدري، سئلت هذا السؤال كثيرا، وكانت إجابتي ليست هي الواقع دائما.. وهذا يحيرني، كل ما أستطيع قوله: إنني سمعت عن الإسلام فانشرح صدري، وبدأت الطريق.

قلت: لقد سمعت أن بعض المسلمين أهملوا بانحيازك للغرب.

قال: أنا منحاز لما أعتقد أنه صائب وعادل، إذا كان ذلك على جانب المسلمين، فأنا مع المسلمين، وإذا كان مع الغرب فأنا مع الغرب.. أنا مسلم ولست قبلياً.

وفي حديث الشيخ حمزة — كما صار يسمى — تكثرت استشهاده بالفلاسفة والمفكرين الغربيين، فيتحدث عن أرسطوطاليس وتعريفه للسعادة، وأفلاطون وآرائه في المدينة الفاضلة وبرنارد شو وآرائه في الإسلام، وأرنولد توينبي حين يتحدث عن فرضيته بأن أزمة حادة ستقع في العالم بين نصفه الشمالي ونصفه الجنوبي.

وهو يهاجم المسلمين بقدر ما يهاجم أمريكا.. فهو أمريكي تائر على مساوي مواطنيه، ومسلم تائر على مساوي أهل دينه.. سمعته مرة يقول: إذا كان الناس في أمريكا يعتقدون أن أمريكا هي المجتمع المثالي، فلا أعتقد أنهم يطالعون نفس المصادر التي أطلعها، معدلات الاكتئاب والانتحار والاعتصاب والجريمة ووضع المدارس والإجهاض والتفسخ الأسري والطلاق.

وقد عمل مستشارا للبيت الأبيض، لكن ذلك لم يمنعه من مهاجمة بوش، فقد سمعته يقول على الملأ: الناس يظنون أننا في أمريكا نعيش في ديمقراطية، هذه كلها أكاذيب.. من الذي أوصل بوش لكرسي الرئاسة.. الشركات الاحتكارية الكبرى هي التي أوصلته.

وعندما سأله فرانك جاردنر مراسل البي بي سي قائلا: برأيك هل كان بوش صائبا حين حارب الإرهاب؟ فأجاب حمزة: أعتقد أنه إرهاب دولة مقارنة بإرهاب الأفراد.

وبشجاعة يعيد حمزة تعريف الحرب على الإرهاب، فيقول: الحرب على الإرهاب ينبغي أن تكون حربا على الحرب.. ويهز رأسه قائلا: هذا كل شيء.

لكنه في ذات الوقت لا يناق المسلمين ولا يجاملهم تخديرا لمشاعرهم، فهو يرى بوضوح أن (العقبة الأساسية أمام الدعوة الإسلامية في هذه الأراضي هم المسلمون أنفسهم بسلوكياتهم)

ويشخص مرضهم فيقول: صراحة إن الذين هاجروا هاجروا بمشاكلهم، وعمروا مساجدهم بها، والمسلم الجديد يتعب جدا من هذه التناقضات.

وقد رأيت ألمه الشديد بعد أحداث ١١ سبتمبر التي صدمته تماما، وكان أقرب إلى المفجوع حتى إنه أخذ

قراراً بإغلاق معهد الزيتونة مؤقتاً ليتفرغ لمخاطبة صناع القرار والمسؤولين المحليين والظهور في القنوات التلفزيونية لمحاولة توضيح الحقائق عن الإسلام.

وهو يحب التجديد ويجيد مخاطبة الجمهور، وهو صاحب فكرة برنامج (يللا شباب) الذي يذاع على mbc، وهو البرنامج الذي نجح في مخاطبة جماهير الشباب من خلال محتوى ديني جذاب.. وهو ما أكدته خالد طاش أحد معدي البرنامج لجريدة الوطن السعودية، حيث أشار إلى أن فكرة البرنامج نبتت من نصيحة قدمها الشيخ حمزة يوسف أشار فيها إلى ضرورة البحث عن وسيلة إعلامية حادة تتصل بالشباب المسلم، وتقدم له جرعات ثقافية ومعرفية، بعيداً عن الإعلام الاستهلاكي.

ومن المعروف أن الشيخ حمزة يقدم برنامجاً اسمه (رحلة مع حمزة يوسف)، واشترك في بعض حلقات (يللا شباب)، حيث تحول مع فريق البرنامج في عدد من المدن الأسبانية للحديث عن حضارة المسلمين ومعالها.. وكذلك التقى مع عدد من الشخصيات المؤثرة في مسلمي الغرب، مثل يوسف إسلام الفنان البريطاني.

ورغم هذا التجديد في الخطاب، فهو يقول: ليس من حق الجاهل أن يتكلم في الدين، لا بد أن يتعلم المسلم على يد الشيوخ، الآن كل واحد يفتح كتاباً ويفتي.. أنا لا يمكن أن أذهب إلى الطبيب وأسأله أين تعلمت الطب فيقول من الكتب.. هذا لا يمكن أن أسلمه بدني. لا بد أن يتعلم على يد أطباء حتى يتعلم كيف يجري العملية.. كل علم لا بد أن يؤخذ عن الشيوخ.. الآن الإسلام يؤخذ من الكتب فقط.

ويدافع عن رأيه بقوله: هذا ليس احتكاراً، وإنما بحكم: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: من الآية ٤٣)، بين الصحابة قليل جداً من كان يفتي مع أهم ترابوا عند رسول الله، هذا لم يكن احتكاراً.

والجانب الملفت في شخصية الشيخ يوسف هو صوفيته، فللتصوف تأثير كبير عليه، يظهر ذلك في استشهاداته بكثير من آراء أهل التصوف، كما أن أحد مشروعاته المهمة التي أجزها بعد سنوات من العمل المتحمس ترجمة بردة البوصيري إلى الإنجليزية، والتي تمت في يونيو ٢٠٠٢.

وهو يرد على من ينكر التصوف فيقول: التصوف كعلم.. علم السلوك والأخلاقيات من لب الإسلام، أما الطرق والشيوخ فهذا شيء آخر.

ويرد على الشبهات التي تثار حول هذا، فيقول: يقولون ما من أحد من الصحابة كانوا يعرفون كلمة تصوف، وهل كان منهم من يعرف النحو، أو التجويد، أو أصول الدين أو أصول الفقه؟ كلها مصطلحات ومسميات استجدت لتقنين العلوم.

### جان مونرو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جان مونرو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم أستاذ الأدب الإنجليزي في الجامعة الأمريكية ببيروت، والذي درس في جامعات (نورث كارولينا) و(لندن) و(تورنتو)، ووضع خمسة عشر كتاباً معظمها يدور حول المواضيع التي يدرسها، فضلاً عن أنه كتب حول موضوعات متنوعة تتعلق بالحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في منطقة الشرق الأوسط، وآخر كتبه هو (التجارة والإسلام في منطقة الشرق الأوسط).

وقد عاش بين المسلمين في لبنان عشرين عاماً بحكم عمله رئيساً لقسم الأدب الإنجليزي في الجامعة الأمريكية في بيروت.. عرف في أثنائها طبيعة وسلوك المسلمين، وتبين له خطأ التصور الذي كان يحمله معه عند ذهابه إلى لبنان، فقد كان يسيطر على مخيلته بعض الأضاليل والافتراءات على الإسلام والمسلمين، والتي كانت منتشرة بصورة كبيرة في الغرب، مثال ذلك أن الحرب المقدسة عند المسلمين هي العدوان على كل من لا يؤمن بعقيدتهم الإسلامية<sup>1</sup>.

لكنه بعد أن قرأ بإمعان التاريخ الإسلامي، اتضح له بجلاء أن الإسلام عقيدة متسامحة، ودين لا يفرض على الآخرين بالإكراه.

قلت: فهل التقيت به؟

قال: أجل.. لقد التقيت به في بيروت، وكان من جوابه لي عن سر اعتناقه للإسلام قوله: أريد القول: إن حظّي كان كبيراً، لأن الفرصة قد أتاحت لي الدراسة، ولكن ليس بطريقة أكاديمية، وإنما عن طريق اتصالات الصداقة مع مجموعة من الناس الذين كانت مهمتهم تنوير الناطقين بالإنجليزية بحقيقة طبيعة العقيدة الإسلامية، فضلاً عن ذلك أنني قرأت كل ما وصلت إليه يداي، كما أنني ناقشت مع الذين أعمل معهم بعض القضايا التي يُثار الجدل حولها.. وبهذه الطريقة توصلت إلى طبيعة وحقيقة الإسلام، ليس على أنه نظام يجب دراسته — وهي الطريقة التي يتبعها معظم الغربيين في معرفة الإسلام — ولكن كعقيدة فعالة، ومنهج وطريق للحياة، وكنت في بداية الأمر مهتماً بهذه الأمور.. أما الآن فإنني أكنُّ كل احترام وتقدير للإسلام وأتعاطف معه.

قلت: فما أثر الإسلام في حياتك؟

قال: إنني أعتقد أن تجربتي المشتركة مع المسلمين قد جعلتني أكثر تسامحاً من قبل.. كما أن تلك التجربة قد جعلتني مدرّكاً لبعض الأمور التي تحيط بي أكثر من الماضي.

بالإضافة إلى هذا، أصبحت متفهماً لوضع المرأة في الإسلام، على عكس ما يعتقد الغربيون — بصورة خاطئة — من أن المسلمين يعتبرون النساء كائنات دنيا ووضيعة، في حين أن الحقيقة أن النساء في ظل الإسلام يتمتعن بتلك الحقوق والامتيازات التي يجب أن يتمتعن بها، يكفي أن هناك سوراً عديدة في القرآن الكريم تثبت وجهة نظري هذه.

قلت: فما أهم الدروس التي تعلمتها من الإسلام؟

قال: كثيرة جداً.. لا يمكنني إحصاؤها..

ثم تأمل قليلاً، وقال: لعل أهم درس تعلمته من الإسلام هو عدم الجدوى من التذمر من أمور هي فوق طاقتنا لتغييرها أو تبديلها، فالإنسان ليس قادراً على كل شيء، مع أنه يتمتع بصفات خارقة تميزه عن بقية المخلوقات، ولكن عليه إدراك ضرورة الإذعان إلى قوة خارج طاقته، وأن التذمر من ذلك يؤدي إلى الفشل والإخفاق والحزن، في حين أن الإنسان الذي يدرك مكانه الحقيقي في هذا الكون يكون هادئاً مطمئناً يشعر

---

(١) انظر تفاصيل الرد على الشبهات المرتبطة بهذا في رسالة (سلام للعالمين)، ورسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة.



بالراحة مع نفسه وعالمه المحيط به.

سكت قليلاً، ثم قال: إنَّ فهمَ الإسلام لا يكون إلا بمعايشته، وما يؤخذ على الأوربيين هو أنهم لا يُعاشونهُ، لذلك فإفهم عندما يصلون إلى مرحلة التقسيم الفكري للإسلام فإنهم يصلون إلى ذلك بواسطة طريقة أكاديمية، ولذلك فإن العديد من علماء الغرب الذين يعتقدون الإسلام يعتبرهم زملاؤهم شواذاً، لأن الأوربي العادي يعتبر الإسلام ديناً دخيلاً وغريباً أكثر من اعتباره عقيدة حيوية.

### ميجيل بيرو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ميجيل بيرو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم أستاذ جامعي إسباني كره الحرية المنفلتة في أوروبا، والانحلال، وعدم الترابط الأسري، وكثرة الجرائم والانحرافات التي سادت المجتمعات الغربية، وأتيح له أن يقرأ عن وضع الإسلام لضوابط السلوك وللمعايير الأخلاقية في المعاملات.

وأتيح له بعد ذلك أن يلتقي بمجموعة من الإسبانين المسلمين، وعن طريقهم أتيح له إمكانية قراءة ترجمة معاني القرآن بالأسبانية، فاستشعر بميل قوي تجاه الإسلام، فواصل قراءته المكثفة عنه حتى اقتنع تماماً بتعاليمه ومنهاجه، بعدها قرر أن يشهر إسلامه، ويختار لنفسه اسم (نصر الدين)  
قلت: فهل التقيته؟

قال: أجل.. لقد التقيت به في القاهرة التي كان يعمل أستاذاً بجامعة، وقد سألته عن سر إسلامه، فقال: لقد التقيت بمجموعة من الإسبانين المسلمين، وعن طريقهم أتيح لي إمكانية قراءة ترجمة معاني القرآن، كما قرأت عن التراث العربي القديم فأعجبت به، بعدها قررت أن يكون الإسلام ديني.

وقد قام أحد أصدقائي بترجمة كتاب (المخطورات) للشيخ (ياسين رشدي) واستفدت منه كثيراً، وسمعت صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد في قراءة القرآن وأحبته كثيراً.

وبالرغم من القليل الذي عرفته عن الإسلام فإنني أتمنى من كل قلبي أن يهتدي إليه الناس أجمعون، وسأعمل على الدعوة إلى الإسلام، وسوف ابتدء بعائلتي والمقربين إلي إن شاء الله.

سكت قليلاً، ثم قال: إنني أحافظ على أداء الفروض في مواقيتها، وعلى صلاة الجمعة التي أشعر براحة نفسية كبيرة عند أدائها.. وإنني أعرف أهمية خطيب المسجد، والدور الكبير الذي يقوم به تجاه المسلمين، مثل مساعدتهم على فهم القرآن الكريم، وشرح الأحاديث النبوية، بجانب إرشادهم وتجميعهم على طريق الخير والصلاح.

وعند سؤالني له عن أحلامه المستقبلية قال: إنني حريص على تعلم اللغة العربية وإتقانها حتى يتسنى لي قراءة القرآن بلغته الأصلية، وبالتالي محاولة فهم معانيه، لأن ترجمته إلى اللغات المختلفة تؤدي إلى تضارب المعنى وعدم الوضوح.

وبهذه المناسبة أنه إلى أن الكتب التي تُرجمت إلى الأسبانية عن الإسلام ليست دقيقة في مضمونها، خصوصاً بعد ما ترجم أحد الأسبان — وهو مسيحي يدعى (جان فونت) — معاني القرآن إلى الأسبانية بطريقة

بعيدة كل البعد عن النص القرآني أو معناه، مما جعل الذين اطلعوا على هذه الترجمة من الأسبان يقولون: إن الإسلام دين غريب، ومما يدعو للأسف والأسى ما جاء في تلك الترجمة الأسبانية على يد ذلك المترجم، وعلى الأخص (سورة الناس) التي ترجمها إلى (سورة الرجال) وأخل بمعناها وبمضمونها<sup>1</sup>.

وعن سؤال حول المسلمين في إسبانيا أجابني بقوله: بالرغم من أن المسيحية هي الديانة المنتشرة في إسبانيا، فإن حرية الأديان متاحة للجميع، ولكن الإسلام — كما في كثير من الدول الأوروبية — يظل محدود الانتشار، مما يتطلب تنشيط حركة الدعوة الإسلامية ودعم أنشطتها ووضع كافة الإمكانيات في سبيلها.

### فيلي بوتولو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فيلي بوتولو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لعالم نفس ألماني، وهو أستاذ علم النفس بجامعة (ميونيخ) بألمانيا الغربية، وقد اختار أن يسمى بعد إسلامه باسم (أبي الحسن) لحبه لأبي الحسن الشاذلي.

وقد درس القرآن الكريم، وتعمق في دراسة التصوف الإسلامي بحكم تخصصه كباحث في الظواهر المختلفة في الأديان، وقد التقيت به وسألته عن سر إسلامه، وكان من جوابه لي قوله: إنني وجدت في الإسلام راحة نفسية، لم تفتقدها ألمانيا الغربية فحسب، وإنما تفتقدها أوروبا كلها.

ثم قال لي: إن شعوري بانجذاب للإسلام كان منذ فترة طويلة، ولكن أراد الله تعالى أن يكون عملي كأستاذ لعلم النفس بجامعة (ميونيخ) مدخلاً لاعتناقي دين الإسلام.. فمن خلال عملي بدأت مرحلة البحث والدراسة حول الأديان كافة لمختلف دول العالم، والظواهر الغربية في كل الأديان.

وعند دراسة الإسلام شد انتباهي ما وجدته في القرآن أولاً، وفي كتب التصوف ثانياً، من شرح لأصول العقيدة ومناهج الإسلام، فعكفت على دراسة التصوف فترة غير قصيرة، حتى انتهيت إلى حقيقة مهمة وهي أن الإسلام يهتم بعلاج الإنسان ظاهراً وباطناً، فهو دين يدعو إلى نظافة الظاهر وطهارة الباطن، ويربي في الإنسان حب الأخوة والترابط والتآلف، بعكس ما نجده في المجتمعات الغربية، حيث يعيش كل إنسان في عالمه الخاص، لا تربطه بالمجتمع روابط روحية أو علاقات دينية، كما يحدث عند المسلمين.

وعرفت من خلال دراستي للتصوف أن المتصوفة يجتمعون لذكر الله، ويلتقون على حبه، ويسيروا في طريق النقاء الروحي والوجداني، ويتلون أوراذاً معينة بعد كل صلاة، مما يجعلهم مشدودين دائماً إلى تعاليم السماء.

قلت: ألم تجد في مجتمع الكنيسة مثل هذا المجتمع؟

---

(1) تتعجب من هيئات الرقابة على المصاحف في الدول الإسلامية من اهتمامها الشديد بالنسخ العربية مع الإهمال الشديد للترجمات المختلفة، وكأنها لا تمت بصلة للقرآن.

وبهذه المناسبة ندعو أولياء الأمور إلى أن يخضعوا تراجم القرآن إلى هيئات رقابة مشددة بحيث تصادر كل الترجمات التي لا تتوافق مع ما جاء في القرآن الكريم، مثلما تصادر النسخ العربية التي تحتوي على أخطاء.

وهذا لا يصطدم مع حرية التعبير، لأنه لم يتكلف أحد من المسلمين بترجمة الكتاب المقدس، بل تركوه للمسيحيين، احتراماً لهم.

قال: من الصعب أن تجد في أوروبا مجتمعاً يتسم بهذه الصفات، ولهذا وجدتُ نفسي مدفوعاً الى اعتناق الإسلام.. ولكنني رأيت من الضروري والضروري جداً — أن أظل مسلماً في السر لمدة عام كامل، لأنك إن أردت أن تدخل الإسلام في بلد كل وسائل الإعلام فيه موجهة ضد هذا الدين الحنيف، لكان ذلك صعباً جداً، ولكن بعد أن رسخت العقيدة في نفسي أعلنت إسلامي بصراحة، ولم أحش الذين يُحاربون الإسلام. ثم احتتم قوله بحماس — وهو يشير بأصبعه إلى بعيد —: إنني أؤكد أنه بدون القرآن، وبدون التصوف<sup>١</sup> الذي يُعدُّ فرعاً من علم النفس الذي أدرسه في الجامعة لم يكن بمسْتَطاعي أن أُغيرَ ديني ولذا فلقد غيرت ديني عن ثقة واقتناع تام.

قلت: فما أثر الإسلام فيك؟

قال: لقد تغيرت حياتي اليومية بعد الإسلام تماماً، وانتظمت انتظاماً عجبياً، فقد كانت في الماضي بلا هدف، أما الآن فقد أصبح لها معنى، ولها هدف ولها حلاوة.. لقد أصبحت أخاف الله في كل تصرفاتي، وأعرف أن لي رباً سوف يحاسبني فيما أفعله في أي وقت.

**عبد الله كويليام:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (عبد الله كويليام)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم مفكر إنكليزي، ولد سنة ١٨٥٦، وأسلم سنة ١٨٨٧، وتلقب باسم: (الشيخ عبد الله كويليام). من آثاره: (العقيدة الإسلامية)، و(أحسن الأجوبة) قلت: لا شك أنك لم تلتق به.

قال: لا شك في ذلك.. ولكنني من خلال كتبه استطعت أن أتعرف على سر إسلامه، فمن مقولاته في كتبه: (من الوجه العلمي، بصرف النظر عن أنه كتاب موحى به، فالقرآن أبلغ كتاب في الشرق.. وهو حافل بالمنجزات السامية مليء بالاستعارات الباهرة)<sup>٢</sup>

ومنها قوله: (أحكام القرآن ليست مقتصرة على الفرائض الأدبية والدينية.. إنه القانون العام للعالم الإسلامي، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والجزائية. ثم هو قانون ديني يدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية إلى أمور الحياة الدنيوية، ومن حفظ النفس إلى صحة الأبدان، ومن حقوق الرعية إلى حقوق كل فرد، ومن منفعة الإنسان الذاتية إلى منفعة الهيئة الاجتماعية، ومن الفضيلة إلى الخطيئة، ومن القصاص في هذه الدنيا إلى القصاص في الآخرة.. وعلى ذلك فالقرآن يختلف مادياً عن الكتب المسيحية المقدسة التي ليس فيها شيء من الأصول الدينية بل هي في الغالب مركبة من قصص وخرافات واختباط عظيم في الأمور التعبدية.. وهي غير معقولة وعلوية التأثير)<sup>٣</sup>

ومنها قوله: ( لقد عثرت في دائرة المعارف العامة popular Encyclopedia على نبذة نصها كما يأتي

(١)

(٢) العقيدة الإسلامية، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٣) العقيدة الإسلامية، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(أن لغة القرآن معتبرة بأنها من أفصح ما جاء في اللغة العربية فإن ما فيه من محاسن الإنشاء وجمال البراعة جعله باقياً بلا تقليد ودون مثيل. أما أحكامه العقلية فإنها نقية زكية إذا تأملها الإنسان بعين البصيرة لعاش عيشة هنية)<sup>١</sup>

ومنها قوله: ( هذا القرآن الذي هو كتاب حكمة فمن أجال طرف اعتباره فيه وأمعن النظر في بدائع أساليبه وما فيها من الإعجاز رآه وقد مر عليه من الزمان ألف وثلاثمائة وعشرون سنة كأنه مقول في هذا العصر إذ هو مع سهولته بليغ ممتنع ومع إيجازه مفيد للمرام بالتمام. وكما أنه كان يرى مطابقاً للكلام في زمن ظهوره لهجة وأسلوباً كذلك يرى موافقاً لأسلوب الكلام في كل زمن ولهجة، وكلما ترقّت صناعة الكتابة قدرت بلاغته وظهرت للعقول مزاياه. وبالجملة فإن فصاحته وبلاغته قد أعجزت مصانع البلغاء وحررت فصحاء الأولين والآخرين، وإذا عطفنا النظر إلى ما فيه من الأحكام وما اشتمل عليه من الحكم الجليلة نجد جامعا لجميع ما يحتاجه البشر في حياته وكمالته وتهذيب أخلاقه.. وكذا نراه ناهياً عما ثبت بالتجارب العديدة خسارته وقبحه من الأفعال ومساوئ الأخلاق.. وكم فيه ما عدا ذلك أيضاً ما يتعلق بسياسة المدن وعمارة الملك، وما يضمن للرعية الأمن والدعة من الأحكام الجليلة التي ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة فضلاً عن القول)<sup>٢</sup> ومنها قوله: ( إن من ضمن محاسن القرآن العديدة أمرين واضحين جداً أحدهما علامة الخشوع والوقار التي تشاهد دائماً على المسلمين عندما يتكلمون عن المولى ويشيرون إليه.. والثاني خلوه من القصص والخرافات وذكر العيوب والسيئات وإلى آخره، الأمر الذي يؤسف عليه كثيراً لوقوعه بكثرة فيما يسميه المسيحيون (العهد القديم)<sup>٣</sup>

ومنها قوله: ( كان محمد على أعظم ما يكون من كريم الطباع وشريف الأخلاق ومنتهى الحياء وشدة الإحساس.. وكان حائزاً لقوة إدراك عجيبة وذكاء مفرط وعواطف رقيقة شريفة. وكان على خلق عظيم وشيم مرضية مطبوعاً على الإحساس)<sup>٤</sup> ومنها قوله: ( إن بعض كتاب هذا العصر الحاضر كادوا أن يعرفوا بأن الطعن والقدح والشتم والسب ليس بالحجة ولا البرهان فسلموا بذكر كثير من صفات النبي السامية وجليل أعماله الفاحرة)<sup>٥</sup>

ومنها قوله: ( ما اهتدى مئات الملايين إلى الإسلام إلا ببركة محمد الذي علمهم الركوع والسجود لله وأبقى لهم دستوراً لن يضلوا بعده أبداً وهو القرآن الجامع لمصالح دنياهم ولخير أخراهم)<sup>٦</sup> ومنها قوله: ( لما شرف محمد ساحة عالم الشهود بوجوده الذي هو الواسطة العظمى والوسيلة الكبرى إلى

(١) العقيدة الإسلامية، ص ١٣٨.

(٢) العقيدة الإسلامية، ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٣) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا، ص ٢٣ - ٢٦.

(٤) العقيدة الإسلامية، ص ٩٦ - ٩٧.

(٥) العقيدة الإسلامية، ص ١١٣ - ١١٤.

(٦) العقيدة الإسلامية، ص ٣٨ (عن لوزون في خطبته المذكورة).

اعتلاء النوع الإنساني وترقيه في درجات المدنية أكمل ما يحتاجه البشر من اللوازم الضرورية على نهج مشروع وأوصل الخلق إلى أقصى مراتب السعادة بسرعة خارقة. ومن نظر بعين البصيرة في حال الأنام قبله عليه الصلاة والسلام وما كانوا عليه من الضلالة.. ونظر في حالهم بعد ذلك وما حصل لهم في عصره من الترقّي العظيم رأى بين الحاليين فرقاً عظيماً كما بين الثريا والثرى)<sup>١</sup>

ومنها قوله: (امتدت أنوار المدنية بعد محمد في قليل من الزمان ساطعة في أقطار الأرض من المشرق إلى المغرب حتى إن وصول أتباعه في ذلك الزمن اليسير إلى تلك المرتبة العلية من المدنية قد حير عقول أولي الألباب. وما السبب في ذلك إلا كون أوامره ونواهيه موافقة لموجب العقل ومطابقة لمقتضى الحكمة)<sup>٢</sup>

ومنها قوله: (ليس بين الأديان أقرب للفهم من الدين الإسلامي للذين يفقهونه، كما أنه ليس بينها أثبت ولا أرفق منه. فهو بقاعدته: وحدانية الله والجزاء الآجل، يمنح القلوب حقوقها من السكنة والارتياح ويذهب بالإرادة المذهب الذي يلائمها وتحتاج إليه بدون أن تسوم العقل قيود هو بالطبع بأبائها. وليس في الاكتشافات العلمية الحديثة، ولا في المسائل التي انتهى حلها والتي تحت الحل ما يغير مثل هذه الحقائق الإسلامية الوضاعة والسهلة المأخذ. ولهذا فإن التوفيق الذي نبذل كل جهدنا معاشر المسيحيين لإيجاده بين العقل والاعتقاد في ديننا المسيحي هو سابق موجود في الديانة الإسلامية. وإنني بكلامي هذا عن الدين المسيحي إنما أشير إلى تلك الزيادات الموافقة وغير الموافقة التي أدخلت على نصرانية الإنجيل التي هي في الحقيقة كإسلام القرآن)

ومنها قوله: (إن الشريعة المحمدية تشمل الناس جميعاً في أحكامها، من أعظم ملك إلى أقلّ صعلوك فهي شريعة حيكت بأحكام وأعلم منوال شرعي لا يوجد مثله قط في العالم)<sup>٣</sup>

ومنها قوله: (إن الأساس المهم والمبدأ العظيم في الإسلام هو الاعتقاد بإله واحد في وحدانيته ونبذ الخرافات بأي وجه كانت)<sup>٤</sup>

ومنها قوله: (مهما ارتقى العقل في درجات الكمال فليرتق فإنه لا يخرج عن حدّ تلك الأحكام الجليلة، أعني الأحكام التي انطوت عليها الشريعة الإسلامية، فاتباعها في كل زمان ضروري لا محيص للعقل عنه)<sup>٥</sup>

ومنها قوله: (إن سرعة انتشار الإسلام في العصر الحديث يرجع إلى عدم الخلط والخطب في أصوله وبنياته الأمر الذي جعل له مكاناً ثابتاً في قلوب أهله وكل من تدين به بخلاف النصرانية فإنها مزعجة الأركان قلماً يكون لها ثبات عند الإنسان لما فيها من التبديل والتغيير والتحريف والتحوير.. لقد أفاد الإسلام التمدن أكثر من النصرانية ونشر راية المساواة والأخوة، وهذه الأدلة نذكرها نقلاً عن تقارير الموظفين من الإنكليز. وعن ما كتبه أغلب السيّاح عن النتائج الحسنة التي نتجت من الدين الإسلامي، فإنه عندما تتدين به أمة من الأمم السودانية الأفريقية تختفي من بينها في الحال عبادة الأوثان واتباع الشيطان والشرك، وتحرم أكل لحم الإنسان

(١) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا، ص ٢١ - ٢٢.

(٢) أحسن الأجوبة عن سؤال أحد علماء أوروبا، ص ٢٢ - ٢٣.

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٦٢، (عن لوازون في خطبته المذكورة)

(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٢٣، (عن كتاب شكوى وارن هاستنج، لادماند بورك)

(٥) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٢٩ - ٣٠.

وقتل الرجال ووأد الأطفال وتضرب عن الكهانة، ويأخذ أهلها في أسباب الإصلاح وحبّ الطهارة اجتناب الخبائث والرجس، والسعي نحو إحراز المعالي وشرف النفس، ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية وشرب الخمر ولعب الميسر من المحرمات، والرقص القبيح ومخالطة النساء دون تمييز منعمة، يحسبون عفة المرأة من الفضائل ويتمسكون بحسن الشمائل<sup>١</sup>

ومنها قوله: (زعم عدد من الكتاب الغربيين أن الإسلام في شرقي أفريقيا قائمة قواعده الأساسية على التجارة في الرقيق وجميع وسائل القسوة والانحطاط. إن روايات كهذه مجردة بالمرّة عن الحقيقة، لا يمكن تصديقها وتصور وقوعها وإني بدون تردد أثبت وأقول عن سعة خبرة وإطلاع عن شرقي أفريقيا وأواسطها بما ليس في إمكان أولئك الكتاب أن يأتوا بمثله: أنه لو كان للنخاسة وجود في هذه البقاع فما ذلك إلا لأن الإسلام لم يدخل فيها وبرهان ذلك أن الإسلام من خصائصه إبطال النخاسة إبطالاً دائماً)<sup>٢</sup>

ومنها قوله: (لتزدلف الآن إلى غربي أفريقيا والسودان الأوسط - حيث أتاحت لي الفرص زيارة هذه الجهات - فأقول إننا إذا قلبنا الطرق وأجلنا النظر نجد الإسلام كجسم قوي تدب فيه روح الحياة والنشاط وتحرك فيه عوامل الحماسة والإقدام كما كان في أيامه الأولى. فترى الناس تدخل فيه أفواجاً وأفواجاً وتقبل عليه بإقبال عجيب يشبه أيامه السالفة.. وأن دعاة الدين المسيحي يحاولون قلب الحقائق وإلقاء تبعة آثام النخاسة على عاتق الإسلام.. وتراهم لقصورهم عن إدراك مزايا هذا الدين المبين يصفون انتشاره بدهاية دهماء على الأفريقيين ويقولون - كما لقن إليهم في حديثهم - بأن دين محمد لم تقم له قائمة إلا بقوة النار والسيوف.. هذه هي التخيلات المطبوعة في أذهانهم والتي يشيعونها عن انتشار الإسلام، وهي على ما أظن تصورات توارثوها جيلاً عن جيل)<sup>٣</sup>

ومنها قوله: (على هذا المنوال انغرست بذور المدنية بين عدة قبائل همجية في أفريقيا ونما فيه الإسلام نمواً هائلاً إلى حد رنّ فيه صدى هذه البلاد وملاً الآفاق، وهاهو يقام فيها في الصباح والظهر وما يلي ذلك من الأوقات كلمة النداء في الإسلام - الأذان - فبعد ما كان الناس يسجدون للأشجار ويعبدون الأحجار صاروا يسجدون الآن لله الواحد القهار)<sup>٤</sup>

ومنها قوله: (أضاء نور الحضارة الإسلامية على العالم من سماء بغداد ومن قرطبة. إذ من المعلوم أنه في ذلك العهد الذي بلغت فيه تلك الحضارة إلى الغاية التي لا تدرك كانت أوروبا في دياحي الجهالة وكان الرهبان يرحلون لأخذ العلم بالبلاد الأندلسية.. وبالجملة فديانة الرجل الذي يقول (اطلب العلم ولو في الصين) تحرص

---

(١) العقيدة الإسلامية، ص ١٥ - ١٧ عن: (كانن إسحاق تبلي في خطبة له بمؤتمر الكنيسة الإنكليزية بتاريخ ٧ أكتوبر سنة ١٨٨٧، نشرت بجريدة التامس في اليوم التالي)

(٢) العقيدة الإسلامية، ص ٢٦ - ٢٧ عن: \_المستر جوزيف تومبسن J. Tompson الرحالة الإنكليزي الشهير، جريدة التامس، ١٤ نوفمبر ١٨٨٧)

(٣) العقيدة الإسلامية، ص ٢٩ - ٣٠ (عن مقال تومبسن المذكور)

(٤) العقيدة الإسلامية، ص ٣٢ - ٣٣ (عن مقال تومبسن المذكور)

على السعي.. لا على السكون)<sup>١</sup>

ومنها قوله: (هاهي الحوادث والأحوال قد برهنت على ما للقرآن أمام أعين الذين يفقهونه من صفات القابلية للعلم والترقي والحضارة حيث قامت في العالم الإسلامي حضارات فاخرة باهرة مثل حضارة بغداد وتمدن قرطبة الذي فات بكثير ما كان يعاصره من تمدن الغرب إن صحَّ أن لا نسَمِّي ما كانت عليه حالة الغرب وقتئذ بالهمجية. وحينذاك لم يهدم المسلمون آثار اليونان العلمية بحريق مكتبة الإسكندرية الموهوم، بل هم نقلوا إلى لغتهم آثار أرسطو التي عادت بأحسن الفوائد على مدارسنا الغربية في القرون الوسطى التي لم تصلنا إلا بواسطة المسلمين وعن أيديهم فضلاً عن أن علماء العرب كانوا أساتذتنا في سائر أنواع المعارف من الجبر (والاسم نفسه يرشد لذلك) إلى الطب، حتى إن أحد أعظم بابواتنا (سلفستر) رحل إلى الأندلس فحصل فيها من العلوم والمعارف ما أدهش وبهر سائر معاصريه)<sup>٢</sup>

ومنها قوله: (إن زعماء النصرانية أبدلوا دين المسيح بما كانت ترمي إليه أهواؤهم وأوجدوا عقائد أخرى من تلقاء ذاتهم وتظاهروا في مقاومة الشهوات البشرية بالرهينة والعزوبية.. واتخذوها ستاراً للفسق ولأعمالهم التضليلية حتى ضل الناس وأشركوا بالواحد القهار واتخذوا لفيماً من هؤلاء القديسين والرهبان أرباباً من دون الله فلما جاء الإسلام استأصل شأفة هذه الخزعبلات وقضى على جميع الأباطيل والترهات، وأقيمت الحجة الثابتة على استهجان العزوبية واعتبار الزواج كدليل للتقوى الحقيقة وأنه من أوليات القواعد الدينية إذ فيه بيان قدره الخالق ووحدانيته وجلاله.. فالإسلام هو الذي حضَّ على الزواج وأبطال الرهينة)<sup>٣</sup>

ومنها قوله: (أما تعدد الزوجات فإن موسى لم يجرمها وداود آتاها وقال بها ولم تحرم في العهد الجديد (أي الإنجيل) إلا من عهد غير بعيد. ولقد أوقف محمد الغلوِّ فيها عند حدِّ معلوم. وعلى كل حال فإن مسألة تعدد الزوجات أمر شاذّ كثيراً عن الدستور المعمول به في البلاد الإسلامية المتقدمة.. وهو بكل ما قيل فيه من القول الهراء لا يخلو من الفائدة فقد ساعد على حفظ حياة المرأة وأوجد لها في الشريعة حسن المساعدة. وتعدد الزوجات في البلاد الإسلامية أقلُّ إنمًا وأخفَّ ضرراً من الخبائث التي تركبها الأمم المسيحية تحت ستار المدنية.. فلنخرج الخنثبة التي في أعيننا أولاً ومن ثم نتقدم لإخراج القذى من أعين غيرنا)<sup>٤</sup>

ومنها قوله: (جاء في القرآن {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوَاحِدَةً} (٣). فيما يتعلق بمسألة تعدد الزوجات التي تنتقدون فيها على المسلمين ظلماً وعدواناً. إذ لا شك في أنكم تجهلون عدل النبي بين أزواجه (رضوان الله عليهن) وحبه فيهن حباً مساوياً مما علم المسلمين الانتماء والإنصاف بينهن. على أن القرآن لم يأمر بتعدد الزوجات بل جاء بالخطر مع الوعيد لمن لا يعدل في الآية المتقدمة، ولذلك ترى اليوم جميع المسلمين منهم القليل

(١) العقيدة الإسلامية، ص ٤٠، عن (لوازون في خطبة ألقاها بتونس ونشرت بجريدة الحاضرة التي تصدر في تونس بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٥)

(٢) العقيدة الإسلامية، ص ٦٢ - ٦٣.

(٣) العقيدة الإسلامية، ص ١٩، (كانن اسحق تيلر في خطبة له بمؤتمر الكنيسة الإنكليزية بتاريخ ٧ أكتوبر سنة ١٨٨٧، نشرت بجريدة التامس في اليوم التالي)

(٤) العقيدة الإسلامية، ص ٢٢ - ٢٣ عن (تيلر في خطبته المذكورة)

لا يتزوجون إلا امرأة واحدة خوف الوقوع تحت طائلة ما جاء من الإنذار في القرآن المجيد. وإذا سلمنا على العموم بأن عدم تعدد الزوجات أوفق للمعاشرة الدنيوية من تكررهن، فلا نسلم بالاعتراف بذلك على الوجه المتعارف اليوم بأوروبا من حصر الزواج في امرأة واحدة إذعانا للقانون واتخاذ عدة أزواج أخرى غير شرعيات من وراء الجدار<sup>١</sup>

ومنها قوله: (ورد في القرآن نصوص كثيرة تثبت أن النساء لا يعاقبن في الدار الآخرة فقط على ما أتيت من سيئ الأعمال بل كذلك يجازين خير الجزاء على ما يعلنه من طيب أعمالهن بمثل ما يكون للرجال. وعلى ذلك نرى أن الله سبحانه لا تمييز عنده في الإسلام بين الأجناس)<sup>٢</sup>

### مارك شليفير:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مارك شليفير)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم أستاذ لعلم الصحافة بجامعة (نيويورك)، وقد عمل فترة بالمغرب مراسلاً للإذاعة الأمريكية، ولعدد من المجلات في (نيويورك).. وقد اعتنق الإسلام، وقد سألته — في لقائي به عن سر اعتناقه للإسلام، فكان من جوابه لي قوله: لم أكن ملتزماً بدين معين، مع أنني أُنتمي إلى أسرة مسيحية كاثوليكية.. وكانت فترة إقامتي بالمغرب مفتاح السعادة لي ولأسرتي، فقد رأيتُ عالماً جديداً يختلف كليةً عن العالم الذي تركته خلفي في الولايات المتحدة الأمريكية، وما لمستُه عن كتب من جمال وروعة السلوك الإسلامي شديني إلى شريعة الحق.

لقد تعثرت قدمي في حفرة ذات يوم حينما خرجت لأول مرة إلى سوق شعبي بمدينة الرباط، وعلى الفور وجدتُ عدداً من المغاربة يسارعون إليّ لمساعدتي على النهوض، ويسألونني في لُفة عمّا إذا كنت قد أُصبت بسوء.

ومرضتُ ذات مرة، فوجدتُ عشرات من جيراني ومعارفي يأتون لزيارتي، ويحاول كل منهم أن يصنع لي شيئاً، فدهشت لهذا السلوك الإنساني الذي لم أجد له نظيراً في بلدي أمريكا، حيث الكل لا يهتم إلا بنفسه، وطابع الحياة المادية البحتة هناك يصبغهم جميعاً بالأنانية، ولهذا لا يكثرثون بما يصب الآخريين، فالمرء عندنا يكون محظوظاً إذا ساعده أحدٌ أو زاره أهله في أثناء مرضه، أو حتى سألوا عنه.

ولذا فإنني حين سألتهم عن الدافع الذي يحملهم على صنع كل هذا من أجلي بدون مقابل أجابوا جميعاً: إن هذا هو ما يفرضه عليهم دينهم الإسلامي، ويأمرهم به رسولهم العظيم محمد ﷺ.

قلت: لقد كان سلوك المسلمين الطيب هو الذي جذبك إلى الإسلام إذن؟

قال: لقد كان ذلك دافعاً.. ولم أكتف به.. بل رحلت أبحث عن الحقيقة من مصادرها.. وبعد مناقشات طويلة واسعة مع عشرات من علماء الإسلام تعلمت خلالها الكثير من أمور الإسلام، ازداد إعجابي به أكثر، ومع مرور الوقت وجدت عقيدة التوحيد تملأ عقلي وقلبي.. ومن ثم انكببت أدرس ترجمة لمعاني القرآن الكريم،

---

(١) العقيدة الإسلامية، ص ٣٨ - ٣٩ عن (لوازون في خطبة ألقاها بتونس، ونشرت في جريدة الحاضرة التي تصدر في تونس بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٥)

(٢) العقيدة الإسلامية، ص ١٤٣.



وأستوعب ما بها حتى وجدت نفسي تتوجه إلى الله أن يهديني إلى الطريق المستقيم.  
وبينما أنا أقلب صفحات القرآن الكريم ذات يوم إذا بي أطلع تفسير الآيتين الكريمتين: ﴿ لا تُدْرِكُهُ  
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى  
فعلينا وما أنا عليكم بحفيظ ﴿ (الأعام: ١٠٣-١٠٤)

عندئذ لم أتمالك نفسي، ووجدت الدموع تنهمر من عيني، ومن ثم أيقنت أن هذه إشارة صريحة من الله عز  
وجل ترشدني إلى الإسراع في اعتناق الدين الإسلامي الحنيف، واللحاق بركب الموحدين، وعلى الفور حزمت  
حقائبي، وسافرت إلى أمريكا حيث أشهرت إسلامي أنا وزوجتي وولدي بالمسجد الكبير في نيويورك.

### ليوبولد فايس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ليوبولد فايس)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا هو  
الاسم الذي ولد به محمد أسد.

قلت: أعرفه.. لقد ولد سنة ١٩٠٠، وتوفي سنة ١٩٩٢م.. وهو صحفى نمساوي يهودى وُلد بإقليم من  
أقاليم بولندا كان تابعا آنذاك للإمبراطورية النمساوية، وكان يسمى ليوبولد فايس، ثم دخل في الإسلام سنة  
١٩٢٦م بعد أن رحل إلى الجزيرة العربية أيام الملك عبد العزيز آل سعود، ثم انتقل بعد ذلك إلى شبه القارة  
الهندية حيث توثقت بينه وبين العلامة إقبال عُرِي الصداقة، وظل يساعد في إذكاء نهضة الإسلام في تلك البلاد  
إلى أن انفصلت باكستان عنها فانتقل إلى الإقامة في الدولة المسلمة الجديدة واكتسب جنسيتها وأصبح مندوبها  
الدائم في الأمم المتحدة حتى عام ١٩٥٣م.

وقد ترك عدة كتب تُرجم بعضها إلى العربية، منها (الطريق إلى مكة)، و(الإسلام في مفترق الطرق)،  
(منهاج الحكم في الإسلام)، وله ترجمة إنجليزية للقرآن الكريم، اسمها *The Message of the Quran*،  
وله ترجمة لقسم من صحيح البخارى بعنوان *Sahih al-Bukhari- The Early Years of*  
*Islam*، وبقية سيرته الذاتية، وعنوانها *Coming Home of the Heart*

قال: فلا تحتاج إلى أن نتحدث عنه إذن؟

قلت: لا.. بل أحتاج إلى ذلك.. فليس الخبر كالعيان.. فهل التقيت به؟

قال: أجل.. لقد التقيت به في باكستان، وقد سألته عن طريقه للإسلام، فسردي لي أكثر ما ذكره في كتابه

(الطريق إلى مكة)<sup>١</sup>

لقد بدأ بأفغانستان شتاء ١٩٢٦.. قال: كنت في طريقي راكبا من هرات لكابول بصحبة إبراهيم، ودليل  
أفغانى الجنسية، نسير خلال جبال مدفونة مغطاة بالجليد، ووديان وطرق في (هندو - كش) في وسط أفغانستان،  
كان الطقس باردا والجليد يتألق، وتقف على كل الجوانب جبال بيضاء، وأخرى سوداء.

كنت حزينا، وفي نفس الوقت بشكل غريب كنت سعيدا هذا اليوم! أما حزني، فقد كان لأن من كنت

(١) ما ذكره هنا منقول من كتابه (الطريق إلى مكة) من صفحة ٢٩٥ إلى ٣١١ بتصرف يقتضيه المقام.

أعيش معهم في الشهور السابقة، كانوا محجوبين ببلادة، عن حقيقة النور، والقوة، والتقدم، الذى يعطيه لهم إيمانهم، وفي نفس الوقت كانت سعادتى، بأن هذه الحقيقة والنور، والقوة والتقدم، فى تناول يدى تقريبا الآن، وأمام عيني، كهذه الجبال الشاخنة البضاء والسوداء التى أمامى.

بدأ حصانى يعرج وكان شبيهاً فى حافره، ووجدت أن الحدوة الحديدية أصبحت معلقة فقط بمسمارين.

سألت رفيقنا الأفغانى، هل هناك قرية قريبة نجد فيها حدادا؟

فقال: نعم، قرية (ديهزانجى) التى تقع على بعد أقل من ثلاثة أميال، يوجد بها حداد هناك، وبها قصر

حاكم (هزرجات)

وهكذا اتجهنا إلى هذه القرية، وتمهلنا فى المسير حتى لا نزهق الحصان.. لقد كان حاكم المنطقة قصير القامة، وكان مرح الطلعة، ودودا، وكان سعيدا أن يستضيف أجنبيا عنده فى قصره البعيد عن العمران، والمتواضع. وقد كان هذا الحاكم قريبا للملك (أمان الله)، ومن المقربين له.. وقد كان من أكثر من قابلت تواضعا فى أفغانستان، وقد أصر على بقائى فى ضيافته ليومين.

وفى مساء اليوم الثانى، جلسنا كالعادة لعشاء دسم، وبعد العشاء حضر رجل من القرية ليطربنا بأغان شعبية، مصطحبا قيثاره بثلاث أوتار، وكان يغنى بلغة الباشتو التى لم أفهمها، ولكن بعض الكلمات الفارسية كانت تخللها بوضوح، فى الغرفة الدافئة المغطاة بالسجاجيد، بينما وميض الثلج البارد يظهر من خلال النوافذ. أتذكر أنه كان يغنى عن المعركة بين داوود وجالوت، وبدأها بنغمة متواضعة، ثم تدرجت إلى بعض العنف، وانتهت بروح الإنتصار.

وبعد أن انتهت، قال الحاكم: إن داوود كان شابا، ولكن إيمانه كان قويا...

ولم أتمالك من التعليق، فقلت: كذلك أنتم.. كثيرون، ولكن إيمانكم ضعيف.

نظر إلى المضيف بدهشة، وارتباك لما تطوعت وذكرته، فأسرعت لأوضح قولى، وأخذ توضيحي شكل سيل من الأسئلة.. لقد قلت: لماذا فقدتم أنتم المسلمون ثقبتكم بأنفسكم، التى فى القدم ساعدت على نشر الإيمان بالإسلام فى أقل من مائة عام، من الجزيرة العربية غربا إلى المحيط الأطلسى، وشرقا فى العمق إلى الصين، والآن تستسلمون بضعف إلى الأفكار والعادات الغربية؟.. لماذا لا تستطيعون أنتم يا من كان أبائكم الأوائل أناروا العالم بعلمهم وفنهم، بينما كانت أوروبا تغض فى بربرية وجهل مدقع، فلتعملوا من الآن على أن تعودوا لإيمانكم الخلاق؟.. كيف أن هذا الأتاتورك التافه، الذى ينكر كل قيم الإسلام قد أصبح عندكم رمزا لإحياء الإسلام؟

استمر مضيفا فى صمته، وبدأ الجليد ينهمر فى الخارج، ومرة ثانية غمرنى الشعور المزدوج بالحزن والسعادة، الذى انتابنى حينما اقتربت من (ديهزانجى).. لقد أحسست بالفخار لما قد كان، وبالحنجل لما عليه أبناء حضارة عظيمة.

قلت لمضيفي: هل لك أن تدلنى كيف أن الإيمان الذى دلكم عليه نبيكم، وكل هذا الوضوح والبساطة، قد دفنت تحت أنقاض الثرثرة المتحزقة، والشجار بين علمائكم؟.. كيف أن أمراءكم والإقطاعيين يعيشون فى

رفاهية، بينما إخوانهم من المسلمين، يذوقون الفاقة والفقر المدقع، في حين أن نبيكم يقول أنه (لا يؤمن من بات شبعان وجاره جائع)؟.. هل لك أن تشرح لي كيف نبدتم النساء خلفكم، بينما نساء الرسول ﷺ وصحابته كن يشاركن الرجال في أمورهم الهامة؟.. كيف وصل الحال بكم أنتم المسلمين إلى الجهل والأمية، في حين يقول نبيكم أن (طلب العلم فريضة على كل مسلم)، و(فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر النجوم)؟

ظل مضيفي يملق في دون كلام، وابتدأت أشعر أن ملحوظاتي قد أعبطته، أما الرجل ذو القيثارة الذي كان لا يعرف الفارسية بدرجة تجعله يتتبع كلامي، فقد أخذ يتعجب من هذا الغريب الذى يتكلم بهذه النعمة مع الحاكم.

وفي النهاية، أخذ الحاكم رداءه المصنوع من جلد الغنم وتدثر به، كما يكون قد أحس بالبرد! وهمس لي: « لكنك أنت مسلم »

أخذني الضحك، وأجبت: لا، أنا لست مسلما، ولكني أملت ببعض القيم في الإسلام التي تجعلني أغضب في بعض الأحيان، كيف أنكم أنتم أيها المسلمون تضيعونها، اعذرني إذا كنت قد أسأت في الكلام، أنا لا أتكلم معك كعدو.

لكن مضيفي هز رأسه قائلاً: « لا.. فكما قلت لك، أنت مسلم، ولكنك لا تعرف نفسك.. لماذا لا تنطق الآن، وهنا بالشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وتصبح مسلما في حقيقة الأمر، فإنك مسلم قلبيا.. قلها يا أخی، قلها الآن، وسأصطحبك غدا لكابول لملاقاة الأمير، الذى سيستقبلك بذراعين مفتوحتين كشخص مثلنا، سيمنحك منازل وحدائق وأغنام، وسيجبك، قلها يا أخی.. »

قلت: إذا قلت ذلك، سيكون نتيجة لأن عقلي قد استراح، وليس نتيجة لأن الأمير منحني المنازل والحدائق.

لكن مضيفي أصر قائلاً: أنت تعرف كثيرا عن الإسلام ز ربما أكثر من بعض المسلمين، ما هو الذى ما زلت تريد أن تعرفه؟

قلت: المسألة ليست مسألة فهم، إنما مسألة إقتناع، الإقتناع بأن القرآن الكريم هو فعلا كلمة الله، وليس مجرد كلمات من شخص نابه ذكى ذو عقلية متفوقة.

لكن كلمات صديقي الأفغانى أخذت تراودني ولم تتركني لشهور عدة.

أكملت رحلتي عبر أفغانستان عائدا مرة ثانية إلى هرات التي كنت قد ابتدأت منها، وكنا نقترب من الشتاء عام ١٩٢٦، وهكذا تركت هرات في المرحلة الأولى لطريق العودة للوطن، مستقلا القطار من الحدود الأفغانية إلى (ماف) في التركستان الروسية، ثم إلى سمرقند، ثم إلى بخارى ثم إلى طشقند.. ومن ثم مارا بسهولة التركمان إلى جبال الأورال، ثم موسكو.

وهالتي الدعابة والمعلقات التي تهاجم الدين والألوهية أينما أحل أو أرثحل، وسأتوقف عن ذكرها لأنها

مقززة.

وبشعور بالراحة، عبرت الحدود البولندية بعد أسابيع أمضيتها في آسيا، وروسيا الأوروبية، واتجهت مباشرة لفرانكوفرت حيث الجريدة التي أعمل بها حيث استلمت عملي.

لم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أنه أثناء غيابي، أصبح اسمي مشهورا، وأن الآن أعتبر من المرسلين المرموقين في وسط أوروبا، فبعض مقالاتي — خصوصا تلك التي تناولت النفسية الدينية المعقدة للإيرانيين — والتي قد جاءت نتيجة لملاحظات علماء شرقيين بارزين، واستقبلت أكثر من ألفا معارف عابرة.

ونتيجة لأهمية هذا الإنجاز، فقد دعيت لإلقاء مجموعة من المحاضرات في أكاديمية الجغرافيا السياسية ببرلين — حيث قيل لي أنه لم يسبق أن حدث من قبل أن شخصا في حادثة السن مثلي — حيث كنت حينئذ في السادسة والعشرين — قد منح هذا الإمتياز، كما قمت بتدريج مقالات أخرى عامة بتصريح من مجلة (فرانكفورت زيتنج)، في صحف أخرى؛ وقد أعيد طبع إحدى المقالات كما أعلم ثلاثون مرة تقريبا، وبمعنى آخر، فإن رحلاتي الإيرانية قد أثمرت.

وفي هذا الوقت تزوجت (إلسا).. فالسنتان اللتان أمضيتهما في الخارج، لم يضعفا من حبنا البعض، بل زادته قوة، وبسعادة غامرة لم أشعر بها من قبل، استقبلت تعليقاتها على الفرق الكبير في السن بيننا. قالت: ولكن كيف تتزوجين؟، بدأت في النقاش معي، قالت: أنت لم تصل بعد للست والعشرين عاما، وأنا فوق الأربعين، ألا تفكر في ذلك، حينما تصل للثلاثين، سأكون أنا في الخامسة والأربعين، وحينما تصل أنت للأربعين، سأكون امرأة عجوزا.

أخذت في الضحك، وقلت: وما في ذلك؟، إنني لا أرى مستقبلا بدونك.  
وأخيرا سلمت للأمر.

لم أبالغ حينما قلت لها: إنني لا أرى مستقبلا بدونك.. جمالها.. ورفقتها الفطرية، جذبتني إليها بحيث لا أرى أى امرأة أخرى؛ وحساسيتها في فهم ماذا أريد من الحياة أضاء أمل، ورغباتي، وأصبحت من الصلابة بمكان وأكثر إدراكا، وطغت على تفكيرى في ماذا أعمل؟

في أحد المناسبات - بعد حوالى أسبوع من زواجنا، أبدت لي هذه الملاحظة، لقد قالت لي: كم أنت غريب الأطوار عن كل الناس؟ يجب عليك أن تخفض من الروحانيات في الدين.. أنت صوفي التزعة.. حساس في صوفيتك.. تشير بأصابعك إلى ما حولك في الحياة، ولك رؤية متعمقة روحانية فيما يدور حولك يوميا من أشياء، بينما تمر مثل هذه الأشياء على الآخرين بلا اكتراث.. ولكنك حينما تتجه إلى الدين، فكلك تركيز.. مع الناس الآخرين فالوضع بالعكس تماما..

لكن إلسا لم تكن في حيرة، فهي تعلم عما أبحث حينما أتكلم معها عن الإسلام؛ وبالرغم من أنها لم تكن في نفس درجتى من الإضطراب، إلا أن حبها لي جعلها تشاركني تساؤلاتي.

كثيرا ما كنا نقرأ القرآن سويا، وبتناقش أفكاره؛ وكانت إلسا كما كنت أنا، معجبين بالتماسك الداخلى بين تعاليمه الأخلاقية، وإرشاداته العملية. فاستنادا إلى القرآن الكريم، فالله لم يدع الإنسان إلى أن

يتضرع إليه معصوب العينين، بل لا بد له أن يعمل عقله ؛ لم ينتح الله بعيدا عن الإنسان، بل هو أقرب إليه من حبل الوريد ؛ لم يخط الله خطأ فاصلا بين الإيمان والسلوك الإجتماعي.

والشئ الذى يعتبر فى غاية الأهمية، أن الإسلام لم يبدأ من بديهية أن الحياة محملة بالصراع بين الروح والجسد، وأن النجاة هى فى تحرير الإنسان من قيود الجسد.. كل مظهر من مظاهر أنكار الحياة، وتحقير الإنسان لنفسه، أداها الإسلام فى أحاديث لرسول الله ﷺ.. مثل ما ورد فى حديث الثلاثة الذين قال لهم رسول الله ﷺ: « من رغب عن سنتى فليس منى »

فالإنسان مطالب بأن يعيش حياته كاملة وبشكل إيجابى، فما منحت غرائزه إلا لتؤدى ثمرتها، ولكن ليستخدمها بطهر وأخلاق وفى محلها الصحيح. ومن التعاليم للإنسان: أنه ليس لك فقط أن تعيش حياتك، بل المفروض عليك أن تعيشها بكل أبعادها.

صورة متكاملة للإسلام تنبثق فى ذهنى وبشكلها النهائى وبالتحديد، مما أدهشنى، أحيانا كانت تتشكل فى عملية من الممكن أن أسميها تفاعلات ذهنية، وبدون وعى منى، فقد بدأت تتجمع من أجزاء متفرقة ومنتظمة، فإذا وضعت هذه المتناثرات بعضها إلى بعض، رأيت نظاما هندسيا دقيقا، أخذ ذهنى يجمعه فى السنوات الأربع الماضية، لأرى بناء كل عناصره متناسقة منسجمة، تتجمع لتتمم وتعاضد بعضها البعض، لا شئ فيه ينقصه، ولا شئ يزيد عن متطلباته متزن وهادئ، يعطى الإنطباع بأن مسلمات الإسلام كلها فى وضعها الصحيح.

منذ ثلاثة عشر قرنا مضت، وقف رجل يقول: « ما أنا إلا رجل هالك، ولكن الذى خلق الكون أوحى إلى أن أحمل رسالته لكم، حتى تعيشوا منسجمين مع كل خلقه، وقد أمرنى بأن أذكركم بوجوده إلهاله كل القدرة وكل العلم، وقد وضع لكم منهاجا للسلوك الصحيح، إذا قبلتموه فلتتبعون.. هذا كان هو الرسول محمد ﷺ، وهذه كانت رسالته.

النظام الإجتماعى الذى أعلنه، كان من البساطة التى تربط مفرداته بالعظمة الحقيقية، بدأ بالتسليم بأن الإنسان كائن حى له متطلبات حيوية، وهذه المتطلبات تخضع للحل والحرمة اللذان يقرهما الله سبحانه وتعالى، وأن الإنسان اجتماعى بطبعه يحتاج إلى مجتمع يحيط به، ولكى يحقق احتياجاته الثقافية والأخلاقية والطبيعية، فلا بد أن يعتمد كل على الآخر.

إن ازدهار القوام الروحى للإنسان — وهو هدف كل الأديان — يعتمد عما إذا كان يتلقى دعما وتشجيعا وحماية له ممن حوله.

هذا التكافل الإجتماعى يظهر سبب اهتمام الإسلام بالنواحي العامة الإقتصادية والسياسية، ولا ينفصل عنها، ولتنظيم علاقات إنسانية بطريقة عملية بحيث لو قابل أى فرد بعض العقوبات، يجد التشجيع اللازم لتنمية شخصيته: هذا، ولا شئ آخر، يبدو أنه هو مفهوم الإسلام للوظيفة الحقيقية للمجتمع.

وهكذا كان من الطبيعى أن التشريع الذى أتى به سيدنا محمد ﷺ خلال ثلاثة وعشرون عاما من مبعثه لا يرتبط فقط بالنواحي الروحية، بل يمتد ليشمل الإطار لكل الأفراد والمجتمع أيضا. يشمل ليس فقط مفهوم

النقاء الفردي، ولكن يتضمن المجتمع العادل الذى يؤدى هذا النقاء إليه، كذلك يتضمن الخطوط العريضة للمجتمع السياسى، أما التفاصيل فمتروكة للتطورات التى تحدث مع الزمن المتغير، كما يحدد حقوق الأفراد وواجباتهم نحو المجتمع اذى يعيشون فيه آخذاً بعين الإعتبار حقيقة ما يجد من أمور.

الشرعية الإسلامية تتضمن كل مناحى الحياة، أخلاقية، طبيعية، فردية، اجتماعية، العلاقة بين الجسد والروح والعقل، الجنس، الإقتصاد، كل ذلك جنباً إلى جنب، مع اللاهوت والعبادة، كل أمر من الأمور له وضعه فى تعليمات النبي ﷺ، ولا شئ يخص الحياة ينظر إليه على أنه تافه ليخرج من دائرة التصور الدينى.. ليس حتى مثل هذه القضايا الدنيوية، كالتجارة، والميراث، وحق الملكية، وامتلاك الأراضى.

كل مفردات الشرعية وضعت للانتفاع المتساوى بين أفراد المجتمع، بدون تمييز بين مكان المولد والأعراق والجنس أو ولاء اجتماعى سابق.. لا منافع خاصة حجرت لمؤسس المجتمع أو أحفاده.. لا توجد طبقات عليا وطبقات دنيا فى المفهوم الاجتماعى، ليست من مفردات القاموس الإسلامى ؛ ولا أثر لها فى الشريعة الغراء.. كل الحقوق والواجبات والفرص، موزعة بين أفراد المجتمع المؤمن بالتساوى.

لا يوجد كهنة بين الله والإنسان، لأن الله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، لا ولاء إلا لله ورسوله، وبأمر من الله للوالدين، وللمجتمع المسلم المنوط بتحقيق مملكة الله على الأرض ؛ وبذلك فلا يجوز الذى يعلى كلمة (بلادى أو أمى )، ولتوضيح هذا المفهوم، فإن رسول الله ﷺ فى أكثر من مناسبة، قال بوضوح : « ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية »

كل المنظمات قبل الإسلام.. حتى الدينية أو شبه الدينية.. كانت تنهج المفهوم الضيق للعصبية القبلية والعشائرية، فمثلا الملوك المتألهين، الفراعنة فى مصر، لا يفكرون إلا فى أضيق الحدود التى يعيش فيها المصريون ؛ وحتى إله بنى إسرائيل فهو إله فقط للشعب المختار، بالعكس المفاهيم المستقاة من القرآن الكريم ترفض رفضا باتا التمسك بالعشيرة أو القبيلة.

الإسلام افترض مجتمعا سياسيا بعيدا عن الإنقسامات العرقية والقبلية، وفى هذا المجال فإن الإسلام والنصرانية يتفان فى الدعوة العالمية بعيدا عن القبلية<sup>١</sup>، وفى حين أن النصرانية قد حددت نفسها فى مفهوم (اعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)، إلا أن مفهوم الإسلام أوسع من ذلك، فقد دعا كل الأمم أن يكون الولاة لله فقط.

---

(١) هذا من حيث الواقع.. أما فى الجانب النظرى فإن النصرانية فى أصلها دين خاص ببني إسرائيل كما ورد فى النصوص الكثيرة فى الكتاب المقدس، فالمسيح عندما أرسل تلاميذه لينشروا دعوته بين اليهود كرر لهم الوصية فى أن يقصروا الدعوة على اليهود، بل إنه حذرهم من دخول مدن الأمم الأخرى، ولو كانوا جيرانا لليهود، وقد ذكر إنجيل متى ( ١٠ : ٥ ) ذلك، فقال: « هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: إلى طريق أمم لا تمضوا إلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالبحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »

ليس ذلك فقط.. بل إن المسيح لما بدأ الدعوة إلى الله أعلن أنها قاصرة على بني إسرائيل، ولا تمتد إلى غيرهم، لذلك تجده يقول فى متى (١٥ : ٢٤): « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة »، فـ (إلا) أداة للحصر، وهي تدل على انحصار رسالة المسيح ضمن الشعب الاسرائيلي.

وبذلك.. لتحقيق ما لم تحققه النصرانية.. فقد أضاف الإسلام منظورا آخر في تطوير الإنسان .. لقد دعا إلى مجتمع مفتوح عقائديا، بالمقارنة مع المجتمعات المغلقة التي نشأت في الماضي ، عرقيا، وجغرافيا. لقد أعطت رسالة الإسلام تصورا ومنحت البشرية حضارة لا مكان فيها للقومية، لا مصالح شخصية، لا طبقية، لا كنيسة، لا كهنة، لا طبقة نبلاء متوارثة، في الحقيقة، لا شئ متوارث على الإطلاق. ومن أهم الميزات في هذه الحضارة.. ميزة لم توجد في أى تحركات للإنسان عبر التاريخ.. إنها نشأت عن قناعة واتفاق تطوعى بين معتنقيها والله.

هنا التقدم الإجتماعى.. مخالف عما حدث في المجتمعات الأخرى.. لم يحدث نتيجة لضغوط، ومقاومة لهذه الضغوط، نتيجة للمصالح المتعارضة، ولكن كجزء لا يتجزأ من تعليمات أصيلة. وبكلمات أخرى، هناك عقد إجتماعى متأصل في النفوس، يسيطر على جذور الأعمال.. ليس نتيجة أوامر صاغها من بيدهم الأمر دفاعا عن مكتسباتهم.. بل حقيقة متأصل جذورها في الحضارة الإسلامية.

فقد ذكر القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١١١)

عرفت من تتبعى لقراءة الحضارة الإسلامية أن هذا العقد الذى سجله التاريخ.. قد تحقق لفترة وجيزة جدا، أو بالأحرى فخلال فترة وجيزة جدا كانت هناك محاولات جادة لتحقيقه فيما أقل من قرن بعد موت النبي ﷺ، النظام النقى للإسلام بدأ فى الفساد السياسى، ودفع فى القرون التالية إلى الخلف، ظهرت التطلعات العشائرية لامتلاك القوة بديلا عن الرأى الحر للرجال والنساء، الملكية الوراثية بديلا عن المفهوم السياسى فى الإسلام كنوع من الشرك فى المفهوم الإسلامى.

ومع هذا أيضا ظهرت الدساتر والصراعات القبلية والظلم، واضمحلال الوازع الدينى، والمهانة فى خدمة من بيده السلطة.. باختصار حلت المصالح الشخصية التى عرفت فى التاريخ.

ولوقت من الزمن حاول علماء ومفكرون عظام، أن يعيدوا للإسلام رونقه ويذكروا الناس بمفاهيمه النقية، ولكن جاء من بعدهم أقوام دأبوا على تقليد الأجيال السابقة، وانتكسوا بعد قرنين أو ثلاثة قرون، وتوقفوا عن التفكير لأنفسهم متانسرين أن كل عصر يختلف عن سابقه، وكل عصر له احتياجاته الخاصة التى تحتاج إلى التجديد.

لقد كان الدفع الأصلى للإسلام فى بدايته عظيما، ورفع الأمة الإسلامية إلى مستويات عالية من الثقافة والحضارة العظيمة.. حتى أن المؤرخين يسمون ذلك العصر الذى تحقق، بالعصر الذهبى للإسلام، من الناحية الأدبية، والفنية، والعلمية، والثقافية، ولكن بعد ذلك العصر بقرون بسيطة حمد الحافظ الإيمانى الذى كان يغذى هذا التقدم، وأصبحت الحضارة الإسلامية راكدة، ومجردة من قوتها المبدعة.

سألته: لم تتأثر التاريخ الإسلامى إذن، وما حصل فيه من نكسات؟ قال: مثلما لم تتأثر بالتاريخ لم تتأثر بالوضع الحالى للعالم الإسلامى.. فالسنوات الأربع التى قضيتها فى

البلدان الإسلامية، أوضحت لي، بأنه بالرغم من أن الإسلام ما زال حيا، كما هو في عيون العالم، يؤثر من الناحية الأخلاقية في أتباعه، غير أنهم قد أصابهم الشلل، بحيث لم يترجموا مبادئه إلى عمل مشمر. لكن ما شد انتباهي، بعيدا عن حالة المسلمين في عهدنا هذا، هو القوة الكامنة في تعاليم الإسلام نفسه، لقد كان كافيًا لي أن أعلم أنه في مدة قصيرة في بداية التاريخ الإسلامي، محاولة ناجحة قد تمت لتطبيق هذا النظام إلى عمل؛ وبالتالي، ما كان ممكنا في وقت من الأوقات، يظل ممكنا في غيره من الأوقات. ماذا يهم.. قلت لنفسى.. إن كان المسلمين قد انخرفوا عن تعاليم دينهم الأصلية، وركنوا إلى الكسل والجهل؟.. ماذا يهم إذا كانوا لا يأخذون بالتعاليم المثالية التي أمامهم، والتي جاءت على لسان النبي ﷺ منذ ثلاثة عشر قرنا مضت.. إذا كانت هذه التعاليم ما زالت متاحة للجميع ولكل من يرغب ليستمع إليها؟

ربما نكون.. أخذت أفكر.. نحن المتأخرين أشد حاجة لهذه الرسالة من المسلمين في عهد رسول الله ﷺ.. لقد عاشوا هم في مناخ أبسط بكثير من المناخ الذي نعيش نحن فيه، وكانت مشاكلهم والصعوبات التي يواجهونها أبسط من تلك التي نواجهها، وتحتاج إلى حلول غير معقدة كما نواجه.

العالم الذي أعيش فيه.. كل العالم الآن.. يتململ لعدم وجود أية قواعد روحانية تفصل بين الخير والشر، وبالتالي، اقتصاديا واجتماعيا.

لا أعتقد أن الإنسان الفرد في حاجة إلى خلاص، بل المجتمع هو الذي في حاجة إلى مخلص<sup>١</sup>. أكثر من أي وقت مضى، أخذت أشعر بيقين متزايد، أن وقتنا هذا في أشد الحاجة إلى قاعدة أيديولوجية، وإلى عقد إجتماعي جديد: في حاجة إلى الإيمان بالله، وتفهم مدى الفراغ الذي يحدثه التقدم المادي فقط.. ومن ثم نعطي الحياة حقها؛ كيف نوازن بين احتياجات الروح والجسد، ويكون في ذلك الإنقاذ من كارثة محققة نسرع إليها متهورين.

سكت قليلا، ثم قال: غنى عن القول أن الإسلام شكلا أمرا ذا أهمية كبيرة لي في ذلك الوقت بحيث شغل تفكيري أكثر من أي شيء آخر.

وفي ذلك الحين عهدت إلي جريدتي بكتابة كتاب له علاقة بوظيفتي.. لكنني بسبب سيطرة التفكير في الإسلام على عقلي وكياني لم أستطع إكمال ما بدأته من الكتاب.

في البداية كانت نظرة دكتور سيمون — مديري — متساهلة، لترددى في الإستمرار في إنهاء الكتاب، فقد عدت من رحلة طويلة تستحق نوعا من الأجازة، وزواجي الحديث يعطيني بعض الحق في التراخي في الكتابة الروتينية، ولكن حينما تماديت في التراخي، ونظرا لأن دكتور سيمون يتحمل المسؤولية عن الكتاب، فقد طلب مني أنه قد حان الوقت لأنزل إلى الأرض.

في الماضي، كنت أرى أنه متفهم للوضع، ولكنني الآن أرى غير ذلك. ملاحظاته المستمرة، وتساولاته اللوححة عن تقدمي في تحرير الكتاب، أدت أثرها المعاكس لما كان ينشده، فقد شعرت بأن الأمر مفروض على مما جعلني أمقت فكرة الكتاب نفسها.

---

(١) وطبعًا لا يمكن تخلص المجتمع إلا بتخلص الفرد.



في نهاية الأمر قال لي دكتور سيمون هذه الملاحظة: أعتقد أنك لن تنتهي من الكتاب البتة، أنت تعيش في داخلك في رعب ما.

والمالدوغ رددت عليه: ربما المرض الذي أعانيه أكثر من الرعب.

قال لي بجدّة: إذا فما دمت في هذا العناء، فهل تعتقد أن الصحيفة هي المكان المناسب لك؟ كلمة منه وكلمة مني، تحول الأمر إلى شجار، وفي نفس اليوم قدمت استقالتى من الصحيفة، وبعد أسبوع سافرت أنا وإلسا إلى برلين.

لم أكن بالطبع أنوى ترك الصحافة، فقد كانت جزءا من راحتي النفسية وسعادتي فيها وفي الكتابة.. بعدت عنهما مؤقتا نتيجة للكتاب.. وكيف لا؟ وهى التى أعادتني للعالم الإسلامى، وهذه العودة كنت حريصا عليها بأى ثمن.

ولكن بالنسبة للشهرة التى اكتسبتها فى الأعوام الأربعة الماضية، لم يكن من الصعب علي العودة إلى الصحافة ثانيا، فبسرعة جدا حصلت على عقد مجز ومريح مع ثلاثة صحف بزيورخ، وبالرغم من أنهما لم تكن فى مستوى الصحيفة السابقة إلا أنهما كانت من الصحف الشهيرة بأوروبا.

ومنذ ذلك الحين، بقيت أنا وإلسا فى برلين، لأكمل محاضراتي عن الإسلام فى أكاديمية الجغرافية السياسية. أصدقائى الأدباء السابقين فرحوا بعودتى لهم، ولكن لم تكن العلاقة الجديدة فى نفس المتانة التى تركتهم بها قبل سفرى للشرق الأوسط، فقد صارت لغتنا الثقافية مختلفة عما سبق. وبالتحديد، لم أكن أستطع استخراج أية معلومات من مناقشاتى معهم عن الإسلام. كانوا يهزون رؤوسهم، بحيرة حينما كنت أقول لهم أن الثقافة الإسلامية يمكنها أن تنافس أيديولوجيات أخرى.

وبالرغم أنه فى بعض الحالات، كانوا يوافقون على رأى من هنا أو هناك من مفاهيم الإسلام، إلا أنهم فى العموم يقولون أن الأديان الماضية هى جزء من الماضى، وأنا فى حاجة إلى تجديد فى المفاهيم، ونظرة إنسانية جديدة.

وحتى أولئك الذين لا ينكرون أهمية المؤسسات الدينية لم يكونوا مستعدين للتخلى عن النظرة الأوروبية للإسلام، بأنه يفتقد إلى الوضوح الذى يتوقع من الأديان.

وقد أدهشنى أن سمة الإسلام التى اكتشفتها من أول لحظة، وهى عدم وجود فصل بين الروح والجسد، وأن التأكيد على أن العقل هو الطريق للإيمان.. لم تكن واضحة عند المثقفين، الذين ما دتثوا يقولون بأن العقل هو المهيمن على كل شئ فى الحياة، فالعقلانية والواقعية ليس لهما مكان فى مجال الدين عندهم، وفى هذا الخصوص لم أجد فرقا بين هؤلاء المتدينين، وهؤلاء الذين طرحوا الدين وراءهم.

مع الوقت، فهمت أين تكمن فيهم هذه الصعوبة، فقد بدأت أدرك أنه فى عيون أولئك الذين يدورون فى مدار النصرانية بضغطها على عالم (ما وراء الطبيعة) المتأصلة زعما فى كل تجربة دينية حقيقية.. فإنه من الدرجة الأولى فكل نظرة عقلانية، تكون سببا فى الإنتقاص من القيمة الروحية، وذلك ليس خاصا بمؤمنى النصارى فقط.

وذلك يرجع لطول العهد بالأوروبيين في ظل النصرانية، فمن حيث لا يدرون وبلا شعور، تعلموا أن ينظروا للدين من خلا المنظار النصراني، ومفاهيم النصرانية، ويعتبرون فقط أنها صحيحة إذا كانت مصحوبة بآثار الرهينة والخشوع، بعيدا عن الفهم الثقافي.

الإسلام لا يحقق هذه الفرضية، فالإسلام يصر على التعاون بين السمات الروحانية والمادية للحياة، وذلك على قاعدة متينة طبيعية من المنهاج، فنظرته للحياة تختلف جذريا عن مفاهيم النصرانية، وهذه المفاهيم هي التي اعتمدها الغرب كأساس للحياة، وبذلك يقيسون صلاحية الآخر بهذه المقاييس.

أما بالنسبة لي، فقد كنت أعرف أنني منجذب إلى الإسلام لا محالة، ولكن التردد جعلني أؤجل القرار الأخير، القرار الذي لا رجعة فيه، فكرة إعتناق الإسلام، هي كرحلة على جسر طويل جدا بين عالمين مختلفين، جسر إذا وصلت لنهايته، فلن ترى بدايته.

كنت على بينة، بأنني لو أسلمت، فسأفضل نفسي عن العالم الذي نشأت فيه، لا دخل آخر سأعيش به، فلا يمكن لمن يجيب حقيقة دعوة الرسول ﷺ أن يبقى صلة داخلية مع المجتمع الذي يعيش على مفاهيم مغايرة.

في أحد الأيام — كان ذلك في سبتمبر ١٩٢٦ — كنت أنا والسبا نستقل مترو الأنفاق في برلين، كنا في الدرجة الأولى. وقعت عيني بالصدفة على رجل أنيق، يظهر أنه من رجال الأعمال، ويحمل حقيبة جميلة على رجله، ويبيده خاتم كبير الحجم من الماس.

ولم يكن هذا المنظر للرجل غريبا في هذه الأيام، وهو يعكس الرخاء الذي حل بوسط أوروبا، بعد سنوات التضخم التي قلبن الموازين رأسا على عقب، معظم الناس الآن يلبسون ثيابا جيدة، ويأكلون الطيب من الطعام، ولذلك فالرجل الجالس قبالي ليسا بدعا في ذلك.

لكني عندما تحققت في وجهه، وجدت الكتابة عليه! كان يظهر عليه القلق، وليس فقط القلق، بل التعاسة أيضا، عيونه تملمق إلى أعلى، وزوايا فمه تتحرك كأن به ألما، ليس ألما جسماني، وحتى لا أتهم بالوقاحة فقد صرفت عيني عنه، لتقع على سيدة أنيقة، فوجدت أيضا التعاسة على وجهها، وكأنها عانت من شئ ما، ولكن الابتسامة على وجهها كانت ابتسامة متكلفة.

وهكذا بلا وعي أصبحت ألتفت حولي في الوجوه التي بالمقصورة، لأرى أن الغالبية من الوجوه، تعكس عن معاناة مخبوءة في العقل الباطن لهم، وهم لا يشعرون بذلك.

في الحقيقة كان شيئا غريبا بالنسبة لي.. لم أر من قبل مثل هذا العدد من التعساء، وربما لأنه لم يسبق لي أن تفحصت مثل هذه الوجوه، لأجد هذه الظاهرة تصرخ بأعلى صوت في وجوههم، الانطباع كان قويا في داخلي، حتى أنني ذكرته لإلسا، والتي بدأت هي الأخرى تحول في الوجوه التعسة بعناية، وهي الرسامة المتعودة على كشف تعبيرات الوجوه البشرية.

التفتت نحوي مستغربة قائلة: أنت على حق، كلهم يظهر عليهم كأنهم يعانون من عذاب الجحيم..

أنساء هل ياترى هل يدرون ما يدور في نفوسهم؟

أنا أعرف أنهم بالطبع لا يعلمون شيئا عن ذلك، وإلا لأنقذوا أنفسهم من تضييع حياتهم فيما يتعسها، بلا

إيمان، وبعيدا عن الحقيقة، بلا هدف غير جمع الأموال، والثروة والجاه، ورفع مستوى معيشتهم، بلا أمل غير امتلاك وسائل للراحة أكثر، وأمور مادية أكثر، وامتلاك للقوة أكثر..

حينما عدنا للمتل، ألقى نظرة على مكتبي، وعليه نسخة من القرآن الكريم، فأردت أن أضعها في المكتبة، ولكن بطريقة تلقائية فتحته لأقرأ فيه، فوقعت عيني على سورة التكاثر، فأخذت أقرأها: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْحَجِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (سورة التكاثر) في تلك اللحظة انعقد لساني عن الكلام، واهتز الكتاب في يدي، وناولته لإلسا قائلا: إقرئي هذا.. أليست

هذه هي الإجابة على ما شاهدناها في مترو الأنفاق؟!

نعم إنها الإجابة.. نعم إنها الإجابة القاطعة، والتي أزلت أي شك عندي أن هذا الكتاب الذي بين يدي الآن هو وحى من عند الله العليم بالنفوس، فمنذ ثلاثة عشر قرنا أنزل على رجل لا يعلم دخائل النفوس، ولا يتوقع هذه الصورة التي رأيناها اليوم في مترو الأنفاق، والوضع المعقد الذي نعيشه الآن.

في كل الأوقات كان الجشع موجودا، ولكنه لم يكن في وقت من الأوقات من قبل يمثل هذه البشاعة.. كان مجرد رغبة في امتلاك الأشياء.. ولكن أن يصبح ذلك هوسا يغطي على كل شئ آخر: شهوة لا تقاوم، لتعمل ولتدبر أكثر فأكثر، اليوم أكثر من أمس، والغد أكثر من اليوم.. شيطان يلوى أعناق الرجال ويلهب قلوبهم بالسيطرة لينفذوا مآربهم التي تبرق أمامهم، ولكن حين يصلوا إليها لا يجدوها إلا شيئا حقيرا، وما إن تقع في أيديهم حتى يتطلعوا إلى مآرب جديدة أخرى براقية، ذات إغراء أكثر، سراب بقبعة يحسبه الضمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.. هذا الجوع، والجوع النهم سيطر دائما موجود، لن يصلوا إلى الشبع مطلقا ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْحَجِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٥-٨) الآن رأيت أن هذه ليست حكمة رجل في التاريخ الغابر في الجزيرة العربية مهما كان من الحكمة، فهو لن يتنبأ بالجحيم الذي نعيشه في القرن العشرين.

لقد وجدت أن القرآن يتكلم بصوت أكبر من صوت محمد ﷺ.

سكت قليلا يستعيد ذكرياته، فجأة راح يقول بنشوة عظيمة: في ذلك الحين بحثت عن صديق لي مسلم، كان هنديا، رئيسا لمجموعة مسلمة في برلين، وذكرت له أنني أريد اعتناق الإسلام.. مد يديه في اتجاهي.. فوضعت يدي فيهما، ونطقت بالشهادتين، وبعد بضعة أسابيع أعلنت زوجتي إسلامها.

لقد اختصر للسائلين الكثيرين الذين طلبوا منه أن يحدثهم عن سر إسلامه، بقوله: ( يجب أن أعترف بأنني لا أعرف جواباً شافياً. لم يكن الذي جذبني تعليماً خاصاً من التعاليم، بل ذلك البناء المجمع العجيب المترصص بما لا نستطيع له تفسيراً من تلك التعاليم الأخلاقية بالإضافة الى منهاج الحياة العملية. ولا أستطيع اليوم أن أقول أي النواحي قد استهوتني أكثر من غيرها، فإن الإسلام على ما يبدو لي، بناء تام الصنعة، وكل أجزاءه قد صيغت ليتّم بعضها بعضاً ويشد بعضها بعضاً. فليس هناك شيء لا حاجة إليه، وليس هنالك نقص في شيء، فنتج عن ذلك كله ائتلاف متّزن مرصوص. ولعلّ هذا الشعور من أنّ جميع ما في الإسلام من تعاليم وفرائض قد

وُضعت مواضعها هو الذي كان له أقوى الأثر في نفسي، وربما كانت مع هذا كله أيضاً مؤثرات أخرى يصعب عليّ الآن أن أحلّلها)

ومنذ ذلك الحين سعى الى أن يتعلّم من الإسلام كلّ ما يقدر عليه: لقد درس القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ، ودرس لغة الإسلام، وتاريخ الإسلام وكثيراً ممّا كُتِبَ عنه أو كُتِبَ في الردّ عليه، وقد قضى أكثر من خمس سنوات في الحجاز، ونجد وأكثر ذلك في المدينة — ليطمئنّ قلبه بشيء من البيئة الأصليّة للدين الذي قام النبيّ ﷺ بالدعوة اليه فيها.

وبما أن الحجاز ملتقى المسلمين من جميع الأقطار، فقد تمكّن من المقارنة بين أكثر من وجهات النظر الدينيّة والاجتماعيّة التي تسود العالم الإسلاميّ.

بعد سنوات من الانقطاع لدراسة الإسلام، صار علماً من أعلام الإسلام في العصر الحديث، وبعد قيام باكستان اشتغل مديراً لدائرة (إحياء النظم الإسلاميّة) في البنجاب الغربيّة، ثمّ صار فيما بعد مندوباً مناوباً لباكستان في الأمم المتّحدة، وفي عام ١٩٥٣م استقال من منصبه، لينكبّ على الكتابة والتأليف. ومنذ عام ١٩٦٤ حتّى عام ١٩٨٠ يكون قد أنجز مشروع العمر، وهو ترجمة معاني القرآن، بأسلوب عصريّ خاطب فيه العقل الأوروبي مباشرة بلغة يفهمها.

وقد أنشأ بمعاونة (وليم بكتول) الذي أسلم هو الآخر، مجلّة الثقافة الإسلاميّة في حيدر آباد الدكن (١٩٢٧)، وكتب فيها دراسات وافرة في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام، كما ترجم صحيح البخاري (١٩٣٥)، وألّف أصول الفقه الإسلاميّ، والطريق الى مكّة، والإسلام على مفترق الطّرق، ومنهاج الإسلام في الحكم، وشريعتنا هذه، وعودة القلب الى وطنه (مذكرات).. وغيرها<sup>١</sup>.

### روحيه جارودي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (روحيه جارودي)، فسألته البابا عنه، فقال: هذا اسم المفكر الفرنسي المعروف، وأحد كبار زعماء الحزب الشيوعي الفرنسي، سابقاً، وهو رجل تميّز ثقافته بالعمق والشمولية، والرغبة الجادة في البحث عن الحق مهما كان الثمن الذي يكلفه.

وقد أتيج له منذ مطلع الأربعينات أن يحتك بالفكر الإسلامي والحياة الإسلاميّة، وقد ازداد هذا الاحتكاك بمرور الوقت، وتمخض عن اهتزاز قناعاته المادية وتحوله بالتدريج إلى خط الإيمان، الأمر الذي انتهى به إلى فصله من الحزب الشيوعي الفرنسي، كما قاده في نهاية الأمر (أواخر السبعينات) إلى اعتناق الإسلام، حيث تسمى بـ(رجاء جارودي).

وقد كتب العديد من المؤلفات منها: (حوار الحضارات)، (منعطف الاشتراكية الكبير)، (البديل)، (واقعية بلا ضفاف)، وبعد إسلامه أنجز سيرة ذاتية خصبة وعدداً من المؤلفات، أبرزها: (وعدو الإسلام)، فضلاً عن العديد من المحاضرات التي ألقاها في أكثر من بلد.

(١) انظر: الإسلام والغرب، الوجه الآخر، حسن السعيد.

قلت: لا شك أنك التقيت به، فقد كان له — مثلك — رحلات كثيرة، وهو يحضر المؤتمرات والندوات، ولا يقصر في ذلك.

قال: أجل.. لقد التقيت به مرات عديدة.. وفي كل مرة كنت أسمع شيئاً جديداً، ولم أكن السائل بل كنت المستمع المنتصت.

في أحد تلك المؤتمرات سأله بعضهم قائلاً: نسمع كلاماً كثيراً عن الإسلام.. فما هو الإسلام؟ التفت روجيه إلى السائل، وقال: (إن الإسلام لم يعد ذلك (الكافر) في زمن الصليبيين أو الـ (إرهابي) في حرب التحرير الجزائرية، ولم يعد ذلك الأثر في المتحف الذي يتفحصه المستشرق بعين العالم الاختصاصي بعاديات الحضارات، انطلاقاً من الحكم السبقي بامتياز الغرب.. بل لم يعد أكثر من هذا، ذلك الانفجار العلمي المذهل الذي كان، عند الخروج من العصور الوسطى قد فتح الطريق ببساطة لعلومنا (الحديثة).. إنما الإسلام هو تلك الرؤية لله وللعالم وللإنسان، التي تنيط بالعلوم وبالعلوم وبالفنون وبكل إنسان وبكل مجتمع مشروع بناء عالم إلهي وإنساني لا انفصام فيه باقتضاء البعدين الأعظمين، المفارقة والجماعة، التسامي والأمة<sup>١</sup>) ثم استغرق في خشوع عظيم، وقال: (إن الله أكبر من أعظم الملوك، وإليه وحده يدان بالإجلال المطلق، فهذا هنا المبدأ بحق لا يجوز التصرف فيه، بالصمود في وجه كل طغيان وبمعارضة كل سلطة، الأساس الإلهي للمساواة بين جميع الناس من وراء أي تسلسل في المراتب الاجتماعية)<sup>٢</sup>

ثم قال: (بفضل مبدأي الإسلام الأساسيين: مبدأ السلطة لله وحده وهو الذي يجعل كل سيادة اجتماعية نسبية، ومبدأ الشورى الذي يستبعد أية وساطة بين الله والشعب، يزال، في آن واحد، أي استبداد مطلق يضيء القداسة على السلطة، ويصبو إلى أن يجعل من القائد إلهاً على الأرض)<sup>٣</sup> في مؤتمر آخر سأله بعضهم عن موقفه من الجهاد في الإسلام، فقال: (إن الجهاد الأكبر في الإسلام هو كفاح ضد الذات، ضد الميول التي تجذب الإنسان بعيداً عن مركزه. وهو ما يقوده، باحتدابه نحو رغبات جزئية، إلى أن يصطنع لنفسه (أوثاناً) وبالنتيجة يمنع عن الاعتراف بوحدانية الله. والانتصار على هذه (الوثنية) الداخلية أصعب كثيراً أيضاً من الانتصار على المشركين في الخارج. ومازلنا نجد اليوم في هذا درساً عظيماً لكثير من (الثوريين) الذين يطمعون بتغيير كل شيء إلا أنفسهم. كما كان، فيما مضى، شأن الكثير من (الصليبيين)، الذين كانوا في القدس وفي أسبانيا (المراد استردادها)، أو ضد هنود أمريكا، يريدون أن يفرضوا على الآخرين مسيحية يهزؤون منها بكل عمل من أعمالهم)<sup>٤</sup>

سأله آخر عن اتهام الغرب للفتوح الإسلامية بكونها هجمات بربرية، فقال: (أسطورة أخرى ينبغي القضاء عليها: تلك التي أراد الاستعمار الفرنسي فرضها حين صوّر التوسع العربي بدءاً من القرن الميلادي الثامن على

(١) دعوة الإسلام، ص ٢٢.

(٢) دعوة الإسلام، ص ٣١.

(٣) دعوة الإسلام، ص ٣٦.

(٤) دعوة الإسلام، ص ٤٥.

أنه تدفق (الهمجية الآسيوية) على الغرب)<sup>١</sup>

ثم قال: (إن ما يطلقون عليه اسم (غزو إسبانية) لم يكن غزواً عسكرياً. لقد كان عدد سكان إسبانية في ذلك الحين زهاء عشرة ملايين نسمة ولم يزد عدد الفرسان العرب في الأراضي الإسبانية البتة على سبعين ألفاً وإنما لعب التفوق الحضاري دوراً حاسماً)<sup>٢</sup>

( إن ما حققه العرب في إسبانيا يجعلنا نفكر في الحرب الثورية التي نهض بها ماو في الصين فقد جلبوا معهم نظاماً اجتماعياً أعلى جداً من النظام الراهن، وسرعان ما ظهروا بمظهر محررين. أولاً بإنقاذ الأفتان من وصاية ملوك القوط في عصر انحطاطهم. ثم بعدم امتلاكهم الأراضي - والقرآن يمنع ذلك - ولكن بالاكتفاء بالخراج)<sup>٣</sup>

(لماذا هبّ هذا الإعصار القادم من الشرق وانتشر. يمثل هذه السرعة العظمى من بحر الصين إلى المحيط الأطلسي؟ إن العامل الحاسم هو أن (العربي) قد جلب معه أشكالاً أعلى في مجالات التنظيم الاجتماعية وحتى الاقتصادية، ولذا نجده يحظى بقبول الجماهير في عالم يقر نظام الرق وهو في حالة تفسّخ تام)<sup>٤</sup>

وعندما سئل عن سر انتشار الإسلام بقوة تفوق انتشار المسيحية، قال: (حدثني مبشر في كميرون وهو يائس فقال: (إن بعثاتنا تقدم المسيحية على نحو كما لو أن الله لم يظهر في صورة إنسان وإنما ظهر في صورة غربي). فكيف ندهش أمام تقدم الإسلام المذهل في أفريقية السوداء في عصر الاستقلال إعراباً عن رفض المستعمر؟)<sup>٥</sup>

وعن الحضارة الإسلامية التي أعجب بها كثيراً قال: ( افترى الاستعمار الإنكليزي والإسباني والفرنسي، بنتيجة الدور الذي قام به في أرض الإسلام خلال أكثر من قرن، افتراءً منهجياً لإساءة سمعة إسهام الحضارة العربية)<sup>٦</sup>

(يقول (أناتول فرانس) في (الحياة الجميلة): سأل السيد (دوبوا) السيدة (نوزير) عن أشأم يوم في تاريخ فرنسا. ولكن السيدة (نوزير) لم تكن تعرف. فقال السيد (دوبوا): أنه يوم معركة (بواتيه) عندما تراجع العلم العربي، والفن العربي، والحضارة العربية، سنة ٧٣٢/م أمام همجية الفرنجة)<sup>٧</sup>

(إن ذاكرتي ستحتفظ دوماً بهذا النصّ الذي سبّب طردي من (تونس) سنة ١٩٤٥ بذريعة الدعوة المضادة لفرنسة! فقد كان من المحظور تأكيد أن الحضارة العربية كانت تسيطر إلى حدّ كبير على الحضارة الأوروبية

(١) حوار الحضارات، ص ٩٦.

(٢) حوار الحضارات، ص ٩٧.

(٣) حوار الحضارات، ص ٩٧.

(٤) حوار الحضارات، ص ١٠١.

(٥) حوار الحضارات، ص ٢٦٧.

(٦) حوار الحضارات، ص ٩٦.

(٧) حوار الحضارات، ص ٩٨.

حتى القرن الرابع عشر)<sup>١</sup>

(إننا نصطدم براى مبيّت استعماري قديم وجدت خلاصة كاريكاتورية عنه في كتاب كان متوافراً في جميع مكتبات الجزائر سنة ١٩٤٥ وعنوانه: (كتاب السياسة الإسلامية)، وهو أشبه شيء بكتاب صلاة كامل للمستعمرين ومما جاء فيها خاصة: (أن العلم العربي الذي بلي ومات ميتة لا رجعة لها إنما قام على اقتباسات من مؤلفات يونانيين اختارها يهود في العصر الوسيط!)<sup>٢</sup>

(يوضح الكاتب (بلاسكو إيبانز) في كتابه (في ظل الكاتدرائية) أن انتعاش إسبانية لم يأت من الشمال، حيث القبائل البربرية، بل من الجنوب مع العرب الغزاة.. لقد استولى العرب خلال سنتين على ما بذل الآخرون لاسترجاعه منهم سبعة قرون. إن ذلك لم يكن فتحاً يفرض ذاته بقوة السلاح، بل كان مجتمعاً جديداً يمدّ من كل جانب جذوره القوية)<sup>٣</sup>

(إنما يدين (الغرب) بعصر النهضة للـ(غزو) العربي الذي عرف كيف يخلق الشروط الفكرية اللازمة لتفتحه. وهذا الغزو قد جعل من الممكن، أولاً، ابتثاق الثقافات القديمة بدءاً من الثقافة الهلينية.. بيد أن العرب لم يقتصرُوا على ذلك وإنما أسهموا إسهاماً إبداعاً ضخماً في الثقافة العالمية)<sup>٤</sup>

وفي أحد المؤتمرات النسوية سألته بعض النساء عن موقف الإسلام من المرأة، فقال: (إن القرآن، من وجهة نظر اللاهوتية، لا يحدّد بين الرجل والمرأة علاقة من التبعية الميّنافية: فالمرأة في القرآن توأم وشريكة للرجل لأن الله خلق البشر ككل شيء: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذريات: ٤٩) والقرآن لا يحمّل المرأة المسؤولية الأولى للخطيئة)<sup>٥</sup>

(إذا نحن قارنا قواعد القرآن بقواعد جميع المجتمعات السابقة فإنها تسجل تقدماً لا مراء فيه ولا سيما بالنسبة لأنثينا ولروما حيث كانت المرأة قاصرة بصورة ثابتة)<sup>٦</sup>

(في القرآن تستطيع المرأة التصرف بما تملك وهو حق لم يعترف لها به في معظم التشريعات الغربية ولا سيما في فرنسا إلا في القرن التاسع عشر والعشرون. أما في الإرث فصحيح أن لأنثى نصف ما لذكر، إلا أنه بالمقابل تقع جميع الالتزامات وخاصة أعباء مساعدة أعضاء الأسرة الآخرين على عاتق الذكر. المرأة معفاة من كل ذلك. والقرآن يعطي المرأة حق طلب الطلاق وهو ما لم تحصل عليه المرأة في الغرب إلا بعد ثلاثة عشر قرناً)<sup>٧</sup>

(في القرآن إقرار بتعدّد الزوجات. إلا أن هذا التعدد لم يؤسسه هو، كان موجوداً من قبل (وهو موجود

(١) حوار الحضارات، ص ٩٩.

(٢) حوار الحضارات، ص ١٠١.

(٣) حوار الحضارات، ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٤) حوار الحضارات، ص ١٠٣.

(٥) وعود الإسلام، ص ٧٨.

(٦) وعود الإسلام، ص ٧٨.

(٧) وعود الإسلام، ص ٧٨-٧٩.

كذلك في التوراة وفي الأناجيل)، وقد فرض عليه، على العكس، حدوداً مثل العدل التام بين مختلف الزوجات في الإنفاق والحببة والمعاشرة الجنسية، وهي قواعد إذا ما جرى تطبيقها بحرفيتها تجعل تعدد الزوجات مستحيلاً<sup>١</sup> (يخسن ألا ننسى بأن جميع ألوان الرقة في الحب والشفافية فيه.. على نحو ما ظهر في الغرب لدى شعراء التروبادور.. وفي قصائد دانتي.. من أصول عربية إسلامية)<sup>٢</sup>

### برابرا براون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (برابرا براون)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لكاتبة أمريكية اعتنقت الإسلام في التسعينات.

قلت: فهل التقيت بها؟

قال: أجل.. لقد تشرفت بذلك، ومن جوابها لي عن سر اعتناقها الإسلام، قالت: لقد نشأت كمتسيحية وترعرعت في كنف طائفة بروتستانتية تُعرف بـ (عقيدة المسيحية الإصلاحية) CHRISTIAN REFORMED FAITH.

ورغم الخلفية الدينية الشاملة من صلاة في الكنيسة مرتين كل يوم أحد وفي العطلات، وتعليم مسيحي خاص يوم الأحد، ومدارس صيفية لدراسة الكتاب المقدس، ومعسكرات دينية، ودروس عقائدية كنسية ومجموعات شباب مسيحية، فقد وجدت نفسي أواجه أسئلة عديدة، بخصوص أسس عقيدتي، لم يستطيع أي شخص ولا أية طريقة من التعليم الديني أن تجيب عليها.

ولمدة سبع وثلاثين سنة، كنت تائهة في ضباب هذا الارتباب بخصوص الله والطريقة الصحيحة لعبادته حتى استطعت في عام ١٩٩١م أن أكتشف الإسلام.

سكنت قليلاً تسترجع ذكرياتهما، ثم قالت: لقد كان نزاع (عاصفة الصحراء) في الشرق الأوسط على أشده. وبجوار كتب استراتيجية الحروب والأسلحة في مكتبة محلية، كان هناك كتاب صغير عنوانه (فهم الإسلام) (UNDERSTANDING ISLAM)، وتصفح الكتاب بنفس فضول البعض، في ذلك الوقت، حول هذا الدين (الغامض) من الشرق الأوسط، وتحوّل الفضول بسرعة الى اندهاش، عندما عرفت من خلال صفحات ذلك الكتاب أن الإسلام أعطاني الأجوبة لتلك الأسئلة التي كانت تنتابني طيلة تلك السنين.

لم أضيع كثيراً في الوقت.. لقد أصبحت مسلمة.. وأخيراً فلقد توصلت الى ذلك الهدف، وهو أن أكون في سلام داخلي نفسي بخصوص علاقتي مع الله.

التفت البابا إلي، وقال: وبما أن الله قد وهب هذه المرأة الفاضلة الإمكانيّة لأن تُعبّر عن نفسها وأفكارها ببلاغة، فإنها حاولت أن تُخاطب الآخرين الذين يعانون من نفس تلك الشكوك التي تطوف في مخيلاتهم بخصوص الدين؛ وكان الأمل الذي يحدوها هو كما ذكرت لي: (أنتي ربّما أستطيع أن أوجههم نحو بعض الأجوبة، أن المادة التي أقدمها هنا يمكن أن تفاجيء البعض وربما تصدمهم عندما يقرؤوها، ولكن البحث عن

(١) وعود الإسلام، ص ٨٠.

(٢) وعود الإسلام، ص ٧٩.



الحقيقة ليس سهلاً، وخصوصاً في مواجهة العقائد والمبادئ التي اعتقناها لآماد طويلة) وفي هذا الاتجاه، بدأت عملها بكتابة بعض المقالات، وأبرزها مقالة بعنوان (ثلاثة في واحد: نظرة الى العقيدة المسيحية في التثليث)، وقد طُبعت في بداية عام ١٩٩٣، من قِبَل مدرسة شيكاغو المفتوحة THE OPEN SCHOOL OF CHIAGO

ومنها مقالة عنوانها (نظرة عن قرب نحو الديانة المسيحية)، وهي دراسة عن العقائد المسيحية. ومنها مقالة عنوانها (حالة في الفساد)، وهي دراسة في تحريف النص في الكتاب المقدس. وفي آذار (مارس) ١٩٩٣م، أقدمت هذه الكاتبة الفاضلة على تجميع المقالات الأتفة الذكر مع بحوث اضافية، وطبعتها في كتاب صدر بالانجليزية عام ١٩٩٣م تحت عنوان: A CLOSER LOOK AT CHRISTIANITY وترجم الى العربية عام ١٩٩٥م، بعنوان (نظرة عن قرب في المسيحية) وقد صدرت كتابها القيم بقولها: (أن نكون في سلام مع أنفسنا بخصوص الله: هذه ببساطة، هي الفكرة وراء هذا البحث كله)

ثم تقول: (إن الكثير منا يعيش حياته راضياً بقبول الأشياء (كما هي)، ففضرب صفحاً عن الأسئلة الصغيرة المنكدة والشكوك التي تتوارد على أذهاننا وخصوصاً في القضايا المتعلقة بالدين. نعم إننا نستطيع أن نمضي هكذا في رحلة الحياة، ولكننا لا نستطيع أبداً أن نصل الى تلك الحالة من السلام داخل نفوسنا. والبعض منا، مع ذلك لا يكتفون أن يأخذوا الأشياء بسطحية، فيبحثون بجد عن أجوبة تلك الأسئلة التي تعترضنا في طريق الحياة. فنحن نضع موضع التساؤل عقائد آباءنا ولسنا مستعدين لأن نقنع بالقبول الأعمى. وهذا الطريق ليس من السهل أن نسير عليه بأي حال، ولكن المكافأة هي التي تستأهل منا هذا الجهد وتحتتم بقولها: (إنني لآمل في الصفحات التالية أن تُتاح الفرصة للقراء ليُصبروا وجهة النظر حول المسيحية كما تيسر لي أن أفهمها)

وفي حديثها عن مرحلة ارهاصات ظهور المسيح، قالت: (لأجل أن نفهم الرسالة الحقيقية للمسيح، يجب علينا أن نعود الى التاريخ قبل ظهور المسيح لنجد لماذا أرسل المسيح أصلاً، لتخلص الى أن اليهود قد انحرفوا، مرة أخرى، عن التوحيد، ولكن انحرفهم عن التوحيد في هذه المرة قد تم تحت غطاء كثيف من الطقوس والشعائر المعقدة. إن هذا كان هو الموقف السائد في العالم عندما تلقى عيسى دعوته من الله) وعن رسالة المسيح السماوية، وكيف طراً عليها التغيير أو التحريف فجأة عندما ظهر على المسرح واعظ ادعى بأنه يتكلم باسم المسيح، بعد سنوات قليلة فقط من رحيل المسيح. ذلك هو الشاب اليهودي شاول المولود في طرطوس، والعضو في طائفة يهودية تسمى الفريسيين التي تتميز بتمسكها الأعمى بالمظاهر والطقوس: (وبالرغم من أن الديانة المسيحية تأخذ اسمها من عيسى المسيح، فإن شاول الذي غير اسمه الى بولس يجب أن يُعتبر هو مؤسسها الحقيقي.. والمسيحيون لا ينكرون ذلك أيضاً.. ولكن هناك مشكلة كبيرة.. وهي أن تعاليم بولس المؤسسة الحقيقي للمسيحية — لا يمكن العثور عليها في أي مكان من تعاليم عيسى أو في تعاليم الأنبياء الذين سبقوه. ليس هذا فقط ولكن بولس لم يكن له إلا اتصال قليل مع الحوارين الحقيقيين

لعيسى والذين كان من الممكن أن يوجهوه الى الطريق الصحيح. فهؤلاء لم يكونوا على وفاق مع تعاليم بولس المتكررة وأخبروه بذلك كلِّما كان ذلك ممكناً.

وفي النهاية، على أيِّ حال، فإنَّ نوع المسيحية التي نادى بها بولس إنما أحرز فيها النجاح بفضل شخصيته الساحرة، إضافة الى حقيقة أنه وأصحابه غلبوا الحواريين الحقيقيين لعيسى في أمور مهمّة كالوجهة الاجتماعية والثروة والتعليم، ولذلك حصل على أتباع كثيرين من بين السكّان غير اليهود. فالمسيحية — اليهودية، أي عقيدة حواربي عيسى لم تكن لها آية فرصة للنهوض)

وفي حديثها عن البدع التي أدخلها بولس في ديانته المسيحية كالتثليث، والخطيئة، والوهية عيسى وموته، والخلاص انتهت إلى أن الإسلام هو الدين الحق، فهو دين بسيط ليس مدفوناً تحت تعقيدات غامضة وغير منطقية من العقائد، وليس في الإسلام كهنوت ولا قديسين ولا مراتب دينية ولا قرابين مقدّسة.. فاللاهوت لا مكان له في الإسلام، لأنَّ الإسلام طريقة حياة وليس حفنة من الكلمات.

### ماريا الأسترا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ماريا الأسترا)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لمفكرة إسبانية، ولدت في الأندلس عام ١٩٤٩م، وحصلت على إجازة في الفلسفة وعلم النفس من جامعة مدريد، واعتنقت الإسلام عام ١٩٧٨م، وكانت تدير مركز التوثيق والنشر في المجلس الإسلامي، وقد كتب الله أن تحتّم حياتها بالشهادة في غرناطة عام ١٩٩٨م على يد حاقد إسباني بعد لحظات من إنجاز مقالها (مسلمة في القرية العالمية)

وكان مما كتبت في هذا المقال الذي ختمت به حياتها: (إنني أوّمن بالله الواحد، وأؤمن بمحمد نبياً ورسولاً، وبنهجه نهج السلام والخير... وفي الإسلام يولد الإنسان نقياً وحرّاً دون خطيئة موروثه ليقبل موقعه وقدره ودوره في العالم)

وورد فيه: (إن الأمة العربية ينتمي بعض الناس إليها، أما اللغة العربية فننتمي إليها جميعاً، وتحتل لدينا مكاناً خاصاً، فالقرآن قد نزل بحروفها، وهي أداة التبليغ التي استخدمها الرسول محمد ﷺ) وفيه: (تعد التربية اليوم أكثر من أي وقت آخر، شرطاً ضرورياً ضد الغرق في المحيط الإعلامي، فصحافتنا موبوءة بأخبار رهيبية، لأن المواطن المذعور سيكون أسلس قياداً، وسيعتقد خاشعاً بما يُمليه العقديون)

### مارجريت ماركوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مارجريت ماركوس)<sup>٣</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم مفكرة أمريكية من أصل يهودي، أسلمت، وتمت بعد إسلامها مريم جميلة، وقد وضعت كتباً منها (الإسلام في مواجهة الغرب)، و(رحلتي من الكفر إلى الإيمان) و(الإسلام والتجدد) و(الإسلام في

(١) بمعناه المسيحي.

(٢) انظر: مقال (مسلمة في القرية العالمية) ترجمة صلاح يحيوي، مجلة (الفصل) العدد (٢٩١) عام ٢٠٠٠م.

(٣) مقدمات العلوم والمناهج، أنور الجندي (مجلد ٦/ص ١٩٩)

النظرية والتطبيق)

وقد ذكرت في هذه الكتب سر اعتناقها للإسلام، ومما جاء فيها: (لقد وضع الإسلام حلولاً لكل مشكلاتي وتساؤلاتي الحائرة حول الموت والحياة وأعتقد أن الإسلام هو السبيل الوحيد للصدق، وهو أنجع علاج للنفس الإنسانية)

وفيها: (منذ بدأت أقرأ القرآن عرفت أن الدين ليس ضرورياً للحياة فحسب، بل هو الحياة بعينها، وكنت كلما تعمقت في دراسته ازددت يقيناً أن الإسلام وحده هو الذي جعل من العرب أمة عظيمة متحضرة قد سادت العالم)

وفيها: (كيف يمكن الدخول إلى القرآن الكريم إلا من خلال السنة النبوية؟! فمن يكفر بالسنة لا بد أنه سيكفر بالقرآن)

وفيها: (على النساء المسلمات أن يعرفن نعمة الله عليهن بهذا الدين الذي جاءت أحكامه صائنة لحرماتهن، راعية لكرامتهن، محافظة على عفافهن وحياتهن من الانتهاك ومن ضياع الأسرة)

### روبرت بيرجوزيف:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (روبرت بيرجوزيف)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لأستاذ سابق للفلسفة بالجامعات الفرنسية، وله العديد من الكتب في مجال الفلسفة والتوحيد، وقد اعتنق الإسلام بعد دراسة جادة مضمينة أوصلته إلى اقتناع كامل به كدين قائم على التوحيد.

قلت: هل التقيت به؟

قال: أجل.. لقد من الله علي بذلك، وكان من حوابه لي عن سر إسلامه قوله: بلا شك أن الإسلام — وهو دين العلم والمعرفة — يدعو معتنقيه إلى التزود بالعلم به، ولا غرور في ذلك، فإن أول آية من القرآن الكريم هي قوله تعالى لرسوله الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١)، والنبى الكريم يقول: «اطلبوا العلم ولو كان في الصين»

قلت: فما علاقة هذا بإسلامك؟

قال: من تجاربي الشخصية وصلت إلى إيمان لا يتزعزع بأن الفرد الذي يخلص في أبحاثه للحصول على العلم في أي فرع من فروع الخدمة المجتمع، ولخير البشرية جمعاء، فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه خير الجزاء على كل ما يقدمه من خير لمجتمعه، فالله يقول في سورة الزلزلة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧)، وبالنسبة لي فإنني لم أكتف بدراستي الخاصة في الفلسفة، بل إنني حاولت في شتى فروع المعرفة، وخاصة في إثبات وحدانية الله خالق كل شيء، ومدبر كل شيء في هذا الكون، الذي تهدده الحضارة المادية الإلحادية التي تكاد تقضي على كل ما توارثته الأجيال الماضية والحاضرة من تقدم وازدهار. فسلح العلم وحده لا يُستخدم إلا في الخير والبناء، لا في الدمار والخراب، وذلك هو الأمل لأبناء البشرية جمعاء للوصول إلى الحقيقة الكبرى، وإلى خلاص العالم من مشاكله.

فالعلم والبحث كانا سبباً في انبثاق إشراقة الأمل ونور الحق، وإنارة الطريق أمامي.. ليهديني ربي إلى

الصراف المستقيم، ويرشدني إلى بر الامان، وينقذني من العذاب الشديد الذي كنت أعانيه نتيجة الصراع العنيف الذي كان يدور في نفسي، ولا ريب في هذا الكلام، فإنني أعتقد بأن الإسلام — هو شريعة الله والحق — معناه السلام، بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معاني كبيرة، وأولها السلام بين الشخص ونفسه.

فالنفس — وهي الأمانة بالسوء — لا تستطيع أن تسيطر عليها وتوجهها إلى خير الفرد والمجتمع، إلا الشريعة الإسلامية ومبادئها السمحاء.

فالشهادة تعني أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. تعني أن الناس جميعاً متساوون، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى..

واتصال العبد مباشرة بخالقه خمس مرات يومياً — في صلاته — زادٌ يومي يُذكره بوجود الخالق، ويدعوه إلى إتباع ما دَعَا إليه، واجتناب ما نَهَى عنه.. ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٠)

والزكاة تُوحِّدُ بين القلوب، وتقضي على الحقد والبغض والحسد، فتقرب بين المسلمين وتجعلهم كالبنين المرصوص يشد بعضه بعضاً.

وصيام رمضان يعتبر تدريباً للنفس لكبح جماحها..

وخروج الفرد من زينة الدنيا في الحج يذكره بيوم الحشر والحساب..

فهذه المبادئ تستطيع إقامة المجتمع المثالي الذي ظلت أبحث عنه منذ نشأتني..

ولذا فإنني أدعو كل إنسان أن يبحث عن حقيقة الإسلام ومبادئه المختلفة، ولا يتأثر بالادعاءات الكاذبة التي يرددها المغرضون وأصحاب الأغراض الشخصية، فالطريق مفتوح أمام كل إنسان للنظر في كتاب الله وسنة رسوله، وليحكم بعد ذلك بما يمليه عليه ضميره.

قلت: فماذا فعلت بعد إسلامك؟

قال: أول ما فعلته بعد اعتناقي للإسلام، هو محاولة زيارة الدول الإسلامية لدراسة أحوال معيشتهم، والتعرف عليهم، ولقد سعدت كثيراً بزيارة المملكة العربية السعودية، والكويت، ومصر وغيرها، وكنت دائماً أحس بالبيئة الإسلامية التي أفتقدها ويفتقدها كل مسلم يعيش في بلاد الغرب.

قلت: فهل تنوي خدمة الإسلام بما تعلمته من علوم؟

قال: لا بد من ذلك.. إنني الآن أقوم بمحاولة إعداد كتاب باللغة الفرنسية عن الشريعة الإسلامية، وتاريخ الإسلام والمسلمين، ودور علماء المسلمين الأوائل في العلوم والفنون المختلفة.

قال ذلك، ثم توجه لبعض المستمعين من المسلمين يقول: أود أن أطلب من المسلمين أن يفتخروا بأنهم مسلمون، وأن يكونوا خير مثل لهذه الشريعة الخالدة، وأن يكونوا جديريين بأن يحملوا هذه العقيدة.

وأحب أن أذكر هنا مثلاً يبين لهم أهمية تمسكهم بدينهم دون التأثر بما يجري من حولهم، وهو أن أصحاب الأعمال هنا يفضلون المسلمين المتمسكين بدينهم، نظراً لأنهم يكونون على خُلُقٍ طَيِّبٍ، وإخلاص تام للأعمال

التي يقومون بها، فضلاً عن أن سلوكهم الاجتماعي يجبر الجميع على احترامهم وتقديرهم، واحترام وتقدير عقيدتهم.

كما أطلب من الدول الإسلامية — وخاصة مصر — أن تتحمل المسؤولية الكبرى لخدمة الإسلام والمسلمين في العالم أجمع، كأن تهتم مثلاً بتوزيع المطبوعات الإسلامية التي تتناول الأسس والمبادئ الإسلامية بالأسلوب العلمي المبسط، وباللغات المختلفة.. وأن تهتم بالقرآن الكريم وترجمته للشعوب غير الناطقة بالعربية، والاهتمام أيضاً بأسطوانات وتسجيلات تعليم الصلاة للمسلمين في الدول الغربية بصفة عامة، وفي فرنسا بصفة خاصة، حتى يمكننا — نحن الأوربيين — دراسة هذا الدين الحنيف.. كما يمكننا نحن الذين أسلمنا أن نُعرّف إخواننا غير المسلمين به، ولكل طالب علم ومعرفة، والله يهدي من يشاء من عباده.

## تاسعا — الأصدقاء

فتحت دفتر البابا على فصله التاسع، فوجدت عنوانه (الأصدقاء)، فقلت: ما الذي تقصده بالأصدقاء. قال: هذا مصطلح أردت به قوما من الناس أحبوا الإسلام، أو أحبوا أشياء في الإسلام، ولكنهم قصرُوا عن أن يكونوا أتباعا له.

قلت: فكيف صاروا أصدقاء إذن ما داموا لم يتنعموا بنعيمه؟ قال: لقد فتح الله بسببهم عيوننا عميا، وأسماعنا صما، فلذلك خدموا الإسلام.. والإسلام لا يعادي من يخادمه.

قلت: ولكنني عرفت أن من ركائز الإسلام ما يسمى بالولاء والبراء.. والناس بذلك إما مسلمين نكن لهم كل المودة، وإما كفار نكن لهم كل العداوة.

قال: من قال ذلك؟

قلت: كلهم يقولون ذلك.

قال: أخطأ من قال ذلك..

قلت: هم يقرؤون لذلك قرآنا.

قال: وما يقرؤون؟

قلت: يقرؤون قوله ﷻ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ٢٨)، وقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٤٤)، وقبل ذلك بآيات قوله ﷻ: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَتُّعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣٩) ﴿النساء﴾، وقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (٥٢) ﴿المائدة﴾

قاطعني، وقال: وقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحْبَبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (التوبة: ٢٣)، وقوله ﷻ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢٢)، وقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا

أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ (المتحنة: ١)

قلت: أجل.. ألا تكفي هذه الآيات لتضع بيننا وبينهم أسوارا من العداوة لا نلتقي بعدها أبدا؟  
ابتسم، وقال: أرأيت لو أن كل أولئك الذين أخبرتك عن إسلامهم لاقوا أجيالا غلاظا لا يعرفون منهم  
إلا العداوة.. هل تراهم يقبلون على الإسلام بذلك الشغف الذي أقبلوا به؟  
سكت قليلا، ثم قال: ولماذا نذهب بعيدا.. هو ذا أنا أمامك.. لو أني لاقيت مثل هؤلاء الناس لما فعلت بهم  
إلا ما فعل سلفي من البابوات.. إن الحرب لا تجر إلا الحرب.. والعداوة لا تجر إلا إلى العداوة.  
قلت: ولكن كيف نعمل بالنصوص التي كنا نقرؤها؟  
قال: نفهمها..

قلت: على ضوء كلام المفسرين.. أم على ضوء كلام الفقهاء؟  
قال: على ضوء القرآن الكريم.. فخير ما فسر القرآن القرآن.. وعلى ضوء كلام رسول الله، فخير من فهم  
كلام الله رسول الله.  
قلت: فأين تفسير تلك الآيات؟

قال: في قوله ﷻ — وهو يضع الضابط الذي تفسر من خلاله جميع ما يسمونه نصوص الولاء والبراء  
—: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ  
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا  
عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩) (المتحنة)  
فهاتان الآيتان تضعان إطار العداوة والصدقة.

قلت: ما هو هذا الإطار؟  
قال: أن نصادق من صادقنا، وأن لا يوالي من يعاديه.  
قلت: ما معنى عدم موالاته؟  
قال: أن لا تمدد بالمعونة التي تجعله يحاربك بها.. هذا هو وحده إطار البراء الذي يرسمه القرآن.. وهو لا  
يمنعك من أن تدعوهم، وتحب لهم من الخير ما تحبه لكل مؤمن، بل تحزن لهم إن ماتوا وهم لا يعرفون الله.  
قلت: إنك تقضي بهذا على مفهوم البراء الذي ينشره كثير من قومنا.  
قال: بسوء فهمهم.. وبعدهم عن القرآن.. وعن شمس محمد.  
قلت: ولكن محمدا حارب الكفار.

قال: ولكنه كان يجب لهم كل الخير.. بل يحزن عليهم.. بل كاد يقتله الحزن عليهم.. ألم تقرأ قوله ﷻ: ﴿لَعَلَّكَ  
بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣).. وهو في حربه لهم كان يدافع عن دينه، وكم تمنى أن لا يريق دما من  
دمائهم.. ولولا أنهم اضطروه لذلك ما حمل عليهم سيفا.

قلت: صدقت في هذا.. وفي القرآن الآيات الكثيرة الدالة على ما ذكرت.. وفي حياة الرسول ﷺ

النصوص الكثيرة المؤيدة لذلك.

قال: فاقتدوا بمحمد.. ولا تقتدوا بأولئك المجرمين الذي امتلأت قلوبهم ظلمة، فراحوا يرمون بها الإسلام.

قلت: عد بنا إلى الأصدقاء.. إن من قومي من يرفض هذه التسمية.

قال: عندما أرسل رسول الله ﷺ أصحابه إلى النجاشي.. هل كان النجاشي مسلماً أو كافراً؟

قلت: لم يكن النجاشي حينها مسلماً.

قال: فماذا قال لهم رسول الله ﷺ؟

قلت: قال لهم: «إن بها ملكاً لا يظلم الناس ببلاده في أرض صدق فتحرزوا عنده يأتيكم الله عز وجل

بفرح منه، ويجعل لي ولكم مخرجاً»<sup>١</sup>

قال: فقد أتني عليه رسول الله ﷺ ثناء حسناً، واعتبر أرضه أرض صدق؟

قلت: أجل..

قال: فاعتبروا بهذا.. وحولوا العالم كله أصدقاء لكم.. فلا خير فيمن يبحث عن العداوة، وينشر عقيدة

العداوة.

قلت: اقتنعت بما ذكرت.. فهل بنا إلى سفرك.. لتقص علي أنباء هؤلاء الأصدقاء.

قال: قبل أن أذكر لك شهادتهم<sup>٢</sup> أريد أن أخبرك بأن هؤلاء صنفين:

---

(١) رواه ابن إسحق.

(٢) اعتمدنا في أكثر الشهادات الواردة في هذا الفصل الطويل على ما أعده الدكتور عماد الدين خليل من جمع للشهادات الكثيرة التي شهد بها المستشرقون وغيرهم حول القرآن والإسلام والحضارة الإسلامية، والذي جمع فيما بعد في كتاب واحد تحت عنوان (قالوا عن الإسلام).

وقد جمع هذا الكاتب الفاضل تلك النقول الكثيرة بطلب من الندوة العالمية للشباب.

وقد بدأت فكرة هذا الكتاب عندما أعدت الندوة عددًا من النشرات باللغة الإنجليزية للتعريف بالإسلام لغير المسلمين كان من بينها ثلاث مطويات هي: (ماذا قالوا عن الإسلام)، و(ماذا قالوا عن القرآن)، و(ماذا قالوا عن الرسول)

وقد لاقت تلك النشرات استحساناً كبيراً، كما تذكر الندوة، بل أصبحت مادة الدعوة للإسلام داخل المملكة وخارجها، وترجمت إلى عدد كبير من اللغات الحية، ومن هنا نشأت فكرة تأليف كتاب جامع لهذه الشهادات.

وتذكر الندوة أنها فكرت طويلاً في الفكرة ثم أعدت ورقة العمل التي توضح أمرها واستشارت فيها عددًا من العلماء في الداخل والخارج فجاءت الردود مشجعة جداً، مما يدل على أن هذا الكتاب المقترح سوف يسد ثغرة يحتاج المسلمون إلى سدها.

فطلبت الندوة من الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل أن يقوم بتحمل هذا العبء الكبير، فقام به خير قيام.

وهذا الكتاب يقدم مجموعة من الشهادات المنصفة في حق الإسلام، وقرآنه الكريم ونبيه العظيم، وتاريخه وحضارته ورجاله، وهذه الشهادات صدرت عن أعلام معظمهم من غير المسلمين، فيهم السياسي والأديب والشاعر والعالم، والعسكري، والرجل والمرأة.

ومع هذه النقول الكثيرة، فإن الكاتب اقتصر على الاستشهاد بأقوال الغربيين الذين سبقوا عشر السنوات الماضية، كما اقتصر على الرجوع للترجمات العربية.

وتذكر الندوة أن المؤلف جمع مادة ضخمة من الشهادات والنقول التي رأت جمال الإسلام وكماله، ولكن الندوة تريد أن يحقق الكتاب هدفه بأيسر الطرق فاقترحت على المؤلف أن يختصر اختصاراً لا يخل بالمنهج وذلك بالإبقاء على عدد محدود من الشهادات لكل صاحب شهادة يفي بالهدف الذي احتيرت الشهادات من أجله وهذا الذي كان.



قلت: فما الصنف الأول؟

قال: قوم امتلأوا بحب الإسلام، فلم يدعوا مناسبة يثنون بها عليه إلا فعلوا.. وهؤلاء أرى أن نكل أمرهم إلى الله.. فقد يكونون من المسلمين الذي كنمو إسلامهم، فلذلك يستحقون منا كل الاحترام.

قلت: صدقت.. وقد عرفنا في رحلتك السابقة خبر بعضهم.. فما الصنف الثاني؟

قال: قوم مذذبون.. فمرة يغلبهم الصدق، فينطقون بالحق، شعروا أو لم يشعروا.. ومرة يحنون إلى حياتهم وأقوامهم ومذاهبهم، فينطقون بالباطل.

قلت: فهؤلاء أعداء وليسوا أصدقاء.

قال: لا.. هؤلاء أصدقاء في الحق الذي نطقوا به، ألم تقرأ قوله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء:

من الآية ٤٠)، وقوله ﷺ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧)

قلت: ولكن الله ﷻ قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٨)

قال: نحن نبحث عن الخير لنبشر به.. أما الدينونة، فندعها لله.. ألم يعلمك معلم السلام هذا؟

قلت: بلى.. جزاه الله خيرا.. وجزاك الله كل خير.. لقد أضر بنا الصراع.. فصرنا لا نرى إلا الصراع.

فتحت الدفتر.. فرأيت أسماء لدول مختلفة، فقلت: ما هذه الأسماء؟

قال: لقد وفقني الله، فقمت برحلات مختلفة إلى كثير من دول العالم، أحضر مؤتمراتها وندواتها، وقد

سجلت في كل رحلة من تلك الرحلات بعض ما سمعته من شهادات.

قلت: ألم تسجل كل الشهادات؟

قال: يستحيل ذلك.. فسمعة الإسلام — بحمد الله — في قمة الطيبة بين العلماء والمثقفين رغم ما تمارسه

وسائل الإعلام من حملات تشويه.

---

ولذلك فإن الكتاب — الذي استفدنا منه هذه النقول — هو الطبعة المختصرة من المشروع الأصلي للكتاب. ونحب أن ننبه هنا إلى أننا سنذكر في الهوامش المصادر الأصلية التي ذكرت فيها تلك النقول ثقة منا بالذي جمعها، وقد أشرنا إلى هذا هنا حتى لا تضطر كل مرة إلى الإعاز إليه.

## ١ - أصدقاء من العرب

كان أول ما رأيته في هذا الفصل عنوان (أصدقاء من العرب)، فسألت البابا قاتالا: من تقصد بأصدقاء الإسلام من العرب؟

قال: رجال من أهل الكتاب، ولدوا في أرض العرب، وعاشوا بين المسلمين.

قلت: ألا تعتبر شهادة هؤلاء مرفوضة عند غير المسلمين؟

قال: لا.. بل هذه الشهادات أشرف الشهادات، لأنها جاءت من قوم معاشين للمسلمين، وبالتالي تكون أحكامهم في منتهى الوثوق والدقة.

قلت: صدقت.. فأعظم ما يدل على تسامح المسلمين هو وجود أهل الكتاب بينهم من قديم العصور.. فهم بذواتهم وبيوتهم وممتلكاتهم من أعظم الشهادات على مصداقية الإسلام ورفيقه.

قال: ولهذا أوصى رسول الله ﷺ بأهل الذمة.. ويمثل ذلك أوصى من بعده.

### د. فيليب حتي:

كان (د. فيليب حتي) <sup>١</sup> هو أول الأسماء المثبتة في قائمة العرب، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل فاضل من مسيحي لبنان، وقد درس في كبريات جامعات العالم، وله مصنفات ترتبط بالإسلام.

قلت: فهل ستذكر لي بعض شهاداته؟

قال: شهادته كثيرة.. وسأذكر لك منها ما تقر به عينك.

كنا في لبنان، وكان الجمع يتحدث عن اللغة العربية وأساليبها وجمالها، وفجأة نطق د. فيليب حتي يقول <sup>٢</sup>: (إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلد. وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى) <sup>٣</sup>

ثم أضاف يقول: (إن إعجاز القرآن لم يحل دون أن يكون أثره ظاهراً على الأدب العربي. أما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التي نقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والإنجيل وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة

---

(١) د. فيليب حتي P. Hitti ولد عام ١٨٨٦م، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت (١٩٠٨م)، ونال الدكتوراه من جامعة كولومبيا (١٩١٥م)، وعين معيداً في قسمها الشرقي (١٩١٥-١٩١٩)، وأستاذاً لتاريخ العربي في الجامعة الأمريكية ببيروت (١٩١٩-١٩٢٥)، وأستاذاً مساعداً للآداب السامية في جامع برنستون (١٩٢٦-١٩٢٩م)، وأستاذاً ثم أستاذ كرسي ثم رئيساً لقسم اللغات والآداب الشرقية (١٩٢٩-١٩٥٤م)، حين أحيل على التقاعد، أنتخب عضواً في جمعيات ومجامع عديدة.

من آثاره: (أصول الدولة الإسلامية) (١٩١٦م)، (تاريخ العرب) (١٩٢٧م)، (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين) (١٩٥١م)، (لبنان في التاريخ) (١٩٦١م)، وغيرها.

(٢) الشهادات المذكورة في هذا الفصل هي الموضوعة فقط بين قوسين، وما عداها تصرف من المؤلف ليقرب المعنى، وترتبط الشهادة بأحداث الرواية.

(٣) الإسلام منهج حياة، ص ٦٢.

الإنكليزية ضئيل، بالإضافة إلى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية. إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصالحها من أن تتمزق لهجات)<sup>١</sup>

وهو يعتبر القرآن الكريم السبب المباشر الذي حفظ اللغة العربية، وحفظ الأمة الإسلامية، فقال: (إن اللغة العربية هي لغة القرآن التي كانت الأساس الذي قامت عليه أمة جديدة أخرجت للناس، أمة جاءت بها بعثة محمد من قبائل متنافرة متنازعة لم يقدّر لها من قبل أن تجتمع على رأي واحد. وهكذا استطاع رسول الإسلام أن يضيف حدًا جديدًا (رابعًا) إلى المأثرة الحضارية ذات الحدود الثلاثة من الدين والدولة والثقافة، ذلك الحد الرابع الجديد كان (إيجاد أمة ذات لغة فوق اللغات)<sup>٢</sup>

وفي مناسبة أخرى كان الحديث فيها عن العلاقات الاجتماعية قال: (إن إقامة الأخوة في الإسلام مكان العصية الجاهلية (القائمة على الدم والقرباة) للبناء الاجتماعي كان في الحقيقة عملاً جريئاً جديداً قام به النبي العربي)<sup>٣</sup>

وفي مناسبة أخرى تحدث ناقدا الذين يستعملون أساليب مشبوهة في تحليل شخصية رسول الله ﷺ، فقال: (في الكتاب المعاصرين لنا نفرٌ يحاولون أن يكتشفوا الأعمال الباهرة (التي حققها محمد) أو أن يعالجوا حياته الزوجية على أساس من التحليل النفسي، فلا يزيدون على أن يضيفوا إلى أوجه التحامل وإلى الآراء الهوائية أحكاماً من زيف العلم)<sup>٤</sup>

وقد أرشد إلى النظر إلى الرجوع إلى القرآن الكريم للتعرف من خلاله على رسول الله ﷺ، فقالك (صفات محمد مثبتة في القرآن بدقة بالغة فوق ما نجد في كل مصدر آخر. إن المعارك التي خاضها والأحكام التي أبرمها والأعمال التي قام بها لا تترك مجالاً للريب في الشخصية القوية والإيمان الوطيد والإخلاص البالغ وغير ذلك من الصفات التي خلقت الرجال القادة في التاريخ. ومع أنه كان في دور من أدوار حياته يتيمًا فقيرًا، فقد كان في قلبه دائماً سعة لمؤاساة المحرومين في الحياة)<sup>٥</sup>

وهو يثني ثناء عطرًا على رسول الله ﷺ فيقول لمن سأله عن تقييمه للدور الذي قام به رسول الله ﷺ: (إذا نحن نظرنا إلى محمد من خلال الأعمال التي حققها، فإن محمدًا الرجل والمعلم والخطيب ورجل الدولة والمجاهد يبدو لنا بكل وضوح واحدًا من أقدر الرجال في جميع أحقاب التاريخ. لقد نشر دينًا هو الإسلام، وأسس دولة هي الخلافة، ووضع أساس حضارة هي الحضارة العربية الإسلامية، وأقام أمة هي الأمة العربية. وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالة في حياة الملايين من البشر)<sup>٦</sup>

وهو يثني على الإسلام ثناء عطرًا، بل يعتبره منهج حياة، فيقول: (الإسلام منهج حياة. وهو — بهذا النظر

(١) الإسلام منهج حياة، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) الإسلام منهج حياة، ص ١٩ - ٢٠.

(٣) الإسلام منهج حياة، ص ٥١.

(٤) الإسلام منهج حياة، ص ٥٤.

(٥) الإسلام منهج حياة، ص ٥٤.

(٦) الإسلام منهج حياة، ص ٥٦.

— يتألف من ثلاثة جوانب أساسية، الجانب الديني والجانب السياسي والجانب الثقافي. هذه الجوانب الثلاثة تتشابه وتتفاعل، وربما انقلب بعضها إلى بعض مرة بعد مرة من غير أن نلاحظ ذلك<sup>١</sup> وهو يتحدث عن انتشار الإسلام. مؤسساته المختلفة محافظاً على أصالته، فيقول: (الإسلام — بما هو دولة — وحدة سياسية تضمّ مجموعاً من المؤسسات القائمة على الشريعة، على المبادئ القرآنية، أنشأها محمد في المدينة، ثم تطورت في أيام خلفائه على أنقاض الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) ثم بلغت هذه الدولة الإسلامية ذروة لم تبلغ إليها دولة في العصور الوسطى، ولا في العصور القديمة)<sup>٢</sup> وذات مرة سمعته مع بعض القسس ستحدث عن المقارنة بين المسيح ومحمد، وكان من ضمن أقواله هذه الشهادة: (لا سبيل إلى الموازنة بين محمد رسول الإسلام وبين عيسى مؤسس النصرانية (في رأي النصارى). إن محمداً لم يكن فيه صفة ذاتية غير طبيعية ولا جاء مسيطراً على البشر بقوة خارقة، ولكنه كان مبلغاً لرسالة ربه. ويجب أن نذكر أن هذا الرأي هو الرأي الشرعي العلمي في الإسلام.. من أجل هذا كله نجد المسلمين يأبون أن يسموا (محمديين) بالمعنى الذي يسمى به النصارى (مسيحيين)، وهؤلاء المستشرقون المتأخرون الذين لا يزالون يطلقون هذه التسمية غير المقبولة (الخاطئة) على المسلمين إطلاقاً هيئاً يجب أن يعلموا أنه لا يحق لهم أن يسموا أمة باسم لا تحبه. إن المسلم، في اللغة، هو الذي (أسلم نفسه لله) (خضع لإرادة الله)، فالإسلام — من أجل ذلك — ليس ديناً محمدياً ولكنه دين التسليم بإرادة الله)<sup>٣</sup>

وفي مناسبة أخرى جرى الحديث فيها عن مزايا الشريعة الإسلامية، قال: (الشريعة [الإسلامية] لا تفرّق بين ما هو ديني وبين ما هو دنيوي. إنها تنص على صلوات الإنسان بالله وعلى واجباته نحو الله وتنظّمها كما تفعل في شأن صلوات الإنسان بأخيه الإنسان. وجميع أوامر الله ونواهيه — فيما يتعلق بالأمور الدينية والمدنية وسواها — مثبتة في القرآن. وفي القرآن ستة آلاف آية أو تزيد تتعلق نحو ألف آية منها بالتشريع)<sup>٤</sup> وفي مناسبة أخرى جرى فيها الحديث عن مدى أصالة الفقه الإسلامي قال: (الفقه يمكن أن ينظر إليه على أنه علم إسلامي خالص. وهو — بخلاف عدد كبير من العلوم كالرياضيات والطب والفلسفة — كله نتاج البيئة الإسلامية نفسها. ثم إننا لا نكاد نلاحظ في تطوره أثراً من الفكر الهندي الإيراني أو الفكر الهندي الأوروبي. ومؤسس علم الفقه في الإسلام لم يلتفت إلى الاستعانة بالقانون الروماني ولا بالفلسفة اليونانية)<sup>٥</sup> وفي مناسبة أخرى كان الحديث فيها عن الفتوحات الإسلامية وصلتها بالاستعمار سمعت منه هذه الشهادات: (إن المدهش حقاً أن دولة تدعو إلى دين غريب تظهر في شبه جزيرة العرب التي كانت مغمورة في التاريخ، استطاعت أن تجرد إحدى الإمبراطوريات العالميتين من أعنى مقاطعاتها في آسيا وأفريقيا، وأن تقضي على الأخرى، قضاء مبرماً، في مدى عشر سنين.. أما كيف اتفق هذا الحدث المذهل ولماذا اتفق، فذلك لأن

- 
- (١) الإسلام منهج حياة، ص ٩.
  - (٢) الإسلام منهج حياة، ص ١٠.
  - (٣) الإسلام منهج حياة، ص ٥٣.
  - (٤) الإسلام منهج حياة، ص ٩٥ - ٩٦.
  - (٥) الإسلام منهج حياة، ص ١٠٠ - ١٠١.

وراءه قصة من أروع القصص في العصور الوسطى كلها)<sup>١</sup>

(إن أبرز ما يلفت النظر في الفتوح العربية ليس تلك السرعة وذلك النظام اللذين تمت بهما - بغير دمار لا مبرر له إلا قليلاً - ولكن تلك السهولة التي انتقلت بها البلاد المفتوحة من حال الحرب إلى حال السلم، ومن التغلب إلى الإدارة)<sup>٢</sup>

(لقد ساعد فتح البلاد الإسلامية ودخول عدد كبير من سكان البلاد المفتوحة في الإسلام على ازدهار العلم وزيادة ثقافته. وقد امتازت هذه الثقافة بأنها ظلت منذ أواسط القرن الثامن للميلاد (الثالث الأول من القرن الثاني للهجرة) إلى آخر القرن الثاني عشر للميلاد (وآخر القرن السادس للهجرة) لا تدانيه ثقافة أخرى في الازدهار ولا يفوقه في النتاج الأدبي والعلمي والفلسفي نتاج آخر)<sup>٣</sup>

وفي مناسبة أخرى جرى الحديث فيها عن الحضارة الإسلامية، قال: (إن فترة النقل تلك (في العصر العباسي) قد استمرت نحو قرن من الزمن وانتهت في نحو عام ٨٥٠ للميلاد (٢٣٦هـ). ولكن تبعها دور من الابتكار، دور عبر فيه العرب عن فكرهم الأصيل وازدهر في بغداد ثم امتد قرنين كاملين. وكثر الابتكار في عدد من ميادين المعرفة كعلم الكلام والفقه وفقه اللغة والبحوث اللغوية الأخرى والفلسفة والطب والعلوم الطبيعية. ذلك كان دوراً لا مثيل له في جميع أدوار التاريخ العربي. بل أن بإمكاننا أن نقول أكثر من ذلك: أننا على ثقة من أن العلماء الذين برعوا في الرياضيات والفلك، والأطباء من الذين عاشوا في بغداد في القرنين التاسع والعاشر للميلاد (الثالث والرابع للهجرة) لم يكن لهم مثيل (يومذاك) في قارتي أوروبا وآسيا. لقد جعل هؤلاء من مدينتهم عاصمة للعلم في العالم، كما كانت (من قبل) أثينا عاصمة الفلسفة ورومية عاصمة التشريع والقدس عاصمة الأديان.. وخلقوا حضارة ذات هبات غنية يغلب فيها عنصر الابتكار، وأقاموا في الإسلام عصرًا ذهبيًا (في العلوم الكونية)<sup>٤</sup>

وقال: (لم يدرك العرب وجود المعارف العلمية إلا بعد أن جاءهم الإسلام وبعد أن احتكوا بأهل الثقافات القديمة. أن الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام هي التي أدت إلى هذا الاحتكاك الحيوي للعرب بالتراث الثقافي النفيس الذي خلفه اليونان والفرس والمصريون القدماء.. لقد كان من أفضال [العرب] أنهم شجعوا كل جماعة من رعاياهم على أن تحافظ على تراثها القومي وعلى أن توسعه ما دام هذا التراث ليس مخالفاً للإسلام)<sup>٥</sup>

وقال: (فيما كان بناء المساجد ينتشر شرقاً حتى بلغ الصين وغرباً حتى وصل إلى الأندلس كان نمط البناء يتأثر بعناصر محلية من غير أن تتبدل خطته الأساسية تبديلاً يذكر. وبما كان المسجد مكاناً للعبادة فإن بناءه عموماً ظل على بساطة وجلال. ومع أنه استعار من أنماط البناء الأخرى فإنه ظل معبراً عن الإسلام تعبيراً

(١) الإسلام منهج حياة، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) الإسلام منهج حياة، ص ١٦٢.

(٣) الإسلام منهج حياة، ص ١٠ - ١١.

(٤) الإسلام منهج حياة، ص ١٨٩.

(٥) الإسلام منهج حياة، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

عظيماً. وأما في أثناء تطوره في التاريخ، من ناحية العمارة، فإنه كان صورة مصغرة لتطور الثقافة الإسلامية: تلك الثقافة التي كان المسجد تعبيراً صحيحاً عنها - فيما يتعلق بالأمم المختلفة وبأعراق البشر المختلفة - إذ هو يمثل بصورة ملموسة ذلك التفاعل بين الإسلام وبين جيرانه. والمؤمن ذو الاتجاه الروحي، على كل حال، لا يقلقه ذلك التطور. أنه ما يكاد يدخل الصحن الذي ينكشف للسماء والذي تحيط به الأروقة حتى يجد في نفسه ميلاً شديداً إلى الانعتاق من البيئة المادية التي حوله ثم نزوعاً، في الوقت نفسه، إلى السّموّ نحو المآل الأعلى. وهذه المتذنة الطويلة الرشيقة فإنها أشبه بالإصبع التي تنتصب مشيرة إلى السماء وأما في جوف المسجد فإن القبة المتألّثة بالمصاييح تبدو وكأنها صورة منقولة عن قبة السماء. وكذلك الحراب المزخرف (بالأشكال والأغصان والمزين بالآيات الكريمة) فإنه يوجه القلب إلى مصدر الهدى والإيمان. والأعمدة التي تتوالى في صفوف لا تكاد العين أن ترى آخرها توحى بأنها لا تنتهي. وهؤلاء المصلون حولك (معاً أو فرادى، في كل مكان من المسجد) يولدون في النفس شعوراً بمشاركة في أخوة تسع العالم كله<sup>١</sup>

(أنه جاء يوم بلغت فيه الثقافة الإسلامية درجة من السّموّ والتقدم لم يقابلها فيها غيرها من الثقافات الهندية والصينية في الشرق أو اليونانية واللاتينية في الغرب. والذي نعنيه بالثقافة الإسلامية تلك المجموعة من العلوم والفنون والفلسفات التي نشأت في ظل الإسلام.. تمتعت هذه الثقافة بعصرها الذهبي من منتصف القرن الثامن للميلاد إلى مطلع القرن الثالث عشر يوم كانت اللغة العربية أداة التعبير عنها، ويوم كانت الشعوب العربية اللسان - وبينهم السوري والعراقي والمصري والفارسي والتركي وغيرهم - في مقدمة مشعل الحضارة في العالم قاطبة، وجاء عدد المؤلفات في هذه اللغة في تلك الحقبة، المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والفلكية والجغرافية والرياضية واللغوية، أكثر من عددها بأي لغة أخرى من آسيوية أو أوروبية. والغريب في أمر العربية التي كانت إلى أواسط القرن الثامن لغة شعر ودين فحسب، أنها في خلال قرن واحد تطورت وتقدمت إلى أن أصبحت أداة صالحة لنقل دقائق الفلسفة وحقائق العلوم ومصطلحات الفنون. وربما لم يكن من مثيل لهذه الظاهرة الغربية في تاريخ نشوء اللغات وبفضل جهود أبناء هذه اللغة.. تسنى لعلوم الأقدمين، من هنود وساميين ويونان ولاتين، مضافاً إليها ما ابتكره هؤلاء الأبناء، على اختلاف عناصرهم القومية، أن تنتهي بعد أجيال عديدة إلى غربي أوروبا، وذلك عن طريق سورية الصليبية وصقلية وإسبانيا المسلمتين، فتصبح أساس العرفان الذي دان له الفكر الأوروبي في القرون الوسطى، ورائد السبل لنشوء النهضة الحديثة في أوروبا الغربية التي لا يزال إلى اليوم أبناء أوروبا وأمريكا ينعمون ببركاتهما فبينما كان الأوروبي يتخبط في دجور العصور - التي أطلقوا عليها بحق العصور المظلمة - كان كتبة العربية - وهم يومئذ يشملون معظم المجتمع الإسلامي - يرتعون في عصرهم العلمي الذهبي<sup>٢</sup>

(١) الإسلام منهج حياة، ص ٣٠٦ - ٣٠٨، ونحب أن ننبه هنا إلى أن هذا المستشرق كسائر المستشرقين وقع في بعض الأوهام.. وقد كتب الباحثون في الرد على تلك الأوهام، انظر كتاب عبد الكريم علي باز، افتراءات فيليب حتي و كار بروكلمان على التاريخ الإسلامي. (جدة: تهامة للنشر، ١٤٠٣-١٩٨٣)

(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، جمع وتقديم، محمد خلف الله، ص ٥٥٠-٥٥١.

## د. جورج حنا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (د. جورج حنا)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مسيحيي لبنان، وهو صاحب الكتاب المعروف (قصة الإنسان).. وقد سمعت له بعض الشهادات، منها قوله: (إنه لا بد من الإقرار بأن القرآن، فضلاً عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضاً كتاب لغة عربية فصحي. ولغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة، في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين. وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابية لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن متراً ولا تحتمل التخطئة، فالمسيحيون يعتبرون أيضاً هذه الصوابية، بقطع النظر عن كونه متراً أو موضوعاً، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة)<sup>٢</sup>

ومنها قوله: (كان محمد يخرج من سويغات [لقائه مع جبريل] بأيات تنطق بالحكمة، داعياً قومه إلى الرجوع عن غيهم، والإيمان بالإله الواحد الكليّ القدرة، صاباً النعمة على الآلهة الصنمية، التي كان القوم يعبدونها فكان طبيعياً أن يحقد عليه أشرف العرب ويضمروا له الشر، لما كان في دعوته من خطر على زعامتهم، وهي ما كانت قائمة إلا على التعبد للأصنام التي جاء هذا الرجل يدعو إلى تحطيمها. لكن محمداً لم يكن يهادن في بث دعوته، ولم يكن يسكت عن اضطهاد أشرف قريش له، بل كان يتحداهم، فيزدادون حقداً عليه وتأمراً على حياته. فلم تلبث دعوته حتى تحولت من دعوة سلمية إلى دعوة نضالية. إنه لم يرض بأن يحول خده الأيسر لمن يضربه على خده الأيمن.. بل مشى في طريقه غير هيّاب، في يده الواحدة رسالة هداية، يهدي بها من سالموه، وفي يده الثانية سيف يجارب به من يجاربه. لقد آمن به نفر قليل في بداية الدعوة، وكان نصيب هذا نفر مثل نصيبه من الاضطهاد والتكفير.. كان هؤلاء باكورة الديانة الإسلامية، والشعلة التي انطلقت منها رسالة محمد)<sup>٣</sup>

ومنها قوله: (كان محمد في المدينة أكثر اطمئناناً على نفسه وعلى أتباعه ورسالته مما كان في مكة.. كانت يثرب مدينة العامة التابعة، لا مدينة الخاصة المتبوعة. والعامة دائماً أقرب إلى اقتباس كلمة الحق من الخاصة، لا سيما إذا كانت كلمة الحق هذه، تحررها من عبوديتها للخاصة)<sup>٤</sup>

ومنها قوله: (محمد بن عبد الله كان ثائراً، عندما أبي أن يماشي أهل الصحراء في عبادة الأصنام وفي عاداتهم الهمجية وفي مجتمعهم البربري. فأضرمها حرباً لا هوادة فيها على جاهلية المشركين وأسيادهم وأهنتهم. فكفره قومه واضطهدوه وأضمرؤا له الموت. فهاجر تحت جناح الليل مع نفر من أتباعه، وما تخلى عن النضال في نشر دعوته، وما أحجم عن تجريد السيف من أجلها. فأخرج من جاهلية الصحراء عقيدة دينية واجتماعية تجمع بين

(١) الدكتور جورج حنا (G. Hanna) مسيحي من لبنان، من كتبه (قصة الإنسان).

(٢) قصة الإنسان، ص ٧٩ - ٨٠.

(٣) قصة الإنسان، ص ٧٦.

(٤) قصة الإنسان، ص ٧٧.

مئات الملايين من البشر في أقطار المعمورة)<sup>١</sup>

ومن شهادته العظمى التي يحترم عليها شهادته على مدى تسامح المسلمين مع جيرانهم المسيحيين، فيقول: (أن المسلمين العرب لم يعرف عنهم القسوة والجور في معاملتهم للمسيحيين بل كانوا يتركون لأهل الكتاب حرية العبادة وممارسة طقوسهم الدينية، مكتفين بأخذ الجزية منهم)<sup>٢</sup>

وقال: (لم يرو المؤرخون المسيحيون أنفسهم مثل هذه الوحشية [التي مارسها الصليبيون] على المسلمين. لم يكن هؤلاء وحشيين في معاملة الأسرى الأهلين المسيحيين. فإذا انتصروا كانوا يكتفون بضرب الجزية على أعدائهم ولا يفظعون بهم. بعد معركة طبرية التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على خصمه الملك (غي ده لوسينيان).. عف صلاح الدين عن التفتيح بالأسرى الذين نجوا من الموت المريع أثناء المعركة، وجردهم من السلاح وضرب عليهم الجزية وأطلق سراحهم مع قائدهم الملك (غي). وليست هذه الحادثة وحدها هي الدليل على الفرق الكبير بين معاملة الغزاة لأعدائهم، وبين معاملة أعدائهم.. هي واحدة من المئات التي جاءت في كتب التاريخ عن الحروب الصليبية ومعظمها من تأليف المؤرخين المسيحيين من الفرنج بالذات)<sup>٣</sup>

ومن شهادته شهادته بعظم الحضارة الإسلامية، وفضلها على البشرية، يقول: (لم تنحصر الفتوحات العربية في الناحية العسكرية فقط، بل تعدتها إلى الناحية الثقافية. لقد كان في العرب علماء وفلاسفة وحكماء، درسوا الفلسفة اليونانية وعلومها ونبشوا منها ما كان الحكم الروماني قد أقفل عليه الأبواب. فكان للعلماء والفلاسفة العرب الفضل في إعادة الثقافة اليونانية إلى رونقها. فعندما كانت السلطات الغربية في القرون الوسطى المظلمة، في خضوعها المطلق للكنيسة الرومانية، تنصاع، مسيرة أو مخيرة لأحكامها، وتنفذ إرادة الكنيسة دونما بحث أو جدل، وعندما كانت محاكم التفتيش تحكم بالموت والإحراق والتشريد على كل من نازع السلطة البابوية تعاليمها وعقائدها. وعندما كان الجهل مخيمًا على ربوع وحياة الغرب، كان علماء العرب يبحثون عن المعرفة أينما وجدت. وكان خلفاء العرب يسهلون هؤلاء العلماء مهماتهم، ويقدمون لهم المساعدات. فعكف الباحثون على إخراج العلوم اليونانية من مدفنها ونقولها إلى العربية، وزادوا عليها من اختراقاتهم ونظرياتهم ومشاهداتهم، ووضعوا كتبًا قيمة في الفلسفة والطب والجبر والكيمياء والرياضيات والفلك، وقام منهم رحالون إلى بلاد المغرب والشرق، ودرسوا اللغات المنتشرة فيها وترجموا من كتبها ما لا يزال إلى يومنا هذا يدرس للطلاب)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن الدور الكبير الذي قام به العرب في حفظ التراث الإنساني وتهديته، فيقول: (لولا العرب لبقيت الثقافة اليونانية مطموسة، ولما أخرجت هذه الثقافة من مدفنها الذي زجها فيها الرومانيون.. فما إن أخذت الإمبراطورية الرومانية في الانحلال حتى عادت الثقافة اليونانية إلى الظهور مرة ثانية، ولم يكن ظهورها

(١) قصة الإنسان، ص ٢٥٢.

(٢) انظر الشبهات المرتبطة بالجزية في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) من هذه السلسلة، وغيرها من الرسائل.

(٣) قصة الإنسان، ص ٨٩ - ٩٠.

(٤) قصة الإنسان، ص ٩٢ - ٩٣.

(٥) قصة الإنسان، ص ٨١.



في الغرب بل في الشرق.. وإذا كان النسطوريون هم الذين كشفوا عنها الغطاء فالعرب هم الذين نشروها في الشرق ثم بعثوها إلى الغرب)<sup>١</sup>

ويتحدث عن العصور الزاهرة التي مر بها العرب في ظل الإسلام، فيقول: (إن الحقبة التاريخية الواقعة بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر [الميلادي] هي بحق عصر العرب الذهبي. ففي هذه الحقبة كان العرب حاملي مشعل الثقافة الوحيديين. وعلى الرغم من أن فتوحات العرب العسكرية نحو الغرب، لم تمتد إلى أكثر من مائة سنة، وانتهت بهزيمتهم في موقعة (بواتيه) على يد شارل مارتل فإن التوسع الثقافي العربي استمر في امتداده نحو الغرب، وبقي الفكر العربي يصدر إنتاجه الخصب من الأندلس وشواطئ أفريقيا إلى سواحل أوروبا الجنوبية، ومن هناك يغزو أوروبا كلها، ويضع أساساً لنهضتها)<sup>٢</sup>

وهو يرد على المكابرين المتكبرين الذين أرادوا أن يلغوا الحضارة الإسلامية ودورها العظيم في حياة البشرية، فيقول: (لا يسعنا إلا أن نسجل استغرابنا مما يدّعيه بعض المكابرين، الذين ينكرون قيام حضارة عربية في التاريخ، فإذا كانت البحوث العلمية والفلسفية والثقافية مضافاً إليها الأعمال الفنية، وما تنطوي عليه كل هذه الشؤون من قيم، لا تشكل حضارة ذات شأن، فماذا تكون إذن الدعائم التي تقوم عليها الحضارات؟ صحيح أن العرب نقلوا عن اليونان والفرس والهنود والرومان، ولكن هل ينكر عليهم ما رادوه على ذلك باكتشافاتهم في الطب والكيمياء والجبر والفلك والرياضيات، وفي الفن أيضاً؟ وهل من الإنصاف أن ينكر على فلاسفتهم وحكمائهم، نظرياتهم في الاجتماع والاقتصاد والإدارة؟ ثم ماذا يضير العرب إذا كانوا نبشوا ما كان دفيناً من فلسفة اليونان وحضارتهم وأظهروه إلى النور؟ إن من يطالع الكتب الغربية التي أنتجها عصر النهضة، يجد فيها أثر علماء العرب واضحاً فما جاء به (مونتسكيو) و(باكون) وعلماء الاجتماع في القرن السادس عشر والسابع عشر، تجده، أو تجد له تمهيداً على الأقل، في مقدمة ابن خلدون، هذه المقدمة التي لم تترك حقلاً من حقول البحث الاجتماعي إلا وطرقته، حتى شهد علماء الغرب أنفسهم أنها أعظم مؤلف علمي واجتماعي. وكتب الفلك الغربية محشوة بالكلمات العربية التي لم يجد علماء الفلك الغربيون بدءاً من تبنيها.. والأرقام الغربية ليست إلا أرقاماً عربية. كل هذا إنما يدل على مدى اقتباس العلوم الغربية من العلوم العربية. إن ما تحويه المؤلفات العلمية والفلسفية الغربية من أمثال هذه الشواهد لدليل على أن النضج الفكري والعلمي الذي نقرأ عنه في عصر النهضة الغربية وبعدها، إنما كان متأثراً إلى حد بعيد بالنضج الفكري والعلمي عند العرب، بل كان مؤسساً عليه ومقتبساً منه)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن جسر من الجسور المهمة التي انتقلت بها الحضارة الإسلامية للغرب، فيقول: (لقد دهش الصليبيون من التقدم العلمي والفكري في الشرق. فكانوا عندما يعودون إلى بلادهم، يروون لمواطنيهم الروايات المختلفة عنه، ويشوقونهم للاقتداء بالنهضة الفكرية فيه.. وعندما عاد الإمبراطور [النورماني] فردريك الثاني إلى

(١) قصة الإنسان، ص ٨٣.

(٢) قصة الإنسان، ص ٨٤.

(٣) قصة الإنسان، ص ٨٦ - ٨٧.

بلاده، أسس جامعة نابولي وجامعة ساليرنو الطبية، واعتمد في هاتين الجامعتين الدروس التي وضعها ابن سينا والرازي وابن رشد وابن خلدون وسائر أقطاب العلم والفلسفة العرب.. وهو الذي أدخل الأرقام العربية وعلم الجبر إلى أوروبا. إن جامعتي نابولي وساليرنو كانتا النافذة الأولى التي تسربت منها النهضة الفكرية إلى أوروبا، ووضعت أساساً للنهضة الفكرية فيها، في العهد الذي عرف بعهد الانبعاث<sup>١</sup>

### نصري سلهب:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (نصري سلهب)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مسيحي من لبنان، يتميز بنظرته الموضوعية وتحريه للحقيقة المجردة، كما عرف بنشاطه الدؤوب لتحقيق التعايش السلمي بين الإسلام والمسيحية في لبنان، سواء على مستوى الفكر أو على مستوى الواقع. وعبر الستينات كتب العديد من الفصول، وألقى العديد من المحاضرات في المناسبات الإسلامية والمسيحية على السواء، متوخياً هذا الهدف.

وقد التقيت به في بعض تلك المناسبات، وكان من شهادته فيها قوله: (إن الآية التي أستطيب ذكرها هي التي تنبع سماحاً إذ تقول: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهِنَّ وَاللَّهُمَّ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦) ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمنون به لأنه كلام الله إليهم. إنها لعبارات يجدر بنا جميعاً، مسيحيين ومسلمين، أن نردها كل يوم، فهي حجارة الأساس في بناء نريده أن يتعالى حتى السماء، لأنه البناء الذي فيه نلتقي والذي فيه نلقى الله: فحيث تكون المحبة يكون الله. والواقع أن القرآن يذكر صراحة أن الكتب المتزلة واحدة، وأن أصلها عند الله، وهذا الأصل يدعى حيناً (أم الكتاب) وحيناً آخر (اللوح المحفوظ) أو (الإمام المبين)<sup>٣</sup>

وعير عن إعجابه الشديد برسول الله ﷺ، فقال: (إن محمداً كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب. فإذا بهذا الأمي يهدي إلى الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حملت به الإنسانية منذ كانت الإنسانية، ذاك كان القرآن الكريم، الكتاب الذي أنزله الله على رسوله هدى للمتقين)<sup>٤</sup>

وقال: (في مكة.. أبصر النور طفل لم يمرّ ببال أمة، ساعة ولادته، أنه سيكون أحمد أعظم الرجال في العالم بل في التاريخ، ولربما أعظمهم إطلاقاً)<sup>٥</sup>

وقال: (هنا عظمة محمد. لقد استطاع، خلال تلك الحقبة القصيرة من الزمن، أن يحدث شريعة خلقية وروحية واجتماعية لم يستطعها أحد في التاريخ بمثل تلك السرعة المذهلة)<sup>٦</sup>

وقال: (هذا الرجل الذي ما عرف الهدوء ولا الراحة ولا الاستقرار، استطاع وسط ذلك الخضم الهائج،

(١) قصة الإنسان، ص ٩٦.

(٢) من مؤلفاته: (لقاء المسيحية والإسلام) (١٩٧٠)، و(في خطي محمد) (١٩٧٠).

(٣) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٢٢.

(٤) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٢٢.

(٥) في خطي محمد، ص ٤٢.

(٦) في خطي محمد، ص ١٩٦.

أن يرسى قواعد دولة، وأن يشرّع قوانين ويسنّ أنظمة، ويجود بالتفسير والاجتهادات.. ولم ينس أنه أب وجد لأولاد وأحفاد، فلم يجرمهم عطفه وحنانه، فكان بشخصيته الفذة الغنية بالقيم والمعطيات والمؤهلات، المتعددة الأبعاد والجوانب، الفريدة بما أسبغ الله عليها من نعم وصفات، وبما جباها من إمكانات، كان بذلك كله، عالماً قائماً بنفسه<sup>١</sup>

وقال: (تراثك يا ابن عبد الله ينبغي أن يُحيا، لا في النفوس والقلوب فحسب، بل في واقع الحياة، في ما يعاني البشر من أزمات وما يعترضهم من عقبات. تراثك مدرسة يلقي على منابرها كل يوم عظة ودرس. كل سؤال له عندك جواب. كل مشكلة مهما استعصت وتعقدت، نجد لها في آثارك حلاً)<sup>٢</sup>

وقال: (لم يكن النبي رسولاً وحسب، يهدي الناس إلى الإيمان، إنما كان زعيماً وقائد شعب، فعزم على أن يجعل من ذلك الشعب خير أمة أخرجت للناس. وكان له ما أراد)<sup>٣</sup>

وتحدث عن القيم النبيلة التي يمتلكها الإسلام، فقال: (الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من البلاغة. ولكن قلمنا بحاجة إلى الإسلام، إلى ما ينطوي عليه من ثروة روحية وأخلاقية، إلى قرآنه الرائع الذي بوسعنا أن نتعلم منه الكثير)<sup>٤</sup>

وقال: (انطلاقاً من وجوب قول الحقيقة، أرى لزماً عليّ أن أعلن أننا - نحن المسيحيين بصورة عامة - نجهل الإسلام كل الجهل، ديناً وحضارة)<sup>٥</sup>

وقال: (ليس كالإسلام دين يكرم الأنبياء والرسل الذين سبقوا النبي العربي، وهو يفرض على المؤمنين به إكرام هؤلاء والإيمان بهم، وليس كالإسلام دين يحترم الأديان الأخرى المترلة الموحى بها التي سبقته في التزول والوحي)<sup>٦</sup>

وقال: (الإسلام دين الأزمنة جميعها، وقد أعدّ لجميع الشعوب. فهو ليس للمسلمين فحسب، ولا لعرب الجزيرة الذين عايشوا النبي وعاصروه فحسب، وليس النبي نفسه نبي العرب والمسلمين فحسب، بل هو نبي كل مؤمن بالله واليوم الآخر والنبين والكتب المترلة)<sup>٧</sup>

وقال: (في الدين الإسلامي من الشمول والرحب ما يجعله يفتح ذراعيه لجميع البشر دون أن يؤثر في قوميتهم وولائهم لأمة إليها ينتسبون)<sup>٨</sup>

وتحدث عن القرآن وحفظ الله له، فقال: (لم يقدر لأي سفر، قبل الطباعة، أيًا كان نوعه وأهميته، أن

(١) في خطي محمد، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٢) في خطي محمد، ص ٣٩٦.

(٣) في خطي محمد، ص ٤٠٩.

(٤) لقاء المسيحية والإسلام، ص ١٢١.

(٥) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٢٠.

(٦) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٢٨.

(٧) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٤٠٣.

(٨) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٤٠٣.

يُحظَى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام، وأن يتوفر له ما تتوفر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب<sup>١</sup> وتحدث عن القيمة البلاغية للقرآن، فقال: (تلك اللغة التي أرادها الله قمة اللغات، كان القرآن قمته، فهو قمة القمم، ذلك بأنه كلام الله)<sup>٢</sup>

وتحدث عن قيمة العلم في الإسلام، فقال: (أولى الآيات البينات.. كانت تلك الدعوة الرائعة إلى المعرفة، إلى العلم عبر القراءة.. (اقرأ).. وقول الله هذا لم يكن لمحمد فحسب، بل لجميع الناس، ليوضح لهم، منذ الخطوة الأولى، بل منذ الكلمة الأولى أن الإسلام جاء يحو الجهل وينشر العلم والمعرفة)<sup>٣</sup> وكانت له أحاديث كثيرة في أسرار التسامح الذي تمتلئ به نفوس المسلمين نحو جيرانهم من المسيحيين، كان منها قوله: (إن المسيح وأمه والمسيحيين يحتلون في آيات القرآن الكريم منزلة فريدة وبالتالي في نفوس المسلمين وقلوبهم. ذلك أن المسلمين يحفظون كلام الله في كتابه ويؤمنون به كل الإيمان، وربما كانوا في إيمانهم العميق هذا أكثر تكريماً للمسيح ولأمه من بعض المسيحيين أنفسهم، وإذا كان التاريخ قد سجل في صفحاته نزاعات وحروباً مؤسفة وقعت بين مسيحيين ومسلمين، فليس من الختوم أن تكون الأسباب العميقة والخفية لتلك الحروب ذوات طابع ديني.. ومهما يكن من أمر فإن حروباً أخرى أوسع نطاقاً وأعمق أثراً وأكثر عدداً وأبلغ ضرراً قد وقعت مسيحيين ومسيحيين، وهي - كما لا نجعل - أفضع الحروب على إطلاقها وأكثرها هولاً)<sup>٤</sup>

ومنها قوله - وهو يقارن بين موقف عمر الخليفة، وموقف الصليبيين -: (خاضت المسيحية الحروب الصليبية ضد الإسلام لإنقاذ الأماكن المقدسة كما يحلو للمؤرخين أن يرددوا، والحروب الصليبية هذه كانت إحدى الأخطاء التاريخية العظمى.. فالأماكن المقدسة لم تكن في خطر ولم يحاول واحد من الحكام المسلمين أن يحوها أو أن يزيلها من الوجود. بل على العكس من ذلك فقد تجنب الخليفة عمر رضي الله عنه، في فجر الإسلام، الصلاة في كنيسة القيامة بغية الحفاظ على طابعها المسيحي. وكذلك فعل الآخرون، على مر الزمان)<sup>٥</sup> ويقول: (العهد العمرية التي منحها ابن الخطاب لأهل بيت المقدس هل تعدلها عهدة في التاريخ نبلاً وعدلاً وتسامحاً: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل القدس من أمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم لكنائسهم وصلبانهم.. لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم..). أي خاسر حرباً من حروب التاريخ حظي. يمثل هذه العهدة من غالب منتصر؟.. ويبقى المسلمون في الشرق، وفي فلسطين بالذات، ثلاثمائة سنة وألفاً، فلا يمس فيها للمسيحي أثر، بل تستمر الكنائس والأماكن المقدسة في حرمة ومنعة)<sup>٦</sup>

(١) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٣٣٧.

(٢) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٣٤٢.

(٣) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٩٢.

(٤) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٤١.

(٥) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٥٤.

(٦) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٣٣١.

ومن شهاداته المرتبطة بالحضارة الإسلامية قوله: (لابد من الإشارة إلى المداميك الكثيرة التي رصفها الإسلام في بناء الحضارة وبتعبير آخر إلى إسهام الإسلام في تراث البشرية الحضاري، في حقلتي الفكر والعلم. بمختلف فروعهما من فلسفة وشعر وموسيقى وطب وكيمياء وفيزياء ورياضيات وهندسة إلى آخر سلسلة معطيات وعناصر جعلت الإنسانية ترتفع إلى مستوى خليق بها وجعلتها تنعم بما تنعم به اليوم. إن ذلك ضروري.. لأن كثيرين من المسيحيين يجهلون مدى وأهمية إسهام الإسلام، كدين ودولة، في الحضارة.. وأن الغرب فيما ينعم به اليوم من أسباب الحضارة والرقى والتفوق مدين به لنفسه، أي للفكر الغربي دون سواه. وذلك خطأ كبير.. لأن الغرب مدين لهذا الشرق – وبتعبير آخر – أن المسيحية مدينة للإسلام بأشياء كثيرة مهمة، وأن الشرق اليوم ليس سوى دائن يستوفي دينه من مدين قديم.. تلك إرادة الله وسنة الوجود)<sup>١</sup>

ويقارن بين التقدم العلمي للمسلمين بالتخلف الذي كانت تعيشه أوروبا، فيقول: (فيما كان البيروني، في نهاية القرن العاشر الميلادي يضع مؤلفاته في علوم الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ والفلسفة، وينشئ النظريات العلمية ويقوم بالاختراعات، كانت أوروبا، مذعورة قلقاً، خائفة، تنتظر نهاية العالم في حلول العام الألف)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، فيقول: (متى ذكرنا أن عشرات الكلمات الفرنسية هي من أصل عربي صريح، بل تكاد تكون منقولة بحرفيتها، فيصبح باستطاعتنا أن ندرك تأثير الإسلام في الغرب.. وتلاحظ أن هذه الكلمات لها طابع علمي أو فكري، وهي، على كل حال، لم تنتقل إلى أوروبا كمجرد كلمات فقط بل كأسماء لمسميات انتقلت هي أيضاً معها)<sup>٣</sup>

وهو لا ينسى أن ينسب الحضارة الإسلامية إلى مصدرها الأكبر، وهو الدين. بمصادره الكبرى، فيقول: (أية قمة ثناء بلغ إليها العقل الإسلامي والعربي في حقبة من حقب تاريخه، بل من حقب التاريخ على إطلاقه؟ ذلك كله كان نتيجة طبيعية محتومة لما أوصى به القرآن الكريم.. ومحمد رسول الله إلى العالمين)<sup>٤</sup>

ويقول: (حضارة الإسلام – التي سيطرت على العالم مئات خمسين من السنين – كانت وليدة الإيمان، والإيمان وحده)<sup>٥</sup>

بعد أن أنهى البابا حديثه عن هذا الرجل الفاضل، قلت من غير شعور: لقد أسلمت شهادات هذا الرجل..

قال: صدقت.. فلا يقول مثل هذا إلا من امتأ قلبه بالإسلام.

**نظمي لوقا:**

- 
- (١) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٤٤.
  - (٢) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٥٠.
  - (٣) لقاء المسيحية والإسلام، ص ٥١٠٥٢.
  - (٤) في خطي محمد، ص ٤٦٩.
  - (٥) في خطي محمد، ص ٤٧٠.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (د. نظمي لوقا)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل فاضل من مسيحي من مصر، وهو يتميز بنظرته الموضوعية وإخلاصه العميق للحق. وقد كان — رغم إلحاح أبويه على تنشئته على المسيحية منذ كان صبياً — مقبلاً إقبالاً عظيماً على الإسلام، ولهذا كان كثيراً ما يحضر مجالس شيوخ المسلمين ويستمتع بشغف إلى كتاب الله وسيرة الرسول ﷺ، بل إنه حفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز العاشرة من عمره. وقد أُلّف — نتيجة هذا الاهتمام — عددًا من الكتب أبرزها (محمد: الرسالة والرسول)، و(محمد في حياته الخاصة)

وقد التقيت به.. ومن شهاداته — التي سمعتها منه — والمرتبطة بمحمد ﷺ قوله: (ما كان محمد كآحاد الناس في خلاله ومزاياه، وهو الذي اجتمعت له آلاء الرسل عليهم السلام، وهمة البطل، فكان حقاً على المنصف أن يكرم فيه المثل، ويحيي فيه الرجل)<sup>١</sup>

وقوله في الفرق بين نظرة المسلمين إلى رسول الله ﷺ ونظرة المسيحيين إلى المسيح: (لا تأليه ولا شبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية.. وقد درجت شعوب الأرض على تأليه الملوك والأبطال والأجداد، فكان الرسل أيضاً معرضين لمثل ذلك الربط بينهم وبين الألوهية بسبب من الأسباب، فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا في الرسول أو النبي أنه ليس بشراً كسائر البشر وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء. ولذا نجد تأكيد هذا التنبيه متواتراً مكرراً في آيات القرآن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ (الكهف: ١١٠)، وفي تخير كلمة (مثلكم) معنى مقصود به التسوية المطلقة، والحيلولة دون الارتفاع بفكرة النبوة أو الرسالة فوق مستوى البشرية بحال من الأحوال. بل نجد ما هو أصرح من هذا المعنى فيما جاء بسورة الشورى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى: ٤٨)، وظاهر في هذه الآية تعدد تنبيه الرسول نفسه إلى حقيقة مهمته، وحدود رسالته التي كلف بها، وليس له أن يعدوها، كما أنه ليس للناس أن يرفعوه فوقها)<sup>٢</sup>

ويتحدث بإعجاب شديد عن تواضع رسول الله ﷺ وعبوديته، فيقول: (رجل فرد هو لسان السماء. فوقه الله لا سواه. ومن تحته سائر عباد الله من المؤمنين. ولكن هذا الرجل يأبى أن يداخله من ذلك كبير. بل يشفق، بل يفرق من ذلك ويحشد نفسه كلها لحرب الزهو في سيرته، قبل أن يحاربه في سرائر تابعيه. ولو أن هذا الرسول بما أنعم من الهداية على الناس وما تم له من العزة والأيدى، وما استقام له من السلطان، اعتد بذلك كله واعتز، لما كان عليه جناح من أحد، لأنه إنما يعتد بقيمة ماثلة، ويعتز بمزية طائلة. يطريه أصحابه بالحق الذي يعلمون عنه، فيقول لهم: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله. ويخرج على جماعة من أصحابه فينهضون تعظيماً له، فينهاهم عن ذلك قائلاً: لا تقوموا كما يقوم

(١) محمد الرسالة والرسول، ص ٢٨.

(٢) محمد الرسالة والرسول، ص ٨٥ - ٨٦.

الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً<sup>١</sup>

ويتحدث عن نزاهة رسول الله ﷺ، وكونه فوق كل الشبهات التي يزعمها الزاعمون، فيقول: (ماذا بقي من مزعم لزاعم؟ إيمان امتحنه البلاء طويلاً قبل أن يفاء عليه بالنصر وما كان النصر متوقفاً أو شبه متوقع لذلك الداعي إلى الله في عاصمة الأوثان والأزلام.. ونزاهة ترتفع فوق المنافع، وسمو يتعفف عن بهارج الحياة، وسماحة لا يداخلها زهو أو استطالة بسلطان مطاع. لم يفد. ولم يورث آله، ولم يجعل لذريته وعشيرته ميزة من ميزات الدنيا ونعيمها وسلطانها. وحرّم على نفسه ما أحلّ لآحاد الناس من أتباعه، وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس في الجاهلية حتى جعل العبدان والأحاييش سواسية وملوك قريش. لم يمكن لنفسه ولا لذويه. وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة، فسوّى ذلك كله بالأرض أي قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذا المجد الشاهق أو تدافع هذا الصدق الصادق؟ لا خيرة في الأمر، ما نطق هذا الرسول عن الهوى.. وما ضلّ وما غوى.. وما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن الأثر العظيم الذي خلفه رسول الله ﷺ، فيقول: (أي الناس أولى بنفي الكيد عن سيرته من (أبي القاسم) الذي حول الملايين من عبادة الأصنام الموبقة إلى عبادة الله رب العالمين، ومن الضياع والانحلال إلى السموّ والإيمان، ولم يفد من جهاده لشخصه أو آله شيئاً مما يقتتل عليه طلاب الدنيا من زخارف الحطام؟)<sup>٣</sup> ويتحدث عن عظم شخصية رسول الله ﷺ، فيقول: (كان محمد يملك حيويته ولا تملكه حيويته. ويستخدم وظائفه ولا تستخدمه وظائفه. فهي قوة له تحسب في مزاياه، وليست ضعفاً يعد في نقائصه. لم يكن معطل النوازع ولكنها لم تكن نوازع تعصف به، لأنه يسخرها في كيانه في المستوى الذي يكرم به الإنسان حين يطلب ما هو جميل وجليل في الصورة الجميلة الجليلة التي لا تهدر من قدره بل تضاعف من تساميه وعفته وظهره. ويبيان ذلك في أمر بنائه بزوجاته التسع)<sup>٤</sup>

وفي مناسبة من المناسبة أساء فيها بعضهم الحديث عن الشريعة الإسلامية، وكان حاضراً، فغضب غضبا شديداً، وقال: (ما أرى شريعة أدمى للإنصاف، ولا أنفى للإجحاف والعصبية من شريعة تقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: من الآية ٨)، فأبي إنسان بعد هذا يكرم نفسه وهو يدينها بمبدأ دون هذا المبدأ، أو يأخذها بدين أقل منه تسامياً واستقامة؟)<sup>٥</sup>

وقال: (عقيدة الإسلام عقيدة واحدة بسيطة يقطع الإيمان بها الطريق على كل حيرة وخوف، ويبعث الطمأنينة في كل نفس. وباب هذه العقيدة مفتوح لكل إنسان، لا يصد عنها أحد بسبب جنسه أو لونه.. وهكذا يجد كل إنسان له مكاناً في ظل هذه العقيدة الإلهية على أساس من المساواة العادلة، التي لا تفاضل معها

(١) محمد الرسالة والرسول، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) محمد الرسالة والرسول، ص ١٨٣ - ١٨٦.

(٣) محمد في حياته الخاصة، ص ١٢.

(٤) محمد في حياته الخاصة، ص ٣٩ - ٤٠.

(٥) محمد الرسالة والرسول، ص ٢٦.

إلا بالتقوى، تقوى الله رب (العالمين)<sup>١</sup>

ويقارن بين عقيدة المسلمين وعقيدة المسيحيين، فيقول: (كان لابدّ من عقيدة ترفع عن كاهل البشر لعنة الخطيئة الأولى، وتطمئنهم إلى العدالة التي لا تأخذ البريء بالجرم، أو تحمّل الولد وزر الوالد، وتجعل للبشرية كرامة مضمونة. ويحسم القرآن هذا الأمر.. حين يجعل المسؤولية أساس الكرامة الإنسانية، وأساس كل حرية، وكل أخلاق ممكنة. وهذا ما قطع به الإسلام ووضع به حجر الأساس لكرامة بني آدم.. والحق أنه لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ في ظل تلك الفكرة القائمة، التي تصبغ بصبغة الخجل والتأثم كل أفعال المرء، فيمضي في حياته مضيّ المريب المتردد، ولا يقبل عليها إقبال الوثائق بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث. إن تلك الفكرة القاسية تسمّ ينابيع الحياة كلها. ورفعها عن كاهل الإنسان مئة عظمى، بمثابة نفخ نسمة حياة جديدة فيه، بل هو ولادة جديدة حقاً، وردّ اعتبار لا شك فيه. إنه تمزيق صحيفة السوابق، ووضع زمام كل إنسان بيد نفسه)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن البناء الإسلامي للشخصية الإنسانية مقارنة بغيره، فيقول: (هكذا يكون الإنسان في الإسلام متكامل الجوانب، لا يشكو فصام الروح والجسد، ذلك الفصام الذي عانى منه الكثيرون. ولا يعرف (الفصم) إلا من يكابده. وبهذا يكون الإنسان سيد الأرض حقاً، لا ينظر إلى طبيّاتها نظرة الحسير، ولا يمشي في جنباتها مشية الأسير، ولا ينقل كاهله الخزي من نوازه، في يده زمام نفسه. وقد أحل له ما لم يرد فيه تحريم، تقرّ به عينه في غير حرج ولا غضاضة)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن أهمية الصلاة في الإسلام، فيقول: (نظام واحد يمسك الدين والدنيا، ويسلك المعاش والعبادة والمعاد، ولهذا قلما يرد ذكر الصلاة في القرآن من غير آثارها العملية.. إن الصلاة التي تتكرر في اليوم جملة مرات، لا يلهي عنها بيع ولا شراء، سبب قوي بين الإنسان والله.. ولكن أين تكون تلك الصلاة؟ هل لابدّ فيها من وساطة رجال الدين؟ هنا تبرز خصوصية الإسلام.. فكل مكان في أرض الله الطاهرة يصلح مسجداً ومحراباً لا هياكل ولا كهانة ولا وسطاء بين الله والإنسان بعد اليوم! ولا وصاية على ضمائر الناس! فكلهم أمام الرحمن سواء. والصلة بينهم وبين ربهم صلة مباشرة لا أمت فيها ولا التواء.. وليس من حق أحد كائناً من كان أن يتدخل بين المرء وربه، أو يدعي لنفسه القوامة على ضميره وعقيدته)<sup>٤</sup>

وفي مناسبة من المناسبات جرى فيها الحديث عن المرأة، نهض يقول: (المرأة في الإسلام إنسان له حقوق الإنسان وكل تكاليفه العقلية والروحية فهي في ذلك صنو الرجل تقع عليها أعباء الأمانة التي تقع عليه، أمانة العقيدة والإيمان وتزكية النفس.. وقد نجد هذا اليوم من بدائه الأمور. ولكنه لم يكن كذلك في العالم القديم، في كثير من الأمم حيث كانت المرأة تباع أحياناً كثيرة كما تباع السلعة.. وكانت في كثير من الأحيان منقوضة

(١) محمد الرسالة والرسول، ص ٧٢ - ٧٣.

(٢) محمد الرسالة والرسول، ص ٧٦ - ٧٨.

(٣) محمد الرسالة والرسول، ص ٨٤.

(٤) محمد الرسالة والرسول، ص ١٤٧ - ١٤٩.



الأهلية لا تمارس التصرفات المالية والقانونية إلا عن طريق وليها الشرعي أو بموافقته، بل لم تكن تملك تزويج نفسها على الخصوص، وإنما الأمر في ذلك لوليها يجريه على هواه. وأكثر من هذا، كانت قبائل العرب في الجاهلية تتد البنات كراهة لمن وازدراء لشأهن، ومن لم يدهن كان يضيّق بمن ضيقاً شديداً<sup>١</sup>

وقال: (في سور القرآن أشار إلى المساواة عند الله بين الذكر والأنثى بغير تفریق في التكليف أو الجزاء، وإشارة صريحة مساواة المرأة والرجل في ثمرات الأعمال والجهود.. وفي بعض الأمم القديمة، والحديثة، كانت المرأة تحرم غالباً من الميراث، فأبى الإسلام هذا الغبن الفاحش)<sup>٢</sup>

وقال: (ليس الإسلام - على حقيقته - عقيدة رجعية تفرق بين الجنسين في القيمة. بل إن المرأة في موازينه تقف مع الرجل على قدم المساواة. لا يفضلها إلا بفضل، ولا يحبس عنها التفضيل إن حصل لها ذلك الفضل بعينه في غير مطل أو مرء وما من امرأة سوية تستغني عن كنف الرجل بحكم فطرتها الحسدية والنفسية على كل حال. وذلك حسب عقيدة لتكون صالحة لكل طور اجتماعي على تعاقب الأطوار والعصور، على سنة العدل التي لم يجد لها عصرنا اسماً أوفق من (تكافؤ الفرص)، الذي يلغي كل تفریق، ويسقط كل حجة، ويقضي على كل تمييز إلا بامتياز ثابت صحيح)<sup>٣</sup>

وتحدث عن سمو العلاقة الزوجية في الإسلام، وكما يصورها القرآن، فيقول: (العلاقة الزوجية في الإسلام ليست مسافدة حيوانية بين ذكر وأنثى، على إطلاق بواعث الرغبة والاشتهاء الغريزي بين جنسي النوع البشري. لغير هذا قامت كوابح الآداب وضوابط الشرائع والعقائد: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١) هكذا جاء في سورة الروم، وإني لأرى في قوله (من أنفسكم) لمسة تمس شغاف القلب وتذكر بما في الزواج من قربي تجعل الزوجة قطعة من النفس ثم أردف ذلك بالسكن، وما أقرب السكن في هذا الباب من سكنية النفس لا من مساكنة الأجساد! بدليل ما أردف بذلك من المودة والرحمة.. وتلك عليا منافع المعاشرة الإنسانية، بما فيها من غلبة الروح على نزوات الأجساد ودفعات الرغبة العمياء. فالزواج مطلب نفسي وروحي عند الإنسان، وليس مطلباً شهوياً جسدياً وإن كان له أساس جسدي)<sup>٤</sup>

وقال: (كان لابد من إصلاح ما بين الإنسان وبين نفسه التي بين جنبيه بعقيدة موفقة بين الدين والدنيا، وقد هُض بهذا الإسلام، وكانت سنته في الزواج كفاء خطته في جوانب الهداية البشرية الفطرية، لتحرير البشر من الذعر والخزي وعقدة الإثم الشوهاء التي كبّلتهم ولم تنزل تكبل الكثيرين عن انطلاقة الحياة وسوء الفطرة) قلت: إن نفحات الصدق التي نطق بها هذا الرجل أعظم من أن تنحصر في كونها مجرد شهادات عالم موضوعي..

(١) محمد الرسالة والرسول، ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) محمد الرسالة والرسول، ص ٩٦.

(٣) محمد الرسالة والرسول، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٤) محمد الرسالة والرسول، ص ١١٥ - ١١٦.

قال: أجل.. فغيرته على الإسلام وحببه له ودفاعه عنه لا يمكن إلا أن يكون من قلب ذاق طعم الإسلام،  
وعقل قد امتلأت به معانيه.

## ٢ — أصدقاء من فرنسا

قلبت بعض الصفحات من دفتر البابا، فرأيت عنوان (أصدقاء من فرنسا)، تحته أسماء كثيرة، فقلت: كيف تعتبر الفرنسيين أصدقاء لنا، وقد استعمروا أرضنا، وقهروا شعبنا، ولم يتركوا مناسبة يسيئوا فيها إلينا إلا فعلوا؟ نظر إلي البابا، وقال: ألم تقرأ قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨) قلت: بلى.. فما فيها مما نحن فيه؟

قال: أجبني أولاً.. ألم تعلن قريش لرسول الله ﷺ العداوة منذ بدأت دعوته؟ قلت: بلى.. حصل ذلك.

قال: فهل امتلأت قلوب المسلمين حقدا على كل قرشي بسبب ذلك؟ قلت: لا.. بل توجهت الأحقاد إلى المحاربين.

قال: بل لم تكن للمسلمين أحقاد أصلا، فحتم المحاربين ما إن كفوا عن حربهم حتى استقبلهم المسلمون بالأحضان.

قلت: صحيح ذلك.. ولكن..

قال: فهمت قصدك.. لا ينبغي أن ينسى العاقل عداوة عدوه.. ولكن مع ذلك لا ينبغي أن تحمله عداوة عدوه على أن يتوجه بالعداوة لغيره.. هذا ما نطق به القرآن.. قلت: تقصد أن العداوة تنحصر في الأعداء..

قال: وتنحصر في وقت العداوة.. فإن تحول العدو إلى صديق زال عنه اسم العداوة.

قلت: صدقت في هذا.. فهلم بنا إلى أصدقائنا من الفرنسيين.

### كوستاف لوبون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كوستاف لوبون)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا طبيب، ومؤرخ فرنسي، عني بالحضارات الشرقية، من آثاره: (حضارة العرب)<sup>٢</sup> (باريس ١٨٨٤)، (الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في الأندلس)

وقد أخبرتك خبره في الرحلة الماضية<sup>٣</sup>، وسأذكر لك اليوم بعض شهادته التي نطق بها حول الإسلام

(١) كوستاف لوبون Dr. G. Lebon ولد عام ١٨٤١م.

(٢) نرى أن كوستاف لوبون يعبر في الشهادات التي نذكرها عن المسلمين باسم (العرب)، باعتبار أن اللقب الشائع عن المسلمين في ذلك الوقت هو العرب.. وخاصة عند الفرنسيين.

ولا زال عندنا في الجزائر هذا التعبير حتى أن العامة عندنا يسمون المسلمين — ولو كانوا من غير العرب — بالعرب. وليس مقصده — كما قد يتوهم — هو نسبة الحضارة الإسلامية للعرب بدل الإسلام، بدليل ما يذكره عن الإسلام من شهادات.

(٣) انظر الحوار الافتراضي الذي أجريناه معه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) فصل (الحضارة)

والحضارة الإسلامية.

فمنها قوله، وهو يقارن بين أصول الأخلاق في القرآن وأصولها في كتب سائر الديانات: (إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوًّا ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها، وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحولت بتحول الأزمان والعروق مثل تحول الأمم الخاضعة لدين عيسى عليه السلام.. إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنّت لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جدًا، وقد لا تجد دينًا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدقّ شؤون الحياة)<sup>١</sup>

ويتحدث عن عظمة القرآن وتأثيره الممتد في التاريخ الإسلامي، فيقول: (إن هذا الكتاب القرآن تشريع ديني وسياسي واجتماعي، وأحكامه نافذة منذ عشرة قرون)<sup>٢</sup>

وله أحاديث كثيرة طيبة عن رسول الله ﷺ وتأثيره في العرب والعالم من النواحي المختلفة، منها قوله: (جمع محمد قبيل وفاته كلمة العرب، وبنى منهم أمة واحدة خاضعة لدين واحد مطيعة لزعيم واحد، فكانت في ذلك آيته الكبرى.. وما لا ريب فيه أن محمدًا أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية ولذلك كان فضله على العرب عظيمًا)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن المكانة الرفيعة التي يحتلها محمد ﷺ بين العظماء، فيقول: (إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن المثل العليا التي أشاعها رسول الله ﷺ، فيقول: (استطاع محمد أن يبدع مثلاً عاليًا قويًا للشعوب العربية التي لا عهد لها بالمثل العليا، وفي ذلك الإبداع تتجلى عظمة محمد على الخصوص.. ولم يتردد أتباعه في التضحية بأنفسهم في سبيل هذا المثل الأعلى)<sup>٥</sup>

ويتحدث عن الاستراتيجية المثلى التي استعملها النبي ﷺ في توحيد الجزيرة العربية، فقال: (لا شيء أصوب من جمع محمد لجميع السلطات المدنية والحربية والدينية في يد واحدة أيام كانت جزيرة العرب مجزأة ما استطعنا أن نقدر قيمة ذلك بنتائجه، فقد فتح العرب العالم في قرن واحد بعد أن كانوا قبائل من أشباه البرابرة المتحاربين قبل ظهور محمد)<sup>٦</sup>

وهو يقارن مقارنة موضوعية بين الإسلام والمسيحية على المستويات المختلفة، فيقول: (إن الإسلام يختلف عن النصرانية في كثير من الأصول، ولا سيمًا في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي، وذلك أن الإله الواحد

(١) حضارة العرب، ص ٤٣١ - ٤٣٢.

(٢) النتائج الأولى للحرب (عن: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، ١/٧٤).

(٣) دين الإسلام، ص ١٦.

(٤) حضارة العرب، ص ١١٥.

(٥) حضارة العرب، ص ١١٦.

(٦) حضارة العرب، ص ٣٩٣ - ٣٩٤.

الذي دعا إليه الإسلام مهيمن على كل شيء ولا تحفّ به الملائكة والقديسون وغيرهم ممن يفرض تقديسه، ولإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم. إن سهولة الإسلام العظيمة تشتق من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سرّ قوة الإسلام، والإسلام، وإدراكه سهل، خال مما نراه في الأديان الأخرى، وبأباه الذوق السليم، غالباً، من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد، وبمسواة جميع الناس أمام الله.. وأنك، إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيتَه يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسرد لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما مائلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت)<sup>١</sup>

وهو يتحدث عن القابلية التي يتمتع بها الإسلام، بحيث تجعل الكل مقبلاً عليه، فيقول: (الإسلام يعدّ من أشد الأديان تأثيراً في الناس، وهو مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة.. إلخ، يعلم هذه الأمور بسهولة يستمرها الجميع، وهو يعرف، فضلاً عن ذلك، أن يصبّ في النفوس إيماناً ثابتاً لا تزعزعه الشبهات)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن أسرار تلك القابلية، فيقول: (تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال الأعراف المختلفة التي اتخذت القرآن مرشداً لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرناً)<sup>٣</sup> ويقول: (ساعد وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قيصرية القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسر السبب في عدم تنصّر أي أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً، سواء أكانت هذه الأمة غالبية أم مغلوبة)<sup>٤</sup>

ولهذا، فهو يشهد بأن الإسلام لم ينتشر بالقوة على عكس ما يذكر المغرضون، فيقول: (إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل)<sup>٥</sup>

ويتحدث عن علاقة الإسلام بالعلم مقارنة بغيره من الديانات، فيقول: (الإسلام من أكثر الأديان ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهدياً للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح)<sup>٦</sup> ويتحدث عن الأخوة التي أشاعها الإسلام بين الشعوب المختلفة، فيقول: (ليس المسلمون أجنب في نظر

(١) حضارة العرب، ص ١٢٥.

(٢) حضارة العرب، ص ١٢٥ - ١٢٦.

(٣) حضارة العرب، ص ٤١٧.

(٤) حضارة العرب، ص ١٢٥.

(٥) حضارة العرب، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٦) حضارة العرب، ص ١٢٦.

بعضهم إلى بعض مهما اختلفت الشعوب التي ينتسبون إليها، ولا فرق في دار الإسلام بين الصيني المسلم والعربي المسلم في التمتع بجميع الحقوق، وبهذا تختلف الحقوق الإسلامية عن الحقوق الأوروبية اختلافاً أساسياً<sup>١</sup> وهو يتحدث بتفاصيل كثيرة عن تأثير الحضارة الإسلامية وعلاقتها بالإسلام، وعلاقتها بعد ذلك بالشعوب المختلفة، فيقول: (ثبتت أصول شريعة الرسول وفنون العرب ولغتهم أينما حلت، ولم يدر في خلد أحد من الفاتحين الكثرين الذين قهروا العرب إقامة حضارة مقام حضارة العرب، وانتحلوا كلهم دين العرب وفنونهم، واتخذ أكثرهم العربية له لغة، وتقهقرت أمام الإسلام في الهند ديانات قديمة، وجعل الإسلام مصر الفراعنة القديمة، التي لم يكن للفرس واليونان والرومان فيها سوى نفوذ قليل، عربية تامة العروبة، وعرفت أقوام الهند والفرس ومصر وأفريقية لهم سادة غير أتباع محمد فيما مضى ولم يعرفوا لهم سادة غير المسلمين بعد أن رضوا بالإسلام ديناً)<sup>٢</sup>

ويقول: (لو وفق موسى بن نصير في اجتياز أوروبا لجعل أوروبا مسلمة، لحقق للأمم المتمدنة وحدتها الدينية، ولأنقذ أوروبا، على ما يحتمل، من دور القرون الوسطى الذي لم تعرفه إسبانية بفضل العرب)<sup>٣</sup> ويقول: (كلما أمعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة قرون، مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم، وأهم هم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقاً، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفقههم قوم في الابتداء الفيني)<sup>٤</sup>

ويقول: (تأثير العرب عظيم في الغرب، وهو في الشرق أشد وأقوى، ولم يتفق لأمة ما اتفق للعرب من النفوذ، والأمم التي كانت لها سيادة في العالم، كالأشوريين والفرس والمصريين واليونان والرومان، توارت تحت أعفار الدهر ولم تترك لنا غير أطلال دارسة، وعادت أديانها ولغاتها وفنونها لا تكون سوى ذكريات. والعرب، وإن تواروا أيضاً، لم تزل عناصر حضارتهم، وإن شئت فقل ديانتهم ولغتهم وفنونهم، حية)<sup>٥</sup> ويقول: (وسَّعت دائرة التعليم العام، واستدعي الأساتذة من مختلف أقطار العالم، وبلغ علم الفلك درجة رفيعة من التقدم، وانتهى إلى نتائج لم ينته إليه الأوروبيون إلا في العصر الحاضر.. ونقلت إلى العربية كتب علماء اليونان واللاتين وصارت تدرس في جميع المدارس، وبحث العرب في آثار القدماء فسبقوا الأوروبيين إلى ذلك بيضعة قرون. وأقدم العرب على تلك المباحث، التي لم يكن لهم عهد بها، بشوق ونشاط، وأكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان، وكانت لهم اكتشافات مهمة في أكثر العلوم)<sup>٦</sup>

(١) حضارة العرب، ص ٣٨٩.

(٢) حضارة العرب، ص ٢٧.

(٣) حضارة العرب، ص ٢٦٧.

(٤) حضارة العرب، ص ٢٦.

(٥) حضارة العرب، ص ٢٦ - ٢٧.

(٦) حضارة العرب، ص ١٧٣.

ويقول: (كلما تقدمنا في الكتاب بدا لنا، بوضوح، أمران جوهريان.. وهما: أن العرب استطاعوا أن يبدعوا حضارة جديدة مستعنين بما استعاروا من الفرس واليونان والرومان، وأن حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها. وقد ظهر لنا أن جميع أمم الشرق الكثيرة.. أعانت بلا استثناء على نشر نفوذ العرب، وأن أمماً قديمة قدم العالم، كالمصريين والهنود، اعتنقت ما جاءها به العرب أو ورثتهم من الحضارة والدين واللغة)<sup>١</sup>

بل إنه يتجرأ، فيصرح بهذا التصريح الخطير: (لنفرض جدلاً أن النصارى عجزوا عن دحر العرب في جنوب فرنسا فماذا كان يصيب أوروبا؟ كان يصيب أوروبا النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانية من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدث في أوروبا التي تكون قد هذبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية ومظالم محاكم التفتيش، وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع التي ضرحت أوروبا بالدماء عدة قرون. ويجب أن يكون المرء جاهلاً تاريخ حضارة العرب جهلاً مطبقاً ليوافق على ما زعمه المؤرخ هنري مارتن في كتابه عن (تاريخ فرنسة الشعبي) من (أن أوروبا والدنيا كانت تحسran مستقبلهما). فمزاعم مثل هذه ليست مما يقف أمام سلطان النقد عندما يُعلم أن التمدن اللامع حلّ بالبلاد التي خضعت لأتباع الرسول محل الهمجية، وأن النشاط الذي يحفز الإنسان إلى التقدم لم يكن قوياً في أمة مثل قوته في العرب)<sup>٢</sup>

وهو يتحدث عن مكانة المرأة في الإسلام، ويرد بذلك على الشبهات التي يثيرها المغرضون، ومن تلك الشهادات قوله: (تعد مبادئ الموارث التي نصّ عليها القرآن بالغة العدد والإنصاف.. ويظهر من مقابليتي بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنكليزية أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات، اللاتي يُزعم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف، حقوقاً في الموارث لا تجد مثلها في قوانيننا)<sup>٣</sup>

ومنها قوله: (لم يقتصر الإسلام على إقرار مبدأ تعدد الزوجات الذي كان موجوداً قبل ظهوره، بل كان ذا تأثير عظيم في حال المرأة في الشرق، والإسلام قد رفع حال المرأة الاجتماعي وشأناً رفعاً عظيماً بدلاً من خفضهما خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى، والقرآن قد منح المرأة حقوقاً إرثية أحسن مما في أكثر قوانيننا الأوروبية.. أجل أباح القرآن الطلاق كما أباحت قوانين أوربة التي قالت به، ولكنه اشترط أن يكون ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢٤١).. وأحسن طريق لإدراك تأثير الإسلام في أحوال النساء في الشرق هو أن نبحث في حالهن قبل القرآن وبعده)<sup>٤</sup>

ومنها قوله: (إذا أردنا أن نعلم درجة تأثير القرآن في أمر النساء وجب علينا أن ننظر إليهن أيام ازدهار حضارة العرب، وقد ظهر مما قصّه المؤرخون انه كان لهن من الشأن ما اتفق لأخواتهن حديثاً في أوربة.. إن الأوروبيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة. فالإسلام، إذن، لا النصرانية، هو

(١) حضارة العرب، ص ٢٧.

(٢) حضارة العرب، ص ١٨٠.

(٣) حضارة العرب، ص ٣٨٩.

(٤) حضارة العرب، ص ٤٠١.

الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع. وإذا نظرت إلى نصارى الدور الأول من القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الحرمة للنساء، وإذا تصفحت كتب التاريخ ذلك الزمن وجدت ما يزيل كل شك في هذا الأمر، وعلمت أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظاً نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى<sup>١</sup>

ومنها قوله: (إن حالة النساء المسلمات الحاضرة أفضل من حالة أخواتهن في أوربة حتى عند الترك.. وأن نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال.. إن الإسلام، الذي رفع المرأة كثيراً، بعيداً من خفضها، ولم نكن أول من دافع عن هذا الرأي، فقد سبقنا إليه كثيرون)<sup>٢</sup>

ومنها قوله: (إن تعدد الزوجات المشروع عند الشرقيين أحسن من تعدد الزوجات الريائي عند الأوروبيين، وما يتبعه من مواكب أولاد غير شرعيين)<sup>٣</sup>

ومنها قوله: (إن النساء المسلمات قد أخرجن في الدهر الغابر من المشهورات العالمات بقدر تخرج مدارس الإناث في الغرب اليوم)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن صمود الإسلام في وجه كل التيارات التي حاولت أن تقضي عليه، فقال: (مع ما أصاب حضارة العرب من الدثور، كالحضارات التي ظهرت قبلها: لم يمس الزمن دين النبي الذي له من النفوذ ما له في الماضي، والذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفوس، مع أن الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تخسر كل يوم شيئاً من قوتها.. وتجمع بين مختلف الشعوب التي اتخذت القرآن دستوراً لها وحدة اللغة والصلوات التي يسفر عنها مجيء الحجيج إلى مكة من جميع بلاد العالم الإسلامي. وتجب على جميع أتباع محمد تلاوة القرآن باللغة العربية بقدر الإمكان، واللغة العربية هي لذلك أكثر لغات العالم انتشاراً على ما يحتمل، وعلى ما بين الشعوب الإسلامية من الفروق العنصرية ترى بينها من التضامن الكبير ما يمكن جمعها به تحت علم واحد في أحد الأيام)<sup>٥</sup>

ويقول: (كان سلطان الإسلام السياسي والديني قوياً في بلاد الهند، ورسخ فيها ثمانية قرون بفضل ملوك الإسلام الذين تداولوا حكمها، ولا يزال سلطان الإسلام الديني قائماً في بلاد الهند، وإن توارى سلطانه السياسي عنها، وهو يمضي قدماً نحو الاتساع)<sup>٦</sup>

ويقول: (دخلت حضارة العرب في ذمة التاريخ منذ زمن طويل، ولا نقول، مع ذلك أنهم ماتوا تماماً، فنرى الآن ديانتهم ولغتهم اللتين أدخلوهما إلى العالم أكثر انتشاراً مما كانتا عليه في أنصر أدوارهم.. ولا يزال الإسلام جاداً في تقدمه.. واليوم يدرس القرآن، فيما عدا جزيرة العرب، في مصر وسورية وتركية وآسية

(١) حضارة العرب، ص ٤٠٣.

(٢) حضارة العرب، ص ٤٠٤ - ٤٠٥.

(٣) روح السياسة، عن (محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية: ٨٣/١).

(٤) روح السياسة، عن (محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية: ٨٣/١).

(٥) حضارة العرب، ص ١٢٦.

(٦) حضارة العرب، ص ١٨٦.



الصغرى وفارس وقسم مهم من روسية وأفريقية والصين والهند، وتناول القرآن مدغشقر وأفريقية الجنوبية، وعرف في جزر الملايو، وعلمه أهل جاوة وسومطرة وتقدم إلى غينيا الجديدة، ودخل أمريكا مع زنج أفريقية.. ويتقدم الإسلام في الصين تقدماً يقضي بالعجب.. حيث اضطر المشرون الأوروبيون إلى الاعتراف بالحدود وسيقوم الإسلام - كما يقول وازيليف - مقام البوذية، ومسلمو الصين لا يشكون في ذلك وهذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية. فإذا اعتنقت الصين دين الإسلام تغيرت علاقات العالم القديم السياسية تغيراً عظيماً وأمكن دين محمد أن يهدّد النصرانية من جديد)<sup>١</sup>

قلت: هذا رجل فاضل.. وشهاداته تعبر عن الموضوعية العلمية التي أوتيتها.

قال: ولذلك تلقاه الكل بالقبول.. وقد رأيت في عينيه من الصدق ما يحيل أن تكون تلك الشهادات مجرد

شهادات.

### مارسيل بوزار:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مارسيل بوزار)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مفكر وقانوني فرنسي معاصر، وقد أولى اهتماماً كبيراً لمسألة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان وكتب عددًا من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهاتين المسألتين.

وله كتاب يسمى (إنسانية الإسلام)، وهو من أهم الكتب، ويعتبر علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التي لا بأسرها التحيز والهوى، فضلاً عن الكتابات الإسلامية نفسها.

ولهذا، فإن شهادته تعد بمثابة واحدة من أكثر الشهادات الغربية عمقاً وموضوعية ووضوح رؤية للإسلام.

قلت: عرفته.. لقد سبق أن حدثني عنه في رحلتك السابقة<sup>٢</sup>.

قال: وسأحدثك اليوم عن بعض شهادته الصادقة التي شهد بها للإسلام ونبى الإسلام.

فهو يتحدث عن رسول الله ﷺ رادا على ذلك التشويه المتعمد، فيقول: ( سبق أن كتب كل شيء عن نبى الإسلام، فأنوار التاريخ تسطع على حياته التي نعرفها في أدق تفاصيلها. والصورة التي خلفها محمد عن نفسه تبدو، حتى وإن عمد إلى تشويهها، علمية في الحدود التي تكشف فيها وهي تندمج في ظاهرة الإسلام عن مظهر من مظاهر المفهوم الديني وتتيح إدراك عظمته الحقيقية)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن الأعمال التي حوّلها رسالة رسول الله ﷺ مقارنة بغيره، فيقول: (لم يكن محمد على الصعيد

التاريخي مبشراً بدين وحسب بل كان كذلك مؤسس سياسة غيرت مجرى التاريخ، وأثرت في تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق)<sup>٤</sup>

(١) حضارة العرب، ص ٦١٦ - ٦١٧.

(٢) انظر الحوار الافتراضي الذي أجريناه معه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة) فصل (إنسانية)

(٣) إنسانية الإسلام، ص ٤٠ - ٤١.

(٤) إنسانية الإسلام، ص ٤٢.

يوتحدث عن الكثير من خصائص رسول الله ﷺ، فيقول: ( منذ استقر النبي محمد في المدينة، غدت حياته جزءاً لا يفصل من التاريخ الإسلامي. فقد نقلت إلينا أفعاله وتصرفاته في أدق تفاصيلها.. ولما كان منظماً شديد الحيوية، فقد أثبت فضالية في الدفاع عن المجتمع الإسلامي الجنيبي، وفي بث الدعوة.. وبالرغم من قتاليته ومنافحته، فقد كان يعفو عند المقدرة، لكنه لم يكن يلين أو يتسامح مع أعداء الدين. ويبدو أن مزايا النبي الثالث، الورع والقتالية والعفو عند المقدرة قد طبعت المجتمع الإسلامي في إبان قيامه وجسدت المناخ الروحي للإسلام.. وكما يظهر التاريخ الرسول قائداً عظيم ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحاً قوي الشكيمة له سياسته الحكيمة التي تتعامل مع الجميع على قدم المساواة وتعطي كل صاحب حق حقه. ولقد استطاع بدبلوماسية و نزاهته أن ينتزع الاعتراف بالجماعة الإسلامية عن طريق المعاهدات في الوقت الذي كان النصر العسكري قد بدأ يحالفه. وإذا تذكرنا أخيراً على الصعيد النفسي هشاشة السلطان الذي كان يتمتع به زعيم من زعماء العرب، والفضائل التي كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلي بها، استطعنا أن نستخلص أنه لا بد أن يكون محمد الذي عرف كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير به إنساناً فوق مستوى البشر حقاً، وأنه لا بد أن يكون نبياً حقيقياً من أنبياء الله)<sup>١</sup>

بل إنه لا يكتفي في ذلك، فهو يشهد لمحمد بالنبوة، رادا بذلك على من يزعم أن محمداً ﷺ هو مجرد مصلح اجتماعي، فيقول: ( لقد كان محمد نبياً لا مصلحاً اجتماعياً. وأحدثت رسالته في المجتمع العربي القائم آنذاك تغييرات أساسية ما تزال آثارها ماثلة في المجتمع الإسلامي المعاصر)<sup>٢</sup>

ويقول: (مما لا ريب فيه أن محمداً قد اعتبر، بل كان في الواقع، ثائراً في النطاق الذي كان فيه كل نبي ثائراً بوصفه نبياً، أي بمحاولته تغيير المحيط الذي يعيش فيه)<sup>٣</sup>

ويعرف القرآن الكريم، ويتحدث عن مزاياه وآثاره، فيقول: ( لا بدّ عند تعريف النصّ القدسي في الإسلام من ذكر عنصرين، الأول أنه كتاب منزل أزلي غير مخلوق، والثاني أنه (قرآن) أي كلام حي في قلب الجماعة.. وهو بين الله والإنسانية (الوسيط) الذي يجعل أي تنظيم كهنوتي غير ذي جدوى، لأنه مرضي به مرجعاً أصلياً، وينبوع إلهام أساسي.. وما زال حتى أيامنا هذه نموذجاً رفيعاً للأدب العربي تستحيل محاكاته إنه لا يمثل النموذج المحتذى للعمل الأدبي الأمثل وحسب، بل يمثل كذلك مصدر الأدب العربي والإسلامي الذي أبدعه لأن الدين الذي أوحى به هو في أساس عدد كبير من المناهج الفكرية التي سوف يشتهر بها الكتاب)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن النظام الاجتماعي الذي جاء به القرآن، فيقول: (لقد أثبت التنزيل برفضه الفصل بين الروحي والزمني أنه دين ونظام اجتماعي.. ومن البديهي أن التنزيل والسبيل الذي ظن إمكان استخدامه فيه قد طبعاً المجتمع بعمق)<sup>١</sup>

(١) إنسانية الإسلام، ص ٤٦.

(٢) إنسانية الإسلام، ص ٦١.

(٣) إنسانية الإسلام، ص ٦٦.

(٤) إنسانية الإسلام، ص ٥٢ - ٥٣.

(١) إنسانية الإسلام، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

ويتحدث عن الخصائص الكثيرة للنظم التي جاء بها القرآن، والتي تنفي عنه ارتباطه بزمان معين، فيقول: (إن القرآن لم يقدّر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة)<sup>١</sup>

ويقول: (يخلق الروح القرآني مناخ عيش ينتهي به الأمر إلى مناغمة التعبيرات الذهنية والمساواة بين العقليات والنظم الاجتماعية بأكثر مما تفترض التصريفات السياسية والطوايع الإيديولوجية التي تسند إلى الدول. ولا يكفي قط ما يتردد عن درجة تأثير القرآن الكبرى في (الذهنية الإسلامية) المعاصرة، فهو ما يزال مصدر الإلهام الفردي والجماعي الرئيسي، كما أنه ملجأ المسلمين وملاذمهم الأخير)<sup>٢</sup>

بل إنه يصرح بتصريحاً خطيراً، فيقول: (إن الأدوات التي يوفرها الترتيل القرآني قادرة ولا ريب على بناء مجتمع حديث)<sup>٣</sup>

وهو يدعو المؤرخين — بدل بذل الجهد في تفاصيل الأحداث — إلى البحث عن الأصول الحقيقية التي ينبني عليها الإسلام من خلال مصادره الأصلية ليعرف مدى انسجام الإسلام مع المعاصرة<sup>٤</sup>: (إن من حق المؤرخ أن يعرف أسس ثقافة دينية المرتكز وسمت تطور الإنسانية. بمسماها، ولم تزل حتى اليوم مرجعاً خلقياً وسياسياً لملايين البشر. ومن الأهمية بمكان تحليل أفكارها الأساسية وتطور هذه الأفكار المحتمل، والكشف عن الطريقة التي حدّد بها ذلك الدين العالمي الطموح مكانة الفرد في المجتمع وتصور تنظيم العلاقات بين الشعوب.. إن تقديم الإسلام على أنه مجرد خصم متصارع من النظريات والبنى التشريعية المعاصرة، أمر غير معقول)<sup>٥</sup>

ويتحدث بإعجاب عن الاقتران بين التوجيه والتشريع في الإسلام، فيقول: (لا تميز في العقيدة الإسلامية<sup>٦</sup> بين الموجب القانوني والواجب الخلقى.. وهذا الجمع المحكم بين القانون والخلق يؤكد قوة النظام منذ البداية)<sup>٧</sup>

ويتحدث — على عكس العلمانيين من المسلمين — عن واقعية وتقديم الشريعة الإسلامية، فيقول: (أليس من الواقعية والتقدمية أن يؤمن المرء بقيمة الإنسان وحرية وإرادته، وأن يتخيل إنشاء قانون تستطيع كل الشعوب الانضواء تحت لوائه؟ لسوف يسهم الإسلام في إنشاء ذلك القانون)<sup>٨</sup>

ويقول: (لقد أظهرت الرسالة القرآنية وتعاليم النبي أنها تقدمية بشكل جوهري، وتفسّر هذه الخصائص انتشار الإسلام السريع بصورة حارقة خلال القرون الأولى من تاريخه)<sup>٩</sup>

ويتحدث عن صلاحية الإسلام لكل الأزمان، فيقول: (إن القضية تتمثل في استرجاع فكرة صلاح

(١) إنسانية الإسلام، ص ١٠٩.

(٢) إنسانية الإسلام، ص ٣٤٣.

(٣) إنسانية الإسلام، ص ٣٤٥.

(٤) وهو اقتراح أصيل، وفكرة رائدة، لأنه لا ينبغي أن يحمل الإسلام مواريث الأخطاء التي ارتكبت في تاريخه الطويل.

(٥) إنسانية الإسلام، ص ١٤، ١٥.

(٦) يقصد بالعقيدة الإسلامية هنا على حسب ما يبدو الإسلام جميعاً، لا عقيدته وحدها.

(٧) إنسانية الإسلام، ص ١٨، ١٩.

(٨) إنسانية الإسلام، ص ٢٤.

(٩) إنسانية الإسلام، ص ٧٤.

الإسلام لكل حين من خلال تجلياته الأبدية والماضية والمستقبلية)<sup>١</sup>  
ويرد على الغربيين الذين يرمون الإسلام بالعجز عن تنمية نظام سياسي صالح، فيقول: (من نوافل الأمور  
رفض الادّعاء المتكرر آلاف المرات في الغرب عن عجز الإسلام عن تنمية نظام سياسي ديمقراطي. فالتاريخ يكذبه  
تكذيباً مرّاً وقاطعاً)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن الوظيفة التصحيحية التي جاء بها الإسلام، ومارسها مع الكتب السماوية، فيقول: (لم يكن  
من ضمن رسالة أن يبطل ما أنزل من قبله، بل أن يصدّقه ناقضاً ما لحق الكتب السماوية من تحريف وانتهاك.  
وكلف تطهير تعاليم الرسل السابقين من كل مخالفة، والتوسع فيها وتتميمها لتغدو ملائمة للبشرية جمعاء في  
كل زمان ومكان)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن سماحة الإسلام مع الديانات والأمم الأخرى، فيقول: (فتح الإسلام الباب للتعایش على  
الصعيد الاجتماعي والعرقى حين اعترف بصدق الرسالات الإلهية المنزلّة من قبل على بعض الشعوب.. لكنه بدا  
أنه يرفض الحوار في الوقت ذاته على الصعيد اللاهوتي حين.. أزال من العقيدة كل ما اعتبر زيفاً مخالفاً للتوحيد  
بالمعنى الدقيق للكلمة. وأتاح منطق تعاليمه القوي وبساطة عقيدته وما يرافقها من تسامح، أتاح كل هذا  
للسُوء التي فتح بلادها حرية دينية تفوق بكثير تلك التي أتاحها الدول المسيحية نفسها)<sup>٤</sup>  
ويقول: (لقد تألفت (أمم) من نوع معين، واتحدت، وخضعت لنظامها الديني الخاص وانخرطت في البنية  
الاجتماعية للمجتمع الإسلامي الذي يحميها)<sup>٥</sup>

ويذكر مدى نجاعة الحلول الإسلامية التي وضعها للأقليات<sup>٦</sup>، فيقول: (حاول الإسلام منذ القرن السابع  
للميلاد أن يقدم حلاً لمشكلة الأقليات فريداً في نوعه. وتستحق جماعة غير المسلمين على أرض الإسلام أن  
تتناول بالتحليل، لأنه ثبت أنها نجح لا مثيل له، في الوقت الذي كان فيه الغرب على أهبة الخروج من العصور  
الوسطى وإدراك ضرورة وضع الأنظمة المحدودة للعلاقات مع الغرباء)<sup>٧</sup>

ويتحدث عن التسامح الذي تحلى به المسلمون في تاريخهم الطويل، فيقول: (منذ بدء الفتح العربي  
الإسلامي، كان المحاربون المسلمون قد فرضوا على أنفسهم روحاً من التسامح مع غير المسلمين ومع الشعوب  
المغلوبة. وفي زمن لم يكن فيه العنف يعرف شرعاً ولا عاطفة، أصدر أبو بكر أول خليفة للنبي إلى جنوده

(١) إنسانية الإسلام، ص ٢٨.

(٢) إنسانية الإسلام، ص ٣٦٥.

(٣) إنسانية الإسلام، ص ٤٣.

(٤) إنسانية الإسلام، ص ١٨٤.

(٥) إنسانية الإسلام، ص ١٨٦.

(٦) انظر تفاصيل أخرى عن هذه الحلول في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، و(سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

(٧) إنسانية الإسلام، ص ١٨٧.

التعليمات المشهورة المرنة كثيراً التي تختصر الروح الخلقية للقانون الإسلامي<sup>١</sup>

ويتحدث عن الحضارة الإسلامية، وامتدادها الزمني والمكاني، فيقول: (أن الموضوعية التاريخية – بل مجرد العدل – تدفع إلى التذكير بأن الحضارة التي تعهّدت الثقافة المتوسطة خلال القرون السبعة التي تتألف منها العصور الوسطى، كانت الحضارة الإسلامية ويعترف معظم المؤلفين اليوم بهذا الواقع)<sup>٢</sup> ويقول: (ألم يكن العالم الإسلامي هو الذي جمع أعمال العصور القديمة وترجمها وعلّق عليها تاركاً في أثنائها بصمات عقريته الخاصة، قبل أن ينقلها إلى الغرب المسيحي؟ ألم يكن ابن رشد وابن سينا وغيرهما أساتذة الفكر لعدّة أجيال أوروبية؟ ألم تتخلص الفلسفة العبرية على يد الثقافة الإسلامية، من وطأة العقيدة التلمودية التي كانت قد سحقتها زمنًا طويلاً؟)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن بعض مزايا الحضارة الإسلامية التي أهلتها لذلك الدور العظيم الذي قامت به، فيقول: (يبدو الإسلام واقعاً سياسياً واجتماعياً متناغماً، وظاهرة تاريخية جديدة بالملاحظة، وبالاختصار حضارة قدّمت مفهوماً خاصاً بالفرد، وبيّنت مكانته في المجتمع، ودفعت قدماً ببعض المسلّمات التي تنظم اتصال الشعوب بعضها ببعض. ولم يكن من شأن هذه الحضارة، من جهة ثانية، أن أسهمت إسهاماً تاريخياً في الثقافة الكونية وحسب، بل كان أن طمحت كذلك، وبحق، إلى تقديم حلول لأهم المعضلات الفردية والاجتماعية والدولية التي تزعج العالم المعاصر وتقلقه)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن ربانية المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية، فيقول: (يدل التاريخ على وجود ثابتة مطلقة في الحضارة الإسلامية كانت متمحورة منذ البدء تمحوراً تاماً حول الله، وما تزال كذلك. وهذه الظاهرة التي غالباً ما تخفى على الفكر والتحليل الغربيين الحديثين تضيء على الإسلام طابع الديمومة)<sup>٥</sup> ويتحدث عن الأصول التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية، فيقول: (ما كان الإسلام يستقر، متأثراً بالمبادئ القرآنية الخلقية الجوهرية ومفيداً من الثقافة المرهفة لبعض الشعوب المفتوحة بلادها، حتى ظهر على أنه مشعل حضارة)<sup>٦</sup>

وفي مؤتمر من المؤتمرات كان الحديث عن المرأة، وقد وقف بعض المحاضرين موقفاً سيئاً من موقف الإسلام من المرأة، فقام هذا الأستاذ الفاضل ليعقب عليه، وقد سجلت من تعقيباته قوله: (ليس في التعاليم القرآنية ما يسوّغ وضع المرأة الراهن في العالم الإسلامي. والجهل وحده، جهل المسلمة حقوقها بصورة خاصة، هو الذي

(١) إنسانية الإسلام، ص ٢٧٨.

(٢) إنسانية الإسلام، ص ١٢.

(٣) إنسانية الإسلام، ص ١٢ – ١٣.

(٤) إنسانية الإسلام، ص ٣٣.

(٥) إنسانية الإسلام، ص ٣٦ – ٣٧.

(٦) إنسانية الإسلام، ص ٢٥٣.

يسوعه<sup>١</sup>

وقوله: (أثبتت التعاليم القرآنية وتعاليم محمد أنها حامية حمى حقوق المرأة التي لا تكل<sup>٢</sup>)  
وقوله: (كانت المرأة تتمتع بالاحترام والحرية في ظل الخلافة الأموية بإسبانيا، فقد كانت يومئذ تشارك  
مشاركة تامة في الحياة الاجتماعية والثقافية، وكان الرجل يتودّد لـ(السيدة) للفوز بالخطوة لديها.. إن الشعراء  
المسلمين هم الذين علموا مسيحي أوروبا عبر إسبانيا احترام المرأة)<sup>٣</sup>  
وقوله: (إن الإسلام يخاطب الرجال والنساء على السواء ويعاملهم بطريقة (شبه متساوية)، وتهدف الشريعة  
الإسلامية بشكل عام إلى غاية متميزة هي الحماية، ويقدم التشريع للمرأة تعريفات دقيقة عما لها من حقوق  
ويبدي اهتماماً شديداً بضمائها. فالقرآن والسنة يحضّان على معاملة المرأة بعدل ورفق وعطف، وقد أدخلوا  
مفهوماً أشد حلقية عن الزواج، وسعيًا أخيرًا إلى رفع وضع المؤمنة بمنحها عددًا من الطموحات القانونية.  
وتشمل حقوق المرأة - وهي (مقدسة) وفقًا لحديث نبوي - بشكل أساسي: المساواة أمام القانون والملكية  
الخاصة الشخصية، والإرث)<sup>٤</sup>

وقوله: (لقد خلقت المرأة في نظر القرآن من الجوهر الذي خلق منه الرجل. وهي ليست من ضلعه، بل  
(نصفه الشقيق) كما يقول الحديث النبوي (النساء شقائق الرجال)<sup>٥</sup> المطابق كل المطابقة للتعاليم القرآنية التي  
تنص على أن الله قد خلق من كل شيء زوجين. ولا يذكر التثليل أن المرأة دفعت الرجل إلى ارتكاب الخطيئة  
الأصلية، كما يقول سفر التكوين. وهكذا فإن العقيدة الإسلامية لم تستخدم ألفاظًا للتقليل من احترامها، كما  
فعل آباء الكنيسة الذين طالما اعتبروها (عميلة الشيطان). بل إن القرآن يضيف آيات الكمال على امرأتين: امرأة  
فرعون ومريم ابنة عمران أم المسيح)<sup>٦</sup>

وفي موقف آخر جرى الحديث فيه عن انتشار الإسلام وصموده، قال فيه: (هاهو الإسلام يؤكد طموحه  
السياسي على المستوى العالمي ويتابع انتشاره بانتظام، ولا سيما في أفريقيا السوداء. وإذا نُظر إلى قيام الإسلام  
ووحده، تبين أنه ليس مجرد جسم ميّت نقشت عليه ذكرى ماضي مجيد، وإنما هو واقع حيّ حقًا)<sup>٧</sup>  
وهو يبين حقيقة أن الإسلام هو وراء حفظ المسلمين، وحفظ البلاد الإسلامية من كل دخيل، فيقول:  
(ثبت أن الإسلام روح كل مقاومة يبديها شعب مغلوب سياسيًا.. ومحك كل مقاومة.. وفي أفريقيا ساهم  
الدين في إقامة مجتمع جديد خارج النطاق القبلي أكثر جدارة بمقاومة التأثير الأجنبي. وفي آسيا تماسك الإسلام

(١) إنسانية الإسلام، ص ١١٤.

(٢) إنسانية الإسلام، ص ١٤٠.

(٣) إنسانية الإسلام، ص ١٠٨.

(٤) إنسانية الإسلام، ص ١٠٩-١١٠.

(٥) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٦) إنسانية الإسلام، ص ١١٣.

(٧) إنسانية الإسلام، ص ٣٥.

المرن ونما في وجه النفوذ الاستعماري.. وقد حمل الإسلام في أكثر الأحيان راية الصراع مع الاستعمار<sup>١</sup> ويتحدث عن ضرورة الإسلام للنهضة الإسلامية، فيقول: (يتمثل الذي يجد فيه العالم الإسلامي المعاصر نفسه في قدرته.. على إيجاد الوسائل اللازمة لتحقيق (نهضة) فكرية وسياسية، ولا يمكن أن تقوم هذه النهضة من دون الإسلام)<sup>٢</sup>

ويقول: (يظهر أن التغيير السياسي - الاجتماعي اللازم للتكيف مع العالم العصري يظل مشروطاً، بشكل واسع، بقيام (نهضة) دينية، لأن الإسلام الراشد يرفض فصل الروحي عن الزمني)<sup>٣</sup>

وهو يرى الإسلام من الجمود الذي يقع فيه المسلمون، فيقول: (إن هناك إجماعاً على الجهر بأنه لا يمكن اعتبار الإسلام مسؤولاً عن جمود العالم الإسلامي الطويل وانحطاطه الواضح. بل تعزى الأمراض الحاضرة على العكس من ذلك إلى المسلمين الذين أهملوا العيش وفق مبادئ دينهم. وإذا كانوا قد فقدوا الرخاء المادي الذي كانوا ينعمون به تاريخياً، فلأنهم بالتحديد أهملوا التقيد بـ (نصف الشريعة الإلهية) ولكشف النقاب الذي انسدل على العالم الإسلامي ينبغي أن نلجّ على الطابع العقلائي الكامل للتزليل وعلى الطاقات اللامحدودة الكامنة في السنّة النبوية. فحين كان المسلمون يحيون حسب إرشادات الدين التي تحضّ على التفكير وتشجع الروح النقدي، أثبت الإسلام أنه حامل مشعل التقدم والرقي)<sup>٤</sup>

قلت: ما أصدق هذا الرجل.. وما أعظم فهمه للإسلام.. إن كثيرا من المسلمين يحتاجون إلى التلمذ عليه ليعرفوا قيمة دينهم.

قال: صدقت.. لقد رأيت من المسلمين من يناقشه مناقشة شديدة، حتى خلت المسلم كافرا والكافر مسلما.

قلت: الإسلام والكفر حكمان لله.. ولعل فضل الله يكون قد تدارك هذا الرجل الفاضل ليكتب في قلبه الإيمان الذي عاش يدافع عنه.. وقد قال ﷺ: «إن الرجل منكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة»<sup>٥</sup>

### ريجيس بلاشير:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ريجيس بلاشير)<sup>٦</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا

(١) إنسانية الإسلام، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) إنسانية الإسلام، ص ٧٥.

(٣) إنسانية الإسلام، ص ٧٨.

(٤) إنسانية الإسلام، ص ٣٠٥.

(٥) رواه البخاري ومسلم، وهذه رواية من روايات الحديث.

(٦) بلاشير (١٩٧٣-١٩٠٠) R. L. Blachere، ولد بالقرب من باريس، وتلقى دروسه الثانوية في الدار البيضاء، وتخرج بالعربية في كلية الآداب بالجزائر (١٩٢٢)، وعين أستاذا لها في معهد مولاي يوسف بالرباط، ثم انتدب مديراً لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط (١٩٢٤-١٩٣٥)، واستعدته مدرسة اللغات الشرقية بباريس أستاذاً لكرسي الآداب العربي

باحث فرنسي اهتم باللغة العربية وبالآداب الإسلامي، وقد قاده ذلك إلى الاهتمام بالقرآن، وقد سمعت له بعض الشهادات الطيبة عن القرآن وحفظه وإعجازه، سأكتفي بأن أسردها لك سرداً:  
(إن الفضل يعود إلى الخليفة عثمان بن عفان لإسهامه قبل سنة ٦٥٥هـ في إبعاد المخاطر الناشئة عن وجود نسخ عديدة من القرآن، وإليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت نصّ كتابهم المتزل، على مدى الأجيال القادمة)<sup>١</sup>

(لا حرم في أنه إذا كان ثمة شيء تعجز الترجمة عن أدائه فإنما هو الإعجاز البياني اللفظي والجرس الإيقاعي في الآيات المترلة في ذلك العهد.. إن خصوم محمد قد أخطئوا عندما لم يشاءوا أن يروا في هذا إلا أغاني سحرية وتعويدية، وبالرغم من أننا على علم - استقرائياً فقط - بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطل هذا الحكم وثافته، فإن للآيات التي أعاد الرسول ذكرها في هذه السور اندفاعاً وألقاً وجلالة تخلف وراءها بعيداً أقوال فصحاء البشر كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعية التي وصلتنا)<sup>٢</sup>  
(إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعليمه فقط، إنه أيضاً ويمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر تحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من التحف.. إن الخليفة المقبل عمر بن الخطاب المعارض الفظ في البداية للدين الجديد، قد غدا من أشد المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن. وسنورد الحديث فيما بعد عن مقدار الافتتان الشفهي بالنص القرآني بعد أن رثله المؤمنون)<sup>٣</sup>

(الإعجاز هو المعجزة المصدقة لدعوة محمد الذي لم يرتفع في أحاديثه الدنيوية إلى مستوى الجلال القرآني)<sup>٤</sup>  
(في جميع المجالات التي أطللنا عليها من علم قواعد اللغة والمعجمية وعلم البيان، أثارت الواقعة القرآنية وغذت نشاطات علمية هي أقرب إلى حالة حضارية منها إلى المتطلبات التي فرضها إخراج الشريعة الإسلامية. وهناك مجالات أخرى تدخل فيها (الواقعة القرآنية) كعامل أساسي.. ولا تكون فاعليتها هنا فاعلية عنصر منبه فقط، بل فاعلية عنصر مبدع تتوطد قوته بنوعيته الذاتية)<sup>٥</sup>

(إن معجزة النبي الحقيقية والوحيدة هي إبلاغه الناس رسالة ذات روعة أدبية لا مثيل لها، فمن هو ذلك الرجل المكلف بالمهام الثقيلة العبء وهي حمل النور إلى عرب الحجاز في أوائل القرن السابع؟ إن محمداً لا يبدو في القرآن إطلاقاً، منعماً عليه بمواهب تزهه عن الصفات الإنسانية، فهو لا يستطيع في نظر معاصريه المشركين أن يفخر بالاستغناء عن حاجات هي حاجاتهم، وهو يصرّح بفخر أنه لم يكن سوى مخلوق فإن: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا

---

(١٩٣٥-١٩٥١)، ونال الدكتوراه (١٩٣٦)، وعين أستاذاً محاضراً في السوربون (١٩٣٨٩)، ومشرفاً على مجلة (المعرفة)، التي ظهرت في باريس باللغتين العربية والفرنسية، من آثاره: دراسات عديدة عن تاريخ الأدب العربي في أشهر المجالات الاستشرافية، وكتاب (تاريخ الأدب العربي) (باريس ١٩٥٢)، وترجمة جديدة للقرآن الكريم في ثلاثة أجزاء (باريس ١٩٤٧-١٩٥٢)، وغيرها.

(١) تاريخ الأدب العربي ٢/٢٢٠.

(٢) تاريخ الأدب العربي، ٢ / ٣١٠.

(٣) القرآن الكريم، ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٤) القرآن الكريم، ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٥) القرآن الكريم، ص ١٠٤.



بَشْرٌ مِّثْلِكُمْ ﴿ (الكهف: ١١٠) وهو لم يتلق أي قدرة على صنع المعجزات، ولكنه انتخب ليكون منذراً ومبشراً للكافرين. إن نجاح رسالته مرتبط إذن في قيمتها الإحيائية وإلى شكلها المنقطع النظير. ولم يكن محمد رغم ذلك، صاحب بيان ولا شاعراً، فإن الأخبار التي روت سيرته لم تحسن الاحتفاظ بذكرى مفاخراته الشخصية، وثمة عوامل تحملنا على الشك فيما إذا كان عرف استعمال السجع، أو أنه تلقى من السماء فنّ ارتجال الشعر. وعندما قال عنه المكيون المشركون أنه شاعر، أو حين عرّضوا بأن مصدر الوحي جنّي معروف أزال الله عنه هذه التهمة: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ، لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (يس: ٦٩-٧٠) وهكذا يطرح هذا الوحي البالغ جماله حد الإعجاز، الوثائق بحمل الناس بقوة بيانه على الهداية، كظاهرة لا علاقة لها بالفصاحة ولا الشعر)<sup>١</sup>

(أما عن انتصار الإسلام فثمة أسباب تداخلت وفي طبيعتها القرآن والسنة وحالة الحجاز الدينية، ونصح وبيان وأمانة الرجل المرسل لإبلاغ الرسالة المتزلة عليه)<sup>٢</sup>

### إميل درمنغم:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إميل درمنغم E. Dermenghem فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق فرنسي، عمل مديراً لمكتبة الجزائر إبان الاستعمار، من آثاره: (حياة محمد) (باريس ١٩٢٩) وهو من أدق ما صنّفه مستشرق عن النبي ﷺ، و(محمد والسنة الإسلامية) (باريس ١٩٥٥م)، ونشر عدداً من الأبحاث في المجلات الشهيرة مثل: (المجلة الأفريقية)، و(حوليات معهد الدراسات الشرقية)، و(نشرة الدراسات العربية) وغيرها.

ولهذا الرجل الفاضل شهادات قيمة عن القرآن والإسلام والحضارة الإسلامية سأبت لك منها ما يسمح به الوقت:

فهو يشهد بالاحترام العظيم الذي ناله المسيح في المصادر الإسلامية، وخاصة القرآن الكريم، فيقول: (للمسيح في القرآن مقام عال، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهراً عن مقاصده وحدث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اختصار على الوحي وحده.. والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى كلمة الله، أو روح الله، ألقاها إلى مريم وأنه من البشر.. وهو يذمّ مذهب القائلين بالوهية المسيح ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادة ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من الله وعيسى ومريم)<sup>٣</sup>

وهو يرد على المقولة التي كانت تتردد في ذلك الوقت عن كون الدين أفيون الشعوب، بقوله: (سيكون القرآن حافزاً للجهاد يردده المؤمنون كما يردد غيرهم أناشيد الحرب، محرّضاً على القتال جامعاً لشؤونه، محرّكاً

(١) تاريخ الأدب العربي: ٢ / ١٤ - ١٥.

(٢) تاريخ الأدب العربي: ٢ / ٥٠.

(٣) حياة محمد، ص ١٣١ - ١٣٢.

لغاتري الهمم، فاضحاً للمخلفين مخرباً للمنافقين، واعدداً الشهداء بجنات عدن)<sup>١</sup>  
ويتحدث عن القرآن ومدى الجدوية التي نالت حفظه، فيقول: (كان محمد يعد نفسه وسيلة لتبليغ الوحي، وكان مبلغ حرصه أن يكون أميناً مصعباً أو سجلاً صادقاً أو حاكياً معصوماً لما يسمعه من كلام الظل الساطع والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوي، لكلام الله الذي هو أم الكتاب، للكلام الذي تحفظه ملائكة كرام في السماء السابعة.. ولا بد لكل نبي من دليل على رسالته، ولا بد له من معجزة يتحدى بها.. والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة<sup>٢</sup>، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال.. إلى يومنا يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان محمد يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدي أقوم دليل لمحمد على صدق رسالته.. ولا ريب أن في كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة في حياة الخاصة، تأتيه بما يهزّ الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب في أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن سرّ نفوذه وعظيم نجاحه)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن مظاهر الصدق التي تدل على أن القرآن الكريم ليس افتراء من محمد ﷺ، فيقول: (كان لمحمد بالوحي آلام كبيرة.. وحالات مؤثرة كره أن يطلع الناس عليها، ولاحظ أبو بكر ذات يوم، والحزن ملء قلبه، بدء الشيب في لحية النبي فقال له النبي: (شيبتي هود وأخواتها: الواقعة والحاقة والقارعة). وكان النبي يشعر بعد الوحي بثقل في رأسه فيطبه بالمرهم، وكان يدثر حين الوحي فيسمع له غطيظ وأنين. وكان إذا نزل الوحي عليه يتحدر جبينه عرقاً في البرد)<sup>٤</sup>

ويقول: (كان محمد، وهو البعيد من إنشاء القرآن وتأليفه ينتظر نزول الوحي إليه أحياناً على غير جدوى، فيألم من ذلك، ويود لو يأتيه الملك متواتراً)<sup>٥</sup>

ويتحدث عن بعض مواقف رسول الله ﷺ الدالة على صدقه بإعجاب، فيقول: ( ولد لمحمد، من مارية القبطية ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن عليه كثيراً ولحده بيده وبكاه، ووافق موته كسوف الشمس فقال المسلمون: إنها انكسفت لموته، ولكن محمداً كان من سمو النفس ما رأى به رد ذلك فقال: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يجسفاً لموت أحد..)<sup>٦</sup> فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال)<sup>٧</sup>

ويقول: (إن محمداً الذي خلق القيادة لم يطلب معاصريه بغير ما يفرض عليهم من الطاعة لرجل يبلغهم رسالات الله، فهو بذلك واسطة بين الله رب العالمين والناس أجمعين.. وكان ينهى عن عدّه ملكاً.. ولقد نال

(١) حياة محمد، ص ١٩٥.

(٢) وهذا لا يعني أنه ليس لرسول الله ﷺ معجزات حسية، وقد سبق تفصيل ذلك والمقارنة بين معجزات النبي ﷺ ومعجزات المسيح في رسالة (معجزات حسية) من هذه السلسلة.

(٣) حياة محمد، ص ٢٨٩ - ٢٨٠.

(٤) حياة محمد، ص ٢٨٣.

(٥) حياة محمد، ص ٢٨٥.

(٦) رواه البخاري ومسلم.

(٧) حياة محمد، ص ٣١٨.

السلطان والثراء والمجد، ولكنه لم يغير بشيء من هذا كله فكان يفضل إسلام رجل على أعظم الغنائم، وما كان يمحضه عجز كثير من الناس عن إدراك كنه رسالته<sup>١</sup>

ويتحدث عن الجهد العظيم الذي بذله رسول الله ﷺ في سبيل نجاح الدعوة، فيقول: (تجلى بهذه الرحلة الباهرة [حجة الوداع] ما وصلت إليه من العظمة والسؤدد رسالة ذلك النبي الذي أمهكه اضطرهاد عشر سنين وحروب عشر سنين أخرى بلا انقطاع، وهو النبي الذي جعل من مختلف القبائل المتقاتلة على الدوام أمة واحدة)<sup>٢</sup>

ويقول: (الحق أن النبي لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحى إليه في غار حراء، فقضى حياة يعجب الإنسان بها، والحق أن عشرين سنة كفت لإعداد ما يقلب الدنيا، فقد نبتت في رمال الحجاز الجديدية حبة سوف تجدد، عما قليل، بلاد العرب وتمتد أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلسي. وليس لدينا ما نعرف به أن محمداً أبصر، حين أفاض من جبل عرفات، مستقبل أمته وانتشار دينه، وأنه أحسن بصيرته أن العرب الذين ألف بينهم سيخرجون من جزيرتهم لفتح بلاد فارس والشام وأفريقية وإسبانية)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن الأسباب الحقيقية التي جعلت الإسلام ينتشر بدل خرافة السيف، فيقول: (إن الذي أدى إلى تنافر الإسلام والنصرانية وتغلب الإسلام على النصرانية هو ما كانت عليه النصرانية من الفساد في القرن السابع من الميلاد، وفرق النصرانية الضالة هي التي كان محمد شاهداً عليها، وهو الذي لم يعرف غيرها، والمسائل المشكوك فيها الكثيرة التي مصدرها ما أدخله اليهود على التلمود وغيره)<sup>٤</sup>

ويقول: (لم يشرع الجهاد لمداية الناس بالسيف، ففي القرآن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، والقرآن يأمر المسلمين بالاعتدال وبأن لا يبدووا بالاعتداء)<sup>٥</sup>

ويقول: (كتب الفوز للعرب لأنهم كانوا أهلاً للفوز، وتمّ النصر للإسلام لأنه عنوان رسالة كان الشرق كثير الاحتياج إليها، واحتمل المسلمون ضروب العذاب قبل الهجرة ولم يستطيعوا لها رداً، فلما كانت الهجرة وكان ما أبدوه من المقاومة، والنصر، اتخذوا التسامح الواسع دستوراً لهم. أجل لم يبق للمشركين مقام في دار الإسلام، ولكنه أصبح لأهل الكتاب من اليهود والنصارى فيها حق الحماية وحرية العبادة وما إليهما وصاروا من المجتمع إذا ما أعطوا الجزية. قال النبي: (من آذى ذمياً فأنا خصمه)، وما أكثر ما في القرآن والحديث من الأمر بالتسامح، وما أكثر عمل فاتحي الإسلام بذلك ولم يرو التاريخ أن المسلمين قتلوا شعباً، وما دخول الناس أفواجا في الإسلام إلا عن رغبة فيه، وهنا نذكر أن عمر بن الخطاب لما دخل القدس فاتحاً أمر بأن لا يمسّ النصارى بسوء وبأن تترك لهم كنائسهم، وشمل البطرك بكل رعاية رفض الصلاة في الكنيسة خوفاً من أن يتخذ

(١) حياة محمد، ص ٣٦٠.

(٢) حياة محمد، ص ٣٥٩.

(٣) حياة محمد، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٤) حياة محمد، ص ١٣٧.

(٥) حياة محمد، ص ١٩٦.

المسلمين ذلك ذريعة لتحويلها إلى مسجد. وهنا نقول ما أعظم الفرق بين دخول المسلمين القدس فاتحين ودخول الصليبيين الذين ضربوا رقاب المسلمين فسار فرسانهم في نهر من الدماء التي كانت من الغزاة ما بلغت به ركبهم. وعقد النية على قتل المسلمين الذين تغلبوا من المذبحة الأولى<sup>١</sup>

ويتحدث عن عدالة الشريعة الإسلامية ورحمتها وآثارها، فيقول: (كان للدعوة المحمدية في جزيرة العرب أثر عظيم ثابت في تقدم الأسرة والمجتمع وفي تقدم الصحة أيضاً، فقد حسن بها مصير المرأة، وحرّم بها الزنا والمتعة وحياة الغرام، ومنع بها إكراه القيان على البغاء لإثراء سادقهن. والإسلام، وإن أباح الرق، نظم أحكامه فعدّ فك الرقاب من الحسنات ومكفراً لبعض السيئات)<sup>٢</sup>

ويقارن بين موقف الإسلام من الغرائز مع موقف المسيحية، فيقول: (تُعارض الآداب الإسلامية بالنسك النصراني أحياناً معارضة مصنوعة فالإسلام وإن بدا أكثر تسامحاً في الميل الجنسي، لم يكلف نفساً إلا وسعها ويرى كمال العبادة في نيل الجسم حقه الشرعي، ولكن زهد الصوفية المسلمين يعدل زهد نساك جميع الأديان، ولكن الإسلام حرم الخمر وفرض الصوم الصارم الذي لم تعرف مثله ديانة أخرى، ولكن المسلمات ملزمات بهندام وزى يتعدان كثيراً عن الأزياء الأوروبية العصرية، فمن العبث إذن أن يزعم وجود فروق كبيرة بين الأديان مع اختلاف في النظر والعمل وتباين في النظريات نفسها)<sup>٣</sup>

ويقول: (كان كثير من المسلمين يكثر من التوبة والاستغفار والصلاة والصوم، فرأى محمد أن القصد أولى من الإفراط. فأشار بالاعتدال في التقشف وبتترك كل ما يميت النفس، وحدث أن بعضهم قادوا أنفسهم إلى الحج بربط أنوفهم بأرسان الجمال فقطع محمد هذه الأرسان لأن الله ليست له حاجة بجذع الأنوف)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن امتزاج الدنيا بالآخرة والعبادة بالحياة في القرآن الكريم، فيقول: (على ما تراه في دعوة النبي من المبادئ الأخروية لم يأل النبي جهداً في تنظيم المجتمع الإسلامي تنظيمًا عملياً، فكان القرآن كتاب شريعة كما كان مثل كتاب الزبور)<sup>٥</sup>

ويتحدث عن تأثير الفتوحات الإسلامية في التنوير الذي حصل لأوروبا والمسيحية<sup>٦</sup>، فيقول: (كانت الفتوح الإسلامية جزاءً مقدراً وخزياً كبيراً على النصرانية الشرقية المتفرقة المنحطة.. وكان سلطان العرب غلاً أكرهت به أوروبا على الصواب، فكان ظهور العرب ووعيدهم حافزين للنصرانية إلى سلوك سبيل الإصلاح والترقي)<sup>٧</sup>

ويتحدث عن الخلاص الذي قدمه الإسلام للبشرية، فيقول: (إن العرب إذ صار لهم سيد دان له الجميع..

(١) حياة محمد، ص ٣٦٩ - ٣٧٠.

(٢) حياة محمد، ص ٢٩٠.

(٣) حياة محمد، ص ٢٩٢.

(٤) حياة محمد، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٥) حياة محمد، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٦) انظر ما يثبت ذلك في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (خلاص) من هذه السلسلة.

(٧) حياة محمد، ص ١٤٤.

وصارت لهم روح عامة ومبدأ واحد، أصبحوا من القوة ما استطاعوا به أن يكونوا ذوي شأن في العالم.. وكانوا مستعدين ليرثوا الدول العالمية المتحضرة. [وهم] على خلاف الجرمان والوندال والبرابرة بدوا وارثين مستعدين لتمثيل دورهم في التاريخ والصعود تَوًّا في سَلَم الحضارة. وكان ظهورهم في الوقت المناسب.. فأنقذوا العالم من الانهيار، وأخذوا المصباح من أيدي البيزنطيين والفرس العاجزة فكان دور خلفاء بني أمية وبني العباس الذي يعد من أنضر أدوار التاريخ، وذلك قبل أن ينتقل هذا المصباح في القرن الثالث عشر إلى ما بين البارتونون وشارتر. والعرب لو تركت حبالهم على غوارهم ما قاموا بغير التخريب.. ولكنهم جلبوا معهم الإسلام والمروءة حين قبضوا على زمام المدنيات القديمة التي كادت تنحلّ فازدهرت بفضلهم)<sup>١</sup>

وفي حديث له عن المرأة قال: (مما لا ريب فيه أن الإسلام رفع شأن المرأة في بلاد العرب وحسّن حالها، قال عمر بن الخطاب: « ما فتتنا نعد النساء من المتاع حتى أوحى في أمرهن مبيئًا لهن »، وقال النبي: (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم). أجل، إن النبي أوصى الزوجات بإطاعة أزواجهن، ولكنه أمر بالرفق بهن ونهى عن تزويج الفتيات كرها وعن أكل أموالهن بالوعيد أو عند الطلاق.. ولم يكن للنساء نصيب في الموارث أيام الجاهلية.. فأنزلت الآية التي تورث النساء. وفي القرآن تحريم لوأد البنات، وأمر بمعاملة النساء والأيتام بالعدل، ونهى محمد عن زواج المتعة وحمل الإماء على البغاء.. وأباح تعدد الزوجات.. ولم يوصي الناس به، ولم يأذن فيه إلا بشرط العدل بين الزوجات فيهب لإحداهن إبرة دون الأخرى.. وأباح الطلاق أيضاً مع قوله: (أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق). وليس مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة من الحقوق الطبيعية مع ذلك، ولم يفرضه كتاب العهد القديم على الآباء، وإذا كان هذا قد أصبح سنة في النصرانية فذلك لسابق انتشاره في بلاد الغرب، وذلك من غير أن يحمله رعايا نيرون إلى بلاد إبراهيم ويعقوب.. وأيهما أفضل: تعدد الزوجات الشرعي أم تعدد الزوجات السري؟.. إن تعدد الزوجات من شأنه إلغاء البغاء والقضاء على عزوبة النساء ذات المخاطر<sup>٢</sup>

ويرد على بعض الشبه المرتبطة بهذا، فيقول: (من المزاعم الباطلة أن يقال إن المرأة في الإسلام قد جردت من نفوذها زوجة وأمًّا كما تُذم النصرانية لعدّها المرأة مصدر الذنوب والآثام ولعنّها إياها، فعلى الإنسان أن يطوف في الشرق ليرى أن الأدب المترلي فيه قوي متين وان المرأة فيه لا تحسد بحكم الضرورة نساءنا ذوات الثياب القصيرة والأذرع العارية ولا تحسد عاملاتنا في المصانع وعجائزنا، ولم يكن العالم الإسلامي ليجهل الحب المترلي والحب الروحي، ولا يجهل الإسلام ما أخذناه عنه من الفروسية المثالية والحب العذري)<sup>٣</sup>

وهو يتحدث عن تأثير غياب الإسلام عن المجتمع الإسلامي، فيقول: (كان الانحطاط السياسي والاجتماعي موازياً لنسيان مبادئ الإسلام الصحيح مع أنه لم ينشأ عنها، واليوم يظهر أن الأمم الإسلامية تنهض وهي تستطيع أن تمثل دوراً كبيراً فتكون أداة وصل بين الغرب والشرق الأقصى وتكون ذخراً من أذخار

(١) حياة محمد، ص ٣٦٩.

(٢) حياة محمد، ص ٣٢٩-٣٣١.

(٣) حياة محمد، ص ٣٣١.

العالم القديم<sup>١</sup>

قلت: ما أصدق هذا الرجل.. وما أروع شهاداته.

ثم أضفت أقول: هذا مع تخلفنا عن ديننا.. فكيف لو عدنا إليه؟

قال: لو عدتم إليه كما طلب منكم لرأيتم العالم كله بين أيديكم يتتلمذ عليكم.

قلت: العالم الآن كله يحاربنا.

قال: لأنكم حلتم بينه وبين شمس الحقيقة.. فلذلك ترونه ينتقم منكم، وأنتم تتوهمون أنه ينتقم من

الإسلام.

### الكونت هنري دي كاستري:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الكونت هنري دي كاستري)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا الرجل من من أكثر المستشرقين إنصافاً للإسلام، وله في هذا كتاب سماه (الإسلام حواطر وسوانح)، وقد ذكر في هذا الكتاب غايته من تأليفه، فقال: (إن غاية ما يرمى إليه هو إطلاع مواطنيه على صورة صحيحة للإسلام حتى يحاطوا بأصدق المعلومات عن العقيدة التي يعتنقها بعض رعاياهم في القارة الأفريقية، مما يسهل لهم التفاهم معهم والسيطرة عليهم)

وقد ذكر في مقدمته الظروف التي دعتة إلى تأليفه، فقال: ( ذات يوم عندما كنت ضابطاً في الجيش الفرنسي بالجزائر خرجت أجوب الصحراء في ولاية وهران وخلفي ثلاثون من الفرسان العرب.. وعندما حان وقت الصلاة، ترحلوا عن جيادهم واصطفوا لأداء صلاة العصر جماعة.. وجعلتُ أشاهد حركات المصلين وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع الله أكبر، الله أكبر، فكان هذا الاسم الإلهي يأخذ من ذهني مأخذاً لم يوجد فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين.. وكنت أشعر بأنهم في صلاتهم تلك أرفع مني مقاماً وأعز نفساً.. وهم يكررون إلى رهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقاً وإيماناً.. فأحسست أنني منجذب بجلاوة الإسلام كأنني أول مرة شاهدت في الصحراء قوماً يعبدون خالق الأكوان)<sup>٣</sup>

وقد وصف شعوره — عندما أضر أن يتنحى جانباً حتى يفرغوا من أداء صلاتهم — فقال: (كنت أود لو أن الأرض انشقت فابتلعتني، وجعلت أشاهد البرانس العريضة تنثني وتفرج بحركات المصلين، وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع (الله أكبر.. الله أكبر) فكان لهذا الاسم الإلهي أثر عجيب في نفسي، وكنت أشعر بمرج لست أجد لفظاً يعبر عنه بسبب الحياء والانفعال.. كنت أحس بأن أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامي قبل هذه اللحظة، يشعرون في صلاتهم بأنهم أرفع مني مقاماً وأعز نفساً)

(١) حياة محمد، ص ٣٧١ ٣٧٢.

(٢) الكونت هنري دي كاستري (١٨٥٠-١٩٢٧)، مقدم في الجيش الفرنسي، قضى في الشمال الأفريقي ردحاً من الزمن. من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب) (١٩٥٠)، (الأشراف السعديون) (١٩٢١)، (رحلة هولندي إلى المغرب) (١٩٢٦)، وغيرهما.

(٣) الإسلام: حواطر وسوانح، ص ٢ - ٣.

ثم ذكر كيف دفعته تلك الخواطر الى الاستزادة من التعرف على مبادئ الإسلام ، فكان من أهم ما لفت نظره الأسلوب الذي أنتشر به الاسلام.. وكيف قاومه العرب في البداية ، ثم استجابوا له فرادى وأفواجا، فقال: ( لو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء الفتوحات الاسلامية مع أننا لا نزال نرى القرآن يسطر جناحيه في جميع ارجاء العالم )

ثم ضرب مثلا على ذلك بوجود عدة ملايين من المسلمين في الصين، مع أن الفتوحات الاسلامية لم تبلغ تلك البلاد، كما ضرب المثل بانتشاره بين الملايين من سكان القارة الافريقية !

ثم قال: ( وهكذا جلب الاسلام قسما عظيما من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس) وتحدث كاستري عن تعذر إخراج المسلمين عن دينهم عندما تناول الصعوبات العديدة التي اعترضت سبيل المبشرين الفرنسيين في مستعمراتهم الإفريقية ومنها الجزائر — لحمل المسلمين على نبذ دينهم — فقال: ( إن الإسلام ليس في أهله من يمرق عنه إلى غيره ، ويعيد عن فكر المسلمين تصور هذا الامر ، حتى أنهم لا يجدون لفظاً يعبرون به عن صفات من يأتيه، كما أنهم تحيروا في وصف المسلمين الذين تجنسوا بالجنسية الفرنسية ، لأن فيها معنى من معاني الردة)

بعدها قارن (كاستري) بين العجز عن حل المسلمين على ترك دينهم، ومايلقاه المسلمون - في الوقت نفسه - من يسر في أفئاع غيرهم باعتراف دينهم.

ثم احتتم كاستري كتابه بقوله: ( لو لم يكن للإسلام من فائدة إلا تحويل عبدة الاصنام من وثنيين إلى موحدين ، وترقية أخلاقهم ومكاثمتهم، لكفى بذلك داعيا إلى معاملته بسياسة التلطف والاعتدال ، جريا على قاعدة العمل بأخف الضررين)

سكت الباب قليلا، ثم قال: هذا عرض مختصر لما جاء في كتابه، وسأذكر لك الآن بعض شهاداته التي أهلته لأن يصادق الإسلام:

فمنها شهادته عن الإعجاز القرآني، والتي يقول فيها: (إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أُمي وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى. آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب فأمن برب قائلها، وفاضت "عين نجاشي" الحيشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة زكريا وما جاء في ولادة يحيى وصاح القسس أن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى.. لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا. غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سبباً في معارضة تأثيره في عقول العرب. ولقد أصاب (جان جاك روسو) حيث يقول: (من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمداً يملئه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب.. لخر ساجداً على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار فنحن من أحلك نود الموت أو الانتصار).. وكيف يعقل أن النبي ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم

العالمون.. ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب)<sup>١</sup>

ويقول: (أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرّاً من الأسرار التي تعذر فك طلاسمها ولن يسر غور هذا السر المكنون إلا من يصدق بأنه منزل من الله)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن مواضع الاتفاق بين القرآن والكتاب المقدس، ويفسره التفسير الصحيح<sup>٣</sup>، فيقول: (قد نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض المواضع، إلا أن سببه ميسور المعرفة.. إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها، كما أن النبي خاتم الأنبياء والمرسلين)<sup>٤</sup>

وفي موضع آخر يعلل ذلك الاتفاق بقوله: (إن دين الأنبياء كان كله واحداً فهم متحدون في المذهب منذ آدم إلى محمد وقد نزلت ثلاثة كتب سماوية وهي الزبور والتوراة والقرآن. والقرآن بالنسبة إلى التوراة كالتوراة بالنسبة إلى الزبور وإن محمداً بالنظر إلى عيسى كعيسى بالنظر إلى موسى، ولكن الأمر الذي فهم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوي يتزل للناس وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد ولن تجد بعده لكلمات الله تديلاً. إذا تقرر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة، فمحمد كعيسى قال إنه بعث ليتم رسالة من قبله لا لبيدها فلم يكن من أمره الابتعاد عن تقدمه ولذلك كان يصرح على الدوام بأنه يعيد على الناس ما نزل على الأنبياء من قبله.. على أن بعض المشابهات لا تحتاج إلى مثل هذا التفسير إذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بني إسرائيل، وكان يعبد الله الذي عبده فلا عجب أن تشابهت ألفاظ التضرعات وتجانست أصوات الدعاء)<sup>٥</sup>

ويتحدث عن العقيدة الإسلامية ومدى انسجامها مع العقل، واستحالة أن يكون مصدرها يهودياً أو نصرانياً، فيقول: (لا إله إلا الله) ذلك هو أصل الاعتقاد بإله فرد ورب صمد متزه عن النقائص يكاد العقل يتصوره وهو اعتقاد قوي يؤمن به المسلمون على الدوام ويمتازون به على غيرهم من القبائل والشعوب، أولئك حقاً هم المؤمنون.. ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبي من مطالعته التوراة والإنجيل، إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته)<sup>٦</sup>

ويتحدث عن انسجام الإسلام مع الفطرة، فيبينما نرى تشدده في نواحي العقيدة نرى تساهله فيما يرتبط بالغرائز التي تقتضيها الفطرة، فيقول: (لقد كان فكر النبي في الألوهية من أرفع الأفكار وأسمأها، ولكنه تسامح للناس كثيراً في رغباتهم وما كانوا إليه يميلون. نعم يجب على الرجل أن يعتقد ويعبد الله، ولكن لا يجب عليه أن

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٨ - ٢٠.

(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٢٠.

(٣) انظر الأدلة على هذا في رسالة (كلمات مقدسة) من هذه السلسلة.

(٤) الإسلام: خواطر وسوانح ص ٢٢ - ٢٣.

(٥) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٢٣ - ٢٤.

(٦) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٧ - ١٨.



يجارب نفسه ويعذبها العذاب الأليم ليقهرها.. ومع ذلك فمن الشهوات ما نهى النبي عنه وأمر بمجاهدة النفس فيه. فقد حرم على المسلمين شرب الخمر وكل شراب يؤثر مثله، وقد بالغ المسلمون في العمل بهذا النهي، فكان من وراء ذلك أن نجت الأمم الإسلامية من مرض المسكرات وهي الداهية التي تفجع اليوم أمماً كثيرة من المسيحيين، وكانت إحدى الأسباب في اضطراب المجتمع الإنساني وظهور مذهب الفوضويين مما تجهله الأمم الإسلامية. هكذا جذب الإسلام قسماً عظيماً من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها خمس مرات في كل يوم، وبما اشتمل عليه من الترفق بطبيعة البشر حيث أتاح للناس شيئاً مما يشتهون<sup>١</sup>

ويتحدث عن العلاقات الاجتماعية التي أسسها الإسلام بين المسلمين، فيقول: (إن الرابط عند المسلمين هي أشد قوة منها لدى غيرهم من الأمم التي تدين بدين واحد، لأن القرآن شريعة دينية وقانون مدني وسياسي)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن الأخلاق التي كانت تحكم الفتوحات الإسلامية، فيقول: (إن [أتباع] محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم وهذه المحبة هي التي دفعت العرب في طريق الفتح وهو سبب لا حرج فيه، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة إذا أغاروا على الشام وساروا سير الصواعق إلى أفريقيا الشمالية من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطي ولم يتركوا أثراً للتعسف في طريقهم إلا ما كان لا بد منه في كل حرب وقتال، فلم يقتلوا أمة أبت الإسلام.. فكلما التقى المسلمون بأمة خيروها بين واحد من ثلاثة الإسلام أو الجزية أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزارها. هكذا كانت الأوامر التي زود بها أبو بكر الصديق خالد بن الوليد من أنفذه إلى الشام)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن سماحة الإسلام، فيقول: (إذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى استقرار حكومته استقراراً منظماً رأيناه أكثر محاسنة وأنعم ملمساً بين مسيحيي الشرق على الإطلاق. فما عرض العرب أبداً شعائر الدين المسيحي بل بقيت روما نفسها حرة في المراسلات مع الأساقفة الذين ما زالوا يرعون الأمة الخالية.. وكان الوثائم مستحكماً بين المسلمين والمسيحيين.. ومع هذه المسألة العظيمة من جانب المنتصر مع المغلوب، ضعفت الديانة النصرانية جداً ثم زالت بالمرّة من شمال أفريقيا.. ولم يكره أحد على الإسلام بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالألباب. نعم قد اعتنق الإسلام قوم مشوا وراء منافعهم ولكنهم قليلون بجانب من أسلم عن اعتقاد صادق وميل صحيح.. وصار من اللازم أن يثبت الإسلام لمن أرادته على يد القاضي ويجرر بذلك محضر يذكر فيه أن المسيحي اعتنق الإسلام عن اعتقاد تام غير خائف ولا مكره، إذ لا يجوز أن يكره أحد على تغيير دينه)<sup>٤</sup>

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٣.

(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٣) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٣٥ - ٣٦.

(٤) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٣٩ - ٤٠.

ويقول: (قرأت التاريخ وكان رأيي بعد ذلك أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة وعلى حسن مسامرة ولطف مجاملة وهو إحساس لم يشاهد في غير المسلمين آنذاك)<sup>١</sup> ويرد على خرافة انتشار الإسلام بالسيف، فيقول: (إن الدين الإسلامي لم ينتشر بالعنف والقوة، بل الأقرب للصواب أن يقال أن كثرة مساملة المسلمين ولين جانبهم كانا سبباً في سقوط المملكة العربية. ومن المظنون أن المسلمين لو عاملوا الأندلسيين مثل ما فعل المسيحيون بالأمم الساكسونية، لأخلدت إلى الإسلام واستقرت عليه، لأنها مع تمتعها بجرية دينها المسيحي كانت كثيرة الانشقاق والأحزاب. وما لنا ولهذه الظنون والتخمينات وأمامنا أمر واحد ينبغي الوقوف عنده وهو أن ديانة القرآن تمكنت من قلوب جميع الأمم اليهودية والمسيحية والوثنية في أفريقيا الشمالية وفي قسم عظيم من آسيا حتى إنه وجد في بلاد الأندلس من المسيحيين المنتورين من تركوا دينهم حباً في الإسلام كل هذا بغير إكراه، إلا ما كان من لوازم الحروب وسيادة حكومة الفاتحين ومن دون أن يكون للإسلام دعاة وقوّام مخصصون وهو ما يقنعنا بأن للإسلام جاذبية وقوة انتشار.. لأنه لا يزال ينتشر حتى الآن)<sup>٢</sup>

ويقول: (إننا نعتقد أن استطلاع حال هذا الدين في العصر الحاضر لا يبقي أثراً لما زعموه من أنه إنما انتشر بجدّ الحسام. ولو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين مع أننا لا نزال نرى القرآن ييسط جناحيه في جميع أرجاء المسكونة)<sup>٣</sup>

ويرد على الشبه الكثيرة المثارة حول موقف الإسلام من تعدد الزوجات، فيقول: (إن الناس بالغوا كثيراً في مضار تعدد الزوجات عند المسلمين إن لم نقل أن ما نسبوه إليه من ذلك غير صحيح. فما تعدد الزوجات هو الذي ولد في الشرق تلك الرذائل الفاضحة، بل المعقول انه من شأنه تلطيفها، على أنني لست أدري إن كانت تلك الرذائل أكثر منها في الغرب، بل تلك وصمة ألصقت بالإسلام بواسطة السّواح الذين يرون أمراً في فرد فيجعلونه عامّاً من غير تثبيت فيه لولا هذا التعميم السطحي لما وجدوا شيئاً يملأون به مؤلفاتهم والواقع أن الرذائل الفاضحة موجودة في كل أمة ولقد يقع منها في باريس ولندن وبرلين أكثر مما يحدث في الشرق بأجمعه لأن النبي بالغ في تحريمها ولم يعدها من الذنوب الخفيفة)<sup>٤</sup>

ويقول: (لم يقتصر القرآن في التضييق على تعدد الزوجات على عدددهن، بل حرم ما كان معروفاً عند العرب قبله من الزواج لزمان محدد وفي ذلك شبه تحريم للطلاق لكونه لا يتأتى إلا بشروط مخصوصة)<sup>٥</sup> ورد على الشبهات التي يثيرها المغرضون حول عقد الزواج في الإسلام، فيقول: (من الخطأ الفاضح والغللو الفادح قولهم أن عقد الزواج عند المسلمين عبارة عن عقد تباع فيه المرأة فتصير شيئاً مملوكاً لزوجها لأن ذلك

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٤٤.

(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٨٦.

(٣) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٤٨ - ٥٠.

(٤) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٥٦.

(٥) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٥٧ - ٥٨.

العقد يخول للمرأة حقوقاً أدبية وحقوقاً مادية من شأنها إعلاء منزلتها في الهيئة الاجتماعية<sup>١</sup> ويتحدث عن قيم العفاف التي اهتمت التشريعات الإسلامية بنشرها، فيقول: (إننا لو رجعنا إلى زمن النبي ومكان ظهوره لما وجدنا عملاً يفيد النساء أكثر مما أناه فهن مدنات لنبيهن بأمر كثيرة وفي القرآن آيات ساميات في حقوقهن وما يجب لهن على الرجال.. ويرى القارئ من جميع تلك الآيات مقدار اهتمام الإسلام بمنع عوامل الفساد الناشئة عن التعشق بين المسلمين لكي يجعل الأزواج والآباء في راحة ونعيم.. ولقد أصبحت للمسلمين أخلاق مخصوصة، عملاً بما جاء في القرآن أو في الحديث، وتولدت في نفوسهم ملكات الحشمة والوقار، وجاء هذا مغايراً لأداب الأمم المتمدنة اليوم على خط مستقيم ومزياً لما عساه كان يحدث عن ميل الشرقيين إلى الشهوات لولا هذه التعاليم والفروض. والفرق بين الحشمة عند المسلم وبينها عند المسيحي كما بين السماء والأرض)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن استمرار نشر الإسلام في العالم رغم المكائد الكثيرة التي يتعرض لها، فيقول: (إن للمسلمين في الصين منزلة عليّة.. ويختم (وازيليف) وهو من الذين اشتغلوا بالإسلام في تلك النواحي أن مصيره القيام مقام مذهب (بوذا) وأن لمسلمي الصين اعتقاداً جازماً بأن الإسلام لا بد أن يسود حتى تزول به تلك الديانة القديمة البوذية، وهي مسألة من أهم المسائل، إذ الصين أهلة بثلاث العالم أو تزيد، فلو صاروا كلهم مسلمين لأوجب ذلك تغييراً عظيماً في حالة تلك البلاد بأجمعها فيمتد شرع محمد من جبل طارق إلى المحيط الأكبر الهادي ويخشي على الدين المسيحي مرة أخرى ومعلوم أن أمة الصين أمة عاملة وإن هدأت أخلاقها وجميع الأمم تستفيد الآن من عملها فلو جاءها التعصب الإسلامي ذو البأس القوي لخشيت بقية الأمم من السقوط تحت سلطتها وقال (مسيو مونتيه) لقد صار من المحقق أن الإسلام ظافر لا محالة على غيره من الأديان التي تتنازع البلاد الصينية)<sup>٣</sup>

ويقول: (قال (مسيو مونتيه): أن أكثر انتشار الإسلام في أفريقيا فهو يتقدم فيها تقدماً سريعاً وينجح نجاحاً كلياً لأن أزر المسلمين فيها مشدود بما لهم من المكنة في الجهة الشمالية.. فلا ينازع الدين الإسلامي دين غيره لذلك يكثر عددهم وينمو الدين على الدوام)<sup>٤</sup>

ويقول: (إن الإسلام يرهن على قوته وحياته باكتساب الوثنيين في أواسط أفريقيا وتجنيدهم تحت راية القرآن. وله كذلك في الشمال الشرقي من بلاد الزنج وفي السودان ما يدل على قوته الغربية وسيره المدهش. إذ قامت مملكتان قويتان مملكة المهدي ومملكة إمام جغبون [السنوسية] منذ خمسين سنة على هيئة حكومات تشخص الحكومة الدينية التي أرادها النبي الإسلامي كذلك توجد في الزاوية المقابلة لهاتين المملكتين مملكة ثالثة في شمال أفريقيا وهي على نسقها ولا تزال تقاوم هجمات الديانات المسيحية ظافرة عليها ونعني بها مملكة

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٥٧.

(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٥٨ - ٥٩.

(٣) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٨٧ - ٨٨ (عن مسيو دابري: الديانة المحمدية في الصين وتركستان الشرقية، باريس ١٨٧٨).

(٤) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٨٨ - ٨٩.

ويتحدث عن الصمود الذي يديه المسلمون تجاه حملات التنصير، فيقول: (إن استعصاء المسلمين على التنصير بواسطة المرسلين واستحالة إخضاعهم بالقوة، هما السببان اللذان يعترضان تنصيرهم. والمرسلون من الكاثوليك هم أول المعرفين بوجود العدول عن الوعظ مباشرة ولكنهم مع ذلك متمسكون برسالتهم فلم يملوا من الجهاد في سبيلها أمام صلابة الإسلام.. ولكنهم لم يحوموا حول مسألة الدين مطلقاً، وهم إنما يزرعون البعد عن الدين مع كونهم من الأخبار، وعلى الرغم من أنهم لم ينجحوا في إدخال الإنجيل بين العرب فقد كانوا من أحسن الوسائل لنشر نفوذ الدولة الفرنسية)<sup>٢</sup>

(مضى على الإسلام في الجزائر نصف قرن لم يؤثر فيه الاحتلال الفرنسي، بسبب مقاومة الطوائف الدينية في تلك البلاد، ولو أن تلك الطوائف تعرف من نفسها اقتداراً على قذفنا في البحر لتقيم بعدنا مملكة إسلامية جامعة (بين السلطتين الدينية والسياسية) لاقتحمت الأخطار وقلبت الحكومة المسيحية ولكنهم يرون الغرض بعيداً لذلك هم يقصرون مساعيهم على إحياء روح البغضاء في نفوس تابعيهم.. وأكبر الطوائف وأشدها تمسكاً بمبادئها هي طائفة السنوسية وهي التي يخشى منها أكثر من غيرها ولها شيخ ذو دهاء ينظر إليه البعض كجامع وحدة الإسلام، وهو رجل رأى أنه يضعف عن مقاومة الحكومة الفرنسية في الجزائر مقاومة صريحة فعدل عن فتح الجزائر إلى فتح أرض غيرها للإسلام، وعلم سيدي السنوسي ما أحزن المسلمين من حكم المسيحيين.. فناداهم أن اخرجوا من دياركم إن أرض الله واسعة.. وانتقل إلى صحراء ليبيا الشاسعة حيث لحق به الواردون من كل مكان رغم جفاء الصحراء)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن رسول الله ﷺ وما كان يتحلى به من الصدق والأمانة معتبراً ذلك محل اتفاق، فيقول: (إن أشد ما نتطلع إليه بالنظر إلى الديانة الإسلامية ما اختص منها بشخص النبي ولذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الأدبية عليّ أحد في هذا البحث دليلاً جديداً على صدقه وأمانته المتفق تقريباً عليها بين جميع مؤرخي الديانات وأكبر المشيعين للدين المسيحي)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن أصالة رسالة النبي ﷺ، فيقول: (ثبت إذن أن محمداً لم يقرأ كتاباً مقدساً ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه)<sup>٥</sup>

ويقول: (لو رجعنا إلى ما وضعه الحكماء عن النبوة ولم يقبل المتكلمون من المسيحيين لأمكننا الوقوف على حالة مشيد دعائم الإسلام وجزمنا بأنه لم يكن من المبتدعين.. ومن الصعب أن تقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل عليه السلام.. إلا أن معرفة هذه الحقيقة لا تغير موضوع المسألة لأن الصدق حاصل في كل

- 
- (١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٠٠.
  - (٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٠٤.
  - (٣) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١١٣ - ١١٤.
  - (٤) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٦.
  - (٥) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٦.

حال<sup>١</sup>

ويقول: (لا يمكن أن ننكر على محمد في الدور الأول من حياته كمال إيمانه وإخلاص صدقه، فأما الإيمان فلن يتزعزع مثقال ذرة من قلبه في الدور الثاني الدور المدني وما أوتيته من نصر كان من شأنه أن يقويه على الإيمان لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغاً لا محل للزيادة فيه.. وما كان يميل إلى الزخارف ولم يكن شحيحاً.. وكان قنوعاً خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته.. تجرد من الطمع وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب ولكنه لم ينجح إلى الاستبداد فيها، فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيراً ولا حشماً، وقد احتقر المال)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن الآلام الكثيرة التي تحملها رسول الله ﷺ في سبيل تعليم الناس حقائق الإسلام، فيقول: (ولقد نعلم أن محمداً مرّ بمتاعب كثيرة وقاسى آلاماً نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته، فقد خلقه الله ذا نفس تمحّضت للدين ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلة عن الناس لكي يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذي ابتدعه المسيحيون وكان بغضهما متمكناً من قلبه وكان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة في جسمه ولعمري فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين وهو في ريعان الذكاء ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بجدّة التخيّل وقوة الإدراك.. إلا أن يقول مراراً ويعيد تكراراً هذه الكلمات (الله أحد الله أحد). كلمات ردها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدها عن فكرة التوحيد)<sup>٣</sup>

قلت: هذه شهادات صادقة تحيل أن يكون صاحبها مجرد متحدث عن الإسلام.

قال: صدقت.. عسى الله أن ينفعه بما قال.. فالله لا يضيع عنده شيء.

**جاك. س. ريسلر:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جاك. س. ريسلر)<sup>٤</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا باحث فرنسي.. بحث في الإسلام.. وصدق فيما بحث.. فلذلك أنطقه الله بشهادات كثيرة، سأذكر لك بعضها:

منها شهادته عن لغة القرآن وجمالها، بحيث يستحيل ترجمتها، فيقول: (لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أنزل ليقرأ ويتلى بصوت عال. ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية. ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها لتتمكن من تذوق جماله وقوته وسمو صياغته. ويخلق نثره الموسيقي والمسجوع سحراً مؤثراً في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة. فلا يستطيع أحد أن ينكر أن

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٢١.

(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ٢٤.

(٣) الإسلام: خواطر وسوانح، ص ١٦ - ١٧.

(٤) جاك. س. ريسلر J. S. Restler باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس.

سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمدًا كان ملهمًا بجلال الله وعظمته<sup>١</sup> ويتحدث عن معارف القرآن، وتأثيرها الممتد، فيقول: (كان في القرآن فوق أنه كتاب ديني خلاصة جميع المعارف.. وظل زمنًا طويلاً أول كتاب يتخذ للقراءة إلى الوقت الذي شكل فيه وحدة كتاب المعرفة والتربية. ولا يزال حتى اليوم النص الذي تقوم عليه أسس التعليم في الجامعات الإسلامية. ولا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروته اللغوية (إذ يذبل جمال اللغة في الترجمات كأما زهرة قطفت من جذورها) ولذلك يجب أن يقرأ القرآن في نصه الأصلي)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن النظام الذي جاء به القرآن، والذي يحل جميع الإشكالات التي قد تعرض للفرد والمجتمع، فيقول: (إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات. إنه يسعى على الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة.. وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواثيق، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس، إلخ..)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن امتداد الشريعة التي جاء بها القرآن ورسوخها، فيقول: (حقًا، لقد ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الأساسي لحياة المسلم ولم يتعرض ما جاء في القرآن من نظر وأخلاق ونظام لأية تغييرات ولا لتبديلات بعيدة الغور)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن امتداد التأثير القرآني في الحياة، فيقول: (يظل القرآن طيلة القرون الأولى للهجرة من جهة المبدأ مصدر الإلهام لكل العقلية الإسلامية فهو يضم بين طرافة الأفكار والأحاسيس الضرورية والكافية لتزويد أعظم الدراسات في الفكر)<sup>٥</sup>

وبجانب القرآن وتأثيره تحدث عن السنة النبوية المطهرة، وتأثيرها في حياة المسلمين، فيقول: (القرآن يكمله الحديث الذي يعد سلسلة من الأقوال تتعلق بأعمال النبي وإرشاداته. وفي الحديث يجد المرء ما كان يدور بخلد النبي، العنصر الأساسي من سلوكه أمام الحقائق المتغيرة في الحياة، هذه الأقوال، أو هذه الأحاديث التي يشكل مجموعها السنة دونت مما روي عن الصحابة رضي الله عنهم أو نقل عنهم مع التمهيص الشديد في اختيارها وهكذا جمع عدد كبير من الأحاديث.. والسنة هي المبينة للقرآن التي لا غنى عنها للقرآن)<sup>٦</sup>

ويتحدث عن بعض ثمار النبوة، فيقول: (كان لزاماً على محمد أن يبرز في أقصر وقت ممكن تفوق الشعب

(١) الحضارة العربية، ص ٣٠ - ٣١.

(٢) الحضارة العربية، ص ٤٥.

(٣) الحضارة العربية، ص ٥١.

(٤) الحضارة العربية، ص ٧٥.

(٥) الحضارة العربية، ص ٢١٢.

(٦) الحضارة العربية، ص ٣٢.

العربي<sup>١</sup> عندما أنعم الله عليه بدين سام في بساطته ووضوحه، وكذلك بمذهبه الصارم في التوحيد في مواجهة التردد الدائم للعقائد الدينية. وإذا ما عرفنا أن هذا العمل العظيم أدرك وحقق في أقصر أجل أعظم أمل لحياة إنسانية فإنه يجب أن نعترف أن محمداً يظل في عداد أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب والأديان<sup>٢</sup> وهو يتحدث عن صعوبة فهم الغرب للروح الإسلامية، باعتبار الاختلاف في طريقة التفكير، فيقول: (إن هذا الكتاب يمكن أن يتيح لمن يتصفحونه أن يدركوا على أفضل وجه ما الروح الإسلامية، وكيف صيغت هذه الروح على مر العصور. لقد وقف الرجل الغربي تجاه العالم العربي في حيرة وكأنه أمام سرٍّ غامض، فلم يكن مألوفاً له أي رد فعل من ردود الفعل الإسلامية، ولم يدرك كل نهج في وجود هذه الروح وفي الإحسان بها وفي قوتها الدافقة)<sup>٣</sup>

ويقارن بين القرآن والمسيحية، فيقول: (في سعي الإسلام إلى (المطلق) نبذ - لشدة عنايته بوحدة الله ووحدايته - عقيدة الثالوث المقدس مبتعداً في ذلك عن المسيحية التي كان يتهمها بنوع من الشرك لاعتقادها في ألوهية ثلاثة أشخاص. ولقد احترم الإسلام احتراماً نادر المثال تاريخ الأديان فاعترف بأن الكتب المقدسة لليهود والنصارى متزلة قبل أن يمسه التحريف.. وقد أشار النبي للدلالة على صدق رسالته إلى ما بين القرآن والكتاب المقدس من توافق وحثّ بكل تسامح وقوة إدراك في الوقت نفسه، اليهود على إطاعة شريعتهم، والمسيحيين على إطاعة أناجيلهم، وعلى أن يرتضوا القرآن، خاتم الكتب المقدسة والدين الإسلامي خاتم الأديان المتزلة)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن عدم وجود كهنوت في الإسلام مثلما هو الحال في المسيحية، وهذا انسجاماً مع عقيدته التوحيدية، فيقول: (الدين الإسلامي ليست له قرايين مقدسة ولا طقوس، والصلاة صلته المباشرة بين الله والمؤمنين.. وفي المسجد ينبض قلب الإسلام.. وفي أرجائه يحس المرء إحساساً حياً أنه بحضرة الله. الحق أنه لا شيء في المسجد إلا البساطة.. والجمال والتجانس)<sup>٥</sup>

ويتحدث عن قيمة الزكاة، ودورها في التكافل الاجتماعي، فيقول: (كانت الزكاة قبل كل شيء عملاً تعاونياً حراً وإدارياً ينظر إليه على أنه فضيلة كبرى. وفي تنظيم جماعة (المدينة) اعتد النبي هذا العمل الخير كضريبة شرعية إجبارية لصالح الفقراء والمعوزين. وسيتحول فيما بعد هذا النظام وسيتولد عنه هيئة من موظفين وبيت مال.. لكن إذا كانت الدولة قد صنعت هذا العمل الخير مصدراً لمواردها، فإن مبدأ الزكاة ظل - بفضل القرآن - فضيلة مارسها المسلمون تلقائياً بوصفه واجباً دينياً. وينبغي أن نزجي الشاء لمحمد فقد كان أول من

---

(١) من المعلوم أن رسول الله ﷺ خاطب البشر جميعاً، ولم يخاطب العرب وحدهم، ولكن العرب هم الوسطة التي توجه من خلالها الخطاب لسائر البشر.

(٢) الحضارة العربية، ص ٣٧.

(٣) الحضارة العربية، ص ١ (مقدمة الكتاب).

(٤) الحضارة العربية، ص ٧ - ٨.

(٥) الحضارة العربية، ص ٣٦.

شرع ضريبة تجبي من الأغنياء للفقراء، هكذا أوجد القرآن الرحمة الإيجابية<sup>١</sup> ويتحدث عن العلاقات الاجتماعية التي أسسها الإسلام، فانطبع بها المجتمع الإسلامي في فترات طويلة من تاريخه، فيقول: (على الرغم من تنوع الأجناس والشعوب التي تشكل الإسلام، كان المسلمون يبينون سلفاً عن خصائص متشابهة، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يفرق بين حضر وبدو، أغنياء وفقراء، كانوا يسلكون تقريباً مسلكاً واحداً. ذلك أن أية عقيدة تقوم على أسس ثابتة تحدث ردود فعل مماثلة عند أقوام متفاوتة. وقد وضع روح القرآن قواعد التصرفات اليومية للناس، وخلق الجو المعنوي للحياة، حتى تغلغل شيئاً فشيئاً في الأفكار فانتهى بتشكيل متناسق للعقليات والأخلاق. كما كان تأثير الدين عظيماً بسبب انتشار اللغة، وبسبب نتائج السياسة الخارجية المشتركة، وكذلك بسبب نتائج نظام اجتماعي معمم)<sup>٢</sup> ويتحدث عن النظام الشمولي الذي جاء به الإسلام، فيقول: (إن اسم الإسلام يمكن أن يؤخذ على ثلاثة معانٍ مختلفة: المعنى الأول دين، والثاني دولة، والثالث ثقافة، وبالاختصار حضارة فريدة)<sup>٣</sup> ويتحدث عن أسرار انتشار الإسلام، وأخلاقية الفتوحات الإسلامية، فيقول: (قامت الانتصارات المدوية للعرب على أسباب متنوعة يتجلى أهمها في الخلق السامي الذي كان قد تشرّب به العرب عن الدين الجديد، فقد طبعهم هذا الخلق على جرأة واحتقار للموت، جعلهم لا يغلبون)<sup>٤</sup> ويقول: (كان الفتح العربي يملك الرضا الضمني من السكان الذين كانوا يكرهون الإغريق والفرس ويكرهون استبدادهم الديني والسياسي، ونظام ضرائبهم الفادحة ولم يعد الوطنيون قادرين على أن يتحملوا أخيراً هذا الاستبداد المتغطرس من حكام أصبح تفوقهم ضرباً من الذكريات. تلك هي الأسباب التي من أجلها استقبلت هذه الشعوب المتاخمة جيرانها ذوي التاريخ الطويل كأهم ذوو قربي قد أقبلوا لتحريرهم من ظلم الغاصبين الأجانب الممقوت)<sup>٥</sup> ويقول: (لا نزاع في أن اللغة والدين اللذين انتشرا معاً قاما بدور خطير في هذا العمر الضخم لتقريب هذه الإمبراطورية الشاسعة وتحويل أبنائها إلى الإسلام. وحطمت هاتان القوتان الحواجز التي كانت تفرق بين الفاتحين وأهل البلاد وحولوا بعض الأجانب إلى عقيدتهم أكثر مما كان لروما في العصر القديم في هذا الميدان والأنجلوساكسون في الفترة المعاصرة. فالذي كان يدين بالإسلام وكان يتحدث ويكتب اللغة، يسمح له أن يعد عربياً، وهذا حدث خطير في تاريخ الحضارة الإسلامية. ولقد ألغت تلك القوة الموحدة بهذا الأسلوب الحدود السياسية، ومنحت بنحو ما شكلاً موحداً لبلاد مترامية الأطراف في ثلاث قارات وأصبحت فيما بعد خالية من القيود. وكان المسلم يجد في كل مكان نفس الدين ونفس الصلوات، ونفس الشرائع)<sup>٦</sup>

(١) الحضارة العربية، ص ٣٤.

(٢) الحضارة العربية، ص ٥٠.

(٣) الحضارة العربية، ص ٦٧.

(٤) الحضارة العربية، ص ٣٩.

(٥) الحضارة العربية، ص ٣٩ - ٤٠.

(٦) الحضارة العربية، ص ٢٤١.



ويتحدث عن قدرة الإسلام على التغلغل في النفوس والشعوب، بحيث يحول الغالبين إلى دين المغلوبين، فيقول: (أن المنتصرين سيعتقون دين المغلوبين الذين هككهم، وسوف يجعل من أنفسهم مدافعين بحماسة عن هذا الدين. وتثير هذه الظاهرة العجب، لكنها ليست من الندرة في تاريخ العالم الإسلامي. لقد كان هذا بالنسبة للأتراك السلجوقيين ثم بالنسبة لأبناء عمومته المغول بعد ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي وأخيراً بالنسبة للأتراك العثمانيين في القرن الرابع عشر، وسيظفر الدين الإسلامي بألمع انتصار طويلة الأزمنة المعنة في ظلال الفشل والغزو)<sup>١</sup>

ويتحدث عن سماحة الإسلام، فيقول: (كانت جميع الأديان لها حق الممارسة المطلقة في عبادتها، وكان اليهود المطارد لديهم مطلق الحرية في اقتناء الثروات ووصولوا أحياناً إلى مراكز سامية، واحتلظ المسيحيون مع المسلمين.. ونحدث أنهم احتفلوا بأعيادهم معاً في المسجد وفي الكنيسة، ونتيجة لهذه الحرية البالغة أقصى حد شوهد بعض المسيحيين يتخذون لأنفسهم أكثر من زوج على الرغم من تحريم الكنيسة) ويتحدث عن سر تفوق الحضارة الإسلامية في عهدها الطويلة، فيقول: (سيطر الإسلام أثناء خمسمائة عام من ٧٠٠ إلى ١٢٠٠م على العالم بالقوة وبالعلم، وبتفوق حضارته)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن تأثير الإسلام في الحضارة، فيقول: (لقد ورث الإسلام تراث اليونان من الفلسفة والعلوم، ثم بعد أن نماها، نقلها إلى أوروبا الغربية. كما أنه استطاع أن يوسع الأفق الفكري للعصر الوسيط وأن ينفذ بعمق إلى الفكر والحياة الأوروبيتين)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن الحضارة التي كانت تمتلئ بها المجتمعات الإسلامية في العصور الوسطى مقارنة بمثيلاًها في أوروبا وغيرها (إن ما يشاهده المرء من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر<sup>٤</sup> لم يكن له مثيل قبل ذلك. ففي كل مكان كلف لا حد له بالكتب. وآلاف المساجد تمتاز بفصاحة العلماء ومائة بلاط رائع تدوي بمباريات شعرية أو فلسفية، وطرقات خاصة بعلماء الجغرافية، وعلماء التاريخ، وعلماء الدين للبحث عن المعرفة. وهذه أهم يقظة فكرية في التاريخ الإسلامي)<sup>٥</sup>

ويتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الغرب، فيقول: (عندما بهرت الحضارة الإسلامية المشرقة بعض رجال الدين والعلمانيين من أوروبا المسيحية كلها، أخذوا يزحفون، حباً في الحرية التي تميزت بها هذه الحضارة إلى قرطبة وطليطلة وإشبيلية، لكي يحضروا دروس الجامعات الإسلامية ومحاضراتها)<sup>٦</sup> ويقول: (لكي نقيم حساباً كاملاً لإسهامات الشرق الفكرية تجاه الغرب، كان يجدر بنا أيضاً أن ننسب إلى العرب ما للعرب من تطبيقات صناعية نجمت عن المعرفة الإسلامية.. ويكفي أن يتصور المرء القارة

(١) الحضارة العربية، ص ١٥٤.

(٢) الحضارة العربية، ص ٨٢.

(٣) الحضارة العربية، ص ٨٣.

(٤) يقصد التأريخ الميلادي، وذلك في العصور الزاهرة من الحضارة الإسلامية.

(٥) الحضارة العربية، ص ١٠٠.

(٦) الحضارة العربية، ص ١٥٤.

الأوروبية في فجر العصور الحديثة من غير أن تملك تحت تصرفها هذه الهبات الثلاث: البارود، والبوصلة، والكتاب، رمز المعاونة الإسلامية في بناء الإنسانية)<sup>١</sup>

ويتحدث عن حقوق المرأة في الإسلام، فيقول: (لقد وُضعت المرأة على قدم المساواة مع الرجال في القضايا الخاصة بالمصلحة فأصبح في استطاعتها أن ترث، وأن تورث، وأن تشتغل بمهنة مشروعة لكن مكافئها الصحيح هو البيت. كما أن مهمتها الأساسية هي أن تنجب أطفالاً.. وعلى ذلك رسم النبي واجبها (أيما امرأة مات زوجها، وهو راضٍ عنها، دخلت الجنة)<sup>٢</sup>. وفي الحق أن تعدد الزوجات، بتقييده الانزلاق مع الشهوات الجامحة، قد حقق بهذا التشريع الإسلامي تماسك الأسرة، وفيه ما يسوغ عقوبة الزوج الزاني)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن الأسرة في الإسلام، فيقول: (كانت الأسرة الإسلامية ترعى دائماً الطفل، وصحته، وتربيته، رعاية كبيرة. وترضع الأم هذا الطفل زمناً طويلاً، وأحياناً لمدة أكثر من سنتين، وتقوم على تنشئته بخنان وتغمره بحبها وباحتياجات متصلة. وإذا حدث أن أصاب الموت بعض الأسرة، وأصبحوا يتامى، فإن أقرباءهم المقربين لا يترددون في مساعدتهم وفي تبنّيهم)<sup>٤</sup>

ويقول: (يقوم تعليم البنات على تلقينهن تربية دينية قويمه، وعلى تعويدهن على الصلاة، وجعلهن في وقت مبكر صالحات للأعمال المترية. وبعد سنوات أيضاً يعلمن قرض الشعر والفنون)<sup>٥</sup>

نظر البابا إلي، وقال: هذه بعض شهادات هذا الرجل الفاضل.

قلت: بورك فيه.. لقد قال كلاماً كثيراً قد لا نجد من قومنا من يجروء على قوله.

قال: من رزقه الله الصديق فتح عليه من الجرأة ما يتناسب مع ذلك الصديق..

قلت: صدقت.. فبقدر الصديق تكون الجرأة.

**لويس سيديو:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (لويس سيديو)<sup>٦</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق فرنسي.. له شهادات كثيرة تبين مدى صدق بحثه في الإسلام، وفي مصادر الإسلام، وسأسرد لك —

(١) الحضارة العربية، ص ١٩١ - ١٩٢.

(٢) نص الحديث هو (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة)

(٣) الحضارة العربية، ص ٥٢.

(٤) الحضارة العربية، ص ٥٣.

(٥) الحضارة العربية، ص ٥٤.

(٦) لويس سيديو (١٨٠٨ - ١٨٧٦) L. Sedillot مستشرق فرنسي عكف على نشر مؤلفات أبيه جان جاك سيديو الذي توفي عام ١٨٣٢ قبل أن تتاح له فرصة إخراج كافة أعماله في تاريخ العلوم الإسلامية. وقد عين لويس أميناً لمدرسة اللغات الشرقية (١٩٣١) وصنف كتاباً بعنوان (خلاصة تاريخ العرب) فضلاً عن (تاريخ العرب العام)، وكتب العديد من الأبحاث والدراسات في المجالات المعروفة.

باختصار — بعضه هذه الشهادات:

فمنها شهادته التي يتحدث فيها عن كون القرآن مدرسة روحية وتربوية متكاملة، فيقول: (لا نجد في القرآن آية إلا توحى بمحبة شديدة لله.. وفيه حث كبير على الفضيلة خلال تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقى.. وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم، وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين، وتحريض على خفض الجناح والتواضع، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لعنهم ويكفي جميع تلك الأقوال الجامعة المملوءة بحكمة ورشدًا لإثبات صفاء قواعد الأخلاق في القرآن.. إنه أبصر كل شيء)<sup>١</sup>

ويتحدث عن النواحي البلاغية للقرآن، فيقول: (صلح القرآن ليكون نموذجًا للأسلوب وقواعد النحو.. فأوجب ذلك نشوء علم اللغة، فظهور علم البيان الذي درس فيه تركيب الكلام ومقتضى الحال والبدع وأوجه البلاغة، وأضحى لصناعة قراءة القرآن وتفسيره أكثر من مئة فرع، فأدى هذا إلى ما لا حصر له من التأليف في كل منها، واغتنت اللغة العربية بتعابير جديدة كثيرة بعيدة من الفساد بمخالطة اللغة الأخرى)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن تأثير القرآن في التوحيد بين شعوب وأعراق مختلفة، فيقول: (مما يجدر ذكره أن يكون القرآن، بين مختلف اللغات التي يتكلم بها مختلف الشعوب الإسلامية في آسيا حتى الهند، وفي أفريقية حتى السودان، كتابًا يفهمه الجميع، وأن يربط القرآن هذه الشعوب المتباينة الطبائع برابط اللغة والمشاعر)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن معجزة تأسيس الأمة الإسلامية.. ويرجع الفضل في تأسيسها إلى محمد ﷺ، فيقول: (لقد حلّ الوقت الذي توجه فيه الأنظار إلى تاريخ تلك الأمة التي كانت مجهولة الأمر في زاوية من آسية فارتقت إلى أعلى مقام فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون. ومصدر هذه المعجزة هو رجل واحد، هو محمد)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن عبودية محمد ﷺ مقارنة بما ينسبه المسيحيون للمسيح، فيقول: (لم يعد محمد نفسه غير خاتم لأنبياء الله عليهم السلام وهو قد أعلن أن عيسى بن مريم كان ذا موهبة في الاتيان بالمعجزات، مع أن محمدًا لم يعط مثل هذه الموهبة، وما أكثر ما كان يعترض محتجًا على بعض ما يعزوه إليه أشد أتباعه حماسة من الأعمال الخارقة للعادة!)<sup>٥</sup>

ويتحدث عن القيم التي تحملها عقيدة اليوم الآخر التي جاء بها الإسلام، فيقول: (إن محمدًا أثبت خلود الروح.. وهو مبدأ من أقوم مبادئ الأخلاق. ومن مفاخر محمد أن أظهره قويا أكثر مما أظهره أي مشرّع آخر)<sup>٦</sup>

(١) تاريخ العرب العام، ص ٨٩، ٩٨ - ٩٩، ١٠٠، ١١٧.

(٢) تاريخ العرب العام، ص ٤٥٨.

(٣) تاريخ العرب العام، ص ٤٥٨.

(٤) تاريخ العرب العام، ص ١٥.

(٥) ذكرنا الرد على هذه الشبهة بالأدلة المفصلة في رسالة (معجزات حسية)

(٦) تاريخ العرب العام، ص ٩٠.

(١) تاريخ العرب العام، ص ٩٣.

ويتحدث عن رسول الله ﷺ وكونه قدوة صالحة جعلته يحقق كل الأهداف التي وكلت له، فيقول: (ما أكثر ما عرض محمد حياته للخطر انتصاراً لدعوته في عهده الأول بمكة، وهو لم ينفك عن القتال في واقعة أحد حتى بعد أن جرح جبينه وخرده وسقطت ثنيتاه.. وهو قد أوجب النصر بصوته ومثاله في معركة حنين، ومن الحق أن عرف العالم كيف يجيى قوة إرادته وامتانة خلقه.. وبساطته، ومن يجهل أنه لم يعدل، إلى آخر عمره، عما يفرضه فقر البادية على سكانها من طراز حياة وشظف عيش؟ وهو لم ينتحل أوضاع الأمراء قط مع ما ناله من غنى وجاه عريض.. وكان حليماً معتدلاً، وكان يأتي بالفقراء إلى بيته ليقاسمهم طعامه، وكان يستقبل بلطف ورفق جميع من يودون سؤاله، فيسحر كلماته بما يعلو وجهه الرزين الزاهر من البشاشة، وكان لا يضح من طول الحديث، وكان لا يتكلم إلا قليلاً فلا ينم ما يقول على كبرياء أو استعلاء، وكان يوحى في كل مرة باحترام القوم له.. ودلّ على أنه سياسي محنك)<sup>١</sup>

ويتحدث عن تأثير محمد ﷺ في البيئة التي ولد فيها، فيقول: (بدت في بلاد العرب أيام محمد حركة غير مألوفة من قبل، فقد خضعت لسلطان واحد قبائل العرب الغيرة على استقلالها والفخورة بحياتها الفردية، وانضم بعض هذه القبائل إلى بعض فتألفت أمة واحدة)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن قيمة التوحيد وأهميته في الإسلام، فيقول: (من شأن مبدأ التوحيد الجليل، الذي نشر بين قوم وثنيين، أن يضرم الحمية في النفس المتحمسة العالية، ويسود هذا المبدأ القرآن، وإليه يعود إبداعه، ويجعل محمد هذا المبدأ أساس دينه، وإليه يرجع سبب سموه على جميع الأديان. ويبدو هذا التوحيد المحض جازماً تجاه علم اللاهوت الذي تورط في الفرق النصرانية بعد أن زاد عددها بفعل البدع، ولا مرأى في أن عظمة الله العلي وقدرته وحكمته وعدله وحمله أمور تستوقف أنظار ذوي النفوس المثقلة بالأباطيل، و(أحد، أحد) كان وعي المسلمين بيدراً، ولا تخلو سورة في القرآن من قول: .. بالتوحيد)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن عقيدة القضاء والقدر، ودورها الإيجابي في الحياة، فيقول: (إن المبدأ الذي يحتويه القرآن لم يكن من نوع قضاء القدماء، ولا من نوع قدر بعض المذاهب الحديثة، فليس في القدر الإسلامي ما يميّز شجاعة المسلم أو يؤدي إلى فتور همته، فهذا القدر مرادف لسنة الكون التي تهيمن على جميع الناس وتضع حداً لأعمالنا.. وهناك من المبادئ ما يؤدي إلى أسوأ النتائج عند سوء فهمها، فما أعظم الفرق بين تأثير مبدأ القضاء والقدر في قوم حطهم الاستعباد وتأثيره في قوم حمس مقاديرهم لا يبتغون غير الحرب والفتوح)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن الصلاة في الإسلام، وعدم حاجتها إلى وسطاء، فيقول: (الصلاة تمسك الإسلام بغير هياكل وتضمن دوامه بغير كهّان)<sup>١</sup>

(١) تاريخ العرب العام، ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٢) تاريخ العرب العام، ص ١٢٣.

(٣) تاريخ العرب العام، ص ٨٨.

(٤) تاريخ العرب العام، ص ٩٢.

(١) تاريخ العرب العام، ص ١٠٤.

ويقول: (لا ترى في الإسلام سلسلة مراتب ولا طوائف كهنوتية ولا طبقات ذات امتيازات)<sup>١</sup> ويتحدث عن النظام السياسي الإسلامي في فترته الراشدة، فيقول: (اختار المسلمون بعد وفاة محمد زعيمًا ليحمل الناس على احترام الشريعة فأبدعوا سلطانًا ساميًا خضع له العرب بلا جدال. ولا يعني هذا أن العرب أحدثوا نظامًا استبداديًا يقوم به فرد، وإنما أقاموا حكومة شعبية مستندة إلى شريعة إلهية يديرها ولي أمر منتخب مفيد في سلطته، فحُصر عمل ولي الأمر هذا في وضع نظم للأمن ولوظائف الدولة وواجباتها ولشؤون الحرب دون سنّ القوانين ما دام القرآن قد قيد أمراء المسلمين بربطه النظام الاجتماعي بالدين)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن تأثير الإسلام في أوروبا، ومن ثم في الحضارة الغربية، فيقول: (إن مغازي العرب وإقامتهم بين القرنين الثامن والحادي عشر الميلاديين بجنوب فرنسة أسفرت، لا ريب، عن آثار لا تزول من لغتنا، وأن نفوذ العرب كان باديًا في مختلف أدوار تاريخنا، لا فرق في ذلك بين زمن الغزوات الأولى وزمن الحرب الصليبية.. وأن لهجات هذه الولايات مملوءة بالكلمات العربية وأن أسماء الأعلام فيها تبدي شكلاً عربيًا في كل خطوة كما تبديه اصطلاحاتنا العلمية أيضًا، وما يأتيه علماء اللغة المعاصرون عندنا من اشتقاقات يقف لها شعر الرأس!.. ولا ينكر فضلًا عن ذلك، أن الخلفاء كانوا في القرن التاسع من الميلاد سادة إمبراطورية واسعة رائعة لامعة مذهشة، وأن خلفاء بغداد كانوا يرسلون وفودًا وهدايا إلى الإمبراطور شارلمان وإلى عاهل الصين وأنهم كانوا مثال العظمة الحقيقية بنظمهم الصالحة وعنايتهم بالأداب والعلوم، وأن ما شيد من المدارس في أرجاء دولتهم كان يوقد مصباح الحضارة فيما بين الشرق الأقصى وعمد هر كول على الساحل الأطلسي ناشراً آثار الفن العربي الرائعة في كل مكان، عاملاً على تجديد الدم في عروق العالم الهرم)<sup>٣</sup>

ويقول: (لم يكن هينًا، في تقدم العلوم، تأثير مدرسة بغداد التي كانت متوسطة بين مدرسة الإسكندرية والمدرسة الحديثة، فهيات لهذه المدرسة الحديثة اكتشافاتها ونحن مدينون للعرب في الحقل العلمي، ونعترف، مع ذلك، بأن مترجمينا كانوا يتلهون بتشويه ما يقتبسونه من التعابير تشويهاً غريباً فينمّ ما اتخذ من الاصطلاحات على الجهل والارتباك)<sup>٤</sup>

ويقول: (وظاهرة مدرسة بغداد في بدء أمرها هي الروح العلمية التي كانت سائدة لأعمالها، فكانت مبادئ أساتذتها تقوم على الانتقال من المعلوم إلى المجهول، وعلى ملاحظة الحوادث ملاحظة وثيقة لمجازة المعلولات إلى العلل، وعلى عدم التسليم بما لا يستند إلى التجربة، وكان العرب في القرن التاسع الميلادي أصحاباً لهذا المنهاج الخصب فأضحى، بعد زمن طويل، أداة بيد علماء الزمن الحديث للوصول إلى أجمّل اكتشافاتهم)<sup>٥</sup>

ويقول: (نحن إذ نرى شوق العرب إلى العلم قد حفزهم إلى النهوض بمختلف فروع المعارف البشرية طلباً

(١) تاريخ العرب العام، ص ١١٧.

(٢) تاريخ العرب العام، ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٣) تاريخ العرب العام، ص ١٢ - ١٤.

(٤) تاريخ العرب العام، ص ١٤.

(٥) تاريخ العرب العام، ص ٣٩٢.

للحقيقة وحدها لا يسعنا سوى الإعجاب المطلق بجهود الشعب العربي الذي أدى بمثاله النبيل إلى بعث الآداب والفنون في أوروبا)<sup>١</sup>

ويقول: (قدّر تأثير مدرسة بغداد البالغ في المشرق والمغرب، وكان عند العرب معظم الأفكار والمبادئ التي تباهي بها أوروبا الحديثة، والعرب، فضلاً عن ذلك، ربطوا دورين كبيرين أحدهما بالآخر: ربطوا عصر اليونان بعصر النهضة محافظين على تراث الدور الأول معدّين ظهور الدور الثاني، ووجد من حاولوا خفض منزلة العرب، بيد أن الحقيقة تبدو يوماً بعد يوم، ولا بد من حلول الزمن العاجل أو الآجل الذي ينصفون فيه فيستردون حقهم)<sup>٢</sup>

ويقول: (هكذا تجلّى تأثير العرب في جميع فروع الحضارة الأوروبية الحديثة، وظهرت، بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر الميلادي، آداب تعد من أعظم ما عرف، وتشهد الإنتاجات المتنوعة والاختراعات المهمة على ما كان يتصف به عرب ذلك الزمن من النشاط العجيب، وبما كان لهم من الأثر البالغ في أوروبا النصرانية فحاء هذا مسوّغاً للرأي القائل إن العرب كانوا أساتذة لنا، وما أتى به العرب من الموارد التي لا تقدر بثمن عن تاريخ القرون الوسطى ومن كتب الرحلات ومعاجم تراجم الأحوال من ناحية، وما جاءوا به من صناعة منقطعة النظر ومن مبانٍ دالة على تفكير عظيم وتنفيذ جسيم، ومن اكتشافات مهمة في الفنون من ناحية أخرى، كلها أمور يجب أن ترفع في أعيننا شأن الأمة العربية)<sup>٣</sup>

ويعجب بقدرة الإسلام على قهر همجية المغول التي سيطرت على العالم في فترة من الفترات، فيقول: (حقاً إنه لمنظر رائع أن نرى انتصار سلطان حضارة العرب على همجية المغول أولئك الذين انقضوا على آسيا الغربية والجنوبية)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن موقف القرآن من المرأة، وتكريمه لها، فيقول: (إن القرآن، وهو دستور المسلمين، رفع شأن المرأة بدلاً من خفضه.. فجعل حصة البنت في الميراث تعادل نصف حصة أخيها<sup>٥</sup> مع أن البنات كن لا يرثن في زمن الجاهلية.. وهو وإن جعل الرجال قوامين على النساء يبيّن أن للمرأة حق الرعاية والحماية على زوجها. وأراد ألا تكون الأيامى جزءاً من ميراث رب الأسرة فأوجب أن يأخذن ما يحتجن إليه مدة سنة وأن يقبض مهورهن وأن ينلن نصيباً من أموال المتوفى)<sup>٦</sup>

ويتحدث عن احترام الإسلام لحقوق الطفل، فيقول: (لا شيء أدعى إلى راحة النفس من عناية محمد بالأولاد. فهو قد حرم بأمر الله عادة الوأد، وشغل باله بحال اليتامى على الدوام.. وكان يجد في ملاحظة صغار الأولاد أعظم لذة. ومما حدث ذات يوم أن كان محمد يصلي فوثب الحسين بن علي رضي الله عنهما فوق

(١) تاريخ العرب العام، ص ٤٠٣.

(٢) تاريخ العرب العام، ص ٤٨٠.

(٣) تاريخ العرب العام، ص ٤٩٠ - ٤٩١.

(٤) تاريخ العرب العام، ص ٤٠٨.

(٥) سنرى العدالة التي يحملها هذا الحكم في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

(٦) تاريخ العرب العام، ص ١١٠.

ظهره فلم يبال بنظرات الحضور فانتظر صابراً إلى حين نزوله كما أراد. وما ألفت أقوال محمد عن حنان الأم وحبّ الوالدين، وما أجمل ما في كلمته (الجنة تحت أقدام الأمهات) من تكريم الأمهات! فيمكن أن يكتب فصل رائع من حياة محمد حول هذا الموضوع<sup>١</sup>

ويتحدث عن التشريعات المرتبطة بالطلاق في الإسلام، وما يحويه من الحكمة، فيقول: (أجلّ الطلاق في الإسلام، ولكنه جعل تابعا لبعض الشروط فيمكن الرجوع عنه عند الطيش والتهور. والطلاق، لكي يكون بائناً، يجب أن يكرر ثلاث مرات.. والمرأة إذا ما طلقت الطلقة الثالثة لا تحل لزوجها الأول إلا بعد أن تنكح زوجاً آخر فيطلقها هذا الزوج، وهذا الحكم على جانب عظيم من الحكمة لما يؤدي إليه من تقليل عدد الطلاق ولا يحق للمرأة أن تطلب الطلاق إلا عند سوء المعاملة)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن تشريع العقوبات المرتبطة بالأعراض، وأثرها، فيقول: (جزاء الزنا صارم في الإسلام.. ولا بدّ من أربعة شهود لإثباته. ولم يقصر محمد في منع انتشار الفجور، وله نصائح غالية بهذا الصدد وهو يأمر المؤمنين بالاحتشام، وينظم أمورهم نحو أجرائهم وأبنائهم وآبائهم وأمهاتهم، برفق أبوي ممزوج بلسان المشرّع الوقور الجليل)<sup>٣</sup>

نظر إلي، وقال: هذه بعض شهادات هذا الرجل الفاضل.  
قلت: بورك فيها من شهادات.. وبورك هو من رجل، فقد أنطقه الله بالحكمة.

### هنري سيرويا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (هنري سيرويا)<sup>٤</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من المستشرقين الذين وفقهم الله، فرأوا من معاني الصدق في الإسلام ما لم يلاحظه الكثير، ومن شهادته التي لا أزال أحفظها وأقدرها قوله في في القرآن وما اشتمل عليه من حقائق، وما انتظم فيه من أسلوب: (القرآن من الله بأسلوب سام رفيع لا يدانيه أسلوب البشر، وهو في الوقت عينه، ثورة عقيدية، هذه الثورة العقيدية لا تعترف – لا بالبابا ولا أي مجمع لعلماء الكهنوت والقساوسة)، حيث لم يشعر الإسلام يوماً بالخشية والهلع من قيام مبدأ التحكيم العقلي الفلسفي فإذا قارنا الإسلام باليهودية والمسيحية نجد بعض الخطوط المميزة والتي لا تبدو مطابقة تماماً خاصة مع المسيحية.. فالنظام المسيحي اليهودي يخالف الإسلام حيث لا يوجد فراغ بين الخالق والخلق البشري، هذا الفراغ لدى اليهود والمسيحيين ملئ بالواسطة.. ولا شيء من هذا يتفق مع الإسلام. فمحمد مع كون مبعوثاً ورسولاً من لدن الله لم يتظاهر بإنكار دعوات كل من موسى وعيسى، كل مجهوده انحصر في تنقيتهما على ما جاء في القرآن، الذي وضع في العام الأول مهاجمة مبدأ الثلاثية

(١) تاريخ العرب العام، ص ١١٠-١١١.

(٢) تاريخ العرب العام، ص ١١١.

(٣) تاريخ العرب العام، ص ١١١-١١٢.

(٤) هنري سيرويا H. Serouya مستشرق فرنسي. من آثاره: (موسى بن ميمون: ترجمته وآثاره وفلسفته) (١٩٢١)،

(الصوفية والمسيحية واليهودية)، (فلسفة الفكر الإسلامي).

منبهاً إلى أن عيسى ليس سوى رجل ابن مريم وليس بابن الله والقول بأن الله له ولد، هذا شرك كبير تنشق له السماء وتفتح له الأرض وتنسحق له الجبال. أما روح القدس فما هو إلا بمثابة ملاك مثل جبريل دوره هو أن ينقل إلى عيسى ومحمد الدعوة المقدسة، أما مريم فهي مريم العذراء وليست بأم الله<sup>١</sup> ويتحدث عن رسول الله ﷺ وأثره في العقيدة والحياة، فيقول: (ومحمد لم يغرس في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضاً المدنية والأدب)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن بعض صفات النبي ﷺ وأخلاقه العالية، فيقول: (محمد شخصية تاريخية حقة، فلولا ما استطاع الإسلام أن يمتد ويزداد، ولم يتوان في ترديد أنه بشر مثل الآخرين مآله الموت، وبأنه يطلب العفو والمغفرة من الله عز وجل. وقيل مماته أراد أن يظهر ضميره من كل هفوة أتاها فوقف على المنبر مخاطباً: أيها المسلمون، إذا كنت قد ضربت أحداً فهاكم ظهري ليأخذ ثأره، أو سلبته مالا فمالي ملكه. فوقف رجل معلناً أنه يدينه بثلاثة دراهم، فردّ الرسول قائلاً: أن يشعر الإنسان بالتحلل في دنياه خيرٌ من آخرته. ودفع للرجل دينه في التو. وهذا التذوق والإحساس البالغ لفهم محمد لدوره كنبى يرينا بأن (رينان) كان على غير حق في نعته العرب قبل الإسلام بأنها أمة كانت تحيا بين برائين الجهل والخرافات)<sup>٣</sup>

وهو يرجع الأمر إلى أهله حين ينسب الحضارة الإسلامية، وما تفتقت عنه من عبقرية إلى رسول الله ﷺ، فيقول: (إن المحاولة الإسلامية في التاريخ ذات أثر كبير، والعبقرية العربية تجل في محمد منشئاً لحضارة التوحيد التي تعتبر ذات أهمية كبيرة، إذا فكرنا في القيمة الفلسفية للتوحيد، وفي تفوقها الكبير الذي جعل كل الشعوب الآرية تمارس أفكار تلكم الفلسفة. وهذه الثروة الروحية الغزيرة في الأمة العربية، راجعة إلى الغريزة النبوية والتي تعد واضحة لدى الشعوب السامية، فاليهود الذين يستطيعون الفخر بأنبيائهم الكبار، يقرون بأن روح النبوة قد اختفت لديهم بعد هدم معبدهم الثاني، وهذا ما يفسر بمعنى أكيد العداوة العنيفة والكثيرة التكرار في القرآن بالنسبة إليهم)<sup>٤</sup>

ويقول: (إن الحضارة الفكرية الذهنية الحقيقية لم تظهر وتوجد - لدى العرب - إلا لدى وصول محمد<sup>٥</sup> نظر إلى البابا يتأمل تأثير هذه الشهادات في نفسي، فقلت: لقد أسلمت كلمات هذا الرجل.. قال: صدقت.. فمثل هذه الكلمات لا تصدر إلا في لحظات الصدق والإيمان والقرب.

### إدوار بروي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إدوار بروي)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا باحث فرنسي كان أستاذاً في السربون، وقد سمعته يذكر شهادات للإسلام يستحق التقدير عليها:

(١) فلسفة الفكر الإسلامي، ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) فلسفة الفكر الإسلامي، ص ٨.

(٣) فلسفة الفكر الإسلامي، ص ١٧.

(٤) فلسفة الفكر الإسلامي، ص ٣١.

(٥) دفاع عن الإسلام، ص ٢٤.

(١) إدوار بروي Edouard Perroy باحث فرنسي معاصر، وأستاذ في السربون.



منها قوله مختصراً رسالة رسول الله ﷺ، وما أحدثته في بدايتها من تأثير: (جاء محمد بن عبد الله، النبي العربي وخاتمة النبيين، يبشر العرب والناس أجمعين، بدين جديد، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد، كانت الشريعة في دعوته لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتمتع مثلها بسلطة إلهية ملزمة، تضبط ليس الأمور الدينية فحسب، بل أيضاً الأمور الدنيوية، فتفرض على المسلم الزكاة، والجهاد ضد المشركين.. ونشر الدين الحنيف.. وعندما قبض النبي العربي، عام ٦٣٢م، كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل)<sup>١</sup>

ويتحدث عن الانتصارات العسكرية المعجزة التي حققها المسلمون في فترة وجيزة من تاريخهم، فيقول: (بين أوروبا الغربية الآخذة مدنيته بالقهقري، وبين العالم الآسيوي الذي يستجمع بعد نشاطه ويسترجع عافيته.. ظهر الإسلام كالشهاب الساطع، فحير بفتوحاته السريعة القاصمة، وابتساع رقعة الإمبراطورية الجديدة التي أنشأناها نحن أمام شعب كان للأمس الغابر مجهول الاسم، مغمور الذكر، فإذا به يتحد ويتضام في بوتقة الإسلام، هذا الدين الجديد الذي انطلق من الجزيرة العربية اكتسحت جيوشه بضع سنوات الدولة الساسانية وهدت منها الأركان، ورفرت بنوده فوق الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية في آسيا وأفريقيا ولم تلبث جيوشه أن استولت بعد قليل على معظم إسبانيا وصقلية، وأن تقطع لأمد من الزمن، يقصر أو يطول، بعض المقاطعات الواقعة في غربي أوروبا وجنوبها ودقت جيوشه بعنف شديد أبواب الهند والصين والحيشة والسودان الغربي وهددت فرنسا والقسطنطينية.. وقد تجاوزت الدول أمام الدفع العربي الإسلامي كالأكر، وتدرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها التنظيم وذابت الأديان التي سيطرت على الشعوب والأقوام كما يذوب الشمع أمام النار بعد أن أطل على الدنيا دين جديد)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن السماحة التي صاحبت تلك الانتصارات العسكرية، فيقول: (قلما عرف التاريخ والحق يقال، فتوحات كان لها، في المدى القريب، على الأهلين، مثل هذا التزر الصغير من الاضطراب يحدته الفتح العربي لهذه الأقطار فمن لم يكن عربياً من الأهلين لم يشعر بأي اضطهاد قط. فاليهود والنصارى الذين هم أيضاً من أهل الكتاب، حق لهم أن يتمتعوا بالتساهل وأن لا يضاموا. وكان لا بد من الوقوف هذا الموقف نفسه من الزرادشتية والبوذية والصابئة.. وغيرها من الملل والنحل الأخرى. والمطلوب من هؤلاء السكان أن يظهرُوا الولاء للإسلام ويعترفوا بسيادته وسلطانه، وأن يؤدوا له الرسوم المترتبة على أهل الذمة تأديتها.. وفي نطاق هذه التحفظات التي لم يكن لتؤثر كثيراً على الحياة العادية، تمتع الزمن بكافة حرياتهم)<sup>٣</sup>

ويقول متحدثاً عن سماحة المسلمين التي غرسها فيهم الإسلام: (انتظمت العلاقات بين الدولة وسكان البلاد الأصليين بسهولة كلية وفقاً لروح القانون المعمول به في البلاد.. وبقيت كل ملة أو طائفة محتفظة بقانونها

(١) تاريخ الحضارات العام: ٣ / ١١٢.

(٢) تاريخ الحضارات العام، ٣ / ١٠٩.

(٣) تاريخ الحضارات العام، ٣ / ١١٦.

الخاص وبالموظفين الذين يسهرون على الشؤون الدينية عندها باستثناء ما كان منها تابعاً للحق العام.. ونلاحظ تطوراً ملحوظاً يطرأ على وضع النصارى بعد أن احتفظت بيعهم بجانب من ممارسة العدالة في الأمم الخاصة.. وهكذا برز البطاركة والأساقفة، الرؤساء الأعلون لطوائف تعلق سلطتهم سلطة الموظفين الإداريين المحليين، حتى إن اليهود أنفسهم لم يجدوا بأساً في الاحتفاظ برؤسائهم الدينيين وبربانتهم وبخامهم الأكبر<sup>١</sup>

ويتحدث عن الدوافع الحقيقية للحروب الصليبية، فيقول: (انتشرت، حوالي السنة ١٠٠٠م، عادة القيام بالحج، تزايد السفر إلى الأرض المقدسة لأنه اعتبر أعظم الممارسات النصرانية نفعاً للخلاص الأبدي، وقلما ضايقه العرب، الذين كانوا متساهلين جداً، كما يبدو من جهة ثانية أن الغزو التركي لم يجعل الدخول إلى معابد فلسطين أكثر صعوبة إلا أن فرسان الغرب، وقد تمكنت منهم فكرة الحرب المقدسة، أخذوا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، يؤدون فريضة الحج جماعات صغيرة مسلحة كما أخذوا بعد عودهم يسيطون شعورهم بأن الفتح ليس أمراً مستحيلاً.. وجاء الاندماج التركي أخيراً يهدد بيزنطية آنذاك تهديداً جديداً خطيراً، ففكر الغرب بوجود وقاية المسيحية من جهة الشرق)<sup>٢</sup>

ويقارن بين سماحة سلاطين العثمانيين في العصور المتأخرة مقارنة بما فعله دواوين التفتيش في أوروبا، فيقول: (ما لابد من التنويه به عالياً أن هؤلاء السلاطين العثمانيين لم يظهروا أي تخرج أو تعصب تجاه المسيحيين، في وقت وزمان كان فيه ديوان التفتيش يبطش بالناس بطشاً ويتزل بهم الملعع.. وفي عهد كان اليهود والمسلمون يطردون، دونما رحمة أو شفقة، من إسبانيا.. وبالرغم من إسكان عدد كبير من الجاليات الإسلامية في البلقان، واعتناق بعض الجماعات البلقانية الإسلام فلم يأت العثمانيون شيئاً مهماً ليمنعوا السواد الأكبر من سكان البلاد البلقانية من الاحتفاظ بنصرانيتهم)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن عظمة الحضارة الإسلامية، وتميزها مقارنة بسائر الحضارات، فيقول: (انجلي غبار الفتح الإسلامي عن إمبراطورية جديدة ولا أوسع، وعن حضارة ولا أسطح، وعن مدينة ولا أروع، عول عليها الغرب في تطوره الصاعد ورقبه البناء، بعد أن نفخ الإسلام في قسم موات من التراث الإنساني القديم روحاً جديدة عادت معه إلى الحياة، فنبض وشع وأثرى. ولهذا الأسباب، كان لابد أن يحتل تاريخ العالم الإسلامي محلاً مرموقاً في ثقافة رجل العصر، كما كان لابد لرجل العصر هذا من أن يفهم جيداً أن المدنية لا يقتصر مدلولها على شعب أو بلد متحيز في الزمان، وأن يعرف جيداً أن قبل توما الإكوييني الذي رأى النور في إيطاليا، طلع ابن سينا المولود في إحدى مقاطعات التركستان، وأن مساجد دمشق وقرطبة ارتفعت قباها قبل كاتدرائية نوتردام في باريس بزمان، وألا ينتقص من شأن العالم الإسلامي اليوم في ما يعاني من غمرة ستنتشع بأسرع مما يظن، وألا ينظر إلى التاريخ الإسلامي من خلال مرثيات ألف ليلة وليلة.. بل علينا اعتبار هذا التاريخ قطعة من صميم التاريخ الإنساني المتنوع بتنوع الأزمنة والأمكنة، والذي لا يزال، بالرغم من جزئياته وخصوصياته،

(١) تاريخ الحضارات العام، ٣ / ١١٦.

(٢) تاريخ الحضارات العام، ٣ / ٣١٢.

(٣) تاريخ الحضارات العام، ٣ / ٥٨٩ - ٥٩٠.

تاريخ هذه البشرية الواحدة الجمعاء)<sup>١</sup>

ويقول: (في هذا العالم الإسلامي القلق، الجيآس بعظائم الأحداث.. ليس ما يلفت النظر ويستبد بالخواطر مثل الرواج الذي بلغته الآداب، والازدهار الذي آلت إليه الحركة الفكرية.. واتساع هذه الحركة التي عمت مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، فتحت الباب على مصراعيه أمام التنوع لظهور مجار فكرية عامة وتلقيح الأفكار والأذهان في كل مكان.. وقد بلغ من غنى التأليف في العالم الإسلامي ما جعل الناس يشعرون بحاجة ماسة لمن ينهض ويعرف به في فهارس علمية.. وقامت في بعض حواضر البلاد الإسلامية الكبرى دور للكتب غصت بعشرات الألوف من الكتب جرى تصنيفها على نظم فنية خاصة روعي فيها تصنيف العلوم على أبواب ومطالب، وقام على خدمتها جيش من النساخ والوراقين.. كل هذا كان يفترض عددًا كبيرًا من القراء والمطالعين وطائفة كبيرة من الكتاب وحملة الأقلام والمفكرين)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية عبر جسر الحروب الصليبية، فيقول: (أفضت الحملات الصليبية بسرعة أحيانًا، بإقامة الروابط المتينة مع البلدان المتقدمة ثقافيًا، إلى تهميد أخلاق الفرسان، ونشر استعمال الطرائق والسلع الغربية وإدخال التقنيات الجديدة.. وإطلاع رجال الفكر على بعض مظاهر العلم والفلسفة والفن والآداب في العالمين العربي واليوناني: فجاءت هذه الأشكال والمفاهيم والطرائق والعادات، التي حصل عليها أحيانًا في إمارات فلسطين وإيطاليا الجنوبية، وشبه الجزيرة الإيبيرية، وانتشرت بفضل العائدين من الحج، تنمي التراث الثقافي في أوروبا المسيحية)<sup>٣</sup>

وفي موضع آخر يتحدث عن جسر صقلية الذي انطلقت منه الحضارة الإسلامية لأوروبا، فيقول: (امتدت الثقافة الإسبانية إلى ما وراء حدود السيطرة الإسلامية المنكمشة. ففي صقلية المخصصة للنورمانيين، حيث عومل المسلمون المقيمون بتساهل قل نظيره، تألق مركز إشعاع ثان، دون إسبانيا شأنًا، على أنه أعظم أهمية، على حد بعيد، من الشرق اللاتيني، انتقلت بواسطته الثقافة الإسلامية إلى الغرب)<sup>٤</sup>

ويتحدث عكس هذا عن الأثر السلبي الذي فعله الأوروبيون بالمسلمين، فيقول: (بعد زمن قصير توقفت حركة التطور في البلدان الأفريقية على أثر العبث الذريع الذي أحدثه في تلك الأرجاء تجار النحاسة والرق من الأوربيين هذه الحركة التطورية التي بعثها الإسلام في تلك البلاد، قبل أن تطأ أقدام البرتغاليين، بزمن طويل)<sup>٥</sup>

نظر إلي البابا، وقال: حسبك بهذه الشهادات منه..

قلت: بورك فيه.. فما أصدقه.. لم يمنعه دينه ولا مركزه ولا قومه من أن ينسب الحق لأهله.

**كلود كاهن:**

(١) تاريخ الحضارات العام: ٣ / ١٠٩ - ١١٠.

(٢) تاريخ الحضارات العام: ٣ / ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) تاريخ الحضارات العام: ٣ / ٣١٥.

(٤) تاريخ الحضارات العام: ٣ / ٣٣٥.

(٥) تاريخ الحضارات العام: ٣ / ٥٦٤.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كلود كاهن)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مستشاري فرنسا الكبار، وله شهادات صادقة جعلتني أضعه في هذا الدفتر.  
قلت: فأذكر لي منها ما تراه.. فإن مثل هذه الشهادات تملأ النفس رضى، وتقرب إلينا عقولاً كنا نظن أنفسنا أبعد الناس عنها.

قال: شهادته مثل شهادات غيره ذات مناحي مختلفة.. منها ما يتعلق بالرسول ﷺ، ومنها ما يتعلق بالإسلام وشرايع الإسلام.. ومنها ما يتعلق بالحضارة الإسلامية، والمجتمع المسلم..  
قلت: فحدثني عن شهادته عن رسول الله ﷺ

قال: منها اعتباره رسول الله ﷺ أعظم الشخصيات العالمية، فقد قال: (اصطبغت شخصية محمد بصبغة تاريخية قد لا تجدها عند أي مؤسس آخر من مؤسسي الديانات الكبرى)<sup>٢</sup>  
ويذكر القيم النبيلة التي كان يتحلى بها رسول الله ﷺ، فيقول: (يبدو للمؤرخ المنصف أن محمداً كان في عداد الشخصيات النبيلة السامية التي سعت في كثير من الحماس والإخلاص إلى النهوض بالبيئة التي عاش فيها أخلاقياً وفكرياً، كما استطاع في الوقت نفسه أن يكيّف رسالته حسب طباع الناس وتقاليدهم. بمزيد من الفهم والتنظيم بحيث كفّل البقاء والخلود للرسالة التي بشر بها.. وحتّم علينا أن نلقى محمداً بعواطف الإجلال والاحترام لما تحلّى به من سمو الإلهام ومن قدرة على تذليل العقبات الإنسانية عامة والتغلب على مصاعبه الشخصية خاصة. وربما أثارت فينا بعض جوانب حياته شيئاً من الارتباك تبعاً لعقليتنا المعاصرة. فقد أكدت المهارات على شهوات الرسول الدنيوية وأخت إلى زوجاته التسع اللاتي اتخذهن بعد وفاة خديجة، لكن الثابت أن معظم هذه الصلات الزوجية قد طبعت بطابع سياسي، وأنها استهدفت الحصول على ولاء بعض الأشراف وبعض الأفخاذ<sup>٣</sup>.. ثم إن العقلية العربية تقرّ الإنسان إذا استخدم طبيعته على نحو ما خلقها الله<sup>٤</sup>)

ويتكلم عن بعض المنجزات الكبرى لرسول الله ﷺ، فيقول: (نشأ الرسول في مجتمع بلا دولة، فكان، على نحو لا تتبينه إلا العقول العصرية مبشراً بدين، ومنظماً لمجتمع دنيوي. ونتج عن ذلك أن القانون الاجتماعي صار جزءاً متماسكاً مع القانون الديني، كما كان احترام القانون الاجتماعي جزءاً مكماً لطاعة الله تعالى. كان الوحي بذاته - إذن - هو الأساس المشترك للعقيدة والتنظيم الزممي. فكان المجتمع نفسه هو الدولة والدين، ولم يتسنّ لأحدهما أن يبقى وحده نظاماً قائماً بذاته.. لقد كان هذا التوجيه حاسماً، ولم تستطع العقول أن تتخلى

---

(١) كلود كاهن Cl. Cahen ولد عام ١٩٠٩، وتخرج باللغات الشرقية من السوربون ومدرسة اللغات الشرقية ومدرسة المعلمين العليا، وعين محاضراً في مدرسة اللغات الشرقية في باريس (١٩٣٨)، وأستاذاً لتاريخ الإسلام في كلية الآداب بجامعة ستراسبورغ (١٩٤٥)، وفي جامعة باريس.  
من آثاره: عدد كبير من الدراسات والأبحاث في المجالات الشهيرة، وحقق العديد من النصوص التاريخية المهمة، كما أنجز عدداً من المؤلفات عن الحروب الصليبية.

(٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ١٤.

(٣) سنرى التفاصيل المرتبطة بالرد على هذه الشبهة في رسالة (الني المعصوم) من هذه السلسلة.

(٤) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ١٨.

عنه إلى مدة غير قصيرة، وكان من نتائجه في العصور التالية أن الرجل المسلم أصبح يطلب من نظامه السياسي أن يكون على جانب من الكمال، فإن فقد ذلك فقد أيضاً مبدأ الطاعة المحتمة عليه إزاء هذا النظام<sup>١</sup> ويشيد بعلم الحديث، وقدرته التمحيصية، باعتباره العلم المصفي لكل ما ورد عن رسول الله ﷺ، فيقول: (الحق أننا نتجاوز النقد العلمي الصحيح إذا نحن أنكرونا على كل حديث صحته أو قدمه. ولقد باشر العلماء بمثل هذا التمحيص منذ عهد بعيد فوجدوا أن التحريف أو التلفيق قد لا يعلمان على نسق واحد واستندوا في ذلك إلى بعض الأحاديث التي يمكن اعتبارها سابقة أو حجة يعتد بها. بمعنى أن الموقف النقدي مفروض على الباحث المنصف. وفقهاء المسلمين أنفسهم هم قدوة لنا في هذا المضمار لأنهم - على طريقتهم - قد التزموا بذلك الموقف منذ العصر الوسيط)<sup>٢</sup>

قلت: فحدثني عن شهادته عن الإسلام.

قال: يتحدث كلود كاهن عن ميزة اجتماع الدين والدنيا في الشريعة الإسلامية، وهي الميزة التي تفتقدها سائر الأديان، فيقول (تملي شريعة الإسلام فرائض على الناس تجاه خالقهم، وتجاه أنفسهم فيما بينهم. فهي إذن - على حد تعبيرنا الحديث - شريعة دينية اجتماعية، والتمييز بين الدين والدنيا أمر غريب على الإسلام. على أن أهم فريضة تجاه الخالق هي الإيمان به والإذعان لمشيئته وذلك هو المقصود من كلمة (الإسلام). والمسلم هو من يدين بالإسلام. كذلك أوجب على الناس أعمالاً محددة لا قيمة لها إلا بالنية الحسنة)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن مبدأ (الحكم بالشريعة)، الذي يفرضه المجتمع المسلم على نفسه، وعلى السلطة التي تحكمه، فيقول: (من المقتضيات الأساسية للمجتمع الإسلامي إنشاء نظام اجتماعي يقوم على أساس مستمد من الشريعة الإلهية.. بمعنى أن الإسلام لم يعهد مبدئياً ذلك المفهوم الروماني - الذي قبلت به المسيحية - قبولاً جزئياً - والذي يعترف بشرعية دولة قائمة بحد ذاتها تملك القدرة على التشريع تشريعاً قيماً مقبولاً - ولو تحت إشراف من الإله - دون اللجوء في كل حالة من الحالات إلى توجيه إلهي. فالقاعدة الثابتة - من حيث المبدأ - هي الشرع الحنيف الذي أوحى به للناس دفعة واحدة ولا بد من وضعه موضع التنفيذ. بل إن الخليفة لا يملك سلطة معنوية إلا بقصد تطبيق هذا الشرع)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن خاصية (العقلانية) في العقيدة الإسلامية مقارنة لها بالعقيدة المسيحية، فيقول: (قد ندعو علماء الكلام المسلمين بعلماء الدين مع تحفظ واحد وهو أن ندرك أن الإيمان عند المسلم - ومن الناحية المبدئية - أمرٌ عقلي صرف، فلم يوجد إذن نظرياً انفصام يباعد بين الإيمان والعقل على نحو ما عهدته مثلاً الفلسفة المسيحية)<sup>٥</sup>

ويتحدث عن المساواة التي فرضها الإسلام على المجتمع المسلم، فيقول: (إن الإسلام لا يعترف بأي تمييز

(١) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٩٥.

(٣) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ١٩.

(٤) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٩١.

(٥) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ١٠٤.

بين الأفراد. ولا يخص المدينة - بوصفها مجموعة - بأي خاصة نوعية، كما لا يقر أي نظام لسكانها (البورجوازيين)<sup>١</sup>

قلت: فحدثني عن شهادته المرتبطة بالحضارة الإسلامية.

قال: تحدث عن معجزة الفتوحات الإسلامية التي تمكنت من أن تحتوي أكثر العالم في مدة قصيرة جدا، فقال: (يبدو لنا نشوء الإسلام مع فتوحاته الخاطفة وكأها من الأمور الخارقة. ثمة شعب حامل الذكر - حتى تلك الفترة من الزمن - استطاع أن يجمع كلمته بدافع عقيدة جديدة. وما هي إلا سنوات حتى بسط سلطانه على الإمبراطورية الساسانية قاطبة وكذلك على جميع الأقاليم الآسيوية والأفريقية التابعة للدولة البيزنطية باستثناء غربي آسيا الصغرى، ثم لم يلبث أن ضمَّ إليه الجزء الأكبر من إسبانيا بالإضافة إلى جزيرة صقلية، واستولى مؤقتًا على مواقع أخرى في قارة أوروبا. وهو في الوقت نفسه قد طرق أبواب الهند والصين والحيشة والسودان الغربي وبلاد غالية ومدينة القسطنطينية. فتداعت أمامه أعرق الدول، وخضعت لهذا الدين الجديد جميع الديانات التي استقرت في البلاد المترامية الأطراف من نهر سيحون حتى السنغال)<sup>٢</sup>

وتحدث عن السماح التي تعامل بها المسلمون مع من فتحوا أراضيهم، فقال: (حافظت الأقوام المغلوبة على حرية إقامة شعائرها لا يحدّها في ذلك سوى الامتناع عن تلك التظاهرات العامة التي تؤذي المسلمين في المناطق الأهلة بهم. كما حافظت تلك الأقوام على شرائعها الخاصة.. ورأى المسلمون في أداء الضريبة لهم اعترافًا بالسيادة العليا للأمة الإسلامية ولقاء ذلك استبقى الأهالي ما يملكون من عقارات ونزل العرب خارج ممتلكاتهم.. وكان على المغلوبين أيضًا واجب الوفاء والإخلاص للفتاحين، وبخاصة في فترات الحروب كإيواء المسلمين وتزويدهم بالأخبار والامتناع عن إفشاء المعلومات للعدو)<sup>٣</sup>

ويرد على بعض الشبهات المتعلقة بهذا الجانب، فيقول: (حقيق بنا أن نبدد بعض الأخطاء التي دامت قرونًا عديدة. فقد قاتل الصليبيون الأتراك في العهود اللاحقة ونظمت في الغرب الدعوة لمكافحتها فاستنتجوا من ذلك أن النظام السياسي السلجوقي الجديد قد وصم بتعصب من نوع خاص، وهذا أمر باطل.. لأن الاضطهاد الوحيد الذي سجله التاريخ وقتئذ هو ذلك الذي أمر به الخليفة (الحاكم) في مصر. وهو حادث شاذ تم خارج الإمبراطورية التركية وقبل قيامها. ولم يميّز المؤرخون الغربيون بين آسيا الصغرى (وفيها كان التركمان سببًا في قيام الاضطراب..) وبين كافة العالم السلجوقي. وبين أيدينا العديد من الشهادات والقرائن التي تنهض دليلاً على أن المسيحيين من أهل البلاد كانوا على العكس من ذلك قد هلّلوا فرحًا لحكومة السادة الجدد عقب عودة النظام بمجيء السلاجقة ولم يخطر لهم مطلقًا أن يستنجدوا بالغرب لينقذوهم)<sup>٤</sup>

ويقول: (لا تعني السمة الإسلامية الواضحة للدول السلجوقية أنها تضم فقط الرعايا المسلمين، كما لا تعني

(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ١٨٨.

(٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٥ - ٦.

(٣) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٢٨.

(٤) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٣٥٥.

أن الذميين قد ضاقوا بها ذرعًا. وحقيق بنا - هنا أيضًا أن ندد كثيرًا من الأخطاء الصادرة أحيانًا عن نية حسنة. قلنا إن الفتح التركماني كان قاسيًا وإنه أدى في بعض الظروف إلى كوارث فاجعة. لكن الوضع القانوني للنصارى المحليين لم يختلف عما كان عليه في الدول الإسلامية العريقة بعد أن استقر النظام السياسي في البلاد، ولو أن المناوشات استمرت على الحدود بصورة متقطعة، بل غالبًا ما كان وضعهم في آسيا الصغرى أفضل من الناحية الفعلية بحكم غالبيتهم العددية الثابتة. وهكذا تقدم لنا الدولة السلجوقية تداخلًا لعناصر متباينة جدًّا، ولا نرى فيها أناسًا متدمرين حقًا، أو أناسًا يعاودهم الحنين فعلاً إلى استرجاع الماضي أو استعادة السيادة البيزنطية مثلاً، وهي لم تترك في أذهان الناس ذكريات سعيدة فقط في مجال الفدائية والمنازعات الطائفية)<sup>١</sup>

ويتحدث عن الصمود الإسلامي، فيقول: (استطاع الإسلام أن يعوض عن الخسائر التي تكبدها في البحر المتوسط بمكاسب حصل عليها في أفريقيا السوداء وآسيا الجنوبية الشرقية. ففي السودان كانت القوافل المغربية قد نشرت الإسلام منذ زمن بعيد.. أما الزعماء الزوج المحليون فقد وجدوا في الإسلام مبادئ وتعاليم تساعدهم على إنشاء مؤسسات سياسية أرسخ بنيانًا من تلك التي عهدوها قديمًا في بلادهم. وامتدت سيادة إمبراطورية (مالي) (القرن الرابع عشر) مع حاضرتها (تومبوكتو) في المركز، وكذلك سيادة إمبراطورية (غاو) التي خلفتها في القرن الخامس عشر من الغابات العذراء حتى الواحات الصحراوية المغربية. وانتشرت الثقافة الإسلامية في تلك البقاع على يد العلماء المغاربة ومختلف النازحين (الأندلسيين). وفي بلاد (تشاد) التقت تأثيرات مغربية ومصرية. ثم لم يلبث أن قدم النحاسون الأوروبيون فأوقفوا هذا التقدم الثقافي الذي أحدثه الإسلام - ولو من بعض الوجوه - قبل مجيء الغربيين بأمد بعيد)<sup>٢</sup>

ويقول: (ثمّة ظاهرة تسترعي الانتباه في كل مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، ألا وهي قدرة المسلمين على النهوض من كبوتهم. ذلك لأن التاريخ الذي صنعه في بداية الأمر نفر قليل من أناس منعزلين قد أصبح العمل المشترك لمجموعة من الشعوب انتسبت للإسلام على مرّ الزمن وظلت مخصصة له إخلاصًا مطلقًا ويعلم المبشرون المسيحيون أنهم لا يقدرّون على تغيير عقيدة المسلم)<sup>٣</sup>

ويتحدث بإعجاب شديد على الحضارة الإسلامية، فيقول: (أما الحضارة الجديدة التي انبثقت عن هذه الفتوح الإسلامية فقد كانت من أزهى الحضارات، فهي قد أفادت الغرب من علومها وفي شتى الميادين، بعد أن حضنت النصب الأكبر من التراث القديم وأمدته بالحياة. ثم امتزج التاريخ الإسلامي منذ ثلاثة عشر قرناً بالتاريخ الغربي امتزاجاً مستمراً سواء في الحرب أم في السلم، ونهلت الحضارتان من معين واحد. ولئن تطورتا فيما بعد وتباعدتا تباعدًا عميقًا، فلا بد أن تعيننا الموازنة بينهما على الوصول إلى تفاهم أفضل. ولا يسع المرء في القرن العشرين أن يبقى معزول عن أي أسرة من الأسر التي يتألف منها المجتمع الإنساني.. لهذه الأسباب جميعًا كان خليقًا بتاريخ العالم الإسلامي أن يشغل مكانة مرموقة في ثقافتنا الغربية. وكان حقيقًا بنا أن نطرح جانبًا

(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٣٦٧.

(٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٤٠٤.

(٣) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٤٠٥.

تلك الفكرة الخاطئة التي تجعل الحضارة ملكاً لبعض الشعوب وبعض الأقاليم المنفردة. يمثل هذا الامتياز، حتى ندرك أن ابن سينا المولود في آسيا الصغرى قد وجد قبل القديس توما المولود في إيطاليا، وأن مساحد دمشق وقرطبة قد أنشئت قبل كاتدرائيات فرنسا وألمانيا. وبالتالي لا مناص لنا من التخلي عن هذا الازدراء الذي نبديه للشعوب الإسلامية المعاصرة لنا بحكم تضاول شخصيتها تضاولاً قد يكون عابراً أمام قارة أوروبية استطاعت أن تخطو خطوات حثيثة في مضمار الثقافة والسلطان<sup>١</sup>

ويتحدث على تفتح المسلمين على تراث الأمم المختلفة والاستفادة منه، فيقول: (تقوم الأهمية التاريخية للعلوم العربية على احتضانها التراث القديم، مما أتاح للغرب أن يتقبل هذا التراث بدوره وفي عهد لاحق. لكنه من الحيف أن نقصر هذه الأهمية على مجرد دور الوسيط السليبي. ولعلنا لا نشاهد مطلقاً في التاريخ مثل ذلك الحماس الفكري الذي نشاهده عند العرب، ولم تتجمع قط المعلومات المتوفرة لأمة من الأمم. يمثل ذلك الاتساع. فقد أضافوا إلى العلم الإغريقي كل ما أسهمت فيه المدنيات الشرقية الأخرى. وتيسر عرض ذلك في لغة ذات حضارة واحدة. وإن صحَّ أنهم انطلقوا من النصوص القديمة، فإنهم قاموا بمقارنة هذه النصوص وانتقادها وضبطها، ولا بد من أن ينجم عن ذلك كله تقدم على أقل تقدير في بعض الميادين. وإذا كان علماء المسلمين - رغم نزعتهم الفكرية - أقل قوة في التجريد من اليونان، لكنهم عوّضوا عن ذلك بميلهم الشديد إلى التجربة. ولقد بين التقدم العلمي اللاحق أهمية هذا الميل. فالعلم الذي خلفه العرب هو علم مارسوه في حياتهم اليومية، ولهذا السبب ظل على قيد الحياة وقدر له البقاء. وكان الرازي (وهو أحد كبار العلماء) قد عبر تعبيراً واضحاً جداً عن إمكانية استمرار التقدم العلمي، وذلك مبدأ غريب على معظم مفكري العصر الوسيط الذين نأوا بعبء الحكمة القديمة)<sup>٢</sup>

ويبين مدى الفاعلية التي تعامل بها المسلمون مع تراث الأمم المختلفة، بحيث لم يكونوا ناقلين فقط، فيقول: (كان العرب، بطبيعة الحال، ينظرون فيما يترجمون، بل كانوا يترجمون بغية النظر في هذه الكتب)<sup>٣</sup> ويقارن بين العلوم الإسلامية في العصور الوسيطة بالعلوم التي كانت تنتشر في أوروبا، فيقول: (لا بد لنا من القول بأن المؤلفات العربية، رغم ما نلاحظ فيها من تكرار، تشهد على حيوية فكرية بالغة. وهي إذا قورنت بالمؤلفات الأوروبية الصادرة بعد العهد (الكارولنجي)، أو بالأثار التي وضعت إبان النهضة البيزنطية، أثارت في نفوسنا الدهشة والإعجاب)<sup>٤</sup>

ويتحدث بجزن عما أصاب الحضارة الإسلامية من انحطاط، فيقول: (لا يسع المؤرخ أن ينفذ يده من حضارة في حال انحطاطها دون أن تعتربه عاطفة من الكآبة التي لا تتنافى مع الموضوعية. فقد كانت هذه الحضارة مدة طويلة من الزمن ورغم اضطراباتها ونقاط الضعف فيها، إنجازاً رائعاً من منجزات الإنسان، وفترة

(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٦.

(٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٣٢٩ - ٣٣٠.

(٣) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٦.

(٤) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٣٣٦.



حاسمة من وجوده.. إن الحضارات جميعاً عرضة للفناء. ذلك أمرٌ لا ريب فيه. لكنها تنهض دليلاً على أن الشعوب التي أوجدت هذه الحضارات قادرة على إبداع غيرها أو بعثها من جديد. ومهما يكن من أمر، فإن الغرب لا يسعه أن يتجاهل بأنه أخذ العلم والتفكير عن ابن سينا وابن رشد، وأنه لولا مسجد قرطبة لما شيدت كاتدرائية (بوي) بالذات في قلب فرنسا على النحو الذي شيدت به<sup>١</sup> سكت البابا، فقلت: لقد أنطق الله هذا الرجل بما عجز كثير من الرجال عن قوله. قال: لا بد لكل باحث منصف صادق أن يقول ما قال.

### مكسيم رودنسن:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مكسيم رودنسن)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من علماء فرنسا، وله شهادات عن رسول الله ﷺ، والحضارة الإسلامية، وجميعها تتعلق بما اكتشفه المؤرخون الأوروبيون — بعد البحث والتمحيص — من أخطاء.

منها قوله، وهو يذكر ما اكتشفه المؤرخون الأوروبيون من صفات رسول الله ﷺ: (يظهر عدد من المؤرخين الأوروبيين المستنيرين في القرن الثامن عشر بدأت تتكامل معالم صورة هي صورة محمد الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن الحضارة الإسلامية، وامتدادها العالمي، فيقول: (هكذا أظهرت الترجمات اللاتينية لمؤلفات المسلمين تدريجياً وانتشرت ثروة العرب العلمية بحيث وصلت إلى إنجلترا والورين وسالبرنو وخصوصاً إلى إسبانيا حيث كان الاتصال يجري بسهولة أكثر)<sup>٤</sup>

ويقول: (في عام ١١٨٠م، اكتملت المجموعة الأولى من مؤلفات ابن سينا الفلسفية وأخذت تروج في أوروبا وكان تأثيرها بالغا، وتبعها ترجمات لفلاسفة آخرين بتلاحق سريع.. وقد أخذت تتشكل في أذهان المفكرين الغربيين صورة أخرى للعالم الإسلامي بوصفه مهدياً لفلاسفة عظام. وكان تلك صورة مضادة تماماً للصورة السابقة، صورة الكيان السياسي الذي يسيطر عليه دين معاد ومغلوط، وهي الصورة التي خلقتها الخرافات السخيفة والكريهة في أذهان الناس.. واستطاع علماء اللاهوت الفلاسفة أن ينقلوا إلى المسيحية ما كان يذكره ابن سينا عن الحضارة الإسلامية.. بل لقد جاء وقت كان لفظ (الفيلسوف) يعني فعلياً (المسلم)<sup>١</sup> ويقول: (من وجهة النظر الفكرية نجد أن كبار المؤلفين المسلمين الذين كان اكتشافهم قوة تجديدية أصبحوا يتمثلون (ويهضمون) بصورة تدريجية ويدمجون ضمن الثقافة العامة. وخلال عدة قرون نجد أن ابن سينا

(١) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ١ / ٤٠٥ - ٤٠٦.

(٢) مكسيم رودنسن، ولد عام ١٩١٥، من أساتذة مدرسة الدراسات العليا بباريس، ثم مديراً.

من آثاره: (مباحث في فن الطبخ عند العرب) (١٩٤٩). ونشر عدداً من الدراسات في المجالات المعروفة من مثل (دانتي والإسلام)، و(حياة محمد والمشكلة الاجتماعية المتعلقة بأصول الإسلام)، و(دراسة الصلات بين الإسلام والشيعية).

(٣) تراث الإسلام، (تصنيف شاخوت وبوزوث)، ١ / ٦٧ - ٦٨.

(٤) تراث الإسلام: ١ / ٣٦.

(١) تراث الإسلام، ١ / ٤٠ - ٤١.

وابن رشد والغزالي في الفلسفة، وابن سينا وعلي بن العباس والرازي في الطب، ومؤلفين آخرين في العالم الإسلام نجد هؤلاء يقلدون وتعاد طباعة أعمالهم ويعلق عليها وتدرس)<sup>١</sup>

ويتحدث عن انتشار مثل هذا الوعي بين العامة، فيقول: (أصبح الناس - في الوقت الذي نتكلم عنه - يستطيعون رؤية الدين الذي كان ينافس المسيحية، بنظرة محايدة بل بشيء من التعاطف، ولعلمهم كانوا يبحثون فيه بصورة لا شعورية (ويجدون فيه بالطبع) نفس قيم الاتجاه العقلاني الجديد الذي كان مخالفاً للمسيحية. ففي القرن السابع عشر انبرى كثير من الكتاب للدفاع عن الإسلام ضد الإجحاف الذي ناله في العصور الوسطى وضد مجادلات المنتقسين من قدره، وأثبتوا قيمة وإخلاص التقوى الإسلامية.. وانتقل الجيل التالي من الموضوعية إلى مرحلة الإعجاب.. فكان ينظر إلى الإسلام كدين عقلائي بعيد كل البعد عن العقائد المسيحية المخالفة للعقل.. ثم إنه وفق بين الدعوة إلى حياة أخلاقية وبين حاجات الجسد والحواس والحياة في المجتمع. وخلاصة القول فهو كدين كان قريباً جداً من الدين الطبيعي الذي كان يعتقد به معظم (رجال عصر التنوير)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن تراجع بعض اليساريين عن موقفهم من الإسلام، فيقول: (ظهر الإسلام لبعض أولئك اليساريين الأوربيين على أنه في جوهره عامل (تقدمي) بطبيعته، بل اعتنق بعضهم ذلك الدين الإسلامي)<sup>٣</sup>  
بل يتحدث عن تراجع الكنيسة نفسها عن بعض مواقفها الخاطئة من الإسلام، فيقول: (في أكتوبر ١٩٦٥ أشاد مجلس الفاتيكان المسكوني (بالحقائق) التي جاء بها الإسلام والتي تتعلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين عليهم السلام.. ولقد أعجب بعض المسيحيين بالقيمة الروحية الدينية الإسلامية وأزعجتهم مواقف الظلم التاريخية التي وقفتها شعوبهم من الإسلام)<sup>٤</sup>

سكت البابا، فقلت: لكأن هذا الرجل الفاضل يدعو إلى مراجعة جميع مواقف الغرب من الإسلام والمجتمعات الإسلامية.

قال: أجل.. ذلك ما يهدف إليه.. وما تلك الأمثلة إلا نماذج عن هذه الدعوة العظيمة.  
قلت: لكأني بما ينادي بما نادى به قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتْنِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ (سبأ: من الآية ٤٦)

قال: أجل.. فما نفع القلب مثل مراجعة تمحو ظلمات الوهم، لتستنير بنور العلم.

### هنري ماسيه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (هنري ماسيه)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: من

(١) تراث الإسلام، ١ / ٥٢.

(٢) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزوث)، ١ / ٦٤ - ٦٦.

(٣) تراث الإسلام، ١ / ٩٤.

(٤) تراث الإسلام، ١ / ٩٥.

(١) هنري ماسيه H. Masse ولد عام ١٨٨٦، عمل مديراً للمعهد الفرنسي بالقاهرة، وعين أستاذاً في جامعة الجزائر (١٩١٦-١٩٢٧)، وعضواً في مجمع الكتابات والآداب وفي المجمع العلمي العربي بدمشق، وانتدبه الحكومة لعدد من المهام الثقافية واختارته اليونسكو في لجنة المستشرقين.

شهادات هذا الرجل التي جعلتني أضعه هنا حديثه عن منجزات رسول الله ﷺ الكبرى، فيقول: (بفضل إصلاحات محمد الدينية والسياسية، وهي إصلاحات موحدة بشكل أساسي، فإن العرب وعوا أنفسهم وخرجوا من ظلمات الجهل والفضى ليعدّوا دخولهم النهائي إلى تاريخ المدنية)<sup>١</sup> ويتحدث عن بعض صفاته ﷺ، فيقول: (كان محمد هو المشرّع الملهم والمحرك الأول للوحدة الدينية بين جميع الأقسام،.. وكان بسيطاً وحازماً)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن علاقة الإسلامية بالملة الخنيفية، فيقول: (في القرآن يظهر إبراهيم عدة مرات مع عنوان الخنيف، ويبدو أن هذه العبارة السابقة لعصر محمد كانت تدل على أناس لا يعتقدون المسيحية ولا اليهودية، ويتطلعون بعموض إلى دين أكثر تجرداً من العقائد والمذاهب، إلى توحيد كامل.. ولكن محمد سينتهي إلى التوحيد، إلى دين أساسي وفطري ليست الأديان الأخرى سوى دلالات عليه، توحيد يبلور نمائياً أحلام الخنفاء الغامضين، بحيث يجب أن نرى بهم مبشرين بمحمد)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن ربانية الإسلام، ورجوعه إلى مصادره الأصلية، فيقول: (تضاعفت فجأة أهمية النصوص المقدسة لأن دراستها لم تكن قضية تدبّر فقط بل قضية تطبيق عملي. وبدأ الفقه ينتظم ولكن بوفاق تام مع القانون السماوي)<sup>٤</sup>

### الدو مييلي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (الدو مييلي)<sup>٦</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مستشرقى فرنسا، متخصص في تاريخ العلوم، وقد رأيت له شهادات رائعة ترتبط بتخصصه، وترتبط بالحضارة الإسلامية، منها قوله — وهو يتحدث عن معجزة الفتوحات الإسلامية —: (في عصر الانحطاط العميق بالبلدان التي كانت من قبل تعدد قسمًا من إمبراطورية دقلديانوس القديمة، نهض فجأة في قلب الصحاري العربية خصم من الخصوم تابع تلك الإمبراطورية العجوز المترنحة، كما هو من ألدّ خصوم الممالك الجديدة التي كانت ناشئة في الغرب. وظل هذا الخصم يزداد عظمة في مرأى العين، كما لو كانت عناية الله الدائمة هي التي

---

من آثاره: نشر كتابًا عن الشاعر (سعدى) (١٩١٩)، وصنف كتابًا بعنوان: (الإسلام) (١٩٥٧)، كما ترجم وحقق العديد من النصوص العربية، ونشر العديد من الأبحاث في المجالات الاستشرافية الشهيرة.

(١) الإسلام، ص ٥٥.

(٢) الإسلام، ص ٥٩.

(٣) هذه الشهادة تحمل على وجوه مختلفة، وقد حملناها هنا على أحسن وجوهها، وهكذا سائر ما نذكره من شهادات.

(٤) الإسلام، ص ٣٩ - ٤٠.

(٥) الإسلام، ص ١٢٣.

(٦) الدو مييلي A. Mieli مستشرق فرنسي، تفرغ لتاريخ العلوم. تولى وكالة المجمع الدولي لتاريخ العلوم وأسس مجلة (أركيون) التي تسجل نشاطه.

من آثاره: (تاريخ العلوم) (باريس ١٩٣٥)، (العلم العربي وأثره في التطوير العلمي العالمي) (١٩٣٨)، (علم الفلك في العالم الإسلامي) (١٩٤١)، (علم النبات عند العرب) (١٩٤١)، (علم الجغرافيين العرب) (١٩٤١)، (العلم الإسلامي) (١٩٤٢)، (الرياضيات العربية) (١٩٤٢)، (التشريح العربي) (١٩٤٢). وغيرها.

تقود عساكره المخلصين إلى الجهاد والنصر المبين، حتى تلا فتح سورية ومصر بعد قليل تقوّض إمبراطورية الساسانيين، وأصبح أخلاء قسطنطين – الذين اقتطعت منهم فعلاً أقاليم كثيرة – مهدهدين. يمثل ذلك المصير<sup>١</sup> ويتحدث عن دوافع الفتوحات الإسلامية، فيقول: (بباعت من تلك الدوافع القوية التي تشمل أحياناً جميع الناس، وتكاد تبدو متعذرة للفهم للمراقب الخارج عن دائرتها أو الذي لم شهد مثلها من قبل، فاض أولئك العرب.. من شبه الجزيرة، التي هي موطنهم الأول فأسسوا الإسلام، أو أقاموا سلطان الإسلام على قسم عظيم من العالم المتحضر القديم، تحوهم رغبة جدّ عنيفة في الدعوة الدينية)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن الدور التحرري الذي قام به المسلمون، فيقول: (إن السكان الساميين في سوريا ومصر، الذين قاسوا كل صنوف الضغط والهول – على الأخص بسبب الضرائب – من قبل الحكومات الأجنبية التابعة للدولة البيزنطية أو المملكة الساسانية، لم يستطيعوا أن يروا في العرب إلا محررين مخلصين، كما أن المسيحيين القائلين بوحدة الطبيعة (طبيعة المسيح) في الشرق استطاعوا أن يعتمدوا على التسامح الإسلامي، بعد أن كانوا يخشون الاضطهاد من قبل نصارى القسطنطينية)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن تسامح المسلمين بإعجاب، فيقول: (كانت شروط الفتح الإسلامي تسمح ببقاء بذور الحضارات القديمة عند طوائف كبيرة من الأهالي، الذين واصلوا التمتع بعاداتهم، وقوانينهم، ولغاتهم، على شريطة أن يعطوا بانتظام قيم الجزية المفروضة على من لا يدخل في جماعة المسلمين. وكان طبيعياً مع ذلك أن تتأسس الروابط والعلاقات بين الفاتحين وأهل البلاد في وقت مبكر، سواء أكان ذلك بسبب الجوار، أم بسبب اعتناق الأهالي كثيراً وقليلاً للإسلام بوجه خاص)<sup>٤</sup>

ويقول: (التسامح العظيم الذي تحلى به الخلفاء الأمويون، وملوك الطوائف.. لم يمتد لواؤه على ما حكموه من شعوب، أو على المسلمين القادمين من إفريقية والمشرق فحسب، بل انبسط ظله أيضاً على العلماء المسيحيين الذين أقبلوا مهطعين من أبعد الأقطار لتلقي العلوم في المدن المزدهرة التي لا تحصى، في ذلك القطر الساحر الأندلس الآخذ بمجامع الألباب)<sup>٥</sup>

ويتحدث في مجال تخصصه عن الدور العظيم الذي قام المسلمون من وصل التراث الإنساني القديم بالتراث الجديد: (إن مقام العلم العربي.. هو بالمكانة الأولى من الأهمية في تاريخ العلوم، لأن هذا العلم العربي يكوّن حلقة الاتصال والاستمرار بين الحضارة القديمة وبين العالم الجديد. وإذا نحن لم نواجه ذلك العلم العربي ولم نتفهمه فسندج فراغاً يتعذر تفسيره بين الحضارات القديمة وبين حضارتنا الحديثة. وإذن ينبغي أن نجتهد في دراسته بعناية)<sup>٦</sup>

(١) العلم عند العرب، ص ٧٤.

(٢) العلم عند العرب، ص ٧٥.

(٣) العلم عند العرب، ص ٨١.

(٤) العلم عند العرب، ص ١٢٣.

(١) العلم عند العرب، ص ٤٥٤.

(٢) العلم عند العرب، ص ١٠ - ١١.

ويرد على شبهة انحصار دور علماء المسلمين في نقل التراث القديم، فيقول: (ينبغي ألا نظن أن العرب لم يضيفوا شيئاً جديداً إلى العلم الذي كانوا أوصياء عليه. بل على النقيض من ذلك، وإذا كانت خطوات التنمية والإنتاج التي خطوها في هذا السبيل، كثيراً ما ضاعت وتفرقت في الحشد الكبير من الكتب التي تركوها، فليست تلك الخطوات أقل أصالة وأبعد عن الواقع من أجل ذلك. وليس لأحد أن يقول - كما يقرر ذلك بعض المؤلفين - أن دور العرب ينحصر ببساطة في المزج والنقل للمعارف الأقدمين التي لولاها لذهبت أدراج الرياح (الأمر الذي هو في ذاته عنوان فخر عظيم، وشرف لا يستهان به)<sup>١</sup>

ويتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية، فيقول: (ترك كتاب (المنظير) لابن الهيثم تأثيراً عميقاً، بل كان - فيما بعد - باعثاً إلى البحوث والأعمال التي قام بها روجير بيكون Roger Bacon.. ولعل الأثر الذي تركته مؤلفات هذا العالم العربي في البصريات والذي يبدو في أعمال بيكون.. هو السبب في أن كتب ابن الهيثم لم تنشر مبكرة في عصر النهضة، كما أنها بعد ذلك لم تنشر كثيراً)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن جسور التواصل بين المسلمين والغرب، والتي يسرت للغرب الاستفادة من التراث الإنساني القديم، فقال: (على الرغم من أن البناء على أسس المعارف اليونانية واللاتينية القديمة لم يكن أمراً مستحيلاً، وأنه قد حصلت في الغرب فعلاً محاولات في هذه النواحي فإن هذا البناء لم يتحقق مع ذلك، لأن العالم الغربي كان في ذلك العصر على اتصال بالعالم العربي بوساطة طرق كثيرة الاختلاف، وكان يستطيع أن يعترف منه المادة العلمية، ويستمد النواة الروحية التي سرعان ما حملت عجيب الثمار)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن جسر (الترجمة) باعتباره من أهم جسور تواصل الغرب مع الإسلام، فيقول: (إن ذلك العمل، أي الترجمة عن العربية الذي يعد بحق نتاجاً عظيماً بالغ الأهمية من قبل المترجمين الأوربيين جعل أصول العلم العربي تنفذ إلى أوساط العالم المسيحي في الغرب، كما لقح العلم الحديث الذي أخذ في التولد والنشوء)<sup>٤</sup>

سكت الباب، فقلت: إن هذا الرجل يكن احتراماً عظيماً للحضارة الإسلامية.

قال: ولو وجد من يتحدث عن الإسلام بعمق وصفاء لشهد أعظم شهادة يمكن أن يشهدها إنسان.

قلت: تقصد إسلامه؟

قال: أجل.. فما أكثر ما حجب الناس عن الإسلام بسبب سلوك المسلمين، وتصويرهم الخاطئ للإسلام.

**ليفي بروفنسال:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ليفي بروفنسال)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا

(١) العلم عند العرب، ص ١٤٤.

(٢) العلم عند العرب، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٣) العلم عند العرب، ص ٤٢٤.

(٤) العلم عند العرب، ص ٤٧٩.

(١) ليفي بروفنسال (١٨٩٤-١٩٥٦) F. Levi - Proven Cal ولد في الجزائر ونال الليسانس من كلية الآداب فيها (١٩١٣) واشترك في الحرب. وفي سنة ١٩١٩ انتدب للعمل في معهد الدراسات العليا المغربية في الرباط. وعين أستاذاً فيه (١٩٢٠)، ثم مديراً له (١٩٢٦-١٩٣٥) وفي تلك الأثناء قدم رسالة دكتوراه. وفي سنة ١٩٢٨ انتدبته كلية الآداب بالجزائر

رجل من كبار المستشرقين الفرنسيين، أبرز اهتماماته تاريخ الأندلس، ومن خلال هذا الاهتمام شهد شهادات صدق عن الحضارة الإسلامية.

منها حديثه عن تسامح المجتمع المسلم وحيه للسلام، قال: (إن الهدف الذي نبتغيه هو إلقاء الضوء على تداخل Interpenetration الإسلام والمسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية وهو تداخل حقيقي مستمر في إسبانيا في العصور الوسيطة سواء في داخل الحدود الإسلامية أم في خارجها. وكذلك هو في أن نظهر الأندلس على أنها لم تكن حتى في ذات الوقت الذي تعرف بأنها لا تقهر، لتمتدق الحسام في وجه جيرانها، وإنما كانت هناك سنوات طويلة لهدنات حقيقية أعطت الأندلس خلالها أكثر مما أخذت، كما برهنت في أغلب الأحيان على عقل متسامح إزاء رعاياها المسيحيين لم يعد أحد يجاري فيه اليوم)<sup>١</sup>

ويقول: (ما من مكان كانت العلاقات الدائمة ضرورية فيه بين الإسلام والمسيحية، أكثر منها في أسبانيا العربية، فإن معظم سكانها قد احتفظوا، على الأقل في القرن الأول من حكم الإسلام، بالديانة القديمة في دولة الفيزيقيوت القوات الغرييون، وفيما بعد، حتى عقب اعتناق أعداد غفيرة من الرعايا النصرى أهل الذمة للإسلام، للاستفادة من نظام مالي أفضل، بقيت نسبة ضخمة من الرعايا المسيحيين تشكل في المدن الأندلسية وحدات مزدهرة، لها كنائسها وأديرتها ورئيسها المسؤول (Depensar) وحايها الخاص (Censor) وقاضيها الذي يطبق في محكمته، تحت إشراف الإدارة الأموية، القانون القوطي القديم من Liber Judicrum أما الاضطهادات التي عانتها فقد كان يسببها دوماً مسيحيون متهوسون يرفضون أن يتراجعوا عن القدح في معتقد سادة البلاد.. وكان أمراء الأندلس وخلفاؤها يقرون بصورة دائمة تقريباً اختيار أصحاب الرتب الكهنوتية: مطران طليطلة وأسقف قرطبة. حتى إنهم كانوا يستعملون هؤلاء الأبحار في سفارات أو مهمات سياسية سرية في الوقت المناسب. فلم تكن رؤية الإيكليريكيين الأسبان يتصلعون في معرفة اللغة العربية وآدابها من الأمور النادرة مطلقاً. وهذا ما يجعلنا نفترض وجود اختلاط ودي، واثق ومتصل بين مختلف عناصر السكان. بل نملك على هذه الناحية شهادة معاصرة لا نستطيع الارتياح في قيمتها، ذلك لأنها صادرة عن واحد من أنشط أبطال المقاومة ضد الإسلام في شبه الجزيرة في القرن التاسع ألا وهو الفارو القرطي Le Cardouan Alvaro. فبينما يحزن لفتور مسيحيي أسبانيا وجهلهم باللاتينية، نراه يمجّد بفصاحة نادرة الثقافة الإسلامية الإسبانية التي كانت في طور التكوين)<sup>١</sup>

ويتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية عبر جسر الأندلس، فيقول: (إن تعبير (الغرب

---

أستاذاً لتاريخ العرب والحضارة الإسلامية. كما كان يحاضر في السوربون. وتقلب في الوظائف العلمية والإدارية والسياسية، وشارك في الحرب الثانية، وأنشأ مجلة أرابيكا Arabica للدراسات العربية عام ١٩٥٤. وقد عد المرجع الأول في الغرب لتاريخ الأندلس، وانتخب عضواً في عدد من المجمع العلمية.

كتب المئات من الأبحاث والدراسات، نشر بعضها في مصنفات مستقلة، ونشر بعضها الآخر في أشهر المجلات والحواليات الاستشراقية، وانصبّ معظمها على تاريخ وحضارة المغرب والأندلس.

(١) حضارة العرب في الأندلس، ص ٧٠ - ٧١.

(١) حضارة العرب في الأندلس، ص ٧١ - ٧٢.

الإسلامي) قد لا يجد خصوصاً له من أجل تعريفه الخاص فحسب، بل إن له خصوصاً آخرين، مازالوا كثيرين جداً في أوروبا، حتى بين الأخصائيين المرموقين في دراسات العصور الوسطى. يرون أن أفريقيا الصغرى وإسبانيا، كليهما، لا يشكلان مطلقاً سوى امتدادات شاسعة وظلال شاحبة للشرق الإسلامي، هذا الشرق الذي يجب الاعتراف بأنهم لا يزالون يجهلونه تمام الجهل ولا يقدرّون حق التقدير الدور الراجح الذي لعبه خلال العصور في اقتصاد حوض البحر الأبيض المتوسط منذ انهيار العالم القديم حتى الفترة التي شهدت غروب القرون الوسطى وأولى تباشير التزعة الإنسانية الناشئة. وترى أن الحكم السابق نفسه الذي كان يجعل مؤرخين كثيرين جداً يقدرّون بيزنطة (بالمقارنة بذكريات روما المظفرة) يدفع هؤلاء المؤرخين إلى أن لا يروا في المغرب والأندلس، في العصر الوسيط، سوى استمرار هزيل، في انخراط سياسي عميق، لعصر الإسلام الذهبي في الشرق الذي دونت وقائعه في سوريا ومصر وبلاد ما بين النهرين. ولا يخطر لهؤلاء المؤرخين لحظة واحدة، لا سيما فيما يتعلق بإسبانيا، أن يحاولوا إظهار قسطها الهائل في تطور العالم الأوروبي الغربي، منذ القرن الحادي عشر، وفي تحسين بعض نواحي الحياة المادية، وبخاصة فيما فرضت عليه رويداً رويداً، من شعور بحمال للحياة جديد، هذه الحياة التي كانت تسيطر عليها حتى ذلك الحين، وفي رهبة المجهول، صوفية ثقيلة التشاؤم<sup>1</sup>

ويتحدث عن بعض مظاهر تأثير الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية، فيقول: (إن دراسة الاستعارات اللغوية) التي تنفخ القشتالية والبرتغالية والقطالونية وهي اللغات القومية الحالية في شبه الجزيرة عبيراً من العربية جد نفاذ ومدعاة للبحث، هذه الدراسة لا تقدم لنا قيمة في فقه اللغة فحسب بل إنها تكتسي طابع الأهمية الخاصة حالما تتوسع فيها لتشمل وقائع الحضارة التي بردت هذه الاستعارات اللغوية، فهي تقدم الدليل الضمني، ولكن الذي لا جدال فيه، على الأثر العميق الذي مارسه الثقافة العربية الأندلسية على السكان المسيحيين في الكتلة الإيبيرية بكاملها.. لقد وجد هؤلاء أنفسهم مضطرين لأن يأخذوا عن العربية كل ما كان ينقصهم حتى ذلك الوقت للتعبير عن المفاهيم الجديدة وبخاصة في مضمار المؤسسات والحياة الخاصة. وهذا التحقق هو غني بالمعلومات بصورة فريدة<sup>1</sup>

ويقول: (على الرغم من أن فرنسا كانت في العصور الوسطى في عزلة عميقة بسبب من وضعها الجغرافي، إلا أن هذا، مع ذلك، لم يحل دون معاناتها من بعض النواحي، عاقبة تلك المؤثرات التي أثمرتها حضارة الإسلام في الأندلس على الممالك المسيحية في شمال إسبانيا.. وقد رأينا أن غالبية الكلمات المشتقة من العربية في اللغة الفرنسية قد دخلت إليها عن طريق الإسبانية. ومن المحتمل أن يكون هذا هو شأن كثير من المؤثرات التي قدرت فرنسا على تقبلها من الإسلام قبل زمن من الحملات الصليبية إلى الشرق أو حتى أثناء هذه الحملات.. وقد أخذ زهاب الرهبان الفرنسيين وإياهم المتواتر بين أديرتهم وبين طليطلطة، يزيد أيضاً في تسهيل التبادل الثقافي بين

(١) حضارة العرب في الأندلس، ص ٨ - ٩.

(١) حضارة العرب في الأندلس، ص ٨٠-٨١، وعن حشود المفردات العربية التي اقتبسها الإسبان في مجالات النظم العسكرية والمدنية، وأسماء الأمكنة، والأنشطة الزراعية والصناعية وغيرها، انظر المرجع نفسه، ص ٨١-٨٥.

ويتحدث عن الفترة الزاهرة التي مرت بها الأندلس إبان حكم المسلمين لها، فيقول: (يجب أن نبادر في الحال إلى استبعاد بعض الإثباتات لأنها نفسها تستحق ذلك إذ أنها لا تعتمد فيما تزعم على مستندات خالية الغرض دائماً، لا سيما وأن لهجتها الخشنة، الحاقدة معاً، تجعلها في محل شبهة إلى حد بعيد منذ البداية.. وهي تصدر من ناحية أخرى عن كتاب ليسوا من الأسيان كما أنهم ليسوا مؤرخين أو مختصين بإسبانيا، وأكثر من هذا كله فإنهم غير مختصين بالإسلام. فإنهم يلقون على المسلمين تبعة (إجذاب) إسبانيا و(إخلائها) من السكان وأنهم جعلوها (صحراء مثل أفريقيا الشمالية). ويقسم المرء لدى قراءته ما كتبوا على أنهم لم يسمعوها أبداً خريز نوافير الماء في قصر الحمراء ولم يستنشقوا أبداً العبير الرقيق المعطر في الكرار إشبيلية. وهم يرون، وأنا أنقل هنا حرقياً رأيهم، بأنه (أقل ما يمكن أن يقال هو أن السيطرة الإسلامية كانت مصاباً جسيماً حل على إسبانيا). فما من أحد مثقف في إسبانيا اليوم يجروء على أن يكون حكماً مفرطاً في المبالغة إلى هذا الحد.. ولكن إسبانيا قد عرفت أن تعيد إلى إسلام الأندلس ألقابه في مراتب الشرف وادعت وهي مرفوعة الرأس علناً بأنه يعتبر زهرة في تراثها التاريخي والفكري)<sup>٢</sup>

ويقول: (كان العالم السياسي الإسباني السيد Cl. Sanchez-Albornoz رئيساً لجامعة مدريد فسيراً لبلاده ثم وزيراً لشؤونها الخارجية، إلا أنه كان وبقوى، قبل كل شيء، مؤرخاً على مستوى عالٍ.. أنه يعرف، أكثر من أي شخص آخر، كيف أشرف الإسلام على هذه البلاد وماذا كان تراثه الرئيسي فيها: تأثير عميق على الفكر الإسباني لا يمكن إنكاره.. لنترك له الكلام ونردد معه كلمة هذا الاعتراف المؤثر العضوي: (المسألة اليوم ليست مسألة ظلمات العصور الوسطى، ولكن علينا أن نرى مقابل أوروبا التي تنمو في التعاسة والانحطاط، حضارة إسبانيا المسلمة الرائعة. فإن أساتذة الدراسات العربية يفتحون لنا كل مرة آفاقاً جديدة عن مدى تألق هذه الثقافة الإسبانية المغربية وعمقها. فقد ادعوا أن لها مقاماً حاسماً في تكوين الفلسفة والعلم والشعر وجميع ثقافة أوروبا المسيحية. وبرهنوا على أن تأثيرها قد بلغ حتى ذرى الفكر الوسيط. بلغ القديس توماس ودانتي. كثيرون ولا شك، في كل ناحية من ناحيتي جبال البيرنيه والبحر المتوسط الذين ينفرون حتى الآن من الإقرار لها بهذا التفوق وذلك الدور الموجه. ومع ذلك فإن براهين وافية للغاية تؤكد ذلك منذ الآن. ومن يوم على يوم تنجس أخرى جديدة. وقد انقضت عدة قرون قبل أن تعمل النهضة من جديد على تفجير ينابيع كادت تنضب، كان نهر الحضارة الذي ينهمر في قرطبة يحفظ جوهر الفكر القديم وينقله إلى العالم الجديد)<sup>١</sup>

سكت البابا، فقلت: ليت بعض قومنا يقرؤون هذه الشهادات ليروا من تاريخهم وحضارتهم ما عميت أبصارهم عن رؤيته.

(١) حضارة العرب في الأندلس، ص ٨٧ - ٨٨.

(٢) حضارة العرب في الأندلس، ص ٩٩ - ١٠٠.

(١) حضارة العرب في الأندلس، ص ١٠٢-١٠٣، وعن الدور الذي لعبته الترجمة إلى اللغات الإسبانية في نقل مؤثرات الحضارة الإسلامية إلى المغرب، انظر: المرجع نفسه ص ٩٦ - ٩٧. وعن إنجازات المسلمين في الآداب والفنون انظر المرجع نفسه، ص ٨٨-٩٠، ٩٧-٩٨.



## روبرت برنشفك:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (روبرت برنشفك)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من مستشرقى فرنسا، له شهادات ترتبط بالإسلام، وبالحضارة الإسلامية، منها قوله في الميادين التي مارسها الحضارة الإسلامية: (إن تأثير الدين الإسلامي تتجلى قوته.. في عدد كبير من عناصر الثقافة الإنسانية: في اللغة والفنون والأدب والأخلاق والسياسة والتركيب الاجتماعي ونشاطه والقانون، بحيث لا نستطيع إذا أخذنا الوضعية كلاً، أن نرفض ملاحظة مدنية مستقلة فيها، لا تتميز (بالعصر الإسلامي) فحسب، بل (بالمعامل) الإسلامي أيضاً)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن شمولية العقيدة الإسلامية لكل ميادين الحياة، فيقول: (أصبحت العقيدة الإسلامية خلال القرنين الثاني والثالث المحجرين نظاماً نما بصورة واسعة في نواح مختلفة، وكان شديد الرغبة في إظهار تماسكه في كل مدرسة أو نزعة تتضح في نطاقه.. وهكذا أخذ الإسلام مكانه عملية قدرت له في عدة ميادين ثقافية، وهو دور المؤثر والمتأثر، وهو مظهر مزدوج لا يصح الفصل بين جزئيه غالباً إلا بطريقة مصطنعة)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن أسلمة المسلمين للحياة بجميع ميادينها، فيقول: (من الأصحّ دون ريب أن نعتبر العقيدة الإسلامية عاملاً، لا في الحالات التي يحدث أن تستمد منها حلاً جديداً من مواردها الخاصة بها فحسب، أو تأتي بحل جديد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ولكن في كل حالة تستوعب فيها حلاً داخلياً أو أجنبياً في نظامه ويلونه بطريقة الخاصة وبذلك تساعد على اقتباسه أو الاحتفاظ به. فكم من عمل لم تكن به من ناحية المبدأ صبغة إسلامية، طبعه الإسلام بطابعه إلى الحد الذي أصبح فيه عملاً مميزاً للإسلام، وذلك بفضل إسناد التربية الإسلامية الماثورة.. ومن الممكن أن الصفة الإسلامية الخاصة لعنصر ثقافي في أكثر من حالة واحدة، لا يدين بشيء إلى الأصل الذي نشأت عنه بل يعبر فقط عن الحقيقة أن الإسلام باقتباسه العنصر المذكور طبعه بطابعه أو أراد اقتباسه وتمثيله)<sup>٤</sup>

## البروفيسور فورغ:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البروفيسور فورغ)<sup>٥</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا طبيب فرنسي له اهتمام بتاريخ الطب، وله شهادات ترتبط بالحضارة الإسلامية، منها قوله — عن تأثير

---

(١) روبرت برنشفك R. Brunschvig ولد عام ١٩٠١، أستاذ اللغة والحضارة العربيتين بجامعة بوردو ثم في كلية الآداب بجامعة باريس (١٩٥٥)، وتولى مع شاخت الإشراف على مجلة الدراسات الإسلامية *Studia Islamica*. نشر عدد من الأبحاث في المجالات الاستشراقية الشهيرة، كما ألف (بلاد البربر الشرقية تحت حكم الحفصيين) في جزأين (باريس ١٩٤٠).

(٢) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، (تحرير كروناوم)، ص ٧٤.

(٣) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ٧٩ - ٨٠.

(٤) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ٨٠ - ٨١.

(٥) البروفيسور فورغ Prof. Forgue جراح فرنسي شهير، يعد من أشهر جراحي فرنسا في النصف الأول من هذا القرن، إن لم يكن أشهرهم. وله اهتمامات بتاريخ الطب.

الإسلام في الحالة النفسية عند الإسبانين —: (إن إسبانية.. أرض قائمة بنفسها لها مزاياها وخصائصها، وهي تمتاز بميزات لا يشاركها فيها غيرها، وأن فيها قوة حيوية قومية غير معهودة لكثير من الأمم، وأن لتلك الأدمغة الحارة من سرعة الفكر.. ما يجعل هذه الأمة فريدة في باها. ولأجل أن نفهم هذه الحالة النفسية عند الإسبانول وجب علينا أن نفهم هذه الحقيقة التاريخية وهي استيلاء العرب على إسبانيا.. التي بقيت تحت حكمهم زهاء ثمانية قرون. وهكذا يمكن قياس درجة اتصال الأمة الإسبانية بالمدينة الإسلامية هذه المدينة التي كانت حلقة الاتصال بين العالم الإسلامي وأوروبا الغربية. قال ليبري Libri: احذف العرب من التاريخ يتأخر عصر التجدد في أوروبا عدة قرون إلى الوراء)<sup>١</sup>

ويقول عن الحضارة الإسلامية في الأندلس: (كانت طليطلة قد عادت للإسبانول سنة ١٠٨٥م فصارت مركز الاتصال بين المدينتين الإسلامية والمسيحية. وسرى مقدار تأثير هذه البلدة كمركز تبادل للبضائع العقلية وكمكتب للترجمة يحج إليه طلاب العلوم من كل فج.. وفي يناير سنة ١٤٩٢ كان سقوط غرناطة وجلاء العرب الأخير فتركوا.. من قصر الحمراء بقية باهرة تتأمل فيه القرون والحقب دهرًا طويلاً، كما أن طليطلة بقيت خزنة كتب تغذي بترجمتها الفكرة البشرية عصورًا مديدة. لا حرم أن هناك تاريخًا نادر المثال لم ينقصه شيء لا من العظمة ولا من طول المدة)<sup>٢</sup>

وينظر بعجب إلى الرجال الذين أسسوا الحضارة الإسلامية في الأندلس، فيقول: (إنك ترى شعبًا من القبائل الرحل، رعاة الإبل، بسائق دعوة دينية يحملون على الأمم فيفتحون نصف العالم في مدة قرن واحد. ثم يكون أعظم همهم، بعد أن وطّدوا هذا الملك الطويل العريض، أن يضمّوا إلى عظمة الفتح عظمة العلم)<sup>٣</sup>

## البارون كارادي فو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (البارون كارادي فو)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من كبار المستشرقين الفرنسيين، من شهادته المرتبطة بالحضارة الإسلامية قوله: (أنجز العرب أعظم المكتشفات العلمية فعلاً. فعملونا استعمال الصفر وجعلوا (الجبر) علمًا متقنًا وتقدموا به، ووضعوا أسس علم الهندسة التحليلية وهم بلا منازع موجدو علمي المثلثات المستوية والكروية اللذين لم يكن للإغريق فضل في وجودهما إذا ما توخينا الحقيقة والإنصاف كما أنهم عملوا في الفلك أرسادًا عديدة قيمة، وحفظوا لنا بترجماتهم عددًا كبيرًا من كتب الإغريق التي ضاعت أصولها.. والسبب الآخر لاهتمامنا بعلم العرب هو تأثيره العظيم على

(١) مجلة المستشفيات الفرنسية Gazette des Hopilaux عدد ١٩ مارس، ١٩٣٢، عن (حاضر العالم الإسلامي ١٢٨/١-١٢٩).

(٢) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ١٢٩.

(٣) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ١٣٠.

(١) البارون كارادي فو (١٨٦٨ - ١٩٣٠) Baron Carra De Vaux مستشرق فرنسي معروف من المعهد الكاثوليكي بباريس، درس العربية ودرّسها في المعهد المذكور، وألف في الرياضيات والفلسفة كما حقق عددًا من المصادر. ومن أشهر مؤلفاته ما كتبه عن ابن سينا (١٩٠٠) والغزالي (١٩٠٢) و(مفكر الإسلام) في خمسة أجزاء (١٩٢١-١٩٢٦٩). كما ترجم كتبًا عديدة أخرى.

الغرب. إن العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى في الوقت الذي كان العالم المسيحي يناضل نضال المستميت للاعتناق من أحابيل البربرية وأغلالها. ووصلوا إلى قمة نشاطهم (الذي استمر حتى القرن الخامس عشر) في القرنين التاسع والعاشر. ومن القرن الثاني عشر فصاعدًا كانت مراكز الشرق ومحط أنظار كل غربي يميل إلى العلم ويتذوقه. في هذه الفترة شرع أبناء أوروبا يترجمون آثار العرب كما كان العرب قد ترجموا آثار الإغريق. وهكذا كانوا همزة وصل بين الثقافة القديمة والمدنية الجديدة، عندما عادت النفس الإنسانية في عهد الإحياء العلمي لتمتلئ ثانية بحب المعرفة والاستقصاء ولتتنبه بوميض من العبقرية العلمية. فإن هي أفلحت في سلوك السبيل الأقوم للعمل، وإن أتيح لها الإنتاج والابتكار فما ذلك إلا لأن نفسية العرب قد حفظت وأكملت مختلف فروع العلم وصانت روح البحث العلمي حيّة تائفة للتححر والحركة، متهيئة للمكتشفات المقبلة<sup>١</sup>

### هيلين كارير دانكوس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (هيلين كارير دانكوس)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لقد ذكرت لك هذه المرأة الفاضلة من قبل.. ألا تذكره؟ قلت: بلى.. تلك المرأة الفاضلة.. صاحبة المزرعة العجيبة.. تلك التي كانت تبحث عن النظام الأمثل.. فلم تجده إلا في الإسلام<sup>٣</sup>.

قال: أجل.. فلها شهادات رائعة عن الإسلام بثتها في كتابها (القوميّات والدولة السوفياتية)، وهي في مجملها تدل على مدى الصمود الإسلامي، ومدى استغناء المسلمين بالنظام الإسلامي عن كل نظام مستحدث. منا قولها: (إن استمرار الشعور الديني في الاتحاد السوفيتي، أو تجدد، حقيقة اجتماعية ثقافية، تُقرّ بها السلطات السوفيتية ويلحظها المراقبون الأجانب والسلطة تنظر إلى هذه الحقيقة من وجهتين، فهي تارة تعتبرها مدعاة للافتخار على أنّها الدليل الملموس على موقفها المنفتح والديمقراطي تجاه جميع المعتقدات الخاصة، وطورًا تبدي تجاهها بعض القلق، وحينها تجنّد أجهزتها المختصة في الدعاية المعادية للدين، وتشتد الحملات الإلحادية، وتتضاعف في الصحف الدعوة إلى التيقظ والحذر، ويعاد إلى أذهان المربين أن المهمة الأولى للمدرسة هي في إنشاء شيوعيين، أي في إبعاد مواطني المستقبل السوفيتيين عن الأفكار الرجعية!! الخطرة والمعادية للشيوعية، التي تنقلها الديانات. وتؤكد النشرات المعادية للدين بصورة متزايدة، قابلية الديانات للاستمرار والتأقلم مع المجتمع الذي بدلتها الاشتراكية، بعد أن كانت هذه النشرات تكنفي في الماضي القريب، بمهاجمة الديانات وتنبأ بزوالها

(١) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس أرنولد)، ص ٥٦٣-٥٦٥. وعن إنجازات المسلمين في ميدان الفلك والرياضيات والعلوم التطبيقية، انظر: المرجع نفسه، ص ٥٦٣-٥٦٥، ٥٦٩-٥٧١، ٥٧٣-٥٨٠، ٥٨٢، ٥٨٤-٥٩٢.

(٢) هيلين كارير دانكوس Helene Carrere d' Encansse باحثة فرنسية معاصرة، وهي واحدة من أبرز الخبراء في شؤون (الماركسية الآسيوية)، وقد صدر كتابها (القوميّات والدولة السوفياتية) في باريس عام ١٩٨٧ فأثار ضجة ما تزال مستمرة وترجم فورًا إلى عدد من اللغات الحية.

وقد سبق الحديث معها في الجزء السابق.

(٣) انظر الرسالة السابقة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (نظام)

الحتمي !! وقد بدأت السلطة السوفيتية تدرك مدى جاذبية الطقوس الدينية في مجتمع تسود فيه الرتابة، وكيف بدأت الأخلاق الدينية تخطط لنفسها طريقاً إلى جانب الأخلاق الاشتراكية، لا بل في محلها في مجتمع ما زاده التحضير ميلاً إلى الجنوح<sup>١</sup>

ومنها قولها: (إن جميع المعلومات السوفيتية الرسمية تتضافر لتوحي بأن الإسلام يحتضر ببطء في الاتحاد السوفيتي، مع احتضار الجليل الذي لم ينشأ على الإيديولوجية السوفيتية. ولكن معلومات مضادة لا تلبث أن تناقض هذه الصورة، فالتحقيقات الاجتماعية المتزايدة في الاتحاد السوفيتي حول هذا الموضوع، تبين أن المجتمع الإسلامي لا يزال متعلقاً بمعتقداته، وأن ما يقارب نصف الأشخاص الذين جرى استجوابهم في الوسط الريفي صرحوا بتمسكهم بالإيمان. وعلى سبيل المثال نورد تحقيقاً أجري عام ١٩٧٢ بجمهورية كاراكالبك الملحقة بأزبكستان، وقد دلّ هذا التحقيق على أن ٢٣% من الرجال و ٢٠% من النساء يعلنون عن إلحادهم، فيكون ٧٧% من الذكور و ٨٠% من الإناث مؤمنين.. وفي شمال القوقاس أعلن ٢٠% فقط من السكان عن كونهم ملحدين (عام ١٩٧٤).. هذا رغم أن الباحثين في الأوساط الإسلامية يلحظون غالباً تحفظاً من قبل السكان في الكشف عن حقيقة إيمانهم)<sup>٢</sup>

ومنها، قولها: (هنالك خاصية ثانية للإسلام تزيد الوضع في الاتحاد السوفيتي تعقيداً فهو، على نقيض المسيحية التي تفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا، يجمع بين المجالين. فالعقيدة الإسلامية، وهي ثمرة القرآن والسنة، تفرض على المؤمنين وجود مؤسسات خاصة، مهمتها الإشراف على الحياة الاجتماعية. والدولة السوفيتية، في برنامجها التأميدي الذي يستهدف فرض إيدولوجية واحدة لم يكن باستطاعتها أن توافق على وجود نظام خاص للطائفة الإسلامية، فألغت في أوائل سني استلامها السلطة، العناصر الأساسية فيه، أي النظام القانوني والمؤسسات الشرعية والأسس المالية المعتمدة. وبعد أن جعلت الديانة الإسلامية ديانة أفراد معينين لا ديانة طائفة، وبعد أن حرمت من مؤسساتها، ونزعت منها أمور الدنيا، هل بقي لها وجود منظم أم هي أضحت هيكلاً لا يلبث أن يتفتت مع غياب آخر فوج من المؤمنين؟ هنالك وقائع كثيرة وساطعة تشهد بأن التشاؤم فيما يتعلق بمستقبل الإسلام كان يمكن القبول به في الماضي القريب، ولكنه اليوم لم يعد له من أساس، بل على العكس، فهذه الوقائع توحي بأن الإسلام يبعث من جديد، وفي ظروف جديدة، وأن هذا البعث المرتكز إلى وجود واع وإرادي لا إلى وجود استمراري، تدعّمه وتوجهه المراجع الإسلامية العليا)<sup>١</sup>

ومنها قولها: (نجد في صحف الجمهوريات الإسلامية عدة إشارات.. يفهم منها أن التضامن الإسلامي في الاتحاد السوفيتي بات في ازدياد، وأن المؤمنين أضحى لهم تأثير متصاعد على السكان غير الممارسين لدينهم)<sup>٢</sup>

### جورج مارسية:

- (١) القوميات والدولة السوفيتية، ص ١٤٣.
- (٢) القوميات والدولة السوفيتية، ص ١٤٧.
- (١) القوميات والدولة السوفيتية، ص ١٤٩.
- (٢) القوميات والدولة السوفيتية، ص ١٥١.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جورج مارسيه)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق فرنسي اهتم بمدى تغلغل الإسلام في الحياة، ومن شهاداته في هذا الباب قوله: (إن الحج المتوجب على كل مسلم يستطيع إليه سبيلاً أن يؤديه مرة في حياته، لا يقل أهمية عن المبادلات التجارية في ترابط أبعاد العالم الإسلامي.. أما الصلاة، وهي فعل العبادة وخضوع الإنسان لخالقه، فيؤديها المؤمن خمس مرات يومياً وفي ساعات معينة بعد أن يطهر نفسه بالوضوء، متوجهاً نحو مكة المكرمة، حيث الكعبة المشرفة، مردداً الصيغ الدينية، وهو يقوم بحركات السجود والركوع المنتظمة بدقة. ويمكن تأدية الصلاة بصورة منفردة وفي أي مكان يجد المرء نفسه فيه، على أن تكون الأرض بعيدة عن كل نجاسة، على أن صلاة الجماعة هي المستحبة.. وتكون الصلاة المشتركة في المسجد، والمسجد أساساً هو بيت الصلاة، ومخطط بنائه منسجم مع ممارسة العبادة، فمن أجل الصلاة يقف المسلمون جنباً إلى جنب يؤلفون جبهة عريضة وتنتظم خلف هذا الصف صفوف أخرى بنفس النظام، ويقف الإمام الذي يؤم الصلاة في مقدمة المصلين، وقد أدار ظهره لهم ووجهته ووجهة المصلين، الذين يقومون بنفس الحركات التي يقوم بها ويرددون التلاوات نفسها، هي القبلة، أي اتجاه مكة، حيث الكعبة قطب الإسلام وبيت الله على الأرض)<sup>٢</sup>

ومنها قوله: (على أية حال، يكاد لا يوجد في البلاد الإسلامية منشآت عامة أو خاصة لا تحمل طابع الدين. فلقد تغلغل الإسلام في الحياة البيئية كما دخل حياة المجتمع وصاغت الطباع التي نشرها شكل البيوت والنفوس)<sup>٣</sup>

ومنها قوله: (إن العقيدة الأساسية في الإسلام هي الوحدانية المطلقة، فلا إله إلا الله ولقد ظهرت تعاليم الرسول محمد كرد فعل قوي ضد تعدد الأرباب والأنصاب التي كان يقدها العالم العربي، وضد الوثنية الإغريقية الرومانية ولجأه الثالث الذي يؤمن به المسيحيون ليس لله شريك ولم يلد ولم يولد، لا يمكن أن يشبه بأي مظهر إنساني، ولئن كان القرآن قد حرم عبادة الأصنام بجمال، فإن الحديث الشريف (السنة) فعل ذلك وتوسّع فيه.. وليس من الممكن أن ننكر أن هذا المنع احتفظ بكل قوته في تزيينات العمارة الدينية ولوازم العبادة، وأنه أثر على تطور الفن الإسلامي بأسره.. وهكذا فإن الإسلام وضع طابعه على إطار الحياة اليومية. وحتى عندما يكون الفن مطبقاً في أمور دنيوية فإن من البلاد الإسلام يبقى فناً مسلماً)<sup>٤</sup>

### فولتير:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فولتير)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم الفيلسوف الفرنسي المعروف.

---

(١) جورج مارسيه (١٩٠٥-١٩٤٦) G. Marcy مستشرق فرنسي، كتب العديد من الدراسات والأبحاث في الشريعة واللغة، نشرها في عدد من المجلات الشهيرة مثل (المجلة الجزائرية)، و(المجلة الأفريقية)، و(حولية معهد الدراسات الشرقية)، وغيرها.  
(٢) الفن الإسلامي، ص ١٢ - ١٣.  
(٣) الفن الإسلامي، ص ١٥.  
(٤) الفن الإسلامي، ص ١٦ - ١٧.

قلت: لقد كنت أسمع بعداوته الشديدة للأديان، بما فيه الإسلام.  
قال: ذلك صحيح.. ولكن المؤسف أن الأضواء لا تسلط إلا على أقواله الأولى، أما أقواله الأخيرة، والتي تراجع فيها عن أقواله السابقة، فتكاد لا تذكر.

قلت: هل تراجع عن تصريحاته المسيئة للإسلام؟  
قلت: أجل.. لقد ذكر ذلك، فقال: (قد هدم محمد الضلال السائد في العالم لبلوغ الحقيقة، ولكن يبدو أنه يوجد دائماً من يعملون على استبقاء الباطل وحماية الخطأ)

ويقول في قاموسه الفلسفي: (أيها الأساقفة والرهبان والقسيسون إذا فرض عليكم قانون يجرم عليكم الطعام والشراب طوال النهار في شهر الصيام.. إذا فرض عليكم الحج في صحراء محرقة.. إذا فرض عليكم إعطاء ٢,٥% من مالكم للفقراء.. إذا حرّم عليكم شرب الخمر ولعب الميسر.. إذا كنتم تتمتعون بزوجات تبلغ ثمان عشرة زوجة أحياناً، فجاء من يحدف أربع عشرة من هذا العدد، هل يمكنكم الإدعاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذات)<sup>١</sup>

ويقول متحدثاً عن الصمود الإسلامي: (لقد قام الرسول بأعظم دور يمكن لإنسان أن يقوم به على الأرض .. إن أقل ما يقال عن محمد أنه قـد جاء بكتاب وجاهد، والإسلام لم يتغير قط، أما أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة)<sup>٢</sup>

### لامارتين:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (لامارتين)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم شاعر فرنسا الكبير، وقد قال في الإسلام: (الإسلام هو الدين الوحيد الذي استطاع أن يفى بمطالب البدن والروح معاً، دون أن يُعرض المسلم لأن يعيش في تأنيب الضمير... وهو الدين الوحيد الذي عباداته بلا صور، وهو أعلى ما وهبه الخالق لبني البشر)<sup>٣</sup>

### أناتول فرانس:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (أناتول فرانس)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا اسم لكاتب الفرنسي.. قال في كتابه (الحياة الجميلة): (أسوأ يوم في التاريخ هو يوم معركة (بواتيه) عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية أمام بربرية الفرنجة، ألا ليت شارل مارتل قطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي)

وقال: (حين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مئتي سنة، وعمق ذلك التقدم، أمراً يدعو إلى الدهول حقاً، ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضاً أن النصرانية احتاجت إلى نحو من ألف وخمسمئة سنة لكي تنشئ ما يمكن أن يدعى حضارة مسيحية، وفي الإسلام لم يُولَّ

(١) القاموس الفلسفي (٤/٦)

(٢) نقلاً عن (غوته والعالم العربي) كاتارينا مومزن (١٨١ و٣٥٥)

(٣) السفر إلى الشرق: لامارتين (٤٧)

كل من العلم والدين ظهره للآخِر، بل كان الدين باعثاً على العلم، وإن الحضارة الغربية مدينة للحضارة الإسلامية بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى إذا لم تتم معرفة الثانية<sup>١</sup>

---

(١) المستشرق روم لاندو في (الإسلام والعرب)، ص(٩-٢٤٦)

## ٣ — أصدقاء من الإنجليز

قلبت بعض الصفحات من دفتر البابا، فرأيت عنوان (أصدقاء من الإنجليز)، تحته أسماء كثيرة، فقلت: أفي الإنجليز أيضاً أصدقاء لنا؟

قال: في كل بلاد الله أصدقاء للمسلمين.. العداوة ليست هي الأصل الذي يتحكم في البشرية.

قلت: ولكنهم يعمرون برنا وبحارنا وجونا بألوان العداوة؟

قال: فاعمروا قلوبهم بالإيمان والمحبة التي تحميهم من نزغات الشياطين التي توسوس لهم بحربكم.

قلت: أفي هذا.. وهم الغالبون، ونحن المغلوبون؟

قال: هذا ليس بعيداً.. ألم يتمكن المسلمون من تحويل دين الغالب إلى دين المغلوب؟

قلت: لقد حصل هذا.. وخير دليل على ذلك التتار.

قال: ما حصل من قبل يمكن أن يعاد في كل وقت..

ثم نظر إلى الأفق البعيد، وقال: إنكم إن فعلتم ذلك انتصرتم عليهم.. لا بأرواح تزهق، ولا بدماء تسيل.

**سير توماس أرنولد:**

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سير توماس أرنولد)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من كبار المستشرقين البريطانيين، وله شهادات علمية كبرى ترتبط بانتشار الإسلام، وقد سبق أن حدثتك عنه<sup>٢</sup>.

قلت: أجل.. فاذا كر لي اليوم بعض شهاداته.

قال: من شهاداته المرتبطة بالقرآن وأسلوبه قوله: (إننا نجد حتى من بين المسيحيين مثل الفار Alvar ]

الإسباني [ الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به )<sup>٣</sup>

وتحدث عن توفر خصائص القدوة في رسول الله ﷺ، فقال: (لعله من المتوقع، بطبيعة الحال، أن تكون حياة مؤسس الإسلام ومنشئ الدعوة الإسلامية، هي الصورة الحق لنشاط الدعوة إلى هذا الدين. وإذا كانت

---

(١) سير توماس أرنولد (١٨٦٤ - ١٩٣٠) Sir Thomas Arnold، من كبار المستشرقين البريطانيين. صاحب فكرة كتاب (تراث الإسلام) الذي أسهم فيه عدد من مشاهير البحث والاستشراق الغربي. وقد أشرف أرنولد على تنسيقه وإخراجه. تعلم في كمبريدج وقضى عدة سنوات في الهند أستاذاً للفلسفة في كلية عليكرة الإسلامية. وهو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن. وصفه المستشرق البريطاني المعروف (جب) بأنه "عالم دقيق فيما يكتب، وأنه أقام طويلاً في الهند وتعرف إلى مسلميها، وأنه متعاطف مع الإسلام، وكل هذه أمور ترفع أقواله فوق مستوى الشهادات" (دراسات في حضارة الإسلام ص ٢٤٤). ذاع صيته بكتابه: (الدعوة إلى الإسلام) الذي ترجم إلى أكثر من لغة، و(الخلافة). كما أنه نشر عدة كتب قيمة عن الفن الإسلامي.

(٢) انظر الحوار الافتراضي معه في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (خلاص)

(٣) الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، ص ١٦٢.



حياة النبي هي مقياس سلوك عامة المؤمنين، فإنها كذلك بالنسبة إلى سائر دعاة الإسلام. لذلك نرجو من دراسة هذا المثل أن نعرف شيئاً عن الروح التي دفعت الذين عملوا على الاقتداء به، وعن الوسائل التي ينتظر أن يتخذوها. ذلك أن روح الدعوة إلى الإسلام لم تنجى في تاريخ الدعوة متأخرة بعد أناة وتفكر، وإنما هي قديمة قدم العقيدة ذاتها. وفي هذا الوصف الموجز سنبين كيف حدث ذلك وكيف كان النبي محمد يعد نموذجاً للداعي إلى الإسلام<sup>١</sup>

ويتحدث عن استمرار الدعوة النبوية رغم التمكين الذي مكن الله به المسلمين في المدينة، وما بعدها: (من الخطأ أن نفترض أن محمداً في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره، انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن بعض أساليب الدعوة التي مارسها المسلمون، فيقول: (إن المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود العشائر المختلفة من النبي واهتمامه بالنظر في شكايهم، والحكمة التي كان يصلح بها ذات بينهم، والسياسة التي أوحى إليه بتخصيص قطع من الأرض مكافأة لكل من بادر إلى الوقوف في جانب الإسلام وإظهار العطف على المسلمين، كل ذلك جعل اسمه مألوفاً لديهم، كما جعل صيته ذاتعاً في كافة أنحاء شبه الجزيرة سيّداً عظيماً ورجلاً كريماً. وكثيراً ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبي بالمدينة ثم يعود إلى قومه داعياً إلى الإسلام جاداً في تحويل إخوانه إليه)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن بعض أسباب الإقبال على الإسلام في المدينة المنورة، فيقول: ( نرى من أسباب الترحيب الحار الذي لقيه محمد في المدينة أن الدخول في الإسلام، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجاً لهذه الفوضى التي كان المجتمع يقاسمها، وذلك لما وجدوه في الإسلام من تنظيم محكم للحياة، وإخضاع أهواء الناس للحماحة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية )<sup>٤</sup>

ويتحدث عن الثورة التي كان يحملها الإسلام ضد أوضاع الجاهلية، فيقول: ( لا يغرب عن البال كيف ظهر جلياً أن الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية، وكيف كانت تتعارض المثل العليا في هذين المجتمعين تعارضاً تاماً. ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلاباً كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل.. وأصبح النبي بذلك رمزاً لأسلوب جديد )<sup>٥</sup>

ويتحدث عن خاصية العقلانية التي تتميز بها العقيدة الإسلامية، فيقول: ( يعبر الشطر الأول من هذه العقيدة [لا إله إلا الله، محمد رسول الله] عن مبدأ يكاد يقبله جميع الناس على أنه فرض لا بد منه، على حين

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٤.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ص ٥٤.

(٣) الدعوة إلى الإسلام، ص ٥٤.

(٤) الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٣.

(٥) الدعوة إلى الإسلام، ص ٦١.

يقوم الشطر الثاني منها على فكرة علاقة الناس بالله وهي مسألة تكاد تكون عامة شاملة كذلك. بمعنى أن الله تعالى، في فترات من تاريخ العالم، قد وهب بعض تجليه على الخلق، على لسان أنبياء ملهمين. ولا يستطيع أي فرد أن يوضح الطابع العقلي للعقيدة الإسلامية، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة في نشر الدعوة، توضيحاً يبعث على الإعجاب، بأكثر مما وضعه البروفيسور مونتيه في العبارات التالية: (الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية. فإن تعريف الأسلوب العقلي **Rationalism** بأنه طريقة تقييم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق عليها تمام الانطباق.. إن [للإسلام] كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد التي قامت على أساس المنطق والعقل. وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين في الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلاً لا روح فيه، فنعتقد في الله وفي الحياة الآخرة، وهذان المبدآن هما أقل ما ينبغي للاعتقاد الديني، وهما أمران يستقران في نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن، وأن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام.. وعلى الرغم من التطور الخصب، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، لتعاليم النبي حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائماً بمبدأ الوحدانية في عظمة وجلاء وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وأن هذا الإخلاص لمبدأ الدين الأساسي، والبساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ فيها هذا الدين والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعاً يلتهب حماسة وغيره، إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين. وكان من المتوقع لعقيدة محدودة كل التحديد خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعاً لذلك في متناول إدراك الشخص العادي، أن تمتلك - وإنها لتمتلك فعلاً - قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس )<sup>١</sup>

ويتحدث عن الآثار السلوكية للشعائر الإسلامية، فيقول: (كذلك نجد أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير سواء في جذب الناس، أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم. وقد أحسن منتسكيو في قوله: [في كتابه المعروف: روح القوانين]: (أن المرء الأشد ارتباطاً بالدين الحافل بكثير من الشعائر، منه بأي دين آخر أقل منه احتفالاً بالشعائر، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمر التي تسيطر دائماً على تفكيره). إن دين المسلم يتمثل دائماً في مخيلته، وفي الصلوات اليومية، يتجلى هذا الدين في طريقة نسكية خاشعة مؤثرة لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين.. فإذا استطاع رينان أن يقول: (ما دخلت مسجداً قط،

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٥٤ - ٤٥٦. أما عبارات مونتيه (Montet) فيستمد المؤلف من كتاب La propagande chretienne et ses adversaires musulmans, pp. ١٧-١٨ (Paris, ١٨٩٠).

دون أن تهزني عاطفة حادة، أو بعبارة أخرى، دون أن يصيبني أسف محقق على أنني لم أكن مسلماً<sup>١</sup>، كان من اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم في صلاته، وسجده الكثيرة، وعبادته للإله الذي لا يراه، في سكنة واستغراق، قد يؤثر في الأفريقي الوثني الذي وهب إدراكاً قوياً للقوى الخفية.. وقد يحفز حب الاستطلاع على البحث بطبيعة الحال<sup>٢</sup>

ويتحدث عن علاقة الدين بالحياة، فيقول: ( إن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية ولكن من غير أن يثقلوا بها كواهلهم، أو يجعلهم مغمورين في الحياة، نجد أركان العقيدة الإسلامية تلقي دون انقطاع تعبيراً ظاهراً في حياة المؤمن، ومن ثم نجدها، بعد أن أصبحت متشابكة مع نظام حياته اليومية، تشابكاً لا سبيل إلى الفكك منه، تجعل المسلم الفرد إماماً ومعلماً لعقيدته، أكثر إلى حد بعيد مما هي الحال مع أنصار معظم الديانات الأخرى. إن تحدد هذه الطقوس وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يتخالج في نفسه الشك فيما هو مكلف بأدائه، فإذا أدى هذه الواجبات، اطمأن وجدانه إلى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع. وقد نجد إلى حد بعيد، في هذه الوحدة التي تربط بين النظامين العقلي والطقسي في هذا الدين، سرّ السيطرة التي أحدثتها الإسلام على عقول الناس. (فإذا أردت أن تجذب إليك جماهير كبيرة من الناس، لقتهم الحقيقة في صورة حماسية، دقيقة واضحة، وفي أسلوب مرثيٍّ محسن)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن الدوافع الحقيقية وراء انتشار المسلمين في الأرض، فيقول: (أن الذي دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التي دخلوها، وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكاناً بين ما نسميه أديان الرسالة لهي حماسة من ذلك النوع، من أجل صدق عقيدتهم. وليس موضوع هذا الكتاب: (الدعوة إلى الإسلام)، إلا صورة من تاريخ ظهور هذه الحماسة في تبليغ الدعوة ودواعي وألوان نشاطها. وأن انتشار مائتي مليون من المسلمين في الوقت الحاضر<sup>٤</sup> هو الشاهد على ما كان لهذه الحماسة من أثر خلال الثلاثة عشر قرناً التي تلت ظهور الإسلام)<sup>٥</sup>

ويتحدث عن الأسباب الحقيقية لانتشار الإسلام، فيقول: (يرجع انتشار هذا الدين في تلك الرقعة الفسيحة من الأرض إلى أسباب شتى: اجتماعية وسياسية ودينية، على أن هنالك عاملاً من أقوى العوامل الفعالة التي أدت إلى هذه النتيجة العظيمة، تلك هي الأعمال المطردة التي قام بها دعاة المسلمين، وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام، متخذين من هدي الرسول مثلاً أعلى وقوة صالحة)<sup>٦</sup>

---

(١) (Ernest Renan: L'islamisme et la Science, p. ١٩ (Paris, ١٨٨٣)

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٥٨ - ٤٦٠.

(٣) B. Kuenen: National Religions and .. (London, ١٨٨٢)

(٤) كان ذلك زمن تأليف توماس آرنولد لكتابه (الدعوة إلى الإسلام) في أواخر القرن الماضي، أما الآن فقد زاد هذا العدد

إلى أكثر من خمسة أضعافه.

(٥) الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥.

(٦) الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٧.

ويتحدث عن تأثير الفتوحات الإسلامية المعجزة في الإقبال على الإسلام، فيقول: (إن ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق، منقطع النظر، قد زرع عقيدة الشعوب المسيحية التي أصبحت تحت حكمهم، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي، وأن [الله] لم يجعل النصر إلا في أيدي عباده المختارين. وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلاً على صدق دينهم)<sup>١</sup>

ويتحدث عن سماحة المسلمين مع الطوائف المختلفة، فيقول: (لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرود وإيزابلا دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهباً يعاقب عليه متبوعه في فرنسا أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنكلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة. وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالاً تاماً عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحاء أحد يقف إلى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن يحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن الحضارة الإسلامية التي نقلها المسلمون إلى الأندلس، والتي امتد تأثيرها إلى جميع أوروبا، فيقول: (أدخل العرب الظافرون الإسلام في إسبانيا سنة ٧١١م وفي سنة ١٥٠٢م أصدر فردناند وإيزابلا مرسوماً يقضي بإلغاء شعائر الدين الإسلامي في جميع أنحاء البلاد. ولقد كتبت إسبانيا الإسلامية في القرون التي تقع بين هذين التاريخين، صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس **Provance** إلى الممالك الأوروبية الأخرى، وأتت بنهضة جديدة في الشعر والثقافة، ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار في نفوسهم النشاط العقلي حتى جاء عصر النهضة الحديثة)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن تأثير تسامح المسلمين في نشر الإسلام، فيقول: (إن عدم وجود التعصب الطائفي ليكون القوة الحقيقية للإسلام في الهند، ويمكن له أن يجذب إليه عددًا كبيرًا جدًا من الهندوكية)<sup>٤</sup> ويتحدث عن استمرار الإسلام في قوته وانتشاره رغم الظروف الخطيرة التي مر بها، فيقول: (في سنة ١٨٦٧ عبر كاتب روسي، في كتاب هام كتبه عن الإسلام في الصين<sup>٥</sup> عن الفكرة التي تقول بأن الإسلام مهياً

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٩٤.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ص ٩٨ - ٩٩.

(٣) الدعوة إلى الإسلام، ص ١٥٤، وعن إنجازات المسلمين في ميدان الفنون انظر: تراث الإسلام (إشراف سير توماس آرنولد)، ص ٢٢٣ - ٢٢٦.

(٤) الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٢٧.

(٥) Vasiper(V.P.): Spread of Mohammedan Faith in China, PP. ٣, ٥, ١٤, ١٧

..(Petesburg, ١٨٦٧)

لأن يصبح الدين القومي للإمبراطورية الصينية، ولأن يقلب تبعاً لذلك الأوضاع السياسية في العالم الشرقي رأساً على عقب<sup>١</sup>

ويتحدث عن تأثير الحرية في انتشار الإسلام، فيقول: (كان اعتناق أي دين يخالف ديانة الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، أمراً محرماً في القانون الروسي، ومن ثم توقف الإسلام عن أي تقدم جديد، إلى أن صدر مرسوم التسامح الديني سنة ١٩٠٥. ومن النتائج التي ترتبت على صدور هذا المرسوم في بلاد القوقاز، أن دخلت جموع كثيرة في الإسلام بين طوائف الأبخاز Abkhazes الذين كانوا قد ظلوا فترة طويلة يدينون بالمسيحية اسماً فقط، ولكنهم الآن قد أصبحوا مسلمين، في جموع بلغ من ضخامتها أن رجال الكنيسة الأرثوذكسية قد أخذ الخوف منهم كل مأخذ حتى أقاموا جمعية خاصة تقوم بتوزيع منشورات دينية بينهم، أملاً في مناهضة النفوذ الإسلامي)<sup>٢</sup>

### سير هاملتون جب:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سير هاملتون جب)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا (سير هاملتون الكساندر روسكين جب)<sup>٣</sup> وهو من كبار المستشرقين الإنجليز، بل يمكنك أن تعتبره إمامهم.. وبالرغم من بعض سوء الفهم الذي عرض له، كما عرض لسائر المستشرقين نحو بعض القضايا الإسلام، إلا أن له بعض المواقف الطيبة والشهادات الصادقة، وقد قمت بتسجيل بعضها، وسأسردها عليك.

منها شهادته على ما يحويه القرآن من القيم النبيلة، قال: (إذا رأى أحد أن إلحاح القرآن على فعل الخير غير كثير أثبتنا له بالحجة القاطعة خطأه وسقنا إليه ذلك التعريف الشامل للبر في تلك الآية العظيمة: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧) فالبر إذن تاج الإيمان الحق، حين يدرك المؤمن أخيراً أن الله شاهد أبداً، ويستجيب لشهوده في كل أفكاره وأعماله<sup>٤</sup>

ومنها شهادته حول التواصل بين الدين والدنيا في الإسلام، يقول: (هذه، إذن، هي الرسالة التي بلغها

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٤٧.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، ص ١٢٢.

(٣) سير هاملتون الكساندر روسكين جب ١٨٩٥ - ١٩٦٧ يعد إمام المستشرقين الإنكليز المعاصرين، أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن سنة ١٩٣٠، وأستاذ في جامعة أكسفورد منذ سنة ١٩٣٧، وعضو مؤسس في المجمع العلمي المصري، تفرغ للأدب العربي وحاضر بمدرسة المشرقيات بلندن.

من آثاره: (دراسات في الآداب العصرية) (١٩٢٦)، (الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى وعلاقتها ببلاد الصين)، (رحلات ابن بطوطة)، (اتجاهات الإسلام المعاصرة)، وهو أحد محرري دائرة المعارف الإسلامية.

(٤) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٤.

القرآن إلى الجيل الأول من المسلمين وظل يبلغها إلى جميع الأجيال منذ ذلك العهد. فالقرآن سجل لتجربة حية مباشرة في ميدان الألوهية، تجربة ذات طرفين: واحد مطلق وآخر متصل بشؤون الحياة العامة، ودعوة للمخلوق كي ينظم حياته ليتمكن من الأخذ بنصيب في تلك التجربة. وحين يتبع المسلم أوامر القرآن ويسعى ليستكنه روح تعاليمه، لا يفكره فحسب بل بقلبه وروحه أيضًا، فإنه يحاول أن يستملك شيئًا من الرؤى الحدسية ومن التجربة التي كانت للرسول الحبيب. ويعظم في عينيه مغزى كل آية فيه، لإيمانه بأنه كلام الله. ولو لم يكن هذا الإيمان شعبة من عقيدته لما تناقصت قيمته لديه من حيث هو منبع حي للإلهام والاستبصار الديني<sup>١</sup> ومنها شهادته حول تميز الإسلام على غيره من الأديان، قال: (مهما يكن أمر استمداد الإسلام من الأديان التي سبقته<sup>٢</sup> فذلك لا يغير هذه الحقيقة أيضًا وهي: أن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناء دينيًا جديدًا متميزًا)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن صمود عقائد الدين لدى العامة بالرغم من الجدل الذي مرت به بعض فترات التاريخ الإسلامي، فيقول: (على الرغم مما قام به العلماء المتأخرون من تطوير لعلم كلام إسلامي منهجي، يبقى صحيحًا ما ذكرناه سابقًا وهو: أن جمهور الجماعة الإسلامية كان يتألف من شعوب أحدثت لديها ممارسة حقائق الدين ممارسة حدسية أثرًا أقوى وأسرع من كل اثر خلفه أي قدر من الجدل العقلي أو من حداقته وبراعته)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن حيوية العقيدة الإسلامية وتأثيرها، فيقول: (إننا نخطئ خطأ فاحشًا إذا اقتصرنا على النظر إلى هذه العقيدة نظرتنا لمذهب لاهوتي أتقن بشكل وراثي من جيل إلى جيل منذ ألف وثلاثمائة سنة. إنها على العكس من ذلك يقين وإيمان حي يتجدد ويتأكد باستمرار في قلوب المسلمين وأرواحهم وأفكارهم، ولدى العربي بشكل خاص<sup>٥</sup>، حين يدرس النص المقدس. لقد عارض المذهب السني المتمسك بشكل عام ترجمة القرآن إلى اللغات الإسلامية الأخرى<sup>٦</sup> على الرغم من أن النص العربي يظهر في بعض الأحيان مقترنًا بترجمة تركية أو فارسية أو أردية وغيرها من اللغات. إن هذا الموقف يستند على محاكمة شرعية متماسكة تصوغ حججها إلى حد ما بشكل عقلاني مستندة في ذلك على اعتبارات بعيدة عن هذا الشكل العقلاني. والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسي كما هي الحال بالنسبة للشعر الرفيع. إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يعبر عن صورته وأمثاله لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلاً

(١) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٤.

(٢) ذكرنا الرد على هذه الشبهة في مواضع مختلفة من هذه السلسلة، وبالنسبة لمصادر هذا الدين رددنا عليه في رسالة (الكلمات المقدسة)

(٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٤) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٥.

(٥) هذا ليس صحيحًا، فالإسلام دين الشعوب جميعًا، وكل الشعوب تأثرت به سواء كانوا عربًا أو غير عرب.

(٦) وهذا ليس صحيحًا، إنما الاعتراض على تسمية الترجمة قرآنًا، بل هي ترجمة لمعاني القرآن، أو لبعض الفهوم حول القرآن.

قبل أن يثبت المعنى للقارئ. والقرآن كذلك له حلاوة وطلاوة ونظم بديع مرتب لا يمكن تحديده لأنها تعد بسحرها أفكار الشخص الذي يصغي إلى القرآن لتلقي تعاليمه. ولا شك أن تأويل كلمات القرآن إلى لغة أخرى لا يمكن إلا أن يشوهها ويحول الذهب النقي إلى فخار<sup>١</sup>

ويتحدث عن مدى الجهد الذي بذله العلماء في حفظ السنة، فيقول: (اقتضى الأمر نشوء علم جديد غايته جمع الحديث ونقده وتصنيفه وتنسيقه والحصول في النهاية - بقدر الإمكان - على مجموعة متفق عليها يتقبلها الجميع. وقد استأثرت هذه المهمة بالكثير من طاقات الفقهاء والعلماء في القرن الثالث، ولكن القائمين عليها أحرزوا نجاحاً حتى أصبح حديث الرسول يعتبر مرجعاً ثانياً معتمداً للفقهاء والعقيدة)<sup>٢</sup>

ويقول: (إن بدايات التاريخ العلمي بالعربية تقترن بدراسة سيرة الرسول ودراسة أعماله. وعليه فإننا نجد مصدر هذه الدراسة في جمع الحديث النبوي وبخاصة الأحاديث المتعلقة بمغازي الرسول. وكان موطن هذه الدراسة هو المدينة.. ويفسر لنا ارتباط المغازي بالحديث، هذا الارتباط الذي ترك طابعاً لا يحصى في المنهج التاريخي باستخدام هذا المنهج للإسناد، ما طرأ من تغير هائل ظهر منذ هذه اللحظة في طبيعة الأخبار التاريخية عند العرب، ودقتها المؤسسة على النقد. ويمكننا أن نشعر لأول مرة بأننا نستند إلى أساس تاريخي قويم حتى وإن اعترفنا بوجود بعض العناصر المشكوك فيها في أخبار الفترتين، المدينة والمكية، من حياة الرسول)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن الانسجام التام بين القرآن والحديث النبوي الشريف مما يؤكد سلامة الحديث النبوي ودقة نقله، فيقول: (يكاد يكون من المؤكد أن الآراء التي تعبر عنها الأحاديث التي تم جمعها في القرن الثالث تمثل تعاليم القرآن ومبادئه الخلقية تمثيلاً صادقاً)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن الأهمية الكبرى التي تكتسبها أحاديث النبي ﷺ، فيقول: (لولا الحديث لأصبح لمحمد في أقل تقدير صورة معمرة - إن لم نقل بعيدة - في أصولها التاريخية والدينية. أما الحديث فقد صور وجوده الإنساني في مجموعة وفيرة من التفصيلات الحية المحسوسة، وبذلك قدم للمسلمين حين ربط بين المسلمين وبين نبيهم بنفسه الروابط الذاتية الوثيقة التي كانت تصله بأصحابه الأولين، وهي روابط نمت على مر القرون وكانت أقوى من أن تصاب بالضعف. ولم يصبح شخص محمد أبداً ذا صبغة مرسومة مقررة، ويكاد لا يكون من الغلو أن نقول إن حرارة ذلك الشعور الشخصي نحو الرسول الحبيب كانت أبداً أقوى عنصر حيوي في دين الجماهير الإسلامية أو كانت كذلك بين أهل السنة، على الأقل)<sup>٥</sup>

ويتحدث عن الاحترام العظيم الذي تكنه الأمة الإسلامية لنبيها من غير غلو، فيقول: (ومهما نقل في قوة التزعة الإسلامية نحو محمد وفي آثارها فإننا لا نوصف بالغلو. فقد كان إجلال الرسول شعوراً طبيعياً محتوماً في عصره وفيما بعده، غير أن ما نومي إليه شيء يتجاوز الإجلال. فإن العلاقات الشخصية من الإعجاب والحب

(١) الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ص ٣٠ - ٣١.

(٢) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٠.

(٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص ١٤٧.

(٤) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢١.

(٥) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

الذين بعثهما في نفوس صحابته ظل صداها يتردد خلال القرآن، والفضل في ذلك يعود إلى الوسائل التي أقرّها الأمة لتستثير بهما مجددين في كل جيل)<sup>١</sup>

ويتحدث عن حب الأمة في جميع أجيالها، وتقديرها لنبيها، فيقول: (ما تزال الاحتفالات العائلية تختتم بأدعية وأناشيد في تمجيد الرسول وكل الأمة تراعيها وتشهدها بحماسة في ذلك اليوم المجيد، يوم مولد النبي في الثاني عشر من شهر ربيع الأول. هنالك ترى المجددين والمقلدين والصوفية والسلفية والعلماء وأفراد الجمهور يلتقون جميعاً معاً على بقعة واحدة، وقد يكون بين نزعاتهم العقلية تنوع واسع متباين، ولكنهم جميعاً وحدة متألّفة في إخلاصهم وحبهم محمد)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن البناء الإسلامي للمجتمع، فيقول: (كانت التعاليم الاجتماعية التي جاء بها محمد في أساسها، إعادة لإحقاق المبادئ الأخلاقية التي تشترك فيها ديانات التوحيد، فازداد ترسيخ معنى الأخوة بين جميع أفراد الجماعة الإسلامية، وأهم سواسية من حيث القيمة الشخصية الفطرية دون نظر إلى ما في مكانتهم الدنيوية ووظائفهم وثرواتهم من تباين واختلاف. وتعمقت جميع العلاقات الواجبات المتبادلة التي تستتبعها هذه المبادئ. وقد تم ترسيخ ذلك كله وتعميقه حين وضعه الإسلام على أساس من الولاء الخفي والخضوع العلني لإله واحد.. وكانت لتعاليم الرسول نتائج اجتماعية ملموسة تحدّدت صيغتها كما هو الحال في جميع الحركات الدينية بما تركته من آثار في البيئة التاريخية الواقعية)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن استقلال الدين بنظمه المختلفة عن سلطة الساسة مما وقى الإسلام ما حصل للمسيحية من تدخل الساسة، فيقول: (ومنذ البداية نشأ تيار فقهي يعارض بعض مظاهر المفهوم الرسمي، ويعارض سيطرة الدولة على الأمور الدينية، كما تجلّى إصرار الفقهاء على أن الفقيه مسؤول تجاه نفسه فقط. وقد وقع التزاع علناً عندما قام المأمون وخلفاؤه يحاولون فرض المبادئ ذات الصبغة اليونانية التي نادى بها فريق المعتزلة (مذهباً رسمياً)، ويضطهدون زعماء السنة المعارضين. وانتهى الصراع بانتصار السنة، وكان برهاناً قاطعاً على استقلال النظام الديني الإسلامي عن الخلافة وغيرها من المؤسسات السياسية، وعلى أن الحكام السياسيين لا يستطيعون الإشراف على مصادر سلطان الدين لأنهما ملك للجماعة ولا علاقة لأحد بها، وأن الخلافة ذاتها نابعة من ذلك السلطان وأنها رمز سياسي له. وكانت هذه الأحداث ذات أهمية أساسية في مستقبل الإسلام كله، ذلك أنها حاولت دون أن يرتبط بأي نظام سياسي، وأمدت النظام الديني والجماعة معه بالحرية اللازمة للتطور على أسس ما يحويه الإسلام من طبيعة ومنطق ذاتيين)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن صمود الفكر الإسلامي، فيقول: (إن الفكر الإسلامي يأبى أن يقيد بقيود الصيغ الخارجية. ويظل هذا الفكر يحدث ضغطاً مستمراً يظهر أثره في تجديد التشكيل للنظرية على نحو هادئ، وهذا التشكيل

(١) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٧.

(٢) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٥٩.

(٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٦.

(٤) دراسات في حضارة الإسلام، ص ١٥.



المتحدّد، تحت ذلك الظاهر المتشدّد، هو الذي يميّز كل ضروب النشاط التأملي في الإسلام، حيث ظل الإسلام بناء دينايمياً حياً<sup>١</sup>

ويتحدّث عن تعاون جميع أجيال الأمة، وجميع أهل الاختصاص فيها في خدمة الإسلام، واستنباط حقائقه ونظمه، فيقول: ( ومظهر آخر بارز يميّز التشريع الإسلامي، وهو أن مهمة التعريف والتصنيف استغرقت، خلال القرون الثلاثة الأولى، الطاقات الفكرية لدى الأمة الإسلامية، إلى حد لا نظير له. إذ لم يكن المسهمون في هذا الميدان هم علماء الكلام والمحدّثين والإداريين فحسب، بل إن علماء اللغة والمؤرخين والأدباء أسهموا بأنصبه في هذه المجموعة من المؤلفات التشريعية، وفي مناقشة القضايا التشريعية، وقلما تغلغل الشرع في حياة أمة وفي فكرها هذا التغلغل العميق مثلما فعل في الأدوار الأولى من المدنية الإسلامية)<sup>٢</sup>

ويتحدّث عن أعماق التوحيد التي نادى بها القرآن، والتي تنفي كل الوسائط، فيقول: (إن المبدأ المحوري في القرآن هو - يقيئاً - مبدأ وحدة لا هوادة فيها، وهو يرفض فكرة وجود وسطاء بين الله والإنسان، على الأقل في هذا العالم. فالإسلام حين وضع الإنسان أمام الله دون عناصر وسائطية روحية كانت أول شخصية أكد بالضرورة مدى التباين بين الله والإنسان. وعلى الرغم من وجود آيات قرآنية ذات حدس روحي، فإن العنصر العقائدي المستمد من القرآن لا يستطيع إلا أن يصدر من افتراض التعارض بين الألوهية والإنسانية ومن تساوي الناس جميعاً (وهذه نتيجة ضرورية للموقف الأول) في علاقتهم بالله من حيث إنهم مخلوقات. وفي هذه المفارقة الكلية يقع التوتر الديني الذي يمثل - في الواقع - المظهر الأصيل المميز للإسلام)<sup>٣</sup>

ويتحدّث عن التسامح الإسلامي، فيقول: (جدير بالقول أن الإسلام.. يتمتع بخاصة جوهرية هامة، وهي تسامحه في وجود وجهات مختلفة ضمن الطائفة، بل إنه يستمد من ذلك مجده وفخره. وأبرز مثل على هذا التسامح هو وجود المدارس المذهبية باسم فقهاء القرنين الثاني والثالث الهجريين)<sup>٤</sup>

ويتحدّث عن الانتشار المعجز للإسلام، فيقول: (انبثق الإسلام انبثاقاً مفاجئاً في بلاد العرب، وأقام بسرعة تكاد تعزّ على التصديق، في أقل من قرن من الزمن، إمبراطورية جديدة في غربي آسيا وشواطئ البحر المتوسط الجنوبي والغربية)<sup>٥</sup>

ويتحدّث عن إنسانية الفتوحات الإسلامية، فيقول: (لقد تمت الفتوحات الإسلامية دون أن تززع اقتصاديات البلاد المفتوحة، وعلى أثرها أقام الفاتحون تواً سلطة مركزية منظمة)<sup>٦</sup>

ويقول: (في التاريخ أمثلة على توسّع الدول لا سبيل إلى تعليلها، لكن ليست هناك سوى أمثلة قليلة جداً

(١) دراسات في حضارة الإسلام، ص ١٩٥.

(٢) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٦٣.

(٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٧٠.

(٤) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٤٠.

(٥) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٤.

(٦) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٨.

على دولة تكونت على هذا النحو واستطاعت أن تبلغ مابلغته الدولة الإسلامية من استمرار واستقرار نسبيين<sup>١</sup> ويتحدث عن الأسرار التي وقفت وراء الحيوية التي انتشر بها الإسلام، وتمت بها الفتوحات، فيقول: (لنأخذ بعين الاعتبار المظاهر الخارجية للحياة التي برهن عليها الإسلام خلال الحقبة التالية من الزمن مثل قيام الإمبراطورية العثمانية في الشرق الأدنى وإمبراطورية المغول في الهند.. ازدهار إندونيسيا، ماليزيا، ازدياد عدد المسلمين في الصين، طرد الإسبانين والبرتغاليين من مراكش، امتداد المنطقة الإسلامية في أفريقيا الغربية والشرقية. كان من السهل واليسير على المؤرخين القدامى أن ينظروا إلى جميع هذه الأحداث أو أغلبها نظرهم إلى حركات عسكرية صرفة. ولا يمكن بالطبع أن يغيب عن الذهن هذا العنصر المتعلق بالقوة العسكرية الغازية التي وضعها الإسلام بتلك الفترة. ومع ذلك فإن أية عقيدة غازية تنمو وتمتد هي عقيدة حية. إنها تبين منذ ذلك الوقت أنها أكثر من مجموعة من المعتقدات والتطبيقات الجافة. نحن كذلك نعرف في الوقت الحاضر أكثر من أي وقت مضى الإيمان الذي تلعبه هذه العقيدة الحية التي مهدت الطريق بل كل شيء لهذه القوة العسكرية وساعدتها بعد ذلك على التشكل وتكييف التركيب الداخلي وتنظيم الإمبراطورية، كما ساعدت على ترميم التخريبات الناتجة عن الحروب، وإعادة تنظيم التركيب الاجتماعي)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن قدرة الإسلام على التماشي مع الطبائع والأعراق والعصور المختلفة، فيقول: (ظهرت للإسلام ملامح مختلفة في مختلف الأزمنة والأمكنة بتأثير العوامل المحلية الجغرافية والاجتماعية والسياسية فيه، وبقوة استجابته لها. ولنمثل على ذلك بما تم في الغرب. أعني في شمال غربي أفريقيا وفي إسبانيا أثناء العصور الوسطى. ففي تلك المناطق اتخذ الإسلام لنفسه خصائص فارقة على الرغم من الصلة الوثيقة بين تلك المناطق وقلب العالم الإسلامي في غرب آسيا، وعلى الرغم من أن الثقافة فيها كانت فرعاً من الثقافة السائدة في قلب العالم الإسلامي. وكان لبعض تلك الخصائص الفارقة أثرها في الإسلام نفسه في غربي آسيا. ومثل هذا نفسه تم أيضاً في مناطق أخرى جغرافية واسعة قليلة الاتصال بغيرها كشبه القارة الهندية وإندونيسيا وأراضي السهوب الممتدة في جنوبي روسيا إلى تخوم الصين. ففي تلك المناطق أنتجت العوامل المشابهة أشكالاً وصوراً مميزة فارقة. على أن هذه المناطق تحتفظ مجتمعة ومنفردة، بطابع إسلامي معين مشترك يمكن تبيّنه بسهولة)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن السبق الإسلامي للمنهج التجريبي، فيقول: (إن العرب والمسلمين بصورة عامة اضطروا إلى الحذر من المفاهيم العامة الشاملة المجردة مثل مفهوم (قانون الطبيعة) أو (العدالة) المثالي وقد اهتموا هذه المفاهيم (وهم في ذلك على صواب) بأنها مستمدة من (الفلسفة الازدواجية) أو من (المادية) التي تركز على طرائق مغلوطة في التفكير لا ينتج عنها سوى قليل من الخير وكثير من الشر.. وعلى الرغم من أن أنصار المدرسة الإسلامية اعتبروا بعض العلوم مساعدة مفيدة، كالمنطق والرياضيات، وتبنوا بهذا المقدار طريقة التفكير (العلمي) وشجعوه، فإنهم تمسكوا بإعطائها دوراً ثانوياً. وإذا أتيح لي أن أستطرد في القول فيني أقول بأن تمرکز التفكير

(١) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٤٥.

(٢) الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ص ٢٨ - ٢٩.

(٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٣ - ٤.

العربي حول الأحداث الفردية حمل العلماء المسلمين إلى توسيع الطريقة التجريبية العلمية إلى أبعد مما فعل أسلافهم اليونان وعلماء الإسكندرية.. وأعتقد أن الجميع متفقون بصورة عامة على الاعتراف بأن الملحوظات التفصيلية للباحثين المسلمين أسهمت مادياً في تقدم المعرفة العلمية، وأنهم أصحاب الفضل في إدخال أو إعادة اعتبار الطريقة التجريبية في أوروبا خلال القرون الوسطى<sup>١</sup>

ويتحدث عن تكريم المصادر الأصلية للإسلام للمرأة، فيقول: (حين ننتهي من حذف الانحرافات الفقهية المتأخرة وشجبها، تعود تعاليم القرآن والرسول الأصلية إلى الظهور في كل نقائنها ورفعتها وعدالتها المتساوية إزاء الرجل والمرأة معاً. عندئذ نجد أن هذه التعاليم تعود إلى المبادئ العامة وتحدد الفكرة التي يجب أن يوضع ويطبق القانون بمقتضاها أكثر من أن تعين صيغاً حقوقية حاسمة. وهذه الفكرة، فيما يخص المرأة، لا يمكنها إلا أن تكون نابضة بالودّ الإنساني وبشعور الاحترام لشخصيتها والرغبة في محور الأضرار التي ألحقها بالمرأة سير المجتمع سيراً قاسياً وناقصاً فيما مضى. وعندما ننتهي من استخلاص هذه الفكرة وهضمها، يمكننا أن نفهم التشريع الخاص بالقرآن فهماً صحيحاً. حالما نتوصل إلى ذلك نرى أن الموقف الإسلامي تجاه المرأة، والطريقة الإسلامية في فهم شخصيتها ونظامها الاجتماعي، وطريقة حماية التشريع الإسلامي لها، تفوق كثيراً ما هي عليه في الديانات الأخرى)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن النظام السياسي الإسلامي، وضرورته، فيقول: (إذن فإذا قام أحد ينكر الشريعة من حيث صلاحيتها كان عمله هذا كفرةً ومروقاً، وهذه حقيقة تفسر الهزّة التي شعر بها المسلمون في جميع أرجاء العالم، عندما أقدمت الجمهورية التركية على إلغاء الشريعة جملة. ولعلني غير مخطئ في اعتقادي، وإن كان اعتقادي صادراً عن التصور والحدس، أن احترام الشريعة لا يزال لب التفكير الاجتماعي الإسلامي، وأن الإبقاء على الشريعة يرتبط به بقاء الإسلام أو زواله من حيث هو نظام مؤصل. أما الاحترام الذي أتحدث عنه فليس من الضروري أن يعني التقدير لكل تفسير ومبنى من تفسيرات القرون الوسطى ومبانيها)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن اهتمام المسلمين بشريعتهم رغم تطاول العصور، فيقول: (ليس بين البلاد الإسلامية بلد أعلن عن رغبته الصريحة في الاستغراب أو (التغرّب) باستثناء البلاد التركية، ولكن البلاد التركية أيضاً لا تعلن هذه الرغبة اليوم بتلك الثقة التي أعربت عنها منذ عشرين سنة<sup>٤</sup>، وفيما عدا هذا الاستثناء الضعيف يغلب على أبناء العصر من المسلمين الذين ينعمون على مساوئ العصر الحاضر أن يحملوا الغرب أوزار هذه المساوئ ولا يعلّقوا آمالهم في الإصلاح بمشاهدة الغرب والاقتداء بأهمه في جملة أحوالها)<sup>٥</sup>

**برنارد لويس:**

- 
- (١) الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ص ٣٤-٣٥.
  - (٢) الاتجاهات الحديثة في الإسلام، ص ١٢٣.
  - (٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.
  - (٤) ويوشك أن تلغي تركيا العلمانية، وتقبل على الإسلام كما كانت، وما ذلك ببعيد.
  - (٥) الشرق الأدنى الإسلامي (بإشراف جامعة تورنتو)، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٦١.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (برنارد لويس)<sup>١</sup>، فصحت: كيف تضع هذا المستشرق الحاقد في هذا الحبل.. ألا تعلم أنه يهودي، وأنه يعرض الإسلام بطريقة ترعب جمهوره الغربي، فيجعله يرفض أن يتنازل قدر بوصة للإسلام؟

قال: ربما تكون صادقا فيما ذكرت.. ولكنني عندما جمعت هذا الدفتر لم يكن في عقلي إلا هدف واحد.  
قلت: ما هو؟

قال: الهدف الذي ذكره لي معلم السلام في لقائني به في أول هذه الرحلة.. ألا تذكر ذلك؟  
قلت: بلى.. لقد أوصاك بأن تبحث عن الكلمات الصادقة، ولا يهملك من أي وعاء خرجت.  
قال: أجل.. فمن الحق ما شهدت به الأعداء.

قلت: ولكن.. هل يمكن أن يقول مثل هذا كلاما صادقا؟  
قال: كل إنسان لابد أن يعود إلى فطرته في لحظة من اللحظات لينطق بالصدق.. ومن الخلق من يستمر على ذلك.. ومن الخلق من تأسره الشياطين.  
قلت: صدقت.. فحدثني عن شهادات هذا الرجل.

قال: من ذلك حديثه عن نظام الإسلام الشامل في قوله: (لم تنشأ أمام محمد وأصحابه مشكلة الاختيار

---

(١) برنارد لويس B. Lewis ولد عام ١٩١٦، تلقى تعليمه الأول في كلية ولسون والمدرسة المهنية حيث أكمل دراسته الثانوية، ولا تذكر المراجع أية معلومات عن تلقيه تعليماً دينياً يهودياً خاصاً. التحق بجامعة لندن لدراسة التاريخ ثم انتقل إلى فرنسا للحصول على دبلوم الدراسات السامية (١٩٣٧) متلمذاً على المستشرق الفرنسي ماسنيون وغيره. ثم عاد إلى جامعة لندن: مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية وحصل على الدكتوراه عام ١٩٣٩ عن رسالته القصيرة حول أصول الإسماعيلية. استدعي في أثناء الحرب العالمية الثانية لأداء الخدمة العسكرية وأعيرت خدماته لوزارة الخارجية من ١٩٤١ حتى عام ١٩٤٥. عاد بعد الحرب إلى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية لتدريس التاريخ الإسلامي وأصبح أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي عام ١٩٤٩ ثم أصبح رئيساً لقسم التاريخ عام ١٩٥٧، وظل رئيساً لهذا القسم حتى انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٤.

دُعي للعمل أستاذاً زائراً في العديد من الجامعات الأمريكية والأوروبية منها جامعة كولمبيا وجامعة انديانا وجامعة كاليفورنيا بيلوس أبلوس وجامعة أكلاهوما وجامعة برنستون التي انتقل إليها والعمل فيها من ١٩٧٤ حتى تقاعده عام ١٩٨٦. وهنا عين مديراً مشاركاً لمعهد أناترج اليهودي للدراسات اليهودية والشرق أوسطية في مدينة فيلاديلفيا بولاية بنسلفانيا. يعد لويس من أغزر المستشرقين إنتاجاً، وقد تنوعت اهتماماته من التاريخ الإسلامي حيث كتب عن الإسماعيلية وعن الحشاشين وعن الطوائف المختلفة في المجتمع الإسلامي، إلى الحديث عن المجتمع الإسلامي ولكنه في السنوات الأخيرة قبل تقاعده يقلل بدأ الاهتمام بقضايا العالم العربي والإسلامي المعاصرة فكتب عن الحركات الإسلامية (الأصولية) وعن الإسلام والديموقراطية.

قدم خدماته واستشاراته لكل من الحكومة البريطانية التي كلفته القيام برحلة إلى العديد من الجامعات الأمريكية وإلقاء الأحاديث الإذاعية والتلفازية عام ١٩٥٤، كما قدم استشارته للكونغرس الأمريكي أكثر من مرة. وفي إحدى المرات (٨ مارس ١٩٧٤) ألقى محاضرة في أعضاء لجنة الشؤون الخارجية بالكونغرس الأمريكي حول قضية الشرق الأوسط ولأهمية هذه المحاضرة نشرتها وزارة الخارجية الإسرائيلية بعد أسبوعين من إلقائها. (نقلاً عن رسالة الدكتوراه التي أعدها د. مازن مطبقاني، بعنوان (منهج المستشرق برنارد لويس في دراسة الاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي)، ونشرت لدي مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض عام ١٤١٦ بعنوان (الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي)، ص ٦٩ وما بعدها)

بين الله وقيصر، أعني ذلك الفتح الذي لم يقع المسيح به وإن وقع في حياته الكثير من المسيحيين. ففي الإسلام لا يوجد (قيصر) بل يوجد الله وحده، وكان محمد رسوله الذي يعلم ويحكم باسمه. فكانت السلطة نفسها، الصادرة عن المصدر نفسه، تدعم الرسول في كلتا المهمتين (مهمة الدين والدولة) وكان الوحي ذاته يقدم محتوى المهمة الأولى وأساس الثانية. وعندما توفي محمد كانت مهمته الروحية والنبوية - وهي نشر رسالة الله - قد تمت، وبقي عمله الديني، ومعه العمل السياسي. وكان قوام هذا العمل هو نشر شريعة الله بين البشر وذلك عن طريق توسيع عضوية وسلطة الجماعة التي تعترف بذلك القانون وتؤيده<sup>١</sup>، وكان لا بد من وكيل أو خلف للرسول لقيادة هذه الجماعة. وتجمع الكلمة العربية (الخليفة) بين المعنيين<sup>٢</sup>

ويتحدث عن نظام الحكم في الإسلام ووظيفة الخليفة، فيقول: (أصبح من التجديدات الشائعة حديثاً التمييز بين (نظام الحكم) و(النظام الديني) في الإسلام. ولكن مهما كان مدى انطباق هذا التمييز على الإمبراطورية الإسلامية اللاحقة - وحتى هذا كان موضع تساؤل - فإنه لم يكن على الإطلاق منطبقاً على صدر الإسلام. ففي عهد الخلفاء الراشدين نجد أن الحكومة هي المؤسسة الدينية ولا يوجد غيرها.. والواقع أنه لم يكن يوجد في المفهوم الإسلامي مقابل حقيقي لمثل تلك الأضداد: ديني وديني، روعي وزمني، كهنوتي وعلماي، وحتى المقدس المدنّس، ولم يظهر مثل هذا التضاد إلا بعد وقت طويل جداً، حيث استحدثت كلمات جديدة للتعبير عن مفاهيم جديدة، أما في العهد الأول للإسلام فلم تكن الثنائية التي تدل عليها تلك الكلمات المعروفة لذا لم يكن هنالك من كلمات للتعبير عنها. ولقد قيل إن الخليفة يجمع في آن واحد بين شخصيتي الباب والإمبراطور، على أن التشبيه مضلل. فلم تكن للخليفة وظائف بابوية أو حتى كهنوتية، ولم يكن يتلقى التعليم الرسمي لرجال الدين من العلماء. ولم يكن واجبه عرض الدين ولا تفسيره بل كان واجبه هو دعمه وحمايته، وإيجاد الظروف التي من شأنها أن تمكن الناس من العيش حياة إسلامية صالحة في هذه الدنيا وبذلك يعدون أنفسهم ضمن حدود الإسلام، وأن يدافع عن هذه الحدود ضد الهجمات الخارجية. وكان من واجبه - ما أمكنه ذلك - توسيع تلك الحدود، حتى يصل العالم كله، عندما يحين الوقت، إلى اعتناق الإسلام)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن صمود الإسلام، فيقول: (رغم زوال الخلافة وتجزئة عالم الإسلام إلى عدد كبير من الكيانات السياسية المستقلة المنفصلة والمتحاربة في كثير الأحيان، فقد بقي الشعور بالهوية والتماسك، وبأن المسلمين (أمة واحدة من دون الناس) قوياً وفعالاً)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن قدرة الإسلام على الانتشار، والطرق التي انتشر بها، فيقول: (الواقع أن الذي غزا أتراك آسيا الوسطى، لم يكن المسلمين بل كان الإسلام ذاته. فقد كان المتصرفون والمبشرون المتجولون.. يتنقلون بين القبائل التي لم يتم إخضاعها فيما وراء النهر، ينشرون الدين البسيط، دين الكفاح الذي ازداد على الحدود بين

(١) والقصد من ذلك التحرير لا الاستعمار أو السيطرة والاستبداد، انظر رسالة (نمار من شجرة النبوة)، فصل (خلاص)

(٢) تراث الإسلام، (تصنيف شاخت وبوزورث) ١ / ٢٣٠.

(٣) تراث الإسلام: ١ / ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٤) تراث الإسلام: ١ / ٢٥٢.

## الإسلام والوثنية<sup>١</sup>

ويتحدث عن سماحة المسلمين، فيقول: (هروب اليهود الإسبان إلى تركيا معروف للجميع، لكنه ليس الحالة الوحيدة على الإطلاق. وعندما انتهى الحكم العثماني في أوروبا، كانت الأمم المسيحية التي حكمها العثمانيون خلال عدة قرون لا تزال هناك، بلغاتها وثقافتها ودياناتها - إلى حد ما - بمؤسساتها.. أما إسبانيا وصقلية فليس فيها اليوم مسلمون أو ناطقون باللغة العربية)<sup>٢</sup>

ويقول: (لم يكن اللاجئون المسلمون واليهود، ولا المسيحيون من ذوي الآراء الدينية والسياسية المنشقة، هم الأوربيين الوحيدين الذين استفادوا من الحكم العثماني إذ أن الفلاحين في المناطق التي غزيت قد تمتعوا - بدورهم - بتحسّن كبير في أوضاعهم. فقد جلبت الحكومة الإمبراطورية العثمانية الوحدة والأمن مكان الصراع والفوضى.. وأصبح الفلاحون يتمتعون بقدر من الحرية في حقوقهم أكبر بكثير من ذي قبل، وكانت الضرائب التي يدفعونها تقلّ بصورة مخففة وتجمع بطريقة إنسانية، وذلك بالمقارنة بما كان يجري في أنظمة الحكم السابقة والمجاورة.. فحتى القرن التاسع عشر كان الأوربيون الذين يزورون البلقان يعلقون على أوضاع فلاحي البلقان الحسنة وعلى رضاهم عن هذه الأوضاع، وكانوا يجدونه أفضل من الأوضاع السائدة في بعض أنحاء أوروبا المسيحية. وكان الفرق أوضح بكثير في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، في عصر حركات التمرد الكبيرة التي كان يقوم بها الفلاحون في أوروبا. وحتى عملية الداوشرمة Deushrime وهي عملية الجمع القسري للأولاد من بين الفلاحين المسيحيين من أجل تجنيدهم في الجيش العثماني وفي خدمة الدولة لم تخل من نواح إيجابية. فهذه الوسيلة كان أقلّ القرويين شأنًا يستطيع أن يرتقي إلى أعلى المراكز وأكثرها نفوذًا وقد ارتقى الكثيرون بالفعل وأحضرُوا أسرهم معهم، وهو شكل من أشكال المرونة الاجتماعية كان مستحيلًا في المجتمعات الأرستقراطية للعالم المسيحي المعاصر للعثمانيين)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن صمود الإسلام، فيقول: (إن الإسلام التركي نفسه الذي أظهر حديثًا، برغم فترة من الخفوت قوة متجددة في تركية، لا يزال بوضوح عنصرًا رئيسًا، إن لم يكن الرئيس الوحيد في الوعي الجماعي لنسبة عظيمة من الأمة التركية)<sup>٤</sup>

ويقول: (إن الأفكار التي يعبر عنها بالإنكليزية والفرنسية للأجانب ليست لها علاقة بالحياة الحقيقية للبلاد الإسلامية. ومن جهة أخرى حينما تتجه العواطف الشعبية لمكافحة الكفار، كما وقع في منطقة القنال ١٩٥١ - ١٩٥٢، تلاقي استجابة قوية)<sup>٥</sup>

روم لاندو:

- 
- (١) تراث الإسلام: ٢٧٩ / ١.
  - (٢) تراث الإسلام: ٢٨٦ - ٢٨٧.
  - (٣) تراث الإسلام: ٢٨٧ / ١ - ٢٨٨.
  - (٤) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونباوم)، ص ٤٦٥.
  - (٥) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ٥٢٠.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (روم لاندو)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق إنجليزي جمع بين الفن والاهتمام بالشرق، وقد كان له شهادات قيمة تمتلئ صدقا وإخلاصا، سأذكر لك بعضها.

منها شهادته عن جمال الأسلوب القرآني إلى درجة استحالة وجود ترجمة كاملة معبرة عن القرآن تعبيراً حقيقياً، قال: (بسبب من أن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الإيقاعية، إلى لغة أخرى، تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية إلى العلم، فإننا لم نعرف حتى وقت قريب ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقف شيئاً من روح الوحي المحمدي. والواقع أن كثيراً من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحد على الإسلام إلى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتحامل والغرض. ولكن حتى أفضل ترجمة ممكنة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السور الموسيقي الأسر، على الوجه الذي يرتلها به المسلم. وليس يستطيع الغربي أن يدرك شيئاً من روعة كلمات القرآن وقوتها إلا عندما يسمع مقاطع منه مرتلة بلغته الأصلية)<sup>٢</sup>

ومنها شهادته عن حفظ الله للقرآن، فلم يصبه أي تحريف، قال: (كلف كاتب الوحي، زيد بن ثابت، جمع الآيات القرآنية في شكل كتاب وكان أبو بكر قد أشرف على هذه المهمة. وفيما بعد، إثر جهد مستأنف بذل بأمر من الخليفة عثمان اتخذ القرآن شكله التشريعي النهائي الذي وصل إلينا سليماً لم يطرأ عليه أي تحريف)<sup>٣</sup>

ومنها شهادته عن التأثير الوجداني للقرآن، قال: (إن بين آيات قصار السور ترابطاً باهرًا له تأثيره الوجداني برغم أنه ليس ثمة أيما وزن نظامي. وفي الحق إن سماع السور تتلى في الأصل العربي، كثيراً ما يخلف في نفس المرء تأثيراً بليغاً. لقد أريد بالقرآن.. أن يتلى في صوت جهير. ويتعين على المرء أن يسمعه مرتلاً لكي يحكم عليه حكماً عادلاً ويقدره حق قدره.. ويوصفه كلمة الله الحقيقية، كان معجزاً لا سبيل إلى محاكاته، ولم يكن ثمة، بكل بساطة، أيما شيء من مثله)<sup>٤</sup>

ومنها شهادته عن رسول الله ﷺ وصفاته التي لا تدل إلا على نبوته، قال: (لم ينسب محمد في أيما يوم من الأيام إلى نفسه صفة ألوهية أو قوى أعجوبية. على العكس، لقد كان حريصاً على النص على أنه مجرد

(١) روم لاندو R. Landau. نحات وناقد فني إنكليزي، زار زعماء الدين في الشرق الأدنى (١٩٣٧)، وحاضر في عدد من جامعات الولايات المتحدة (١٩٥٢-١٩٥٧)، أستاذ الدراسات الإسلامية وشمال أفريقيا في الجمع الأمريكي للدراسات الآسيوية في سان فرانسيسكو (١٩٥٣).

من آثاره: (الله ومغامراتي) (١٩٣٥)، (بحث عن الغد) (١٩٣٨)، (سلم الرسل) (١٩٣٩)، (دعوة إلى المغرب) (١٩٥٠)، (سلطان المغرب) (١٩٥١)، (فرنسا والعرب) (١٩٥٣٩)، (الفن العربي) (١٩٥٥).. وغيرها.

(٢) الإسلام والعرب، ص ٣٦ - ٣٧.

(٣) القرآن جمع في عهد رسول الله ﷺ كاملاً، والجهد الذي قام به الخلفاء الراشدون هو جزء من الحفظ الذي قامت به الأمة طوال تاريخها، انظر: رسالة (الكلمات المقدسة) فصل (الحفظ) من هذه السلسلة.

(٤) الإسلام والعرب، ص ٢٩٦.

(٥) الإسلام والعرب، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

رسول اصطنعه الله لإبلاغ الوحي للناس)<sup>١</sup>

وقال: (كان محمد تقياً بالفطرة، وكان من غير ريب مهياً لحمل رسالة الإسلام التي تلقاها.. وبالإضافة إلى طبيعته الروحية، كان في سره وجهه رجلاً عملياً عرف مواطن الضعف ومواطن القوة في الخلق العربي، وأدرك أن الإصلاحات الضرورية ينبغي أن تقدم إلى البدو الذين لا يعرفون انضباطاً وإلى المدنيين الوثنيين، وفي آن معاً، على نحو تدريجي. وفي الوقت نفسه كان محمد يملك إيماناً لا يلين بفكرة الإله الواحد.. وعزماً راسخاً على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنيين العرب)<sup>٢</sup>

وقال: (كانت مهمة محمد هائلة. كانت مهمة ليس في ميسور دجال تحدوه دوافع أنانية (وهو الوصف الذي رمى به بعض الكتاب الغربيين المبكرين الرسول العربي أن يرجو النجاح في تحقيقها بمجهوده الشخصي، إن الإخلاص الذي تكشف عنه محمد في أداء رسالته، وما كان لأتباعه من إيمان كامل في ما أنزل عليه من وحي، واختبار الأجيال والقرون، كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد بأيّ ضرب من الخداع المتعمد. ولم يعرف التاريخ قط أي تلفيق (ديني) متعمد استطاع أن يعمر طويلاً. والإسلام لم يعمر حتى الآن ما ينوف على ألف وثلاثمائة سنة وحسب، بل إنه لا يزال يكتسب، في كل عام، أتباعاً جديداً. وصفحات التاريخ لا تقدم إلينا مثلاً واحداً على احتمال كان لرسالته الفضل في خلق إمبراطورية من إمبراطوريات العالم وحضارة من أكثر الحضارات نبلاً)<sup>٣</sup>

وتحدث عن الثمار العظيمة التي حققها محمد ﷺ، فقال: (كانت مهمة محمد هي القضاء على النظام القبلي القوي الذي كان مسؤولاً عن اندلاع نار الحرب، على نحو موصول تقريباً، بين العرب، والاستعاضة عنه بولاء الله يسمو على جميع الروابط الأسرية والأحقاد الصغيرة. كان عليه أن يعطي الناس قانوناً كلياً يستطيع حتى العرب المتمردون قبوله والإذعان له، وكان عليه أن يفرض الانضباط على مجتمع عاش على العنف القبلي والثأر الدموي لضروب من المظالم بعضها واقعي وبعضها متوهم. كان عليه أن يحل الإنسانية محل الوحشية، والنظام محل الفوضى، والعدالة محل القوة الخالصة)<sup>٤</sup>

وقال: (عندما توفي محمد عام ٦٣٢م كان في نجاح الإسلام ما زكى إيمان خديجة رضي الله عنها بالوحي الذي تلقاه زوجها، وكانت العقيدة التوحيدية الجديدة في سبيلها إلى القيام بفتح روحي ومادي لا يضارعه أي فتح في التاريخ البشري)<sup>٥</sup>

وتحدث عن الثمار السلوكية لشعيرة الصيام، فقال: (حين يكون صيام رمضان في البلاد العربية الحارة صيفاً، يصبح الامتناع عن الطعام والشراب خلال ساعات النهار الطويلة امتحاناً حقيقياً للإيمان.. أن الصوم

(١) الإسلام والعرب، ص ٣٢.

(٢) الإسلام والعرب، ص ٣٣.

(٣) الإسلام والعرب، ص ٣٣ - ٣٤.

(٤) الإسلام والعرب، ص ٣٤.

(٥) الإسلام والعرب، ص ٣٥.



وَلَدَ ضَبْطًا ذَاتِيًّا عِنْدَ شَعْبِ كَانِ بِطَبِيعَتِهِ انْفِعَالِيًّا شَدِيدَ الْعِنَادِ<sup>١</sup>

وقارن بين السلوك الإسلامي المبني على مراعاة الفطرة، والسلوك المسيحي القائم على تعذيب الجسد، فقال: (أن التوكيد النصراني التاريخي على الألم وإماتة الجسد يكاد يكون مفقودًا بالكلية في الإسلام. والثنائية المسيحية، ثنائية الجسد والروح، هي في نظر المسلم شيء غير معقول، أو في أحسن الأحوال شيء غير واقعي)<sup>٢</sup> وتحدث عن مرونة الشريعة الإسلامية، فقال: (الإسلام في أساسه دين عملي. فالقواعد والأنظمة التي ينصّ عليها القرآن ليست جامدة، ولقد كَيْفَتْ وفقاً لما قضت به الأحوال والظروف. وهذه السياسة إنما يؤيدها كثير من المسلمين عندما يستشهدون بالآية القرآنية التي مفادها أن الله يريد أن ييسر السبيل للناس. إن المسلم ليجد أن في ميسوره التزام أحكام دينه، وهكذا ينعم بالأمن وطمأنينة النفس.. أن هدف النصرانية الممعن في الروحية، ذلك الهدف الذي هو الانتصار على ضعف الجسد، يكاد يكون متعذر التحقيق في هذه الحياة، ولولا محبة الله إذن لكان خليقاً بحياة المسيحي أن تكون سلسلة من ضروب الإخفاق والخيبة التي لا سبيل إلى التغلب عليها. إن في إمكان المسلم أن يبلغ مثل دينه الأعلى هنا على سطح الأرض، ولكن النصراني يتطلع إلى الاتحاد بالمسيح في المستقبل بوصفه غاية الغايات في حياته الدينية)<sup>٣</sup>

وتحدث عن الموقف الإيجابي للإسلام من العلم، فقال: (في الإسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقاً معاكسة لا، والواقع أن الأول كان باعثاً من البواعث الرئيسية للثاني)<sup>٤</sup>

وتحدث عن التكامل بين علوم الدين وعلوم الدنيا في الإسلام، فقال: (العلم الإسلامي لم يفصل عن الدين قط. والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية. ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معاً إلى الوجود لا ليحلا محل ألوهية الدين (البدائية) ولكن لتفسيرها عقلياً، لإقامة الدليل عليها وتمجيدها.. إن المسلمين وفقوا، طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائق وأهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وإنجاح لا عامل تعويق وإحباط)<sup>٥</sup>

وتحدث عن الفتوحات الإسلامية مقارنة لها بما كان يحصل في ذلك الزمن من أنواع الاستعمار، فقال: (في عصر كان (السلب والنهب) هو القاعدة التي يتبعها كل جيش منتصر لدى دخوله مدينة ما، يبدو العهد الذي أعطاه خالد بن الوليد لأهل دمشق إنسانياً إلى أبعد الحدود ومعتدلاً إلى أبعد الحدود. ويبدو جلياً، في الواقع، أن الكتابات العربية اعتبرت نفسها محررة للشعب المضطهد وحاملة رسالة الإسلام إليه في آن معاً. وقد اتخذ من شروط الاستسلام هذه نموذج احتذي في ما بعد عند فتح المدن السورية والفلسطينية الأخرى)<sup>٦</sup>

وتحدث عن بشاعة الحروب الصليبية مقارنة لها بسماحة الإسلام، فقال: (إذا اعتبرت القرون الوسطى

(١) الإسلام والعرب، ص ٤٩.

(٢) الإسلام والعرب، ص ٥١.

(٣) الإسلام والعرب، ص ٥٢.

(٤) الإسلام والعرب، ص ٢٤٦.

(٥) الإسلام والعرب، ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٦) الإسلام والعرب، ص ٦٠.

عصر إيمان وحرب فالحرب الصليبية هي أكمل تعبير عنها وأشنعها. والذي لا ريب فيه أن العقل الأوروبي الوسيطى Medieval قد اعتبر الحروب الصليبية حروباً مقدسة من أجل قضية مقدسة. ففي الإسلام لم يعلن أي (جهاد) عام ضد الصليبيين، ولم يوجّه الخليفة، دفةً هذه الحروب. أما في الغرب فقد فني البابا في تلك القضية واعتبرها قضيته الذاتية. والواقع أن الحروب الصليبية، كحركة دينية كشفت - من طريق التعصب والتطرف الدينيين - عن أسوأ مظاهر النصرانية الوسيطية كلها. لقد نجحت الحروب المقدسة في خلق شقة واسعة تفصل ما بين الشرق والغرب بدلاً من أن يعيد تدعيم الجسر الرابط ما بين ثقافتين تجمع ما بينهما في نهاية المطاف مفاهيم إيمانية مشتركة، ومصالح ثقافية تمتنع على الإحصاء)<sup>١</sup>

وتحدث عن سماحة الإسلام مقارناً إياه بالمسيحية، قال: (على نقيض الإمبراطورية النصرانية التي حاولت أن تفرض المسيحية على جميع رعاياها فرضاً، اعترف العرب بالأقلية الدينية وقبلوا بوجودها. كان النصراني واليهود والزرادشتيون يعرفون عندهم - (أهل الذمة)، أو الشعوب المتمتعة بالحماية. لقد ضمنت حرية العبادة لهم من طريق الجزية.. التي أمست تدفع بدلاً من الخدمة العسكرية. وكانت هذه الضريبة مضافاً إليها الخراج، اقل في مجموعها من الضرائب التي كانت مفروضة في ظل الحكم البيزنطي. كانت كل فرقة من الفرق التي تعامل كملّة، أي كطائفة نصف مستقلة استقلالاً ذاتياً ضمن الدولة. وكانت كل ملّة تخضع لرئيسها الديني)<sup>٢</sup>

وقال: (كان الإسبان قد نعموا، في ظل الحكم الإسلامي، بمعاملة متسامحة تحررية، ولكنهم لم يكونوا الآن بعد انتصارهم النهائي في وضع نفسي يساعدهم على تبني السياسة المتدينة نفسها فراحوا يبحثون، في حرارة دينية متعصبة، بالعهود الغليظة التي أخذوا على أنفسهم باحترام الدين الإسلامي والممتلكات الإسلامية. فإذا بهم يحرقون الكتب العربية ويلقون معظم الآثار التي كانت عنوان تفوق الثقافة الإسلامية. وفي عام ١٤٩٩م دشن الكاردينال كزيمير برنامجاً للتنصير الإجباري شعاره: إما المعمودية وإما الإخراج من البلاد. ونشطت محاكم التفتيش نشاطاً رهيباً. وأكره كثير من المسلمين واليهود على مغادرة إسبانيا. وعام ١٥٥٦م أجبر الملك فيليب الثاني من بقي من المسلمين في البلاد على التخلي عن لغتهم ودينهم ومؤسستهم. حتى إذا كانت سنة ١٦٠٩م أمضي مرسوم ملكي نهائي إلى ترحيلهم ترحيلاً كاملاً. ودوّن المؤرخون عدد المسلمين الذين أبعدهوا أو قتلوا، ما بين سقوط غرناطة ومطلع القرن السابع عشر، بثلاثة ملايين ونصف)<sup>٣</sup>

وتحدث عن الأحقاد الصليبية التي آثرت المغول على المسلمين، فقال: (من وجهة نظر منطقية وعقلانية نستطيع أن نفترض أنه كان خليقاً بالنصارى أن يتحالفوا مع المسلمين التّزاعين إلى الوفاء بالمعاهدات لكي يدفعوا عن الإنسانية بلاء المغول. والواقع أنه كان في ميسورهم أن ينهجوا هذا النهج ومع ذلك فنحن نجد أن ما حدث كان هو العكس تقريباً. فقد وجه زعيم العالم المسيحي، البابا أنوسنت الرابع، بعثتين إلى منغوليا. وكان القديس لويس الورع، قد أبي على نحو موصول أن يتفاوض مع المسلمين بأية حال، ومع ذلك فإنه لم يجد

(١) الإسلام والعرب، ص ١١٥.

(٢) الإسلام والعرب، ص ١١٩.

(٣) الإسلام والعرب، ص ١٣٠.

أية غضاضة على معتقداته الدينية أن يوجه موفدين لمفاوضات المغول الوثني<sup>١</sup> وتحدث عن آثار الحضارة الإسلامية على العالم، فقال: (على الرغم من أن أثر الشرق الأدنى اليومي بعيد المدى إلى حد بالغ، فالواقع أن الإسلام على العموم، والحضارة الإسلامية (أو العربية) على الخصوص، يتمتعان بأهمية أعظم بكثير. أن الحضارة الغربية — ابتداءً من الفلسفة والرياضيات إلى الطب والزراعة — مدينة لتلك الحضارة بشيء كثير إلى درجة نعجز معها عن فهم الأولى (العربية) إذا لم تتم لنا معرفة ما بالأخرى (الإسلامية أو العربية)<sup>٢</sup>

وتحدث عن بعض مظاهر الحضارة الإسلامية في الأندلس مقارنا لها بما كان عليه الحال في أوروبا، فقال: (بينما كانت سائر بلدان أوروبا تتمرغ في القدر والحطة نعمت إسبانيا بمدن نظيفة منظمة ذات شوارع معبدة ومضاءة. وكان في ميسور قرطبة وحدها أن تعجز بنصف مليون من السكان، وسبعمئة مسجد، وثلاثمئة حمام عمومي، وسبعين مكتبة عامة، وعدد كبير من دكاكين الوراقين (المكتبات التجارية)<sup>٣</sup> ويتحدث بإعجاب عن السرعة التي تكاملت فيها الحضارة الإسلامية مقارنا لها بالحضارة الغربية، فيقول: (حين نتذكر كم كان العرب بدائيين في جاهليتهم يصبح مدى التقدم الثقافي الذي أحرزوه خلال مئتي سنة انقضت على وفاة الرسول ليس غير، وعمق ذلك التقدم، أمراً يدعو إلى الدهول حقاً. ذلك بأن علينا أن نتذكر أيضاً أن النصرانية احتاجت إلى نحو من ألف وخمسمائة سنة لكي تنشئ ما يمكن أن يدعى حضارة (مسيحية)<sup>٤</sup>، فما هي إذن الدوافع الرئيسية إلى منجزات العرب العلمية؟ إن في استطاعتنا أن نلخص هذه الدوافع فيما يلي: رغبة متقدمة في اكتساب فهم أعمق للعالم كما خلقه الله، قبول للعالم المادي، لا بوصفه دون العالم الروحي شأنًا ومقامًا، ولكن بوصفه صنوًا له في الصحة والرسوخ؛ واقعية قوية تعكس في صدق وإخلاص طبيعة العقل العربي اللاعاطفي، وأخيرًا فضولهم النهيم الذي لا يعرف الشبع. كان كل ما في الوجود صادرًا عن الله، ابتداء من الاستغراق في العبودية لله إلى حنان الأم وحبها، إلى انطلاق السهم والطاعون الذي يقضي على بلاد برمتها وقرصة البعوضة. إن كلاً من هذه ليكشف عن قدرة الله، ومن هنا فهو جدير بالتأمل والدرس. ففي الإسلام لم يول كل من الدين والعلم ظهره للآخر ويتخذ طريقًا معاكسة. لا، والواقع أن الأول كان باعثًا من البواعث الرئيسية للثاني)<sup>٥</sup>

ويقارن بين موقف الإسلام من العلم مع موقف الكنيسة، فيقول: (منذ عصر النهضة انفصل العلم في الغرب، انفصلاً أشد وضوحًا عن الدين، أو بتعبير آخر، تابع العلم سبيله غير ملتفت إلا قليلاً إلى مطالب الأخلاق وعلم الأخلاق. ففيما كان الإنسان في الغرب يكتسب معرفة متنامية أبدأً بالكون الطبيعي وسيطرة

(١) الإسلام والعرب، ص ١٣٠.

(٢) الإسلام والعرب، ص ٩.

(٣) الإسلام والعرب، ص ١٧٧.

(٤) الحضارة الحديثة — طبعاً — ليست حضارة مسيحية، بل إن أوروبا لم تصل إليها إلا بعد أن رفضت المسيحية، انظر:

رسالة (ثمار من شجرة النبوة)

(٥) الإسلام والعرب، ص ٢٤٦.

متعاظمة عليه كان تقدمه الأخلاقي يتخلف متلكتًا. وبتحرير العلم في القرون الوسطى من سلطان الكنيسة، لم يفصل الغرب العلم عن العقائد الدينية فحسب بل فصله عن مفاهيم الإيمان والقيود الأخلاقية الملازمة لها أيضًا. أما العلم الإسلامي فلم ينفصل عن الدين قط. والواقع أن الدين كان هو ملهمه وقوته الدافعة الرئيسية. ففي الإسلام ظهرت الفلسفة والعلم معًا إلى الوجود لا ليحلا محل ألوهية الدين (البدائية)، ولكن لتفسيرها عقليًا، لإقامة الدليل عليها وتمجيدها. ومن هنا فليس عجيبيًا أن يكون العلم الإسلامي لم يجرد في أيما يوم من الأيام من الصفات الإنسانية - كما حدث في الغرب - ولكنه كان دائمًا في خدمة الإنسان. وبينما أكره العلم الغربي في عهد مبكر نسبيًا على اتخاذ سبيل التخصص، بحيث أمسى كل فرع من فروعها يعمل - كثيرًا أو قليلًا - في عزلة، ظل العلم الإسلامي شموليًا، يجهد من أجل الوحدة، وهي وحدة يلعب فيها كل من الكون المادي والله والإنسان دوره الحاسم<sup>١</sup>

ويتحدث عن تفوق المسلمين العلمي، فيقول: (والحقيقة التاريخية التي لا ريب فيها هي أن المسلمين وفقوا، طوال خمسة قرون كاملة، إلى القيام بخطوات حاسمة في مختلف العلوم من غير أن يديروا ظهورهم للدين وحقائقه، وأنهم وجدوا في ذلك الانصهار عامل تسريع وإنجاح، لا عامل تعويق وإحباط)<sup>٢</sup>

ويتحدث عن تكريم الإسلام للمرأة، فيقول: (يوم كانت النسوة يعتبرن، في العالم الغربي، مجرد متاع من الأمتعة، ويوم كان القوم هناك في ريب جدّي من أن لهن أرواحا، كان الشرع الإسلامي قد منحهن حق التملك. وتلقّت الأراذل نصيبًا من ميراث أزواجهن، ولكن البنات كان عليهن أن يقنعن بنصف حصة الذكر.. إلا أن علينا أن لا ننسى أن الأبناء الذكور وحدهم كانوا، حتى فترة حديثة نسبيًا، ينالون في الديار الغربية حصة من الإرث)<sup>٣</sup>

سكت البابا، فقلت: إن هذا رجل فاضل حقًا.. إنه يحمل تقديرا عظيما للإسلام يندر أن نجد مثله.

قال: صدقت.. ففي كلماته من نفحات الصدق ما يدل على أن علاقته بالإسلام أعمق من أن تنحصر في تلك الشهادات.

### آرنولد توينبي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آرنولد توينبي)<sup>٤</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا

(١) الإسلام والعرب، ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٢) الإسلام والعرب، ص ٢٨١.

(٣) الإسلام والعرب، ص ٢٠٣.

(٤) آرنولد توينبي Arnold Toynbee المؤرخ البريطاني المعاصر، الذي انصبت معظم دراساته على تاريخ الحضارات، وكان أبرزها - ولا ريب - مؤلفه الشهير (دراسة للتاريخ) الذي شرع يعمل فيه منذ عام ١٩٢١ وانتهى منه عام ١٩٦١، وهو يتكون من اثني عشر جزءا عرض فيها توينبي لرؤيته الحضارية للتاريخ. ولقد وضع المستر سومر فيل - تحت إشراف توينبي نفسه - مختصرًا في جزأين لهذا العمل الواسع بسط فيه جميع آراء المؤلف مستخدمًا عباراته الأصلية في معظم الأحيان، وحذف الكثير من الأمثلة والآراء دون إخلال بالسياق العام للكتاب، وهذا المختصر هو الذي ترجم إلى العربية في أربعة أجزاء، وهو المعتمد في هذه النقول.

رجل من عقلاء الغرب.. ولشهاداته قيمة عليا، باعتبارها تنبع من نظرة تاريخية عميقة، فالرجل لم يكن يسرد الأحداث فقط، أو يكفي بتحليلها تحليلا سطحيا، وإنما يحاول سبر أغوارها.

قلت: أسمع بهذا الرجل كثيرا.. ولكني لم أكن أعلم أن له من الفهم في الإسلام ما يتيح له أن يتحدث عنه.

قال: كيف يكون لعالم بالحضارات أن لا يعرف أعمق الحضارات وأشملها وأكثرها إنسانية، وأطولها عمرا.

قلت: صدقت.. لقد بث فينا من الإحباط ما جعلنا نترنح من التواضع إلى الذلة.

قال: سأذكر لك بعض شهادات هذا الرجل.. وهي — كغيرها — يختلط فيها الحق بسوء الفهم..

فمن تلك الشهادات قوله في بيان كون النظام الإسلامي بما تميز به من شمولية هو السبب في انتشار الإسلام: (لقد كرّس محمد حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهرين في البيئة الاجتماعية العربية وهما الوحدانية في الفكرة الدينية، والقانون والنظام في الحكم. وتم ذلك فعلاً بفضل نظام الإسلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذية معاً.. فعدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصر على كفالة احتياجات العرب ونقلهم من أمة جهالة إلى أمة متحضرة، بل تدفق الإسلام من حدود شبه الجزيرة، واستولى على العالم السوري بأسره من سواحل الأطلسي إلى شواطئ السهب الأوراسي)<sup>١</sup>

وقد تحدث عن امتداد تأثير النبي ﷺ باعتباره قدوة محبوبا في الأجيال البعيدة للأمة الإسلامية، فقال: (لقد أخذت سيرة الرسول العربي بألباب أتباعه، وسمت شخصيته لديهم إلى أعلى عليين، فآمنوا برسالته إيماناً جعلهم يتقبلون ما أوحى به إليه وأفعاله كما سجلتها السنة، مصدرراً للقانون، لا يقتصر على تنظيم حياة الجماعة الإسلامية وحدها، بل يرتب كذلك علاقات المسلمين الفاتحين برعاياهم غير المسلمين الذين كانوا في بداية الأمر يفوقوهم عدداً)<sup>٢</sup>

وتحدث عن سر صمود الإسلام وانتشاره، فأرجع ذلك إلى المعاني التي ينتظمها، فقال: (ما هو سر قوة الإسلام على البقاء، بقاؤه بعد وفاة رسوله، ثم زوال بناء إمبراطوريته من العرب، وانحيار من حلوا محلهم من الإيرانيين وانحزام الخلافة العباسية، وتداعي الدول التي قامت فترة على أنقاض الخلافة العباسية، يكمن التفسير في التجربة الروحية التي مرّ بها المهتدون إلى الإسلام من رعايا الخلافة الأموية من غير العرب لقد تأصلت جذور الإسلام في قلوبهم فأولوه أهمية تفوق نظرة العرب إليه. وإن كان منهم من أقبل على اعتناقه في بداية الأمر، تحقيقاً لمنافع عاجلة. ولا جرم أن عقيدة دينية توفيق كله تحت تأثير فضائلها الذاتية في الفوز بولاء الناس لها، عقيدة لا يستند بناؤها (أو زوالها) على أهواء تلك النظم السياسية التي تنشأ استغلال العقيدة لتحقيق غايات تجافي مبادئها، ليعتبر انتصارها الروحاني، أعجب مثال يبين أنه وإن حلّت الكوارث بالأديان العالمية الأخرى التي سمت إلى تحقيق غايات سياسية، إلا أن الإسلام — عكسها — لم يؤثر فيه هذا الاتجاه، وهذا ما

(١) مختصر دراسة للتاريخ: ١٠ / ٣٨١.

(٢) مختصر دراسة للتاريخ: ٣ / ٩٨.

بيديه استقراء اتجاهه السياسي منذ عهد الرسول نفسه ثم في عهد خلفائه رضي الله عنهم من بعده. فإن هجرة النبي العربي من مكة إلى المدينة، قد جعلت منه سياسياً ناجحاً لامعاً، عوضاً عن بقاءه بمكة.. قليل الحظ من الأتباع والأنصار)<sup>١</sup>

وتحدث عن صفاء التوحيد الإسلامي مقارنة بما حصل للمسيحية، فقال: (إن الإسلام قد أعاد توكيد وحدانية الله، في مقابل الضعف البادي في تمسك المسيحية بهذه الحقيقة الجوهرية)<sup>٢</sup>

وتحدث عن التنوير الإسلامي المرتبط بالتوحيد، فقال: (في غضون القرن السابع الميلادي، جدّ في النقاش عامل جديد، كأنه ممثل جديد ظهر على مسرح الأحداث التاريخية على نحو رائع ومثير. فقد نشأ حينئذ دين جديد مكتمل النمو. كان الإسلام يتعصب للتوحيد ويناهض التصوير مثلما يتبغي أي يهودي، وبفضل ما حققه أنصاره في الميدان الحربي من نجاح متوال - وبعد ذلك بقليل في المجال التبشيري كذلك - واجه المسيحيون أمراً خطيراً جديداً يشغل تفكيرهم.. إن انتصارات العرب المسلمين الأولين قد أَلقت وقوداً جديداً على المجادلات التي ظلت تدور أمداً طويلاً حول (وثنية المسيحية)<sup>٣</sup>

وتحدث عن الدور التحريري الذي قام به الإسلام لحماية المستضعفين، فقال: (في القرن السابع الميلادي حرّر العرب المسلمون سلسلة من الدول الشرقية من سطوة إغريقية - رومانية مسيحية: من سوريا شرقاً إلى إسبانيا غرباً عبر شمال أفريقيا، وكانت هذه الدول تحت حكم يوناني أو روماني مدة ألف عام تقريباً.. بعد ذلك، وبالتحديد ما بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين استمر الفتح الإسلامي متدرجاً فشمل تقريباً جميع بلاد الهند وانتشر الإسلام بصورة سلمية في مناطق أبعد وأوسع، في إندونيسيا والصين شرقاً، وفي أفريقيا الإستوائية شرقاً وجنوباً، وكذلك روسيا خضعت، وقتياً، في أواخر القرون الوسطى، وكل ما تبقى من العالم المسيحي الأرثوذكسي الشرقي في آسيا الوسطى وجنوب شرقي أوروبا خضع في القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين لحكم المسلمين العثمانيين، وحاصر الأتراك فيينا للمرة الثانية في أواخر القرن السابع عشر (١٦٨٢-١٦٨٣م)، ورجماً عن أن فشل هذا الحصار أرّخ بداية تحول في التيار لمصلحة الغرب ومواجهته للدولة العثمانية الغازية، فقد بقي علم (الهلال) يرفرف فوق السواحل الشرقية (لبحر الأدرياتيك) مقابل (كعب) إيطاليا حتى عام ١٩١٢م)<sup>٤</sup>

وتحدث عن معجزة انتشار الإسلام مفسراً لها بأنها لا يمكن أن تكون من صنع بشر، فقال: (أصبحت يثرب بعد انقضاء ثلاثين سنة على الهجرة، عاصمة إمبراطورية شملت لا مجرد الممتلكات الرومانية في سوريا ومصر، بل ضمت كذلك أملاك الإمبراطورية الساسانية بأسرها.. وتستمد يثرب حقها في بقائها مقر الحكومة إلى كونها النواة التي انبثقت منها إمبراطورية العالم العربي في اندفاع جارف يوحى حقاً بأنه من الأفعال

(١) مختصر دراسة التاريخ: ٣ / ٥٤ - ٥٥.

(٢) مختصر دراسة التاريخ: ٣ / ١٦٤.

(٣) مختصر دراسة التاريخ: ٤ / ٦٤، وانظر في هذا رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (الخلاص)

(٤) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ١٦ - ١٧.

وتحدث بإعجاب عن تسامح المسلمين مع المخالفين، فقال: (ثمة حالة.. ناهية الذكر لهذا التسامح المنشود، يفرضها نبي على أتباعه وهو في موضعه الجليل. فإن محمداً قد أمر أتباعه بالتسامح الديني تجاه اليهود والمسيحيين الذين خضعوا سياسياً للحكم الإسلامي. فقدم محمد بذلك لقاعدة التسامح، تفسيراً قوامه أن أفراد هاتين الجماعتين الدينيتين غير المسلمتين، هم أهل كتاب كالمسلمين أنفسهم. وليس أدل على روح التسامح التي بعثت الحياة في الإسلام منذ بدايته، من أن المسلمين قد طبقوا مبدأ التسامح الديني على أتباع زرادشت الذي خضعوا للحكم الإسلامي وإن لم يقل بذلك الرسول الكريم نفسه)<sup>٢</sup>

وقال: (لم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل، ولكن بين الإسلام أو الحرية وتلك سياسة مستنيرة، أجمعت الآراء على امتداحها.. لقد سلك الإسلام طريقة بين رعايا الخلافة غير العرب، مستنداً على مزياه وفضائله الذاتية، وكان انتشاراً بطيئاً، لكنه كان مؤكداً.. ويحتمل أن الهداية إلى الإسلام بصورة جماعية لم تبدأ قبل القرن التاسع الميلادي - أو تصل نهايتها - حتى حلول فترة اضمحلال الإمبراطورية العباسية من القرن الثالث عشر. ويمكن القول بالتأكيد، أن هذه الغلات التي حصدت من حقل التبشير الإسلامي، كانت حصيلة حركة شعبية تلقائية، ولم تنجم قط عن ضغط سياسي)<sup>٣</sup>

وقال: (إن المسلمين قد سبقوا بناء الإمبراطورية من الإسبانيين والبرتغاليين في إظهار إخلاصهم لمعتقداتهم الدينية. فإن المسلمين قد تراوجوا منذ البداية مع من تولوا هدايتهم إلى دينهم، دون اعتبار لاختلاف الجنس. بل أنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك. فإن المجتمع الإسلامي قد ورث عن نص وارد في القرآن، إقراراً بطائفة من الأديان (عدا الإسلام) هي - رغم ما بها من قصور - أديان سماوية أصيلة، نزل بها الوحي، وهذا الإقرار، أسبغ على اليهود والمسيحيين أولاً، ثم اتسع فشمل بعد ذلك الزرادشتيين والهندوس)<sup>٤</sup>

وتحدث عن الخطأ الكبير الذي وقع فيه أتاتورك عندما نادى بالعلمانية، فقال: (أما حركة التغريب المتطرفة التي قادها مصطفى كمال أتاتورك، فإننا نشك فيما إذا كان بعد نظر أتاتورك الخيالي، وقدرته الشيطانية الموجهة قادرين وحدهما على زحزحة الأتراك من وضعهم المحافظ القديم، لو لم يواجه الأتراك بعد الحرب العالمية الأولى اختياراً صعباً لا يمكن الهروب منه: إما تغريب بدون تحفظ، وإما فناء محقق! والحقيقة أن الهجوم الغربي المعاكس على العالم الإسلامي.. قد تأثر إلى حد كبير بالذكريات المرة التي كان يحملها الغربيون عن البسالة العسكرية المشهودة عند الأتراك والشعوب الإسلامية الأخرى)<sup>٥</sup>

وتحدث عن المؤامرات التي قسمت العالم الإسلامي، والتي حرمتها من وحدته التي استمرت قروناً طويلة، فقال: (الآن، بعد أن طويت المسافات بتقدم التقنية الغربية، وفي الوقت الذي تتنافس فيه طرق الحياة الغربية مع

(١) مختصر دراسة التاريخ، ٣ / ٧٣ - ٧٤.

(٢) مختصر دراسة التاريخ، ٣ / ٤٢.

(٣) مختصر دراسة التاريخ، ٢ / ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧.

(٤) مختصر دراسة التاريخ، ٣ / ٤١٨.

(٥) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ١٨.

طريقة الحياة الروسية لكسب ولاء البشرية كلها، الآن يظهر أن التقليد الإسلامي في أخوة الإنسان للإنسان هو مثل أعلى يوافق حاجات العصر الاجتماعية وهو أفضل من التقليد الغربي الذي أدى إلى قيام عشرات الدول الصغيرة ذات السيادة. وفي الواقع الحاضر الذي يجد الغرب نفسه فيه منذ الحرب العالمية الثانية، نرى أن تجزئته إلى أكثر من أربعين دولة مستقلة ذات سيادة يهدّد بأهتار البيت كله على من فيه، بسبب انقسامه هكذا على نفسه. ومن المأمول أن يستطيع العالم الإسلامي، على كل حال، إيقاف انتشار هذا الداء السياسي الغربي.. وذلك عن طريق الشعور الإسلامي القوي بالوحدة<sup>١</sup>

ويقول في نفس الموضوع موجهها نصحه للبلاد الإسلامية عموماً، والغربية خصوصاً: (ليس من الضروري للدول الإسلامية الأخرى أن تتبع تماماً الطريق التي سلكها (الرواد) الأتراك. هناك مثلاً الدول الإسلامية الناطقة بالعربية حيث اللغة المشتركة المتكلمة بلهجات مختلفة ولكنها تكتب بأسلوب أدبي لغوي واحد من شواطئ المحيط الأطلسي في مراكش إلى الحدود الغربية لإيران، ومن حلب والموصل في الشمال إلى الخرطوم وعدن ومسقط وزنجبار في الجنوب.. لأن اللغة العربية هي لغة الدين حتى في البلاد الإسلامية التي لا تتكلم العربية كلغة أصلية. فهل من الضروري حقاً أن يتفتت العالم العربي كما تفتت الإمبراطورية الإسبانية في أمريكا.. إلى عشرين دولة مستقلة عن بعضها تعيش في قوالب ضعيفة (غربية) النمط؟!.. هذا هو الوجه الثاني الكالح لحضارتنا الغربية، ومن المؤسف حقاً أن تقلده الشعوب الناطقة بالعربية تقليداً تاماً)<sup>٢</sup>

بل هو فوق هذا يتنبأ بأن العالم الإسلامي المفتت يمكنه في أي لحظة أن يستعيد وحدته، مستشهداً لذلك بالتاريخ، فيقول: (صحيح أن الوحدة الإسلامية نائمة، ولكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ إذا ثارت البروليتاريا العالمية للعالم المتغرب ضد السيطرة الغربية، ونادت بزعامة معادية للغرب، فقد يكون لهذا النداء نتائج نفسانية لا حصر لها في إيقاظ الروح النضالية للإسلام، حتى ولو أنها نامت نومة أهل الكهف، إذ يمكن لهذا النداء أن يوقظ أصداء التاريخ البطولي للإسلام. وهناك مناسبتان تاريخيتان كان الإسلام فيهما رمز سمو المجتمع الشرقي في انتصاره على الدخيل الغربي: ففي عهد الخلفاء الراشدين، بعد الرسول حرر الإسلام سوريا ومصر من السيطرة اليونانية التي أثقلت كاهلهما مدة ألف عام تقريباً. وفي عهد (نور الدين) و(صلاح الدين) و(المماليك) احتفظ الإسلام بقلعته أمام هجمات الصليبيين والمغول. فإذا سببه الوضع الدولي الآن حرباً عنصرية، يمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخي مرة أخرى)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن القيم الاجتماعية النبيلة التي يحملها الإسلام، والتي تجعل له الريادة في حل أعوص المشاكل الاجتماعية، فيقول: (إن باستطاعتنا أن نميز بعض مبادئ الإسلام التي إذا طبقت في الحياة الاجتماعية للبروليتاريا العالمية الحديثة، يمكن أن تأتي بنتائج حسنة مفيدة لهذا المجتمع الكبير في المستقبل القريب. هناك مصدران ظاهران من مصادر الخطر، الأول نفسي والثاني مادي في العلاقات الحاضرة بين البروليتاريا العالمية

(١) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ٢٨.

(٢) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ٢٩ - ٣٠.

(٣) الإسلام والغرب والمستقبل ص ٧٣٩.



وبين الفئة الحاكمة في مجتمعنا الغربي، ومصدر الخطر هذان هما (١) التمييز العنصري، (٢) الخمر. وفي مجال الصراع ضد هذين الشرين نجد للفكر الإسلامي دوراً يؤديه ويبرهن فيه - إذا سُمح له بتأدية هذا الدور - عن قيم اجتماعية وأخلاقية سامية. فعدم وجود التمييز العنصري بين المسلمين هو أحد أبرز الإنجازات الأخلاقية للإسلام، والعالم المعاصر في وضعه الراهن بحاجة ماسة لنشر هذه الفضيلة الإسلامية.. إن قوى التسامح العنصري ذات أهمية ضخمة للإنسانية وهي الآن، على ما يظهر، تخوض معركة خاسرة على الصعيد الفكري إلا أنها قد تتمكن من الغلبة إذا ساندها ونزل إلى جانبها في المعركة رصيد من النفوذ القوي المناضل الذي لم يزل حتى الآن احتياطياً. والذي أتصوره أن روح الإسلام ستكون التعزيز المناسب الذي سيقدر مصير هذه المعركة لمصلحة التسامح والسلام)<sup>١</sup>

وتحدث عن تأثير الإسلام في الحضارة الغربية عبر جسر الحروب الصليبية، فيقول: (لقد أسر الإسلام (المغلوب في الحروب الصليبية (غالبية)، وأدخل فنون الحضارة إلى حياة العالم المسيحي، وقد كانت حياة (لاتينية) صدمة وفي بعض حقول النشاط الإنساني، كهندسة البناء مثلاً، تغلغل التأثير الإسلامي في العالم المسيحي كله طيلة قرونه الوسطى، أما في صقلية والأندلس، فقد كان تأثير الدولة الغربية الجديدة فيهما بالإمبراطورية العربية القديمة أوسع شمولاً وأبعد غوراً)<sup>٢</sup>

وقال: (لعلنا نعجب لهذه الدرجة من الاحترام المتبادل التي أصبح كل من المتحارين من الفريقين الإسلامي والمسيحي يكنها للآخر. كما نعجب لهذا القدر من الزاد الثقافي الذي نشر به مسيحيو الغرب الوسيط عن هذا الطريق السوري.. حيث أصبحت فتوحات الصليبيين الموقته في سوريا، وفتوحاتهم الدائمة في صقلية والأندلس - على حساب دار الإسلام - محطات (إرسال) متعددة، أمكن عن طريقها نقل الكنوز الروحية إلى العالم المسيحي الغربي في العصور الوسطى. إن الجو التنظيمي القائم على التسامح الديني والتطلع الفكري الذي أسر - بعض الوقت - ألباب فاتحي بالرمو وطليلة من مسيحيي الغرب، بمقارنته بروح التعصب التقليدي فيهم، هذا الجو التنظيمي، كان أصيلاً في الإسلام في عهده الأول.. لقد تلقى مسيحيو القرون الوسطى في الغرب من معاصريهم علماء المسلمين، نتائج البحث الإسلامي)<sup>٣</sup>

وتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الغرب عبر جسر الأندلس، فقال: (ساهم علماء إسبانيا الإسلامية - عن غير قصد - في تشييد الصرح الفلسفي الذي أقامه فلاسفة المسيحية الغربية المدرسيون إبان العصور الوسطى. كما وصلت بعض مؤلفات الفيلسوف الهليني أرسطو، العالم المسيحي الغربي للمرة الأولى، عن طريق التراجم العربية. وصحيح كذلك أن كثيراً من المؤثرات الشرقية على الثقافة الغربية.. إنما وفدت في الحقيقة من إيريرا الإسلامية)<sup>٤</sup>

(١) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ٦٢، ٦٤.

(٢) الإسلام والغرب والمستقبل، ص ٣٤.

(٣) مختصر دراسة للتاريخ، ٣ / ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦.

(٤) مختصر دراسة للتاريخ، ١ / ٢٦٦ - ٢٦٧.

وتحدث عن عالمية الحضارة الإسلامية، وفتحتها على الحضارات المختلفة، فقال: (وفق الإسلام فيما فضل فيه سابقوه، لأنه استكمل عملية طرد الهلينية من العالم السوري. كما عاد فأدمج في الخلافة العربية، الدولة العالمية السورية التي اختزل الإسكندر الأكبر حياتها بقسوة قبل أن تستكمل رسالتها.. وأخيراً منح الإسلام المجتمع السوري بعد طول الانتظار، عقيدة دينية عالمية أصيلة. فعاود بذلك المجتمع السوري - بعد انقضاء قرون من توقف حيويته - على أن يسلم الروح وهو متأكد أنه لن يزول دون أن يخلف عقبا. إذ غدت العقيدة الإسلامية البريقة التي بزغت عنها في حينها الحضارتان العربية والإيرانية)<sup>١</sup>

ويتحدث عن اعتبار الحضارة الإسلامية - رغم تخلف المسلمين - منافسا خطيرا للحضارة الغربية، فيقول: (إننا لنجد للتقويم المسيحي وقت كتابة هذه السطور، السيادة على جميع العالم، ولا ينازعه مكانته سوى منافس خطير هو التقويم المهجري الإسلامي وما يزال اليهود بعنادهم المعروف يحسبون تقويمهم رسمياً على أساس تقديريهم بداية الخليفة)<sup>٢</sup>

قلت: بورك في هذا الرجل.. فهذه الشهادات لا يمكن إلا أن تصدر من عارف بالإسلام صادق في البحث عنه.

قال: صدقت.. وعسى الله أن ينفعه بما.. فالله لا يضيع عنده شيء.

### توماس كارلايل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (توماس كارلايل)<sup>٣</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا كاتب إنجليزي.. وهو أشهر من نار على علم.. وقد كتب عن رسولنا ﷺ كلاما يستحق عليه كل الشناء. فمن ذلك قوله في إثبات نبوة رسول الله ﷺ.. وهو منطوق لا يقل عن منطوق أي متكلم في العقيدة الإسلامية: (هل رأيتم قط.. أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً عجيباً.. إنه لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب! فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذي يبنيه بيت وإنما هو تل من الأنقاض وكثير من أخلاط المواد، وليس جديراً أن يبقى على دعائم اثني عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فيهدم فكأنه لم يكن. وإني لأعلم أن على المرء أن يسير في جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تجيب طلبته.. كذب ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى تخيلوه حقاً.. ومحنة أن ينخدع الناس شعوباً وأماً بهذه الأضاليل)<sup>٤</sup>

ويقول مؤكداً عدم وجود أي مصدر يمكن أن يستند إليه رسول الله ﷺ غير مصدر الوحي الإلهي: (إن محمداً لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً وكانت صناعة الخطّ حديثة العهد آنذاك في بلاد العرب، ويظهر لي أن

(١) مختصر دراسة للتاريخ، ١ / ٢٤١.

(٢) مختصر دراسة للتاريخ، ٣ / ١٠٤.

(٣) توماس كارلايل (١٧٩٥ - ١٨٨١) Th. Carlyle الكاتب الإنجليزي المعروف، من آثاره: (الأبطال) (١٩٤٠)، وقد عقد فيه فصلاً رائعاً عن النبي، (الثورة الفرنسية) وغيرها.

(٤) الأبطال، ص ٤٣.

الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة<sup>١</sup>، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العدم النهائية.. أنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب، ولم يبصره.. أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنياً عن كل ذلك. ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك في جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء - أولئك الذين أشبههم بالمصاييح الهادية في ظلمات الدهور - من كان بين محمد وبينه أدنى صلة وإنما نشأ وعاش وحده في أحشاء الصحراء.. بين الطبيعة وبين أفكاره<sup>٢</sup>

ويتحدث عن أوصاف رسول الله ﷺ والتي تحيل أن يكون مدعياً أو كاذباً، فيقول: (لوحظ على محمد منذ صباه أنه كان شاباً مفكراً وقد سمّاه رفقاًؤه الأمين - رجل الصدق والوفاء - الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره. وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة. وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لب.. وقد رأينا طول حياته رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريماً براً رؤوفاً تقياً فاضلاً حراً، رجلاً شديد الجِدِّ مخلصاً، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة، جمّ البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الإيناس، بل ربما مازح وداعب، وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق.. وكان ذكي اللب، شهم الفؤاد.. عظيماً بفطرته، لم تتفقه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غني عن ذلك.. فأدى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن دليل آخر لنبوة رسول الله ﷺ في غاية العمق، فيقول: (وما يبطل دعوى القائلين أن محمداً لم يكن صادقاً في رسالته.. أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة مع خديجة لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوي، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة.. ولم يكن إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذي كان هاجعاً وثار يريد أمراً جليلاً وشأنًا عظيمًا)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن إخلاص رسول الله ﷺ وعفافه وزهده، وهو من أكبر دلائل صدقه، فيقول: (لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفوات العظيم النفس، المملوء رحمة وخيرًا وحنانًا وبرًا وحكمة وحجى ونهى، أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه. وكيف وتلك نفس صامته كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين؟ فيبينما نرى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيروا

(١) وهي حقيقة تدل عليها كل الأدلة، فالله ﷻ وصف النبي بالأمية، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (لأعراف: ١٥٧)، وقال ﷻ: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (لأعراف: من الآية ١٥٨).. ولو لم يكن ﷻ أمياً لواجهه الجميع مكذبين هذا الزعم، وهو لم يحصل.

(٢) الأبطال، ص ٥.

(٣) الأبطال، ص ٥٠ - ٥١.

(٤) الأبطال، ص ٥١.

طبق اعتبارات باطلة. إذ ترى محمداً لم يرض أن يلتفت بالأكاذيب والأباطيل. لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات، لقد كان سرّ الوجود يسطع لعينه بأهواله ومخاوفه ومباهره، ولم يكن هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه، فكأنه لسان حال ذلك السرّ يناجيه: هاأنذا، فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهي مقدس، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة، فإذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية. وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول حفاء<sup>١</sup>

وهو لا يكتفي بتلك الشهادات، بل يصرح بحبه لرسول الله ﷺ.. وهو يعتبر ذلك الحب ضرورياً، فما في محمد ﷺ من صفات الكمال لا يحمل القلوب إلا على الحب، يقول: (إني لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرأي والتصنع. ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأي لا يعول إلا على نفسه ولا يدعي ما ليس فيه ولم يكن متكبراً ولكنه لم يكن ذليلاً، فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراده، يخاطب بقوله الحرّ المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم هذه الحياة وللحياة الآخرة. وكان يعرف لنفسه قدرها.. وكان رجلاً ماضي العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد)<sup>٢</sup>

وهو يرد بشدة وصدق وإخلاص على الذين يتصورون كذب رسول الله ﷺ، فيقول: (لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمداً، وحاشاه خداع مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتين مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا. أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفاتكة المحصر والإحصاء، كذبة وخدعة؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخلق)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن تصوره لحقيقة الإسلام، فتجد له من فهم حقيقة الإسلام ما يملؤك بالعجب، فيقول: (لا إله إلا الله، وحده لا شريك له) هو الحق، وكل ما خلاه باطل، خلقنا ويرزقنا.. إن الإسلام هو أن نسلم الأمر لله، ونذعن له، ونسكن إليه، ونتوكل عليه، وأن القوة كل القوة هي في الاستقامة لحكمته، والرضا بقسمته أياً كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة، ومهما يصينا به الله ولو كان الموت الزؤام فلتلقه بوجه مسوط ونفس معتبلة راضية ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو. ولقد قال شاعر الألمان (غيتته): (إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذن مسلمون). نعم كل من كان فاضلاً شريف الخلق فهو متخلق بأخلاق الإسلام، وإن لم يكن مسلماً.. إن من السخف أن يجعل الإنسان من دماغه الضئيل ميزاناً للعالم وأحواله. بل عليه أن يعتقد أن للكون قانوناً عادلاً، وإن غاب عن إدراكه، وأن الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود.. عليه أن يعرف ذلك

(١) الأبطال، ص ٥١ - ٥٢.

(٢) الأبطال، ص ٦٤.

(٣) الأبطال، ص ٤٢ - ٤٣.

ويعتقده ويتبعه في سكون وتقوى)<sup>١</sup>

ويتحدث عن إعجابيه بالقيم التي جاء بها الإسلام، فيقول: (في الإسلام حلة أراها من أشرف الخلال وأجلّها وهي التسوية بين الناس. وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأي. فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء. والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضاً حتماً على كل مسلم، وقاعدة من قواعد الإسلام ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل.. جميل والله هذا، وما هو إلا صوت الإنسانية، صوت الرحمة والإخاء والمساواة)<sup>٢</sup>

وهو يبحث قومه وغيرهم ليعرفوا قيمة الإسلام، والمعاني النبيلة التي يحملها، فيقول: (هذا الدين الإسلام فيه للمبصرين أشرف معاني الروحانية وأعلاها، فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه. ولقد مضى عليه مئتان وألف عام وهو الدين القويم الصراط المستقيم لخمس العالم. وما يزال فوق ذلك ديناً يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم. ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين بإسلامهم، إذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد.. وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترنّ آناء الليل وأطراف النهار في إرواء تلك الملايين الكثيفة. وأن الفقهاء ذوي الغيرة في الله والتفاني في حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والملايا ماليزيا فيهدمون أضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الإسلام، ونعم ما يفعلون)<sup>٣</sup>

ويتحدث عن الثمار العظيمة التي حققها الإسلام في فترة وجيزة، فيقول: (لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيا به من العرب أمة هامدة.. وهل كانت إلا فئة من جوالاة الأعراب حاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة فأرسل الله لهم نبياً بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فإذا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعفة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقاً، ووسع نوره الأنحاء.. وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل في الهند ورجل في الأندلس، وأشرقت دولة الإسلام حقبة عديدة ودهوراً مديدة بنور الفضل والنبيل والمروءة والبأس والنجدة، ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة. وكذلك الإيمان العظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة، وما زال للأمة رقي في درج الفضل.. مادام مذهبها اليقين ومنهاجها الإيمان)<sup>٤</sup>

أصابني انبهار شديد لما ذكره البابا عن هذا الرجل الفاضل من هذه الشهادات، فقلت: إن هذا ليس مجرد صديق.. إنه يكاد يكون أحبا لنا في الدين.. بل لا أشك أنه كذلك.. ولعله تأثر بمؤمن آل فرعون، فراح يكتنم لإيمانه ليتمكن من نصرة الإسلام، كما تمكن مؤمن آل فرعون من نصرة موسى.

قال البابا: صدقت.. فهو في نصائحه لقومه يحمل أريج تلك النفحات التي تحدث بها مؤمن آل فرعون. وقد أخبر مونتجومري وات عن تأثير تلك النصائح في الغرب، فقال: (منذ أن قام كارليل بدراسته عن

(١) الأبطال، ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) الأبطال، ص ٦٥.

(٣) الأبطال، ص ٦٦.

(٤) الأبطال، ص ٦٦ - ٦٧.

محمد في كتابه (الأبطال وعبادة البطل) أدرك الغرب أن هناك أسباباً وجيهة للاقتناع بصدق محمد. إذ إن عزيمته في تحمل الاضطهاد من أجل عقيدته، والخلق السامي للرجال الذين آمنوا به، وكان لهم بمثابة القائد، وأخيراً عظمة عمله في منجزاته الأخيرة، كل ذلك يشهد باستقامته التي لا تتزعزع. فاتهم محمد بأنه دجال Imposteur يثير من المشاكل أكثر مما يحلّ. ومع ذلك فليس هناك شخصية كبيرة في التاريخ حط من قدرها في الغرب كمحمد. فقد أظهر الكتاب الغربيون ميلهم لتصديق أسوأ الأمور عن محمد وكلما ظهر أي تفسير نقدي لواقعة من الوقائع ممكناً قبوله. ولا يكفي، مع ذلك، في ذكر فضائل محمد أن نكتفي بأمانته وعزيمته إذا أردنا أن نفهم كل شيء عنه. وإذا أردنا أن نصحح الأغلط المكتسبة من الماضي بصدده فيجب علينا في كل حالة من الحالات، لا يقوم الدليل القاطع على ضدها، أن نتمسك بصلافة بصدقه. ويجب علينا أن لا ننسى عندئذ أيضاً أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكناً وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه<sup>١</sup>

### لايتنر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (لايتنر)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من الباحثين الصادقين، وهو لا يقل عن صاحبنا السابق، فكلاهما انتدب ليدعو قومه إلى الإسلام. وسأذكر لك من شهادته ما يثبت لك ذلك:

لقد تحدثت عن أصالة رسالة النبي ﷺ.. بل هو يصرح أن ما كان يتلقاه محمد ﷺ وحي يوحى، فقال: (يقدر ما أعرف من ديني اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ليس اقتباساً بل قد (أوحى إليه به) ولا ريب بذلك طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم. وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان توضيحية الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، والإيمان القلوب الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وحفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد وأنه قد أوحى إليه)<sup>٣</sup>

وتحدثت عن الدور التصحيحي الذي جاء به رسول الله ﷺ للأديان المحرفة، فقال: (إن الديانة النصرانية التي ودّ محمد إعادتها لأصلها النقي كما بشر بها المسيح تخالف التعاليم السرية التي أذاعها بولس والأغلط الفظيعة التي أدخلها عليها شيع النصارى.. ولقد كانت آمال محمد وأمانيه أن لا تخصص بركة دين إبراهيم لقومه خاصة، بل تعم الناس جميعاً، ولقد صار دينه الوسطة لإرشاد وتمدن الملايين من البشر، ولولا هذا الدين للبشوا غرقى في التوحش والهمجية، ولما كان لهم هذا الإخاء المعمول به في دين الإسلام)<sup>١</sup>

(١) محمد في مكة، ص ٩٤.

(٢) لايتنر Lightner باحث إنكليزي، حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، وزار الأستانة عام ١٨٥٤، كما طوف بعدد من البلاد الإسلامية والتقى برجالها وعلمائها.

(٣) دين الإسلام، ص ٤ - ٥.

(١) دين الإسلام، ص ٥.

ويرد بصدق وإخلاص على شبهة تعدد زوجات رسول الله ﷺ، فيقول: (لما بلغ السنة الخامسة والعشرين من العمر تزوج امرأة عمرها (أربعون عاماً)، وهذه تشابه امرأة عمرها خمسون عاماً في أوربا، وهي أول من آمن برسالة المقدسة.. وبقيت خديجة معه عشرين عاماً لم يتزوج عليها قط حتى ماتت. ولما بلغ من العمر خمساً وخمسين سنة صار يتزوج الواحدة بعد الأخرى. لكن ليس من الاستقامة والصدق أن ننسب ما لا يليق لرجل عظيم صرف كل ذلك العمر بالطهارة والعفاف فلا ريب أن لزوجاته بسن الكبر أسباباً حقيقية غير التي يتشدد بها كتاب النصارى بهذا الخصوص، وما هي تلك الأسباب يا ترى؟ ولا ريب هي شفقتة على نساء أصحابه الذين قتلوا)<sup>١</sup>

وتحدث عن دلائل صدق النبوة، فقال: (مرة، أوحى الله تعالى إلى النبي وحياً شديداً المؤاخذاً لأنه أدار وجهه عن رجل فقير أعشى ليخاطب رجلاً غنياً من ذوي النفوذ، وقد نشر ذلك الوحي، فلو كان كما يقول أغبياء النصارى بحقه لما كان لذلك الوحي من وجود)<sup>٢</sup> وهو يدعو قومه لاحترام محمد ﷺ.. بل الإيمان به.. فيقول: (إني لأجهر برجائي بمجيء اليوم الذي به يحترم النصارى المسيح احتراماً عظيماً وذلك باحترامهم محمداً، ولا ريب في أن المسيحي المعترف برسالة محمد وبالحق الذي جاء به هو المسيحي الصادق)<sup>٣</sup>

وهو يتحدث عن عدم وجود الوسائط في الإسلام بين الله وعباده، فيقول: (كل مسلم قيم ومهيمن على دينه مباح له التكلم بخصوص الأمور الدينية فليس هو رقيقاً للمشايخ. يعبد الله وحده لا يحتاج إلى وسيط، وإنما كان متى أدركته أوقات الصلاة فهناك محل لعبادته، ولعلماء المسلمين الحرية التامة للاحتراف والاشتغال ولكن أكثر علمائهم يتعاطون تعليم الدين للناس. وأي مسلم يستطيع أن يقول: (إني بتسليم نفسي لإرادة الله) نائب عن الدين الذي علمه محمد. والحق يقال بأن كافة المسلمين في الدنيا مرشدون بهذا الهدى الاجتماعي)<sup>٤</sup> ويتحدث عن مزايا الشعائر الإسلامية المختلفة، فيقول: (الصلاة عمادها الطهارة والنظافة، ومعلوم أن النظافة من الإيمان والوضوء والصلاة هما أعمال دقيقة جداً وليس بإمكان أحد القسيسين أن يقول بحق أحد النصارى بأننا نستطيع تعلمها من أي مسلم نصادفه. وأما الزكاة فيحق لها أن تدعى (الصلاة النقدية).. ولكي تكون مقبولة عند الله فمن الواجب على المزكين أن يبينوا ملكيتهم لما وهبوه شرعاً ولا يجوز أن يكون فيه ما حرم كسبه.. وكل من يعطي فوق فريضة الزكاة فأجره على الله. والحج إلى مكة (المشرفة) مهم جداً لأنه يتكون منه اجتماع المسلمين من كافة أقطار العالم ويتأتى عنه التعارف والاتحاد، وهذا شيء ليس للنصارى فيه من نصيب. وفوق هذا فإنه من أقوى العوامل والأسباب على نشر العلم والآداب.. أما الصوم فهو تمرين يعتاده الإنسان وله نفع عظيم، كما أن الطهارة والنظافة معقولان، كذلك الصوم المتمم للأحوال الصحية التي يطلبها

(١) دين الإسلام، ص ١٢ - ١٣، وسنرى تفاصيل الرد على هذه الشبهة في رسالة (النبي المعصوم) من هذه السلسلة.

(٢) دين الإسلام، ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٣) دين الإسلام، ص ٦.

(٤) دين الإسلام، ص ٦.

الطبيب)<sup>١</sup>

ورد على شبهة (الاسترقاق)، فيقول: (إنا نرى الأغبياء من النصارى يؤاخذون دين الإسلام كأنه هو الذي قد سنَّ الاسترقاق، مع أن محمداً قد حضَّ على عتق الرقاب وهذه أسمى واسطة لإبطاله حقيقة)<sup>٢</sup> وتحدث عن مزايا التشريعات الإسلامية المختلفة، فقال: (الحق يقال إن الامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب المسكر واللحم الذي لم يحسن ذبحه، وإزالة كل مضرٍّ، وغير ذلك من الأشياء التي نهى عنها الإسلام، لمن أعظم الأمور النافعة للعاملين بها وليست لإتعامهم)<sup>٣</sup>

وقال: (في المساجد ترى المساواة التامة بين المصلين فلا يوجد فيها مقاعد خاصة بأحد، وأي إمام يمكنه أن يؤم المصلين. ولا يوجد منظر أجهج من منظر جماعة المسلمين يصلون وهم خاشعون صامتون)<sup>٤</sup> وقال: (إن الزواج عند المسلمين يجلِّ عما رماهم به كُتَّاب النصارى. والقول بأنه لا يوجد حد للزواج والطلاق عند المسلمين غير صحيح، والطلاق عندهم ليس هو بالأمر الهين، فعدا عن وجود المحكمين فعلى الرجل أن يدفع صداقها المسمى عند إجراء العقد وهذا غالباً يكون فوق ما يقدر زوجها على إيفائه بسهولة، فمركز المرأة بالإسلام قوي مؤمَّن من الطلاق. إن النصارى والبوذيين يرون الزواج أمراً روحياً ومع ذلك نرى عقدة النكاح محترمة عند المسلمين أكثر مما هي محترمة في البلاد المسيحية.. ويسوعي أن أذكر ما ليس لي مناص من ذكره وهو أنني سكنت بين المسلمين أربعاً وخمسين عاماً ابتداءها سنة ١٨٤٨ فمع وجود التساهل في أمر الطلاق عندهم وعسره عند النصارى، فقد وقع حوادث طلاق عند النصارى أكثر مما وقع عند المسلمين بكثير. وإني أقول الحق بأن الشفقة والإحسان عند المسلمين نحو عيالهم والغرباء والمستنِّين والعلماء لمثال مجدٍ يجب على النصارى أن يقتدوا به)<sup>٥</sup>

ويرد على شبهة تعدد الزوجات، فيقول: (أما تعدد الزوجات.. فإننا بقطع النظر عن منافعها الحقيقية، لأنه يقلل النساء الأماكن التي هن فيه أكثر من الرجال، وبقطع النظر عن أنه يقلل وجود المومسات وأضرارهن، ويمنع مواليد الزنا، فلا يمكننا أن ننكر بأن أكثر المسلمين ذو زوجة واحدة والسبب في ذلك هو تعليم دين الإسلام لقد أتى محمد بين أمة تعد ولادة الأنثى شراً عظيماً عليهم وهكذا كانوا يثدونها، ولم يكن للرجال حد يقفون عنده من جهة الزواج وكانوا يعدون النساء من جملة المتاع ويرثونها من بعد موت بعلها. فجعل لهذه الحالة حداً فلا يقدر الرجل أن يتزوج بأكثر من أربع نساء بشرط المساواة بينهما في كل شيء حتى بالحياة والوداد، فإن لم يكن قادراً على كل ذلك فلا يباح له بأن يتزوج غير واحدة. ومن يتدبر شريعته يرى أنه قد حضَّ على الزواج بامرأة واحدة، ولقد رفع مقام المرأة ورفاهها رفقاً عظيماً، فإنها بعد ما كانت تعد كمتاع مملوك

(١) دين الإسلام، ص ٧ - ٨.

(٢) دين الإسلام، ص ٧، وسنرى الرد المفصل على هذه الشبهة في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

(٣) دين الإسلام، ص ٨.

(٤) دين الإسلام، ص ٩.

(٥) دين الإسلام، ص ١٠ - ١١.



صارت مالكة، وحكمها مؤيد وحقوقها محفوظة)<sup>١</sup>

ويتحدث عن الآثار الصحية للشرائع المرتبطة بالزواج في الإسلام، فيقول: (أما بخصوص الرهبانية فليس لها وجود في الإسلام، وتكاد لا ترى امرأة غير متزوجة، وقصاص الزنا متساو فيه الرجل والمرأة.. والشريعة الإسلامية لا تسمح بإهانة أولاد المملوكة، وهم يرثون أبناءهم مع أولاد السيدة.. وليس في الإسلام محلات للفاجرات ولا قانون يبيح انتشار المومسات. ومسامرات المسلمين العمومية خير مما هي في أوروبا. ومسامرات شبان المسلمين في المدارس خير وأظهر من مسامرات شباننا.. والحق أولى أن يقال فإن كثيراً من كلام شبان الإنكليز لو قاله أحد في بلاد المسلمين لنال قاتله القصاص الصارم. وللمرأة المسلمة مركز شرعي خير من مركز المرأة الإنكليزية بكثير)<sup>٢</sup>

سكت البابا، فلم أملك إلا أن أقول: ما هذا إلا مؤمن آخر من آل الإنجليز يكتنم إيمانه.  
قال: صدقت.. فالحب الذي تمتلئ به هذه الشهادات يستحيل أن يكون منبعه اللسان الجرد.

### هربت جورج ولز:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (هربت جورج ولز)<sup>٣</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل لا يقل عن أخويه (كارلايل) و(لابتتر) حماسة وصدقا، فقد مارس هو الآخر ما يمارسه كل متكلم مسلم من الدفاع عن نبيه وإسلامه.

فمن شهادته قوله في بيان دليل عميق من أدلة نبوة رسول الله ﷺ: (هل تراك علمت قط أن رجلاً على غير كريم السجايا مستطيع أن يتخذك صديقاً؟ ذلك أن من عرفوا محمداً أكثر من غيرهم، كانوا أشد الناس إيماناً به. وقد آمنت به خديجة كل حياته على أنها ربما كانت زوجة محبة. فأبو بكر شاهد أفضل وهو لم يتردد قط في إخلاصه. كان يؤمن بالنبي ومن العسير على أي إنسان يقرأ تلك الأيام إلا يؤمن بأبي بكر، وكذلك علي فإنه خاطر بحياته من أجل النبي في أحلك أيامه سواداً)<sup>٤</sup>

ومن شهادته شهادته حول سمو القيم التي نادى بها رسول الله ﷺ: (حجّ محمد حجة الوداع من المدينة إلى مكة، قبل وفاته بعام، وعند ذاك ألقى على شعبه موعظة عظيمة.. إن أول فقرة فيها تجرف أمامها كل ما بين المسلمين من نهب وسلب ومن ثارات ودماء، وتجعل الفقرة الأخيرة منها الزنجي المؤمن عدلاً للخليفة.. إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنما لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها

(١) دين الإسلام، ص ١١.

(٢) دين الإسلام، ص ١٤ - ١٥.

(٣) هربت جورج ولز (١٨٦٦ - ١٩٤٦) H. G. Wells الكاتب والأديب البريطاني المعروف. حصل على بكالوريوس العلوم سنة ١٨٨٨، تولى التدريس بضع سنين ثم انصرف للتأليف. اشتهر بقصصه الذي يعتمد الخيال العلمي من مثل (آلة الزمن) و(الرجل الخفي)، فضلاً عن رواياته النفسية والاجتماعية من مثل (ميكا فيللي الجديد) و(الزواج). ولم يغفل ولز البحث في التاريخ فأجّز عام ١٩٢٠ (معالم تاريخ الإنسانية) وأعقبه (موجز تاريخ العالم). وكان آخر كتاب أصدره هو (العقل في أقصى تواتراته) (١٩٤٤). ولولز كتاب في السيرة الذاتية بعنوان: (تجربة في كتابة السيرة الذاتية).

(٤) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٣٩.

إنسانية السمة ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يقل ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي، عما في أي جماعة أخرى سبقتها<sup>١</sup>

ومن شهادته حول الثمار العظيمة التي حققها الإسلام على مستوى العالم أجمع: (لقد منح العرب العالم ثقافة جديدة، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم أما الرجل الذي أشعل ذلك القبس العربي فهو محمد)<sup>٢</sup>

ومن شهادته حول عملية التصحيح التي قام بها الإسلام نحو غيره من الديانات: (ناهض الإسلام مسيحية القرن السابع الفاسدة، وتقاليد الجوس الزرادشت المنحلة.. فلا مجال هناك لإنكار أن الإسلام يتميز بصفات كثيرة نبيلة)<sup>٣</sup>

ومن شهادته حول مصادر قوة الإسلام مقارنة بغيرها من الديانات: (هذا الإلحاح على الرفق والرعاية في الحياة اليومية إنما هو واحد من فضائل الإسلام الكبرى بيد أنه ليس الفضيلة الوحيدة فيه. ويعادل هذا في الأهمية التوحيد الذي لا هوادة فيه، والذي يتجرد من كل اعتزال يهودي، وهو توحيد يدعمه القرآن الكريم. وكان الإسلام منذ البداية قوي المقاومة إلى حد بعيد لعمليات الصقل والتفاخر اللاهوتية التي أربكت المسيحية وفرقت كلمتها وقضت على روح عيسى وكان مصدر قوته الثالث في وصفه الدقيق لطرائق الصلاة والعبادة وبيانه الصريح عن المغزى المحدود العربي للأهمية المنسوبة إلى مكة. وأقل دون المؤمنين باب كل قربان، ولم يترك سم خياط مفتوحاً ينفذ منه كاهن القربان في الغفران القديم إلى مسرح العقيدة الجديدة.. ولا يزال للإسلام حتى يومنا هذا فقهاء ومعلمون ووعاظ، ولكن ليس له كهنة ولا قساوسة)<sup>٤</sup>

ومن شهادته حول تسامح الإسلام: (كان الإسلام مليئاً بروح الرفق والمساحة والأخوة، وكان عقيدة سهلة يسيرة الفهم.. وقد وقفت ضده اليهودية وهي التي أخذت من الرب كترًا تكثره بيمينها، ثم المسيحية، وهي تتكلم وتبشر آنذاك وبلا نهاية بالتثليث والمبادئ والمهرطقات التي لم يكن ليستطيع أي رجل عادي أن يميز فيها الرأس من الذنب، كما حاربت المزدكية نحلة الجوس الزرادشتيين الذين أوحوا بصلب ماني. ولم تكن كتلة الناس الذين جاءهم دعوة الإسلام وتحمده، يهتمون إلا بشيء واحد هو أن ذلك الرب (الله) سبحانه، الذي كان يبشر به الرسول، كان بشهادة الضمير المنطوية عليه قلوبهم، رب صلاح وبرٍّ وأن القبول الشريف لمبادئه وطريقته يفتح الباب على مصراعيه - في عالم تقلقل وحيانة وانقسامات لا تسامح فيها - على أخوة عظيمة متزايدة من رجال جديرين بالثقة في الأرض.. وقد أوصل محمد مبادئه الجذابة إلى سويداء قلوب البشرية، دون أي رمزية مبهمه ودون أي تعميم للهياكل ولا ترتيب للقسوس)<sup>٥</sup>

ومن شهادته حول صفاء التوحيد في الإسلام، وخلوه من كل شوائب الشرك: (يحتوي الإسلام..

(١) معالم تاريخ الإنسانية: ٣ / ٦٤٠ - ٦٤١.

(٢) موجز تاريخ العالم، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٣) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٤٠.

(٤) معالم تاريخ الإنسانية، ص ٣ / ٦٤٢.

(٥) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٤٢.

الشيء الكثير من القوة والإلهام. فمن خصائصه التوحيد الذي لا هوأدة فيه، وإيمانه البسيط المتحمس بحكم الله للناس.. وخلوه من التعقيدات اللاهوتية. ومن خصائصه كذلك أنه منفصل تمام الانفصال عن كاهن القرايين ومعبدها، وهو بمأمن حصين من كل انزلاق نحو القرايين الدموية. والقرآن حين يذكر طبيعة الحج إلى مكة بصورة محددة واضحة الشعائر، إنما يجعلها بمأمن من كل احتمال للتراخ في شأها. كما أن النبي اتخذ كل احتياط ليحول دون تأليهه بعد مماته. وثمة عنصر ثالث للقوة يكمن في إصرار الإسلام على أن المؤمنين جميعاً متساوون تماماً أمام الله، مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أو مراكزهم. هذه هي الأمور التي جعلت الإسلام قوة فعالة في الشئون الإنسانية<sup>١</sup>

ومن شهادته شهادته حول أخلاقية الفتوحات الإسلامية: (أنشأ أبو بكر بذلك الإيمان الراسخ الذي يزحج الجبال ينصب نفسه في بساطة وحسن تبصر، لتنظيم إخضاع العالم بأسره لله، بجيوش صغيرة من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف عربي، بناء على تلك الرسائل التي بعث بها النبي من المدينة إلى ملوك العالم.. والحملات العسكرية التي بدأت عند ذلك، من ألمع ما خلد تاريخ العالم.. وكان المسلمون في كل مكان يخبرون الناس بين أشياء ثلاثة: فيما أن تدفع الجزية، وإما أن تسلم بالله الحق وتنضم إلينا، وإما أن تقاتل.. ولم يحدث في أي مكان شيء اسمه المقاومة الشعبية.. فإن فاضل الناس بين البلاط الفارسي وبين العرب، كان العرب - أعني عرب السنين العظيمة - أنظف الطرفين وأطهرهما بشكل ظاهر، وكانوا أكثر عدالة وأوسع رحمة. وانضم العرب المسيحيون دون تردد إلى الغزاة كذلك انضم إليهم كثير من اليهود. وكما كان الحال في الغرب كان كذلك في الشرق إذا استمر الجهاد الإسلامي لنشر الإسلام)<sup>٢</sup>

ومن شهادته شهادته حول الدور التحريري الذي قام به الإسلام: (استطاع الجنس السامي في بضع سنين باسم الله ورسوله أن يسترد تقريباً كل الأملاك التي خسرها للفرس الآريين قبل ذلك بألف سنة، وسقط بيت المقدس مبكراً.. وكان النصرارى يعمون بالتسامح في مقابل دفع الجزية فقط، وتركت الكنائس بأسرها والآثار المقدسة بأجمعها في حوزتهم)<sup>٣</sup>

ومن شهادته شهادته حول سر انتشار الإسلام، وتمكين الله له في الأرض: (لقد ساد الإسلام لأنه كان خير نظام اجتماعي وسياسي استطاعت الأيام تقديمه. وهو قد انتشر لأنه كان يجد في كل مكان شعوباً بليدة سياسياً، تسلب وتظلم وتخوف ولا تعلم ولا تنظم، كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أي شعب أصالة. كان أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية اتخذت سمة النشاط الفعلي في العالم حتى ذلك اليوم، وكان يهب بني الإنسان نظاماً أفضل من أي نظام آخر. وكان النظام الرأسمالي الاسترقاقي في الإمبراطورية الرومانية، والأدب والثقافة والتقاليد الاجتماعية في أوروبا قد انحلت انحلالاً تاماً وانهارت قبل أن

(١) موجز تاريخ العالم، ص ٢٠٢.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٤٣، ٦٤٤ - ٦٤٥.

(٣) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٤٧.

ينشأ الإسلام<sup>١</sup>

ومن شهادته شهادته حول المنجزات العظيمة التي حققها رسول الله ﷺ في فترة وجيزة: (كان الذهن العربي قبل محمد ببضعة أجيال متقدماً بنار تسري تحت الرماد، فكان يخرج الشعر والشيء الكثير من الجدل الديني، وما لبث ذلك العقل.. حتى تأجج في تألق لا يفوقه إلا ما كان للإغريق في أزهى عصورهم. فأحيا من جديد تأثر الإنسان للعلم. فلئن كان الإغريقي أباً للطريقة العلمية، فقد كان العربي "شبيهاً" لها وشريكاً له في أبوئها. فمن العرب، وليس بوساطة الأرومة اللاتينية، تلقى العالم العصري تلك المنحة من النور والقوة)<sup>٢</sup> وقال: (جاء من الصحراء العقل العربي الغفل، متوقداً مستطعاً، فاستوعب كثيراً ورفع قيمة ما تعلم بزيادته قدراً وتحسينه نوعاً. تعلم كثيراً واستوعب كثيراً)<sup>٣</sup>

وقال: (سبق العالم الإسلامي الغرب بقرن أو ما يقاربه، إذ نمت به سلسلة من الجامعات العظيمة، فأضاء نورها تلك الجامعات خارج العالم الإسلامي إلى مسافات بعيدة، واجتذب إليها الطلاب من الشرق والغرب)<sup>٤</sup> وقال: (لقد قذفت المقادير بالذكاء العربي في طول العالم وعرضه بصورة أسرع وأروع مما فعلت بالعقل اليوناني قبل ذلك بألف سنة حلت. لذا عظمت إلى أقصى حد الاستثارة الفكرية التي أحدثتها وجودهم للعالم أجمع غربي بلاد الصين، كما اشتدّ تمزيق الأفكار القديمة وتطور أخرى جديدة.. وكان العلم يثب على قدميه وثباً في كل موضع وطنته قدم الفاتح العربي)<sup>٥</sup>

وقال: (عثر علماء العرب من الكيميائيين على مناهج العلم التجريبي الذي يوشك في خاتمة المطاف أن يمنح الإنسان سلطاناً لا حدّ له على العالم كله، بل وعلى مصائره هو نفسه)<sup>٦</sup> سكت البابا، فقلت: إن هذا الرجل لا تنقصه إلا شهادة واحدة ليصبح من المسلمين. ابتسم البابا، وقال: ومن ذكر لك بأنه لم ينطقها.

قلت: هل أشهر إسلامه.. في أي بلد تم ذلك.. وأمام أي إمام؟

قال: قد يكون أشهر إسلامه في حقل من الحقول، أو جبل من الجبال، أو واد من الأدوية..

قلت: والإمام؟!

قال: الملائكة.. والجن الصالحون.. وكل ذرة في تراب الأرض، وفي جو السماء.. ألا يكفي هؤلاء جميعاً

شهوداً على الإيمان؟

**د. لويس يونغ:**

(١) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٤٩.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٦٢.

(٣) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٦٣.

(٤) معالم تاريخ الإنسانية، ٣ / ٦٦٤.

(٥) معالم تاريخ الإنسانية، ص ٢٠٩.

(٦) موجز تاريخ العالم، ص ٢٠٦.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (د. لويس يونغ)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل عني بشمرات النبوة ومنجزاتها، وله شهادات صادقة في ذلك:

منها شهادته حول التأثير العظيم الذي أحدثه الإسلام في نفوس العرب، وفي حياتهم.. قال: (لقد كان ظهور الإسلام في الجزيرة العربية خيراً عظيماً ساقه الله إلى العرب قاطبة. ولكنه لم يشكل انفصلاً عن ماضي هذه الجزيرة. لقد غير في ثقافة معاصريه بشكل فوري، ولكنه لم يطمس تماماً تلك الثقافة)<sup>٢</sup>  
وقال: (فجر الإسلام في العرب طاقات حماس كامنة، وحدثت متنفسها في إقامة إحدى الإمبراطوريات العظمى في العالم)<sup>٣</sup>

وتحدث عن شمولية الشريعة الإسلامية، فقال: (بدأ القانون كتطبيق عملي للدين وللعلاقات الاجتماعية التي سنّها النبي محمد، وهي لا تفرق بين موضوعي الدين والدنيا، ودراسة القانون عند المسلمين تعرف بالفقه (حرفياً: الفهم). وتعتمد هذه الدراسة أساساً على القرآن، ثم الحديث (كلام النبي محمد وأفعاله) ويصف السير هاملتون جب<sup>٤</sup> بنیان هذا القانون بأنه (أحد الأبحاث الفذة للفكر البشر)<sup>٥</sup>

وتحدث عن التسامح الإسلامي، فقال: (على الرغم من سجل أوروبا الطافح بالتزمت الفكري واللاتسامح الديني، على النقيض من المسلمين، فإنها ظلت ترفض الاعتراف بما للعرب من يد طولى على حضارتها وتتجاهل دورهم الحضاري وتقلل من شأنه)<sup>٦</sup>

وقال: (إن التسامح الديني الذي مارسه الإسلام في القرون الوسطى، يفوق التسامح الديني الذي مارسه المسيحية في القرون الوسطى، حيث كاد ألا يكون هناك أي تساهل ديني مع اليهود أو المسلمين والآخرين الذين خضعوا لسلطان المسيحية)<sup>٧</sup>

وقال: (في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين نشأ مظهر آخر للتتمثيل الدبلوماسي بين العرب وأوروبا تجلّى في منح الامتيازات وحق السكن للأجانب، وليس هذا بغريب على العرب. وكان هؤلاء الأجانب يستثنون من الأنظمة والقوانين المعمول بها محلياً. كما يسمح لهم بالعيش وفق أنظمتهم في بلادهم. يقولون إن القانون يطبق على الأفراد وليس بحسب وجودهم في الأرض الإسلامية وإنما بحسب انتمائهم القومي والديني. فالشريعة الإسلامية تطبق على المسلمين. وهذا ما يفسر التسامح الديني للمسلمين تجاه الأقلية المسيحية واليهودية التي سمح لها بممارسة حياتها الخاصة)<sup>٨</sup>

(١) د. لويس يونغ Lewis Young باحث إنكليزي، معاصر، وأستاذ جامعي، له العديد من المؤلفات والأبحاث، أبرزها كتاب: (العرب وأوروبا).

(٢) العرب وأوروبا، ص ٢٩ - ٣٠.

(٣) العرب وأوروبا، ص ٣٢.

(٤) (Mohammedanism, P. ٩٠ (London,, ١٩٥٣)

(٥) العرب وأوروبا، ص ٣٧ - ٣٨.

(٦) العرب وأوروبا، ص ٩.

(٧) العرب وأوروبا، ص ٥١.

(٨) العرب وأوروبا، ص ١٦١.

وقال: (إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية منها نظرة العرب المتسامحة وعدم تمييزهم فروق الدين والعرق واللون)<sup>١</sup>

وتحدث عن تأثير الإسلام في هضمة أوروبا، فقال: (نحن حينما نسلم اليوم أن آسيا وأفريقيا تتمثلان أوروبا قدوة لهما، يجب ألا ننسى الوجه الآخر للصورة في العصور الوسطى عندما عكفت أوروبا على علوم العرب من طب وفلسفة وطبيعة واستمر ذلك لفترة طويلة. حتى إذا كان القرن الثامن عشر قبست منهم نار الرومانطيقية، وفي القرن التاسع عشر سلبتهم أراضيهم، ثم بتروهم في القرن العشرين)<sup>٢</sup>

وقال: (ما الذي تركته حضارة العرب والمسلمين في أوروبا؟ لقد تركت بصماتها على جميع المستويات ابتداء بالفولكلور.. وانتهاء بالعلوم حيث يستخدم ملاحو الفضاء اصطلاحات عربية مثل السم *Asimuth* وسمت الرأس *Senith*. وهناك في خرائط القمر أكثر من موقع أطلق عليها أسماء لبعض العلماء العرب كالزركلي والبستاني وأبي الفداء. إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية)<sup>٣</sup>

وقال: (نفذ المسلمون بمعارفهم عن العالم القديم إلى الأوروبيين ونقلوا إليهم كشوفهم واختراعاتهم التي أضافوها إلى تلك المعارف)<sup>٤</sup>

وقال: (إن تطوير المسلمين للتراث اليوناني هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافي في العالم. وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة. ويجب ألا تغيب عن ذهننا - إذ نناقش ونقيم الحضارة الإسلامية - تلك الأفكار المبدعة التي جاءت من الجزيرة العربية مع الإسلام وقبله، واستطاع المسلمون أن يمزجوا بها التراث اليوناني فيصنعوا من ذلك لوثاً جديداً سباقاً فريداً)<sup>٥</sup>

وقال: (هناك أدلة واضحة تشير إلى أن مؤسسة (الجامعة) هي من المبتكرات الخالصة للحضارة العربية، وخلافاً لهذه الأدلة يحجم الكثير من المؤرخين الغربيين عن الإقرار بأن وجود الشبه بين الجامعات في البلاد العربية وأوروبا لم يكن مجرد صدفة. رغم أن أحداً منهم لا يجادل في الحقيقة الثابتة القائلة بأن أكثر الكتب الجامعية التي كانت تدرس في جامعات أوروبا إنما هي كتب مترجمة عن العربية في القرون الوسطى. وإذا لم يكن هناك برهان آخر على التأثير الثقافي للحضارة الإسلامية في أوروبا المسيحية فيكفي أن ننوه بالارتباط الوثيق جداً بين الجامعات الأوروبية نفسها وبين الثقافة الإسلامية، تلك الثقافة التي أمدت الجامعات الأوروبية بالكتب الدراسية. وتدل بعض الحقائق على أن القرون الوسطى للإسلام مهّدت لنشوء الجامعات في أوروبا الوسطى. فقد نشأت الجامعات العربية وعملت قبل قيام الجامعات في أوروبا بأكثر من قرن.. وقد لعبت الأخيرة حين ظهورها دوراً مماثلاً لمثيلاتها في البلاد العربية.. ومازالت بقايا هذا النظام الجامعي متبعة في جامعات أو كسفورد ولينكن واستر وهارتفورد.. إلخ.. ووجه الشبه الآخر بين الجامعات العربية والأوروبية تمثل

(١) العرب وأوروبا، ص ١٠.

(٢) العرب وأوروبا، ص ٩.

(٣) العرب وأوروبا، ص ١٠.

(٤) العرب وأوروبا، ص ١٢.

(٥) العرب وأوروبا، ص ٣٦.

في التقليد القاضي بلباس أردية خاصة للأساتذة خلال المحاضرات، أو لبعض الأعمال الإدارية، وأن الرداء الجامعي المميز عادة متبعة في أهم مراكز التعليم في البلاد العربية قبل أن يصبح عادة في الجامعة الأوروبية<sup>١</sup>

## مونتجومري وات:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مونتجومري وات)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من كبار المستشرقين.. وقد كتب كتباً كثيرة عن رسول الله ﷺ.. وهو — ككثير من المستشرقين — قد تغلب عليه نفحات الصدق، فينطق بالحكمة، وقد تغلب عليه رياح الأهواء.. فينطق بما يرضي قومه. قلت: فاذكر لي من صدقه ما نقلته عنه.

قال: من ذلك شهادته حول القرآن وما في القرآن من الحكمة، لقد قال: (يعتبر القرآن قلائل العصر نتيجة أسباب دينية بالرغم من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وأنه لا يمكن تقويمها إلا باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء. وإنه لمن الجرأة الشك في حكمة القرآن نظراً لنجاح محمد في تبليغ الرسالة التي أمره الله بتبليغها)<sup>٣</sup>

وقد تحدث عن استحالة المصدر البشري للقرآن، فقال: (يجب علينا في رأيي، مهما كان موقفنا الديني، أن نعتبر رسالة القرآن انبثاقاً خلاقاً في الوضع المكّي. ولا شك أنه كانت توجد مشاكل تتطلب الحل، وأزمات حاول البعض تخفيفها، ولكن كان يستحيل الانتقال من هذه المشاكل وتلك الأزمان إلى رسالة القرآن بواسطة التفكير المنطقي.. ولا شك أن رسالة القرآن تحل مشاكل اجتماعية وأخلاقية وفكرية، ولكن لا تحلها جميعاً دفعة واحدة وليس بصورة بديهية. ولربما قال مؤرخ دنيوي أن محمداً وقع صدفة على أفكار كانت بمثابة المفتاح لحل المشاكل الأساسية في زمان ليس هذا ممكناً. ولا يمكن للمحاولات التجريبية ولا للفكر النافذ أن يفند لنا

(١) العرب وأوروبا، ص ١٣٠.

(٢) مونتجومري وات Montgomery, Watt ولد في كريس فايف في ١٩٠٩ درس في كل من أكاديمية لارخ ١٩١٤-١٩١٩ وفي كلية جورج واتسون بإدنبرة وجامعة أدنبرة ١٩٢٧-١٩٣٠ وكلية بالبول بأكسفورد ١٩٣٠-١٩٣٣ وجامعة جينا بألمانيا ١٩٣٣ وجامعة أكسفورد وجامعة أدنبرة في الفترة من ١٩٣٨-١٩٣٩ و١٩٤٠-١٩٤٣ على التوالي. عمل راعياً لعدة كنائس في لندن وفي أدنبرة ومتخصص في الإسلام لدى القس الأنجليكاني في القدس، وعمل رئيساً لقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة أدنبرة في الفترة من ١٩٤٧-١٩٧٩. نال درجة الأستاذية عام ١٩٦٤. دعي للعمل أستاذاً زائراً في كل من الجامعات الآتية: جامعة تورنتو ١٩٦٣ و١٩٧٨ وكلية فرنسا في باريس عام ١٩٧٠ وجامعة جورجتاون بواشنطن عام ١٩٧٨-١٩٧٩.

أصدر العديد من المؤلفات من أشهرها: (محمد في مكة) و(محمد في المدينة) و(محمد نبي ورجل دولة) و(الفلسفة الإسلامية والعقيدة) و(الفكر السياسي الإسلامي) و(تأثير الإسلام في أوروبا القرون الوسطى) و(الأصولية الإسلامية والتحديث) و(العلاقات الإسلامية النصرانية) ومن آخر كتبه (حقيقة الدين في عصرنا) (١٩٩٦) وكتاب (الفترة التكوينية للفكر الإسلامي) (١٩٩٨) و(موجز تاريخ الإسلام) (١٩٩٥) وغيرها كثير.

وقد ختم حياته بأن عمل راعياً لإحدى الكنائس في منطقة إدنبرة.

(٣) محمد في مكة، ص ١٣٥.

كما يجب رسالة القرآن<sup>١</sup>

وتحدث عن قوة الدواعي المثبتة لصدق رسول الله ﷺ، فقال: (هناك - على العكس - أسباب قوية تؤكد صدق (محمد) ونستطيع في مثل هذه الحالة الخاصة أن نبليج درجة عالية من اليقين، لأن النقاش حول هذه المسألة.. يعتمد على وقائع ولا يمكن أن يتضمن خلافاً في التقدير حول الأخلاقية)<sup>٢</sup>

وتحدث عن الصفات التي استطاع بها رسول الله ﷺ أن يحقق كل تلك المنجزات، فقال: (ليس توسع العرب شيئاً محتوماً أو آلياً وكذلك إنشاء الأمة الإسلامية. ولولا هذا المزيج الرائع من الصفات المختلفة الذي نجده عند محمد لكان من غير الممكن أن يتم هذا التوسع، ولاستنفذت تلك القوى الجبارة في غارات على سوريا والعراق دون أن تؤدي لنتائج دائمة. ونستطيع أن نميز ثلاث هبات مهمة أوتيتها محمد. وكانت كل واحدة منها ضرورية لإتمام عمل محمد بأكمله. لقد أوتي أولاً موهبة خاصة على رؤية المستقبل. فكان للعالم العربي بفضل الوحي الذي يتزل عليه حسب رأي المسلمين، أساس فكري (إيديولوجي) حلت به الصعوبات الاجتماعية، وكان تكوين هذا الأساس الفكري يتطلب في نفسه الوقت حدساً ينظر في الأسباب الأساسية للاضطراب الاجتماعي في ذلك العصر، والعبقورية الضرورية للتعبير عن هذا الحدس في صورة تستطيع إثارة العرب حتى أعماق كيافها.. وكان محمد ثانياً رجل دولة حكيماً. ولم يكن هدف البناء الأساسي الذي نجده في القرآن، سوى دعم التدابير السياسية الملموسة والمؤسسات الواقعية. ولقد ألحنا خلال هذا الكتاب غالباً على استراتيجية محمد السياسية البعيدة النظر على إصلاحاته الاجتماعية ولقد دلل على بعد نظره في هذه المسائل الانتشار السريع الذي جعل من دولته الصغيرة إمبراطورية، وتطبيق المؤسسات الاجتماعية على الظروف المجاورة واستمرارها خلال أكثر من ثلاثة عشر قرناً. وكان محمد ثالثاً رجل إدارة بارعاً، فكان ذا بصيرة رائعة في اختيار الرجال الذين يندمجهم للمسائل الإدارية. إذ لن يكون للمؤسسات المتينة والسياسة الحكيمة أثر إذا كان التطبيق خاطئاً متردداً. وكانت الدولة التي أسسها محمد عند وفاته، مؤسسة مزدهرة تستطيع الصمود في وجه الصدمة التي أحدثها غياب مؤسسها، ثم إذا بها بعد فترة تتلاءم مع الوضع الجديد وتتسع بسرعة خارقة اتساعاً رائعاً)<sup>٣</sup>

وقال: (كلما فكرنا في تاريخ محمد وتاريخ أوائل الإسلام، تملكنا الدهول أمام عظمة مثل هذا العمل. ولا شك أن الظروف كانت مواتية لمحمد فأتاحت له فرصاً للنجاح لم تتحها لسوى القليل من الرجال غير أن الرجل كان على مستوى الظروف تماماً. فلو لم يكن نبياً ورجل دولة وإدارة، ولو لم يضع ثقته بالله ويقتنع بشكل ثابت أن الله أرسله، لما كتب فصلاً مهماً في تاريخ الإنسانية. ولي أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام، من جديد، برجل هو أعظم رجال أبناء آدم)<sup>٤</sup>

(١) محمد في مكة، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) محمد في مكة، ص ٤٩٧ - ٤٩٨.

(٣) محمد في مكة، ص ٥١٠ - ٥١١.

(٤) محمد في مكة، ص ٥١٢.



وتحدث عن النظام التوحيدي للمجتمع الذي جاء به الإسلام، فقال: (إن فكرة (الأمة) كما جاء بها الإسلام هي الفكرة البديعة التي لم يسبق إليها ولم ترزل إلى هذا الزمن ينبوعاً لكل فيض من فيوض الإيمان يدفع بالمسلمين إلى (الوحدة) في (أمة) واحدة تختفي فيها حواجز الأجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة. وقد تفرد الإسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتملت أمته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الأقطار وتفاوت المصالح، ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها، بل كان المنشقون عنها يعتقدون أنهم أقرب ممن يخالفونهم إلى تعزيز وحدتها ولم شملها ونفي الغرباء عنها)<sup>١</sup>

وتحدث عن التأثير الإيجابي للعقيدة الإسلامية، فقال: (إن عقيدة الإسلام تزود أبناءه في كل عصر (بالصورة المحركة) التي ينظرون إليها ويترسّمونها (Dynamic Image) أي الطيف أو المثال الذي يخفز السائر إلى الحركة والتقدم ويهون عليه مشقة الطريق.. وسرّ هذه القوة في العقيدة الإسلامية أنها منحت الفرد مقياساً للحياة أرفع وأسلم من مقياس العصبية والمنعة وهو مقياس الضمير المستقل عن أصحاب السيادة، وأنها - مع هذا الاستقلال الفردي - لم تترك الجماعة بغير وجهة تصمد عليها، فأبدعت لها فكرة (الأمة) وحررت هذه الفكرة من ربة العصبية وحدود الوراثة، فأصبح معنى (الأمة) قابلاً للتطور مع الحوادث (والظروف)<sup>٢</sup>

وتحدث عن تسامح الإسلام، فقال: (يعني التأكيد - على إخضاع مشركي الجزيرة للإسلام - أن الإسلام قد انتشر بحدّ السيف. حقاً أن القبائل الوثنية في الجزيرة العربية كان عليها أن تختار الإسلام أو السيف<sup>٣</sup>، إلا أن تعامل المسلمين كان مختلفاً تجاه اليهود والمسيحيين والزرادشتيين وغيرهم ممن اعتبرت دياناتهم شقيقة للإسلام، رغم الدعوى القائلة بأن الأتباع المعاصرين لتلك الديانات قد ابتعدوا عن جوهرها. ومهما كان الأمر فقد كان بالإمكان قبولهم نوعاً من الحلفاء للمسلمين في معظم الأقطار التي فتحتها العرب. لذلك فإن غرض الجهاد لم يكن يهدف إلى تحويل أولئك السكان نحو الإسلام بقدر ما كان يهدف إلى اعترافهم بالحكم الإسلامي وبمقتلة أناس يحميهم الإسلام. وبعامّة فإنهم (أهل الذمة)، وكانت الطائفة الذمية مجموعة من الناس تعتنق ديانة واحدة لها استقلالها الداخلي برعاية رئيس ديني كالبطريك أو الراي، وكان على كل فرد من أفراد المجموعة الذمية دفع ضريبة شخصية إلى الحاكم المسلم، إضافة على مبالغ مختلفة أخرى تحدد استناداً على شروط الاتفاقية مع المجموعة. وكانت تلك الضرائب أحياناً أقل وطأة من الضرائب التي كانت تدفع للحكام السابقين. وكانت حمايتهم بصورة فعالة بالنسبة للدولة الإسلامية تمثل كلمة شرف تلتزم بها الدولة وتنفيذها ثم إن وضع أهل الذمة لم يكن سيئاً رغم بعض القيود المفروضة عليهم)<sup>٤</sup>

وتحدث عن الأسباب الحقيقية وراء انتشار الإسلام، فقال: (كانت هناك مناطق مثل شرق أفريقيا وجنوب

(١) الإسلام والجماعة المتحدة، عن: العقاد، ما يقال عن الإسلام، ص ١٨٣.

(٢) الإسلام والجماعة المتحدة، عن: العقاد، ما يقال عن الإسلام، ص ١٨٤.

(٣) سنرى التفاصيل المرتبطة بهذه الشبهة في رسالة (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

(٤) تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٣ - ١٤.

شرق آسيا انتشر الإسلام فيها نتيجة نشاط رجال الأعمال إذ لم يكن للمسلمين في تلك المناطق الوثنية أية سرية في ممارسة الصلاة خمس مرات يوميًا، وأن إخلاص هؤلاء المسلمين والتزامهم المتزن بالإسلام الحنيف أذهل الوثنيين الذين كانت لهم علاقات تجارية مع المسلمين مما أدى إلى اعتناق الإسلام والاختلاط عن طريق الزواج إلى تكوين مجتمعات إسلامية صغيرة وسط المناطق الوثنية ونمت تلك المجتمعات بصورة تدريجية<sup>١</sup>

وتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في العالم، فقال: (درس الباحثون مختلف الطرق التي أثر العالم الإسلامي من خلالها على أوروبا في العصور الوسطى، وقد نشرت نتائج دراساتهم هذه في العديد من المقالات والكتب العلمية، إلا أنه من النادر أن نجد محاولة للنظر في التأثير الإسلامي هذا بصورة إجمالية ولتقييم أهمية أثره على أوروبا ومدى استجابة أوروبا له. لذلك فإن الغرض من هذه السلسلة من المحاضرات هو إعطاء نظرة شاملة لهذه التأثيرات ولردود الفعل عليها.. إن وجهة نظري ستختلف عن وجهة نظر المؤرخ الأوروبي، فأنا لا أفكر في المسلمين كأجانب غزوا أوروبا بل سأنظر إليهم باعتبارهم أصحاب حضارة ذات إنجازات عظيمة عمت بفضلها جزءًا كبيرًا من العالم وامتدت فوائدها إلى الأقاليم المجاورة)<sup>٢</sup>

وقال: (إنه لمن المناسب أن تصدر دراسة عن التأثيرات الإسلامية على أوروبا في هذا الوقت الذي يزداد فيه ترابط المسلمين والمسيحيين العرب مع الأوروبيين في هذا العالم الواحد. وقد لوحظ في وقت ما أن الكتاب المسيحيين في أوروبا خلال العصور الوسطى قد كونوا صورة مشوهة عن الإسلام من عدة جوانب إلا أنه بفضل محاولات الباحثين في القرن الماضي، بدأت تتكون صورة أكثر موضوعية في أذهان الغربيين إذ ليس لدينا نحن الأوروبيين - على أية حال - القدرة على استيعاب فضل المسلمين على ثقافتنا، إذ أننا نقلل أحيانًا من قيمة التأثيرات الإسلامية ومقدار أهميتها على تراثنا وأحيانًا نغض الطرف عنه كليًا. ومن أجل علاقات طيبة مع العرب والمسلمين علينا الاعتراف بكامل فضل المسلمين علينا، أما محاولتنا إنكار ذلك فما هو إلا علامة من علامات الغرور الكاذب)<sup>٣</sup>

وتحدث عن الأسباب الحقيقية تشويه الإسلام في أوروبا في العصر الوسيط، فقال: (إن تشويه صورة الإسلام بين الأوروبيين كان ضروريًا لتعويضهم عن الشعور بالتخلف)<sup>٤</sup>

وتحدث عن إيجابية تشريع (تعدد الزوجات)، فقال: (إن الفكرة الرائدة في القرآن، هي أنه إذا تبنى المسلمون تعدد الزوجات، فإن جميع الفتيات اللواتي هن في سن الزواج يمكنهن الزواج بصورة حسنة)<sup>٥</sup>

وقال: (كان تعدد الزوجات عادة غريبة على تفكير أهل المدينة. وقد عالج هذا التغيير المساوي التي نتجت عن ازدياد التزعة الفردية. إذ أن تعدد الزوجات يسمح للنساء الكثيرات بالزواج الشريف، كما يضع حدًا لاضطهاد الأراذل اللواتي تحت الوصاية، كما يخفف من إغراء الزواج المؤقت الذي يسمح به مجتمع عربي ذو

(١) تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ٣٠.

(٢) تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ٥

(٣) تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ٥ - ٦

(٤) تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٣١.

(٥) محمد في المدينة، ص ٤٢٢.

عوائد أمية. ويجب اعتبار هذا الإصلاح، بالنظر لبعض العادات السائدة آنذاك، تقدماً مهماً في تنظيم المجتمع<sup>١</sup> وتحدث عن مزايا النظم الإسلامية المرتبطة بالأسرة، فقال: (لقد قام محمد في ميدان الزواج والعلاقات العائلية، بتنظيم عميق واسع للبناء الاجتماعي. وقد وجدت قبله نزعات جديدة فردية، ولكن أثرها كان هداماً أكثر منه بناء. وكان عمل محمد بهذا الصدد يقوم على استخدام هذه النزعات الفردية لتكون بناء جديد. فقد اهارت عادات المجتمعات القبلية وتقاليدها، فأنقذ محمد منها ما يمكن إنقاذه وحوله إلى المجتمع الفردي الجديد. وهكذا استطاع توليد نظام عائلي ظهر مرضياً ومغرياً في مجتمع ينتقل من مرحلة الجماعية إلى مرحلة الفردية)<sup>٢</sup> وتحدث عن أهداف أحكام المواريث في الشريعة الإسلامية، فقال: (كانت التشريعات القرآنية تهدف إلى أن لا يتعدى الوصي على حقوق أي قاصر أو امرأة في الميراث الطبيعي)<sup>٣</sup>

وتحدث ناصحاً المسلمين أن يقدموا صورة حسنة عن الإسلام ترفع الشبهات الكثيرة التي ينشرها المغرضون حوله، فقال: (لا تزال - للمسلمين - إمكانية في تقديم دفاعهم بشكل أفضل وأكمل لسائر العالم. فهل بإمكانهم الالتفات إلى حياة محمد، واستخلاص القيم العامة بعد فصلها عن التأثيرات الخاصة، واكتشاف مبادئ أخلاقية تكون إضافة فعلية لتحسين حالة العالم اليوم؟ أو هل يستطيعون، على الأقل، أن يظهروا أن نبيهم يقدم، بحياته، أحد النماذج الممكنة للإنسان المثالي الذي يعيش في عالم موحد القيم الأخلاقية؟ إذا قدم المسلمون دفاعاً بارعاً، فهناك مسيحيون على استعداد للاستماع إليهم والأخذ عنهم كل ما يمكن أخذه)<sup>٤</sup> ويتحدث عن قدرة المسلمين إذا ما رجعوا للإسلام على قيادة العالم في الجوانب القيمية، فقالك (لسوف ينجح المسلمون بصعوبة في جهدهم للتأثير على الرأي العام العالمي، على الأقل فيما يتعلق بالمبادئ الأخلاقية. وربما أمكنهم، في ميدان الأفكار الدينية الأوسع أن يساعدوا على إغناء العالم لأهم احتفظوا بقوة كبرى في التعبير عن بعض الأفكار كحقيقة الله، تلك الأفكار التي أهملت ونسيت في كثير من الطوائف والأديان الأخرى الموحدة)<sup>٥</sup>

قلت: بالرغم مما وقع الرجل فيه من أخطاء، فإن هذه الشهادات تنبئ عن صدق عظيم.. قال: ولو أن الرجل وجد تمثيلاً صحيحاً للإسلام، ودفاعاً صادقاً عنه - كما طلب - لما وقع فيما وقع فيه.

## ج. ن. د. اندرسن:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ج. ن. د. اندرسن)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال:

(١) محمد في المدينة، ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

(٢) محمد في المدينة، ص ٤٤١.

(٣) محمد في المدينة، ص ٤٤٣.

(٤) محمد في المدينة، ص ٥٠٨ - ٥٠٩.

(٥) محمد في المدينة، ص ٥٠٩.

(١) ج. ن. د. اندرسن S. N. D. Anderson مستشرق بريطاني. من آثاره: (الشرع والفقهاء الإسلاميين)، (صحيح

القانون المقارن، ١٩٤٩)، و(جريمة القتل في الإسلام، ١٩٥١). وغيرها.

لقد تحدث هذا الرجل عن تأثير الإسلام في الأفارقة، فقال: (لقد تكررت ملاحظة الآثار العميقة التي أحدثتها مجيء الإسلام في حياة الزنوج في أفريقيا وفي ثقافتهم. وهكذا يذهب (ميك) إلى حد القول: أنه (يعني الإسلام) لم يؤدّ إلى تغييرات عميقة في التركيب الجنسي لهذه الشعوب فحسب، وإنما أتى معه بحضارة جديدة، أعطت الأجناس الزنجية المولدة الطابع الثقافي المميز الذي يحملونه اليوم ومازال مسيطراً على حياتهم السياسية ومؤسساتهم الاجتماعية.. أن الإسلام جاء بالحضارة إلى القبائل البربرية (الهمجية) وحول جماعات منفصلة من الوثنيين إلى أمم أنه جعل الخطوة مع العالم الخارجي ممكنة، أنه وسع النظر، ورفع مستوى المعيشة بإنشائه جواً اجتماعياً راقياً، وأسبغ على أتباعه الوقار، واحترام النفس، واحترام الناس. أن الإسلام أدخل فن القراءة والكتابة، وبفضله تم تحريم تعاطي المسكرات.. والثأر والعادات البربرية الأخرى وجعل من الزنجي السوداني مواطناً عالمياً)<sup>١</sup>

وقال: (هناك مدارس في كل بلدة مسلمة في نيجيريا الشمالية يقوم بها المعلمون (المالام) خاصة فيرسل الوالدون أطفالهم في سن مبكرة جداً.. وفي المراكز الكبرى يحضر الأطفال إلى الصف ساعة في الصباح وساعة في المساء. والإناث يتلقين التعليم أيضاً)<sup>٢</sup>

## ريشار وود:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ريشار وود)<sup>٣</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات صاققة عن سماحة الإسلام، منها قوله: (ميز صاحب الشريعة الإسلامية بين أهل الكتاب - وهم النصارى واليهود - وبين المشركين من العرب الذين تعرضوا لما أنزل الله على رسوله. ولقد وقع بين الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وبين بطريق بيت المقدس اتفاق يضمن حماية النصارى ومنحهم امتيازات، وفي بها. ثم تولى الأمر بعده خلفاؤه إلى زمن السلاطين الآن. وبهذا بقيت طوائف نصرانية متعددة آمنة نامية مترففة تحت حكم المسلمين، بل كانت في بعض الأحيان تمتاز حالتها الاجتماعية على حالة مواطنيها من المسلمين)<sup>٤</sup>

وقال: (إن الذي يبحث بحثاً دقيقاً عن أسباب الفتن التي سفكت فيها الدماء في المشرق يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها هو إصبع السياسة الأجنبية التي تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوي الأحقاد، ولم يكن أولئك المفسدون يحسبون أن هذه الفتن تجر إلى القتل والفظائع. ومن هذا القبيل واقعة الدرروز والموارنة، وواقعة الصقلية والبلغاريين، فقد تبين أن الاعتداء إنما كان يبتدئ من جانب النصارى)<sup>٥</sup>

وقال: (إن القرآن قد سمح للمسلمين بجرية ممارسة شعائر دينهم، وأوجب مساواتهم في الحقوق المدنية

(١) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كروناوم)، ص ٤٠٥ - ٤٠٦.

(٢) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كروناوم)، ص ٤٠٧ - ٤٠٨.

(٣) السير ريشار وود R. Wood قائد عسكري، ورجل دبلوماسي بريطاني، عمل قنصلاً لدولته في دمشق في ستينيات القرن الماضي، ثم نقل إلى تونس لكي يكون وكيل بلاده السياسي هناك، كانت له صلات عديدة بعلماء المسلمين وشيوخهم.

(٤) الإسلام والإصلاح، ص ١٩ - ٢٠.

(١) الإسلام والإصلاح، ص ٢٠.

والجنائية مع سائر الأهالي، ولم يمنع من استشارتهم في مصالح الوطن)<sup>١</sup>  
وقال: (إن النصارى في الدولة العثمانية متمتعون بالحرية النامة.. ونحن لم نفرّد بهذا القول فإن كثيرين من علماء الإنكليز والروس ألفوا كتباً أكدوا فيها أن أبواب الفلاحة خارج البلاد العثمانية يحسدون البلغار العثمانية على حسن حالهم وأمنهم في منازلهم وبساتينهم الخصبية وما تحت يدهم من الأقطان والمواشي، وصوامع كنائسهم مشرفة على كل الجهات. بل يقول هؤلاء المؤلفون أن البلغار العثمانيين أحسن حظاً من المسلمين العثمانيين)<sup>٢</sup>

وقال: (لرؤساء الروحيين والأساقفة في الدولة العثمانية أن يتوسطوا لدى رجال الحكومة في حماية أبناء طوائفهم، وهذا زيادة في الاحتياط لكيلا ينال غير المسلمين حيف أو ظلم.. وقد زالت تماماً الموانع التي كانت موجودة في سبيل تشييد الكنائس والمجامع اليهودية، وأبيح لغير المسلمين من عثمانيين وأجانب إنشاء ما يشاءون من المعابد. والواقع أن الكنائس كثر عددها جداً وقد اعترف بذلك القسس الأميركيون. ومما يبرهن على تساهل الحكومة العثمانية في ذلك إعفاؤها كل ما يجيء برسم الكنائس والأديار والمستشفيات وغيرها من الضريبة الجمركية.. وهذا أمر لا نعلم أنه يوجد في بلاد أخرى. وزيادة في عناية الدولة العثمانية بحماية غير المسلمين صدر أمر سلطاني ينذر بالعقاب كل من يصدّهم عن عبادتهم.. ولا ريب في أن الدولة العثمانية قد صرفت جهد الطاقة لإرضاء رعاياها النصارى واليهود، وإزالة الفروق التي كانت موجودة بينهم وبين المسلمين، ومشاركتهم في الإدارة العامة، وتقليدهم المناصب الرفيعة، وإعلاء شأنهم وإثبات حقوقهم. وفوق ذلك كله فهي قد أذنت لهم بعقد جمعيات تتفاوض فيما تراه صالحاً لدينهم وديناهم.. حتى صار النصارى يتعلمون من دولة إسلامية ما يرمي إليه الدين من الحُصْ على الرفق واللين والتساهل والصبر.. أما اعتراض المعارضين بأن المساواة بين الطوائف غير كاملة - ما دام النصارى لم يشتركوا في الجندية العثمانية - فجوابنا عليه أن الذنب في ذلك على النصارى أنفسهم لا على الباب العالي، إذ النصارى مع حرصهم على نوال كل الحقوق لم يقبلوا أن يدخلوا تحت ما يقابلها من الواجبات)<sup>٣</sup>

## آرثر ستانلي تريتون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آرثر ستانلي تريتون)<sup>٤</sup>، فسألت البابا عنه، فقال:

(١) الإسلام والإصلاح، ص ٢١.

(٢) الإسلام والإصلاح، ص ٢٢.

(٣) الإسلام والإصلاح، ص ٢٥ - ٢٧.

(٤) آرثر ستانلي تريتون A. S. Tritton ولد عام ١٨٨١ وتعلم في عدد من الكليات البريطانية وعين مساعد أستاذ للعربية في أدنبرا (١٩١١) وكلاسكو (١٩١٩) وأستاذ في عليكرة في الهند (١٩٢١) ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن (١٩٣١-٣٨-٤٧) وقد وجه جل اهتمامه إلى الفقه وطوّف في عدد من البلدان العربية.

من آثاره: (أئمة الزيدية بصنعاء واليمن) (١٩٢٥)، (الخلفاء ورعاياهم من غير المسلمين) (١٩٣٠)، (علم الكلام في الإسلام) (١٩٤٧)، (الإسلام إيمان وشعائر) (١٩٥٠)، (مواد في التربية الإسلامية) (١٩٥٧). كما نشر عدداً من الأبحاث في المجالات الاستشرافية وبخاصة (مجلة الجمعية الملكية الآسيوية).

لقد تحدث هذا الرجل بصدق عن تسامح المسلمين، فقال: (أما النواحي الشرقية القصوى من الدولة الإسلامية فإن الشعوب الحكومة كانت تعامل معاملة تنطوي على مثل هذا العطف الذي حظيت به في النواحي الأخرى)<sup>١</sup>

وقال: ( ولما تدانى أجل (عمر بن الخطاب) أوصى من بعده وهو على فراش الموت بقوله: (أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم) <sup>٢</sup> وفي الأخبار النصرانية شهادة تؤيد هذا القول، وهي شهادة (عيثويابه) الذي تولى كرسي البطريكية من سنة ٦٤٧ على ٦٥٧م إذ كتب يقول: (أن العرب الذين مكنتهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، أنهم ليسوا بأعداء للنصرانية بل يمتدحون ملتنا ويوقرون قسيسينا وقديسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا). والظاهر أن الاتفاق الذي تم بين (عيثويابه) وبين العرب كان من صالح النصارى، فقد نصّ على وجوب حمايتهم من أعدائهم، وألا يحملوا قسراً على الحرب من أجل العرب، وألا يؤذوا من أجل الاحتفاظ بعاداتهم وممارسة شعائهم، وألا تزيد الجزية الجبابة من الفقير على أربعة دراهم، وأن يؤخذ من التاجر والغني اثنا عشر درهماً، وإذا كانت أمة نصرانية في خدمة مسلم فإنه لا يحق لسيدتها أن يجبرها على ترك دينها أو إهمال صلاحها والتخلي عن صيامها)<sup>٣</sup>

وقال: (كان العرب في أيامهم الأولى يلتزمون جادة الصبر والأناة، إذ كثيراً ما نقرأ عن مدن استسلمت بشروط، ثم ثارت وتمردت على العرب، ثم استسلمت مرة أخرى فأعادوا لها عهودها الأولى)<sup>٤</sup>

وقال: (ومن الأدلة الطيبة على ما كانت تسترشد به الحكومة الإسلامية في معاملتها الذميين ما جاء في الأمر الذي وجد بين أوراق البردي اليونانية المحفوظة في (المتحف البريطاني)، وعلى الرغم من فساد قسم منه فقد جاء في الباقي "خوفاً من الله، وحفظاً للعدالة والحق في توزيع القدر المفروض عليهم.. ولكن تجب معاملة الجميع بالعدل، وأخذ الشيء من كل منهم بقدر طاقته)<sup>٥</sup>

## سرارنست باركر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سرارنست باركر)<sup>٦</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن تأثير المسلمين في الحضارة الغربية، فقال: (وصلت حضارة المسلمين درجة متقدمة في

(١) أهل الذمة في الإسلام، ص ٤٣.

(٢) يحيى بن آدم: كتاب الخراج، ص ٥٤.

(٣) أهل الذمة في الإسلام، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٤) أهل الذمة في الإسلام، ص ١٦٠.

(٥) أهل الذمة في الإسلام، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٦) سرارنست باركر (١٨٧٤-١٩٦٠) Prof. Sir Ernest Barker من كبار الباحثين، كان أستاذاً للعلوم السياسية في كامبردج ١٩٢٨-١٩٣٩، وأستاذاً لنفس المادة في جامعة كولون ١٩٢٧-١٩٢٨.

من آثاره: (الفكر السياسي لأفلاطون وأرسطو) (١٩٠٦)، (الفكر السياسي في إنكلترا منذ أيام هيريت سينسر حتى الآن) (١٩١٥٩)، (نظرات في الحكم) (١٩٤٢)، (مبادئ النظرية الاجتماعية والسياسية) (١٩٥١)، (التراث الأوروبي).. إلخ.

إسبانيا وصقلية لا بل تسامت إلى الجوزاء، حتى انتقل تأثيرها منهنما إلى فرنسا وإيطاليا. وامتدت فلسفة قرطبة وعلى رأسها معلمها الأعظم (ابن رشد) حتى دخلت جامعة باريس، وازتت بالرموز بمعان: عربية وحفلت بجغرافيين وشعراء عرب إبان حكم ملوكهم النورمان.. قصد القائل أن ثمار الثقافة التي كسبها الغرب من العناصر الإسلامية التي لم تبق طويلاً كانت، على الأقل، تعادل بأهميتها التأثير الذي خلفه الشرق في الغرب أثناء الحروب الصليبية<sup>١</sup>

وقال: (علينا أن نذكر ونعيد القول بأن الإسلام قد سبق فثبتت أصوله في الغرب واستطاع أن يخلف آثاره في إسبانية وصقلية.. وبالإمكان أن نرى أن تأثير الإسلام في الغرب المسيحي في قاعدتيه هاتين كان أشد مما هو في مراكزه (الموصل وبغداد والقاهرة)<sup>٢</sup>

وقال: (الحق يقال إن الغرب ما زال يستخدم مصطلحات عربية في عالم التجارة.. وكذلك ثبتت مصطلحات بحرية ملاحية وأخرى منزلية.. هذه الكلمات مازالت تستعمل أو أنها كانت دارجة الاستعمال فيما مضى)<sup>٣</sup>

وقال: (كان عرب إسبانيا.. هم الذين أهدوا إلى الغرب اللاتيني هباتهم النفسية في ميادين العلم والفلسفة.. وكان الطب كالرياضيات ومن مفاخر العلوم العربية وأركانها الوطيدة)<sup>٤</sup>

## ستانلي لين – بول:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ستانلي لين – بول) °، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن اهتمام الإسلام بالعلم، فقال: (لم يحدث في تاريخ المدينة حركة أكثر روعة من ذلك الشغف الفجائي بالثقافة الذي حدث في جميع أنحاء العالم الإسلامي. فكان كل مسلم، من الخليفة إلى الصانع، يبدو كأنما قد اعتراه فجأة شوق إلى العلم وطمأ إلى السفر وكان ذلك خير ما قدمه الإسلام من جميع الجهات. وكان تهافت طلاب العلم على مركز مثل بغداد، ومن بعدها على المراكز الأخرى التي كانت مهدياً للآداب والعلوم، شبيهاً بذلك التيار الحديث من العلماء الأوروبيين الذين كانت تروج بهم الجامعات بحثاً وراء العلم الجديد بل لقد كان أكثر منه روعة!)<sup>١</sup>

وقال: (أما المساجد، وهي التي كانت – وما زال بعضها – جامعات الإسلام، فإنها عجت بالطلبة الذين

(١) تراث الإسلام (إشراف سير توماس آرنولد)، ص ٧٩.

(٢) تراث الإسلام، ص ٩١.

(٣) تراث الإسلام، ص ٩٧ – ٩٨.

(٤) تراث الإسلام، ص ١٠٥.

(٥) د. ستانلي لين – بول (١٨٣٢-١٨٩٥) Stanley Lane – Pool أستاذ اللغة العربية في كلية ترينتي بدبلن (١٨٩٨-١٩٠٤). عالم في الآثار المصرية. عين سنة ١٨٧٧ حافظاً للنقود في المتحف البريطاني حتى وفاته. من آثاره: (فهرس النقود الشرقية في المتحف البريطاني) (١٨٧٥-١٨٩٠) في عشرة أجزاء، (الخلافة في الشرق)، (الأسر الصغيرة الحاكمة في الشرق)، (المغول)، (العثمانيون)، (صلاح الدين وسقوط مملكة القدس).. إلخ.

(١) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ. هامرتن) ٤/ ٦٠٧.

ملأهم الرغبة في العلم وقد جاءوا للاستماع إلى محاضرات العلماء في علوم الدين والشريعة والفلسفة والطب والرياضة. وقد جاء العلماء أنفسهم من جميع أرجاء العالم الذي كان يتكلم باللغة العربية.. وكان يرحب بكل طالب مهما كانت جنسيته<sup>١</sup>

وتحدث عن تأثير العلوم الإسلامية في الغرب، فقال: (كان كل ما عرفته أوروبا في العصور الوسطى من فلسفة إغريقية ومن علوم رياضية وكيمياء وفلك وطب مأخوذاً في الأصل من المؤلفات والرسائل العربية المترجمة إلى اللغة اللاتينية وقد احتفظت هذه المؤلفات بمكانتها في المدارس الأوروبية حتى القرن السادس عشر بل والسابع عشر كذلك)<sup>٢</sup>

وتحدث عن دور المسلمين في حفظ التراث الإنساني، فقال: (إن القوة الموحدة للغة واحدة وديانة واحدة قد جعلت من الممكن أن يحفظ العصر الذهبي لثقافة العرب تراث الإغريق والرومان وينقله إلى العالم الحديث. إن اللغة العربية أدبها الهائل الخالد، إلا أن فضلها الكبير على العالم يتركز فيما قدمته له من خدمة جلييلة في حفظ الحضارة العظيمة القديمة ونشرها في وقت كانت فيه أوروبا تتخبط في ظلمات الجهل والامية. إن سحر اللغة العربية وحماسة طلابها هما اللذان مهدا الطريق لحركة إحياء العلوم)<sup>٣</sup>

### إدوارد كيبون:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إدوارد كيبون)<sup>٤</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن صمود الإسلام، فقال: (إن ما يثير دهشتنا هو ثبات الإسلام لا انتشاره، فإن نفس الطابع النقي الكامل، الذي كان له في مكة والمدينة، ما زالت تجيش به صدور المسلمين في الهند وأفريقيا وتركيا)<sup>٥</sup> وتحدث عن المنجزات العظيمة التي حققها رسول الله ﷺ، فقال: (إن في عبقرية النبي العربي، وفي خلال أمته وفي روح دينه، أسباب انحلال الدولة الرومانية الشرقية وسقوطها، وأن أبصارنا لتتجه دهشة إلى ثورة من أعظم الثورات التي طبعت أمم الأرض بطابع خالد)<sup>٦</sup>

### برنارد شو:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (برنارد شو)، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل

(١) تاريخ العالم: ٤ / ٦٠٧ - ٦٠٨.

(٢) تاريخ العالم: ٤ / ٦٠٨ - ٦٠٩.

(٣) تاريخ العالم: ٤ / ٦١٨.

(٤) إدوارد كيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤) Edward Gilbbon ولد في بلدة بتني بجنوب إنكلترا، من أسرة غنية، كان أبوه عضواً في البرلمان الإنكليزي، درس في جامعة أكسفورد، وفي لوزان بسويسرا سافر إلى أكثر من بلد، وفاز بمقعد في مجلس العموم البريطاني. يعد كتابه: (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) الذي صدر في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، واحداً من أهم الأسفار التاريخية. وقد أعيد طبعه مراراً، وترجم إلى معظم اللغات الأوروبية.

(٥) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، (عن محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ١١)، وانظر الأدلة الكثيرة المثبتة لهذا في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (صمود)

(١) مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ١٢)



يتربع على قمة قمم الصادقين.. وهو لذلك يحظى باحترام كبير لدى جميع المسلمين:  
فمن شهاداته حديثه عن حيوية الإسلام بقوله: (لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامي بسبب حيويته العظيمة، فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز على أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل زمان ومكان، لقد صور (أكليروس القرون الوسطى) الإسلام بأحلك الألوان إما بسبب الجهل وإما بسبب التعصب)  
وتحدث متأسفاً على الأباطيل التي تنتشر بين قومه عن الإسلام، فقال: (مضت على الغرب القرون وهو يقرأ كتباً ملأى بالأكاذيب على الإسلام)

وله أحاديث عذبة صادقة عن رسول الله ﷺ.. منها قوله: ( لقد درست محمداً باعتباره رجلاً عظيماً فرأيتُه بعيداً عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يدعى (منقذ البشرية)، وإني لأعتقد أن رجلاً مثله لو تولى حكم العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو في أشد الحاجة إليهما، وفي الوقت الحاضر دخل كثير من أبناء قومي من أهل أوروبا في دين محمد حتى ليتمكن أن يقال إن تحول أوروبا إلى الإسلام قد بدأ، لقد بدأت أوروبا الآن تعشق الإسلام، ولن يمضي القرن الحادي والعشرون حتى تكون أوروبا كله قد بدأت تستعين به في حل مشاكلها)

ومنها قوله: (إذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إن محمداً رسول المسلمين أعظم عظماء التاريخ، فقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم ديناً واضحاً قوياً، استطاع أن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم)  
ومنها قوله: (لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً، سوى محمد، كان صاحب رسالة وباني أمة، ومؤسس دولة... هذه الثلاثة التي قام بها محمد، كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحدتها على مدى التاريخ)

وفي مقابل هذا تحدث عن المخاطر التي يحملها الكتاب المقدس على القيم، فقال بأسلوبه الساخر: (الكتاب المقدس من أخطر الكتب الموجودة على وجه الأرض، فاحفظوه في خزانة مغلقة بالمفتاح، احفظوه بعيداً عن متناول الأطفال)

سكت البابا، فقلت: إني كلما قرأت كلمات هذا الرجل عن رسول الله ﷺ أشعر بأن له معه من الأحاديث ما لم تظن لها الكتب، ولم يظن لها المؤرخون.

قال: الأمر كذلك.. فما أكثر غفلة الكتب عن أحاديث القلوب.. وما أكثر غفلة المؤرخين عنها.

## ٤ — أصدقاء من أمريكا

قلبت بعض الصفحات من دفتر البابا، فأريت عنوان (أصدقاء من أمريكا).. فقلت: أكتب اسم أمريكا في كتاب يبحث عن القلوب التي تحب محمداً؟

قال: وما يعني من ذلك؟

قلت: إن أمريكا هي السيف الذي سلط على رقاب المسلمين، وهي القنبلة النووية التي يوشك أن تبيدهم.

قال: ألم تر في ثمار النبوة صمود شجرة الإسلام؟

قلت: بلى.. ولكن الحرب التي توجه له في هذا العصر أعنت من كل الحروب.. والوسائل التي تستخدم

فيها لم تحلم بها الشياطين.

قال: ومع ذلك، فسيخرج الإسلام كشأنه كل مرة مرفوع الهامة، عالي الراهة.

قلت: متى ذلك؟

قال: أنتم الذين تحددون ذلك.. عندما تصدقون مع الله لن تؤذيكُم بعوضة.

قلت: إن من قومنا من يحملون أسلحة كثيرة.. وهي من أعظم دلائل الصدق.

قال: الصدق لا يحتاج إلى أسلحة.. الصدق لا يحتاج إلا للقلوب الطاهرة الممتلئة بألحان السلام..

قلت: فهل في أمريكا من يسمع للسلام؟

قال: في أمريكا من يسمع للسلام وللإسلام.. وهم كثيرون.. بل لا يكادون يحصون.

قلت: لقد ذكرتني، فقد قرأت قبل فترة، في مجلة (تائم) تحقيقاً بعنوان (الأمريكيون يولون وجوههم خمس

مرات نحو مكة) قالت فيه: (إن المسلمين في أمريكا أصبح صوتهم مسموعاً، وأصبحت لهم كلمة أكثر من أي

وقت مضى بعد أن كان اللوبي الصهيوني له اليد العليا، وكان الأمريكيون منذ أكثر من عشرين عاماً ينظرون

إلى الإسلام على أنه من الديانات المتخلفة، ولكن بعد دخول عدد كبير من المسلمين المهاجرين إلى الإسلام

سواء من السود أو البيض، بدأ الأمريكيون يغيرون نظرهم إلى الإسلام والمسلمين في أمريكا)<sup>١</sup>

قال: لقد بدأت النبوءة تتحقق، فقد ذكرت صحيفة (نيويورك تايمز) الأمريكية أن الإسلام ينتشر بسرعة

فائقة وبصورة لافتة للنظر، وأضافت أن مدن نيويورك ولوس أنجلوس وشيكاغو وديترويت أصبحت مراكز

كبرى للدين الإسلامي.

### ول ديورانت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا المحل اسم (ول ديورانت)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا

(١) انظر جريدة المسلمون، العدد ٢٧٩.

(٢) ول ديورانت W. Durant مؤلف أمريكي معاصر، يعد كتابه (قصة الحضارة) ذو الثلاثين مجلداً، واحداً من أشهر

الكتب التي تؤرخ للحضارة البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة، عكف على تأليفه السنين الطوال، وأصدر جزأه الأول عام

١٩٣٥، ثم تلته بقية الأجزاء، ومن كتبه المعروفة كذلك (قصة الفلسفة).

الرجل هو مؤرخ الحضارات الأكبر..

قلت: أعلم ذلك.. ولكنني أسألك عن شهادته عن الإسلام.

قال: لهذا الرجل شهادات صادقة عن الإسلام، سأذكر لك منها ما تقر به عينك.

فقد تحدث عن القيم النبيلة التي يحملها القرآن الكريم، والتي ظل تأثيرها ممتدا في جميع العهود، فقال: ( ظل القرآن أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً في ذاكرة المسلمين يستثير خيالهم، ويشكل أخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال. والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد، وأقلها غموضاً، وأبعدها عن التقييد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحريراً من الوثنية والكهنوتية. وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحرّضهم على اتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسّن أحوال الأرقاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين.. درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض)<sup>١</sup>

وتحدث عن معجزة الأمية في رسول الله ﷺ، فقال: ( يبدو أن أحداً لم يعن بتعليم محمد القراءة والكتابة.. ولم يعرف عنه أنه كتب شيئاً بنفسه.. ولكن هذا لم يحل بينه وبين قدرته على تعرف شؤون الناس تعرفاً قلماً يصل إليه أرقى الناس تعليماً)<sup>٢</sup>

وتحدث عن معجزة القيادة، فقال: ( كان النبي من مهرة القواد.. ولكنه كان إلى هذا سياسياً محنكاً، يعرف كيف يواصل الحرب بطريق السلم)<sup>٣</sup>

وتحدث عن المنجزات العظيمة التي حققها رسول الله ﷺ، والتي لم يدانيه في تحقيقها أحد من البشر، فقال: (إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فلقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقى به في دياجير الممحية حرارة الجو وجذب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلّ أن نجد إنساناً غيره حقق ما كان يحلم به.. ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه.. وكانت بلاد العربي لما بدأ الدعوة صحراء جدياء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة. وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية، ودين بلاده القديم، ديناً سهلاً واضحاً قوياً، وصرحاً خلقياً وقوامه البسالة والعزة القومية. واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم)<sup>٤</sup>

(١) قصة الحضارة: ١٣ / ٦٨ - ٦٩.

(٢) قصة الحضارة: ١٣ / ٢١ - ٢٢.

(٣) قصة الحضارة: ١٣ / ٣٨.

(٤) قصة الحضارة: ١٣ / ٤٧.

وتحدث عن رحمة رسول الله ﷺ بالمستضعفين، فقال: (لسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لإعانة الفقراء)<sup>١</sup>

وتحدث عن اهتمام النبي ﷺ بالعلم، فقال: (تدل الأحاديث النبوية على أن النبي كان يبحث على طلب العلم ويعجب به، فهو من هذه الناحية يختلف عن معظم المصلحين الدينيين)<sup>٢</sup>

وتحدث عن قدرة العقيدة الإسلامية على توحيد الأمم المتباينة، فقال: (تلك بلا مراء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتباينة المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعباً واحداً، وهي لعمري أعظم معجزة للمسيحية والإسلام)<sup>٣</sup>

وتحدث عن الأخلاق الإسلامية، وتميزها، فقال: (إن الذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه دين سهل من الوجهة الأخلاقية.. وليس في التاريخ دين غير دين الإسلام يدعو أتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوىاء، ولم يفلح في هذه الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح فيها الإسلام)<sup>٤</sup>

وقال: (كانت مبادئ المسلمين الأخلاقية، وشريعتهم، وحكومتهم، قائمة كلها على أساس الدين. والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)<sup>٥</sup>

وتحدث عن مراعاة الإسلام للفطرة البشرية، فقال: (أُحِلَّ للمسلمين أن يستمتعوا بالحلل من طبيبات الحياة على شريطة ألا يسرفوا فيها. ولكن الإسلام كغيره من الأديان يدعو المسلمين إلى الصوم ليقوى بذلك إرادتهم من جهة، ولتصحَّ به أجسامهم من جهة أخرى)<sup>٦</sup>

وتحدث عن المعاني النبيلة التي ينتظمها الحج، فقال: (لفريضة الحج العظيمة أغراض وفوائد كثيرة. فهي تقوي إيمان المسلمين واستمسакهم بدينهم، وتمكن الصلة بهذا العمل العاطفي الجماعي بين المسلم ودينه وبينه وبين إخوانه المؤمنين.. فالحج وما ينطوي عليه من مناسك التقى والورع يجمع أبناء الشعوب الإسلامية كافة، يرتدون كلهم ثياباً بسيطة واحدة، ويتلون كلهم أدعية واحدة بلغة واحدة وهي اللغة العربية، ولعل هذا هو السبب في ضعف حدة الفوارق العنصرية في الإسلام)<sup>٧</sup>

وتحدث عن معجزة الفتوحات الإسلامية، فقال: (الحق أن حادث الفتوحات الجلل الذي تمخضت عنه جزيرة العرب، والذي أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد في ربوعه، هو أعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى)<sup>٨</sup>

(١) قصة الحضارة: ١٣ / ٥٩.

(٢) قصة الحضارة: ١٣ / ١٦٧.

(٣) قصة الحضارة: ١٣ / ٦٦.

(٤) قصة الحضارة: ١٣ / ٦٧ - ٦٨.

(٥) قصة الحضارة: ١٣ / ١١٦.

(٦) قصة الحضارة: ١٣ / ١٢٣.

(٧) قصة الحضارة: ١٣ / ١٢٧ - ١٢٨.

(٨) قصة الحضارة، ١٣ / ٧.

وتحدث عن تسامح المسلمين، فقال: (كان أهل الذمة المسيحيون، والزرذشتيون، واليهود، والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد نظيراً لها في المسيحية في هذه الأيام. فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم.. وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم وقضاةهم وقوانينهم)<sup>١</sup>

وتحدث عن تأثير تسامح المسلمين في انتشار الإسلام، فقال: (على الرغم من خطة التسامح الديني التي كان ينتهجها المسلمون الأولون أو بسبب هذه الخطة، اعتنق الدين الجديد معظم المسيحيين، وجميع الزردشتيون والوثنيين إلا عدداً قليلاً جداً منهم، وكثيرون من اليهود.. وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدا بعد سيادة دامت ألف عام، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها، وفي البلاد التي نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمي، فإن هذه الأقاليم كلها انتشرت فيها العقائد والعبادات الإسلامية، وآمن السكان بالدين الجديد وأخلصوا له، واستمسكوا بأصوله إخلاصاً واستمسكاً أنسياهم بعد وقت قصير آهتهم القدامى، واستحوذ الدين الإسلامي على قلوب مئات الشعوب في البلاد الممتدة من الصين وحتى الأندلس، وتملك خيالهم وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث فيهم آمالاً تخفف عنهم بؤس الحياة ومتاعبها، وأوحى إليهم العزة والأنفة، حتى بلغ عدد من يعتنقونه ويعتزون به في هذه الأيام مئات الملايين من الأنفس، يوحد هذا الدين بينهم، ويؤلف قلوبهم مهما يكن بينهم من الاختلافات والفروق السياسية)<sup>٢</sup>

وتحدث عن إقبال المسيحيين على الإسلام. محض رغبتهم، فقال: (في وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامي من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت في عام ١٣١١م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين في ذلك الوقت بمائتي ألف، كلهم ما عدا ٥٠٠ منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام. وكثيراً ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين)<sup>٣</sup>

وتحدث عن أخلاق المسلمين في الحروب، فقال: (إن المسلمين - كما يلوح - كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين، فقد كانوا أحفظ منهم للعهد، وأكثر منهم رحمة بالمغلبيين، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام ١٠٩٩م)<sup>٤</sup>

وتحدث عن النظم العادلة التي تمتعت بها الرعية في فترة طويلة من الحكم الإسلامي، فقال: (إن الخلفاء الأولين من أبي بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية في رقعة واسعة من العالم، وأهم كانوا من أقدر الحكام في التاريخ كله. ولقد كان في مقدورهم أن يصادروا كل شيء أو أن يجربوا كل شيء، كما فعل المغول أو المجر أو أهل الشمال من الأوروبيين لكنهم لم يفعلوا هذا.. كانت العراق قبل الفتح

(١) قصة الحضارة، ٣ / ١٣٠ - ١٣١.

(٢) قصة الحضارة، ١٣ / ١٣٣.

(٣) قصة الحضارة، ١٣ / ٢٩٧.

(٤) قصة الحضارة، ١٣ / ٣٨٣.

الإسلامي صحراء جرداء فاستحالت أرضها بعده جنناً فيحاء، وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملاً وحجارة، فأصبحت خصبة غنية عامرة بالسكان.. لقد أمن الخلفاء الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم، وهياؤوا الفرص لذوي المواهب، ونشروا الرخاء مدى ستة قرون في أصقاع لم ترقط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم، وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم، وازدهرت العلوم، والآداب، والفلسفة، والفنون ازدهاراً جعل آسيا الغربية مدى خمسة قرون أرقى أقاليم العالم كله حضارة<sup>١</sup>

وتحدث عن اهتمام المسلمين بالعلم، فقال: (في وسع القارئ أن يحكم على ثراء الأدب الإسلامي إذا عرف أن الكتب التي ذكرها - ابن النديم في الفهرست - على ما نعلم لم يبق منها الآن واحد في الألف)<sup>٢</sup> وقال: (إن العلوم العربية نمت في علم الكيمياء الطريقة التجريبية العلمية وهي أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره. ولما أن أعلن روجر بيكون هذه الطريقة إلى أوروبا بعد أن أعلننا جابر ابن حيان بحمسمائة عام كان الذي هداه إليها هو النور الذي أضاء له السبيل من عرب الأندلس وليس هذا الضياء نفسه إلا قبساً من نور المسلمين في الشرق)<sup>٣</sup>

وقال: (ليس هذا الجزء الباقي من تراث المسلمين إلا قسمًا ضئيلاً مما أثمرته قرائحهم، وليس ما أثبتناه في هذه الصحف إلا نقطة من بحر تراثهم. وإذا كشف العلماء عن هذا التراث المنسي فأكبر ظننا أننا سنضع القرن العاشر من تاريخ الإسلام في الشرق بين العصور الذهبية في تاريخ العقل البشري)<sup>٤</sup>

وتحدث عن تكريم الإسلام للمرأة، فقال: (رفع الإسلام من مقام المرأة في بلاد العرب.. وقضى على عادة وأد البنات وسوّى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال، وأن تحتفظ بما لها ومكاسيها، وأن ترث، وتتصرف في مالها كما تشاء، وقضى على ما اعتاده العرب في الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع، وجعل نصيب الأنثى في الميراث نصف نصيب الذكر، ومنع زواجهن بغير إرادتهن)<sup>٥</sup>

وقال: (كان مركز المرأة المسلمة يمتاز عن مركز المرأة في بعض البلاد الأوروبية من ناحية هامة، تلك هي أنها كانت حرة التصرف فيما تملك لا حق لزوجها أو لدائنيه في شيء من أملاكها)<sup>٦</sup>

وقال: (كانت البنات يذهبن إلى المدارس سواء بسواء، ونبيغ عدد من النساء المسلمات في الأدب والفن)<sup>٧</sup> وتحدث عن مراعاة الإسلام للفطرة فيما يرتبط بالزواج، فقال: (المسلم لا يرى الامتناع عن إشباع الغريزة الجنسية حال طبيعة أو مثالية، وقد كان لمعظم الصالحين من المسلمين زوجات وأبناء. وحدود الزواج أوسع في

(١) قصة الحضارة: ١٣ / ١٧٠ - ١٧١.

(٢) قصة الحضارة: ١٣ / ١٧٢.

(٣) قصة الحضارة: ١٣ / ١٩٦.

(٤) قصة الحضارة: ١٣ / ٢١٣.

(٥) قصة الحضارة، ١٣/٦٠.

(٦) قصة الحضارة: ١٣/١٤٠.

(٧) قصة الحضارة: ١٣/٣٠٦.

الإسلام منه في كثير من الأديان، وتفتح الشريعة الإسلامية منافذ كثيرة لإشباع الغريزة الجنسية ولهذا قلّ البغاء في أيام النبي والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم<sup>١</sup>

سكت البابا، فقلت: ما أصدق شهادات هذا الرجل..

قال البابا: وهي تكتسب قيمتها من اطلاعه الواسع على الحضارات الإنسانية، فهو لا يتكلم من قوقعة ضيقة، بل يتكلم من رحاب واسعة.

## واشنجتون ايرفنج:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (واشنجتون ايرفنج)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا مستشرق أمريكي، له آثار ترتبط بالإسلام والحضارة الإسلامية، وله فيها شهادات صدق يستحق عليها كل التقدير.

فقد تحدث عن شمولية القرآن وهيمنته على سائر الكتب المقدسة، فقال: (كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه. حتى إذا ظهر المسيح اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حلّ القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل. حوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين، إذ إنه خاتم الكتب السماوية)<sup>٣</sup> وتحدث عن القيم النبيلة التي جاء بها القرآن، فقال: (يدعو القرآن إلى الرحمة والصفاء وإلى مذاهب أخلاقية سامية)<sup>٤</sup>

وتحدث عن رسول الله ﷺ.. بل اعتبره خاتم النبيين، فقال: (كان محمد خاتم النبيين وأعظم الرسل الذين بعثهم الله ليدعوا الناس إلى عبادة الله)<sup>٥</sup>

وتحدث عن رحمة رسول الله ﷺ ودلالاتها على صدق نبوته، فقال: (كانت تصرفات الرسول في [أعقاب فتح] مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي. ولكنه توجّج بنجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو)<sup>٦</sup>

وتحدث عن الجهد العظيم الذي بذله رسول الله ﷺ في سبيل دعوته، وهو من أعظم دلائل الصدق، فقال: (لقي الرسول من أجل نشر الإسلام كثيراً من العناء، وبذل عدة تضحيات. فقد شك الكثير في صدق دعوته، وظل عدة سنوات دون أن ينال نجاحاً كبيراً، وتعرض خلال إبلاغ الوحي إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات، بل اضطر إلى أن يترك وطنه ويبحث عن مكان يهاجر إليه هنا وهناك وتخلّى عن كل متع الحياة

(١) قصة الحضارة: ١٣/١٣٥.

(٢) مستشرق أمريكي، أولى اهتماماً كبيراً لتاريخ المسلمين في الأندلس. من آثاره: (سيرة النبي العربي) مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية (١٨٤٩)، و(فتح غرناطة) (١٨٥٩)، وغيرها.

(٣) حياة محمد، ص ٧٢.

(٤) حياة محمد، ص ٣٠٤.

(٥) حياة محمد، ص ٧٢.

(٦) حياة محمد، ص ٧٢.

وعن السعي وراء الثراء من أجل نشر العقيدة)<sup>١</sup>

وتحدث عن خصال رسول الله ﷺ، والتي تحيل أن يكون مدعياً، فقال: (برغم انتصارات الرسول العسكرية لم تثر هذه الانتصارات كبريائه أو غروره، فقد كان يجارب من أجل الإسلام لا من أجل مصلحة شخصية، وحتى في أوج مجده حافظ الرسول على بساطته وتواضعه، فكان يكره إذا دخل حجرة على جماعة أن يقوموا له أو يبالغوا في الترحيب به وإن كان قد هدف إلى تكوين دولة عظيمة، فإنها كانت دولة الإسلام، وقد حكم فيها بالعدل، ولم يفكر أن يجعل الحكم فيها وراثياً لأسرته)<sup>٢</sup>

وقال: (كان الرسول ينفق ما يحصل من جزية أو ما يقع في يديه من غنائم في سبيل انتصار الإسلام، وفي مساعدة فقراء المسلمين، وكثيراً ما كان ينفق في سبيل ذلك آخر درهم في بيت المال.. وهو لم يخلف وراءه ديناراً أو درهماً أو رقيقاً.. وقد خيره الله بين مفاتيح كنوز الأرض في الدنيا وبين الآخرة فاختر الآخرة)<sup>٣</sup>

وتحدث عن صفاء التوحيد في الإسلام، فقال: (ينهى الإسلام عن الوثنية تماماً في جميع صورها. فقد نهى الإسلام عن جميع الطقوس الدينية في الجاهلية التي تتعلق بالوثنية، ودعا إلى توحيد الله، ولكنه احتفظ من بين هذه الطقوس بما هو بعيد عن الوثنية، مثل الحج إلى مكة والطواف بالكعبة)<sup>٤</sup>

وتحدث عن بعض أسرار انتشار الإسلام، فقال: (عند قدوم محمد إلى المدينة اعتنق بعض أهلها من المسيحيين الإسلام. فقد وجدوا تشابهاً بين التعاليم الإنسانية في كل من الإسلام والمسيحية، ولم يلمسوا أي تعارض بين الدينين، وبخاصة أن الإسلام يضع المسيح في مقدمة الأنبياء.. أما باقي المسيحيين فلم يُبدوا أي عداة للإسلام فقد اعتبروه أفضل بكثير من الوثنية. ولا شك أن الخلافات العديدة التي كانت قد نشبت بين الطوائف المسيحية في الشرق قد مهدت الطريق أمام المسيحيين ليعتقدوا الإسلام)<sup>٥</sup>

سكت البابا، فقلت: إن هذه شهادات مسلم.. لا مجرد شهادات صديق.

قال: صدقت.. فقد يسلم المرء من غير أن يشعر.. ولو أنه وجد من يأخذ بيده لكان اسمه غير اسمه.. ولكنك ذكرته في غير هذا الفصل.

## لوثرروب ستودارد:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (لوثرروب ستودارد)<sup>٦</sup>، فسألت البابا عنه، فقال:

(١) حياة محمد، ص ٣٠٠.

(٢) حياة محمد، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٣) حياة محمد، ص ٣٠٣.

(٤) حياة محمد، ص ٧٥.

(٥) حياة محمد، ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٦) لوثرروب ستودارد Lothrop Stoddard مؤلف أمريكي يتميز بسعة اطلاعه على معطيات العالم الإسلامي الحديث. ويعد كتابه: (حاضر العالم الإسلامي) من أهم المؤلفات الحديثة التي عالجت قضايا هذا العالم ومجرياته أحداثه عبر النصف الأول من هذا القرن. وقد زادت قيمة علمية، التعليقات والإضافات الحصرية التي ألحقها الأمير شكيب أرسلان بطبعته العربية.



هذا رجل ممتلي صدقا، وقد تحدث بشهادات كثيرة كانت محل احترام جميع الصادقين، وسأذكر لك من شهاداته ما يثبتك عن فهمه العميق للإسلام، وحبه العظيم له.

لقد اعتبر الإسلام من أعجب حوادث التاريخ، فقال: (كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دوّن في تاريخ الإنسان. ظهر الإسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضة الكيان، وبلاد منمطة الشآن، فلم يعض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ممزقا ممالك عالية الذرى مترامية الأطراف، وهادما أديانا قديمة كرت عليها الحقب والأجيال، ومغيرا ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانيا عالما حديثا متراص الأركان، هو عالم الإسلام)<sup>١</sup>

وتحدث عن انتشار الإسلام من غير دعم أي سلطة غير سلطة الحق الذي يحمله، قال: (كلما زدنا استقصاء باحثين في سرّ تقدم الإسلام وتعاليمه، زادنا ذلك العجب العجاب بهرا فارتدنا عنه بأطراف حاسرة عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت ثم أنشأت تسير في سبيلها سيرا بطيئا ملاقية كل صعب، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده والذب عنه حتى رسخت أركانه.. إنما ليس الأمر كذلك في الإسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل ربيعة المكانة والمترلة في التاريخ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعتة في جهات الأرض مجتازا أفدح الخطوب وأصعب العقبات دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود. وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الإسلام نصرا مبيئا عجيبا، إذ لم يكذب على ظهوره أكثر من قرنين، حتى باتت راية الإسلام خفاقة من (البرانس) حتى (همالايا) ومن صحاري أواسط آسيا حتى صحاري أواسط أفريقيا)<sup>٢</sup>

وتحدث عن الوحدة الإسلامية التي عمقها الإسلام في نفوس المسلمين، فلم تزدها الأيام إلا قوة، قال: (الجامعة الإسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام إنما هي الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها في جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي. وهي قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة أي منذ شرع الرسول يجاهد فالتفت حوله المهاجرون والأنصار معتصبين معه بعصبة الإسلام لقتال المشركين. وقد أدرك محمد خطورة الجامعة وعلو منزلتها في المسلمين حق الإدراك، وعلم كل العلم ما لها من عظم الشآن.. فغرس غرستها بيديه في نفوسهم، فتمت وتغلغلت وامتدت جذورها وبسقت أغصانها.. فقد كرّ عليها أكثر من ثلاثة عشر قرنا فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الإسلامية جانبا ولا ضعضع لها كيانا، بل كلما تقادم عليها العهد ازدادت شدة وقوة ومنعة واعتزازا. حقا أن الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصراني والنصراني.. ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده الإسلام من غرض الجامعة وغايتها فليتنظر إلى حال المسلمين اليوم وإلى تيار هذا التعاطف والتشاكبي يعلم سرّ الجامعة ومكانتها في نفوس المسلمين وفي الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمسك

(١) حاضر العالم الإسلامي: ١ / ١.

(٢) حاضر العالم الإسلامي: ١ / ١ - ٢.

بعروقها كدين للإسلام)<sup>١</sup>

وتحدث عما تميزت به العهود الأولى للإسلام — وهي العهود المتمسكة بالدين — من حرية وعدالة، فقال: (الإسلام في عهده الأول، إنما كانت شمس الحرية مشرقة وهاجة، ودينًا تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة، وليس ما طرأ على العالم الإسلامي فيما بعد من الوهن والتدني بحاجب المنصف عن جوهر الإسلام وحقيقة صفائه، فالشريعة الإسلامية كما قال العلامة ليسبار: (إنما هي ديمقراطية شوروية جوهرًا وأصلًا، وعدو شديد للاستبداد). وقد أجمل قامباري هذه الحقيقة في شأن الإسلام بقوله: (ليس الإسلام ولا تعاليمه السبب المفضي بآسيا الغربية إلى هذه الحالة المشهودة من التضعف واحتلال الشؤون، ولكن السبب كل السبب في ذلك إنما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التوا عن الصراط المستقيم.. وتكبووا عن طريق صاحب الرسالة والخلفاء الراشدين.. وناصروا المذاهب الشورية والأصول الحرة العدا)<sup>٢</sup>

وتحدث عن الأخوة العميقة التي ربط الإسلام بها بين شعوب مختلفة، فقال: (ليست الولادة في البلاد ولا التحنس على الأصول الرسمية شرطًا لمن يريد أن يكون فردًا من أفراد الأمة الإسلامية في قطر من الأقطار، متمتعًا حق التمتع بحقوق الجنسية الإسلامية. فوطن المسلم هو العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه لذلك يستطيع الهابط أية بلاد إسلامية أن ينال للحال أي وقتًا شاء حقوق الوطني المكرم ذي المقام والمترلة بين ظهري القوم. فالعبارة (مصر للمصريين) مثلاً لا تعني ذلك المعنى بعينه الذي تتصوره نحن في الجاري المعتاد. فإذا ما أقام مسلم جزائري أو دمشقي في القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه واعتباره (مصريًا وطنيًا حرًا) بصحيح معنى العبارة. والسبب في ذلك أن من منازع الإسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين والوحدة الدينية والجغرافية الإقليمية. فجميع الأقطار والممالك والبلدان الإسلامية معروفة عند المسلمين (بدور الإسلام) وضدها (دار الحرب) وهي المواطن التي يقطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم أمة واحدة متحدة، الذب عن سياجها والذود عن حياضها، وهذا هو السبب في أننا نرى أنه كلما أصاب اعتداء أجنبي طرفًا من العالم الإسلامي، هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد، على غير أن يكون هناك اشتراك في المصلحة المادية يجمله على ذلك، كأنما المعمور الإسلامي جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتل سائر الأعضاء)<sup>٣</sup>

وقال: (الجامعة الإسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام إنما هي الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي.. لقد كر أكثر من ثلاثة عشر قرنًا فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الإسلامية جانبًا ولا ضعضع لها كيانًا، بل كلما تقادم عليها العهد ازدادت الجامعة شدة وقوة ومنعة واعتزازًا. حقًا أن الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصراني والنصراني. ولا ينكر أن المسلمين يتقاتلون بعضهم مع بعض قتالًا شديدًا، بيد أن هذا ليس له من الشأن أكثر مما ينشأ بين أفراد الأسرة الواحدة المشتبكة الأرحام، إذ لا حقد في الإسلام، فعند الشدائد تذهب الأحقاد بين المسلمين، فيعملوا على

(١) حاضر العالم الإسلامي: ١ / ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) حاضر العالم الإسلامي: ٤ / ٤٣ - ٤٤.

(٣) حاضر العالم الإسلامي: ٤ / ١٢٢.

الأمر الذي فيه يختلفون ويتألبون مجموعاً مترابطة متماسكة لقتال العدو المهاجم وردّ الخطر الداهم. ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراه الإسلام من غرض الجامعة وغايتها فليُنظر إلى حال المسلمين اليوم وإلى تيار هذا التعاطف والتشاكّي كي يعلم سرّ الجامعة ومكانتها في نفوس المسلمين وفي الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمسك بعروقتها كدين الإسلام<sup>١</sup>

وقال: (أي شيء أدل على هياج الإسلام وغيان مراحل عقده من ذلك الثوران الهائل الذي يقوم به السبعون مليوناً من المسلمين في الهند احتجاجاً على تجزئة الدولة العثمانية، والأمر الأخطر أن هذا الثوران الإسلامي ليس مقصوداً على الهند فحسب، بل إنه شامل المعمور الإسلامي)<sup>٢</sup>

وقال: (لا يغرب عن البال أن الروابط الدينية والصلوات الخلقية التهذيبية التي تجمع بين المسلم والمسلم ما انفكت تزيد في توائق المسلمين وتآلفهم، وتعاطفهم وتضامنهم، كأهم في المعمور الإسلامي أمة واحدة بعضها يغار على بعض وجانب يساند آخر. دع ما هو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار إلى كل جهة أرادوا، فازداد بذلك تعارفهم واستمسكت أواصرهم)<sup>٣</sup>

وتحدث عن أسرار انتصار الإسلام، فقال: (كان لنصر الإسلام هذا النصر الخارق عوامل ساعدت عليه، أكبرها أخلاق العرب، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته والحالة العامة التي كان عليها الشرق المعاصر في ذلك العهد.. لقد استطاع محمد، وهو يبشر بالوحدانية تبشيراً عارياً عن زخارف الطقوس والأباطيل أن يستثير حق الاستشارة من نفوس العرب الغيرة الدينية الكامنة.. وإذ هبوا لنصرة دعوة ابن عبد الله - من بعد ما ذهبت من صدورهم الأحقاد الزمنة والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبل الذهاب بجوهرهم وقوتهم - وانضم بعضهم على بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة في رأسها نور للناس وهدى للعالمين، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم في شبه الجزيرة ليفتحوا بلاد الإله الواحد)<sup>٤</sup>

وقال: (لم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي أفواجاً، إيثاراً له.. على دينك الدينيين الذين صاروا غاية في الانحطاط والتدني.. ولم يكن العرب قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير، بل كانوا، على الضدّ من ذلك، أمة موهوبة جليلة الأخلاق والسجايا)<sup>٥</sup>

وقال: (عند اعتبار شأن انتشار الإسلام هذا الانتشار يجب أن تعلم العلم اليقين أن كل مسلم هو بغريزته وفطرته مبشر بدينه، ناشر له بين الشعوب غير المسلمة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعلى ذلك أن نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم.. بل شاركهم فيه جماعات عديدة من السياح والتجار والحجاج على

(١) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٢) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣٢٤.

(٣) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣٢٧.

(٤) حاضر العالم الإسلامي: ١ / ٢.

(٥) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣ - ٤.

اختلاف الأجناس. ولا يؤخذ من هذا أن لم يقيم في المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحمام في سبيل الدعوة الإسلامية فعدد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير، وذلك ظاهر بين في أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج إلى برهان.. وهذه الأعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غربي أفريقية وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم لعجيب من العجائب الكبرى، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر. فقد قال أحد الإنكليز في هذه الصدد منذ عشرين سنة (إن الإسلام ليفوز في أواسط أفريقية فوزاً عظيماً حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من حلول الصباح، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات). وقال مبشر بروتستنتي فرنسي (ما برح الإسلام يتقدم منذ نشوئه حتى اليوم فلم يعثر في سبيله إلا القليل، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب أفريقية مذلاً أشق المصاعب ومجتازاً أشد الصعاب، غير واهن العزم فالإسلام حقاً لا يهرب في سبيله شيئاً، وهو لا ينظر إلى النصرانية، منازعته الشديدة، نظرة المقت والازدراء، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر، إذ بينما كان النصرارى يملمون بفتح أفريقية في نومهم، فتح المسلمون جميع بقاع القارة في يقظتهم)<sup>١</sup>

وقال: (العرب لم يكونوا قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير، بل كانوا، على الضد من ذلك، أمة موهوبة حليمة الأخلاق والسّجايا توافقة إلى ارتشاف العلوم، محسنة في اعتبار نعم التهذيب، تلك النعم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة. وإذ شاع بين الغالبيين والمغلوبين التزواج وتلقيح الأفكار، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة - الحضارة العربية، وهي جماع متحدد للتهذيب اليوناني والروماني والفارسي، ذلك الجماع الذي نفخ فيه العرب روحاً جديدة، فنصر وأزهر، وألّفوا بين عناصره ومواده بالعقريّة العربية والروح الإسلامية، فاتحد وتماسك بعضه ببعض فأشرق وعلا علواً كبيراً. وقد سارت الممالك الإسلامية القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠-١٠٠٠م) أحسن سير، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقياً، وتقدماً وعمراً، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة، والمساحد الفخمة، والجامعات العلمية المنظمة، وفيها مجموع حكمة القدماء ومخترن علومهم، يشعان إشعاعاً باهراً. طول هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الإسلامي يضيء على الغرب النصراني نوراً)<sup>٢</sup>

وتحدث عن سماحة المسلمين، فقال: (كان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره، فلا ضيقوا على النصرارى ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فج من فجاج العالم النصراني)<sup>٣</sup>

وتحدث عن صمود الإسلام عبر التاريخ، فقال: (لا شيء أدل على هذه النهضة الإسلامية الحديثة الكبرى من هذه اليقظة الروحانية الدينية التبشيرية، الناشئة والمنتشرة خلال مئة السنة الأخيرة ولا غرابة في ذلك فقد كان الإسلام على الدوام دين هداية للناس وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، هذا التاريخ شاهد

(١) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣٠١ - ٣٠٢.

(٢) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣ - ٤.

(٣) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ١٣ - ١٤.

حق على ما قام به المبشرون المسلمون في أول عهد الإسلام من الأعمال الجليلة التي لم يقم بمثلها غيرهم من المبشرين. ولا ننسى أن روح التبشير ونشر الدعوة في سبيل الرسالة لم تبرح حية على الدوام، على الخطايط الممالك الإسلامية وتدنيها. فلذلك ما انفك الإسلام طيلة القرون الوسطى ينتشر في الهند والصين، وبينما كانت الرسالة المحمدية تنتشر في نائي تلك الأصقاع، كان الترك ينشرونها ويرفعون أعلامها في شبه جزيرة البلقان، وبين القرنين الرابع عشر والسادس عشر كان المبشرون المسلمون يفتحون بلاد غربي أفريقيا، وجزائر الهند الهولندية، وجزائر الفيليبين فتحًا دينيًا مبيّنًا<sup>١</sup>

وقال: (لقد تحرك (الشرق للجماد) أخيرًا حتى القرارة القصوى من أعماقه وهو اليوم في أشد ما يكون من الانفعال والهباج والفوران. وجميع ذلك قائم فيه وبالغ منه أكثر مما يحال الخائل ويتصور المتصور. فالعالم الإسلامي الذي ظلت قواه العقلية والروحية هاجعة ما يقرب من ألف سنة، قد استيقظ مرة أخرى وطلعت قواه تعمل عملها العجيب، وغدا المسلمون يعظمون شأنًا من جديد ويعلون منزلة في الأرض)

وتحدث عن الحضارة الإسلامية، فقال: (الإسلام، وهو هذا الدين البين الصريح، ما كان ليقيد عقل العربي ويلقي عليه سحوفًا فوق سحوف. والعربي كان قد أدرك حالاً ثار فيه حده واشتعلت غيرته، فبات تواقًا إلى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها، والتكيف على حديث مقتضياتها، والخروج بها عما ألفه أزمانًا في فيافي الصحراء.. لهذا لما نشر العرب فتوحهم ومدوا سلطانهم على الأقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التمتع بالمادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسب، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة. فنشأ عن جميع هذا الجد والترقيات أن أخرج للناس تهذيب عربي سام. فأضاءت العقول وازدهرت ازدهارًا كان فخر الحضارة العربية ودرة تاجها. وكان ربح من الزمن كانت فيه الحضارة مشرقة الشمس، يانعة الثمار، وارفة الظلال. فسادت الحرية العقلية، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية، ووضعت القواعد والأصول، واستنبطت الأحكام. بيد أن هذا لم يكن من صنع العرب وحدهم، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متظللين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الإسلامي يدوقون الأمرين، ويسامون حسفًا شديدًا في سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البيزنطية والمجوسية الفارسية)<sup>٢</sup>

وقال: (إن الشعوب الآسيوية التي يتألف منها سواد المسلمين.. ذات حضارة بديعة حية منذ القرون الخوالي، حضارة هي نتاج إسلامي صرف، متكون من صنع المسلمين وثمرات جهودهم. ومتى أخذنا نعتبر ما قد استطاعته هذه الشعوب الإسلامية من تشييد المعالي، وبلوغ ذروات المجد فيما مضى، أمّا الخطل بقولنا الآن أننا نستبين خلال هذا الغليان الهائل في العالم الإسلامي تجديدًا حقيقيًا، صحيحًا رائعًا، ولا غرابة في ذلك أن عاد الإسلام يستعيد من عزّه الغابر وعلاه السالف، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قبلاً من

(١) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٨.

الحضارة والعمران)<sup>١</sup>

قلت: إن كلمات هذا الرجل تكاد تسلم.

قال: بل إنها أسلمت.. فهذه الكلمات لا يقولها إلا مسلم معتز بإسلامه.

## هارولد ب. سمث:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (هارولد ب. سمث)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل اهتم بالنظم الإنسانية، وقد رأى في الإسلام من الصلاحية ما لم يره بعض المسلمين أنفسهم، وقد دعاه ذلك إلى أن يشهد شهادات صادقة تنم عن فهمه العميق للإسلام.

فقد تحدث بفهم عميق عن نظرة الإسلام لمسؤولية الإنسان عن تصرفاته، والتي تقوم على أساسها النظم الأخلاقية، فقال: (كل إنسان ذو أخلاقية حرة، وهو مسؤول أمام الله عن أفكاره وأحكامه وأعماله.. والله يرشد الإنسان عن طريق الوحي إلى مبادئ أخلاقية عامة منبعثة عن إرادته الأبدية المقدسة. إلا أن في الإنسان قوة كامنة، إذ أن في استطاعته أن يتقبل هدى الله أو يتحول عنه. وهناك آية هامة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢) لا يتحقق معناها إلا على أساس التسليم بالحرية الإنسانية، فقد عرض الله على جميع مخلوقاته مسؤولية المحافظة على الإيمان، وإدارة العالم باسم الله، فقبل الإنسان أن يحمل هذا العبء، على حين رفضته سائر المخلوقات خوفاً وإشفاقاً. ومع أن الإنسان لم يرع ذلك الإيمان، ولم يدر العالم إدارة ذات قيمة، وسلك مسلك الظلم والجهل، فإن في هذا سر عظمتة وخطيئته جميعاً. فلو لم يكن الإنسان حراً ما ارتكب الخطيئة، ولو لم يكن حراً ما ساع أن يحمل الأمانة)<sup>٣</sup>

وتحدث عن أصل الإجماع، وعلاقته بالديمقراطية، فقال: (لما تطور التشريع، وجد مبدأ يمكن أن يكون له القدرة على إحماد الترعات الاستبدادية لبعض الحكام أو الفقهاء، ذلك هو مبدأ الإجماع الذي يعتبر مظهرًا للإرادة العامة. وعلى الرغم من أن الإجماع، في نظر الدقة الفقهية، مقصور على ذوي الدراية من الفقهاء، إنه يحمل في طوياه بذرة مبدأ ديمقراطي، وكان له أحياناً عند التطبيق.. أثر كبير في التعبير عن إجماع أعم من إجماع صفوة قليلة. أما ما يقع من الأفراد من إساءة استعمال للقوانين، أو من عثرات أخلاقية، فإن الإرادة العامة تقوم، أو من شأنها أن تقوم مع مرور الزمن)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن جمع الإسلام بين الفردية والجماعية، فيقول: (يعد الفرد في الإسلام مهماً لأنه وحدة من القوة الأخلاقية وفي العرف الإسلامي تصور آخر يتعلق بالفرد في الجماعة ويمنح الناس وسيلة للترابط،

(١) حاضر العالم الإسلامي، ٤ / ٢.

(٢) د. هارولد ب. سمث Harold B. Smith أستاذ، ونائب رئيس قسم الديانات بكلية (ووستر)، بولاية أوهايو، وكان رئيساً لقسم الفلسفة والأخلاق (بالجامعة الأمريكية) بالقاهرة.

(٣) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٦٠ - ٦١.

(٤) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٦٣.

وإحساساً بالاتحاد لا يوجد أحياناً في التصورات الغربية الحديثة للإنسان. هذه الشخصية المتحدة يعمل على تكوينها التصور الخاص (بدار الإسلام) أي تآخي المؤمنين. وليس هذا التصور مجرد تفكير نظري، إنه واقع غير محسوس يضفي على كل مسلم شعوراً بالترابط الوجداني في سمع كل مسلم آخر، كما يهبه إحساساً بالأمن. فهو ينتمي إلى كل يعلو على فروق اللون، والطبقة، والجنسية (بالمعنى الغربي للكلمة)، ونظم الدولة. إنه يستطيع أن يحس بأنه في داره في أرض شاسعة متناثرة من الساحل الأطلنطي لأفريقيا إلى قلب المحيط الهادي، حيثما كان الإسلام هو الدين السائد والثقافة الغالبة. كل هذا يخلق، أو هو قادر على أن يخلق، روحاً جماعياً، ووحدة بين شعوب لها أهمية بالغة.. وينبغي أن نذكر أن هذه الأخوة تظهر أقوى ما تظهر عندما يهدد العالم الإسلامي، أو أي قسم من أقسامه، مصدر غير إسلامي.. إن هذه الرابطة قوة حقيقة وفي الإمكان أن تصبح عامل تقوية في العالم الإسلامي كله<sup>١</sup>

ويقول: (إن في التصور الإسلامي للإنسان اتجاهًا جمعيًا. فإدراك الإنسان أنه ينتمي إلى كل أكبر، وارتباطه بغيره ممن ينتمون إلى نفس الجماعة التي تؤمن إيمانه، يهيئان للحياة الفردية وضعًا اجتماعيًا ليس له في الغالب وجود في الغرب الذي يترع إلى الفردية. فالأخوة في الإسلام تمب قوة، وأمنًا ومجالاً من الوعي المشترك قد ينتج عنها ذلك النوع من الترابط الذي يتجاوز حدود الأوطان والأجناس، والذي يعمل الناس متلهفين في سبيل تحقيقه في سائر بلاد العالم)<sup>٢</sup>

وهو يعتبر رد الإسلام على الشيوعية بمفاهيمها الفلسفية رداً منطقيًا، فيقول: (إن الإسلام لا يمكن إطلاقاً أن يتفق والحريرية الاقتصادية أو التفسير المادي للتاريخ.. فالإنسان لا تتحكم فيه المادة أو القوى الاقتصادية، إذ إنه في جوهره موجود روحي، ذو صلة بالله، ومن ثم كان كائنًا أخلاقيًا حرًا. وأن الله - لا المادة - هو المتصرف في الحركات التاريخية)<sup>٣</sup>

ولهذا يرى أن العالم الإسلامي يمكنه الاستغناء بنظامه عن الشيوعية، قال: (إن العالم الإسلامي في وضع يسمح له أن ينمّي فلسفته الخاصة المتميزة دون أن يدفعه التقليد الأعمى إلى اتباع الأشكال الشيوعية، أو النظرية السياسية الغربية التي تتجه إلى الفردية.. لقد رأينا أن الإسلام يعترف بالقيمة الذاتية للأفراد، باعتبارهم مدينين بوجودهم لله، ومسؤولين أمامه عن أعمالهم. وهذا يعني أنه لا يمكن لأي فرد أن يندمج اندماجاً كاملاً في بناء إجماعي قاهر مثل البناء الشيوعي. إن الشيوعية - من الوجهتين النظرية والعملية - تستغني عن الفرد إن لم يخدم غرض الدولة.. دون نقاش، وهذا لا يمكن أن يكون في مجتمع إسلامي)<sup>٤</sup>

ويتحدث عن (تآلف المستضعفين) الذي نادى به القرآن<sup>١</sup>، فقال: (أنه لو أمكن إثارة التماسك الإسلامي

(١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٦٣ - ٦٤.

(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٧٥.

(٣) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٧٥.

(٤) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٧٥.

(١) وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٧٥)، انظر في هذا رسالة (ثمار

في سبيل أغراض إيجابية، وتكثيل الأمم الإسلامية الكثيرة المختلفة في وحدة حية، لأمكن أن تصير هذه الوحدة قوة إيجابية في العالم.. بل إن هذه الوحدة لتكون أكثر فاعلية إذا أدخلت في نطاقها من سواها، وإذا بلغ من سماحتها أن تشرذ في وجدانها وفي أخوتها كل مخلوقات الله. ما أروع أن تحتج باكستان على مظالم حلت بأمة أخرى، شديدة البعد عنها جغرافياً، لأن تلك الأمة تنتمي إلى جماعة الأمم الإسلامية! وأروع منه وأجدر أن يضيء طرقاً جديدة في عالمنا الذي مزقته الحرب، أن تنهض أمة إسلامية - باسم المقاصد الحقّة التي يوجه إليها الله الواحد، وباسم الرابطة التي تربط بني الإنسان - محتجة على ظلم أصاب أي شعب ولو كان خارج الكتلة الإسلامية)<sup>١</sup>

ويقول: (من حيث العلاقات الدولية، فإن الأمم الإسلامية، أو الجماعة الإسلامية الكبرى، يجب أن تكون في طبيعة المنتصرين لخلق نوع من المجتمع العالمي من الأمم، ومن العاملين على إيجاد مثل ذلك المجتمع الذي ينظمه وسيطر عليه قانون دولي)<sup>٢</sup>

قلت: لقد نصح المسلمين.. فليتهم سمعوا له.

قال: لقد انشغلوا بسماع كلمات الأعداء عن كلمات الأصدقاء.

### سدني فيشر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (سدني فيشر)<sup>٣</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من المستشرقين له شهادات صادقة:

منها شهادته حول تأثير القرآن الكريم في النفوس والأسماع، قال: (إن القرآن كلام الله يشد فؤاد المسلم، وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن، واعتماداً على أثره البليغ في قلوب قرّائه وسماعيه، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع)<sup>٤</sup>

ومنها شهادته عن القيم التي جاء بها القرآن الكريم، قال: (إن القرآن كتاب تربية وتنقيف، وليس كل ما فيه كلاماً عن الفرائض والشعائر، وإن الفضائل التي يبحث عليها المسلمون من أجمل الفضائل وأرجحها في موازين الأخلاق، وتتجلى هداية الكتاب في نواحيه كما تتجلى في أوامره)<sup>٥</sup>

---

من شجرة النبوة، فصل(خلاص) من هذه السلسلة.

(١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٧٥ - ٧٦.

(٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٧٧.

(٣) الدكتور سدني فيشر Sydney Fisher أستاذ التاريخ في جامعة أوهايو الأمريكية، وصاحب الدراسات المتعددة في شؤون البلاد الشرقية التي يدين الأكترون من أبنائها بالإسلام. مؤلف كتاب (الشرق الأوسط في العصر الإسلامي) والذي يناقش فيه العوامل الفعالة التي يرجع إليها تطور الشعوب والحوادث في هذه البلاد وأولها الإسلام.

(٤) الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٥٤.

(٥) الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٥٤.



وتحدث عن الجمال والمصدقية التي تتسم بها العقيدة الإسلامية، فقال: (إن الوجدانية المترهة هي أجل مطالب الإيمان عند النبي ويوصف الإله مع الوجدانية بصفات العلم المحيط والقدرة المحيطة والرحمة والكرم والغفران.. إن تأكيد صفات البأس والجبروت في كتاب الإسلام إنما تقدم في أوائل الدعوة التي واجه بها النبي جماعة الكفار الملحدون من الملأ المكّي المتعطر المستطيل بالجاه والعزة، ولكن المسلم يعلم من صفات الله أنه واسع الرحمة، وأنه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، وأنه هو نور السماوات والأرض، وهي الصفة.. التي كان لها أبعد الأثر في اجتذاب العقول إلى معانيه الخفية)<sup>١</sup>

ومنها شهادته عن الثمرات العظيمة التي حققها رسول الله ﷺ، قال: (إننا إذا نظرنا إلى مجال الإسلام الواسع في شؤون العقائد الدينية والواجبات الدينية والفضائل الدينية، لم يكن في وسع أحد إلا أن يحب محمداً نبياً مفلحاً جداً ومصلحاً موفقاً لأنه كما قال بعض الكتاب وجد مكة بلدة مادية تجارية تغلب عليها شهوة الكسب المباح وغير المباح ويمتلئ فراغ أهلها بمعاقرة الخمر والمقامرة والفحشاء، ويعامل فيها الأراذل والبيتماء وسائر الضعفاء كأهم من سقط المتاع. فإذا بمحمد وهو فقير من كل ما يعتز به الملأ قد جاءهم بالهداية إلى الله وإلى سبيل الخلاص، وغير مقاييس الأخلاق والآداب في أرجاء البلاد العربية)<sup>٢</sup>

قلت: إن شهادات هذا الرجل لا تقل عن الشهادة التي ينطق بها من أسلم.

قال: صدقت.. فمثل هذه الشهادات لا يمكن إلا أن تصدر من لحظة من لحظات الإيمان الصادق.

## مايكل هارت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مايكل هارت)<sup>٣</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا كاتب منصف أراد أن يصنف الأبطال، فوجد محمداً على رأسهم، وقد ذكر سر هذا التصنيف، فقال: (إن اختياري لمحمد ليكون رأس القائمة التي تضم الأشخاص الذين كان لهم أعظم تأثير عالمي في مختلف المجالات، ربما أدهش كثيراً من القراء.. ولكن في اعتقادي أن محمداً كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمي وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي)<sup>٤</sup>

وقال: (لقد أسس محمد ونشر أحد أعظم الأديان في العالم، وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظام. ففي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرناً تقريباً على وفاته، فإن تأثيره لا يزال قوياً وِعارماً)<sup>٥</sup>

وقال: (من وجهة النظر الدينية الصرفة يبدو أن محمداً كان له تأثير على البشرية عبر التاريخ كما كان للمسيح)<sup>٦</sup>

(١) الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٥٤.

(٢) الشرق الأوسط في العصر الإسلامي، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٥٤ - ٥٥.

(٣) الدكتور مايكل هارت Michael Hart أمريكي، حصل على عدة شهادات في العلوم وعلى الدكتوراه في الفلك من جامعة برنستون، عام ١٩٧٢، عمل في مراكز الأبحاث والمرصد، وهو أحد العلماء المعتمدين في الفيزياء التطبيقية.

(٤) دراسة في المائة الأوائل، ص ١٩.

(٥) دراسة في المائة الأوائل، ص ١٩.

(٦) دراسة في المائة الأوائل، ص ٢٣.

وقال: (إن محمداً يختلف عن المسيح بأنه كان زعيماً دنيوياً فضلاً عن أنه زعيم ديني، وفي الحقيقة إذا أخذنا بعين الاعتبار القوى الدافعة وراء الفتوحات الإسلامية، فإن محمداً يصبح أعظم قائد سياسي على مدى الأجيال)<sup>١</sup>

وقال: (إن هذا الاتحاد الفريد لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معاً يخول محمداً أن يعتبر أعظم شخصية مفردة ذات تأثير في تاريخ البشرية)<sup>٢</sup>

## جورج كمبل:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جورج كمبل)<sup>٣</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لقد ذكر هذا الرجل الإسلام، فقال: (لا يقتصر نفور الأفريقي من السير على المنهاج الغربي، بل يتعداه إلى وجوب البحث عن منهاج آخر أوفق للعقل الأفريقي والظروف الأفريقية، مع تفضيل الإسلام - لتسليمه بمواطن الضعف الإنساني وإغضائه عن فوارق الألوان - على المسيحية بما تدعو إليه من الدقة وتشتمل عليه من الكهنوتية المعقدة والاعتراف بالفوارق الكثيرة، فضلاً عن الارتباط بين وجودها ووجود الطبقات الحاكمة)<sup>٤</sup>

## د. ميلر بروز:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (د. ميلر بروز)<sup>٥</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن اهتمام الإسلام بالعلم ابتداء من مصادره الأصلية.

ومن شهادته المرتبطة بهذا ذكره لتوجيه القرآن للاهتمام بالعلوم المختلفة، قال: (إنه ليس هناك شيء لا ديني في تزايد سيطرة الإنسان على القوى الطبيعية، (هناك آية في القرآن يمكن أن يستنتج منها أنه لعل من أهداف خلق المجموعة الشمسية لفت نظر الإنسان لكي يدرس علم الفلك ويستخدمه في حياته: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس: ٥) وكثيراً ما يشير القرآن إلى إخضاع الطبيعة للإنسان باعتباره إحدى الآيات التي تبعث على الشكر والإيمان: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ فَالْكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ، لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: ١٣) ويذكر القرآن - لا تسخير الحيوان واستخدامه فحسب

(١) دراسة في المائة الأوائل، ص ٢٤.

(٢) دراسة في المائة الأوائل، ص ٢٥.

(٣) جورج كمبل G. Kimble رئيس قسم الجغرافية بجامعة إنديانا الأمريكية، مؤلف كتاب (أفريقية الاستوائية) في مجلدين.

(٤) إفريقية الاستوائية، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام ص ١١٢ - ١١٣.

(٥) د. ميلر بروز، هو رئيس قسم لغات الشرق الأدنى وآدابه وأستاذ الفقه الديني الإنجيلي في جامعة (بيل). وعمل أستاذاً بجامعة براون، وأستاذاً زائراً بالجامعة الأمريكية في بيروت، ومديراً للمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية بالقدس، ومن مؤلفاته:

Founders of Great Religions, ١٩٣١

.What means these Stones, ١٩٤١

.Palestine our Business, ١٩٤١

– ولكن يذكر السفن أيضًا.. فإذا كان الحمل والسفينة من نعم الله العظيمة، أفلا يصدق هذا أكثر على سكة الحديد والسيارة والطائرة؟<sup>١</sup>

ومنها استنتاجه من القرآن الكريم ما يحمله العلم من نواحي النفع والضرر، قال: (إن أعظم نتائج العلم يمكن أن تستخدم في أغراض هدمية أو بنائية. وربما كان هذا هو المقصود بما ورد في القرآن خاصًا باستخدام الحديد: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد: ٢٥) وأظهر مثال من هذه الآية بالضرورة هو استخدام النشاط الذري – الذي نشطت بحوثه – لضرورة حربية<sup>٢</sup>

ومنها حديثه عن سبق المسلمين لأسس العلم الحديث، وحوارهم مع غيرهم من أهل الأديان، قال: (في العصر الذهبي للثقافة الإسلامية، حينما كان علماء المسلمين يفهمون أسس العلم الحديث، كان المفكرون من المسلمين والمسيحيين يبحثون معًا معضلاتهم الفلسفية واللاهوتية المشتركة، ويفيد بعضهم من بعض كثيرًا من ضروب المعرفة)<sup>٣</sup>

ومنها حديثه عن اهتمام المسلمين بالطب، وخدمتهم له: (هل يستطيع العلم حقيقة أن يخدم أغراض الدين؟ صحيح أن العلم قد قام بنصيب كبير في إسعاد الإنسان، ويظهر هذا أكثر ما يظهر في ذلك العلم الذي خدمه علماء الإسلام خدمة ظاهرة، وهو علم الطب)<sup>٤</sup>

## فرانز روزنتال:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فرانز روزنتال)<sup>٥</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل اهتم بالمآثر الحضارية الإسلامية، وخاصة ما ارتبط منها بالتاريخ.

فقد أرجع اهتمام المسلمين بالتاريخ إلى توفر المادة التاريخية في القرآن، قال: (من الدوافع العملية لدراسة التاريخ توفر المادة التاريخية في القرآن مما دفع مفسريه إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه. وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية، على مر الزمن، أحد فروع المعرفة التي تمت بالارتباط بالقرآن. وإذا كان الرسول قد سمع بعض الأخبار والمعلومات التاريخية، فإن هذا لا يبرر الافتراض بأنه قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة في ترجماتها العربية. لقد وردت في القرآن معلومات تاريخية تختلف عما يدعي اليهود وجوده في التوراة، وقد ذكر الرسول أن اليهود والنصارى حرفوا التوراة، وتمسك المسلمون بما جاء في القرآن.. لقد أشار القرآن إلى كثير من الأحداث التي أحاطت بالرسول.. وكان لذلك أهمية في التاريخ الإسلامي لأن الأحداث

(١) الثقافة الإسلامية، ص ٥١.

(٢) الثقافة الإسلامية، ص ٥٤.

(٣) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٤٢.

(٤) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٥١.

(٥) فرانز روزنتال F. Rosenthal من أساتذة جامعة ييل، من آثاره: العديد من الدراسات والأبحاث في المجالات الشهيرة مثل (الثقافة الإسلامية)، (الشرقيات)، (صحيفة الجمعية الأمريكية الشرقية). كما ألف عددًا من الكتب من أشهرها: (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي)، و(علم التاريخ عند المسلمين).

(١) انظر في هذا: رسالة (الكلمات المقدسة) فصل (ربانية) من هذه السلسلة.

التي أشارت إليه الآيات صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين، واستثارت البحوث التاريخية<sup>١</sup> ومثل ذلك ما ورد في الأحاديث النبوية، فهي أيضاً من دوافع الاهتمام بالتاريخ لدى المسلمين، قال: (إن أفكار الرسول التي تلقاها وحياً أو التي أدى إليها اجتهاده نشطت دراسة التاريخ نشاطاً لا مزيد عليه، فقد أصبحت أعمال الأفراد وأحداث الماضي وحوادث كافة شعوب الأرض أموراً ذات أهمية دينية، كما أن شخصية الرسول كانت خطأ فاصلاً واضحاً في كل مجرى التاريخ، ولم يتخط علم التاريخ الإسلامي هذا الخط قط)<sup>٢</sup>

بل هو ينسب تأسيس الاهتمام بالتاريخ للرسول ﷺ، فيقول: (تبقى حقيقة، هي أن الرسول نفسه وضع البذور التي نأجني منها اهتماماً واسعاً بالتاريخ.. لقد كان التاريخ بملأ تفكير الرسول لدرجة كبيرة، وقد ساعد عمله من حيث العموم في تقديم نمو التاريخ الإسلامي في المستقبل، رغم أن الرسول لم يتنبأ بالنمو الهائل للمعرفة والعلم الذي سيتم باسم دينه)<sup>٣</sup>

وتحدث عن وضوح الإسلام مقارنة باليهودية والنصرانية، قال: (عندما ظهر الرسول كانت اليهودية والنصرانية منتشرين في الجزيرة ولهما آراء متشابهة في التفسير التاريخي للحياة الإنسانية غير أن الدين الإسلامي الذي بشر به الرسول كان يتميز بالوضوح والقدرة على تفهم أسس هذا الوجود بصورة واضحة جداً ومن غير تعسف. والواقع أن مفاهيم الإسلام أوضح وأقل جموداً من ناحية العقيدة، ومن مفاهيم اليهود والنصارى الدينية)<sup>٤</sup>

وتحدث عن إعجابه بالحضارة الإسلامية، فقال: (إن نمو المدينة الإسلامية من أروع الأحداث في تاريخ الفكر الإنساني وسيبقى مثار أعظم الإعجاب. ولكن لا يمكن اعتبار هذه المدينة أمراً غامضاً أو معجزة، ولعلها كانت معجزة من حيث حدوثها بسرعة عجيبة لدرجة أنها كملت بعد بدئها بوقت قصير. وقد يمكن أن نعتبرها غامضة من حيث أن كل عمل من الإبداع الفكري، وكل ازدهار في أية مدينة هما أمران لا يحصرهما الإدراك الإنساني التام، أما في الإسلام فإننا نجد أن الأسباب والظروف التي أوجدت المدينة الإسلامية أشد وضوحاً من الأسباب والنتائج التي أوجدت معظم المدن الأخرى)<sup>٥</sup>

وقال: (لقد استطاع الإسلام بفضل الله ثم بفضل أنظمتها العسكرية والظروف التاريخية الملائمة أن يكتسح في زمن قصير بلاداً كانت تتمثل فيها جميع المنجزات الفكرية القائمة آنذاك، وسرعان ما أخذت حضارته تتبنى لنفسها هذه المنجزات بقيامها بحركة ترجمة واسعة واقتباس كبير. ونظراً لأنها حركة روحية جديدة فقد اضطرت إلى عرض معتقداتها لخصومها، وإلى أن تدافع عن علّة وجودها وكان عليها باعتبارها طريقة جديدة في الحياة، أن تصلح المؤسسات الإدارية التي وجدتها في مختلف الأقاليم، وفوق كل هذا فبتقدم الإسلام تماوت

(١) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤١ - ٤٢.

(٢) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤٠.

(٣) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤٥.

(٤) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٣٩.

(٥) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤٥ - ٤٦.

الحوار القديمة من اللغة والعادات، وتوفرت فرصة نادرة لجميع الشعوب والمدنيات لتبدأ حياة فكرية جديدة على أساس المساواة المطلقة وبروح من المنافسة الحرة. وقد تمت في القرن التاسع الميلادي الفترة التكوينية لهذه العمليات وصار كل فرع من فروع المعرفة في الإسلام تتحكم فيه منذ ذلك الوقت قوانين وتقاليد المدنية الإسلامية المستقلة<sup>١</sup>

وقال: (يقول فون كريم عند وصفه النشاط العلمي عند المسلمين: (أن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم. فإنهم كانوا يبذلون نشاطاً واجتهاداً عجيبيين حين يلاحظون ويمحصون وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد. ولذلك فإن أسلوبهم في البحث أكبر ما يكون تأثيراً عندما يكون في نطاق الرواية والوصف. ولذا يحتل التاريخ والجغرافيا المقام الأول في أدبهم وبصفتهم أصحاب ملاحظة دقيقة، وبصفتهم مفكرين مبدعين فإنهم قد أتوا بأعمال رائعة في حقل الرياضيات والفلك. وللسبب ذاته نجح العرب في التشريع وفي وضع قواعد اللغة من صرف ونحو في شكل شامل محكم)<sup>٢</sup>

وهو يرد على تشويه بعض المستشرقين للمنهج العلمي الذي مارسه المسلمون، فيقول: (وكتيراً ما يشوه آراء الغربيين في البحث العلمي عند المسلمين شعورهم بالتفوق والعلو شعوراً لا يرتكز على منطق. فمن العجيب حقاً أن نسمع عالماً أوروبياً يقول عن ياقوت الذي يرفض تصديق إحدى القصص: (يندر جداً أن يبدو ياقوت بهذا التعقل وهذه الرصانة) في الوقت الذي نعلم فيه أن هذا المؤلف الغربي، بقطع النظر عن مؤهلاته العلمية، يبدو قرماً إذا ما قيس بياقوت الحموي)<sup>٣</sup>

وهو يذكر اهتمام المسلمين بالكتب، فيقول: (كانت المكتبة الخاصة، بالنسبة للعالم المسلم، أعز ما يملكه، وكان فقدانها كارثة تترك في نفسه ألماً أشد من اللم الذي يشعر به عالم اليوم إذا ما فقد كتبه)<sup>٤</sup>

## مارتن بلسنر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (مارتن بلسنر)<sup>٥</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات عن امتداد تأثير العلوم الإسلامية في الغرب، من قوله: (لا يكاد يوجد شيء من جهود المسلمين في ميدان العلوم لم يتأثر به الغرب بطريق أو بآخر)<sup>١</sup>

(١) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٤٦.

(٢) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ص ١٥.

(٣) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ص ١٨ - ١٩.

(٤) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ص ٤٩.

(٥) مارتن بلسنر M. Plessner محاضر في معهد العلوم الشرعية بجامعة فرانكفورت. وقد وقف نشاطه على إحصاء ما عرّب من الأدب والفلسفة والعلوم الطبيعية لدى اليونان في العصور الوسطى.

من آثاره: كتب العديد من الدراسات في المجالات الاستشرافية المعروفة ومنها (المخطوطات العربية في استنبول وقونية ودمشق) و(ترجمة العلوم اليونانية إلى العربية) كما كتب العديد من المفردات في دائرة المعارف الإسلامية.

(١) تراث الإسلام، (تصنيف شاخت وبوزوث)، ٣ / ٧٩.

وقال: (أصبح تأثير العلوم عند المسلمين على الغرب ممكناً في المقام الأول نتيجة للفتوح العربية في غرب البحر الأبيض المتوسط. فقد ترك وجود العرب حوالي ثمانمائة عام في شبه جزيرة إيبيريا علامات لا تمحى على الأرض الإيبيرية وعلى الفنون، واللغات التي يتكلمها الناس هناك.. وبالرغم من أن فترة حكم العرب في صقلية وأجزاء من جنوب إيطاليا كانت قصيرة، وأن استمرار التأثير الثقافي للعرب كان أقصر عمراً، فإن هذا التأثير لم يكن في جملته، أقل شدة مما كان عليه في شبه جزيرة إيبيريا)<sup>١</sup>

وقال: (لم تكن علوم المسلمين بطبيعة الحال العامل الوحيد الذي أدى إلى إحياء العلم في الغرب، فتقاليد العلوم القديمة لم تتلاش تماماً وسط الفوضى التي عمّت خلال عصر غزوات البرابرة لأوروبا. ومع ذلك فمن الصحيح أن علماء المسلمين أعطوا العلم الأوروبي قوة دفع جديدة. والأهم من ذلك أن هذا العلم الغربي قد اكتسب مادة أدّت إلى إثرائه بدرجة لا نظير لها بفضل الترجمات العربية عن الإغريق، وكذلك بفضل الإنتاج العلمي المستقلّ للمسلمين أنفسهم)<sup>٢</sup>

وقال: (أضحت اللغة العربية أداة العلم الإسلامي الرئيسية وقامت في المشرق بالدور الذي قامت به اللغة اللاتينية في الغرب.. ولم تحتل اللغة العربية هذه المكانة الرفيعة بذاتها ولكن الموقع المركزي لها بوصفها لغة الدين الإسلامي والإدارة هو الذي أدى إلى تطويعها لتلائم المتطلبات العلمية)<sup>٣</sup>

---

(١) تراث الإسلام، ٣ / ٧٩.

(٢) تراث الإسلام، ٣ / ٨١.

(٣) تراث الإسلام، ٣ / ٨٢، وعن إنجازات المسلمين في ميدان الطب والصيدلية، انظر: المرجع نفسه ٣/١٠٠-١٠٢،

١١٨-١١٩، ١٢١-١٢٨، ١٤١-١٤٨.

## ٥ — أصدقاء من ألمانيا

قلبت بعض الصفحات، فرأيت عنوان (أصدقاء من ألمانيا)، فقلت: هذه بلدك ومسقط رأسك، وهي بلد الفلاسفة والعلوم.. وبلد القوة والبطش.. ألنا فيها أصدقاء؟

قال: أجل.. فيها أصدقاء كثيرون.. وإخوان كثيرون.. وفيها إلى جانبهم كثير من الذين ينتظرون عناوينكم ليبادلوكم الصداقة.

قلت: مرحبا بكل صديق..

قال: رحبوا بأفعالكم، لا بأقوالكم.. فقومي يؤمنون بالقوة ويدينون لها.

قلت: قوة السلاح.

قال: لا.. فتلك أضعف القوى.

قلت: فما القوة التي نحتاجها؟

قال: قوة الإيمان والصدق والإخلاص.. وقوة الحضارة والرقى.. وقوة السلوك والترفع.

قلت: هذه قوى عظيمة؟

قال: لن تنتصروا إلا بها.

### زيغريد هونكه:

كان من أول الأسماء التي رأيتها في هذا المحل (زيغريد هونكه)<sup>١</sup>، فقلت: هذه هي المرأة التي حدثتني حديثها في رحلتك السابقة<sup>٢</sup>.

قال: أجل.. وهي صديقة طيبة، وأخت فاضلة..

قلت: أخت في الدين؟!

قال: يمكنك أن تقول ذلك<sup>٣</sup>.. وشهادتها لا تنطق إلا بذلك.

---

(١) دكتورة زيغريد هونكه Dr. Sigrid Hunke مستشقة ألمانية معاصرة، وهي زوجة الدكتور شولتز، المستشرق الألماني المعروف الذي تعمق في دراسة آداب العرب والاطلاع على آثارهم ومآثرهم. وقد قضت هونكه مع زوجها عامين اثنين في مراكش، كما قامت بعدد من الزيارات للبلدان العربية.

من آثارها: (أثر الأدب العربي في الآداب الأوروبية) وهو أطروحة تقدمت بها لنيل الدكتوراه من جامعة برلين، و(الرجل والمرأة) وهو يتناول جانباً من الحضارة الإسلامية (١٩٩٥)، و(شمس الله تسطع على الغرب) الذي ترجم بعنوان: (شمس العرب تسطع على الغرب)، وهو ثمرة سنين طويلة من البحث والدراسة. وقد سبق الحديث معها في الجزء السابق.

(٢) أجرياً الحوار الافتراضي معها في رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (علوم)

(٣) ذكرنا في هامش الرسالة الماضية أن هناك من أخطر عن إسلامها، ولا بأس من إعادة ما ذكرناه هنا.. فقد ورد في مقال بعنوان (مستشرقون أعلنوا إسلامهم) قول مؤلفه — لم أجد اسمه —: «ويطيب لي هنا أن أثلث بثلاثة الأثافي، قصة العالمة الألمانية زيغريد هونكه صاحبة الكتاب الشهير (شمس العرب تسطع على الغرب) والذي بينت فيه، كما هو معلوم، فضل حضارة المسلمين وتمدهم على الغرب ونهضته الأخيرة بعد عصور الظلام التي غطت أوروبا في غطيظها قروناً طويلة.. زيغريد هونكه التي

قلت: فحدثني أحاديثها.. فما أعذب أحاديثها.

قال: إن معظم شهاداتها ترتبط بالثمرات العظيمة التي حققتها النبوة.. فهي من قوم يزنون النجاح والفشل بالمنجزات.

ومن ذلك مقارنتها بين دعوة الإسلام للعلم واهتمامه به، بالمسيحية التي احتقرت العلم، قالت: (لقد أوصى محمد كل مؤمن رجلاً كان أو امرأة بطلب العلم، وجعل من ذلك واجباً دينياً. وكان يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة التعرف على قدرة الخالق. وكان يرى أن المعرفة تنير طريق الإيمان.. وبلغت أنظارهم إلى علوم كل الشعوب، فالعلم يخدم الدين والمعرفة من الله وترجع إليه، لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها وينالوها أيما كان مصدرها ولو نطق بالعلم كافر. وعلى النقيض تماماً يتساءل بولس الرسول Paulus مقرأً: (ألم يصف الرب المعرفة الدنيوية بالغباوة)؟ مفهومان مختلفان، بل عالمان منفصلان تماماً، حدّداً بهذا طريقين متناقضين للعلم والفكر في الشرق والغرب وبهذا اتسعت الهوة بين الحضارة العربية الشامخة والمعرفة السطحية المعاصرة في أوروبا حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها)<sup>١</sup>

وقالت: (لم تكن المساجد مجرد أماكن تؤدي فيها الصلوات فحسب، بل كانت منبراً للعلوم والمعارف، كما ارتفعت فيها كلمات الرسول فوق مجد التدنّ الأعمى. ألم يقل أوقالاً، كان يكفي لأن يقولها في روما حتى يحاكم عليها بتهمة الهرطقة؟ أو ليس هو القائل بأن حبر الطالب أقدس من دم الشهيد؟)<sup>٢</sup>

وتحدثت عن الثراء الفكري للإسلام، والذي حصل بسبب مناقشته للأديان الأخرى، فالإسلام لم يستفد من مناظرته لمخالفه إلا قوة، قالت: (لم تلبث الديانة الإسلامية الفتية السائرة في طريقها بعزم وثبات، أن

---

تملّك حبُّ العرب وثقافتهم ومجدهم شغاف قلبها بما لا يكاد أن يكون له مثيل بين الأوربيين وأحبت الإسلام لحبها لهم ولعلمها بأنه هو الذي أخرجهم بين الأمم خير أمة أخرجت للناس.

وقد حدثني بخبرها الدكتور علي الدفاع عالم الرياضيات المعروف في جامعة البترول بالظهران بنفسه مشافهة قال: كنت في أحد المؤتمرات العلمية في أوروبا وقد تحدثتُ إلى الدكتورة هونكة وكنت مطلعاً على كتاباتها وإنصافها لعقيدتنا وحضارتنا ورأيها وقد كبرتُ سنّها قلت لها: إن لي حلماً جميلاً أرجو له أن يتحقق!! فقالت لي: وما هذا الحلم.. قال فأجبتها: بأن حياتك العلمية والثقافية الطويلة في الدفاع عن مآثر العرب والمسلمين وتاريخهم أرجو أن يكون لهذه الحياة الحافلة وهذه السيرة العلمية المميزة تكملة جميلة وأن تتحم بأحسن ختام وذلك بأن تدخلني في الإسلام!! قال محدثي: وقد رأيتُ عينها اغرورقتا بالدموع ثم قالت لي بالعربية الفصيحة: «بيني وبين ذلك قاب قوسين أو أدنى» قال فما مر عام أو أكثر حتى سمعتُ خبر اعتناقها للإسلام وسمعتُ خبر وفاتها بعد ذلك بمدة رحمة الله..

وعندما سُئلتُ في أحد المؤتمرات الإسلامية ما نصيحتها للمرأة العربية التي تريد طي الماضي وخلع الحجاب، قالت زيفريد هونكة: «.. لا ينبغي لها أن تتخذ المرأة الأوروبية أو الأمريكية أو الروسية قدوةً تحتذيها، أو أن تهتدي بفكر عقدي مهمها كان مصدره، لأن في ذلك تمكيننا جديداً للفكر الدخيل المؤدي إلى فقدانها مقومات شخصيتها، وإنما ينبغي عليها أن تستمسك بمهدي الإسلام الأصيل، وأن تسلك سبيل السابقات من السلف الصالح، اللاتي عشنه منطلقات من قانون الفطرة التي فُطرنَ عليها، وأن تلتمس العربية لديهن المعايير والقيم التي عشن وفقاً لها، وأن تكيف تلك المعايير والقيم مع متطلبات العصر الضرورية وأن تضع نصب عينها رسالتها الخطيرة المثلة في كوفها أم جيل الغد العربي، الذي يجب أن ينشأ عصامياً يعتمد على نفسه»

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٦٩.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٩٦.



اصطدمت بالديانات الأخرى في كل مكان. فهنا يقف رجال المذاهب المسيحية وجهاً لوجه أمام رجال المذاهب الإسلامية على أتم استعداد للمجادلة، وهنا تقسم هذه المحادلات واختلاف وجهات النظر المسلمين أنفسهم إلى مدارس ومذاهب، وكان من الممكن أن يؤدي هذا إلى نهاية النهضة العربية الإسلامية وهي في مهدها. ولكن ما حدث كان على خلاف ذلك تماماً، فإن إكراه الإسلام للفتى على أن يجرب قواه الفكرية مع ديانات وفلسفات أخرى في محاجات فكرية وفلسفية قد أفاده أكبر إفادة وأكسبه خبرة ومراناً<sup>١</sup> وتحدثت بإعجاب عن صفاء التوحيد في الإسلام، وخلو العبودية فيه من الاستعباد للوسائط، قالت: (الإسلام لا يعرف وسيطاً بين العبد والرب.. ولم يكن لديه طبقة من الكهنة.. وعلى العموم فإن مجال حرية الرأي كان أوسع مما هو عليه الحال في الديانات الأخرى)<sup>٢</sup>

وقارنت في هذا المجال بين المسجد والكنيسة، فقالت: (لم يكن المسجد تقليدياً للكنيسة بالمرّة، حتى ولو ارتفعت سقوفه فوق عمد، كانت يوماً ما، تحمل سقف كنيسة. فمفهوم المسجد يختلف عند المسلمين تمام الاختلاف منذ البداية عن مفهوم المسيحيين للكنيسة. فليس المسجد بيت الله المقدس الذي يتقرب فيه المؤمن من الله عن طريق وساطة الكاهن. فمن قبيل التبرك، أصبح بناء الكنيسة يرمز حرفياً، وليس معنوياً، إلى مملكة السماء التي يحكمها المسيح وإلى البيت المقدس الذي هبط من السماء إلى الأرض. وظلت الكنيسة تحمل هذا المعنى على مر العصور.. أما المسجد فقد تحرر من تلك الأفكار، وكان هدفه بسيطاً واقعياً. فالعالم كله مسجد كبير بني لله.. ولم يفرض عليه الإسلام ضرورة الصلاة في مسجد أو معبد. وعبادته ليست مرتبطة بوجود كاهن مبارك يمثل دور الوسيط بينه وبين ربه، فكل إنسان في نظره عبد لله قادر على أن يؤم المصلين في المسجد.. فالجامع هو الذي يجمع المسلمين. وهو ليس بالمكان الخاص الذي يرتفع ببركاته وقديسيته، كالكنيسة، على بقية منازل الناس ومساكنهم. ولهذا لم يهتمّ المسلمون كثيراً بمظهر المساجد الخارجي. والصلاة للجميع على قدم المساواة فيقف العالم بجوار السقاء وقائد الجيش بجوار الجندي، والإمام بملابسه العادية لا يميزه شيء عن الآخرين.. فالكل سواسية كأسنان المشط. وقد كان هذا الأساس الديمقراطي للإسلام هو الذي جعل المساجد تتسع ولا ترتفع لتضم مزيداً من الأروقة للمؤمنين المتساوين في الحقوق والواجبات.. والمسجد لا يحاول التأثير على الفرد موضوعياً أو حسياً فهو بيت الله، والله واحد لا شريك له ولم يكن له كفواً أحد)<sup>٣</sup>

وتحدثت عن سماحة المسلمين رغم قوتهم، واعتبرت ذلك من أهم عوامل الانتصار: (لعلّ من أهمّ عوامل انتصارات العرب ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم فما يدعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة عن تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة. والتاريخ لا يقدم لنا في صفحاته الطوال إلا عدداً ضئيلاً من الشعوب التي عاملت خصومها

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٧٢، وهذا ما يدعو إلى الاستفادة من تراث المسلمين جميعاً بمدارسهم جميعاً، فلا يمكن أن يمثل الإسلام في وظيفته الدعوية مدرسة واحدة، فالعقول المختلفة تستدعي تنوعاً في الطرح.  
(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٧٣.  
(٣) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٧٧ - ٤٧٩.

والمخالفين لها في العقيدة يمثل ما فعل العرب. وكان لمسلكتهم هذا أثر مما أتاح للحضارة العربية أن تتغلغل بين تلك الشعوب بنجاح لم تحظ به الحضارة الإغريقية بيريقيها الزائف ولا الحضارة الرومانية بعنفها في فرض إرادتها بالقوة<sup>١</sup>

وقالت: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: من الآية ٢٥٦) هذا ما أمر به القرآن الكريم، وبناء على ذلك فإن العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام. فالمسيحيون والزرادشتيون واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سمح لهم جميعاً دون أي عائق بمنعهم، بممارسة شعائر دينهم. وترك لهم المسلمون بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأخبارهم دون أن يمسوهم بأذى. أو ليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟ ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فظائع الإسبان واضطهادات اليهود؟ إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا بأنفسهم في شئون تلك الشعوب الداخلية. فبطريك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع الميلادي لأخيه بطريك القسطنطينية عن العرب: (أنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف)<sup>٢</sup>

وقالت: (إن الإنسانية والتسامح العربي هما اللذان دفعا الشعوب ذات الديانة المختلفة إلى أن تعيش في انسجام مدهش.. وأن تبدأ نموها وتوسعها وازدهارها ولأول مرة يتحرر أصحاب المذاهب المسيحية.. من اضطهاد كنيسة الدولة فتنتشر مذاهبهم بحرية ويسر.. واستطاع العربي بإيمانه العميق أن يكون أبلغ سفير وداعية لديانته، لا بالتبشير وإيفاد البعثات وإنما بخلق الكرم وسلوكه الحميد. فكسب بذلك لدينه عدداً وفيراً لم تكن أية دعاوى مهما بلغ شأوها لتستطيع أن تكسب مثله)<sup>٣</sup>

وقالت: (إن الأديرة المسيحية في سورية، التي كادت أن تنمحي في عصر الحكم المسيحي وصلت إلى ذروة عظمتها في الدولة الإسلامية، أو ليس هذا بغريب؟)<sup>٤</sup>

وقالت: (أو ليس من العجيب أن نتساءل لماذا نفسر كما يحلو لنا، والعرب المسلمون قد فتحوا فعلاً جزءاً من أوروبا هو الأندلس، فلم يقضوا على المسيحية التي يزعمون أن شارمارتل قد حمأها، ولم يقضوا على المدنية الغربية التي لم يكن لها وجود؟)<sup>٥</sup>

وتحدثت عن الإجحاف الذي قابل به الغرب الحضارة الإسلامية، والثقافة الإسلامية، فقالت: (يخيل إليّ أن الوقت قد حان للتحدث عن شعب قد أُنر بقوة على مجرى الأحداث العالمية، ويدين له الغرب، كما تدين له الإنسانية كافة بالشيء الكثير. وعلى الرغم من ذلك فإن من يتصفح مائة كتاب تاريخي، لا يجد اسماً لذلك الشعب في ثمانية وتسعين منها)<sup>٦</sup>

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٦٤.

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٦٦.

(٤) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٦٨.

(٥) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٥٤٠.

(٦) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ١٠.

وتحدثت عن تأثير الحضارة الإسلامية في أوروبا، فقالت: (إن في لغتنا كلمات عربية عديدة، وإننا لندين - والتاريخ شاهد على ذلك - في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب. وكما أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواء باهرة جميلة على علمنا الرتيب، الذي كان يوماً من الأيام قائماً كالحلأ باهتاً وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة، وطيبته بالعبير العابق، وأحياناً باللون الساحر، وزادته صحة وجمالاً وأناقة وروعة)<sup>١</sup>

وقالت: (إن أرقام العرب والآتهم التي بلغوا بها حدًا قريبًا من الكمال وحسبهم وجبرهم وعلمهم في المثلثات الدائرية، وبصرياتهم الدقيقة، كل ذلك أفضل عربية على الغرب ارتقت بأوروبية إلى مكانة، مكنتها عن طريق اختراعاتها واكتشافاتها الخاصة، من أن تتزعم العالم في ميادين العلوم التطبيقية منذ ذلك التاريخ حتى أيامنا هذه)<sup>٢</sup>

وقالت: (إن التأثير العربي في أوروبا ظل حتى القرن التاسع عشر وإن اختفى شكلاً، فتغلغل في أعماق الحياة الأوروبية، ورآه من يرغب في رؤيته، وأغفله من حجب بصره كره أرعن أو تعصب أعمى)<sup>٣</sup>

وتحدثت عن تكريم الإسلام للمرأة، فقالت: (ظلت المرأة في الإسلام تحتل مكانة أعلى وأرفع مما احتلته في الجاهلية. ألم تكن حديجة رضي الله عنها زوجة النبي الأولى، التي عاش معها أربعة وعشرين عاماً، أرملة لها شخصيتها ومالها ومكانتها الرفيعة في مجتمعتها؟ لقد كانت نموذجاً لشريفات العرب، أجاز لها الرسول أن تستزيد من العلم والمعرفة كالرجال تماماً؛ وسار الركب وشاهد الناس سيدات يدرسن القانون والشرع ويلقن المحاضرات في المساجد ويفسرن أحكام الدين. فكانت السيدة تنتهي دراستها على يد كبار العلماء، ثم تنال منهم تصريحاً لتدرّس هي بنفسها ما تعلمته، فتصبح الأستاذة الشيخة. كما لمعت من بينهن أدبيات وشاعرات، والناس لا ترى في ذلك غضاضة أو خروجاً على التقاليد)<sup>٤</sup>

وقالت: (إن النساء في صدر الإسلام لم يكن مظلومات أو مقيدات، ولكن هل دام هذا طويلاً؟ لقد هبت على القصور العباسيين رياح جديدة قدمت من الشمال غيرت الأوضاع، وقدم الحرّم من الجاريات الفارسيات واليونانيات.. وكان أن حرمت المرأة العربية من مكانتها الرفيعة في المجتمعات حرياتها حين سيطرت على المجتمع العادات الفارسية القديمة. والإسلام بريء من كل ما حدث، والرسول لم يأمر قط بحجب النساء عن المجتمع. لقد أمر المؤمنين من الرجال والنساء على حد سواء، بأن يعضوا الطرف وأن يحافظوا على أعراضهم وأمر النساء ألا يظهرن من أجسادهن إلا ما لا بد من ظهوره، وألا يظهرن محاسن أجسادهن إلا في حضرة أزواجهن)<sup>٥</sup>

وقالت: (إن احترام العرب لعالم النساء واهتمامهم به ليظهران بوضوح عندما نرى أنهم خصّوه بفيض من

- 
- (١) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٠.
  - (٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ١٦٣.
  - (٣) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٣٤.
  - (٤) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٧٠.
  - (٥) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٧٠ - ٤٧١.

العطور وبأنواع الزينة، التي وإن لم تكن غير مجهولة قبلهم، إلا أنها فاحت بثروة الشرق العطرية الزكية، وبالأساليب الفائقة في تحضيرها. كذلك فإن العثون الذي كان يزين الوجوه الحليقة، منذ حملات الصليبيين، على طريقة النبي محمد قد أصبح نموذجًا يقلده الرجال<sup>١</sup>

وقالت: (قاوم العرب كل التيارات المعادية للمرأة واستطاعوا القضاء على هذا العداء للمرأة والطبيعة، وجعلوا من منهجهم مثلاً احتذاه الغرب ولا يملك الآن منه فكاًكاً، وأصبح الاستمتاع بالجمال جزءاً من حياة الأوروبيين شاءوا أم أبوا)<sup>٢</sup>

وقالت: (الإسلام قدس الزواج وطالب بالعدل بين الزوجين أو الثلاث أو الأربع في المعاملة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء: من الآية ٣) أليس هذا نصاً صريحاً يطلب فيه من المؤمنين ألا يتزوجوا بأكثر من واحدة إلا إذا كان في استطاعتهم تحري العدل بين النساء؟ والمشكلة لم تكن اقتصادية فحسب، فمؤرخو العرب يذكرون أن العربي الأصل المؤمن لم يكن يتخذ إلا زوجة واحدة يبقى مخلصاً لها وتبقى هي مخصصة له حتى يفرق بينهما الموت)<sup>٣</sup>

### إلس ليختنستادتر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (إلس ليختنستادتر)<sup>٤</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذه امرأة فاضلة رأيت في كلماتها نفحة من نفحات الصدق، فسجلتها.

لقد تحدثت عن عقيدة المسلمين في القرآن الكريم، فقالت: (إن المسلم العصري يعتقد أن كتابه المنزل يسمح له، بل يوجب عليه، أن يعالج مشكلات عصره بما يوافق الدين ولا يضيع المصلحة أو يصد عن المعرفة كما انتهت إليها علوم زمنه.. وإن مزية القرآن - في عقيدة المسلم - أنه متمم للكتب السماوية ويوافقها في أصول الإيمان، ولكنه يختلف عنها في صفته العامة فلا يرتبط برسالة محدودة تمضي مع مضي عهدها ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها. وكل ما يراد به الدوام، ينبغي أن يوافق كل جيل ويصلح لكل أوان)<sup>٥</sup>

وتحدثت عن دور القرآن في إشاعة القيم الفاضلة، فقالت: (إنه من الضروري لإدراك عمل القرآن من حيث هو كتاب ديني وكتاب اجتماعي أن ندرك صدق المسلم حين يؤكد أن القرآن يمكن أن يظل أساساً لإدراك الحكم المعقدة التي تعالج مشكلات المجتمع الحديث. فإن النبي يرى أن القرآن هو حلقة الاتصال بين الإله في كماله الإلهي وبين خليفته التي يتجلى فيها بفيوضه الربانية وآيتها الكبرى الإنسان. وإن واجب الإنسان أن يعمل بمشيئة الله للتنسيق بين العالم الإلهي وبين عالم الخلق والشهادة، وخير ما يدرك به هذا المطلب أن تتولاه

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٥٣.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٦٨.

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٧٢.

(٤) الدكتورة إلس ليختنستادتر Ilse Lichtenstadter سيدة ألمانية، درست العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت، ثم في جامعة لندن، وأقامت زهاء ثلاثين سنة بين بلاد الشرقين الأدنى والأوسط، وعينت عناية خاصة بدعوات الاجتهاد والتجديد والمقابلة بين المذاهب. من مؤلفاتها (الإسلام والعصر الحديث).

(٥) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ١٩.

جماعة إنسانية تتحرى أعمق الأوامر الإلهية وألزمها وهي أوامر العدل للجميع والرحمة بالضعيف والرفق والإحسان. وتلك هي الوسائل التي يضعها الله في يد الإنسان لتحقيق نجاته، فهو ثم مسؤول عن أعماله ومسؤول كذلك عن مصيره<sup>١</sup>

وردت على الشبه التي يثيرها الغرب من انتشار الإسلام بالسيف مبينة سماحة الإسلام، فقالت: (لقد جسمت العداوة المسيحية خطر الحرب المقدسة في إخضاع البلاد التي لا تدين بالإسلام للسيطرة الإسلامية، إذ أن القتال لم يكن له كل هذا العمل في انتشار الفتوح حتى في إبان القرن الأول بعد الدعوة، وإنما تم معظم هذا الفتوح بالتسليم ومعاهدات الصلح، ووردت في هذه المعاهدات فقرات تبيح لأهل الكتاب من أبناء البلاد المفتوحة أن يحتفظوا بعقائدهم وشعائهم بشروط ليس على الحملة بالمرهقة. فليست فكرة النار والمدن بالفكرة الصحيحة التي يؤيدها الواقع، ومن الميسور كما يقول المؤرخ توينبي أن يسقط الدعوة التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلوًا في تجسيم أثر الإكراه في الدعوة الإسلامية، إذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الإسلام والسيف وإنما كان تخييراً بين الإسلام والحزبية وهي الخطة التي استحكمت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في البلاد الإنجليزية على عهد الملكة اليبابات)<sup>٢</sup>

وتحدثت عن النظام السياسي الإسلامي، وما يجويه من قيم العدالة، فقالت: (إن تاريخ الحكم الإسلامي يدحض ظنون بعض الغربيين من أن الإسلام لا يصلح لإقامة دولة تساس فيها الأمور على قواعد المصلحة الاجتماعية وحسن العشرة بين المسلمين وغير المسلمين، وأن مفكري الإسلام في جميع العصور بحثوا قواعد الحكم والعرف من الوجهة الفلسفية وأخرجوا لأهمهم مذاهب في السياسة والولاية تسمو إلى الطبقة العليا)<sup>٣</sup>

## آدم متز:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (آدم متز)<sup>٤</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل فاضل من أهل بلدنا، وله شهادات طيبة ترتبط بالجانب الحضاري والأخلاقي في الإسلام رد بها على التشويه الذي يثيره بعض قومنا.

ومن ذلك شهادته بتكريم الإسلام للرفيق، قال: (جرت العادة منذ العصر الأول للإسلام بأن لا يسمى العبيد عبيدًا، بل يسمى العبد فتى والأمة فتاة؛ وقد نسب هذا - كما نسب كثير غيره إلى أمر النبي. وكان من التقوى وشرف النفس ألا يضرب الرجل عبده، ويروى عن النبي أنه قال: «شر الناس من أكل وحده ومنع رفته وضرب عبده»، وهذا الشعور نبيل عبر عنه أبو الليث السمرقندي (المتوفى سنة ٣٨٧هـ - ٩٩٧م)

(١) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ١٩.

(٢) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٢٢ - ٢٣.

(٣) الإسلام والعصر الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٢٣ - ٢٤.

(٤) آدم متز (١٨٦٩-١٩١٧) A. Metz تخرج من جامعات ألمانيا، وعين أستاذًا للغات السامية، في جامعة بازل بسويسرا، وقد تخصص بالأدب العربي في العصر العباسي.

من آثاره: (أبو القاسم وتقاليد بغداد في عصره) (١٩٠٢)، (فضة الإسلام في القرن الرابع الهجري) (١٩٢٢)، وقد ترجم إلى العربية بعنوان: (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري).

بروايته هذا الحديث. وفي القرن الرابع الهجري اتخذ بعضهم من قوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: من الآية ١٠) نقداً يوجهونه لمن يضرب عبده)<sup>١</sup>

وقال: (كان في الإسلام مبدأ في مصلحة الرقيق، وذلك أن الواحد منهم كان يستطيع أن يشتري حريته بدفع قدر من المال، وقد كان للعبد أو الجارية الحق في أن يشتغل مستقلاً بالعمل الذي يريده.. وكذلك كان من البر والعادات المحمودة أن يوصي الإنسان قبل مماته بعنق بعض العبيد الذين يملكهم)<sup>٢</sup>

وتحدث عن الحرية التي كانت تسود الأقطار الإسلامية إبان الحكم الإسلامي، فقال: (كان المسلم يستطيع أن يرتحل في داخل حدود المملكة (الإسلامية) في ظل دينه وتحت رايته، وفيها يجد الناس يعبدون الإله الواحد الذي يعبده، ويصلون كما يصلي، وكذلك يجد شريعة واحدة وعرفاً واحداً، وعادات واحدة. وكان يوجد في هذه المملكة الإسلامية قانون عملي يضمن للمسلم حق المواطن، بحيث يكون آمناً على حريته الشخصية أن يمسها أحد، وبحيث لا يستطيع أحد أن يسترقه على أي صورة من الصور. وقد طوّف (الرحالة المعروف) ناصر خسرو في هذه البلاد كلها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) دون أن يلاقي من المضايقات ما كان يلاقيه الألماني الذي كان ينتقل في ألمانيا في القرن الثامن عشر للميلاد)<sup>٣</sup>

وتحدث عن سماحة المسلمين مع أهل الديانات المختلفة، فقال: (إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها على المسيحية في العصور الوسطى وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين وأولئك هم (أهل الذمة) الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلاً بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية.. واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود وما منحوه من حقوق فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين وقد كان وجودهم سبباً لظهور مبادئ التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق مما أوجد من أول الأمر نوعاً من التسامح الذي لم يكن معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم)<sup>٤</sup>

وقال: (ولم يكن في التشيع الإسلامي ما يعلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال، وكان قدمهم راسخاً في الصنائع التي تدرّ الأرباح الوفرة، فكانوا صيارفة وتجاراً وأصحاب ضياع وأطباء. بل إن أهل الذمة نظمو أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام مثلاً يهوداً، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى. وكان رئيس النصارى في بغداد هو طبيب الخليفة، وكان رواد اليهود وجهابذتهم عنده)<sup>٥</sup>

وقال: (كانت حياة الذمي عند أبي حنيفة وابن حنبل تكافئ حياة المسلم، ودية المسلم، وهي مسألة مهمة

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ١ / ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ١ / ٢٩٠، وسرى التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في رسالة (رحمة للعالمين) من هذه السلسلة.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: ١ / ٤.

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ٥٧.

(٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ٦٨ - ٦٩.

جدًا من حيث المبدأ.. ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحض مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم.. وكذلك ازدهرت الأديرة بهدوء<sup>١</sup> وقال: (ومن الأمور التي تعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية)<sup>٢</sup> وقال: (كان تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى، وهو التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى، سببًا في أن لحق بمباحث علم الكلام شيء لم يمكن قط من مظاهر العصور الوسطى، وهو علم مقارنة الملل)<sup>٣</sup>

### د. ج. كامبفاير:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (د. ج. كامبفاير)<sup>٤</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل عاقل من أهل بلدنا عرف قوة المسلمين وسلامهم، فلذلك خاطب فراعة قومنا بما خاطب به مؤمن آل فرعون فرعون وزبائنته، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ (غافر: من الآية ٢٨) أما هذا الرجل الفاضل، فقال: (إن الاعتداء على الإسلام لا ترجى منه فائدة.. ولن يرد المسلمين عن دينهم ولن يعوق النهضة الإسلامية بل سيقويها)<sup>٥</sup>

وقال: (إن في الشرق العربي الأدنى على وجه التأكيد هضبة إسلامية قوية خلقية ودينية واجتماعية، ستكون أساس الحياة القومية الجديدة، وإذا عرفنا هذا تجلت حقيقة مهمة هي أن تنصير المسلمين مستحيل الآن.. فهل سيعارض المبشرون في جعل الدين - ولو كان الإسلام - أساسًا للحياة القومية الصحيحة؟ وإذا كان تنصير المسلمين في الظروف الحاضرة مستحيلًا فلم يبق أمام هذه الشعوب الإسلامية إلا أحد أمرين: إما النهضة الإسلامية وإما المادية والفساد الخلقي.. فأيهما خير للشعوب الإسلامية؟)<sup>٦</sup>

وتحدث عن بعض أسباب الوحدة الإسلامية التي تجعلها جدارًا حصينا ضد كل محاولات الاختراق، فقال: (إن العربية، وهي لسان الإسلام غير مدافع، تدرس وتعرف حق المعرفة في العالم الإسلامي كله من المحيط الأطلسي إلى الهند وجاوة وبذلك تسهل انتشار الحركات الروحية انتشاراً يتجاوز بكثير حدود البلاد التي تنشأ فيها ويعين على انتشارها عوامل أخرى أكبرها الصحافة العربية.. ويلعب الحج دوره أيضاً في المزج الروحي بين

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ٦٩ - ٧٠.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ٨٧.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: ١ / ٣٦٦.

(٤) د. ج. كامبفاير (١٨٦٤ - ١٩٣٦) G. Kampfmayer تخرج باللغات الشرقية في ليبزغ، وتخصص في الإسلام الحديث والعربية المعاصرة من معهد اللغات الشرقية ببرلين (١٩٠٧)، ورأس تحرير مجلة (عالم الإسلام) التي نشر فيها دراسات عن المؤلفات الحديثة في الآداب المعاصرة.

من آثاره: (النصوص والأعمال في تاريخ الأمة العربية الحديثة) (١٩٢٤)، (دراسات في الأدب العربي المعاصر) (١٩٢٥) - (١٩٢٦) و(شعراء العرب في العصر الحاضر).. إلخ.

(٥) وجهة الإسلام، ص ١٠٣.

(٦) وجهة الإسلام، ص ١٠٢.

مختلف شعوب الإسلام، وأن تجاور البلاد في الشرق الأدنى الناطق بالضاد، وبوجه أدق في المساحة التي تشغلها مصر وجزيرة العرب والعراق وسوريا وفلسطين وراقي وسائل المواصلات إلى جانب الصحافة تعمل بوجه خاص على إخماء العواطف والأمان الإسلامية العامة)<sup>١</sup>

وتنبأ بنهضة الإسلام، فقال: (أستطيع أن أؤكد أن البلاد الناطقة بالضاد ولا سيما مركزها العظيم الذي يتكون من الكتلة المتماسكة التي قوامها مصر وجزيرة العرب وفلسطين وسوريا والعراق ستلعب دوراً غاية في الأهمية وربما كان دوراً حاسماً.. ونهضة الإسلام في هذه البلاد أمر واقع لا سبيل إلى رده، ولن يحدث في البلاد العربية شيء يشبه ما حدث في تركيا فلن يقطع العرب الصلة بتاريخهم الإسلامي والأدبي الجيد، بل إن ذكرى هذا الماضي من عوامل النهضة الوطنية والدينية ولن تستبدل هذه الشعوب الكتابة اللاتينية بالكتابة العربية.. ولن يبنذوا هذه الوسيلة المدهشة التي تمكنهم من الاتصال بالعالم الإسلامي كله، ولن يقوى أحد على إيقاف حركة النهضة الإسلامية في هذه البلاد لأنها الأساس الذي يحتاج إليه الناس لتقوم عليه نهضتهم الوطنية.. وستصير كل من القاهرة والقدس بالتدرج مركزاً عظيماً للحياة الإسلامية بعد مكة وسيقدم طلب العلم (كما حدث فعلاً) من البلاد الناطقة بالضاد في المغرب شطر مصر وفلسطين.. ثم سيعودون إلى بلادهم ليزيدوا نهضة الشرق شيئاً فشيئاً وسيحدث مثل هذا الأثر في الأصقاع الأخرى من العالم الإسلامي.. ولن يقوى الانحلال السياسي على تغيير شيء من خصائص الحاجات الوطنية والدينية العامة)<sup>٢</sup>

## رودي بارت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (رودي بارت)<sup>٣</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لقد أنطق الله هذا الرجل بشهادات صدق، كان منها شهادته عن موقف بعض ممثلي حركة التنوير من رسول الله ﷺ، قال: (كان من بين ممثلي حركة التنوير من رأوا في النبي العربي أدلة الله، ومشرعاً حكيماً، ورسولاً للفضيلة، وناطقاً بكلمة الدين الطبيعي الفطري، مبشراً به)<sup>٤</sup>

وتحدث عن بعض ثمار النبوة، فقال: (كان العرب يعيشون منذ قرون طويلة في بوادي وواحات شبه الجزيرة، يعيشون فيها فساداً. حتى أتى محمد ودعاهم إلى الإيمان بإله واحد، خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد

(١) وجهة الإسلام (بإشراف كب)، ص ٦٩.

(٢) وجهة الإسلام، ص ٩٩.

(٣) رودي بارت Rudi Part عالم ألماني معاصر، ولد عام ١٩٠١، درس في جامعة توبنجن اللغات السامية والتركية والفارسية في الفترة من ١٩٢٠ حتى ١٩٢٤ وتخرج على يد المستشرق الألماني ليمان. أمضى سنتين في القاهرة (١٩٢٥-١٩٢٦)، كان اهتمامه في البداية بالأدب الشعبي ولكنه تحول إلى الاهتمام باللغة العربية والدراسات الإسلامية وبخاصة القرآن الكريم. تولى العديد من المناصب العلمية منها مدرس في جامعة توبنجن وأستاذاً بجامعة هايدلبرج ثم عاد إلى توبنجن أستاذاً للغة العربية والإسلاميات من عام ١٩٥١-١٩٦٨. ومن أهم مؤلفاته (محمد والقرآن) وترجم معاني القرآن الكريم إلى الألمانية وله كتاب عن القرآن بعنوان (القرآن تعليق وفهرست)

(٤) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ١٥.



متجانس)<sup>١</sup>

وقال: (إن العالم الواسع المترامي الأطراف ما كان ليحس بالعرب لو لم يتحولوا بفضل صلتهم بالإسلام إلى عامل من عوامل القوة السياسية، ويصبحوا بذلك ذوي أهمية إن صح هذا التعبير)<sup>٢</sup>  
وتحدث عن شمولية الإسلام، فقال: (إن الشريعة الإسلامية بمعناها الواسع الذي يشمل تنظيم الشعائر كذلك، هي المضمون الحقيقي للروح الإسلامية الأصيلة، وهي التعبير الحاسم عن التفكير الإسلامي، إنها النواة الجوهرية للإسلام على الإطلاق)<sup>٣</sup>

### ج. ك. بيرغ:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ج. ك. بيرغ)<sup>٤</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل فاضل من قومنا أراه الله بعض محاسن الإسلام، فراح يبشر بها.

فقد تحدث عما يجتزنه النظام الإسلامية من حرية وعدالة ومساواة، فقال: (لا حاجة بنا إلى الإطناب في بيان المميزات الخاصة بالإسلام ولا في بيان اختلافه العظيم عن الهندوكية.. إن نظام الطوائف الذي تحيا به الهندوكية أو تموت لا أثر له في الإسلام، دين الديمقراطية، وقد استمد قوته على الدوام من حبّ الجماهير له حباً حماسياً. إن الإسلام يعرف كيف يجعل له في قلوب الناس مكاناً وأن معتنقيه ليفخرون به.. وليس هناك كاهن يشرف على الحياة الدينية. وإن إجماع المسلمين على اختلاف الرأي رحمة من الله، هذا الإجماع الذي يستلفت النظر بليته وتسامحه ويبرهن لنا برهاناً جديراً بالذكر على حاجة المسلمين السائدة إلى توحيد الكلمة، يؤيده عدم وجود سلطة معينة ترغم الناس على رأيها)<sup>٥</sup>

وتحدث عن أثر الحج في وحدة المسلمين، فقال: (إن الحج المفروض على كل مسلم أن يقوم به مرة في حياته إن استطاع إليه سبيلاً.. وأثر اللغة العربية في العمل على الوحدة، وتشابه طرق التعليم في كل العالم الإسلامي، كل هذه العوامل جعلت فكرة الوحدة الإسلامية باقية في المكان الأول، حتى بعد أن تم تمزق إمبراطورية الخلفاء إلى ولايات مختلفة)<sup>٦</sup>

وتحدث عن الأثر العظيم الذي قام به الإسلام في التأليف بين الأمم المختلفة، فقال: (إن التزعة التي تصبغ كل شيء بصبغة الدين والتي امتاز بها الإسلام منذ أيامه الأولى، جعلته مدة تزيد على اثني عشر قرناً ديناً متمكناً في إمبراطوريات انمحت فيها القوميات وكان هو فيها أكبر قوة تعمل على تماسكها.. لقد حاز الإسلام فضلاً

(١) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ٢٠.

(٢) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ٢٠.

(٣) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص ٤٩، والعبارة المذكورة وردت في مقدمة كتاب جوتتهلف

برحبشتر (المميزات الأساسية للشريعة الإسلامية)، (برلين، ١٩٣٥م).

(٤) ج. ك. بيرغ J. K. Birge عمل أستاذاً في جامعة ليدن، وانصب اهتمامه على تاريخ الصوفية في الإسلام، وكتب

أبحاثاً عديدة عن جلال الدين الرومي وغيره.

(٥) وجهة الإسلام (باشراف كب). ص ١٦٠ - ١٦١.

(٦) وجهة الإسلام، ص ١٦١.

لا سبيل لإنكاره بأنه عمل على حل مشكلة التفاهم بين الأمم وهو فضل لا يجحده حتى غير المسلم ممن يتبع ديناً آخر ويعتقد فكرة أخرى في الحياة)<sup>١</sup>

وقال: (مما يعني الباحثين في الإسلام في إندونيسيا عناية خاصة أن تأثير شعور الوحدة الإسلامية القديم يمكن أن يتجلى أيضاً في حركات كثيرة وأظهر ما يكون هذا في حركة شعبية مثل (شركة إسلام) التي زاد عدد أعضائها على مليونين في بعض الأحيان، وإن تاريخها ليبيّن أنها تكونت من عناصر غير متجانسة وأن هذه العناصر لم تشعر قط بما بينها من اختلاف)<sup>٢</sup>

وتحدث عما جنته أفكار الغرب على العالم الإسلامي، فقال: (إن أفكاراً أوروبية مخالفة في جوهرها للأفكار التي كانت سائدة قبل ذلك وجدت لها مكاناً حقيقياً في مراكز العالم الإسلامي.. وأحدثت عملية انحلال انتهت في ميدان السياسة بتكوين ممالك صغرى مشربة بالروح الأوروبية.. وأصبحت الأمة الإسلامية على وشك التمزق)<sup>٣</sup>

وقال: (إن التعليم على الأسلوب الأوروبي الجديد - وهو غريب عن روح الإسلام غرابته عن روح المسيحية - يضع وهو صامت بذور انحلال أكثر مما حدث)<sup>٤</sup>

## جوزيف شاخت:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جوزيف شاخت)<sup>٥</sup>، فسألت البابا عنه، فقال:

(١) وجهة الإسلام، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) وجهة الإسلام (بإشراف كب)، ص ١٤.

(٣) وجهة الإسلام، ص ٢٠٠.

(٤) وجهة الإسلام، ص ٢٠١.

(٥) جوزيف شاخت J. S. Schacht ولد عام ١٩٠٢، وتخرج من جامعتي برسلا وليبزيج، وعين أستاذاً في عدد من الجامعات الألمانية (١٩٢٧-١٩٣٤)، وفي الجامعة المصرية (١٩٣٤)، ومحاضراً للدراسات الإسلامية في جامعة أكسفورد (١٩٤٨)، وليدن (١٩٥٤)، وكولومبيا (١٩٥٧-١٩٥٨)، وانتخب عضواً في عدد من الجامعات والجمعيات العلمية. وقد اشتهر بدراسة التشريع الإسلامي وبيان نشأته وتطوره.

من آثاره: حقق العديد من النصوص الفقهية، وألف عدداً من المصنفات مثل: (دين الإسلام) (١٩٣١)، و(نشأة الفقه في الإسلام) (١٩٥٠)، و(خلاصة تاريخ الفقه الإسلامي) (١٩٥٢).

وقد حاول (جوزيف شاخت) أن يأتي بنظرية جديدة حول أسس الفقه الإسلامي، ونشر لبيائها عدة كتب ومقالات بالإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، ووضع كتاب (المدخل إلى الفقه الإسلامي) لهذا الغرض.

وإن كان كتابه (أصول الشريعة المحمدية) يعد من أشهر مؤلفاته على الإطلاق، كما عبر عنه المستشرق جب بأنه (سيصبح أساساً في المستقبل لكل دراسة عن حضارة الإسلام، وشرعيته، على الأقل في العالم الغربي)

وقد أثرت نظريات (شاخت) تأثيراً بالغاً على جميع المستشرقين تقريباً، مثل (أندرسون) و(روبسون) و(فيزجرالد) و(كولسون) و(بوزورث) كما أن لهذه النظريات تأثيراً عميقاً على من تتفقوا بالثقافات الغربية من المسلمين.

وقد ذكر الدكتور الأعظمي في رده على شاخت في بحث بعنوان: (المستشرق شاخت والسنة النبوية) أن كتاب شاخت يحاول أن يقلع جذور الشريعة الإسلامية، ويقضي على تاريخ التشريع الإسلامي قضاء تاماً.. فهو يزعم أنه (في الجزء الأكبر من القرن الأول لم يكن للفقه الإسلامي - في معناه الاصطلاحي - وجود كما كان في عهد النبي، والقانون - أي الشريعة - من حيث هي هكذا كانت تقع خارجة عن نطاق الدين، وما لم يكن هناك اعتراض ديني أو معنوي روحي على تعامل خاص في السلوك،

هذا رجل من قومنا اهتم بالشريعة والقانون، ولذلك فإن له بعض الشهادات المرتبطة بهذا الجانب.. وهي في عمومها شهادات صادقة، ولكن تخللها بعض سوء الفهم، وقد وجد من علماء المسلمين من يرد عليه.

فقد تحدث عن أهمية الشريعة الإسلامية وتميزها، فقال: (من أهم ما أورثه الإسلام للعالم المتحضّر قانونه الديني الذي يسمى (بالشريعة) والشريعة الإسلامية تختلف اختلافاً واضحاً عن جميع أشكال القانون إلى حدّ أن دراستها أمر لا غنى عنه لكي نقدر المدى الكامل للأمر القانونية تقديراً كافياً.. إن الشريعة الإسلامية شيء فريد في بابه، وهي جملة الأوامر الإلهية التي تنظم حياة كل مسلم من جميع وجوهها، وهي تشمل على أحكام خاصة بالعبادات والشعائر الدينية كما تشتمل على قواعد سياسية وقانونية)<sup>١</sup>

وقال: (تعتبر الشريعة الإسلامية مثلاً له مغزاه على نحو خاص لما يمكن أن يسمى قانوناً دينياً. بل إن التشريعيين المقدسين الآخرين اللذين يعتبران نماذج من القانون الديني، وهما أقرب ما يكونان إلى الشريعة الإسلامية من الناحيتين التاريخية والجغرافية، وهما الشريعة اليهودية والقانون الكنسي، يختلفان عن الشريعة الإسلامية اختلافاً ملموساً. ذلك لأن الشريعة الإسلامية أكثر تنوعاً في صورتها مما في التشريعيين المذكورين، لأنها جاءت نتيجة نظر وتدقيق من الناحية الدينية في موضوعات للقانون كانت بعيدة عن أن تتخذ صورة واحدة)<sup>٢</sup>

وقال: (في منتصف القرن الثاني للهجرة تقريباً أخذ القانون الديني الإسلامي شكله الجوهرى وقد أصبح على ما هو عليه الآن ليس مجرد تلك الطريقة الآلية في إدخال اعتبارات مادية ذات صفة خلقية أو دينية في ميدان القانون ولكن بعدّه عملية أخرى أطف وأدق، وهي تنظيم هذا الميدان وترتيبه بعدّه جزءاً من الواجبات الدينية للمسلمين. وتحوي الشريعة مبدأً موحداً فرض نظاماً تركيبياً عقلياً على مختلف المواد الأولية التي بني منها، غير أن هذا المبدأ غير شكلي أو مستقل، أنه هو مادي إسلامي)<sup>٣</sup>

(المسلمون لا يستطيعون أن يتخلصوا من السلطان الروحي والتأثير العميق المتأصل لقانونهم الديني. وأن فك القانون الديني - بمعنى أن القانون له شأن العلاقات الإنسانية الأخرى، يجب أن يخضع للدين أصبح جزءاً أساسياً من النظرة الإسلامية. ولنذكر عرضاً أن هذا ينطبق أيضاً على السياسة وحتى على الاقتصاد)<sup>٤</sup>

---

فقد كانت مسألة القانون تمثل عملية لا مبالاة بالنسبة للمسلمين، حيث صرح شاخت بأنه (من الصعوبة اعتبار حديث ما من الأحاديث الفقهية صحيح بالنسبة إلى النبي)

وقد أسهمت هذه الدعوى التي أطلقها شاخت، في تأسيس مقولات وأفكار، ردها عدد من الكتاب المتغربين في بلادنا، فتعرضت السنة الشريفة إلى اتهامات ظالمة، وهوجم الفقه الإسلامي هجوما عنيفاً، وكأن الفقه لا علاقة له بالكتاب والسنة. وقد سعى الدكتور الأعظمي في بحثه هذا، لدحض هذه الفرية، من خلال جداول إحصائية برهن فيها على أن تشريعات القرآن الكريم شملت عموم جوانب الحياة كلها، وأكد على أن الإسلام جاء بعقيدة في مجال التشريع، تنص على أن التحريم والتحليل من حق الله سبحانه وتعالى وأنه طلب من المسلمين الخضوع التام لأوامر الله سبحانه وتعالى، وأنه أنزل لهم من أصول التشريع ما يكفي لسد حاجتهم، وتمثيلاً لأوامر الله سبحانه وتعالى كان رسول الله ﷺ يقضي بين الناس.

(١) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزورث)، ٣ / ٩.

(٢) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزورث)، ٣ / ١٠.

(٣) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونبادم)، ص ١٠٧.

(٤) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كرونبلوم)، ص ١١٩.

وتحدث عن تأثير الشريعة الإسلامية على شرائع الديانات الأخرى، فقال: (في الطرف المقابل من البحر المتوسط نجد التشريع الإسلامي قد أثر تأثيراً عميقاً في جميع فروع القانون.. وهناك تأثير التشريع الإسلامي على قوانين أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى الذين شملهم تسامح الإسلام وعاشوا في الدولة الإسلامية.. وليس هناك شك في أن الفرعين الكبير للكنيسة المسيحية الشرقية وهما اليعاقبة والنسطوريون لم يترددوا في الاقتباس بحرية من قواعد التشريع الإسلامي وهذا الاقتباس كان في كل تلك الموضوعات التي يمكن أن يتصور المرء أنها تدخل في نظر القاضي المسلم)<sup>١</sup>

قلت: إن هذه كلمات طيبة من رجل مثله.. فما لا يدرك كله لا يترك كله.

## ادوين كالفرلي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ادوين كالفرلي)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل من قومنا أنطقه الله بالصدق في بعض المحال.. فكان صدقه من شهادات الصدق التي يهتدى بها.

فقد تحدث عن شمولية الشريعة الإسلامية للحياة بجميع تفاصيلها، فقال: (يفصل كثير من الناس، بتأثير ميراثهم الثقافي وظروفهم الاجتماعية وتعليمهم، بين الدين والدولة، ويأخذ البروتستانت الغربيون هذا الفصل قضية مسلمة. ولكن الواقع أن هذا الفصل بين الدين والدولة أمر جديد في المسيحية ابتدعه فيها أقلية مذهبية، ولم يعرف الإسلام أو سواه من الأديان العالمية مبدأ الفصل)<sup>٣</sup>

وتحدث عن القيم الروحية التي تميز بها الإسلام، فقال: (لنضرب مثلاً على الدراسة التزيهية بمقال كتبه الأستاذ آرثر جيفري - Arthur Jeffery في مجلة العالم الإسلامي، عدد يناير، سنة ١٩٤٠، يعرف فيه إحدى الترجمات الإنجليزية للقرآن.. فقد اعترف صريحاً بالقيم الروحية الممتازة في دين لا يدين هو به)<sup>٤</sup>

وتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الحضارة العالمية، فقال: (لقد رأينا كيف أن الإسلام أمدّ أوروبا الجنوبية الغربية بالعلم والثقافة وكيف أن ترجمة القرآن إلى اللاتينية، ودراسة اللغة العربية مكنتنا دول أوروبا الغربية من الوصول إلى المعرفة الدقيقة بالدين الإسلامي ولكن المسيحيين قد أخذوا عن المسلمين أموراً كثيرة أخرى.. فقد كانت الثقافة الإسلامية والعربية الغذاء الأول للعلماء المسيحيين في القرون الوسطى.. ولم يمض حين قليل على حركة الترجمة حتى ظهر علماء وأساتذة مسلمون تمثلوا الثقافة الإغريقية وجعلوها جزءاً لا ينفصل من ثقافة المسلمين وحضارتهم. وقد نقل كل ذلك فيما بعد إلى الغرب. ومما يعيننا في هذا الصدد عناية

(١) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزورث)، ٣ / ٢٧ - ٢٩.

(٢) ادوين كالفرلي E. Calverley. ولد عام ١٨٨٢م، تخرج باللغات الشرقية من جامعة برنستون، وعين عضواً في البعثة العربية التي نظمتها الكنيسة في الولايات المتحدة (١٩٠٩-١٩٣٠)، ومحاضراً في مدرسة كنيدي للبعثات (١٩٣٠-١٩٣٢) وأستاذاً للعربية والإسلاميات فيها (١٩٣٢-١٩٥١) ومحرراً لمجلة عالم الإسلام، (١٩٤٧-١٩٥٢) وأستاذاً زائراً في الجامعة الأمريكية بالقاهرة (١٩٤٤-١٩٤٥).

من آثاره: (القرآن) (١٩٢٤)، (العبادة في الإسلام) (١٩٢٥)، (محمد) (١٩٣٦٩)، (الإسلام) (١٩٣٨).. وغيرها.

(٣) الشرق الأدنى: مجتمعة وثقافية (بإشراف كويلر يونغ)، ص ١٧٣.

(٤) الشرق الأدنى، ص ١٨٦.

خاصة أن نذكر أن المسلمين قد هضموا العلم والفلسفة الهيلينية ثم حوروا فيهما ليلائما بين معرفتهم الجديدة وبين روح العقيدة القرآنية<sup>١</sup>

وقال: (أخذ المسلمون عقيدتهم معهم حيثما استقر بهم غزواتهم. وفي البلاد الجديدة التي استوطنوها علموا ما اكتسبوا من معارف وعلوم انتقلت فيما بعد إلى أوروبا الغربية وسواها من أقطار الأرض وكانت النتيجة أن أصبح علم العرب والإسلام لباب الثقافة في أوروبا)<sup>٢</sup>

وقال: (من الطبيعي أن يحاول بعض علماء المسيحية اليوم، أن يقلل من أهمية تأثير التفكير الفلسفي الديني الإسلامي في علم اللاهوت المسيحي. والحق أن محاولتهم هذه هي في ذاتها دليل على وجود هذا التأثير وعلى أهميته)<sup>٣</sup>

وتحدث عن سماحة المسلمين مع مخالفيهم، فقال: (لم يحمل المسلمون أثناء غزواتهم المنتصرة أحداً يجر المسيحيين أو اليهود على اعتناق الإسلام. فقد أقر الإسلام لأهل الكتاب بحرية ممارسة شعائر دينهم بشرط دفع الجزية. وكل ما طالبهم به هو أن يسلموا للدين الجديد بالسيادة المدنية والسياسية التي تمثلت في الدولة الإسلامية)<sup>٤</sup>

وقال: (احتفظ المسلمون للأقليات غير المسلمة في البلاد التي فتحوها بحقوقهم وامتيازاتهم الدينية)<sup>٥</sup> وتحدث عن منطلق التسامح عند المسلمين بإعجاب، فقال: (في القرآن آية كريمة تفيض بالصدق والحكمة يعرفها المسلمون جميعاً ويجب أن يعرفها غيرهم، وهي تقول بأن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: من الآية ٢٥٦)<sup>٦</sup>

## كويلر يونغ:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كويلر يونغ)<sup>٧</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل صادق من قومنا.. وقد أنطقه الله بشهادات تمتلئ صدقا.. سأورد لك بعضها: فمنها حديثه عن أثر الإسلام في تقدم المجتمعات البشرية، قال: (إن الإسلام قد أسهم بصفة فعالة في تقدم الجماعة الإنسانية، وقد استبدل بالنظام القبلي الذي ورثه - والذي يقوم على رابطة الدم - نظام الجماعة

(١) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٢) الشرق الأدنى، ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) الشرق الأدنى، ص ١٧٦.

(٤) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٥) الشرق الأدنى، ص ١٦٤.

(٦) الشرق الأدنى، ص ١٨٢.

(٧) كويلر يونغ Prof. T. Guyler Young أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة برنستون، ورئيس قسم اللغات والآداب الشرقية بها، كان مساعد أستاذ اللغات السامية بجامعة تورنتو. من أهم مؤلفاته: Near Eastern Culture and Society, ١٩٥١.

المشتركة في العقيدة والتي يقوم ترابطها الاجتماعي على أساس من الأخوة والمساواة)<sup>١</sup> وتحدث عن ربانية الشريعة الإسلامية، فقال: (إن النظرية القانونية الإسلامية وما جرى عليه العمل في صدر الإسلام يستمد قاعدة الوحدة والنظام من الله لا من (المدينة) ولا من الدولة والمسلم إلى اليوم يحس إحساساً واضحاً بحكم الله في الحياة اليومية)<sup>٢</sup>

وتحدث عن صفاء التوحيد في الإسلام مقارنة بالمسيحية، فقال: (الإسلام يختلف عن المسيحية الرومانية في أنه لا يتخذ لنفسه نظم الكنيسة والقسيسين والقرايين. ولقد تبدو البروتستانتية الخالصة ديناً كهنوتياً إذا وازناها بالإسلام الذي يحرص على التوحيد الخالص والذي لا يحتمل أي تدخل بين الإنسان وخالفه)<sup>٣</sup>

وتحدث عن العقلية العلمية التي تميز بها المسلم، فقال: (إن المسلم يملك المقدرة على استعمال طريقة التجربة في كل الأوضاع الممكنة لنموذج ما، ليأخذ من الحياة أقصى ما تستطيع أن تعطيه)<sup>٤</sup> وتحدث عن تأثير الإسلام في البناء الحضاري، فقال: (كلمة (الإسلام) ثقافياً تستعمل بالمعنى الواسع لتدل على تلك المدنية المتجانسة - رغم تنوعها - والتي وجهها وسيطر عليها الدين الإسلامي منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً)<sup>٥</sup>

وتحدث عن تأثير الإسلام في الحضارة العالمية، فقال: (عندما انتقلت عاصمة الإسلام إلى بغداد في منتصف القرن الثامن الميلادي كان عصر الفتوح قد انتهى، وأصبح ما جاء به القرآن من لغة وقانون ودين يحكم من حدود الصين على أعمدة (هرقل). وفي خلال خمسمائة السنة التي حكم فيها العباسيون نمت الإسلام نظامه الفكري وثقافته المتجانسة على أساس من الإحياء البارع للمعارف الكلاسيكية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين وهو (الرينيسانس) الشرقي. هذا الإحياء الثقافي في ذنك القرنين - وفي القرن الذي تلاهما حيث بلغت الثقافة الإسلامية قمة تطورها - هو الذي نقل إلى العالم اللاتيني.. وأصبح أساس (الرينيسانس) الغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر)<sup>٦</sup>

وقال: (كان الفارابي وابن سينا معروفين جيداً في أوروبا، وكان (بيكون) يستشهد بأقوالهما)<sup>٧</sup> وقال: (ليس هناك من شك في أن روح البحث العلمي الجديد وطريقة الملاحظة والتجربة اللذين أخذت بهما أوروبا إنما جاءا من اتصال الطلاب الغربيين بالعالم الإسلامي)<sup>٨</sup> وقال: (عندما جاء محمد وظهر الإسلام تحول التيار الثقافي إلى عكس الاتجاه الذي كان يسير فيه. وقد بدأ

- 
- (١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ٢٤٢ - ٢٤٣.
  - (٢) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٤٣.
  - (٣) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٤٣.
  - (٤) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٥٧.
  - (٥) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٣٢.
  - (٦) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٣٤.
  - (٧) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٤٢.
  - (٨) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٤٧.

هذا التحول مفاجئاً في مظهره بالرغم من أنه يمكن للمؤرخ أن يتعرف على الأسباب التي تجمعت رويداً رويداً حتى أنتجت هذا الانعكاس في اتجاه التيار الثقافي. ومن جزيرة العرب اندفعت حماسة هؤلاء الساميين بهم، ومعهم دينهم ولغتهم إلى حدود الصين في الشرق وإلى جبال البرانس في المغرب. وفي العصر الإسلامي الذهبي، عصر العباسيين، آتت البذور الثقافية التي جلبها العرب من الإغريق والفرس والهند أكلها، وخلقوا هم أنفسهم ثقافة حية، سيطرت وسادت في العصور الوسطى، وكان لها تأثيرها الواضح في أنحاء أوروبا المختلفة، فنهضت بها على مر الزمن.. وظل تيار الثقافة في العصور الوسطى مندفعاً من الشرق إلى الغرب فبلغ قمته في القرن الثالث عشر<sup>١</sup>

وقال: (لقد قدم العلم الإسلامي للإنسانية خدمات عظيمة، وأضاف إلى تراثها الثقافي القديم والكلاسيكي الشيء الكثير، وظل يلعب دوره حتى تسلّم العلم الغربي منه القيادة)<sup>٢</sup>

وقال: (ليس من المعقول لثقافة حية كثقافة الإسلام، يدين بها ثلاثمائة مليون من الأنفس<sup>٣</sup>، ألا يكون لها تأثير – بالفعل أو بالقوة – في الحضارة العالمية التي أخذت في الظهور والتكامل في العصر الحديث)<sup>٤</sup>

وتحدث عن تأثير الإسلام في الوحدة بين الشعوب الإسلامية، فقال: (إن الوحدة الإسلامية قد أصيبت بالعطل، والمسؤول عن ذلك هو الحضارة الغربية وعناصرها الدنيوية.. ومع ذلك فإن بين شعوب الإسلام المتعددة المختلفة مثلاً مشتركاً، وأصولاً عقدية تقوم عليها وحدة في الثقافة، ومن واجب المسيحية أن تقدر هذه الظاهرة وتقلدها. إن عالمنا هذا الذي مزقته الجماعات المتحاربة، والذي لا يعرف حكماً أعلى بيده مصير الإنسانية، ليجدر به أن يتدبر تصوّر الوحدة الجوهرية للحياة كما أسسها الإسلام، ولا شك أن هذه الوحدة – في أحسن صورها – سيكون لها أثرها – بالقوة إن لم يكن بالفعل – في الحاجات الروحية للناس في أيامنا الحاضرة)<sup>٥</sup>

وتحدث عن سماحة الإسلام مع غيره، فقال: (للإسلام نصيب آخر من الفضل متفرع عن سابقه، وهو ما حققه من التسامح بين أحناس البشر.. أن الإسلام – في إطار الأخوة الإسلامية – يستطيع أن يرى المسيحية نجاحاً حقيقياً فعلياً في ميادين التسامح البشري)<sup>٦</sup>

وتحدث عن معاداة الإسلام للاستبداد، فقال: (الفضل الثالث من أفضال الإسلام ذلك الروح الحقيقي من الديمقراطية في عالم – لا شك – محتاج إلى أن يطابق فعله قوله في هذه الناحية)<sup>٧</sup>

## بارتولد شبولر:

- (١) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص ٧.
- (٢) الشرق الأدنى، ص ١٠.
- (٣) ذلك في عصره.. أما اليوم، فيدين بالإسلام أكثر من مليار نسمة.
- (٤) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٥٥.
- (٥) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٥٦.
- (٦) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٥٦.
- (٧) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص ٢٥٦.

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (بارتولد شبولر)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لقد نطق هذا الرجل بالصدق عندما قال — متحدثاً عن سماحة الإسلام مقارنة بالمسيحية —: (إن المسيحية والإسلام يقفان موقفين مختلفين في موضوع الأقليات الدينية. أن المسيحية لم تسمح بوجود الأديان الغريبة في أراضيها (باستثناء الدين اليهودي) أما في الإسلام فكان يوجد تبادل ثقافي بين المسلمين وغير المسلمين.. وهذا الفرق الملحوظ يمكن تفسيره بأن المسيحية شهدت قيام دين منافس لها (وهو الإسلام الذي كان ظهوره، إذا تكلمنا من الناحية الواقعية مناقضاً لادعاء المسيحية بأنها آخر وحى منزل). أما الإسلام فقد اعترف نظامه الديني منذ البداية بالعقائد الأخرى التي كانت تعيش معه جنباً إلى جنب.. وبهذه الطريقة أصبح من الممكن أن ينقل النساطرة الثقافية الكلاسيكية وأن يقوم اليهود بدورهم في بلاد الأندلس الإسلامية)<sup>٢</sup>

### ارنست بانرث:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ارنست بانرث)<sup>٣</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات ترتبط بالحضارة الإسلامية:

منها حديثه عن موقف المسلمين من العلم، وتواصلهم مع الثقافة العالمية، وتحليلهم بالمنهج العلمي، قال: (إن العرب لم يخربوا ما وجدوه من عناصر ثقافية، بل اهتموا بها وبذلوا جهدهم لهضمها ومن ثم تطويرها. ونرى هنا أن العرب فتحوا باب التعرف على الحضارة اليونانية منذ عصر الأمويين والعباسيين بواسطة المترجمين، وعلى هذه الطريقة تطورت الثقافة تحت حماية الإسلام بالعربية التي هي واسطة ممتازة للتعبير عن الأفكار العليا والتي لا تفوقها في هذا لغة من لغات الدنيا. ولا أراي بحاجة إلى ذكر أسماء الفلاسفة الذين فتحوا آفاقاً جديدة لفهم أسرار الطبيعة والوجود، وما يهمنا هنا هو استعداد العرب لاستعمال الطرق العلمية التي تعلموها من أرسطو طاليس. والتي كانت أولهاها: مراقبة الطبيعة والتجربة، وثانيهاها: قواعد المنطق الشديدة. ولا شك أن الحضارة الإسلامية ارتفعت في القرون الوسطى إلى علو لم ينته إليه قوم آخرون. ولا يخفى أن هذا الاعتلاء كان ثمرة الاجتهاد في كل نواحي الثقافة وتطبيق الطرق العلمية. وأما الغرب الأوروبي فلم يستطع

---

(١) بارتولد شبولر b. Spuler تخرج من الجامعات الألمانية، وعين معيداً للدراسات الإسلامية دفعة لغات الشرق الأدنى (١٩٣٩) في جامعة جوتنجن، وأستاذ كرسي في جامعة ميونخ (١٩٤٢) وعدد من الجامعات الأخرى كما عمل أستاذاً زائراً في جامعتي أنقرة واستنبول (١٩٥٥-١٩٥٦) يجيد العديد من اللغات، وتخرج عليه عدد من المتخصصين من البلدان الإسلامية.

من آثاره: (مغول إيران) (١٩٣٩) و(المغول في روسيا) (١٩٤٣) و(تاريخ البلدان الإسلامية) (١٩٥٢-١٩٥٣).

(٢) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص ٢٣٩.

(٣) ارنست بانرث E. Baurerth. ولد في مدينة ليبزج، سنة ١٨٩٥، ودرس اللاتينية واليونانية ثم العربية، كما تعلم الفارسية والتركية، أسره الإنكليز في الجبهة سنة ١٩١٧، وانتقل إلى الهند فاستقر فيها حتى عام ١٩٢٥، وتعلم الأردية، ثم عاد إلى ألمانيا، فتابع دروسه ونال الدكتوراه في اللغات الإسلامية من جامعة فينا. وعين أستاذاً للفلسفة والتاريخ والآداب الألمانية. وقد تولى مناصب عديدة وطوف في عدد من البلدان.

من آثاره: (الإسلام اليوم وغداً) (١٩٥٨)، (التفاهم بين الشرق والغرب) (بتكليف من اليونسكو)، وله دراسات عن الفلاسفة المسلمين، كما حقق العديد من النصوص، وكتب العديد من الأبحاث في المجالات المختلفة.



حينئذ فهم الثقافة وتطويرها. وكذلك دولة بيزنطية فقد تجمدت، والآن نرى كيف تعجبت الأرقام الأوروبية من جمال الثقافة العربية التي امتدت من حدود الصين والهند إلى جبال البرانس<sup>١</sup> ومنها حديثه عن سبق المسلمين للمنهج التجريبي، وتصديره إلى أوروبا، قال: (كان أول من قلده العرب في التجربة الراهب (روجر بيكون) في إنكلترا. وحتى الآن يشكر علماء الطبيعة في أوروبا العرب على إدخال طريقة التجربة العلمية التي دلت على التطور الحديث في جميع الميادين)<sup>٢</sup> ومنها حديثه عن تأثير المسلمين في الحضارة الغربية، قال: (لم يزل العلماء يواصلون الكشف عن العناصر العربية المؤثرة في الفكر الأوروبي خلال القرون الوسطى، وفي كل سنة تظهر آثار منشورة تشهد بأننا لا نقدر الآن ما أخذه الأوروبيون من العرب)<sup>٣</sup> وقال: (انتشرت في أوروبا الرغبة العظيمة لدراسة اللغة اليونانية منذ تعرفوا على الفلسفة اليونانية بواسطة العرب، وأدى هذا الاهتمام الجديد بالتدرج إلى تلك الحركة الثقافية في أوروبا في القرن الخامس عشر المسماة بحركة إحياء العلوم القديمة (Renaissance) ولم يزل الاهتمام في أوروبا بعلوم العرب خلال تلك الدورة، بل لقد أدى إلى الاشتغال بالعربية من جديد في القرن السابع عشر)<sup>٤</sup>

### ماكس مايروهوف:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (ماكس مايروهوف) °، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات طيبة ترتبط باهتمام المسلمين بالعلم، منها قوله عن حرية التعليم ومراكزه ومناهجه: (كانت حرية التعليم مكفولة مؤمنة للجميع في معاهد بغداد ومساجدها.. وكان لكل مسجد كبير وما يزال، مكتبته الخاصة لا في المواضيع الدينية وحدها بل في الأبحاث الفلسفية والعلمية أيضاً.. وكان الحج إلى مكة المكرمة فريضة على كل مسلم مما ساعد على انتشار العلم، إذ لا مفرّ للتلاميذ القادمين من الهند وإسبانيا وآسيا الصغرى وأفريقية من المرور ببلاد مختلفة فتتاح لهم زيارة المسجد والمعاهد العلمية والاتصال بمشاهير العلماء.. وكانت الطريقة العملية في التدريس آنذاك شبيهة بالطريقة المتبعة اليوم)<sup>٥</sup> وتحدث عن بعض مظاهر التقدم العلمي الذي وصل إليه المسلمون، فقال: (إن عظمة العلم الإسلامي تتجلى في ميدان البصريات. ها هنا نكشف مقدره (ابن الهيثم وكمال الدين) الرياضية ضياء (بطليموس

(١) تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص ٨ - ٩.

(٢) تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص ١٠ - ١١.

(٣) تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص ١١.

(٤) تأثير الفلسفة الإسلامية في تطور الفكر الأوروبي، ص ١١.

(٥) د. ماكس مايروهوف Dr. Max Meyerhof مستشرق ألماني وكحال شهر، مارس طبه في مصر زهاء ربع قرن، ثم ألم بجانب مهم من اللغات، واطلع خلال إقامته الطويلة في الشرق على كنوز المخطوطات، ونشر وأحيا عدداً من المصادر العربية، هذا علاوة على العديد من الرسائل بالفرنسية والإنكليزية في مواضيع تاريخ الطب العربي نشرها في مختلف المجلات العلمية المشهورة.

(٦) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس ارنولد)، ص ٤٥٨، ٤٨٢ - ٤٨٣.

وإقليدس). أن هذا النوع من العلوم مدين للمسلمين بتقديم حقيق باق مقرون إلى اسمهم على مر الدهور<sup>١</sup> وتحدث عن استفادة الحضارة الغربية من العلوم الإسلامية، فقال: (في عام ١٠٨٥م سقطت طليطلة أعظم مركز للثقافة الإسلامية في الغرب بأيدي الإسبان المسيحيين وصار تلاميذ اللاتين يقدون إلى العاصمة الجديدة ليظهروا إعجابهم بما يرون من بقايا حضارة المغرب ولكي يدرسوا الفنون العربية)<sup>٢</sup> وقال: (ثمّة تراجم عديدة عن العربي استخدمت بصورة واسعة في التدريس الجامعي على الأخص في فرنسا وشمالي إيطاليا. بهذا الطريق انتقلت مئات من تراجم التراث العربي - الإغريقي العلمي إلى تربة أوروبا المجذبة وكانت النتيجة زحاح من المطر الوابل أحياء تلك الأرض الموات)<sup>٣</sup> وقال: (كانت العلوم الإسلامية وهي في أوج عظمتها تضيء كما يضيء القمر فتبدّد غياهب الظلام الذي كان يلف أوروبا في القرون الوسطى.. ولما كان لتلك العلوم سهمها الأوفى في توجيه عهد (إحياء العلوم) وحث خطواته، فعلينا أن نفرّ مدعنين بأن التراث العربي الإسلامي مازال يعيش في علومنا حتى الآن)<sup>٤</sup>

## كولد تسيهر:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كولد تسيهر)<sup>٥</sup>، فقلت: أعرف هذا الرجل.. لقد أثار شبا كثيرة ملأنا عداوة له.  
قال: لا ينبغي لقلب المؤمن أن يمتلئ عداوة.  
قلت: ولكنه هرف بما لا يعرف، فوقع في شبه كثيرة أوقع فيها غيره.  
قال: وهل صححتم أخطاءه؟  
قلت: أجل.. لقد انتدب لذلك علماء فحول ردوا عليه أبلغ الردود.

(١) تراث الإسلام، ص ٤٩٤.

(٢) تراث الإسلام، ص ٤٩٦.

(٣) تراث الإسلام، ص ٥٠٢.

(٤) تراث الإسلام، ص ٥٠٦.

(٥) إجناز جولدزيهر. (١٨٥٠-١٩٢١) Ignaz Goldziher ولد لأسرة يهودية، درس في بوادبست ثم برلين، ثم انتقل إلى جامعة ليبسك والتحق فيها بقسم الدراسات الشرقية.  
رحل إلى القاهرة وسوريا وحضر بعض الدروس في الأزهر. عمل في جامعة بوادبست في مجال الدراسات العربية والإسلامية. أصبح أستاذا للغات السامية عام ١٨٩٤.  
كتب سيلاً من المقالات والأبحاث في المجالات الآسيوية والغربية بأكثر من لغة. وكتاب (العقيدة والشريعة في الإسلام) (باريس ١٩٢٠)، و(درس في الإسلام) في جزأين كبيرين. كما حقق العديد من النصوص القديمة.  
وكان له تأثير في الدراسات الاستشراقية حتى يومنا هذا حيث انتشرت كتبه في مختلف اللغات الأوروبية. وما تزال جامعة برنستون - مثلاً - تقرر كتابه دراسات إسلامية في مناهج قسم دراسات الشرق الأدنى حيث قامت الجامعة بنشر ترجمة جديدة لهذا الكتاب مع تعليقات المستشرق برنارد لويس.  
وقد رد على بعض الشبه التي أثارها كثير من المسلمين ومن أبرزهم الدكتور مصطفى السباعي في كتابه (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي)

قال: فقد خدمكم إذن.

قلت: كيف يخدمنا، وقد عادانا.

قال: لولا أنه استفزكم ما تحركتم.. وما كتبتم.. وما توجهتم للعالم تعرفونه بدينكم.

قلت: صدقت في هذا.. فإن استفزازات هؤلاء تسبب حيرا كثيرا.

قال: إن شبه هؤلاء كالفيروسات التي تنزل بفنادق الأجسام، فإن وجدت مناعة وقوة أكسبت هذه

الأجسام مناعة وقوة، وإن وجدت ضعفا وهوانا أكسبتها ضعفا وهوانا.

قلت: صدقت في هذا.. ولكن هذا يهودي؟

قال: ما يضرك أن يكون يهوديا أو مسيحيا أو لادينيا.. أليس الكفر ملة واحدة؟

قلت: ولكن اليهود يستعمرون أرضنا.

قال: لا ينبغي أن تخلطوا الأمور.. فالحرب العسكرية لا ينبغي أن تدخل مجالس العلم والدعوة.. ألم يكن

رسول الله ﷺ يتعامل مع كل قبيلة من قبائل اليهود بحسب ما تتطلبه، فيحلي هذه، وينظر هذه، ويقاقل هذه.

قلت: صدقت.

قال: فهكذا افعلوا.. قابلو العلماء بسلاح العلم.. وقابلوا العامة بسلاح الإيمان والدعوة والسلام.. وقابلوا

الجيوش بسلاح الاستعداد.

قلت: فهل لهذا الرجل شهادات عن الإسلام؟

قال: أجل.. فالقلب مهما انحرف لا بد أن يوجه وجهته يوما للحقيقة.

لقد تحدث هذا الرجل عن الصدق العظيم الذي أبداه رسول الله ﷺ في دعوته، فقال: (إن محمداً قد بشر

بمذهبه للمرة الأولى بحماس لم يفتر ولم تعوزه المثابرة، وبعقيدة ثابتة بأن هذا المذهب يحقق صالح الجماعة

الخاصة، وقد كان في ذلك كله مظهراً لإنكار الذات برغم سخرية الجمهور)<sup>١</sup>

واعترى رسول الله ﷺ مصلحا.. بل أول مصلح عربي، فقال: (الحق، أن محمداً كان بلا شك أول مصلح

حقيقي في الشعب العربي من الوجهة التاريخية)<sup>٢</sup>

وتحدث عن الحكمة التي تحلى بها رسول الله ﷺ في مواجهته لخصومه، فقال: (في هذا العصر نرى النبي

يستخدم حنكته المفكرة ورويته الدقيقة وتبصره العالمي، في مقاومة خصومه الذين شرعوا في معارضة مقاصده

وغاياته في داخل موطنه وخارجه)<sup>٣</sup>

وتحدث عن القيم الخلقية الرفيعة التي جاء بها الإسلام، فقال: (علينا إن أردنا أن نكون عادلين بالنسبة إلى

الإسلام، أن نوافق على أنه يوجد في تعاليمه قوة فعالة متجهة نحو الخير، وأن الحياة طبقاً لتعاليم هذه القوة يمكن

أن تكون حياة طيبة لا غبار عليها من الوجهة الأخلاقية. هذه التعاليم تتطلب رحمة جميع خلق الله، والأمانة في

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٢ - ١٣.

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٣.

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٢١ - ٢٢.

علاقات الناس بعضهم ببعض، والمحبة والإخلاص، وقمع غرائز الأثرة، كما تتطلب سائر الفضائل التي أخذها الإسلام عن الأديان السابقة، والتي يعترف محمد بأبنيائها أساتذة له، ونتيجة هذا كله أن المسلم الصالح يجيا حياة متفقة مع أدق ما تتطلبه الأخلاق<sup>١</sup>

وتحدث عن آداب الاختلاف التي كانت سائدة بين السلف من الفقهاء، فقال: (وقد اقتنع هؤلاء الرجال الفقهاء العمليون من أول الأمر بأنهم جميعاً على الحق، وأنهم يخدمون مبدعاً واحداً، وعلى هذا الأساس كانوا يتبادلون الاحترام الواجب.. ولم يظهر التعصب المذهبي إلا عندما ازداد العجب عند الفقهاء، الأمر الذي كان موضع لوم أهل الجدل منهم.. وقد بقي إلى يومنا هذا الاعتقاد السائد بأن الأعمال المخالفة للمذاهب الفقهية يجب الاعتراف بأنها كلها مستحقة للتصديق على التساوي ما دامت ترجع إلى تعاليم الأئمة وأعمالهم، أولئك الذين أجمع المسلمون على الاعتراف بإمامتهم وحدها)<sup>٢</sup>

وتحدث عن أصل (الإجماع) وما يحمله من معاني التحرر، فقال: (وسنلاحظ حقاً أن هذا المبدأ الفقهي وهو الإجماع بالنسبة للإسلام يحمل في طياته بذور التحرر والتطورات المستطاعة، فهو يقدم، ضد ديكتاتورية الجمود وقتل الشخصية، قوة للتعاقد، وقد حقق على الأقل في الماضي كعامل مهم مطابقة الإسلام للعصر وقتئذ، فماذا عسى يمكن أن يكون باستعماله في المستقبل؟ وفي الحق أن هذا المبدأ المتبع ملحوظ عند مجدي الإسلام في عصرنا، فهو الباب الذي يجب بواسطته أن تنفذ إلى بناية الإسلام عوامل القوى الشابة)<sup>٣</sup>

وتحدث عن شمولية الشريعة الإسلامية، فقال: (والحياة في الفقه ليست مقصورة على أمور العبادات وحدها، فالفقه الإسلامي ضمّ فروع الحياة والحقوق المدنية والسياسية والعقوبات. ولا يفلت فصل من فصول الفقه من أن يدخل تحت قاعدة مبنية على أساس ديني، وكل الأمور المتعلقة بالحياة الشخصية أو العامة داخلية في الواجبات الدينية وبواسطة هذا يعتقد الفقهاء أن كل حياة المؤمنين موافقة لطلبات الدين)<sup>٤</sup>

وتحدث عن ثراء الفقه الإسلامي، فقال: (ومعرفة الأقوال المتفرعة الكثيرة في دائرة الفقه الإسلامي، من الأدلة التي يسوقها أصحاب المذهب لتأييد مذاهبهم عند الاختلاف في الرأي أو العمل في مذهب آخر، وكذلك نقد هذه الأدلة من وجهة نظر المذهب نفسه، كل ذلك يصور لنا فراغاً عالياً من الفقه في الإسلام، ويقدم فرصة دائمة لمعرفة الذكاء العلمي في هذه الدائرة التي هي للإسلام في أوطانه ذات فائدة وأهمية خاصة، نظراً لأهمية هذه الأبحاث، في هذه الدائرة، قد ظهرت فيها منذ العصور القديمة للمدارس الفقهية كتب كثيرة)<sup>٥</sup>

وتحدث عن سماحة المسلمين، فقال: (إنه مما لا يمكن إنكاره أن الأوامر القديمة التي وضعت للمسلمين الفاتحين إزاء أهل الكتاب الخاضعين لهم، أثناء هذه المرحلة الأولى من التطور الفقهي كانت قائمة على روح التسامح) وعدم التعصب. وأن ما يشاهد اليوم مما يشبهه أن يكون تسامحاً دينياً في علاقات الحكومات

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٢٩.

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٥٩.

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٦٣.

(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٦٥.

(٥) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٦٦.

الإسلامية، ونجد ظواهر هذا التشريع في الإسلام في كتب الرحالة في القرن الثامن عشر، يرجع إلى ما كان في النصف الأول من القرن السابع من مبادئ الحرية الدينية التي منحت لأهل الكتاب في مباشرة أعمالهم الدينية)<sup>١</sup> وقال: (روح التسامح في الإسلام قديمًا، تلك الروح التي اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضًا، كان لها أصلها في القرآن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: من الآية ٢٥٦)، وقد جاءت الأخبار عن السنين العشر الأولى للإسلام بمثل للتسامح الديني للخلفاء، إزاء أهل الأديان القديمة، وكثيرًا ما كانوا يوصون في وصاياهم للفتاحين بالتعاليم الحكيمة، ومن المثل لذلك عهد النبي مع نصارى نجران، الذي حوى احترام منشآت النصارى، ثم هذه القواعد التي أعطاهها المعاذ بن جبل عند ذهابه إلى اليمن (لا يزعم يهودي في يهوديته). وفي هذه الدائرة العالية كانت أيضًا عهود الصلح التي أعطيت للنصارى الخاضعين للدولة البيزنطية التي اندمجت في الإسلام وموجبها كانوا - في مقابل دفع الجزية - يستطيعون مباشرة شؤونهم الدينية من غير إزعاج لهم)<sup>٢</sup>

وقال: (وكما أن مبدأ التسامح كان جاريًا في الأعمال الدينية، كذلك من جهة أخرى كان يراعى فقهيًا، فيما يتعلق بالمعاملات المدنية والاقتصادية بالنسبة لأهل الكتاب مبدأ الرعاية والتساهل، فظلم أهل الذمة، وهم أولئك المحتمون بحمى الإسلام من غير المسلمين، كان يحكم عليه بالمعصية وتعدي الشريعة. ففي بعض المرات عامل حاكم إقليم لبنان الشعب بقسوة عندما ثار ضد ظلم أحد عمال الضرائب، فحكم عليه بما قاله الرسول: (من ظلم معاهدًا، وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة). وفي عصر أحدث من هذا ما رواه بورتير Porter في كتابه (خمس سنين في دمشق) من أنه رأى بالقرب من بصرى (بيت اليهود) وحكى أنه كان في هذا الموضع مسجد هدمه عمر لأن الحاكم قد اغتصبه من يهودي لبناني عليه هذا المسجد)<sup>٣</sup>

وتحدث عن تكامل الشخصية الإسلامية، بمزجها - مثلاً - بين العلم والبطولة، فقال: (إن تاريخ الإسلام زاخر بالأمثلة الكثيرة التي تبين اجتماع مواهب العلم الديني بصفات البطولة الحربية، وذلك في شخصيات قوية قادرة على التوجيه والتنظيم.. وإليك البطل الإسلامي الحديث: الأمير عبد القادر الجزائري الذي قاوم الفرنسيين مقاومة حربية بأسلة عندما أخذوا في إخضاع بلاده الجزائر ولما انتهى جهاده جمع حوله في منفاه بدمشق طلابه ومريديه الذين تابعوا في إصغاء واجتهاد دروسه في الفقه المالكي والعلوم الدينية الأخرى في الإسلام ومن يمثل هذه الظاهرة الفذة في تاريخ الإسلام الحديث (شامل) بطل الاستقلال القوقازي والمهديون الحربيون الذي ظهروا في السودان والصومال والذين سمعنا كثيرًا من أخبارهم في أيامنا هذه.. وقد برز هؤلاء المجاهدون أيضًا من صفوف طلاب العلوم الدينية الإسلامية)<sup>٤</sup>

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٤٥.

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٤٦.

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٤٦ - ٤٧.

(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

## ٦ - أصدقاء من دول شتى

قلبت بعض الصفحات من دفتر البابا، فرأيت عنوان (أصدقاء من دول شتى)، تحته أسماء دول كثيرة، فقلت: ما هذا؟.. إني أرى قاموساً لدول العالم في هذا المحل.  
قال: لقد ذكرت في هذا المحل دولاً كثيرة مررت بها.. وسمعت من أهلها بعض كلمات الصدق..

### ١ - إسبانيا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (إسبانيا)، فأصابني ألم شديد، فقلت: هذه الأندلس.. وقد ضاعت من أيدينا.

قال: عندما أسأتم تمثيل الإسلام فيها ضاعت من أيديكم.. وما كان لها أن تبقى.. لقد أراد الله بفتحها عليكم أن تملأوا الأرض إيماناً وصلاحاً ومحبة وسلاماً.. فلما انشغلتم بأودية الهوى، وزخارف الحياة الدنيا، وتصورتوها إقطاعاً من إقطاعاتكم التي تتنازعون عليها سلبها منكم.

قلت: فهل يمكن أن تعود إلينا؟

قال: لتملكوها، أم لترشدوها؟

لم أجد ما أحيب به، فقال: أما إن قصدتم ملكها، ليحكمها سلاطين بني الأحمر، فلا أرجعها الله لكم.. وأما إن أردتم أن ترشدوها، فها هي بين أيديكم.. إن لم تملكوا أن ترحلوا إليها بأجسادكم فترحلوا إليها بالدعوة الصادقة والقدوة الطيبة.

لم أجد ما أحيبه به، فقال: يخطئ قومك حين يربطون الفتوح بالسيوف.. الفتح فتح القلوب، لا فتح السيوف، فالسيوف أضعف من أن تمتد لما تمتد له القلوب.

قلت: صدقت فقد قال الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١)، ثم عقب عليها مباشرة بقوله: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ (النصر: ٢)

### جون براند ترند:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جون براند ترند)<sup>١</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات صادقة ترتبط بتاريخ المسلمين وحضارتهم.

منها شهادته على تسامح المسلمين، قال: ( في القرن العاشر الميلادي تردى معظم أوروبا في همجية ووحشية مريعة، على حين أن المسلمين في إسبانيا ضربوا مثلاً رائعاً بما كفلوه لغيرهم من ذوي العقائد المخالفة

---

(١) جون براند ترند (١٨٨٧ - ١٩٥٨) J. Brand Trend رائد من رواد تاريخ إسبانيا. أستاذ في جامعة كمبريدج. قام بعدة رحلات في إسبانيا والبرتغال ومراكش ومكسيكو واشتغل في معهد الدراسات الشرقية بلندن. من آثاره (صورة لإسبانيا الحديثة) (١٩٢١)، (موسيقى تاريخ إسبانيا) (١٩٢٥)، (لغة إسبانيا وتاريخها) (١٩٥٣)، وكثير من الكتب الأخرى في هذا المجال.

لذهابهم من سعة العيش والتسامح)<sup>١</sup>

وقال: (آثر الغزاة المسلمون أن يشترخوا من السكان المسيحيين بقرطبة جانباً من الكاتدرائية القديمة. ورأوا أن ذلك خير لهم من أخذها عنوة واغتصاباً، وهذا شاهد ينطق بما اشتهروا به من التسامح مع أصحاب العقائد المخالفة لعقيدتهم)<sup>٢</sup>

وفي مقابل ذلك ما لقي العرب من غلظة وشدة من طرف المسيحيين بعد خروج المسلمين، قال: (إن العرب المنتصرين التعساء المعروفين بالموريسكو Moriscos لقوا من المسيحيين من المعاملة السيئة ما لا يقابله إلا ما لقيه المسيحيون من المسلمين من التسامح في مرحلة سابقة من تاريخ إسبانيا الإسلامية والمسؤول عن كل ذلك الأمر من بدايته إلى نهايته هم رجال الكنيسة)<sup>٣</sup>

ومنها شهادته التقدم الذي وصل إليه المسلمون في الأندلس، قال: (الشيء الذي لا يمكن نكرانه هو أن عرب إسبانيا خلقوا مدينة زاهرة وأتقنوا تنظيم الحياة الاقتصادية في الوقت الذي كانت تنوء أغلب أصقاع أوروبا تحت نير الشقاء والأغلال مادية كانت أم روحية. أجل فقد لعب عرب إسبانيا دوراً خطيراً في تقدم الفن والفلسفة والشعر حتى ارتفع تأثيرها إلى أعلى قسم الفكر المسيحي في القرن الثالث عشر بظهور توما الأكويني ودانتي)<sup>٤</sup>

وقال: (إن قرطبة فاقت كل حواضر أوروبا مدينة أثناء القرن العاشر، كانت في الحقيقة محط إعجاب العالم ودهشته. وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبنة عن تلك المدينة التي تحوي سبعين مكتبة وتسعمائة حمام عمومي. فإن أدركت الحاجة حكام ليون أو النافار أو برشلونة إلى جراح أو مهندس معماري أو خائض ثياب أو موسيقي فلا يتوجهون بمطلبهم إلا إلى قرطبة)<sup>٥</sup>

ومنها شهادته عن تأثير الحضارة الإسلامية في الأندلس في الحضارة الأوروبية، قال: (ترينا أسماء الأمكنة والألفاظ الشائعة التي بقيت في اللغة الإسبانية حتى الآن مدى تأثيرها باللغة العربية في خير أوقات نموها. إذ ما أهل القرن العشر، حتى كانت بسائط الحياة الإسبانية قد تأثرت بالإسلام أعمق تأثير. هذا التأثير امتد بسقوط طليطلة فشمّل سائر أنحاء أوروبا.. ثم وإن كان بلاط الملك الفونسو بلاطاً مسيحياً بالاسم « كما تأثر خطاه في هذا المضمار بلاط فردريك الثاني في بالرمو بعد ذلك الزمن بمائتي عام تقريباً) فقد كانت مسحة المدينة الإسلامية تغلب عليه.. ولقد كانت مدارس طليطلة تجتذب طلاب العلم من جميع أنحاء أوروبا، وبضمنها إنكلترا)<sup>٦</sup>

وقال: (يذهب الناس أحياناً إلى أن تراث العصور الوسطى ليس إلا تراثاً مسيحياً خالصاً، وأن المسيحية..

(١) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ. هامرتن)، المجلد الخامس، ص ٢٩.

(٢) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ. هامرتن)، ٥ / ٧٣٧.

(٣) تاريخ العالم (نشره السير جون. أ. هامرتن)، ٥ / ٧٥٥.

(٤) تراث الإسلام، (إشراف سير توماس ارنولد)، ص ٢٢.

(٥) تراث الإسلام، ص ٢٧.

(٦) تراث الإسلام، ص ٥٤ - ٥٥.

إنما هي السبيل الوحيد لتعرف تاريخ العصور الوسطى. على أن هذا القول ينطوي على إغفال أهم ما ظفرت به النهضة الأوروبية من أثر هام قام بالجانب الأكبر منه مسلمو إسبانيا، ولم يكن حظ مسلمي صقلية وبلاد البرتغال منه قليلاً<sup>١</sup>

وقال: (احتذبت مدارس طليطلة إليها الدارسين من سائر أنحاء أوروبا، واستطاع هؤلاء الدارسون بفضل ما تعلموه من اللغة العربية.. أن يتوفروا على ترجمة الكتب من العربية إلى اللاتينية فأسهموا بذلك في تقدم الحركة العلمية في العالم.. فمن مدارس سالرنو وبغداد ودمشق وقرطبة وغرناطة ومالقة تلقى العالم ثقافة المسلمين وعلومهم)<sup>٢</sup>

## جوان فيرنيه:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (جوان فيرنيه)<sup>٣</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لقد تحدث هذا الرجل عن تأثير المسلمين في الحضارة الغربية، فقال: (في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، اكتسبت حركة الترجمة قوة غير عادية، إذ أصبح عدد الكتب المترجمة في صقلية وبخاصة في إسبانيا، يثير الإعجاب، وتدفع علم الإغريق والرومان على الأديرة الأوروبية من خلال العقول العربية، وأدجت الكشوف التي توصل إلى العرب ضمن رصيد من الثقافة الغربية.. وتوافد على (طليطلة) عدد كبير من العلماء الأوروبيين المتلهفين إلى الحصول على المعارف العلمية الشرقية.. وبالرغم من أن هؤلاء العلماء لم يعملوا معاً كأصحاب مدرسة إلا أن إنتاجهم المكثف والغزير قد غير شكل المجتمع الأوروبي لكن أولئك العلماء وإن كانوا قد استطاعوا أن يتمثلوا بسهولة النصوص التي وصلت إليهم، أحققوا في إدخال أي تطوير يذكر عليها)<sup>٤</sup>

وقال: (في بداية القرن العشرين بدأت حقبة جديدة من الترجمات العلمية تقدم من العالم الغربي إلى عالم الإسلام، شأنها شأن تلك الحركة التي قدمت من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري (الثامن إلى العاشر الميلادي)<sup>٥</sup>

## ٢ - إيطاليا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (إيطاليا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

- 
- (١) تاريخ العالم، (نشره السير جون. أ. هامرتن): ٧٢٩ / ٥
  - (٢) تاريخ العالم: ٧٥٩/٥، وعن إنجازات المسلمين في ميادين العلوم الصرفة والتطبيقية والإنسانية، انظر: المرجع نفسه، ٧٣٠/٥، ٧٤٥-٧٤٦، ٧٤٩-٧٥٢، ٧٥٨-٧٥٩.
  - (٣) جوان فيرنيه J. Gines Vernet تخرج من جامعة برشلونة، وسمي أستاذاً للعربية فيها عام ١٩٥٤م. من آثاره: ترجم القرآن الكريم إلى الإسبانية (١٩٥٣)، و(الف ليلة وليلة)، وحقق عدداً من النصوص، كما كتب العديد من المقالات في الفلك والجغرافية.
  - (٤) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزوث) ٣ / ٢١٤ - ٢١٥.
  - (٥) تراث الإسلام، ٣/٢١٨، وعن إنجازات المسلمين في ميادين الرياضيات والفلك والبصريات، انظر: المرجع نفسه ٣/١٦٨، ١٧٠، ١٧٢-١٧٤، ١٧٦-١٧٨، ١٨٨-١٩٤، ١٩٦-٢١٣، ٢١٦-٢١٨.



## لورا فيشيا فاغلييري:

قلت: من هي (لورا فيشيا فاغلييري)؟<sup>١</sup> وما شهادتها؟

قال: هذه امرأة إيطالية تتملى صدقا.. وتفويض محبة.. وقد دافعت عن الإسلام وكأنها أحد أبنائه.

قلت: شوقتي إليها، وإلى أحاديثها، فأخبرني عنها.

قال: لهذه المرأة الفاضلة شهادات كثيرة لا يمكنني ذكرها جميعا هنا.. ولكنني سأذكر لك خمسة أنواع من

الشهادات.

قلت: فما أولها؟

قال: شهادتها المرتبطة بالقرآن الكريم.. فقد تحدثت عن القرآن الكريم بصدق عظيم، فاعتبرته معجزة بكل المقاييس، قالت: (إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة، من خلاله، أنباء تتصف بيقين مطلق. إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته. إن كلاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي. أما أسلوبه فأصيل فريد. وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي تحدر إلينا من العصور التي سبقتة. والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عوض عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي. إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لا بد أن تؤثر في نفسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها. إنه يكرر قصص الأنبياء عليهم السلام وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكن يكررها على نحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها. وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته. إننا نقع هنا على العمق والعدوثة معاً - وهما صفتان لا تجتمعان عادة - حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقاً كاملاً فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد، وهو العربي الأمي الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينم أي منها عن أدنى موهبة شعرية؟)<sup>٢</sup>

وهي تستدل بحفظه من التحريف على مصدره الإلهي، قالت: (لا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهي في هذه الحقيقة: وهي أن نصّه ظل صافياً غير محرف طوال القرون التي تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا، وأن نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف، بإذن الله، مادام الكون)<sup>٣</sup>

وقالت: (من حسن الطالع أن الجمود مرض لا بد أن يزول، بل إنه في الواقع شرع يزول في ما يبدو. فإلى الكتاب العزيز الذي لم يجرّفه قط لا أصدقاؤه ولا أعداؤه، لا المثقفون ولا الأميون، ذلك الكتاب الذي لا يبليه الزمان والذي لا يزال إلى اليوم كعهده يوم أوحى الله به إلى الرسول الأمي البسيط آخر الأنبياء حملة الشرائع

(١) لورا فيشيا فاغلييري L. Veccia Vaglieri. باحثة إيطالية معاصرة انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديماً وحديثاً، وإلى فقه العربية وآدابها.

من آثارها: (قواعد العربية) في جزئين (١٩٣٧ - ١٩٤١)، و(الإسلام) (١٩٤٦)، و(دفاع عن الإسلام) (١٩٥٢)، والعديد من الدراسات في المجالات الاستشرافية المعروفة.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص ٥٦ - ٥٧.

(٣) دفاع عن الإسلام، ص ٥٨ - ٥٩.

عليهم السلام، إلى هذا المصدر الصافي دون غيره سوف يرجع المسلمون حتى إذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب. وثمة بينات قوية على أن هذه العملية قد بدأت فعلاً<sup>١</sup>

وهي تذكر ما يتميز به القرآن الكريم من الجاذبية، فقالت: (إن هذا الكتاب، الذي يتلى كل يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يوقع في نفس المؤمن أيما حسّ بالملل. على العكس، إنه من طريق التلاوة المكررة يجذب نفسه إلى المؤمنين أكثر فأكثر يوماً بعد يوم. إنه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي إليه حسّاً عميقاً من المهابة والخشية. إن في إمكان المرء أن يستظهره في غير عسر، حتى إننا لنجد اليوم، على الرغم من انحسار موجة الإيمان، آلافاً من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب. وفي مصر وحدها عدد الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل عن ظهر قلب في أوروبا كلها)<sup>٢</sup>

وهي تذكر مدى انسجام ما ذكره القرآن من الكونيات مع البحث العلمي: (فيما يتصل بخلق الكون فإن القرآن على الرغم من إشارته إلى الحالة الأصلية وإلى أصل العالم.. لا يقيم أيما حدّ مهما يكن في وجه قوى العقل البشري، ولكنه يتركها طليقة تتخذ السبيل الذي تريد)<sup>٣</sup>

قلت: فما الثانية؟

قال: شهادتها حول رسول الله ﷺ.. فلها ثناء عطر على رسول الله ﷺ يعبر عما يحمله قلبها من محبة له. قالت: (كان محمد المتمسك دائماً بالمبادئ الإلهية شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدّة. لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعاً الأناة دائماً اعتقاداً منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور.. لقد عرف جيداً أن الله لا يبد أن يدخل آخر الأمر إلى القلب البشري)<sup>٤</sup>

وقالت: (حاول أقوى أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد، أن يرموا نبي الله ببعض التهم المفتراة. لقد نسوا أن محمداً كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته. ومن عجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوى محمد على تهديد الكاذبين والمرائين، في بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية، لو كان هو قبل ذلك وحاشاه رجلاً كاذباً؟ كيف جرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحته، وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة، حثاً موصولاً؟ كيف استطاع أن يستهل صراعاً كان يبدو يائساً؟ كيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات، في مكة، في نجاح قليل جداً، وفي أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمناً إيماناً عميقاً بصدق رسالته؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا في الدين

(١) دفاع عن الإسلام، ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص ٥٩.

(٣) دفاع عن الإسلام، ص ٦٠.

(٤) دفاع عن الإسلام، ص ٧٣.

الجديد ويشدوا أنفسهم بالتالي إلى مجتمع مؤلف في كثرته من الأرقاء، والعتقاء، والفقراء المعدمين إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد كان عميقاً وأكيداً<sup>١</sup>

وقالت: (دعا الرسول العربي بصوت ملهم باتصال عميق بربه، دعا عبدة الأوثان وأتباع نصرانية ويهودية محرفتين على أصفى عقيدة توحيدية. وارتضى أن يخوض صراعاً مكشوفاً مع بعض نزعات البشر الرجعية التي تقود المرء إلى أن يشرك بالخالق آلهة أخرى)<sup>٢</sup>

وهي ترد بصدق وعلم على شبهة تعدد زوجات رسول الله ﷺ، فتقول: (إن محمداً طوال سنين الشباب التي تكون فيها الغريزة الجنسية أقوى ما تكون، وعلى الرغم من أنه عاش في مجتمع كمجتمع العرب، حيث كان الزواج، كمؤسسة اجتماعية، مفقوداً أو يكاد، وحيث كان تعدد الزوجات هو القاعدة، وحيث كان الطلاق سهلاً إلى أبعد الحدود، لم يتزوج إلا من امرأة واحدة ليس غير، هي خديجة التي كانت سنّها أعلى من سنّه بكثير، وأنه ظل طوال خمس وعشرين سنة زوجها المخلص المحب، ولم يتزوج كرة ثانية، وأكثر من مرة، إلا بعد أن توفيت خديجة، وإلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره. لقد كان لكل زوج من زواجه هذه سبب اجتماعي أو سياسي، ذلك بأنه قصد من خلال النسوة اللاتي تزوجهن إلى تكريم النسوة المتصفات بالتقوى، أو إلى إنشاء علاقات زوجية مع بعض العشائر والقبائل الأخرى ابتغاء طريق جديد لانتشار الإسلام وباستثناء عائشة، ليس غير، تزوج محمد من نسوة لم يكن لا عذارى، ولا شابات، ولا جميلات، فهل كان ذلك شهوانية؟ لقد كان رجلاً لا إلهاً. وقد تكون الرغبة في الولد هي التي دفعته أيضاً إلى الزواج من جديد، لأن الأولاد الذين أنجبته خديجة له كانوا قد ماتوا. ومن غير أن تكون له موارد كثيرة أخذ على عاتقه النهوض بأعباء أسرة ضخمة، ولكنه التزم دائماً سبيل المساواة الكاملة نحوهم جميعاً، ولم يلجأ قط إلى اصطناع حق التفاوت مع أي منهن. لقد تصرف متأسياً بسنة الأنبياء القدامى، مثل موسى وغيره، الذين لا يبدو أن أحداً من الناس يعترض على زواجهم المتعدد. فهل يكون مرد ذلك إلى أننا نجعل تفاصيل حياتهم اليومية، على حين نعرف كل شيء عن حياة محمد العائلية؟<sup>٣</sup>

قلت: فما الثالثة؟

قال: شهادتها عن الدعوة الإسلامية، وكيفية انتشار الإسلام، فقد قالت: (إن انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة. إن الذي أدى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدمه المسلمون للشعوب المغلوبة، مع تخييرها بين قبوله ورفضه، كتاب الله، كلمة الحق، أعظم معجزة كان في ميسور محمد أن يقدمها إلى المترددين في هذه الأرض)<sup>٤</sup>

(١) دفاع عن الإسلام، ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص ٤٣.

(٣) دفاع عن الإسلام، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٤) دفاع عن الإسلام، ص ٥٩.

وقالت: (كانت حملة كبيرة على سوريا.. رهن الإعداد، عندما أسكت الموت إلى الأبد صوت النبي الذي كان قد أحدث هذه الهزة العميقة في تلك القلوب كلها، والذي كان مقدراً له أن يستهوي عما قريب شعوباً أخرى تقيم في مواطن أكثر إيماعاً في البعد. وكان في السنة الحادية عشرة من الهجرة)<sup>١</sup>

وقالت: (إن الآية القرآنية التي تشير إلى عالمية الإسلام بوصفه الدين الذي أنزله الله على نبيه ﷺ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الانبياء: من الآية ١٠٧) هي نداء مباشر للعالم كله. وهذا دليل ساطع على أن الرسول شعر في يقين كلي أن رسالته مقدر لها أن تعدو حدود الأمة العربية وأن عليه أن يبلغ (الكلمة) الجديدة إلى شعوب تنتسب إلى أجناس مختلفة، وتتكلم لغات مختلفة)<sup>٢</sup>

وقالت: (بفضل الإسلام هزمت الوثنية في مختلف أشكالها. لقد حرّر مفهوم الكون، وشعائر الدين، وأعراف الحياة الاجتماعية من جميع الهولت أو المسوخ التي كانت تحط من قدرها، وحررت العقول الإنسانية من الهوى. لقد أدرك الإنسان آخر الأمر، مكانته الرفيعة.. لقد حررت الروح من الهوى، وأطلقت إرادة الإنسان من القيود التي طالما أبقتة موثقاً إلى إرادة أناس آخرين، أو إلى إرادة قوى أخرى يدعوها خفية. لقد هوى الكهان، وحفظت الألغاز المقدسة الزائفون، وبمسارعة الخلاص، وجميع أولئك الذين تظاهروا بأهم وسطاء بين الله والإنسان والذين اعتقدوا بالتالي أن سلطتهم فوق إرادات الآخرين، لقد هوى هؤلاء كلهم عن عروشهم. إن الإنسان أمسى عادم الله وحده، ولم تعد تشده إلى الآخرين من الناس غير التزامات الإنسان الحرّ نحو الإنسان الحرّ. وبينما قاسى الناس في ما مضى مظالم الفروق الاجتماعية، أعلن الإسلام المساواة بين البشر، لقد جعل التفاضل بين المسلمين، لا على أساس من المحتد أو أي عامل آخر غير شخصية المرء، ولكن على أساس من خوف الله، وأعماله الصالحات، وصفاته الخلقية والفكرية ليس غير)<sup>٣</sup>

وقالت: (إن التاريخ لم يشهد، قط، ظاهرة مثل ظاهرة الفتوحات هذه من قبل ومن العسير على المرء أن يقدر السرعة التي حقق بها الإسلام فتوحه، والتي تحوّل بها من دين يعتنقه بضعة نفر من المتحمسين إلى دين يؤمن به ملايين الناس. ولا يزال العقل البشري يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السريّة التي مكنت جماعة من المحاربين.. من الانتصار على شعوب متفوقة عليه تفوقاً كبيراً في الحضارة، والثروة، والخبرة، والقدرة على شن الحرب. ومن أدعى الأمور إلى الدهشة أن نلاحظ كيف استطاع أولئك الناس أن يحتلوا تلك المناطق كلها، وأن يثبتوا بعد ذلك فتوحهم على نحو جعل حتى الحروب المتعاقبة قرناً بعد قرن عاجزة عن إخراجهم منها، وكيف استطاعوا أن يلهبوا نفوس أتباعهم بتلك الحماسة الفائقة لمثلهم العليا، وأن يحتفظوا بحيوية نابضة لم تعرفها الأديان الأخرى حتى بعد انقضاء عشرة قرون على وفاة محمد، وأن يفرغوا في عقول أتباعهم، على الرغم من انتسابهم إلى عصر وثقافة مختلفين كل الاختلاف عن عصر المسلمين الأولين وثقافتهم إيماناً متقدماً لا يحجم عن

(١) دفاع عن الإسلام، ص ٣٣.

(٢) عن الإسلام، ص ٢٤ - ٢٥.

(٣) عن الإسلام، ص ٤٥ - ٤٧.

القيام بأبما تضحية مهما غلت)<sup>١</sup>

وقالت: (لقد تحرك الجيش الإسلامي في سرعة، وتتابعت المعارك، وبدا النجاح وكأنه قد جعل لأقدام الفاتحين أجنحة: فقد ترددت في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان أصداء الأنبياء البهيجة الحاملة بشائر الانتصارات الرائعة. وقد اتبعت هذه الانتصارات بتنظيم البلدان المفتوحة وتوطيد أقدام العرب فيها. ولم يكن هذا الصنيع أقل إعجازاً من الفتوح نفسها. لقد قوضت حضارتان وزعزع دينان، وإذا بفيض جديد من حياة عارمة يتدفق في عروق تلك الشعوب الخائرة القوى. لقد تجلّى أمام عيون العالم المدهش دين جديد، بسيط، سهل، يخاطب القلب والعقل جميعاً، وأقيم شكل جديد من أشكال الحكومة كان أسمى إلى حد بعيد - في خصائصه ومبادئه الأخلاقية - من تلك المعروفة في ذلك العصر. وبدأ الذهب الذي كان محبوباً في صناديق السراة ينتقل إلى أيدي الفقراء، مستهلاً نظاماً في التداول السليم كرة أخرى وفي ظل من حكومة تسيّرهما مثل عليا ديمقراطية أمينة، وجد الرجال المثقفون البارعون الأذكياء تشجيعاً من النظام الجديد، فاستطاعوا أن يبلغوا أسمى المناصب العامة. ومن الممكن القول، في اطمئنان، أن البلاد المفتوحة عرفت - على الرغم من بعض الحالات المحتومة النادرة التي تجاوز فيها الجند حدودهم أثناء الفتح - عهداً من الرخاء والازدهار، وشهدت غنى لم تشهده آسيا منذ قرون طويلة. وإلى هذا فقد نعمت حياة الشعوب المغلوبة وحقوق المدنية وأموالها بدرجة من الحماية تقارب تلك التي نعم بها المسلمون أنفسهم)<sup>٢</sup>

وقالت: (أزعج التحول السياسي والديني العميق الذي أحدثته الفتوحات طائفة من الناس فراخوا يتساءلون ما الذي أدى إلى حدوثه، ولكن كثيراً منهم كان عمياً، أو كانوا يغمضون أعينهم عمداً هائمين طويلاً وعلى نحو يائس في متاهة التخمينات الخاطئة. إنهم لم يستطيعوا أن يدركوا أن القوة الإلهية وحدها كان في ميسورها أن تقدم الحافز الأول لمثل هذه الحركة الواسعة. إنهم لم يريدوا أن يعتقدوا أن حكمة الله وحدها كانت مسؤولة عن رسالة محمد، آخر الأنبياء الكبار حملة الشرائع عليهم السلام والنبي الذي ختم سلسلتهم إلى الأبد. أن مثل هذه الرسالة كان يتعين عليها أن تكون رسالة عالمية لجميع أفراد الجنس البشري من غير تمييز وعلى اختلاف الجنسيات والأوطان والأعراق. لقد كان أولئك إما عمياً وإما غير راغبين في أن يروا)<sup>٣</sup>

وقالت: (كان العرب المنتصرون مستعدين دائماً - حتى وهم في أوج قوتهم وانتصارهم - لأن يقولوا لأعدائهم: (ألقوا السلاح وادفعوا جزية يسيرة نسيغ عليكم حماية كاملة. أو اتخذوا الإسلام ديناً وادخلوا في ملتنا تمتعوا بالحقوق نفسها التي نتمتع بها نحن). وإذا نظرنا إلى ما أوحى إلى محمد أو إلى الفتوح الإسلامية الأولى سهل علينا أن نرى مدى الخطأ الذي ينطوي عليه الاتهام القائل بأن الإسلام فرض بالسيف وأن انتشاره السريع الواسع لا يمكن تفسيره إلا بهذه الوسيلة)<sup>٤</sup>

(١) دفاع عن الإسلام، ص ٢٢.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص ٢٦ - ٢٨.

(٣) دفاع عن الإسلام، ص ٢٨.

(٤) دفاع عن الإسلام، ص ٣٢.

وقالت: (كان المسلمون لا يكادون يعتقدون الاتفاقات مع الشعوب حتى يتركوا لها حرية المعتقد، وحتى يحجموا عن إكراه أحد من أبنائها على الدخول في الدين الجديد. والجيوش الإسلامية ما كانت تتبع بحشد من المبشرين الملحاحين غير المرغوب فيهم، وما كانت تضع المبشرين في مراكز محاطة بضروب الامتياز لكي ينشروا عقيدتهم أو يدافعوا عنها. ليس هذا فحسب. بل لقد فرض المسلمون، في فترة من الفترات، على كل راغب في الدخول في الإسلام، أن يسلك مسلماً لا يساعد من غير ريب على تيسير انتشار الإسلام. ذلك أنهم طلبوا إلى الراغبين في اعتناق الدين الجديد أن يمثلوا أمام القاضي ويعلموا أن إسلامهم لم يكن نتيجة لأي ضغط، وأنهم لا يهدفون من وراء ذلك إلى أي كسب دنيوي. والواقع أن اليهود والنصارى لم يمنحوا حرية المعتقد الديني فحسب، بل عهد إليهم في تولي المناصب الحكومية حين كانت مؤهلاتهم الشخصية من القوة بحيث تلفت انتباه الحاكمين)<sup>١</sup>

قلت: فما الرابعة؟

قال: شهادتها المرتبطة بالحضارة الإسلامية، ومن ذلك قولها: (كيف نستطيع أن نقول إن الإسلام عاق نموّ الثقافة في القرون السالفة ونحن نعلم أن بلاطات الإسلام ومدارسه كانت آنذاك منارات ثقافة لأوروبا العارقة في ظلمات القرون الوسطى، وأن أفكار الفلاسفة العرب بلغت آنذاك منزلة رفيعة جعلت العلماء الغربيين يقتفون آثارهم، وأن هارون الرشيد أصدر أمره آنذاك بأن يلحق بكل مسجد مدرسة يتلقى فيها الطلاب مختلف العلوم، وأن المكتبات الحافلة بمئات الآلاف من الكتب كانت مشرعة الأبواب آنذاك في وجه العلماء والدارسين في طول العالم الإسلامي وعرضه؟ ألم يكن العرب أول من اصطنعوا الطرائق التجريبية قبل أن يعلن ويكون ضرورتها بزمن طويل؟ وتطور الكيمياء، وعلم الفلك، ونشر العلم الإغريقي، وتعزيز دراسة الطب، واكتشاف مختلف القوانين الفيزيائية، أليست هذه من مآثر العرب؟)<sup>٢</sup>

وقالت: (نشأ الإسلام، مثل ينبوع من الماء الصافي النмир، وسط شعب همجي يجيا في بلاد منعزلة جرداء بعيدة عن ملتقى طرق الحضارة والفكر الإنساني. وكان ذلك الينبوع غزيراً إلى درجة جعلته يتحول، وشيكاً، إلى جدول، ثم إلى نهر، ليفيض آخر الأمر فتتفرع منه آلاف القنوات تتدفق في البلاد. وفي تلك المواطن التي ذاق فيها القوم طعم تلك المياه الأعجوبة سويت المنازعات وجمع شمل الجماعات المتناحرة. وبدلاً من الثأر الذي كان هو القانون الأعلى والذي كان يشد العشائر المنحدرة من أصل واحد في رابطة متينة، ظهرت عاطفة جديدة، هي عاطفة الأخوة بين أناس تشد بعضهم إلى بعض مثل عليا مشتركة من الأخلاق والدين. وما إن أمسى هذا الينبوع نهرًا لا سبيل إلى مقاومته حتى طوق تياره الصافي العنيف ممالك جبارة تمثل حضارات قديمة. وقبل أن توفى شعوب تلك الممالك إلى إدراك مغزى الحدث الحقيقي داهمها ذلك التيار، قاهرًا البلاد، محطماً الحواجز، موقظاً بصخبه عقولاً وسنى، منشئاً من أكبر عدد من الشعوب المتباينة، مجتمعاً موحداً)<sup>٣</sup>

(١) دفاع عن الإسلام، ص ٣٥ - ٣٦.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص ١٣٠ - ١٣١.

(٣) دفاع عن الإسلام، ص ٢١ - ٢٢.

قلت: فما الخامسة؟

قال: شهادتها عن نظام الأسرة الذي شرعه الإسلام، فقد قالت: (في ما يتصل بالزواج لا تطالب السنّة الإسلامية بأكثر من حياة أمانة إنشائية يسلك فيها المرء منتصف الطريق، متذكراً الله من ناحية، ومحترماً حقوق الجسد والأسرة والمجتمع وحاجاتها من ناحية ثانية)<sup>١</sup>

وقالت: (إنه لم يقيم الدليل حتى الآن، بأي طريقة مطلقة، على أن تعدد الزوجات هو بالضرورة شر اجتماعي وعقبة في طريق التقدم. ولكننا نؤثر ألا نناقش المسألة على هذا الصعيد. وفي استطاعتنا أيضاً أن نصرّ على أنه في بعض مراحل التطور الاجتماعي، عندما تنشأ أحوال خاصة بعينها، كأن يقتل عدد من الذكور ضخم إلى حد استثنائي في الحرب مثلاً، يصبح تعدد الزوجات ضرورة اجتماعية والحق أن الشريعة الإسلامية التي تبدو اليوم وكأنها حافلة بضروب التساهل في هذا الموضوع إنما قيدت تعدد الزوجات بقبود معينة، وكان هذا التعدد حرّاً قبل الإسلام، مطلقاً من كل قيد. لقد شجبت الإسلام بعض أشكال الزواج المشروط والمؤقت التي كانت في الواقع أشكالاً مختلفة للتسرّي الشرعي (المعاشرة من غير الزواج). وفوق هذا منح الإسلام المرأة حقوقاً لم تكن معروفة قط من قبل. وفي استطاعتنا، في كثير من اليسر، أن نحشر الشواهد المؤيدة لذلك)<sup>٢</sup>

وقالت: (القرآن يبيح الطلاق. ومادام المجتمع الغربي قد ارتضى الطلاق أيضاً، واعترف به في الواقع كضرورة من ضرورات الحياة، وخلع عليه في مكان تقريباً صفة شرعية كاملة ففي ميسورنا أن نغفل الدفاع عن اعتراف الإسلام به. ومع ذلك فإننا بدراستنا له، وبمقارنتنا بين عادات العرب في الجاهلية وبين الشريعة الإسلامية، نفوز بفرصة نظهر فيها أن القانون الإسلامي قد دشّن في هذا المجال أيضاً إصلاحاً اجتماعياً. فقبل عهد الرسول كان العرف بين العرب قد جعل الطلاق عملاً بالغ السهولة.. أما القانون الإلهي فقد سنّ بعض القواعد التي لا تجيز إبطال الطلاق فحسب بل التي توصى به في بعض الأحوال.. وليس للمرأة حق المطالبة بالطلاق، ولكنها قد تلتمس فسخ زواجها باللجوء إلى القاضي، وفي إمكانها أن تفوز بذلك إذا كان لديها سبب وحيه يبرّره. والغرض من هذا التقيّد لحق المرأة في المبادرة هو وضع حد لممارسة الطلاق، لأن الرجال يعتبرون أقل استهدفاً لاتخاذ القرارات تحت تأثير اللحظة الراهنة من النساء. وكذلك جعل تدخل القاضي ضماناً لحصول المرأة على جميع حقوقها المالية الناشئة عن إنحاز فسخ الزواج. وهذه القاعدة، والقاعدة الأخرى التي تنصّ على أنه في حال نشوب خلاف داخل الأسرة يتعين اللجوء إلى بعض الموفقين ابتغاء الوصول إلى تفاهم، تنهضان دليلاً كافياً على أن الإسلام يعتبر الطلاق عملاً جديراً باللوم والتعنيف. والآيات القرآنية تقرر ذلك في صراحة بالغة.. وثمة أحاديث نبوية كثيرة تحمل الفكرة نفسها)<sup>٣</sup>

وقالت: (اجتناباً للإغراء بسوء ودفعاً لنتائجه يتعيّن على المرأة المسلمة أن تتخذ حجاباً، وأن تستر جسدها كله، ماعدا تلك الأجزاء التي تعتبر حرّيتها ضرورة مطلقة كالعينين والقدمين. وليس هذا ناشئاً عن قلة احترام

(١) دفاع عن الإسلام، ص ٨٨.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص ٩٧ - ٩٨.

(٣) دفاع عن الإسلام، ص ١٠١ - ١٠٣.

للنساء، أو ابتغاء كبت إرادتهن، ولكن لحمايةهن من شهوات الرجال. وهذه القاعدة العريقة في القدم، القاضية بعزل النساء عن الرجال، والحياة الأخلاقية التي نشأت عنها، قد جعلنا تجارة البغاء المنظمة مجهولة بالكلية في البلدان الشرقية، إلا حينما كان للأجانب نفوذ أو سلطان. وإذا كان أحد لا يستطيع أن ينكر قيمة هذه المكاسب فيتعين علينا أن نستنتج أن عادة الحجاب.. كانت مصدر فائدة لا تثنى للمجتمع الإسلامي<sup>١</sup>

وقالت: (إذا كانت المرأة قد بلغت، من وجهة النظر الاجتماعية في أوروبا، مكانة رفيعة، فإن مركزها، شرعياً على الأقل، كان حتى سنوات قليلة جداً، ولا يزال في بعض البلدان، أقل استقلالاً من المرأة المسلمة في العالم الإسلامي. إن المرأة المسلمة إلى جانب تمتعها بحق الوراثة مثل إخوتها، ولو بنسبة أصغر، وبحقها في أن لا تزف إلى أحد إلا بموافقتها الحرة، وفي أن لا يسيء زوجها معاملتها، تتمتع أيضاً بحق الحصول على مهر من الزوج، وبحق إعالتها إياها، وتتمتع بأكمل الحرية، إذا كانت مؤهلة لذلك شرعياً، في إدارة ممتلكاتها الشخصية)<sup>٢</sup>

سكت البابا، فقلت: لا أرى إلا أن هذه المرأة الصالحة امرأة مؤمنة تكتم إيمانها، فيستحيل على من يفيض قلبه بمذه الكلمات أن لا يكون قد امتلأ عشقاً لهذا الدين، ولني هذا الدين.

قال: صدقت.. فقد يتكلف المرء كل شيء إلا في هذا.

### دافيد دي سانتيلانا:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (دافيد دي سانتيلانا)<sup>٣</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: هذا رجل كتب له أن يعيش بين المسلمين.. وكتب لعينيه أن تكتحلا بجمال الشريعة.. ولذلك تجد في كلماته من الصدق ما يرفعه في عينك إلى مرتبة قد تخطى في التعبير عنها.

قلت: فما شهادته؟

قال: لقد تحدث عن قدرة رسول الله ﷺ على تحويل الولاء للقبيلة الذي يمثل العنصرية إلى الولاء للإسلام الذي يمثل الولاء للفكرة، فقال: (ما كان من محمد إلا أن تناول المجتمع العربي هدمًا من أصوله وجذوره وشاد صرحًا اجتماعيًا جديدًا.. هذا العمل الباهر لم تخطئه عين (ابن خلدون) النفاذة الثاقبة. إن محمدًا هدم شكل القبيلة والأسرة المعروفين آنذاك، ومحا منه الشخصية الفردية Gentes والموالات والجماعات المتحالفة. من يعتنق دين الإسلام عليه أن ينشئ روابطه كلها ومنها رابطة قرباه وأسرته، إلا إذا كانوا يعتنقون دينه (إخوته في

(١) دفاع عن الإسلام، ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص ١٠٦.

(٣) دافيد دي سانتيلانا (١٨٤٥ - ١٩٣١) David de Santillana ولد في تونس، ودرس في روما، أحرز الدكتوراه في القانون، فدعا المقيم العام الفرنسي في تونس لدراسة وتدوين القوانين التونسية، فوضع القانونين المدني والتجاري معتمداً بذلك على قواعد الشريعة الإسلامية ومنسقا إياهما بحسب القوانين الأوروبية. كان على معرفة واسعة بالمذاهب المالكية والشافعية، وفي سنة ١٩١٠ عين أستاذاً لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية، وله محاضرات قيمة فيها. ثم استعدته جامعة روما لتدريس التاريخ الإسلامي.

من آثاره: (ترجمة وشرح الأحكام المالكية)، كتاب (الفقه الإسلامي ومقارنته بالمذهب الشافعي).. وغيرها.



الإيمان). فما داموا هم على دينهم القديم فإنه يقول لهم كما قال إبراهيم لأهله: (لقد تقطعت بيننا الأسباب)<sup>١</sup> وتحدث عن ثمره ذلك، فقال: (ذلكم هو شكل النظام الجديد الذي دعا إليه محمد.. ونحن نجد في ظله أن قيمة الفرد بدأت تتضح وكيونته البشرية أخذت تبرز إلى عالم الوجود فصار يستمد حقوقه وواجباته من إيمانه ويستقيها من معين دينه لا من روابطه الاجتماعية والعرفية. فمن جماعة المؤمنين هؤلاء تكون المجتمع الإسلامي)<sup>٢</sup> وتحدث عن الوجهة التي يتوجه إليها ولاء المؤمن، فقال: (إن أساس الوحدة الاجتماعية يمثلها (الله) في الإسلام. فالله هو الاسم الذي يطلق على السلطة العاملة في حقل المصلحة العامة. وعلى هذا المنوال يكون بيت المال هو (بيت مال الله)، والجند هم (جند الله)، حتى الموظفون العموميون هم (عمال الله) وليست العلاقة بين الله والمؤمن بأقل قوة من ذلك ولا يوجد بين المؤمن وربّه (وسيط)، وما دام الإسلام لا يقرّ بسلطان كنسي وكهنوتي ولا يعترف بأسرار كنيسة مقدسة، فأى فائدة تترجى من الوسيط بين الإنسان وبين خالقه الذي كان يعرفه قبل أن يبدعه والذي هو ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: من الآية ١٦).. إن الله بعد أن أرسل إلى البشر خاتمة أنبيائه وكلمته النهائية، لم يعد ثم من ينطق بلسانه أو يعرف عن إرادته. الإنسان وحده ماثل أمام الله في حياته وموته وله أن يخاطبه رأساً بلا وسيط، أو شفاعة أو (إجراءات).. والإنسان من فجر حياته حتى موته تحت أنظار الله وهو وحده يمثل أمام الله يوم الحشر.. إن اشد المذاهب البروتستانتية صرامة إنما تكاد تكون مذهباً كهنوتياً صرفاً إذا ما قورنت بعقيدة التوحيد الراسخة التي لا تلين ولا تتزعزع ولا تسمح بالتدخل بين الخالق والمخلوق)<sup>٣</sup>

وتحدث عن عالمية الرسالة، فقال: (كان محمد رسول الله إلى الشعوب الأخرى، كما كان رسول الله إلى العرب)<sup>٤</sup>

وتحدث عن رعاية الشريعة للمصالح، فقال: (إن مبادئ الإسلام القانونية على تعدد أشكالها، تؤول إلى غاية واحدة هي الرفاه العام (المصلحة). لذلك فليس لهذا القانون: الإلهي مصدراً والبشري هدفاً، إلا سعادة البشر ورفاهه. والعين النافذة لا يمكن أن تخطئ رؤية هذه الغاية وإن شق عليها أن تتبينها لأول وهلة. لأن الله لا يمكن أن يعمل شيئاً لا تتجلى فيه الحكمة والرأفة اللتان هما باعناهما الأساسيان. لما كان البشر من روح وجسد فلا بد أن يكون للمرء اتجاهان في الحياة: اتجاه روحي واتجاه جسدي (مادي ومعنوي) وعلى هذا الأساس كانت القواعد (الحدود) الإلهية التي وضعها الله لتدبير البشر منقسمة إلى قسمين: ما يتعلق منها بالروح وما يختص منها بالجسد. فالدين والقانون هما نظامان متباينان لكنهما متلاحمان يتم أحدهما الآخر باتحادهما في المصدر والغرض وهو سعادة البشر ورفاهه)<sup>٥</sup>

وقال: (لما كان الشرع الإسلامي يستهدف منفعة المجموع، فهو بجوهره شريعة تطورية غير جامدة خلافاً

(١) تراث الإسلام (إشراف سير توماس آرنولد)، ص ٤٠٥ - ٤٠٦.

(٢) تراث الإسلام، ص ٤٠٦.

(٣) تراث الإسلام، ص ٤٠٩ - ٤١٠.

(٤) تراث الإسلام، ص ٤٠٦.

(٥) تراث الإسلام، ص ٤١٣ - ٤١٤.

لشريعتنا من بعض الوجوه. ثم إنها علم ما دامت تعتمد على المنطق الجدلي.. وتستند إلى اللغة.. إنها ليست جامدة، ولا تستند إلى مجرد العرف والعادة، ومدارسها الفقهية العظيمة تتفق كلها على هذا الرأي. فيقول أتباع المذهب الحنفي أن القاعدة القانونية ليست بالشيء الجامد الذي لا يقبل التغيير. إنها لا تشبه قواعد النحو والمنطق. ففيها يتمثل كل ما يحدث في المجتمع بصورة عامة.. إن المنفعة هي مبدأ الفقهاء والمشرعين، ولقد أدرك العرب بوضوح تام سرّ هذه المرونة وهو الاستعمال بلا ريب.. أن هذا التفاعل المستمر للفقهاء في الحياة يمكن تتبعه في مسالك التاريخ الإسلامي<sup>١</sup>

ورد على من يدعي استمداد الشريعة من القانون الروماني، فقال: (عبثاً نحاول أن نجد أصولاً واحدة تلتقي فيها الشريعتان الشرقية والغربية (الإسلامية والرومانية) كما استقر الرأي على ذلك. إن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة والمبادئ الثابتة لا يمكن إرجاعها أو نسبتها إلى شرائعنا وقوانيننا لأنها شريعة دينية تغاير أفكارنا أصلاً)<sup>٢</sup>

### فرانشيسكو كابريلي:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (فرانشيسكو كابريلي)<sup>٣</sup>، فقلت: أعرف هذا الرجل.. لقد حدثني حديثه في رحلتك السابقة<sup>٤</sup>.

قال: أجل.. وسأحدثك اليوم عن بعض شهاداته:

فقد تحدث عن قدرة الإسلام على الانسجام مع البيئات المختلفة، والتأثير فيها، فقال: (إنها القوة العجيبة التي تشع من العقيدة الجديدة، ومن الدولة التي أقامتها هذه العقيدة، والتي نمت في كل اتجاه وأنتجت حضارة موحدة إلى حدّ يدعو إلى الدهشة، وذلك رغم الاختلاف الشديد بين البيئات والمستويات الثقافية التي ازدهرت عليها)<sup>٥</sup>

وتحدث عن تأثير الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية، فقال: (إن الاتصالات بين العالم المسيحي، الذي كان مهلهلاً محصوراً، وبين الإسلام الغازي في منطقة البحر المتوسط، كانت على ما يبدو متكررة ومثمرة..

(١) تراث الإسلام، ص ٤٣٣ - ٤٣٤.

(٢) تراث الإسلام، ص ٤٣١، وسنرد على هذه الشبهة في رسالة (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

(٣) فرانشيسكو كابريلي Francesco, Gabrieli ولد عام ١٩٠٤، كبير أساتذة اللغة العربية وآدابها في جامعة روما، برز في دراسة الشعر العربي من الجاهلية حتى العصر الحديث وفي تحقيق التاريخ الإسلامي، وانتخب عضواً في عدد من الجامعات والجمعيات العلمية.

من آثاره: ألف العديد من الأبحاث والمصنفات منها: (تاريخ المسلمين للحروب الصليبية) (١٩٢٩)، و(العصية لسدى ابن خلدون) (١٩٣٠)، و(عمر الخيام) (١٩٣٠)، و(ابن المقفع)، و(العيد الألفي للمنتنبي) (١٩٣٦)، و(أصل الخوارج) (١٩٤٢)، وغيرها.

(٤) انظر: رسالة (ثمار من شجرة النبوة)، فصل (صمود)

(٥) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزورث ١/١٠١).

لقد تسرّب (تراث) الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى إلى الغرب وتغلغل فيه)<sup>١</sup>  
وقال: (إن ما خلفته الحضارة العربية الإسلامية لإسبانيا في المجالات الثقافية والأدبية والفنية خلفته أيضاً  
لأوروبا بوصفه عنصراً حصباً من العناصر المكونة للحضارة الغربية)<sup>٢</sup>

وتحدث عن إسلامية الحضارة الإسلامية، فقال: (من الواضح أننا نعني بالإسلام هنا كل (الحضارة  
الإسلامية) التي تطورت. بما لها من مظهر خاص، من آسيا الوسطى إلى المحيط الأطلسي والتي قامت على الإيمان  
برسالة الرسول محمد.. ولا ريب أن العقيدة الدينية قد زودت هذه الحضارة ليس بعاملها المشترك فحسب، بل  
بمحوها ومظهرها الأساسي أيضاً. وأن كل مظاهر الحياة الأخرى من مادية وروحية ومن سياسية وأدبية  
واقصادية واجتماعية، تحمل طابع هذا العنصر الديني يعكس عليها ألوانه، وتنمو وتتسع تحت تأثيره. وقد قال  
أحدهم إن الإسلام دين (عالمي شامل) أكثر من أي دين آخر، ويشمل تأثيره الإنسان بأكمله وليس شعوره  
الديني وحده)<sup>٣</sup>

وتحدث عن تأثير الإسلام في كل مناحي الحياة، فقال: (إن الطابع الإسلامي إذا غلب على أمة من الأمم،  
لا يمكن محوه البتة وأن كبار الشعراء حتى حينما يعالجون موضوعات سابقة للإسلام وخارجة عنه يطبعونه  
بالطابع الإسلامي أيضاً)<sup>٤</sup>

### ٣ - بلجيكا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (بلجيكا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

### جورج سارتون:

قلت: من هو جورج سارتون؟

قال: هذا رجل مهتم بتاريخ العلوم، وقد كان له من البحث الصادق ما جعله أوسع من أن ينحصر في  
جمال تخصصه، فلهذا عرف من الحقائق ما جعله يشهد لها.

(١) تراث الإسلام، ١ / ١٠٩.

(٢) تراث الإسلام، ١ / ١٤٣.

(٣) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية (تحرير كرونباوم)، ص ١٢٣.

(٤) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ١٤١.

(٥) جورج سارتون (١٨٨٤ - ١٩٥٦) G. Sarton ولد في بلجيكا، وحصل على الدكتوراه في العلوم الطبيعية  
والرياضية (١٩١١)، فلما نشبت الحرب رحل إلى إنكلترا، ثم تحول عنها إلى الولايات المتحدة، وتجنّس بجنسيتها فعين محاضراً في  
تاريخ العلم بجامعة واشنطن (١٩١٦)، ثم في جامعة هارفارد (١٩١٧-١٩٤٩). وقد انكب على دراسة اللغة العربية في الجامعة  
الأمريكية ببيروت (١٩٣١-١٩٣٢) وألقى فيها وفي كلية المقاصد الإسلامية محاضرات ممتعة لتبيان فضل العرب على التفكير  
الإنساني، زار عدداً من البلدان العربية، وتمرس بالعديد من اللغات، ومنح عدة شهادات دكتوراه كما انتخب عضواً في عشرة  
مجامع علمية وفي عديد من الجمعيات العالمية، وأشرف على عدد من المجالات العلمية.  
من آثاره: خلف أكثر من خمسمائة بحث، وخير تصانيفه وأجمعها: (المدخل إلى تاريخ العلم) في خمسة مجلدات (١٩٢٧)،  
(١٩٣١، ١٩٤٧).

لقد ذكر القرآن، وتأثيره في اللغة العربية، فقال: (إن لغة القرآن على اعتبار أنها اللغة التي اختارها الله جل وعلا للوحي كانت، بهذا التحديد، كاملة.. وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد.. وجعل منها وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة)<sup>١</sup> وتحدث عن صفات رسول الله ﷺ وفضله، فقال: (صدع الرسول بالدعوة نحو عام ٦١٠م وعمره يوم ذاك أربعون سنة، وكان مثل إخوانه الأنبياء السابقين ولكن كان أفضل منهم بما لا نسبة فيه.. وكان زاهداً وفقياً ومشرعاً ورجلاً عملياً)<sup>٢</sup>

بل إنه اعتبر انتصار رسول الله ﷺ أعظم انتصار حققه نبي من الأنبياء، فقال: (إنه لم يتح لني من قبل.. أن ينتصر انتصاراً تاماً كانتصار محمد)<sup>٣</sup>

وقال: (كان النبي محمد أشمل في دعوته وأعمق من كل من سواه من الأنبياء)<sup>٤</sup> وذكر اثر النبي ﷺ في الحضارة الإسلامية، فقال: (لم يكن محمد نبي الإسلام فحسب، بل نبي اللغة العربية والثقافة العربية<sup>٥</sup>، على اختلاف أجناس المتكلمين بها وأديانهم)<sup>٦</sup>

واعتبر المنجزات التي حققها رسول الله ﷺ أعظم المنجزات في تاريخ البشرية، فقال: (ثمة حادثة واحدة من أحصب الحوادث نتائج في تاريخ الإنسانية ألا وهي ظهور الإسلام)<sup>٧</sup> وتحدث عن شمولية الإسلام للدين والدولة، فقال: (كانت الهجرة حدثاً فاصلاً في حياة الرسول، وفي تاريخ الدين الجديد. إنها البدء الرسمي للإسلام كدين ودولة معاً)<sup>٨</sup>

وتحدث عن مزايا التشريعات الإسلامية، ومراعاتها للفطرة، فقال: (ليس في أركان الإسلام الخمسة شيء ينفر منه غير المسلم وعلى الرغم من بساطة هذه الفروض وقلة عددها فإنه لم يكن بالإمكان إدخال إصلاح ما عليها يقود إلى أن تثبت العقيدة الإسلامية في نفسه كل مسلم أو تقوى بعد ثبوتها ثم يسهل انتشارها فوق ما ثبتت وقويت وانتشرت فعلاً. إن القيمة العملية للعقيدة الإسلامية لها دليل ذاتي من قوتها ورسوخها وانتشارها)<sup>٩</sup> وقال: (إن فرض الصيام في كل نهار من مطلع الفجر إلى غياب الشمس شهراً كاملاً كان امتحاناً قاسياً لكل مسلم.. ولكنه كان وسيلة بارعة لسير غور الإيمان في صدر كل مسلم ولتثبيت ذلك الإيمان أيضاً.. ولقد أدرك الإسلام الحاجة إلى تنظيم شديد كيما يقوى إيمان المسلمين وتنطهر قلوبهم. من أجل ذلك كان شهر الصيام والحج من التمارين التي تحمل على هذا التنظيم وتقوم به أحسن قيام، إن كثيراً من كنائسنا نحن قد

(١) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٢٩ - ٣٠ - ٣١.

(٣) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٣.

(٤) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته، ١٤٠.

(٥) الثقافة الغربية في مجموعها ثقافة إسلامية.

(٦) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٣.

(٧) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٢٨.

(٨) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٣٠.

(٩) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٣٢.

ضعفت إلى درجة التفاهة لتساهلها ولفقدان التنظيم فيها ولقلة ما تفرضه على أتباعها. إن اتباع هذه الكنائس إذا دفعوا اشتراكهم (بدل جلوسهم على مقاعد الكنيسة) عدوا من المؤمنين حقاً. إن مثل هذه الكنائس قد تكون غنية، ومع ذلك فإنها، من حيث التأثير، في حكم المفقودة. فإذا كنتم تريدون أتباع كنائس ذوي إيمان فعليكم أن تفرضوا عليهم نظاماً شديداً وأن تطلبوا منهم توضيحات حقيقية. ولقد عرف محمد ذلك جيداً، وهذه علامة أخرى من علامات عبقرية النبوة فيه<sup>١</sup>

وتحدث عن حكمة الإسلام من تحريم الخمر، فقال: (حرم الإسلام الخمر في مطلع دعوته، وها نحن اليوم بعد أن انتشرت الخمور وزادت نسبة الكحول فيها إلى درجة فتاكة ندرك حكمة الإسلام وبعده نظره)<sup>٢</sup>

وتحدث عن سماحة الإسلام، فقال: (ما تميز به الإسلام من السماحة والبساطة والاعتدال، يسر لأي إنسان في أي موطن، أن يتقبله وينفذ إلى روحه وجوهره منذ اللحظة الأولى)<sup>٣</sup>

وتحدث عن القيم التي كان يحملها الفاتحون، فقال: (إن الفاتحين العرب كانوا بلا ريب أميين، ولكنهم كانوا موحدين تماماً، وكان يعمر قلوبهم إيمان وطيد. وفي هذه أيضاً انتصر النبي انتصاراً بيئاً. أن الفتوح العربية لم تكن نتيجة صراع بين برابرة جياح وبين سكان مدن أخذوا يتقهقرون في سلم المدينة، بل كان في الأكثر صراعاً بين دين جديد وثقافة جديدة ناشئة في المحل الأول، ثم بين ثقافات منحلّة متعادية قلقة في المحل الثاني)<sup>٤</sup>

وقال: (إن تفاصيل تلك الجهود المدهشة في الفتح الإسلامي هم المؤرخين السياسيين ولكن الحالة النفسية للأسس التي تقوم عليها تلك الفتوح فيما يتعلق بالجنابيين (بالعرب ثم بالروم والفرس) هي ذات أهمية كبرى لمؤرخي العلم. لقد سبق للإيمان المسيحي أن تزلزل بالمنازعات اللاهوتية التي امتدت قرونًا عديدة، والحرمانات المتبادلة، فقاد ذلك إلى أن استقبل النصارى في الشرق الأوسط جيوش الفاتحين المسلمين على أنها منقذة لهم من استبداد الكنيسة الأرثوذكسية ثم أن الإسلام.. كان لا يزال غضباً موحدًا، كما أن المجاهدين المسلمين كانت تملك عليهم لبهم آمال عظام.. وكان الإيمان في الإسلام بسيطاً، كريمًا ومعتدلاً، ومن ذلك فقد كان بالإمكان أن تشيع فيه الحماسة حين البأس على حد بعيد فينقلب المجاهدون حينئذ ذوي حمية إما أن يبلغوا بها الظفر أو أن يسقطوا دونه شهداء. لقد كان الظفر والاستشهاد عندهم سيئين)<sup>٥</sup>

وقال: (وبمساعدة هذه المؤثرات العجيبة، كان يشعر المسلم في كل مكان بأنه في بلده، سواء أكان في رحلاته خارج الحدود أم في معاملاته مع تجار البلاد الأجنبية)<sup>٦</sup>

وتحدث عن انفتاح المسلمين على الثقافات الأخرى، فقال: (إن إدراك الفاتحين لضرورة الأخذ عن ثقافات الشعوب المفتوحة قد فسح المجال لما يجوز أن نسميه معجزة العلم العربي، آتية بكلمة معجزة لترمز إلى تفسير ما

(١) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٠ - ٤٢.

(٢) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٠.

(٣) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلر يونغ)، ص ١٤٠.

(٤) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٦.

(٥) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٧.

(٦) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٧.

بلغ إليه العرب في الثقافة والعلم مما يخرج تقريباً عن نطاق التصديق وليس لذلك شبه في تاريخ العالم كله ما عدا حسن اكتساب اليابانيين للعلم الحديث وللدراة الفنية في أثناء العصر الميجي ١٨٦٨-١٩١٢م. إن هذه الموازنة مفيدة، لأن الموقف كان في الحالين واحداً. إن قادة الثقافة بين العرب قد أدركوا الحاجة الماسة إلى العلم اليوناني بقدر ما أدرك اليابانيون في الجيلين السابقين حاجتهم إلى العلم الأوروبي الحديث. ولقد كان خير المعلمين لكلتا الأمتين الحاجة الملحة. على أن تينك الأمتين قد اتصفتا بالإرادة وبنوع من النشاط الروحي الذي يتغلب على المصاعب الشاقة<sup>١</sup>

وقال: (إن غرابية العلم العربي وخصبه معاً يرجعان في الحقيقة إلى أن ذلك العلم قد جمع العناصر اليونانية إلى العناصر الشرقية وخلق منها مركباً جديداً، أو أنه جعل خلق هذا المركب ممكناً في المستقبل. ولقد كان بالإمكان أن ينتقل العلم اليوناني على يد أوروبا اللاتينية لو لم تكن النصرانية الكاثوليكية مفصولة تماماً عن النصرانية الأرثوذكسية بحدار من التعصب وسوء الظن والبغض. وبما أن هذا الحدار كان لسوء الحظ موجوداً، فإنه لم يكن من سبيل إلى اتصال العلم اليوناني السابق بالمستقبل التالي إلا من طريق المنحنى العربي. وإذا نحن نظرنا إلى العلم العربي من وجهة نظر التطور الإنساني عموماً، وجدنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت ذات أهمية بالغة، ذلك لأنها تؤلف الصلة الأساسية بين الشرق الأدنى وبين الغرب، ثم بين الشرق الأوسط وبين آسيا البوذية)<sup>٢</sup>

وتحدث عن امتداد الثقافة الإسلامية، فقال: (إن الأهمية العظمى التي يتمتع بها الشرق الأوسط على أنه مهد للثقافة العربية قد قام البرهان عليه.. ولكن حب الحقيقة يحمنا على أن نبدي تحفظاً.. أن الثقافة العربية التي كانت الثقافة الزعيمة منذ القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر ثم بقيت على غاية من الأهمية ثلاثة قرون آخر (ولندكر أن ستة قرون ليست شيئاً يسيراً) قد درجت من ذلك المهد، لا شك في ذلك. ولكن الفتوح الإسلامية قد مدتها شرقاً إلى الهند وأواسط آسيا حتى الصين ثم غرباً إلى إسبانيا ومراكش، أي إلى طرف العالم. فإذا نحن سمينا هذه الثقافة إذن ثقافة الشرق الأوسط فحسب فإننا نكون قد جئنا شيئاً غريباً، إذ أن تلك الثقافة كانت قد امتدت في العصور الوسطى من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى)<sup>٣</sup>

وتحدث عن عظم المآثر التي خلفها المسلمون، فقال: (إن المآثر التي قامت بها الشعوب التي تتكلم اللغة العربية - وذلك بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر للميلاد- كانت عظيمة إلى درجة تحمل أفعالنا. على أن التأخر الذي أصاب المسلمين والعرب كان مستغرباً جداً في سرعته واكتماله كما كانت نهضتهم الرائعة مستغربة جداً أيضاً. وسيحاول العلماء الدارسون أبداً تعليل ذلك، ولكن بلا جدوى من الناحية العملية على الأقل، ذلك لأن أشباه هذه المسائل معقدة جداً، ولأن الإجابة عليها بالأساليب العادية تقع في نطاق

(١) الثقافة العربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٤٩.

(٢) الثقافة العربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٥٧.

(٣) الثقافة العربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٥٧ - ٥٨.

المستحيل)<sup>١</sup>

وقال: (مرة أخرى نستعمل كلمة (معجزة) لأن ما تحقق على أيدي العرب في ميدان العلوم لا يكاد يصدق. ولم يحدث قط في تاريخ الإنسانية أن تمكن قوم من العلم هذا التمكن السريع، إلا في حالة واحدة أخرى هي ما حققه عصر الإمبراطور موتسوهيتو ١٨٦٨-١٩١٢ Mutsuhito لليابان من علم وفن حديث. والحق أن بين هاتين الحالتين من النهضة الإنسانية شبهاً أساسياً)<sup>٢</sup>

وتنبأ عن نهضة جديدة للعالم الإسلامي تمكنه من قيادة العالم، فقال: (إن شعوب الشرق الأوسط قد سبق لها أن قادت العالم في حقتين طويلتين، طوال ألفي سنة على الأقل قبل اليونان، ثم في العصور الوسطى مدى أربعة قرون على الأقل. من أجل ذلك ليس ثمة ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية في المستقبل القريب أو البعيد)<sup>٣</sup>

وقال: (ليس ما يمنع الشعوب العربية اليوم من أن تباري أسلافها وأن تستعيد ثانية مكانتها الأولى في قيادة العالم. ومع أن ذلك ليس سهلاً - ثم هو يصبح أشد صعوبة يوماً بعد يوم - فإنه ممكن)<sup>٤</sup>

وهو ينتقد التقدم المادي المجرد عن الدين، ويدعو إلى الدين المبني على الحب، قال: (إن التقدم المادي الخالص مدمر، وهو ليس تقدماً على الإطلاق، بل تأخر أساسي. أن التقدم الصحيح - ومعناه تحسين صحيح لأحوال الحياة - لا يمكن أن يبني على وثنية الآلات ولا على العتلات، ولكن يجب أن يقوم على الدين وعلى الفن، وفوق ذلك كله، على العلم، العلم الخالص، على محبة الله، على محبة الحقيقة، وعلى حب الجمال وحب العدل. وهذا يبدو لنا جلياً حينما نلقي نظرة واحدة إلى الوراثة. من هم أولئك الذين كانوا رجالاً عظاماً في التاريخ؟ من هم أولئك الذين أحسنوا إلينا؟ ومن هم أولئك الرجال الذين نحن مدينون لهم بمسرات حياتنا ونعمها؟ لقد كانوا رجالاً أمثال أفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرخميدس في تاريخ اليونان. أما في أثناء العصور الوسطى فكانوا رجالاً من أمثال الفارابي وابن سينا وابن الهيثم والبروني والغزالي وابن رشد وموسى بن ميمون وأبي الفداء وابن خلدون.. إن ما نراه واضحاً حينما نلقي نظرة إلى الوراثة يجب أن يكون واضحاً أيضاً حينما نمد نظرنا إلى الأمام فيهدي خطانا إلى المستقبل)<sup>٥</sup>

(إن المدنية ليست مرضاً، ولكن من الممكن أن تنقلب عند أهل الجدل شراً وفساداً والمدنية ليست شرقية ولا غربية، وليس مكانها في واشنطن أكثر مما هو في بغداد. إنما يمكن أن تكون في كل مكان يكون فيه رجال صالحون ونساء صالحات يفهمونها ويعرفون كيف يستفيدون منها من غير أن يسيئوا استعمالها. والشرق الأوسط كان مهد الثقافة ومنه جاءت أسباب إنقاذ العالم في أثناء العصور الوسطى حينما بدأ الستار الحديدي في أوروبا يشطر العالم شطرين الأرثوذكسي والكاثوليكي. وها نحن اليوم ننظر إلى ماضي الشرق الأوسط بعين

(١) الثقافة العربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٦١.

(٢) الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته (بإشراف كويلي يونغ)، ص ١٣٦.

(٣) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٦٩.

(٤) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٧٠.

(٥) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٧٢ - ٧٣.

من عرفان الجميل ثم نرنو إلى مستقبله بعين من الأمل الحلو<sup>١</sup>  
قلت: إن شهادات هذا الرجل تنبئ عن فهم عميق للإسلام.  
قال: لعل الأمر أعمق من أن يكون مجرد فهم.. فحديث هذا الرجل عن حب الله في هذا العصر لا يدل  
إلا على الأعماق التي جعلته يصرح بهذه التصريحات.

#### ٤ - النمسا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (النمسا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

#### الكاردينال كوينج:

قلت: من هو الكاردينال كوينج؟  
قال: هذا رجل دين من النمسا.  
قلت: كيف يكون رجل دين، ويشهد للإسلام؟  
قال: ليس ذلك مستغربا.. فلا بد أن يعيش الإنسان في حياته لحظة من لحظات الصدق.. وهذه اللحظات  
قد تنطقه بشهادة الحق التي ظل يبتعد عنها طول حياته.  
قلت: فاذا ذكر لي شهادات هذا الرجل.

قال: من شهاداته شهادته حول اهتمام القرآن بالفكر، مبينا اتفاقه مع الكتاب المقدس في هذا، قال:  
(يحدثنا القرآن الكريم عن الإنسان ومحاولته الوصول إلى حالته في هذه الآيات البيئات: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ  
السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ  
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤)، ويحدثنا الكتاب المقدس عن هذا المعنى في هذه العبارة:  
(أن قدرة الله الأزلية وألوهيته منذ خلق العالم، تتجلى في مخلوقاته بنور الفكر الإنساني)<sup>٢</sup>

وذكر اهتمام القرآن الكريم بالتوحيد، بل اعتباره الغاية الأسمى منه، فقال: (إن تاريخ الدين بوجه عام  
وتاريخ التوحيد على وجه خاص يظهرنا على أن الإيمان بالله وحده هو الجواب الشافي الوحيد عن كل سؤال  
عن أصل الكون والإنسانية والغاية من وجودهما فلا يمكن أن يكون للحياة الإنسانية من هدف إلا الله وحده  
وكل تدبّر في الإنسان مرده في الأصل - عن إدراك أو بغير إدراك واع - إلى الإيمان بإله واحد، ولقد كان  
هناك توحيد حين ظهر الإسلام واتخذ الإسلام التوحيد سبيلاً لأتباعه المؤمنين. ولا شك أن الغزالي على حق  
يقرر أن الإيمان بالله وحده هو المقصد الأسمى للقرآن الكريم)<sup>٣</sup>

(١) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ص ٧٤ - ٧٥.

(٢) الكاردينال كوينج Quenge رئيس أساقفة النمسا.

(٣) عقيدة التوحيد في العالم المعاصر، ص ١٠.

(٤) عقيدة التوحيد في العالم المعاصر، ص ١٥ - ١٦.



وقال: (لنقلها إذن في صراحة ووضوح: أن التوحيد عدو لكل من نصب نفسه معياراً للحياة الإنسانية في هذه الأرض، وهذه الحقيقة هي التي ترسم لنا حدود مسؤولياتنا.. وليكن هنما في هذه الأيام العصبية أن نعين الناس على أن يستجيبوا لأمر الله فيقيسوا حياتهم وفق أمره ومشيئته وفي هذه الاستجابة لنداء الفطرة (كما يدعوها المسلمون) المستكنة في قلب كل بشر، جوهر الإيمان بالله الحق المبين. ولعلنا بذلك نخطو الخطوة الحاسمة في إقرار التوحيد بين البشر)<sup>١</sup>

## كوستاف فون كرونباوم:

من الأسماء التي رأيتها في دفتر البابا في هذا الفصل اسم (كوستاف فون كرونباوم)<sup>٢</sup>، فسألت البابا عنه، فقال: لهذا الرجل شهادات ترتبط بالحضارة الإسلامية، منها شهادته بتقبل الإسلام للحضارات المختلفة، وصهرها في بوتقته، قال: (كانت الحضارة التي جاء بها العرب الفاتحون من جزيرة العرب هي في حدّ ذاتها نتيجة الاندماج الأولى بين عناصر الثقافة المحلية للعرب وعناصر مستمدة من التقاليد اليهودية والمسيحية والتقاليد الهلينية.. وبين رسالة الإسلام التي كانت عنصراً آخر وعاملاً من عوامل تبلور الحضارة الجديدة. وهذا التكامل الإسلامي الأول هو الذي فرض نفسه على نسبة كبيرة نوعاً ما من الشعوب المغلوبة في الوقت الذي كان يجري فيه كفاح شديد بينها وبين الحضارات القديمة المتأصلة في تلك البلاد. وكانت نتيجة هذه الخصومة والتنازع أن خرجت إمكانات الإسلام الفلسفية والعملية إلى حيز الفعل)<sup>٣</sup>

وقال: (التفكير الإداري والسياسي من فارس، والطرائق الهلنستية في التفلسف والعلم، والطب والرياضيات من الهند، كل ذلك قد تمثله المسلمون واستوعبوه بغير عناء. وأن التعريب اللغوي لكل ما اقتبسوه من هذه الأمور ساعد على تمثيلها. وحينما توضح وجهة النظر الأجنبية في داخل إطار إسلامي وتعبير إسلامية يكون الإحساس بها إسلامياً صادقاً، ومن جهة أخرى فإن التوضيح التدريجي بحقائق الدين الأولى ولما تشتمل عليه من ملابسات ثقافية، أخذ يساعد على توسيع الأساس الذي يقوم عليه التبادل بين الحضارات. وهكذا نجد أن ازدهار الحضارة العباسية بين ٧٦٠-٨٤٠م إنما يمثل امتزاجاً ثانياً للحضارة الإسلامية، وقد فسحوا المجال فيها للتقاليد (المحلية) التي استمدوا جزءاً منها من الكتب، إلا أن معظمها دخل في التركيب الجديد على سبيل حقائق التعايش الفعلي)<sup>٤</sup>

وقال: (إن ثقافة الإسلام العامة تملك تحت تصرفها وسائل متعددة تساعد على التوفيق بين الثقافات المحلية. ومن هذه الوسائل التي يتميز بها الإسلام في الأخص الإجماع. فهذا الإجماع الذي هو عنصر في

(١) عقيدة التوحيد في العالم المعاصر، ص ١٧.

(٢) جوستاف فون جرونباوم (١٩٧٢-١٩٠٩) (Gustav Von Grunbaum)، ولد في فيينا في ١٩/٩/١٩٠٩، درس في جامعة فيينا وفي جامعة برلين، هاجر إلى الولايات المتحدة والتحق بجامعة نيويورك عام ١٩٣٨ ثم جامعة شيكاغو ثم استقر به المقام في جامعة كاليفورنيا حيث أسهم في تأسيس مركز دراسات الشرق الأوسط الذي أطلق عليه اسمه فيما بعد. من أهم كتبه الإسلام في العصر الوسيط، كما اهتم بدراسة الأدب العربي وله إنتاج غزير في هذا المجال.

(٣) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونباوم)، ص ٣٨.

(٤) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ٣٨ - ٣٩.

## Consensus Prudentium له سلطة الفصل في شرعية أي عمل أو عقيدة أخذتها الجماعة<sup>١</sup>

وقال: (إن العصر العباسي الأول لم يستعر علم الفلك الهندي مثلاً أو حتى الإدارة الفارسية، لأنه رأى في تلك المنتجات الأجنبية الوسيلة الوحيدة لإعاقة التغلغل في السيطرة السياسية أو الاقتصادية. إن الإسلام لم يكن إذ ذاك في موقف دفاعي، ولكنه تبني تلك الإمكانيات الأجنبية لمصلحته هو، وفعل ذلك في ريث وأناة، إذا كان قد وقع تحت تأثير ضغط فلم يكن ذلك من الخارج ولكن بدافع من مرحلة التطور التي كان يمرّ بها. وبالاختصار، أن الملابس السياسية التي توجه النقل الثقافي في عصرنا الحاضر هي التي تجعله صعباً من الوجهتين النفسية والاجتماعية، ومفككاً للجماعات التي تستقبل هذا النقل. فالاختيار، وتحديد الوقت، والتأثير الإيجابي، وردّ العدوان المعادي، كل أولئك لم يعد حاضراً لحالة النموّ ولا للحاجات الذهنية والوجدانية للمستعير، ولكن يخضع للطموح الثقافي، ولسلسلة من الأحوال الاضطرارية التي ليس للمستعير عليها إلا تسلط محدود. ومن هنا نقول إن مقتضيات الموقف السياسي للعصر العباسي الأول - وقد كان مغايراً تماماً لموقفنا اليوم - هي التي مكنت العباسيين من أن يسيروا في طريق.. حمى عصرهم من الأخطار المصاحبة للاستمداد الثقافي في عصرنا الحاضر الذي يتحكم في التزوع نحو الغرب)<sup>٢</sup>

وانطلاقاً من هذا لا يخاف هذا الرجل على الإسلام من الذوبان في الحضارة الغربية، بل يرى أنه يمكن أن يستمد منها من غير أن يذوب فيها، قال: (ومن حيث إنه لا خطر على الإسلام من أن ينمحي إنحاءاً مادياً كنتيجة لتأثير الغرب، فإنه يلوح أن سريان العناصر الغربية إليه سيظل مقصوراً على ما يمكن أن يهاجر من قوم إلى آخرين كالفنون الصناعية والعمالية والتطبيقية وطرقها). فعملية طبع العالم الإسلامي بالطابع الغربي.. لن تشمل - على الراجح - المبادئ الأساسية المتضمنة في الدين والفلسفة والفن والنظرية العلمية. فالإسلام - باختصار - سوف لا يفقد نفسه في المدينة الغربية إلى درجة انمحاء شخصيته على الرغم من استعمالها للمنشط الخارجي حافزاً لبث روح الحياة فيه من جديد)<sup>٣</sup>

وقال: (لا مفرّ لنا من أن نعترف.. أن ببطء التغيير في موقف العالم الإسلامي يعطي نوعاً من الضمان ضد الاطراح الطائش للخصائص الأساسية لمدينته التي لا ينبغي أن تطرح هكذا بسهولة. وفي عبارة أخرى، أن هذا البطء في تعديل الموقف - ولو أنه في بعض الأحيان يفسد التطبيق الناجح للاستمداد المرغوب فيه - يكون دفاعاً داخلياً قوياً، أو سدّاً ملطفاً لتأثير الأمواج الأجنبية التي تسمح لها بالدخول في ميادين الأفكار والنظم)<sup>٤</sup>

## ٥ - بولونيا

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (بولونيا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

### بوجينا غيانة ستشيجفسكا:

- (١) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ٥٣.
- (٢) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، (تحرير كرونباوم)، ص ١٨٩.
- (٣) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ١٩٣.
- (٤) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية، ص ١٩٤.

قلت: من هي هذه المرأة التي تشرفت بأن يوضع اسمها في كتاب يبحث في القلوب التي صدقت مع محمد

قال: هذه بوجينا غيانة ستشيجفسكا، وهي باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام في الأزهر الشريف، وقدمكنها ذلك من أن تعرف الإسلام عن كثب، ولهذا كان لها هذه الشهادات الصادقة.

منها شهادتها حول الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، قالت: (إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل عربي أمي نشأ في أمة أمية، فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقى الجامعات. كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة)<sup>٢</sup>

ومنها شهادتها حول إيجابية الإيمان بالقضاء والقدر في الإسلام، قالت: (ليس معنى الإيمان بالقضاء والقدر أن يترك المسلم العمل لأن القرآن والني أمرًا بالعمل والاجتهاد في كل شيء. وقال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ١٠٥)<sup>٣</sup>

ومنها شهادتها حول المقصد الشرعي من الصلاة، قالت: (فرض الله سبحانه وتعالى على المسلم خمس صلوات في اليوم ليكون دائم الاتصال بالله، وقبل أن يدخل المسلم الصلاة لابد أن يكون طاهرًا ونظيفًا فالإسلام دين النظافة)<sup>٤</sup>

ومنها شهادتها حول الشورى في الإسلام، قالت: (كان تاريخ التشريع في عهد الخلفاء الراشدين يعتمد على الشورى، وأساسها قول الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وكذلك فعل الرسول مع أصحابه، فقد كان يستشيرهم في الأمور التي لم يتزل فيها عليه وحي)<sup>٥</sup>

ومنها شهادتها حول أهمية الفقه، قالت: (كان الفقه مدار سياستهم وروح حياتهم وبه تدبير ملكهم. وكانت حركة الإسلام سريعة الانتشار حتى عمت المشارق والمغرب لأن الإسلام يأمر أهله بالوقوف عند حدود الشريعة وبصيانة حقوق الخلق أجمعين سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين. فكان للفقه (علم التشريع) زمان الخلفاء مكانة أعظم مما عليه علم الحقوق الآن عند الأمم المتقدمة، وكان الفقهاء هم أرباب الشريعة والشورى (نواب الأمة) ويدهم تدبير كل الأمور ولا يصدر عمل عظيم أو حقير إلا وفاقًا للتشريع وعلى مقتضى الحق)<sup>٦</sup>

ومنها شهادتها على عدالة نظام الحكم في الإسلام، قالت: (كان للأمة الحرية المطلقة والرقابة على أعمال

(١) بوجينا غيانة ستشيجفسكا Bozena – Gajane Stryzewska باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام في الأزهر على يد أساتذة ومشرفين أخصائيين زهاء خمس سنوات (١٩٦١-١٩٦٥)، تمكنت خلالها من اللغة العربية كذلك، وكانت قد أنهت دراساتها العليا في كلية الحقوق، وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا.

(٢) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ١٧.

(٣) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ١٩.

(٤) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ٢٠.

(٥) تاريخ الدول الإسلامية وتشريعها، ص ٣٩.

(٦) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ٦٧.

الخلفاء الراشدين ومدى موافقتها لنصوص الشريعة وخضوعها لآراء الفقهاء، وسيرهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء. ولم ينقل أحد من المؤرخين سواء كانوا عرباً أم غيرهم انتقاداً للخلفاء بظلم أو سوء تصرف، بل اعترف الكل بأن عدلهم وحسن سلوكهم وصراحة طريقتهم قد حبيت فيهم غيرهم من الشعوب، حتى أسقطوا عروش ملوكهم وخربوا دولهم وأسسوا بدلاً منها دولة الإسلام الذي عشقوه لعدل قوانينه، ونزاهة حكامه وعفتهم ورفقهم واتباعهم لشرعهم لا يتعدونه، وكانت نصوص الشريعة واضحة لم يدخلها تأويل ولا شبهات<sup>١</sup>

قلت: إن هذه شهادات قيمة.. ليتها ختمتها بالشهادتين.

قال: كل أمرها إلى الله.. فقد ينطق الإنسان بما لا يسمعه غيره.

## ٦ - كندا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (كندا)، وقد رأيت من الأصدقاء الذين سجلهم البابا:

### ولفريد كانتويل سميث:

قلت: من هو ولفريد كانتويل سميث<sup>٢</sup> ؟

قال: هذا باحث من كندا.. له شهادات طبية عن الإسلام تؤهله لاعتباره صديقا.

منها شهادته بالعزة التي يحملها المسلمون بسبب إسلامهم، قال: (إنه ما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم في غير تكلف ولا اصطناع، وأن الفخر بالعربية قد يمازج هذا الشعور أحياناً.. ولكن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة، وكون الإنسان مسلماً باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين)<sup>٣</sup>

ومنها شهادته على كون الإسلام نظاماً شاملاً لجميع مناحي الحياة، قال: (إن الغربي لا يفهم الإسلام حق فهمه إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره أو يتقبلها بغير مناقشة، فليس التفكير بنافع شيئاً إن لم يكن مصحوباً بتطور المعيشة وتطور أسلوب الحياة الظاهر والباطن في المجتمع الإسلامي)<sup>٤</sup>

(١) تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها، ص ٦٨.

(٢) ويلفريد كانتويل سميث. Wilfred Cantwell Smith: ولد في كندا عام ١٩١٦، درس اللغات الشرقية في جامعة تورنتو. حصل على الماجستير والدكتوراه في مجال دراسات الشرق الأدنى من جامعة برنستون. متخصص في دراسة الإسلام وأوضاع العالم الإسلامي المعاصرة وأشهر كتبه في هذا المجال (الإسلام في العصر الحديث) عمل أستاذاً في جامعة هارفرد وفي معهد الدراسات الإسلامية بجامعة مقيبل بكندا. قام بتدريس الدين الإسلامي بكلية نورمان المسيحية بمدينة لاهور بباكستان ١٩٤١-١٩٤٥. دعي للعمل أستاذاً زائراً في العديد من الجامعات. صدر له حديثاً (١٩٩٨) عدة كتب منها (نماذج الإيمان حول العالم) وكتاب (الإيمان نظرة تاريخية) وكتاب (الإيمان والاعتقاد والفرق بينهما) (٣) الإسلام في التاريخ الحديث، عن العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص ٧٨.

(٤) ما يقال عن الإسلام، ص ٧٩.

## ٧ - الهند:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (الهند)، فقلت: كيف تثبت الهند في الأصدقاء.. وأنت تعلم ما فعلت بكشمير؟

قال: ألا زلت تذكر لي الأرض.. انشغل بالسماء لتنال الأرض والسماء.. فلا خير في الأرض التي تفصلك عن السماء.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد كان أسلافكم أعظم أحلاما.. فلم تشغلهم العداوة عن الصداقة.

قلت: لم أفهم..

قال: ألم تر سلوك الحكمة الذي سلكه المسلمون مع المغول؟

قلت: لقد حولوه إلى دينهم.

قال: فحولوا الهند إلى دينكم.. لتتوجهوا أنتم والهند وكشمير وأهل الأرض جميعا إلى الله.

قلت: فهل نكف عن طلب حقوقنا؟

قال: لا تتشغلوا بحقوقكم عن واجباتكم.. إن الله أوجب عليكم أن تكونوا دعاة لا قتلة، فارموا

أسلحتكم ليعطكم الله من أسلحة السماء ما يحميكم من أسلحة الأرض.

## جوار لال نهرو:

كان من الأسماء التي ذكرت في هذا المحل اسم (جوار لال نهرو)١.. فقلت: أعرف هذا الرجل.. لقد كان

رئيسا لوزراء الهند.

قال: وأنا أعرف هذا الرجل لأنه شهد بعض شهادات الصدق التي لا تزول مع زوال الأيام والدول:

لقد قال مخبرا عن رسول الله ﷺ، وما بثه في نفوس المسلمين من عزة قضت على الاستبداد: (لربما خامرت

هؤلاء الملوك والحكام الذين تسلموا كتب الرسول الدهشة من هذا الرجل البسيط الذي يدعوهم إلى الطاعة.

ولكن إرسال هذه الكتب يعطينا صورة عن مقدار ثقة محمد بنفسه ورسالته. وقد هيا بهذه الثقة وهذا الإيمان

لأمته أسباب القوة والعزة والمنعة وحوّلهم من سكان صحراء إلى سادة يفتحون نصف العالم المعروف في

زمانهم.. وقد توفي محمد بعد أن جعل من القبائل العربية المتنافرة أمة واحدة تتقد غيرة وحماساً)٢

وتحدث — في الوقت الذي غلب فيه المد الشيعوي — عن القيم النبيلة التي جاء بها الإسلام، فقال: (إن

الإسلام هو الباعث والفكرة لليقظة العربية بما بثه في أتباعه من ثقة ونشاط.. ولقد كانت ثقة العرب وإيمانهم

---

(١) جوار لال نهرو J. Lal Nahro ولد في عام ١٨٨٩، في مدينة الله آباد، في الهند، والتقى بغاندي في أوائل عام

١٩١٩، اعتقل عدة مرات، وانتخب رئيساً لحزب المؤتمر الهندي الوطني عدة مرات، دخل الوزارة، وتولى الشؤون الخارجية،

وأصبح نائباً لرئيس المجلس التنفيذي، أول من تولى رئاسة الوزراء الهندية بعد استقلال الهند، له عدة مؤلفات في التاريخ والسياسة

والشؤون الهندية، توفي عام ١٩٦٤م.

(٢) لمحات من تاريخ العالم، ص ٢٥ - ٢٦.

عظيمين. وقد أضاف الإسلام إليهما رسالة الأخوة والمساواة والعدل بين جميع المسلمين. وهكذا ولد في العالم مبدأ ديمقراطي جديد. وأية مقارنة بين رسالة الأخوة الإسلامية وحالة النصرانية المنحلة تجعل المرء يدرك مقدار سحر هذه الرسالة وتأثيرها لا على العرب وحدهم ولكن على جميع شعوب البلدان التي وصل إليها العرب!<sup>١</sup> وقال: (كان للدين الذي بشر به محمد، بما فيه من سهولة وصراحة وإخاء ومساواة، تجاوب لدى الناس في البلدان المجاورة، لأهم ذاقوا الظلم على يد الملوك الأوتوقراطيين والقساوسة المستبدين. لقد تعب الناس من النظام القديم واتفقوا إلى نظام جديد فكان الإسلام فرصتهم الذهبية لأنه أصلح الكثير من أحوالهم ورفع عنهم كابوس الضيم والظلم)<sup>٢</sup>

وتحدث عن معجزة الحضرة الإسلامية، فقال: (المدحش حقاً أن نلاحظ هذا الشعب العربي الذي ظل منسياً أجيالاً عديدة بعيداً عما يجري حوله قد استيقظ فجأة ووثب بنشاط فائق أدهش العالم وقلبه رأساً على عقب. وأن قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وأفريقيا، والحضارة الراقية والمدنية الزاهرة التي قدّموها للعالم هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ)<sup>٣</sup>

وقال: (سار العرب من فتح إلى فتح، وكثيراً ما ربحوا الحروب بدون قتال. وفي غضون خمسة وعشرين عاماً من وفاة الرسول، فتح العرب جميع بلاد فارس وسوريا وأرمينية وجزءاً من أواسط آسيا الشرقية ومصر وجزءاً من شمال أفريقيا. وقد سلمت لهم مصر بسهولة لأنها كانت قد قاست كثيراً من استبداد الإمبراطورية الرومانية ومن الحروب الطائفية)<sup>٤</sup>

وقال: (إن العرب كانوا في بداية يقظتهم متقدمين حماساً لعقيدتهم وأهم كانوا مع ذلك قومًا متسامحين لأن دينهم يأمر في مواضع عديدة بالتسامح والصفح. وكان عمر بن الخطاب شديد الحرص على التسامح عندما دخل بيت المقدس، أما مسلمو إسبانيا فإنهم تركوا للجالية المسيحية الكبيرة هناك حرية العبادة.. والواقع أن أبرز ما يميز هذه الفترة من التاريخ هو الفرق الشاسع بين العرب المسلمين وتعصب النصارى الأوربيين!)<sup>٥</sup>

وقال: (كانت حياة العرب في زمن محمد غربية، وكانت عزيمتهم تختلف عن عزيمة الجنود والجيوش التي كان يعتمد عليها الملوك. لقد برز هؤلاء العرب بعقيدة متوقدة قهرت الجبال ونشرت الإسلام في الآفاق كما تنتشر النار في الهشيم.. برزوا شامخين في عالمهم فدانت أمام زحفهم المظفر الجيوش الجرارة كانت الشعوب الأخرى متململة من أمرائها، فلاح العرب كبارقة الأمل لهذه القوة التي كانت ترقب الفرج والثورة الاجتماعية)<sup>٦</sup>

وقال: (إذا عدت النظافة عيباً في العرب، فقد أسند إليهم عيب آخر ألا وهو التسامح الديني ويكاد المرء لا

(١) لحات من تاريخ العالم، ص ٢٤، ٢٦.

(٢) لحات من تاريخ العالم، ص ٢٧.

(٣) لحات، ص ٢٣.

(٤) لحات، ص ٢٧.

(٥) لحات، ص ٣١.

(٦) لحات، ص ٣٣.

يصدق أن ذلك هي التهمة الرئيسية الموجهة للعرب في كتاب رئيس أساقفة فالنسيا الذي وضعه في عام ١٦٠٢ بعنوان (إلحاد العرب وخياناتهم) وطالب فيه بإقصاء العرب عن إسبانيا. وقد قال: (أن العرب يجذون جدًّا حرية الضمير في الشؤون المتعلقة بالدين، شأنهم في ذلك شأن الأتراك والمسلمين الذين تركوا لأتباعهم الحرية الدينية). ولعمري ما أجمل هذا المدح الذي قصد به ذم مسلمي إسبانيا الذين يمتازون بتسامحهم الديني في الوقت الذي استرسل فيه المسيحيون الأوروبيون في التعصب والغلظة<sup>١</sup>

وقال: (إننا لنجد أن الأسلوب العلمي لم يكن مطبقًا في بلدان العالم القديم مثل مصر والصين والهند، ونجد القليل منه في اليونان، ولا نجد في روما. ولكن العرب امتازوا بهذه الروح العلمية الاستطلاعية مما يجعلهم يدعون بجدارة آباء العلم الحديث.. لقد بنى العرب على الأساس العلمي الذي استقوه من غيرهم أبحاثًا عظيمة وتوصلوا إلى اكتشافات عظيمة. لقد صنعوا أول مكبر، وصنعوا أول بوصلة، وكان أول أطباءهم وجراحهم ذوي شهرة عالمية طبقت آفاق أوروبا. وكانت بغداد مركز لهذا الإشعاع الفكري. وكانت قرطبة عاصمة إسبانيا العربية مثيلة بغداد في دنيا الغرب. وكانت في العالم العربي مراكز علمية أخرى ازدهرت فيها العلوم، ومنها القاهرة والبصرة والكوفة. ولكن بغداد.. فاقت هذه المراكز جميعًا. وكان عدد سكانها يربو على مليون نسمة، أي أكثر بكثير من سكان كلكتا أو بومي في يومنا هذا)<sup>٢</sup>

وقال: (إن حكم العرب لأجزاء من إسبانيا مدة ٧٠٠ سنة أمر يدعو إلى الإعجاب، ويزيدنا إعجابًا لهم تلك المدينة الرفيعة والثقافة العربية الراقية التي وصفها أحد المؤرخين بقوله: (لقد نظم المغاربة مملكة قرطبة العظيمة التي كانت مفخرة العصور الوسطى والتي حملت نبارس العلوم والحضارة الزاهرة على العالم الغربي الذي كان مغمورًا في الجهل والوحشية). وكتب مؤرخ آخر يقول: (بينما كان معظم الناس في قرطبة يقرأون ويكتبون، كان أهل أوروبا المسيحيون في جهل مطبق اللهم إلا رجال الدين منهم، ولم ينبج من هذا الجهل حتى أعلى الطبقات الأوروبية).. لقد طارت شهرتها في أرجاء الدنيا حتى سماها الكتاب الألمان بزينة الدنيا، وقد أم جامعتها الطلاب من جميع أنحاء الدنيا، وشعت منها الفلسفة العربية حتى وصلت جامعات أوروبا الكبرى كجامعة باريس وأكسفورد وشمال إيطاليا)<sup>٣</sup>

وقال: (اكتسب الصليبيون من عالم الإسلام الفنون والصناعة والترف والعلوم وحب الاستطلاع العلمي. وهذه هي الأشياء عينها التي كان بطرس الناسك داعية الحرب الصليبية وأمثاله أبعد الناس عن احترامها وتقديرها)<sup>٤</sup>

وقال: (لنذكر أن صلاح الدين الأيوبي نفسه لم تشغله مهام الحرب عن إنشاء المعابد والكليات والمستشفيات وغيرها من مظاهر الرقي والمدنية. غير أن القدر يشاء أن تتعرض هذه الحياة السامية إلى ححافل

(١) لمحات، ص ٤٨.

(٢) لمحات، ص ٣٥.

(٣) لمحات، ص ٤٥ - ٤٦.

(٤) لمحات، ص ٥٤.

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (هولندا)، وقد رأيت فيها من الأسماء:

### جي. م. ج كرامرز:

قلت: من هو جي. م. ج كرامرز؟<sup>٢</sup>

قال: هذا رجل علم من هولندا له بعض الشهادات، منها شهادته حول الوحدة التي ربط بها الإسلام بين شعوب مختلفة، قال: (لو رسمنا خريطة تبين الأحوال السياسية الأوروبية والأفريقية وغربي آسيا في حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي لوجدنا أن القسم الأعظم من العالم المسكون كان مسكوناً بأمم تخضع للحكم الإسلامي وتسودها الحضارة الإسلامية. إنها لم تكن في ذلك الزمن وحدة سياسية متينة العرى، بل كانت مرتبطة فيما بينها برباط قوي من الدين والحضارة، حتى إن سكانها - مع أنهم لم يكونوا من المسلمين فقط - كانوا يشعرون بأنهم رعايا دولة إسلامية مترامية الأطراف مركزها الديني مكة ومحورها السياسي بغداد. هذه الإمبراطورية العظيمة نمت وبلغت أشدها في القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام، بسلسلة من الفتوحات ابتدأت بالمدينة المنورة، وكان ميدانها ومركز ثقلها شبه جزيرة العرب.. ومع أن الأقاليم التي فتحها الإسلام تختلف إذا قورنت بالبلاد التي يسكنها المسلمون الآن فضلاً عن أنها أوسع رقعة، فالحقيقة التي لا يمكن دحضها أنها كانت تؤلف كتلة دينية واحدة فضلاً عن وحدة سياسية متينة العرى مترابطة البنين جمعت بينها قوة السلاح وجعلت سكانها يقفون في العالم كأعظم قوة مركزية متحدة عرفها البشر)<sup>٣</sup>

ومنها حديثه عن سماحة الإسلام، قال: (إن أورشليم القدس المركز الديني الأسمى لأوروبا النصرانية دخلت منذ السنة ٦٣٨م في حوزة الإسلام. إلا أن الفتح الإسلامي لم يمنع من زيارة القبر المقدس أو يحول بين الأوروبيين المسيحيين وبين إنجاز هذه الفريضة الدينية)<sup>٤</sup>

ومنها حديثه عن انتشار الثقافة الإسلامية في العالم، وبالتالي تأثيرها فيه، قال: (إن اكتشاف النقود الإسلامية في بقعة عظيمة الرقعة من آسيا وأوروبا ينهض دليلاً على مدى انتشار الثقافة الإسلامية، ويقوم برهاناً على أن المسلمين كانوا يستبضعون مختلف السلع من الشعوب الشمالية الغربية)<sup>٥</sup>

(١) لمحات، ص ٥٤.

(٢) البروفيسور جي. م. ج كرامرز Prof. J. M. Kramers ولد بهولندا، سنة ١٨٩١، وكان أستاذاً للتركية والفارسية في جامعة ليدن حتى سنة ١٩٣٩، اشتغل من ١٩١٥ حتى ١٩٢١ مترجماً للسفارة الهولندية في الأستانة. كان أحد المساهمين في كتابة كثير من الموضوعات في دائرة المعارف الإسلامية، وألف كتاب: (فن التاريخ عند الأتراك العثمانيين) (١٩٤٤).

(٣) تراث الإسلام، (إشراف سيرتوماس ارنولد)، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٤) تراث الإسلام، ص ١٢٩.

(٥) تراث الإسلام، (إشراف سيرتوماس ارنولد)، ص ١٥٦.



وقال: (إن الغنم الثقافي الذي نالته أوروبا من العالم الإسلامي في صعيدي الجغرافية والتجارة لم يكن ثمرة ساعة واحدة. إنما قام على العلاقات المتبادلة التي ظلت متواصلة منذ مطلع القرن الحادي عشر الميلادي حتى الآن، فوصلت إلى ذروة مجدها أثناء حكم المغول في القرن الثالث عشر. كذلك يجب أن نضع نصب أعيننا حقيقة واحدة وهي أن الحضارة الإسلامية بنموها وازدهارها عن طريق الدول التي أعقبتها في الحكم كتركيا وإيران وشعوب الهند المسلمة وسكان جزر الهند الشرقية المسلمين، جعلت كثيراً من الآراء والعادات الإسلامية معروفة مطبقة في البلاد الأوروبية. ولكن لم يبد من فترة تاريخية تفوق ساحق عظيم للشعوب الإسلامية على العالم المسيحي كفترة القرن العاشر، أعني عندما وصل الإسلام إلى أوج السؤدد والتقدم، وعندما كانت أوروبا المسيحية في ركود وظلام حالك)<sup>١</sup>

## ٩ - روسيا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (روسيا)، وقد رأيت فيها من الأسماء:

## ف بارتولد:

قلت: من هو ف بارتولد؟

قال: هذا رجل من روسيا..

قلت: تلك التي..

قاطعني، وقال: دعك من هذا.. فلا ينبغي أن يشغلكم تجار الأسلحة عن دينكم وعن رسالتكم وعن السلام العظيم الذي بعثكم الله به.

قلت: صدقت.. لقد انشغلنا عن ديننا بحروب كثيرة لا ناقة لنا فيها ولا جمل.. فاذكر لي بعض شهادات

هذا الصديق.

قال: لقد تحدثت عن سماحة المسلمين، فقال: (كانت في بلاد الخلافة الممتدة من رأس سان فنسنت الواقعة جنوبي البرتغال إلى سمرقند مؤسسات مسيحية غنية، قد حافظت على أملاكها غير المنقولة الموقوفة عليها. وكان نصارى بلاد الخلافة يتعاملون مع عالم النصرانية بدون مشقة، ويتمكنون من أن يتلقوا منهم إعانات لمؤسستهم

---

(١) تراث الإسلام، ص ١٦٤. وعن إنجازات المسلمين في ميدان الجغرافية والتجارة، انظر: المرجع نفسه، ص ١٠٥-١٠٦، ١٣٠-١٣١، ١٤٢-١٤٣، ١٤٦-١٤٨، ١٥٢-١٥٣، ١٥٧-١٥٨، ١٦١-١٦٤.

(٢) ف بارتولد (١٨٧٩ - ١٩٣٠) V. Barghold. نخرج من جامعة بطرسبرغ (١٨٩١)، وعين أستاذاً لتاريخ الشرق الإسلامي فيها (١٩٠١)، فكان أول من درس تاريخ آسيا الوسطى. وعني بالشرق الإسلامي وحقق المصادر العربية المتعلقة به وتخرج عليه عدد من المستشرقين. وقد انتخب عضواً في مجمع العلوم الروسي (١٩١٢) ورئيساً دائماً للجنة المستشرقين فيه بعد الثورة البلشفية حتى وفاته.

تربو آثاره على الأربعمائة، أشهرها: (تركستان عند غزو المغول لها) في مجلدين (١٨٩٨-١٩٠٩)، (تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وآسيا) (١٩١١)، (حضارة الإسلام) (١٩١٨)، (تاريخ تركستان) (١٩٢٢)، (مغول الهند) (١٩٢٨)، (تاريخ أتراك آسيا الوسطى) (١٩٣٤٩). وغيرها.

الدينية وكان في المؤتمر الديني الذي انعقد في القسطنطينية سنة ٦٨٠-٦٨١م مندوب من القدس أيضًا. ثم أن المسيحيين المقيمين ببلاد الخلافة كانوا مرتبطين بعضهم ببعض ارتباطاً وثيقاً<sup>١</sup> وقال: (انتشر الدين الإسلامي في القرن الرابع للهجرة في قبائل الترك الرحل وفي بعض مدن التركستان الصينية بواسطة التجارة وبدون استخدام أي سلاح فكان الأتراك الذين استولوا على البلاد الإسلامية في القرن الرابع الهجري مسلمين)<sup>٢</sup>

وتحدث عن تأليف الإسلام بين الشعوب المختلفة، فقال: (حضارة الإسلام، أو حضارة العرب، اسم لحضارة الشرق في القرون الوسطى ولم يكن العرب وحدهم مبتكري هذه الحضارة ولكن جميع سكان الشرق الأدنى، وقسم من أفريقية، الذين ظلوا مدة طويلة منفصلين عن الحضارة الأوروبية، آحى بينهم الإسلام، دين الدولة؛ واللغة العربية، لغة العلم والأدب)<sup>٣</sup>

وتحدث عن عالمية الحضارة الإسلامية واستفادتها من جميع التراث الإنساني، فقال: (مما هو جدير بالملاحظة أن ابن خلدون وهو عربي، يدعي بأن الحضارة الإسلامية نتيجة مشتركة لجميع العالم الإسلامي، ويجعل الحضارة الإسلامية، وهو جد محق في هذا، فوق ما سبقتها من الحضارات)<sup>٤</sup> ورد على اعتبار الغرب سبب نهوض المسلمين، فقال: (إن القول بأن العالم الإسلامي (كان في نوم عميق) قبل أن يأخذ في النهوض بتأثير أوروبا في القرن التاسع عشر، مبالغ فيه كثيراً. وحق أن الظروف الملائمة التي أنتجت الحضارة الإسلامية لم تبق)<sup>٥</sup>

## ١٠ - سويسرا:

من الدول التي رأيتها في هذا الفصل (سويسرا)، وقد رأيت فيها من الأسماء:

## مؤنته:

قلت: من هو (مؤنته)؟<sup>٦</sup>

قال: لهذا الرجل الفاضل شهادات طيبة عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام. منها قوله في وصف رسول الله ﷺ: (إن طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص. فقد كان محمد مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة، ولم يبق إلا بعد أن تأمل كثيراً وبلغ سن الكمال بهذه الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع الأنوار الإنسانية في الدين. وهو في قتاله الشرك

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٥٤.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٢٢.

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٣٥.

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٩٤.

(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٦) مؤنته (١٨٥٦ - ١٩٢٧) Montet أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف، من كتبه (محمد والقرآن)، وترجمة

جيدة للقرآن، و(حاضر الإسلام ومستقبله).

والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه كان في بلاد العرب أشبه بني من أنبياء بني إسرائيل الذين نراهم كباراً جداً في تاريخ قومهم. ولقد جهل كثير من الناس محمداً وبخسوه حقه وذلك لأنه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها)

وقوله: (كان محمد كريم الأخلاق حسن العشرة، عذب الحديث، صحيح الحكم صادق اللفظ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم وصراحة اللفظ، والافتناع التام بما يعمله ويقوله)<sup>١</sup>

وقوله: (لا مجال للشك في إخلاص الرسول وحماسه الدينية التي تشبعت بها نفسه وفكره)<sup>٢</sup>  
بل إنه اعتبر ما قام به رسول الله ﷺ من أعظم المنجزات في التاريخ، قال: (ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثل محمد، وإن ما قام به من إصلاح أخلاق وتطهير المجتمع يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية)<sup>٣</sup>

وتحدث عن المبادئ النبيلة التي جاء بها الإسلام، فقال: (إن الديانة الإسلامية كعقيدة توحيد، ليس فيها شيء مجهول في ديانات التوحيد الأخرى إلا أن ظهورها في جزيرة العرب بروح عربية عالية جعل لها طابعاً جديداً باهرًا. وقد سميت الإسلام إشارة إلى تمام الانقياد لإرادة الله، وهي في هذه العقيدة مشابهة للمسيحية إلا أنها تتجلى في القرآن بقوة لا تعرفها النصرانية.. ولقد منع القرآن الذبائح البشرية، ووأد البنات والخمر والميسر، وكان لهذه الإصلاحات تأثير غير متناه في الخلق بحيث ينبغي أن يعد محمد في صف أعظم المحسنين للبشرية. أن حكمة الصلاة خمس مرات في اليوم هي إبقاء الإنسان من الصباح إلى المساء تحت تأثير الديانة، ليكون دائماً بعيداً عن الشر، وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبة شهوات الجسم وزيادة القوة الروحية في الإنسان، وحكمة الحج هي توطيد الإخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية. فهذا هو البناء العظيم الذي وضع محمد أساسه، وثبت ولا يزال ثابتاً بإزاء عواصف الدهور)<sup>٤</sup>

وانطلاقاً من هذه الشهادات دعا إلى احترام الإسلام وعقد صلوات الأخوة مع معتقيه، قال: (لما كان الإسلام ديناً من الأديان أصبح قوة أدبية عظيمة جداً حديرة بالاحترام من وراء الغاية، ولذا تقضي الحال بأن تقوم الصلوات مع أهله على أساس الإخاء والحب، وأهم الشروط في هذه الروابط الحسنة احترام الإسلام احتراماً مطلقاً. وأن هذا الدين بفضل ما نشره بعض الباحثين من العلماء المجريين عن الأغراض، وما وقف عليه بعض أرباب الرحلات قد أصبح معروفاً في أوروبا معرفة تامة، وغداً يقدر قدره أكثر من قبل)<sup>٥</sup>

قلت: بورك في هذا الرجل الحكيم.. وبورك فيما دعا له.. ولا أحسب إلا أن أيدي جميع المسلمين الصادقين ممدودة له ولأمثاله.

- 
- (١) محمد والقرآن، ص ١٨ (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي ١ / ٣٢)
  - (٢) محمد والقرآن، ص ١٨ (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي ١ / ٦٧)
  - (٣) محمد والقرآن، ص ١٨ (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي ١ / ٣٢)
  - (٤) محمد والقرآن، ص ٢٢، (عن ستودارد: حاضر العالم الإسلامي، ١ / ٣٢ - ٣٣)
  - (٥) الإسلام، (عن محمد كرد علي: الحضارة العربية ١ / ٧٢).

## عاشرا — الأعداء

فتحت دفتر البابا على فصله العاشر، فوجدت عنوانه (الأعداء)، فقلت: ألا ترى من التناقض أن يوضع هذا العنوان في كتاب يبحث في القلوب التي تعلقت بمحمد ﷺ؟  
قال: لا.. ليس ذلك من التناقض.. فأكمل الناس من أجبر أعداءه على احترامه، ومحبته.. وقد كان محمد ﷺ أكمل من فعل ذلك.

قلت: لقد نطق القرآن بمثل هذا، فالله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤)  
قال: وقد كانت حياة رسول الله ﷺ نموذجاً كاملاً لهذا الخلق الرفيع.. فقد كان له صدر واسع يحول الأعداء أصدقاء.. والحاقدين محبين.. والهاجين مادحين.  
قلت: صدقت.. وقد ذكرتني بما روئته لي في رحلتك التي تعرفت فيها على معجزات النبي ﷺ الحسية من تحول المعادين إلى محبين مخلصين<sup>١</sup>.

قال: وأولهم **عمر بن الخطاب** — رضي الله عنه —، فقد كان في جاهليته شديد العداوة للإسلام ولمحمد ﷺ، وقد ذكرت إحدى السابقات للإسلام، وهي أم عبد الله بنت أبي حثمة، وكانت زوج عامر بن ربيعة، كيف كان المسلمون الأوائل يستبعدون إسلامه قبل أن يسلم، فقالت: إنا نرحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف علي.  
وكنا نلقي منه البلاء أذى، وشدة فقال: أتنتلقون يا أم عبد الله؟ قالت: قلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله فقد آذيتمونا، وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجا.  
قالت: فقال صحبكم الله، قالت: فلما عاد عامر أخبرتته، وقلت له: لو رأيت عمر، ورقته، وحزنه علينا!  
قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم، فقال: لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب لما كان يرى من غلظته، وشدته على المسلمين.

ولكن الله هداه فأسلم في موقف عدائي شديد لرسول الله ﷺ:  
وقصة ذلك كما يرويها المؤرخون، وكما يحكيها هو نفسه، هي أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد بن يزيد بن عمرو العدوي، وكانا مسلمين يخفيان إسلامهما من عمر، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرأها القرآن فخرج عمر يوماً ومعه سيفه يريد النبي ﷺ، والمسلمين وهم مجتمعون في دار الأرقم عند الصفا، وعنده من لم يهاجر من المسلمين في نحو أربعين رجلاً، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً الذي فرق أمر قريش، وعاب دينها، فأقتله.

(١) انظر: رسالة (معجزات حسية)، فصل (حماية) من هذه السلسلة.

فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، وقد قتلت محمدا؟! أفلا ترجع إلى أهلِكَ فتقيم أمرهم؟

فقال عمر: وأي أهلي؟! قال: خنتك، وابن عمك سعيد بن زيد، واختك فاطمة، فقد أسلما. فرجع عمر إليهما، وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن. فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب، وأخذت فاطمة الصحيفة، وألقتها تحت فخذيها، وقد سمع عمر قراءة خباب.

فلما دخل قال: ما هذه الهينمة؟! قالوا: سمعت شيئا؟ قال: بلى، قد أخبرت أنكما تابعتما محمدا. وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته لتكفه، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له اخته: قد أسلمنا، وأمنا بالله، ورسوله، فاصنع ما شئت.

ولما رأى عمر ما باخته من الدم ندم، وقال لها: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون فيها الآن حتى أنظر إلى ما جاء به محمد، قالت: إنا نخشاك عليها، فحلف أنه يعيدها.

ثم قالت له — وقد طمعت في إسلامه — إنك نجس على شركك، ولا يمسه إلا المطهرون، فقام، واغتسل، فأعطته الصحيفة وقرأ فيها: طه، وكان كاتبها فلما قرأ بعضها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.

فلما سمع خباب ذلك خرج إليه وقال: أبشر يا عمر، فإنني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس: اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، أو بعمر بن هشام.

فقال عمر عند ذلك: فدلني يا خباب على محمد حتى آتبه فأسلم. فذله خباب فأخذ سيفه، وجاء إلى النبي ﷺ، وأصحابه فضرب عليهم الباب فقام رجل منهم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحا سيفه، فأخبر النبي ﷺ بذلك.

فقال حمزة: إئذن له، فإن كان يريد خيرا بذلناه له، وإن أراد شرا قتلناه بسيفه. فأذن له فنهض إليه النبي ﷺ حتى لقيه، فأخذ بمجامع رداءه، ثم جذبه جذبة شديدة، وقال: ما جاء بك؟ ما أراك تنتهي حتى يتزل الله عليك قارعة.

فقال عمر: يا رسول الله جئت لأؤمن بالله، وبرسوله، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف من في البيت أن عمرا أسلم.

قال عمر: لما أسلمت أتيت باب أبي جهل بن هشام، فضربت عليه بابه، فخرج إلي وقال: مرحبا يا بن أخي! ما جاء بك؟ قلت: جئت لاخبرك أني قد أسلمت، وآمنت بمحمد ﷺ، وصدقت ما جاء به.

قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به<sup>١</sup>.

وقد حدث عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — نفسه عن سبب إسلامه، فقد خاطب مرة بعض الصحابة، فقال: أتحيون أن أعلمكم كيف كان بدو إسلامي؟ قلنا: نعم، قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، فبينما أنا يوماً في يوم شديد الحر بالهجرة، في بعض طرق مكة، إذ لقيني رجل من قريش فقال: ابن تذهب يابن الخطاب؟ أنت تزعم أنك هكذا، وقد دخل عليك هذا الامر في بيتك قال: قلت: وما ذاك؟ قال: اختك قد صبأت قال: فرجعت مغضبا.

وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل، والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه، ويصبيان من طعامه، وقد كان ضم إلى زوج أختي رجلين.

قال: فجئت حتى قرعت الباب فقبل من هذا؟ قلت: ابن الخطاب.

قال: وكان القوم جلوسا يقرؤون القرآن في صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا، واختفوا، وتركوا، أو نسوا الصحيفة من أيديهم، فقامت المرأة ففتحت لي.

فقلت: يا عدوة نفسها، قد بلغني أنك صبوت، قال: فأرفع شيئاً في يدي فأضربها به قال: فسال الدم: قال: فلما رأته المرأة الدم بكت، ثم قالت: يابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل فقد أسلمت.

قال: فدخلت، وأنا مغضب، فجلست على السرير، فنظرت فإذا بكتاب في ناحية البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟ أعطيني.

فقلت: لا اعطيك لست من أهله، أنت لا تغتسل من الجنابة، ولا تطهر، وهذا ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (الواقعة: ٧٩)

قال: فلم أزل بها حتى أعطتنيه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما مررت بالرحمن الرحيم، ذعرت، ورميت بالصحيفة من يدي.

قال: ثم رجعت إلي نفسي، فإذا فيها: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحديد: ١)

قال: فكلما مررت باسم من أسماء الله عزوجل ذعرت، ثم ترجع إلي نفسي حتى بلغت: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الحديد: ٨)، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله<sup>٢</sup>.

(١) انظر: الكامل في التاريخ: ٢ / ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧، نور الابصار: ص ٥٤، الرياض النضرة: ١ / ٢٧٢ - ٢٧٦ ترجمة عمر.

(٢) اسد الغابة ٤ / ٥٤ - ٥٥، الرياض النضرة: ٢ / ٢٧٧.

ولما أسلم عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — قال: أي أهل مكة أنقل للحديث فقالوا: جميل بن معمر، فخرج عمر، حتى أتاه فقال: يا جميل هل علمت أني أسلمت؟ فو الله ما راجعه الكلام حتى قام يجر رداءه، وخرج عمر يتبعه، حتى إذا قام على باب مسجد الكعبة صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش إن عمر قد صبا. ومنهم **أبو سفيان بن الحارث** أخو النبي ﷺ من الرضاع، فقد كان يألف النبي ﷺ أيام الصبا وكان له ترباً، فلما بعث النبي ﷺ عاداه أبو سفيان عداوةً لم يعاها أحدًا قط، وهجا رسول الله ﷺ وهجا أصحابه، ثم شاء الله أن يكفي رسوله ﷺ لسان أبي سفيان وهجاءه، لا يها لاه، وإنما بمدايته.

وحدث أبو سفيان عن نفسه، فقال: ثم إن الله ألقى في قلبي الإسلام، فسرت وزوجي وولدي حتى نزلنا بالأبواء، فتنكرت وخرجت حتى صرت تلقاء وجه النبي ﷺ، فلما ملأ عينيه مني أعرض عني بوجهه إلى الناحية الأخرى، فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى.

قالوا: فما زال أبو سفيان يتبعه، لا يتزل متزلاً إلا وهو على بابه ومع ابني جعفر وهو لا يكلمه، حتى قال أبو سفيان: والله ليأذن لي رسول الله ﷺ أو لآخذن بيد ابني هذا حتى نموت عطشاً أو جوعاً، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما فدخل عليه.

ومنهم **شيبه بن عثمان**، فقد خرج من بيته يريد قتل رسول الله ﷺ، فلم يرجع إلا بحبه والإيمان به. وقد حدث عن قصة ذلك، فقال: لما كان عام الفتح دخل رسول الله ﷺ مكة، وغزا حنيناً، قلت أسير مع قريش إلى هوازن، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة، وتذكرت أبي وقتله حمزة، وعمي وقتله علي بن أبي طالب، فقلت: اليوم أدرك ثاري من محمد، وأكون أنا الذي قمت بثار قريش كلها، وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمدا ما تبعته أبداً، فكنت مرصداً لما خرجت له، لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة. فلما اختلط الناس، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، وأصلت السيف، ودنوت منه، أريد ما أريد، فجتته من عن يمينه، فإذا العباس قائم عليه درع بيضاء، قلت: عمه لن يخذله، فجتته من عن يساره، فإذا بابي سفيان بن الحارث فقلت: ابن عمه لن يخذله، فجتته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسورة سورة بالسيف إذ رفع إلي فيما يبني وبينه شواظ من نار كأنه برق، فخفت أن يتمحشني، فوضعت يدي على بصري، خوفاً عليه، ومشيت القهقري، وعملت أنه ممنوع.

فالتفت إلي، وقال: «يا شيب أدن مني»، فدنوت منه، فوضع يده على صدري وقال: «اللهم أذهب عنه الشيطان»، فرفعت إليه رأسي وهو أحب إلي من سمعي وبصري وقلبي، ثم قال: «يا شيبه قاتل الكفار» فتقدمت بين يديه أحب — والله — أن أقيه بنفسي كل شيء، فلما هزمت هوازن رجعت إلى منزله ودخلت

عليه فقال: « الحمد لله الذي أراد بك خيرا مما أردت »، ثم حدثني بما هممت به ﷺ<sup>١</sup>.

ومنهم **النضير بن الحارث**<sup>٢</sup> الذي حدث عن نفسه، فقال: الحمد لله الذي أكرمنا بالاسلام ومن علينا بمحمد ﷺ، ولم نمت على ما مات عليه الآباء، فذكر حديثا طويلا، ثم قال: خرجت مع قوم من قريش، هم على دينهم بعد أبو سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، ونحن نريد إن كانت دبرة على محمد أن نغير عليه فيمن يغير، فلما تراءت الفئتان ونحن في حيز المشركين حملت هوازن حملة واحدة، ظننا أن المسلمين لا يجيرونها أبدا، ونحن معهم وأنا أريد بمحمد ما أريد.

وعمدت له فإذا هو في وجوه المشركين واقف على بغلة شهباء حولها رجال بيض الوجوه، فأقبلت عامدا إليه، فصاحوا بي: إليك، فأرعب فؤادي وأرعدت جوارحي، فقلت: هذا مثل يوم بدر، إن الرجل لعلي حق، وإنه لمصوم، وأدخل الله تعالى في قلبي الاسلام وغيره عما كنت أهم به.

فما كان حلب ناقه حتى كر أصحاب رسول الله ﷺ كرة صادقة، وتنادت الانصار بينها: الكرة بعد الفرة: يا للخزرج، يا للخزرج، فحطمونا حطاما، فرقوا شملنا، وتشتت أمرنا، وهمة كل رجل نفسه.

فتنحيت في غبرات الناس حتى هبطت بعض أودية أو طاس فكمنت في خمر شجرة لا يهتدي إلي أحد إلا أن يدلّه الله ﷻ علي، فمكثت فيه أياما وما يفارقني الرعب مما رأيت، ومضى رسول الله ﷺ إلى الطائف، فاقام ما أقام، ثم رجع إلى الجعرانة، فقلت: لو صرت إلى الجعرانة، فقاربت رسول الله ﷺ ودخلت فيه المسلمون، فما بقي فقد رأيت عبرا، وقد ضرب الاسلام بجرانه، ولم يبق أحد، ودانت العرب والعجم لمحمد ﷺ فعز محمد لنا عز، وشرفه لنا شرف.

فو الله إني لعلي ما أنا عليه إن شعرت إلا برسول الله ﷺ يلقاني بالجعرانة كنة لكنة فقال: « النضير ؟ » قلت: لبيك، فقال: « هذا خير لك مما أردت يوم حنين مما حال الله بينك وبينه »

فأقبلت إليه سريعا، فقال: « قد آن لك أن تبصر ما أنت فيه توضع »، قلت: قد أرى أن لو كان مع الله تعالى لها غيره لقد أغنى شيئا، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: « اللهم زده ثباتا »، قال النضير: فو الله الذي بعثه بالحق لكأن قلبي حجر ثباتا في الدين وبصيرة في الحق، وذكر الحديث<sup>٣</sup>.

ومنهم **صفوان بن أمية الجمحي**، الذي حدث عن نفسه، فقال: ما زال رسول الله ﷺ يعطيني من غنائم

---

(١) رواه ابن سعد وابن عساكر عن عبد الملك بن عبيد، وأبو القاسم البغوي، والطبراني، والبيهقي، وأبو نعيم، وابن عساكر عن عكرمة.

(٢) وهو غير النضر بن الحارث الذي مات على كفره.

(٣) رواه الواقدي في المغازي.



حين، وهو أبغض الخلق إلي حتى ما خلق الله ﷻ شيئا هو أحب إلي منه<sup>١</sup>.

وقال محمد بن عمر: يقال إن صفوان طاف مع رسول الله ﷺ يتصفح الغنائم إذ مر بشعب مملوء إبلا مما أفاء الله به على رسوله ﷺ فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوء، فاعجب صفوان وجعل ينظر إليه، فقال رسول الله ﷺ: «أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب؟» قال: نعم، قال: «هو لك بما فيه»، فقال صفوان: أشهد أنك رسول الله ﷺ ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نبي.

وقد كان سلوك رسول الله ﷺ مع هؤلاء هو السر في كل ذلك التحول الذي انتقلوا به من حربه وسبه إلى الإيمان به ومحبته.

وسأضرب لكم مثالا على هذا بصفوان بن أمية — الذي حدثتكم حديثه — فقد خرج بعد فتح مكة يريد جدة ليركب منها إلى اليمن، فقال عمير بن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومي، وقد خرج هاربا منك، ليقتل نفسه في البحر، فأمنه ﷺ قال: «هو آمن»

فخرج عمير حتى أدركه، وهو يريد أن يركب البحر، وقال صفوان لغلامه يسار — وليس معه غيره —: ويح! أنظر من ترى؟ قال: هذا عمير بن وهب، قال صفوان: ما أصنع بعمير بن وهب، والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر علي محمدا، فلحقه فقال: يا أبا وهب جعلت فداك، حثت من عند أبر الناس، وأوصل الناس، فداك أبي وأمي الله الله في نفسك أن تهلكها، هذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به.

فقال: ويحك، أغرب عني فلا تكلمني، فقال عمير: أي صفوان فداك أبي وأمي.. أفضل الناس وأبر الناس وخير الناس ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك وملكه ملكك.

فقال صفوان: إني أخافه على نفسي، فقال عمير: هو أحلم من ذلك وأكرم، قال: ولا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فقال: امكث مكانك حتى آتيك بها.

فرجع عمير إلى رسول الله ﷺ فقال: إن صفوان أبي أن يأنس لي حتى يرى منك أمارة يعرفها، فترع رسول الله ﷺ عمامته فأعطاه إياها، وهي البرد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ معتجرا به برد حيرة.

فرجع معه صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي بالمسلمين العصر في المسجد، فلما سلم رسول الله ﷺ صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فان رضيت أمرا وإلا سيرتني شهرين، فقال ﷺ: «انزل أبا وهب»، قال: لا والله حتى تبين لي قال: «بل لك تسيير أربعة أشهر»

فترل صفوان، ولما خرج رسول الله ﷺ إلى هوازن وفرق غنائمها فرأى رسول الله ﷺ صفوان ينظر إلى شعب ملآن نعما وشاء ورعاء، فأدام النظر إليه، ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: «يا أبا وهب يعجبك هذا

الشعب؟» قال: نعم قال: « هو لك وما فيه »

فقبض صفوان ما في الشعب، وقال عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وأسلم مكانه<sup>1</sup>.

ومنهم **سهيل بن عمرو**، وقد كان سيذا من سادات قريش.. بل كان خطيبها المفوه، وكان يؤلب الناس على المسلمين ويحاربهم بكل ما أوتى من قوة، وكانت حرارة كلماته تصل إليهم، فتؤذيهم مما دفع عمر بن الخطاب — حين رأى سهيلا في الأسر يوم بدر — يشير على النبي ﷺ قائلا: « دعني أنزع نبتي سهيل، فلا يقوم علينا خطيباً »، فقال ﷺ: « دعها، فلعلها أن تسرك يوماً »

وعاش سهيل يحارب بسلاحي السيف واللسان حتى كان دوره الأكبر يوم الحديبية إذ جاء سهيل بن عمرو رسولاً من قبيل قريش، فقال النبي ﷺ متفائلاً: « لقد سهل لكم أمركم »، وقال: « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل »

وكانت قريش قد قالت لسهيل بن عمرو: ائت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا نتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح. وعندما بدأ الرسول ﷺ في إملاء شروط الصلح على الصحابي الجليل علي بن أبي طالب، كاتب الصحيفة، اعترض سهيل على كتابة كلمة (الرحمن) في البسملة، وأراد بدلاً عنها أن يكتب (باسمك اللهم)، لأنها عبارة الجاهليين، ورفض المسلمون ذلك، ولكن الرسول ﷺ وافق على اعتراض سهيل. ثم اعترض سهيل على عبارة (محمد رسول الله)، وأراد بدلاً عنها عبارة: ( محمد بن عبد الله)، فوافقه أيضاً على هذا الاعتراض.

وعندما قال الرسول ﷺ: (على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به) اعترض سهيل قائلاً: لا نتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة قهراً، ولكن ذلك في العام المقبل، فنخرج عنك فتدخلها بأصحابك فأقمت فيها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب. فوافق الرسول ﷺ على هذا الشرط.

ثم قال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟!

فبينما هو كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال النبي ﷺ: (إنا لم نقض الكتاب بعد)، فقال سهيل: والله إذا لم أصالحك على شيء أبداً.

وألح الرسول ﷺ على سهيل أن يستثني أبا جندل، فرفض وتمسك بذلك، ولم يجد الرسول ﷺ بداً من إمضاء ذلك لسهيل.

ثم بعد هذا تم الاتفاق على بقية الشروط وهي: ( على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف

(١) رواه ابن إسحاق عن عروة بن الزبير، والبيهقي عن الزهري.

بعضهم عن بعض، وأن بينهم عيبة مكفوفة، فلا إسلال ولا إغلال، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه).

وظل سهيل على موقفه تجاه الإسلام إلى يوم فتح مكة، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة دخل البيت، ثم خرج فوضع يده على عضادتي الباب، فقال: «ماذا تقولون؟»

فقال سهيل بن عمرو: نقول خيرًا، ونظن خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، وقدرت.

فقال ﷺ: (أقول كما قال أحيى يوسف: لا تتربى عليكم اليوم) <sup>١</sup>

ومع هذا الموقف العظيم من رسول الله ﷺ ظل سهيل على كفره.. فأرسل إلى ابنه عبد الله (أبي جندل) ليستأمن له رسول الله ﷺ فأمنه فخرج إلى حنين مع رسول الله ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بمنطقة تسمى الجعرانة، فأعطاه رسول الله ﷺ يومئذ مائة من الإبل من غنائم حنين <sup>٢</sup>.

ولكنه ما إن لامس الإسلام شغاف قلبه حتى امتلأ به، وامتلاً بمحبة النبي ﷺ.. وقد شهد له الصحابة ومن بعدهم قائلين في حقه: (لم يكن أحد من كبراء قريش الذين تأخر إسلامهم فأسلموا يوم فتح مكة، أكثر صلاة ولا صومًا ولا صدقة ولا أقبل على ما يعنيه من أمر الآخرة، من سهيل بن عمرو، حتى إن كان لقد شحب لونه. وكان كثير البكاء رقيقًا عند قراءة القرآن. لقد رُئي يختلف إلى معاذ بن جبل حتى يقرئه القرآن وهو بمكة، فقال له رجل: تذهب إلى معاذ؟!)

أفلا ذهبت إلى رجل من أهل قريش يعلمك؟

فقال سهيل: هذا الذي صنع بنا ما صنع حتى سبقنا كل السبق، أي لعمري اختلف إليه لقد وضع الإسلام أمر الجاهلية، ورفع الله بالإسلام قومًا كانوا لا يُدكرون في الجاهلية فلبتينا كنا مع أولئك فتقدمنا) وقد أمضى ما بقي من حياته في تعويض ما فاتته من صحبة النبي ﷺ، وقد اشتهر عنه قوله: (والله لا أدع موقفًا وقفته مع المشركين إلا وقفت مع المسلمين مثله، ولا نفقة أنفقتها مع المشركين إلا أنفقت على المسلمين مثلها، لعل أمرى أن يتلو بعضه بعضًا) <sup>٣</sup>

ولما مات النبي ﷺ وأخذت القبائل ترتد عن الإسلام، فأراد أهل مكة أن يحاكوا هذه البلاد المرتدة، قام سهيل بن عمرو يثبت قومه وقال لهم: يا أهل مكة كنتم آخر الناس دخولًا في دين محمد، فلا تكونوا أول الناس خروجًا منه.. ثم قال لهم: (مَنْ كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) <sup>٤</sup> وظل سهيل على الخير والإيمان كثير الصلاة والصيام والصدقة حتى خرج بجماعته إلى الشام مجاهدًا. وظل مرابطًا بأرض الشام متذكرًا قوله ﷺ: (مقام أحدكم في سبيل الله ساعة من عمره خيرٌ من عمله عمره في أهله) قال سهيل: وإنما أربط حتى أموت، ولا أرجع إلى مكة، فلم يزل مقيمًا بالشام حتى مات في

(١) رواه البيهقي.

(٢) رواه ابن سعد.

(٣) الإصابة للحافظ ابن حجر: ١٧٨/٣.

(٤) رواه البيهقي.

طاعون عمواس<sup>١</sup>، وقد قال ﷺ: (الطاعون شهادة لكل مسلم)<sup>٢</sup>  
ومنهم **الحارث بن هشام**.. والذي ظل محاربًا للمسلمين حتى يوم فتح مكة، إذ علم أنه من أوائل  
المطلوبين، فاستجار بأُم هانئ بنت أبي طالب فأجارته فأراد أخوها قتله فذكرت ذلك للنبي قائلة: زعم فلان -  
تقصد أباها - ألا إجارة لي، فقال ﷺ: «قد أجرنا من أجزرت يا أم هانئ»  
وكانت دهشته لا تقدر إذ صعد بلال بن رباح فوق الكعبة قارعًا أذاهم بقوله: جاء الحق وزهق الباطل..  
إن الباطل كان زهوقا.

وكان الحارث يقول: يا ليتني مت قبل هذا ولم أشهد هذا اليوم.  
ولما قيل للحارث بن هشام: ألا ترى ما يصنع محمد من كسر الآلهة ونداء هذا العبد الأسود على الكعبة  
!؟

فقال الحارث: إن كان الله يكره هذا، فسيغيره..  
وأخذت قلوب أئمة الكفر تفكر في الإسلام خاصة، وأن النبي ﷺ عفا عنهم وأعطى الكثير منهم الأمان  
في داره وفي المسجد.  
وكان الحارث ممن أسلم يومذاك، ثم كانت غزوة حنين بعدها فتألف النبي ﷺ قلوب هؤلاء القوم  
فأعطاهم حتى رضوا.

وأعطى للحارث يومها مائة من الإبل، فكسرت شوكة العداة والعناد في قلبه، ثم أخذت تعاليم الإسلام  
تشق طريقها الى قلبه فمما زرع الإيمان في قلبه فحسن إسلامه.

ثم هاجر إلى الشام في عهد عمر، فلم يزل مجاهدًا، حتى كان يوم اليرموك فقال عكرمة بن أبي جهل: من  
يباع على الموت فبايعه مائتان من الرجال على الشهادة في سبيل الله.  
وكان من بين هؤلاء الحارث بن هشام الذي استشهد باليرموك.

وقد ذكر له الرواه موقفًا عظيمًا في الإيثار قبل موته، إذ جاءه رجل يريد أن يسقيه ماءً — وهو في الترع  
الأخير — فسمع أنين عكرمة، فأثره على نفسه، وقال: اذهبوا الى عكرمة. فذهبوا إلى عكرمة بالماء فسمع أنين  
عياش بن ربيعة، فأشار أن اذهبوا الى عياش، فذهبوا الى عياش فوجدوه قد فارق الحياة، ثم رجعوا الى عكرمة  
فوجدوه قد فارق الحياة، ثم رجعوا الى الحارث فوجدوه قد مات.

قلت: ولا زالت الأيام تلد أمثال هؤلاء الذين لم يملكوا إلا أن يسلموا لرسول الله ﷺ وللإسلام..  
قال: ذلك صحيح.. ولكنه لن يتم إلا إذا حرص المسلمون على أن يكون لهم من الجاذبية ما يحول أحس  
المعادن إلى أكرمها.

قلت: وأول ذلك سعة الصدر.

قال: أجل.. فلا ينبغي للمؤمن الذي يحمل صدرًا يسع المحيطات العميقة أن يستفزه جاهل، أو يغلبه على

(١) الإصابة للحافظ ابن حجر: ١٧٨/٣.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

حلّمه أحق.

قلت: لقد ذكرتني بحديثي معك أول ما التقينا.. فقد ذكرت لي شيئاً من هذا.  
قال: أجل.. فلولا أني رأيت في حياتي ناساً ذوي عقول راجحة.. ولولا أني لاقيت معلم السلام الذي ملأ  
صدري بالصفاء الذي لا تحركه الأعاصير لما تعرضت لكل تلك الأشعة التي شرفني الله بالتعرض لها.

\*\*\*

وجدت بعض الأسماء في هذا الفصل في دفتر البابا، فأردت أن أقرأها، فقال: حسبك بما ذكرت لك.. فلا  
ينبغي أن نسمي أحداً في هذا الفصل.

قلت: ومن سميناهم؟

قال: أولئك كرام طيبون.. وقد أخلدوا إلى ربهم.. ولا يشك أحد في فضلهم، وأخاف إن ذكرت بعض  
ما كتبتة هنا أن يتأثر لذلك المتأثرون.. فينسخوا المحبة بالعداوة.  
قلت: صدقت.. ففي قومنا من ينسخ جبال الحسنات بالسيئة الواحدة.

## الخاتمة

أخذ البابا الدفتر من يدي، واحتضنه، ثم قبله، وقال: لقد كان هذا الدفتر أنيسي عند كل وحشة.. ورفيقي عند كل ضيق.. ودوائي عند كل داء.

قلت: فما الذي جعلك تحن إليه؟

قال: حنيني إلى الحبيب الذي لا يعرف القلب غيره.. ألا تعلم أن حبيب الحبيب حبيب؟

قلت: أجل.. أعلم ذلك..

قال: ولهذا تراني أمتلى محبة وعشقا لكل من أحب رسول الله ﷺ.. بل إني أشعر، وكأني أتقوت بكلمات

الصدق التي يتفوه بها المخلصون.

قلت: ألم تخش على نفسك، وأنت في ذلك المحل الرفيع من سلم الكنيسة أن يتجسس عليك أحدهم..

فيلحظه معك.. فيشي بك وشاية تدم كل أحلامك في كرسي البابوية؟

قال: وهل نسيت أخي؟

قلت: ومن أخوك؟

قال: أخي التوأم.. ما بالك.. إنه حصني الذي كنت به أتحصن.. كما كان الحجاب الذي به احتجبت

عن شمس محمد ﷺ كل تلك المدة.

قلت: وأخوك.. ألم يلحظ هذا الدفتر؟

قال: بلى.. لقد لحظه.. فيستحيل أن يرى ما لا أرى، أو يسمع ما لا أسمع.. لقد كان فخورا به غاية

الفخر.. بل استعمله وسيلة يرتقي بها في معارج الكنيسة إلى الكرسي الذي ظللنا طول عمرنا نحلم به.

قلت: كيف هذا؟! هل أسلمت الكنيسة؟!.. إنك توقعني في حيرة لا تقل عن الحيرة التي أوقعتني فيها

أول مرة.

قال: لقد كان أخي يأخذ هذا الدفتر، ويتدرسه مع رجال الكنيسة حرفا حرفا، وكلمة كلمة..

قلت: لم كل هذا الاهتمام؟

قال: لقد ذكرت لك بأن الكنيسة أرادت أن تدرس أسرار انتشار الإسلام، وأسرار تغلغله إلى العقول

والقلوب..

قلت: أتفعل ذلك لتوفر لنفسها من الخصائص ما يجعلها مهوى للأفئدة؟

قال: إنما إن فعلت ذلك تكون كعجوز شطاء سرقت مساحيق شابة جميلة لتنافسها في قلوب الرجال..

وذلك مستحيل.

قلت: فلم تبحث عن أسرار ذلك إذن؟

قال: أنت تعلم أن المنافس الأكبر للمسيحية هو الإسلام.. فلا يمكن للمسيحية أن تنتشر ما دام محمد

يسكن العقول والقلوب.

قلت: أعلم هذا.. ويعلم الكل هذا.. فما فيه.

قال: لقد استخدمت الكنيسة.. أو رجال التدبير فيها.. وهم رجال اجتمعت لهم جميع حيل الشياطين على تحليل أسرار المحبة والإقبال لتقضي عليها واحدة.. فتحول من جمال الإسلام دمامة.. ومن حياته موتا.

قلت: ومتى تبدأ تنفيذ هذه الخطة؟

قال: الأمة الآن تقع تحت أسرها.

قلت: نحن الآن أسارى لهذا الخطة؟

قال: أجل.. لقد استعانت الكنيسة بكل القوى التي ينافسها الإسلام في حلف ليس له من هدف إلى

تفريغ الإسلام من قيم الجمال التي يتزين بها.

قلت: حلف..؟!

قال: أجل.. حلف يضم ساسة واقتصاديين وإعلاميين.. وغيرهم.

قلت: ولكنهم سيضطهدون بعقول متحجرة ترفض ما يملون عليها من أفكار.

قال: خطتهم هذه المرة خطة محكمة.. لأن جنودها ليسوا صليبيين.. بل مسلمين.

قلت: أي مسلم يرضى لنفسه أن يمثل هذا الدور؟

قال: كثيرون هم.. بل أكثرهم أسرع إلى ثكنات هذا الحلف ليسجل نفسه جنديا.

قلت: فهم يعطوهم أجورا مغرية إذن؟!

قال: لا.. أولئك الحمقى يتطوعون بمحض رغبتهم لتنفيذ ما يلجم به ذلك الحلف.

قلت: أنا إلى الآن لا أكاد أفهم.. إن كلماتك لا تزيدني إلا حيرة.. فلست أفهم شيئا.. فانتقل من التلميح

إلى التصريح.. ومن الألغاز إلى الكلام الذي تعودته منك.

قال: سأضرب لك أمثلة تعظيك صورة عن هذا الجند المتطوع.

دققت بصري في عينيه لأعرف سر هذا الجند الخفي الذي يريد أن يستل محمدا من القلوب، فقال: ألم تر

في كل الذي استهواهم الإسلام، وامتألت قلوبهم بحب محمد ﷺ حبهم للسلام؟

قلت: بلى.. لقد لاحظت ذلك في الأتباع والأصدقاء.

قال: فقد أراد هؤلاء أن يستلوا اسم السلام من الإسلام.. ليصبح دين السلام دين الإرهاب.. وقد تطوع

لذلك بعض الأغبياء، فراحوا يقتلون الصغار والكبار.. والظالم والمظلوم.. والمستكبر والمستضعف.. ولسبب

ولغير سبب.. وكان الإسلام جاء ليقتل لا ليحيي.. فهم يستدركون على الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: من الآية ٢٤) لينسخوا الآية بأهوائهم وفهومهم

السقيمة، فيحولوا الحياة موتا، والأمن خوفا.

قلت: أعرف هذا.. وقد ساء كل مسلم.. لقد ذكر لي بعض أصدقائي في بلاد الغرب أنه كان

مقصدا لكل سائل وباحث عن الحقيقة.. وكان إذا سار إلى أي محل تجتمع عليه الجموع لتسأله عن دينه.. وعن

نبيه.. وعن ربه.

لكنه اليوم.. ما إن يدخل محلا حتى تنفض الجموع فارة فزعة.. وكأنه قبله موقوتة، أو كأنه مجذوم يفرون منه فرارهم من الأسد.

قال: فقد نجحوا في تحقيق ما لم يستطع أساطين العالم أن تحققه.

قلت: فاضرب لي مثلا آخر على هذه المخططات القذرة.

قال: ألم تر أن كل من أحبوا محمدا تحدثوا عن رحمته وحلمه وألفته ولطفه.. وغير ذلك من الخلال التي

اجتمعت له، فاستحق بها شرف قوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)؟!!

قلت: بلى.. ومن لا يمتلي إعجابا بتلك الخلال التي أعطت النموذج الأكمل للإنسان الأكمل.

قال: فقد قدر الكائدون ومكروا.. فراحوا يستغلون بعض الحمقى ليختصروا رسول الله ﷺ في حية

طويلة.. وجبة قصيرة.. وتقطيب جبين.. وغلظة دونها غلظة أكباد الإبل.

قلت: أعرف هذا.. وقد سمعت بعضهم يصف شيئا من هؤلاء يقول عنه: (رأيتُه وكأنه السنة تمشي) مع

أنه لم ير منه إلا ما كان يراه الناس من أبي لهب وأبي جهل من حية وقميص وسواك.

قال: فقد نجحوا في هذا أيضا.

قلت: فاضرب لي مثلا آخر.

قال: ألم تر الجميع من الأصدقاء والأتباع يمتثلون إعجابا بحرية الفكر التي أتاحتها الإسلام، فاجتذب

أصحاب العقول والأذواق.. واجتمع في حبه الأدباء والشعراء والفلاسفة والعلماء وأهل الدين وأهل الدنيا؟

قلت: بلى.. قد سمعت الكثير ممن يذكر ذلك، ويفخر به على الكنيسة التي طوقت العقول بأغلالها.

قال: فقد انتدب بعض الحمقى ليحولوا من المسجد كنيسة لا ترسل المحبة.. بل ترسل الحرمان والتضليل

والتبديع والتكفير..

قلت: أعرف هذا.. وأتألم له.. فالحب الذي ربط قلوب الأمة أجيالا طويلة تحول إلى بغضاء.. والإسلام

الذي اتسع للجميع ضاق على أتباعه، فصار — في منطق هؤلاء — يرفض كل من لم يبلغ عقله وقلبه ومشاعره.

قال: فقد نجحوا في هذا أيضا.

قلت: فاضرب لي مثلا آخر.

قال: ألم تر إلى أولئك الأدباء الذين لهجوا بحب محمد ﷺ.. فراحوا يتغنون به آناء الليل وأطراف النهار..

وراح كل عندليب يغرد أشعارهم.. ويمأأ القلوب أشواقا تمحي كل ظلمة، وتنشر كل سعادة؟

قلت: بلى.. فقد مررنا على الأدباء، واستمتعنا بتلك المدائح العذبة.

قال: لكن هؤلاء حرموا الخلق من تلك المتعة، فراحوا يحكمون بالشرك على كل من مدح حبيبه.. بل

راحوا يفرضون على الشعراء أن يجذفوا كل استعارة وكناية وتشبيه ومحسنات بديعية.. وراحوا يكتمون على

أنفاس الحناجر الرقيقة الممتلئة أشواقا، فماذا جرى؟

قلت: لقد انصرف الناس عن البردة والهمزية وقصائد البرعي وشوقي والبارودي.

قال: ففي أي حفرة وقعوا؟



قلت: صاروا يلهثون وراء البوب والروك والراي والحجاز والأغاني العصرية الممتلئ بالرقص والمجون.  
قال: ونسوا حبيبهم ﷺ..  
قلت: للأسف لقد حصل كثير من ذلك.. فإن أولئك يفضلون الحجاز والروك على البردة والهمزية..  
فالأولى عندهم فسق والثانية كفر وشرك.  
قال: ألا ترى أنهم قد نجحوا في هذا أيضا.  
قلت: للأسف.. لقد نجحوا نجاحا دونه كل نجاح.. فاضرب لي مثلا آخر.  
قال: سأكتفي بهذه الأمثلة ليعلم قومك مقدار الغفلة التي حاقت بهم، فجعلتهم ينفذون مخططات  
حصوصهم من غير شعور.  
قلت: إنك لم تزدني إلا ألما.. فهل من مخرج مما نحن فيه؟  
قال: المخرج بأيديكم.. يمكنكم في أي لحظة أن تقفوا على أعتاب حبيبكم، وتقبلوا يديه وتعذروا له..  
وتعيشوا الإسلام الذي رباكم عليه.  
قلت: أي إسلام؟  
قال: إسلام السلام والمحبة والأشواق الرفيعة والحضارة الراقية والهمم العالية..  
قلت: فكيف نصل إلى هذا السلام؟  
قال: بالعودة إلى رسول السلام.. فقد شوهت صورته ورسالته.  
قلت: ومن أين نتعرف عليه؟  
قال: من القرآن والسنة والسيرة..  
قلت: نحن نقرأ كل ذلك.  
قال: وتسيئون فهم ما تقرأون.  
قلت: فما المخرج؟  
قال: تبحثون عن عرفوا رسول الله ﷺ.. وصاحبوه.. وامتألت قلوبهم بمحبتهم.. وامتألت حياتهم بسنته.  
قلت: فهل يمكن أن نجد هؤلاء؟  
قال: لقد من الله علي، فوجدت كثيرا من هؤلاء..  
قلت: فهل ستحدثني عنهم؟  
قال: أجل.. سأحدثك عنهم في الرحلات الثلاث التالية.. فلم تكن الرحلات التي ذكرتها إلا فراشا  
أوصلنا لعتبات الحبيب.  
قلت: ثلاث رحلات<sup>1</sup>..  
قال: ثلاث رحلات إلى النبي ﷺ  
قلت: فما الأولى؟

(١) الأجزاء الثلاث التالية لهذه الرسالة تحاول التعرف بقدر الإمكان على النبي ﷺ من خلال المصادر الأصلية.

قال: إلى النبي المعصوم.

قلت: والثانية؟

قال: إلى النبي الإنسان.

قلت: والثالثة؟

قال: إلى النبي المهادي.

# الفهرس

المقدمة	٥
أولا — العامة	١٤
الفتى عماد:	٢٠
الفتاة سناء:	٢٥
سوسن هندي:	٢٩
إيفا ماريا:	٣٠
كايسي ستارك:	٣١
ايريس صفوت:	٣٦
ليلى أوغان رمزي:	٣٧
إحسان جيم تشوا:	٣٨
عبدالرحمن محمود داود:	٤٢
ثانيا — الخاصة	٤٤
اللورد جلال الدين برانتون:	٤٩
الدكتور روبرت كرين:	٥١
ديفد كيربا:	٥٤
مستر وليم:	٥٤
د.مراد هوفمان:	٥٧
مالكولم إكس:	٦٧
اللورد هدلي:	٦٨
اللاادي ايفلين كوبولد:	٧٠
ثالثا — الأدباء	٧٧
١ — شعراء من الصحابة:	٧٨
عبد الله بن رواحة:	٧٨
حسان بن ثابت:	٧٩
كعب بن زهير:	٨٣

- ٢ — شعراء البردة: ..... ٨٤
- البوصري: ..... ٨٥
- ابن جابر الأندلسي: ..... ٩٧
- صفي الدين الحلبي: ..... ١٠٢
- محمود سامي البارودي: ..... ١٠٧
- أحمد شوقي: ..... ١٢٠
- السيد عبدالله بن أحمد الهدار الحضرمي: ..... ١٢٧
- يحيى توفيق: ..... ١٣٣
- ٣ — شعراء مسيحيون: ..... ١٣٤
- وصفي قرنفلي: ..... ١٣٥
- جورج صيدح: ..... ١٣٥
- جورج سلسي: ..... ١٣٦
- محبوب الخوري الشرتوني: ..... ١٣٧
- الشاعر القروي: ..... ١٣٧
- خليل مطران: ..... ١٣٧
- مارون عبود: ..... ١٣٨
- إلياس فرحات: ..... ١٣٨
- عبد الله بوركي حلاق: ..... ١٣٩
- جاك صبري شماس: ..... ١٣٩
- إلياس قنصل: ..... ١٣٩
- شيلي الملاط: ..... ١٤٠
- ٤ — أدباء أسلموا: ..... ١٤٠
- ويليام بيكارد: ..... ١٤٠
- فانسان مونتييه: ..... ١٤٢

#### ١٤٥ ..... رابعا — الفنانون

- الفونس إيتان دينيه: ..... ١٤٥
- كات ستيفنس: ..... ١٥٠
- ويل سميث: ..... ١٥٤
- جينو لو كابوتو: ..... ١٥٥
- جيرمان جاكسون: ..... ١٥٥
- براين هوايت: ..... ١٥٦

١٥٧ ..... كريستيان باكر:

## ١٥٩ ..... خامسا — العلماء

١٦٠ ..... موريس بوكاي:

١٦٤ ..... كيث مور:

١٦٩ ..... تيجانات تاجسن:

١٧٠ ..... ألفريد كرونير:

١٧٢ ..... علي سليمان:

١٧٣ ..... مارشال جونسون:

١٧٥ ..... يوشيو دي كوزان:

١٧٦ ..... جولي سمسون:

١٧٧ ..... البروفيسور هاي:

١٧٨ ..... البروفيسور فان برسود:

١٧٩ ..... البروفيسور بالمار:

١٨١ ..... البروفيسور سياويدا:

١٨٢ ..... البروفيسور آرمسترونج:

١٨٤ ..... البروفيسور ج. س. جورججر:

١٨٥ ..... البروفيسور درجا برساد راو:

١٨٧ ..... البروفيسور شرويدلر:

١٨٧ ..... آرثر أليسون:

١٨٩ ..... جفري لانج:

١٩٣ ..... محمد أكويا:

١٩٥ ..... آلا أولينيكوفا:

١٩٦ ..... صوفي بوافير:

١٩٧ ..... اسبر ابراهيم شاهين:

١٩٩ ..... موري ديفيد كيل:

٢٠٠ ..... أحمد نسيم سوسه:

## ٢٠٧ ..... سادسا — الأولياء

٢٠٧ ..... الخية:

٢١٧ ..... التعظيم:

٢٢٤ ..... الإلتزاء:

الألم: ..... ٢٣٢

## سابعاً — الأحبار ..... ٢٣٦

١ — أحبار من عصر النبوة: ..... ٢٣٦

سلمان الفارسي: ..... ٢٣٦

عبد الله بن سلام: ..... ٢٣٩

٢ — أحبار من عصرنا: ..... ٢٤٠

القس إسحق هلال مسيحه: ..... ٢٤٠

إبراهيم خليل فلوبوس: ..... ٢٤٤

يوسف استس: ..... ٢٤٩

الدكتور وديع أحمد: ..... ٢٥٦

أبو بكر موايبيو: ..... ٢٦٠

الراهب ماركو كوريس: ..... ٢٦٤

الدكتور جاري ميلر: ..... ٢٦٦

فوزي صبحي سمعان: ..... ٢٨٠

رحمة بورنومو: ..... ٢٨٢

عزت اسحاق معوض: ..... ٢٨٨

القس عيسى بياجو: ..... ٢٩٠

ماري واتسون: ..... ٢٩٣

كرست راجا: ..... ٢٩٦

سيف الإسلام النهامي: ..... ٢٩٨

جي ميشيل: ..... ٣٠٠

آرثر ميلاستنوس: ..... ٣٠٢

عبدالأحد داود: ..... ٣٠٢

محمد فؤاد الهاشمي: ..... ٣٠٤

فردريك دولامارك: ..... ٣٠٤

مصطفى مولاني: ..... ٣٠٥

أشوك كولن يانج: ..... ٣٠٨

ثاني أكبر قسيس في غانا: ..... ٣١٢

## ثامناً — المفكرون ..... ٣١٦

عبدالكريم جرمانبوس: ..... ٣١٧

- ٣١٩ ..... مارتن لنجز: .....
- ٣٢٠ ..... الدكتور حامد ماركوس: .....
- ٣٢١ ..... روجيه دوباكبيه: .....
- ٣٢٤ ..... الكولونيل دونالدس روكويل: .....
- ٣٢٥ ..... رينيه جينو: .....
- ٣٢٦ ..... حمزة يوسف: .....
- ٣٢٨ ..... جان مونرو: .....
- ٣٣٠ ..... ميغيل بيرو: .....
- ٣٣١ ..... فيلي بوتولو: .....
- ٣٣٢ ..... عبد الله كويليام: .....
- ٣٣٧ ..... مارك شليفير: .....
- ٣٣٨ ..... ليوبولد فايس: .....
- ٣٤٩ ..... روجيه جارودي: .....
- ٣٥٣ ..... بربارا براون: .....
- ٣٥٥ ..... ماريا ألسترا: .....
- ٣٥٥ ..... ماجريت ماركوس: .....
- ٣٥٦ ..... روبرت بيرجوزيف: .....

## ٣٥٩ ..... تاسعا — الأصدقاء

### ٣٦٣ ..... ١ — أصدقاء من العرب

- ٣٦٣ ..... د. فيليب حني: .....
- ٣٦٨ ..... د. جورج حنا: .....
- ٣٧١ ..... نصري سلهب: .....
- ٣٧٥ ..... نظمي لوقا: .....

### ٣٨٠ ..... ٢ — أصدقاء من فرنسا

- ٣٨٠ ..... كوستاف لويون: .....
- ٣٨٦ ..... مارسيل بوازار: .....
- ٣٩٢ ..... ريجيس بلاشير: .....
- ٣٩٤ ..... إميل درمنغم: .....
- ٣٩٩ ..... الكونت هنري دي كاستري: .....

٤٠٦	جاك. س. ريسلر:
٤١١	لويس سيديو:
٤١٦	هنري سيرويا:
٤١٨	إدوار بروي:
٤٢١	كلود كاهن:
٤٢٦	مكسيم رودنسن:
٤٢٨	هنري ماسيه:
٤٢٨	الدو ميللي:
٤٣١	ليفي بروفنسال:
٤٣٤	روبرت برنشفك:
٤٣٥	البروفيسور فورغ:
٤٣٥	البارون كارادي فو:
٤٣٦	هيلين كارير دانكوس:
٤٣٨	جورج مارسيه:
٤٣٩	فولتير:
٤٣٩	لامارتين:
٤٤٠	أناتول فرانس:

### ٣ — أصدقاء من الإنجليز ٤٤١

٤٤١	سير توماس أرنولد:
٤٤٦	سير هاملتون جب:
٤٥٢	برنارد لويس:
٤٥٥	روم لاندو:
٤٦١	آرنولد تويبي:
٤٦٧	توماس كارلايل:
٤٧١	لايتنر:
٤٧٤	هربرت جورج ولز:
٤٧٨	د. لويس يونغ:
٤٨٠	مونتجومري وات:
٤٨٤	ج. ن. د. اندرسن:
٤٨٥	ريشار وود:
٤٨٦	آرثر ستانلي تريتون:



- ٤٨٧ ..... سرارنست باركر:
- ٤٨٨ ..... ستانلي لين - بول:
- ٤٨٩ ..... إدوارد كيبون:
- ٤٩٠ ..... برنارد شو:

#### ٤ - أصدقاء من أمريكا ..... ٤٩١

- ٤٩١ ..... ول ديورانت:
- ٤٩٦ ..... واشنجتون إيرفينج:
- ٤٩٧ ..... لوثر روب ستودارد:
- ٥٠٣ ..... هارولد ب. سمث:
- ٥٠٥ ..... سدي فيشر:
- ٥٠٦ ..... مايكل هارت:
- ٥٠٧ ..... جورج كمبل:
- ٥٠٧ ..... د. ميلر بروز:
- ٥٠٨ ..... فرانز روزنتال:
- ٥١٠ ..... مارتن بلسنر:

#### ٥ - أصدقاء من ألمانيا ..... ٥١٢

- ٥١٢ ..... زيغريد هونكه:
- ٥١٧ ..... إلس ليختنستادتتر:
- ٥١٨ ..... آدم متز:
- ٥٢٠ ..... د. ج. كامبفماير:
- ٥٢١ ..... رودي بارت:
- ٥٢٢ ..... ج. ك. بيرغ:
- ٥٢٣ ..... جوزيف شاحت:
- ٥٢٥ ..... ادوين كالفولي:
- ٥٢٦ ..... كويلر يونغ:
- ٥٢٨ ..... بارتولد شبولر:
- ٥٢٩ ..... ارنست بانرث:
- ٥٣٠ ..... ماكس مايروهوف:
- ٥٣١ ..... كولد تسيهير:

٦ — أصدقاء من دول شتى ..... ٥٣٥

١ — إسبانيا: ..... ٥٣٥

جون براند ترند: ..... ٥٣٥

جوان فيرنيه: ..... ٥٣٧

٢ — إيطاليا: ..... ٥٣٧

لورا فيشيا فاغليري: ..... ٥٣٨

دافيد دي سانتيلانا: ..... ٥٤٥

فرانثيسكو كابريلي: ..... ٥٤٧

٣ — بلجيكا: ..... ٥٤٨

جورج سارتون: ..... ٥٤٨

٤ — النمسا: ..... ٥٥٣

الكاردينال كوينج: ..... ٥٥٣

كوستاف فون كرونباوم: ..... ٥٥٤

٥ — بولونيا ..... ٥٥٥

يوجينا غيانة ستشيحفسكا: ..... ٥٥٥

٦ — كندا: ..... ٥٥٧

ولفريد كانتويل سميث: ..... ٥٥٧

٧ — الهند: ..... ٥٥٨

جوار لال نهر: ..... ٥٥٨

٨ — هولندا: ..... ٥٦١

جي. م. ج. كرامرز: ..... ٥٦١

٩ — روسيا: ..... ٥٦٢

ف بارتولد: ..... ٥٦٢

١٠ — سويسرا: ..... ٥٦٣

مونتته: ..... ٥٦٣

عاشرا — الأعداء ..... ٥٦٥

الخاتمة ..... ٥٧٥

الفهرس ..... ٥٨٠



## هذه السلسلة

هذه السلسلة مدرسة متكاملة في براهين النبوة ودلائلها، وفي الحوار الإسلامي المسيحي، وفي رد الشبهات التي ييئها المبشرون والمستشرقون والمستغربون.

وهي تعتمد الحوار العقلي، وتخطب المخالف باللغة التي يفهمها، وتنطلق من المصادر التي يرجع إليها. وقد صيغت بشكل روائي مبسط مليء بالأحداث المشوقة، لتجعل من كل مسلم داعية إلى الله، وحميما يحمي حمى رسوله، ومناظرا ينتصر به الحق، وينهزم به الباطل، وتدفع به الشبهات.. وهذه أجزاءها:

١. أنبياء يبشرون بمحمد ٢. الكلمات المقدسة ٣. معجزات علمية

٤. معجزات حسية ٥. ثمار من شجرة ٦. قلوب مع محمد

النبوة

٧. النبي المعصوم ٨. النبي الإنسان ٩. النبي الهادي

١٠. سلام للعالمين ١١. عدالة للعالمين ١٢. رحمة للعالمين

١٣. الله جل جلاله ١٤. الإنسان ١٥. الحياة